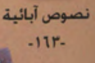
مؤسسة القديس أنطونيوس
كز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية





نصوص آبائية
-١٦٣-



كتاب:

الكنوز في الثالوث

القديس كيرلس الأسكندري

مؤسسة القديس أنطونيوس
المـركز الأرثوذكسي
للدراسات الآبائية بالقاهرة
نصوص آبائية
-١٦٣-

الكنوز
في الثَّالوث القدُّوس والمساوي

للقديس
كيرلس الأسكندري
البطريرك الرابع والعشرون

مقدمة وترجمة وتعليقات
دكتور جورج عوض إبراهيم

مراجعة
د. جوزيف موريس فلتس

اسم الكتاب : الكنوز في الثَّالوث القدُّوس والمساوي

اسم المؤلف : للقديس كيرلس الأسكندري

اسم المترجم : د. جورج عوض إبراهيم

الطبعة الأولى : يوليو ٢٠١١م

تصميم الغلاف : جي سي سنتر - ١٤ ش محمود حافظ - مصر الجديدة
ت: ٢٦٣٣٨١٣٧

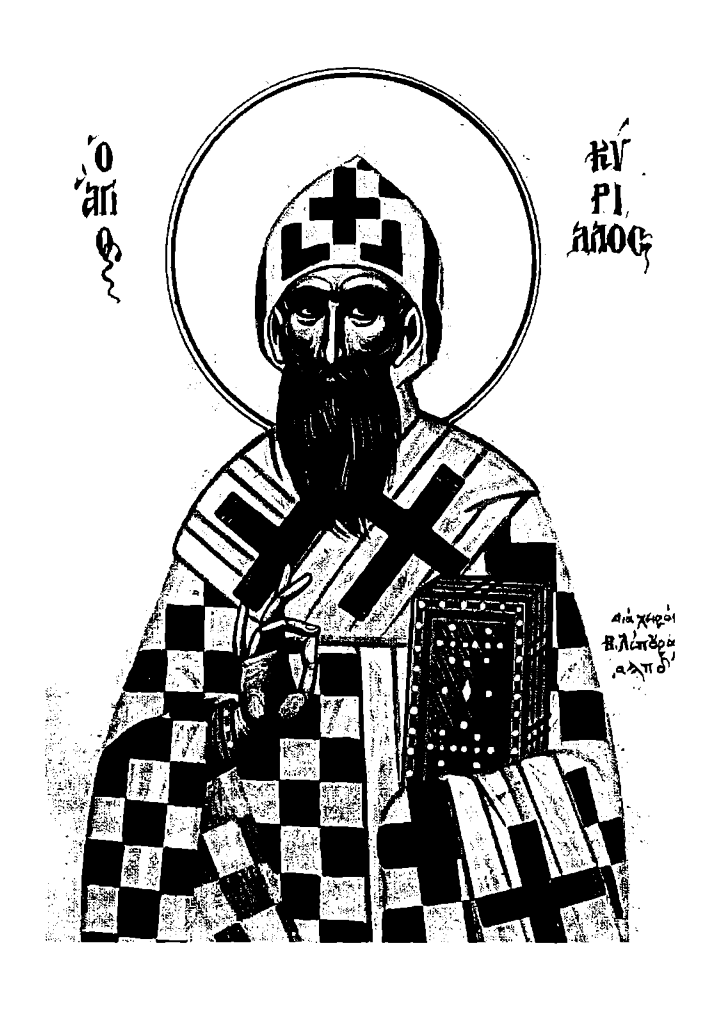
اسم الناشر : مؤسسة القديس أنطونيوس - المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية
٨ (ب) ش إسماعيل الفلكي محطة المحكمة - مصر الجديدة.
ت: ٢٢٤١٤٠٢٣

E-mail : opcc2007@yahoo.com
Website : www.patristiccairo.com

اسم المطبعة : جي سي سنتر ، ١٤ ش محمود حافظ - سفير - مصر
الجديدة - ت : ٢٦٣٣٨١٣٧

رقم الإيداع : ١٣٤١٥ / ٢٠١١

الترقيم الدولي : 978-977-487-012-5



القديس كيرلس الأسكندري



قداسة البابا شنودة الثالث

بابا الأسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

فهرس المحتويات

مقدمة الناشر

يسر المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية بمؤسسة القديس أنطونيوس أن يقـــدم لأبناء كنيستنا الأرثوذكسية المحبوبين, تعليم القديس كيرلس عمود الدين عـــن الثـــالوث القدوس في كتابه "الكتر أو الكنوز في الثالوث القدوس والمساوي" الذي كتبه قبل صـــراعه مع نسطور. وهذا العمل يحتوي علي ٣٥ مقالة: يتناول فيها الحديث عن الآب في المقالات (١-٣) ويتحدث عن الإبن في المقالات من (٤ــ٣٢), أما المقالتين (٣٣-٣٤) فقد تحدث فيهما عن الروح القدس, والمقالة ٣٥ ذكر فيها شواهد كتابية تثبت أن الإبن هو مولود من الآب وليس هو مخلوق. الكتاب موجود في PG75,9-656 وفي مجلدين في سلسلة آبـــاء الكنيسة اليونانيين إصدار ΕΠΕ6,9-507, ΕΠΕ7,8-540 , τό Βνζαντιόν قام بالترجمة عن اليونانية د. جورج عوض إبراهيم وقام بالمراجعة د. جوزيـــف مـــوريس فلتس. نتوسل إلي مخلصنا الرب يسوع المسيح أن يهبنا فهمًا وإدراكًا لنتمتع بشركة الثالوث القدوس بصلوات العذراء القديسة والدة الإله وصلوات الرسل الأطهار والقديس كيرلـــس وجميع الآباء القديسيين, وصلوات قداسة البابا الأنبا شنودة الثالث, ولإلهنا الثالوث القدوس الآب والإبن والروح القدس كل تمجيد وتسبيح وسجود الآن وإلي الأبد آمين.

بدء صوم العذراء مريم

٢٠١١/٨/٧م

١مسري ١٧٢٧ش

المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية

بالقاهرة

مقدمة[1]

"لمحة سريعة عن حياة القديس كيرلس الأسكندري وأعماله"

وُلِدَ القديس كيرلس على الأرجح حوالي سنة ٣٧٥م بالإسكندرية. وهو ابن أخت البابا ثاؤفيلس بطريرك الإسكندرية الـ ٢٣. تربى القديس كيرلس في الإسكندرية برعاية البطريرك ثاؤفيلس، وواظب على حضور اجتماعات الكنيسة اليومية حيث كان الكهنة والشمامسة يعلّمون الشعب أصول الإيمان. قضى ق. كيرلس حوالي خمس سنوات في برية شيهيت (٣٩٤ - ٣٩٩). وكان عمره حين ذهب للبرية حوالي عشرين سنة، وهناك قرأ العهدين القديم والجديد على يدي خليفة القديس مقاريوس الكبير الأب سرابيون. كان ق. كيرلس يحفظ النص بمجرد قراءته مرة واحدة. وكان يقضي الليل ساهراً يحفظ الكتب المقدسة لكي يسمِّع في الصباح ما حفظه أمام أبيه الروحي. وحضر كيرلس دروس المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية على يدي ديديموس الضرير. ثم استدعاه خاله البطريرك ثاؤفيلس ليكون شماساً معه في الإسكندرية ورسمه قارئاً وطلب منه أن يشرح الكتب المقدسة للشعب. وفي سنة ٤٠٤م رُسم كيرلس قساً بكنيسة الإسكندرية وانطلق يعظ ويعلم الشعب ويفسر الكتب المقدسة، ويوضح من خلالها تعليم الإيمان الصحيح، وبدأت تظهر في تلك الفترة موهبته التعليمية وشخصيته الروحانية.

درس القديس كيرلس مؤلفات آباء الإسكندرية مثل العلامة أوريجينوس، و ق. أثناسيوس، والعلامة ديديموس الضرير. كما أطلع أيضاً على مؤلفات القديسين باسيليوس القيصري وغريغوريوس النيزينزي .كما درس القديس كيرلس اللغات القديمة الشائعة في أيامه وهي العبرية والسريانية، ولكنه كتب باليونانية وربما القليل بالقبطية.

عندما خلا الكرسي البطريركي بنياحة الأنبا ثاؤفيلس في ١٥ أكتوبر سنة ٤١٢م اتجهت أنظار الجميع إلى القديس كيرلس ابن شقيقته. وعبثاً حاول الوالي ابوداكس أن يثني

---

(١) أنظر للمزيد مذكرة الدكتور نصحي عبد الشهيد في الكورسات الآبائية بخصوص القديس كيرلس عمود الدين – حياته وتعليمه، وهذه الفقرة مأخوذة بتصرف من هذه المذكرة.

الشعب عن انتخابه، وعبثاً هددهم فلم يخضعوا و لم يرهبوا إذ كانوا متيقنين أن كيرلس هو الشخص الوحيد الذي يصلح لرعاية كنيسة الإسكندرية بعد البطريرك ثاؤفيلس. فتم انتخابه وقام الأساقفة برسامته أسقفاً للإسكندرية وبطريركاً لكرازة مار مرقس رقم ٢٤ في نفس السنة وله من العمر حوالي ٣٨ سنة.

واصل البطريرك كيرلس جهاده في تعليم المؤمنين بالوعظ وتفسير الكتب المقدسة، وتعليمهم أصول الإيمان المستقيم، وكان ينبه الشعب لكي يحذروا من تأثير الكتابات الوثنية التي لم تكن بقاياها قد تلاشت تماماً بعد. وربما بسبب كفاحه الصلب ضد بقايا الوثنية، نسب إليه بعض المؤرخين ظلماً بعض المسئولية عن مقتل الفيلسوفة الوثنية الشهيرة هيباشيا في الإسكندرية في عصره سنة ٤١٥م ولكن لا يوجد أي دليل على مسئولية القديس كيرلس عن هذه الجريمة. وابتداء من ٤٢٨م بدأ القديس كيرلس يظهر كعلامة بارزة وعامل حاسم في تاريخ العقيدة الأرثوذكسية وتاريخ العلاقات الكنسية، وذلك بظهور هرطقة نسطوريوس بطريرك القسطنطينية، إذ قام القديس كيرلس بدور المدافع الأول عن الأرثوذكسية ضد البدعة النسطورية.

كان نسطوريوس يؤكد في عظاته بكنيسة القسطنطينية أنه يوجد شخصان في المسيح، شخصٌ إلهي هو اللوغوس **الكلمة**، الذي يسكن في شخص إنسان هو الإنسان يسوع، وأن العذراء القديسة مريم لا يمكن أن تدعى "والدة الإله ثيئوطوكوس *Theotokos*". وقد رد القديس كيرلس على تعاليم نسطوريوس هذه ابتداء من ربيع عام ٤٢٩م في رسالته الفصحية لتلك السنة، وحدثت مراسلات بين البطريرك كيرلس والبطريرك نسطوريوس منذ ذلك الحين، انتهت بانعقاد مجمع أفسس المسكوني الثالث سنة ٤٣١م الذي دعا إليه الإمبراطور ثاؤدوسيوس الصغير. وحكم المجمع بعزل نسطوريوس وحرمه لانحراف إيمانه وإصراره على أفكاره غير المستقيمة. وثبَّت المجمع المسكوني حروم القديس كيرلس الأثنى عشر. وحكم على تعاليم نسطوريوس بالضلال. وأيَّد استعمال لقب "ثيئوطوكوس (أي) والدة الإله" للعذراء مريم. وهذا اللقب كان استخداماً قديماً سابقاً على

ظهور البدعة النسطورية بكثير. وقد تعرض القديس كيرلس للسجن لعدة شهور أثناء فترة وجوده في أفسس بسبب دفاعه عن الإيمان. وعند عودته إلى الإسكندرية في ٣٠ أكتوبر سنة ٤٣١م، استُقبل في الإسكندرية استقبال الأبطال، إذ نظر إليه المؤمنون على أنه أثناسيوس جديد، وهكذا لقبه الأقباط بلقب "عمود الدين". وبعد كفاح طويل وصمود شامخ في الدفاع عن الإيمان، رقد القديس كيرلس في الرب في يوم ٣ أبيب سنة ١٦٠ ش الموافق ١٠ يوليو ٤٤٤م.

كتابات القديس كيرلس

القديس كيرلس هو واحد من أعظم رموز الفكر المسيحي في القرون الأولى. فكتاباته تملأ عشرة مجلدات ضخمة من مجموعة *Migne* اليونانية: مجلدات من ٦٨ إلى ٧٧ *PG*. وتتميز كتابات القديس كيرلس بالعمق وثراء الأفكار، والدقة والوضوح في النقاش مما يثبت موهبته التأملية والجدلية، ومما يجعل من كتاباته مصادر من الدرجة الأولى في الأهمية لتاريخ العقيدة والتعليم الإيماني. ودرج علماء الآباء على تقسيم كتابات القديس كيرلس إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: تنتهي بظهور البدعة النسطورية سنة ٤٢٨م، وهذه المرحلة كانت مكرسة لتفسير أسفار الكتاب المقدس بعهديه، والدفاع عن الإيمان ضد البدعة الأريوسية.

المرحلة الثانية: تبدأ من سنة ٤٢٨م بظهور البدعة النسطورية وتنتهي بنياحة القديس كيرلس، ومعظم كتابات هذه المرحلة مكرسة للدفاع عن التعليم الصحيح في التجسد، ضد البدعة النسطورية.

أ- الكتابات التفسيرية:

لأسفار العهدين القديم والجديد، وتشكل الجزء الأكبر من إنتاجه اللاهوتي، إذ تشغل ٧ مجلدات من مجموعة ميني، وهي المجلدات من ٦٨ - ٧٤ من بترولوجيا جريكا. تشغل شروحاته على أسفار العهد القديم خمسة مجلدات منها (من ٦٨ - ٧٢) بينما تشغل

شروحه للعهد الجديد مجلدي ٧٣، ٧٤ من مجموعة ميني وشذرات في مجلد ٧٢، وجزء صغير من مجلد ٧٧.

١- تفاسيره للعهد القديم

أ- السجود والعبادة بالروح والحق

يقع في ١٧ مقالة وتشكل مجلد ٦٨ كله من مجموعة *Migne* اليونانية. وهو على شكل حوار بين كيرلس وبلاديوس عن تفسير مقاطع منتخبة من الأسفار الخمسة (من تكوين - تثنية)، يبيِّن فيه أن الناموس أُبطل حرفياً، ولكنه باق روحياً. وأن فرائض العهد القديم هي رموز مسبقة للعبادة بالروح. (ترجمه المركز في ٨ أجزاء).

ب- جلافيرا (Glaphyra)

١٣ مقالة من "تفسيرات لامعة" وهذا هو معنى العنوان وتعتبر مكملة "للعبادة بالروح والحق". وهو أيضاً تفسير مقاطع مختارة من الأسفار الخمسة الأولى ولكن ليس على شكل حوار كالكتاب الأول. ٧ مقالات مخصصة لسفر التكوين، و٣ للخروج، ومقالة واحدة لكل من اللاويين والعدد والتثنية (ويشمل حوالي نصف مجلد ٦٩ من *Migne*). ويجري نشر حلقات منه في الكتاب الشهري للشباب والخدام الذي يصدره بيت التكريس لخدمة الكرازة.

جـ- تفسير أشعياء

مكون من ٥ كتب يفسِّر فيها جميع إصحاحات سفر أشعياء. ويشمل المجلد رقم ٧٠ من مجموعة *Migne*. وجاري ترجمة هذا السفر في المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية.

د- تفسير الأنبياء الإثنى عشر الصغار

يحوى ١٢ جزءاً لكل سفر من الأنبياء الصغار. (ويشغل مجلد ٧١ كله، وحوالي ثلث مجلد ٧٢ من *Migne*). وقد نشر المركز تفسير القديس كيرلس لسفر يونان في يناير ٢٠١١ وجاري ترجمة بقية أسفار الأنبياء الصغار.

+ وإضافة إلى هذه التفاسير الكبيرة للعهد القديم وصلتنا شذرات من تفاسير أخرى في سلاسل التفسير الـ *Catenae*، بعضٌ منها كبير جداً؛ وهى شذرات من أسفار الملوك، والمزامير، بعض الأناشيد، والأمثال، نشيد الأنشاد، أرميا، حزقيال، دانيال. ويوجد مخطوط بالأرمينية بمكتبة *Bodleian* (أكسفورد) يحوى شذرات من تفسير حزقيال منسوب لكيرلس، وبعضها مماثل لما نشره *Migne* باليونانية لتفسير حزقيال.

٢- تفاسيره للعهد الجديد

من أهم تفاسيره للعهد الجديد هو شرحه لإنجيل القديس يوحنا الذي يشغل مجلد ٧٣ كله ونصف مجلد ٧٤. أما تفسيره لإنجيل لوقا فلم يبق من الأصل اليوناني سوى ٣ عظات كاملة وبعض شذرات متفرقة. ولكن وصلتنا نسخة مترجمة للسريانية ترجع إلى القرن السادس الميلادي تحوي ١٥٦ عظة على إنجيل لوقا وهي التي ترجمها *Payne Smith* " باين سميث " إلى الإنجليزية ونشرها بأكسفورد سنة ١٨٥٩م (والتي نشر منها مركز دراسات الآباء، ٣ أجزاء من تفسير إنجيل لوقا للقديس كيرلس بالعربية في ١٩٩٠، وسنة ١٩٩٢، وسنة ١٩٩٦، والجزء الرابع صدر سنة ١٩٩٨، والجزء الخامس سنة ٢٠٠١. وقد صدر تفسير لوقا كاملاً في مجلد واحد في شهر سبتمبر سنة ٢٠٠٧. ويحوي مجلد ٧٤ عدة أجزاء من تفاسير مفقودة للقديس كيرلس على رسالة رومية وعلى رسالتي كورنثوس، وعلى الرسالة إلى العبرانيين وعلى إنجيل متى.

ب- كتاباته العقيدية – الدفاعية ضد الأريوسيين:

كتابان: ١- الكنز في الثالوث، وهذا الكتاب هو المنشور بالعربية في هذا المجلد.

٢- حوارات حول الثالوث، ويتكون من ٧ حوارات، وقد ترجم المركز ستة حوارات ونشرها في خمسة أجزاء.

وهذان الكتابان يشغلان معظم مجلد ٧٥.

ج – كتاباته العقيدية – الدفاعية ضد النسطورية:

وهي ثمانية كتب:

١- ضد تجاديف نسطوريوس.

٢- قاعدة الإيمان *De Recta Fide*

٣- الحروم الإثني عشر ضد نسطوريوس ترجمها نيافة الأنبا غريغوريوس في "مذكرة النسطورية"، ثم ترجمها ونشرها مركز دراسات الآباء سنة ١٩٨٨م ضمن الرسالة ١٧ وهى ترجمة جديدة للدكتور موريس تاوضروس والدكتور نصحي عبد الشهيد.

٤- الاحتجاج لدى الإمبراطور ثاؤدوسيوس الصغير.

٥- شرح تجسد الابن الوحيد (نُشِرَ باللغة العربية سنة ١٩٧٥م بالقاهرة).

٦- ضد من ينكرون أن العذراء مريم هي والدة الإله (نشره المركز باللغة العربية يونيو سنة ٢٠١١ بعنوان والدة الإله).

٧- ضد ديودوروس الطرسوسي وثيئودوروس أسقف المصيصة معلمي نسطوريوس.

٨- المسيح واحد: وهو حوار حول وحدة شخص المسيح. (نشره مركز دراسات الآباء بالعربية سنة ١٩٨٧م بالقاهرة).

وتشغل هذه الكتب جزءً من مجلد ٧٥ وجزءً من مجلد ٧٦.

د- الرد على كتب يوليانوس الجاحد ضد المسيحيين:

ويشغل جزءً من مجلد ٧٦ ويرجح أنه كُتب بين سنتي ٤٣٣و٤٤١م.

هـ- الرسائل الفصحية:

وعددها ٢٩ رسالة للسنوات من ٤١٤ إلى ٤٤٢ وتشغل جزءً كبيراً من مجلد ٧٧. نُشرت الرسالة الفصحية الأولى للقديس كيرلس سنة ٢٠٠٤ والرسالة الفصحية الثانية سنة ٢٠٠٨.

و- العظات:

لم يتبق من كل العظات التي ألقاها القديس كيرلس طوال سنين بطريركيته الطويلة (٤١٢ إلى ٤٤٤) سوى ٢٢ عظة، وقد وضعها الناشرون تحت عنوان "عظات متنوعة" للتمييز بينها وبين العظات الفصحية أو الرسائل الفصحية.

العظات الثمانية الأولى من هذه المجموعة ألقاها القديس كيرلس في صيف سنة ٤٣١م أثناء انعقاد مجمع أفسس المسكوني، العظة رقم ٤ هي العظة الشهيرة جداً عن والدة الإله التي ألقاها في كنيسة القديسة مريم بأفسس في ٢٣ يونيه ٤٣١م. وهذه العظات تشغل جزءً صغيراً من مجلد ٧٧.

ز- الرسائل:

عدد كبير من مراسلات القديس كيرلس لا تزال باقية، فقد نُشرت في مجلد رقم ٧٧ من مجموعة ميني *Migne* ١٠٥ رسالة؛ ٨٨ رسالة منها أرسلها القديس كيرلس و١٧ مرسلة إليه من آخرين. كما نشر شوارتز *E. Shwartz* خمس رسائل أخرى فتكون جملة الرسائل ١١٠ رسالة.

هذه الرسائل هامة جداً بالنسبة لتاريخ "الكنيسة والدولة"، وبالنسبة للتعليم الكنسي، والقانون الكنسي، وللعلاقات بين الشرق والغرب والتنافس القائم بين المدارس اللاهوتية والكراسي الأسقفية:

١- رسالة رقم ٥٥ تحوي شرحاً لقانون الإيمان. نشرها مركز دراسات الآباء سنة ١٩٨٤م.

٢- بينما هناك ٣ رسائل لها الأهمية الأولي في تاريخ العقيدة المسيحية وهي الرسالتان الثانية والثالثة إلى نسطوريوس (رقم ٤ ورقم ١٧) والرسالة إلى يوحنا الأنطاكي (رقم ٣٩). هذه الرسائل الثلاثة تسمي الرسائل المسكونية. رسالة رقم (٤) سُميت بالرسالة العقائدية. وقد اعتمدها مجمع أفسس بالإجماع في جلسته الأولى في ٢٢ يونيو ٤٣١م وشهد

لها الجميع بأنها تتفق تماماً مع قانون إيمان مجمع نيقية. ورسالة رقم (١٧) تحوي الحروم الإثني عشر وقد ضُمت إلى أعمال مجمع أفسس المسكوني، وقد اعتمدها مجمع خلقيدونية أيضاً فيما بعد سنة ٤٥١م.

أما الرسالة رقم ٣٩ والتي سميت "قانون إيمان أفسس"، فتحوي بيان الإيمان بخصوص طبيعة المسيح الذي على أساسه تم الاتحاد بين يوحنا الأنطاكي وكنيسة أنطاكية من جهة وبين القديس كيرلس وكنيسة الإسكندرية من جهة أخرى سنة ٤٣٣م بعد انشقاق استمر سنتين بعد مجمع أفسس المسكوني، ولذلك سميت "رسالة الاتحاد". وهذه الرسائل الثلاثة تُرجمت إلى العربية ونشرها مركز دراسات الآباء بالقاهرة سنة ١٩٨٨م في كتاب واحد. وطبعت طبعة ثانية سنة ٢٠٠١م.

٣- وفي ١٩٨٩م نشر مركز دراسات الآباء الجزء الثاني من رسائل القديس كيرلس السكندري من (١ - ٣٢). وفي سنة ١٩٩٥م نُشر الجزء الثالث (٣٢ -٥٠)، ونُشر الجزء الرابع (٥١ - إلخ) سنة ١٩٩٧م.

قبل صراعه مع نسطور كتب القديس كيرلس أعمال هامة ضد الهرطقات القديمة من ضمنها كتاب **"الكنز في الثالوث القدوس والمُساوي"**.

Θησαυρός περί ἁγίας καί ὁμοουσίου τρίαδος"

وفيما بعد صار عنوانه: الكنوز أو كتاب الكنوز، وهو موجود في PG 75, 9-656، وتمت الترجمة عن النص اليوناني الموجود في سلسلة آباء الكنيسة اليونانيين ΕΠΕ إصدار τό Βνζαντιόν في مجلدين ΕΠΕ6,9-507 و ΕΠΕ7,8-540.

وهذا العمل يحتوي على ٣٥ مقالة: يتناول فيها الحديث عن الآب في المقالات (١ - ٣) ويتحدث عن الابن في المقالات من (٤ - ٣٢)، والمقالتين من (٣٣ - ٣٤) قد

تحدث فيها عن الروح القدس، أما المقالة ٣٥ فقد خصصها لشواهد كتابية عن أن الإبن مولود من الآب وليس مخلوقًا[1].

أسلوب القديس كيرلس في هذه المقالات هو عرض رأي الهراطقة ثم يقوم بالرد مستخدماً إذا اقتضى الأمر مبررات منطقية وشواهد كثيرة من الكتاب المقدس ومن كتابات الآباء خاصةً كتابات القديس أثناسيوس ضد الأريوسيين وأعمال الآباء الكبادوك وآخرون. ويعتبر هذا الكتاب من أقوى الكتب التي كُتبت ضد الأريوسيين. والأغلب أن هذا العمل كتبه القديس كيرلس قبل عام٤٢٥م. والقديس كيرلس في شرحه لإنجيل يوحنا الذي كُتِب قبل عام ٤٢٩م قد ذكر في شرحه للإصحاح الأول، الفصل السابع، ما يلي: "أما عن أزلية **الكلمة** مع الآب، فقد ذكرت ما فيه الكفاية في هذا الكتاب، وفي الكتاب المعروف باسم "الكنز"، ولذلك أكتفي بما ذكرت...". شرح إنجيل يوحنا، الإصحاح الأول، الفصل السابع، ص ٨٨. وبناء على ذلك، فإن هذا العمل قد كتبه قبل ٤٢٥م وعلي الأغلب قبل حواره حول الثالوث الذي أرسله أيضاً لنفس الشخص الذي أرسل له كتاب الكنوز، الأخ نيميسينوس Νεμεσίνος ربما لأنه وجد هذا العمل صعباً في عرضه للمحتوى، فكتب عمله الثاني حول الثالوث في صورة حوار بينه وبين أرميا، فجاء في سبعة حوارات أكثر وضوحاً ورصانةً. وقد قام المركز الأرثوذكسي بترجمة هذا الحوار بواسطة الدكتور جوزيف موريس فلتس على أجزاء، وقد وصلنا إلى الجزء الخامس أي الحوار السادس، وجاري إصدار الحوار السابع.

الجدير بالذكر أنه توجد مخطوطة تحتوي على كتاب الكنوز تُدعى مخطوطة *Leningrad`s Manuscript 1141-3* في المركز الثقافي القبطي، وسوف نقارنها مع النص الذي ترجمناه من المجلدين اليونانيين الثامن والتاسع الصادرين عن ΕΠΕ وهذا يتطلب جهداً شاقاً ونصلي أن يعطينا الرب بركة إتمامه في كتاب منفصل بنعمة المسيح.

[1] Στυλιανός Γ. Παπαδόπουλος, ο ΑΓΙΟΣ ΚΥΡΙΛΛΟΣ ΑΛΞΑΝΔΡΕΙΑΣ, Βιος, Θεολογία, Χριστολογία, Ἑρμηνευτική, Αποστολική Διακονία, Ἐκδοση Α. 2004, σελ. 48.

مقدمة دراسية للنص

الأُسس اللاهوتية للتعليم عن الابن والروح القدس عند القديس كيرلس السكندري في كتابه الكنوز في الثالوث

في هذه المقدمة سوف نقوم بمناقشة الأُسس اللاهوتية الخاصة بالتعليم عن الابن والروح القدس،كما تسلمته الكنيسة من الرسل، وعبَّر عنه القديس كيرلس عمود الدين البطريرك الرابع والعشرون في كتابه الكنوز في الثالوث القدوس والمساوي(١)، وذلك من خلال تقسيم هذه الأسس إلى **ثلاثة أقسام**. نتناول في **القسم الأول** منها التعليم عن الثالوث بوجه عام، وفي **القسم الثاني** نتناول التعليم عن الابن، وفي **القسم الثالث** نعرض للتعليم عن الروح القدس، وذلك من خلال مجموعة من العناصر في كل قسم تسمح بالعرض الواضح لهذا التعليم(٢)، وذلك على الوجه الآتي:

(١) نلفت نظر القارئ العزيز إلى أننا قمنا بترقيم فقرات مقالات الكتاب – علماً بأن هذا الترقيم غير موجود في الأصل - وذلك لتسهيل عملية الرجوع لأي نص في هذه المقالات. وقد استخدمنا هذا الترقيم كمثال على ذلك في هذه المقدمة الدراسية، فأشرنا إلى رقم المقالة أولاً، ومن ثمَّ رقم الفقرة، وذلك على النحو التالي: (الكنوز ١٠: ٣) يعني المقالة العاشرة والفقرة ٣، وهكذا.

(2) أنظر (TO ΚΩΝΣΤΑΝΤΙΝΟΥ ΗΛ. ΔΙΑΚΟΥΡΑ, ΜΥΣΤΗΡΙΟΝ ΤΗΣ ΑΓΙΑΣ ΤΡΙΑΔΟΣ ΚΑΤΑ ΤΟΝ ΘΗΣΑΥΡΟΝ ΤΟΥ ΚΥΡΙΛΛΟΥ ΑΛΕΞΑΝΔΡΕΙΑΣ, Σπουδή στήν ἀντιαρειαωική τπιαδολογική διδασκαλία τοῦ κυρίλλου Ἀλεξανδρείας, ΑΘΗΝΑ 2005.

القسم الأول

التعليم عن الثالوث بوجه عام

نعرض للتعليم العام عن الثالوث من خلال العناصر الآتية:

١- الآب بداءة ἀρχή وعِلة αἰτία الوجود الأقنومي للابن والروح القدس.

٢- الاحتواء المتبادل Ἡ ἀλληλοπεριχώρηση لأقانيم الثالوث بغير امتزاج أو اختلاط.

٣- خواص طبيعة الثالوث وتمايزها عن الجوهر الإلهي.

٤- التمييز بين ما يخص الأقانيم الثلاث وما يخص الطبيعة الإلهية.

٥- مفهوم أسماء الأقانيم ودلالاتها:

أ- الأسماء الإلهية كدلالة وإعلان δηλωτικά لخواص طبيعة الله الثالوث، وليس لجوهره.

ب- أسماء أقانيم الثالوث كدلالة وإعلان للعلاقة الوجودية لهم.

جـ- المفهوم الحقيقي لمصطلح "غير الصائر ἀγένητος".

٦- إمكانية معرفة الله الثالوث:

أ- عدم إمكانية إدراك الثالوث بحسب جوهره.

ب- إمكانية إدراك الثالوث بحسب أفعاله.

أولاً

الآب بداءة ἀρχή وعِلة αἰτία الوجود الأقنومي للابن والروح القدس

الرأي العقيدي بخصوص اعتبار الآب بداءة اللابداءة «ἀνάρχου ἀρχῆς» للابن والروح القدس يمثل واحداً من التعاليم الأساسية عن الثالوث عند القديس كيرلس الأسكندري في شرحه للعلاقة الأزلية بين الآب والابن والروح القدس. وقد شرح هذا التعليم رداً على موقف الأريوسيين الرافض لأزلية الابن والروح القدس؛ لأنهم يعتبرون الابن أخاً للآب، وكذلك أيضاً الروح القدس، إذ يقولون: "إن لم يكن هناك زمن لم يكن فيه الابن موجوداً، بل هو أبدي وكائن مع الآب، عندئذٍ عليكم أن لا تدعوه ابناً، بل أخاً (للآب)"[١] (الكنوز ٤: ٩). ويرد القديس كيرلس عليهم مؤكداً أن الآب والابن ليسا من بدايةٍ كانت موجودةً من قبل حتى نعتبرهما أخَّين، فيقول: "الآب والابن لم يُولدا من بدايةٍ كانت توجد من قبل حتى يمكن أن نعتبرهما أخَّين. لكن بداية الابن هو الآب[٢] الذي وَلَدَ

(١) يفند القديس أثناسيوس هذا الرأي قائلاً: "فالآب والابن لم يولدا من أصل سابق عليهما في الوجود، حتى يمكن اعتبارهما أخوين، ولكن الآب هو أصل الابن، وهو والده والآب هو آب، وهو لم يكن ابناً لأحد، والابن هو ابن وليس بأخٍ". المقالة الأولي ضد الأريوسيين، عربها عن اليونانية أ. صموئيل كامل عبد السيد ود. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية طبعة ثالثة سنة ٢٠٠٢م، المقالة الأولى ص٥٨.

(٢) حقيقةُ أن الآب هو بدء الابن يقولها بكل وضوح القديس كيرلس في شرحه لإنجيل يوحنا موضحاً أن **الكلمة** دُعي الابن لأنه مولود من البدء، ولا ذِكر لكلمة أخ، إذ يقول: "وكما أن هذه الأشياء (الشمس - الشعاع، النار - الحرارة) التي تصدر بعضها عن البعض تجعل وجودها معاً أمراً ضرورياً لا انفصال فيه بل تظّل دائماً بمصدرها وتحتفظ بطبيعة المصدر، هكذا الأمر مع الآب والابن. لأننا نعتقد ونقول إنه في الآب ومن الآب. وهذا يعني أنه ليس كائناً غريباً أو جاء في الترتيب بعد الآب، بل هو فيه ومعه دائماً. ويشرق منه دائماً حسب الميلاد الإلهي الأزليّ غير المُدرَك. ولذلك وصف القديسون الله الآب أنه هو "بدء" الابن، وكانوا يقصدون من ذلك أنه مع الآب". أنظر المجلد الأول، المرجع السابق، الإصحاح الأول ص ٤٤. والقديس غريغوريوس اللاهوتي يشرح هذا الأمر بكل وضوح، قائلاً: "فما لا مبدأ له أزلي. ولكن ما هو أزلي ليس بالضرورة بلا مبدأ، ما دام ذلك يتعلق بالآب الذي هو المبدأ. فليسا بلا مبدأ من حيث العلّة، ولكنه من الظاهر أن هذه العلة غير سابقة لِمَنْ كانا معلولين عنها كما لا تكون الشمس سابقة لنورها. فهما بغير مبدأ من حيث الزمن .... إذ لا يخضع للزمن مَنْ يصدر

الابن، ويظل آباً ولا يُقال إنه ابنٌ لأي أحد. والابن هو الابن، ويظل على ما هو عليه، ولا يُقال إنه أخٌ لأي أحد بحسب الطبيعة. وعلى ذلك، فأي موضع يمكن للأخوّة أن تأخذه بينهما؟" (الكنوز ٤: ١٢). وهناك اختلاف بين البداية الزمنية للمخلوقات، والآب الذي هو البداية الأزلية للابن.

ويقول القديس كيرلس: "بالنسبة للمخلوقات، البداية هي الزمن، بينما بالنسبة **لكلمة** الله، الكائن منذ الأزل، فإن البداية ἀρχή هي فقط أباه الأزلي الذي ليس له بداية، طالما أنه كائن معه أزلياً" (الكنوز ١٥: ٥٠).

والتعبير عن الآب بأنه بداية اللابداية للابن «ἀνάρχου ἀρχής» هو تعبير يصف العلاقة السببية الأزلية بين الآب والابن، أي العلاقة السببية التي توجد بين الآب كعِلةٍ أزليةٍ، والابن كنتيجة أزلية لهذه العِلة، وبذلك فهو يخص المفهوم اللاهوتي للولادة الأزلية للابن من الآب: "بالرغم من أن الابن يختلف عن أبيه، في أن الآب هو البداية بينما الابن يأتي من هذه البداية، إلاَّ أنه بالرغم من ذلك لم يتوقف عن أن يتطابق معه ويكون من نفس جوهره" (الكنوز ٩: ٢).

ويؤكد القديس كيرلس على أن الابن المتجسِّد يدعو الآب بأنه أعظم «μείζονα» على أساس أنه بلا بداية «ἄναρχον» أو أنه عِلةٌ لوجوده، وأن الآب ذاته هو بداية «ἀρχήν» لوجوده الأقنومي بحسب ولادته الأزلية منه: "الابن مساوٍ للآب من جهة الجوهر ومتماثلٌ معه في كل شيء، لكنه يقول عن الآب إنه أعظم لأنه اتخذ الآب الذي بلا بداية «ἄναρχον» بدايةً له، فقط بسبب أنه يأتي منه، بالرغم من أنه كائنٌ أزليٌ معه" (الكنوز ١١: ٤).

ونلاحظ أن ما قاله القديس كيرلس عن الابن، قاله أيضاً عن الروح القدس المنبثق من الآب، إذ يقول: "هكذا نعتبر أن **كلمة** الله قد خرج منه بحسب الطبيعة منسجماً ومزروعاً فيه، بينما الروح منبثقٌ بحسب الطبيعة من الآب في الابن، يقدِّس ماسحاً الكل. بالتالي، لا يبدو الروح القدس من طبيعة غريبة عن طبيعة الله، بل يأتي منها ويوجد فيها

عنهم الزمن (عب ١: ٢)". غريغوريوس النزينزي، الخطب ٢٧ - ٣١ اللاهوتية، نقلها من اليونانية إلي العربية الأب حنا الفاخوري، منشورات المكتبة البوليسية، طبعة اولي١٩٩٣، الخطاب ٢٩ ص ٨٢.

بحسب الطبيعة. ومثلما ينتمي أصبع اليد لنفس جنس الجسد، لا يكون لليد جوهراً آخر غير هذا الجسد، فإذا كان الأمر على هذا النحو، فالروح بالتالي هو الله وليس شـــيئاً مختلفـــاً" (الكنوز ٣٤: ٤).

هكذا يريد القديس كيرلس أن يشـــدد علـــى أن الآب هـــو بدايـــة اللابدايـــة «ἀνάρχου ἀρχή» ليؤكد على أنه هو البداية ἀρχή والعلِة αἰτία للوجـــود الأزلي لأقنومي الابن والروح القدس.

ثانياً

الاحتواء المتبادل للأقانيم الإلهية

لقد أعطى القديس كيرلس أهميةً عظيمةً لمفهوم الاحتواء المتبادل للأقانيم الإلهيـــة. وكان الدافع لذلك هو موقف الأريوسيين في تفسيرهم لنص يوحنا (١٤: ١٠): "أنـــا في الآب والآب فيَّ"، على أساس أن هذا النص يحدد بكل وضوح الاحتواء المتبادل على أساس المساواة في الجوهر الواحد «ὁμοούσιον» لكل من الآب والابن، لكن الأريوســـيين فسروا هذا النص بمفهوم ما ورد في (أع ١٧: ٢٨) "به نحيا ونتحرك ونوجد". ومن وجهة نظرهم، من المستحيل أن يُحتوى الأعظم «μείζονος» أي الآب بواسطة الأصغر أي الابن الأدنى من الآب. وعبَّروا عن تفكيرهم الخاطئ هذا قائلين: "ليس غريبـــاً أن يكـــون الآب في الابن والابن في الآب، طالما أن الكتب المقدسة تقول بالنسبة لنا: "لأَنَّنَا بِهِ نَحْيَـــا وَنَتَحَرَّكُ وَنُوجَدُ" (أع ١٧: ٢٨). إذن، فكما نحن نحيا ونتحرك ونوجد فيه، كما قيـــل، هكذا أيضاً الابن يُوجد في الآب. أيضاً كيف يمكن أن يُحتَوَى الآب في الابن، إذا كـــان الآب أعظم من الابن؟ وكيف للابن الذي هو أصغر جداً من الآب أن يحتوي الآب، ويملأ هذا الذي هو أعظم منه؟" (الكنوز ١٢: ١).

ونلاحظ أن الرأي الهرطوقي عن عدم إمكانية الاحتواء المتبادل والسكنى المتبادلـــة لأقنومي الآب والابن بسبب أن الواحد هو أعظم من الآخر هو رأيٌ مقبول عند القـــديس كيرلس لو كُنَّا ندرك الآب والابن بمفهوم الكائنات التي لديها جسد مادي، ويحتوي الواحد منها الآخر. وهو يعبِّر عن قناعته هذه بقوله: "لو ظننتم، أن الابن يُحتَوَى في الآب كأنـــه جسد، فحسناً تبحثون كيف يدخل الواحد في الآخر، والعكس. لأنه بالنسبة لإناء مصنوع من الفخار أو أية مادة أخرى، نستطيع أن نقول، إنه لا يمكن للأكبر أن يُحتَوى في الأصغر، ولا أيضاً الأصغر في الأكبر" (الكنوز ١٢: ٢). لذا يؤكد لهم القديس كيرلس أن الوجـــود الإلهي هو غير مادي وغير جسدي حيث لا نجد في الأقانيم ما هـــو مناســـب للأجســـاد كالحجم والطول والعرض وعدم المساواة وعدم المشابهة، ولذلك لا يمكن أن يُدرَك الاحتواء المتبادل للأقانيم الإلهية بنفس الطريقة التي تسري على المخلوقات المادية. ويقـــول: "لكـــن

بالنسبة لغير الجسديات، والكائنات غير المصنوعة من مادةٍ ما بحسب طبيعتها، أيُ مبررٍ يسند اقتراحكم؟ وما نقوله الآن متغاضين عن هذا الذي تدركونه عن جهل، إذ أنتم في ضلال، إذ آمنتم بأن الآب هو أكبر من الابن، بينما الحقيقة ليست هكذا، لأن الابنَ معادلٌ للآب في كل شيء" (المرجع السابق).

وعندما يفنِّد القديس كيرلس تفسيرهم الخاطئ لنص (يو ١٤: ١٠): "أنا في الآب والآب فيَّ" بقولهم إنه يتطابق مع ما ورد في (أع ١٧: ٢٨) "به نحيا ونتحرك ونوجد"، يشدد القديس كيرلس على أن الابن يوجد "في الآب"، والآب "في الابن" بسبب إتيان الابن أزلياً مِن جوهر الآب، فيقول: "وجود الابن في الآب، والآب في الابن يجب أن يُدرَك بحسب الطريقة الآتية: الابن أتى من جوهر الآب دون أن يأتي مثل المخلوقات من العدم، أو أن يكون وجوده من الخارج، لكنه هو ذاته مولود من جوهر الآب. مثلما يخرج الشعاع من النور أو النهر من منبعٍ ما" (الكنوز ١٢: ٦). فمجيء الابن من الآب لا يجب أن يُدرك بمفهوم مجيء الكائنات المخلوقة من العدم إلى الوجود، ولا بمفهوم أنه نال الوجود مِن الخارج وبطريقة ليست لها علاقة مع جوهر الآب. الابن مولودٌ ولادةً أزليةً من الآب، أتى من جوهره، وهكذا هو واحد مع الآب في الجوهر «ὁμοούσιον»، وكائن أزلياً في الآب «ἐν τῷ πατρί». لذا يستمر القديس كيرلس في شرحه لهذا الأمر، قائلاً: "ولذلك يستطيع أولئك الذين يرون الابن أن يروا الآب أيضاً، ويدركوا منه الملمح الخاص لذاك الذي ولده، بمعنى أنه بسبب أن كيان الابن بالكامل يأتي من جوهر الآب، هكذا يوجد في الآب، والعكس أيضاً الآب يوجد في الابن؛ لأن الابن هو ابنٌ بحسب الطبيعة، وهو الله **الكلمة** الذي أتى من الآب. بمعنى أنه (الآب) يوجد في الابن مثل الشمس في الشعاع الآتي منها، والعقل في الكلمة، والنبع في النهر الذي يتدفق منه. فلأن الملمح الخاص لجوهر الآب وهيئة الإلوهية توجد في الابن؛ لذا يظهره للكل في ذاته" (الكنوز ١٢: ٦). إذن الآب أيضاً يوجد في الابن "ἐν τῷ γἱῷ" بمفهوم أنه آب الابن بحسب الجوهر والذي أتى منه الابن أزلياً. والابن بالنسبة للآب هو الوليد الأصيل «γνήσιον γέννημα» لجوهر الآب، الذي يحمل في ذاته الآب، وبهذه الطريقة هو صورة الآب المنظورة: "كما في أيقونةٍ مرسومةٍ رسماً ممتازاً حتى ما أن يراها أحدٌ حتى يُعجب بهيئة الملك،

وكل ما هو موجود فيه، فيريد أن يراها ويملكها، ولا يكتفي بذلك، بل يتمنى في نفسه أن يرى أيضاً الملك نفسه. كان يمكن للأيقونة أن تقول بفصاحةٍ له، مَنْ يراني يرى الملك، وأنا أيضاً والملك نكون واحداً، واحداً في كل ما يخص التماثل وبدقة كبيرة، كذلك أيضاً، أنا في الملك والملك فيَّ، من جهة شكل الهيئة (لأن الأيقونة تحمل هيئة ذاك وهيئة الأيقونة حُفِظت في ذاك)، هكذا يقول الابن أيضاً: "اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ" (يو ١٤: ٩)، و"أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ" (يو ١٠: ٣٠)، و"أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ" (يو ١٤: ١١). أي أن الابن يأخذ ملمح جوهر الآب الخاص الذي ليس له مثيل، إنه أيقونة الآب الصادقة وشكل ذاك الذي ولده مُظهراً الوالد في ذاته "τόν γεννήτορα" (الكنوز ١٢: ١٠).

الاحتواء المتبادل بين الآب والابن يظهر أيضاً بوضوح بحسب القديس كيرلس من مفهوم الأسماء: "آب"، و"ابن الله"، فالآب يُدعى آب، وهذه التسمية تعبِّر عن وجود الابن. بهذا المفهوم لا يمكن أن يوجد الآب لو لم يوجد الابن المولود منه أزلياً. وكذلك تسمية الابن تستلزم وجود الآب. طالما الآب يعلن وجود الابن، والابن يعلن وجود الآب "يُدعى الله آبٌ؛ لأن وجود الابن يُدرَك بهذه التسمية. لأنه لن يكون آباً إن لم يكن لديه ابنٌ أتى منه. والعكس، تسمية الابن تشير إلى وجود الآب. لأن الواحد يُعلَن بعلاقة مع الآخر. إذن، فبما أن كل واحد من الإثنين يوجد حتماً في الآخر، ويُدعى آب مع هذا الذي ولده، وأيضاً ابن مع ذاك الذي ولده، عندئذٍ فهو يقول الحق حين قال: "أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ" (الكنوز ١٢: ١٢).

وقد شرح القديس كيرلس مفهوم الاحتواء المتبادل لأقانيم الثالوث للآب والابن في إطار الإشارة إلى التفسير الخاطئ للأريوسيين لنص (لو ٢: ٥٢)، إذ يقول: "أمَّا يسوع فكان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس"، حين تساءل الأريوسيون قائلين: "كيف يمكن أن يكون معادلاً للآب من جهة الجوهر، هذا الذي هو غير كامل؟ لأنه يبدو أنه يتقدم في الحكمة، بينما الآب الذي لديه كل شيء كامل، لا يقبل إرتفاءً أو تقدماً" (الكنوز ٢٧: ١).

يجيب القديس كيرلس، موضحاً الفهم السليم لهذه الآية، ومعبراً عن إيمان الكنيسة فيما يخص الاحتواء المتبادَل، قائلاً: "غير الكامل يسعى دائماً نحو الكمال غير مكتفٍ بوضعه

الأول الموجود فيه، بل يطلب دائماً الأعظم والأحسن. فمثلما يتقدّم الناس في الحكمة آخذين فضائل أخرى فيتحسّنون تدريجياً، هكذا ننطلق إلى كمال الحياة. لكن **كلمة** الله الذي يوجد كاملاً في الآب أين يذهب؟ وأيُ نمو يمكن أن يقبله، طالما هو كامل حيث إن كل الآب فيه، وهو بالكامل في الآب؟ لأنه إذا كان هو ملء كل الآب (دعنا نقول هذا الأمر كمثال) وكان قد قَبِلَ تقدماً ما أو نمواً، عندئذٍ لَخَرَجَ من الآب وصار أعظم من ذاك الذي كان موجوداً فيه، ولَمَا ظل كاملاً في كاملٍ ولديه الكمال فيه. بالتالي لم يتقدم بكونه **الكلمة**، بل هو كاملٌ، ويظل هو نفسه بدون أن يتغيَّر" (الكنوز ٢٨: ٧).

ويؤكد القديس كيرلس في شرحه للاحتواء المتبادل لأقانيم الثالوث على عدم وجود امتزاج أو اختلاط أو تطابق بين أقانيم الثالوث، بل هناك تمايز تام، فالآب ليس هو الابن والابن ليس هو الآب، فيقول: "بالتأكيد، الآب يُوجد في الابن والابن يوجد في الآب، لكنهما ليسا متطابقين ولا هما واحداً في العدد. لأن الآب يوجد بخاصيته، والابن بخاصيته، وهذا هو الاختلاف الوحيد للآب عن ذاك الذي ولده. لأن الآب كائنٌ بذاته، وليس هو الابن، والابن كائنٌ بذاته وليس هو الآب" (الكنوز ٧: ٣٦).

واضحٌ إذن أن تأكيد القديس كيرلس على أن اعتراف الإيمان بإله واحد، إنما يخص وحدة جوهر أقانيم الثالوث القدوس، وليس التأكيد على الإيمان بأقنوم إلهي واحد. الأمر الذي نادى به سابليوس الهرطوقي[1]، لهذا نجده يكتب معبراً عن إيمان الكنيسة بالأقانيم الثلاثة والجوهر الواحد، قائلاً: "الآب والابن هما واحدٌ من جهة الطبيعة، لكنهما اثنان من جهة العدد، ليس بمفهوم أن شيئاً واحداً جُزِّء إلى جزئين، دون أن يكون بينهما شركة وعلاقة، ولا أيضاً الواحد فيهما يُدعىَ بإسمين للدرجة التي فيها قوة الإثنين تبدو فقط في التسمية. وليس أيضاً بمفهوم أنه هو ذاته أحياناً يدعىَ آب ومرة أخرى ابن؛ لأن هذا هو بمثابة تعليم سابليوس، لكنهما اثنان من جهة العدد. لأن الآب هو دائماً آبٌ دون أن يتغير أبداً إلى ابنٍ، والابن إطلاقاً لا يتغير إلى آب" (الكنوز ١٢: ٧).

(1) كان سابيليوس كاهناً في برقة في الخمس مدن الغربية في ليبيا، نشر تعاليمه في روما في أوائل القرن الثالث الميلادي (حوالي ٢١٠م) نادى بأنه لا يوجد تمييز حقيقي بين أقانيم اللاهوت، ويقول إن الله هو أقنوم واحد يقوم بأدوار مختلفة. فالآب يقوم بدور الابن عند التجسد، وهو نفسه يظهر بعد ذلك باسم الروح القدس.

والغرض من تشديد القديس كيرلس على العدد حين يشرح الثالوث ليس هو تجزئه الثالوث إلى أجزاء، بل لإظهار تمايز الأقانيم وخواصهم الأقنومية. فالآب هو آب، والابن هو ابنٌ، والروح القدس هو الروح القدس بدون أي امتزاج أو اختلاط أو انفصال. فالله ليس ثلاثة أشخاص[1] (أقانيم) مثل أشخاص البشر، ولكن الأقنوم هو الشخص الذي لا يوجد منفرداً أو لا يوجد مستقلاً وحده، بل كائنٌ في شخص آخر، وهكذا الأقانيم الثلاثة هم ثلاثة أشخاص يجمعهم الجوهر الإلهي الواحد. ولأن الجوهر الإلهي واحد، فإن كل أقنوم من أقانيم الثالوث كاملٌ وكائنٌ بسبب اشتراكه في الأقنومين الآخرين. بالتالي لا نادي بثلاثة آلهة بل بإله واحد لأن كل أقنوم ليس إلهاً مستقلاً، ولكنه إلهٌ بسبب اشتراكه في الجوهر الواحد والطبيعة الواحدة مع الأقنومين الآخرين. وهذا هو الاحتواء المتبادل بين الأقانيم الثلاثة، فالآب هو الله ولكن ليس بدون الابن والروح القدس. والروح القدس هو الله ولكن ليس بدون الآب والابن.

---

(1) نتجنب في شرحنا للثالوث مصطلح "ثلاثة أشخاص" ونفضل مصطلح "ثلاثة أقانيم" حتى لا يظن أحد أننا نعبد ثلاثة آلهة، لكن هم ثلاثة أشخاص يجمعهم الجوهر الواحد والطبيعة الواحدة ولا يوجد الواحد بمعزل عن الاثنين الآخرين، لذا نؤمن بإلهٍ واحد مثلث الأقانيم.

ثالثاً

خواص طبيعة الثالوث، وتمايُزها عن الجوهر الإلهي

إنَّ فَهم خواص الطبيعة الإلهية والتي تمثل أفعال الثالوث غير المخلوقة وتمايُزها عن الجوهر الإلهي هو الأساس اللاهوتي لإدراك عقيدة الثالوث. فالخواص لا تعبِّر عن الجوهر، وإلاَّ سيكون لدينا جواهر كثيرة للكائن الواحد(أنظر الكنوز ٣١: ٢٧)، "وإذا كنا نستخدم كثيراً من الأسماء عن الله، إلاَّ أن كل اسمٍ من هذه الأسماء لا يُظهِر ماذا يكون الله في الجوهر، بل يقتصر على أن يعلن إمَّا ما لا يكون، أو يعلن عن علاقته بشيءٍ يميِّزه. فـ "عدم الفساد"، و"عدم الموت"، يُظهران ما لا يكون، بينما "الآب"، أو "غير المخلوق" يكشفان عن أنه والدٌ مميَّزاً بذلك عن الابن" (أنظر الكنوز ٣١: ١٦).

ويذكر القديس كيرلس نص (١ تس ٣: ١١): "والله نفسه أبونا وربنا يسوع المسيح يهدي طريقنا إليكم" ليشدد على أن النعمة يمنحها الآب بواسطة الابن، وهذا يدل على الوحدة بين الآب والابن، فعندما يعمل الابن يعمل الآب وعندما يذهب الابن إلى القديسين يذهب أيضاً الآب "إليه نأتي وعنده نصنع منزلاً" (يو ١٤: ٢٣). ويشرح ما جاء فى رسالة بولس الرسول إلى أهل تسالونيكى الأولى (١ تس ٣: ١١) فيقول: "فلو لم تكن هناك أيةُ وحدةٍ بين الآب والابن، هل كان يمكن أن يقول "يهديان طريقنا إليكم" لكي يعلن الاثنين؟ لكنه لم يفعل ذلك، بل محافظاً بوضوح على وحدة الآب والابن، وضع "يهدي" في صيغة شخص مفرد، ليس كأن الآب يمنح بمفرده، والابن بمفرده، لكن بسبب أن المواهب تُرسل للقديسين من الآب بواسطة الابن بالروح القدس، أي من إلوهية واحدة" (الكنوز ١٢: ١٩).

إذن فهناك مواهب كثيرة تُعطى بواسطة الثالوث القدوس للبشر، وهذا يعني عند القديس كيرلس وحدة وتطابق الفعل الإلهي أو الأفعال الإلهية في الأقانيم الثلاثة. لذا نراه يشدد على هذا الأمر وهو يفسر النص الوارد في رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية:

"نعمة لكم وسلام من الله أبينا والرب يسوع المسيح" (رو ١: ٧)، ويتساءل، كيف لا يكون إلهاً مَنْ يمنح مع الآب العطايا الإلهية للقديسين؟ (أنظر الكنوز ٣٢: ٢).

ويحذرنا القديس كيرلس من أنه من غير الممكن أن يُدرَك فعل الله كأنه مثل فعل البشر، أو أن نطابق الفعل الإلهي بنفس الطريقة مع الفعل الإنساني، فيقول: "نحن لا نقبل بالتأكيد أن يكون هناك تطابقٌ بين فعل الله الطبيعي وفعل المخلوق، فلا نرتفع بالمخلوق إلى الجوهر الإلهي، ولا نهبط بالطبيعة الإلهية السامية إلى مكانة المخلوقات" (الكنوز ٣٢: ٢).

وطالما بالنسبة للموجودات والكائنات نلاحظ الوحدة والتناظر بين فعلهم وقوتهم، فالأفعال التي تقوم بها المخلوقات تعبِّر عن قوتها المحدودة إذ تتناسب هذه الأفعال مع كونها مخلوقات محدودة، ومن المنطقي التحقق من هذه الحالة التي تبرهن على الوحدة والتطابق لنوعية طبيعة هذه الكائنات: "لأن الفعل بالنسبة للمخلوقات يتناسب مع قوتها، أي من نفس نوعية طبيعة المخلوقات المحدودة. على الجانب الآخر عندما يقول إشعياء النبي: "يا رب تجعل لنا سلاما" (إش ٢٦: ١٢)، يُظهِر أن الابن يمنح السلام مع الآب. إذن هو الله وإلهٌ حقيقي، هذا الذي يفعل كل شيء بالله الآب ومع الآب" (الكنوز ٣٢: ٢).

فسرُّ الوحدة هنا بين الآب والابن هو الاشتراك في طبيعة واحدة إلهية غير مخلوقة لها أفعال واحدة مشتركة للأقانيم الثلاثة التي تشترك في طبيعة وجوهر واحد. ويشرح هذا الأمر القديس كيرلس بكل وضوح في المقالة الثامنة، مبرهناً على أن الكائنات التي تقوم بنفس الفعل، تستخدم نفس القدرات الطبيعية، "فالكائنات التي لها نفس الطبيعة تستخدم خواصاً معينةً. والكائنات التي لها نفس الجوهر تكون متماثلةً فيما بينها في كل شيء. إذن، فبما أن فعل الآب والابن متماثلان، وفي كل شيء تظهر القوة ذاتها، فالواحد ليس له جوهر مختلف عن الآخر. وإذا كان الأمر على هذا النحو، فالابن هو مثل الآب، من جهة نفس الجوهر وليس صورةً لإرادته" (الكنوز ٨: ٧).

أيضاً يشدد القديس كيرلس على التمييز بين الجوهر الإلهي والفعل الإلهي، وذلك حين يميِّز بين ولادة الابن من الآب وخلق العالم بواسطة الآب، إذ يحثنا على ضرورة التمييز بين فعل "خَلَقَ أو صَنَعَ – ποιεῖν"، وفعل "وَلَدَ – γεννᾶν" إذ أن الأول يُعلِن فعل الله الخلاق والثاني الولادة من جوهر الله الآب: "إن كان الخلق هو ذاته الولادة، لأمكن لمن

يلد أن يخلق مَن يولد، ومَن يولد يلد مَن يُخلق. فإذا كان الخلق هو نتيجة فعل، بينما الولادة هي عمل الطبيعة، إذن فالطبيعة والفعل ليسا هما ذات الشيء، وعلى ذلك لا يكون الخلق هو ذاته الولادة" (الكنوز ١٨: ١٧).

هكذا يلد الآب، وهذه الولادة هي ولادة "بحسب الطبيعة". أمَّا الخلق بواسطة الابن، فهو عملٌ مِن صُنع الخالق بواسطة الابن، وهذا العمل يندرج ضمن أفعال أقانيم الثالوث القدوس. وبالرغم من أن التمييز بين الولادة «γεννᾶν»، والخلق بواسطة الابن «κτίζειν δι' γἱοῦ» يعلن وجود التمييز بين الجوهر الإلهي والفعل الإلهي، إلاَّ أن هذا التمييز يستحيل أن يلغي بساطة الثالوث القدوس (أنظر الكنوز ١١:١١).

ويفترض القديس كيرلس أنه لو كان التطابق وارداً بين طبيعة الله وفعله الخلاق، لنتج عن ذلك تطابق طريقة وجود الكائنات المخلوقة مع طريقة الولادة الأزلية للابن من الآب، الأمر الذي يجعل الابن كأنه آبٌ، طالما أن الابن هو خالق مع الآب وفق الكتب المقدسة. ومن جهة أخرى يكون الابن كائناً مخلوقاً طالما يُوجد بنفس الطريقة التي وُجدت بها المخلوقات، ويسخر القديس كيرلس من تلك النتائج العبثية لهذا التطابق الذي ينادي به محاربو المسيح (أنظر الكنوز ١٨: ٧).

ويبرز القديس كيرلس دائماً إدراك الوجود الأزلي لأفعال أقانيم الثالوث المشتركة والتمييز بينهما وبين الجوهر الإلهي. هكذا بدافع مواجهة رأي إفنوميوس بأن مصطلح غير المخلوق أو غير الصائر «ἀγενητος» يعبِّر عن جوهر الله، فيشرح القديس كيرلس شرحاً وافياً خواص طبيعة الله والتمييز بينها وبين ما يخص كل جوهر. فـ"غير المخلوق" هي صفة لله والتي تعبِّر عن أنه ليس هو مخلوق مثل المخلوقات، بمعنى أن الله كائن ليس بالطريقة التي وجُدت بها الكائنات المخلوقة بواسطة الخلق. هكذا كلمة "غير المخلوق" هي صفة لجوهر الله، وليست تمثل أو تُكوِّن جوهر الله، فهي تمثل الملمح غير المخلوق لهذا الجوهر. وبالرغم من أن كلمة "غير المخلوق" تُدرَك بغير انفصال عن جوهر الله، إذ تحدد ملمحه غير المخلوق، إلاَّ أنها لا يمكن أن تُدرَك على أنها تطابق جوهر الله. هذا المفهوم يبرهن عليه القديس كيرلس بوضوح من الطبيعة المخلوقة حيث أن جوهر المخلوقات لا يُدرك كموجودات من خلال ما تتميز بها، فالمرءُ - كما يقول القديس كيرلس - لا يمكنه

أن يميِّز بين البجع والثلج من حيث طبيعة كلٍ منهما، إذا عَلِمَ فقط أن كلاهما لونه أبيض؛ لأن اللون الأبيض لا يُدرَكُ كجوهرٍ، لكن كملمح يصف الجوهر" (أنظر الكنوز ٣١: ٧).

رابعاً

التمييز بين ما يخص الأقانيم الثلاثة، وما يخص الطبيعة الإلهية

التمييز بين الخواص الأقنومية وخواص طبيعة الثالوث هو أحد التعاليم الأساسية للقديس كيرلس في شرحه لسر الثالوث. فالخواص الأقنومية تنتمي فقط للأقانيم الإلهية. وحين شرح نص (يو ١٦: ١٥) "كل ما للآب هو لي"، أكد على أن الأقانيم هي واحد في الجوهر ولها خواص الطبيعة الواحدة وأفعال إلهية واحدة، إذ شدد على أن الابن هو **الكلمة** الأزلي "شعاع" الآب، ولديه كل ما للآب بحسب الطبيعة إلاَّ صفة الأبوة التي تنتمي فقط لأقنوم الآب: "لا يُقال إن الابن قد أخذ من الآب لأنه لم يكن لديه (لأنه لديه بحسب الطبيعة كل ما للآب فيما عدا الأبوة، إذ أنه كلمته وشعاعه)" (الكنوز ٢٣: ٣).

ويبرز القديس كيرلس موضوع التمييز بين الخواص الأقنومية وخواص الطبيعة الواحدة للثالوث حين يشدد على أن الآب هو البداية «ἀρχῆ» للوجود الأزلي لأقنوم الابن، إذ أن الابن يأتي من الآب (البداية) بعلاقة سببية: "بالرغم من أن الابن يختلف عن أبيه، في أن الآب هو البداية بينما الابن يأتي من هذه البداية، إلاَّ أنه بالرغم من ذلك لم يتوقف عن أن يتطابق معه ويكون من نفس جوهره" (الكنوز ٩: ٢).

وعلى ذلك، فكون أن الآب فقط هو البداية «ἀρχῆ» والعلِة «αἰτία» لأقنوم الابن والروح القدس، يبرهن على أن البداية والعلِة هما صفتان إقنوميتان للآب فقط، الأمر الذي يؤكد على التمييز بين الصفات الأقنومية وصفات طبيعة أقانيم الثالوث الواحدة.

خامساً

مفهوم أسماء الأقانيم ودلالاتها

إن الأسماء أو الألقاب التي تذكرها الكتب المقدسة عن الله ليست هي في حد ذاتها جواهر، بل هي صفات لله، فهي تُظهِر خواصه، وإلاَّ كما يقول القديس كيرلس يتكوَّن الله من جواهر كثيرة، فالكتب المقدسة تقول عن الله إنه ملكٌ، وربٌ، وغيرُ مائتٍ، وغيرُ منظور، إلى غير ذلك من آلاف الصفات الأخرى. فإذا كانت كل صفة من هذه الصفات، تُدرَك كجوهر، فكيف لا يكون مركباً مَن هو في الأساس بسيط؟ الأمر الذي يعد التفكير فيه عبثٌ من العبث (أنظر الكنوز ٣١: ٣)[1].

من الواضح أن هذه الصفات أو الأسماء المحددة تعلن خواص الثالوث الطبيعية أو الجوهرية والتي توجد "بحسب الطبيعة" جوهرياً فيه وتمثل أفعاله غير المخلوقة.

أ- الأسماء الإلهية كدلالة وإعلان δηλωτικά لخواص طبيعة الله الثالوث، وليس لجوهره:

بحسب القديس كيرلس، الألقاب مثل "غير الفاسد"، "غير المائت"، "غير المنظور" و"الصالح" تخص الأقانيم الإلهية الثلاثة، ويُدعى بهذه الألقاب "الله" و "الرب" (أنظر الكنوز ٣١: ١٦): "رغم أن الكتب المقدسة تقول الكثير أيضاً عن أقنوم الآب وأقنوم الابن، إلاَّ أن اختلاف الأسماء لا يجعل تحديد الجوهر يختلف للدرجة التي توجد فيها حالة عدم التماثل الجوهري فيما بينهما. لأنه توجد إلوهية واحدة للآب والابن حتى لو كان كل واحد من الإثنين يُعلنَ بطريقة مختلفة بتنوع التسمية، فاختلاف التسميّة لا يعني أن كل واحد لديه شيء يختلف عن الآخر، بل كل شيء يوجد في الإثنين يُنسب للجوهر الواحد، فيما عدا فقط تسمية (الأقانيم)، وحقيقة أن الواحد هو آبٌ والآخر هو ابنٌ، لأن الآب هو دائماً

---

[1] أنظر Σ.ΠΑΠΑΔΟΠΟΥΛΟΥ, «ὁ ἅγιος Κύριλλος Ἀλεξανδρείας θεολογεῖ ἑρμηνεύοντας καί ἑρμηνεύει θεολογώντας», Θελογία 74 (2003), σ. 486-487.

آبٌ، ولا يمكن بتاتاً أن يصير ابناً. والابن هو دائماً ابنٌ ولا يمكن أبداً أن يصير آباً" (الكنوز ٩: ١٠).

ويوضح القديس كيرلس أن خواص الطبيعة الإلهية الواحدة هي خواصٌ مشتركة للثلاثة أقانيم، فعندما تُنسب خاصية مثل "الصلاح" لأحد الأقانيم، فإنها تكون أيضاً للاثنين الآخرين، ويتساءل القديس كيرلس، قائلاً: "ما موقف المرء مما قاله بولس: "لكِنْ لَنَا إِلهٌ وَاحِدٌ: الآبُ الَّذِي مِنْهُ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ، وَنَحْنُ لَهُ. وَرَبٌّ وَاحِدٌ: يَسُوعُ الْمَسِيحُ، الَّذِي بِهِ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ، وَنَحْنُ بِهِ" (١ كو ٨: ٦). فها هو الرسول بولس ينسب للآب خاصية الله الواحد، وللابن أيضاً خاصية الربِّ الواحد. فهل بسبب أن الآب يُدعى إلهٌ واحدٌ، لا يكون الابن هو الله؟ وهل لا يكون الآب ربًّاً؛ لأن الابن يدعى ربٌ واحدٌ؟ لا يمكن أن يحدث هذا بالطبع؛ لأنه بما أن الآب إلهٌ، يكون الابن أيضاً إلهاً، وطالما كان الابن ربًّاً، هكذا يكون الآب أيضاً ربًّاً" (الكنوز ٩: ١٠).

كما يميِّز القديس كيرلس بالطبع الوظائف أو الخواص الأقنومية مثل الأبوة والبنوة عن خواص الطبيعة الواحدة. فالآب هو آب ولا يمكن أن يكون ابناً، والابن ابنٌ ولا يمكن أن يكون أباً. وتشديد القديس كيرلس على الخصائص الطبيعية المشتركة واضح حين فسر (١ كو ٨: ٦) "لنا إله واحد الآب الذي منه جميع الأشياء ونحن له. ورب واحد يسوع المسيح الذي به جميع الأشياء ونحن له". فالكتاب المقدس ينسب للآب مصطلح "الله" بينما للمسيح لقب "رب"، فإن لم تكن خواص الطبيعة مشتركة سنصل إلى نتيجة خطيرة، فالآب في هذه الحالة ليس رباً، والابن ليس إلهاً (أنظر الكنوز٩: ١٠). ويوجِّه سؤاله للهراطقة: "حين ترى الكتاب المقدس يُسمي الابن ربًّاً، هل تعترف بالتالي أنه حقاً ربٌّ، أم أنك سوف تنكر هذا أيضاً ضمن ما تنكر من أمور كثيرة تنكرها؟ لأنه، إذا قُلت إنه ليس ربًّاً، عندئذٍ تؤمن بأمورٍ متناقضة مع الكتب المقدسة، ومع الروح الذي قال هذه الحقائق. بينما إذا وافقت وقلت إنه ربٌّ، فسوف يُحكمُ عليك كمجدِّف داعياً إياه ربًّاً وتسجد لذلك الذي تزعم أنه ليس مساوياً للآب في الجوهر" (الكنوز ٩: ٩).

وهكذا يفند - بذكاء شديد - إنكارهم للابن بأنه إلهٌ وأن لديه خواص الطبيعة الإلهية، ومنها طبعاً لقب "صالحٍ" الذي أنكروه حين فسَّروا قول المسيح "لماذا تدعوني صالحاً

ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله" (مر ١٠: ١٨). إذن طالما أن لقب "صالح" هو من ضمن خواص الطبيعة الإلهية، فهو مشتركٌ أيضاً للابن لأن له نفس الطبيعة الإلهية التي للآب، ومن نفس جوهره. وقد سبق للقديس تطبيق هذا الأمر في المقالة الأولى حين قال إن الكتب المقدسة تنسب للآب لقب "ضابط الكل"، وكذلك "الرب". ويستمر في الحديث قائلاً: "في ذات الوقت لا يُدرك الابن على أن أحداً يسود ويتسلط عليه؛ لأنه يسود ويتسلط، وله السيادة مع الآب. لأنه حقاً هو أيضاً ضابط الكل، وكذلك هو الرب" (الكنوز ١: ٤). ويستشهد القديس كيرلس بما جاء في (يو ١٧: ١٠) "كُلُّ مَا هُوَ لِي فَهُوَ لَكَ، وَمَا هُوَ لَكَ فَهُوَ لِي" (يو ١٧: ١٠). إذن، فبما أن كلَّ الخصائص مشتركة، والصلاح المطلق هو أحد هذه الخصائص، فالابن إذن يمتلك هذه الخاصية أيضاً، خاصةً وأنه من طبيعة الآب المولود منه. والابن الذي له كل خصائص جوهر الآب، هو - على أية حال - مساوٍ للآب في الجوهر" (الكنوز ٩: ١١).

ب- أسماء أقانيم الثالوث كدلالة وإعلان عن العلاقة الوجودية بينهم:

بحسب القديس كيرلس تعبِّر أسماء أقانيم الثالوث القدوس - كما قلنا - عن خصائص أقانيم الثالوث غير المخلوقة، فالواحد هو آبٌ والآخر هو ابنٌ، لأن الآب هو دائماً آبٌ، ولا يمكن بتاتاً أن يصير ابناً.

أيضاً يؤكد القديس كيرلس على أن اسم "الآب" هو يعلن العلاقة بين الآب والابن، أي يعبِّر عن العلاقة بين أقنوم الآب وأقنوم الابن (أنظر الكنوز ٣١). هكذا لو كان اسم "الآب" يعبِّر عن جوهر الآب، عندئذٍ يُحرَم الابن من كونه من نفس جوهر الآب، لأنه سيكون الابن طبقاً لاسمه من جوهر آخر. إذن اسم "الآب" يعبِّر عن طريقة وجود أقنوم الآب، وليس عن فعل الله الآب، وإلاَّ يترادف اسم "الآب" مع اسم "خالق" أو "صانع". وبالتالي طريقة وجود الابن هي نفسها طريقة وجود المخلوقات، ويصبح الابن بذلك مخلوقاً. ويشدد القديس كيرلس على حقيقة يقبلها الكل بأن الله بسيطٌ، وكيف

للبسيط أن يتكون من جواهر كثيرة، إذن الأسماء لا تعبِّر عن الجوهر[1]، بل في حالة أسماء الآب والابن والروح القدس، فإنها تعبِّر عن طريقة وجود كل أقنوم والعلاقة بينهم، أمَّا خواص طبيعة الثالوث الواحدة فهي تعبِّر عن خصائص مشتركة للثلاثة أقانيم. هكذا حين تقول الكتب المقدسة بأنه "ملك" و"رب" و"غير مائت"...الخ. وكل واحد من هذه المميزات يُدرك كجوهر، يتساءل القديس كيرلس: "كيف لا يكون مركباً مَن هو في الأساس بسيط؟" (الكنوز ٣١: ٣). هكذا فنّد القديس كيرلس آراء إفنوميوس[2] الخاصة بأسماء الأقانيم، إذ نادى بأن الأسماء تعبر عن جوهر كل أقنوم وانتهى إلى أن كل أقنوم له جوهر مختلف عن الآخر.

ج- المفهوم الحقيقي لمصطلح "غير الصائر ἀγένητος"

لقد أعطى القديس كيرلس أهمية لشرح بعض المصطلحات والتي استُخدِمَت في تفسير عقيدة الثالوث القدوس. فقد اهتم هكذا بمصطلح "غير الصائر، أو "غير المخلوق" ἀγένητος" والتي ينسبها الأريوسيون فقط لله الآب بكونه البداية غير المخلوقة لكل شيء، وبذلك يضعون الابن من ضمن الكائنات المخلوقة، فيجيب القديس كيرلس على الأريوسيين موضحاً أن مصطلح "غير الصائر أو غير المخلوق ἀγένητος" له دلالات كثيرة: "فـ"غير الصائر" هو مَن أو ما لم يَصِر بعد، وإن كان وارداً أن يصير في قابل الأيام، وذلك مثل المركب الذي يمكن أن يصير من الخشب، أو التمثال الذي يمكن أن يصير من النحاس. وتعبير "غير الصائر" أيضاً يمكن أن يُطلق على ما لم يَصِر بتاتاً، ولا يمكن أن يصير. فالمثلث - كشكل - على سبيل المثال، لا يمكن أن يتغير بحيث يصبح مستطيلاً؛ لأن المثلث عندئذٍ يتلاشى تماماً، ويصير شيئاً مختلفاً عما كان عليه". ثم يتساءل القديس كيرلس، قائلاً:

---

(1)أنظر ΓΡΗΓΟΡΙΟΥ ΘΕΟΛΟΓΟΥ, Λόγος , θεολογικός Γ', περί Υἱοῦ,16, GALLAY, SC,250, σ.210, 12-14 = PG36,96A. - Σ.ΠΑΠΑΔΟΠΟΥΛΟΥ, Πατρολογία, τ.2, Αθήνα 1999², σ.505.

(2) أنظر ΕΥΝΟΜΙΟΥ, Ἀπολογητικός, 8, R.P.VAGIONE, Eunomius the extant works (oxford Early Christian texts), oxford (clarendon press) 1987, p.43,14-18.

كان إفنوميوس ينادي بأنه مادام الآب غير مولود، والإبن مولود، إذن فإن الإبن لا يشبه الآب في شيء، ونفس الأمر ينطبق علي الروح القدس.

"فإذا كان تعبير "غير الصائر" يمكن أن يُفهم بمعانٍ مختلفة، فما الذي يعنيه هذا التعبير بالنسبة لله بحسب رأيهم؟". ثم يفترض أنهم سوف يقولون إنها تعني هذا الذي لم يصِر بعد. فيقول: "بما أنهم طرحوا سؤالهم بكل سهولة"، ويستمر، قائلاً: "وإذا قلنا نحن أيضاً إن "غير الصائر" هو واحد. فمن المتوقع أن يقولوا لنا: طالما إن "غير الصائر" هو واحد، وهو الآب، إذن فالضرورة تحتم عليكم أن تقبلوا بصيرورة الابن. عندئذٍ يكون جوابنا عليهم أنه طالما أن الابن هو حكمة وقوة وكلمة الآب، وأن **الكلمة والحكمة والقوة** هي دائماً في الآب، وإذا كان الابن يُدعى بهذه الألقاب، إذن فالابنُ كائنٌ، وليس متأخراً زمنياً عن الآب" (الكنوز ١: ١).

ويستخدم القديس كيرلس نص (تك ١: ٢٦) "نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا" في إثبات أن الابن مساوٍ للآب في الجوهر، وبالتالي هو "غير صائر" مثل الآب: "وبقوله: "صورتنا كشبهنا" يقصد الأقنومين الآخرين، وهو ما يعني أن الروح القدس حاضرٌ أيضاً، ووُصف بأنه إلهٌ. إذن، الابن ليس "صائراً" أي ليس مخلوقاً. وأيضاً يستخدم القديس كيرلس نص (يو ١٤: ٩) "من رآني فقد رأى الآب" ليبرهن على أن الابن هو غير مخلوق أو غير صائر (الكنوز ١: ٣).

سادساً
إمكانية معرفة الله الثالوث

أ- عدم إدراك الثالوث بحسب جوهره

عرض القديس كيرلس للتعليم اللاهوتي عن استحالة معرفة جوهر الثالوث البسيط وغير المخلوق من جانب الإنسان، وتوسَّع فيه رداً على رأي إفنوميوس بأن إمكانية معرفة مفهوم مصطلح "غير الصائر" تتيح لنا معرفة جوهر الثالوث. لذا يؤكد القديس كيرلس في مقدمة كتاب الكنوز على ضعف البحث العقلي عن أن يعبِّر عن سر الوجود الأزلي للثلاثة أقانيم في الثالوث القدوس، لذا علينا أن نبذل أقصى الجهد لأنه لا توجد رؤية صعبة الإدراك ولا يمكن الاقتراب إليها مثل الرؤية الخاصة بالثالوث القدوس والحديث الخاص به لا يسلم أبداً من أية إدانةٍ (أنظر مقدمة القديس كيرلس لكتاب الكنوز).

يشدد القديس كيرلس على أن القدرة الذهنية للإنسان وكذلك قدرته اللغوية غير كافية لتحديد سر الثالوث القدوس: "لأن ذهن الإنسان يتصف بالرقة والسطحية، وبالحري يوصف بأنه ضعيفٌ جداً، يمكن للغة - بالجهد - أن تشرح هذه المواضيع التي ينشغل بها. على الجانب الآخر، جمال الحق عصيٌ على المنال، ومن طبيعته ألاَّ يُعلَن للكثيرين، بل فقط لأولئك الذين يبحثون عنه بذهن صالح وفكر صريح، وينقبون عنه ويسلِّطون عليه النور، كأنه كنزٌ سماوي. لذلك يستحقون سماع: "طوبى لعيونكم لأنها تبصر ولآذانكم لأنها تسمع" (مت ١٦: ١٣)"[١] (أنظر مقدمة القديس كيرلس لكتاب الكنوز).

يشرح القديس كيرلس مسألة عدم إدراك الله بحسب الجوهر مبرهناً على ذلك بشرحه لمصطلح "غير المخلوق أو غير الصائر" ليفند ما قاله إفنوميوس بخصوص إن مَنْ

---

(١) ويؤكد أيضاً القديس هيلاريون على أن معرفة الله ذاته هي غير محدودة وتفوق الإدراك Hilary, De Trin, 18-26 ,301-6 ,205-11 ,107-16، أنظر: توماس ف. تورانس، الإيمان بالثالوث: الفكر اللاهوتي الكتابي للكنيسة الجامعة في القرون الأولي، ترجمة د. عماد موريس إسكندر، مراجعة د. جوزيف موريس فلتس، نوفمبر٢٠٠٧م، ص٣٤.

يعرف مصطلح "غير الصائر" يعرف الله بحسب الجوهر، فكلمة "غير المخلوق"، بالرغم من أنها تعبِّر عن إحدى الصفات غير المنفصلة عن الله، لا يمكن – وفقاً لرأي الهراطقة – أن تكون هي ذاتها جوهر الله. ولأن هذا هو الصواب، فلا يمكن لمن يعرف أن الله هو "غير المخلوق"، أن يعرف ماذا يكون بحسب الجوهر، بالرغم من أن "غير المخلوق" هي صفة لجوهره" (الكنوز ٣١: ١).

كما يواجه القديس كيرلس آراء إفنوميوس بخصوص الخلط الذي يقع فيه باعتبار أن خواص الطبيعة الإلهية هي جواهر، موضحاً له أن اعتبار أسماء مثل الآب غير المخلوق، غير الفاسد، غير المائت، غير المنظور وغيرها من الأسماء بأنها تعبر عن جواهر، عندئذٍ ستكون النتيجة خطيرة، وهي تحول طبيعة الله البسيطة إلى مركبة. وكذلك كل اسم من الأسماء التي ذُكرت مثل: المخلوق، الفاسد، المنظور هو جوهر، وإن كان الأمر هكذا، فالنتيجة أيضاً خطيرة، وهي إمكانية أن يتساوى أي مخلوق مع الابن المولود من الآب قبل كل الدهور، هكذا نظام الأشياء ينتابه الفوضى (أنظر الكنوز ٣١: ٢).

ويوضح القديس كيرلس أيضاً أن تحديد مصطلح جوهر «οὐσία» يصير ليس بأن نتحدث عن ما ليس هو جوهراً، بل عن ما هو جوهر. فعندما نحدد ما هو الإنسان لا نقول أنه ليس به أجنحة أو أربعة أرجل، بل بكل وضوح نحدد ما هو الإنسان عن طريق تلك العناصر الموجودة في الإنسان وتظهره كإنسان، فنقول إن الإنسان هو كائن عاقل وفانٍ. إذن طالما أن مصطلح "غير مخلوق" يعلن ما لا يكونه الله بحسب الطبيعة بل العكس ما الذي لا يكونه الله، أي ليس هو مخلوق ولا صائر ولا يُوجد بطريقة مخلوقة مثل الكائنات المخلوقة. وبالتالي لا يمكن أن نعتبر أن مصطلح "غير المخلوق" يعبر عن جوهر الله (الكنوز ٣١: ٤).

يستدعي أيضاً القديس كيرلس مبرراً عقلانياً ليؤكد على أن "غير المخلوق" لا يعبِّر عن، ولا يُكوِّن هو جوهر الله. هذا المبرر يأخذه من أرسطو الذي حدّد أربعة عناصر أو صفات أساسية لتحديد جوهر ما. إن أية صفة أساسية في شيءٍ ما، تفصح - على وجه العموم - عما يكون هذا الشيء في الأساس، وهي تعلن إمَّا جنسه، أو نوعه، أو ما يختلف فيه عن غيره، أو تعريفه. فإذا كان الأمر على هذا النحو، فكيف إذن تُظهر لنا كلمة "غير

المخلوق" جوهر الله؟: "ليت أولئك الذين وضعوا هذه الاقتراحات الجاهلة يقولون لنا كيف؟؛ لأن هذه الكلمة لا يمكن أن تُفصح لنا عن جنس أو نوع هذا الكائن طبقاً لفلسفة أرسطو. لأن الجنس والنوع يختصان بالأكثر بالأشياء التي تختلف من جهة النوع والعدد، بينما كلمة "غير المخلوق" لا تخص أحداً آخر غير الله، وتنصرف إليه وحده، ولهذا تقال له فقط؛ لأن مَنْ هو غير مخلوق إلاّ الله؟ ومن ذلك يتضح لنا أنه لا يمكن أن يكون "جنساً" مَن لا يقبل التقسيم إلى أنواع، وعدد، واختلاف الصفات.

ولكن قد يقول البعض إن كلمة "غير المخلوق" تحدد ماهية كائنٍ ما، هنا ينكشف ما ينطوي عليه هذا القول من كذب؛ لأن ما يحدد ماهية الكائن هو المبدأ (لوغس[١] λόγος) الذي يُحدد ماذا يكون كائنٌ ما من جهة الجوهر، بينما كلمة "غير المخلوق" لا تُطلق لتحدد ماهية كائن ما، بل هي مجرد صفة، وبالتالي يتضح لنا أن كلمة "غير المخلوق" تختلف جوهرياً عن المصطلح المستخدم للتحديد. ودعنا نمعن النظر في هذا الأمر، بالنسبة إلى الله حتى لا نرتكب خطأً ما: إن كل ما يقبل الصفة وعكسها يكون مركباً وليس بسيطاً، لكن بما أن الله بسيطٌ، وهو الأمر الذي يعترف به كل إنسان، إذن فمصطلح "غير المخلوق" الذي يصف الله لا يقبل الإختلاف أو الصفة العكسية "مخلوق" لأن الله دائماً هو غير المخلوق. لا يمكن أن يكون الله "غير مخلوق" و"مخلوق"، إذن كينونة وجود الله ليست في عدم مخلوقيته؛ لأن "غير المخلوق" لا ينصرف معناها إلى الجوهر، حتى وإن كانت تبدو هكذا". (الكنوز ٣١: ٥).

فإذا كانت صفة "غير المخلوق" تعلن جوهر الله، إذن يُمكن أن يُستنتج من خاصية أن الإنسان يمكنه أن يضحك – كخاصية ينفرد بها الإنسان عند القديس كيرلس – إنها

---

(١) الكلمة المستخدمة هنا هي كلمة (λόγος لوغس) ولكنها تبدأ بحرف "λ" صغير غير كلمة لوغوس التي تُكتب بحرف لذا "Λ" الكابتل وتعني الكلمة، الأقنوم الثاني. وكلمة لوغس بحرف لذا صغير تستخدم للمخلوقات وتحدد ماهية هذا المخلوق، فكل مخلوق له لوغوس أي تحديد ماهيته وهدفه المعين من الله. ويري الآباء أن هذا اللوغوس له علاقة بالكلمة اللوغوس أي الأقنوم الثاني، الذي كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان. والقديس كيرلس يريد أن يقول أن مصطلح "غير المخلوق" ليس تحديداً لله؛ لأنه ليس لوغوس، بل مجرد إسم أو صفة عادية. لذلك لا يمكن أن يكون مصطلح "غير مخلوق" هو مصطلح يُحدد جوهرياً ماهية الله.

تعلن جوهر الإنسان وليست صفة من الصفات الطبيعية أو ميزة من مميزات الإنسان وحقاً هي هكذا. وبنفس الطريقة كل الخواص تُدرك على أنها جواهر للإنسان وبـــذلك يكـــون للإنسان جواهر كثيرة وليس جوهر واحد. وهذا الكلام غير معقول. كذلك أيضاً مصطلح "غير المخلوق" لا يمكن أن يعبر عن جوهر الله أو عن ماذا يكـــون الله بحســـب الطبيعـــة" (الكنوز ٣١: ٦). ويركز القديس كيرلس على أن اختلافات وجهات النظر أو اســـتخدام أفكار مختلفة عن أفكار أخرى أثناء الإجابة لا يعني أن الواحد يقول الصدق والآخر يقـــول الكذب. ويضرب لنا مثالاً قائلاً: " دعنا نفترض أننا سألنا اثنين من البشر عمـــا إذا كـــان الحصان هو ذاته الإنسان، فأجاب أحدهما بالنفي؛ لأن الإنسان هو كائنٌ ضاحك، والحصان ليس كذلك، بينما أجاب الآخر بقوله إن الإنسان ليس هو الحصان؛ لأن جوهره يفتقد إلى خاصية الصهيل. أليس الاثنين يقولان الحقيقة؟ هل لم يجيبا بالصواب لأنهما لم يســـتخدما الأفكار نفسها؟" (الكنوز ٣١: ١٤)، وبذلك يصل إلى نتيجة مفادها، إن كان لدينا وجهة نظر أخرى عن أي من الكائنات لا يعني هذا أن لنا رأي كاذب ومنحرف، هكـــذا نحـــن البشر ندرك الله قليلاً، لكن ليس بسبب هذا يكون لدينا، على أية حال، أفكار كاذبة عنه (المرجع السابق).

يستمر القديس كيرلس في استنتاجاته: "لو أن - كما يقول الهراطقة - كل اسم من هذه الأسماء: آب، غير مخلوق، غير فاسد، غير مائت، غير منظور يعبر عـــن الجـــوهر، بالتالي فإن الله البسيط سيكون مركباً مِن جواهر كثيرة لأن كل اسم أو صفة من الصفات التي ذكرناها تكون جوهراً. الاستنتاج الآخر من رأى الهراطقة أيضاً، يبين أن الأسماء الـــتي تصف المخلوقات مثل المخلوق، والفاسد والمنظور تكون أيضاً جواهر. وبالتـــالي يتســـاءل القديس كيرلس، ما الذي يمنع أن نقول إن الخشب المخلوق يصير جوهراً ويتطـــابق مـــع الابن، أو الحجر مع مَنْ يُولد. هكذا نظام الأشياء ينتابه الفوضى. ويخلص القديس كيرلس إلى نتيجة مفادها أن كل ما يُقال من صفات على الله مثل: غير مخلوق وغير فاسد وغـــير مائت يُمثل خواص طبيعة لله وليس تعبيراً عن جواهر مختلفة طبقاً لكل صـــفه. إذن هـــذه الأسماء هي بمثابة خواص وليست جواهر في حد ذاتها (أنظر الكنوز ٣١: ١١).

ثم يتطرق القديس كيرلس لمسألة التعبيرات البشرية اللغوية موضحاً أن الإنسان يستخدم تعبيرات معتادة وبشرية حين يتحدث عن الله لأنه لا يملك غير هذه اللغة، هكذا هناك ضعف في الإنسان من أن يصف أو يتحدث عن الله. ويؤكد القديس كيرلس على أن الله لا يمكن إدراكه بحسب الجوهر مستشهداً بالكتاب المقدس إذ يذكر ما جاء في سفر أشعياء: "مَنْ كَالَ بِكَفِّهِ الْمِيَاهَ، وَقَاسَ السَّمَاوَاتِ بِالشِّبْرِ، وَكَالَ بِالْكَيْلِ تُرَابَ الأَرْضِ، وَوَزَنَ الْجِبَالَ بِالْقَبَّانِ، وَالآكَامَ بِالْمِيزَانِ؟ مَنْ قَاسَ رُوحَ الرَّبِّ، وَمَنْ مُشِيرُهُ يُعَلِّمُهُ؟" (أش ٤٠: ١٢ - ١٣). هكذا بحسب القديس كيرلس، فإن هؤلاء الذين يدَّعون أنهم يعرفون طبيعة الله التي لا تُقاس ولا تُدرك بالأفكار البشرية، مثل أولئك الذين يقيسون السماء بالشبر (أنظر الكنوز ٣١: ٢).

أيضاً يقول الهراطقة، إن الله يعرف طبيعته وطالما نحن لا نعرفه هكذا مثلما يعرف هو ذاته، إذن نحن نكوّن آراءً خاطئةً ومنحرفةً عنه. أي نحن في ضلال إن لم نعرف الله بحسب طبيعته أو جوهره. والقديس كيرلس يفند هذا الرأي أيضاً بكل فطنة وذكاء، إذ يجسد مأساة أصحاب هذا الرأي بأنهم يخافون ربما يظهرون أنهم أدنى من فهم الله ويرتعبون من حقيقة أنهم غير حاذقين في المعرفة لدرجة أنه يمكن لأحد منهم أن يدرك الجوهر الإلهي. والسبب في كل هذا بالنسبة للقديس كيرلس هو أنهم لا يعرفون أن الجوهر الإلهي يفوق كثيراً ويسمو على المخلوقات، وذلك بقدر اختلافه عنهم بحسب الطبيعة. أما بخصوص مبررهم بأن مَنْ لا يعرف أو الذي يعرف قليلاً هو ضال، فيقول القديس كيرلس، على سبيل المثال لو أن أحداً يعرف أنه يحدث اختفاء للقمر، لكن يجهل كيف وبأية وسيلة، وآخر يعرف جيداً هذا الأمر. هل الذي يعرف الاثنين أي اختفاء القمر وأيضاً كيفية اختفاءه أحكم من الآخر الذي هو أدنى من جهة الفهم لأنه يعرف فقط أمراً واحداً، وهل يكذب هذا الشخص حين يقول تحدث اختفاءات للقمر؟ ويختم حديثه بتساؤل معقول: ما الذي يمنعنا نحن البشر أن نعرف أقل مما يعرفه الله عن ذاته، ماذا يكون من جهة الجوهر؟ بالتالي معرفتنا ليست كاذبة ولا هي محرَّفة (أنظر الكنوز ٣١: ١٣).

أيضاً على نفس المنوال يستعرض القديس كيرلس مسألة أن المعرفة بالنسبة للمخلوقات هي متفاوتة في الدرجة بين مخلوق وآخر قياساً بجنسه، فمعرفة الملائكة تختلف

عن الإنسان وهي أعظم منها وكذلك معرفة رؤساء الملائكة هي أعظم من معرفة الملائكة وأيضاً معرفة القوات العظمي هي أسمى من الكل. إذن كيف من الممكن - كما يقول القديس كيرلس - هذا الذي ليس هو عظيماً في المعرفة أن يعرف الله، حتى لو افترض المرء بأن هذا الإنسان هو ملاك، طالما أن معرفة الله تتخطى كل عقل وكل إدراك؟ (أنظر الكنوز ٣١: ١٥)[1] هكذا يستخدم القديس كيرلس المنطق لكي يرد على هؤلاء الهراطقة، وهذا الأمر نجده واضحاً في أسلوبه وردوده على الهراطقة في كل نصوص كتاب الكنوز في الثالوث.

ب- إدراك الثالوث القدوس بحسب أفعاله

أثناء رد القديس كيرلس على رأي إفنوميوس الذي يزعم بأن مصطلح "غير المخلوق" يعبِّر عن جوهر الله، يؤكد القديس كيرلس على أن معرفة الثالوث القدوس هي ممكنه فقط من جانب البشر عن طريق أفعال الله أو خصائص طبيعته وحسب القدرة المعرفية للمخلوق. وقد سبق لإفنوميوس وأتباعه التأكيد على إمكانية معرفة الله بحسب الجوهر من جانب البشر فهي في متناولهم. أما القديس كيرلس يؤكد على أن الله لا يمكن إدراكه بحسب الجوهر لكن من خلال أفعاله غير المخلوقة، وبالتالي الأسماء المختلفة لله مثل "غير المخلوق" و "غير الفاسد"، وغيرها تعلن أفعال الله ولا تعلن جوهر الله الذي هو غير قابل للإدراك من جانب البشر. فأسماء وصفات الله لا تعلن مَاهية الله بحسب الجوهر لكن تعلن أوصاف علاقة الله بنا. هكذا هذه الأسماء والصفات هي بمثابة خواص للجوهر. فمثلاً على سبيل المثال: "عدم الفساد" و "عدم الموت" يظهران ما لا يكونه الله بينما، اسم إقنوم "الآب" يُظهِره بأنه والد مميِّزاً إياه بذلك عن الابن. القديس كيرلس فيؤكد، أن ولا واحد

(١) نحن لا نستطيع أن نستوعب كل ما هو الله داخل معرفتنا، لأنه يتخطى كل مفاهيمنا وإدراكنا العقلي، لكن كما يقول القديس هيلاريون: "بينما الله في كليته يفلت من إدراك عقولنا، فهو مع ذلك يترك لنا شيئاً من ذاته ضمن حدود إدراكنا" (Hilary, De Trim, 207,206). ويفضل القديس هيلاريون الإيمان ليحل محل المعرفة العقلية مؤكداً على أنه يجب أن نؤمن به وينبغي أن ندركه ونعبده بكل وقار لأن هذه العبادة هي التي يجب أن تحل محل تعريفنا له (Hilary, De Trin, 301-5). أنظر توماس ف. تورانس، الإيمان بالثالوث: الفكر اللاهوتي الكتابي للكنيسة الجامعة في القرون الأولي، ترجمة د. عماد موريس إسكندر، مراجعة د. جوزيف موريس فلتس، نوفمبر٢٠٠٧م ص ٧٥.

من أسماء الأقانيم يعبِّر عن جوهر مختلف عن الآخر ، أما الصفات الخاصة بطبيعة الله الثالوث التي تعلن لنا الله في علاقته معنا مثل المحبة والصلاح والحياة .....الخ لا يمكننا بها أن نعرف الله بحسب الجوهر" (الكنوز ٣١: ١٦).

هكذا يكون من الممكن - بحسب القديس كيرلس - أن يظل الله معروفاً فقط بحسب خواص طبيعته أو بحسب أفعاله التي تُعلن بواسطة هذه الخواص. إذن لقب "غير المخلوق" للثالوث القدوس يحدد فهم الثالوث القدوس بكونه الله غير المخلوق، وليس مثل المخلوقات التي خُلِقت من العدم. وكذلك الصفات مثل: "غير الفاسد" و "غير المائت" و"غير المنظور" والذي "لا يُوصف" تعلن الثالوث الأزلي غير المخلوق وعدم خضوعه للفساد والموت كما يحدث للكائنات المخلوقة، وأنه لا يُرى ولا يُوصف مثل البشر بسبب خواص جوهره غير الجسدي وغير المركب وغير المرئي والذي لا يوصف. هكذا معرفة الإنسان بخواص طبيعة الله لا يمكن أن تعني إمكانية معرفة جوهر الله.

القسم الثاني

التعليم اللاهوتيّ عن الابن

أولاً

أقنوم الابن غير المخلوق

أ- الابن ليس مخلوقاً ولا مصنوعاً

يرد القديس كيرلس على أتباع أريوس الذين ينكرون أن الابن هو واحدٌ مع الآب في الجوهر بكونه الأقنوم الثاني من الثالوث القدوس، وكذلك أتباع إفنوميوس، ويكشف القديس كيرلس خداعهم إذ يُحَمِّلون آرائهم[1] ويقولون "إن الابن مخلوقٌ، لكن ليس كواحدٍ من المخلوقات الأخرى. إنه مصنوعٌ، لكن ليس كواحدٍ من المصنوعات. إنه صائرٌ γέννημα ولكن ليس مثل المخلوقات الأخرى ἄλλα γεννήματα" (الكنوز ١٥: ١).

لكن القديس كيرلس يبرهن لهم حقيقة أزلية أقنوم الابن. ويواجه هذه الآراء الخاطئة بما يراه من تضاد منطقي يحتويه رأيهم، فيقول: "إن كان الابنُ مخلوقاً، فلماذا هو ليس واحداً من المخلوقات؟ وإن كان الابن مصنوعاً، فلماذا ليس هو واحداً من المصنوعات؟ إنه أمرٌ مضحكٌ كثيراً أن يؤمن أحدٌ بمثل هذا الكلام. حقاً، بما أن الابن لا يُحسب ضمن المصنوعات أو المخلوقات، فلا يمكن أن يكون مخلوقاً ولا مصنوعاً. وإذا كان قد صُنِعَ أو خُلِقَ، كما تقولون، فلماذا لا يمكن اعتباره مثل واحدٍ من المصنوعات؟" (الكنوز ١٥: ٢).

---

(1) أنظر ΑΡΕΙΟΥ, Ἀλεξανδρείας, 2, H. – G. OPIZ,Athanasius Werke, t.3, I, P. 12,9-10. ΕΥΝΟΜΙΟΥ, Ἀπολογητικός,28, R. P. VAGGIONE, Eunomius the extant works (oxford Early Christian texts), oxford (Clarendon press) 1987,P.74, 20-22.

ويؤكد القديس كيرلس لهؤلاء الهراطقة، إن وصفهم للابن بأنه مخلوق ولكنه ليس كواحد من المخلوقات الأخرى، لا يجعل الابن في كرامة فائقة لأنهم يعترفون بأنه مخلـــوق. وبذلك لا يختلف الابن بحسب الجوهر عن بقية الكائنات المخلوقة، بل سيظل مجرد مخلـــوق بغض النظر عن تفوقه بحسب طبيعته المخلوقة ومكانته المميَّزة مقارنةً بالمخلوقات الأخرى: "لأن من يُنسب إليه أنه قد "خُلِقَ"، نؤمن أنه مخلوق، ولا يختلف جوهرياً عن المخلوقـــات الأخرى في شيء، حتى وإن اختلف عن غيره بحسب الطبيعة المخلوقـــة، أو بأيـــة طريقـــة أخرى. لأنه هكذا يرى المرء كل مخلوقات الله مقارناً بعضها البعض. ويجد في مرات كثيرة أن بعضها يتفوّق على البعض الآخر، ويتباينون من جهة طبيعتهم، حتى أنه يمكن لأحد أن يقول عن كل واحدة من تلك أنها مخلوقة، لكن ليست كواحدة من المخلوقات. فالشـــمس على سبيل المثال هي بالطبع مخلوقة، لكن ليست مثل واحدة من المخلوقات؛ لأنه لا توجد شمسٌ أخرى. نفس الأمر بالنسبة للقمر، والسماء، والنجوم والأرض.

كل هذه تعد ضمن المخلوقات، وكل واحدة منها ليست مثـــل واحـــدة مـــن المخلوقات الأخرى. العامل المشترك الوحيد لدى هذه المخلوقات هو أنها خُلِقَت، بينما من جهة الشكل والطبيعة، تختلف كل واحدة منها عن الأخرى.

بالتالي لا يوجد شيءٌ أكثر في الابن عندما يُقال عنه إنه خُلِقَ، حتى لو كان يوجد فيه شيء أكبر وفائق في مقارنته بالمخلوقات الأخرى؛ لأنه ماذا يعود على الشمس من فائدة إن قلنا إنها مخلوقة، لو كانت حقيقةً تفوق كثيراً النجوم؟ نفس الأمر يسري أيضاً بالنســـبة للقوات العاقلة في السماء، إذ بينهم عامل مشترك، هو أنها خُلقِت. بينما من جهـــة مـــاذا تكون كل واحدة، فهي تختلف" (الكنوز ١٥: ٣).

يعود دائماً القديس كيرلس إلى النتائج العبثية المســـتخرجة مـــن آراء الهراطقـــة ويواجههم بها، فيقول: "إن كان الابن مخلوقاً، وكان الآب يفعل كل شيء بواســـطته، إذن كان على الابن أن يخلق نفسه ويصنع ذاته. لكن تفكيراً من هذا النوع، لهو من الأمور غير المعقولة. لأنه كيف يمكن لهذا الذي - وفق آرائكم – هو غير موجود، أن يخلـــق ذاتـــه؟ بالتالي ليس هو مخلوق، ولا مصنوع، بل بالحري هو ثمرة جوهر الآب، وبكونه الله لديـــه إمكانية أن يصنع وأن يخلق" (الكنوز ١٥: ٦).

يستخدم أيضًا القديس كيرلس الكلام المنطقي لكي يفنِّد آراء الهراطقة، فيقول لهم: "إن كان الابن مخلوقاً، فكيف يمكن أن توجد فيه القدرة على الخلق، وأن يُحضِر المخلوقات إلى الوجود من العدم؟ فحتى لو افترضنا جدلاً أن هناك طبيعة مخلوقة يمكن أن تُحضِر إلى الوجود مخلوقات من العدم، عندئذٍ يمكن لمخلوقات أخرى أن تكون لديها إمكانية الخلق حتى لو بدا أنها لم تحقق هذا عملياً. فعلى سبيل المثال لو افترضنا أن الولد الذي ما يزال صغير السن، يمكنه أن يأتي بنسل في سن الرجولة، إلاّ أنه الآن لا يحدث هذا الأمر لأنه مازال طفلاً بعد. فهذا الذي لديه بحسب طبيعته شيءٌ ما، لا يمكن أن يُقال إنه ليس لديه، حتى ولو لم يظهر بعد؛ لأن الفعل الطبيعي يختفي في الحاضر لسبب ما، أو بسبب الزمن. وبالتالي يمكننا القول إن المخلوقات الأخرى هي خلاقةٌ أيضاً وبالتالي لا يوجد في الله شيءٌ أكثر. لكن هذا غير معقول؛ لأن أحداً من المخلوقات ليس لديه القدرة على الخلق. إذن، فالابنُ الذي الكل صار بواسطته، ليس مخلوقاً، حتى لا يبدو هو ذاته يَخلِق ويُخلَق، يصنع ويُصنع، لكنه بالحري هو الله الذي أتى من الله الآب" (الكنوز ١٥: ٧).

ويعتبر القديس كيرلس شواهد الكتاب المقدس هي المبررات القوية والمقنعة للرد على مزاعم الأريوسيين بشأن أن الابن هو مخلوق، فيذكر نص (مت ١١: ٢٧): "كُلُّ شَيْءٍ قَدْ دُفِعَ إلي مِنْ أَبِي، وَلَيْسَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الابن إلاَّ الآبُ، وَلاَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الآبَ إلاَّ الابن وَمَنْ أَرَادَ الابن أَنْ يُعْلِنَ لَهُ "، (يو ١: ١٨): "اَللهُ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ قَطُّ. الابن الْوَحِيدُ الَّذِي هُوَ فِي حِضْنِ الآبِ هُوَ خَبَّرَ". (يو ٦: ٤٦): "لَيْسَ أَنَّ أَحَداً رَأَى الآبَ إلاَّ الَّذِي مِنَ اللهِ. هذَا قَدْ رَأَى الآبَ". وبالتحديد لو افترضنا أن الابن يُحسب من بين مخلوقات الله، فكيف كان من الممكن أن ندرك بالمنطق أنه هو الوحيد من كل الكائنات المخلوقة الذي له القدرة أن يرى، وأن يعرف وأن يُعلِن الله الآب مصادراً بهذه الطريقة حق كل المخلوقات الأخرى من القدرة على مثل هذه الأمور؟ إذن بحسب القديس كيرلس، فإن شهادة الكتاب بأن الابن هو الوحيد الذي يرى ويعرف ويعلن الله الآب هي المعيار الذي لا يقهر لإدراك الابن بكونه **كلمة** الله الآب الأزلي وبكونه مساوٍ له في الجوهر وليس مخلوقاً في الزمن بواسطة الآب، طالما أن أيًا من المخلوقات ليس في مكانة أن يعرف الآب بحسب الجوهر ويعلنه (راجع الكنوز ١٥: ٨).

والمبرر الجديد بالتسجيل والذي يبرهن على الاختلاف المطلق بين وجود الابن ووجود المخلوقات وإثبات أقنوم الابن الأزلي - بحسب القديس كيرلس - هو أن أي من الخواص التي تنتمي بحسب الطبيعة للابن لا توجد بحسب الطبيعة في الكائنات المخلوقة. وكل ما هو موجود في الكائنات المخلوقة العاقلة يوجد فيها بسبب ونتيجة شركتهم بحسب النعمة للطبيعة الإلهية وبفضل التشبه بذاك الذي يعطي هذه العطايا: "لا توجد في الخليقة أي صفة من صفات الابن بحسب الطبيعة، لكن الكل لديه هذه الصفات إمّا بالمشاركة أو بالتشبه بذاك الذي يعطي هذه الصفات. لكن الابن ليس هكذا.لأجل هذا هو مختلف عن الخليقة. وطالما هو هكذا، إذن فهو ليس مخلوقاً" (عنوان الكنوز ١٧).

على الجانب الآخر، طالما أي كائن مخلوق لا يمكن أن يعتبر مشاركاً - بحسب الطبيعة - لمجد الله غير المخلوق وفق المكتوب "مجدي لا أعطية لآخر" (أش ٤٢: ٨)، وطالما أن الابن فقط هو الشريك الأزلي لمجد الله غير المخلوق "الآتي في مجد أبيه"، إذن ليس مخلوقًا هذا الذي يحمل مجد غير المخلوق (الكنوز ١٧: ٣).

ولأن الكتاب المقدس يشهد بأن الابن فقط يرى الآب وليس أحد آخر (أنظر يو ٦: ٤٦)، الأمر الذي يبرهن على أن الابن هو واحد مع الآب في الجوهر. وبالتالي أي أحد من الموجودات لا يمكنه أن يكون صورة ورسم جوهر الله الآب. إذن الابن لا يمكن أن يُحسب كمخلوق: "بما أن أحداً من المخلوقات ليس مثل الله الآب بحسب الطبيعة، بينما الابن هو مثل الآب بحسب الطبيعة، طالما أن مَنْ يراه يرى الآب (أنظر يو ١٤: ٩)، بالتالي، ليس مخلوقاً مَنْ هو مثل الآب بحسب الجوهر[1]" (الكنوز ١٧: ٨).

أيضاً التعليم الكتابي الذي يعلن أن إمكانية فعل الخطية ينحصر فقط في طبيعة المخلوقات العاقلة وفي نفس الوقت يكرز بأن ربنا يسوع المسيح قدوس و لم يفعل خطية قط

---

(١) المبدأ هنا هو أن الأقل لا يعلن الأعظم وبما أن الابن يعلن الآب إذ هو صورته إذن فهو مساوٍ للآب، وهذا يؤكده في موضع آخر القديس كيرلس، قائلاً: "يقول المسيح لتلاميذه موضحاً أنه مساوٍ للآب: "اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ" (يو ١٤ :٩)، فكيف يُعلن الذي هو بطبيعته كائن بذاته، ذلك، وهو أقلُ من الآب؟ فإذ كان أقلّ من الآب وهو يُعلِن الآب بدون وساطة أو تغيير فإنه إذا استمر في إعلان الآب سوف يصبح مثل الآب، لأن الابن صورة الآب. ولكن هذا مستحيل. فالأقلّ لا يمكن أن يعلن الأعظم منه، إذن الذي فيه الآب والذي يعلن الآب لابد وأن يكون كاملاً لأنه صورة الكامل أي الآب". شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٦٠.

(أنظر ١ بط ٢: ٢٢، ٢ كو٥: ٢١)، يبرهن على إلوهية **الكلمة** المتأنس: "بما أن إمكانية الخطأ هي إحدى صفات المخلوقات، دون أن تكون هذه الصفة واحدة من خواص الابن (أنظر ١ بط ٢: ٢٢)، إذن فالابن ليس بمخلوق" (أنظر الكنوز ١٧: ١١). أيضاً يستخدم القديس كيرلس شاهداً آخراً من الكتاب يعطي للابن فقط تعبير "إله الكل" مؤكداً أن لا أحد من المخلوقات دُعيَّ هكذا. إذن لو افترضنا، بحسب رأي الهراطقة، أن الابن هو مخلوق، بالتالي الآب أيضاً يكون مخلوقًا لأن الكتاب يقول عنه أيضاً أنه "إله الكل".

أيضاً يركز القديس كيرلس على النتائج المحزنة في حالة كون الابن مخلوقاً. طالما الكتاب يكرز بأن ربنا يسوع المسيح هو الوسيط بين الله والبشر (أنظر ١ تيمو ٢: ٥) بواسطة تأنسه، فلو صار الرأي الذي يقول إن الابن مخلوقٌ مقبولاً، "فكيف يكون متَّحداً بالله بحسب الجوهر؟ بأيةِ طريقةٍ يكون واحداً مع ذاك؟ لأن المختلفان بحسب الجوهر، لا يستطيعان أن يتَّحدا بطريقةٍ طبيعيةٍ أبداً فيما بينهما. وكيف نخلص بواسطته إن كان مخلوقاً، وكان الكتاب المقدس يقول: "بمحبته ورأفته هو فكَّهم ورفعهم وحملهم كل الأيام القديمة" (أش ٦٣: ٩)؟ ولو كان مخلوقاً، فكيف نتبرر حين نؤمن به؟ بل كيف أُلغيت بواسطته عبارة: "لأنك تراب وإلى تراب تعود" (تك ٣: ١٩). لأنه لم يكن عملاً يتناسب مع المخلوق، أن يُغيِّر القرار الذي أُعطيَ من الله. ولو كان مخلوقاً، فكيف يُبطل الخطية، لأن النبي يقول عنه: "مَنْ هو إلهٌ مثلك غافر الإثم وصافح عن الذنب كبقية ميراثه" (ميخا ٧: ١٨)؟ ولو كان مخلوقاً لَمَا استطاع أن يقول: "فإن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً" (يو ٨: ٣٦). لقد حرَّرنا إذن؛ لأنه وريث الآب، وليس مخلوقاً، وفق هوس محاربي الله" (الكنوز ١٥: ٥٦).

أيضاً يستمر القديس كيرلس في البرهنة على خطأ رأي الهراطقة باعتبار الابن مخلوقًا مستخدماً شواهد الكتاب المقدس. هكذا لو افترضنا أن الابن مخلوق وأيضاً يُدعى أنه حكمة الآب (أنظر ١ كو ١: ٢٤)، الذي خلق الكل بالحكمة (أنظر مز ١٠٤: ٢٤) بالتالي فإن الحكمة خلقت ذاتها. بالتالي –كما يقول القديس كيرلس – علينا أن نعترف أن الابن ليس مخلوقاً (الكنوز ٢١: ١).

على الجانب الآخر، لو افترضنا "إن كان الابن قد خُلق، ودُعيَ أيضاً في الكتاب المقدس قوة الله وحكمة الله (أنظر ١ كور ١: ٢٤)، لَكان هناك زمنٌ كان الله فيه بلا قوة أو حكمة، طالما أن الابن لم يكن موجوداً؛ لأن المخلوق يصير من العدم. لكن الآب كان دائماً وأبداً حكيماً وقوياً، لذلك فالابن كان أيضاً دائماً موجوداً؛ لأنه هو حكمة الله وقوته" (الكنوز ٢١: ٣).

إن اعتبار الابن مخلوق ينشئ مشكلة تفسيرية خطيرة لنص (يو ١٤: ٩): "مَنْ رآني فقد رأي الآب" لأنه بذلك، صورة الآب تظهر في المخلوقات. والنتيجة الخطيرة عندئذٍ هي أنه لا يوجد أي اختلاف بين الخليقة والله، ويكون هو أيضاً مخلوق "لكن بما أن الله الآب ليس مخلوقاً وتظهر صورته كاملة في الابن على أساس أن مَنْ يرى الابن يرى أيضاً الآب، بالتالي فإن الابن ليس مخلوقًا إذ هو صورة الآب" (الكنوز ٢١: ٤).

إن إصرار الأريوسيين على رأيهم الخاطئ بأن الابن مخلوقٌ، يحمل نتيجةً لاهوتيةً مباشرةً مفادها أنه لا يُعتبر ولا يُدعى الابن "كلمة" و"حكمة" و"قوة" و"شعاع" الآب، طالما لا يمكن لكائن مخلوق أن يوصف بهذه الخواص، أو طالما نقر بأن كل المخلوقات الأخرى تمتلك هذه الامتيازات طالما يمتلكها الابن الذي هو مخلوق بحسب زعم الهراطقة. "لكن بما أن هذه الامتيازات وهذه الأقوال لا تنصرف إلى أي مخلوق آخر؛ لأنها تتناسب فقط مع الابن، فالابن إذن ليس مخلوقاً ضمن المخلوقات، بل هو ثمرة جوهر الآب" (الكنوز ٢١: ٨).

ب- الابن بحسب الطبيعة هو الوليد «γέννημα» الأزلي للآب

أخذ القديس كيرلس على عاتقة تفنيد آراء الأريوسيين[1] التي تفترض مخلوقية الابن، وتزعم أنه يوجد تطابق بين تعبيري "مخلوق" و"مولود"، وكذلك بين فعل "ألد" وفعل "أخلق". وقد استعرض القديس كيرلس في المقالة الثامنة عشر نتائج هذه الآراء الخاطئة كالآتي:

(1) أنظر ΕΥΝΟΜΙΟΥ, Ἀπολογητικός, 12, R. P. VAGGIONE, Eunomius the extant works (oxford Early Christian texts), oxford (Clarendon press) 1987,P. 46, 1-48.

١- لو كان المولود من الله هو نفسه المخلوق من الله عندئذٍ لَمَا قيل لوحيد الجنس: "هذا هو ابني الحبيب" (مت ٣: ١٧)، لأن بحسب هذا التطابق تصبح المخلوقات الجامدة هي أبناء لله بحسب الطبيعة.

٢- لن يتفوق الابن في شيء عنا، طالما أيضاً هو في الأساس مخلوق ومولود.

٣- لو أن كل مخلوق في الأساس أيضاً مولود، عندئذٍ لا أحد من المخلوقات ليس هو أيضاً ابن لله. عندئذٍ كيف وعَدنا الله بالبنوة حين قال الإنجيلي يوحنا: "وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَاناً أَنْ يَصِيرُوا أَوْلاَدَ اللَّهِ أَيِ الْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ".

٤- طالما أن المخلوق بحسب الطبيعة هو أيضاً مولود بحسب الطبيعة مثل الابن المساوي للآب في الجوهر عندئذٍ كل ما خُلِق سيكون إلهاً بحسب الطبيعة وليس بالمشاركة.

٥- لو أن هذا المولود هو أيضاً مخلوق، عندئذٍ الذي يخلق سيكون أيضاً آباً. وطالما الابن يخلق إذن هو ذاته سيكون أيضاً الآب وسيكون غير الصائر هو آب الآب، وفى نفس الوقت يكون مثلنا ولديه نفس معرفتنا لله.

٦- لو أن المولود هو ذاته المخلوق. والمخلوق كما يقولون - هو أيضاً الروح، بالتالي الروح هو مولود. وبما أن الابن هو وليد الآب، عندئذٍ ليس هو المولود الوحيد.

٧- لو أن المخلوق هو أيضاً مولود مثل الابن، عندئذٍ الابن سيكون أخاً للكل، وليس هو الرب الإله. لكن بما أنه هو الرب الإله، عندئذٍ فهو ليس أخاً لأحد من المخلوقات. وبما أن الابن هو المولود الوحيد، إذن أي من المخلوقات لا يكون أخاً. بالتالي كيف يكون المخلوق هو نفسه المولود؟!

٨- لو مسألة أن يلد وأن يخلق هما نفس الأمر عند الله الآب، وهو يَلِد الابن بدون وسيط، فمن الواضح أيضاً أن كل ما يلده ويخلقه يكون بدون وسيط. لكن بما أنه هو يلد بدون وساطة أحد وأيضاً يخلق الكل ولكن ليس بدون وسيط "كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان" (يو ١: ٣) إذن كيف تكون الولادة عند الله هي نفسها الخلق؟ فلو أن الولادة عند الآب هي نفسها الخلق عندئذٍ هو يلد المخلوقات التي يصنعها. لكن واضح طبعاً أن ولادة الابن هي من جوهر الآب أما الخلق فهو ليس من جوهر الآب.

٩- لو أن الولادة هي نفسها الخلق عندئذٍ سيكون الذي يلد يخلق الـــذي يُولَـــد ويَلِد الذي يُخلق. وبما أن الخلق ليس من جوهر الآب، بينما الولادة هي من جوهره. إذن الخلق ليس هو نفسه الولادة.

تلك هي النتائج الخطيرة التي استعرضها القديس كيرلس من جراء التطابق الـــذي يصنعه الأريوسيون بين "الولادة" و"الخلق". فمصطلح "مولود" يجب أن لا يدرك بمفهـــوم "الخلق"، بل فقط بمفهوم أن الابن هو المولود الوحيد الأزلي من الآب فهـــو "وليـــد" الآب الأزلي بحسب الطبيعة[١].

جـــ- الابن ليس هو الأداة التي يعمل بها الآب

ὁ Υἱός ὄχι «ὑπουργικόν» ὄργανο τοῦ πατρός

يبرر أريوس وأتباعه تعليمهم الخاطئ عن أن الابن خُلِق بقولهم إن إله الكل أراد أن يخلق المخلوقات، إلاّ أن هذه المخلوقات لا يمكنها أن تحوي قوته الفائقة، فخلق أولاً الابـــن الذي دعاه **الكلمة** بهدف أن يُخلق المخلوقات الأخرى بواسطته[٢]. إذن مـــبرر أريـــوس وأتباعه هو أن المخلوقات لا تستطيع أن تحوي قوة الآب. وعلي الجانب الآخر، كان مـــن غير المعقول - كما يزعمون - أن تصل قوة الله غير الموصوفة إلى الأدنى وأن تنشغل بأمور صغيرة جداً (الكنوز ١٥: ١٢). أيضاً يستخلص القديس كيرلس من رأيهم الخاطئ بطريقة منطقية نتيجة عبثية تجعل الذين يؤمنون بآرائهم مجدِّفون لو افتراضنا أن الآب خلق الابـــن كأداة لنفسه لكي يستخدمه في خلق الكائنات، إذن فقد احتاج الآب للذي كـــان غـــير موجود. وهنا يتساءل القديس كيرلس، قائلاً: إذن مَنْ هو الأعظم فيما بينهما؟ الذي احتاج أو الذي سدد الاحتياج الذي كان يُعاني منه الاثنان، فالواحد هنا يكمل الآخر، وبذلك فإن كل واحد في حد ذاته هو ناقص. ويستمر القديس كيرلس في عرض النتائج العبثية الأخرى

---

(١) أنظر أيضاً القديس أثناسيوس الرسولي، ضد الأريوسيين، المقالة الأولي: ٩، المرجع السابق ص ٤٦.

(٢) أنظر ΕΥΝΟΜΙΟΥ, Ἀπολογητικός, 15, R. P. VAGGIONE, Eunomius the extant works (oxford Early Christian texts), oxford (Clarendon press) 1987, P. 52, 15-16.

لو افترضنا أن رأي الهراطقة صحيح. إذ يقول، بما أن الآب أزلي ووصل إلى الاحتياج للابن الذي صار بعده زمنياً، كما يدَّعي أولئك، فإن طبيعة الابن تكون قد صارت لإتمام أزلية الآب، هكذا امتزج الاثنان اللذان لا يمكن أن يمتزجا. ويترك القديس كيرلس خصومه مترنحين ومنبطحين أرضًا وفي إعياء من جراء النتائج العبثية لآرائهم الخاطئة ثم يعلن لهم الحقيقة بأن الابن لم يَصِر متأخراً زمنياً بعد الآب، الذي بواسطته خُلِق كل شيء، ولا صار كمثل أداة لأجل هذا الهدف، بل كان أزلياً معه حقاً وهو قوته وحكمته" (الكنوز ٤: ٣٢). أما بخصوص ما قالوه عن أن الله لا يقبل أن يصير خالقاً للأشياء التافهة فخلق الابن ليعتني بالصغائر، قد فنده القديس كيرلس بشواهد من الكتاب المقدس: "أَلَيْسَ عُصْفُورَانِ يُبَاعَانِ بِفَلْسٍ؟ وَوَاحِدٌ مِنْهُمَا لاَ يَسْقُطُ عَلَى الأَرْضِ بِدُونِ أَبِيكُمْ. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَحَتَّى شُعُورُ رُؤُوسِكُمْ جَمِيعُهَا مُحْصَاةٌ " (مت ١٠: ٢٩ – ٣٠)، "اُنْظُرُوا إِلَى طُيُورِ السَّمَاءِ: إِنَّهَا لاَ تَزْرَعُ وَلاَ تَحْصُدُ وَلاَ تَجْمَعُ إِلَى مَخَازِنَ، وَأَبُوكُمُ السَّمَاوِيُّ يَقُوتُهَا. أَلَسْتُمْ أَنْتُمْ بِالْحَرِيِّ أَفْضَلَ مِنْهَا؟" (مت ٦: ٢٦)، "فَإِنْ كَانَ عُشْبُ الْحَقْلِ الَّذِي يُوجَدُ الْيَوْمَ وَيُطْرَحُ غَداً فِي التَّنُّورِ، يُلْبِسُهُ اللهُ هكَذَا، أَفَلَيْسَ بِالْحَرِيِّ جِدّاً يُلْبِسُكُمْ أَنْتُمْ يَا قَلِيلِي الإِيمَانِ؟" (مت ٦: ٣٠)، ثم يتساءل متهكماً من غبائهم قائلاً: "ماذا سيمكن أن يوجد أرخص من العشب والعصافير، لكن الله – من صلاحه – يعتني بهم" (الكنوز ١٥: ١٢). أيضاً هناك نتيجة عبثية ركَّز عليها القديس كيرلس قائلاً لو افتراضنا أن رأي الهراطقة صحيح بشأن أن الآب خلق الابن ليكون أداة يخلق بها المخلوقات، فإن الابن سوف يحتاج أيضاً لوسيط لأنه هو نفسه مخلوق وليست لديه المقدرة على تحمل قوة الله الآب، وهكذا سوف نصل إلى جمع لا يحصى من الوسطاء (الكنوز ١٥: ١٣).

يعود القديس كيرلس كعادته ويورد براهين من الكتاب المقدس تدعِّم كلامه المنطقي مفترضاً كما يزعمون أن الآب صنع الابن لكي يصير خالقاً للطبيعة المخلوقة، بالتالي كان يجب أن يتوقف عن العمل من اللحظة التي خُلِق فيها الابن، إذن كيف يعمل الآب حتى الآن؟ لأن المخلص ذاته يقول "أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل" (يو ٥: ١٧). هكذا الآب يعمل وكذلك الابن، وهم يقولون أن الابن أدَّى مهمة الخلق ولا لزوم له. إذن هذا الكلام غير معقول لأنه سوف يصطدم بكلام المخلص نفسه. عندئذٍ يعلن لهم القديس

كيرلس الحقيقة بكلام واضح، قائلاً "وبالتالي يتضح لنا أن الابن لم يَصِر بهدف أن يكون مخلوقاً، بل لكي يصير خالق الكّل، وبما أنه أتى من جوهر الآب غير الموصوف، بكونه ابناً يصنع كل أعمال الآب، فتلك هي مكانته بحسب الطبيعة، أي كونه إلهاً، وبسبب هذا هو أيضاً خالق" (الكنوز ١٥: ٢).

أيضاً قبول الفكر الذي ينادي بأن الله الآب خلق الابن لكي يخلق الطبيعة المخلوقة يعني أن الله الآب فَكَّرَ وخَطَّطَ أولاً في خلق الكائنات لذلك خلق الابن. والسؤال المطروح من القديس كيرلس: لماذا خُلِق قبلنا ذاك الذي كان في فكر الله في المرتبة الثانية بعد المخلوقات؟ فلماذا لم يقرر بخصوصه أولاً، طالما خلقه أولاً؟ والسؤال الأخطر الذي واجههم به القديس كيرلس هو لماذا طالما نحن كنُا أولاً في فكره، دُعيَ ابناً ووارثاً، بينما نحن عبيد وورثة ذاك الذي صار لأجلنا؟ وعاجلهم القديس كيرلس بالنتيجة غير المعقولة المستنتجة من رأيهم الخاطئ: "كان ينبغي نحن أن نكون أولاداً ووارثين بينما أداة خلقنا، الذي صار لأجلنا، يكون عبداً وخاضعاً لنا". هكذا يضطر القديس كيرلس أن يصرخ قائلاً: "حاشا ليتنا نهرب بعيداً عن هذا الفكر غير المعقول" (الكنوز ١٥: ٢٦).

يؤكد القديس كيرلس كلامه من الكتاب المقدس، إذ يقول إن الابن لم يصِر لأجلنا و لم يكن خلق المخلوقات يوجد في فكر الآب قبل خلق الابن، بل كما هو مكتوب "الكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله" (يو ١:١). ويأتي إلى برهان واضح، إذ يقول: "لأنه إذا لم يكن للنور أن ينير بطريقة أخرى، إلاّ فقط بواسطة شعاعه الخاص، هكذا الأمر بالنسبة للآب أيضاً، هو لا يخلق أي أحد من الكائنات إلاّ فقط بواسطة **كلمته** لأنه يقول "كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان" (يو ١:١)" (الكنوز ١٥). هكذا يدعو القديس كيرلس الابن بأنه "يمين وقبضة الله". لأن كل ما صنعه، صنعه بواسطته، كأنه يده" (الكنوز ١٥: ٢٧).

د- المفهوم الحقيقي لشواهد كتابية معينة بخصوص الابن وكلمة الله:

١- نص أمثال ٨:٢٢: "اَلرَّبُّ قَنَانِي أَوَّلَ طَرِيقِهِ، مِنْ قَبْلِ أَعْمَالِهِ، مُنْذُ الْقِدَمِ"

أثناء مواجهة ودحض فكر الأريوسيين عن إدراك الابن كمخلوق، تعرض القديس كيرلس لتفسير نص (الأمثال ٨:٢٢): "الرب قناني وخلقني أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم". ذلك النص الذي استخدمه الأريوسيون ليدعِّموا وجهة نظرهم في أن الابن مخلوق.

في البداية يبين لهم القديس كيرلس أن الكلام بأمثلة يُدرك جيداً عندما نعرف نحن مفهوم هذه الأمثلة كما تُقال في أعراف بيئةٍ معينة، أي لابد أن نعرف لغة الأمثلة وماذا تعني لمستخدميها. فالأمثلة لا تُفسر حرفياً. فالمثل لا يُدرك بسهولة لأنه لا يعلن الغرض منه مباشرةً. ويستشهد القديس كيرلس بالمخلص نفسه حين قال لتلاميذه "قد كلمتكم بأمثال ولكن تأتي ساعة حين لا أكلمكم أيضاً بأمثال بل أخبركم عن الآب علانيةً" (يو ١٦:٢٥). حين قال الحكمة "الرب قناني (خلقني)" تستخدم أقوالاً من الأمثال "الحكمة بنت بيت لذاتها" (أم ٩:١)، إذن بما أن الحكمة هي بالطبع **كلمة** الله، لكن تبني بيتاً لذاتها، بالتالي يجب أن نعرف ما الذي تشير إليه عبارة "قناني أو خلقني".

ويعلن القديس كيرلس بوضوح أن المسيح هو الذي يقول هذا لأنه بالفعل وُلِدِ وصار إنساناً. وفي هذه الحالة، هذا التفسير لا يمثل تجديفاً طالما بالفعل قال هذا بكونه إنساناً. وهو بيت الحكمة الذي بُني بواسطتها جسدها العادي الذي وُلِدِ من العذراء القديسة الذي سكن فيه ملء اللاهوت جسدياً (أنظر كو ٢:٩).

ويستخلص القديس كيرلس النتيجة بكل وضوح قائلاً "فلأن **الكلمة** صار جسداً، يقول الكتاب المقدس عنه "قناني" لأنه صار جسداً وهكذا يجب أن نفهم هذا الذي قيل" (الكنوز ١٥: ٣٠).

أيضاً عن طريق مفهوم تعبير "قناني - خلقني" كما ورد في الكتاب المقدس يبرهن القديس كيرلس أن للتعبير مفاهيم متعددة. فهذا الفعل "خلقني" يُمكن أن يُقال على

الكائنات التي توجد بالفعل وعن تلك التي لم تصر بعد. إذا قبلنا هذا الفعل على المخلوقات التي لم تُخلق بعد يمكن أن تعني مجيئهم إلى الوجود من العدم. لكن بالنسبة لتلك التي هي موجودة بالفعل ولا تحتاج لأن تُخلق لكي توجد، لا تعني خلق جوهر بل التحول من شيء إلى شيء آخر. ويعطي لنا القديس كيرلس أمثلة على ذلك من الكتاب المقدس: يقول داود النبي "وشعب سوف يُخلق يسبح الرب" (مز ١٠٢: ١٩) وأيضاً "قلباً نقياً اخلق فيَّ يا الله" (مز ٥١: ١٢). طبعاً، كما يقول القديس كيرلس، لا يقصد داود أن شعباً سوف يُخلق من جهة جوهره، لكن يشير إلى ذاك الشعب الذي تحول من الضلال إلى معرفة الله. ولم يطلب أيضاً أن يخلق قلباً آخر غير الذي له، بل توسل لأن ينال التطهير. أيضاً حين يقول بولس عن المسيح: "مبطلاً بجسده ناموس الوصايا في فرائض لكي يخلق الاثنين في نفسه إنساناً واحداً جديداً" (أف ٢: ١٥). وكذلك: "وتلبسوا الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق" (أف ٤: ٢٣). لا يقصد - كما يقول القديس كيرلس - أن الإثنين يتحدان باتحاد طبيعي بواسطة المسيح، لكن يقصد أن بني إسرائيل والأمم يتحولان ويكتسبان معرفة جديدة، بالنسبة لبني إسرائيل يكتسبون هذه المعرفة وفق ناموس العبادة، أما بالنسبة للأمم، فالأمم يتحررون من الضلال الذي كان يُصاحبهم. وبالنسبة لنا جميعاً يريد أن نلبس الإنسان الجديد الذي خُلِق كما أراد الله. وواضح - كما يقول القديس كيرلس - أنه لا يقصد أن نلبس إنساناً ما حقيقيًا، بل حياةً جديدة في الداخل" (الكنوز ١٥: ٣١).

إذن كلمة "خلقني" لا تعني على أية حال خلق جوهر، لأنه بعد ذلك يقول "أول طريقه من قبل أعماله" بمعنى خلقه لأعماله. أي خُلِق أو صار **كلمة** الله جسدياً، أي إنساناً، لكي يكون بداية طرق الرب وأعماله. لأنه أولاً في المسيح وجدت الحياة الإنجيلية تطبيقها التام. وعبارة "طرق الرب" - كما يقول القديس كيرلس - تعني وصايا الرب إذ يقول داود: "طرقك يا رب عرفني سبلك (وصاياك) علمني" (مز ٢٥: ٤). هكذا الأعمال تُظهِر الحياة الفاضلة ووصايا الله.

يُعطي أيضاً القديس كيرلس تفسيراً صحيحاً لنص الآية السابقة من خلال عقيدة تأنس **كلمة** الله. فربنا يسوع المسيح قد تألم بحسب بشريته، أي بالجسد، وذاق الموت

بالجسد، بالرغم من أنه بحسب طبيعته الإلهية هو غير متألم وغير مائت[1]. أيضاً على أساس تعليم الكتاب المقدس بخصوص عمل ربنا يسوع الفدائي، فإن "الكلمة" صار جسداً (يو١:١٤) وبولس يكتب عن المسيح "صار لعنة لأجلنا" (غلا ٣:١٥)، كذلك "الذي لم يعرف خطية، صار خطية لأجلنا" (١ كو ٥:٢١). ويقول القديس كيرلس: "فنحن لا نصدق أن **الكلمة** تحول إلى جسد، ولا نقول إنه صار حقاً لعنة أو خطية. لكن بما أن الكتاب المقدس يقول عنه هذا، فيجب علينا أن، نُدركه بوقار وتقوى، بنفس الطريقة، عندما يقول **كلمة** الله "الرب قناني – خلقني" يجب أن ندركه على أنه جعلني إنساناً، ولا نفهم أن هذه العبارة ضد جوهره"[2].

هكذا، كلمة "قناني – خلقني" لا يجب أن تخص جوهر الله **الكلمة**، بل أن تُفسر من جانبنا بتقوى، لأن مفهوم هذا القول يخص موضوع التأنس.

يكرر القديس كيرلس تأكيده على أن عبارة "الرب قناني أول طرقه من قبل أعماله" لا تعني أن الرب خُلِق من العدم مثل كل المخلوقات بل تعني انتقاله من شيء إلى شيء آخر. لأن **الكلمة** هو أزلي، وعندما صار إنساناً، صار بدايةً لكل طريق الصلاح لأجلنا.

ويلفت القديس كيرلس نظرنا إلى حقيقة هامة وهى أن الكتاب المقدس حين يشير إلى ولادة الابن من الآب، لا يضيف السبب، أي لا يقول لماذا هو الله، أو لماذا وُلِدَ من الآب، "لكن عندما تذكر الكتب المقدسة تشبُّهِهِ بنا وولادته من الروح القدس ومن العذراء، تُضيف مباشرةً السبب؛ لكي نتعلّم أن الذي هو دائماً **كلمة** الله، لضرورةٍ ما صار إنساناً، بدون أن تكون بدايته هي زمن ولادته، لكن تغيَّر من جهة الشكل آخذاً صورة عبد، وبحسب هذا يُقال إنه خُلِق وصُنِع" (الكنوز ١٥: ٤٣).

---

[1] أيضاً أنظر ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، ترجمة أ. صموئيل كامل ود. نصحي عبد الشهيد، مراجعة د. جوزيف موريس فلتس. إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، أبريل٢٠٠٤م، فقرة: ٥٤، الكنوز ١٥:٥٢.

[2] الكنوز ١٥:٣٣، أنظر أيضاً ضد الأريوسيين، المرجع السابق، مقالة ٢:٥٥.

ويستشهد القديس كيرلس بشواهد كتابية تُثبت حقيقة هذا الأمر، فعندما يتحدث الكتاب عن الابن في ولادته من الآب أو علاقته الأزلية معه، لا يذكر السبب، على سبيل المثال: "في البدء كان الكلمة"، "وكان الله الكلمة" (يو ١:١). "أنا في الآب والآب فيّ" (يو ١١:١٤)، "أنا والآب واحد" (يو ٣٠:١٠)، "من رآني فقد رأى الآب" (يو ٩:١٤). بينما بخصوص الولادة بالجسد يذكر الكتاب الأسباب مصحوبة بالوقائع، على سبيل المثال، قال المخلص ذاته: "لأني قد نزلت من السماء ليس لأعمل مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني" (يو ٣٨:٦). أيضاً: "أنا جئت نوراً إلى العالم حتى مَنْ يؤمن بي لا يمكث في الظلمة" (يو ٤٦:١٢). وكذلك: "لهذا قد وُلِدت أنا ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق" (يو ٢٧:٨). وشواهد أخرى يذكرها، أنظر على سبيل المثال (يو ١٧:٣)، (١ كو ٢١:١٥)، (رو ٣:٨ – ٤)، (يو ٣٩:٩). هكذا "عندما صار إنساناً، لكي يتمم هذه الأعمال ويصير بداية لمثل هذه الأنواع من الطرق، قال عن ذاته: "الرب قناني – خلقني أول طرقه من قبل أعماله". بمعني أنه لم يُخلِق من العدم إلى الوجود، لكن، بينما هو كائن على الدوام، صار جسداً لأجل هذه الأسباب" (الكنوز ١٥: ٤٣).

٢– نص سفر الأمثال ٢٣:٨: "منذ الأزل مُسحت (أُسِّست) منذ البدء منذ أوائل الأرض"

حين استغل الأريوسيون أيضاً آية سفر (الأمثال ٢٣:٨): "منذ الأزل مُسِحت (أُسست) منذ البدء منذ أوائل الأرض" لكي يُدعِّموا رأيهم الخاطئ في أن الابن مخلوق، كان رد القديس كيرلس حاسماً بأن سفر الأمثال هنا يتحدث عن حكمة الله الذي هو **كلمة** الله مشيراً إلى (أم ١٠:٣): "الله بحكمة أسس الأرض". إذن لكي يؤسس الله الأرض، أسسها بواسطة **كلمة** الله الذي هو حكمة الله. بالتالي حين قال: "منذ الأزل مُسحِت أو أُسست"، لا يقصد أن الله جعله **كلمةً** أو ابناً، بل لأنه صار إنساناً ولَبِسَ شبهنا، صار بدايةً وأساساً لنا، نحن الذين نبني في التقوى إيماننا به، ونتغير إلى خليقة جديدة، كما هو مكتوب (أنظر ٢ كو ٥: ١٧). هكذا يكون هو أساساً لكل مَنْ يُبنى فوقه بالإيمان. وهذا المفهوم هو نفس المفهوم الذي شرحه حين كان يفسر (أم ٨: ٢٢) "الرب قناني – خلقني أول طرقه من قبل أعماله" (الكنوز ١٥: ٦٢).

أيضاً يستشهد بما قاله بولس الرسول: "لا يستطيع أحد أن يضع أساساً آخر غير الذي وُضِع الذي هو يسوع المسيح" (١ كو ٣: ١١)، ليبرهن على أن المسيح هو الأساس، وبالتالي يكون المبنى الذي بُني فوقه ينبغي أن يكون مثل الأساس. "لأنه هو الكلمة، ولا شيء يشبه الكلمة، وليس من الممكن أن ينطبق واحدٌ من المخلوقات فوقه بطريقة طبيعية؛ لأنه هو الخالق، بينما هذه مخلوقات. لكن حين صار إنساناً، ومثلنا في كل شيء، فيما عدا الخطية، وضع ذاته أساساً لهؤلاء الذين بُنُوا فوقه ويستطيعون أن ينسجموا معه. لأنه، إذ صار هو ذاته إنساناً، صارت لديه قرابةً شديدةً معنا بسبب طبيعة الجسد" (الكنوز ١٥: ٦٣)، وبذلك يؤكد القديس كيرلس أن تعبير"منذ الأزل مُسحت (أُسِّست)" يجب أن ننسبه لتأنس المخلص، لكي نتجنب التجديف، قائلين أنه خُلِق وأن حكمة الله مخلوقة.

ويعطي لنا مثالاً رائعاً لما ذكره الرب في (يو ١٥ :٥) داعياً ذاته كرمة ونحن الأغصان. فالأغصان ليست غريبة عن الكرمة بل هي منها بحسب الطبيعة. هكذا هو يقول أنه يصير أساساً لكي يُظهِر القرابة الطبيعية لأولئك الذين بُنُوا فوقه عندما صار إنساناً. بالتالي يكون **كلمة** الله الذي تأنس هو الأساس ونحن نصير كأننا أحجار مقدسة نُبنى فوقه لكي نصير أيضاً هياكل للروح القدس الذي يسكن فينا. أيضاً يستمر في الشرح معطياً أمثلة كعادته لتوضيح التفسير الصحيح لنفس الآية ،إذ يقول، نفترض أننا قطعنا حجراً من جبل وجعلناه أساساً لمبني، وكذلك نفترض أن هذا الحجر يتكلم فهو يستطيع أن يقول: "كنت قطعةً صغيرةً من الحجر في الصخر أو في جبلٍ ما، لكني الآن صرت أساساً لابساً الأرض التي تُحيط بي. هكذا يجب أن تفكر بتقوى أيضاً عن حكمة الله، أي الابن؛ لأنه في البداية كان عند الله، وكان الله، كما هو مكتوب (أنظر يو ١: ٢). لكن طالما قُطِع مثل حجر بدون يد من الجبل (أنظر دا ٢: ٣٤)، أي عندما أتى من جوهر الآب، ولَبِسَ، مثل أرضٍ، جسدنا، عندئذٍ يقول إنه هو نفسه صار أساساً، قائلاً بطريقة ما: أنا كنت الكلمة والابن الحقيقي، الآب ألبسني جسداً أرضياً لكي أصير أساساً وبدايةً لهؤلاء الذين خُلقوا فوقي بواسطة الإيمان، وصرتُ جسداً واحداً مع هؤلاء، لكي يقبلوا التكيُّف والانسجام الطبيعي معي والارتباط بي بسبب قرابتنا بحسب الجسد" (الكنوز ١٥: ٦٤).

٣- نص أمثال ٨:٢٥: "من قبل أن تقررت الجبال قبل التلال أُبدئتُ (وُلدِت)"

يوضح القديس كيرلس الفرق بين "خلقني" و"وُلدِت"، إذ يقول "بما أن الكلمة، حقاً هو الله، وصار إنساناً، بالتأكيد كإنسان يقول "الرب قناني - خلقني" بينما حين أظهر وجوده الأزلي قال: "من قبل أن تقررت الجبال قبل التلال أُبدئت (وُلدِت)". إذن الولادة تعني أنه أتى من جوهر الذي وَلدَه.

أما عن رأي المعارضين بأن الكتاب المقدس لا يميز الكلمات التي يستخدمها، فهو يستخدم نفس الفعل "وُلدِ" حين قال: "ربيت (وَلدت) بنين ونشأهم" (أش ١:٢). وأيضاً: "تركت الله الذي وَلدَك" (أش ٤:١س). "مَنْ يسكب (يلد) زقاق السموات" (أيوب ٣٨:٣٨). وبالتالي - يقولون - إن "خَلَق" و"وَلدَ" يعنيان أمراً واحداً وهما أيضاً يخصان الابن. والغرض من هذا الرأي إقناعنا بأن فعل "وُلدَ" ليس بالضرورة يعني من الجوهر. لكن القديس كيرلس يرد على هذا الرأي الخاطئ موضحاً أن الكتاب المقدس يستخدم الكلمات لكن لا يجهل أهمية كل كلمة، لكن بعض المرات يقبلها مجازياً. فعن المخلوقات يقول الكتاب: "في البدء خلق السماء والأرض" (تك ١:١) و"صنع الله الإنسان"، وليس "وَلدَ". أما بخصوص كلمته يقول: "في البدء كان الكلمة". إذن بالنسبة للمخلوقات البداية هي الزمن، بينما **كلمة** الله، الذي يوجد قبل الأزل، البداية فقط هي أبيه الذي ليس له بداية، طالما يوجد معه أزلياً.

ويريد القديس كيرلس أن يقول أيضاً، إنه عندما يستخدم الكتاب كلمة"وَلدَ" بالنسبة للمخلوقات يجب أن نفهمها بطريقة استعارية أو مجازية وليست طبيعية، وكذلك حين يستخدم "صنع" أو "خلق" بالنسبة للابن يجب أن تُفهم بطريقة استعارية إذ هو الابن بحسب الطبيعة. لأن بالنسبة للمخلوقات، فإن فعل "وَلدَ" هو نتيجة للنعمة، بينما بالنسبة لـ "غير الصائر" و"غير المخلوق" أي **كلمة** الآب، فإن ضرورة الطبيعة البشرية فرضت عليه أن يقول إنه خلق ذاته. والمخلوقات مدعوة للتبني **بالكلمة** وإرادة الله. لذلك قال: "أنتم من أسفل أما أنا فمن فوق" (يو ٨:٢٣). إذن بكلمة "أسفل" يُظهِر وضاعة الجوهر المخلوق بينما بكلمة "فوق"تعني سمو الطبيعة الإلهية التي تفوق الكل (الكنوز ١٥: ٥٠).

٣- نصوص مت ٣٨:٢٦ – ٣٩، يو ٣٥:١١، يو ٢٧:١٢

استغل الأريوسيون ما جاء في نصوص بعض الآيات من كلمات مثل: "بكي" (يو ٣٥:١١)، "الآن نفسي قد اضطربت" (يو ٢٧:١٢)، "نفسي حزينة" (مت ٣٨:٢٦)، "إن شئت فلتعبر عني هذا الكأس" (مت ٣٩:٢٦)، وكل الشواهد الشبيهة بهذه، لكي يبرهنوا على أن يسوع المسيح كان إنساناً عادياً، طالما أن هذه الأقوال تعبر عن خواص بشرية بحته. إذن هو – بحسب رأيهم – مخلوق عادي وليس من نفس جوهر الله الأزلي. وكان رد القديس كيرلس واضحاً، إذ ميّز بين الأقوال التي تناسب **الكلمة** قبل تجسده، وتلك التي قيلت عنه بعد التجسد. بالتالي فإن **كلمة** الله لم يعانِ مثل كل البشر إلاّ فقط عندما تجسد لأنه اتخذ جسداً من طبيعتنا يعاني ما يعانيه البشر. ويتساءل القديس كيرلس: "لكن بما أنه كان هو الله الذي صار إنساناً وليس أحداً آخر، فمِن أي شيء يخاف الله، إذا كان قد قال حقاً: "أنا هو الحياة" (يو ١٤: ٦)؟ لأيُ سببٍ تخاف الحياةُ الموتَ؟ وإذا كان قد خلَّصَ آخرين من الموت، فكيف يخاف هو نفسه من الموت؟ وهو الذي قال لتلاميذه: "لاَ تَخَافُوا مِنَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ الْجَسَدَ وَلكِنَّ النَّفْسَ لاَ يَقْدِرُونَ أَنْ يَقْتُلُوهَا"(مت ١٠: ٢٨٠)، كيف يمكن أن يخاف اجتياز الموت في اللحظة التي يشجع فيها إبرآم قائلاً: "لا تخف يا إبرآم" (تك ١٥: ١). وهو الذي جعل موسى غير مرتعب أمام فرعون، وقال ليشوع بن نون: "تشدد وتشجع" (يشوع ١: ٦). كيف يكون جباناً ويخاف من البشر هذا الذي نَصَحَ الآخرين بأن لا يخافوا، بل أقنعهم أن يصرخوا: "الرب لي فلا أخاف ماذا يصنع بي الإنسان" (مز ١١٨: ٦)؟ كيف لمَن أتى لكي يُميت الموت، أن يخاف هو نفسه؟ إن هذا ضد ما أتى لأجله. كيف لا يكون تجديفاً أن تقولوا إنه خاف من الهاوية، وهو الذي لمجرد أن رآه حُراس الأبواب ارتعبوا من الخوف، وعندما فتحوا الأبواب التي لا أحد يستطيع أن يهرب منها، تركوا الأرواح حُرةً، تلك الأرواح التي كانت محبوسةً هناك في الداخل، والنتيجة أن كثيرين قاموا من القديسين ودخلوا المدينة، كما هو مكتوب، وظهروا لكثيرين (انظر مت ٢٧: ٥٢ – ٥٣)؟".

ويعود القديس كيرلس للأقوال التي قالها المسيح في حياته والتي توضح أنه كان لا يخاف شيئاً فيقول: "كيف خاف الموت ذاك الذي قال لأولئك الذين فتشوا عنه وذهبوا

ليقبضوا عليه: "أنا هو" (يو ١٨: ٦)؟ كيف خاف الموت ذاك الذي قال: "لي سلطانٌ أن أضعها ولي سلطان أن آخذها أيضاً" (يو ١٠: ١٨)، وأيضاً: "ليس أحد يأخذها مني بل أضعها أنا من ذاتي" (يو ١٠: ١٨)؟" (الكنوز ٢٤: ١).

بما أن هذه الأقوال قيلت عنه إنسانياً بعد التجسد أي عندما صار إنساناً، إذن هي تخصه بكونه إنساناً يحمل الطبيعية البشرية التي تُوصف بمثل هذه الأوصاف (الكنوز ٢٤: ٢).

ويوجه للهراطقة سؤالاً هاماً وضرورياً، إذ يقول لهم: "لقد أوصلتكم الأقوال التي قيلت بطريقة إنسانية إلى التفكير في أشياء وضيعة عن ابن الله، فلماذا لم تقُدكم الأقوال والأفعال التي تليق به كإله إلى التفكير في الأمور العظيمة والسامية؟" (الكنوز ٢٤: ٤). بالتالي، التأنس - كما يؤكد القديس كيرلس - كان المبرر الذي جعل الكتب المقدسة تتحدث عنه بطريقة بشرية.

أيضاً هناك بُعدٌ آخر ركَّز عليه القديس كيرلس حين أكد على أن **الكلمة** هكذا تحدث وتصرف بطريقة بشرية لكي يظهر بوضوح أنه إنسان حقيقي وليس خيالاً. وأيضاً بالرغم من أنه بلا خطية، إلاَّ أنه سمح لجسده وطبيعته البشرية أن تخضع لهذه الأوجاع التي هي من ضمن خصائص هذه الطبيعة؛ لكي يبرهن أنه لبس جسداً، وصار إنساناً بالحقيقة بحسب الكتب (أنظر يو ١: ١٤).

ولا ينسي القديس كيرلس البُعد الآخر، وهو أن **الكلمة** عندما صار إنساناً لم يتوقف عن أن يكون إلهاً، فصنع أفعالاً تليق به كإله، وقال لليهود: "فإن لم تؤمنوا بي فآمنوا بالأعمال لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيَّ وأنا فيه" (يو ١٠: ٣٨) (الكنوز ٢٤: ٥). هكذا تلك الأقوال التي قيلت وصارت بطريقة تليق به بكونه إلهاً تُظهِر المخلص أنه الله، بينما تلك التي قيلت وصارت بطريقة إنسانية، تُظهر أنه إنسان بالحقيقة.

يقول أيضاً القديس كيرلس، إن المخلص قد أبطل الموت بموته (أنظر ٢ تيمو ١: ١٠). "وإذا كان الموت لا يُبطل إن لم يَمُت هكذا أيضاً هو لم يخَف من أي ألم للجسد لَما تحررت الطبيعة البشرية من الخوف" (الكنوز ٢٤: ١٠). ويتابع القديس كيرلس حديثة موضحاً أن هذه الحقيقة تسري على كل أوجاع الجسد التي اجتازها المخلص: "سنجد أن

كل أوجاع الجسد التي عاناها المسيح، لم تُعلن لكي تصير مسيطرة عليه، مثلما يحدث معنا، بل تُعلَن بقوة **الكلمة** الذي يسكن في هيكل جسده، وهكذا تتغير الطبيعة البشرية نحو الأفضل" (الكنوز ٢٤: ١٠).

أراد القديس كيرلس أن يوضح للهراطقة أن كل ما أجتازه المسيح بشرياً هو لأجلنا ولأجل خلاصنا، وبناء على ذلك، فإننا لا نخجل من الأقوال التي قيلت عنه بكونه إنساناً. لذا يدعونا القديس كيرلس بأن نفتخر، بصليب مخلِّصنا المسيح ونؤمن بأنه لأجل هذا قد خلَّصنا، لأنه صار لأجلنا إنساناً وصُلِب لأجلنا، لكي يُبطل الموت الذي يسري علينا، ولكي يقيمنا أيضاً بذاته محولاً إيانا من حالة الفساد إلى عدم الفساد" (الكنوز ٢٤: ١١). وهكذا بكونه إنساناً قال: "إلهي إلهي لماذا تركتني" (مت ٢٧:٤٦)، "فلتعبر عني هذا الكأس" (مت ٢٦:٣٩)، بينما بأعماله برهن أنه هو الله لأن الشمس أخفت شعاعها ولفَّ الظلام السماء، وانشقت الصخور وحجاب الهيكل وصنع أموراً أخرى عظيمة مثل هذه لكي يبرهن أنه هو الله الذي صار إنساناً. والبرهان على ذلك - كما يؤكد القديس كيرلس - أن صالبيه الذين كانوا يستهزؤن به من قبل، وهم يرون كل ما صار بطريقة إلهية، قالوا: "حقاً كان هذا هو ابن الله" (مت ٢٦:٢٤).

ثم بعد كل هذه البراهين يضع أمام الهراطقة برهاناً آخر، في غاية من الأهمية، إذ يستشهد بما قاله الله بواسطة الأنبياء بخصوص أورشليم: "سببت لي حزناً بكل ما فعلت" (أر ١٦:٤٣س)، وأيضاً "أفما أعاقبهم على هذه يقول الرب أم لا تنتقم نفسي من أمة كهذه" (أر ٩:٩). وغيرها من الشواهد التي تُظهِر تصرفات الله تجاههم بطريقة بشرية. فيسائلهم القديس كيرلس: "إن **كلمة** الله كان هو مَنْ قال هذه الأقوال للأنبياء، فما الذي يمكن أن يصنعه محاربو المسيح؟ هل يعتقدون أن له - مثل البشر - نفساً وقلباً، ويقولون إن ألم الحزن والغضب قد استحوذ عليه، فيظهر وكأن لا شيء لديه أكثر من الإنسان، **كلمة** الله الذي هو فوق أي طبيعة مخلوقة مثل الآب؟" (أنظر الكنوز ٢٤: ١٤). طبعاً سيقولون أن هذه الأقوال قيلت على **الكلمة** بطريقة رمزية. وهنا يقول القديس كيرلس للهراطقة: "إذا كنتم تحفظون لابن الله مكانته التي تليق به - عندما يقول هذه الأقوال - مؤكدين على أنه فوق الحزن والغضب والهوى، بالرغم من أنه ظهر محتملاً كل هذا لأجل شيء مفيد، فكيف

يُعقل ألاَّ نسمح له – وقد صار إنساناً واتخذ جسداً – بأن يقول مثل هذه الأقوال لكي يظل غير متألم، بالرغم من أن هذه الأمور تُعد من خصائص الجسد بحسب طبيعتـه، أي ذلـك الجسد الذي أخذه لأجلنا مع كل صفاته الطبيعية؟ أي أن يبكي، ويضطرب، ويصـارع، ويتجنب الموت، ويتألم بكل ما هو شبيهٌ بتلك الأمور؛ لأن هذه الأمور كلها مِن صـفات الطبيعة الإنسانية" (الكنوز ٢٤: ١٤).

٤- نص سفر أعمال الرسل ٢:٣٦

يستخدم الأريوسيون نص سفر أعمال الرسل: "فليعلم جميع بيت إسرائيل أن الله جعل يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم رباً ومسيحاً" (أع ٢:٣٦) لكي يدعِّموا رأيهم الخاطئ عن الابن. والتفسير الصحيح للقديس كيرلس، هو أن فعل "جعـل" «ἐποίησε» لا يخص جوهر **الكلمة** أي الأقنوم الثاني للثالوث قبل تأنسه، بل يخص ناسوته. وبحسب تعبير القديس كيرلس، يخص "الهيكل الذي صار من مريم" (الكنوز ٢١: ١٧). ويعطي لنا مثالاً توضيحياً، "شخص كان فقيراً ثم صار مالكاً لأموال، أو شخص لم يكن نبياً من البدايـة ثم مُسح من إله ليكون نبياً. في هذه الأمثلة كلمة "صارٍ" لا تعني البداية، لكنها تـدل علـى الانتقال من حالة إلى أخرى" (الكنوز ٢١: ١٧).

ويتساءل القديس كيرلس، كيف أن الله جعل يسوع رباً ومسيحاً؟ يجيـب هـو نفسه شارحاً لنا حركة الإخلاء، **فالكلمة** بينما هو إله ورب أخلى ذاته بتأنسـه إذ أخـذ شكل العبد ومُسح؛ لأن هذا الأمر يتناسب مع الإنسان، ورُفِعَ إلى مكانه عظيمة كإنسان. وعند هذا الحد يشرح القديس كيرلس تبادل الخواص في شخص المسيح الواحد، إذ يقول: "لأن كلمة الله لم يأت ليطمس طبيعة الله الحرة تحت شكل العبد، ولا لكي يترك ما هـو موجود ومحدد في خصائص الطبيعة البشرية، بل لكي يرفع هذا الذي كـان مسـتعبداً إلى مكانة الرب الشرفية، ويُحضر ثانيةً هذا الذي كان مهاناً إلى كرامته. لأننا كيـف نُـدعى أخوة المسيح، وكيف صرتم أبناءً، لو لم يكن المسيح قد أفادنا بتأنُّسهِ؟" (الكنوز ٢١: ١٨). وهنا يقول القديس كيرلس ملاحظته الدقيقة موضحاً أن التلميذ القديس، يقصد بطرس "لم يقل هكذا بلا هدف "أن الله جعل يسوع رباً" بل أضاف "يسوع هذا الذي صلبتموه" (أع ٢:٣٦). بالتالي "لم يقل أنه جعله **كلمةً** وابناً له، بل جعله رباً ومسيحاً، الأمـر الـذي لا

يخص إلوهيته، لكن إلى انتقاله من أمر إلى آخر. أمَّا كيف صار رباً ومسيحاً، فهذا ما قلناه سابقاً" (الكنوز ٢١: ١٨).

٥- نص كو ١: ١٥ "بكر كل الخليقة":

لقد دعَّم الأريوسيون رأيهم الخاطئ عن الابن بـأنه مخلوق باستخدام هذا النص، قائلين لأنه لولا أنه مخلوق لَمَا قِيل عنه "بكر كل الخليقة". وهذا التحديد يجعل الابن - بحسب الأريوسيين - مخلوقاً بالرغم من أنه الأول وقبل كل المخلوقات. ولكي يرد القديس كيرلس على إدعائهم الكاذب فإنه يواجههم بمصطلح آخر هو "وحيد الجنس"، إذ يقول لهم: "إذا كان اسم بكر يضع الابن ضمن المخلوقات، فإن تسميته بـ "وحيد الجنس" سوف تستثنيه من ذلك على أية حال. لأنه إذا كان من غير الممكن أن يُسمَّى المرءُ بكراً إن لم يكن له إخوةٌ كثيرون، هكذا أيضاً لا يمكن أن يكون هناك شخصٌ وحيد الجنس إن لم يكن وحيداً و لم يحسب مع آخرين" (الكنوز ٢٥: ٢).

ويتساءل القديس كيرلس: كيف إذن يكون بكراً ووحيد الجنس؟

الإجابة واضحة جداً من جانب القديس كيرلس: "وحيد الجنس إذن يكون لأنه هو **الكلمة** الآتي من الآب وليس لديه إخوة بحسب الطبيعة، ولا يُحسب مع آخر. فابن الله واحد هو وفريد. هو أيضاً بكر ليس هكذا ببساطة وبدون آخرين على علاقة به، لكن مع أخوة كثيرين كما هو مكتوب (أنظر رو ٨: ٢٩). لكن متى صار أخاً لنا، إن لم يكن حين لَبسَ جسدنا؟ هكذا إذن صار بكراً عندما أتى بأبناء كثيرين لله بحسب النعمة" (الكنوز ٢٥: ٣). هكذا لقد دُعيَ بكر كل الخليقة بسبب تجسده وصار مثلنا فيما عدا الخطية. ويُذكّرنا القديس كيرلس بمبدأ كتابي قد سبق وأخبرنا عنه، وهو أن الكتاب المقدس حين يذكر أي شيء بخصوص **الكلمة** في علاقته مع الآب لا يضيف أي سبب، بينما حين يذكر الأمور الخاصة بتأنسه يضيف السبب. هكذا يقول القديس كيرلس "عندما دُعيَ وحيد الجنس، دُعيَ بدون أن يكون هناك علةٌ بمقتضاها أصبح وحيد الجنس، بل لأنه حُر من كل قيد، وهو الإله وحيد الجنس الكائن في حضن الآب. لكن عندما تدعوه الكتب المقدسة بكراً، فإنها للتو تضيف: مَنْ هو البكر، وكذلك السبب الذي لأجله دُعيَ بهذا الاسم. لأن الكتب المقدسة تقول "بكراً بين أخوة كثيرين" (رو ٨: ٢٩)، "بكر من بين الأموات"

(كو ١:١٨). (الكنوز ٢٥: ٣). ويشير القديس كيرلس إلى ملحوظة هامة، بأن الابن عندما صار إنساناً لم يصر أدنى من جهة كل ما يخص المكانة التي تليق بطبيعته الإلهية، بل أيضاً كإنسان فهو الأول ويسبق كل الخليقة، طالما هو خالقها وهو الرب. ويستشهد بقول يوحنا الإنجيلي "ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب" (يو ١: ١٤) (الكنوز ٢٥: ٣).

يعود القديس كيرلس ليؤكد أن تعبير "بكر كل خليقة" صحيحٌ في إطار التدبير الإلهي وتجسد **الكلمة**، فهو "يُدعى بكراً لأخوة كثيرين، لأنه صار شبيهاً بنا في كل شيء ماعدا الخطية، ولأنه لَبِسَ جسدنا وصار أخاً لنا. أيضاً هو بكر من الأموات؛ لأنه هو الأول الذي أقام جسده في عدم فساد وهو الأول الذي أصعده إلى السموات، لذلك يقول: "أنا هو الطريق" (يو ١٦:٦) و"أنا هو الباب" (يو ١٠: ٩) وبواسطته تعلّمت الطبيعة البشرية أن تسلك في طريق القيامة الجديد، وبواسطته - كما مِن بابٍ - دخلت إلى السماء" (الكنوز ٢٥: ٧).

٦- نص عب ٣: ١ - ٢: "لاحظوا رسول إعترافنا ورئيس كهنته المسيح يسوع حال كونه أميناً للذي أقامه كما كان موسى أيضاً في بيته".

استغل الأريوسيون بعض الألفاظ هنا مثل "كونه أميناً للذي أقامة" لكي يدعموا رأيهم الخاطئ بأن الابن مخلوق. والقديس كيرلس يقدم لهم أولاً مبدأً هاماً في التفسير كان قد سبق وأكد عليه القديس أثناسيوس الرسولي، بأن الألفاظ لا تحدد جوهر الأشياء، بل طبيعة الأشياء وجوهرها هي التي تعطي المعنى للألفاظ والكلمات. فعندما تُستخدم كلمة "عبيد" للأبناء الطبيعيين، فإنها لا تؤثر على رتبة أصلهم الطبيعي الشريف. وأيضاً عندما يُقال على الذي وُلِدَ أنه خُلِقَ لا يوجد أي ضرر. لذلك عندما نطبق هذا المبدأ على آية (عب ٣: ٢) "حال كونه أميناً للذي أقامة"، فالابن بكونه إلهاً فهو لا يتغير. وإن هذا القول يُدرك إدراكاً صحيحاً في إطار تأنسه. هكذا استخدام الكلمات لا يؤثر على الحقيقة. ويستشهد القديس كيرلس من الكتاب بما يُدَعِّم هذا الأمر الذي شرحه، إذ يقول: "بئر سبع تُدعى عبد داود، وسليمان يقول: "سليمان عبدك" (مل ١: ٩). ويستخدم كلمة خُلقوا على الذين وُلدوا، لأن حزقيا يقول: "من اليوم سأخلق أولاد" (أش ٣٨: ١٩ س). وعن أيوب: "وصار له سبعة أبناء وثلاث بنات" (أيوب ١: ٢ س). ويتساءل القديس كيرلس: لو قبلنا

في حالة البشر هذا الذي يُقال بدون أن نلاحظ دقة الكلمات، بل طبيعة الأشياء، كيف لا ينبغي بالضرورة أن نطبق نفس الطريقة على الولادة الإلهية؟ (الكنوز ٢١: ١٢).

يعود أيضاً القديس كيرلس ليفسر ما كتبه القديس بولس تفسيراً صحيحاً في إطار التأنس، إذ يقول: متى صار هو رئيس كهنة إيماننا؟ متى صار رسولاً؟ ومتى ظل أميناً لذاك الذي أقامه (جبله)؟ ويجيب القديس كيرلس بكل ثقة ووضوح، قائلاً: "لقد صار إنساناً بسببنا ولأجلنا ووفق أقوال يوحنا "الكلمة صار جسداً (إنساناً)" (يو ١: ٤)" (الكنوز ٢١: ١٥)، أي حينذاك صار رسولاً وأُرسل لأجلنا وبسببنا. وصار رئيس كهنة، ناقلاً اعتراف إيماننا إلى الآب، مقدماً جسده نفسه كذبيحة بلا لوم، لكي يظهر الكل من خلاله أمام الآب.

ويفسر أيضاً القديس كيرلس كلمة "أميناً" في إطار التأنس، فهو "أمينٌ" لأنه قدم نفسه لأجل الجميع ذبيحة دائمة بدون أن تتغير: "فإن كُنا غير أمناء فهو يبقي أميناً لن يقدر أن يُنكر نفسه" (٢ تيمو ٢: ١٣). لقد بقى أميناً؛ لأنه عندما صار إنساناً ظل هو نفسه أمس واليوم وإلى الأبد (عب ١٣: ٨) (الكنوز ٢١: ١٦).

٧- الابن أزلي مع الآب

حين أدعى الأريوسيون أنه "كان يوجد زمن لم يكن فيه الابن موجوداً" اتهمهم القديس كيرلس بالغباء والجهل لأن معنى ذلك أنه كان يوجد زمن قبل وجود الابن الذي بواسطته كما يقول الرسول بولس خُلقت الدهور (أنظر عب ١: ٢). ويستشهد القديس كيرلس بما جاء في سفر الرؤيا (١: ٤) "الكائن والذي يأتي". والقديس يوحنا يستخدم "كان" **للكلمة** لأنه يقول "والكلمة كان عند الله" (يو ١: ١). إذن كلمة "أزلي" تسري عليه إذ قيل عنه إنه هو"الكائن والذي كان".

ويوضح لنا القديس كيرلس، أن الكتب المقدسة تستخدم تعبيرات "الكائن والذي كان"، "وكُنت" و"أكون" فقط على **الكلمة**، أمَّا عن المخلوقات فتستخدم تعبيرات: "قبل"، و"من قبل" و"صار" وكل الأفعال المتشابهة مع هذه الأفعال. يقول المخلص: "أنا هو (أكون) الحق"، "أنا هو (أكون) النور"، "أنا هو (أكون) الراعي" (يو ١٤: ٦ – ٨: ١٢ –

١٠: ١١). لذلك يقول المرنم: "من قبل أن تولد الجبال أو أبدأت الأرض والمسكونة منذ الأزل إلى الأبد أنت الله" (مز ٩٠: ٢). قال المخلص عن ذاته: "أنا هو (أكون) الطريق. أنا هو (أكون) الباب" (يو ١٤: ٦ – ١٠: ٩). والآب قال له: "أنت (تكون) ابني الحبيب" (مر ١: ١١)، وأيضاً "قال الرب لربي أنت (تكون) ابني" (مز ٢: ٧). الجدير بالملاحظة هنا هو استخدام أفعال الكينونة: يكون وكان ولم تُستخدم إطلاقاً كلمة: صار، بينما على المخلوقات، يقول موسى النبي بخصوص خلق العالم: "كل شجر البرية لم يصر بعد في الأرض وكل عشب البرية لم ينبت بعد. لأن الرب الإله لم يكن قد أمطر على الأرض. ولا صار إنسان ليعمل الأرض" (تك ٢: ٥). كذلك الأداة: عندما أو حين «ὅτε» تعني دائماً زمن، إذ يقول في سفر التثنية: "عندما قسم العلي للأمم" (تث ٣٢: ٨)، أيضاً بأداة "من قبل": "من قبل أن تقررت الجبال قبل التلال أُبدئت" (أمثال ٨: ٢٣ – ٢٥)، "قبلما صورتك في البطن عرفتك، وقبلما خرجت من الرحم قدستك" (أر ١: ٥).

أيضاً قال بولس عن **الكلمة** "الذي وهو بهاء مجد الله ورسم جوهره" (عب ١: ١) وداود يرنم "ولتكن نعمة الرب إلهنا علينا" (مز ٩: ١٧)، وكذلك "بنورك نعاين النور" (مز ٣٦: ٩). ويتساءل القديس كيرلس: متى كان الآب بدون بهاء؟ متى لم يوجد بهاء الله فيه؟ طالما أن الابن هو نور من نور الآب، متى كان الآب بدون نور؟ ويستخلص القديس كيرلس من كل هذه الأسئلة النتيجة الهامة والواضحة: مثلما ينير الشعاع بدون انفصاله عن النور، هكذا النور الذي يُولد من الآب لا ينفصل عنه (الكنوز ٤: ٦).

يقول الهراطقة أيضاً، إن أبناء البشر يُولدون بعد الآباء، ولا وجود لهم قبل أن يُولدوا. ويتساءلون، كيف للابن أن يكون **كلمة** الله فهو – في نظرهم – مثل كلمة البشر ليس لها كيان ولا تبقى بعدما قيلت، بل تنحل مباشرةً إلى العدم. ويجيب القديس كيرلس على رأي الهراطقة بوضوح وحسم ومنطقية، إذ يقول لهم، لو أن الله هو مثل الإنسان، ولا يوجد فيه شيء أكثر مما لنا، فإن هذه الأمور البشرية سوف تسري عليه، وليكن موجوداً قبل ابنه مثلما نحن، ودع الذي يأتي منه يذهب إلى العدم. طبعاً لا يمكن للهراطقة أن يقبلوا هذا الأمر، لذا يؤكد لهم أن الله كائن أسمى – بحسب الجوهر– من البشر. المشكلة الخطيرة التي كان يعاني منها الهراطقة، هي إخضاع الله لضروراتنا. فالله أسمى من النواميس التي

نخضع لها، فنحن فاسدون بينما الله غير فاسد. نحن أتينا إلى الوجود من العدم بينما الله هو كائن أزلي على الدوام (الكنوز ١٦: ٢). وبحسب القديس كيرلس، الحالة التي عليها الوالد هي نفسها التي يكون عليها المولود منه. "الله الآب هو أزلي، بالتالي أيضاً النور الذي أتى منه هو أيضاً أزلي. إذن كان أيضاً الشعاع موجودًا مع النور" (الكنوز ١٦: ٢). أما بخصوص أن كلمة الإنسان التي يتفوه بها تنحل إلى العدم فور النطق بها فهذا صواب - كما يقول القديس كيرلس - فهي ليست فعالة ولا حية وكذلك الإنسان الذي ولدها يأتي إلى العدم وهو خاضع للفساد، أما **كلمة** الله فهو حيٌّ ولأنه يأتي من الحي، فهو كائن أزلي على الدوام. لأن الله لم يكن ولن يكون بدون **الكلمة**. وبولس يقول عنه "كلمة الله حيَّة وفعالة" (عب ٤: ١٢). إنه إذن خالق والكل صار بواسطته وبدونه لم يَصِر شيء (يو ١: ٣) (الكنوز ١٦: ٥).

والقديس كيرلس أيضاً يشرح الأسماء: آب وابن في سياق الثالوث القدوس الأزلي وفق معايير ليست بشرية. فالأريوسيون يحاولون أن يُخضعوا الثالوث للمفاهيم البشرية. فهم يظنون طالما أن الله آب إذن كان هناك وقت لم يكن فيه إبنًا، فيقول لهم القديس كيرلس: "عندما نقول الله الآب، والله **الكلمة** الابن، فنحن لا نقصد أن الواحد كائن مسبقاً، ثم صار بعده الآخر وفق الترتيب الذي يوجد في البشر، لأن الله كائن فوق كل زمن، لكن لكي نعبد الواحد كوالد الذي هو الآب، والآخر كابنٍ أصيل ولادته من الآب لا تُوصف. إذن ندعوه آباً لأنه وَلَدَ، وندعوه ابناً لأنه وُلِدِ. ونستخدم هذه الأسماء لتظهر لنا هذه الحقائق" (الكنوز ٤: ٢٠). هكذا يُدعى أب لأنه يلِد، وابن لأنه وُلِدِ. وبذلك اسم الآب يعني فقط خاصية أنه يلِد، فلا يوجد سبب أجبر الله أن يَلِد قبل الزمن، لكي يُوجد قبل هذا الذي وَلَدَه. وبرهان القديس كيرلس يهدف إلى أنه لا توجد فترة زمنية بين الذي وَلَدَ والذي وُلِدَ، بالتالي فإن الابن كان دائماً أزلياً مع الآب (الكنوز ٤: ٢٠).

إن الثالوث القدوس يختلف اختلافاً مطلقاً عن الكائنات المخلوقة. والاختلاف هنا هو اختلاف كياني مطلق. إذ لا يوجد شيء مشترك في إطار الرؤية الكيانية (الأنطولوجية) بين الثالوث القدوس والمخلوقات. وبناء على ذلك لا تصلح المعايير المستخدمة للنواميس الطبيعية بالنسبة لطبيعة الثالوث القدوس الأزلي، إذ تسري عليها معايير تليق بالثالوث

القدوس، معايير تسمو فوق أي مفهوم يخص الكائنات المخلوقة. وبالتالي ولادة الابن من الآب أزلياً لا يمكن أن تُدرك على أساس طريقة ولادة البشر الطبيعية.

الهراطقة نادوا أيضاً بأن الله ليس كاملاً بسبب أنه يلد، بل لأنه حقاً الله الخالق، وبسبب هذا هو كامل، ثم صار بعد ذلك آب. والقديس كيرلس يرد على هؤلاء الهراطقة مفترضاً أن خاصية الآب حدثت للآب – كما يزعمون – في وقت لاحق، ثم يسألهم: ماذا كان – إذن – قبل أن يصير آباً؟ ثم يعاجلهم بالكتب المقدسة لأنها لا تعرف الله بدون أن يكون أباً ويعطيهم اختياراً: هل تريدون أن تكونوا متناقضين مع الكتب المقدسة؟ إما أن يكون هو الآب الأزلي. وبالتالي لا يمكن أن يُقال آب بدون أن يوجد ابن. ويخاطب القديس كيرلس محاربي المسيح موضحاً لهم أنهم يخطئون ويهينون الله إذا ظنوا أنهم يعملون عملاً عظيماً بعدم اعترافهم أن الله هو آب من البداية وقبولهم أنه الله ثم بعد ذلك صار آباً. فهم يحرمون الطبيعة الإلهية من أمر قيِّم جداً. لأن اسم الله له علاقة بالعبيد (فهو الرب والسيد لهم) الذين جوهرهم مخلوق، بينما اسم الآب له علاقة بالابن (الكنوز ٥: ٢٠).

يؤكد دائماً القديس كيرلس على لقب الآب أكثر من لقب الله فقط. والبرهان عند القديس كيرلس هو شواهد الكتاب المقدس ومنها ما ورد في (مت ٢٨: ١٩)، إذ أمر المسيح التلاميذ أن يعمدوا ليس باسم الله والابن والروح القدس، بل باسم الآب والابن والروح القدس، أيضاً حين سأل فيلبس عن الطبيعة الإلهية، قال: "أرنا الآب" (يو ١٤: ٨). هنا لا يدعوه الله بل الآب، كذلك إجابة المخلص ذاته "أنا معكم زماناً هذه مدته و لم تعرفني يا فيلبس الذي رآني فقد رأى الآب" (يو ١٤: ٩).

ويوضح القديس كيرلس سبب أفضلية اسم الآب، قائلاً: "لأنه عندما يُدعى الله آباً، يكون قد دُعيَ من الأعظم والأجدر جداً، بينما عندما يُدعى الله ويُدعي أيضًا خالقاً، فإنه يُدعى من المخلوقات، الأمر الذي يُعد أدنى كثيراً جداً بقدر الاختلاف العظيم بين العبد والرب، بين الخالق والمخلوق (الكنوز ٥: ٢٢). "أيضاً حين قال المخلص لتلاميذه "إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم" (يو ٢٠: ١٧). يكرر أيضاً نفس الأمر، "فإذا كانت المخلوقات قد أتت تالية لولادة الابن، إذن اسم الآب أتى أولاً، وتبعه في نفس الوقت اسم الله أيضاً" (الكنوز ٥: ٢٣). والعظيم في قول المخلص هو أنه أعطانا الذي له، بسبب محبته

العظيمة لنا، وقال: "وأبيكم". والسبب في ذلك كما يقول القديس كيرلس: "لأننا قد دُعينا إلى التبني من خلاله وصار أبونا بحسب النعمة، بينما هو أبوه بحسب الطبيعة، آخذاً كل ما يخصنا في ذاته، إذ صار في هيئة العبد حاملاً الخواص الطبيعية للعبيد، وقال "إلهي وإلهكم". هكذا الله هو آب له بحسب الطبيعة بينما هو إلهنا. ولأننا - كما قلت من قبل - خلقنا بواسطة الابن فهو أولاً آب وبعد ذلك الله، على الرغم من أنه هو في نفس الوقت الاثنان معاً" (الكنوز ٥: ٢٣).

ادعّى الهراطقة أيضاً بأنهم يؤمنون بأن الابن أزليٌّ مع الآب، طالما أن الآب لديه القدرة أن يلد قبل أن يلده. يرفض القديس كيرلس هذا الرأي لأنه سينتج عنه نتائج عبثية، إذ يتساءل قائلاً: "ما الذي يمنعنا أن نقول: إذا كانت إمكانية الخلق توجد في الله، إذن المخلوقات التي خلقها هي أزلية أيضاً معه؟" (الكنوز ٥: ٢٥). ويصف هذه النتيجة بالسخف عينه، لأن إمكانية الله أن يخلق لا تعني أن الأشياء صارت، ولا إمكانية الآب أن يلد تعني وجود الابن قبل أن يُولد، لكن هو وُلِدَ منه بحسب الطبيعة وفي نفس الوقت أيضاً هو أزلي مثل الحرارة من النار أو الرائحة من الورد (الكنوز ٥: ٢٥).

هكذا القدرة على الولادة لا تتضمن أيضاً أن الولادة قد حدثت بالفعل. لأنه، حين يَلِد وقتها، أيضاً يفعل، لذلك يؤكد القديس كيرلس على أن إمكانية الآب أن يلد لا تعني وجود الابن، لكن كون أن الله آب فهذا يُدرك مِن الذي أتى منه (الابن)، لأجل هذا هو آب والابن هو أزلي مع الآب" (الكنوز ٥: ٢٦).

يستند الأريوسيون على نص (فيلبي ٢: ٩): "لذلك رفَّعَه الله أيضاً وأعطاه اسماً فوق كل اسمٍ" لكي يبرهنوا على أن الابن رُفِّع بواسطة الله ومُجِّد وأخذ اسماً فوق كل اسم لأنه وضع ذاته حتى الموت، واكتسب كل هذا من الخارج بدون أن يكون بحسب الطبيعة إلهاً. والإجابة من جانب القديس كيرلس كانت وابلاً من الأسئلة الاستنكارية:

- "أيُ كرامةٍ مضاعفةٍ صارت لذاك الذي لَبِسَ شكل العبد، بينما وجوده هو وجود إلهي؟

- كيف نعتبر ناقصاً ذاك الذي ترك الأسمى وأخذ الأدنى؟

- أي مكافأة يأخذها ذاك الذي كان الله ثم صار إنساناً؟

- كيف مُجِّد ذاك الذي نزل من المجد إلى الهوان؟

- كيف صار في رفعةٍ ذاك الذي تنازل عن رُتبة الإلوهية وصار إنساناً؟

- كيف يُرفع الذي نزل؟

- أيُ وضعٍ حسنٍ اكتسبه هذا الذي أتى من الأعالي ونزل إلى الأدنى؟

فإذا كان الذي هو الله العلي الساكن في الأعالي يُقال إنه رُفِّعَ، فمَنْ هو الذي هو أكثر من طبيعة الله واستطاع أن يُصعِده؟

- كيف يمكن أن يكون وضيعاً هذا الذي هو في أحضان الآب العلي؟

- أيُ إضافةٍ يحتاجها الله؟

- فإذا كان نزل لأجل أن يُرفَع، فما الداعي لنزوله أصلاً؟

- فإن كان لأجل أن يُمجَّد، وضع ذاته، فأيُ احتياجٍ لديه لكي يتضع؟

- كيف لا يكون غير حكيمٍ ذاك الذي بجهدٍ طلب الشيء الذي لديه بدون أي مجهود؟

- كيف أخذ اسماً ذاك الذي هو أعظم وفوق كل اسمٍ آخر، ذاك الذي دائماً يُسجد له؟" (الكنوز ٢٠: ٢).

ويستشهد القديس كيرلس من الكتاب المقدس بنصوص توضح أن **الكلمة** قبل تأنسه كان لديه كل شيء بكونه الله ولأجلنا اتضع وأخلى ذاته، ففي (مز ٢٠: ٧ - ٨) "هؤلاء بالمركبات وهؤلاء بالخيل، أما نحن فباسم الرب إلهنا نذكر هم جثوا وسقطوا أما نحن فقمنا وانتصبنا"، و"يكون اسمه إلى الدهر قدام الشمس يمتد اسمه" (مز ٧٣: ٢١ س). ثم يتساءل، قائلاً: "كيف أخذ هذا الاسم ذاك الذي يملك كل شيء؟" (الكنوز ٢٠: ٣). وبالتالي، فإن الرفعة والمجد يخصان الطبيعة البشرية للمسيح حين صار (**الكلمة**) جسداً وحلَّ بيننا" (يو ١: ١٤)، إذن طالما أن التواضع صار باتخاذ الجسد فالرفعة صارت لأجل البشرية. أيضاً في (عب ٩: ٢٤): "لأن المسيح لم يدخل إلى أقداس مصنوعة بيدٍ أشباه الحقيقة، بل إلى السماء عينها، ليظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا". فبالرغم من أنه هو دائماً في السموات وفي حضن أبيه، إلاَّ أنه دخل الآن إلى السماء وظهر عند الآب، وبنفس الطريقة لأجلنا رُفع

ومُجِّد وأخذ "اسماً فوق كل اسم" (فيلبي ٢: ٩). ومثلما به ندخل إلى السماء ونحضر أمام الآب، هكذا أيضاً نُمجَّد ونُرفع لنصير أبناء الله" (الكنوز ٢٠: ٥). وكذلك حين يقول المرنم "ارفعن أيتها الأرتاج رؤوسكن وارتفعن أيتها الأبواب الدهرية فيدخل ملك المجد" (مز ٢٤: ٧)، يقول القديس كيرلس: "فهو قد جاء لأجلنا إلى الأبواب السماوية، ليس كإله بل كإنسان، مُدخِلاً إيانا بواسطة ذاته، ولأجلنا دشَّن هذا الطريق. نفس الأمر فبينما كان عالياً، رُفِّع لأجلنا[1] كإنسان لكي يرفعنا نحن بالذي هو شبيهٌ بنا[2]، وهكذا يغيِّرنا (يشكِّلنا) جاعلاً إيانا مثل صورة الخالق، مجدداً الطبيعة البشرية لتكون مثلما كانت من البداية" (الكنوز ٢٠: ٦).

كل هذه التفسيرات الصحيحة للقديس كيرلس تنبع من التعليم عن تبادل الخواص بين اللاهوت والناسوت الناتج من الإتحاد الأقنومي للاهوته مع ناسوته في شخص المسيح الواحد. هكذا فإن "النعمة والرِّفعة تخصان الطبيعة البشرية؛ لأن كلمة الله نُسِب إليه كل ما كان يحدث لجسده الخاص؛ لأنه لم يكن جسدُ شخصٍ آخر، لكنه خاصٌ به" (الكنوز ٢٠: ٩).

يرجع القديس كيرلس إلى الحجة المنطقية لعلها تُقنع خصومة طالما يريد بكافة الطرق إرجاعهم إلى الحق، فيقول لهم نفترض أن الابن ليس أزلياً مع الآب بل كان يوجد

---

(١) إن تعبير"لأجلنا نحن البشر" يمثل الأساس لفهم هذه الآيات التي أساء الهراطقة فهمها، والجدير بالذكر أن هذا التعبير قد ورد في قانون الإيمان، فتجسد **الكلمة** هو لأجلنا وموته وقيامته وصعوده وجلوسه عن يمين الآب هو لأجلنا. هكذا حين أخلى ذاته كان لأجلنا وكذلك حين قيل أنه أخذ، فهذا لأجلنا. وحين تقدس، فهذا أيضاً لأجلنا، كما سبق وأكد القديس أثناسيوس، قائلاً: "وكما أنه وهو الذي يقدّس الجميع، يقول أيضاً أنه يقدس نفسه للآب من أجلنا - ليس بالطبع لكي يكون اللوغوس مقدّساً، بل لكي بتقديس ذاته يقدسنا جميعاً في ذاته. وهكذا بنفس المعنى ينبغي أن نفهم ما يقال الآن أنه "تمجد". ليس لكي يمجّد هو (أي اللوغوس) نفسه - إذ أنه هو الأعلى - بل لكي هو ذاته "يصير برا" من أجلنا". ضد الأريوسيين، المقالة الأولى، فقرة٤١ ص ١٠٧.

(٢) كما قال القديس غريغوريوس اللاهوتي: "من أجل هذا (**الكلمة**) يدخل في الصورة ذاتها ويلبس جسداً من أجل الجسد، ويأخذ نفساً روحية من أجل نفسي منقياً هكذا الشبه بالشبه، شبهي أنا بشبهه، ويصير في كل شيء إنساناً كاملاً ما عدا الخطيئة. يولد من العذراء التي كان قد قدس نفسها وجسدها قبلاً بالروح القدس (لأنه وجب أن تُكرّم الولادة ولكن أن تُكرّم قبلها بتوليتها)، ويبقى المسيح إلهاً بعدما أخذ الطبيعة الإنسانية، صائراً واحداً من العنصرين المتغايرين من الجسد والروح". عظة عن البصخة، تعريب الأسقف اسطفانوس حداد، مختارات من القديس غريغوريوس اللاهوتي التريتزي، منشورات النور ١٩٩٤، ص ١٨١.

وقت لم يكن فيه الابن موجوداً، عندئذٍ يواجههم بالنتيجة: "لتحتم علينا أن نقبل أن يكون الثالوث القدوس ناقصاً. لأن ذلك يعني أن الثالوث قبل وجود الابن كان واحداً، ثم صار بعد ذلك ثالوثاً وهنا يفاجئهم بالنتيجة العبثية: "ولأن كل شيءٍ يصير فيما بعد يمكن أن ينتهي، فالخوف من أن يعود الثالوث واحداً ، قائمٌ، وبما أن القول بمثل هذا الرأي تجديفٌ، فالابن كان دائماً مع الآب ملء الثالوث القدوس" (الكنوز ٤: ٢٢).

القاعدة الأساسية التي يريد القديس كيرلس التأكيد عليها هي أن الطبيعة الإلهية لا تقبل التغيُّر، وبناء على ذلك، فإن الله هو آب منذ الأزل وبذلك يكون ابنه أيضاً أزلياً "لو أن الابن لم يكن كائنًا دائماً مع الآب، و لم يكن قد أتى منه أزلياً بحسب الطبيعة، بل كان قد أخذ وجوده بعد ذلك، أي أن الآب وَلَدَ الابن لكي يصير آباً، إذن فقد حدث فيه تحوُّل وتغيير" (الكنوز ٥: ١٣). ويذكِّرهم بعد ذلك بالمبدأ الذي لا يستطيعون أن ينكروه: "إن طبيعة الله لا تقبل أي تحوُّلٍ أو تغيُّر". ثم يعلن لهم الحقيقة الساطعة، قائلاً: "لم يحدث أن صار الله آباً متأخراً، بل **الكلمة** الذي أتى منه كان أزلياً معه، مثل الحرارة التي أتت بالولادة من النار، وهي موجودة دائماً معها، وكذلك الإنارة من النور تجاه الخارج" (الكنوز ٥: ١٣).

ثانياً

مساواة الابن للآب بحسب الجوهر

أ- الابن هو مِن نفس جوهر الآب:

لقد ركّز القديس كيرلس على أن الابن هو من نفس جوهر الآب[1] فهو وليد جوهر الآب «ἴδιον γέννημα τῆς οὐσίας τοῦ πατρός» أي هو الآتي بواسطة ولادته الأزلية والجوهرية من الآب. وهذه الحقائق نجدها واضحة في تفسيره للآيات التي استخدمها الأريوسيون بطريقة خاطئة مثل: "أنا في الآب والآب فيَّ" (يو ١٤: ١١)، "أنا والآب واحد" (يو ١٠: ٣٠)، إذ أن الأريوسيين يزعمون أن الابن في الآب مثلما قيل عن المخلوقات "به نحيا ونتحرك ونوجد" كما ورد في (أع ١٧: ٢٨). وبالتالي فإن الابن ليس لديه شيء أكثر مِنا. لهذا يضع القديس كيرلس أمامهم الشرح الصحيح المستند على التعليم بخصوص ولادة الابن من جوهر الآب وليس مثل المخلوقات التي تأتي من العدم، فهو مولود من جوهر الآب (الكنوز ١٢: ١). ويضطر القديس كيرلس لاستخدام الأمثلة لحرصه على توضيح هذا الأمر الهام والضروري، إذ يقول: "لكنه هو ذاته مولود من جوهر الآب. مثلما يخرج الشعاع من النور أو النهر من المنبع ، ولذلك يمكن لأولئك الذين يرون الابن أن يروا الآب أيضاً ويدركون منه الملمح الخاص لذاك الذي ولده" (الكنوز ١٢: ٦). بالتالي لأن كيان الابن بالكامل يأتي من جوهر الآب، لذا يوجد في الآب والعكس أيضاً الآب يوجد في الابن، لأن الابن هو ابن بحسب الطبيعة وهو الله **الكلمة** الذي أتى من الآب. والملحوظة اللاهوتية الضرورية في هذه الآية "أنا في الآب والآب فيَّ" كما شرحها القديس كيرلس، هي أن التطابق هنا هو تطابق خاص بالطبيعة الإلهية أو الجوهر الإلهي، وهذا التطابق لا يلغي أنهما اثنان آب وابن، وكيانان أي أقنومان

---

[1] أنظر القديس أثناسيوس الرسولي، المقالة الأولي ضد الأريوسيين، ترجمة أ صموئيل كامل ود. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية طبعة ثالثة ٢٠٠٢، المقالة الأولي: ٩، وأيضاً:
N. ΞΕΞΑΚΗ, Ἡ θεολογία τοῦ ὁμοουσίου. Συμβολή είς τήν περίτοῦ ἐν τριάδι θεοῦ ὀρθόδοξον διδασκαλίαν, Ἀθῆναι 2003,σ.143.

وليس أقنوماً واحداً أحيانا يُدعى ابنٌ ومرة أخرى يُدعى آب[1]. إ الإتيان الأزلي للابن من جوهر الآب لا يسبب أي تقليل أو نقص لجوهر الآب كما أدعى الهراطقة. وعلى هذا الأمر يجيب القديس كيرلس باستخدام الأمثلة مترفقاً بهم وبغبائهم، إذ يسألهم، ماذا يحدث للشمس حين تُرسل أشعتها؟ وماذا عن النار حين ترسل حرارها؟ هل تصير تجزئة وقطع لهذه الجواهر، وأن تكف الشمس عن اللمعان، وهي التي لا يعتريها أي نقص؟ ثم يقول لهم: "كذلك، فنحن نرى النار ترسل حرارها دون أن يعتريها أي انفصال، بل إن الحرارة هي ثمرة النار التي تأتي منها دون أن تنفصل عنها، تماماً مثل شعاع النور. ولا يمكن أن يكون هناك نورٌ أبداً بدون شعاع، ولا نارٌ بدون حرارة لأنهما ينبعثان دائماً من جوهريهما، ويولدان منهما[2]" (الكنوز ١٢: ٦).

ويوضح القديس كيرلس باستخدام الأمثلة التي ذكرها، أن إيماننا بأن الابن يأتي من جوهر الآب لا يعني أنه حدث قطع من جوهر الآب، إذ يعلق على هذا الأمر، قائلاً: "ليتهم يقولون إن الشعاع قُطِع من النور أيضاً، ومن النار قُطعت الحرارة التي تأتي منها، والكلمة من العقل، وليتهم يبرهنون على أن كلاً من الشعاع والحرارة هما جزءان من الجوهرين اللذين أتيا منهما، أو أن النور كان في وقت ما بدون شعاع، أو النار بدون حرارة والعقل بدون كلمة، وعندئذٍ دعهم يتخيلون شيئاً من مثل هذا أيضاً عن **كلمة الله**" (الكنوز ١٦: ٣). طبعاً الشعاع والنار موجودان دائماً في هذين الجوهرين اللذين يأتيان منهما بدون أن يتجزءا أو ينفصلا. إذن ليس من الصواب أن ننسب للطبيعة الإلهية أموراً لا يقبلها أحد على طبيعة المخلوقات. إن قطع الشيء إلى قطعتين بينهما مسافة لهو ملمح من ملامح الأجساد بينما الجوهر الإلهي - كما يقول القديس كيرلس - لا يقبل القطع والتجزئة ولا ينحصر في مكان، بل هو كائن في حالة غير موصوفة، أشرق الابن من الآب بدون انقسام، ولا يمكن أن يكون الآب - بطريقة أخرى - كاملاً إلاّ فقط بأن يلد الابن. وكذلك لا يمكن أن

---

[1] أنظر الكنوز١٢:٨١، والجدير بالملاحظة أن سابليوس الهرطوقي (أوائل القرن الثالث الميلادي) قد نادي بأن الله أقنوم واحد يقوم بأدوار مختلفة. فالآب يقوم بدور الابن عند التجسد وهو يظهر بعد ذلك باسم الروح القدس.

[2] وبحسب تعبير القديس أثناسيوس: "لأن الابن هو في الآب - بحسب ما يُسمَح لنا أن نعرف - لأن كل كيان الابن هو من جوهر الآب ذاته. كمثل الشعاع من النور، والنهر من الينبوع". ضد الأريوسيين، مرجع سابق، المقالة الثالثة، فقرة٣، ص ١٥.

يكون خالقاً إن لم يلد - من ذات جوهره الإلهي بدون تجزئة - الابن الذي به خلق كل شيء.

ويستخلص القديس كيرلس النتيجة الهامة بخصوص هذا الأمر، قائلاً: "الابن - بالتالي وُلدِ من الآب ليس بقطع أو تمزق كما تتخيلون، بل أتى من جوهر ذاك الذي ولده بغير تجزئة مثل تَوَّلدُ الحرارة مِن النار" (الكنوز ٩: ٧).

أيضاً الهراطقة لا يعترفون بأن الابن هو مِن نفس جوهر الآب بحجة أن الآب غير مولود، أمَّا الابن فهو مولود. ويتعجب القديس كيرلس من منطقهم الخاطئ، فكيف تبطل المساواة في الجوهر بالولادة ويتساءل: "لو لم يكن هذا الذي وُلدِ من نفس الجوهر مع ذلك الذي ولده، فمَنْ يمكنه أن يكون مِن نفس جوهر الآب؟ هل ذاك الذي لم يولَد ومَنْ كان غريباً عن الجوهر، أم ذاك الذي هو مِن الموجودات؟ رغم أن ذلك مستحيل" (الكنوز ٩: ٤). قد يتطاول أيضاً الهراطقة ويقولون، إن غير المولود هو، على أية حال، من نفس جوهر غير المولود، بينما المولود ليس شبيهاً بغير المولود. وهنا يبرهن لهم كتابياً خطأهم، قائلاً: "حسناً، آدم لم يُولد بينما هابيل وُلدِ من امرأة، أليس هو من نفس الجوهر مع آدم. فإذا كان قد وُلدِ ولديه تطابق طبيعي مع آدم، الذي لم يكن قد وُلِدَ، فما الذي يمنع الابن الذي وُلدِ من الآب غير المولود أن يكون من نفس جوهر الآب؟" (الكنوز ٩: ٤).

يتطاول أيضاً الهراطقة الذين يصفهم القديس كيرلس بمحاربي الله إذ يقولون، طالما إن الابن هو صورة الآب، وهو مثل الذي ولده في كل شيء عندئذٍ فالابن بسبب هذه المماثلة التامة مع الآب يمكنه أن يلد وبذلك يصير آباً لابن. أمَّا كونه أنه لا يلد فهذا يجعله غير متماثل تماماً مع الآب. ورد القديس كيرلس على هذا الفكر الخاطئ يستند على أن الله غير المخلوق يختلف تماماً عن الإنسان المخلوق، فالله لا يخضع لخصائص البشر، فالطبيعة الإلهية هي فائقة وأسمى من الطبيعة البشرية وغير مقيدة بمحدوديتنا: "لأن الله لم يلد مثل الإنسان، حتى نقول إن الذي وُلِدَ منه تسري عليه النتائج الطبيعية للولادة الجسدية، لكنه وُلِدَ بطريقة إلهية لا توصف، من الآب. لكن بما أن الآب لم يأتِ من بدايةٍ ما، وبكونه إلهاً

لا يخضع لما تخضع له طبيعتنا، فما الذي يجبر الابن على أن يلد. وبما أنه فوق أي حتمية، بكونه الله، لذا يصير تماماً مثل الآب بحسب الجوهر[1]" (الكنوز ١٣: ٢).

يحاول الهراطقة بكافة الطرق تدعيم رأيهم الخاطئ بأي طريقة، المهم عندهم هو أن لا يكون الابن واحداً مع الآب في الجوهر. وبناء على ذلك يقولون، لو افتراضنا أن الله لا يعتريه أي نقص أو تغيير، إذن علينا أن نؤمن بأن الابن لم يأتِ منه بل مِن الخارج وأنه مثل الآب فقط مِن جهة قدرة إرادته (الكنوز ٦: ١). ويجيب القديس كيرلس على هذا الرأي الخاطئ ناصحاً إياهم أن يضبطوا أنفسهم ويجعلوا فكرهم يسمو فوق مفاهيم الأجساد والأوجاع الجسدية. فالله ليس مثل الإنسان ولا يعتريه أي قطعٍ أو نقصٍ بسبب أنه يَلِد الابن، فعلى سبيل المثال، إن كان يَلِدِ مثل ولادة البشر بفقدان جزء منه، عندئذٍ أيضاً سيخلق مثل الإنسان بجهدٍ وتعب. وكذلك ربما يحتاج أيدي مثل الإنسان ومادة موجودة مسبقة. لكن الله ليس مثل الإنسان - كما يؤكد القديس كيرلس - طالما أنه يُحضِر كل شيء إلى الوجود مِن العدم بدون أيدي ومادة موجودة مسبقة، بل يعمل كل شيء **بالكلمة**. إذن فهو يتفوّق على الطبيعة البشرية، ويتفوق عليها أيضاً في الطريقة التي يَلِد بها (الكنوز ٦: ٢).

أيضاً الهراطقة كعادتهم يبحثون في نصوص الكتاب ويفسرون الآيات تفسيراً يخدم أفكارهم الخاطئة، لذا حين يقرأون نص (يو ٥: ٢٦): "كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الابن أن تكون له حياة في ذاته"، يقولون، طالما أن الآب أعطى الابن شيئاً، إذن الابن ليس واحداً مع الآب في الجوهر، ويكون الابن مولوداً من الآب في وقت لاحق. يرد القديس كيرلس على هذا الفكر الخاطئ موضحاً أن جوهر **الكلمة** لا يُضار في شيء إذا قَبِل شيئاً من الآب. لأن وجود الابن لم يبدأ في اللحظة التي قَبِل فيها شيئاً من الآب. فهو مولود مِن الآب بطريقة طبيعية، ويحمل كل خصائص الآب، والوجود الأزلي هو للاثنين معاً وإلاَّ هل نستطيع أن نقول إن الشمس موجودة قبل الشعاع أو أن الشعاع انبعث من

[1] تعبير "الابن مثل الآب بحسب الجوهر" عند القديس كيرلس يعادل هنا تعبير قانون الإيمان: "واحد مع الآب في الجوهر" أو "مساوٍ للآب في الجوهر". فمماثلة الابن للآب تعنى عند القديس كيرلس أن الابن إله من إله وليس مجرد شبيه بالآب كما كان يدَّعى الهراطقة.

الشمس في وقت لاحق زمنياً. فالشعاع يحمل نفس مميزات الشمس بحسب الطبيعة. هكذا يشدد القديس كيرلس على أن كل ما يُقال أنه يوجد في الآب بطريقة طبيعية وجوهرية هو الابن. ويشرح هذا الأمر مؤكداً أن الآب هو فقط الإله الحقيقي لأنه فقط لديه الابن الذي يقول: "أنا هو الحق" (يو ١٤: ٦). أيضاً هو الحكمة والقوة، لأن المسيح هو قوة الله وحكمة الله. كذلك قيل عنه إنه ساكن في نور لا يُدنى منه (أنظر ١ تيمو ٦: ١٦)، لأن المسيح قال "أنا هو النور". أيضاً قيل عنه إنه غير المائت لأن لديه الابن الذي يقول "أنا هو الحياة". ويستنتج القديس كيرلس من كل هذا، أن كل خواص الآب هي الابن هكذا عندما يقول إن الآب لديه الحياة في ذاته، فأنه يقصد بأن الابن هو الحياة (الكنوز ١٤: ٢٧). نفس الفكرة يكررها القديس كيرلس حين يذكر القديس بولس خواص طبيعة وجوهر الآب، ويقول "الذي له وحده عدم الموت" (١ تيمو ٦: ١٦) وعدم الموت هو الحياة، والحياة هي الابن الذي قال: "أنا هو الحياة" (يو ٦: ٤٩). إذن الآب فيه الحياة، أي الابن وليس شيئاً آخراً. بالتالي الآب في الابن لا يعنى أنه ترك أقنومه للابن بل كما يقول القديس كيرلس: "الآب يرتبط بطريقة لا تُوصف **بالكلمة** الذي أتى منه في الجوهر الواحد والطبيعة الواحدة" (الكنوز ١٤).

ويعود القديس كيرلس ويفترض صدق كلام الهراطقة، ثم بعد ذلك يواجههم بأنهم يتناقضون مع ما جاء في الكتاب المقدس: "إذا كان الآب هو الحياة بحسب الطبيعة، دون أن يكون الابن كذلك، بل قد اكتسب هذه الخاصية، فكيف كان الابن يقول الحق عندما توجَّه للآب، قائلاً: "كل ما هو لي فهو لك. وما هو لك فهو لي" (يو ١٧: ١٠). لأنه إما أن يكون هو أيضاً الحياة بحسب الطبيعة، التي هي خاصية الآب، أو لا يكون. فإذا كان كل ما لديه هو للآب، و لم يكن الابن - بحسب زعمكم - هو الحياة بحسب الطبيعة، فالآب أيضاً لا يكون هو الحياة بحسب الطبيعة. إذن أيضاً الابن هو الحياة بحسب الطبيعة، لكي لا يصير تماثل الابن بالآب كاذباً" (الكنوز١٤: ١٥). وبكلمات بسيطة وعميقة ومنطقية يبرهن القديس كيرلس على أن الابن هو الحياة بحسب الطبيعة، إذ يقول: "بما أن الابن هو ختم جوهر الآب الذي لا مثيل له، فهو إذن يحمل بحسب الطبيعة أيضاً خاصيته، أي أن يكون الحياة، وذلك حتى لا يكون ختم الآب مزيفاً" (الكنوز ١٤: ١٦).

ب- الابن ليس من إرادة الآب، وليس شبيهاً بالآب بحسب الإرادة

يقول الهراطقة[1] إن الابن ليس هو من نفس جوهر الآب، بل مجرد شبيه بـــالآب بحسب الإرادة، إذ أتى من الآب بواسطة إرادته. والسبب الذي جعل الأريوسيين يرفضون ولادة الابن من جوهر الآب هو مفهومهم عن الولادة بأنها حدثت مثل ولادة البشر بالقطع والتجزئة مما يسبب نقصاً لجوهر الآب: "إذ يقولون: بما أن الآب قد أعطى بإرادته كيانـــاً للابن، فبنفس الطريقة جعله خالقاً. ولا نقول إنه أتى من جوهر الآب لئلا يُدرَك على أنـــه جزءٌ مقطوعٌ منه، أو أنه تدفق من ذلك الجوهر غير الموصوف" (الكنوز ٢١: ١٠). ويـــرد القديس كيرلس واصفاً هذا الرأي بأنه مجرد أقوال غبية وثرثرة؛ لأن التجزئة والقطع ومثـــل هذه تتناسب مع الأجساد البشرية التي تسري عليها هذه الأمور، لكن الذي ليس هو جسد ليس لديه صفات الأجساد. هكذا غير الجسدي يلد بدون أن يتجزأ أو يتألم.

وكعادته يستخدم أمثلة لكي يوضح عدم الإدراك بالنسبة لهم، فيقول: "فـــأيُ ألمٍ يلُم بالشمس عندما تلد النور؟ وأيُ قطعٍ أو تجزئةٍ تصيب النيران عندما تبعث النـــور مـــن ذاتها؟ فإذا كانت النيران تلد دون تجزئة، وترسل ما في ذاتها دون ألم، أفلا يستطيع بالأكثر خالق تلك الأشياء أن يبعث بهاء طبيعته؟ متى انفصل الختم عن الصورة؟ فالختم يوجد دائماً في طبيعة الصورة، وداخلها أيضاً" (الكنوز ٢١: ١١). الابن هو نفســـه - كمـــا يؤكـــد القديس كيرلس - إرادة الآب الجوهرية **وكلمته** الذي بواسطته يخلق الكل. أما الهراطقـــة، فإنهم ينادون بأن طبيعة الله هي جافة وعقيمة، وكما يقول القديس كيرلس، أي إرادة فاعلة تأتي من مثل هذه الطبيعة وتحضِر الابن إلى الوجود. فالأشياء التي كانت غـــير موجـــودة ووُجدت هي أشياء مخلوقة ومصنوعة.

أما بخصوص قولهم أو تساؤلهم الذي طرحوه عن: هل وُلِدِ الابن بـــإرادة الآب أو بدون إرادته؟ يؤكد لهم القديس كيرلس أن مثل هذا التفكير غير موجود إطلاقًا في الكتاب

([1]) أنظر ΕΥΝΟΜΙΟΥ, Ἀπολογτικός, 24, R. P. VAGGIONE, Eunomius the extant works (oxford Early Christian texts), oxford (Clarendon press) 1987, P 64, 1-4. وأيضاً أنظر ΒΛ. ΦΕΙΔΑ, Ἐκκλησιαστική Ιστορία, Τ. Α', Αθῆναι 1994², σ. 387.

المقدس] لذا يقول لهم: "مِن أي كتاب مقدس تعلمتم؟ ومَنْ مِن القديسين قال إن الابن أتى مِن الآب بإرادته أو بدون إرادته؟ ومِمَنْ أخذتم هذه الأقوال؟ لأن **كلمة** الله كان ويكون، وقد عرفنا هذا الأمر مِن الكتاب المقدس. أما بخصوص هل وُلدِ بإرادته أم لا، فإننا فقط منكم نسمع هذا القول لأن الآب أشار للابن من السماء قائلاً " هذا هو ابني الحبيب" (مت ٣: ١٧). وبواسطة داود قال: "فاض قلبي بكلام صالح" (مز ٤٥: ١) ويوحنا الحكيم يقول: "في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله" (يو ١:١)" (الكنوز ٧: ٢). وبالتالي لم يقل أحد إن الابن وُلدِ بإرادة الآب أو بدون إرادته، بل استخدموا فعل الكينونة كان ويكون ولم ينسبوا أي بداية زمنية لخالق الدهور.

إذن - كما يؤكد القديس كيرلس - في كل ما خُلِق بواسطة الله كانت الإرادة تسبق هذا الخلق، مثل: "قال نعمل الإنسان" (تك ١: ٢٦)، وأيضاً "كل ما شاء الرب صنع" (مز ١٣٥: ٦). أما بالنسبة لله الكلمة لا يبدو أبداً أن الإرادة تسبق، بل سمعنا فقط أنه كان ويكون أو الكائن والذي كان (الكنوز ٧: ٣). إذن المكان الطبيعي للابن هو الآب، وليس هو من ضمن المخلوقات، ولا صار بالإرادة مثلما صارت كل المخلوقات، لأنه أتى من الآب ومن جوهره وُلدِ وهو أزلي (الكنوز ٧: ٣).

أيضاً كعادته يوجز لهم برهاناً منطقياً وكتابياً واضحاً، إذ يقول: "لو أن زمناً ما مرَّ قبل خلق المخلوقات بإرادة الله، حتى لو افتراضنا أن هذا الزمن كان صغيراً جداً، ولو لحظة، فكيف يتفق ذلك مع كون الابن هو خالق الدهور" (الكنوز ٧: ٧). إذن على الهراطقة الاعتراف بأنه خالق الدهور كما يعلمنا الكتاب وبالتالي كان كائناً ولم يكن يوجد شيءٌ قبل ولادته.

جـ- التفسير الحقيقي للشواهد التي استخدمها الأريوسيون ليبرهنوا على أن الابن ليس من نفس جوهر الآب

١- (نص متى ٢٤: ٣٦)[١]: "وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا ملائكة السموات إلاّ أبي وحده".

إن الهراطقة محاربي المسيح كما يصفهم القديس كيرلس، يزعمون أن وحدة الآب والابن أمرٌ مستحيل لأن الابن يقول أنه لا يعرف يوم نهاية الأزمنة بالرغم من أن الآب يعرف هذا اليوم (الكنوز ٢٢: ١). يجيب القديس كيرلس بأن الابن بكونه إلهاً يعرف اليوم والساعة طالما كان يعرف كل ما هو قبل ذلك اليوم سارداً بوضوح كل ما يمكن أن يحدث قبل هذا اليوم وتلك الساعة لأنه بعدما وصف ما سيحدث، قال "ثم يأتي المنتهي" (مت ٢٤: ١٤). أما عن قوله أنه لا يعرف فهو يتناسب - كما يؤكد القديس كيرلس - مع الطبيعة البشرية بكونه إنساناً لأن خاصية الطبيعة البشرية هو عدم معرفة الأمور التي سوف تحدث (الكنوز ٢٢: ١). الأمر الهام الذي يجعلنا نفسر أقوال الرب تفسيراً صحيحاً - كما يؤكد القديس كيرلس - هو أن نفتش في هذه الأقوال عن الزمن الذي قيلت فيه هذه الأقوال من جانب المخلص، فالقول الذي يليق به بكونه إلهاً ينبغي أن نميزه عن القول المتواضع الذي قاله بكونه إنساناً بعد تأنسه إذ يخص ناسوته. والشرط الوحيد لقبول هذا الأمر هو قبولنا لسر التدبير الإلهي، أي أن **الكلمة** صار جسداً: "لأنه إن لم يكن قد صار إنساناً، فليتحدث إذن بكونه إلهاً، أمَا وقد صار إنساناً، عندئذٍ من اللائق - كإنسان - أن يتكلم كإنسان، دون أن تقلل خطة تدبير الله من أجلنا، من إلوهيته" (الكنوز ٢٢: ٣).

ويذكر لهم القديس كيرلس قول المخلص لأبيه "أيها الآب قد أتت الساعة مَجِّد ابنك" (يو ١٧: ١) ويعلق قائلاً: "فيما أنه يعرف الساعة بالضبط التي يقول أنها أتت، فما الذي يمنعه من أن يعرف تلك الساعة التي يقول عنها - كإنسان - إنه يجهلها مثلما يليق

(١) أنظر القديس أثناسيوس، ضد الأريوسيين، المقالة الثالثة، ترجمة د. مجدي وهبة ود. نصحي عبد الشهيد، ومراجعة د. جوزيف موريس فلتس ود. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية أبريل٢٠٠٧م، فقرة ٤٢.

بالطبيعة البشرية، وإن كان يعرفها على أية حال بكونه إلهاً؟" (الكنوز ٢٢: ٣). هكذا فلأن **كلمة** الله يحب البشر لم يتردد في أن يضع ذاته في تواضع كبير، لدرجة أنه - كما يقول القديس كيرلس - أخذ على عاتقه كل ما يخصنا وواحدة من هذه الأمور التي تخصنا هي عدم المعرفة" (الكنوز ٢٢: ٣).

أيضاً ما أراد أن نلتفت إليه - القديس كيرلس - في كلام المخلّص، هو أنه لم يذكر أبداً أن الروح لا يعلم، بل "لا يعلم بهما أحد ولا الملائكة... ولا الابن"، وأيضا لم يضف ولا الله لا يعلم. مِن هنا، الملائكة يجهلون كمخلوقات معرفة اليوم والساعة ولكي لا يبدو - كما قال القديس كيرلس - أنه يخفي يوم المجيء عن أولئك التلاميذ، ويحزنهم بسبب هذا الأمر، قال أيضاً "ولا الابن" متحدثاً بذلك بطريقة إنسانية عن ذاته بكونه إنساناً. والسبب الذي من أجله أنه لم يقل الروح: **أولاً**: الروح بكونه إلهاً يعرف كل شيء. **ثانياً**: يفحص كل شيء حتى أعماق الله (١ كو ٢: ١٠). من الواضح أنه الله ويعرف كل شيء ويستطيع أن يفحص كل شيء ويأخذ معرفته من الابن؛ لأنه يقول "ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم" (يو ١٦: ١٤). والنتيجة يضعها في سؤال يوجهه للهراطقة، قائلاً: "إذن، كيف يجهل **كلمة** الله تلك الساعة، وهو الذي يمنح المعرفة للروح الذي يعرف كل شيء؟" (الكنوز ٢٢: ٥).

يؤكد القديس كيرلس على أن الابن بتأنسه -تدبيرياً - اكتسب ضعفات الجسد الذي لبسه والبرهان على هذا الأمر - بحسب القديس كيرلس - هو من نص (أع ١: ١٧) حين سأله التلاميذ عن متى ستجيء النهاية؟، أجاب: "ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التي جعلها الآب في سلطانه". وهنا يتضح أنه لا يجهل هذا الأمر، لأنه لم يقل: "لقد قلت لكم لا أعرف". إذن وقتذاك كان يعرف كل شيء بكونه إلهاً، ولأن هذه المعرفة هي أعظم من معرفة التلاميذ قال "ولا الابن" متحدثاً بطريقة بشرية، أي باعتباره كواحد من البشر حسب طبيعته البشرية، أنه لا يعرف اليوم ولا تلك الساعة " (الكنوز ٢٢: ٦). بالتالي الابن يعرف اليوم والساعة بكونه إلهاً حتى لو قال إنه يجهلها لأنه صار إنساناً وتصرَّف كإنسان. والدليل على ذلك - بحسب القديس كيرلس - أن الآب يفعل كل شيء بواسطة الابن، لأنه كما هو مكتوب "كل شيء به كان"، وواحد من هذه الأشياء

هو تحديد اليوم والساعة التي فيها تكون نهاية العالم، إذن هذا الأمر حُدد بواسطة الابن. والسؤال الذي واجه به القديس كيرلس الهراطقة هو: كيف إذن يمكن للابن أن يجهل الأمر الذي حُددَ بواسطته؟ (الكنوز ٢٢: ٦).

أيضاً هناك إجابة منطقية ذكرها القديس كيرلس للهراطقة، وهى أن الابن يعرف الآب كما قال هو نفسه، فإن قُلتم إنه يجهل اليوم وتلك الساعة فأنكم تعتبرون أن معرفة نهاية العالم هي أعظم من معرفة الآب وحينئذٍ تقعون تحت عقاب التجديف. لكن بما أن معرفة الآب هي أعظم من أي معرفة، فكيف للذي يعرف المعرفة الأعظم أن يجهل الأدنى؟ وهكذا يختم القديس كيرلس كعادته واضعاً الهراطقة أمام هذا السؤال (الكنوز ٢٢: ١٠).

أيضاً طالما بولس الرسول يقول عن الابن أن الكل عريان ومكشوف أمامه (أنظر عب ٤: ١٣)، وأحد هذه الأمور المكشوفة أمامه هو معرفة اليوم وتلك الساعة، فكيف يجهلها هذا الذي بالنسبة له الكل مكشوف أمام عينيه؟" (أنظر الكنوز ٢٢: ٢١).

٢- نص لو ١٠: ٢٢: "كل شئ قد دُفع إليَّ من أبي"، نص يو ٣: ٥٣: "الآب يُحِب الابن وقد دفع كل شيء في يده".

استند الأريوسيون على مثل هذه النصوص لكي يؤكدوا اعتقادهم الخاطئ بأن الابن ليس واحداً مع الآب في الجوهر، وهو يقبل منه ما ليس لديه بحسب الجوهر، فهم يتساءلون: "كيف يمكن أن يكون الابن مشابهًا للآب، إذ يقول إن كل شيء أخذه من الآب؟ لأنه، إن كان لديه كل شيء، لماذا قال أنه أخذها. وطالما أنه أخذها، كما يقول هو نفسه، فمن الواضح أنه لم يكن لديه شيءٌ من ذاته" (الكنوز ٢٣: ١). وكان رد القديس كيرلس، أن الابن لديه بحسب الطبيعة ما للآب فيما عدا الأبوة، طالما هو **كلمته** وشعاعه. وسبب قوله: "أن كل شيء أخذه من الآب" هو لكي يفند - مسبقاً - رأي الهراطقة إذ كان يعرف بكونه إلهاً ضلال سابيليوس بأنه سيزعم بأن الله أقنوم واحد. إذن حرصاً منه لئلا يظن أحد وهو ينظر إلى الابن ولديه كل ما للآب، أن الله هو مجرد أقنوم واحد، لذلك قال هذا القول ليعلن أن الحديث هنا عن اثنين، واحد يعطي والآخر يأخذ "وذلك لكي يبرهن لهم أنه يوجد اثنان لا يتميزان فقط من جهة الاسم، بل وأيضاً من جهة الأقنوم

الخاص بكل واحدٍ على حدة. وهذا لا يمنع حقيقة أن **الكلمة**، حقاً هو واحد مع الآب وهو من نفس جوهره، وله أزلياً ما لدى الآب، إلاَّ أنه يقول إنه أخذ كل شيء منه بسبب أنه أتى منه، في حين أن لديه بحسب الطبيعة كل ما لدى الآب" (الكنوز ٢٣: ٢).

أما بخصوص نص (لو ١٠: ٢٢) "كل شيء قد دُفع إليَّ من أبي"، فهذا القول لا يُنقِص من إلوهية الابن بل بالحري - كما يؤكد القديس كيرلس - يبرهن بوضوح أنه الابن بحسب الطبيعة. لأن بقوله "كل شيء" يعني أنه لم يترك شيئاً لم يأخذه، بالتالي كونه وُلِدَ من الآب هو أحد الأمور المتعلقة بتعبير "كل شيء". وبالتالي الابن له - بحسب الطبيعة - كل صفات الآب الذي وَلَده" (الكنوز ٢٣: ٤).

هكذا حين قال الابن إنه أخذ، لا يعني أن هناك لحظة زمنية كان فيها محروماً من هذا الذي أخذه، إذ أن ما أخذه قد أخذه من جهة بشريته لكن بحسب الطبيعة الإلهية فإن ما للآب هو له أيضاً" (الكنوز ٢٣: ٥).

٣- نص لو ١٨: ١٩: "لماذا تدعوني صالحاً. ليس أحدٌ صالحاً إلاَّ واحدٌ وهو الله".

إن مشكلة الهراطقة يلخصها بكل وضوح القديس كيرلس، فهم حين يبحثون في علاقة الابن بحسب الطبيعة مع أبيه يستخدمون الأقوال التي قيلت بشرياً والتي قالها الرب حين أخذ جسدنا. مع أنه ينبغي عليهم أن لا يصفوا الجوهر غير الجسدي بالأقوال التي قالها الرب بحسب التدبير بكونه إنساناً. هذا التدبير الذي يتحدث عنه دائماً القديس كيرلس هو تدبير التجسد، أي أن **الكلمة** المساوي للآب في الجوهر تنازل وأخذ الطبيعة البشرية وصار إنساناً لكي يتحدث بكونه إنساناً بسبب تجسده. وفي نفس الوقت، يتحدث أيضاً بكونه إلهاً عن الأمور التي تفوق الطبيعة البشرية لأنه هو الله بحسب الطبيعة. والخطأ كل الخطأ الذي وقع فيه الأريوسيون هو أخذ الأقوال التي قيلت بكونه صار إنساناً على أنها تخص إلوهيته أو ينقل الأقوال الخاصة بكونه إلهاً إلى الفترة التي صار فيها إنساناً مثل: "قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن" (يو ٨:٥٨) وأيضاً: "قد نزلت من السماء" (يو ٦:٣٨). هكذا مَنْ ينسب الأقوال التي قيلت عنه بكونه إنساناً إلى إلوهيته يكون قد ارتكب خطأ كبيراً. ويتساءل القديس كيرلس: "سوف يرتكب تجديفاً عظيماً عندما يقول المسيح "نفسي حزينة حتى الموت"؟ هل سوف يقول - إذن - إن حزناً واضطراباً انتاب طبيعة الله وسيطر عليه

خوف الموت؟" (الكنوز ١٠: ١). هكذا عندما يقول بكونه إنساناً إنه ليس صالحاً، نثق أن هذا القول يُنسب إلى التدبير الجسدي ولا يلتصق بجوهر الله الابن.

الهراطقة يريدون أن يقولوا، بما أن الله فقط هو صالح، إذن الابن ليس من نفس جوهر الآب. والرد الذي قاله القديس كيرلس هو شرح السياق الذي قال فيه الرب هذا القول. فالناموسي اقترب من الرب وهو يراه كإنسان عادي وتظاهر بأنه جاهل، والقديس كيرلس يقول: حسناً أظهر نفسه جاهلاً لأنه كان بالفعل هكذا، ولأجل هذا أخجله الرب بأن قال له: ليس صالحاً إلاّ الله. ويكمل القديس كيرلس قوله فيضع كلماته على لسان المسيح، فيقول: "فإذا كنت تعرف أنني الله ولأجل هذا فأنا صالح، عندئذٍ لأي سبب تقترب إلى كمجرد إنسان؟ وإذا كنت لا تؤمن بأنني إله، بل تظنني مجرد إنسان، عندئذٍ لماذا تنسب لإنسان خاصية تتناسب فقط مع الله؟" (الكنوز ١٠: ٢).

هكذا كانت رؤية الرب للناموسي، لقد رأى الناموسي غير مستعد وغير مهيَّأ للرغبة في الصالحات، لدرجة أنه لم يقدر أن يرفع ثقل وصية واحدة إنجيلية ولم يحتمل الأقوال التي قيلت له، إذ مضى حزيناً. إذن كان من غير الممكن أن يتعلم هذا الناموسي السر الأعظم بأن الابن هو مساوٍ للآب في الجوهر بكونه إلهاً. لأجل هذا رد المسيح للناموسى: لماذا تدعوني صالحاً؟ يمثل امتحاناً لجهل هذا الناموسي.

٤- نص يو ١: ١٨: "الله لم يره أحدٌ قط الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر"

يستند الهراطقة على هذا النص ليدعِّموا رأيهم الخاطئ بأن الابن ليس واحداً مع الآب في الجوهر، طالما هو أدنى منه بدليل أنه "هو خبَّر" (يو ١: ١٨). استخلص الهراطقة حقيقتين بحسب زعمهم:

١- الابن يدعو الآب بأنه غير مرئي من الجميع.

٢- والابن أيضاً لم يرَ الآب إذ أنه هو واحد من ضمن جميع الذين لم يروا الآب.

إذن كيف يمكن أن يكون واحداً مع الآب في الجوهر وهو أدنى منه؟

يجيب القديس كيرلس عليهم واصفاً إياهم بأنهم يحاربون الحق علناً ويعارضون ما جاء في الكتب المقدسة. كما يرى القديس كيرلس في هذا النص الآتي:

١- الابن يرى الآب لأنه في حضن الآب.

٢- عدم رؤية الآب هنا تسري على الكل ما عدا الابن.

٣- واجههم بالآيات التي تثبت أن الابن يرى الآب، على سبيل المثال:

(يو ١٤: ٩): "مَن رآني فقد رأى الآب".

(يو ١٠: ١٥): "كما أن الآب يعرفني وأنا أعرف الآب".

(مت ١١: ٢٧): "ليس أحد يعرف الابن إلاَّ الآب. ولا أحد يعرف الآب إلاَّ الابن ومَنْ أراد الابن أن يعلن له".

إذن – عن حق – يتساءل القديس كيرلس، قائلاً: "الذي ليس لديه فقط أن يعرف الآب بل أن يعلنه للآخرين، كيف لا يراه؟ (الكنوز ١٣: ٣٦).

٥- نص (يو ٥: ٢٦): "كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الابن أن تكون له حياة"

مشكلة الهراطقة مع هذا النص هي إقرارهم بأن الابن ليس واحداً مع الآب في الجوهر، استناداً على اعتقادهم أن الابن قد جاء إلى الوجود في وقت لاحق على الآب الذي أخذ منه شيئاً. والقديس كيرلس يشرح لهم ما يؤكده مراراً بأن وجود الابن لم يبدأ من اللحظة التي قَبِل فيها شيئًا من الآب وأنه كائن أزليًا قبل كل شيء. ويلجأ القديس كيرلس كعادته إلى الأمثال ليوضح لهم هذه الحقائق، فيقول لهم، طالما أن الابن مولود من الآب بحسب الطبيعة، إذن هو يحمل كل خصائص الآب، مثل النور الذي أتى من الشمس يمكن أن يُقال عنه إنه قَبِل شيئًا من الشمس وهو يوجد على أية حال فيها. هذا لا يعني أن الشمس توجد قبل الشعاع لأن الشعاع أتى منها بدون أن تتجزأ أو ينفصل عنها، فهو يحمل نفس مميزاتها بحسب الطبيعة (الكنوز ١٤: ٣). بالتالي ليس بسبب أن الابن أخذ شيئاً من الآب يعني أنه قد جاء إلى الوجود في وقت لاحق على الآب.

ويفترض القديس كيرلس -كعادته - صحة رأي الهراطقة ويبرهن لهم بعد ذلك النتائج العبثية التي تنتج من تسليمنا بصحة آرائهم، فيقول، لو أن قبول شيء يُظهِر جوهر ذاك الذي أخذ هذا الشيء، ما المانع أن نقول أن الآب بدأ يوجد حين قِيل إنه أخذ منا شيء؟ فالمرنم يقول: "أعطوا مجداً لله" (مز ٦٨: ٣٥). طبعاً هذا تجديف صريح وواضح ولا يقبله أحد (الكنوز ١٤: ٤). هكذا الابن كان يوجد وموجود على الدوام إذ يأتي من الآب بطريقة لا بداية لها وأزلية ولديه كل ما لدى الآب بحسب الطبيعة. وهكذا ينبغي على الهراطقة أن يدركوا جيداً - كما يقول القديس كيرلس - أن الولادة الإلهية وغير الموصوفة أسمى بكثير من أي مثال ذكرناه.

أيضاً يحاول الهراطقة بكافة الطرق أن يبرهنوا على عدم المساواة بين الآب والابن بحسب الجوهر زاعمين أن مَنْ يأخذ شيئاً من آخر ليس لديه هذا الشيء. ويجيب القديس كيرلس على هذا الرأي موضحاً أن الآب لديه حياة والابن أيضاً له حياة في ذاته بحسب شهادته هو شخصياً في الكتاب، إذن هما مِن جوهر واحد. لقد قال الابن: "مَنْ يؤمن بي فله حياة أبدية" (يو ٦: ٤٧) و"أنا أعطيهم حياة أبدية" ويتساءل القديس كيرلس: لو افتراضنا أن الابن ليس هو الحياة بحسب الطبيعة، كيف قال هذه الأقوال؟ إذن لو كان ليس هو الحياة ألا ينبغي أن يقول، الذي يؤمن بي سينال مني الحياة التي أعطاها لي الآب. ويستخلص بعد ذلك ما يهدف إليه، قائلاً "وطالما هو مولود من الآب بطريقة طبيعية، فهو يحمل كل خصائص الآب[1]. وذلك على مثال النور الذي يأتي من الشمس، فهذا النور يمكن أن يُقال عنه إنه قَبِل شيء من الشمس؛ لأنه يوجد على أية حال فيها، يبدو أنه نور

(1) يشرح القديس كيرلس في كتابه: حوار حول الثالوث، هذه الحقيقة على أساس أن الابن يستمد الحياة من الآب بحسب الطبيعة، بالتالي فإن فعل الإحياء هو للآب وللابن، إذ يقول: "لأن الآب هو الحياة، فقد استمَّد الابن الحياة منه حسب الطبيعة، مُظهراً بذلك جوهر الذي وَلَده. ولأنه هو في الآب تماماً، والآب هو - بالكمال - فيه، لهذا نقول إن الفعل هو فعل الآب والابن، ولهذا أيضاً، فإن الابن وهو يشير إلى أن ما يفعله الآب يفعله هو أيضاً، يوضّح تماماً أن كل أفعاله هي مساوية لأفعال الآب وذلك بسبب أنه هو واحد مع الآب في الجوهر" أنظر حوار حول الثالوث، ترجمة د. جوزيف موريس فلتس، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية مايو ٢٠١٠، الجزء الرابع، الحوار الخامس، ص ٤٩.

الشمس التي ولدته دون أن يعني هذا حتماً أن الشمس وجدت قبل الشعاع؛ لأن الشعاع الذي أتى منها دون أن ينفصل عنها يحمل نفس مميزاتها بحسب الطبيعة" (الكنوز ١٤: ٣).

أيضاً يذكر لهم قول الابن في (يو ٥: ٢٦): "كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الابن أن تكون له حياة في ذاته" لأنها تبرهن بوضوح المساواة التامة بين الابن والآب. لأن الابن لديه الحياة بحسب الطبيعة لأنه مولود من جوهر الآب (الكنوز ١٤). غير أن الهراطقة لا يهدئون وبكافة الطرق يريدون أن يبرهنوا على عدم وجود مساواة تامة بين الآب والابن، إذ هو واحد مع الآب في الجوهر، إذ يقولون إن الابن ليس هو الحياة بحسب الطبيعة بل بالمشاركة، وهنا يواجههم القديس كيرلس بما قاله الابن في (يو ٦: ٥١): "أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد". وتعبير "أنا هو" له دلاله لاهوتية عظيمة عند القديس كيرلس، إذ يفترض صحة رأي الهراطقة لكنه يرد عليهم قائلاً: "بما أنه هو الخبز الذي يجعل الذين يشاركونه غير مائتين، إذن هو لا يحيي خارجياً، ولا بالاكتساب، لكن حقاً هو ذاته بحسب الطبيعة الحياة، وهو يَعِد الذين يشاركونه بأنه سوف يحييهم حقاً" (الكنوز ١٤: ٨). بالتالي مسألة أنه أخذ الحياة من الآب هي بسبب أنه صار إنساناً. ودائماً يشرح سبب المنح، إذ يقول: أعطاه سلطاناً أن يدين لأنه هو ابن الإنسان (أنظر يو ٥: ٢٢). هكذا أيضاً أخذ الحياة بكونه إنساناً وليس بكونه إلهاً.

٦- نص يو ١٧: ٣: "أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته".

يقول الأريوسيون إن الابن هنا يعترف بأن الآب هو الإله الحقيقي وفقاً لِما قيل في (أش ٤٤: ٦): "أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيري". إذن بحسب رأيهم الابن ليس إلهاً بحسب الطبيعة ولا هو من نفس جوهر الآب (الكنوز ٢٧: ١). ويجيب القديس كيرلس على هذا الرأي الخاطئ مؤكداً على أن ما جاء في أشعياء ليس ضد إلوهية **الكلمة** المتأنس بل لتأكيد أن الله الحقيقي هو واحد، وليس كما يؤمن الوثنيون بآلهة كثيرة كاذبة. وغير صحيح ما يظنه الهراطقة أن هناك عراكاً ما بين الله الحقيقي الآب الأول وآخر ثانٍ هو الابن مما يتبعه أن الابن له مكانة أدنى كيانياً عن الآب، بل الابن يظهر دائماً وهو ينسب المجد إلى الآب (الكنوز ٢٧: ٢). والإضافة التي أضافها المسيح مباشرةً حين قال "ويسوع المسيح

الذي أرسلته" تدل - بحسب القديس كيرلس - على أنه غير منفصل عن جوهر الآب فيما يخص الإلوهية ويُدرك دائماً مع الآب. وبالتالي فإنه لم يقل إنه الإله الحقيقي لكي يلغي **كلمته** الذي بواسطته يفعل كل شيء. وعليه تكون آية أشعياء (٤٤: ٦) كما يؤكد القديس كيرلس، هي ضد الآلهة الكاذبة.

وضع القديس كيرلس أمام الهراطقة مبدأً تفسيريًا هامًا، هو أنه عندما يُذكر الآب الإله الوحيد، فإن هذا يتضمن على أية حال الابن. ويستشهد القديس كيرلس بآيات الكتاب المقدس: "أنا الرب صانع كل شيء ناشر السموات وحدي" (إش ٤٤: ٢٤)، والله نفسه يقول: "أنا الذي نشرت السموات وحدي"(أر ١٠: ١٢ س)، وفي موضع آخر يقول بوضوح عن الابن: "بكلمة الله صُنعت السموات" (مز ٣٣: ٦). ويستخلص القديس كيرلس ما يريده، قائلاً: "بينما يقول الله الآب إنه خلق السماء وحده، نرى أن الابن قد خلق السماء، إذن من الواضح أنه عندما يُقال أن الآب هو الإله الحقيقي وحده، فإن ذلك - على أية حال - يعني أن الابن الذي بواسطته خلق الآب كل شيء، هو مَتَضَمَّنٌ معه، لأنه يوجد حقاً فيه بطريقة طبيعية مثلما يوجد الشعاع في النور" (الكنوز ٢٧: ٥).

٧- نص يو ١٧: ٥: "مجّدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم"

يأخذ الأريوسيون أيضاً هذا النص كبرهان على أنه لا يوجد تماثل طبيعي بين الآب والابن طالما هنا يبدو أنه يطلب شيئاً ليس لديه. ومن وجهة نظرهم لو أن الابن يطلب من الآب ما هو لديه بالفعل، يكون طلبه هذا ليس له أي معنى، أما إذا كان يطلب ما ليس لديه، إذن فهو أدنى من الآب ولا توجد أي مساواة بحسب الطبيعة بينه وبين الآب، فالآب هو مانح المجد ولا يمكن للابن أن يكون واحداً مع الآب في الجوهر (الكنوز ٣٠: ١).

يجيب القديس كيرلس على هذا الرأي الخاطئ، وهو يتساءل، كيف كان من الممكن أن يكون رب المجد (أنظر ١ كو ٢: ٨) في احتياج للمجد؟ ويوضح لهم كيف أن ابن الله كاملٌ وليس ناقصاً في شيء، ومن العبث الشديد أن تفكروا بأنه يفرح بالأمجاد مثل

الإنسان. ويعلن لهم بوضوح أن الأمر فيه مفهوم عميق للتدبير (الكنوز ٣٠: ٢). هذا المفهوم - كما شرحه القديس كيرلس - هو أن الابن طلب مجداً ليس لذاته لأنه لم يكن في احتياج للمجد، طالما هو الله بحسب الطبيعة، لكن أخذ بواسطة ذاته مجد الآب للجنس البشري. وهكذا يعلن القديس كيرلس لهم المبدأ اللاهوتي الأساسي، وهو: كل الصالحات حصلنا عليها به وبواسطته (الكنوز ٣٠: ٢).

مشكلة الأريوسيين وغيرهم من الهراطقة، هو أن آرائهم تصطدم أولاً بما جاء في الكتب المقدسة وتتناقض معها، لهذا يرد عليهم القديس كيرلس موضحاً خطورة ما يقولونه وأنهم ضد تعليم الكتاب المقدس ذاته. وللبرهنة على حقيقة هذا الأمر، يفترض القديس كيرلس أن الابن - كما يزعمون - لديه احتياج للمجد، وبالتالي الاستنتاج الطبيعي هو أن الابن يختلف جوهرياً عن الآب لأن الذي في احتياج لشيء يكون غير كامل. ولكن في (يو ١٠: ٣٠): يقول المخلص: "أنا والآب واحد"، إذن هو كامل أيضاً مثل الآب، إذ هما واحد في الجوهر. بالتالي يجب أن يعترف الهراطقة بأن الابن لديه مجد كامل مثل ذاك الذي ولدَه (الكنوز ٣٠: ٢).

إن شهادة المسيح ذاته: "مَنْ رآني فقد رأى الآب" (يو ١٤: ٩) تؤكد كمال **كلمة** الله المتأنس إذ أن التطابق الصادق والأصيل بين رؤية الابن والآب هو أمر مؤسَّس على التعليم الخاص بأن الابن واحد مع الآب في الجوهر. وهذا الأمر يستلزم أن يكون للابن المجد الكامل مثل الآب (الكنوز ٣٠: ٦).

يلجأ أيضاً القديس كيرلس – كما قلنا - للمنطق أحياناً لكي يرد على الهراطقة ويفترض أن الابن إذ هو في احتياج، فقد طلب من الآب المجد لذاته عن احتياج، والآب وعده أن يمجده، عندئذٍ لأي سبب بعد هذا الطلب - كما يقول القديس كيرلس - تتابعت عليه اللطمات من اليهود وإكليل الشوك والتفل عليه؟ هنا لا يبدو أن الآب يمجده، بل على النقيض تماماً ومِن هنا نستنتج أنه لم يطلب المجد لذاته بل للجنس البشري (الكنوز ٣٠: ٧).

كما يلجأ القديس كيرلس إلى مفهوم المصطلح اللغوي ليدعم رأيه وتفسيره للآية موضحاً أن تعبير "مجدني أنت أيها الآب" تعني كما عند الفلاسفة "عرِّفني"، أي مرادف

"مجّدني" هو أظهرني أو عرفني، أي كأن المسيح أراد أن يقول: ضع في البشر هذه المعرفة التي بها يستطيعون أن يتقبلّوني سامعين أنني أُوجد أيضاً قبل أن يُخلق العالم، أي أنا الإله الحقيقي بحسب الطبيعة، "النور الذي أتى مِن النور، الحق الذي أتى من الآب الحقيقي" (الكنوز٤ : ٣٠).

٨- نص يو ١٧: ٢١: "كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا"

يستشهد الهراطقة بهذا النص لكي يبرهنوا على أن طريقة اتحاد الآب بالابن ليصيرا واحداً هي نفسها التي بها يصير البشر واحداً مع الله، وبالتالي لا يكون الابن مختلفاً في شيء عن البشر في علاقته مع الآب، وبناء على ذلك ليس هو من نفس جوهر الآب. والقديس كيرلس يجيب عليهم بإتباعه منهج افتراض صحة رأيهم ثم يستخرج النتائج التي تسفر عن صحة هذا الرأي ويواجههم بها. فنحن لو افتراضنا أنه لا يوجد اختلاف بين **الكلمة** ونحن البشر، وبما أنه هو خالق إذن لماذا ليس لدينا هذا اللقب؟ أيضاً بما أننا - بحسب رأي الهراطقة - مثل **الكلمة** بحسب الطبيعة، هل لدينا نفس مكانته بالقرب من الله وكل واحد منا يُدعى أيضاً وحيد الجنس **وكلمة** وحكمة الآب. ونقول هذا لأن خواص الطبيعة هي واحدة، طالما – كما يزعمون - لنا نفس الطبيعة. ويصل القديس كيرلس إلى الاستنتاج الصحيح الذي يؤكد أن هذا الكلام غير معقول بالمرة وأن حكمة **وكلمة** وشعاع الآب هو فقط الابن، وأنه ليس مثلنا بحسب الطبيعة، بل هو مولود من الآب قبل الدهور وبهذه الطريقة هو واحد مع أبيه وليس مثلنا نحن الذين أنعم علينا الله بهذه الوحدة بفضل اتحاد اللاهوت والناسوت في شخص الكلمة المتأنس كمثل الحديد الذي يسخن حين يتحد بالنار (الكنوز ١٢: ٢٦).

٩- نص ١ تيمو ٦: ١٦: "الذي له وحده عدم الموت"

يقول محاربو المسيح، إن بولس الرسول يقول الحق ولو أن الابن له أيضاً عدم الموت، عندئذٍ لن يكون الآب كما يقول بولس هو الذي له وحده عدم الموت. وبالتالي فالابن ليس له عدم الموت.

مبدأ الهراطقة الخاطئ هو: أن الأمر الذي يُقال فقط للآب يُحرم منه الابن. ويفند القديس كيرلس هذا المبدأ الخاطئ من شواهد الكتاب المقدس. فالآب هو الإله الحقيقي وحده كما هو مكتوب. وعلى هذا الأساس - بحسب زعمهم - يكون الابن ليس إلهاً بحسب الطبيعة. وكما يقول القديس كيرلس، كيف يُسجد له مِنا ومن الملائكة، إذ يقول الناموس الإلهي: "للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد" (مت ٤: ١٠، وتث ٦: ١٥). بالتالي هذا يرجع إلى خواص الطبيعة الإلهية الواحدة بين الأقانيم إذ يشترك الثالوث في الطبيعة الواحدة والجوهر الواحد، فخاصية عدم الموت كما هي للآب هي أيضاً للابن المولود من جوهر الآب (الكنوز ١٤: ١٢).

يذكر أيضاً لهم ما قاله بولس: "الذي لا يفنى ولا يُرى الإله الحكيم وحده" (١ تيمو ١: ١٧)، ويتساءل هل الابن ليس هو غير فانٍ ولا هو غير منظور ولا هو حكمة؟ طبعاً مَنْ يقول نعم يجدف ويقاوم تعليم الكتاب لأنه مكتوب "إنه قوة الله وحكمة الله" (١ كو ١: ٢١). بالتالي لا يُحرم الابن من أن يكون له كل ما لدى الآب بحسب الطبيعة (الكنوز ١٤: ١٣)، وإلا سوف تُوصف حكمة الله بأنها غير حكيمة.

١٠- نص عب ١: ٣ - ٤: "جلس في يمين العظمة في الأعالي صائراً أعظم من الملائكة بمقدار ما ورث إسماً أفضل منهم"

التفسير الخاطئ للهراطقة قادهم إلى اعتبار الابن من ضمن المخلوقات طالما حدث له تغيُّر - بحسب رأيهم - لأنه صار إلى ما لم يكن عليه. هذا التغيُّر الذي لحق بالابن إذ صار أعظم من الملائكة يدل على أن طبيعته متغيرة وبالتالي هو مخلوق، لأن أحد سمات المخلوق هو التغير.

يرد القديس كيرلس على هذا المفهوم الخاطئ معطياً للهراطقة درساً في مبادئ التفسير التي هي:

* فحص الزمن الذي قيلت فيه هذه الأقوال.

* فحص الشخص الذي قيلت عليه هذه الأقوال.

* فحص الموضوع الذي تتحدث عنه هذه الأقوال.

ويعطي لنا أمثلة من الكتاب تعضد هذه المبادئ الأساسية، فالخصي الحبشي – الذي سجل سفر الأعمال قصة إيمانه – حين كان يقرأ سفر أشعياء قال لفيلبس: "عن مَنْ يقول النبي هذا. عن نفسه أم عن واحد آخر؟" (أع ٨: ٣٤)، وكذلك ما قاله بولس الطوباوي عن المخلص: "لأن الذي يُقال عنه هذا كان شريكاً في سبط آخر لم يلازم أحد منه المذبح فإنه واضح أن ربنا قد طلع من سبط يهوذا" (عب ٧: ١٣ – ١٤). أيضاً النبوات الآتية: "ها العذراء تحبل" (أش ٧: ١٤) وأيضاً: "كشاه تُساق إلى الذبح" (إش ٥٣: ٧) إذ لم تُفهم على أنها تخص المسيح، فإن ذهننا – كما يقول القديس كيرلس – سوف يذهب بعيداً عن الحق (الكنوز ٢٠: ١٨).

إذن، فالسياق العام الذي قيلت فيه الآية السابقة من رسالة العبرانيين يتضح مما قاله القديس بولس، إن **كلمة** الله تأنس لأجلنا وعندما طهرنا من خطايانا جلس في يمين الله ضابط الكل في السماء، وحينئذٍ صار أعظم من الملائكة بدون أن تتغير طبيعته الإلهية إلى شيء آخر لأن قول بولس هنا لا يخص طبيعة الابن الإلهية لكن عن الطبيعة البشرية التي اتخذها الكلمة حين تجسد. المقارنة هنا لا تخص الطبائع بل مقارنة تخص الخدمة. فخدمة المسيح هي أعظم من خدمة الملائكة (أنظر عب ١: ١ – ٣) ويؤكد القديس كيرلس هذا الأمر، قائلاً: "إذن عندما أحاط الابن بمجد عظيم جداً، وأعطاه كل خصائص الآب الطبيعية، عندئذٍ يقول إنه صار أعظم من الملائكة بقدر عظمة الاسم الذي أخذه، كابن ووارث وبهاء وختم الآب وصورته، وخالق وجليس في عرش الآب. إذن طالما أننا أدركنا أنه هو الأعظم والمختلف عن الملائكة بسبب كل هذا، بالتالي أيضاً خدمته هي أعظم من خدمة أولئك الملائكة" (الكنوز ٢٠: ١٨). ومشكلة الهراطقة هي في فهمهم لمعنى "صار"، لذا يقول لهم القديس كيرلس إنها "لا تعني أنه أتى إلى الوجود مِن العدم (لأنه في البدء كان الكلمة" (يو ١: ١)، ولا تعني تغيُّره من الأدنى إلى شيء أعظم (لأن الابن هو الكامل الآتي من الآب الكامل)، لكنه أظهر عظمته قياساً بمجده ورتبته" (الكنوز ٢٠: ١٨).

أيضاً لأبُد أن يدرك الهراطقة أن المقارنة هنا ليست لأن طبيعة الابن هي نفسها طبيعة الملائكة، طبيعة مخلوقة، فهناك إمكانية للمقارنة بين طبيعتين مختلفتين – كما يؤكد القديس كيرلس – لأن الكتاب المقدس يستخدم مثل هذه المقارنة. مثلاً في (أمثال ٨: ٩ –

١٠ س): "خذوا أولاد وليس فضة، لأن الحكمة أعظم من اللآلئ وكل الجواهر لا تُساويها" وكذلك في (إش ٥٦: ٤ - ٥): "إني أعطيهم في بيتي وفي أسواري نصيباً واسماً أفضل من البنين والبنات" هكذا كلمة "أعظم" و"أفضل" تُستخدم ليس لأي اختلاف، بل عندما يكون الاختلاف عظيمًا وفائقًا (الكنوز ٢٠: ١٩).

كما لاحظ القديس كيرلس أن المقارنات بين الكائنات من نفس النوع لا تستخدم كلمة "أعظم" بل "أكثر" و"أقل" و"متميز" وبعض المرات كلمة "أزيد". ويدعم هذا الرأي بشواهد من الكتاب: "هكذا يوسف أكثر جمالاً من إخوته" (أنظر تك ٣٩:٦). ونجم ليس أعظم من آخر بل يتميز عنه من جهة اللمعان. نفس الأمر عندما يُقارن المخلص بالبشر، لا يُقال أنه أعظم بالنسبة للجمال بل أكثر جمالاً من بني البشر (مز ٤٥: ٣).

أما في حالة مقارنة الأمور المختلفة فيما بينهما في النوع، تُستخدم كلمة أعظم، هكذا مكتوب "الحكمة أعظم من اللآلئ" (أم ٨: ١٩ س). ويتساءل القديس كيرلس: ما العلاقة التي توجد بين الحكمة واللآلئ من جهة الطبيعة؟

ويستخلص من كل هذا الحُجة الحقيقة التي يرفضها الهراطقة، وهي "إذا كانت المقارنة بين أشياء من نفس النوع، عندئذٍ لا تستخدم كلمة "أعظم"، أما إذا كانت المقارنة بين أشياء لا يوجد بينها تشابه من حيث الطبيعة، عندئذٍ يمكن استخدام كلمة أعظم. وإذا كان الابن ليس مشابهاً للملائكة، ولا مخلوقاً مثل أولئك، بل يتفوق عن الكل بما يفوق الوصف، فبقوله أعظم يقصد أنه لا يتشابه معهم وليس شبيهاً بأحد" (الكنوز ٢٠: ١٩).

يواجه القديس كيرلس الهراطقة بنتائج اعتقاداتهم العبثية بهدف إرجاعهم عن ضلالهم الواضح، فيفترض أن الابن له طبيعة مخلوقة مثل الملائكة. والنتيجة العبثية هي أنه لا يوجد شيء يعيق الملائكة عن الجلوس مع الله في عرشه مثلما يجلس الابن على يمين الله، كما هو مكتوب. لكن ولا أحد من الملائكة يستحق هذا الامتياز الفريد للابن، إذ يقول بولس الرسول: "لِمَنْ مِن الملائكة قال قط أجلس عن يميني؟" (عب ١: ١٣). ويعرض عليهم كعادته المبدأ الأساسي وهو: "لأن كل عناصر التشابه التي تُنسب لنفس الطبيعة تكون مشتركة، بينما الامتيازات الآتية إلى أشخاص ما مِن إضافةٍ متأخرة لا تخص الجوهر. فطبيعة البشر - على سبيل المثال - واحدة، لكن الجميع لا يغتنون، ولا بالتأكيد يصيرون ملوكاً،

لكن هذه الامتيازات المكتسبة تتم للجميع بالقبول. بالتالي، لا يسمح أحدٌ للملائكة أن تحمل مجد الابن؛ لأنه هو الرب، بينما أولئك هم عبيد. بالتالي ليسوا متشابهين مع ذاك الذي يملك مع الآب في كل شيء" (الكنوز ٢٠: ٢٥).

ويؤكد القديس كيرلس بكافة الطرق أن الابن له طبيعة تختلف جذرياً عن طبيعة الملائكة بقدر اختلاف الخالق عن المخلوق. إذ لا يمكن للمخلوق والخالق أن تكون لهما نفس الطبيعة. فالواحد يخلق والآخر يُخلق. ويتساءل القديس كيرلس، إذ لم تكن الأمور هكذا، ما الذي يجعل الله يختلف تماماً عن المخلوقات - بما فيها الملائكة - التي قد أتت إلى الوجود بواسطة الابن. إذن لا يمكن أن يتشابه الابن مع الملائكة من جهة الطبيعة. فهو له مكانة الخالق أمَّا هم فلهم مكانة العبيد. لأن الكتاب المقدس يقول: "لأن الكل عبيدك" (مز ١١٩: ١٩)" (الكنوز ٢٠: ٢٦).

القسم الثالث

التعليم اللاهوتي عن الروح القدس

إلوهية الروح القدس ومساواته بالآب والابن في الجوهر:

بحسب تعليم القديس كيرلس، الروح القدس هو إله بحسب الطبيعة يأتي أزلياً من جوهر الله الآب. كما أن عبارة "روح المسيح" المذكورة في (رو ٨: ٩ - ١٠) تُظهر أن الروح ليس غريباً عن طبيعة **الكلمة** (الكنوز ٣٣). أما حُجة الهراطقة الزائفة التي تقول، نعم الروح القدس يأتي من الله لكنه مثل كل المخلوقات التي تأتي من الله حيث يقول بولس الرسول: "لنا رب واحد الذي منه جميع الأشياء" (رو ٨: ٦)، يفندها القديس كيرلس موضحاً لهم أن استخدام نفس التعبيرات على الابن والروح القدس وكذلك على المخلوقات لا يدل على أنها وردت بنفس المفهوم. فاسم الابن يُستخدم كلقب أساسي للابن، ويُستخدم نفس الاسم مجازاً للبشر لكن استحالة أن تتساوى البنوة بحسب الطبيعة مع التبني بحسب النعمة الخاص بالبشر. وهكذا أيضاً تعبير "منه" الخاص بالروح القدس والتي تُقال للمخلوقات لا يُنزل سمو إلوهية الروح إلى وضاعة المخلوقات بل تعبير "منه" يظل ملمحاً أساسياً للروح ، لأنه يأتي من جوهر الآب[1]. والمخلوقات أتت إلى الوجود من الله بالطبع بواسطة الابن (أنظر الكنوز ٣٣). ويستشهد القديس كيرلس بما قاله الرسول بولس في (١ كو ٢: ١٠): "لأن الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله"، إذ يقول، مثلما روح الإنسان تعرف وتفحص أعماق قلب الإنسان، هكذا أيضاً الروح القدس يفحص أعماق الله الآب. إذن الروح ينتمي إلى الطبيعة الإلهية مثلما تنتمي روح الإنسان إلى الطبيعة الإنسانية (الكنوز ٣٣). أيضاً يدعو بولس الرسول الروح، روح الله وروح المسيح في (رو ٨: ٩ - ١٠) وهذا يدل على أن الروح ليس بغريب عن طبيعة **الكلمة**.

---

(1) للمزيد أنظر N.CHARLIER, "la doctrine sur le Saint – Esprit dons le thesaurus de saint d' Alexandrie", studia Patristica 2 (1957), PP. 187-193.

يستشهد أيضاً القديس كيرلس بما جاء في (لو ١١: ٢٠): "ولكن إن كنت بأصبع الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله"، موضحاً أن الأصبع هنا يُدعى الروح القدس الذي نبت من الجوهر الإلهي، وتدلى منه بطريقة طبيعية، مثل الأصبع من يد الإنسان. ويُذكرنا القديس كيرلس بأن الكتب المقدسة تدعو الابن ذراع ويد الله اليمني، وفق ما جاء في (مز ٩٨: ١): "خلصته يمينه وذراع قدسه". إذن الروح مثل الذراع هو متجانس مع كل الجسد مثل الذراع وهو يتمم كل ما يقرره العقل، كما أن المسحة تتم بواسطة الأصبع. إذن **كلمة** الله يخرج من الآب بحسب الطبيعة والروح ينبثق من الآب في الابن ويقدس ماسحاً الكل.

بالتالي الروح ليس غريباً عن الطبيعة الإلهية، بل يأتي منها ويوجد فيها بحسب الطبيعة (الكنوز ٣٤). ويستغل الهراطقة قول المخلص عن الروح: "لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية" (يو ١٦: ١٣)، مدَّعين أن الروح هو ناقص وليس كاملاً، لأنه - بحسب زعمهم - لو أن للروح المقدرة في ذاته أن يكون كاملاً، سوف يتحدث أيضاً من ذاته بدون أن يحتاج أن يذكّره آخر بالأقوال (الكنوز ٣٤). ويتعجب القديس كيرلس من طياشة وغباء الهراطقة، إذ كان من الواجب عليهم أن يقرّوا بأن الروح هو ثمرة الجوهر الإلهي، وأنه يوجد فيه ويأتي منه بدون أن يتجزأ وينفصل. فالمخلص لم يقل هذه الأقوال عن الروح "لأنه يتكلم من نفسه" لكي يُظهر أنه ناقص بل لكي يُعلّم سامعيه أنه طالما أن الروح يأتي من الجوهر الواحد فإنه لن يقول شيئاً آخراً مختلف عن ما يريده.

وهكذا فالروح يكون هو فكر المسيح (١ كو ٢: ١٦) لا يتحدث بإرادة خاصة ولا بمشورة غريبة عن العقل الذي فيه ومنه يأتي. ويستشهد القديس كيرلس بقول بولس الرسول: "وليس أحد يقدر أن يقول يسوع رب إلاّ بالروح القدس" (١ كو ١٢: ٣) موضحاً أنه دليل على أن مَنْ صار مشاركاً للروح يعرف أن يسوع هو رب. مثل أولئك الذين يأكلون عسلاً فمن نوعيته يعرفون أن العسل حلوٌ. بالتالي الروح له نفس الجوهر والطبيعة الإلهية للآب والابن، فهو إله وليس مخلوقاً مثلما يعتقد الهراطقة (الكنوز ٣٤).

يدعي الهراطقة أيضاً أن الروح القدس مثل زيت المسحة مستغلين قولنا بأن نفوسَ القديسين مُسِحت من الله بواسطة الروح القدس، وبالتالي بحسب زعمهم يكـــون الـــروح القدس هو زيت المسحة. ويرد عليهم القديس كيرلس موضحاً لهم أنه ينبغي عليهم الابتعاد عن المفاهيم الجسدية وإدراك الأمور الإلهية بطريقة تتناسب مع الله حتى لو قُدِّمت بـــأقوال بشرية. ويعرض لهم خطورة اعتبار الروح مثل زيت المسحة، فهذا الزيت يتكون من جواهر كثيرة أثناء تكوينه وبالتالي الروح سوف يتكون من أجزاء كثيرة متنوعة، والروح القـــدس سوف يكون - بحسب زعمهم - غير عاقل لأن الزيت هو مادة غير عاقلـــة. ويتوقـــف القديس كيرلس عن سرد الاستنتاجات العبثية والخطيرة الآتية من رأيهم الخاطئ ويتســـاءل بمنطقية ليستد فم المعاندين، إذ يقول: لو أن الروح القدس هو من جوهر آخر يختلف عـــن ذلك الذي بواسطته يتقدس الكل، كيف عندما يسكن الروح فينا يُظهِر أن المسيح يســـكن فينا، الذي ليس هو مختلف من جهة الجوهر عن الآب؟ هذا ما أعلنه بولس الرسول: "لكي يعطيكم بحسب غنى مجده أن تتأيدوا بالقوة بروحه في الإنسان الباطن ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم" (أف ٣: ١٦ - ١٧). إذن، طالما بالروح يسكن المسيح في الإنسان الداخلي، فمن الواضح من كل جانب أنه ليس غريباً عن جوهر المسيح ذاته" (الكنوز ٣٤).

أيضاً يتطاول الهراطقة قائلين، إن الروح هو مقدِّسٌ ليس لأنه قدوس في حد ذاتـــه بحسب الطبيعة لكن مثل إناء من حديد أو أي مادة مشارك لحرارة النار يفعل ما تفعله أيضاً النار، هكذا هو مملوء من قداسة الله، ينقل القداسة إلى الخليقة. ويدعّمون رأيهم زيفاً بما قاله المخلص "يأخذ مما لي" (يو ١٦: ١٤). يرد القديس كيرلس على هـــذا الـــرأي الخـــاطئ مشخصاً بدقة مشكلتهم، بأنهم يستخدمون الكتاب المقدس لتدعيم آرائهم الخاطئة. فالمسيح يعد تلاميذه - بعد أن حقق هدف تأنسه وقبل أن يصعد إلى الآب - بأنه سيرسل المعـــزِّي وأنه سوف يقول نفس أقواله وحتى لا يظن أحد أن الروح القدس سوف يُعلّم تعاليم غريبة عن تعاليمه قال لهم: "لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به لأنـــه يأخـــذ ممـــا لي ويخبركم" (أنظر الكنوز ٣٤). ولا يتوانى القديس كيرلس على تقديم شواهد كـــثيرة مـــن الكتاب المقدس لإثبات إلوهية الروح في المقالة الرابعة والثلاثون.

مراجع المقدّمة والهوامش والتعليقات

استعنا في كتابة المقدّمة والهوامش والتعليقات على النص، بالمراجع الآتية:

أ – نصوص الآباء باللغة العربية:

١– للقديس أثناسيوس الرسولي:

١– المقالة الأولي ضد الأريوسيين، عربها عن اليونانية أ. صموئيل كامل عبد السيد و د. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، الطبعة الثالثة سنة٢٠٠٢ م.

٢– المقالة الثانية ضد الأريوسيين، ترجمة أ. صموئيل كامل عبد السيد و د. نصحي عبد الشهيد، مراجعة د. جوزيف موريس فلتس، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية أبريل ٢٠٠٤.

٣– المقالة الثالثة ضد الأريوسيين، ترجمة د. مجدي وهبة ود. نصحي عبد الشهيد، مراجعة د. جوزيف موريس فلتس ود. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية أبريل٢٠٠٧.

٤– الرسائل عن الروح القدس إلى الأسقف سرابيون، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد ود. موريس تاوضروس، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية نوفمبر٢٠٠٥، طبعة ثانية.

٥– تفسير مزمور ٥٠: ٣.

٢– للقديس كيرلس الأسكندري:

١– شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد وآخرون، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠٠٩.

٢– شرح إنجيل يوحنا، الجزء السادس، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد ود. جوزيف موريس فلتس، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية أكتوبر ٢٠٠٦.

٣- شرح إنجيل يوحنا، الجزء السابع، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية أكتوبر٢٠٠٧.

٤- شرح إنجيل يوحنا، الجزء الثامن، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية أغسطس ٢٠٠٨.

٥- شرح إنجيل يوحنا، الجزء التاسع، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز لأرثوذكسي للدراسات الآبائية مايو٢٠١٠.

٦- شرح إنجيل يوحنا، الجزء العاشر، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز لأرثوذكسي للدراسات الآبائية أكتوبر ٢٠١٠.

٧- حوار حول الثالوث، الجزء الأول، ترجمة المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية مارس ٢٠٠٨، طبعة ثانية.

٨- حوار حول الثالوث، الجزء الثاني، ترجمة د. جوزيف موريس فلتس، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية مارس٢٠٠٦، طبعة ثانية.

٩- حوار حول الثالوث، الجزء الثالث، ترجمة د. جوزيف موريس فلتس، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠٠٨.

١٠- حوار حول الثالوث، الجزء الرابع، ترجمة د. جوزيف موريس فلتس، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية مايو٢٠١٠.

١١- السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء الخامس، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية يناير ٢٠٠٦.

١٢- السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء السادس، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية يوليو٢٠٠٧.

١٣- السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء السابع، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية أكتوبر ٢٠٠٨.

١٤- رسائل القديس كيرلس، الجزء الرابع، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد ود. موريس تاوضروس، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية يونيو١٩٩٧.

١٥- رسائل القديس كيرلس، الجزء الثالث، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد ود. موريس تاوضروس، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ديسمبر ١٩٩٥ .

١٦- تفسير إنجيل لوقا، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠٠٧.

١٧- رسائل القديس كيرلس إلى نسطور ويوحنا الأنطاكي، ترجمة د. موريس تاوضروس ود. نصحي عبد الشهيد، إصدار مركز دراسات الآباء يوليو ١٩٨٨.

١٨- الرسالة الفصحية الأولى، ترجمة د. ميشيل بديع عبد الملك مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية مايو ٢٠٠٤.

١٩ــ جيلافيرا: (أي تعليقات لامعة)، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، الكتاب الشهري للشباب والخدام.

٢٠ــ العظة الفصحية ١٠: ٢.

٢١- ضد نسطور ٣: ٢.

٣- القديس يوحنا ذهبي الفم:

١- تفسير رسالة بولس الرسول إلى العبرانيين، ترجمة د. سعيد حكيم يعقوب، مراجعة د. جورج عوض إبراهيم، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠١٠.

٢- تفسير رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ج٢، ترجمة د. سعيد حكيم يعقوب، مراجعة د. جوزيف موريس فلتس، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية يوليو٢٠٠٥.

٣- الله لا يمكن إدراكه ضد الأنوميين، ترجمة وإعداد القمص مرقوريوس الأنبا بيشوي، مؤسسة القديس باسليوس ٢٠٠٨.

٤- تفسير رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبى، الجزء الأول (العظات من ١ - ٨)، ترجمة عن اليونانية الباحث جورج ميشيل أندراوس، مراجعة د. سعيد حكيم يعقوب، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠٠٧م.

٥- عظة على لو ١٢:٤٩.

٦- العظة ٣٠ في تفسير ١كو١٢: ١٣.

٤- القديس إيرينئوس:

١- الكرازة الرسولية، ترجمة ومقدمة وتعليقات د. نصحي عبد الشهيد، و د. جورج عوض إبراهيم، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، طبعة ثانية – فبراير ٢٠٠٩.

٢- ضد الهرطقات.

٥- القديس غريغوريوس النيصي:

١- خضوع الابن للآب، ترجمة د. سعيد حكيم يعقوب، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية يونيو ٢٠٠٥.

٦- القديس إمبروسيوس:

١- شرح الإيمان المسيحي، الجزء الأول، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية مارس٢٠٠٥.

٢- الأسرار مع سيرة حياتة ، مؤسسة القديس أنطونيوس ، طبعة ثانية ١٩٩٦م.

٧- غريغوريوس النزينزى

١- الخطب ٢٧-٣١ اللاهوتية، نقلها من اليونانية إلى العربية الأب حنا الفاخوري، منشورات المكتبة البوليسية، طبعة أولى ١٩٩٣.

٢- عظة عن البصخة، تعريب الأسقف اسطفانوس حداد، مختارات من القديس غريغوريوس اللاهوتي التريتري، منشورات النور ١٩٩٤، ص ١٨١.

٣- عظة عن يوم الخمسين.

٨- الخولاجي المقدس:

جمع وترتيب المتنيح القمص عبد المسيح صليب المسعودي البرموسي، دير السيدة العذراء برموس.

٩- القديس باسيليوس الكبير:

١- عظة ٣١:٢٨و٢٩ عن الروح القدس.

١٠- القديس كيرلس الأورشليمي:

١- عظة للمعمدين الجدد ١٦: ١٢.

١١- الدراسات:

١- د. جوزيف موريس فلتس، تعاليم عقيدية في النصوص الليتورجية، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية أكتوبر ٢٠٠٤.

٢- توماس ف. تورانس: الإيمان بالثالوث، ترجمة د. عماد موريس، مراجعة د. جوزيف موريس فلتس، إصدار مكتبة باناريون، القاهرة ٢٠٠٧.

٣- " المسيح المعلم "، د. جورج عوض إبراهيم، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، مايو ٢٠٠٧.

٤ـ النعمة عند القديس أثناسيوس الرسولي، الكتاب الأول، ترجمة د. جرجس كامل، د. وهيب قزمان، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية بالقاهرة، طبعة ثانية يناير ٢٠١٠.

١٢ـ نصوص فلسفية:

منطق أرسطو: الجزء الأول حققه وقدم له الدكتور عبد الرحمن بدوي، الناشر وكالة المطبوعات – الكويت، دار القلم - بيروت، الطبعة الأولي ١٩٨٠.

ب - مراجع باللغة اليونانية:

1- Σ.ΠΑΠΑΔΟΠΟΥΛΟΥ, «ό άγιος Κύριλλος Ἀλεξανδρείας θεολογεῖ ἑπμηνεύοντας καί ἑπμηνεύει θεολογώντας»,) (θελογία 74 (2003).

2- Στυλιανός Γ. Παπαδόπουλος, ο ΑΓΙΟΣ ΚΥΡΙΛΛΟΣ ΑΛΞΑΝΔΡΕΙΑΣ, Βιος, Θεολογία, Χριστολογία, Ἑρμηνευτική, Αποστολική Διακονία, Ἔκδοση Α. 2004.

3- ΓΡΗΓΟΡΙΟΥ ΘΕΟΛΟΓΟΥ, Λόγος , θεολογικός Γ', περί ,(Υιοῦ,16, GALLAY, SC,250).

4- ΕΥΝΟΜΙΟΥ, Ἀπολογητικός, 8, R.P.VAGIONE, Eunomius the extant works (oxford Early Christian texts), oxford (clarendon press) 1987.

5- ΑΡΕΙΟΥ, Ἀλεξανδρείας, 2, H. – G. OPIZ,Athanasius Werke, t.3, I, P. 12,9-10. ΕΥΝΟΜΙΟΥ, Ἀπολογητικός,28, R. P. VAGGIONE, Eunomius the extant works (oxford Early Christian texts), oxford (Clarendon press) 1987.

6- Ν. ΞΕΞΑΚΗ, Ἡ θεολογία τοῦ ὁμοουσίου. Συμβολή είς τήν περίτοῦ ἐν τριάδι θεοῦ ὀρθόδοξον διδασκαλίαν, Ἀθῆναι 2003.

7- ΕΥΝΟΜΙΟΥ, Ἀπολογητικός, 12, R. P. VAGGIONE, Eunomius the extant works (oxford Early Christian texts), oxford (Clarendon press) 1987.

8- ΒΛ. ΦΕΙΔΑ, Ἐκκλησιαστική Ιστορία, Τ. Α', Αθῆναι, 19942.

الإختصارات:

ΕΠΕ : Ελληνες Πατὲπες τῆς Ἐκκλησίας
«τό Βνζαντιόν»

PG: J.P. Migne, Patrologiae Corpus completes, series Graeca, Paris1857-1866.

ج: جزء

ح: حوار

س: ترجمة سبعينية

ص: صفحة

م: مقدمة

ف: فهرس

النص : مقدمة

كتاب الكنوز

عن الثالوث القدوس والمُساوي

لأبينا كيرلس رئيس أساقفة الإسكندرية

حديثك أيها الأخ المجتهد نيميسينوس يقنعني أنه يجب أن نشرع في الدخول في جهادات كبيرة. لأنه ما الذي يمكن أن يكون صعباً وبعيد المنال من جهة الفهم والإدراك، أو غير واضح تماماً من جهة العرض والاتساع، مثل الرؤية الثاقبة الخاصة بالثالوث القدوس والمساوي، أو مثل الشرح الذي لا يمكن أن يوجه له أي نقد من أي جانب؟ فبالإضافة إلى أن ذهن الإنسان يتصّف بالرقة والسطحية، وبالحري يوصف بأنه ضعيفٌ جداً، يمكن للغة - بالجهد - أن تشرح هذه المواضيع التي ينشغل بها. على الجانب الآخر، فإن جمال الحق عصيٌ على المنال، ومن طبيعته ألاّ يُعلَن للكثيرين، بل فقط لأولئك الذين يبحثون عنه بذهن صالح وفكر صريح، وينقبون عنه ويسلّطون عليه النور، كأنه كنزٌ سماوي. لذلك يستحقون سماع: "طوبي لعيونكم لأنها تبصر ولآذانكم لأنها تسمع" (مت١٦: ١٣). لكن على الرغم من ذلك، لا ينبغي لنا أن نتردد في الشروع في هذا العمل، بل ونحن واضعون رجائنا على المسيح ذاته، نأخذ على عاتقنا أتعاب تتجاوز قدراتنا مؤمنين - بدون أدنى شك - أنه سوف يعضدنا، وتقودنا استنارة الروح في العثور على الحق. **لأن هدفنا هو أن نقول إن يسوع هو الرب**، وسوف نقول ذلك على أية حال باستنارة الروح القدس. لأنه هكذا يقول بولس "لِذلِكَ أُعَرِّفُكُمْ أَنْ لَيْسَ أَحَدٌ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِرُوحِ اللهِ يَقُولُ: «يَسُوعُ أَنَاثِيمَا». وَلَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَسُوعُ رَبٌّ» إِلاَّ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ" (١ كو ٣: ١٢). لكن بسبب أن بعض المنقادين بواسطة بعلزبول لا يخجلون حين يقولون " يسوع محروماً " محرِّفين - كما يروق لهم - الكتب المقدسة، مفضِّلين - على أقوال الروح - فعل مشيئاتهم الخاصة، ورافضين الرب الذي اشتراهم، كما هو مكتوب (أنظر ٢بط ١: ٢)، نرى أنه من الضروري والمفيد والواجب، وفق نصيحتك، أيها الأخ، لأجل أبناء الكنيسة، أن أكتب هذا

الحديث بهدف فائدتهم في المستقبل، وأن أتحدث بالتفصيل عن كل من هذه المواضيع التي يطلبها أولئك، والتي أعتقد أنها سوف تفيد كل مَنْ يقرأها.

في البداية ألفت النظر إلى أن عقائد أريوس وإفنوميوس المضلة تبدو وكأنها كثيرة الجمال والوجوه، وتُجسِّد جمال الحق بطرق متنوعة. ولكنها - في الحقيقة - مثل النساء اللواتي يمارسن مهنة الدعارة معتقدات أنهن يمكنهن أن يخفين خجلهن من مهنتهن بفنون مختلفة يبتكرنها، يتزيَّن ويدهِّن أجسامهن ويلبسن حُلِيًّا جاعلين طلعتهن حسنة للذين ينظرون إليهن. هكذا تفعل التعاليم المدمرة للمنحرفين، فإنها تُصاغ بجمال التقوى، مزينةً بأقوال الحق، دون أن يهتم هؤلاء أبداً بالحق ذاته، بل مخبئين داخلهم شناعة الكذب الممقوت لله. وعلى الرغم من أن هؤلاء يحصنون ذهنهم بيقظة المنطق وسرعة البديهة، إلاَّ أننا لا ننخدع بأقوال أولئك، بل نكون حقاً مربوطين بشدة بالإيمان الحقيقي مرنمين قائلين: "مُبَارَكٌ الرَّبُّ الَّذِي لَمْ يُسْلِمْنَا فَرِيسَةً لأَسْنَانِهِمْ" (مز ١٢٤: ٦).

إذن أرى أنه من الأفضل أن أُجَمِّع كل ما حصلت عليه بجي للتعلم وأعرضه، دون أن يتسم حديثي أبداً بالغموض، بل يكون فحص الحق في كل فصلٍ واضحاً جداً. لأننا حرصنا على أن يكون كل ما نتعرض له في هذا الحديث موجزاً وواضحاً جداً لأولئك الذين يروق لهم أن يسمعوا.

اسم الكتاب هو "**كنـــز**"؛ لأنه يحتوي على مدَّخر من جمع كبير للحقائق الإلهية؛ لأنه بالرغم مما سنكون عليه من اعتدال كثير في القول، إلاَّ أننا لا نزعم أننا أدركنا كل شيء. لكن دعوني أشكر المسيح الذي يمنح كل شيء بغني للجميع.

لكن ينبغي على كل الذين يقرأون هذه الأقوال أن يعرفوا أن فصول الكتاب قد كُتبت وفق القائمة التي تتقدمها، لكن كل فصل يتضمن كثير من الأقوال التي تساهم في خدمة هدف المواضيع وتلتف حول مفهوم محتواها. سلسلة الأرقام (أرقام المقالات)[1] تُذكر فقط

(١) يقصد الترتيب العددي للمقالات مثل: المقالة الأولى، المقالة الثانية، ....الخ.

أعلى محتوي المقالات، بينما كل ما تتبعه في كل مقالة ليس لها أرقام لأنها تشير إلى روح المحتويات وترمي إلى هدف تلك المقالات[1].

(١) نذكِّر مرة أخرى قارئنا العزيز أننا قمنا بترقيم فقرات المقالات بغرض تسهيل عملية الرجوع إليها، وذلك على خلاف الأصل.

كتاب الكنوز
عن الثالوث القدوس والمساوي

محتوى الكتاب[١]

المقالة الأولى: بخصوص غير الصائر والصائر، وأنه من الأفضل والهام جداً أن يُسمِّي الله آب عن أن يُسمَّى غير الصائر.

المقالة الثانية: إن غير الصائر ليس هو جوهر بل إعلان عن الجوهر.

المقالة الثالثة: إن غير الصائر ليس هو جوهر بل فقط إعلان بأن الله لم يُخلق.

المقالة الرابعة: تجاه أولئك الذين يتطاولون ويقولون بأنه "كان يوجد وقت لم يكن يُوجد فيه الابن". تجميعات مختارة وأفكار مع شواهد. والنتيجة التي تخرج من كل هذا، أن **كلمة** الله هو أزلي.

يوجد في المقالة حُجه مقنعه من خلال آية: "لأَنَّ أُمُورَهُ غَيْرَ الْمَنْظُورَةِ تُرَى مُنْذُ خَلْقِ الْعَالَمِ مُدْرَكَةً بِالْمَصْنُوعَاتِ، قُدْرَتَهُ السَّرْمَدِيَّةَ وَلاَهُوتَهُ، حَتَّى إِنَّهُمْ بِلاَ عُذْرٍ" (رو ١: ٢٠)،بأنه يقصد الابن.

شواهد أخرى بأن الابن هو أزلي. إثباتات بشواهد بأن في الكتب الإلهية، "كان" و"الكائن" و"أوجد" و"كنت" و"أكون" و"يكون" تُستخدم فقط **للكلمة**، وليس للكائنات التي خُلقت والتي تستخدم لها "قبل" و"قبلما" و"صار".

---

(١) هذا المحتوى الذي كتبه القديس كيرلس هو أقرب إلى تلخيص كل مقالة على حدة.

أيضاً جدل عن الأزلية بارتباطه باعتراضات الهراطقة، حيث ينتهي الحـــديث إلى الاعتراف، بأنه يجب أن نقبل أن الابن يأتي من جوهر الآب و لم يصر في وقت لاحق. وطالما هذا صحيح، عندئذٍ يصير واضح أنه أيضاً شريك مع الآب في الأزلية.

كذلك أيضاً عن أزلية الابن. سؤال للأريوسيين مملوء من الهذيان وسؤال مضاد له أكثر هذياناً حيث يعلم بان لا تُطرح أسئلة جاهلة.

إلي أولئك الذين يسألون "هل لديك ابن قبل أن تلد" ويقولون "هكذا أيضاً الآب ليس لديه ابن قبلما يلد".

المقالة الخامسة: أنه لا يوجد الآب قبل الابن، بالرغم من أنه غير مولود، لكن الابن بالرغم من أنه مولود، هو شريك في الأزلية معه.

المقالة السادسة: الآب ولد من ذاته الابن بدون أن يعاني تجزئة أو تغيير.

المقالة السابعة: إلي أولئك الذين يطرحون سؤالاً: هل ولَدَ الآب الابن بدون أن يريـــد أم بإرادته.

المقالة الثامنة: إلي أولئك الذين يقولون أن الابن هو مشابه ليس بالآب بل بإرادته.

المقالة التاسعة: إن الابن هو واحد مع الآب في الجوهر من خلال عرض أقوال الابن: " وَإِذَا وَاحِدٌ تَقَدَّمَ وَقَالَ لَهُ: «أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ، أَيَّ صَلاَحٍ أَعْمَلُ لِتَكُونَ لِيَ الْحَيَـــاةُ الأَبَدِيَّـــةُ؟ فَقَالَ لَهُ:«لِمَاذَا تَدْعُونِي صَالِحاً؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحاً إِلاَّ وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ. وَلكِـــنْ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ فَاحْفَظِ الْوَصَايَا» (مت ١٩:١٦ - ١٧) و"سَمِعْتُمْ أَنِّي قُلْتُ لَكُمْ: أَنَا أَذْهَبُ ثُمَّ آتِي إِلَيْكُمْ. لَوْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي لَكُنْتُمْ تَفْرَحُونَ لأَنِّي قُلْتُ أَمْضِي إِلَى الآبِ، لأَنَّ أَبِي أَعْظَمُ مِنِّي" (يو ١٤:٢٨).

المقالة العاشرة: إن الابن هو مساوٍ للآب في الجوهر، وتتضمن المقالة أيضاً إجابة مقنعة تجاه ذاك الذي سأل "لماذا تدعوني صالحاً؟" (مت١٩:١٦) وتفسير هذا القول.

المقالة الحادية عشر: إن الابن هو مساوٍ للآب على أساس قوله: "أبي أعظم مني"

ردٌ آخر، يعلم بأن في المناقشة بخصوص الأعظم والأدنى، من السيئ طرح مسألة عدم التماثل، لأنها حقيقة أخرى بحسب منهج أرسطو.

ردٌ آخر، يتضمن برهان بأن القول بأن الآب أعظم لا يعنى أن الابن هو أدنى منه.

رد آخر، بأن الابن هو معادل للآب، على أساس قول "اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَمْ يَقُمْ بَيْنَ الْمَوْلُودِينَ مِنَ النِّسَاءِ أَعْظَمُ مِنْ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانِ، وَلكِنَّ الأَصْغَرَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ أَعْظَمُ مِنْهُ " (مت ١١: ١١....إلخ).

المقالة الثانية عشر: على آية " أَلَسْتَ تُؤْمِنُ أَنِّي أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ؟ الْكَلاَمُ الَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ لَسْتُ أَتَكَلَّمُ بِهِ مِنْ نَفْسِي، لكِنَّ الآبَ الْحَالَّ فِيَّ هُوَ يَعْمَلُ الأَعْمَالَ" (يو ١٤: ١٠) و" أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ" (يو ١٠: ٣٠). هذا الحديث يحتوي على برهان بأن الله كان ذلك الذي خَلَصَ البطريرك يعقوب من كل الشرور. رد آخر بأن **كلمة** الله هو صورة الله، وآخر بان **الكلمة** يُدعي هيئة الله.

رد آخر، ببرهان موجز يعّلم بأن الكائنات المتشابهة في كل شيء على أي حال متشابهة بحسب الطبيعة مع تلك التي هي مثلها. لكن الامتيازات الطبيعية تصير لأشخاص بحسب التمرن والاستعداد، مثل أفعالنا الخاصة بنا التي نتممها.

رد آخر، يبرهن على أن حين يقوم الله بأي فعل، فهذا لا يعني حدوث تغير لطبيعته بل إنه يصير بواسطته أو منه.

رد آخر، به نتعّلم كيف يجب أن ندرك آية: " لِيَكُونَ الْجَمِيعُ وَاحِداً، كَمَا أَنَّكَ أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ فِيَّ وَأَنَا فِيكَ، لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضاً وَاحِداً فِينَا، لِيُؤْمِنَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي. وَأَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمُ الْمَجْدَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي، لِيَكُونُوا وَاحِداً كَمَا أَنَّنَا نَحْنُ وَاحِدٌ. أَنَا فِيهِمْ وَأَنْتَ فِيَّ لِيَكُونُوا مُكَمَّلِينَ إِلَى وَاحِدٍ، وَلِيَعْلَمَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي، وَأَحْبَبْتَهُمْ كَمَا أَحْبَبْتَنِي" (يو ١٧: ٢١، ٣٢).

رد آخر، يبرهن بيقين على أننا لا نترك طبيعتنا ونأخذ الطبيعة الإلهية، عندما نقول بأننا نصير واحد مع الله، بل نصير في شركة معه وهكذا نُدعَّي شركاء الطبيعة الإلهية.

المقالة الثالثة عشر: بخصوص المماثلة الطبيعية بين الابن والآب وأن الابن ليس له طبيعة متغيرة، ولا أتى خارجياً من الآب لكن أتى من جوهره كابن.

إن الابن ليس هو مشابه بالآب بتغير جوهره من الأسوأ إلى الأحسن بل بطريقة طبيعية. قول آخر يُظهر أن الابن يأتي من جوهر الآب وليس خارجياً كما يزعم محاربي المسيح. وطالما لم يأت من الخارج، إذن هو يشابه الآب.

برهان من الكتاب المقدس يوضح أنه بمشاركتنا للطبيعة الإلهية صِرنا بحسب صورته. لأنه لم يكن كافي في خلق الإنسان لكي يظهر ولكي يكون صورة خالقه، أن تنحصر الأقوال الكتابية في الرؤية النظرية بل العملية.

المقالة الرابعة عشر: أيضاً عن المماثلة من خلال آية: "لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الآبَ لَهُ حَيَاةٌ فِي ذَاتِهِ، كَذلِكَ أَعْطَى الابْنَ أَيْضاً أَنْ تَكُونَ لَهُ حَيَاةٌ فِي ذَاتِهِ" (يو ٥:٢٦). والنتيجة هي أن الابن هو بحسب الطبيعة الحياة مثل أيضاً الآب.

المقالة الخامسة عشر: في سفر الأمثال: " اَلرَّبُّ قَنَانِي أَوَّلَ طَرِيقِهِ، مِنْ قَبْلِ أَعْمَالِهِ، مُنْذُ الْقِدَمِ" (أمثال ٨:٢٢)، فعل "خلق" لا يُستخدم ضد جوهر الكلمة ولا تعني أن الابن هو مصنوع أو مخلوق.

برهان مستنتج من ملاحظات دقيقة لشواهد الكتب المقدسة، بأنه، كما أن الله لا يسجد لأحد من المخلوقات، هكذا طبيعياً لا يقبل أن يُسَّجد ويُمجَّد لهذه المخلوقات.

علي النقيض مع تعاليم أريوس التي تنادى بأن الابن قد خُلِق كما يعتقد الأريوسيون، وتفنيد هذه الآراء بأفكار مقنعة. أيضاً البرهنة من خلال آية " الرب قناني – خلقني"، على أن الابن ليس هو مخلوق. قول آخر، بينما الأرثوذكس يقولون " لو كان الابن مخلوق كيف هو من طبيعته خالق؟ لأن هذا ليس من صفات المخلوقات"، والهراطقة يطرحون أسئلة والإجابات من جانبنا تأتي تباعاً.

ملاحظة أخري أيضاً، منها نتعلم، أن الملائكة والأنبياء القديسون كانوا يُــؤمرون من الله وكانوا يطرحون على الله تساؤلاقم، لأهم كانوا يجهلون مرات كثيرة ذاك الــذي يأمرهم. بينما كلمة الله لا يبدو أنه يفعل نفس الشيء.

قول آخر على آية "لَمَّا ثَبَّتَ السَّمَاوَاتِ كُنْتُ هُنَاكَ أَنَا. لَمَّا رَسَمَ دَائِرَةً عَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ" (أمثال ٨:٢٧).

المقالة السادسة عشر: عن أزلية الابن وأنه أتى من جوهر الآب بدون أن ينفصل عنه.

المقالة السابعة عشر: لا يوجد في الابن أي خاصية من خواص الخليقة لأجل هذا أيضاً ليس الابن مخلوقاً.

المقالة الثامنة عشر: بالنسبة لله، المخلوق والمولود ليسا متطابقان، ولا "أن يخلق" تتطابق مع "أن يلد".

المقالة التاسعة عشر: لهؤلاء الذين يقولون، إن الابن ليس هو كلمة الآب الحقيقي بل آخر بالقرب منه وغريب من جهة الطبيعة. والنتيجة التي نصل إليها هي أن الابن هو مساوٍ للآب في الجوهر، ولم يأت من الخارج بل من جوهر الآب.

المقالة العشرون: على آية "نَاظِرِينَ إِلَى رَئِيسِ الإِيمَانِ وَمُكَمِّلِهِ يَسُوعَ، الَّذِي مِــنْ أَجْــلِ السُّرُورِ الْمَوْضُوعِ أَمَامَهُ، احْتَمَلَ الصَّلِيبَ مُسْتَهِيناً بِالْخِزْيِ، فَجَلَسَ فِي يَمِينِ عَــرْشِ اللهِ" (عب ١٢:٢)، وكذلك: "لِذلِكَ رَفَّعَهُ اللهُ أَيْضاً، وَأَعْطَاهُ اسْماً فَوْقَ كُــلِّ اسْــمٍ" (فــيلبي ٢:٩)، شروحات بخصوص التجسد من خلال تفسير الآيتين.

شروحات على فعلي: "أعطاه" و"رفَّعه" وكل ما هو مثل هذه الأقــوال بالنســبة للمسيح. على القول الرسولي: "الَّذِي، وَهُوَ بَهَاءُ مَجْدِهِ، وَرَسْمُ جَوْهَرِهِ، وَحَامِــلٌ كُــلَّ الأَشْيَاءِ بِكَلِمَةِ قُدْرَتِهِ، بَعْدَ مَا صَنَعَ بِنَفْسِهِ تَطْهِيراً لِخَطَايَانَا، جَلَسَ فِي يَمِينِ الْعَظَمَــةِ فِــي الأَعَالِي" (عب ٣:١). كذلك شروحات على شواهد تُظهر أن "أعظم" يستخدمها الكتاب على أشياء تختلف كثيراً فيما بينهما، إما من جهة طبيعتهما أو من جهة المكانة أو من جهة قياس نعمتهما.

قول آخر، يقدم عبارة "صائراً أعظم من الملائكة" بأنها لا تعقد مقارنة للجواهر بل بالحري للخِدمات. يُقال أيضاً بطريقة أخري.

عرض شواهد عن بشرية المسيح وشرحهم بعد ذلك. رد آخر من نفس الشواهد يُظِهر أن مقارنة خدمات الملائكة والابن هي حسنة ومفيدة جداً، لأنها تشرح أهمية كلمة "أعظم". لأن من هذه الشواهد سوف نتعلم منها كيف هو أعظم من الملائكة وكم هو أعظم.

المقالة الواحدة والعشرون: على قول الرسول "مِنْ ثَمَّ أَيُّهَا الإِخْوَةُ الْقِدِّيسُونَ، شُرَكَاءُ الدَّعْوَةِ السَّمَاوِيَّةِ، لاَحِظُوا رَسُولَ اعْتِرَافِنَا وَرَئِيسَ كَهَنَتِهِ الْمَسِيحَ يَسُوعَ " (عب ٣:١). والنتيجة التي تخرج هي، أن الابن ليس هو مخلوق ولا هو مصنوع.

المقالة الثانية والعشرون: على آية: "وَأَمَّا ذلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلاَ يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ، وَلاَ مَلاَئِكَةُ السَّمَاوَاتِ، إِلاَّ أَبِي وَحْدَهُ" (مت ٢٤:٣٦).

المقالة الثالثة والعشرون: على آية " اَلآبُ يُحِبُّ الابْنَ وَقَدْ دَفَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي يَدِهِ." (يو ٣:٣٥). وعلي آية: " كُلُّ شَيْءٍ قَدْ دُفِعَ إِلى مِنْ أَبِي، وَلَيْس أَحَدٌ يَعْرِفُ الابْنَ إِلاَّ الآبُ، وَلاَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الآبَ إِلاَّ الابْنُ وَمَنْ أَرَادَ الابْنُ أَنْ يُعْلِنَ لَهُ" (مت١١:٢٧). وعلي آية: " أَنَا لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَفْعَلَ مِنْ نَفْسِي شَيْئاً. كَمَا أَسْمَعُ أَدِينُ، وَدَيْنُونَتِي عَادِلَةٌ، لأَنِّي لاَ أَطْلُبُ مَشِيئَتِي بَلْ مَشِيئَةَ الآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي" (يو ٥:٣٠)، وكل الآيات المشابهة لهذه الآيات.

المقالة الرابعة والعشرون: على الأقوال التي قيلت عن المخلص بشرياً مِن الإنجليين. على "بكي" (لو ١٩:٤١)، "الآن نفسي قد اضطربت" (يو ١٢:٢٧)، "إن شئت أن تعبر عني هذا الكأس" (مت ٢٦:٣٩)، "نفسي حزينة" (مت ٢٦:٣٨) وكل الآيات المماثلة. شواهد من الكتاب تفند شر محاربي المسيح.

المقالة الخامسة والعشرون: على آية "بكر كل الخليقة" (كو١:١٥) بأن الابن ليس مخلوقًا.

المقالة السادسة والعشرون: لذلك الذي قيل لإبني زبدي "وَأَمَّا الْجُلُوسُ عَنْ يَمِينِي وَعَنْ يَسَارِي فَلَيْسَ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ إِلاَّ لِلَّذِينَ أُعِدَّ لَهُمْ» (مر ١٠:٤٠).

المقالة السابعة والعشرون: على آية " وَهذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ" (يو ١٧: ٣).

المقالة الثامنة والعشرون: على نص لوقا: "وَأَمَّا يَسُوعُ فَكَانَ يَتَقَدَّمُ فِي الْحِكْمَةِ وَالْقَامَةِ وَالنِّعْمَةِ، عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ" (لو ٢: ٥٢).

المقالة التاسعة والعشرون: على آية: "وَمَتَى أُخْضِعَ لَهُ الْكُلُّ، فَحِينَئِذٍ الابْنُ نَفْسُهُ أَيْضاً سَيَخْضَعُ لِلَّذِي أَخْضَعَ لَهُ الْكُلَّ، كَيْ يَكُونَ اللهُ الْكُلَّ فِي الْكُلِّ " (١كو١٥: ٢٨).

المقالة الثلاثون: على آية: "وَالآنَ مَجِّدْنِي أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ بِالْمَجْدِ الَّذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ الْعَالَمِ" (يو١٧: ٥).

المقالة الواحدة والثلاثون: إلي أولئك الذين يقولون، إن الله لا يعرف شيئاً أكثر مِنا عن جوهره، بل ما يمكنه أن يعرف عن ذاته، نعرفه نحن أيضاً بالتساوي.

المقالة الثانية والثلاثون: شواهد مختارة من العهد الجديد وأفكار بأن الابن هو الله بحسب الطبيعة. وطالما هذا هو حقيقي، ليس هو مخلوق ولا مصنوع.

المقالة الثالثة والثلاثون: إن الروح هو الله بحسب الطبيعة، ويأتي من جوهر الآب ويُمنح للخليقة بواسطة الابن.

المقالة الرابعة والثلاثون: عرض شواهد فيها يمكن أن نرى أن الروح هو الله ولديه دائماً نفس الأفعال مع الابن، وليس هو غريب عن جوهر ذاك. وعندما نقول أن الله يسكن فينا، فإن الروح هو الذي يسكن.

المقالة الخامسة والثلاثون: شواهد من الكتاب المقدس بها نستطيع أن نري، أن الابن هو مولود من الآب وليس هو مخلوق.

المقالة الأولى

عن الصائر γενητό وغير الصائر ἀγένητο
أو
(عن المخلوق وغير المخلوق)[1]

١- عندما يسألنا الأريوسيون[2]: "غير الصائر"، هل هو واحد أم اثنين؟ فإنهم يستهدفون بذلك أن تُنسب عبارة "غير الصائر" فقط إلى الآب. أمَّا نحن فإننا نرى أن عبارة "غير الصائر" تنطبق على الابن أيضاً، وعلى الرغم من ذلك، نجيبهم كالأتي:

حسناً. قبل كل شيء نقول إن السؤال بهذا الشكل يدل على جهل واضعه وتفاهته؛ لأن مصطلح "غير الصائر" له دلالات كثيرة. فـ"غير الصائر" هو مَن أو ما لم

(١) أنظر القديس أثناسيوس الرسولي، المقالة الأولي ضد الأريوسيين، عربها عن اليونانية أ. صموئيل كامل عبد السيد و د. نصحي عبد الشهيد، الطبعة الثالثة - مؤسسة القديس أنطونيوس، مركز الدراسات الآباء، ٢٠٠٢م، ص ٨٨ - ٩٥.

(٢) يوجه القديس أثناسيوس ملحوظة غاية في الروعة للأريوسيين حينما سألوا هذا السؤال، قائلاً لهم: "إنهم يستحقون الإدانة والتنديد بهم، أولاً، لأنهم بينما يلومون الأساقفة الذين اجتمعوا في نيقية بسبب استخدامهم لعبارات ليست من الكتاب المقدس - رغم أنها ليست عبارات مضادة للإيمان بل قد وضعت بهدف فضح كفرهم، فقد وقعوا هم أنفسهم في نفس الأمر، أي أنهم نطقوا بعبارات ليست من الكتاب المقدس وابتدعوا إهانات ضد الرب، وهم لا يعرفون ما يقولونه ولا ما يقررونه" (١ تيمو ١: ٧)، لذلك فليسألوا إذن، اليونانيين، الذين سبق أن سمعوا منهم ما قالوه (لأنه ليس من الكتب المقدسة بل من اختراعهم) وذلك لكي يسمعوا منهم أيضاً، كم للفظ (غير المخلوق - غير الصائر) من معان عديدة، وعندئذ سيتعلمون أنهم لا يعرفون حتى أن يسألوا السؤال الصائب، ولا حتى بخصوص الأشياء التي يتحدّثون عنها". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الأولى، الفصل التاسع، فقرة ٣٠ ص ٨٨ - ٨٩.

يَصِر بعد، وإن كان وارداً أن يصير في المستقبل، وذلك مثل المركب الذي يمكن أن يصير من الخشب، أو التمثال الذي يصير من النحاس.

وتعبير "غير الصائر" أيضاً يمكن أن يُطلق على ما لم يَصِر بتاتاً، ولا يمكن أن يصير. فالمثلث – كشكل – على سبيل المثال، لا يمكن أن يتغيَّر بحيث يصبح مستطيلاً؛ لأن المثلث عندئذٍ يتلاشى تماماً، ويصير شيئاً مختلفاً عما كان عليه[1].

كذلك يُطلق تعبير "غير الصائر" أيضاً على ما هو كائنٌ وموجودٌ بالفعل، ولكنه لم يُصنع بواسطة شخص ما.

فإذا كان تعبير "غير الصائر" يمكن أن يُفهم بمعانٍ مختلفة، فما الذي يعنيه هذا التعبير بالنسبة لله بحسب رأيهم؟

بما أنهم طرحوا سؤالهم بكل سهولة، فلربما يقولون إنه يعني هذا الذي لم يَصِر بعد.

وإذا قلنا نحن أيضاً إن واحداً فقط هو "غير الصائر". فمن المتوقع أن يقولوا لنا: طالما إن "غير الصائر" هو واحد، وهو الآب، إذن فالضرورة تحتم عليكم أن تقبلوا بصيرورة الابن. عندئذٍ يكون جوابنا عليهم أنه طالما أن الابن هو حكمة وقوة وكلمة الآب، وأن **الكلمة والحكمة والقوة** هي دائماً في الآب، وإذا كان الابن يُدعى بهذه الألقاب، إذن فالابنُ كائنٌ أزليٌّ وليس متأخراً زمنياً عن الآب.

وكما أن الابن هو إلهٌ من إله ونورٌ أشرق من نور، هكذا أيضاً هو "غير صائرٍ"من "غير صائرٍ"؛ لأن **الكلمة** يجب أن يكون مثل ذاك الذي ولده، عندئذٍ يمكنك أن تعترف بأصالة جوهر الآب في ذاك الذي وُلِد منه، بالتالي لا شيء حقاً يعيق الآب "غير الصائر" من أن يكون "غير صائر"، وما ينطبق على الآب ينطبق أيضاً على **الكلمة** الذي وُلِد منه، بسبب أنه واحدٌ مع الآب ويُوجد في الآب بسبب طبيعته المماثلة للآب، الأمر الذي ذكره

---

(1) هنا يتبع القديس كيرلس نفس ما قاله القديس أثناسيوس إلا أنه يزيد الأمر توضيحاً، على سبيل المثال: بينما القديس أثناسيوس في المقالة الأولى ضد الأريوسيين يقول:"لأن المثلث لم يصر أبداً مربعاً" يوضح القديس كيرلس، قائلاً: "لأن المثلث عندئذٍ يتلاشى تماماً، ويصير شيئاً مختلفاً عما كان عليه". نريد أن نقول أنه بالرغم من أن القديس كيرلس يعتمد كثيراً على القديس أثناسيوس في شرحه، إلا أن له طرحة الخاص المميز.

هو نفسه حين تحدث عن ذاته: "أنا والآب (نحن) واحد"[١] (يو١٠: ٣٠) مُعلناً بقوله: "واحدٌ" تطابق الجوهر، وبقوله "نحن ἐσμεν" يعني أنهما اثنان، وفي نفس الوقت في إلوهةٍ واحدة.

٢- ردٌ آخر:

طالما أن الابن هو صورة الآب التي لا نظير لها، وأن الآب يظهر فيه بحسب قوله: "الذي رآني فقد رأي الآب" (يو ١٤: ٩)، عندئذٍ ينبغي حتماً أن نقول إن الابن هو "غير صائرٍ"؛ لأنه أتى من الآب "غير الصائر"؛ إذ كيف يمكن للـــ "الصائر - حسب قولهم -" أن يُظهر ذاك الذي هو "غير صائر"؟

فطالما أن الأصل يظهر في هذا الذي هو مثيله، إذن فالمثيل يكون مثل الأصل[٢]. وإلاَّ فقد حان الوقت الذي فيه نقول إن الآب هو أيضاً صائرٌ طالما أن الصورة شُكِّـــلت منه، أي من الصائر بحسب رأيكم.

---

(١) (يو ١٠: ٣٠) حسب النص اليوناني: «ἐγώ καί ὁ πατήρ ἕν ἐσμεν» نلاحظ هنا كلمة[نحن ἐσμεν]المقصود بها الاثنين الآب والابن وجاءت هنا في الجمع لأنه في اللغة اليونانية لا يوجد مثني والمثني يعتبر جمع. والقديس كيرلس في شرحه لإنجيل يوحنا وبالتحديد على هذا النص يؤكد على الوحدانية والتمايز، إذ يقول: "نحن نقول إن الآب والابن هما واحد غير مازجين فرديتهما باستعمال العدد واحد، كما يفعل بعض الذين يقولون إن الآب والابن هما نفس الشخص، بل نؤمن أن الآب هو قائم بذاته والابن قائم بذاته موحدين الاثنين في نفس الجوهر، وعارفين أيضاً أن لهما قدرة واحدة، حتى أن هذه القدرة ترى بدون اختلاف في الواحد كما في الآخر" ثم يستمر القديس كيرلس، قائلاً: "وبكلمة "واحد" يشير إلى وحدة الجوهر،وبكلمة "نحن" يشير إلى اثنين، ثم بعد ذلك يوحدهما في لاهوت واحد". القديس كيرلس الأسكندري، شرح إنجيل يوحنا، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد وآخرون، المجلد الأول، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية بالقاهرة ٢٠٠٩م، ص ٧٤٢.

(٢) أيضاً يبرهن القديس كيرلس على أن الرؤية الحقيقية للآب هي في الابن، وذلك في شرحه لإنجيل يوحنا وبالتحديد على نص (يو ١٤:٩) بأن الابن يتمتع بثلاث خصائص طبيعية هي أيضاً للآب: ١ – الصلاح. ٢- كلي القدرة. ٣- الحياة. ثم يختم القديس كيرلس برهانه متخيلاً المسيح يعاتب فيلبس، قائلاً:"فما دمت فيِّ ومن خلالي ترى أبي بوضوح، فأية طريقة للرؤية الإلهية تطلبها أنت وأنت قد حصلت على رؤية أفضل جداً جداً من تلك التي مُنحت للقدماء، وترى أمامك أصدق وأضبط صورة حقيقية للآب، التي هي أنا ذاتي؟". القديس كيرلس السكندري، شرح إنجيل يوحنا، الجزء الثامن، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، أغسطس ٢٠٠٨، ص ٥١ - ٥٢.

بالإضافة إلى ذلك نرى أن القديس أثناسيوس يعطي أهمية لرؤية الابن عن طريق الخليقة على أساس أن الخليقة قد خُلقت عن طريق الابن، وأنه "فيه يقوم الكل" (كو ١: ١٧). ويشدد القديس أثناسيوس على أن هذا الأمر

وبما أن هذا القول هو محضُ عبثٍ، إذن فـــ"غير الصائر" هو أيضاً صورة "غير الصائر".

٣- ردٌ آخر

حين روى موسى الطوباوي قصة خلق الإنسان، قـــدّم الله قائلاً: "نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا" (تك ١: ٢٦)، وبقوله: "صورتنا كشبهنا" يقصد الأقنومين الآخرين، وهو ما يعني أن الروح القدس حاضرٌ أيضاً، ووُصف بأنه إلهٌ. إذن، فلو ظهرت في إنسان صورة الآب والابن ذاهما، فالتماثل بينهما يكون تاماً[1]، وهو ما يعني أن "غير الصائر" لا يتشابه مع "الصائر".

إذن فالابن ليس "صائراً"، وإلاّ يبدو أنه ليس واحداً مع الآب في الجوهر[2].

يتحقق بشرط أن يتأمل الإنسان الخليقة بطريقة مستقيمة، ويستشهد ق. أثناسيوس بآيات كثيرة من الكتاب المقدس. أنظر القديس أثناسيوس الرسولي، المقالة الأولى ضد الأريوسيين، عربها عن اليونانية أ.صموئيل كامل عبد السيد، د.نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، طبعة ثالثة ٢٠٠٠م، ص ٥٢ - ٥٧.

(١) لأن الابن هو صورة الآب، لذلك في سفر التكوين يقول الله: "نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا" (تك ٢٦:١). إذن الإنسان المخلوق بحسب صورة الله. أي صورة الآب والابن وهي صورة واحدة "علي صورتنا". إذن لا يوجد اختلاف بين الآب والابن، بل يوجد تماثل تام. وبالتالي الابن هو "غير صائر" مثل الآب. فالثالوث لا يمكن تقسيمه حسب الجوهر إلى خالق ومخلوق.

(٢) مشكلة الهراطقة أنهم يظنون أن وحدة الجوهر، تلغي الفروق والتمايز بين الآب والابن، أما القديس كيرلس فيؤكد على الوحدة والتمايز في نفس الوقت فلا الآب يتحول إلى ابن ولا الابن يتحول إلى آب، إذ يقول القديس كيرلس في موضع آخر: "كم يكون خطأ أن نتصوّر أن الله الآب يصبح **الكلمة** بسبب وحدة الجوهر. فهو أقنوم الآب منذ الأزل. وهذا ليس اعتداء على كرامة الابن، بل تأكيد على تمايز الابن أيضاً، واعتراف أن الآب والابن لهما ذات الطبيعة الإلهية الواحدة غير المتغيّرة، ولكلٍّ منهما صفته الأقنومية الخاصة به التي لا تسمح للابن أن يكون الآب أو الآب أن يكون الابن، بل يظلّ كل منهما أقنوماً متميّزاً في وحدة الجوهر" القديس كيرلس السكندري، شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد وآخرون، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠٠٩، الإصحاح الأول ص ٧١.

٤- ردٌ آخر

يُقال عن الآب في الكتب المقدسة إنه **ضابط الكل**، وكذلك **الرب**[١]. في ذات الوقت لا يُدرَك الابن على أن أحداً يسود ويتسلط عليه؛ لأنه يسود ويتسلط، وله السيادة مع الآب. لأنه حقاً هو أيضاً ضابط الكل، وكذلك هو الرب.

إذن، ففي مثل هذه الأمور لا يُعدُ الابن واحدٌ من **الكل**، أي من المخلوقات، فكلمات مثل:"**الكل**"، إنما هي تخص طبيعة أولئك الذين خُلقوا. وعلى ذلك ففي هذه الحالة لا تجوز مقارنة "غير الصائر" بالابن، ولكن تصح هذه المقارنة مع الخليقة، حتى لو قيل عن "غير الصائر" إنه واحدٌ؛ لأن **الكل** خُلِق فيما عدا الله[٢].

(١) يستند القديس كيرلس في برهانه هذا على أن الابن هو من جوهر الآب بالتالي له كل خصائص الآب، إذ يقول في نفس السياق: "إذا كان الآب ضابط الكلّ، والابن ضابط الكلّ، فكيف يكون أقلّ منه؟ لأن المنطق يحتّم علينا أن غير الكامل هو الذي يرتفع إلى الكامل. وإذ كان الآب هو الربُ والابن هو الربُ. فكيف يكون الابن أقلّ منه؟ وكيف يكون الابن حَراً إذا كان أقلّ من الآب في الربوّبية وليس له الكرامة الإلهية في ذاته؟ وإذا كان الآب هو النور والابن هو النور، فكيف يكون الابن أقلّ منه؟ فالابن لا يكون النور الكامل إذا كان أقلّ من الآب، بل ستدركه الظلمة ويصبح الإنجيلي كاذباً بقوله "وَالظُّلْمَةُ لَمْ تُدْرِكْهُ" (يوحنا ١:٥). وإذا كان الآب هو الحياة والابن هو الحياة؟ فكيف يكون الابن أقلّ منه؟! إن كان الابن أقلّ حياةً من الآب ستكون الحياة التي فينا ناقصة حتى إن كان المسيح حالاً في الإنسان الداخلي بالإيمان (أفسس ٣: ١٦ - ١٧). بل ويكون الذين يؤمنون إلى حد ما موتى طالما أن حياة الابن أقلُ كمالاً من الآب. ولكن علينا التخلّص من هذه الحماقة، وأن نعترف أن الابن كامل وهو مساوٍ للآب الكامل بسبب مماثلته له في الجوهر بكلّ دقّة". أنظر شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٥٦.

(٢) ويؤكد القديس كيرلس على حقيقة أن الابن هو خالق حين يشرح يو ١:٣ "كل شيء به كان وبغيرة لم يكن شيء مما كان" بأن الإنجيلي يوحنا أغلق إلى الأبد المدخل إلى تعدد الآلهة. وأعلن الابن الوحيد، للذين لم يعرفوه كخالق الكل، فهو القوة التي أتت بكل الكائنات إلى الوجود. أنظر القديس كيرلس السكندري، شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، المرجع السابق، ص ٧٧. الأمر الهام الذي يجب على الهراطقة إدراكه هو أننا لا ننادى بثلاثة آلهة بل بالة واحد مثلث الأقانيم، فالله ليس ثلاثة أشخاص مثل البشر لأن الأقنوم هو الشخص الذي لا يوجد منفرداً أو لا يوجد بمفردة بل يُكمِّل وجودة أقنوم آخر، وهكذا الأقانيم الثلاثة يجمعهم الجوهر الواحد. فالذات الإلهية واحدة لا تثليث فيها، إنما التثليث هو في الأقانيم .الله واحد في ثالوث. وهذه الحقيقة يؤكدها القديس كيرلس حين يشرح أبعاد الفلك الذي بناه نوح بأمر من الله، إذ يقول: "انتبه إذاً إلى ما ورد في الكتاب المقدس بخصوص الثلاثمائة ذراع والتي ترمز إلى الكمال. لأن هذا كان طول الفلك لكن عرض الفلك الذي يبلغ خمسين ذراعاً يعبر جيداً عن وحدة الإلوهة التي هي كمال الكمال فإن الخمسين هي سبع سبعات وتضاف إليهم وحدة واحدة لأن الطبيعة الإلهية هي واحدة. أما ارتفاع الفلك فلا يعلن لنا أي شيء آخر سوى هذه الإلوهية، لأنه

٥- أن يُقال: إن الله "آبٌ"، أفضل وأهم من أن يُقال: "غير الصائر"

يتضمن اسم "الآب" بالضرورة مفهوم الابن؛ لأن كل واحدٍ منهما يشير للآخر[١]. بينما تعبير "غير الصائر" يميِّز الله الذي لم يُخلَق في مقابل الكائنات التي خُلِقَت.

وعلى ذلك، يتحتم على أولئك الذين يريدون أن يؤمنوا باستقامة، معرفة الثالوث القدوس. لأن ذاك الذي يذكر اسم "الآب"، يرى أيضاً الابن بسبب أنه في الآب، أمَّا ذاك الذي يدعوه "غير الصائر"، فإنه يرى المخلوقات، إذ هو مميَّزٌ عنهم لأنه لم يُخلق. إذن، فمن الأفضل أن يُعلَن الله بالاسم الذي يُعلِن عن معرفة الابن، لا بتلك الأسماء التي تُعلَن بواسطتها المخلوقات التي لا تساهم إطلاقاً في معرفة الثالوث القدوس.

كما أن ذاك الذي يدعو الله "الآب"، إنما هو يعلن الله عن طريق هذا الذي هو كائنٌ معه (أي الابن)، بينما مَن يدعوه "غير الصائر"، يعلِن الله عن طريق تلك المخلوقات التي هي ليست كائنة معه. لأن الآب هو آبٌ للابن، وليس "صائراً"، أي مخلوقاً[١].

يصل إلى ثلاث عشرات وينتهي أيضاً إلى ذراع واحد الذي هو فوق الكل والأعظم. لأنه يقول "وثلثين ذراعاً ارتفاعه وتصنع كوا الفلك وتكمله إلى حد ذراع من فوق" (تك ٦:١٦) أي بينما الثالوث القدوس هو ثلاثة أقانيم إلا أن له طبيعة واحدة إلهية. بالطبع يفضل اليونانيون الطريق الذي يؤدى إلى تعدد الآلهة، ولكننا إن كنا نقول إن الآب والابن والروح القدس ثلاثة أقانيم إلا إننا نؤمن بطبيعة واحدة وأنهم متحدون في جوهر واحد، وهذا ما أشار إليه بقوله " وتكمله إلى حد ذراع من فوق". حسناً قد خلصنا المسيح بالإيمان وأدخلنا إلى الكنيسة فهي كمثل فلك ندخل إليها لننتصر على خوف الموت وننجو من نيران هذا العالم لأن نوح البار - أي المسيح - سيكون معنا". أنظر "جيلافيرا" أي تعليقات لامعة، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، المقالة الأولى على سفر التكوين، الكتاب الشهري للشباب والخدام، عدد يونيه ٢٠٠٤م.

(١) التأكيد هنا على الارتباط الدائم بين الآب والابن، فلا وجود للآب بدون الابن وكذلك لا وجود للابن بدون الآب، لذا يقول القديس كيرلس في موضع آخر: "أليس من الأفضل أن نتعلّم أنه حيث توجد الولادة حسب الطبيعة تكون هناك بالتأكيد علاقة بين الوالد والمولود منه. وأن هذه العلاقة ليست هي علاقة نسبية أو علاقة غير حقيقية بل هي علاقة طبيعية؟ لأن المولود بالحقيقة يأتي من ذات جوهر الذي وَلَده. فكيف يكون إذاً ذلك الذي وُلد من الله، ينقصه شيء أو يكف أن يكون - حسب رأيهم - هو الله بالحقيقة؟". حوار حول الثالوث، الجزء الثاني، ترجمة د جوزيف موريس فلتس، المركز الأرثوذوكسي للدراسات الآبائية، مايو ٢٠٠٥ الحوار الثالث ص ٤. وهذا التأكيد كان قد سبق للقديس أثناسيوس أن شرحه قائلاً: "إن كان الله أباً فلابد أن يكون أباً لمن هو ابن بالطبيعة ومن نفس جوهر الآب". القديس أثناسيوس الرسولي، الروح القدس، ترجمة ومراجعة د. نصحي عبد الشهيد ود. موريس تاوضروس، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية نوفمبر ٢٠٠٥، طبعة ثانية، الرسالة ٢:٦ ص ١٠٢.

وإذا كان مِن المناسب بالأكثر أن نسمي الله عن طريق أسماء الأقانيم الكائنة معه، فهذا ما يكون ظاهراً للكل. لأنه لو دعا أحدٌ تلك الطبيعة التي لا تـُوصف والتي لا نظير لها بتلك التي هي بالفعل تتصف بها، فحسناً يفعل، إذ أنها تعلِن الله. بينما لو وصف أحدٌ تلك الطبيعة مستخدِماً الأسماء التي لا تتصف بها (الصيغة السلبية)، قائلاً غير شريرة وغير خبيثة، إذ لا يوجد فيها شر ولا خبث، فبالرغم مِن أنه مُحقٌ في هذا الذي يقوله، لكنه على أية حال لا يُعلن لنا عن الله[٢]. لأنه يوجد بين البشر أناسٌ غير أشرار وغير خبثاء. مثل هؤلاء يؤمنون أيضاً أن الملائكة قديسون. هكذا من خلال الأوصاف (الإيجابية)، وليس بواسطة تلك الأوصاف (السلبية)، يُعلِن عن الله بأكثر حقٍ وأكثر ملائمة.

٦- ردٌ آخر

يـُرنم الطوباوي ويقول للابن: "من أجل ذلك مسحك الله إلهك بدهن الابتهاج أكثر من رفقائك الذين يشتركون معك في هذه المسحة " (مز ٤٥: ٨)[٣]. إذن، فبما أنه هو يُشارَك، فهو إذن مختلف عن المُشَارِك الذي يسعى لكي يشترك فيه، إذ ينبغي أن يُدرَك الواحد في الآخر. وإذا كانت الخليقة تشارِك الابن، فهذا يعني أن الابن مختلفٌ عن الخليقة

---

(١) سبق وأكد القديس أثناسيوس بأن مَن يستخدم مصطلح"غير الصائر" أو"غير المخلوق" لا يعرف الابن أكثر مما يعرفه الوثنيون" أما الذي يدعو الله أباً، فإنه يسميه هكذا نسبة إلى"**الكلمة**"،والذي يعرف"**الكلمة**"،فأنه يعرف أيضاً أنه خالق الكل، ويفهم"أن كل شيء قد صار به " يو١:٣. أنظر المقالة الأولى ضد الأريوسيين، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد وأ. صموئيل كامل عبد السيد، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠٠٢، طبعة ثالثة، ص ٩٤.

(٢) يتعرض القديس كيرلس هنا لقضية في منتهى الأهمية، وهي قضية الإعلان عن الله عن طريق الأسماء، ونحن نعرف أن الإعلان عن الله يتم بطريقتين، إحداهما هي الطريقة الإيجابية وهي تلك التي يقصدها القديس كيرلس بتسمية الله بالآب. والطريقة الثانية تعرف بالطريقة السـلبية، أي الإعلان عن الله بالنفي أو بالسلب، وهي تلك التي يقصدها القديس كيرلس بتسمية الله بـــ غير الصائر، والمثال الواضح على ذلك هو القداس الغريغوري الذي يشتمل على كثير من هذه الأوصاف السـلبية: غير المحوى، غير المبتدئ....الخ .

(٣) وردت الآية هكذا في نص القديس كيرلس، وحين نقارن هذه الآية من المزمور كما وردت في الرسالة إلى العبرانيين نجد أن كلمة "رفقائك" الواردة في المزمور هي نفسها " شركائك " الواردة في الرسالة إلى العبرانيين. وبناء على ذلك فإن ورود الآية عند القديس كيرلس قريب من استخدام القديس بولس لها.والجدير بالذكر أن القديس أثناسيوس استخدم صيغة العبرانيين ويبدو أن القديس كيرلس قد أخذ نفس الشرح الذي تبناه القديس أثناسيوس في الرسالة ضد الأريوسيين عندما ذكر هذه الآية من المزمور للرد على الهراطقة والبرهنة على إلوهية الابن. أنظر ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الأولى، ص ١١٤ - ١٢٥.

التي تشترك معه، وعلى ذلك فالابن لا يكون صائراً. أمَّا إذا لم يكن الابن غير مختلفٍ عن تلك الخليقة، بل له نفس طبيعتها، فما هي إذن ضرورة المشاركة، أو كيف يمكن للمرء أن يشارك في شيء لا يختلف عنه، بل هو نفسه مثله تماماً؟

المقالة الثانية

"غيرُ الصَّائرِ"، ليس تعريفاً للجوهر، بل إعلاناً عن صفةٍ مميِّزةٍ للجوهر

١- إذا كان "غير الصائر" يُفهم على أنه بدءٌ وعِلةٌ، بالإضافة إلى أنه كائنٌ، إلاَّ أن هذا لا يعني أن أي بدءٍ يكون بالضرورة شبيهاً أو غير شبيه به. لأن "غير الصائر" إنما يعني بالضرورة أن الصائر ليس شبيهاً به؛ لأن "الصائر" عكس "غير الصائر"، وعلى ذلك فإننا لا نقصد بـ "غير الصائر" التعبير عن الجوهر، وإنما نقصد فقط أنه لا يوجد شبيه له في الجوهر[١]، وذلك تمييزاً له عن ذاك الذي يمكن أن يُدعى زيفاً بـ"غير الصائر".

٢- رد آخر

وعلى الرغم من أننا قد أوضحنا بالفعل أن كلمة "غير الصائر" لا تنصرف إلى الجوهر، إلاَّ أن شخصاً ما يمكنه أن يقول: إن هذه الكلمة لا تعبِّر عن الجوهر بالفعل، ولكنها تدل على الاختلاف[٢].

---

(١) لأن الجوهر الإلهي هو جوهر غير مخلوق ليس له مثيل.

(٢) أي أن هذا الجوهر مختلف ومميز عن الجوهر الصائر أي المخلوق، ويدَّعى الهراطقة أن بهذه الكلمة الواحدة يتم تحديد الجوهر، وقد فند القديس كيرلس هذا الرأي في كتاب آخر، إذ يقول: "فهم يقولون إن تعريفات الجوهر تتّم من خلال اسم واحد أو كلمة واحدة، وهذا أمر لا يقبله العلماء والذين يبحثون عن الدقة في هذا المجال. وبالإضافة إلى ذلك يقولون إنه لا يوجد غير التعريفات المكّونة من كلمة واحدة. وحتى عند استعمال كلمتين، فهاتين لا تكفيان للوضوح الكامل بل بالحري يحتاج الأمر إلى ثلاث كلمات حتى تظهر معاني الأشياء التي نريد تحديدها بوضوح". أنظر حوار حول الثالوث، الجزء الأول، الحوار الثاني، ترجمة المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية مارس ٢٠٠٨، طبعة ثانية، ص ٨٤.

إلاّ أن مَنْ يقول بهذا الأمر لا بُد وأن يدان بالجهل. لأنه، لو كان مجرد الاختلاف يعني أن هناك جوهراً مختلفاً، لكفانا ذلك مؤنة البحث عن ذلك الاختلاف الذي بمقتضاه يكون "غير الصائر" مختلفاً. فالكائن الحي - على سبيل المثال - يمكننا تحديده على أنه: جوهرٌ محسوسٌ ذو نفس. إلاّ أن هذا التحديد لا ينفي الاختلاف بين الكائنات الحية، فهناك حيوان عاقل فانٍ يتميز بعقل ومعرفة، مثل الإنسان، بينما هناك آخر غير عاقل مثل الحصان، وهو الحيوان[1].

إذن فالاختلافات تجيء وتنتُج في مرحلة لاحقة، بينما الجوهر يسبق هذه الاختلافات. فلو كان "غير الصائر" يعني مجرد الاختلاف، لَوَجَب علينا عندئذٍ أن نفتِّش على الجوهر الذي يرجع له هذا الاختلاف. لأنه من غير الممكن أن يُعتَبَر الاختلاف علة الجوهر.

٣- ردٌ آخر

إن كان تعبير "غير الصائر" يعبِّر عن الجوهر، دون أن يعني ذلك أنه لم يَصِر، فكيف لا يكون الابن شبيهاً بالآب، طالما قد وُلِدَ منه؟ فالأسماء إن كانت لا تميِّز بين غير المتشابهات، فلا تتنافر فيما بينها من جهة ما تعنيه كلمة "الصائر"، و"غير الصائر"، لَما كان هناك شيءٌ يعيق الابن عن أن يكون شبيهاً بالآب من جهة الجوهر، طالما أن تعبير "غير الصائر" يخص الجوهر مثل تعبير "الصائر"؛ لأن الجوهر الواحد لا يتضاد مع جوهر آخر، طالما أن كليهما جوهران.

---

(1) نفس هذا الشرح أورده القديس كيرلس في كتاب آخر، قائلاً: "فنحن نُعرّف الإنسان على أساس أنه كائن حي زائل بينما نحدّد الحصان مثلاً على أنه حيوان يتميّز بالصهيل وهكذا، وهناك طريقة أخرى لكي نحدّد طبيعة هذه الكائنات، وهى أن ننطلق من الصفات الأخيرة وليست الأولى، إلى أن نصل إلى حيث يبدأ التحديد، بمعنى أنه إذا كان هناك كائن حي زائل وعاقل فإننا سنفهم أنه الإنسان، وإذا قلنا إن كائناً ما قادر على الصهيل فسوف يظهر ذلك أن الأمر يتعلّق بطبيعة الحصان. فإذا كان تعبير "غير المولود" هو تعريف، فلماذا لا يقبل التغيّر أو التعديل. يجب أن لا يترددوا في أن يعترفوا بذلك، فإذا قلنا عن كائن إنه "غير مولود"، فهذا يكون تحديداً لجوهر الله الآب، ولكن هذا الفكر عارٍ تماماً من الصحة، لأنه يوجد آلاف الأشياء بنفس الطريقة". راجع حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الحوار الثاني ص ٨٨.

٤- ردٌ آخر

إذا كان "غير الصائر" لا يتشابه أبداً مع "الصائر"، لَظهر شخصٌ يقول - عن حقٍ، وعلى ذات القياس – إن أي "صائر" هو شبيهٌ بأي "صائر" آخر.

فإن كان الابنُ، وهو صائرٌ – كما يقولون – ليس شبيهاً بأيٍ من تلك المخلوقات الصائرة؛ لأنه أعظم من كل الخليقة، فهو بالتالي لا يتشابه مع الآب "غير الصائر" بحسب الطبيعة؛ لأن الابن – كما تقولون – صار منه صائراً.

لكن إذا كان الابن قد صار أعظم وأسمى من الكائنات الصائرة بالرغم من أنه صائرٌ مثلها(١)، هكذا أيضاً لا يمكن ألاَّ يكون شبيهاً بغير الصائر، حتى لو قلتم إنه صائرٌ.

٥- سؤال من جانب الهراطقة

يقولون إن مصطلح "غير الصائر" هو مصطلح يمكننا أن نصف به جوهر الله، والغاية منه أن "نحدد" ماهية الله، وذلك مثلما يمكن للمرء أن يحدد ماهية الإنسان قائلاً إنه حيوان، عاقل، مفكر، فانٍ، مُميَّزٌ بعقلٍ ومعرفةٍ.

٦- الإجابة على هذا السؤال

سوف نبرهن على أن هذا الفرض، إنما يُظهِر جهلهم، قائلين لهم: إذا أردتم استخدام مصطلح "غير الصائر" لتحديد ماهية الله، لَتحتَّم أن يشير هذا المصطلح إلى الجنس، وإلى بقية الاختلافات؛ لأنه بدون هذه الأمور لا يمكننا أن نصل إلى هذا التحديد. لأننا نرى أن الأجناس يتم تحديد ماهيتها – فلسفياً – ليس من خلال كلمة واحدة، بل باستخدام أكثر من كلمة، مثل: جوهر بلا نفس، أو جوهر محسوس، أو حيوان عاقل، أو حيوان فانٍ.

---

(١) هنا يراهن القديس كيرلس على تصديق الهراطقة للكتاب المقدس، موضحاً لهم أن الكتب المقدسة تعلن أن الابن أسمى من كل الخليقة، بالرغم من أنهم يجعلون الابن من ضمن المخلوقات، فما المانع أن يكون الابن "غير صائر" مثل الآب حتى لو قالوا أنه هو صائر.

فإذا كان استخدام مصطلح واحد لا يكفي للإعلان عن جوهر الشيء، فلا يمكن لمصطلح "غير الصائر" أن يعبِّر بذاته عن جوهرٍ ما[1].

٧- ردٌ آخر

إذا كان تحديد الشيء هو بمثابة الإعلان عن ماهيته، أي عن ما يكونه، لا عن ما لا يكونه، وكان مصطلح "غير الصائر" لا يعلن عن ماهية الله، بل عن ما ليس هــو، فــلا يمكن أن نعتبر هذا المصطلح بمثابة تحديد.

٨- ردٌ آخر

الحكماء الذين ينشغلون بتحديد ماهية جواهر الأشياء، لا يلجأون إلى المتناقضات، بل إلى ما تحملها هذه الأشياء من صفات معروفة عنها بشكل عام. فإذا سُئل شخصٌ عــن ماهية اللون الأبيض، فأجاب بأنه ليس هو اللون الأسود، لَما كشف بذلك عن ماهية اللون الأبيض، بل عما لا يكون. وعلى ذلك، إذا كان مصطلح "غير الصائر" لا يعني أكثر من أنه لم يَصِر، إذن فهو تحديدٌ من خلال ما ليس هو بموجود. وإذا كان من غير الممكن أن يكون هناك تحديدٌ صحيحٌ لماهية شيءٍ ما من خلال ما ليس موجوداً، فمصطلح "غير الصــائر"، إذن لا يمكن أن يعبِّر عن ماهيةٍ ما.

(1) نفس الحجة يذكرها القديس كيرلس في معرض كلامه على مصطلح "غير المولود" وذلك في نص آخر، إذ يقول: "فإذا كان تعبير "غير المولود" يصف جوهر الله، وإذا وُجدَ آلاف الكائنات الحيّة غير المولودة في العالم، فإذن كل ما هو "غير مولود" يُعتَبر وصفاً لجوهر الله، أو بكلام آخر تصير صفة "غير مولود" هي وصف لجوهر هذا الكائن. فالشمس مثلاً توجد بدون أن تكون مولودة، والقمر خُلِقَ بنفس الطريقة وهكذا النجوم والسموات، هذا بدون الكلام عن الرئاسات والعروش وكل الخليقة التي فوقنا والتي لم تأتِ إلى الوجود مثلنا عن طريق الولادة. فليس إذن كل "غير مولود" هو جوهر لله، ولا يمكن أن ننسب لقب "غير المولود" لكل كائن غير مولود كجوهر له". أنظر حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الأول، الحوار الثاني ص ٨٧.

٩- ردٌ آخر

مصطلح "غير الصائر" له عدة معانٍ، تُعَد كلها من المترادفات، وطالما أن تحديد ماهية الجواهر لا تتم من خلال استخدام المترادفات أو الكلمات المتعددة المعاني، لأن المعنى يظل في هذه الحالة غير واضح نظراً لكثرة المترادفات، ونظراً لأن مصطلح "غير الصائر" يندرج تحت المترادفات كما رأينا، لذا لا يمكن أن يعبِّر عن ثمة ماهية.

١٠- ردٌ آخر

لو أن مصطلح "غير الصائر" كان يعبِّر عن تحديدٍ ما، لأمكن استخدامه أيضاً فيما يُطلق عليه التبادل العكسي. فمثلاً إذا حددنا ماهية الإنسان في أنه كائنٌ حيٌ عاقلٌ فانٍ مُميَّزٌ بعقل ومعرفة، فإن التبادل العكسي لهذا التحديد يسمح لنا بالقول بأن كل كائنٍ حيٍ عاقلٍ فانٍ مُتميِّزٍ بعقلٍ ومعرفةٍ، يكون إنساناً. وعلى ذات القياس، إن كان مصطلح "غير الصائر" يعبِّر عن جوهرٍ ما، لَوَجَبَ - وفقاً للتبادل العكسي - أن يكون أيُ جوهرٍ "غيرَ صائرٍ" أيضاً. لكن التبادل العكسي لا يسري في هذه الحالة لأن ما هو جوهر لا يكون دائماً "غير صائر"؛ لأن هذا المصطلح لا يسري إلاّ على الله فقط، وعلى ذلك لا يصلح مصطلح "غير الصائر" لكي يكون بمثابةِ تحديدٍ ما[١]، بل يقتصر معناه فقط على أن كائناً ما لم يَصِر.

---

(١) غرض الهراطقة هو إقناعنا أن مصطلح "غير الصائر" بالنسبة للآب يعبر عن جوهر بينما مصطلح "صائر" بالنسبة للابن، والذي قد قيل عليه بسبب تجسده، يُعبِّر عن جوهر آخر يختلف تماماً عن جوهر الآب قياساً باختلاف المصطلحان وبذلك وفق برهانهم الكاذب، الابن ليس من جوهر الآب. وفي هذه المقالة وغيرها يثبت القديس كيرلس كذب إدعائهم، ويقول في مكان آخر: "يجب أن يخجلوا من جهلهم حينما يقولون إن لقب "غير المولود" هو يُعبرّ عن جوهر الله ويرفعونه كحاجز أمام طبيعة الابن، وينبحون به ضد عقائد الحق. فنحن لا نرى أبداً ذلك الاختلاف بين الآب والابن الذي يدّعون أنه واضح، مادام لفظ "غير المولود" لا يُعبّر - بخصوص - الآب أكثر من أنه لم يُولَد. ولا التعبير الآخر "المولود" بخصوص الابن، أكثر من أنه وُلِدَ. وبقولهم إن اللقبين (غير المولود والمولود) هما جوهران، فإن كلامهم هذا يُنقصه الوضوح". راجع حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الأول، الحوار الثاني ص ٨٨.

المقالة الثالثة

مرةً أخرى:
إن "غير الصائر" ليس في حد ذاته جوهراً،
بل يعني فقط إن الله لم يُخلَق

١- لو كان مصطلح "غير الصائر" يعبِّر عن ماهية الجوهر، وكان الجوهر لا يحتمل وجود المتضادات، لَما وُجِد ما يتضاد مع "غير الصائر". أمَا وإن كان "الصائر" يوجد في تضاد مع "غير الصائر"، فلا يمكن أن يكون "غير الصائر" تعبيراً عن الجوهر؛ لاستحالة وجود تضاد في الجوهر كما سبق القول.

٢- ردٌ آخر

إن كان مصطلح "غير الصائر" يعبِّر عن ماهية الجوهر، لتحتم أيضاً أن يعبِّر مصطلح "الصائر" عن ماهية الجوهر أيضاً، وهكذا يكون المصطلحان يعبِّران عن ماهية الجوهر، وهو ما يضعهما في هذه الحالة في تناقض، فلا يكون "الصائر" متضاداً مع "غير الصائر" هنا، بل يكون هو نفسه؛ لأن الجوهر الواحد لا يتضاد مع نفسه[١].

(١) يستعرض القديس كيرلس هنا نتيجة عبثية من تلك النتائج التي تنشأ من تسليمنا برأي الهراطقة الذي يزعم أن مصطلح "غير الصائر" يعبِّر عن الجوهر وكذلك مصطلح "الصائر". وهذه الطريقة في الرد يتبناها القديس كيرلس في مواجهة آراء الهراطقة (أنظر المقدمة).

٣- ردٌّ آخر

إذا كان مصطلح "غير الصائر" يُستخدم للدلالة على ماهية جوهر الله، وليس للدلالة على وصف الجوهر بأنه لم يُخلق، فمصطلح "الصائر" أيضاً يُستخدم للدلالة على جوهرٍ، وليس وصفه بأنه قد خُلق. فإذا كان الاثنان معاً يطلَقان على الجوهر، فمن أين يعرف المرء أن أحدهما يعني أنه لم يُخلق، والآخر يعني أنه خُلِق، طالما أن هذه المصطلحات لا تعلن شيئاً إلاّ فقط التعبير عن الجوهر.

٤- ردٌّ آخر

إذا كان مصطلح "غير الصائر" يُستخدم للدلالة على ماهية الجوهر، في الوقت الذي يمكن أن يُستخدم فيه مصطلح "الجوهر" للكل، إذن فمصطلح "غير الصائر" يمكن أن يستخدم لكل الجواهر، لكن بما أن مصطلح "غير الصائر" لا يستخدم للدلالة على الكل، بينما تستخدم كلمة "جوهر" للكل، فكيف يكون "غير الصائر" هو ذاته "الجوهر"؟

٥- ردٌّ آخر

إذا كان مصطلح "غير الصائر" يُستخدم للدلالة على ماهية الجوهر، ولم يكن هناك جوهرٌ أعظم، أو جوهرٌ أدنى، إذن فـ "غير الصائر" لا يكون أعظم، بل ولا يكون هناك جوهرٌ آخر أدنى منه؛ لأن كليهما جوهرٌ. أمَّا إذا كان "غير الصائر" أعظم من الكل (في حالة الله)، فإنه يفقد وصفه كجوهرٍ؛ لأنه إذا لم يكن الأمر على هذا النحو، لتفوَّقت الجواهر على بعضها البعض، وعلى هذا فـ "غير الصائر" ليس تعبيراً عن الجوهر.

٦- ردٌّ آخر

إذا كان مصطلح "غير الصائر" يُستخدم فقط للدلالة على ماهية جوهر الله، وليس لوصف الجوهر بأنه لم يُخلَق، فالحاجة إذن هي إلى أسماءٍ أخرى تبرهِن على أن الله لم يَصِر

من أية علة؛ طالما مصطلح "غير الصائر" بالنسبة لله لا تعني - بحسب زعمهم - شيئاً آخر إلاَّ فقط تعبيراً عن ماهية جوهره.

٧- ردٌ آخر

بينما جوهر الله واحدٌ، وليس أكثر، من حيث العدد، نجد أن هناك مصطلحات وأسماء كثيرة تم استخدامها للدلالة على الله مثل "غير الصائر"، و"الذي لا يغرُب"، وعلى ذلك فبحسب زعمكم يعبِّر كلُ اسمٍ من هذه الأسماء عن جوهرٍ مختلف عن جوهر الاسم الآخر، وبالتالي يختلف عن جوهر "غير الصائر".

٨- ردٌ آخر

إن كانت الأسماء التي أشرنا إليها، إضافةً إلى مصطلحات "غير الصائر"، و"الصائر" تعبِّر عن جوهر الله، وكانت هذه الأسماء والمصطلحات مختلفة اختلافاً بيِّناً عن بعضها البعض، فإن ذلك يحتم أن يدل كل اسمٍ منها على جوهر مختلف عن الآخر، لكن جوهر الله ليس هكذا، لأنه واحدٌ، وعلى ذلك، فهذه الأسماء كلها تُعدُّ خواصاً للجوهر وملامحَ له، وهي ليست أبداً بمثابة جواهر بحد ذاتها.

٩- ردٌ آخر

بالرغم من أن مصطلح "جوهر الله" مصطلحٌ معروف إلاَّ أنه لا يُطلق على شيءٍ محدد، بعكس مصطلح "غير الصائر" الذي يعني أن الله أعظم من الكل ويتفوَّق عليهم. وعلى ذلك، فمصطلح "غير الصائر" لا يدل على جوهر الله الذي لا ينصرف إلى شيءٍ ما على وجه التحديد، ولكنه يُطلق بغرض وصف الله بأنه غير مخلوقٍ، وأنه ليس مثل المخلوقات[1].

([1]) مشكلة الهراطقة كما شرحها القديس أثناسيوس في المقالة الأولى: ضد الأريوسيين هي أن صفات مثل: غير الصائر أو غير المخلوق أو ضابط الكل يربطونها دائما بمقارنة مع الابن، في حين أن هذه الصفات الإلهية تميز الله عن المخلوقات وليس الابن، فيقول الآتي: "وفى الواقع فإن لفظة "غير المخلوق" هذه، لا تستعمل (عن الله) بالنسبة

١٠- ردٌ آخر

إذا كان مصطلح "غير الصائر" يُذكر في إطار العلاقة مع عدم الصيرورة، أي لينفي الصيرورة، وكان مصطلح "جوهر الله" لا يدل على علاقةٍ ما، فكيف يمكن لمصطلح "غير الصائر" أن يكون على علاقة بمصطلح "الجوهر" الذي لا يدل على علاقةٍ ما؟

١١- ردٌ آخر

إذا كان مصطلح "جوهر الله" لا يُذكر بغرض تمييزه عن شيءٍ آخر، في حين أن مصطلح "غير الصائر" يُقصد به التمييز والاختلاف عن مصطلح "الصائر"، فكيف يمكن أن يعبِّر مصطلح "جوهر الله"، عن نفس ما يعبِّر عنه مصطلح "غير الصائر"؟

١٢- ردٌ آخر

إذا كانت مقارنة الجواهر ببعضها لا تُظهر عظمة أحدها بالنسبة للآخر، دون استخدام كلمة "أعظم"، بينما يدل مصطلح "غير الصائر" مباشرةً على الاختلاف مع

إلى الابن – ولو أنهم يتذمرون – بل بالنسبة إلى المخلوقات، وهكذا يمكن أن نرى نفس الشيء في كلمة "ضابط الكل"، وكلمة "رب القوات" فلو أن الآب يضبط ويسود كل الأشياء من خلال **الكلمة**، والابن يملك مملكة الآب وتكون له السيادة على الكل، حيث إنه هو **كلمة** الآب وصورته. فيكون واضحاً إذن أن الابن لا يُحسَب من بين الكل، ولا يسمى الله "ضابط الكل"، "والرب" بالنسبة إلى الابن، بل بالنسبة إلى المخلوقات التي (تكوّنت) عن طريق الابن، وهي تلك التي يضبطها ويسودها بواسطة **الكلمة**. وهكذا فإن لفظة "غير مخلوق" لا تستعمل (عن الله) بالنسبة إلى الابن ولكن بالنسبة إلى المخلوقات التي خُلقت عن طريق الابن، وإن هذا لصواب، حيث إنه ليس مثل المخلوقات". ضد الأريوسيين، مرجع سابق، المقالة الأولى، فقرة ٣٣ ص ٩٢ – ٩٣.

أما المصطلح الذي يُطلق على الله وله علاقة لا تنفصل مع الابن فهو مصطلح "الآب" ويؤكد القديس أثناسيوس على هذه الحقيقة، قائلاً: "هكذا أيضاً فإن كلمة "الآب" تعلن عن الابن. فإن مَنْ يسمي الله صانعاً وخالقاً وغير مخلوق، فإنه يرى ويفهم الأشياء المخلوقة والمصنوعة، أما الذي يسمى الله أباً فإنه في الحال يُدرك الابن ويعرفه " المقالة الأولى ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الأولى، فقرة ٣٣ ص ٩٣.

ويوضح القديس غريغوريوس اللاهوتي حقيقة اسم الآب في علاقة مع الابن، إذ يقول: " الآب ليس اسم جوهر، أيها الحكماء، ولا اسم فعل، إنه اسم علاقة اسم يدل على ما هو الآب بالنظر إلى الابن، أو ما هو الابن بالنظر إلى الآب " غريغوريوس النـزينـزى، الخطب ٢٧ – ٣١ اللاهوتية، نقلها من اليونانية إلى العربية الأب حنا الفاخوري، منشورات المكتبة البوليسية، طبعة أولى ١٩٩٣، الخطاب ٢٩ ص ٩٦.

"الصائر"، فكيف لا يوصف أولئك بالغباء عندما يقولون إن تعبير "الجوهر" يدل على ذات ما يدل عليه مصطلح "غير الصائر"؟

١٣- ردٌ آخر

لو كان مصطلح "غير الصائر" يدل على الجوهر، لَكان كل جوهرٍ هـو "غـير صائرٍ"، الأمر الذي يُعد محض تجديفٍ.

١٤- ردٌ آخر

لو كان مصطلح "غير الصائر" يدل على الجوهر، وكان الجمع بين المتضادات هو أحد خواص مصطلح "الجوهر"، لأَمكن لـ "غير الصائر" أن يجمع بين المتضادات. وإذا كان مصطلح "الجوهر" يقبل الجمع بين المتضادات (الخلق واللاخلق)، وكان "غير الصائر" لا يقبل الجمع بين الخلق واللاخلق، إذن فـ "غير الصائر" ليس تعبيراً عن الجوهر.

١٥- ردٌ آخر

لو كان الجوهر هو الشيء الذي يوجد في إطار الجنس والنوع، دون ملامحه المؤقتة والثانوية، في الوقت الذي لا يمكن وضع الله تحت أيٍ من هذه الأشياء، لَمَا دُعيَ الله جوهراً. وإذا كان مصطلح "غير الصائر" يعبِّر عن ملمحٍ أساسيٍ له طالما لم يُخلَق، في الوقت الذي لا يعبِّر مصطلح "الجوهر" عن ملمحٍ ما له، فكيف يمكن لكلا المصطلحين التعبير عن نفس الشيء[1].

(١) أي كيف أن اسم: "غير الصائر" الذي يُعبِّر عن صفة للجوهر بأنه غير مخلوق، يكون هو ذاته اسم: "جوهر" الذي هو اسم أساسي.

١٦- ردٌ آخر

إذا كان مصطلح "الجوهر" هو الاسم الأول والأساسي، وهو الاسم الذي يندرج تحته كل المتوافقات[١]، وكان الله لا يخضع لأي توافقٍ، فلا يمكن إذن أن يُعبِّر هذا المصطلح عن جوهر الله؛ لأنه أسمى من الجوهر. وإذا كان مصطلح "غير الصائر" لا يدل على جوهر، وإنما يُذكر ليعبِّر فقط عن خاصية له (باعتباره غير مخلوق)، إذن فـ "الجوهر"، و"غير الصائر" ليسا شيئاً واحداً.

١٧- ردٌ آخر

إذا كانت مصطلحات وأسماء مثل "غير الصائر"، و"الذي لا يغرُب" تدل على جواهر، في الوقت الذي لا تتطابق فيه هذه الأسماء مع المعاني التي تعلن عنها، إذن فـ"الجوهر"، و"غير الصائر" لا يتطابقان مثلما لا يتطابق المعنى مع الاسم الذي يعلن عنه.

١٨- ردٌ آخر

لو كان مصطلح "غير الصائر" يدل على جوهر الله، لا على أنه لم يُخلق، عندئذٍ يمكن لكل واحد من الجواهر أن يكون "غير صائرٍ"، في الوقت الذي توجد فيه جواهر كثيرة لا يُطلق على واحدٍ منها مصطلح "غير الصائر"، لذا فـ "غير الصائر" لا تدل على الجوهر، بل تدل على عظمة هذا الجوهر.

١٩- ردٌ آخر

إذا كان مصطلح "غير الصائر" يدل على جوهر الله كما يقولون، إذن فـ "غير الصائر" سيكون عندئذٍ بمثابة تحديدٍ للجوهر، في حين أن "غير الصائر" يعبِّر عن خاصية وحيدة لهذا الجوهر. وإذا لم يكن هناك تحديدٌ يُفرض على جوهر الله، فلا يمكن أن يكون

---

(١) أي يخضع لتوافقات اللغة البشرية فهناك جوهر إلهي وجوهر بشري وآخر جوهر حيواني وكذلك نباتي، إذن فالله يفوق ويسمو على كلمة: "جوهر".

اسم الله الأساسي هو "غير الصائر"، طالما لا يُظهر هذا الاسم شيئاً إلاَّ خاصية واحدة مــن خواص جوهر الله.

المقالة الرابعة

ضد أولئك الذين تجرَّأوا وقالوا:
إنه كان يوجد زمنٌ لم يكن فيه الابنُ موجوداً
– تجميعات مختارة وصيغ لأفكار مع شواهد.
– النتيجة من كل هذا: إن كلمة الله هو أزلي.

١– لأنهم يقولون إن محاربي الله بغباء يزعمون أنه كان يوجد زمن لم يكن الإبن موجوداً. فإن قالوا إن فعل "كان" في عبارة "في البدء كان الكلمة" (يو ١: ١) يخص **الكلمة**، عندئذٍ لا مجال للكلام عن "لم يكن". لكن إذا أدرك المرء عبارة "كان يوجد" في إطار الزمن مريداً أن يقول بكل وضوح إنه كان يوجد زمن أثناءه لم يكن الابنُ موجوداً، فهو كجاهلٍ وغبي يقول إنه كان يوجد زمنٌ قبل وجود الابن، الذي بواسطته، كما يقول بولس، خُلِقَت الدهور (أنظر عب ١: ٢).

٢– شواهد على أن كلمة الله أزلي

"فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ" (يو ١: ١). وفي الرؤيا ليوحنا قيل الآتي: "الْكَائِنِ وَالَّذِي كَانَ وَالَّذِي يَأْتِي" (رؤ ١: ٤)، وهو يعني أن هذا الذي يأتي هو **الكلمة** الذي قيل عنه: "الْكَائِنِ وَالَّذِي كَانَ". لأنه يقول: "فَيَصْنَعُونَ لِي مَقْدِساً لأَسْكُنَ فِي وَسَطِهِمْ" (خر ٢٥: ٨).

وإذا كان القديس يوحنا قد استخدم بوضوح مصطلح "كان" عن **الكلمة**؛ لأنه يقول: "هذا كَانَ فِي البدء عِنْدَ اللهِ"، لذلك يجب أن تسري عليه كلمة "أزلي"؛ إذ قيل: "الْكَائِنِ وَالَّذِي كَانَ"[1].

٣- شواهد

يقول بولس عن اليهود: "وَمِنْهُمُ الْمَسِيحُ حَسَبَ الْجَسَدِ، الْكَائِنُ عَلَى الْكُلِّ إِلهاً مُبَارَكاً إِلَى الأَبَدِ. آمِينَ" (رو ٩: ٥). وهو نفسه يقول عن الكلمة: "لأَنَّ أُمُورَهُ غَيْرَ الْمَنْظُورَةِ تُرَى مُنْذُ خَلْقِ الْعَالَمِ مُدْرَكَةً بِالْمَصْنُوعَاتِ، قُدْرَتَهُ السَّرْمَدِيَّةَ وَلاَهُوتَهُ، حَتَّى إِنَّهُمْ بِلاَ عُذْرٍ" (رو ١: ٢٠). وبالرغم من أن هذا المقطع يخص الآب، إلاَّ أنه بتفسير آخر يمكن أن يُعطى للابن. لأن ما هي قوة الله التي يكرز بها أيضاً بولس: "فَالْمَسِيحِ قُوَّةِ اللهِ وَحِكْمَةِ اللهِ" (١كو ١: ٢٤). والمرنم يقول نفس الأمر: "أَيِّدْ يَا اَللهُ هذَا الَّذِي فَعَلْتَه لَنَا" (مز ٦٨: ٢٨). فمَنْ هو هذا الذي يقوِّي هذا الذي عُمِلَ لنا، أليس هو كلمة الله الذي فدانا من الفساد وأقامنا معه في عدم الفساد؟

---

(١) يرى القديس كيرلس أن الإنجيلي يوحنا هنا يشدد على أزلية الابن، إذ يقول: [وكأن الإنجيلي المبارك قد سمع تجاديف هؤلاء، فتحرّك لكي يمحو غباوتهم وكتاباتهم، فحدّد أكثر من مرّة أن **الكلمة** واحد، هو وحده من الله الآب، وفي الله ومع الله، ولذلك لخص كل ما قاله في هذا الصدد بجملة خاطفة سريعة مثل غمضة العين. "**هَذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللهِ**"، أي الابن، الذي هو، مع الآب، والمولود من جوهره، فالابن الوحيد هو الذي يشار إليه بكلمة "**هذا**"]. شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، المرجع السابق، الإصحاح الأول ص ٦٣.

أيضاً أزلية الابن يؤكدها القديس كيرلس أثناء حديثة عن أكل خروف الفصح مفسراً النص الكتابي رمزياً، إذ يقول: [كما أمر أيضاً أنْ يؤكَل رأسه مع أكارعه وجوفه، مريداً لهم أن يحتووا داخلهم المعرفة الكاملة لسره. لأنه ينبغي - قبل كل شيء - أن يعرفوا أن **الكلمة** كان في الآب ومع الآب منذ البدء إذ أنه هو الله بالفعل، أي كان هو بداية كل سر كالرأس. وثانياً، وبما أنه الله، فإنه سوف يأتي ثانيةً كديّان لكي يضع نهاية لخطة خلاصه (أي ليتمم خلاصنا)، وهذا هو ما تشير إليه الأرجل التي هي في نهاية الجسد. أمَّا الجوف، فيشير إلى **الكلمة** المتأنِّس المختفي فينا (داخلنا). إذن هذه الأقوال تُصوِّر الإيمان كله، وبهذه المعرفة يتصوَّر المسيح فينا كاملاً، عندئذٍ يمكنني أن أؤمن بما يقوله يوحنا: "الكائن والذي كان والذي يأتي القادر على كل شيء" (رؤ ١: ٨)]. أنظر جيلافيرا، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، الكتاب الشهري، عدد يناير ٢٠١٠.

٤- ردٌ آخر: تفسير مقنع على أن الشاهد الذي يقول: "لأَنَّ أُمُورَهُ غَيْرَ الْمَنْظُورَةِ تُرى مُنْذُ خَلْقِ الْعَالَمِ مُدْرَكَةً بِالْمَصْنُوعَاتِ، قُدْرَتَهُ السَّرْمَدِيَّةَ وَلاَهُوتَهُ، حَتَّى إِنَّهُمْ بِلاَ عُذْرٍ" (رو ٢٠: ١)، **يخص الابن. عِلة هذا التفسير.**

مكتوب: "وَلاَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الآبَ إِلاَّ الابْنُ وَمَنْ أَرَادَ الابْنُ أَنْ يُعْلِنَ لَهُ" (مت ١١: ٢٧). فإذا كان الآب معروفاً فقط للابن، وبواسطته يُعلَن للآخرين، إذن، فالآب لا يُدرَك ولا يُرى بوضوح في الخليقة. لكن الخليقة تُظهِر خالقها، أي الله **الكلمة**، و**الكلمة** يُظهِر أبيه. وعندما قال فيلبس: "أَرِنَا الآبَ" (يو ١٤: ٨)، لم يأمره أن يرى الآب بواسطة جمال المخلوقات بل أظهر له ذاته قائلاً: "اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ" (يو ١٤: ٩).

٥- شواهد أخرى على أن الابن أزليٌ

يدعوه المرنم: "وَاللهُ مَلِكِي مِنْذ الْقِدَمِ (الأزل)، فَاعِلِ الْخَلاَصِ فِي وَسَطِ الأَرْضِ" (مز ٧٤: ١٢)، ونفي عنه أنه هو الذي خُلِق. أيضاً يقول أشعياء: "إِلهُ الدَّهْرِ الرَّبُّ خَالِقُ أَطْرَافِ الأَرْضِ" (أش ٤٠: ٢٨). فإذا كان **الكلمة** هو ذاك الذي صنع أطراف الأرض، وتنصرف إليه كلمة "أزلي"، فإنه هو الذي كان دائماً، و لم يَخلَق.

٦- ردٌ آخر

يكتب بولس عن الكلمة: "الَّذِي، وَهُوَ بَهَاءُ مَجْدِهِ، وَرَسْمُ جَوْهَرِهِ" (عب ١: ٣)، وداود يرنم: "وَلْتَكنْ نعْمَة الرَّبِّ إلهنَا عَلَيْنَا" (مز٩٠: ١٧)، وكذلك: "لأَنَّ عِنْدَكَ يَنْبوعَ الْحَيَاةِ. بِنورِكَ نَرَى نوراً" (مز٣٦: ٩). إذن متى كان الآب بدون شعاع؟ متى كان بهاء الله لا يوجد فيه؟ وطالما أن الابن هو نورٌ من نور الآب، فمتى لم يكن نور الآب فيه؟ فمثلما ينير الشعاع بدون انفصاله عن النور، هكذا النور الذي يُولَد من الآب لا ينفصل عنه[1].

---

(١) يستخدم القديس كيرلس مثل القديس أثناسيوس تشبيه النور والشعاع للتعبير عن الوحدة غير القابلة للانفصال بين الآب والابن، إذ يقول: "ولا يليق بنا أن نقدّم تشبيهاً عن هذا الأمر، فما يليق بالله لا يمكن تصويره. وإنما

٧- ردٌّ آخر

يرنم داود "ملْككَ ملْك كلّ الدّهور" (مز ١٤٥: ١٣)، فإذا كان الــزمن يُقـــاس بالدهور، والكلمة يسود عليه، بالتالي لم يوجد زمنٌ لم يكن فيه الابنُ موجوداً.

٨- ردٌّ آخر: برهان بشواهد

يلاحظ أن الكتب المقدسة تستخدم كلمات معينة للدلالة على الكلمة، وهي: "الكائن"، و"الذي كان"، و"كنت وأكون". أمَّا عن المخلوقات فتستخدم: "قبل"، و"من قبل"، و"صار" وكل الكلمات المتشابهة مع هذه الكلمات.

يقول المخلص معلناً أزلية أقنومه: "أَنَا هُوَ (أكون) الحَقُّ"، "أَنَا هُوَ (أكون) النُورُ"، "أَنَا هُوَ (أكون) الرَّاعِي" (يو ١٤: ٦ - ٨: ١٢ - ١٠: ١١)[١].

والمرنم يقول: "منْ قَبْل أَنْ تولَدَ الْجبَال، أَوْ أَبْدَأْتَ الأَرْضَ وَالْمَسْكونَةَ، منْذ الأَزَل إِلَى الأَبَد أَنْتَ اللهُ" (مز ٩٠: ٢).

قال المخلص عن ذاته: "أَنَا هُوَ (أكون) الطَّرِيقُ". و"أَنَا هُوَ (أكون) الْبَابُ" (يو ٦: ١٤، ٩: ١٠).

والآب قال له: "أنت (تكون) ابني الحبيب" (مر ١: ١١). وأيضاً: "قال الــرب لربي أنت (تكون) ابني"(مز ٢: ٧).

ففي هذه الشواهد دائماً ما تُستخدم كلمات مثل "أنت تكون"، و"كــان". ولم تُستخدم إطلاقاً كلمات مثل "صار". بينما على المخلوقات: "أليس هو أباك ومقتنيك. هو

عندما نقول إنه يعمل مع الابن، فنحن لا نعتقد باثنين منفصلين – لأن هذا يؤدي إلى الإيمان بإلهين، اجتمعا معاً وصارا واحداً – بل مثل اجتماع النور والإشعاع في وحدة طبيعية، لأن مثال النور والإشعاع يؤكد التمايز، لأن الإشعاع الذي يشرق ويحمل جمال النور، ليس هو النور، ولكن الطبيعة واحدة، والتمايز بين النور والإشعاع الذي يشرق لا يسمح بانفصال واحد عن الآخر". شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٨١.

(١) يستخدم الكتاب المقدس – في نصه اليوناني – دائماً فعل الكينونة في كل الآيات التي تكلَّم فيها الرب يسوع عن نفسه مثل: "أنا هو الحق": «Ἐγώ εἰμι ἡ ἀλήθεια» وبذلك تكون ترجمتها الحرفية: "أنا أكون الحق"، لذا وضعنا فعل الكينونة بين قوسين حين ذكرنا هذه الآيات.

عملك وأنشأك" (تث ٣٢:٦). وموسي حين كتب قصة خلق العالم قال: "كُلُّ شَجَرِ الْبَرِّيَّةِ لَمْ يَكُنْ بَعْدُ فِي الأَرْضِ، وَكُلُّ عُشْبِ الْبَرِّيَّةِ لَمْ يَنْبُتْ بَعْدُ، لأَنَّ الرَّبَّ الإِلهَ لَمْ يَكُنْ قَدْ أَمْطَرَ عَلَى الأَرْضِ، وَلاَ كَانَ إِنْسَانٌ لِيَعْمَلَ الأَرْضَ" (تك ٢: ٥).

الأداة "ὅτε" التي تترجم "عندما أو حين"، يُقصد بها دائماً الحديث عن الزمن. فيقول في سفر التثنية: "حِينَ قَسَمَ الْعَلِيُّ لِلأُمَمِ" (تث ٣٢: ٨).

كذلك، فإن كلمة "من قبل"، تُقال على المخلوقات، فيقول في حكمة سليمان عن الحكمة: "مُنْذُ الأَزَلِ مُسِحْتُ، مُنْذُ الْبَدْءِ، مُنْذُ أَوَائِلِ الأَرْضِ. إِذْ (من قبل) لَمْ يَكُنْ غَمْرٌ أُبْدِئْتُ. إِذْ لَمْ تَكُنْ يَنَابِيعُ كَثِيرَةُ الْمِيَاهِ. مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقَرَّرَتِ الْجِبَالُ، قَبْلَ التِّلاَلِ أُبْدِئْتُ" (أمثال ٨: ٢٣ - ٢٥). يقول المخلص: "الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: قَبْلَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَنَا كَائِنٌ" (يو ٨: ٥٨)، وقال الله لأرميا: "قَبْلَمَا صَوَّرْتُكَ فِي الْبَطْنِ عَرَفْتُكَ، وَقَبْلَمَا خَرَجْتَ مِنَ الرَّحِمِ قَدَّسْتُكَ" (أر ١: ٥).

٩- أقوال أخرى من اعتراضات الهراطقة

يقولون: إن لم يوجد زمن لم يكن فيه الابن موجوداً، بل هو أبدي وكائن مع الآب، عندئذٍ عليكم أن لا تدعوه ابناً، بل أخاً (للآب).

١٠- شرح هذا الأمر

إذا قالوا إنه أخٌ شريك في الأزلية مع الآب، نقول نحن إنه الابن، وهو أزليٌ. أمَّا لو كان مجرد شريك في الأزلية وليس الابن، فإن مكانته سوف تكون، كما تقولون، أخاً. لكن لأننا نصف الآب بكلمة "أزلي"، نعترف أيضاً بأزلية "الابن"، فكيف يكون الابن أخاً لذاك الذي ولده؟

١١- ردٌ آخر

لو أننا نؤمن بالآب والابن، وعلى هذا الإيمان إعتمدنا، فأي إخوةٍ تبدو في هـــذا؟ أو كيف يكون **الكلمة** أخاً لذاك الذي ليس هو كلمة؟

١٢- ردٌ آخر

الآب والابن لم يُولدا من بدايةٍ كانت توجد من قبل حتى يمكن أن نعتبرهما أخَّين. لكن بداية الابن هو الآب[١] الذي وَلَدَ الابن، ويظل آباً ولا يُقال إنه ابنٌ لأي أحد. والابن هو الابن، ويظل على ما هو عليه، ولا يُقال إنه أخٌ لأي أحد بحسب الطبيعة. وعلى ذلك، فأي موضع يمكن للأخوة أن تأخذه بينهما؟

١٣- أقوال أخرى عن أزلية الابن

بما أن الآب كاملٌ، فالذي يأتي منه يكون كاملاً. وبما أن الآب أيضاً أزلي، يكون الابن الذي يأتي من الآب الأزلي أزلياً أيضاً، لأنه لم يأتِ متأخراً من جوهر ذاك الذي ولده، بل هو كائن دائماً معه. وهو ليس غير كامل - كما يقول البعض عنه؛ لأنه صار في الزمن - بل هو كاملٌ؛ لأنه كائنٌ قبل أي زمن.

(١) حقيقةُ أن الآب هو بدء الابن يفصح عنها بكل وضوح القديس كيرلس في شرحه لإنجيل يوحنا موضحاً أن **الكلمة** دُعيّ الابن لأنه مولود من البدء ولا ذِكر لكلمة أخ، إذ يقول: " وكما أن هذه الأشياء (الشمس – الشعاع – النار – الحرارة) التي تصدر بعضها عن البعض تجعل وجودها معاً أمراً ضرورياً لا انفصال فيه بل تظّل دائماً بمصدرها وتحتفظ بطبيعة المصدر، هكذا الأمر مع الآب والابن. لأننا نعتقد ونقول إنه في الآب ومن الآب. وهذا يعني أنه ليس كائناً غريباً أو جاء في الترتيب بعد الآب، بل هو فيه ومعه دائماً. ويشرق منه دائماً حسب الميلاد الإلهي الأزليّ غير المُدرَك. ولذلك وصف القديسون الله الآب أنه هو "بدء" الابن، وكانوا يقصدون من ذلك أنه مع الآب". أنظر المجلد الأول، المرجع السابق، الإصحاح الأول ص ٤٤.

والقديس غريغوريوس اللاهوتي يشرح هذا الأمر بكل وضوح، قائلاً: " فما لا مبدأ له أزلي. ولكن ما هو أزلي ليس بالضرورة بلا مبدأ، ما دام ذلك يتعلق بالآب الذي هو المبدأ. فليسا بلا مبدأ من حيث العلّة، ولكنة من الظاهر أن هذه العلة غير سابقة لَمْنْ كانا معلولين عنها كما لا تكون الشمس سابقة لنورها. فهما بغير مبدأ من حيث الزمن، إذ لا يخضع للزمن مَنْ يصدر عنهم الزمن (عب ١:٢)". غريغوريوس التريتري، الخطب ٢٧ – ٣١ اللاهوتية، المرجع السابق، الخطاب ٢٩ ص ٨٢.

١٤_ ردٌ آخر: شكٌ آخر مُضل، هو الآتي:

علينا أولاً أن ندع مَنْ يقول: إن **كلمة** الله ليس هو الابن، بل صار من العدم كمخلوق[١]، أن يبرهن على ذلك، ومن ثمَّ ندعه يقول: كان يوجد وقت لم يكن فيه الابن موجوداً. لكن طالما أن الكتب المقدسة تخبرنا عن الآب والابن، وتستخدم اسم الابن لتعلن لنا ولادته من الآب، إذن ليس الابنُ صائراً ومخلوقاً، لأنه لا يتساوى مَن يُخلق مع مَن يوُلد. وعبارة "لم يكن موجوداً" لا محل لها بالنسبة للابن، ولكنها تُستخدم فقط للمخلوقات.

١٥- ردٌ آخر

بالرغم من أن الابن وُلِد من الآب، وهذا الابن الذي وُلِد من الآب هو كلمته وحكمته وبهاء مجده، إلاَّ أنهم يقولون إنه كان يوجد وقت كان فيه الآب بلا كلمة وبلا حكمة وبدون بهاء مجده. إن ما يقولونه محضُ عبثٍ، وبالتالي لا تسري عبارة "غير موجود" على الابن؛ لأنه أزلي مع الآب.

١٦- الرأي الذي يُشكِّك في أزلية الابن، هو رأيٌ معارضٌ وليس حقيقياً

يقولون: إذا كانت الطبيعة الإلهية لا تقبل التجزئة؛ لأنها لا تقبل التغيُّر (الهوى)[٢] لأن المخلوقات هي التي تتميَّز بخاصية الهوى والألم بالطبيعة، وبالتالي تقبل التجزئة. وعلى

(١) في سياق شرحه لنص يو ١:١ وكيف أن الآب هو البدء والابن كان في البدء يؤكد القديس كيرلس على أزلية الابن مع الآب، إذ يقول: " والإنجيلي المبارك – على ما يبدو لي – يسمى الآب " البدء ἀρχή" أي القوّة والسيادة التي على الكّل أي الطبيعة الإلهية التي فوق الكّل والتي تحت أقدامها تستقر الطبائع المخلوقة التي هي كائنة ومدّعوة للوجود بسبب إرادة اللاهوت. في هذا "البدء ἀρχή " الذي هو فوق الكّل وعلى الكّل "كان الكلمة"، ليس مع الطبائع المخلوقة التي تحت قدميّ البدء وإنما عالياً عنها جميعاً لأنه "في البدء" أي من ذات الطبيعة والكائن دائماً مع الآب، وله طبيعة الذي ولده كمكان أزليّ قبل الكّل. لذلك هو مولود حر من الآب الحر، ومنه ومعه له السيادة ἀρχή على الكّل". أنظر شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص٤٥.

(٢) وردت الكلمة هنا في الأصل اليوناني: πάθους وهي تعني التألم، فالطبيعة الإلهية ليست مثل الطبيعة البشرية التي تقبل الألم والتغير والقطع....الخ. والمبدأ الذي تبناه القديس غريغوريوس اللاهوتي هو "إن مَن كانت طبيعته غير طبيعتنا كانت ولادته غير ولادتنا" الخطب اللاهوتية ٢٧ – ٣١، الخطاب ٢٩ المرجع السابق ص ٨٣.

ذلك، فلا ينبغي أن نقول إن الابن يأتي من جوهر الآب، حتى لا ننسب للطبيعة البسيطة تجزئةً أو هوى. فإن قُلنا إنه أتى من الآب لَكان مختلفاً من حيث **الترتيب العددي**[1] عن ذاك الذي أتى منه، وبذلك تكون الطبيعة الإلهية قد تجزَّأت. ولو قبلنا أنه أتى من الخارج، فإن ذلك يعني أن هذه الطبيعة قد اعتراها حادثٌ ما فيما بعد، وبالتالي لا يكون أزلياً مع الآب.

١٧- شرح هذا الأمر

يُلصق البعض - جهلاً وغباءً - بالجوهر غير الجسدي صفات الأجساد. فبالنسبة للأجساد يتناسب معها أن يكتنفها ألمٌ (هوى) وقطعٌ وتجزئة، بينما الطبيعة الإلهية غير الجسدية لا تقبل شيئاً من هذه الأشياء. وبما أن الله غيرُ جسدي، فأنه يلد دون أن يتجزَّأ، يلد دون أن يتوزَّع. فالنار أيضاً تلد من ذاتها النور دون أن تتجزَّأ، حتى وإن كان يمكننا - ذهنياً - أن نفصل النور عن النار[2] التي يأتي منها. وإذا أخضع أحدٌ غير الجسدي

([1]) يظن الهراطقة أنه بقولنا إن الابن يأتي من الآب يعني أن الآب هو الأول والابن في الترتيب الثاني وقد استخدم القديس كيرلس مثال الشمس والشعاع وكذلك من قبله استخدم القديس أثناسيوس هذا المثال للرد على هذا الرأي الهرطوقي، إذ يقول القديس أثناسيوس: "حيث إن الشعاع هو النور وليس في المرتبة الثانية بعد الشمس، ولا هو نور آخر، ولا هو ناتج من المشاركة مع النور، بل هو مولود كلّي وذاتي من النور ومثل هذا المولود هو بالضرورة نور واحد ولا يستطيع أحد أن يقول إنه يوجد نوران، فرغم أن الشمس والشعاع هما اثنان إلاّ أن نور الشمس الذي ينير بشعاعه كل الأشياء، هو واحد.هكذا أيضاً إلوهية الابن هي إلوهية الآب، ولهذا أيضاً فهي غير قابلة للتجزئة، ولذا فإنه يوجد إله واحد وليس آخر سواه. وهكذا حيث إنهما واحد، والإلوهية نفسها واحدة، فكل ما يقال عن الآب يقال أيضاً عن الابن ما عدا أن يُلقّب بالآب ". القديس أثناسيوس الرسولي، ضد الأريوسيين، المقالة الثالثة، ترجمة د. مجدي وهبة ود. نصحي عبد الشهيد، مراجعة د. جوزيف موريس فلتس ود. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية أبريل٢٠٠٧، فقرة ٤ ص ١٦.

([2]) يميل القديس كيرلس- كما قلنا - للشرح من خلال الأمثلة خصوصاً حين يكون الحديث عن الثالوث القدوس ومثال الشمس والشعاع يستخدمه القديس أثناسيوس في نفس السياق وكذلك القديس كيرلس في حواره حول الثالوث، بقوله " لنأخذ مثالاً وليكن طبيعة الشمس والشعاع الذي يخرج منها. ولا يمكن أن نطبق آلام الولادة والتمزق وخلافه على خروج الشعاع من الشمس، وهو كائن فيها رغم إشعاعه. وهكذا فالشمس تمتلك في طبيعتها الخاصة، شعاع النور الذي لا ينفصل عنها، لكنه يبدو بعد خروجه منها أن له فرادة خاصة به وأحياناً يفكر البعض في الشمس نفسها ولكنهم لا يستطيعون أن يتخيّلوا جوهرها. ففي هذا الجوهر يوجد الشعاع ومن

للاحتياجات الجسدية، فليحكم على ذهنه - الذي لم يستطع أن يُدرك الأمور التي تتناسب مع الطبيعة غير الجسدية - بالضعف.

أمَّا إذا كان البعض لا يمكنهم إدراك ولادة الابن الأزلية من الآب الأزلي، ولذلك يُخضعون غير الجسدي للاحتياجات الجسدية، إذ لا يمكنهم إدراك كينونة الآب بحسب الطبيعة، فدعهم ينكرونه أيضاً. لكن إن لم يكن كل ما يفوق عقولنا قد صار مقبولاً بالإيمان، وكانت ولادة الابن من ضمن ما يفوق عقولنا، فلماذا لم يستطع أحد أن يؤرِّخ نسبه مثلما يقول النبي؟[1] ليت أمر ولادته يصير مقبولاً بالإيمان[2]، وليتنا نؤمن ونتوقف عن القول بأنه: لم يكن موجوداً، تلك العبارة التي صِيغت بأفكار بشرية جراء الضعف الذهني.

الجوهر يخرج الشعاع دون أن ينفصل الشعاع عن الجوهر، إلاّ أنه متميّز عنه، إذ أن الشعاع يخرج من الشمس إلى خارجها، ولهذا فمن العبث والمُضحك أن نتصور أن الشمس أقدم من الشعاع، وكأن الشعاع الخارج منها يجيء متأخراً. ولا أعتقد أن إنساناً حكيماً وسليم العقل يفكر هكذا. فهذا التصور معناه أن الشمس غير موجودة بسبب أنها لا تمتلك النور موجوداً فيها. وهو الذي يجعلنا ندرك أنها موجودة. هكذا ترى أن الأمثلة المادية الملموسة لها قيمتها في صياغتنا للتعبيرات السليمة، فهي تعطينا إمكانية أن نعبّر عن المعاني الفائقة، دون أن تُفسد هذه التعبيرات معنى الميلاد الإلهي ". حوار حول الثالوث، الجزء الأول ص ١٠٤.

أيضاً في الحوار الرابع حول الثالوث لا يمل القديس كيرلس من توضيح الفرق بين الولادة الإلهية وولادة الأجساد، قائلاً: "فعندما يقال عن طبيعة الله غير الموصوفة والتي تفوق كل عقل أنها تَلِد، فهؤلاء يَعتقدون إنها تتأثر بعملية الولادة هذه، وهم في هذا يَجهلون تماماً ماهية الطبيعة غير الجسديّة وماهية طبيعة الأجسام وما هي التغيّرات التي تعانيها الأجساد. لأن ما لا جسم له هو غير قابل للتقسيم على الإطلاق، بمعنى أنه غير قابل للاشتقاق والتجزيء الذي يتناسب مع طبيعة الأشياء الماديّة الملموسة، أو لإمكانية أن يتأثر بأي شيء من هذه الأشياء.إذن عندما يُقال عن الله أنه "وَلَدَ" فيجب أن يُرفض أي شك في أن الله يعتريه تغيّير بل أن يسود الفكر الذي يعطي طبيعة الله ما يليق بها. لأن الله لا يلد كما نلد نحن بل يلد بالطريقة التي تناسبه". القديس كيرلس السكندري، حوار حول الثالوث، الجزء الثالث، ترجمة د. جوزيف موريس فلتس، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠٠٨، الحوار الرابع ص ٧ - ٨.

(١) "وفي جيله مَنْ كان يظن أنه قُطع من أرض الأحياء"(أش ٥٣: ٨).

(٢) رغم كل الشروحات التي شرحها القديس كيرلس ومن قبلة القديس أثناسيوس إلا أنه يقّر بأن أمر ولادة الابن يتطلب إيمانا وليس برهاناً عقلياً ولجوء الآباء للشروحات كان عن اضطرار لكي يجيبوا على طروحات الهراطقة الكاذبة لئلا يخدعوا البسطاء بأحابيلهم المضلة وافتخارهم المزيف. ويعبر القديس غريغوريوس اللاهوتي عن هذه الحقيقة، قائلاً: " فلتكرم الولادة الإلهية في صمت. وإنه لأمر عظيم بالنسبة إليك أن تعرف أنه وُلِدَ. أما "كيف" فلنعترف بأن الملائكة يجهلونه، فكيف بك أنت. هل تُريد أن أُبين لك الكيف؟ إنه يعرف الآب الذي وَلَدَ والابن

١٨- ردٌ آخر: فكرٌ مصحوبٌ بسؤال ينتهي بالاعتراف بأنه يجب قبول أن الابن أتى من جوهر الآب، ولم يأتِ فيما بعد من الخارج. وطالما الأمر هو هكذا، عندئذٍ من الواضح أن الابن أزلي مع الآب.

يا محاربي الله إذا طبَّقنا فرضكم وقلنا إن الابن خُلِقَ من العدم، و لم يوجد قبل أن يُولد، وإنه دُعيَ أيضاً – في الكتاب – الله والابن والحكمة بحسب مشاركته لله، مثل الكائنات العاقلة، فإننا نقول لكم إن الكائنات العاقلة لا يوجد فيها الجمال الإلهي، بل اكتسبته بفضل الذي منحه لها، إذ قال: "أَنَا قُلْتُ: إِنَّكُمْ آلِهَةٌ وَبَنُو الْعَلِيِّ كُلُّكُمْ" (مز ٨٢: ٦)؛ لأننا تألَّهنا بعلاقتنا بالله وصرنا آلهةً[١] منه.

إذن، فطالما دُعينا أبناء الله بحسب النعمة، بسبب مشاركتنا لله، نقول: مَنْ هو ذا الذي شاركه **الكلمة** ليصير الابن أو الله؟ لأننا، إن كنا بمشاركتنا للروح القدس، قد صرنا آلهةً[٢]، لكن أن نؤمن بنفس الأمر بالنسبة **للكلمة**، فأننا نُظهر بذلك جهلنا. لأنه يقول عن الروح: "يأخذ مما لي" (يو ١٦: ٤١).

إذن، مَن هو ذا الذي يشاركه الابن؟ سنظل نقول إنه يشارك الآب. وما هي طريقة المشاركة، أو مَنْ هو ذا الذي يأتي من الآب ويذهب **للكلمة** لكي يشاركه؟

على سبيل المثال، الحرارة تخرج من النار وتذهب للجسد، أو الرائحة من الورد[٣]، أو مثلما يأتي الروح إلينا، الذي قال عنه الكتاب: "ينبثق من الآب". إذن ماذا يكون هذا

الذي وُلِدَ، وما فوق ذلك محجوب وراء غمامة، ومتوارٍ عن عينيك الضعيفتين". الخطب اللاهوتية ٢٧ – ٣١، المرجع السابق، الخطاب ٢٩ ص ٨٧.

(١) أي صِرنا شركاء الطبيعة الإلهية كما قال الرسول بطرس بأن صِرنا أبناء الله بالتبني وهذا ما كان يقصده هنا القديس كيرلس في برهانه هنا على أن **الكلمة** هو الابن بالطبيعة ونحن صِرنا أبناء بالتبني بواسطة **الكلمة** الابن الحقيقي للآب، وهذه النعمة ما كان لنا أن ننالها لو كان الابن ليس مساوٍ للآب في الجوهر. فالتأله هنا لا يعني أن يتحول الإنسان إلى إله حاشا بل تعني الاتحاد والشركة مع الله بفضل **الكلمة** المتجسد.

(٢) كما قال الرسول بطرس صِرنا " شركاء الطبيعة الإلهية " ٢بط ١: ٤.

(٣) نفس هذا التشبيه قد استخدمه القديس كيرلس في شرحه لإنجيل يوحنا للبرهنة على عدم وجود أي انفصال بين الآب والابن أثناء ولادة الآب للابن، إذ يقول: " ونحن نؤمن أن الآب هو مع الابن، وليس كمن بلا قوّة تقدر أن تخلق من العدم، وإنما الابن هو فيه تماماً، بسبب عدم تغيّر الجوهر، وبدون أن يكون بينه وبين الآب أي وسيط

الذي يأتي من الآب ويذهب للابن؟ وهل يأتي من جوهر الآب، أم من موضع خـــارجي؟ فإن كان يأتي من الخارج، لَما كان الابن مشاركاً للآب، بل يتقدَّس عن طريق آخر، الأمر الذي يُعد مجرد التفكير فيه عدم إيمان، أمَّا إن كان الآتي من الآب يأتي من جوهره إلى الابن لكي يكون مشاركاً للآب، عندئذ إمَّا أن نقبل حدوث قطعٍ ما أو تجزئة وهوى في طبيعـــة الله، أو نقول إنه يأتي من جوهر الآب دون هوىً وتجزئة، وإنَّ مَن يُدخل تجزئةً وهـــوىً في الطبيعة الإلهية، فأنه يُشكك في ولادة الابن. وبما أن الله يلد دون تجزئة ودون أي هوى، فلا شيء يعيق اعترافنا بأن الذي وُلِد منه هو **كلمة** الله الحي. والذي يأتي من الآب الأزلي هـــو على أية حالٍ أزليٌ أيضاً. لأنه هكذا، إذ نال مسرة الآب، حافظ عليها في ذاته، فأظهر أنه الابن الحقيقي حين قال: "مَنْ رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ" (يو ١٤: ٩). لأن الأبدية لا تظهر في المخلوق الصائر.

١٩- ردٌ آخر

بما أن مَن يشارك الابن يصير مشاركاً للطبيعة الإلهية وفق أقوال بطرس (أنظـــر ٢ بط ١: ٤)، وأن الذين يسكن فيهم **الكلمة** يكونون هياكل الله (أنظر ١ كـــو ٣: ١٦)، فمن الضروري أن نقول إن الابن يأتي من جوهر الله. وطالما لا يوجد شيءٌ في الله صـــار فيما بعد؛ لأنه كاملٌ ومكتفٍ بذاته، إذن فالابن لم يَصِر فيما بعد، بل هو كائن أزلي مـــع الآب.

٢٠- وأيضاً عن أزلية الابن

عندما نقول الله الآب، والله **الكلمة** الابن، فنحن لا نقصـــد أن الواحـــد كـــائن مسبقاً، ثم صار بعده الآخر وفق الترتيب الذي يوجد في البشر؛ لأن الله كائن فـــوق كـــل

في ولادته الطبيعية من الآب. بل كَمَنْ يقول إن رائحة الزهرة هي مع الزهرة. والزهرة دائماً مع الرائحة، لاسيما عندما تنتشر الرائحة، ولكن الرائحة من الزهرة طبيعياً". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٧٩.

زمن، لكن لكي نعبد الواحد كوالد الذي هو الآب، والآخر كابنٍ أصيلٍ، ولادته من الآب لا تُوصف. فنحن ندعوه[1] آباً لأنه وَلَدَ، وندعوه ابناً لأنه وُلِدَ. ونستخدم هـــذه الأسمـــاء لتظهر لنا هذه الحقائق.

وعلى ذلك، فاسم الآب يعني فقط خاصية أنه يَلد، كما أنه لا يوجد سببٌ أجبر الله على أن يَلد زمنياً لكي يُوجد قبل هذا الذي ولده. وبما أنه لم تتوسط فترة زمنية بين مَن وَلَد ومَن وُلِدِ، بالتالي، فالابن كان دائماً أزلياً مع الآب[2].

---

(١) يشير القديس كيرلس بـــ "نون الجمع" في استخدامه فعل "ندعوه" إلى شخصه وآباء الكنيسة معلمي اللاهوت في مجمع نيقية، وقد ذكر هذا الأمر في حواره حول الثالوث، إذ قال: [فمن الأفضل جداً يا إرميا ألاّ نعتاد أن نرتعب من لغو الآخرين لأنهم يَعرضون علينا فكراً لا قيمة له، بل أن يكون لنا قانون إيمان يتفق وأقوال الآباء مُعلّمي اللاهوت. لأنه يليق بنا وليس بآخرين، وبالحري بهؤلاء الآباء أن نصفهم ونقول "لأَنْ لَسْتُمْ أَنْتُمُ الْمُتَكَلِّمِينَ بَلْ رُوحُ أَبِيكُمُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيكُمْ" مت ١٠: ٢٠... إذن لقد تَعلّم هؤلاء (الآباء) ألاّ يَسجدوا للابن الوحيد **كلمة** الله على أنه مخلوق- بمعنى أنه قد خُلِقَ - لكنهم يَشهدون أنه هو ثمرة جوهر الأب، وهو كائن معه أزلياً ويُسمّونه ابن الله الحقيقي وأيضاً الحياة الأبدية. والواقع أن يوحنا اللاهوتي يقول "وَنَعْلَمُ أَنَّ ابْنَ اللهِ قَدْ جَاءَ وَأَعْطَانَا بَصِيرَةً لِنَعْرِفَ الْحَقَّ. وَنَحْنُ فِي الْحَقِّ فِي ابْنِهِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ. هَذَا هُوَ الإِلَهُ الْحَقُّ وَالْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ" (١ يو ٥: ٢٠ - ٢١)]. أنظر الجزء الثالث، المرجع السابق، الحوار الرابع ص ٢ - ٣.

(٢) يؤكد القديس أثناسيوس على أزلية الابن غير المنفصلة عن الآب في سياق شرحه لقول المسيح " أنا في الآب والآب فيّ" يو ١٤: ١٠ مستخدماً كافة الأمثلة لإيضاح هذا الأمر، إذ يقول: "وإذ هم لا يفهمون – الهراطقة- أنه ابن حقيقي من الآب فإنهم يفترون عليه، الذي هو الابن الحقيقي والذي يليق به وحده أن يقول "أنا في الآب والآب فيّ". لأن الابن هو في الآب - بحسب ما يُسمَح لنا أن نعرف - لأن كل كيان الابن هو من جوهر الآب ذاته. كمثل الشعاع من النور، والنهر من الينبوع. حتى أن مَن يرى الابن يرى ما هو خاص بالآب، ويعرف أنه بسبب أن كيان الابن هو من الآب لذلك فهو في الآب. لأن الآب هو في الابن حيث إن الابن هو من الآب وخاص به مثلما أن الشعاع هو من الشمس، والكلمة هي من العقل والنهر من الينبوع. ولذلك فإن مَن يرى الابن، ويرى ما هو خاص بجوهر الآب، يدرك أن الآب هو في الابن. وحيث إن ذات الآب وإلوهيته هي كيان الابن، لذلك فإن الابن هو في الآب والآب في الابن. لهذا السبب كان من الصواب أن يقول أولاً: "أنا والآب واحد" (يو١٠: ٣٠)، وبعد ذلك يضيف "أنا في الآب والآب فيّ" (يو ١٤: ٣٠) لكي يوضّح وحدانية الإلوهية من ناحية ووحدة الجوهر من الناحية الأخرى" راجع ضد الأريوسيين، المقالة الثالثة، المرجع السابق، فقرة ٣ ص ١٥.

٢١- ردٌ آخر

إذا كان الله هو الخالق بحسب طبيعته، و لم يكتسب - فيما بعد - تلك القوة التي أوجدت الكائنات من العدم إلى الوجود، وهو يخلق كل شيء ويصنعه بواسطة الابن، أليس من التجديف إذن أن نقول: كان هناك وقتٌ لم يكن فيه الابن موجوداً؟

لأن هذا يبدو وكأننا نقول: كان هناك وقتٌ لم يكن فيه الله موجوداً، وبعد ذلك خُلِق **الكلمة** خالق الكل، وذلك باعتبار ما قاله يوحنا: "وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَـــانَ" (يو ١: ٣). فبما أن الله الآب الخالق دائم الوجود بحسب طبيعته، فالذي بواسطته أُظهِرَ أنه خالقٌ، أي **كلمته**، كان دائماً معه. لأنه إذا كانت الخواص الطبيعية للإنسان لا تنفصل عنه، هكذا أيضاً لا ينفصل عن الله كل ما يوجد فيه وما يصدر عنه. وعلى ذلك، **فالكلمـــة**، إذ يُوجد في الآب ومن الآب، فهو أزليٌ غير منفصل عنه.

٢٢- ردٌ آخر ناتج من ضلالهم وعبثهم

لو لم يكن الابن أزلياً مع الآب، بل كان هناك وقتٌ لم يكن فيه موجوداً[1]، وفق رأيكم، لتحتَّم علينا أن نقبل أن يكون الثالوث القدوس ناقصاً. لأن ذلك يعني أن الثـــالوث قبل وجود الابن كان واحداً، ثم صار بعد ذلك ثالوثاً. ولأن كل شيءٍ يصير فيما بعد يمكن أن ينتهي، فالخوف من أن يعود الثالوث واحداً، قائمٌ . والقول بمثل هذا الرأي هو تجديفٌ، فالابن كان دائماً مع الآب ملء الثالوث القدوس.

---

(١) ينفي القديس كيرلس مسألة أنه كان هناك وقت لم يكن فيه الابن موجوداً على أساس أن الابن هو قوة وكلمة الآب، والآب لم يكن أبداً بدون قوة وكلمة ، إذ يقول: "فإذا اعتبرنا الآب المصدر أو الينبوع، فإن **الكلمة** كان فيه لأنه حكمته وقوّته وصورة جوهره وشعاع مجده. وإذا لم يكن وقت كان الآب فيه بلا حكمة **وكلمة** وصورة وشعاع، فإنه من الواضح أن وجود الابن الذي هو حكمة **وكلمة** وصورة الآب وشعاع مجده أمر لا يحتاج إلى إقرار منا، فهو أزليٌ مثل الآب الأزلي، وإلاّ كيف يوصف أنه صورته الكاملة ومثاله التام، إلاّ إذا كان له بوضوح ذات الجمال الذي هو على صورته". شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص٤٣.

٢٣- ردٌ مماثل للرد السابق

إذا لم يكن الابن ثمرة جوهر الآب[1]، بل كان قد خُلِق من العدم، لَما كان هو أحد أقانيم الثالوث القدوس، بل كمخلوق يكون قد أخذ تكوينه من العدم، وهكذا يُحصى الخالق مع المخلوق، والمخلوق يُمجَّد مع الخالق. وهذا محضُ تجديفٍ؛ لأن إلوهية الثالوث واحدة، والتمجيد واحد، وواحدة هي الربوبية، إذ لا علاقة لها بجواهر مختلفة. وكيف لا يكون سُخفاً وغير معقول - أنه بينما الآبُ أزليٌّ - نتجرأُ على القول بأن **الكلمة** الكائن معه في كل شيء، ويملك معه كل شيء، لم يكن موجوداً في وقت ما، بل صار فيما بعد وظهر لنا حديثاً كإله؟

٢٤- ردٌ آخر

يُدعى الله نبع الحكمة والحياة. لأنه بواسطة أرميا يقول: "تَرَكُونِي أَنَا يَنْبُوعَ الْمِيَاهِ الْحَيَّةِ" (أر ٢: ١٣). وأيضاً: "أَيُّهَا الرَّبُّ رَجَاءُ إِسْرَائِيلَ، كُلُّ الَّذِينَ يَتْرُكُونَكَ يَخْزَوْنَ. الْحَائِدُونَ عَنِّي فِي التُّرَابِ يُكْتَبُونَ، لأَنَّهُمْ تَرَكُوا الرَّبَّ يَنْبُوعَ الْمِيَاهِ الْحَيَّةِ" (أر ١٧: ١٣). وبواسطة باروخ يقول: "تركوني أنا ينبوع الحكمة" (باروخ ٣: ١٢). إذن، فبما أن الله يُدعى هكذا، فمن المعروف والمفهوم أن كل ما يأتي من النبع يكون مشتركاً معه في الوجود، لأن الينبوع لن يكُن ينبوعاً إن لم يتدفق منه شيءٌ. وهم يقولون: "كان هناك وقتٌ لم يكن فيه الابن موجوداً"، ذاك الذي يقول: "أَنَا الْحِكْمَةُ أَسْكُنُ الذَّكَاءَ، وَأَجِدُ مَعْرِفَةَ التَّدَابِيرِ" (أمثال ٨: ١٢). إذن، فهم يعترفون بأن الينبوع أحياناً ما يكون جافاً وعقيماً. وهذا محضُ تجديفٍ؛ طالما أن الطبيعة الإلهية دائماً ما تكون حاملةً للثمر، وليس شيءٌ حادثٌ

(1) جاءت في اليونانية، هكذا: «γέννημα τῆς οὐσίας τοῦ πατρός» بمعني وليد جوهر الآب. وقد سبق للقديس كيرلس أن استخدم هذا التعبير في سياق شرحه ليو١:٩ "كان هو النور الحقيقي إذ يقول :"**فكلمة** الله هو جوهرياً "**النور**"، وهو ليس كذلك بواسطة النعمة بالمشاركة، ولا نال هذه المكانة عَرَضِيًّا، ولا وُهِبَت له كنعمة، وإنما النور هو الصلاح غير المتغيّر للطبيعة غير المخلوقة، وهو ينطلق من الآب إلى وليد جوهره". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص١٠٠.

عليها، وعلى ذلك، **فالكلمة** الذي أتى من الآب يكون أزلياً مع الآب الذي ولده، متدفقٌ من الجوهر الأبوي كما مِن ينبوعٍ[1].

٢٥- ردٌ مقنعٌ آخر على نفس الموضوع

وَعَدَ الله الذين يطيعونه بأنه سيجعلهم مثل ينبوعٍ لا يغيب عنه الماء. هكذا بواسطة أشعياء يقول: "وَيَقُودُكَ الرَّبُّ عَلَى الدَّوَام، وَيُشْبِعُ فِي الْجُدُوب نَفْسَكَ، وَيُنَشِّطُ عظَامَكَ فَتَصيرُ كَجَنَّةٍ رَيَّا وَكَنَبْع مِيَاهٍ لاَ تَنْقَطِعُ مِيَاهُهُ" (أش ٥٨: ١١). فإذا كان الله قد وَعَدَ البشر بمثل ذلك، فكيف لا يكونون غير مذنبين أولئك، الذين يقولون إن النبع الإلهي وغير المائت كان وقتاً ما جافاً، للدرجة التي يظهر معها الله أدنى من كل البشر؟ وبما أن ذلك محضُ عبثٍ، فلا بُد وأن يكون النبعُ مليئاً بماء الحياة والحكمة، تلك التي تنبع منه، أي الابن.

٢٦- ردٌ آخر من نتاج ضلاهم وعبثهم

مكتوب: "لكِنْ لَنَا إِلهٌ وَاحِدٌ: الآبُ الَّذِي مِنْهُ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ، وَنَحْنُ لَهُ. وَرَبٌّ وَاحِدٌ: يَسُوعُ الْمَسِيحُ، الَّذِي بِهِ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ، وَنَحْنُ بِهِ" (١ كو ٨: ٦).

فإن قال أحدٌ إن الذي صار به كل شيءٍ، هو واحد من ضمن الكل، فلا يكون هناك مانعٌ من أن يضع الآب الذي يأتي منه الابن في نفس المكانة. وبما أن هذا محضُ تجديفٍ، فالابن الذي بواسطته صار الكل، ليس واحداً من ضمن المخلوقات، بل هو أزليٌّ. لأن الذي ليس بمخلوقٍ، لا ينتمي إلى المخلوقات، بل هو الله الذي هو فوق الكُل.

٢٧- ردٌ بسيط ومطلق

بما أن الله الآب هو نور، إذن، فشعاعه موجودٌ فيه على الدوام[1]. وبما أن الابن هو ختم جوهر الآب كما يقول الآب (عب ٣: ١)، فيا ليت أولئك الذين تطاولوا وقالوا

---

(١) يفضل القديس كيرلس أيضاً تشبيه ولادة الابن من الآب بتدفق النهر من الينبوع، إذ يقول "**الكلمة** الذي أشرق من الله الآب بكيفيّة تفوق الإدراك له ميلاده الخاص "من فوق"، ولكونه من جوهر الآب كما من ينبوع". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الثالث ص ٢٠٤.

عن الابن إنه "كان هناك وقتٌ لم يكن فيه الابن موجوداً"، يخبروننا متى كان جوهر الله بدون ختم؛ لأن مع الأقنوم يوجد أيضاً ختمه؟ وإذا كان الابن هو الحق والحكمة، فمتى كان الابن غير موجود في الآب؟ لأن الحق والحكمة دائمي الوجود في الله الآب.

٢٨- ردٌ آخر

بما أن الآب يُرى في الابن، والابن هو صورة جوهر ذاك الذي ولده، طبقاً لما قاله هو نفسه: "مَنْ رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ" (يو ١٤: ٩)، إذن فكل ما في الآب بحسب الطبيعة ينبغي أن يوجد في الابن أيضاً. لأنه عندئذٍ يكون الابن صورةً دقيقةً للآب. وبما أن الآب أزليٌ، غيرُ مائتٍ، ملكٌ، خالقٌ، ضابطُ الكلِ، إلهٌ، فهكذا إذن يكون الابن، وإلاَّ كيف تبدو الأزلية في الصائر المخلوق، أو الكمال في هذا الذي لم يكن موجوداً؟ وكيف يظهر الخالق في المخلوق، إذا كانت الصورة تتماثل دائماً مع الأصل[٢].

---

(١) السبب في اللجوء للأمثلة وخاصةً الشمس والشعاع والنار والنور أو الحرارة من جانب القديس أثناسيوس وكذلك فيما بعده القديس كيرلس هو لكي يتم توضيح طريقة ولادة الابن من الآب بأنها تختلف عن ولادة المخلوقات، وهذا ما يؤكده القديس كيرلس في موضع آخر حين يقول: "لأن الابن في الآب وهو من الآب، ليس كَمَنْ يأتي من الخارج في الزمان، بل هو من ذات جوهر الآب، يشع مثل الشعاع من الشمس أو صدور الحرارة من النار. هذه الأمثلة تعني أن نرى كيف يُولَد أو يصدر شيء من شيء، وفي نفس الوقت لا يصدر متأخراً أو بعد زمن، أو أن تكون له طبيعة مختلفة بل يصدر الشيء من الشيء ويظّل كائناً معه لا ينفصل عنه، بل لا يمكن لأي منهما أن يوجد بدون الآخر، فلا شمس بلا شعاع ولا شعاع بدون شمس تشعه من داخلها. ولا نار بلا حرارة ولا حرارة إلاّ من نار. فالانفصال يعني أن يفقد الشيئان معاً الطبيعة التي تميّزهما. فكيف تصبح الشمس شمساً بلا أشعة، وكيف تصبح النار ناراً بلا حرارة". شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٤٣ - ٤٤.

(٢) هنا يرفض القديس كيرلس أن الابن مخلوقاً على أساس أن الابن هو صورة الآب فكيف يُظهر المخلوق صورة غير المخلوق، ويضيف بجانب هذا البرهان البُعد الخلاصي في سياق الحديث عن المعمودية، إذ يقول: " فأي ختم الهي سنكون قد خُتمنا به في داخلنا حتى ولو كنا أخذنا شكل الابن إن لم يكن الابن بحق هو الله وليس مخلوق؟ والآن يجب عليك أن تؤمن أيضاً بأن الله الآب نفسه هو خالق لأن الصورة لابد وأن تشبه الأصل. أو جاوبني على هذا الأمر لأنني سوف أسألك: ألا توافقني على أن الطبيعة الإلهية- وفي أي صورة يمكن أن تدركها أنت- لا يمكن أن تقارن بالطبيعة المخلوقة وهي مختلفة عنها تماماً وأنها لا تشابه بأي صورة من الصور أي من المخلوقات؟". القديس كيرلس الأسكندري، حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الثالث، الحوار الرابع ص ٦١-٦٢.

٢٩- سؤال الهراطقة كأنه موجَّهٌ إلى أغبياء

يقولون: هل يمكن أن يكون لديك ابنٌ قبل أن تَلد؟ فنُجيب بالطبع لا. فيقولون، هكذا لم يكن لدى الله ابنٌ قبل أن يُولَد. وعلى ذلك كان هناك وقتٌ لم يكن فيه الابن موجوداً. ماذا نقول - إذن - رداً على هذا الأمر؟ نقول: إذا كانوا يريدون إلغاء أزلية الابن، فأيُ خجلٍ يمنعهم من أن ينسبوا للطبيعة الإلهية خواص الطبيعة البشرية؟

دعنا نسأل المعماريين أيضاً إذا ما كان يمكنهم أن يقيموا بناءً دون مواد بناء؟ فإن أقروا - عن حقٍ - بعجزهم، عندئذٍ دعهم يقولون لنا ما إذا كان الله في احتياجٍ إلى المواد حتى يخلق شيئاً مثل الإنسان. لأنه عند ذاك لا يكون خالقاً من العدم، يُحضِر كل شيءٍ من العدم إلى الوجود، بل من مادةٍ ما كانت موجودةً، وبذلك يكون صانعاً أكثر منه خالقاً.

وإن أقروا بأن هذا محضَ سخفٍ وعبث، عندئذٍ يمتنع عليهم أن يقولوا ما سبق وأن قالوه. إذن، فهؤلاء الذين يريدون أن يكون لدى الله شيءٌ أكثر أو أبعد من الإنسان باعتباره خالقٌ، ليتهم يطبقون ذات المنهج على الولادة، فلا ينعتونه بعد بخواص الإنسان، فلا يعتبرونه والداً بنفس الطريقة التي يعتبرونه بها صانعاً من مادة كانت موجودة[1].

(١) أي كما أنكم لا تقرون بأن الله صانع بل خلق المخلوقات من عدم فهو خالق وليس مثل أي مخلوق يصنع من مادة موجودة مسبقة مثل مهندسي البناء الذين يصنعون منشأهم من مواد بنائية كانت موجودة، هكذا أيضاً عليكم أن لا تقبلوا أن الله الآب يلد مثل المخلوقات ووجوده سابق لوجود الابن، وهذا ما أكده القديس كيرلس في حواره حول الثالوث، قائلاً: "أكرِّر أن غير الجسدي لا يتبع في ولادته قوانين الجسد، وهو في ولادته يلد حسب طبيعته وليس حسب طبيعة الأجساد. فالأجساد البشريّة هي بالضرورة سابقه على ما تلده. والمنطق يُظهر ذلك بطريقة حاسمة وبدون مراوغة، فهي تتميّز بأنها أقدَم من مولودها، لأن المولود يُعتبر الثاني في الزمن والوالد هو الأول. فالكائنات هي التي تلد عادة، في زمن معيّن، وذلك لأنها لا تملك في ذاتها ولادة أزليّة بلا بداية، أما الله الذي هو كائن منذ الأزل بلا بداية ولا نهاية، فكيف يتفق مع طبيعته أن ننسب لابنه الوحيد بالطبيعة، بدايةً في الزمن؟ فالذي يلده الله بحسب قوانين طبيعته سيكون ذا طبيعة وجنس مختلفين عن البشر، لأنه يحمل طبيعة الذي وَلَدَه، وإلاّ تحوّل الأمر إلى مسخ وتشويه للمولود. لأنه شيء فظيع أن نعزل المولود عن طبيعة الآب الذي وَلَدَه. إذن، غير الجسدي سوف يلد بما يتفق مع طبيعته الخاصة بدون أن نضع عملية الولادة والمولود تحت حدود الزمن، بل يكون المولود، له نفس طبيعة ذاك الذي وَلَدَه، ولن يكون بأي حال من الأحوال من بين الذين يولَدون في الزمن، لأنه مولود من أصل أزليّ بلا بداية، فوق الدهور نفسها". حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الأول، الحوار الأول ص ١٢٢.

٣٠- سؤال من جانب الأريوسيين مملوءٌ بالعبث، ويتبعه سؤال أكثر سُخفاً - لا تسألوا دون فحصٍ عميق.

يقولون: الله الكائن، هل كان كائناً عندما خلق الابن، أم لم يكن كائناً؟

٣١- الإجابة على هذا السؤال بتوجيه أسئلة أخرى

الله الكائن، هل صار إلهاً قبل وجوده، أم أنه لم يكن موجوداً قبل أن يصير إلهـــاً؟ أيضا هل خلق الله ذاته أم صار من العدم؟ وإذا لم يكن موجوداً وكائناً، هل ظهر فجأةً؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة تُعد تجديفاً بحد ذاهّا. لذلك، على الذين يسألون هذه الأسئلة أن يمتنعوا عن الإجابة عليها، ويكتفوا بما نقوله لهم في تقوى: إن الآب أزليٌ. وبما أن الآب أزليٌ، فالابن أزليٌ أيضاً؛ لأنه إذا كان من غير الممكن أن تشاهد نوراً دون شـــعاعه، هكذا لا يمكن أن يكون الآب بدون الابن الذي بواسطته يظهر الآب. فالله كان دائماً هو الآب، ولذلك، فهو أبٌ لذاك الذي هو كائنٌ معه على الدوام[1].

---

(١) وعن الولادة الأزلية للابن يؤكد أيضاً القديس كيرلس على أزلية الابن مع الآب وعدم أسبقية الآب التي يتخيلها الهراطقة، وبرهانه كتابي هذه المرة وليس بأمثلة فقط، وذلك في كتاب آخر، إذ يقول: [إن الابن كائن قبل وجود الأرض والسماء أي قبل الخليقة كلها. وهذا في رأيي أمر بديهي، فالابن خرج من الآب الذي لا بداية له، وقد وُلِدَ بشكل يفوق الفهم. ولهذا فإشعياء الفصيح يقول بدوره "مَن يخبر بجيله" ويقول إنه "قُطِعَ مِنْ أَرْضِ الأَحْيَاءِ" أش ٥٣:٨ وفى رأيي أن "الجيل" يعنى الولادة و"الحياة" تعنى الوجود. وهذه الحياة أُخِذَت من كل الأرض بمعنى إنها تنتمي للأرض، ولكنها تفوق ذهن كل كائن على الأرض، إنها تعلو فوق مستوى مفاهيمنا، ولا تقدر أي قامة إنسانية على سبر غورها. والنبي كان على حق فيما قال، وفى أن الابن يسمو على الزمن أيضاً، وإنه مثله مثل الآب يعلو على كل بداية، فهذا ما صرخ به نبيّ أخر من الأنبياء القديسين "أَمَّا أَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْمَ أَفْرَاتَةَ، وَأَنْتِ صَغِيرَةٌ أَنْ تَكُونِي بَيْنَ أُلُوفِ يَهُوذَا، فَمِنْكِ يَخْرُجُ لِي الَّذِي يَكُونُ مُتَسَلِّطاً عَلَى إِسْرَائِيلَ، وَمَخَارِجُهُ مُنْذُ الْقَدِيمِ، مُنْذُ أَيَّامِ الأَزَلِ". فالنبي يتكلّم عن الميلاد كخروج خاص من كيان الآب، وهذا يجعلنا نفهم معنى وجود الابن الدائم، الذي وُلِدَ منذ البدء الذي لا بدء قبله - مع الذي وَلَدَه، وهذا الوجود معناه أن الابن مولود وليس أنه غير مولود]. أنظر حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الأول، الحوار الثاني ص ١١٥.

٣٢- ردٌ آخر

يتطاول الأريوسيين ويقولون إن الآب خلق الابن كأداةٍ لنفسه لكي يستخدمه في خلق الكائنات، ولأجل هذا السبب عينه أحضره من العدم إلى الوجود. ليتهم يخبروننا: هل يُعقل أن يحتاج مَن هو كائنٌ بالفعل (الآب) إلى مَن لم يكن موجوداً؟ فمَنْ إذن هو الأعظم منهما؟ أالذي احتاج، أم الذي سدد هذا الاحتياج؟

من الواضح - طبقاً لتطاولكم - أن الاثنين يكمِّل أحدهما الآخر، وبذلك يكون كل واحدٍ منهما في حد ذاته ناقصاً. فإذا كان الآب أزلياً، وعلى الرغم من ذلك احتاج للابن الذي صار بعده زمنياً، كما يدَّعي أولئك، إذن فقد صارت طبيعة الابن، هكذا لتكميل أزلية الآب، وهكذا يكون الاثنان اللذان لا يمتزجان قد امتزجا. وكوننا نردد مثل هذه الأقوال، فنحن بذلك نكون مجدِّفين؛ لأن الابن لم يَصِر متأخراً زمنياً بعد الآب، الذي بواسطته خلق كل شيء، ولا صار مثل أداةٍ لأجل الخلق، بل كان أزلياً معه حقاً وهو قوته وحكمته[1].

٣٣- ضد أولئك الذين يسألون: هل لديك ابنٌ قبل أن تلد؟ ويقولون: هكذا أيضاً الله لم يكن لديه ابن قبل أن يلد

الذين يفحصون الأمور الإلهية بحسب عاداتنا البشرية، يبدون كما لو كانوا يتدرون امرأةً بسؤالها عما إذا كان لها ابنٌ قبل أن تلد! لكن السؤال الذي يجب أن يوجَّه

---

(١) يتعجب القديس أثناسيوس من الذين يعتبرون الابن وسيط خلقة الآب لكي يخلق المخلوقات، ويتساءل قائلاً: "هل الذي هو كائن، في حاجة إلى مَنْ هو غير كائن، أم إلى من هو كائن، لأجل خلقة كل الأشياء؟ لأنكم قلتم أنه صاغ لنفسه الابن كأداة لكي يخلق بواسطته كل الأشياء. أيهما أفضل، أذن هل الذي يحتاج أم الذي يسد الاحتياج؟ أم أن كلاً منهما يستكمل احتياج الواحد للآخر؟ لأنه بقولكم مثل هذا الكلام فإنكم تثبتون ضعف الخالق، إن كان لا يقوى وحده على أن يخلق كل الأشياء بل يبتكر لنفسه أداة من الخارج، كما لو أن نجاراً أو صانع سفينة لا يستطيع أن يعمل أي شيء بدون مطرقة أو منشار. هل هناك، إذن، ما هو أكثر كفراً من هذا؟". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الأولى، فقرة ٢٦ ص ٨١.

لأي أُمٍّ هو: هل سيصير ابنكِ شبيهاً بك بحسب الطبيعة، وهل سيشاركُكِ ذات جوهرك، أم سيكون له جوهرٌ آخر، وبالتالي يصير غريباً عنكِ؟

إن الآباء والأُمهات الذين يتعلَّمون الحق، يؤمنون بذات الأمر بالنسبة لله، لكنهم لا يتخذون الزمن أداةً لتجديفهم، بل فقط كوسيلةٍ لإثبات أصالة التعاقب الطبيعي. لأنهم يتعلمون من والديهم أن الأولاد دائما ما يكونون شبيهين بآبائهم ولا يختلفون عنهم في شيء من جهة الجوهر. أمَّا أولئك فدعهم يعتبرون ما يخص الله **الكلمة** مشابهاً لما يحدث في الطبيعة البشرية. **فالكلمة** وُلِد من جوهر الآب، وهم يعترفون بذلك. أمَّا عن إقحامهم لمسألة الزمن، فليتهم يقولون لنا ما الذي يعيق الله عن أن يكون دائماً آباً دون أن يخضع للاحتياجات البشرية والقوانين التي تحكم طبيعتنا؟

ليتهم، فيما يفكرون في الزمن، يحصرون تفكيرهم في الصفات البشرية، تلك الصفات البعيدة جداً عن الطبيعة الإلهية[1]. ليتهم يتعلمون من الشمس أن النور الذي يُولد منها، هو دائماً معها. ليتهم يتعلَّمون من النار أن الحرارة هي دائماً خاصتها. فإن كان قد ظهر لنا من هذه الأمثلة أن كل ما يصدر عن الشمس والنار، أي النور والحرارة، له وجود دائم مشترك معها، فكم بالحري يكون الأمر بالنسبة للإله الأزلي؟ وبما أن الابن هو من جوهر الآب بحسب الطبيعة، ولا شيء يجبر الله على أن يلد في الزمن، إذن، **فالكلمة** أزليٌّ

(1) نفس البرهان قد سرده القديس أثناسيوس في نفس السياق، قائلاً: "فكان إذن من الواجب، أنهم حينما يتباحثون مع الوالدين قائلين لهم: "هل كان لك ولد قبل أن تنجبه؟" كان ينبغي أن يضيفوا ويقولوا: "إن كنت قد حصلت على ولد، فهل أنت اشتريته من الخارج كما تشترى بيتاً أو أي ممتلكات أخرى؟" وحينئذ فإنهم يجيبونك قائلين "إنه ليس من خارجي، بل هو من ذاتي، لأن الممتلكات هي من خارج وتنتقل من واحد إلى أخر، أما الابن فهو مني من ذات جوهري ومطابق له، حيث إنه لم يأت إلى من آخر، بل هو قد وُلِدَ مني، ولهذا السبب فإني بكل كياني موجود فيه. بينما أظل أنا نفسي كما أنا".لأن هذا هو واقع الحال، حتى إن اختلف الوالد (عن الله الآب) من ناحية الزمن، لأنه كإنسان قد أتى الوجود في الزمن، ولكنه هو أيضاً كان يمكن أن يكون عنده ابنه موجود معه دائماً، لو لم تمنعه طبيعته من ذلك، أي لو كانت القدرة الإنجابية لا تعوقه عن ذلك". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الأولى ، فقرة ٢٦ ص ٨٢ - ٨٣.

مع الآب، **الكلمة** الذي أتى منه، وبواسطته[١] جاءت كل المخلوقات التي لم تكن قد وُجِدَتْ بعد، إلى الوجود.

٣٤- ردٌ آخر

على الذين يريدون أن يكونوا على استقامةٍ في إدراكهم، أن يعرفوا أن الله لم يلد بطريقةٍ تُخضِعُهُ للتجزئة أو التحول، أو أن ألماً حاق به؛ لأن التجزئة والتحول هما صفتان لطبيعة الأجساد، بينما الطبيعة الإلهية وغير الجسدية لا تقبل تجزئةً ولا تحولاً أو شيئاً من مثل ذلك، فالابن لا يُعدُّ – على الإطلاق – جزءٌ من الآب، بل هو آتٍ منه وكائنٌ فيه، وبتسميته الحكمة والكلمة يعلن أنه فيه.

وعلى ذلك، فهو أزليٌ مع ذاك الذي ولده؛ لأنه ما من أحدٍ من الذين يتصرفون باستقامةٍ يمكنه أن يقول إن الآب كان ذات مرةٍ بلا كلمة وبلا حكمة.

٣٥- ردٌ آخر

بما أن العقل البشري يلد من ذاته الكلمة المنطوقة، دون أن تعتريه تجزئةٌ، أو يكتنفه ألمٌ جرَّاء هذا الأمر، بل نستطيع أن نرى الكلمةَ في العقل، والعقلَ في الكلمة[٢]، وكل واحد منهما هو صورة الآخر، ولا يمكن لعاقلٍ أن يقول إن العقل صار ذات مرة بلا كلمة؛ لأنه لا يوجد أبداً عقلٌ لا كلمة لديه. ولا نقصد بالكلمة هذه التي تُصاغ باللسان، بل أيضاً

---

(١) يؤكد القديس كيرلس هذه الحقيقة في سياق شرحه لنص يو ١:٣ "كل شيء به كان وبغيرة لم يكن شيء مما كان " إذ يقول: "ومع أن الإنجيلي المبارك قال "**كل شيء به كان**"، فان هذه العبارة لا تعني بالمرَّة أن الابن أقلّ من الآب. فهي لا تعني أن الابن خادم أو يعمل من أجل آخر، منفذاً إرادته، وهو ما يتنافى مع الاعتقاد أنه خالق، فهو لم ينل قوّة من آخر لكي يخلق، وإنما هو **قوّة الله الآب، الابن الوحيد**، الذي يعمل كل شيء مع الآب والروح القدس، **لأن كل شيء من الآب بالابن في الروح القدس**". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٧٨ – ٧٩.

(٢) يستخدم القديس كيرلس ومن قبله القديس أثناسيوس مثال: الكلمة- العقل لكي يوضح أن ولادة الابن من الآب تختلف عن ولادة المخلوقات لكن يظل هذا المثل قاصراً لأن الكلمة البشرية ليس لها كيان أو أقنوم أما الابن **الكلمة** له أقنوم غير منفصل عن أقنوم الآب وأقنوم الروح القدس.

الذي يتحرك في العقل ذهنياً. وهكذا لا يمكن لأحد أن يقول إنه لا يوجد في الله **كلمتـــه**، الذي هو كل صورة الآب، ويُرى في الآب لأنه مثيلٌ له في الجوهر.

٣٦- ردٌ آخر

إذا أردنا أن يكون إيماننا صحيحاً، من الضروري أن نقول إن الله لم تُضَف إليـــه متأخراً خاصيةُ أن يكون آباً، لكنه كان دائماً الآب. لأن غير ذلك - وفق هوس الهراطقة - يُظهر أن تغييراً قد اكتنف طبيعته، الأمر الذي لم يحدث. لأنه إذا كان حسنٌ أن يكون الله آباً، دون أن تكون خاصية الأبوة دائمةٌ فيه، لَكان هذا يعني أن فترةً زمنيةً مرت علـــى الله خلا فيها من هذه الخاصية. وبما أن هذا محض تجديفٍ، إذن فهو كان دائماً آباً؛ لأنه لـــن يكون آباً إن لم يكن الابن موجوداً.

لكن إذا افترض أحدٌ سؤالاً مؤداه: بما أن الله بحسب الطبيعة خالقٌ، فمن الضروري - حتى لا نُضيف خاصية الخلق لله فيما بعد - أن نقول إن المخلوقات كانت توجد دائماً، وبذلك لا يعتقد أحدٌ أن طبيعة الله قد اعتراها تغييرٌ ما. وإذا كنا قد قلنا هذا الكلام عـــن الابن، يمكننا أيضاً أن نقول - والكلام ما يزال للسائل - بطريقة أخرى، إذا كانت الخليقة والخلق أشياء حسنة، إذن فالمخلوقات كانت موجودة دائماً حتى لا يظهر أن الله قد خـــلا من هذا الحسن ذات مرةٍ.

لذا ينبغي علينا أن نجيب على كل هذا بالآتي:

- الابن والمخلوق، كلاهما متباعدان فيما بينهما تماماً، ولا يوجد تساوي بينهما؛ لأن الابن الآتي من الجوهر مباشرةً، يُظهِر الآب الذي ولده. ويمكننا أن نستخدم القياس ذاته فيما يخص البشر، بينما المخلوق يُوجد خارج جوهر الله، وهو يُظهِر الخالق الذي صـــنعه؛ لأن فن الخلق كان يوجد في الله قبل أن توجد المخلوقات. بعكس المخلوق، فالمرء يصـــير أولاً فناناً، ومن ثمَّ يبدأ في الصنع، وعلى ذلك فهناك اختلاف عظيم فيما بينهما.

- الابن يُدرَك في ذات الوقت الذي ننطق فيه اسم الآب، وهو يوجد في نفـــس الوقت معه؛ لأنه للتو عندما يصير حديثٌ عن الابن، مباشرةً، يُدرَك أيضاً الآب، ولا يمكن

أن يُدرَك الواحد بدون الآخر. بينما يمكن للمخلوق أن يظهر بعد وجود الخالق؛ لأنــه لم يأتِ من طبيعة الخالق، بل هو من ابتكار الفن، والفنُ ليس طبيعةً، بل هو أحــد خــواص الطبيعة.

- فإذا كان الأمر على هذا النحو، فكيف للبعض يطابقون المخلــوق والمولــود مُدَّعين أنه يمكن أن يُدعى آبٌ دون أن يكون هناك ابنٌ، تأسيساً على وجود خالق قبل أن توجد المخلوقات. وأن يدعو شخصٌ مَن يملك تقنية صنع الفن آباً دون أن يكون لديه ابنٌ، يتشابه مع من يملك تقنية صنع السفن قبل أن يصنع سفينةً.

- على أنه، إذا كان يصح أن يكون هناك صانعُ سفنٍ قبل أن يصنع سفينةً، لكن لا يكون آباً قبل أن يصير ذاك الذي يمكن بسببه أن يصير آباً. والمخلوقات دون أن تصير لا تلغي إمكانية أن يكون الله خالقاً، أمَّا الابن الذي لم يُولد بعد، فيترع من الشخص صــفة الأبوة. وعلى ذلك لا يتساوى المخلوق والابن، والله خالقٌ - بالتأكيد - بحسب طبيعته قبل أن توجد المخلوقات، لكن الآب لا يكــون بأيــة طريقــة دون أن يوجــد الابــن[1].

([1]) يوضح القديس كيرلس هذه الحقيقة بكل سلاسة في موضع آخر، إذ يقول: "أننا نرى الابن في الآب كما نرى الصورة والأصل، بل أننا نرى الابن مولوداً دائماً مشرقاً من جوهر الآب، وهو فيه، وبه، متميزاً عن الآب لأنه الله **الكلمة**. وأيضاً نرى الآب في الابن، كما هو مولود من الجوهر نفسه، وله الطبيعة الإلهية نفسها، متمّيزاً عنه كأقنوم، لأن الآب يظلّ هو الآب، رغم أنه مثل الابن في الطبيعة، ويشترك معه في ذات الجوهر، وهو في الابن مثل الشمس والشعاع. والابن أيضاً يظلّ هو الابن، رغم أنه مثل الآب في الطبيعة ويشترك معه في ذات الجوهر، وهو في الآب مثل الشعاع في الشمس. وباعتقادنا أن الآب هو الآب بالحق، والابن هو الابن، والروح القدس الذي له مكانه الخاص به معهما كأقنوم يكون الثالوث القدوس هو اللاهوت الواحد نفسه ". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص٧٩.

المقالة الخامسة

الآب لا يوجد قبل الابن؛ لأن الابنَ غيرُ صائرٍ، والابنُ مولودٌ وأزليٌ معه

١- معارضة من أتباع إفنوميوس

إذا كان الآب يوجد دائماً دون بداية ودون أن يُخلق، في حين أن الابن وُلِد، فكيف لا يتحتم بشكل مطلق أن تكون هناك بداية لهذا الذي وُلِد؟

٢- الإجابة

إيُ سببٍ يُحتم على هذا الذي صار أن يكون آتياً من العدم، أو أن يرتبط ببدايةٍ زمنيةٍ، طالما أن الذي وُلِد كان غير صائرٍ؟

لأننا لا نتحدث عن واحد مِنّا، وُلدِ في الزمن وأتى من العدم، حتى تكون له بداية[١]، بل بالحري نتحدث عن الطبيعة الإلهية غير المُدرَكة التي تفعل كل شيء بطريقة لا توصف وتليق بالله. ولذلك تفوق الولادة الإلهية معرفتنا[٢]؛ لأنها لا تتبع النواميس

(١) الابن ليس مثل المخلوقات له بداية زمنية، وهذه الحقيقة قد شرحها القديس كيرلس في نفس السياق أثناء شرحه لنص يو١:١ "في البدء كان الكلمة" إذ يقول: "ومع أن كل بداية لا يمكن أن تكون بلا نهاية لأن البداية تُسمىّ بداءة من زاوية خاصة وهي وجود نهاية لها، وكذلك النهاية تُسمىّ نهاية بسبب وجود بداية لها. هذه البداية خاصة بالزمان والمسافة، ففي الزمان والمسافة البداءة تعني نهاية والعكس. أما بالنسبة للابن فالبدء ليس بدءاً زمنياً ولا جغرافياً، فهو أزليّ وأقدم من كل الدهور، ولم يُولَد من الآب في الزمان لأنه "كان" مع الآب، مثل الماء في الينبوع". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٤٣.

(٢) يؤكد القديس كيرلس في سياق شرحه لنص يو ١٨:١ "الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو خبر" على أن ولادة الابن تفوق إدراك البشر: "وماذا يجب أن نقول عندما نعلّم الآخرين، لأن الإنجيلي القديس يقول عن الابن

البشرية[1]، فبقدر ابتعاد الطبيعة الإلهية عن تلك التي تخصنا أي الطبيعة البشرية، بقدر ما تفوق جداً الأمور الخاصة بها عن تلك التي تخصنا.

إذن ليتهم يتوقفون عن تحجيم ذاك الذي هو أعظم من الاحتياج ويتخطى حدود الزمن؛ لأنه فوق الاحتياج والزمن، إذ يقول موسي الحكيم: "أَهْيَهِ الَّذِي أَهْيَهْ" (خر ٣: ١٤). فأيةُ بدايةٍ زمنيةٍ يمكن أن ينسبها أحدٌ لذاك الذي يُوجد دائماً (وهذا هو معنى الكائن)؟ على الجانب الآخر، أن نصف الابن بخواصٍ تُناقض خواص الآب الوالد، فهذا لا يعني أنك تضفي ميزةً أو تمنح هبةً للابن الذي وُلِد. لأنه كما أن الله يوجد، يوجد أيضاً مَنْ ليس هو الله، وعلى ذلك فالخواص التي تتناقض مع خواص الآب لا يمكن اعتبارها هنا بمثابة هبةٍ أو ميزةٍ أُعطيت من الله لهذا الكائن ليكون ليس هو الله. لكن الله الآب إلهٌ، وهكذا الابن أيضاً إله ، والآب ملكٌ وكذلك الابن[2].

وهكذا يمكننا استخدام ذات القياس بالنسبة لبقية خواص الطبيعة الإلهية مثل: غير الفاسد، وغير المنظور، وغير الجسدي. فإن قيل إنَّ هذه الخواص تتناقض مع الخواص المميِّزة للآب، فهي أيضاً لا يمكن أن توجد - على أية حال - في الابن. كما أن الولادة لا تُقلِّل من جوهر الابن في شيء، حتى لو كان الآب غير صائر. فالابن إذن أزليٌّ معه، دون أن يكون لديه خواصٌ تتناقض مع خواص الآب الطبيعية كما بُرهِن على ذلك.

"إنه في حضن الله الآب"؟ أبناء الكنيسة يعتقدون بكلِّ صواب ويؤكدون أنه من الآب وفي الآب ويكتفون بذلك وهم على حق لأن حقيقة ميلاد الابن من الآب هي فوق الإدراك". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ١٤٤.

(١) هذه هي المشكلة الحقيقية للهراطقة في كل جيل هي إخضاع ولادة الابن من الآب للنواميس البشرية التي يخضع لها البشر، لذلك يظنون أن المسيحية عندما تنادي بأن الآب وَلَدَ الابن فهم يقصدون أنها ولادة تشبه ولادة البشر وهكذا فإنهم يحاربون الإيمان المسيحي بما ليس فيه ولا يعترف به.

(٢) وذلك لأن الابن له نفس خصائص الآب الذي وَلَدَه، كما قال القديس كيرلس في موضع آخر: "لأنه لا يوجد بالمرة ما يمكن أن يفصل طبيعة الابن عن طبيعة الآب. وبنفس الطريقة على ما أعتقد، حتى إن كان الله الآب هو مَن له خاصية عدم الموت، فإن الابن أيضاً له نفس الخاصية في جوهره وهو بالتأكيد عديم الموت بمعنى أن طبيعته غير مائتة ومشرقة ببهاء خصائص طبيعة الذي وَلَدَه". القديس كيرلس الأسكندري، حوار حول الثالوث، الجزء الثاني، ترجمة د. جوزيف موريس فلتس، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية مارس٢٠٠٦، طبعة ثانية، الحوار الثالث ص ٤٦.

٣ــ برهانٌ على أن الأشياء المتعارضة فيما بينها من جهة التسمية، لديها بعض الأشياء المشتركة من طبيعتها.

تبدو الأشياء المتناقضة فيما بينها من جهة التسمية كما لو كانت لا ترتبط فيما بينها من جهة الخواص التي يتصف بها جوهرها. فعلى سبيل المثال يبدو الحيوان متناقضاً مع كل ما ليس بحيوان، في حين أن الحيوان وغير الحيوان يشتركان مثلاً في القابلية للنمو والازدياد، وذلك مثلما يحدث في الحيوان والنبات. ومن هنا نستطيع أن نقول إنه بالرغم من اختلاف المخلوقات فيما بينها، إلاّ أنها يمكن أن تتصف بصفات مشتركة. وإذا كان الأمر على هذا النحو، فما هو السبب الذي يحتّم على الله الآب أن لا يكون على علاقة مشتركة مع الله الابن؟ هل لأن أحدهما غير صائر، والآخر مولود؟ هل لأن إسميهما يعطيان انطباعاً بأنهما على طرفي نقيض؟ فإذا كان الابن مولوداً، والآب ليس هكذا، فإن هذا التمايز لا يُبطل أصالة جوهر الابن[1]. لأن ولادة الابن تعني - فقط - كيفية وجوده دون أن يُؤثر ذلك عليه إطلاقاً من جهة أزليته بأنه كائنٌ أزلياً مع الآب وفيه.

٤- ردٌ آخر: التناقض يُظهر أن الابن هو بلا بداية في الزمن

إذا كان الشيء المولود من المائت والفاسد، شبيهاً بوالده، أي يكون مولوداً فاسداً ومائتاً، فمن الحتمي أن يحدث العكس، فالمولود من غير الصائر وغير الفاسد، يكون أيضاً غير فاسد وغير صائر. وعلى ذلك، يمتلك الابن ذات الطبيعة التي لذاك الذي وَلَدَه. فإذا كان الآب لم يُخلق، هكذا يكون الابن غير مخلوق أيضاً. فإذا كان الأمر على هذا النحو، كيف يقولون على هذا الذي لم يُخلق، إن لديه بداية زمنيةً؟ إذن فهو أزليٌ مع الآب[2].

(١) لأن اسم "آب" وكيانه هما أمران مختصان بذات الله الآب نفسه - وكما يقول القديس كيرلس — السبب الوحيد الذي يميز الله بكونه "آب" هو أنه وَلَدَ الابن وكذلك السبب الوحيد الذي يميز الابن هو أنه وُ لِدَ من الله الآب. حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الأول، الحوار الثاني ص ٧٥.

(٢) يؤكد القديس كيرلس على هذه الحقيقة، متسائلاً: "فإذا اعتبرنا الآب المصدر أو الينبوع، فإن **الكلمة** كان فيه لأنه حكمته وقوّته وصورة جوهره وشعاع مجده. وإذا لم يكن وقت كان الآب فيه بلا حكمة **وكلمة** وصورة وشعاع، فإنه من الواضح أن وجود الابن الذي هو حكمة **وكلمة** وصورة الآب وشعاع بمجده أمر لا يحتاج إلى

٥- ردٌّ آخر بطريقةٍ وصفية

إن الذين يعتقدون أن الله الآب بدأ يلد الابن في الزمن، هم مجدِّفون غير معترفين أن في الله شيئاً أكثر مِنّا وفائقاً عنّا[١]. لأن الإنسان، بما أن له بداية وجود، يلد حتماً في الزمن، والابن المولود منه يكون مثله صائراً ومخلوقاً، بينما الله الخالقُ حقاً لا يلد في الزمن، ولا الابن المولود منه يكون صائراً ومخلوقاً، بل مثلما هو بلا بداية وغير صائر، هكذا أيضاً **الكلمة** الذي أتى من جوهر الآب، يكون بلا بداية وغير صائر مثله مثل الآب أيضاً.

٦- سؤال من أتباع إفنوميوس

هؤلاء الذين يزعمون أن الابن أزليٌّ مع الآب، ليتهم يقولون لنا - هكذا يقول أتباع إفنوميوس - هل توقَّف الآب عن أن يَلد؟ توقف طبعاً، بالتالي الابن له بداية وجوده حين توقف الآب عن أن يلد.

٧- الإجابة على هذا السؤال

بما أن جوهر الله أعظم وأسمى من أي مفهوم للزمن وللبداية[٢]، بالتالي تكون الولادة الإلهية أعظم وأسمى من كل هذا أيضاً. وإذا كانت الطبيعة الإلهية لم تُحرم من

إقرار منا، فهو أزليّ مثل الآب الأزلي، وإلاّ كيف يوصف أنه صورته الكاملة ومثاله التام، إلاّ إذا كان له بوضوح ذات الجمال الذي هو على صورته". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٤٣.

(١) مشكلة الهراطقة تتمثل في أنهم لا يدركون أن الميلاد الأزلي للابن هو فوق الإدراك البشري، حتى أن أحد الأنبياء اندهش من هذا الميلاد، كما يقول القديس كيرلس: " لقد أصابت الدهشة النبي إشعياء عندما قال "وميلاده مَنْ يُخبر به؟ لأن حياته رُفِعَت من الأرض" (إش٥٣:٨). وحقاً لقد رَفَعَ من الأرض تماماً كل آثار الميلاد الأزليّ لأنه يفوق الإدراك. وإذا كان فوق الإدراك فكيف يمكن أن نقول إنه مخلوق، لأننا نقدر أن نحدد بوضوح زمن بداية المخلوقات وكيفيّة وجودها، أما البدء فنحن نعجز عن أن نحدد زمن بدايته ". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٤٣.

(٢) لا ينطبق على الابن المفهوم البشري للبداية والنهاية، ويؤكد على هذه الحقيقة القديس كيرلس، قائلاً في سياق شرحه لنص يو ١:١: " فالبدء الذي يمكن قياسه بالزمان أو المسافات سوف يتعداه الابن، فهو لا يبدأ في زمان أو مكان بل هو بلا حدود فهو بالطبيعة الله ويصرخ أنا هو الحياة (يو ١٤:٦)، ومع أن كل بداية لا يمكن أن تكون بلا نهاية لأن البداية تُسمىّ بداءة من زاوية خاصة وهي وجود نهاية لها، وكذلك النهاية تُسمىّ نهاية بسبب وجود

إمكانية أن تلد، فالحقيقة هي أن الولادة الإلهية تتم خارج الزمن، إذ أن طريقة الولادة الإلهية مختلفة تماماً عن الولادة البشرية. كما أن الوجود والولادة يُدرَكان معاً في الله؛ لأن الابن كائنٌ ومولودٌ منه دون أن تسبق ولادته كينونته، بل مع وجوده دائماً ما توجد ولادته.

٨- ردٌ آخر

الذي تجرَّأ على القول بأن الآب توقف عن أن يلد، سقط في جريمة تجديف لا تُحتمل. لأنه وضع الطبيعة الإلهية في ثلاثة مواقف متغيِّرة، باعتبار أن الولادة في الزمن تعني أن هناك ثلاثة أزمنة. الواحد قبل الولادة. والثاني أثناء الولادة، والثالث بعد الولادة. فإذا كان الله قد بدأ الولادة في الزمن، طالما قد وَلَدَ، فلا بُد أنه توقف عن أن يلد، إذن كيف لم يتغيَّر؟ وكيف يكون هو خالق كل الأزمنة والدهور، وكيف كان بولس يقول الحق حين أكد أن "الكل به وله قد خُلق" (كو ١٦:١)؟ نتساءل هذه الأسئلة طالما أن هناك فترةً زمنيةً تحكم ولادته بحسب هوس محاربي المسيح[١].

بداية لها. هذه البداية خاصة بالزمان والمسافة، ففي الزمان والمسافة البداءة تعني نهاية والعكس. أما بالنسبة للابن فالبدء ليس بدءاً زمنياً ولا جغرافياً، فهو أزليٌ وأقدم من كل الدهور، ولم يُولَد من الآب في الزمان لأنه "كان" مع الآب، مثل الماء في الينبوع". أنظر شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، المرجع السابق، الإصحاح الأول ص٤٣.

(١) ولادة الابن هي أزلية ولا تحكمها أي فترة زمنية لأنها تسمو فوق الزمن فهي دائمة وأزلية ولا يعتريها أي توقف، ويتساءل في حيرة القديس أثناسيوس من طريقة تفكير الهراطقة، قائلاً: "متى إذن، كان الله موجوداً بدون ما هو خاص به ذاتياً؟ أو كيف يظن أحد أن ما هو خاص به ذاتياً إنما هو غريب عنه ومن جوهر مختلف؟ لأن الأشياء الأخرى كمخلوقات ليس لها مشابهة قط مع الخالق حسب الجوهر، بل هي من خارجة، قد خُلِقَت بنعمته ومشيئته **بالكلمة** ولأجل **الكلمة**. ولذلك فإنها يمكن أيضاً أن تتوقف (عن الوجود) يوماً ما، إن أراد الخالق ذلك، لأنه هكذا هي الطبيعة الخاصة بالمخلوقات.أما ما هو من ذات جوهر الآب (وهذا هو الذي سبق أن اعترفنا به أنه هو الابن)، فكيف لا يكون من الجسارة والكفر أن يقول أحد عنه إنه جاء من عدم، وإنه "لم يكن موجوداً قبل أن يولد" بل أُضيف عرضاً، ويمكن ألاّ يكون موجوداً في وقت ما في المستقبل؟ " ضد الأريوسيين، المقالة الأولى، المرجع السابق، فقرة٢٠ ص ٦٩-٧٠.

ومن جهة عدم توقف الولادة الأزلية، يقول القديس أثناسيوس: [كيف إذن لا يكون كافراً من يقول "كان وقت ما عندما لم يكن الابن فيه موجوداً؟ لأن هذا مثل الذي يقول تماماً "كان هناك وقت كان فيه الينبوع جافاً خالياً من الحياة ومن الحكمة". ولكن مثل هذا الينبوع لا يكون ينبوعاً، لأن الذي لا يَلِد من ذاته لا يكون ينبوعاً. يا لكثرة السخافات التي في هذا القول لأن الله يَعِدُ الذين يصنعون مشيئته أنهم سيكونون كينبوع لا تنضب مياهه

٩- ردٌ آخر

بما أن طبيعة الله تفوق الزمن، إذن فهو لا يَلِد في الزمن، ولا يخضع لأي احتياج، لأنه أسمى من الكل. وعلي أية حال، فهو لم يكتسب إمكانية أن يلد، وكأنها لم تكن لديه من قبل، ولا هو أيضا توقف للتو عندما وَلَدَ. على الجانب الآخر، النار تلد من ذاتها الحرارة التي لها بحسب طبيعتها(١)، وكذلك الإنارة، وبالتالي فالحرارة لم تَصِر دون أن تكون هناك حرارة من قبل، ولا توقفت النار عن أن تلد، بل في اللحظة التي خُلقت فيها النار كان لها في ذاتها خواصها الطبيعية (الحرارة والإنارة). فإذا كانت مخلوقات الله تمتلك مثل هذه الطريقة للولادة، فكيف لا يكون تجديفاً أن لا نعترف نحن بخواص طبيعة الله العُظمى التي لها، حتى لو لم يستطِع العقل البشري أن يُدرك هذه الطبيعة السامية؟

١٠- ردٌ آخر

هناك اختلافٌ عظيم بين الذي صار والذي لم يَصِر، وكذلك بين الذي خُلِق مع الذي هو غير مخلوق. يوجد تناقض فيما بينهما. فإذا كان الذي صار من صائرٍ يتبع طبيعته، فيكون صائراً مثله لأنه أخذ وجوده من الصائر، فالعكس يتحتم أن يحدث أيضاً، فيكون

إطلاقاً، كما يقول إشعياء النبي: "وسيشبعك (الرب) كما تشتهى نفسك، وتتشدّد عظامك، وتكون كحديقة مروية جيداً، وكينبوع مياه لا تنضب مياهه" أش ٥٨:١١]. ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الأولى، فقرة ١٩ ص ٦٧ - ٦٨.

(١) يشرح القديس كيرلس في موضع آخر الولادة الأزلية بأمثلة ليقرب لنا مفهومها، إذ يقول: "هل من اعتراض على أن الابن في الآب مثل الماء في الينبوع، أو أن الآب هو الينبوع؟ إن كلمة ينبوع تعني هنا المعيّة. لأن الابن في الآب وهو من الآب، ليس كَمَنْ يأتي من الخارج في الزمان، بل هو من ذات جوهر الآب، يشع مثل الشعاع من الشمس أو صدور الحرارة من النار. هذه الأمثلة تعني أن نرى كيف يُولَد أو يصدر شيء من شيء، وفي نفس الوقت لا يصدر متأخراً أو بعد زمن، أو أن تكون له طبيعة مختلفة بل يصدر الشيء من الشيء ويظّل كائناً معه لا ينفصل عنه، بل لا يمكن لأي منهما أن يوجد بدون الآخر، فلا شمس بلا شعاع ولا شعاع بدون شمس تشعه من داخلها. ولا نار بلا حرارة ولا حرارة إلاّ من نار. فالانفصال يعني أن يفقد الشيئان معاً الطبيعة التي تميزّهما. فكيف تصبح الشمس شمساً بلا أشعة، وكيف تصبح النار ناراً بلا حرارة". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول الإصحاح الأول ص ٤٣ - ٤٤.

المولود من غير الصائر غيرَ صائر أيضاً. وإذا كان الابن قد وُلِد من الآب غير الصائر، فهو إذن غير صائر وأزلي مع ذاك الذي ولده، حافظاً في ذاته خصائص طبيعة الآب[1].

١١- ردٌ معارضٌ من أراء الهراطقة

ولذلك نقول نحن أيضاً إن الابن أزليٌ مع الآب، ليس لأنه يوجد دائماً معه، بل بسبب أن وجود الابن كان مضمراً في طبيعة الآب، وبالتالي يريده.

١٢- الإجابة

لا يزيد هذا الرأي عن كونه ثرثرةً كبيرةً، وبرهاناً واضحاً على الجهل غير المتناهي. لأنه مَنْ هو هذا الشخص الذي ليس واضحاً عنده أن الله كان يريد كل واحد من المخلوقات التي خلقها؟ فقد خلق الخالق كل شيء بإرادته، ولا يوجد شيءٌ لم يكن يريده في كل ما خلقه.

إذا كان الأمر على هذا النحو، فما هو إذن وجه الاختلاف بين الابن والمخلوق والكون والخليقة، إذا كانت إرادة وجود الاثنين معاً: الابن والمخلوقات مضمرةً في الله؟

أليس حسناً أن نعترض على أولئك الذين يؤمنون بهذا الرأي، لأنه عندما يختلف الاثنان (أي الابن والمخلوقات) من جهة الطبيعة يشرعون في وضعهما في مصير متساوٍ لمجرد أنهم يزعمون أن الاثنين كانا يُوجدان في علم الله السابق، ويدَّعون أن **الكلمة** ليس فيه أي شيء أكثر مما في المخلوقات، **الكلمة** الذي أتى من جوهر الآب[2]؟

---

(١) الابن هو صورة الآب، فما لدى الآب من خصائص هي لدى الابن، وقد سبق للقديس أثناسيوس التأكيد على هذه الحقيقة، إذ يقول: "هلم بنا إذن لنرى خصائص الآب بتدقيق لكي ندرك أن الصورة هي صورته الذاتية. **فالآب هو أزلي، غير مائت، قدير، نور، ملك، ضابط الكل، إله، رب، خالق، وصانع.**فإن لم تكن هذه الخصائص موجودة (في الصورة) - كما يظن الأريوسيون - إن الابن مخلوق وليس أزلياً (ففي هذه الحالة) لن تكون هذه هي صورة الآب الحقيقية ". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الأولى، فقرة ٢١ ص ٧١.

(٢) هنا المقارنة تمت بين الابن غير المخلوق والمخلوقات وطالما أن الاثنين خُلِقا بالإرادة – كما يزعم الهراطقة - إذن الاثنان متساويان ،غير المخلوق يتساوى مع المخلوق. وبالتالي فإن الابن لا يتميز عن المخلوقات في أي شيء، الأمر الذي يتناقض مع تعليم الكتاب المقدس.

١٣- ردٌ آخر

لو أن الابن لم يكن موجوداً دائماً مع الآب، و لم يكن قد أتى منه أزلياً بحسب الطبيعة، بل كان قد أخذ وجوده بعد ذلك، أي أن الآب وَلَدَ الابن لكي يصير آباً، إذن فقد حدث فيه تحوُّلٌ وتغيُّر. لأنه حسب رأيكم صار ما لم يكن عليه من قبل. لكننا نقول إن طبيعة الله لا تقبل أي تحوُّلٍ أو تغيُّرٍ. بالتالي لم يحدث أن صار الله آباً متأخراً، بل **الكلمة** الذي أتى منه كان أزلياً معه، مثل الحرارة التي أتت بالولادة من النار، وهي توجد دائماً معها، وكذلك الإنارة من النور تجاه الخارج.

١٤- رأي معارض من جانب الهراطقة

إذا كان الآبُ كاملاً في عظمته، لذلك لا يغيب أيُ شيءٍ من طبيعته، وعلى ذلك يُعدُّ شيئاً زائداً عن الحد اعتبار الابن ملء إلوهيته.

١٥- الإجابة على هذا الرأي

بالطبع، الآب كاملٌ في عظمته ولا يمكن لأحدٍ من هؤلاء الذين يؤمنون إيماناً صحيحاً أن ينكر هذا الأمر. لكنه كاملٌ ليس فقط بسبب أنه الله، بل لأنه هو أيضاً الآب. لأنك لو طرحت جانباً خاصية الآب من الله، فأنك تلغي من الطبيعة الإلهية الخصوبة والإثمار[1]، وعندئذٍ لا يكون كمالٌ فيما بعد، طالما غاب عنها إمكانية أن تلد. إذن،

ويضيف القديس كيرلس أمراً آخراً على هذا البرهان — في حواره حول الثالوث — هو أن الابن هو إرادة الآب، إذ يقول: "ولنؤكد أن الآب لم يكن يوماً محروماً من ابنه، بل الابن كائن دائماً في الآب الأزليّ الذي بلا بداية. وهو لم يكن أبداً أباً للابن رغماً عنه وهذه الإرادة لا تنشأ ولا تظهر أبداً قبل الولادة. ولأن إرادة الآب حكيمة جداً وعاقلة، فلا يجرؤ أحد على أن يدّعى أن إرادة الله غير حكيمة أو غير عاقلة. وهكذا فإن الابن هو حكمة الله الآب وعقله. وهكذا ففي الابن توجد كل إرادة الآب". حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الأول، الحوار الثاني ص ١٢٩ – ١٣٠.

(1) من الغباء و الجهل — كما يقول القديس كيرلس — أن ننسب للطبيعة الإلهية عُقماً وجفافاً، إذ يقول القديس كيرلس في حواره حول الثالوث: " سيكون من الغباء بمكان أن ننسب للطبيعة الخالقة للكون عقماً وجفافاً، أو أنها

فخاصية الكمال تعني الخصوبة والإثمار، والتأكيد على أن الآبَ كاملٌ، وأن الابن الذي أتى منه هو بلا بداية زمنية.

١٦- ردٌ آخر

إن لم توجد الخصوبة والإثمار في جوهر الآب بحسب الطبيعة، وعلى الرغم من ذلك نقول إنه كاملٌ بغير القدرة على الولادة، لَكانت هذه الخصوبة لا لزوم لها فيه، بل تكون قد أتت إليه من الخارج، أو أنه على الأقل كان في حاجةٍ إليها. لكن كيف يكون كاملاً هذا الذي كان في احتياج لشيء؟ وكيف يكون معقولاً إضافة شيء إلى الطبيعة الإلهية من الخارج، كما لو كانت غير كاملة بذاتها؟

إذن، فالخصوبة في الآب خاصيةٌ طبيعية، ولأجل هذا هو كامل، لأنه وَلَدَ دون أن يغيب عنه أي صلاح.

١٧- ردٌ بطريقة وصفية

إذا كان الآب كاملاً في عظمته، حتى دون أن يكون له أي ثمرٍ، وفق آرائكم أيها الهراطقة، فالابن إذن قد صار من الخارج وليس من جوهره مثله في ذلك مثل المخلوقات. وربما كان مجيئه إلى الوجود زائداً ولا لزوم له على الإطلاق، مثل وجود البشر والمخلوقات الأخرى. لأن الله كان كائناً على الدوام قبل أن نُخلق نحن، وعندما خُلقنا ظل كما هو نفسه لم يكتنفه أي تغيير. لأن ما من شيءٍ يمكننا أن نضيفه عليه، عندما نأتي من العدم إلى الوجود، كذلك، فإن عدم وجودنا لا يمكن أن يؤثِّر بالسلب على طبيعته الإلهية. وعلى ذلك، إذا كُنا مدينين بالعرفان للخالق لأجل أنه خلقنا، هكذا يكون على الابن أيضاً أن يعترف له بالعرفان لأجل هذه النعمة. هكذا يكون على الابن أن يتخذ ذات الموقف المماثل

غير مثمرة، وذلك لأن كل الكائنات المخلوقة هي مثمرة وغير عقيمة، وما الثمار التي تأتى منها إلاّ نتيجة لمشابهتها للطبيعة الإلهية في الإثمار وعدم العقم ". حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الأول ص ١١٢.

لنا، طالما أنه أيضاً أتى من الخارج مثلنا[1]. أمَا وإن كان هذا الكلام يُعد قمة التجـــديف، لذلك يجب أن نتجنب هذا الأمر، ونحفظ الإيمان بأن وليد الآب صار من جـــوهره؛ لأنـــه هكذا يُدعى ثمرةُ[2] الآب. وبما أن جوهر الآب غير صائر، هكذا أيضاً يكون الابن الـــذي أتى منه غير صائر.

١٨- رأيٌ معارضٌ من جانب الهراطقة

يقول هذا الرأي: إن كمال الله ليس بسبب خصوبته، بل لأنه حقاً الله، ولـــذلك صار أيضاً آباً.

١٩- الرد على هذا الرأي

حسناً. قولوا لنا أنتم، أنتم الذين لا تتوقفون عن الانزلاق نحو التجديف الشديد: إن كانت خاصية الآب قد حدثت في الله متأخرةً زمنياً، فماذا كان - إذن - قبل أن يصير آباً؟ غير ذلك، عندما تقولون إنه ذات مرةٍ لم يكن الله آباً، فسوف تكونون متناقضين مـــع كل الكتب المقدسة، لأن هذه الكتب لا تعرف الله دون أن يكون آباً، وبناء علـــى ذلـــك

(١) هناك أيضاً نتائج خلاصية نفقدها نحن البشر لو كان الابن مجرد مخلوق كما يقول الهراطقة، إذ يقول القديس كيرلس في موضع آخر: "ولقد كان من المستحيل أن يوجد أبناء بالتبني لو لم يكن الابن الوحيد بالطبيعة كائناً من قبل، كما أنه كان من المستحيل أن توجد ولادة على صورة الأصل لو لم تكن ولادته هي الأصل والمصدر. فإذا كان الآب لم يَلِد بالحقيقة وإذا كانت الولادة بالنسبة له هي نوع من الخلق ولا تتميّز عنه، إذن يصير الحديث عن الابن الوحيد عبثا وتبدو لنا طبيعة الآب كأنها طبيعة عقيمة، وينتهي رجاء أولئك الذين آمنوا ويصير كأمر تافه، فأين إذن التبني؟ وأين الكرامة التي نناها منه والتي تنقل كائن من حالة إلى حالة أفضل بين المخلوقات إذا كان المخلوق يتساوى في القيمة – حسب رأيهم – مع المولود؟ وهكذا فإنهم يخلطون الخلق والولادة معتبرين كليهما حقيقة واحدة، وهذا أمر يدعو إلى الخجل الشديد". حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٠٨.

(٢) "ثمرة الآب" تعبير يستخدمه القديس كيرلس وكذلك من قبله القديس أثناسيوس للتأكيد على أن الابن هو من طبيعة الآب ذاتها، وأحيانا يستخدم القديس كيرلس تعبيراً مشابهاً هو "نبت الحياة" ليصف الابن ليؤكد على أنه من نفس طبيعة الآب، أنظر حوار حول الثالوث، ترجمة د. جوزيف موريس فلتس، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، القاهرة ٢٠٠٨ الجزء الثالث، الحوار الرابع ص ١٢.

عليكم أن تقبلوا أن خاصية الآب توجد دائماً في الله، وبالتالي يتحتم عليكم أن تنسبوا له مَنْ قد أتى منه. فلا يمكن أن يُقال آبٌ، دون أن يوجد ابنٌ[1].

٢٠- ردٌ آخر

إن كان محاربو المسيح يعتقدون أنهم يُسْدُون صنيعاً عظيماً لله، بعدم اعترافهم بأنه آبٌ من البداية، بل هم يقبلونه على أنه الله، فليتَهم يسمعون أنهم يهينونه كثيراً حارمين الطبيعة الإلهية من أمر قيِّمٍ جداً. لأن اسم الله يتعلّق بالعبيد (فهو الرب والسيد لهم) الذين لديهم جوهرٌ مخلوق، بينما اسم الآب يتعلّق بالابن. فقد قالوا إنه كان الله من البداية، ولكن لم يكن آباً، ناسبين لله هذه العلاقة فقط مع العبيد وحارمينه من الأعظم، أي أن يكون آباً، إذ هو آبٌ للذي ولده، وهو يختلف كثيراً جداً بقدر ما يختلف الابن عن المخلوق. على الجانب الآخر، فقد قيل: "نَحْن شَعْبه وَغَنَم مَرْعَاه" (مز ١٠٠: ٣)، بينما عن الابن: "الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً للهِ" (فيلبي ٢: ٦)، وأيضاً للابن قال: "اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي" (مز ١١٠: ١). حسناً. لا شك أن كمَّ الاختلاف بين المخلوق والابن، يتضح لنا من هذه الأمور.

---

(١) يؤكد القديس كيرلس على أهمية الأسماء التي لها علاقة مع أسماء أخرى لمجرد نطق أي اسم منهما، إذ يقول في حواره حول الثالوث: "إن الأسماء التي تدلّ على علاقة، تُشير أيضاً إلى طرفي هذه العلاقة لأن المعنى يشمل كل منهما. هكذا سيكون من السهل على المرء وهو يعرف معنى اليمين- على سبيل المثال هو أن يعرف من خلاله معنى اليسار وسيوافق المرء أيضاً أن العكس صحيح. فالاسم "آب" إذن هو من الأسماء التي تدلّ على علاقة مع آخر، كما أن الاسم "ابن" يدلّ على نفس العلاقة. وبالتالي فإلى أي شيء تدل الأسماء "الآب"، "الابن" وإلى أي علاقة تُشير، وعند استخدامها هل يخرج الحديث عمّا يليق؟ " ويستمر القديس كيرلس في الحديث، قائلاً: " إذن لنسمع المسيح نفسه وهو يصرخ قائلاً: "لَسْتُمْ تَعْرِفُونَنِي أَنَا وَلاَ أَبِي. لَوْ عَرَفْتُمُونِي لَعَرَفْتُمْ أَبِي أَيْضاً". وعندما سألوا عن سبب توبيخهم أجابهم قائلاً "إن من ينكر الآب ينكر الابن أيضاً ومن ينكر الابن لن يقبل الآب أيضاً. وبالطبع فإنه محق في قوله هذا. لأنه إن لم يكن هناك آب قد وَلَدَ حسب الطبيعة، فإن أحد لن يقبل أن يكون هناك ابن مولود، ولا حتى آب، وهذه طريقة تفكير غير منطقية. لأن الآب يدعي أباً لأنه وَلَدَ. وبالتالي هو قول حق أن الأسمين أب وابن يُشيران إلى الاثنين وعندما يوجد الواحد، يوجد بالضرورة الآخر وهذا هو السبب فيما يُقال عن كينونة كل منهما". القديس كيرلس السكندري، حوار حول الثالوث، الجزء الرابع، ترجمة د. جوزيف موريس فلتس، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية مايو ٢٠١٠، الحوار الرابع ص ١٥ - ١٧.

٢١- ردٌ آخر

إذا كان اسم الآب يُستخدم في العلاقة مع الابن، هكذا أيضاً يُستخدم اسم الله في العلاقة مع العبيد الذين ليس لهم نفس طبيعته، بالتالي من الضروري أن نُدرك **الكلمة** المولود وفي نفس الوقت أيضاً الله الآب. لأن غير ذلك، لو كان الله قد صار آباً في لحظةٍ زمنية ما، فالابن أيضاً يكون قد صار متأخراً زمنياً، وعندئذٍ يكون الابن قد صار أيضاً إلهاً في لحظةٍ زمنيةٍ ما، هي اللحظة التي أتت فيها كل الموجودات إلى الوجود بواسطة **الكلمة** الابن. لكن بما أن كل المخلوقات صارت بعد الابن؛ (لأن الكل صار بواسطته)، إذن ذاك الذي وَلَدَ الابن ينبغي أن يكون لديه خاصية الآب قبل أن يكون إلهاً خالقاً؛ لأنه قد بُرهن أن الخليقة صارت بعد الابن، الذي هو الله، وفي علاقةٍ مع الخليقة، تُدرَك إلوهيته.

٢٢- ردٌ آخر: يتناسب بالأكثر أن يُدعى الله آباً عن أن يُدعى فقط الله

إن كان اسم الآب ليس أساسياً وأكثر جدارة من اسم الله، فما السبب الذي لم يجعل المخلص يوصي تلاميذه عندما أرسلهم ليعمدوا، أن يعمدوا الأمم في اسم الله والابن والروح القدس، بل مُعلِناً المكانة الحقيقية لطبيعته الإلهية، قال: "بِاسْمِ الآب وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ" (متى ٢٨: ١٩)؟

وعندما سأل فيلبس المخلّص عن الطبيعة الإلهية، قال له: "يَا سَيِّدُ، أَرِنَا الآبَ وَكَفَانَا" (يو ١٤: ٨). أرأيت أيضاً هنا أن فيلبس لا يدعوه الله، بل الآب؟ أيضاً المخلص نفسه يقول له: "أَنَا مَعَكُمْ زَمَاناً هذِهِ مُدَّتُهُ وَلَمْ تَعْرِفْنِي يَا فِيلُبُّسُ، اَلّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ" (يو ١٤: ٩). وأيضاً لم يقل: "فقد رأى الله"، بل "الآب"، ناسباً له ما هو أعظم وليس ما هو أدنى. لأنه عندما يُدعى الله آباً، يكون قد دُعيَ من الأعظم والأجدر جداً، أي من الابن، بينما عندما يُدعى الله، فإنه يُدعى هكذا من المخلوقات، الأمر الذي يُعد أدنى كثيراً جداً بقدر الاختلاف العظيم بين العبد والرب، بين الخالق والمخلوق.

٢٣- ردٌ آخر ببرهان واضح، أنه أولاً هو آبٌ، وبعد ذلك هو الله، بالرغم من أنه هو الاثنان معاً في نفس الوقت.

عندما أكمل المخلص خطة التدبير الإلهي، صعد بعد الصلب إلى السموات وقال لتلاميذه: "إِنِّي أَصْعَدُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ وَإِلهِي وَإِلهِكُمْ" (يو ٢٠: ١٧).

هل لاحظت اختلاف الأسماء في هذا الشاهد؟ أرأيت أن **الآب** يُدرَك في علاقته مع الابن، و**الله** في علاقته مع العبيد والمخلوقات؟ فإذا كانت المخلوقات قد أتت تالية لولادة الابن، إذن، فاسم الآب قد أتى أولاً، وتبعه في نفس الوقت اسم الله أيضاً.

وسوف يتبرهن هنا بدقة عظيمة أهمية هذا المعنى: لأنه منح لنا المكانة التي يملكها بحسب الطبيعة، بسبب محبته العظيمة لنا نحن البشر، وأضاف: "وَأَبِيكُمْ"؛ لأننا قد دُعينا إلى التبني من خلاله، وصار أبانا بحسب النعمة، بينما هو أبوه بحسب الطبيعة، آخذاً كل ما يخصّنا في ذاته، إذ صار في هيئة العبد حاملاً الخواص الطبيعية للعبيد، وقال: "إِلهِي وَإِلهِكُمْ". هكذا، الله هو آبٌ له بحسب الطبيعة، بينما هو إلهنا. ولأننا خُلقنا بواسطة الابن - كما قلت من قبل - لذا، فهو أولاً آب، وبعد ذلك الله، بالرغم من أنه في نفس الوقت الاثنان معاً.

٢٤- اعتراض مِن اعتراضات إفنوميوس

يقول: ونحن نعترف أن الابن أزليٌ مع الآب، طالما أن الآب لديه في داخله القدرة على أن يلد أيضاً قبل أن يلدِه.

٢٥- الإجابة

إنْ كانت إمكانية الولادة في الآب هي التي تجعل الابن أزلياً معه، وليس كون الابن في معيته مولوداً، فما الذي يمنعنا من أن نقول – على ذات القياس -: إنْ كانت إمكانية الخلق توجد في الله، إذن فالمخلوقات التي خلقها تكون أزليةً أيضاً معه؟ لأنه إن كانت القدرة فقط هي التي تؤدي إلى النتيجة حقاً، فالمخلوقات إذن كانت موجودة أيضاً

قبل أن تُخلق. لكن بما أن هذا الرأي هو السُخفُ بعينه، لأن إمكانية الخلق في الله لا تعني أن الأشياء قد صارت، فهكذا بالمثل، لا تعني إمكانية الولادة في الآب، وجود الابن قبل أن يُولد، لكنه وُلِد منه بحسب الطبيعة، وهو في نفس الوقت أيضاً أزليٌ[1] مثل الحرارة من النار، أو الرائحة من الورد.

٢٦- ردّ آخر

إن قدرة الآب على الولادة لا تتضمن حدوث فعل الولادة ذاته. لأنه عندما يلد يكون الفعل قد تمّ. وعلى ذلك فإن إمكانية الولادة في الآب لا تعني وجود الابن، لكن أن يكونَ الله آباً، يُدرَك مِن الذي أتى منه (أي الابن)، فلأجل هذا هو آبٌ. وطالما هو آبٌ وإلهٌ في نفس الوقت، فهو يلد في نفس الوقت الابن الذي هو موجود وجوداً مشتركاً مع أزلية الآب، وبذلك تظل خاصية أنه الآب محفوظةً في هذا الذي ولده.

٢٧- اعتراض آخر من اعتراضات إفنوميوس

يقول: لو كان الابن - بحسب رأيكم الذي يزعم أنكم تؤمنون إيماناً صحيحاً - أزلياً مع الآب، لَما كان على الآب أن يأتي فعلاً من شأنه أن يلده، لأن ذلك يعني أنه كان دائماً عاطلاً (بلا عمل)، وإلاّ كيف إذن وُلِد؟ أمَّا إذا كان قد وَلَدَ بالفعل، فلا بُد لهذا الذي وُلِد أن يكون له بدايةٌ ما لوجوده.

---

(١) التأكيد على أزلية الابن هي عقيدة أساسية في إيماننا بالثالوث القدوس، والقديس كيرلس في شرحه لنص يو ١:١ "وكان الكلمة الله " يؤكد على هذه الحقيقة، قائلاً: "ليس فقط أن "**الكلمة عند الله**" بل "**وكان الكلمة الله**" لكي يعلن وجوده مع الله وتمايزه عن الآب وإنه أقنوم آخر غير أقنوم الآب، ولكن في نفس الوقت هو الله، ومن الجوهر نفسه الذي للآب، وهو منه بالطبيعة لأنه إله من إله. لأنه من غير المعقول أن يكون اللاهوت واحداً ولا يكون هناك تماثل تام في الصفات الإلهية بين الأقانيم أو أن تكون الأقانيم متساوية، لذلك يقول عن الابن إنه "كان الله"، ولم يصبح كذلك في وقت معين، بل كان دائماً وأزليّاً الله، لأن ما يحدث في الزمان أو ما لا وجود أزليّ له، ثم يوجد بعد ذلك، لا يكون إلهاً بالطبيعة". شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٥٢.

٢٨- الإجابة

لو كان الحديثُ عن مخلوقٍ من المخلوقات، أمثالكم، لحسُنَ ما تفعلون، إذ تعتبرون الله عاملاً وليس والداً. لكننا لا نعترف أن عملاً ما صار من الآب للابن؛ (لأننا نقول إنه وُلِد من جوهره ولم يَصِر بطريقة خارجية). فكيف لا تجدِّفون بكل وضوح حين تقولون إن الآب عمل عملاً كان من شأنه ولادة الابن، في الوقت الذي لا يحكم فيه هذا الناموس حتى ولادتنا؛ لأننا نصنع الأشياء الخارجة عنَّا، بينما التي تأتي مِنّا، نلدها. وبما أن الابن ليس صناعة الآب، بل بالحري هو ثمرة الآب الأزلي، فمولود الآب - إذن - يحمل أصالة الآب الذي وَلَدَه، ولذلك فهو حقاً أزليٌّ مثل ذاك أيضاً.

٢٩- ردٌ آخر

لكي لا نعطي انطباعاً بأننا أناسٌ نعشق المحاربات الكلامية، سوف نتفق مع هؤلاء الذين يحاربون المسيح، الذين يقولون إن ولادة الابن هي عملٌ فعليٌّ. ولأن الآب لم يَلد عن هوى (ألم)، وكانت ولادة الابن عملاً فعلياً، إلاَّ أنها أيضاً عمل طبيعي وجوهري وغير منفصل عن أقنومه. إذن من الضروري، حتى لو كان الآب قد وَلَد الابن بعملٍ فعلي، أن يكون الابن - على أية حال - أيضاً أزلياً معه. لأننا قلنا سابقاً إن خاصية أن يَلَد غير منفصلة عن أقنومه، وطالما أن أقنومه كائن دائماً، ينبغي أن يكون الآتي من أقنومه هو ثمرة الطبيعة. إذن كيف لا يكون الابنُ أزلياً؟

٣٠- ردٌ آخر

يمكننا أن نرى أن كل الخلائق التي خلقها الله، لديها إمكانية أن تلد بالانفصال؛ (لأن هذا هو الناموس الذي يحكم الأجساد)، وعندما تصل إلى عُمرٍ مناسبٍ، يمكنها أيضاً تفعيل القدرة على الولادة، وذلك كما يحدث مع الإنسان، والحصان، والنبات. فهذه المخلوقات عندما تكون صغيرةً، لا يمكنها أن تَلِد، لكن عندما يكتمل نموها يمكنها ذلك. إذن، ما الذي يعيق جوهر الآب الذي هو كاملٌ عن أن يَلِد هذا الذي أتى منه خارج الزمن

في الأزلية معه؟ لأنه ما من أحدٍ يمكنه بالطبع أن يقول إن جوهر الآب اكتسب الكمال داخل الزمن، طالما هو دائماً غير متغير ولا احتياج لديه للإضافة، ولا يمكن أن يعتريه نقص. لكن كان لهم مِن باب أولى أن يعتريهم الشك إن لم يكن الابن الذي أتى من الله، هو بلا بداية معه، لا أن يسألوا عن النقيض: متى وُلِد الابن؟ لأنه بالنسبة للآب الذي هو دائمُ الكمال، يليق جداً أن يَلِد بلا زمن.

٣١- ردٌ آخر

الذين يسألون بنية الإثارة قائلين: متى وَلَدَ الآبُ الابنَ؟ يمكن للمرء بدوره أن يسألهم: متى بدأت النار تحرق؟

لا يمكنهم أن يحددوا بدايةً؛ لأن خاصية الحرق وُجِدَت في النار وقت أن خُلقت. إذن، بما أن هذه المخلوقات تحتوي على خواصها في نفس الوقت التي يكون الله قد خلقها فيها، فما الذي يُعيقنا عن أن نعترف بأن الآب هو أعظم من مخلوقاته، وأن الابن كائنٌ معه في نفس الوقت، الابن المولود منه؟

المقالة السادسة

الآب وَلَدَ الابن دون أن يعتريه تجزئة أو تغيير

١- رأي معارض من أتباع إفنوميوس

وكيف لا يكون من الضروري أن نعترف بأن جوهر الآب قد لحقه النقص طالما أن الابن الذي أتى منه، كان بمثابة جزء منه؟ لكن لو أردتم أن تحفظوا خاصية عدم التغيُّر التي للآب، وأن يكون فوق أي نقص، ينبغي أن لا تتوقفوا عن الإيمان بأنه لا يمكن أن يكون الابن جزءً من جوهر أبيه، ولا أنه أتى منه، لكن من الخارج، وأنه يوجد وجوداً مشترَكاً مع الآب فقط كإمكانيةٍ كانت موجودةً في إرادته.

٢- الرد

يا صديقي، أضبط نفسك واعلُ بفكرك فوق الأجساد والأوجاع الجسدية، طالما أنت تتحدث عن الله[1]. لأنك إذا ظننت أن الله يصير مثل الإنسان، وينقص جرَّاء سريان جزء منه تجاه الخارج، وأن هذا يسبب له ضرراً ما كالنقص مثلاً باعتبار أن الابن الذي أتى

---

[1] يبرز القديس كيرلس في كتاب آخر الفرق الشاسع بين الولادة الإلهية والولادة الجسدية، إذ يقول: "أكرّر أن غير الجسدي لا يتبع في ولادته قوانين الجسد، وهو في ولادته يلد حسب طبيعته وليس حسب طبيعة الأجساد. فالأجساد البشريّة هي بالضرورة سابقه على ما تلده. والمنطق يُظهر ذلك بطريقة حاسمة وبدون مراوغة، فهي تتميّز بأنها أقدَم من مولودها، لأن المولود يُعتبر الثاني في الزمن والوالد هو الأول. فالكائنات هي التي تلد عادة، في زمن معيّن، وذلك لأنها لا تملك في ذاتها ولادة أزليّة بلا بداية، أما الله الذي هو كائن منذ الأزل بلا بداية ولا نهاية، فكيف يتفق مع طبيعته أن ننسب لابنه الوحيد بالطبيعة، بدايةً في الزمن؟ فالذي يلده الله بحسب قوانين طبيعته سيكون ذا طبيعة وجنس مختلفين عن البشر، لأنه يحمل طبيعة الذي وَلَدَه، وإلاّ تحوّل الأمر إلى مسخ وتشويه للمولود". حوار حول الثالوث القدوس، المرجع السابق، الجزء الأول، الحوار الثاني ص ١٢٢.

منه هو جزءٌ منه، فما الذي يمنعنا من أن نلمس ذات التجديف بشأن كل الخواص الأخرى التي توجد فيه؟ لأنه إذا كان يلد مثل الإنسان بالتدفق وفقدان جزء منه، فسوف يخلق أيضاً مثل الإنسان بجهدٍ وتعب.

طبعاً لا يخفى ما في ذلك من سخفٍ (لأن الله لا يخلق مثل الإنسان)، كما أنه لا يلد مثل الإنسان، بل يعلو فوق الطبيعة البشرية ويلد دون أن يتجزَّأ.

٣- ردٌ آخر

بما أن الله - حسب رأيكم - يلد مثل الإنسان، إذن فسوف يعمل وكأنه إنسانٌ. ونحن حين نعمل شيئاً من الأشياء التي نريد أن نصنعها، نعملها باستخدام حركة الأيدي والمادة الموجودة لدينا، هكذا أيضاً الله - في نظركم - لكننا نقول، طالما أن الله يُحضِر كل شيء إلى الوجود من العدم دون أيدٍ ودون مادةٍ موجودةٍ مُسبقاً، بل **بالكلمة** يعمل كل شيء، إذن فهو يتفوق على الطبيعة البشرية، ويتفوق عليها أيضاً في الطريقة التي يلد بها.

٤- ردٌ آخر

إذا كانت القوة المادية التي تحجز وتمسك أشياءً ما، على أية حال، تُوضع حتماً حول تلك الأشياء المطلوب ضبطها، وتحيط بها دائرياً؛ لأن هذا هو ملمح من ملامح الأجساد، فكيف إذن يضبط الله غير الجسدي كل الأشياء، في حين أنه لا يمكن أن يُدرَك ولا في أي مكان؟ نقول: هو يضبط وحِدة الأشياء وقوامها؛ لأنه هو الله الذي هو فوق كل الأشياء. بالتالي، فهو لا يخضع لنواميس الجسد، ولا يلد مثل جسد الإنسان.

٥- ردٌ آخر

طبقاً للمفهوم المادي يتحتم على هذا الذي يُوجد في الكل ويجتاز داخل الكل، أن يكون متغلغلاً ومنسوجاً في الكل؛ لأنه هكذا فقط يمكن أن يُوجد في الكل. لكن بالنسبة لله، فنحن لا نقبل أن يختلط جوهر الله مع أجساد العالم المتنوعة، لكنه يظل نقياً، ويكون في

شركة مع الأجساد دون أن يختلط مع آخر؛ لأنه يجتاز داخل الكل بطريقة عجيبة وغير موصوفة. بالتالي هو لا يخضع لاحتياجات الأجساد. ولذلك فهو لا يلد وفق طبيعة الأجساد.

٦- ردٌ آخر

بالرغم من أن الله بسيطٌ في طبيعته وغير مُركَّب، إلاَّ أن أفعاله كثيرةٌ ومتنوعةٌ[١]، صانعاً أنواعاً كثيرةً من المخلوقات. وبالرغم من أنه يعمل بطريقة مختلفة في كل واحدٍ من المخلوقات، إلاَّ أن ذلك لا يؤثِّر إطلاقاً في كونه بسيطٌ، لأنه ليس مثل الأجساد، وبالتالي عندما يلد، فهو أسمى من الأجساد.

٧- اعتراض من اعتراضات إفنوميوس

إذا أردتم أن تقولوا إن الابن يأتي من جوهر الآب، فعليكم أن تعترفوا – لكي يظهر أنه يأتي منه – بأن الابن كان يوجد داخل الآب.

---

(١) كون أن الله بسيط، هو موضوع صلاة الكنيسة، إذ يصلي الكاهن القبطي أثناء حلول الروح القدس في القداس الغريغوري صلاة إلى الروح القدس، قائلاً: "البسيط في طبيعته، الكثير الأنواع في فعله" الخولاجي المقدس، جمع وترتيب المتنيح القمص عبد المسيح صليب المسعودي البرموسي، دير السيدة العذراء برموس ص ٤٦٧.
ويتساءل القديس كيرلس في موضع آخر، قائلاً: "إن كان الجوهر بسيط، فكيف لا تكون أفعاله متنوّعة، الأمر الذي ينكره أولئك الناس؟ فالله يعمل بطرق متنوّعة مع أنه بسيط في طبيعته. لابد من الاعتراف بذلك يا إرميا فهذا هو المنطق السليم. أليس من المنطقي أن نقبل بساطة الطبيعة في الله وفى نفس الوقت لا ننشغل كثيراً بما يفعله، لأن الله وحده يعلم كيف يعمل بطرق متنوعة. لأن أمور الله تفوق كل عقل وكل كلام". أنظر حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الأول، الحوار الثاني ص ١١٢.
كذلك حين يشرح القديس كيرلس جمال منارة خيمة الاجتماع يؤكد على جوهر الابن البسيط وأفعاله العديدة، قائلاً: "هذه الخراطة الواحدة للمنارة، بالمنظر المدهش، أي الذي يليق بالله، أظهرت لنا عمانوئيل بشكل ممتاز. وعلى اليمين واليسار كفروع تنبت من شجرة وترتفع بعامود في المنتصف، وهذا الارتفاع – كما يقول – متساوٍ في الدرجة؛ لأنه المونوجينيس. (الابن الوحيد) الذي هو واحد بطبيعته وبسيط في جوهره كإله، ويظهر أيضاً أنه متعدد من جهة أفعاله". السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء الخامس، المرجع السابق، المقالة التاسعة ص ٧٣.

وبما أن الآب ولَدَ الابن، وتوقف بعد ذلك عن أن يلد أي أحد آخر (لأنه هو وحيد الجنس)، يتحتم عليكم إذن أن تقولوا إنه فَقَدَ القدرة على الولادة، وإن جزءً منه قد نَقُص بولادة الابن مرةً واحدةً، و لم يعد فيه مثلما كان مِن قبل.

٨- الإجابة

ألا تخجل ناسباً أيضاً خواص الأجساد إلى طبيعة الله؟

لأنه ليس من الصواب أن تفكروا في أن الابن موجودٌ في الآب مثل جسد في داخل جسد[١]، ولا هو من اللائق أن تؤمنوا بأن الذي وُلِد من الله يُحتوى في أحشاءٍ كالتي تلد مثل ولادتنا. لأن المرء لا يصل إلى هذه الدرجة من الوقاحة التي يُنزِل فيها جوهر الله غير الموصوف إلى مستوى الأجساد التعيسة، وبالتالي لا يعيقنا شيءٌ عن أن نقول إن الآب لم يلد، طالما أن الولادة تليق بالأكثر بالأم عن الرجل؟

لكننا نقول: بما أن الله ليس هو بجسدٍ، ولا يخضع لتنوع الأجساد كما في البشر (الذكر والأنثى)، إذ هو بسيطٌ وغير جسدي، ومن حيث العقل أكثر نقاءً من الكل، فعلى الذين يريدون فهم كيف يلد الآب[٢]، أن يطلبوا الثمار التي تأتي من العقل، فولادة العقل

---

(١) يشرح أيضاً القديس كيرلس هذا الأمر في سياق أثبات إلوهية الابن في شرحه لنص يو١:١: "لقد قال المخلّص إنه في الآب، والآب فيه. وواضح لكلٍّ واحد، أن هذا لا يعني وجود جسد في جسد آخر، أو وعاء في وعاء، وإنما الصواب أن الواحد يُعلن الآخر. لأن كل منهما في الآخر في الجوهر نفسه غير المتغّير وله ذات الطبيعة الإلهية الواحدة غير المتغّيرة، ولعل أقرب تشبيه هو أن يشاهد إنسان وجهه في مرآة ويندهش من التطابق التام لدرجة أنه يقول: "أنا في هذه الصورة وهذه الصورة فيّ" أو مثلما تقول حلاوة العسل حينما توضع على اللسان "الحلاوة في العسل والعسل فيّ" أو مثل الحرارة الصادرة من النار كما لو كانت تقول "أنا في النار والنار فيّ". وكل هذه الأمثلة توضّح لنا التمايز العقلي بين اثنين، ولكن في الوقت نفسه فإن هذه الأمثلة توضّح وحدة الطبيعة، حتى أن في الأمثلة التي ذكرناها يكون كل واحد في الآخر دون انقطاع، ودون انفصال". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، الجزء الأول، الإصحاح الأول ص ٦٢.

(٢) يضطر القديس كيرلس الإجابة على سؤال: كيف يلد الآب ؟ وفي الأساس هو يرى أننا لابُد أن نؤمن بما جاء في الكتاب المقدس، إذ يقول في موضع آخر: "العقل لا يستطيع أن يدرك مَنْ هو فوق العقل، ومَنْ هو فوق الكلام، لا يمكن شرحه بالكلام. فالله آب وقد وَلَد الابن بالحقيقة من جوهره الخاص، وهذا تسلّمناه بالإيمان؛ والكتب المقدّسة الموحى بها من الله تذكر في كل مكان، الله الآب وأنه وَلَدَ". حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الأول، الحوار الثاني ص ١١٣.

تتماثل مع ولادة الآب **للكلمة**، وعليهم أيضاً ألاَّ يقولوا إن الله مُجـدِبٌ؛ لأنـه لا يلـد كجسد. فنحن نعترف بأن العقل البشري يَلدُ أفكاراً صالحةً، كما قال المخلص: "اَلإِنْسَانُ الصَّالِحُ مِنَ الْكَنْزِ الصَّالِحِ فِي الْقَلْبِ يُخْرِجُ الصَّالِحَاتِ" (مت ١٢: ٣٥).

لأنه إذا كان الرب هو من قال ذلك، وكان عمل العقل معروفاً لدى الكافة، أفلا يُعد تجديفاً أن نقول إن العقل البشري لا ثمر لديه؟ وكم بالحري يكون الأمـر إن قلنـا إن العقل الأعظم من الكل هو أيضاً بلا ثمرٍ، ونحرمه من الإثمار الذي يليق به؟

وحتى حين يقرُّون بأنه يلد، تجدهم يقصدون إخضاع الله للاحتياجات الجسدية، وهكذا هو - في نظرهم - يلد كجسد، في الوقت الذي حتى العقل الذي يُوجد فينـا لا يلـد وفق ناموس الأجساد. فكيف لا يستطيع الله - الذي هو أسمى من الكل ويتفوق على الكل - أن يلد ولادةً تفوق العقل، دون أن يكابد - مثل البشر - طرد أو تدفق جزء مـا كان يوجد فيه من قبل، لكن الابن يأتي منه كشعاع دون أن يكابد أي تجزئة، وفق طريقة الولادة الإلهية الفائقة وغير الموصوفة؟

٩- ردٌ آخر

إذا تشابه شيءٌ ما مع نموذجٍ أصيلٍ له، فلا شك في أنه يكون أدنى من الأصـل، ويأتي في المرتبة الثانية من حيث بهاء الأصل. هكذا تحمل الطبيعة المخلوقة الثمار من قِبـل النعمة الإلهية على مثال الطبيعة الإلهية التي هي مثمرة حقاً. لكن يغيب عن الطبيعة المخلوقة الطريقة التي تلد بها الطبيعة الإلهية[1]، بالرغم من أن الطبيعة المخلوقة تلد، وإنْ لـيس مثـل

([1]) مشكلة الهراطقة هي الخلط الدائم بين ما يتعلق بالله وما يخص البشر، فهم يفهمون ولادة الآب على أنها مثل ولادة البشر، ويشرح القديس كيرلس هذا الأمر في حواره حول الثالوث، إذ يقول: "والحقيقة أن الولادة بالجسد خاضعة للتغيّر والتمزّق، ولكن غير الجسدي لا يلد بهذه الطريقة. فكما أنه كائن بطريقة تختلف عن طريقة وجود الكائنات الجسديّة، هكذا أيضاً لابد وأن تكون طريقة ولادته تناسب طبيعته. فكل كائن - حسب رأيي - لا يخضع لقوانين الكائنات الأخرى ولكن له قوانينه الخاصة. فالوجود أمر مشترك بين جميع الكائنات إلاّ أن الطبيعة الخاصة بكل كائن تُعطِي لكل منها فرادته التي تحفظه من الذوبان في باقي الكائنات. فالأجساد تخضع بالطبع لقوانين وعادات الأجساد، وتلد أيضاً حسب قوانينها وتتعرّض للتغيّر. ولكن غير الجسدي بدوره له قوانينه

الطبيعة الإلهية التي هي الأصل. وبما أن هذا الكلام صحيح، إذن فالله يلد، لكن ليس مثل الطبيعة المخلوقة التي بحسب النعمة أخذت أيضاً هذا التماثل، بل وفق الطريقة التي تتخطى وتفوق كل المخلوقات الصائرة.

١٠- سؤالٌ من إفنوميوس

الآب ولد الابن من ذاته، مثلما تقولون أنتم الذين تتفاخرون باستقامة عقائدكم، لكن لاحظوا أن الآب كان كاملاً قبل ولادة الابن، لكن عند ولادته له قُسِّم إلى اثنين، فهل يمكن أن يكون مازال كاملاً إلاَّ لو كان قد حدث ازديادٌ لجوهره مُكمِّلاً بطريقة ما، الجزء الذي خرج منه؟ أوليس من الحتمي أن يصير أصغر مما كان عليه قبل القطع، هذا الذي قُطِع إلى اثنين، إلاَّ إذا لحقه مباشرةً زيادةٌ ما، وأُضيفَ عليه لكي يحل محل الذي قُطع منه؟ فإن كان شيءٌ من مثل هذا لا يمكن أن يحدث للطبيعة الإلهية، إذن فالآب لم يلد الابن من ذاته، وإلاَّ لَظَهَرَ منقسماً، ولكنه خلقه شبيهاً في كل شيء مع ذاته.

١١- الإجابة

يمكن للمرء أن يرى بسهولة أن محاربي المسيح يعانون من غيابٍ شديدٍ للعقل. لأنهم حقاً يضلون إذ لا يعرفون الكتب المقدسة ولا قوة الله (أنظر مت ٢٢: ٢٩).

كيف يمكن للذي أتى إلى الوجود من العدم أن يكون شبيهاً في كل شيء مع الله الآب غير المخلوق والأبدي؟ لأنه طالما أتى إلى الوجود، إذن لم يكن موجوداً من قبل. فكيف إذن لا يخجلون وهم ينسبون للولادة الإلهية التجزئة والتقطيع، مخضعين الجوهر الذي لا يُوصف والفائق، لنواميس الطبيعة المخلوقة؟ لأن الله ليس مساوياً لمخلوقاته، ولا يلد مثلها، لكن كما يتفوق على الكل، هكذا يتفوق أيضاً في ولادته[1].

الخاصة ويلد بطريقته الخاصة، لأن طبيعته غير خاضعة للتغيّر والتمزّق". حوار عن الثالوث، المرجع السابق، الجزء الأول، الحوار الثاني ص ١٢٠ – ١٢١.

(1) يستعرض القديس كيرلس ما يثبت أن الله يختلف عن الإنسان المخلوق في كل شيء ومن ضمن هذه الاختلافات هي الولادة فولادة الله لا تتشابه بتاتاً مع ولادة الأجساد، وهذا يؤكده في موضع، قائلاً: "وحينما

وطالما أن الله الآب أسمى من كل جوهر مخلوق، فهو أسمى من الولادة البشرية، وطريقة الولادة البشرية؛ لأن طريقته في الولادة فائقة ولا يُعبَّر عنها وتليق به بكونه الله.

١٢- ردٌ آخر

التجزئة والنقصان والزيادة والتضاعف، كل هذه من ملامح الطبيعة المخلوقة، فعندما تلد تخرج منها أجسادٌ جديدةٌ. فإن كان الله يلد هكذا مثل الأجساد، ويسري عليه الناموس الذي يسري على المخلوقات، حينئذٍ ينبغي عليه أن يخلق بنفس طريقة الأجساد البشرية التي تستخدم أدوات وأيدٍ. فالطبيعة المخلوقة والجسدية لا يمكن أن تصنع شيئاً إلاّ بهذه الطريقة، بينما الله يخلق كل شيء **بالكلمة**، وتكوين المخلوقات يوجد في إرادته، فكيف لا يكون مضحكاً أنه في الأمور الأكثر سمواً لا يكون الله أسمى من أي تغيير، فيسمو مرتفعاً على الأمور المعتادة والحادثة أثناء ولادة الأجساد؟ إذن فمثلما يخلق بطريقة تختلف عن الإنسان، هكذا أيضاً يلد بدون أن يخضع لِما هو معتاد في الأجساد.

١٣- ردٌ آخر

الآب أشرق الابن من ذاته دون أن يعتريه أي تجزئة، أو انفصال عنه، مثله في ذلك مثل الشمس عندما تُشرق الشعاع منها دون انفصال، لكن ذلك الشعاع ليس له أقنوم خاص به[١]، ولا هو كاملٌ في حد ذاته من جهة الجوهر؛ لأنه مدينٌ بوجوده للشمس، لكن

يتعلّق أمر الولادة بالله فليس هناك أي تغيّر أو تجزئة من أي نوع، لأن الله لا يخضع للضرورات التي يخضع لها البشر، ومنها التجزئة والولادة في الزمن. فإذا تكلّمنا عن ذوى الأجساد، وجب أن نقول إنهم هم الذين يختبرون ذلك لأن طبيعتهم خاضعة للتغيّر، وأيضاً لأنهم محكومون بالزمن الحاضر. ولكن لأن حديثنا يتعلّق بالطبيعة الإلهية، التي هي أسمى من كل جسد ملموس ومرئي، والتي هي صانعة الدهور نفسها وكائنة قبل الزمن، فكيف لا يكون نوع من اللّغو أن نتصوَّر أن هذه الطبيعة حازت أية تغيّرات أثناء الولادة، أو أن الذي وُلِدَ منها خاضع للزمن وتقلباته؟ لأنه في حالة الله يجب ألاّ نتكلّم عن العلّة والمعلول، بل من المناسب أن نتكلّم عن الله الآب والابن المولود منه". أنظر حوار عن الثالوث، المرجع السابق، الجزء الأول، الحوار الثاني ص ١١٧.

(١) هنا يبرز القديس كيرلس ملحوظة في غاية الخطورة، وهي أننا نستخدم دائماً الأمثلة لتقرب لنا المفاهيم الإلهية لكن علينا أن ندرك جيدا أن الأمثلة لا تعبر تماماً عن المفهوم التام، والدليل أننا نستخدم صورة الشمس والشعاع لتقريب مفهوم الولادة الإلهية إلا أن الشعاع ليس له أقنوم خاص لكن الابن له أقنوم خاص به لكن غير منفصل

الابن الذي هو ثمرة الله الآب، يأتي من الآب مثل الشعاع دون انفصال أو انكسار، وبالرغم من أن له وجوده الخاص، إلاَّ أنه غير منفصل عن الآب، بل يُدرَك في الآب ومع الآب. والقول بأنه حدث قطعٌ وانفصال أثناء ولادته، هو برهان على الهوس الذي بلا حدود.

لأن الله لا ينحصر في مكان محدد، ولا الذي يأتي منه يكون محدوداً في مكان مثله هو أيضاً. إذن فالذي لا يُحدُّ في مكان، كيف يمكن أن يقبل التجزئة؟ بمعني أين يذهب هذا الذي قُطِع؟ ومن أين يذهب؟

إن هذه الأمور هي من ملامح الأجساد، وهي غريبة تماماً عن الطبيعة غير الجسدية. ليتَهُم لا يختلقون ما يقولونه عن الولادة الإلهية من أن تجزئةً حدثت، وتسرباً وقطعاً، إلى غير ذلك مما هو شبيه بهذه الأمور. لأن الطبيعة التي توجد فوق كل المخلوقات، توجد أيضاً فوق أي تغيير وتجزئة وقطع، ولا تَقبَل هذه الأمور التي هي بمثابة ملامح للأجساد. هكذا مثلما يخلق بطريقة عجيبة، وليس بطريقة توافق الناموس الذي يسري علينا، يلد أيضاً بطريقةٍ عجيبة وليس مثلنا نحن.

١٤- أمثلة تُظهِر إلى حدٍ ما كيف يأتي الابن من الآب بدون تجزئة

هذا القول المنطوق الذي نستخدمه، يُولد في العقل ومن العقل، ويبدو أنه آخر عن ذاك الذي يطوف حول القلب؛ لأنه يخرج من الفم كأنه يُرسَل من العمق إلى النور، لكنه يوجد أيضاً فيه وهو شبيه به في كل شيء. لأننا نستطيع أن نرى في القول المنطوق، الفكر الذي يُوجد في قلوبنا، وفي نفس الوقت القول الذي يُوجد صامتاً في عقولنا. هكذا أيضاً ابن الله، إذ أتى من الآب دون انفصال، فهو ختمٌ ومثيلٌ لطبيعته، حقاً **الكلمة** بأقنومه حيٌّ من الآب الحي.

عن الآب، وهذا يسري على استخدامنا للتشبيه المعروف لدينا بأن ولادة الابن من الآب مثل ولادة الكلمة من العقل، وبالتالي علينا التأكيد على أن ولادة الكلمة من العقل ليس لها أقنوم لكن الابن له أقنوم غير منفصل عن الآب والروح القدس. والخلاصة أن الأمثلة دائماً قاصرة.

١٥- ردٌ آخر

هكذا يلد الآب ابنه بطريقة ليس بها تجزئة: مثل شخص حكيم يلد فكراً حكيماً، كفكرة ميكانيكية، هندسية أو فكراً آخراً من الأفكار. هذا الفكر يُعدُّ ثمرةً من ثمار الحكمة وهو شبيه بطبيعتها، لكن هذا الفكر لا ينفصل عن الحكمة ومن الحكمة، بل هو يأتي منها ويُصوَّر في ذاته الحكمة التي ولدته، ولكنه يُميَّز كشيءٍ آخر بالقرب منها. هكذا أيضاً ولادة الابن، بينما هو يأتي دون انفصال عن الآب، إلاّ أنه بمثابة أقنوم خاص يتخطى مفهوم المَثَل الذي طرحناه[1].

١٦- ردٌ آخر

أولئك الذين يبرهنون على دقة العقائد الإلهية[2] لا يستمرون ملتصقين بالمواصفات البشرية الحتمية، ولا يقولون إن نقصاً قد اعترى الآب بسبب أنه وَلَدَ الابن، كما لو كان قد انقسم إلى اثنين (لأن محاربي المسيح يقولون هذا)، والمؤمنون لا يعتقدون أنه صار نقصٌ ما في جوهره.

---

(١) هذا ما أكدنا علية، بينما يستخدم القديس كيرلس الأمثلة إلا أنه يقر بقصور الأمثلة عن التعبير التام للمفاهيم الإلهية.

(٢) الجدير بالملاحظة أن الهراطقة دائماً يحرّفون العقائد ويكسرونها ولا يجعلونها دقيقة وثابتة بل يسحقونها ويكسرونها، وهذا ما أكد علية القديس كيرلس حين تحدث عن عدم كسر عِظام الحمل، إذ يقول: [مكتوب: "والباقي منه إلى الصباح تحرقونه بالنار. ولا يُكسرُ له عظم" (خر ١٢: ١٠س)؛ لأن العظم لا يؤكل بأسناننا، وشيءٌ مثل هذا يذكّر أذهان البشر **بالكلمة الأزلي**. إنه الابن، وهو الابنُ بالطبيعة، وقد وُلِدَ من الله الآب، ونحن نؤمن به، دون أن نفتش أو نتشكك فيه وذلك وفقاً لكلام النبي القديس؛ " لأن من يعرف طريقة ولادته؟ من يصف مولده؟" هكذا صرخ النبي (إش٥٣: ٨ س).إذن، عدم كسر العِظام، يُشير إلى ثبات العقائد التي تفوق العقل. فهذه العقائد (العِظام) يحرِّم المُشرِّع سحقها، لكن الهراطقة، أولئك الذين يحرِّفون الحق قد سحقوها تماماً في ذواقم؛ لأنهم - إذ يعانون من طيش التفكير وعدم البصيرة - مصممون على الانشغال بطريقة الولادة الإلهية غير الموصوفة، ولا يقبلون عقلياً ما كُتِبَ: "من الذي يحصي رمل البحر وقطرات المطر وأيام الأبد؟" (حكمة سيراخ١: ٢). هذا ما نتجنبه نحن - بحكمة - رافضين كسر عِظام الخروف، بل نقبل بالإيمان، تلك التعاليم التي هي أسمى وأعظم من قدراتنا. ومن الأهمية بمكان أن نتذكّر أن هذا المكتوب قد طُبِّق حرفياً على مخلصنا، حيث إن جنود بيلاطس لم يكسروا عظامه وفق ما كتبه يوحنا (راجع يو ١٩: ٣٣ - ٣٦)]. جيلافيرا، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، الكتاب الشهري عدد يناير ٢٠١٠.

مثل هذه الأمور - الولادة البشرية - تكون طبيعيةً ومفهومةً بالنسبة لنا نحن البشر، لكنها بالنسبة لله تجديفٌ فظيع. إذن يجب أن نتجنب هذا العبث، ونفكر في أن الابن وُلِد من الآب مثل الحكمة عندما تُولَد من العقل، بالرغم من أنها تبدو أنها تخرج خارجاً عن ذاك الذي ولدها، لكن أثناء ظهورها هي أيضاً تُوجد فيه، لأنها لا تخرج وكأنها قد قُطعت منه، ولا تكوَّنت بأن صار نقصٌ ما في العقل الذي ولدها، لكن حافظةٌ كماله وهي تأخذ كل شيء مطبوع فيها ومرئي فيها.

١٧- ردٌ آخر

إن خاصية الابن التي تخص الله أيضاً، والتي تبدو في أنه خلق كائنات كثيرة ومختلفة دون أن يتوزَّع جوهره على كل واحدٍ من المخلوقات، بالرغم من أن كل واحد منها يعمل بطريقة مختلفة، لكنه خَلَقَ الكلَّ بقوةٍ واحدةٍ لا تُوصف، هكذا هو أيضاً وُلِد دون أن يتجزَّأ.

وهو أيضاً مثل الروح القدس حين يرسل مواهبه المتنوعة والمختلفة، مانحاً إياها للمستحقين بحسب استحقاق كل واحد، إلاَّ أنه يبقى الروح الواحد فاعلاً بطرقٍ مختلفة دون أن يعتريه أيةُ تجزئةٍ لجوهره.

هكذا أيضاً الله الآب لا يمكن أن يُوصَف من أحد هؤلاء الذين يؤمنون باستقامة، بأن جوهره اعتراه تجزُّؤٌ ما أو نقصٌ ما[1] حين وَلَدَ الابن الواحد والوحيد.

---

[1] مشكلة الهراطقة أنهم يفرضون قيوداً على ذات الطبيعة الإلهية- كما يقول القديس كيرلس: "وهذه القيود هي التقسيم والتمزّق والاضطرار للولادة في الزمن، ولكن من الأفضل أن نستوعب أن هذه الولادة لا تُفهم ولا تُوصف كولادة بشريّة. لأنه لا يجب القول إن الله قد وَلَدَ في الزمن فهو بلا بداية ولا نهاية ولا زمني، فهو كائن وهكذا الذي وُلِدَ منه كائن فيه ومعه. لأن الابن أشرق كنور وذلك بشكل يفوق الذهن. وهذا تّم في جوهر الآب، فلم يتّم ذلك نتيجة انقسام الوالد أو تجزئته، وإلاّ لكان الابن مختلفاً عن الآب الذي وَلَده. فهو وُلِدَ بطريقة غير جسديّة لا تخضع لظروف الولادة الجسديّة التي يصفونها". القديس كيرلس السكندري، حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الأول، الحوار الثاني ص ١١٨.

١٨- اعتراض من اعتراضات إفنوميوس

بما أن الآب ولد الابن من ذاته، والابن هو آخرٌ بأقنومه الخاص، فمن الواضح أن كل ما لدى الآب قد توزَّع، و لم يظل فقط فيه، بل مُنح أيضاً للابن. وعلى ذلك، فإمَّا أن يكون المجد الذي لدى الآب قد اعتراه نقصٌ، فأصبح غير كاملٍ، طالما أن هذا المجد قد وُزِّع على الابن، أو لو إفترضنا أن المجد كان كاملاً لديه، فقد منعه عن الابن آخذاً أيضاً مرةً أخرى ذاك الذي أعطاه له. وهكذا الأمر بالنسبة لإلوهيته التي كانت واحدةً ولها مجدٌ كامل، صارت الآن موزَّعة على اثنين، ففقدت كمالها، وإلاَّ كان عليها أن تعيد مرة أخرى ما أعطته للابن.

١٩- الإجابة

مرةً أخرى يصفون الطبيعة غير الجسدية بخواص الأجساد.

ألا يخجلون وهم ينسبون للجوهر الإلهي، بجهل، التجزئةَ والقطعَ والتمزُّقَ والانفصال، قائلين إن جوهر الآب وُزِّع بطريقةٍ جسديةٍ؟

إنهم يرتكبون جُرماً وتجديفاً فظيعاً، زاعمين أنه تغيَّر وتحوَّل من الكمال وأُنزل إلى عدم الكمال. لأن أولئك الذين يظنون أن الابن أخذ الكمال من جوهر الآب، بطريقةٍ ما، ووُجدَ بعيداً ومنفصلاً عنه، وبسبب هذا يزعمون أن الآب قد وزَّع كل ما ينتمي إليه، وبقيَ بنصف المجد؛ لأن الباقي أُنزل إلى الابن، إنما يجهلون إلى أي منزلقٍ يسقطون[1].

---

(١) المنزلق الذي سقط فيه الهراطقة هو إخضاع غير الجسدي للأمور الجسدية وعدم اعترافهم بأن معرفة الذهن محدودة، هذا ما أكد علية القديس كيرلس في حواره حول الثالوث: "فالأجساد تخضع بالطبع لقوانين وعادات الأجساد، وتلد أيضاً حسب قوانينها وتتعرّض للتغيّر. ولكن غير الجسدي بدوره له قوانينه الخاصة ويلد بطريقته الخاصة، لأن طبيعته غير خاضعة للتغيّر والتمزّق. وإذا كان الذهن يستطيع أن يميّز طريقة الولادة الجسديّة ولكنه لا يستطيع أن يفهم الولادة الخاصة بالطبيعة غير الجسّدية، أفلا ينبغي أن نقر بأن معرفة الذهن محدودة؟ فالذهن يُنزل بِمَنْ هو أسمى من الجسد، بصورة فائقة، إلى مستوى أدنى، ولا يخجل من أن ينسب إليه أوجاعاً وانفعالات لا تناسبه بالمرّة". القديس كيرلس السكندري، حوار حول الثالوث، الجزء الأول، الحوار الثاني ص ١٢١.

بالتالي، كما يقول هؤلاء، فقد كان الآب يمتلك في داخله القوة الخلاقـــة أولاً، ثم بعد ذلك أظهر الابن الذي بواسطته خلق كل شيء، فأرسل خارج جوهره إمكانية الخلق، وصار بعد ذلك إلي هذا الذي لم يكن عليه من قبل، فأصبح محروماً من قوته الخلاقة.

ونحن نقول إن الذي يرى هذا الرأي أو يؤمن به، إنما يرتكـــب تجـــديفاً عظيمـــاً يتخطى كل الحدود. لأن المسيح يقول: "أَبِي يَعْمَلُ حَتَّى الآنَ وَأَنَا أَعْمَلُ" (يو ٥: ١٧).

فمثلما لا تنفصل القوة الخلاقة عن الآب، ويكون الآبُ كاملاً في جوهره، هكذا يكون الابنُ أيضاً، لا تنفصل عنه القوة الخلاقة ولا الكمال. ومثلما يمتلك الآبُ المجدَ كاملاً، هكذا أيضاً يمتلك الابنُ كمالَ المجد، ذلك لأن الابنَ شبيهٌ بمَنْ ولده، وبالتالي يكون له ما للآب من كمالٍ ومجد؛ لأنه وُلِدَ مِن الآب الذي لديه المجد كاملاً.

المقالة السابعة

رداً على
أولئك الذين يطرحون سؤالاً قائلين:
هل وَلَدَ الآبُ الابنَ بإرادته أم بدون إرادته؟

١- سؤال من جانب الهراطقة:

يقولون: هل ولَدَ الآبُ الابنَ، أو خلق الابن بإرادته أم دون أن يريد؟

فإذا كان قد ولده دون أن يريد، فقد عانى أمراً بخلاف إرادته، وإذا كان قد ولده بإرادته، فقد تطَّلب ذلك حتماً تفكيراً مسبقاً، بالتالي فإن الآب يوجد قبل الابن، بسبب إرادته التي توسطت قبل الولادة(١).

---

(١) أحد الذين روَّجوا هذا الفكر هو فلانتينوس وهو أستاذ مصري علّم أولاً في الإسكندرية ثم وسّع مجال تعليمه فذهب إلى روما حيث أسس هناك مدرسة حوالي ١٥٠م ولما حُرِمَ من الكنيسة أنشأ جماعة خاصة مستقلة. وله عدّة كتب ورسائل وأناشيد، ولكن لم يبق منها غير القليل، وهو أحد الهراطقة الغنوسيين المشهورين. وكذلك استيريوس الذي نادى بأن الابن ليس من جوهر الآب، ولذلك فهو يقول عن الابن إنه ينال القوة من الله مثل باقي المخلوقات وليس هو قوة الله ذاتها. وكذلك أن الابن ليس ابناً لله بالطبيعة، بل هو يصير ابناً بالتبني مثل باقي المخلوقات.

٢- الرد على هذا السؤال

مِن أين لأمثالكم الحديث عما إذا كان الابنُ قد وُلِد بإرادة الآب أو بدون إرادته، حتى تطرحون أسئلةً على الذين يسمعونكم؟ مِن أي كتاب مقدّسٍ تعلّمتم[١]؟ ومَـــنْ مِـــن القديسين قال إن الابن أتى مِن الآب بإرادته أو بدون إرادته؟ ومِمَّنْ تسلمتم هذه الأقوال؟

-لأن كلمة الله كان ويكون، وقد عرفنا هذا الأمر من الكتاب المقدس.

أمَّا بخصوص هل وُلِدَ بإرادته أم لا، فإننا فقط منكُم نسمع هذا القول. لأن الآب أشار للابن من السماء قائلاً: "هذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ" (مت ٣: ١٧)، وبواسطة داود قـــال: "فَاضَ قَلْبِي بِكَلاَمٍ (بكلمة) صَالِحٍ" (مز ٤٥: ١). ويوحنا الحكيم يقول: "فِي الْبَدْءِ كَـــانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهُ" (يو ١: ١). والمرنم أيضاً متوجِّهـــاً إلى الآب، يقول: "لأَنَّ عِنْدَكَ يَنْبوعَ الْحَيَاةِ. بِنورِكَ نَرَى نوراً" (مز ٣٦: ٩). كما يدعوه بولس الرسول بهاء وهيئة وصورة الله غير المنظور (أنظر عب ١: ٣ - فيلبي ١: ٧ - ١ كو ١١: ٧).

يتضح لنا مما تقدم أنه ما مِن أحدٍ من هؤلاء قال إن الابن وُلِـــد بـــإرادة الآب أو بدون إرادته، لكنهم قالوا: كان ويكون، دون أن ينسبوا أية بداية زمنية لخالق الدهور. إذن

---

(١) عندما يشرح القديس كيرلس يو ١:١ في البدء كان **الكلمة**، يؤكد على ولادة الابن الأزلية، إذ يقول: "ليس من الممكن أن نعتبر "البدء" خاصاً بزمان مهما كان، لأن الابن الوحيد هو قبل كل الدهور، والطبيعة الإلهية تُغلِق حدود الزمن، فهي كما هي لا تتغير حسبما قيل في المزمور عن الله: "أَنْتَ هُوَ وَسِنُوكَ لَنْ تَنْتَهِيَ" (مز ١٠٢:٢٧). فالبدء الذي يمكن قياسه بالزمان أو المسافات سوف يتعداه الابن، فهو لا يبدأ في زمان أو مكان بل هو بلا حدود فهو بالطبيعة الله ويصرخ أنا هو الحياة (يو ١٤:٦)] ويستمر في تأكيده على أزلية الابن قائلا: "هل من اعتراض على أن الابن في الآب مثل الماء في الينبوع، أو أن الآب هو الينبوع؟ إن كلمة ينبوع تعني هنا المعيّة. لأن الابن في الآب وهو من الآب، ليس كَمَنْ يأتي من الخارج في الزمان، بل هو من ذات جوهر الآب، يشع مثل الشعاع من الشمس أو صدور الحرارة من النار. هذه الأمثلة تعني أن نرى كيف يُولَد أو يصدر شيء من شيء، وفي نفس الوقت لا يصدر متأخراً أو بعد زمن، أو أن تكون له طبيعة مختلفة بل يصدر الشيء من الشيء ويظّل كائناً معه لا ينفصل عنه، بل لا يمكن لأي منهما أن يوجد بدون الآخر، فلا شمس بلا شعاع ولا شعاع بدون شمس تشعه من داخلها. ولا نار بلا حرارة ولا حرارة إلاّ من نار. فالانفصال يعني أن يفقد الشيئان معاً الطبيعة التي تميزّهما. فكيف تصبح الشمس شمساً بلا أشعة، وكيف تصبح النار ناراً بلا حرارة" القديس كيرلس الأسكندري، شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول، ص ٤٣ - ٤٤.

مِن أين لكم أن تقولوا هذه الأقوال؟ إنما تقولونها متحدثين من قلوبكم - كما يقول النبي (أنظر أر ٢٣: ١٦)[١] - وليس بفم الرب.

٣- ردٌ آخر

لو قُلتم إن الابن وُلِد بإرادة الآب وبقيتم على عنادكم بأن إرادة الآب كانت موجودةً قبل ولادته، فلماذا لم يقُل الكتاب عنه هذه الأمور التي قالها أيضاً على المخلوقات الأخرى؟ لأن الإرادة كانت تسبق كل ما صار بواسطة الله، مثل: "قَالَ اللهُ: نَعْمَلُ الإِنْسَانَ" (تك ١: ٢٦)، وأيضاً: "كلّ مَا شَاءَ الرَّبّ صَنَعَ" (مز ١٣٥: ٦)، أما بالنسبة لله الكلمة[٢]، فلا يبدو أبداً أن الإرادة تسبق، بل سمعنا فقط إنه كان ويكون (الكائن والذي كان). وأن المكان الطبيعي بالنسبة له هو الآب.

وبما أن الكتاب المقدس قال عن كل المخلوقات إن الإرادة كانت سابقة، بينما عن الابن لا نجد مثل هذا القول، إذن فهو ليس واحداً من المخلوقات، ولا صار بالإرادة مثلما صارت كل المخلوقات؛ لأنه أتى من الآب ومن جوهره وُلِد وهو أزليٌّ.

---

(١) "هكذا قال رب الجنود لا تسمعوا لكلام الأنبياء الذين يتنبأون لكم. فإنهم يجعلونكم باطلاً. يتكلمون برؤيا قلبهم لا عن فم الرب".

(٢) بالنسبة لولادة **الكلمة** يفضل القديس كيرلس تشبيهها بولادة الكلمة من العقل حتى يلاشي أي تصور لمسافة زمنية بين العقل (الذهن) والكلمة، إذ يقول القديس كيرلس في حواره حول الثالوث: "فالذهن البشرى يَلد وينطق كلاماً خارجاً منه ويختار ما يناسبه، ومسيرة الكلام من أعماق الإنسان إلى لسانه تقدّم لنا شرحاً للميلاد الجوهري. ويمكن أن تكون "الكلمة" شيئاً آخر غير الذهن الذي نطقها، ولكنهما لا يتجزآن، والذهن لا يُعتبر بأي حال أقدّم من الكلمة التي نطقها. لأن الكلام هو دائماً من الذهن وللذهن، والذهن كامن في الكلام. وإن لم يكن الأمر هكذا فهذا معناه أن الذهن موجود بغير كلام والكلام بغير ذهن، الأمر الذي يؤدى في النهاية إلى أن معرفتنا بهما سوف تتلاشى تماماً. لأن الذهن دائماً هو أصل الكلام ووالده، والكلام بدوره هو ثمرة ونتاج الذهن، والذهن لا يكون أبداً بدون كلام، وحينما يلد كلاماً، فإن هذا الكلام يحمل طبيعة الذهن الذي وَلَده وشَكْله دون أن ينقصه شيء. ولهذا فإذا قال أحدهم - في هذا الصدد - إن الوالد (أي الذهن) أقدم من المولود (أي الكلام)، فهذا حسب رأيي ضربٌ من البلاهة، وذلك لأن الكلمة تخرج من الذهن، ومادام الذهن هو ذهن لأن الكلمة كائنه فيه، والكلمة بدورها هي كلمة لأنها مملوءة عقلاً وفهماً، فكيف نستطيع أن نتصوّر لحظة، وجود ذهن بدون كلمة أو كلمة بدون ذهن؟". حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الأول، الحوار الثاني ص ١٢٤.

٤- ردٌّ آخر

يقول بولس عن المسيح مخلّصنا إنه قوة الله وحكمة الله (أنظر ١ كـــو ١: ٢٤). فبما أن الكلمة الذي أتى من الآب والكائن فيه هو قوة وحكمة الآب، فهو إذن ذاك الذي به تتم إرادة الله، وبواسطته خَلَق الكل. فإذا كان الأمر على هذا النحو، فكيف صار الابن بإرادة الآب، وهو الذي فيه تُوجد إرادة الآب؟ لأنه، إمَّا أن ننشئ حكمةً أخرى بها قـــرر الآب وصنع الابن، كما قُلتم أنتم، وإمَّا أنه لا توجد حكمةٌ أخرى، لكن الابن هو فقـــط حكمة الآب، بالتالي هو أيضاً مشورة الآب[1]. لأن مشورة الله تُوجد في الحكمة، وهكذا يكون حديثكم باطل ومبرركم بلا سند.

٥- ردٌّ آخر

لا يبدو أن مخلوقات الله صارت مثل إرادة الله على مستوى الجوهر، لأن إرادة الله هي شيءٌ مختلف عن هذه المخلوقات التي خُلقت بواسطتها.

علي سبيل المثال نقول: صارت السماء بإرادة الله، لكن السماء ليست هي إرادة الله. إذن، طالما أن الله قرَّر بالحكمة، وكما تقولون أنتم، أراد أن يلد الابن، الـــذي هـــو حكمة الآب (أنظر ١ كو ١: ٢١)، فيجب أن تكون هناك حكمةٌ أخرى، بواسطتها قرَّر

---

(١) لقد شرح أيضاً القديس كيرلس في موضع آخر مفهوم أن يكون الابن هو حكمة وقوة الآب في إطار إيماننا بالثالوث القدوس بطريقة واضحة، إذ يقول: "الابن هو الكلمة والحكمة، لأنه هو كذلك بدون وسيط بينه وبين الآب، فهو من العقل وفي العقل، وبسبب قبول كل أقنوم للآخر وحضوره في الآخر، وبسبب وحدة الجوهر، يمكن أن نرى العقل في الكلمة والحكمة، وكذلك الكلمة في العقل، دون أن توجد قوّة متوسطة قادرة على أن تفصل بين الاثنين. ويدعى الابن قوّة الآب، لأنه القوّة الكائنة في الآب، بدون انفصال أو وساطة، حتى أننا لا نستطيع أن نفصل بين القوّة والآب مثلما لا نستطيع أن نفصل بين الإنسان وقوّته إلا إذا دمرّنا أحدهما. ورسم الجوهر أيضاً خاص بالابن، لأنه مثل الآب تماماً، لا يمكن أن ينفصل عن الجوهر الذي يعلنه أي الذي صار رسمه. كل هذا يقودنا إلى الإيمان أن كل أقنوم في الآخر بشكل طبيعي، يعتمد على وحدة الجوهر، فعندما يعمل الآب، يعمل الابن، لأن الابن هو قوّة أقنوم الآب، الخاصة به وبجوهره. وأيضاً عندما يعمل الابن، يعمل الآب أيضاً، فالآب أصل الكلمة، الخالق، وطبيعياً هو كائن في الابن مثل النار في الحرارة الصادرة منها". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٨٠.

وولَد الابن. مثل هذا الكلام لا يعدو أن يكون تجديفاً (لأنه واحدٌ هو ابن الله، وليس أثنين، إنه كلمة الله الذي هو حكمة الآب)، بالتالي فإن الابن هو ذاك الذي به تُعلَن إرادة الله.

٦- ردٌ آخر

بما أن الإرادة سابقة على خلق المخلوقات في الزمن، وكان الابن - بحسب رأيكم - قد صار بإرادة الآب، باعتبار أن الإرادة كانت سابقةً لوجوده مثلما صار للمخلوقات، إذن فهو لم يكن موجوداً في وقت ما، وبذلك يكون يوحنا الإنجيلي كاذباً حين قال: "فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ" (يو ١: ١)؛ لأنه - كما تقولون - لم يكن كائناً. فكيف إذن يكون الإنجيلي محقاً حين تختصون الابن بعبارة "لم يكن موجوداً"؟ لكنني أقول إنه لا ينبغي أن نثق بكم، بل نثق في يوحنا. وبناء على ذلك، الابن كان كائناً وفق أقوال يوحنا، وعبارة "لم يكن موجودا" التي تقولونها عنه هي عبارة باطلة وكاذبة[1].

٧- ردٌ آخر

لو أن زمناً ما مَرَّ قبل خلق المخلوقات بإرادة الله، حتى لو افترضنا أن هذا الزمن كان صغيراً جداً، ولو لحظة، فكيف يتفق ذلك مع كون الابن هو خالق الدهور، إذا سبقت - كما يزعمون - إرادة الآب ولادته؟ لكن بما أنه هو خالق الدهور، فهو كائنٌ على الدوام (منذ الأزل)، ولم يكن يوجد شيءٌ قبل ولادته.

---

[1] طبعا عبارة "لم يكن موجوداً" هي عبارة باطلة لأنها تفترض أن ولادة الابن ليست أزلية، إلا أن التعليم عن أزلية الابن هو قلب الإيمان المسيحي، والقديس كيرلس يؤكد دائماً على هذه الحقيقة ويشرحها بكافة الطرق عارضاً أمثلة كثيرة تعين الذهن البشري على الاستيعاب، إذ يقول: "لأن الابن في الآب وهو من الآب، ليس كَمَنْ يأتي من الخارج في الزمان، بل هو من ذات جوهر الآب، يشع مثل الشعاع من الشمس أو صدور الحرارة من النار. هذه الأمثلة تعني أن نرى كيف يُولَد أو يصدر شيء من شيء، وفي نفس الوقت لا يصدر متأخراً أو بعد زمن، أو أن تكون له طبيعة مختلفة بل يصدر الشيء من الشيء ويظّل كائناً معه لا ينفصل عنه، بل لا يمكن لأي منهما أن يوجد بدون الآخر، فلا شمس بلا شعاع ولا شعاع بدون شمس تشعه من داخلها. ولا نار بلا حرارة ولا حرارة إلاّ من نار. فالانفصال يعني أن يفقد الشيئان معاً الطبيعة التي تميزّهما. فكيف تصبح الشمس شمساً بلا أشعة، وكيف تصبح النار ناراً بلا حرارة". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٤٤.

٨- ردٌ آخر

بما أن الابن هو حكمة الآب، وهو بالتأكيد هكذا يكون، فأين هو الزمن الذي لم تكن فيه الحكمة موجودة.

لكن بما أن الابن أزليٌ مع الآب؛ (لأن الآب دائماً حكيمٌ)، فكيف يمكن لهذا الذي هو الكائن دائماً، أن يسبقه شيءٌ؟ كيف تستطيع الإرادة أن تسبق الابن الذي كان وقتاً ما لم يكن موجوداً - بحسب زعمهم - الابن الذي له بداية أزلية مع الآب الذي ولده بكونه حكمته؟

٩- ردٌ آخر

لو كانت الحكمة تسبق الابن، وإرادة خلقه صارت حتماً في الزمن، حتى لو كان هذا الزمن صغيراً جداً ووجيزاً جداً، فكيف يتفق ذلك مع كون الابن خالق الكل؟ أو كيف نستطيع أن نؤمن بالكتاب حين يقول إن الكل صار بواسطته[1]، في اللحظة التي يزعمون أنه يوجد زمن صار فيه التفكير بخلقه، في حين أنه لم يكن يوجد زمن قبل ولادته.

١٠- اعتراض آخر من اعتراضات الهراطقة

إن كان ابن الله لم يَصِر بإرادة الآب، فالآب يكون قد اكتسب ابناً عن إجبارٍ وبدون أن يريد. ومَنْ ذا الذي هو أعظم من الله حتى يجبره؟ لأن كل ما يصير بخلاف إرادتنا يصير عن حتمٍ وإجبار.

(١) يؤكد القديس أثناسيوس على الفرق الشاسع بين الابن والمخلوقات في نفس السياق، إذ يقول: "فالمخلوقات باشتراكها في الابن، تتقدّس في الروح، أما الابن نفسه فهو ليس ابناً بالمشاركة، بل هو المولود الذاتي للآب.لأنه هو الحياة التي تأتي من الآب كما من نبع، وكل الأشياء تحيا وتقوم على هذه الحياة. لأن الحياة لا تحيا من حياة أخرى وإلاّ فهي لا تكون عندئذٍ حياة، لكن الابن بالحري هو الذي يعطي حياة لكل الأشياء". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثالثة، الفصل٢٣ فقرة ٢ ص ١٢.

١١- الـرد

ينبغي أن نسأل بدورنا محاربي المسيح، وبذات المبررات التي فرضوها علينا بجهلٍ، نرد عليهم: أخبرونا، هل الله صالحٌ ورحومٌ ورؤوفٌ وقدوسٌ بإرادته أم بدون إرادته[1]؟

لو كان ذلك بإرادته، وكانت الإرادة قد سبقت تلك التي صار عليها، إذن فقد كان هناك زمنٌ لم يكن فيه الله كل هذا، ونحن هنا نقصد الوقت الذي كان يفكر فيه في كل هذا الذي سوف يصير عليه. أمّا لو كان صالحاً ورؤوفاً بخلاف إرادته، إذن فهو هكذا عن إجبار. ومَنْ هو هذا الذي فرض عليه الإجبار بحسب رأيكم؟ إذن يتضح أن فكركم مملوء بالغباء، و لم يُسهم في التعبير عن المفهوم المستقيم.

١٢- الرد بطريقة وصفية

إن الأمور التي تصير بحسب الطبيعة لا تسبقها إرادة التفكير، لكن هذه الإرادة تتدخل فقط بالنسبة للأمور التي تقع خارج جوهر ذاك الذي فكّر في أن يفعلها. على سبيل المثال، شخصٌ ما زرع كرمةً أو صنع سفينةً، نجده يفكّر مسبقاً في ما أراد أن يعمله.

علي النقيض من ذلك، فإن ولادة طفل لأي إنسان بحسب الطبيعة لا يسبقها أي فكر. بالتالي إذا قال أحدٌ إن هذا قد حصَل على ابنٍ بخلاف إرادته، ليت عقله لا يُسرع

(١) نفس البرهان يتناوله القديس كيرلس بأكثر وضوح في حواره حول الثالوث، إذ يقول: "السؤال الذي أطرحه عليهم هو، هل كل هذا - أي كون الله ملك وخالق - تّم بإرادته أم بغير إرادته؟ وإذا قالوا "بغير إرادة" فإنهم ينسبون لله "عدم الإرادة" أي الأفعال اللاإرادية، وبالتالي فهو خاضع للضرورات التي يَخضَع لها البشر. وإذا قالوا إن كل ذلك تم بإرادته فإذن الإرادة قد سبقت الوجود، فهو إذن لم يخلق دائماً بملء قوّته و لم يكن ملكاً بلا بداية، ولا رحوماً ولا صالحاً، ويكون هناك بالتالي مسافة من الزمن في داخل الله نفسه، لم يكن فيها شيء من ذلك، بل كان فيها يفكر في أن يكون هكذا". ويستمر في الحديث موضحاً الأمر، قائلاً: "إن في مجال الأشياء التي نعملها أو لا نعملها، يمكن أن نتكلّم عن إرادي وغير إرادي، ولكن هذا غير ممكن في مجال الولادة. وإذا سأل أحد عن السبب في ذلك، فمن الحكمة أن نجيب بقول مأثور: "الطبيعة أرادت وهى لا تبالي بالقوانين"، فلا الإرادة ولا عدم الإرادة يعوقها. وفى رأيك ألست أقول الصدق إذا أكدت أن الله هو بالجوهر آب و لم يصر آباً نتيجة لنشاط في إرادته، جعله في وضع أفضل كآب. مستحيل أن يكون الله قد صار أباً نتيجة فعل إرادي". حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الحوار الثاني ص ١٣١ - ١٣٢. نفس البرهان وفى نفس السياق أنظر غريغوريوس اللاهوتي، الخطب اللاهوتية ٢٧ - ٣١، المرجع السابق، الخطاب ٢٩ ص ٨٤ - ٨٧.

مباشرةً إلى أن هذا صار عن إجبار (لأنه لم يكتسبه عن إجبار ما)، بل لعله يرى أن هذه الأمور التي تصير بحسب الطبيعة لا يسبقها تفكير. لأنه ليس عن إجبار يلد المرء بدون أن يسبق هذا الأمر أي فكر. إذن، ليس عن إجبار أيضاً يكون الكلمة في الآب مثلما يوجد الطفل في الإنسان الذي يأتي منه.

١٣- ردٌ آخر

بما أن الله الآب صالحٌ بحسب الطبيعة، وليس بحسب إرادته - حتى لا تتوسط فترة زمنية فيها يكون غير صالح - إذن، فهو لا يلد الابن بإرادته، بل بحسب الطبيعة[١]؛ لأن هذا يليق بالأكثر به.

١٤- ردٌ آخر

ينبغي أن نسأل محاربي المسيح: هل آب الكلمة يوجد بإرادته، أم بدون إرادته؟ إن قُلت إنه يوجد بإرادته، والإرادة تسبق وجوده حتماً، فاصمت عن التجديف. ولو كان يوجد بدون إرادته، فمَنْ هو الذي أجبره وفرض عليه أن يكون؟

يمكننا أن نؤكد أنه كائنٌ بدون إرادة، ويسري نفس القياس على الابن أيضاً. ولأنه ليس من الصواب أن نفحص هذه المواضيع بطريقة لا تخلو من المخاطرة، يجب علينا بالحري ونحن نسمع عن الله، أن نعرف أن هذا هو ذاك الذي هو كائن بدون أن تكون له بداية، بل هو الذي صار بدايةً للآخرين.

---

(١) الإيمان الصحيح عن الله يشرحه القديس كيرلس في نفس هذا السياق، قائلا: "أقول إنه من الواجب علينا أن نحمل في نفوسنا أنصع وأصدق اعتقاد عن الله، ولنمعن النظر في إنه لا يوجد ما هو سابق على ميلاد الابن، وأن إرادة الوالد لا تسبق وجود المولود، وأن الله الآب هو آبٌ بطبيعته وهذه هي إرادته أيضاً. وذلك لأن الله الكائن لا يكون هكذا بدون إرادة. ونفس الشيء إذا فكّرنا في قداسة الآب وصلاحه، فالله صالح وقدوس بطبيعته وإرادته. ولا يمكن أن نعتقد عنه أنه كان يمكن أن يوجد بطريقة أخرى. فهو الله وهو آب في نفس الوقت، والولادة عنده ليست شيئاً لاحقاً للوجود، وفى الوقت الذي نفكر فيه أنه موجود وكائن يجب أن نفكر في أنه أيضاً أب. وهكذا فالآب الذي له هذه الطبيعة يقودنا إلى الاعتقاد بأن هذه الولادة هي أزليّة، وهكذا يكون الابن مولود من الآب أزلياً". حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الأول، الحوار الثاني ص ١٣٤.

١٥- ردٌ آخر بطريقة وصفية

من غير المعقول، ولا يخلو من المخاطرة أن نقول عن الابن، إنه: وُلِد بإرادة الآب أو بدون إرادته. لأن الله لديه الابن الذي أتى من جوهره ليس بإرادته، بل بحسب الطبيعة؛ لأنه هكذا هو صورته وخَتمه غير المزيَّف.

١٦- ردٌ آخر

لو سبق الفكر والإرادة وجود الابن، وكان الابن هو حكمة وكلمة الآب، فكيف كان الله يفكر في الوقت الذي كان فيه بلا كلمة وبلا حكمة وفق رأيكم، باعتبار أن الابن لم يكن بعدُ كائناً؟ إذن، ليس من المعقول أن يفكر الآب بدون الحكمة والكلمة، بالتالي أنتم في احتياج لأن تتجنبوا هذه الحُجج الطائشة التي ساقها محاربو المسيح، دون أن تضطروا إلى دحضها.

١٧- ردٌ آخر بطريقة وصفية

لقد تبرهن بالفعل - بأقوالٍ كثيرة - أن الإرادة سبقت خلق المخلوقات؛ لأن عبارات مثل: "لنصنع الإنسان"، "فليكن جَلَد" و "ليكن هذا وذاك"، تدل على أن فكر الله سبق عملية خلق المخلوقات، بالرغم من أن عمل الخلق صار مباشرةً. إذن طالما سبق الفكرُ المخلوقات، وقد صار الكل بواسطة الابن، فالابن إذن كائنٌ غير كل المخلوقات التي بواسطته صارت. وطالما هو آخر بالنسبة لتلك المخلوقات التي جاءت بعد الفكر، فالابن إذن لم يَصِر بإرادة الآب، مثل المخلوقات. لأنه هو إرادة الآب الحيَّة والتي بها يخلق الآب كل شيء. على الجانب الآخر، فإن المرنم يدعوه إرادة الآب، قائلاً: "بِرَأْيِكَ (بمشورتك) تَهْدِينِي" (مز٧٣: ٢٤).

١٨- ردٌ آخر

بما أن الابن هو مشورة وإرادة الآب، فكيف تسبق الإرادة وجوده؟ لأنه بذلك يصير هو نفسه خالقاً لذاته، عندئذٍ يبدو وفق محاربي المسيح، وكأنه فكّر لأجل ذاته. وبما أنه من غير المقبول أن يتفوَّه أحدٌ بهذا الأمر، فالابن إذن لم يَصِر بالإرادة، مثل المخلوقات، لكن كمشورة الآب هو في الآب والآب فيه. فهذا هو بالضبط الملمح الخارجي لجوهر ذاك الذي ولده، أي مشورة وجوهر الآب.

١٩- ردٌ آخر

قال المسيح: "أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ" (يو ١٤: ١٠)، معلناً بهذا أن لديه الآب لذاته كأنه هو موضعٌ له، وأن الآب أيضاً فقط فيه. إذن، فلو كانت إرادة الآب شيئاً آخر في الآب يتوازى مع الابن، فكيف يمكن - عندئذ - أن يكون محقاً فيما قاله؟ لأن الإرادة - وفق جنون محاربي المسيح - توجد قبل وجود الابن، وبمقتضاها صار الابن، مثلما يزعم أولئك.

لكن بما أن ما قاله حقٌ هو، أي أنه في الآب، وأن الآب هو فقط فيه، فأين يمكن أن توجد هذه الإرادة خاصةً أنه لم يَصِر بإرادة الآب؛ لأنه هو إرادة الآب.

٢٠- ردٌ آخر

لو كانت الإرادة قد سبقت وجود المسيح، مثلما سبقت وجود المخلوقات، فما هو السبب الذي جعل هذه المخلوقات التي لها نفس البداية، والتي صارت بنفس الفكر تختلف اختلافاً بيِّناً عن الابن من جهة الطبيعة، للدرجة التي يكون معها الابنُ رباً وإلهاً، بينما تعُدُّ المخلوقات الأخرى من ضمن العبيد؟

إذن من الواضح، أن الابن له - بحسب الطبيعة - إلوهية الآب ذاتها، وهو يُدعى ربٌ، وهكذا يكون. بينما الخليقة كلها دُعيت خادمة، لأنها تُوجد خارج جوهر الخالق، وخارج العلاقة الطبيعية مع الآب. إذن، من المؤكد أن هناك اختلافاً شاسعاً بين الابن

والمخلوقات من جهة البداية ذاتها، فالمخلوقات صارت بإرادة الآب، بينما الابن؛ لأنه هو ذاته إرادة الآب، فهو أزلي مع الآب.

٢١- ردٌ آخر

كان يجب على محاربي المسيح الذي يتطاولون ويسألون إن كان الآب قد ولَدَ الابن بإرادته، أن يسألوا أيضاً إن كان الآب قد ولَدَ الابن بالإدراك (الفهم)؛ لأنه يبدو أن المشورة والفهم ينطبق عليهما نفس الأمر. لأن ما يفكر فيه المرء يدركه، وما يدرِكه المرء هو ما يفكر فيه. لذلك نرى المخلّص ينسب هذه الأمور إلى ذاته بالتساوي، ويقول: "لِي الْمَشُورَةُ وَالرَّأْيُ. أَنَا الْفَهْمُ. لِي الْقُدْرَةُ" (أمثال ٨: ١٤). لأنه إذا كان الرأي والقدرة متطابقان، هكذا أيضاً المشورة والفهم. إذن لو كانوا قد آمنوا بأن الآب صار بلا فهمٍ وإدراك، ليتهم يسألون عما إذا كان قد ولَدَ الابن بالفهم أيضاً. وإذا كانوا يرتعبون فقط من سماع هذا الأمر، كيف لا يكون تجديفاً أن يسألوا عما إذا كان الابن قد وُلِد بإرادة الآب أم لا، في اللحظة التي يمثّل فيها هذا الأمر تجديفاً كبيراً على **الكلمة**؟

٢٢- ردٌ آخر

يكتب بولس الطوباوي عن الابن - مُظهِراً التشابه الذي لا مثيل له بين الابن وأبيه - قائلاً: "الَّذِي، وَهُوَ بَهَاءُ مَجْدِهِ، وَرَسْمُ جَوْهَرِهِ" (عب ١: ٣).

فإذا كان الابن هو ختم وصورة ذاك الذي ولَدَه - وفق آرائكم - بعد إرادة الآب، فحتماً يجب أيضاً أن يكون الآب مثل صورته وبهائه، أي أن تكون الإرادة قد سبقت وجوده. ولأن هذا محضُ تجديفٍ؛ لأن الآب لم يأتِ بعد أية مشورة أو إرادة ، فمن الحتمية المطلقة أن نؤمن ونقول إن الابن لم يُولد بعد الإرادة[1].

---

(1) وفق الكتاب المقدس، الابن هو صورة الآب ورسم جوهره، وهذا هو الأساس الذي بنى علية القديس كيرلس برهانه، أي بما أن الابن صورة الآب، فإذا كان بحسب رأي الهراطقة هو وُلِدَ بالإرادة، بالتالي الآب الذي هو الأصل قد أتى بالإرادة، ويمثل هذا الاعتقاد تجديفاً عظيماً. أنظر د. وهيب قزمان بولس، النعمة عند القديس

٢٣- اعتراض آخر

كيف لا ينبغي عليكم أن تعترفوا معنا بأن الابن هــو في الآب بــدون إرادة، أي صار بدون إرادته، طالما لم يَصِر بمشورته وإرادته؟

٢٤- الـــرد

ليت المخلّص يُخجِل لسان هؤلاء المعاندين عندما يسمعونه يقول عن ذاته: "اَلآبُ يُحِبُّ الابْنَ" (يو ٣: ٣٥). لأنه - مثلما قيل أيضاً سابقاً - الله صالحٌ ورحيمٌ بـــالطبع لا بالإرادة. لأنه يريد أن يكون ما هو عليه دائماً وما سيكون. هكذا، بالرغم من أنه لم يلـــد الابن من بعد إرادة، وأيضاً لم يكن لديه بدون إرادته. لأنه يريد الابن ويحبه، كمـــا هـــو مكتوب، مثلما يريد الآب ذاته بالرغم من أن ذاته (كيانه) لم يأت مِن إرادة، هكذا أيضـــاً الابن الذي يأتي من جوهر الآب، ليس هو من دون إرادته، بالرغم من أنه بالتأكيد لا يبدو أبداً - كما يزعمون - أن إرادة الآب سبقت ولادة الابن.

٢٥- ردٌ آخر

بما أن الابن هو شعاع (بهاء) وختم الآب، وقد صار بإرادته - كما تزعمون أنتم - عندئذ كانت هناك فترة زمنية لم يكن فيها الابن موجوداً[١]. بناء على ذلك كانت هناك فترة زمنية كان الله فيها بدون شعاع وختم، وبما أن الابن له نفس الجـــوهر مـــع الآب - وبحسب رأيكم – فقد كان هناك وقت ما لم يكن فيه لجوهر الآب إمكانية الولادة، ولكنه اكتسب تغيُّراً ما ووَلَد الابن. ولأن هذا الأمر هو محضُ تجديف، ليت البعض لا يطرح مثل

أثناسيوس الرسولي، الكتاب الأول، ترجمة د. جرجس كامل، د. وهيب قزمان، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية بالقاهرة، طبعة ثانية يناير ٢٠١٠ ص ٢٣ هامش ٤٠.

(١) يؤكد القديس كيرلس في موضع آخر على أزلية الابن بناء على أزلية العلاقة بين الآب والابن، إذ يقول: "ولنؤكد أن الآب لم يكن يوماً محروماً من ابنه، بل الابن كائن دائماً في الآب الأزليّ الذي بلا بداية. وهو لم يكن أبداً أباً للابن رغماً عنه وهذه الإرادة لا تنشأ ولا تظهر أبداً قبل الولادة. ولأن إرادة الآب حكيمة جداً وعاقلة، فلا يجرؤ أحد على أن يدّعي أن إرادة الله غير حكيمة أو غير عاقلة. وهكذا فإن الابن هو حكمة الله الآب وعقله. وهكذا ففي الابن توجد كل إرادة الآب". أنظر حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الحوار الثاني ص ١٢٩.

هذا السؤال عن الابن: هل وُلِدَ بإرادة الآب أم لا؟ لأنه كما أن الآب صالحٌ بحسب الطبيعة، هكذا هو والدٌ بحسب الطبيعة أيضاً.

٢٦- ردٌ آخر بطريقة وصفية

لا يمكن أن تكون هناك إرادة بدون لوغوس (كلمة – فكر)؛ لأن الإرادة عبارة عن الكلمة المخبوءة في القلب دون أن تظهر. والابنُ هو مشورة الآب وكلمة الآب، إذن هو إرادته. فإذا كان الأمر كذلك، فكيف عندئذٍ تصير الإرادة في الإرادة ؟ بالتالي الابن هو كل شيء بالنسبة للآب: الإرادة والكلمة والحكمة، ولا يوجد شيء في الآب قبل الابن.

٢٧- ردٌ آخر مثل السابق

الإنسان لديه إمكانية أن يصير أباً لأولاده بحسب طبيعته، وهو لا يصير أباً بإرادته، مثلما يمكن أن يكون شريراً أو صالحاً بإرادته. فالأول (إمكانية الولادة) توجد فيه بحسب طبيعته، بينما الثاني (أن يكون شريراً أو صالحاً) فيعتمد على إرادته. في الحالة الثانية نتسيَّد، بينما في الحالة الأولى نخضع لناموس الطبيعة الذي لا يُخترق.

إذن، فإذا لم يكن لدينا الإمكانية لأن نصير آباءً لأولادنا بإرادتنا، بل بحسب الطبيعة، هكذا أيضاً الأمر بالنسبة لله الآب، فهو ليس آباً من بعد إرادته، لكن بحسب طبيعته. وكما يكون الأولاد الذين يُولَدون منّا متماثلين معنا من جهة الجوهر، هكذا أيضاً الابن الذي لم يُولد خارجاً عن الآب، بل من جوهره، يكون متماثلاً مع الآب الذي وَلَدَهَ في كل شيء. وكما أنه لم يَصِر آباً من بعد إرادته، هكذا أيضاً الابن، فهو ليس شعاعَ وختمَ ذاك الذي وَلَدَهَ بإرادته، لكن بحسب الطبيعة[1].

(1) نفس الحُجة سردها القديس كيرلس في تعليقه على ١ يو ٢: ٩ إذ يشرح قائلاً: "يقول يوحنا "مَنْ قَالَ إِنَّهُ فِي النُّور وَهُوَ يُبْغِضُ أَخَاهُ، فَهُوَ إِلَى الآنَ فِي الظُّلْمةْ" (١ يو ٢: ٩). إذن النور فينا بإرادتنا الحرّة. فهو بالإرادة وليس بالجوهر حاضر في الأشياء المخلوقة. ولذلك كل مَنْ يكره أخاه هو في الظلمة. فالابن الوحيد هو بالطبيعة النور، وليس النور فيه بإرادته وكثمرة لحرّية الاختيار. لذلك هو ليس من ذات الطبيعة المخلوقة بل هو فوق الكلّ بغير قياس". راجع شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ١٠٩.

٢٨- اعتراض آخر مثل اعتراضات إفنوميوس

يقول المعترض: يجب أن اسأل أولئك الذين يعتقدون أهم يؤمنون بالصواب، أيٌّ من الإثنين: هل وَلَدَ الآب الابن بإرادته أم بدون إرادته؟ لأنه، إذا كان الابن كائناً في جوهر الآب، فالآب إذن لم يلد بإرادته، بل تحتَّم عليه أن يلد ذاك الذي يوجد في طبيعته. لكن إن كان يوجد في الآب، وقد وُلِدَ منه دون أن يريد الآب ذلك، إذن، فإرادة الآب كانت حتماً توجد قبله، وبالتالي لم يكن الابن شريكاً في الأزلية للآب الذي وَلَده.

٢٩- الـرد

أولاً: حريٌ بنا بأن نتعجب من أولئك الذين - بدون تحفُّظٍ - يستسلمون لكل تجديف، ولذلك ندينهم لأجل جهلهم الكبير؛ لأنهم لا يخجلون مِن إخضاع الله ذاته للاحتياج، ويقولون إنه يوجد شيءٌ في جوهر الله في الآب مثل إناء داخل إناء آخر[1]. لكننا تعلّمنا أن نؤمن بالصواب وعن حق، فالابن يُوجد في الآب، ليس مثل جسدٍ يُوجد في جسد آخر، بل هو من جوهر الله غير المحوى بحسب الطبيعة. وإن ظن هؤلاء المعترضون أنهم حكماء حين يتساءلون: إن كان الابن قد وُلِدَ بإرادة الآب أو بدونها، فليتهم يسمعون مِنّا الآتي:

هل تلد النارُ الحرارةَ التي تتولد عنها بإرادتها أم بدون إرادتها؟

على أني أظن أنهم لن يجيبوا على هذا السؤال؛ لأن الذي يأتي من الطبيعة لا يقبل إرادة أو عدم إرادة، بينما بالنسبة للأمور التي تأتي خارج ناموس الطبيعة والتي تُوجد في

---

(١) يؤكد القديس كيرلس على أن الهراطقة لا يفهمون نصوص الكتاب المقدس فهماً صحيحاً لأنهم يفترضون فهماً بشرياً للحقائق الإلهية، إذ يقول تعليقاً على قول المسيح "أنا في الآب والآب فيَّ" الآتي: [لقد قال المخلّص إنه في الآب، والآب فيه. وواضح لكلٍ واحد، أن هذا لا يعني وجود جسد في جسد آخر، أو وعاء في وعاء، وإنما الصواب أن الواحد يُعلن الآخر. لأن كل منهما في الآخر في الجوهر نفسه غير المتغّير وله ذات الطبيعة الإلهية الواحدة غير المتغّيرة، ولعل أقرب تشبيه هو أن يشاهد إنسان وجهه في مرآة ويندهش من التطابق التام لدرجة أنه يقول. "أنا في هذه الصورة وهذه الصورة فيّ" أو مثلما تقول حلاوة العسل حينما توضع على اللسان "الحلاوة في العسل والعسل فيَّ" أو مثل الحرارة الصادرة من النار كما لو كانت تقول "أنا في النار والنار فيَّ"]. شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٦٢.

سلطتنا، تسري الإرادة أو عدم الإرادة. فإذا كنَّا نصنع أشياءً بإرادتنا أو بدون إرادتنـــا، إلاَّ أننا نلد من ذواتنا بدون الإرادة. هكذا الله أيضاً بالمثل يصنع الأشياء الخارجة عن جوهره، لكنه يلد الابن أزلياً من ذاته، دون أن تكون للإرادة أي موضع، بالرغم من أن الابن ليس بدون إرادة الآب، لأن الآب يُحِب الابن، كما هو مكتوب (أنظر يو ٣: ٣٥).

٣٠- اعتراضٌ آخر من اعتراضات إفنوميوس

إذا كان الآب لم يلد الابن بإرادته، بل من طبيعته، فمعرفة الآب للابن إذن هـــي من طبيعته أيضاً. وعلى ذلك يكون الآب قد عرف أن ابنه الذي سوف يخلق معـــه كـــل الأشياء، سوف يوجد. وهكذا يكون الآب قد اكتسب معرفته بوجـــود الابـــن متـــأخراً، اكتسبها من طبيعته.

فإن كان هذا الأمر غير معقول، عندئذٍ، يكون الابن قد أتى إلى الوجود بـــإرادة الآب، وفي كل الأحوال تسبق الإرادةُ الولادة.

٣١- الـــرد

كأننا نعترف بأن الآب عَرِف أولاً مَنْ يكون الابن، ومن ثمَّ بعد ذلك ولده!

لقد كوَّن المعترض المُرتاب حجته حول هذا الموضوع دون أن يعرف؛ لأنه لم تكن هناك أية فترة زمنية بين وجود الله وولادة الابن، لا يوجد موضعٌ لمعرفةٍ سابقةٍ عنـــه. لأن الآب لو كان قد فكَّر مسبقاً في ولادة الابن، ومن ثمَّ صارت هذه الأمور فيمـــا بعـــد في الزمن، لَكان الابنُ خاضعاً للزمن. لكن إن كان الله هو خالق الأزمنة، فلماذا يثرثر المعترض ضد الطبيعة الإلهية مقدِّماً إياها على أنها - كما يقول هذا المعترض - تُخبر الله، الذي هـــو أسمى مِن الكل، عن الأمور المستقبلة؟

وبما أن ولادة الابن هي فوق الدهور والأزمنة[1]، بالتالي يكون هذا الأمر محض تجديف مملوء من الجهل، أقصد أن نقول إن الآب فكَّر وعَلِم مسبقاً بأنه سيكون له ابنٌ، لأن الآب كاملٌ في معرفته بكل شيء، وليس لإرادة التفكير أي موضع قبل الابن.

٣٢- ردٌ آخر

بما أن الآب يعرف ذاته بكونه دائماً آبًا، إذن، فهو يمتلك معرفة الابن على أية حال في داخله. لأن معرفته بكل شيء تتضمن معرفة البنوة، خاصةً أنه يُدعى آبٌ، وهكذا هو آبٌ في علاقته بالابن وفق محاربي المسيح. الابن يعرف ذاته كما يعرف الآب أيضاً. لأن الأبوة تُدرَك من البنوة، والعكس صحيح، إذ تُعرف البنوة من الأبوة. فالله إذن كان دائماً الآب[2]، وبالتالي أيضاً الابن. إذن هو محض تجديف أن نقول إن الآب لا يعرف الابن الذي

---

(١) يؤكد القديس كيرلس في شرحه لإنجيل يوحنا أن الابن هو قبل كل الدهور، إذ يقول: "فلست أظن أن أحداً يصل به الغباء إلى القول إن الابن أقلّ أزليّة من الآب، فالابن قبل كل الدهور وهو خالق كل الدهور. فالذي صنع الأزمنة لا ينطبق عليه مقياس الزمان، ولا يمكن أن نحدد زمان ولادته من الآب. وليس الابن أقلُّ من الآب حجماً لأن الطبيعة الإلهية تعلو على مقاييس الأحجام والأجسام. فكيف هو أقلّ؟! أفي المجد كما يظن البعض؟! أم في القوّة؟! أم في الحكمة؟! عليهم أن يقولوا لنا بدقة كيف أن الآب أعظم؟ أفي المجد والقوّة والحكمة؟! إذا كان الآب يفوق كل المقاييس المقبولة لدى العقل، فمن أين جاءت الجسارة للأريوسيين على مقارنة الآب بالابن والإدعاء أن الابن أقلّ، من الآب وإنكار كرامته الإلهية التي له بالطبيعة؟ لأن المقارنة بين عظيم وأقلّ منه في العظمة يمكن برهنتها وإثباتها إذا وضعناهما معاً ولكن حيث إن كرامة ومجد الآب تفوق الإدراك، فبأي مقاييس يمكن إتمام المقارنة؟! في هذه الحالة بالذات يسقط الإدعاء أن الابن أقلّ من الآب". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٥٨ - ٥٩.

(٢) الله هو دائماً آب ولدية ابن وإلاّ كيف ننال نحن الأبوة من الله دون أن يكون الله آباً ؟ هكذا يتساءل القديس كيرلس في شرحه لإنجيل يوحنا، قائلاً: " إن اسم العشيرة أو الأبوّة لم يأخذه الله منّا نحن، بل نحن الذين أخذناه من الله. والكلمة الصادقة هي كلمة الرسول بولس التي تصرخ: " الَّذِي مِنْهُ تُسَمَّى كُلُّ عَشِيرَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَعَلَى الأَرْضِ" (أف ٣:١٥). ولكن الله هو منذ الأزل، ونحن نتمثّل به لأنه هو المثال ونحن خُلِقنا على صورته. فكيف نكون نحن على صورته ومثله أي آباء ولنا أبناء بالطبيعة، وليس في الأرض أبوّة خُلِقنا نحن على مثالها Archetype ؟ كيف ننال نحن الأبوّة من الله دون أن يكون الله بالحق أباً؟! ألا يكون هذا ضد طبيعة الأمور أن نكون نحن آباء ويأخذ الله الأبوّة منّا ويقلدّنا نحن، وليس نحن مَنْ نتمثل به؟!". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٥٧.

يأتي منه، وأنه تعلّم عنه من طبيعته، وطبيعة الله لا يمكن أن تكون شيئاً آخراً فيه؛ لأنه بسيط وغير مركب.

٣٣- اعتراض آخـــر من اعتراضات إفنوميوس

بالإرادة والتفكير[١] وَلَدَ الآبُ الابنَ، وليس بحسب الطبيعة. إذ لو كان قد ولـــده فقط بحسب الطبيعة وليس بإرادته وبفكره، عندئذٍ فقد وُلِد بدون إرادته وبدون فكره. فإذا قبلتم الاثنين، عندئذٍ تجعلون الله مركّباً ناسبين له الطبيعة والفكر، وبالتالي كيف يمكن لهذا الذي يتكوّن من اثنين أن يكون بسيطاً؟

٣٤- الـــرد

إن ولادة الابن توجد فوق التفكير والإرادة. لأن الإرادة والتفكير - على أية حال - يصيران في الزمن، بينما خالق الأزمنة هو الابن. فكيف إذن يمكن أن يُوجد المخلوق قبل الخالق؟ فإذا كنتم تعتقدون أن الله صار مركّباً لأن لديه طبيعة وإرادة، انتبهوا أيضاً، فـــإن الآب لديه خاصيةَ أن يلد بطريقة طبيعية، وكذلك لديه خاصية أن يخلق بواسطة الابن، لكن طبيعته ليست مركبة بسبب هذا. لأن الإثنين هما نتاج طبيعة واحدة. وهذا بالتأكيد يسري أيضاً على خواص الصلاح وعدم الموت وغير المنظور، وكل ما يوجد في الطبيعة الإلهية.

(١) تعبير "بالإرادة والتفكير" عند القديس كيرلس يتناسب مع الخلق أما "بحسب الطبيعة" فإنها تتناسب مع الولادة، لذلك من الواضح أن الهراطقة يعانون من الخلط بين الخلق والولادة، ويشرح القديس كيرلس هذا الأمر، قائلاً: "هناك فارق كبير بين "يخلق" و"يَلِدْ"، وذلك بغض النظر عن كل المماحكات الفكريّة. وأنا أرى أنه يجب ألاّ نخلط بين أن ننسب للآب أن طبيعته بسيطة وبين أن نستغل هذه البساطة بدون تعقل، لكي نفكر عنه أفكاراً غير منطقية ولا تليق به. فإذا كان الله بالخلق وَلَدَ أيضاً، وإذا أراد أحد رؤية الخلق والولادة كشيء واحد، بدون أي تمييز بينهما ولا اختلاف، ولا يرى أن الخلق غير الولادة، فإني لا أستطيع أن أوافق على ذلك، لأن هذا سوف يؤدى لاعتبار كل شيء خَلَقَه الله، مولوداً منه. تصوّروا معي العدد الذي لا يُحصَى للمخلوقات والأنواع، وهذا يستحيل أن نحصيه، ولكن مَنْ يريد ذلك فعليّه أن يحاول إحصاءها، لأنه لا يوجد كائن واحد لا ينتمي لطغمة المخلوقات، وعليه أن يُحصِي أيضاً أصغر المخلوقات وأقلها شأناً، فهل سيصير الله أباً لكل هذه المخلوقات الدنيا؟". حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الأول، الحوار الثاني ص ١٠٢ - ١٠٣.

٣٥- اعتراض آخر من اعتراضات إفنوميوس

أخبرونا أنتم يا من تزعمون أن الابن هو شعاع (بهاء) الآب، ما هو - في النهاية - رأيكم، وسؤالنا هو الآتي:

النور، أي إنارة النار - على سبيل المثال - عندما توجد في مصباح، فإنها تنير كل ما هو خارج، لكن النار ذاتها لا تملأ كل شيء، وهي موضوعة في مكان محدد، ولكن، إنارة النار تسطع على النطاق الخارج عنها. فإن كنتم تقولون إن الآب هو نور، والابن هو شعاع النور، عندئذٍ يتحتم عليكم أن تقولوا إن جوهر الآب لا يمكن أن يملأ الكل، فلا بُد أن يُوجد في مكان يمكن فيه أن ينبعث منه الشعاع ويحتويه. فإذا كان الآب يملأ كل شيء، كما تقولون، فأين يُحتوى جوهر الابن؟

٣٦- الـرد

لو كان الآب في مكان معيَّن ويحتل موضعاً ما مثل أي جسد، عندئذٍ ليتكم تفتِّشون أيضاً عن مكان للابن الذي ولده! لكن بما أن جوهر الآب لا يوجد في مكانٍ واحدٍ؛ (لأن الإلهي لا يمكن أن يكون محصوراً في مكانٍ واحدٍ)، فأنتم تفحصون عبثاً أموراً لا تقبل أي فحصٍ، بل وتتطاولون قائلين: أين يمكن لجوهر الابن أن يجد مكاناً إذا كان الآب يملأ الكل؟

بالتأكيد، الآب يُوجد في الابن والابن يوجد في الآب، لكنهما ليسا متطابقين ولا هما واحداً في العدد[1]. لأن الآب يوجد بخاصيته، والابن بخاصيته، وهذا هو الاختلاف

([1]) يؤكد القديس كيرلس دائماً على الوحدة والتمايز في نفس الوقت عند حديثة عن الثالوث القدوس، إذ يقول في نفس السياق أثناء شرحه لإنجيل يوحنا: "الابن هو من الجوهر نفسه مع الآب، والآب هو من الجوهر نفسه مع الابن، وكلاهما مساوي ومثل الآخر تماماً بلا تغيير حتى أننا نرى الآب في الابن والابن في الآب، وكلاهما يُشرق من خلال الآخر مثلما قال المخلّص نفسه "اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ" و"أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ" (يو ١٤:٩، ١٠). ومع أن الابن في الآب والآب في الابن وهو مثل الآب الذي وَلَدَه تماماً في كل شيء، ويعلن الآب في ذاته بلا نقص، إلاّ أن هذا لا يعني أن الابن فَقَدَ اقنومه المتميِّز، ولا أن الآب فَقَدَ أقنومه الخاص به، فالتماثل التام بين الأقانيم لا يعني اختلاط الأقانيم حتى أن الآب الذي منه يولد الابن يصبح بعد ذلك ابناً، ولكن الطبيعة الإلهية الواحدة نفسها هي للاقنومين مع تمايز كل منهما حتى أن الآب هو الآب والابن هو الابن وأيضاً الروح القدس

الوحيد للآب عن ذاك الذي ولده. لأن الآب كائنٌ بذاته، وليس هو الابن، والابن كائنٌ بذاته وليس هو الآب.

إذن، الابن يتمايز[1] عن الآب، ولكنه يحمل بالطبع نفس طبيعة الآب. وإذا كان الابن يوجد أيضاً في الآب مثل الشعاع الذي ينبعث من الشمس ويأتي بالطبع منها، وهو ليس شيئاً آخراً عنها؛ لأنه واحدٌ معها من جهة الطبيعة، إلاّ أن الشمس شيءٌ، والشعاع شيءٌ آخر.

فالآب إذن يُشرق الابن حقاً من ذاته، الابن الذي هو صورته تماماً وختم طبيعته.

يحسب معهما إلهاً مثل الآب والابن. وهذا هو كمال الثالوث المعبود". شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، المرجع السابق، الإصحاح الأول ص ٤٨.

(١) أيضاً في سياق تعليقه على قول المسيح: "أنا والآب واحد" يؤكد القديس كيرلس على التمايز والوحدة في علاقة الآب والابن، إذ يقول: "أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ" (يو ١٠:٣٠) هكذا قال المخلّص مؤكداً أن له كيان خاص متمايز عن كيان الآب. وإذا لم يكن هذا هو الحق الواضح، فلماذا قال: "أَنَا وَالآبُ"؟ كان عليه الاكتفاء بكلمة"وَاحِدٌ". ولكن حيث إنه أعلن ماذا يقصد بالكلام عن اثنين، فقد قضى تماماً على إدعاء المخالفين؛ لأن عبارة "أَنَا وَالآبُ" لا يمكن أن تعني أهما أقنوم واحد، بل أهما واحد في الجوهر". المرجع السابق ص ٤٨.

المقالة الثامنة

إلى أولئك الذين يقولون:
إن الابن ليس مثل الآب، بل هو مثل إرادته

١- يستطيع المرء - عن حق - أن يدين محاربي المسيح بشأن ما يثيرونه عن الإرادة. لأنه إذا اعتبر أحدٌ أن ما يقولونه صحيح، فإنه يكون قد أُصِيب بالجنون، أي إذا صدَّق هؤلاء الذين يقولون إن الابن هو مثل إرادة الآب، وليس مماثلاً للآب. ذلك؛ لأن الكتاب المقدس لم يذكر هذا المصطلح عنه، كذلك لم يقل المخلِّص: "اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى إرادةَ الآبَ" (راجع يو ١٤: ٩). وهل كان يجب على مَنْ قال: "أَنَا هُوَ الْحَقُّ" (يو ١٤:٦) ألاَّ يكون مثل الآب بحسب الطبيعة، مثلما يزعم أولئك؟ لكن بما أنه لم يجيء على ذِكر الإرادة أبداً، بل يصف ذاته بأنه صورة الآب، فمن الواضح، أنه يقلب زعم أولئك.

٢- ردٌ آخر

ينبغي أن نسأل محاربي المسيح: إرادة الآب هذه التي تزعمون أن الابنَ شبيهٌ بها، هل هي جوهرٌ قائمٌ بذاته؟ فإذا أجبتم بأن الإرادة لها جوهرٌ وأقنوم، فكيف إذن يكون الابنُ هو وحيد الجنس، خاصةً، وأنه - في هذه الحالة - سيكون الثالث من الآب؟ لأن إرادة الآب - وفق زعمكم - قائمة وحيّة وتسبق ولادته.

أمَّا إذا أجبتم بأن الإرادة ليس لديها كيان (أقنوم)، ولا هي جوهر حيٌّ وموجود مثل الابن، عندئذٍ تطلبون - في جهل - مشابهةً دون أن تفترضوا جوهرين. فكيف يمكن لَمن كان له جوهر وأقنوم، أن يتماثل مع مَن لا جوهر لديه أو أقنوم؟ وكيف يمكن التحقق مما إذا كان هذا الذي لا جوهر له، يتماثل مع ذاك الذي لديه جوهر وكائنٌ بإقنومة؟

٣- ردٌ آخر

ومَنْ هو ذا العاقل الذي لا يعترف بأن حيواناً ما يشبه حيواناً، وأن الذي ليس بحيوان لا يتشابه بالحيوان؟ فالكائن الذي ينتمي إلى جنس معين، يكون من طبيعة مغايرة لتلك التي ينتمي إليها جنسٌ آخر، ومَن يفكر بطريقة سليمة لا يمكن أن يقول بالتماثل فيما بينهما. فعلى سبيل المثال، إذا قارنا بين أي كائن حّي، إنساناً كان أو حيواناً، وشيئاً معنوياً ينتمي إلى العِلم كالحكمة والإرادة، أو أي شيء آخر مما يُميِّز الكائنات مثل البشر والملائكة، دون أن يكون موجوداً في حد ذاته. فإذا زعم أحدٌ أن الإنسان أو الحيوان يشبه العِلم، أي يتشابه مع الحكمة أو الإرادة، فكيف لا يجلب جهله الضحك، إذ أنه شرَعَ يبحث ويفحص الأشياء التي لا تتشابه إطلاقاً فيما بينها؟

إذن، فابن الله كائنٌ بأقنومه، وهو ليس شبيهاً بالإرادة التي لا أقنوم لها.

غير ذلك، دعهم يقولون مباشرةً إن الابن ليس هو مثل الآب؛ لأنهم بهذا يصيرون ممقوتين إذ يجدِّفون بوضوح. وإلاّ، فعليهم أن يعترفوا بمماثلة الابن بالآب، عندئذٍ يكون من المحتم ألاّ يتشابه الابن مع الإرادة، لكنه بالحري يكون شبيهاً، ومتماثلاً مع الذي ولده. لأنه قد تبرهن على أن المماثلة تقوم بين الذين يمتلكون جواهر وأقانيم، وليس مع تلك التي تنتمي إلى جنس مختلف، أو تُوجد في آخرين مثل الحكمة في الحكيم، والفكر في المفكر.

٤- ردٌ آخر

إن كان الابنُ – بحسب زعمكم – يشبه إرادة الآب، دون أن يكون شبيهاً بذاك الذي ولده، يتحتم عليكم إن تقولوا إن الإرادة ليست شبيهة في شيء بالله الآب، خاصةً وأن الابن الذي هو ختمها، ليس شبيهاً بالآب بحسب رأيكم، وفي هذه الحالة لا يكون الآب أيضاً شبيهاً بإرادته. وهذا تجديف واضحٌ ينتج عن قولكم.

ولو قُلتم إن الإرادة هي عبارة عن شيءٍ له أقنوم، فسوف تكون، على أية حال، غير شبيهة بجوهر الآب، وهذا القول أيضاً يجبرنا على أن نعترف بما سبق أن أشرنا إليه من تجديف. على أننا هنا يجب أن نوضح كيف لا تتشابه الإرادة مع الآب:

الإرادةُ أدنى مِن الآب لعدم توفر المشابهة بينها وبين الآب، مع أن الإرادة ليست شيئاً غريباً وخارجاً عنه حتى يمكن مقارنتها معه، بل هي منه وتوجد فيه. وعلى ذلك نسأل: هل يكون الابن بذلك هو الأدنى؛ لأنه يشبه إرادة الآب فقط، وليس الآب؟ هل يكون الابن الذي وُلِد من الآب أدنى مِن الذي ولَدَه؟

أمَّا أن يلد جوهر الله شيئاً أسوأ، فهذا ما لا يحدث، حتى في الكائنات ذات الطبيعة المخلوقة. لأن الإنسان بالطبع لا يلد شيئاً مختلفاً عما يكون هو، بل ولا حتى أيضاً أحد من الكائنات غير العاقلة.

لو قلنا إن إرادة الآب تهدف إلى أن تكتسب شيئاً أعظم – وهو الأمر الذي لا يليق بنا أن ننطق به – ألا نكون بذلك قد قارنَّاها بالأدنى؟ ألا نقع تحت التجديف إذا قلنا إن شيئاً ما هو أعظم وأسمى من الآب؟ وإذا كنَّا لم نقبل هذا الفكر، ولا الفكر الآخر، وكانت الإرادة بلا أقنوم أيضاً، كما نقول نحن، فكيف تقولون هنا أيضاً إن الإرادة غير شبيهة بالآب، وكأن الآب يريد أن يكون له أشياءٌ لا تتناسب معه، الأمر الذي يعتبر مجرد التفكير فيه جدُّ عبثٍ.

٥- ردٌّ آخر

سوف يجبركم الحديث – حتى دون أن تريدوا – على الاعتراف بمماثلة الابن بالآب حسب الجوهر. لأنه ثَبتَ أنه من العبث أن تؤمنوا بأن الله أراد هذا الوضع الذي لا يتناسب معه. وإذا كان من المحتم أن نقول إن إرادته تُشبه الله، إذن فبما أن الإرادة تشبه الآب، والابن يشبه الإرادة، عندئذٍ يكون الابن مثل الآب. لأن الإرادة الموجودة في الوسط تشبه الابن المولود من الآب، كما تقولون. هكذا إذن، يكون الابن – وبدون أن تريدوا – متماثلاً مع الآب. لكن بما أنه لا يوجد شيءٌ بين الآب والابن، فالحديث عن الإرادة يكون تزيداً لا لزوم له. وهكذا، وبدون أن يتوسط أحدٌ، يكون الابن بحسب الطبيعة مثل الآب[1].

---

(١) أي واحد مع الآب في الجوهر أو مساوٍ للآب في الجوهر، ويبرهن القديس إمبروسيوس على هذه الحقيقية، قائلاً: "إن كان قد كُتب بخصوص جميع الذين آمنوا أنه كان لهم نفس واحدة وقلب واحد، "وإن كان كل واحد

٦- ردٌ آخر

مكتوب أن المسيح هو قوة الله وحكمته (أنظر ١ كو ١: ٢٤). إذن فلو كانت إرادة الآب تُصَوِّر أيضاً قوته وحكمته، أي الابن، لتحتم ألاَّ نقول إنها غير متشابهة مع الآب، حتى لا يظهر الآب آخذاً قوةً وحكمةً، هذا (الابن) الذي لا يتشابه مع ذاته. وإذا كان الأمر على هذا النحو، ليت محاربي المسيح يدركون حجم عدم تبصرهم. لأن هؤلاء الرافضين ينكرون أن الابن الواحد هو مثل الآب[1]، وينسبون له الإثنين (أي أنه هو الابن والإرادة معاً) طالما أنهم يقولون إن الإرادة هي شيء له كيان (أقنوم)، بينما لو كانت هي بلا كيان، فلا يمكن لهذا الذي لا وجود ولا كيان له، أن يكون ختمَ ذاك الذي له كيان.

٧- ردٌ آخر

الكائنات التي تقوم بنفس الفعل وتستخدم نفس القدرات الطبيعية، يجب على أية حال أن يكون لها نفس الجوهر. لأنه لا يمكن لكائن من الكائنات ذي قدرات وأفعال خاصة، أن يتماثل مع كائن ينتمي لجنس وجوهر آخر. فالكائنات التي لها نفس الطبيعة تستخدم خواصاً معينةً. والكائنات التي لها نفس الجوهر تكون متماثلةً فيما بينها في كل

يلتصق بالرب يكون معه روحاً واحداً" (١ كو ١٧:٦) كما يقول الرسول، وإن كان الرجل وزوجته يكونان جسداً واحداً، وإن كنا نحن جميعنا البشر المائتين بحسب طبيعتنا المشتركة نكون من جوهر واحد. وإن كان هذا هو ما يقوله الكتاب المقدس بخصوص الإنسان المخلوق، إنه وإن كان متعدداً لكنه واحد، وهو الذي لا يمكن أن يُقارن بالأقانيم الإلهية، فكم بالحري يكون الآب والابن واحداً في الإلوهية، وهما اللذان لا يوجد بينهما أي اختلاف في الجوهر أو المشيئة!". القديس إمبرسويس، شرح الإيمان المسيحي، ترجمة د نصحي عبد الشهيد، مارس ٢٠٠٥، الجزء الأول، الكتاب الأول، الفصل الثاني فقرة ١٨ ص ٢٣.

(١) يفنِّد القديس إمبروسيوس إدعاء الهراطقة بأن المسيح ليس هو صورة الآب، ويؤكد على أن الرسول بولس يدعوه صورة الآب، قائلاً: "يقول الرسول إن المسيح هو صورة الآب، لأنه يدعوه: "صورة الله غير المنظور، بكر كل خليقة". انتبه من فضلك، فهو يقول بكر وليس أول الخليقة، حتى نؤمن به أنه مولود حسب طبيعته، وأنه الأول بسبب أزليته. وفي مكان آخر أيضاً، فإن الرسول قد أعلن أن الله جعل الابن: "وارثاً لكل شيء، الذي به أيضاً عمل العالمين، الذي هو بهاء مجده وصورة جوهره" (عب ١:٢ و ٣). فالرسول يدعو المسيح صورة الآب، بينما يقول أريوس إنه ليس مثل الآب، فلماذا إذن يُسمَّى صورة إن لم يكن مماثلاً (للآب)؟ إن البشر لن يقبلوا أن تكون الصور التي تُعمل لهم غير مماثلة لهم، وأريوس يقول إن الآب ليس مثل الابن، وأن الآب قد وَلَد شخصاً ليس مماثلاً له، وكأنه غير قادر أن يَلِد المماثل لنفسه". القديس إمبرسيوس، شرح الإيمان المسيحي، ترجمة د نصحي عبد الشهيد، الجزء الأول، الكتاب الأول، الفصل السابع، فقرة٤٨، ص ٣٨.

شيء. إذن، فبما أن فعل الآب والابن متماثلان، وفي كل شيء تظهر القوة ذاتها، فالواحد ليس له جوهر يختلف عن الآخر. وإذا كان الأمر على هذا النحو، فالابن هو مثل الآب، إذ له نفس الجوهر وليس صورةً لإرادته.

٨- ردٌ آخر

بما أن كل ما يفكر فيه الله الآب، هو نفس ما يفكر به الابن أيضاً؛ (لأن أي عدم اتفاق، أو انشقاق ليس له موضع في الثالوث القدوس الواحد)، إذن، فأين توجد تلك الإرادة المتأقنمة التي تمتلك كياناً خاصاً بها، تلك التي تُقدِّم الابن كثالث، الابن الذي هو في معية الآب، خاصةً وهو أيضاً الابن الذي لا يوجد شيءٌ يسبق ولادته؟ فالابن إذن هو الإرادة الحية المتأقنمة للذي ولده.

٩- ردٌ آخر

يقول الكذابون إن الابن هو ختمٌ وشبيهٌ بإرادة الآب، لكنه لا يشبه الآب ذاته. لذلك نحن نسأل، أيضاً، محاربي المسيح: هل الآب هو شبيه بإرادته أم لا؟ لأنه إن كان غير شبيه بإرادته، عندئذٍ تكون إرادته غير شبيهة به. وليصمت التجديف من جهة هذا الأمر. لكن لو كانت الإرادة شبيهة بالآب، وكان الابن - كما تزعمون - هو ختم وصورة الإرادة، عندئذٍ يكون الابن مثل الآب، من جهة هذا الأمر. إذن كيف لهذا الذي هو ختم الآب، أن يصير غير شبيه به بحسب الجوهر بسبب تشابهه بالإرادة؟ لأنه إن كانت الأمور هكذا، بحسب رأيكم، لكان الابن مكوَّناً من عنصر مشابه وآخر غير مشابه، وبذلك يكون متشابهاً في جزء مع الآب، وفي جزء آخر يكون غريباً عنه.

ثم، أيُ منطقٍ يسمح لهذا الذي يكون واحداً في الجوهر وفي العدد، كبولس أو بطرس على سبيل المثال أن يكون لديه في نفس الوقت عنصرين متضادين بحسب الطبيعة؟ لأن المرء لا يستطيع أن يقول أنا عاقل وغير عاقل، ولا يستطيع أحد أن يقول أيضاً عن النار هي حارة وباردة. لأن وجود الواحد يلغي الآخر من جهة المعني.

بناءً على ذلك، من غير الممكن أن يوجد في الابن الشبه وغير الشبه. ولأن الكتاب المقدس يؤكد على تماثل الابن مع الآب، وأيضاً هو بذاته يقول: "اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى

الآبَ" (يو ١٤: ٩)، ونحن لا نقبل غير أن يكون الابن مثل الآب من جهة الجوهر؛ لأنه لم يقل: الذي يراني يرى إرادة أبي، لذا لا نؤمن بأن الابن هو صورةٌ لإرادة الآب، بل بكونه ابناً، فهو صورة الآب ذاته[١].

١٠- ردٌ آخر

الأشياء التي ليست على علاقة فيما بينها، ولا وجه للتشابه الطبيعي فيما بينها، ومنفصلةً بعضها عن البعض بحسب الجوهر، تختلف فيما بينها، إمَّا لأنها تنفصل عن بعضها من جهة المكان، أو من جهة الأفكار. فالأشياء ذوات التكوين الجسدي تنفصل فيما بينها من جهة المكان، والبعض الآخر تختلف فيما بينها منطقياً باختلاف جوهرها، مثل اختلاف الإنسان عن الحصان. وكذلك الأشياء التي تختلف فيما بينها بسبب الأسماء، فإنها تنفصل فيما بينها، وتختلف بالمنطق والأفكار، مثل الصحة والمرض.

لكن المتدربون على دروس الفلسفة يُفرِّقون بين الانفصال المباشر، وغير المباشر.

الانفصال المباشر مثل الصحة والمرض، لأنه لا موضعَ مشتركاً لأي شيء فيما بينهما. فالإنسان إمَّا أن يكون معافىً أو مريضاً، ولا يوجد شيءٌ بين الاثنين.

والانفصال غير المباشر أيضاً مثل العدل والظلم، لأن أحداً لا يكون عادلاً تماماً، أو ظالماً تماماً، لكن من الممكن أن نجد أحداً في مكانة متوسطة بين العدل والظلم.

إذن، فبما أننا فسَّرنا هذه الأشياء بهذه الطريقة، وأوضحنا اختلافها فيما بينها في كل شيء، ليتنا نرى لأي سبب من الأسباب التي قلناها يختلف الابن عن الآب.

فمن جهة المكان، لا يمكن لأحد أن يقول إن الابن يختلف عن الآب؛ لأنه ليس بجسد، والانفصال المكاني هو أحد الملامح الأساسية للأجساد. إذن يبقى الانفصال بالمنطق. وأنا أقصد الانفصال بالمنطق والإدراك من جهة الطبيعة. لكن بما أن الآب هو الله بحسب

---

(١) يؤكد القديس كيرلس على هذه الحقيقة أيضاً في حواره حول الثالوث، قائلاً: "إننا نؤمن أن الابن هو صورة مطابقة لجوهر الله الآب... وبسبب أن له الإرادة الواحدة مع الآب، فلهذا يقال إنه هو صورة الله الآب، هكذا فإن كل ما للآب حسب الطبيعة صار له هو أيضاً ولم يتردد في أن يقول "الذي رآني فقد رأي الآب... أني أنا في الآب والآب فيَّ" (يو ١٤ :٩ - ١٠)، "أنا والآب واحد" (يو ١٠: ٣٠)". القديس كيرلس الأسكندري، حوار حول الثالوث، ترجمة د. جوزيف موريس فلتس، الجزء الرابع، الحوار الخامس، ص ٣١.

الطبيعة، وكذلك الابن هو الله بحسب الطبيعة، فأي منطقٍ يفصله عن الأب؟ ومَنْ هو هذا الذي لا يسمح بأن يكون بينهما تماثلٌ، طالما كان هذا التماثل من جهة الجوهر الواحد؟

وهناك أمرٌ آخر أيضاً، الآب لا يتضاد مع الابن في شيء مثل تلك الأشياء التي يُقال عنها غير مباشرة. لأنه لا يوجد تضاد فيما بينهما مثل الصحة والمرض. ولا شيء من هذه الأشياء التي، كما قلنا، توجد في البشر، ويحتِّم المنطق أن توجد في الآب والابن. ولا تلك التي لا تتفق ولا يمكن أن توجد معاً في نفس المكان، هذا أيضاً هو حال الابن مع الآب. لأن المسيح يقول: "إِنْ أَحَبَّنِي أَحَدٌ يَحْفَظْ كَلاَمِي، وَيُحِبُّهُ أَبِي، وَإِلَيْهِ نَأْتِي، وَعِنْدَهُ نَصْنَعُ مَنْزِلاً" (يو ١٤: ٢٣).

ولا يوجد أيضاً شيءٌ غير مباشر بين الآب والابن، مثل العدل والظلم. لأنه لا يكون الآب آباً قليلاً ولا الابن يكون ابناً قليلاً، للدرجة التي يمكن معها أن يكون في موضع متوسط يحتوي على نقص في الجوهر، مثلما قيل عن العدل والظلم.

إذن، فبما أنه لا يوجد أي مكانٍ يفصل الابن عن مماثلته للآب في الجوهر، يكون لغواً من اللغو القول بأن الابن هو بالأكثر مثل الإرادة، وليس مثل الآب ذاته، الذي منه أشرق بكونه شعاعه.

١١- ردٌ آخر

الكائنات التي يكون لها نفس المواصفات الأساسية، تكون من نفس النوع، وتتشابه فيما بينها بحسب الطبيعة. فعلى سبيل المثال، التحديد الوصفي للإنسان الذي يقول إنه كائن حي عاقل، فان، مميَّز بذهنٍ وعِلم، ينطبق في كل ما ذُكِر على تلك الكائنات التي لديها نفس الجوهر. وتلك الكائنات، طبقاً لهذا التحديد تكون بشراً. لأنه، لو وُجد كائن حي عاقل وفان ومميَّز بذهنٍ وعِلم، ماذا يكون غير إنسان؟

إذن، فبما أن الألقاب الأساسية: الله والرب وغير الفاسد والملك، وأي أسماء أخرى مع هذه الأسماء تُقال عن الآب، وكذلك تُنسب للابن، خصوصاً وأن هذه الأسماء لا تُعد مجرد ألقابٍ، بل هي حقٌ بحسب الطبيعة، فما الذي يمكن أن يمنع عن الابن تشابهه

الطبيعي بالآب؟ لأن لديهما نفس تحديد الجوهر، وكل ما يوجد في الوالد يتحقق في الذي وُلِدِ منه.

وإذا تجرَّأ أحدٌ على القول بأن الابن هو إله كاذبٌ، ولا شيء لديه أكثر من هذه التي بحسب النعمة قيلت للإلوهية والبنوة، يكون قد سقط في تعليم بولس الساموساطي[1]، وعليه أن يسمع مِنا، عن حق: "إن لم تؤمنوا فلن تفهموا". لأنه من غير الممكن لهؤلاء الذين لا يؤمنون بأن الابن هو إلهٌ بحسب الطبيعة أن يدرك مماثلته مع الآب بحسب الطبيعة[2]. بالتالي، الابن حقاً مثل الآب من جهة الجوهر، ولا يمثل صورة الإرادة لأنه هو الابن الأزلي.

---

(1) كان بولس الساموساطي أسقفاً لأنطاكية (٢٦٠ - ٢٦٨م) وأُدين في عام ٢٦٨م بعد سلسلة من المجامع التي من خلالها ظهر ضلال عقائده. وحسب تعليم هرطقته: المسيح هو مجرد إنسان عادي ثم صار إلهاً بسبب التبني كمكافأة على فضائله. وهكذا لم يؤمن الساموساطي بالثالوث القديس، وأعتبر المسيح أفضل من موسى والأنبياء.

(2) غير المؤمنين لا يمكنهم تفسير نصوص الكتاب لأهم لا يؤمنون بأن الابن هو إله بحسب الطبيعة. فإن تأنس الكلمة - عند القديس كيرلس وكذلك من قبلة القديس أثناسيوس - بمثابة البداية والمركز والغاية للتفسير الكتابي، فالكلمة الكتابية هي بحد ذاتها يجب أن تُفهم في توافق مع تأنس **الكلمة**. وهذا يعني أن نفهم نصوص الكتاب في إطار تأنس **الكلمة** وأن الابن هو إله بحسب الطبيعة. فنحن لا ننطلق من الألفاظ ولا الألفاظ هي التي تحدد محتوي الإيمان المستقيم الذي تسلمناه من الكنيسة التي تسلمته من الرب والرسل القديسين". أنظر القديس أثناسيوس، ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثالثة، فقرة٣، ص ١٤ - ١٥.

المقالة التاسعة

الابن هو من نفس جوهر الآب طبقاً لهذه الشواهد:

- "لِمَاذَا تَدْعُونِي صَالِحاً؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحاً إِلاّ وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ" (مر ١٠: ١٨)،

- "إِنِّي أَصْعَدُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ وَإِلَهِي وَإِلَهِكُمْ". (يو ٢٠:١٨)،

- "لأَنَّ أَبِي أَعْظَمُ مِنِّي" (يو ١٤:٢٨).

١- لو كان الآب قد بدأ يلد الابن، ثم توقف، كما يزعم محاربو المسيح، وكان هذا قد صار في زمنٍ تالٍ ومتأخرٍ، فوفق هؤلاء، كان الله واحداً، قبل أن يلد، ثم صار اثنين عندما ولَدَ الابن، وهكذا صار الابن مثل إضافةٍ أو زيادةٍ من الواحد إلى اثنين بعد ذلك، بمعنى أن الآب قد تعب من كونهِ واحداً، ففكر في الابن كشريك للإلوهية والأعمال.

مثل هذه التجاديف المملوءة عبثاً، وغيرها، إنما نشأت نتيجة إيمانهم هذا، وهي تجاديف ضخمة وبشعة للدرجة التي تجعل كل واحد يهرب منها. وإذا كنا نؤمن بأن الابن لم يَصِر متأخراً بعد الآب، بل هو مثل الآب لا بداية له، فإنه من الجيد لنا أن نتجنب كل ما قالوه من عبث.

لأنه إن كان الابن قد صار في وقتٍ لاحق، فإن ذلك لا يجعله من نفس الجوهر مع الآب، وهذا لم يحدث؛ لأنه كان دائماً معه، إذن هو من نفس جوهر الآب.

٢- ردٌ آخر

بالرغم من أن الابن يختلف عن أبيه، في أن الآب هو البداية بينما الابن يأتي من هذه البداية، إلاَّ أنه بالرغم من ذلك لم يتوقف عن أن يتطابق معه ويكون من نفس جوهره.

لأنه لا يوجد شيء يشترك في الأزلية مع الآب دون أن يأتي منه بحسب الطبيعة، وهذا الأمر يمثل امتيازاً فقط للطبيعة الإلهية؛ وإلاَّ لَقُلنا إنه يوجد أيضاً في المخلوقات.

بالتالي، فحتى إذا كان الابن قد جاء من الآب كبدايةٍ، آخذاً وجوده في نفس الوقت من هذه البداية، فهذا لا يعني إنه ليس من جوهره. فبسبب أنه يجيء من تلك البداية، فهو لأجل هذا هو من نفس جوهر هذه البداية. وتعبير "من نفس جوهر الآب"، وإن كان لا يعني أن هذا صار متأخراً، لكنه يعني أيضاً أن الابن ليس هو نفسه الآب، وبالتالي علينا أن نميِّز بين الأقنومين[1].

---

(١) يؤكد القديس كيرلس في شرحه لنص يو ١:١ أن البدء بالنسبة للابن هو بدء أزلي، إذ يقول: "أما بالنسبة للابن فالبدء ليس بدءاً زمنياً ولا جغرافياً، فهو أزليّ وأقدم من كل الدهور، ولم يُولَد من الآب في الزمان لأنه "كان" مع الآب، مثل الماء في الينبوع، أو كما قال هو "خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِ الآبِ وَقَدْ أَتَيْتُ إِلَى الْعَالَمِ" (يو ٢٨:١٦). فإذا اعتبرنا الآب المصدر أو الينبوع، فإن **الكلمة** كان فيه لأنه حكمته وقوّته وصورة جوهره وشعاع مجده. وإذا لم يكن وقت كان الآب فيه بلا حكمة و**كلمة** وصورة وشعاع، فإنه من الواضح أن وجود الابن الذي هو حكمة و**كلمة** وصورة الآب وشعاع مجده أمر لا يحتاج إلى إقرار منا، فهو أزليّ مثل الآب الأزلي، وإلاّ كيف يوصف أنه صورته الكاملة ومثاله التام، إلاّ إذا كان له بوضوح ذات الجمال الذي هو على صورته" القديس كيرلس الأسكندري، شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، المرجع السابق، الإصحاح الأول ص ٤٢.

أما عن التمايز الحادث بين الآب والابن، فيؤكده قائلاً: "تقول الأسفار الإلهية إنه "فَإِنَّهُ فِيهِ خُلِقَ الْكُلُّ: مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ، مَا يُرَى وَمَا لاَ يُرَى" (كولوسي ١٦:١)، هكذا نؤمن ونعبد حسب الحق ونصعد في طريقنا إلى الحق والإيمان السليم حسب العقيدة الصحيحة. فما هو المعنى الدقيق للفظة "فيه" أي "في الابن" أو "بالابن"؟ من الواضح أن هذا يعني أن الذي يصنع هو غير الذي يتم بواسطته العمل لأن الآب إذا كان يعمل كل شيء "بالابن" فمن الواضح أن له أقنوماً متميزاً ويصبح تعبير "بالابن" "قادراً" على التعبير عن أقنومين. وعلى المخالفين أن يقولوا لنا كيف يفهمون تعبير "بالابن"؟ وكيف يعمل الابن إذا كان هو أقنوماً واحداً مع الآب. ولكني أظن أنه سيصابون هنا بالارتباك. ولكن حيث إن الأسفار المقدسة تعلن أن الآب عمل كل الأشياء بالابن، ونحن نؤمن بهذا وكذلك أظن أنهم أيضاً يؤمنون به، فكيف لا يكون ضرورياً أن نفهم أن الآب يُوجَد متميّزاً بنفسه، وهكذا الابن أيضاً متَميِّز بنفسه، وهذا لا ينفي بالمرَّة أن الثالوث القدوس له الجوهر الواحد نفسه". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول، ص ٥١.

٣- اعتراضٌ آخر من اعتراضات إفنوميوس

إن كان جوهر الآب لا يقبل الولادة (غير مولود) في حين أن الابن وُلِدِ (مولود)، فكيف يمكن أن يكون هذا المولود من نفس الجوهر، مع الآب الذي لا يقبل الولادة؟

٤- الرد

ليت هؤلاء الذين يفترضون هذه الأقوال عن جهلٍ يقولون لنا:

إن كانت الولادة تُبطل المساواة في الجوهر، فبأي شيء تخلصون؟

وأيضاً: لو لم يكن هذا الذي وُلِد هو من نفس الجوهر مع ذاك الذي ولَدهَ، فمَنْ يمكنه أن يكون من نفس جوهر الآب، هل ذاك الذي لم يُولَد ومن كان غريباً عن الجوهر، أم ذاك الذي ينتمي إلى الموجودات، رغم أن ذلك مستحيل؟

إذن سوف تقولون: إن غير المولود هو، على أية حال، من نفس جوهر غير المولود، بينما المولود لا يشبه غير المولود.

حسناً. آدم لم يُولد، بينما هابيل وُلِد من امرأة، أليس هو من نفس الجوهر مع آدم. فإذا كان قد وُلِد، ولديه تطابقٌ طبيعيٌ مع آدم الذي لم يكن قد وُلِدَ، فما الذي يمنع الابن الذي وُلِد من الآب غير المولود أن يكون من نفس جوهر الآب؟

٥- ردٌ آخر

كون أن الابن قد وُلِد من الآب، فهذا ما سوف يوافق عليه محاربو المسيح، ولا أعتقد أن أحداً يمكنه أن يصل إلى هذه الدرجة الكبيرة من الشر ويتطاول قائلاً إن الابن يُوجد خارج الجوهر الإلهي مثل كل المخلوقات. وبالتالي، إذا كان الآب قد ولَدَ الابن من ذاته، فلماذا لا يكون الابن من نفس جوهره؟

ليت محاربو الله **الكلمة** يقولون لنا: هل ولده هكذا من جوهره؛ لأنه لم يستطع أن يفعل غير ذلك؟ أم لأنه لم يُرِدْ أن يلده من نفس جوهره؟ فإن قالوا لا يستطيع، فهم يهينون جوهر الآب، إذ يتطاولون على الجوهر الإلهي ويصفونه بعدم القدرة. وإن قالوا إنه لم يُرِد أن يلد الابن من نفس جوهره، فإنهم يهينونه، بطريقة أخرى، ناسبين له شيئاً سيئاً، أقصد

عدم الرغبة فيما هو أسمى. لأنه، لو كان "من نفس الجوهر"، لَكان أعظم من "الذي ليس من نفس الجوهر"، فكيف لا يمثل قولهم: إن الجوهر الإلهي أظهر عدم الرغبة تجاه الأمور الأسمى واللائقة جداً، ولم يُرِد الأحسن، الشيء الأسوأ من كل التجاديف. على أن الآب يمكنه أن يفعل كل شيء ويريد، على أية حال، ما هو أسمى، بالتالي لا شيء يعيق الابن عن أن يكون من نفس جوهر الآب.

٦- اعتراض آخر لإفنوميوس

إن الذي يأتي من عِلةٍ أو يُولد، يجيء - على أية حال من حيث الترتيب - ثانياً. وعلى ذلك، فالابن يجيء - من حيث الترتيب - الثاني بعد الآب، طالما أن الآب هو عِلته، ولأجل هذا، فهو ليس من نفس الجوهر. غير ذلك، يعني أن تمضي الإلوهية الواحدة تجاه الانقسام وتصير اثنين؛ لأنه لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك، وعلى ذلك يتحتم أن نقول إن الابن ليس من نفس جوهر الآب.

٧- الـــرد

لا يشعر محارب المسيح أنه مخمورٌ، لذا تجده يثرثر بلا هدف، متطاولاً على الجوهر الإلهي. لأن قطع الشيء إلى قطعتين بينهما مسافة لهو ملمحٌ من ملامح الأجساد. بينما الجوهر الإلهي للآب الذي هو غير متجسد لا يقبل القطع والتجزئة[1]، وهو أيضاً لا يبقى في مكان واحد، ولا يمكن أن يحتويه مكان، بل هو كائن في حالة غير موصوفة. وقد أشرق الابن من ذاته دون انقسام، ولا يمكن للآب أن يكون كاملاً، بطريقة أخرى، إلاّ فقط بأن

(1) مشكلة الهراطقة هي – كما قلنا - أنهم يفهمون ولادة الابن من الآب على أنها ولادة جسدية، لذا يشرح القديس كيرلس ولادة الابن مبرهناً على أنها لا تخضع لقوانين الأجساد، وذلك في نفس السياق من خلال كتابة حوار حول الثالوث، إذ يقول: "فعندما يقال عن طبيعة الله غير الموصوفة والتي تفوق كل عقل أنها تَلِد، فهؤلاء يَعتقدون إنها تتأثر بعملية الولادة هذه، وهم في هذا يَجهلون تماماً ماهية الطبيعة غير الجسديّة وماهية طبيعة الأجسام وما هي التغيّرات التي تعانيها الأجساد. لأن ما لا جسم له هو غير قابل للتقسيم على الإطلاق، بمعنى أنه غير قابل للاشتقاق والتجزيء الذي يتناسب مع طبيعة الأشياء الماديّة الملموسة، أو لإمكانية أن يتأثر بأي شيء من هذه الأشياء.إذن عندما يُقال عن الله أنه "وَلَدَ" فيجب أن يُرفض أي شك في أن الله يعتريه تغيّير بل أن يسود الفكر الذي يعطي طبيعة الله ما يليق بها. لأن الله لا يلد كما نلد نحن بل يلد بالطريقة التي تناسبه". حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الثالث، الحوار الرابع ص ٧ - ٨.

يلد الابن. ولا يمكن أيضاً أن يكون خالقاً، إن لم يلد - من ذات جوهره الإلهي بدون تجزئة - الابن الذي به خلق كل شيء(وعلى ذلك يكون الابن قد وُلِد من الآب ليس بقطعٍ ما، أو تمزُّق كما تتخيلون، بل أتى من جوهر ذاك الذي ولَدَهَ بغير تجزئة مثلما تُولَد الحرارة من النار[1].

٨- اعتراضٌ آخر من اعتراضات إفنوميوس

لو كان الابن من نفس جوهر الآب، لماذا لا يكون صالحاً مثل الآب، إذا كان المسيح يقول لأحد الأشخاص: "لِمَاذَا تَدْعُونِي صَالِحاً؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحاً إِلاَّ وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ" (مر ١٠: ١٨ - مت ١٩: ١٧)؟ وبقوله إن "واحداً" صالحٌ، جعل ذاته خارجاً؛ لأنه عندئذٍ يكون صالحاً، لكن ليس هكذا مثل الآب.

٩- الرد على هذا الاعتراض

حين ترى الكتاب المقدس يُسمي الابن ربَّاً، هل تعترف بالتالي أنه حقاً ربٌّ، أم أنك سوف تنكر هذا أيضاً ضمن ما تنكر من أمور كثيرة تنكرها؟

لأنه، إذا قُلت إنه ليس ربَّاً، عندئذٍ تؤمن بأمورٍ متناقضة مع الكتب المقدسة، ومع الروح الذي قال هذه الحقائق. بينما إذا وافقت وقلتَ إنه ربٌّ، فسوف يُحكمُ عليك كمجدِّف داعياً إياه ربَّاً وتسجد لذلك الذي تزعم أنه ليس مساوياً للآب في الجوهر، وتعبد بالحري مخلوقاً وليس إلهاً بحسب الطبيعة. لأن هذا الذي هو من جوهرٍ مختلف عن الله

---

(1) هنا يتحدث القديس كيرلس عن ولادة الابن من جوهر الآب، وكون أن الابن في الآب والآب في الابن، ودائماً ما يؤكد على هذه الحقيقة في شروحاته وتعاليمه، على سبيل المثال في شرحه لإنجيل يوحنا يقول: "أننا نرى الابن مولوداً دائماً مشرقاً من جوهر الآب، وهو فيه، وبه، متميزاً عن الآب لأنه الله **الكلمة**. وأيضاً نرى الآب في الابن، كما هو مولود من الجوهر نفسه، وله الطبيعة الإلهية نفسها، متمّيزاً عنه كأقنوم، لأن الآب يظلّ هو الآب، رغم أنه مثل الابن في الطبيعة، ويشترك معه في ذات الجوهر، وهو في الابن مثل الشمس والشعاع. والابن أيضاً يظلّ هو الابن، رغم أنه مثل الآب في الطبيعة ويشترك معه في ذات الجوهر، وهو في الآب مثل الشعاع في الشمس. وباعتقادنا أن الآب هو الآب بالحق، والابن هو الابن، والروح القدس الذي له مكانه الخاص به معهما كأقنوم يكون الثالوث القدوس هو اللاهوت الواحد نفسه". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول، الفصل الخامس ص ٧٩.

الحقيقي، لا يمكن أن يكون إلهاً بحسب الطبيعة. والشاهِد لهذا هو الكتاب المقدس الذي يقول: "الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ" (تث ٦: ٤)؛ لأن الإلوهية هي واحدة. ويجب فقط أن نسجد لها. اسمع أيضاً: "الرَّبَّ إِلهَكَ تَتَّقِي. إِيَّاهُ تَعْبُدُ" (تث ١٠: ٢٠ – أنظر مت ٤: ١٠).

وهل يفقد الابن خاصية الصلاح؛ لأن الله فقط هو الصالح؟

وهل لأن الآب يُدعى ربٌّ وإلهٌ واحدٌ، لا يكون الابنُ ربَّاً وإلهاً طبقاً لنفس التفكير. بالتالي، كيف تسجد لهذا الذي هو ليس ربَّاً، ولا إلهاً؟ وبما أن الآب هو ربٌ وإلهٌ، ومن هذا الأمر يُستنتج أن الابن أيضاً لديه هذه الخاصية، طالما يأتي من الآب بحسب الطبيعة، وهو مع الآب ربٌّ وإلهٌ، إذن، فخاصية الصلاح، مثلما توجد في الآب، هكذا توجد أيضاً في الابن.

١٠- ردٌ آخـــر

رغم أن الكتب المقدسة تقول الكثير أيضاً عن أقنوم الآب وأقنوم الابن، إلاّ أن اختلاف الأسماء لا يجعل تحديد الجوهر يختلف للدرجة التي توجد فيها حالة من عدم التماثل الجوهري فيما بينهما؛ لأنه توجد إلوهية واحدة للآب والابن حتى لو كان كل واحد من الإثنين يُعلَنُ بطريقةٍ مختلفةٍ بتنوع التسمية، فاختلاف التسمية لا يعني أن كل واحد لديه شيء يختلف عن الآخر، بل كل شيء يوجد في الإثنين يُنسب للجوهر الواحد، فيما عدا فقط تسمية (الأقانيم)، وحقيقة أن الواحد هو آبٌ والآخر هو ابنٌ. لأن الآب هو دائماً آبٌ، ولا يمكن بتاتاً أن يصير ابناً. والابن هو دائماً ابنٌ ولا يمكن أبداً أن يصير آباً.

إذن، فلو أراد أحد أن يقول إنه لا يمكن أن يوجد شيءٌ واحدٌ في الإثنين معاً طالما نُسب هذا الشيء إلى واحدٍ فقط منهما، فإنه يقع في شر عظيم. لأنه ما موقف المرء مما قاله بولس: "لكِنْ لَنَا إِلهٌ وَاحِدٌ: الآبُ الَّذِي مِنْهُ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ، وَنَحْنُ لَهُ. وَرَبٌّ وَاحِدٌ: يَسُوعُ الْمَسِيحُ، الَّذِي بِهِ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ، وَنَحْنُ بِهِ" (١ كو ٨: ٦).

فها هو بولس ينسب للآب خاصية الله الواحد، وللابن أيضاً خاصية الربِّ الواحد. فهل بسبب أن الآب يُدعى إلهٌ واحدٌ، لا يكون الابن هو الله؟ وهل لا يكون الآب

ربًّا؛ لأن الابن يدعى ربٌ واحدٌ؟ لا يمكن أن يحدث هذا بالطبع؛ لأنه بما أن الآب إلهٌ، يكون الابن أيضاً إلهاً، وطالما كان الابن ربًّا، هكذا يكون الآب أيضاً ربًّا.

أمَّا إن كان هناك اختلافٌ ما في الجوهر يفصل بوضوح بين الإثنين، ولا يتركهما يتَّحدان في تطابق طبيعي، حينئذٍ فإن ما يُنسب للواحد لا يُنسب للآخر. لكن لأن كل ما يُنسب إلى الآب يوجد أيضاً في الابن، وكل ما للابن هو أيضاً للآب، لدرجة أنه ما من شيء يعيق التطابق بينهما، يكون الابن أيضاً صالحاً مثل الآب، وبسبب هذا يكون أيضاً من نفس جوهر الآب.

١١- ردٌ آخر

إن كل ما يكون بعيداً عن التشارُك والتطابق الطبيعي فيما بينهما، يفصلهما اختلافٌ ما للخصائص في العلاقة الطبيعية بينهما. لنأخذ كمثال: الإنسان والحصان، فخصائص الحصان ليست هي ذاتها التي للإنسان، والعكس صحيح، خصائص الإنسان مختلفة تماماً عن خصائص الحصان. إذاً، فلو كان هناك اختلافٌ طبيعي يعيق الابن ويُظهره غريباً عن جوهر الآب، كيف - عندئذٍ - يكون لدى الابن كل خصائص الآب؟ وكيف للآب، إن كان غريباً عن الابن بحسب الطبيعة، أن يكون لديه كل خصائص الابن؟

إن ما قاله المخلِّص عن علاقته بالآب هو حق: "كُلُّ مَا هُوَ لِي فَهُوَ لَكَ، وَمَا هُوَ لَكَ فَهُوَ لِي" (يو ١٧: ١٠). إذن، فبما أن كلَّ الخصائص مشتركة، والصلاح المطلق هو أحد هذه الخصائص، فالابن إذن يمتلك هذه الخاصية أيضاً، خاصةً وأنه من طبيعة الآب المولود منه. والابن الذي له كل خصائص جوهر الآب، هو - على أية حال - مساوٍ للآب في الجوهر.

١٢- ردٌ آخر

إن قول المسيح لمريم: "اذْهَبِي إِلَى إِخْوَتِي وَقُولِي لَهُمْ: إِنِّي أَصْعَدُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ وَإِلهِي وَإِلهِكُمْ" (يو ٢٠: ١٧) يثبت أن الابن مساوٍ للآب في الجوهر.

إذ كان **كلمة** الله في هيئة الله، أخذ الشكل البشري (أنظر فيلبي ٢: - ٧) لأجل خلاصنا، كما هو مكتوب، ووضع ذاته دون أن يُنقِص الحد اللائق بإلوهيته. لقد صار

إنسانا حقاً، و لم يتوقف عن أن يكون أيضاً الله، إلاّ أنه بعد الإخلاء بكونه إنساناً قال أموراً تتناسب مع الإنسان، و لم تُنقص مكانته التي تنتهي إلى الله بسبب هذا، بل ظّل أيضاً هو ذاته، طالما أن الاتضاع الذي تتحدث عنه الكتب المقدسة يخص التدبير الإلهي.

وكون أنه "بحسب التدبير" يقول هذه الأمور بكونه إنساناً - حافظاً جيداً الشكل البشري الذي أخذه بالأقوال والأعمال - نعرفه من الآتي، لأنه يقول للسامرية متظاهراً أنه يهودي: "أَنْتُمْ تَسْجُدُونَ لِمَا لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ، أَمَّا نَحْنُ فَنَسْجُدُ لِمَا نَعْلَمُ" (يو ٤: ٢٢)، بالرغم من أن الابن ينتمي إلى المسجود لهم، وليس إلى الساجدين. لأن الكتاب يقول: "اسجدوا له يا جميع الملائكة" (مز ٩٧: ٨س - عب ١: ٦). وبالنسبة للملائكة، أو أي مستوى آخر متساوٍ في الكرامة معهم، لا يُذَكر شيءٌ مثل هذا في الكتب المقدسة، لأنه لا يأمر الملائكة أن تسجد لأحدٍ إلاّ لله فقط. لأنه مكتوب: "الرب إلهك تتقي وإياه تعبد وباسمه تحلف" (تث ٦: ١٣ - أنظر مت ٤: ١٠).

حسناً، فبالرغم من أن الابن يُسجد له، يقول - بحسب التدبير، بكونه إنساناً - إنه يَسجُد. هكذا أيضاً بينما هو الله بحسب الطبيعة يدعو الله أباه، كإنسان بحسب التدبير. وبسبب هذا لا يتوقف عن أن يكون الله، كابنٍ بحسب الطبيعة، هو أيضاً من نفس جوهر الآب.

١٣- ردّ آخــر

بالرغم من أن الابن لديه هيئة الله ومساوٍ لله الآب بحسب الطبيعة، إلاّ أنه يدعو الآب إلهاً له، فهل كان من الممكن أن تسقط الطبيعة الإلهية في مثل هذه الأمور (أي أن تجعل الله إلهها)؟ عندئذٍ سيكون لدى الآب أيضاً إله حتى لو لم يكن قد صار بعد، وطبعاً هذا محضُ تجديف.

إذن، فالآب لا يُدعى بحسب الطبيعة إلهٌ للابن، بل بحسب التدبير من جهة طبيعة الابن البشرية.

١٤- ردٌ آخـــر

بما أن الابن، وهو آخذٌ هيئة الله والمساواة - كما هو مكتوب - وضع ذاته آخذاً شكل العبد وظهر كإنسان، فإن الأقوال البشرية المتواضعة لا تخص جوهره، بل تُنسب إلى شخصه البشري. ومثلما نتعرف على اتضاعه البشري من سمو إلوهيته، هكذا أيضاً النقيض، مِن اتضاعه البشري نتعرف على عظمة وسمو جوهره[١].

(١) التأكيد على إلوهة الابن وأيضاً تجسده هو تأكيد أساسي في الإيمان المسيحي ويشرحه القديس كيرلس بشتى الطرق، إذ في سياق الحديث عن حجاب الخيمة والتابوت يقول: "كان التابوتُ في الخيمة، وكان الحجابُ معلّقاً من فوق إلى أسفل، وكان الحجابُ مصنوعاً من أسمانجوني وأُرجوان وقرمز بحيث لا يُظهر التابوت الذي كان في الداخل. وفوق الحجاب كان الشاروبيم على الجانب الأيسر والأيمن. وكان الله يظهر ويعطى الوصايا يبيّن أنه فوق كل الخليقة. والسيرافيم الذين يمتازون عن كل المخلوقات الملائكية يوجدون أسفل المجد الإلهي الذي لا يُوصف، ويلتفون حول الابن نفسه بالرغم من أنه صار جسداً وهو في حالة إخلاء من جهة أنه مساوٍ للآب في الجوهر (المجد الذي كان له عند الآب) حيث صار إنساناً. لذلك قال: "أَبِي أَعْظَمُ مِنِّي" (يو ١٤: ٢٨)، وبينما هو مساوٍ للآب بطبيعته، يقول إنه أقل منه - فقط - بسبب طبيعته البشرية. لذلك نجد الشاروبيم موجودين في الخيمة المقدسة دائرياً على الحجاب محيطين بالابن الذي هو إله. لكن فوق الحجاب نفسه يقول "وسوف أظهر من هناك، وسوف أتحدث إليك"، أي الآب الذي هو فوق كل الخليقة، وهو هنا يبدو كما لو كان فوق عمانوئيل نفسه، لكن ليس من جهة لاهوته إذ هو مساوٍ للآب في كل شيء، بل من جهة أنه أخلى نفسه آخذاً شكل العبد، ونزل إلى مقاييس البشرية". القديس كيرلس السكندري، السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء السادس، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم ومراجعة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، يوليو٢٠٠٧، المقالة العاشرة ص ٢٠ - ٢١.

المقالة العاشرة

الابن هو من نفس جوهر الآب

١- حين يتحدث محاربو المسيح عن إلوهية الابن، تجدهم يبحثون في علاقة الابن بحسب الطبيعة مع أبيه، غير أنهم يستخدمون - عن غير حق - الأقوال التي قيلت بشرياً، والتي قالها الرب عندما أخذ جسدنا. لأن الجوهر غير الجسدي لا يُوصف بهذه الأقوال التي قالها الرب بحسب التدبير بكونه إنساناً، لكن ينبغي أن نعرف وأيضاً نؤمن، أنه بينما كان الله الكلمة مساوياً للآب في الجوهر في كل شيء، أخذ الطبيعة البشرية، وصار إنساناً لكي يتحدث أيضاً كإنسان بسبب تَجسُّده بحسب التدبير[1].

لكنه يتحدث أيضاً بكونه إلهاً عن الأمور التي تفوق الطبيعة البشرية، لأنه هو الله بحسب الطبيعة، ويتحدّث كإله عندما تقتضي الظروف هذا الحديث. لكن لو أراد أحد أن يأخذ هذه الأقوال التي قيلت بكونه صار إنساناً وبحسب التدبير، كما قلت، كأنها أقوال تخص إلوهيته، أو أن هذه الأقوال قالها بكونه إلهاً، وينقل هذه الأقوال إلى الفترة التي صار فيها إنساناً، فلسوف يُخطئ في تقديره للأمور ويُبطل التدبير الإلهي. لأنه قال: "الْحَقَّ الْحَقَّ

---

(١) الحديث هنا عن الإيمان الخريستولوجي المستقيم الذي هو بمثابة المفتاح الآمن لتفسير النصوص الكتابية، ولا ننسى أن هذا الإيمان الخريستولوجي المستقيم هو الذي تسلمناه من إيمان وتقليد الكنيسة، وهذا ما أكد عليه كل من القديس كيرلس ومن قبله القديس أثناسيوس الذي يقول: "وسمة إيماننا هذه مأخوذة من الرسل بواسطة الآباء فيجب أذن على مَنْ يقرأ الكتاب، أن يفحص ويميز متى يتكلم (الكتاب) عن إلوهية **الكلمة**، ومتى يتكلم عن أموره الإنسانية، لئلا يفهم أحدهما بدل الآخر، فنقع في نفس الخطأ الذي سقط فيه الأريوسيين". القديس أثناسيوس الرسولي، الرسائل عن الروح القدس إلى الأسقف سرابيون، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد ود. موريس تاوضروس، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، نوفمبر٢٠٠٥، طبعة ثانية، الرسالة الثانية، فقرة ٨، ص١٠٥.

أَقُولُ لَكُمْ: قَبْلَ أن يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَنَا كَائِنٌ" (يو ٨: ٥٨)، وأيضاً: "لأَنِّي قَدْ نَزَلْتُ مِنَ السَّمَاءِ " (يو ٦: ٣٨).

وإن أراد أحداً أن يقر فقط بإلوهية الابن، فهو عندئذٍ يلغي أنه صار إنساناً في الزمن. لأنه لم يكن إنساناً قبل أن يُولد إبراهيم، إلاّ أنه لاحقاً نزل من السماء وصار إنساناً.

وإن نسب أحدٌ الأقوال والأعمال التي فعلها بكونه إنساناً إلى الله الكلمة قبل تأنُّسه، لارتكب تجديفاً عظيماً. وماذا يفعل عندما يقول المسيح: "نفسي حزينة جداً"؟ هل يمكنه أن يقول – عندئذٍ – إن حزناً واضطراباً انتاب طبيعة الله وسيطر عليه خوف الموت؟ وما الذي يمكن أن يقوله عندما يراه يُصلب ويتألم؟ هل سيأخذ الأمر مثلما يحدث للإنسان، أم أنه سوف يهجر هذا التجديف؟

إذن في كل وقت وفي كل شيء يجب أن نحفظ كل ما يتناسب مع إلوهية الابن، ليس بأقوال قالها الرب بكونه إنساناً، بل من الأقوال التي هي من الآب، أي بكونه إلهاً وابناً، على أن تُنسب الأقوال التي قالها الرب ولا تتناسب مع الإلوهية البسيطة والكائنة بذاها، للتدبير الجسدي. إذن عندما يقول – بكونه صار إنساناً – إنه ليس صالحاً هكذا مثل الآب، ينبغي أن يُنسب هذا القول أيضاً إليه – بالحري – بكونه إنساناً، أي للناسوت ولا يُلصق بجوهر الله الابن[1].

---

(١) ينبغي على الهراطقة أن يدركوا أن الكتاب المقدس يحتوي على إعلان مزدوج للمخلص، إذ يقول القديس أثناسيوس: "كان (الابن) دائماً إلهاً وأنه الابن إذ هو **كلمة** الآب وشعاعه وحكمته، ثم بعد ذلك اتخذ جسداً من العذراء مريم والدة الإله وصار إنساناً" القديس أثناسيوس الرسولي، ضد الأريوسيين، المقالة الثالثة، المرجع السابق، ص ٥٩ – ٦٠.

الأمر الثاني الذي يجب على الهراطقة الإقرار به هو أن صفات الجسد تخص الابن لأنها خصائصه في إطار التجسد، وهذا ما سبق أن أكد عليه القديس أثناسيوس، قائلاً: "خواص الجسد هي خاصة به حيث إنه كان في الجسد، وذلك مثل أن يجوع، وأن يعطش وأن يتألم، وأن يتعب، وما شابهها من الأمور المختصة بالجسد". القديس أثناسيوس الرسولي، ضد الأريوسيين، المقالة الثالثة، المرجع السابق، ص ٦٢.

ويستمر القديس أثناسيوس، قائلاً: "بينما من الناحية الأخرى فإن الأعمال الخاصة بالكلمة ذاته مثل إقامة الموتى، وإعادة البصر إلى العميان، وشفاء المرأة نازفة الدم، قد فعلها بواسطة جسده، **والكلمة** حمل ضعفات الجسد كما لو كانت له، لأن الجسد كان جسده، والجسد خدم أعمال اللاهوت، لأن اللاهوت كان في الجسد، ولأن الجسد كان جسد الله". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثالثة، ص ٦٢.

٢- إجابة مقنعة على ذاك الذي سأل: "لماذا تدعوني صالحاً؟"، وشرحٌ لهذا القول:

يجب أن نفحص عمق هذا الحدث، وعندئذٍ سوف نعرف جيداً قول المسيح: "لماذا تدعوني صالحاً؟". لقد اقترب منه ناموسيٌ (لأن هكذا مكتوب) طالباً أن يعرف بأية طريقة سوف يخلُص. وبعدما دعاه مُعلّماً وصالحاً، سأله: "ماذا أفعل لكي أرث الحياة الأبدية؟". أجابه المسيح: "لِمَاذَا تَدْعُونِي صَالِحاً؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحاً إلاَّ وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ. أَنْتَ تَعْرِفُ الْوَصَايَا: لاَ تَزْنِ. لاَ تَقْتُلْ. لاَ تَسْرِقْ. لاَ تَشْهَدْ بالزُّور. لاَ تَسْلُبْ. أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ. فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُ يَا مُعَلِّمُ، هذِهِ كُلُّهَا حَفِظْتُهَا مُنْذُ حَدَاثَتِي. فَنَظَرَ إِلَيْهِ يَسُوعُ وَأَحَبَّهُ، وَقَالَ لَهُ يُعْوِزُكَ شَيْءٌ وَاحِدٌ: اِذْهَبْ بِعْ كُلَّ مَا لَكَ وَأَعْطِ الْفُقَرَاءَ، فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي السَّمَاءِ، وَتَعَالَ اتْبَعْنِي حَامِلاً الصَّلِيبَ" (مر ١٠:١٨ - ٢١). لكنه تنحى عن أمر المسيح لأنه كان غير قادر على حمل ثقل الوصية، وحقاً كان خاملاً من جهة الفضيلة. لأنه مكتوب: "ومضى حزيناً".

إذن، ما هو الوقت الذي أجرى فيه هذه المناقشة اللاهوتية؟ ماذا يفعل للذي سأله حتى يُحصى من بين هؤلاء الذين يخلصون؟ وأيُ سببٍ كان لديه كي لا يكشف له هذا الذي طلبه ليعرفه؟ وهل أراد أن يقول له أمراً آخراً غير ذاك الذي اشتاق أن يعرفه؟ كيف يمكن للناموسي الذي لم يقدر أن يرفع ثقل وصية إنجيلية واحدة أن يتعلّم السر الأعظم طالما كان غير مستعد وغير مهيأ للرغبة في الصالحات لدرجة أنه لم يقدر ولا بالأقوال أن يحتمل، بل مضى حزيناً، كما هو مكتوب؟

إذن، فقد اقترب الناموسي من الربِّ كإنسان عادي مريداً أن يُظهر نفسه كأنه جاهل، وحسناً فعل لأنه أظهر أنه حاصل فقط على صيتٍ بأنه حكيم لمجرّد أنه يعرف الناموس، لأجل هذا أخجله الرب قائلاً له إن الصالح الوحيد في الحقيقة هو الله، لأنك قد أتيت إليَّ كإنسانٍ ووصفتني بوصف يُنسب فقط لله بحسب الطبيعة، إذ دعوتني صالحاً. إذ أن الصالح - بحسب الطبيعة — هو واحد، أقصد الله. فإذا كنت تعرف أنني الله، ولأجل هذا فأنا صالح، عندئذٍ لأي سبب تقترب إليَّ كمجّرد إنسان؟ وإذا كنت لا تؤمن بأنني إلهٌ، بل تظنني مجرَّد إنسان، عندئذٍ لماذا تنسب لإنسانٍ خاصية تتناسب فقط مع الله؟

في ضوء ما تقدَّم نجد أن الذي قاله المسيح: "لماذا تدعوني صالحاً؟" لا يعدو أن يكون امتحاناً لجهل الناموسي، دون أن يكون له أيُ ثقل لاهوتي.

٣- ردٌ أخر

إن كان قوله، إن الله فقط هو الصالح بحسب الطبيعة[١]، يعني استثناء الابن من جهة التماثل الجوهري مع الله الآب، وأنه أقل من الآب في الصلاح، وبالتالي لا يكون الابن من نفس جوهر الآب، فليت محاربو المسيح يقولون لنا ماذا الذي يفعلونه عندما نقدّم لهم قولاً قريباً من هذا؟ إذ يقول أحد القديسين عن الله الآب، إن الله نورٌ (أنظر يو ١: ٥). لكن يقول أيضاً عن الابن، إنه كان النور الحقيقي (أنظر يو ١: ٩).

ها الآب إذن هو نور وأيضاً الابن هو نور، لكن يُنسب للابن فقط كلمة "الحقيقي"، فهل توقف الآب عن أن يكون هو النور الحقيقي؛ لأن يوحنا أضاف صفة الحقيقي فقط إلى الابن؟ أعتقد أنه ما من أحدٍ يمكنه أن يصل مطلقاً لمثل هذا المستوى مِن الجنون لدرجة أن يقبل مثل هذا التجديف.

إذن، فبما أن الابن يدعى النور الحقيقي، وهكذا الآب أيضاً هو نور حقيقي، بالتالي حين يُدعى الآب صالحاً بحسب الطبيعة، يكون الابن أيضاً صالحاً بحسب الطبيعة مثل الآب. وحيث إنه توجد طبيعة واحدة إلهية للاثنين، توجد أيضاً – على أية حال – المساواة في الجوهر.

٤- ر دٌ أخر

لو كان الابن يختلف عن أبيه في شيء وتسبَّب هذا الاختلاف في ألاَّ يكون له نفس جوهر أبيه، بل يكون من جنسٍ آخر وغريبًا عنه، فإن مسألة أنه لا يختلف عنه في شيء يُظهر أنه مساوٍ للآب في الجوهر.

---

(١) سبق للقديس أثناسيوس أن أكد في نفس السياق، قائلاً: "بخصوص الآيات: "أنا هو الإله وحدي" أو "ليس إله معي"، فالله الكلمة يقول هذا لكي يجعل الناس يتركون الآلهة الكاذبة ولكي يعرفوا بالحري أنه هو الإله الحقيقي، وحينما قال الله هذا، فبلا شك أنه قاله بواسطة **كلمته** الذاتي". ضد الأريوسيين، المقالة الثالثة، فقرة ٨، ص ٢٣.

حسناً، يقول الكتاب المقدس عن الآب إنه نورٌ ويدعو الابن أيضاً نوراً، فطالما لا يوجد هناك شيءٌ يجزِّئ المساواة في الجوهر (طالما أن النور الحقيقي يوجد في الإثنين)، إذن، فما الذي يمنع الابن عن أن يكون من نفس جوهر الآب؟

٥- ردٌ أخر

لو كان الابن من جوهر آخر غير جوهر الآب، فكيف يظهر الآب فيه، ويظهر هو في الآب؟ لأنه يقول: "اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآب" (يو ١٤: ٩).

يمكننا أن نؤكد أنه ليس من الممكن أن نرى شكل الإنسان في حصان، كما لا يرى أحدٌ شكل الحصان في الإنسان؛ لأنه لا يُرى الواحد في الآخر إلاَّ في المتماثلين فقط، وبالتالي لا يمكن بتاتاً أن يظهر الواحد في الآخر في الكائنات التي تختلف من جهة التماثل الطبيعي. وبما أن الابن يظهر في الآب والآب في الابن، إذن، فليس الابن - كما تقولون أنتم - من جوهرٍ آخر، بل هو من نفس الجوهر بكونه ختمَ وصورة الآب (عب ١: ٣).

٦- معارضة من معارضات إفنوميوس:

"إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم" (يو ٢٠: ١٧) توضح أن الابن – بحسب إفنوميوس – ليس هو من نفس جوهر الآب.

يقول إفنوميوس :كيف يمكن للابن أن يكون مساوياً للآب في الجوهر، إن كان هو نفسه يتخذه إلهاً؟ لأنه قال: "أَصْعَدُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ وَإِلهِي وَإِلهِكُمْ" (يو ٢٠: ١٧)، و"إِلهِي، إِلهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي" (مت ٢٧: ٤٦). فإن كان هو إلهه، فكيف يكون من نفس جوهره؟ لأن الكائنات التي تنتمي لطبيعة متماثلة، لا يمكن لها أن يكون الواحد منها، بحسب الطبيعة، إلهاً لآخر، وكذلك لا يمكن لنفسٍ أن تصير إلهاً لنفسٍ أخرى، ولا الملاك يصير إلهاً لملاكٍ آخر.

٧- الرد

إن محارب المسيح لا يُدرك أنه يُظهر الرب كمخلوقٍ وليس ابناً، وعبداً بدلاً من سيدٍ، وخادماً بدلاً من إلهٍ. لأنه لو ظنَّ أن الآب هو إلهٌ للابن بحسب الطبيعة، دون أن يرى

في الأمور الأخرى التدبير الإلهي، عندئذٍ لا يكون الابن من نفس الجوهر، وليس رباً ولا إلهاً.

يبدو أن محارب المسيح هُنا مُصمم على رأيه، ولذلك دعه يكون واضحاً في إخراج الابن من الإلوهية والربوبية، ولندعه يصنِّفه ضمن المخلوقات حتى يصير تجديفهم واضحاً، ليسقطوا جميعاً، وينطبق عليهم القول: تضلون إذ لا تعرفون الكُتب[1].

وبينما كان عليهم أن يفحصوا أهميّة القول الذي يحمل معنىً مستتراً، تجدهم يجدِّفون بلا تحفظ ويقدِّمون الابن ليس بعد كإلهٍ، بل كهيكلٍ لله مثلما قال الله للقديسين: "إِنِّي سَأَسْكُنُ فِيهِمْ وَأَسِيرُ بَيْنَهُمْ، وَأَكُونُ لَهُمْ إِلهاً، وَهُمْ يَكُونُونَ لِي شَعْباً" (خر ٢٩: ٤٥). فوفق هوس أولئك، يكون الابن أيضاً واحداً من ضمن هؤلاء الذين - بحسب النعمة - دُعُوا أبناء الله، إذ قال لهم: "أَنَا قُلْتُ: إِنَّكُمْ آلِهَةٌ وَبَنُو الْعَلِيِّ كُلُّكُمْ" (مز ٨٢: ٦). وكون أنه ليس كهؤلاء على الإطلاق، وإنما يتميَّز بعظمة طبيعته، يتضح مما قاله المسيح في الإنجيل: "أَنْتُمْ مِنْ أَسْفَلُ، أَمَّا أَنَا فَمِنْ فَوْقُ" (يو ٨: ٢٣)، قاصداً بـ "أسفل" الطبيعة للبشرية الوضيعة، و"فوق" الإلوهية التي لها المُلك، وفوق كل شيء كأنها فوق مركبة.

إذن، فبينما نقول إن المسيح هو من فوق حقاً، يقول هذا المعارض إنه من أسفل مُسيئاً بوضوح لجوهر الابن.

٨- الابن هو من نفس جوهر الآب (معارضة من معارضات افنوميوس)

كيف يمكن أن يكون الابن مساوياً للآب في الجوهر، إذا كان الآب بالنسبة له هو عِلة وجوده، وهذا الأمر لا ينطبق على الآب؟ لأن الآب لم يأتِ من عِلةٍ، الأمر الذي لا يجعل أحداً يستطيع أن يقول إن الابن هو إلهٌ حقيقيٌ.

(١) هنا يجهل الهراطقة هدف الإيمان الذي هو تجسد **الكلمة**، كما يقول القديس أثناسيوس: "لأن أعداء المسيح بسبب جهلهم لهذا الهدف، قد ضلّوا عن طريق الحق، واصطدموا بحجر الصدمة (انظر رو ٩:٣٣)، معتقدين في أمور لا ينبغي أن يؤمنوا بها". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثالثة، فقرة ٢٨، ص ٥٩.

٩- الرد

يستطيع أيُ أحدٍ أن يلاحظ هذا الجهل الشديد لهؤلاء الذين يتطاولون ويقولون مثل هذا الكلام. لأنهم وهم يقولون كلمة "الابن" لا يَعنون أنه من نفس الجوهر، دون أن يفطنوا لأي غباء يمضون. لأنه، إذا كان ابناً، وهو بالطبع هكذا بالحقيقة، فهو على أية حال يكون مثل الذي ولَدَهَ من جهة الجوهر[1]. أمَّا لو لم يكن ابناً - بحسب رأيكم - فعليكم أن تُظهروا بوضوحٍ، تجديفكم، وقولوا إنه مخلوق حتى لا يكون من نفس جوهر الآب. وحينذاك سوف تكونون مناقضين لكل الكتب المقدسة التي تدعو الابن ابناً، وليس مخلوقاً.

١٠- ردٌ أخر

بأية طريقة، يا محاربي المسيح، تزعمون أن الآب صار عِلةَ وجود الابن؟

حسناً. إذا كنتم تظنون أنه مخلوق، فإنه عندئذٍ يكون، مخلوقاً وليس ابناً، محاربين بوضوحٍ الآب الذي يقول للذي ولده: "ولدتك من بطني قبل يوسيفوروس" (مز ١٠٩: ٣س). أمَّا لو اعترفتم بأنه - حقاً - هو الابن وآمنتم بأنه هكذا يكون، عندئذٍ يتحتَّم عليكم ألاَّ تقولوا إن الآب صار عِلة الابن كخالق، بل كوالدٍ بحسب الطبيعة. ولن يُعيقكم عن ذلك شيءٌ؛ لأن الذي يأتي من آخر بحسب الطبيعة، يتحتَّم أن يكون من نفس جوهره، حتى لو كان ذاك هو عِلة وجوده.

١١- ردٌ أخر

إن كان كل مَنْ يصير من عِلةٍ ما لا يكون - على أية حالٍ - من نفس جوهره، فكيف كان هابيل الذي وُلد من أُمٍّ كعِلةٍ له، شبيهاً بهذه العِلة بحسب الجوهر؟

---

(١) سبق للقديس أثناسيوس التأكيد على أن الابن هو واحد مع الآب في الجوهر، إذ يقول: "قيل عن الابن وحده إنه الصورة الحقيقية للآب ومن جوهره، ورغم أننا قد خلقنا حسب الصورة ودعينا صورة الله ومجده فذلك ليس من ذواتنا، بل بسبب صورة الله ومجده الحقيقي الساكن فينا، الذي هو **كلمته**، والذي صار جسداً لأجلنا فيما بعد، لكي ننال نحن نعمة هذه الدعوة" ويستمر قائلاً: "وحيث إن فكر الأريوسيين هذا يظهر غير لائق وغير معقول، لذلك فمن الضروري أن يرجع هذا التماثل وهذه الوحدة بين الآب والابن إلى جوهر الابن نفسه، لأنه إن لم يكن سبب التماثل هو وحده الجوهر، فلن يظهر أن الابن يملك شيئاً أكثر من المخلوقات". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثالثة، فقرة١٠، ١١، ص ٢٨ - ٢٩.

إذن، من الحتمي أن يكون كل مَنْ يلد، مماثلاً لِمَنْ يأتي منه، حتى لو كان هذا الذي يلد هو عِلة ذاك الذي وُلِد منه.

١٢- ردٌّ أخر

إن لم يكن الابن شبيهاً بالآب بحسب الجوهر، ولا مساوياً للآب في الجوهر، باعتبار أن الآب لا يأتي مِن عِلةٍ ما، بينما الآب هو عِلة الابن، فما الذي يمنع أن نقول أيضاً إن قايين لم يكن مساوياً لأبيه في الجوهر؟ لأن آدم لم يُولد مِن أحد؛ لأنه كان الإنسان الأول، وفي ذات الوقت كان آدم هو عِلة قايين، إذ صار قايين منه. وبما أن هذا الافتراض كاذب (لأن قايين كان من نفس جوهر آدم)، يكون الابن أيضاً - على أية حال - من نفس جوهر الآب، حتى لو كان الآب بالنسبة له عِلة وجوده، طالما أتى (وُلِدَ) منه أزلياً، وهو كائن معه أبدياً.

١٣- اعتراض من اعتراضات إفنوميوس

كيف يمكن أن يكون غير المولود من نفس جوهر المولود؟ لأن الاختلاف بينهما كبير؟

١٤- الـــرد

إن سؤال محاربي المسيح لا يغيِّر من كون الابن هو من نفس جوهر الآب، باعتبار أن الآب غير مولود والابن مولود. إذا كان الاختلاف بين الكائنات يجعل طبيعتهم تختلف وتنتفي العلاقة والتماثل الطبيعي فيما بين الأجناس، ليتهم بذلك يفصلون - على سبيل المثال - بولس عن بطرس من جهة الجوهر؛ بما أنهما شخصان يختلف أحدهما عن الآخر.

على النقيض من ذلك، نرى أن المختلفين فيما بينهم من جهة التماثل يكون لهم نفس الجوهر. فالإنسان الأسود - على سبيل المثال - في مقارنةٍ مع الأبيض يختلف اختلافاً كثيرا جداً، لكن هذا لا يمنع أن يكون لهما نفس الجوهر. إذن، طالما - بالنسبة لنا - لم يكن الاختلاف في شيء ما يعيقنا عن أن نكون من نفس الجوهر مع أولئك الذين يتميزون

عنّا، فما الذي يمنع الابن أيضاً عن أن يكون من نفس جوهر الآب لمجرّد أن الآب غير مولود، والابن مولودٌ؟ لأن الإلوهية واحدة للاثنين، إذ تسري من الآب إلى الابن.

١٥- اعتراضٌ آخر من اعتراضات إفنوميوس

مَنْ له بداية لا يمكن أن يكون كاملاً. بالتالي، لو توقف الآب عن ولادة الابن، والتوقف هنا يعني النهاية، لكان للابن - هكذا - بدايةٌ لوجوده. إذن، كيف يكون الابن من نفس جوهر الآب الذي لا بداية له البتة؟

١٦- الرد على هذا الاعتراض

لو كان الآب قد توقف - كما تقولون يا محاربي المسيح - عن ولادة الابن (لأن هذا ما يحتويه زعمكم)، لكان ذلك يعني أن الآب قد اكتسب الابن فيما بعد. وهذا الذي أُضيف، وكانت هناك بدايةٌ لوجوده، يكون على أية حال، حديثاً زمنياً. عندئذٍ، لماذا تسمُّون الابن إلهاً، الأمر الذي لا يسمح به الكتاب المقدس؟ لماذا يقول: "لا يسكن فيك إله غريب (حديث)" (مز ٨١: ٩)؟ بل على النقيض من ذلك، يقر الكتاب المقدس بأن الابن هو إلهٌ. بالتالي ليس الابنُ حديثاً في الزمن، ولا بدأ يُولد - كما تقولون - بل هو مولودٌ وأزليٌ مع الآب بكونه الابن.

بما أن الكتاب لا يقول إن الابن مولودٌ، أي حديثٌ زمنياً، فهو إذن مساوٍ للآب في الجوهر.

١٧- ردٌ آخــر

بما أنه علينا نحن والملائكة أن نسجد لله بحسب الطبيعة، وقيل لنا: "الرب إلهك تتقي وإياه تعبد وباسمه تحلف" (تث ٦: ١٣ - مت ٤: ١٠)، وكذلك أعلن الروح للملائكة أن يسجدوا للابن: "وَأَيْضاً مَتَى أَدْخَلَ الْبِكْرَ إِلَى الْعَالَمِ يَقُولُ: وَلْتَسْجُدْ لَهُ كُلُّ مَلاَئِكَةِ اللهِ" (عب ١: ٦)، وعلى ذلك يكون الابن المسجود له هو الله. إذن كيف تكون إلوهيةً واحدةً للاثنين لو كان الابن - وفق زعمكم - ليس من نفس جوهر الآب؟ لأنه إن كان هناك اختلافٌ في الجوهر ما بين الابن والآب، لتحتم علينا أن نتحدث عن إلهين، الأمر

الذي يعد تجديفاً وغير مقبول. لكن على النقيض من ذلك، توجد إلوهية واحدة، وبهذا تكرز الكتب المقدسة. بالتالي، يكون الابن مساوياً للآب في الجوهر.

١٨- ردٌ آخـــر

إن كان الآب قد بدأ أن يلد الابن وتوقف، وفق جنون محاربي المسيح، فإن تغيِّيراً وتحوُّلاً ما قد حدث في الآب. وبما أن الله غيرُ قابلٍ للتغيِّير والتحوُّل، إذن فهو لم يبدأ زمنياً أن يلدّ ولا توقف، كما يزعمون، لكن الابن أزليٌ مع الآب، وهو خالق الدهور. وطالما هو أزليٌ مع الآب، لذا فهو من نفس جوهره.

١٩- ردٌ آخـــر بطريقة وصفية

إذا كان مَنْ يحاربون الحق ينسبون بدايةً ونهايةً لولادة الابن، فيحرمونه من تماثله مع الذي ولده، هكذا نحن أيضاً، لا نقبل بدايةً ولا نهايةً فيما يتعلق بولادة الابن، إذ أُعلن لنا أنه مثل أبيه تماماً. وذاك الذي هو مثل الآب في كل شيء، هو أيضاً من نفس الجوهر.

٢٠- اعتراض من اعتراضات آريوس ضد أن الابن هو من نفس جوهر الآب

كيف يمكن أن يكون هناك تماثلٌ بحسب الجوهر بين الآب والابن؛ إذا كان الآب غير مولود، والابن مولود؟ لأنه ينبغي ألاَّ يختلف غير المولود في شيء عن المولود. لأن الأمر لو كان على هذا النحو، فلا شيء عندئذٍ يمنعنا من أن نقول إن الآب هو أيضاً مولود والابن غير مولود، ويختلط كل شيء.

٢١- الرد على هذا الاعتراض

ليت مَنْ يتفوَّه بهذا الكلام المضاد عن جهل، يسمع مِنّا الآتي: كيف لا يوجد تطابق بحسب الجوهر بين الآب والابن، إذا كان الابن هو صورة الآب، ويُظهِر في ذاته الآب؟ لأننا نعرف أنه ما مِن أحدٍ يمكنه أن يرى طبيعةً مغايرةً عن تلك التي يراها. فلا يمكن لأحد أن يرى في الحصان واحداً من البشر. لأن التشابه يظهر في الكائنات المتماثلة بحسب الطبيعة، وليس في الكائنات المختلفة فيما بينهما من جهة الطبيعة. وبالتالي، عندما طلب

فيلبس أن يرى الآب أظهر له المسيح ذاته، قائلاً: "اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ" (يو ١٤: ٩)، ولذلك يتحتم علينا بشكلٍ مطلق أن نقول إن الابن هو من نفس جوهر الآب بكونه صورة وختم جوهره.

٢٢- ردٌ أخر

لقد علَّم الرب في كل مكان بأنه مساوٍ للآب في الجوهر، بالرغم من أنه مولودٌ؛ لأنه لو كان غير ذلك لَما دُعيَ ابناً.ولكن محاربي المسيح يستعرضون أفكارهم المريضة زاعمين أنه لا يمكن أن يكون الابن من نفس جوهر الآب غير المولود؛ لأنه مولود. فإذا كان المسيح هو مَن يقول تلك الأقوال عن ذاته، بينما يصرِّح محاربو المسيح بهذه المزاعم، فمَنْ هو ذا الذي يصل إلى هذه الدرجة من الغباء ويصدِّق البشر بدلاً من تصديق الله. مَنْ هو ذا الذي لا يقر بالاعتراف الحسن للرسل الذين قالوا: "يجب أن يُطاع الله أكثر من الناس" (أع ٥: ٢٩). يبدو إن هؤلاء الهراطقة لم يدركوا الحق، لأنهم مسلوبو الإرادة.

٢٣- ردٌ أخر

كون أن الابن وُلِد من الآب، فهذا ما تعترفون به - على أية حال - لأن هذا الذي ولده ليس كائناً خارجاً عن جوهر أبيه، كأنه واحدٌ من المخلوقات. إذن فلماذا تظنون أنه ليس من نفس جوهر ذاك الذي ولده، إذا كان بالطبع هو حقاً ثمرة الآب بحسب الطبيعة؟ وإذا قبلتم بوجود الابن وفق هذه الطريقة الطبيعة، عندئذٍ، فهو - على أية حال - من نفس جوهر الآب. أمَّا إذا كان يُدعى ثمرة الآب اسمياً، فيكون بذلك مخلوقاً، وعندئذٍ تبرهنون على أنكم - بكل وضوحٍ - تجدِّفون.

٢٤- اعتراضٌ آخر من اعتراضات آيتوس

بما أن الله غير منقسم في جوهره، فلا يمكن عندئذٍ لهذا الذي وُلِد، أن يكون قد وُلِد بانفصالٍ في الجوهر، بل أخذ كياناً بحسب سلطان الله. إذن كيف للطبيعة التي أخذت كياناً أن تكون من نفس جوهر ذاك الذي أعطاها هذا الكيان؟

٢٥- الرد على هذا الاعتراض

كيف لهذه الحكمة العظيمة والعميقة، التي تقر بأن الله لا يُجزَّأ، لا تدافع عن إيمان الذين اعتادوا أن يفحصوا الأمور بطريقةٍ صحيحةٍ وينادون بأن الابن هو من نفس جوهر الآب؟ ليت مُحبو الإدانة والجُبناء يجيبون.

هل يُحرم الله من الإثمار - بحسب رأيكم - بسبب أن جوهره غير منقسم؟ لا يُعد برهاناً على ما تقولون أن يكون غير المنقسم بحسب الجوهر لا يلد. أنتم تعتقدون أنكم تكرِّمون الله بقبولكم أن جوهره لا ينقسم، ولكنكم تحرمونه من إمكانية الولادة وتقرون بأنه يُحضِر الابن إلى الوجود بحسب ما له من سلطان. ليتكم تسمعون أن الفعل الطبيعي هو أسمى وأروع بما لا يقارَن من بهاء السلطة. لأنه جدير بنا أن نؤمن بأن الله يلد من ذاته، دون انقسامٍ، بطريقة لا توصَف وغير مُعلنة، عن أن نتبع قولكم بأنه لا ينقسم، ولكنه لا يقدر أن يلد.

٢٦- ردٌ أخر

لو كان الآب قد أحضر الابن إلى الوجود - كما تقولون - بإرادته، لكانت تسميته بالابن من قبيل التزيُّد الذي لا لزوم له. لأن الذي لم يأتِ من جوهر الآب كيف له أن يُدعى ابناً، في الوقت الذي فيه يُدعى ابنٌ مَن يأتي من أحدٍ بحسب الطبيعة؟ وعلى ذلك يكون الابن مولوداً، ومن نفس جوهر الآب، طالما كانت طبيعة الذين وُلدِوا واحدة مثل تلك الطبيعة التي ولدهم.

٢٧- ردٌ أخر

لو كان الابن - كما تظنون أنتم أيها المضُلِّين والمضَلِّين - لم يأتِ من جوهر الآب، بل أخذ كياناً بحسب سلطة الآب، وكان حكمة وقوة الآب، لَما كان عندئذٍ حكمة الله بحسب الطبيعة، بل ولا حتى هو أيضاً قوة الله.

ولو كان الآب - بحسب رأيكم المملوء جهلاً - قد أحضر الابن إلى الوجود من خارج جوهره، هذا الذي هو حكمته وقوته، وكان الابن في نفس الوقت هو حكمة وقوة

الله بحسب الطبيعة، لَحتَّم ذلك علينا أن نقر بأن الابن يأتي من جوهر الآب. ولو آمنّا بذلك، لكان علينا أن نؤمن أيضاً بأنه من نفس جوهر الآب.

٢٨- ردٌ آخر

من الضروري على الذين يزعمون أن الابن أتى إلى الوجود بحسب سلطان الآب ولم يُولد منه، أن يعلنوا ما الذي أقنع الآب أن يُحضر الابن إلى الوجود، وفق أقوالكم الجاهلة؟ هل فعل هذا مجبراً، أم لأنه أراد أن يمنح الوجود للابن، مثلما منحنا إياه أيضاً؟

لو كان الآب قد أحضره مُجبراً، لكان عليكم أن تقرّوا بأن الله خاضع للضرورة. أمّا لو كان يريد أن يمنح الوجود للابن، يكون علينا أن نقر بأنه يقبل أن يمنح لذاته خاصية الخلق والقوة والحكمة، طالما كانت هذه الخواص تُوجد في الابن. لأن الكتاب يقول: "كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ، وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ" (يو ١:٣)، وأيضاً: "الْمَسِيحِ قُوَّةِ اللهِ وَحِكْمَةِ اللهِ" (١ كو ١: ٢٤). وبالطبع نحن لا نزعم أن الله الآب منح كل هذا لذاته، بل - بحسب الطبيعة - هو الحكمة والقوة. بالتالي، لم يُحضر الآبُ الابنَ إلى الوجود، كما تقولون أنتم، لكنه ثمرة طبيعته. ولأن هذا هو الصواب، فهو من نفس الجوهر؛ لأن الذي أتى من الله بحسب الطبيعية ليس غريباً عنه.

٢٩- الابنُ واحدٌ مع الله الآب في الجوهر

بما أن الابن - الذي هو في هيئة الله - قد صار واحداً معنا في الجوهر بسبب الهيئة البشرية التي أخذها؛ لأنه أتى مِنَّا، وكانت لديه أيضاً هيئة الله، إذن، هو واحد في الجوهر مع ذلك الذي لديه هيئته.

٣٠- ردٌ آخر

إذا كان شعاع النور واحداً مع النور، إذن، فالابن الذي هو شعاع النور الأبدي، يكون أيضاً واحداً مع النور الذي هو شعاعٌ له. لأن الأمثلة تتشابه مع طبيعتها.

٣١- ردٌ آخر

بما أن المساواة الذهنية لا تُقاس بالكم، فالمساواة في الجوهر يصاحبها التماثل والتشابه. إذن، فالابن الذي هو معادل ومساوٍ للآب، وفق الكتاب المقدس، بالضرورة يكون واحداً في الجوهر، طالما أن المساواة في الطبيعة غير الجسدية لا تُميَّز عن طريق الكّم، لكن بالحري من تطابق الجوهر.

٣٢- ردٌ آخر

بما أن الأشياء التي تُولد حقاً، لا بالتبني، تُعتبر - كأمرٍ مسلَّمٍ به - أنها من نفس الجوهر مع تلك التي تلد بالحق، وكان الابن قد وُلِدَ حقاً و لم يكن واحداً من الأبناء بالتبني، إذن، فهو من نفس جوهر الله الذي ولَدَه بالحق وليس بالتبني.

٣٣- ردٌ آخر

إذا كان مَن يُولد من جوهرٍ، يرث جوهر ذاك الذي ولده، فالابن وهو له هذا الجوهر في ذاته، له أيضاً كل ما للآب، بالتالي هو مولود مِن جوهره.

٣٤- ردٌ آخر

إذا كانت الأشياء التي صارت بعد الابن، لم تكن موجودة أصلاً باعتبارها قد أتت من العدم، بينما كان الابن موجوداً، إذن، فهو ليس مثل هذه الأشياء التي صارت بعده، لكنه من نفس الجوهر مع ذاك الذي هو كائنٌ بذاته بدون أن يأتي من أي أحد؛ لأن الكائنات التي تأتي مِن نفس الفعل يكون لها جوهر واحد.

٣٥- ردٌ آخر

كل مَنْ يأتي ذات الفعل يكون أيضاً له نفس الجوهر، وطالما الابن يفعل كل ما يفعله الآب، إذن فهو حقاً له نفس جوهر الآب.

٣٦- ردٌ آخر

إذا كان الآب هو الله بحسب الطبيعة، وليس بحسب المشاركة، عندئذٍ يكون الابن هو الله بحسب الطبيعة. وطالما هو أسمى من الذين هم آلهة بحسب المشاركة، إذن لديه نفس طبيعة الآب، وليس طبيعة أولئك الذين هم آلهة بحسب المشاركة.

٣٧- ردٌ آخر

إن كان الابن هو الله بحسب المشاركة، وليس بحسب الطبيعة، وكان كثيرون يعتبرون آلهةً بحسب المشاركة، لَما تفوق في شيء عن الآخرين من جهة الجوهر. ولكن بما أنه لم يكن بحسب المشاركة؛ لأنه هو خالقهم، عندئذٍ هو لديه نفس طبيعة الآب، وليس طبيعة المخلوقات.

٣٨- ردٌ آخر

بما أن الجوهر العقلي[1] للآب غير المولود يخلق فقط عن طريق الإرادة، دون أن ينفعل ويتألم، وكان الابن يخلق إرادياً أيضاً دون أن يتألم، إذن، فهو ينتمي لجوهر الآب غير المولود والذي يخلق فقط بالإرادة بدون ألم.

٣٩- ردٌ آخر

بما أن كل كائن لا يلد ابناً مزيَّفاً، بل يلد ابناً يكون واحداً معه في الجوهر، وكان الله قد ولد وحيد الجنس، وهو ليس ابناً مزيفاً، إذن، فقد ولَدَهَ من نفس جوهره. وبالطبع مسألة أن يلد كائنٌ ابناً مزيفاً، فكأنه لم يلد. لأنه، أن يلد أحدٌ بخلاف الطبيعة، فهو أسوأ ممن لا يلد على الإطلاق.

---

(١) أي أن هذا الجوهر هو غير جسدي بمعنى غير مادي، فالله روح والآب حين يخلق يقول للشيء كُن فيكون بدون بذل أي جهد مثل المخلوقات المادية فالإنسان عندما يصنع شيء يبذل مجهود شاق لكي يصنع هذا الشيء، وبما أن الابن حين يخلق ،حتى بعد تجسده، كان يخلق بنفس الطريقة فقد خلق عيناً للمولود أعمى على سبيل المثال. إذن الابن هو مساوٍ للآب في الجوهر.

٤٠- ردٌ آخر

بما أن الله الآب يلد وحيد الجنس بطريقة أسمى مِنّا، باعتبار أننا نوجد قبل هؤلاء الذين نلدهم، بينما الله وهو يلد، لا يسبق وجوده هذا الذي ولده.

لكن حتى لو كان قد ولده مثلما نحن نلد (لأنه لا يستطيع أحد أن يقول أنه يلد بطريقة أدنى مِنّا)، ونحن نلد من جوهرنا، إذن، فالله أيضاً يلد من جوهره. لأجل هذا، يجب على أية حال أيضاً أن نعتبر هذا الذي وُلِدِ منه واحداً معه في الجوهر.

٤١- ردٌ آخر

لو كان كل أفراد عالم المولودين جنساً واحداً، ونوعاً واحداً، عندئذٍ يكون الابن المولود هو من نفس هذا النوع، لكن بما أنه لا ينتمي إلى هذا العالم، ولا هو أحد أفراده؛ لأنه موجودٌ قبله (أنظر يو ١:١)، وطالما ليس هناك حالة يكون فيها النوع موجوداً قبل الجنس[١]، عندئذٍ فهو لا يأتي أبداً من العالم. وبما أنه من جوهر خالق العالم، وليس من العالم، بالتالي فهو بالضرورة واحدٌ مع الله في الجوهر.

٤٢- ردٌ آخر

إن كان الله واحداً من الكائنات، وكان العالم كائناً آخر، فبحسب الضرورة، إمَّا أن يكون الابن من نفس نوع العالم، أو من نفس نوع الله بحسب الجوهر. وبما أنه ليس من نوع العالم؛ لأنه لا يمكن أبداً أن يخلق ذاته بذاته، فهو إذن خالق الكل، وبالتالي يكون واحداً في الجوهر مع الله الخالق.

(١) أي كيف يكون الابن المولود قبل كل الدهور كما يخبرنا الكتاب المقدس هو من نفس جنس العالم المخلوق والذي خُلِق في الزمن، ويتساءل القديس كيرلس كيف يسبق النوع وجود الجنس المنتمي إلية فعلى سبيل المثال هل كان في الإمكان وجود نوع من الطيور قبل أن تخلق الطبيعة التي تنتمي إليها الطيور أو جنس الطيور. هكذا من الاستحالة أن ينتمي الابن للمخلوقات من قبل أن تُخلق المخلوقات لأن الابن كائن أزلياً قبل الأزمنة وقبل أن تُخلق المخلوقات.

المقالة الحادية عشر

الابن هو من نفس جوهر الآب على أساس قوله:
"أَبِي أَعْظَمُ مِنِّي"
(يو ١٤: ٢٨)

١- اعتراض من اعتراضات إفنوميوس

الكائنات التي تشترك في نفس الجوهر والطبيعة لا يمكن أن تقارَن فيما بينها بالأعظم والأدنى؛ لأنه لا يوجد إنسان أعظم من إنسان آخر بحسب الجوهر، ولا حصان يكون أعظم من حصان آخر. فبما أن الابن يقول إن أبيه هو أعظم، إذن، فهو من جوهر آخر؛ لأنه لا يمكن لأحد من نفس الجوهر أن يكون أعظم من آخر له نفس الجوهر.

٢- الرد

كان ينبغي على محاربي المسيح أن يتتبعوا بحرص شديد الحق المعلَن في الكتب المقدسة، ثم بعد ذلك يفسِّرون كل ما يتعلق بالآب والابن، فهم يبتدعون أفكاراً مثل هذه وفق مسرقم، ويخترعون مفاهيم منحرفة، وكما سمعوا الابن يقول: "أَبِي أَعْظَمُ مِنِّي"، وعثروا، ليتهم يتعلمون حين يسمعون عنه: "الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً للهِ" (فيلبي ٢: ٦)، وهو ذات الأمر الذي يقوله بوضوح يوحنا: "قَالَ أَيْضاً إِنَّ اللهَ أَبُوهُ، مُعَادِلاً نَفْسَهُ بِاللهِ" (يو ٥: ١٨).

إذن، فإذا كان مساوياً للآب - وفق أقوال القديسين[1] - فكيف يكون من جوهرٍ آخر غير جوهر الآب؟ لأننا سنقول أيضاً نحن لهؤلاء إن الكائنات التي تشترك في نفس الطبيعة، لها - على أية حال - نفس الجوهر، مثل الإنسان مع إنسان، والحصان مع حصان.

٣- ردٌ آخر

لا يُحكم على الكائنات غير الجسدية من حيث الصغر والكِبَر بمقياس الحجم؛ لأن هذا هو ملمحٌ من ملامح الأجساد[2]، لكن يُحكم عليها بالمفاهيم الذهنية والعقلية فقط.

كمثال لهذا ما قاله بولس: "فَإِنَّهُ لِوَاحِدٍ يُعْطَى بِالرُّوحِ كَلاَمُ حِكْمَةٍ، وَلآخَرَ كَلاَمُ عِلْمٍ بِحَسَبِ الرُّوحِ الْوَاحِدِ، وَلآخَرَ إِيمَانٌ بِالرُّوحِ الْوَاحِدِ، وَلآخَرَ مَوَاهِبُ شِفَاءٍ بِالرُّوحِ الْوَاحِدِ" (١كو ١٢: ٨ - ٩). وبعدما ذكر أموراً كثيرة، أضاف: "وَلكِنَّ هذِهِ كُلَّهَا يَعْمَلُهَا الرُّوحُ الْوَاحِدُ بِعَيْنِهِ، قَاسِماً لِكُلِّ وَاحِدٍ بِمُفْرَدِهِ، كَمَا يَشَاءُ" (١ كو ١٢: ١١). وبعد ذلك، يقول: "وَلكِنْ جِدُّوا لِلْمَوَاهِبِ الْحُسْنَى. وَأَيْضاً أُرِيكُمْ طَرِيقاً أَفْضَلَ" (١كو١٢:٣١).

هل يمكن أن يقولوا إن الروح يختلف عن ذاته، أو أنه ليس متماثلاً مع ذاته بحسب الجوهر؛ لأنه يظهر صغيراً بين الصغار وكبيراً بين الكبار بحسب قياس قدرة الذين يقبلونه؟ أعتقد أنه ما من أحدٍ بهذا الغباء الشديد، حتى يتطاول قائلاً مثل هذا الأمر.

إذن، طالما أن الطبيعة غير الجسدية لا تقبل صفة الأعظم والأصغر حين يقول المسيح إن الآب أعظم منه، فهذا الوصف يتناسب مع طبيعته البشرية، ولا يمثل صفةً لجوهره

---

(١) الطريقة التي ينتهجها القديس كيرلس وكذلك من قبلة القديس أثناسيوس هو مواجهة الهراطقة بما قاله التلاميذ القديسين في الكتاب المقدس وما قررته المجامع المسكونية أي الإيمان المسلم مرة للقديسين ثم بعد ذلك يتم تفسير الآيات والرد عليهم، فالإيمان المستقيم يسبق التفسير أو هو أساس التفسير.

(٢) يتعجب القديس كيرلس من الهراطقة الذين يُخضِعون الطبيعة الإلهية لمقاييس الأجساد، إذ يقول: "إذا كانت الطبيعة الإلهية بلا كمٍّ Quantity (كميّة) فكيف يكون أحد الاقانيم أقلّ من غيّره. أي كيف نصفُ الابن الذي هو بالطبيعة إله كأقلّ من الآب؟ فما هي هذه الدرجة من القلّة؟ أليس هذا إدعاءاً أن الكّم صار مقياساً يقاس به اللاهوت؟!". القديس كيرلس السكندري، شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد وآخرين، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠٠٩، الإصحاح الأول ص ٥٤.

الإلهي. هكذا هذا الوصف يسري على الجوهر البشري الأدنى[1]، وليس على جوهر الآب الذي ولده.

٤- ردّ آخر

يقول المسيح: "الآب الذي أرسلني هو أعظم مني" (أنظر يو ١٤: ٢٨). أيضاً يشهد الكتاب المقدس عنه، قائلاً: "لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً لِلهِ" (فيلبي ٢: ٦). كيف يكون الابنُ مساوياً للآب ويكون الآب أعظم؟

هذا موضوعٌ يجب أن نفحصه بدقة؛ لأن الاثنين يبدوان متناقضان فيما بينهما. ولأننا سوف نفحص هذه الأقوال بوقار واحترام، فلن نرفض التساوي بسبب صفة "الأعظم"، ولن نُبطِل كلمة "الأعظم" بسبب التساوي، لكن سوف نستعرض ملاحظاتنا على الاثنين بكل وقار.

حسناً. لأن طبيعة الإلوهية بسيطةٌ وغير مركبة، لا يمكن أبداً أن نقطعها إلى اثنين: آبٌ وابنٌ. أمَّا إذا كان هناك اختلافٌ بين الاثنين، فهذا الاختلاف، لا يوجد في الجوهر، بل خارج الجوهر؛ لأن كل شخص يختلف عن الشخص الآخر بأقنوم منفصل، لكنهما يتحدان في طبيعة واحدة. وحتى لا يحدث خلطٌ بين الآب والابن؛ لأن التشابه والتماثل بينهما تامٌ، يذكُر الكتاب المقدس اسم الآب والابن لكي يُدرَك الابن كنورٍ من نور، وأن كل واحدٍ منهما له أقنومه الخاص، وأنه يوجد تطابق تام، بين الاثنين من جهة الطبيعة والجوهر.

---

(١) والقديس كيرلس يعلن بكل وضوح أن قول "المسيح أبى أعظم منى" يتناسب مع الابن بكونه إنساناً، وذلك في سياق شرحه لنفس النص في إنجيل يوحنا، إذ يقول: "لأنه عندما كان لا يزال لابساً صورة عبد، ولم يكن قد آتى الوقت بعد لكي يعود إلى مجده، فإنه يدعو الله الآب أعظم منه. ثم إنه، حينما احتمل الصليب الثمين لأجلنا، فإن اليهود أحضروا له خلاً ممزوجاً بمرارة، وحينما شرب قال: "قد أكمل" (انظر يو ١٩:٣٠). لأن زمن اتضاعه وتنازله قد اكتمل. وهكذا صُلِبَ كإنسان. لقد انتصر على قوة الموت، ليس كإنسان بل بالحري كإله، أقول، انتصر بفعل قدرته، وبالمجد والقوة الخاصة بغلبته وليس بقوة الجسد. إذاً "فالآب أعظم"، حيث إن الابن كان لا يزال يخدم كعبد في العالم، ويقول إن الآب إلهه، ويعطي هذه الصفة لصورته البشرية (أي أنه كإنسان هو عبد لله). لأننا إن كنا نؤمن أنه أَذَلَ ووضع نفسه، ألا يكون واضحاً للجميع أنه نزل من العلو إلى الانخفاض، وبالحري أنه نزل من المساواة مع الآب إلى العكس". شرح إنجيل يوحنا، الجزء الثامن، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية أغسطس ٢٠٠٨، الإصحاح الرابع عشر، ص ١٥٨.

لكننا نتبع عادتنا وندعو الآب أعظم؛ لكي يُعلَن الاثنان[1]، ومن أين يأتي الابن. ونؤكد التساوي حتى لا يُظن أن الابن ليس لديه جوهر الآب.

إذن، الابن مساوٍ للآب من جهة الجوهر ومتماثل معه في كل شيء، لكنه يقول عن الآب إنه أعظم؛ لأنه اتخذ الآب الذي بلا بداية «ἄναρχον»، فقط بسبب أنه يأتي منه، بالرغم من أن وجوده أزليٌ معه.

٥- ردٌ آخر

الكائنات التي تشترك في نفس الجوهر والطبيعة تقبل المقارنة فيما بينها، أمَّا تلك التي تختلف عن بعضها من جهة الجوهر والطبيعة، فلا يجوز المقارنة فيما بينها؛ لأن تلك الكائنات تكون منفصلة ومتباعدة عن غيرها، فالمقارنة فيما بينها تعد جهلاً[2]. فلا يمكن لشخص عاقلٍ أثناء بحثه في طبيعة الإنسان أن يقول إن البقرةَ أعظم من الإنسان، والعكس أيضاً صحيح. لأن الكائنات التي تنتمي إلى نفس الجوهر والطبيعة هي التي تقبل المقارنة والتشابه فيما بينها.

---

(١) الآب أعظم على أساس تجسد الابن وإخلائه لذاته، ونرى نفس البرهان يسرده القديس كيرلس بكل وضوح معلقاً على ما جاء في فيلبي٢:٦، إذ يقول: "يكتب الطوباوي بولس في رسالته إلى الفيلبيين عن الابن "الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب مساواته لله اختلاساً" (في ٢:٦). فمَنْ هو الذي لا يحسب مساواته لله اختلاساً؟ فالتمايز هنا ظاهر لأن الذي هو صورة الله متمايز عن الأصل. وهذا هو الحق الذي يؤمن به الكُل. فالآب والابن ليسا واحداً في الأقنوم بل كل منهما أقنوم يمكن رؤيته في الآخر بسبب وحدة الجوهر، لأنهما إله من إله، الابن من الآب " شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٤٩.
هكذا الآب يتمايز عن الابن بكونه آباً والابن يتمايز عن الآب بكونه ابناً، وللآب كل ما للابن فيما عدا كونه ابناً، والابن له كل ما للآب فيما عدا كونه آباً. والابن يستمد بنوته من الآب لأنه مولود من جوهر الآب، والآب تتحقق أبوته في الابن.

(٢) يؤكد القديس كيرلس دائماً على أن الهراطقة عن جهل لا يفهمون ما يقولونه، وحقاً الذين ينتقدون الكتاب المقدس ويطرحون تفاسيرهم الخاطئة فإنهم لا يفهمون ما يقولونه، يقول القديس كيرلس في موضع آخر: [فإذا كان **الكلمة** موجوداً منذ الأزل (بكلمة كان) ومساوٍ للآب في الجوهر لأنه الله، فَمَنْ ذا الذي يشك في إلوهيته ولا يحِّل به العقاب. أو مَنْ يظن أنه أقَّل من الآب أو مختلف عن الآب الذي وُلِدَ منه، فمَنْ لا يرتعد من هذا الانحدار في الكفر ويتجاسر وينطق بهذه الأمور للآخرين وهم "لاَ يَفْهَمُونَ مَا يَقُولُونَ وَلاَ مَا يُقَرِّرُونَهُ" (١ تيموثاوس ١:٧)]. شرح إنجيل يوحنا، مرجع سابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٥٢.

إذن، إذا كان الآب يقارَن بالابن - وفق آرائكم - من جهة أنه أعظم أو أدنى، فهذا يعني أنه من نفس جوهره، وليس غريباً عنه. لكن المساواة في الجوهر لا تسمح بإدراك الأعظم والأدنى في هذه الحدود، أي بحسب الجوهر؛ لأن إنساناً ليس أعظمُ من إنسان آخر من جهة كونه إنساناً. وعلى ذلك، يكون الابن مساوياً ومن نفس جوهر الآب، ولكن نؤمن - بحسب التدبير[1] - أن يُقال عن الآب إنه أعظم؛ لأنه، حينما صار إنساناً قال هذا القول بكونه إنساناً.

٦- ردٌ آخر

كل الكائنات التي تقبل المقارنة فيما بينها هي على أية حال من نفس الجوهر. لأن الإنسان يُقارَن بالإنسان، والحصان يُقارَن بالحصان. لكن الاختلاف الكائن بين الكائنات التي تشترك في نفس النوع يرجع إلى خصائصها المتغيِّرة. وهذه الخواص تصير من هوىً ما، أو من علةٍ أخرى لا تخص حدود الجوهر. على سبيل المثال، الإنسان أعظم من إنسانٍ آخر من جهة حجم وقوة الجسد، والقوة النفسية وسرعة الإدراك والفهم، لكن تحديد الجوهر يكون واحداً للكل ولا يتجزأ.

إن مصدر الخصائص المتغيِّرة هو الهوى؛ لأن الإنسان الضعيف يكون ضعيفاً نتيجة هوىً ما، والإنسان البطيء ينتابه خوفٌ نفسي.

إذن، بما أن الطبيعة واحدة، والجوهر واحد في كل الكائنات التي تقبل المقارنة فيما بينها، وبما أن الابن يُقارَن بالآب من جهة الأعظم والأدنى، وهذه المقارنة تقع خارج الهوى، خاصةً وأن الله عديم الهوي (απαθῆς)، وبما أن الآب لا يتفوَّق على الابن،

(١) حين يذكر القديس كيرلس هذا التعبير فإنه يشير لما جاء في الرسالة إلى أهل فيلبي، إذ يقول في نفس السياق: "إذا كان الابن في صورة ومساواة الآب كما يقول بولس (فيلبي ٢:٦) فكيف يكون أقلّ منه؟ لقد كان تدبير الجسد والخضوع الذي يذكره الرسول هنا هو الذي اقتضى أن يؤكد أن الابن في صورة الآب وفي مساواة له. فماذا نقول عن الظهور الثاني عندما يأتي من السماء في الوقت المعيّن ولن يأتِ في شكل الاتضاع بل في الكرامة الطبيعية الخاصة به كابن حسب قوله "بِمَجْدِ أَبِيهِ" (مرقس ٨:٣٨). فكيف يكون في مجد الآب الكامل، وهو أقلّ منه؟". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٥٥.

باعتبار أن الابن له نفس جوهر الآب، ولا يمكن للابن أن يُعاني شيئاً أو يتأثر بشيءٍ، فالقول "أعظم"، إنما يقال فقط من جهة بداية الابن الأزلية من الآب.

٧- "أبي الذي أرسلني هو أعظم مني"، اعتراضٌ من اعتراضات إفنوميوس

يقول إفنوميوس : يخاطب المخلّصُ الآبَ، بكل وضوحٍ، وليس بطريقة مستترة، قائلاً: "أبي الذي أرسلني هو أعظم مني" (أنظر يو ١٤: ٢٨). وبما أنكم تقبلون أنه يقول الحق، والحق هو المسيح، الذي قال إن الآب أعظم مني، فإذا كان هذا هو الصواب، عندئذٍ - على أية حال – يكون غير شبيه[١] بالآب. وطالما هو غير شبيه بالآب، إذن فهو ليس من نفس جوهره.

٨- الرد

يا محاربي المسيح – من الضروري - أن أسألكم: متى صار الآب، أو متى وُجِد - أو أياً ما كان التعبير - أعظم من الابن؟ لو حدَّدتم زمناً، لَما طاق أحدٌ أن يحتملكم؛ لأن خالق الأزمنة هو الابن الكائن قبل الدهور، وفق كلام القديسين الصادق. ولو استُبعِدَ الزمن، لَما بقي لكم إلاَّ أن تقولوا - وفق اعتراضكم - إن الآب أعظم من الابن؛ لأنه أبديٌّ، وبدون بداية. لكن، يا أحباء، طالما تيقّظتم قليلاً، تفكّروا في أن الذي يُدعى أعظم (بالنسبة للمخلوقات)، إنما يُدعى كذلك لوجود آخرٍ بالقرب منه، يكون أدنى؛ لأنه، إذا أردت أن تعرف الأعظم، عليك أن تدرك الأدنى، لترى تفوُّق ذاك. لكن إن كان الآب هو دائماً أعظم من الابن، مع أن الابن كائنٌ أزليٌّ معه - بحسب رأيكم – فكيف لا يكون الإبن الأزلي ليس مثل الآب الذي هو أزلي أيضاً؟ وكيف يكون الآب أعظم إذا كان الابنُ كائناً أزلياً معه، الابن الذي له - بحسب الطبيعة - كل ما للآب؟

٩- ردٌّ آخر

ينطلق الهراطقة من تعاليم أرسطو، مستخدمين الحكمة العالمية مثيرين ضوضاء بكلمات مرسلة، دون أن يدركوا أنهم يبرهنون - بهذه الطريقة - على أنهم جهلاء. لذا

---

(١) باليونانية ἀνόμοιος أي أن المسيح ليس مثل الآب ومَنْ مثل الآب، ومَنْ يراه لا يرى الآب؛ لأنه ليس مثله بحسب الجوهر لذلك فهو - بحسب رأيهم - ليس من نفس جوهر الآب οὐδὲ ὁμοούσιος.

يندهش المرء عن حقٍ، من هؤلاء الذين يفحصون العلاقة بين الأعظم والأصغر، إذ ينتقلون فجأة متحدثين عن العلاقة بين الشبيه وغير الشبيه، غير عارفين أنه، وفق منهج أرسطو الذي اعتادوا أن يفتخروا به، لا يصطف الشبيه وعدم الشبيه في نفس الفئة[1] مع الأعظم والأدنى.

لأن الأعظم والأدنى يخصان الكائنات التي تكون على علاقة فيما بينها، بينما الشبيه وغير الشبيه، فينتميان إلى فصيلةٍ أخري.

فما بالكم تنتقلون من الأعظم إلى الشبيه، وتنتهون إلى نتائج مغايرة من جهة الجنس، قائلين بما أن الابن هو الأدنى من الآب، إذن فهو غير شبيه؟ أمَا كان عليكم أن تقولوا: ليس معادلاً، أو ليس عظيماً جداً، حتى لا تبرهنوا – بذلك - على أنكم جاهلون وأنتم تطبِّقون قياس الكم على مفاهيم الأعظم والأدنى؟

لأن منهج أرسطو حدَّد ما يخضع لقياس الكم، لا لنوع العلاقة (الجنس). وحدَّد أنواع الكم بسبعة، وهي: العدد، الكلمة، الخط، السطح، الجسم، الزمان، المكان[2].

فإذا كان ما ذكرناه يقبل فقط من حيث طبيعته صفة الكم، فما بالكُم أيها الأغبياء تنسبون الكْمَ إلى مفاهيم الأعظم والأدنى، في اللحظة التي فيها يضعهما أرسطو ضمن فئة أخرى؟

وهكذا، إذ تفحصون أهمية الأعظم والأدنى، تميلون - بطريقةٍ جاهلة - إلى المقارنة بالشبيه وعدم الشبيه، قائلين بما أن الابن هو أدنى من الآب، إذن فهو غير شبيه بالآب. وبالتالي تقعون في حالة أسوأ من الجهل واضعين قياس الكم[3] في تضاد مع الأعظم والأدنى.

---

(١) باليونانية κατηγορία أي فئة أو مستوي أو طبقة أو درجة. والمقصود هنا أن الشبيه وغير الشبيه في فئة ومستوي يختلف عن فئة أو مستوي أو فضيلة الأعظم والأدني. وذلك بحسب أرسطو.

(٢) أنظر، منطق أرسطو الجزء الأول حققه وقدم له الدكتور عبد الرحمن بدوي، الناشر وكالة المطبوعات – الكويت، دار القلم - بيروت، الطبعة الأولي ١٩٨٠ ص٤٣.

(٣) على أساس أن الكم هو لأشياء متشابهة فيما بينهما كما حددها أرسطو، أما الهراطقة فقد طبقوا مبدأ الكم (الأكبر والأدني) على علاقة الآب والابن وبرهنوا بعد ذلك على أن الابن غير شبيه بالآب بحسب الجوهر. وبذلك طبقوا قياس الكم علي الأكبر والأدني ثم إستنتجوا نتيجة ليس لها علاقة بهذه الفئة التي ينطبق عليها الكم، وإنتقلوا إلي فئة أخري هي الشبيه وغير الشبيه وقالوا أن الإبن ليس مثل الآب طالما هو أقل من الآب. فخلطوا بين الفئتين

وبالتالي لا يكون معادلاً ولا عظيماً. ولأن فكركم غير مستقيم من كل وجه، فإن اعتراضكم - على أية حال - يكون باطلاً وأجوفاً.

١٠- ردٌ آخر

يتضمن - عن جهل - مناقشة الأعظم والأصغر وعدم التشابه والذي هو وفق أرسطو يُنسب إلى جنس آخر بالنسبة للأسماء التي لها علاقة بآخر ينطبق عليها منهج أرسطو من جهة التحديد "تجاه ماذا، أو بالنسبة إلى «πρός τι» تُدعى هذه الأسماء، أو مختلفة عن أسماء أخرى على سبيل المثال الأعظم هو أعظم في علاقته بآخر. والرقم الأكبر هو الذي يكون هكذا بالنسبة لآخر، إذ يُقال مثلاً إنه ضعف الرقم الفُلاني.

حسناً، فبما أن هؤلاء يتبنون مبدأ أرسطو في تحديد الأشياء: "تجاه ماذا، أو بالنسبة إلى"، ويتفاخرون به أكثر من منهج الكتاب المقدس، قائلين إن التشابه يمكن أن يوجد بين الأعظم والأكبر؛ لأن غير الشبيه يكون مضاداً للشبيه، كذلك يكون الأصغر في علاقته مع الأكبر، لكننا نقول ليس بنفس الطريقة، لأن الأعظم يُقال أنه أعظم في علاقته مع الأصغر، بينما الشبيه لا يمكن إطلاقاً أن يكون أسمى من غير الشبيه[1]. بالتالي هذه الأمور التي لا تقبل نفس التحديد هي على أية حال من جنس آخر أو نوع آخر.

١١- ردٌ آخر

الأسماء التي تتحدد على أساس علاقتها بآخر، تُدرَك عن طريق هذا الآخر بحسب الطبيعة. فعلى سبيل المثال، الرقم المضاعف، هو الذي يكون ضعف رقم آخر، أمّا هذا الرقم الآخر، فيكون مضافاً إلى ذاته، فهو لا يكون رقماً مضاعفاً، إن لم يوجد نصف هذا الرقم

ويقول القديس أثناسيوس في نفس السياق: "إن الأمور المتعلقة بالمقارنة إنما تكون بين المتماثلين في الجنس، وليس بين غير المتجانسين، المقالة الأولي ضد الأريوسيين، المرجع السابق، فقرة ٥٧، ص ١٣٣.

[1] إذ أننا لا نستطيع أن نقول إن الحصان أعظم من البطاطس مثلاً: هكذا لا نستطيع أن نقارن بصفة: أعظم أو أدنى كائنان مختلفان في الجوهر. على النقيض نستطيع أن نقارن بين إنسان وإنسان آخر أو حصان وحصان آخر فالمقارنة هنا لا تخص الجوهر فالجوهر واحد، كما يقول أرسطو "الجوهر إن كان إنساناً فليس يكون إنساناً أكثر أو أقل، ولا إذا قيس بنفسه ولا إذا قيس بغيره، فإنه ليس أحد من الناس إنساناً بأكثر من إنسان غيره" منطق أرسطو، المرجع السابق، ص ٤١.

الذي هو ضعفه. هكذا أيضاً، الكبير هو كبيرٌ في علاقته مع الصغير، وبالتالي، لولا الصغير لما أدركنا الكبير.

حسناً، فمبدأ التحديد: "تجاه ماذا، أو بالنسبة إلى" لا ينطبق على الشبيه وغير الشبيه؛ لأن الشبيه لا يُدرَك في نفس الوقت مع غير الشبيه، فعلى سبيل المثال: البار لا يُدرَك في نفس الوقت بوجود الظالم، ولا الفضيلة تُدرَك بالشر. [لأن مثل هذه الأمور لا تُعطي لها خصائص مثل تلك التي تخضع لمبدأ التحديد "تجاه ماذا"]. لأن غير الشبيه هو انحراف ما عن الشبيه، والظلم انحرافٌ عن العدل. إذن لا يمكن أن يكون غير الشبيه من ضمن تلك التي تُدرَك في نفس الوقت من الشبيه لأنه يمثل انحرافاً عن الشبيه[1].

١٢- ردٌ آخر

تلك الأسماء المرتبطة بعلاقة تجاه أسماء أخرى، تُوجد معاً، وعندما يُلغى الواحد، يتوقف الثاني عن الوجود. على سبيل المثال، عندما يُلغى الأعظم، يُلغى - على أية حال - الأصغر؛ لأنه لا يمكن للأصغر أن يُوجد بدون الأعظم، ولا يمكن للأعظم أن يُوجد بدون الأصغر.

حسناً، لو قُلتم إن الشبيه ينتمي لنفس النوعية من الأسماء التي ينطبق عليها تحديد: "تجاه ماذا، أو بالنسبة إلى"، عندئذٍ، عندما يلغى الشبيه، فإن غير الشبيه ينبغي أن يُلغى، والعكس صحيح. لكن لا يُلغى أي أحد منهما متأثراً بغياب الآخر. فإذا وُجد إنسانٌ ما، وفي نفس الوقت كان يوجد أيضاً غير الشبيه به، هل عندما يُلغى غير الشبيه، يُلغى أيضاً معه هذا الإنسان؟ طبعاً لا يُلغى أيضاً الإنسان الذي يوجد.

إذن الشبيه وغير الشبيه ليسا من ضمن تلك الأسماء التي لها علاقة فيما بينهما، والتي يسري عليها تحديد: "تجاه ماذا، أو بالنسبة إلى".

---

(١) بالنسبة للأرقام يحدث العكس، فنحن نستطيع أن ندرك الرقم الكبير عن طريق علاقته بالرقم الصغير.

١٣- ردٌ آخر

الوصف بالأكبر أو الأعظم هو بمثابة مغالاة، أو هو تعبيرٌ عن اتساعٍ كبيرٍ لشيءٍ ما، ولكنه لا يعني وجود شيء مضاد وغير شبيه.

لكن الوصف بالشبيه، فليس هكذا؛ لأنه يُظهر آخر هو غير شبيه به.

وأيضًا غير الشبيه هذا، يكون محروماً من صفات الشبيه، وتلك الصفات تكون منزوعةً منه، بينما الوصف بالأكبر أو الأعظم، أيُ انتزاعٍ أو حرمانٍ يُفصح عنه، كما يحدث مع غير الشبيه؟ لا أحد يمكنه أن يجيب.

بالتالي، الوصف بالأعظم يتناسب مع نوعية أخرى، غير نوعية الشبيه.

١٤- ردٌ آخر يبرهن على أن الآب يُدعى أعظم، ويقصد أيضاً الابن معه، والابن ليس أدنى منه

عندما يُسبغ المرءُ وصف "الأعظم" على شيءٍ ما، فلا بُد وأن يكون قد استدعى - ذهنياً - على أية حال شيئاً آخر معه، ذلك الشيء هو الأعظم منه. وفي ضوء ذلك دعونا نفحص - وفق هذا الإطار - الولادة الإلهية، ومنها ننتقل إلى الحديث عن الآب والابن.

حسناً، عندما يُدعى الآب "أعظم"، فإن الابن - كما يقول محاربو المسيح - يكون "أدنى". فإذا كان الابن مع الآب، فكيف يكون الآب "أعظم"؟ وبما أن الابن هو بحسب الطبيعة خالقٌ، وبحسب الطبيعة ملكٌ، فما هو هذا "الأعظم" في الآب من الابن، إذا كانت كل هذه الخواص، بنفس الدرجة، يملكها الابن؟

أمّا إذا لم تكن هذه الخواص لدى الابن بنفس الدرجة، فكيف يكون هو الله، وهو الذي لا يغيب عنه شيءٌ من الصالحات؟ لأن الذي يغيب عنه الكمال، الكمال الموجود عند الله، لا يمكن أن يكون بحسب الطبيعة هو الله، فإذا كان الابنُ بحسب الطبيعة هو الله، بالتالي، فهو كامل مثل الآب. ولأنه كامل مثل الآب، فالابن، إذن ليس أدنى، بل يُدعى الآب أعظم بحسب التدبير، أو لأن الابن صار إنساناً وتنازل عن مكانة الرب بحسب الطبيعة في السماء، وصار في شكل العبد، فتفوّقت الطبيعة الإلهية، إلاّ أنه هو نفسه الرب بحسب الطبيعة، وقد تنازل عن صفه "الأعظم" للآب دون أن يكون لديه هو نفسه شيءٌ

أقل من الآب بحسب الجوهر. هكذا هو ثمرةً أصيلةً[1] وصورةً حقيقيةً لذاك الذي ولده، دون أن يكون مزيَّفاً في شيء، بل حُفظت فيه كل المساواة مع الآب، وبمكانته كابن، أعطى الآب الكرامة العظمي.

١٥- اعتراض من اعتراضات الهراطقة

بما أن الآب هو كائن أزلي، بينما الابن ليس أزلياً، فكيف لا يكون الكائن الأزلي أعظم من ذاك الذي ليس هو هكذا؟ وكيف لا يكون غير الأزلي أدنى ممن هو أزلي؟ فبما أن الآب هو أعظم من الابن، إذن فهو من جوهر آخر غير جوهر الآب.

١٦- الرد

أيها الأحباء، كان يجب ألاّ تضعوا - بِشَرٌّ كبير وبطريقةٍ عشوائيةٍ - هذه المشكلة التي تدل على جهلكم. فأنتم تحاولون بطريقة جاهلة البرهنة على أن للآب جوهر وللابن جوهر آخر، وذلك عن طريق استخدامكم لكلمتي "أعظم وأصغر". وكأن كل مَن يقبل صفة الأعظم والأدنى، يكون له جوهر مختلف عن الآخر.

بالرغم من استخدامنا لكلمتي "أعظم وأصغر" أثناء مقارنتنا لشجرة بشجرة، أو حجر بحجر، وإنسان بإنسان آخر، فإننا نقّر بأنه ليس هناك جوهر مختلف بين الواحد والآخر. لأن شجرةً واحدةً قد تكون أعظم في شيء من شجرةٍ أخرى، لكن الجوهر واحد.

إذن، فنحن نطبِّقُ على الكائنات ذوات الجوهر الواحد – دون غضاضةٍ - كلمتي "الأعظم والأصغر". إلاّ أنكم - بسوء نية - تستخدمون هذا كبرهان لجوهر مغاير للآب

---

(١) نفس تعبير "ثمرة جوهر الآب" يؤكده القديس كيرلس دائماً، ففي نفس السياق يقول: "إذا كان الله **الكلمة** الذي أشَرَقَ من الله الآب هو بالحقيقة ابن. فهذا يستدعي بالضرورة أن يعترف المقاومون أنه من جوهر الآب، لأن هذا هو المعنى الصحيح للبنّوة. فكيف يكون الابن أقلُّ من الآب وهو ثمرة جوهره؟ لأن الجوهر الواحد لا يسمح أن يكون فيه أقلُّ وأعظم، فكل شيء في جوهر الله كامل. أما إذا لم يكن من جوهر الآب فلا يكون هو ابناً حقيقياً بل شيئاً مزّيفاً وابناً مزوّراً. لأنه إذا لم يكن هناك ابن بالطبيعة للآب، الذي بسببه يُدعي الآب أباً فكيف يُعرَف أنه آب. وهذا افتراض غير صحيح، لأن الله هو بكلّ حق آب، كما تصبح بذلك كلُّ الأسفار المقدّسة علانية. ولذلك فالذي يُولَد منه بالطبيعة هو الابن حقاً، وهو ليس أقلّ منه، لأنه واحد معه في الجوهر كابن". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٥٧.

عن الابن. أنتم - إذن - تثرثرون. لأن الابن المساوي للآب يستخدم وصف الأدنى عن ذاته بحسب التدبير[1].

١٧ـ ردٌ آخر

الكائنات التي تفتقد إلى التماثل الطبيعي فيما بينها، وتختلف عن بعضها البعض في طريقة وجودها، يمكننا تمييزها عن طريق ما إذا كان هناك تشابهٌ فيما بينها، أو من جهة ما إذا كانت أسمى أم أدنى.

وعلى ذلك، وبما أن الآب واحدٌ مع الابن من جهة طبيعتهما، فليت المجادلون المملوؤن شراً يقولون لنا كيف يمكننا تمييز الأسمى منهما والأدنى؟ أمَّا إذا كان الابن قد جاء بعيداً تماماً ومنفصلاً عن جوهر الآب، ويُعتبر - من جانبكم - مختلفاً عن الآب من حيث الطبيعة، فكيف يمكن المقارنة بين هذه الكائنات التي تختلف تماماً عن بعضها من جهة طريقة وجودها؟ لأنه لا يمكن لأحد أن ينجو من السخرية إن هو قارن بين الأشياء التي لا علاقة فيما بينها، فيقول إن الشمس أبهى من الشجرة.

فإذا كان الأمر على هذا النحو، إذن، فالاقتراح الذي أدخل الابن والآب تحت معيار الأسمى والأدنى، يكون اقتراحاً مملوءٌ جهلاً، لو كانا بحسب الطبيعة ليسا من نفس الجوهر، كما تقولون؛ لأن هذا المعيار يُستخدم كبرهان على اختلاف جوهر أحدهما عن الآخر. وهذا الاختلاف، لا أعرف من أين ابتدعوه في الجوهر الذي يُسمو فوق الكل، والذي لا يمكن أبداً أن ينطوي في ذاته على ما هو أدنى، لأنه يتطلب الكمال الذي يتناسب معه؛ لأنه لا يوجد أبداً أدنى، ولا نقصٌ في الله بحسب الطبيعة وأنا أعني الإبن بالطبع.

---

(١) تعبير "بحسب التدبير" يعني بكون الابن إنسانا حين أخذ على عاتقة خلاص البشرية وتجسد لأجلنا، ويكرر القديس كيرلس هذا الأمر في كل مرة تُقال فيها أقوالاً متواضعة على الابن، وفي حواره حول الثالوث يوضح هذه الحقيقة، قائلاً: "إن الابن الوحيد قد أخلى ذاته وأخذ شكل العبد واحتمل الآلام والعار وأطاع حتى الموت موت الصليب. لأجل هذا يقال إن الله قد وَهَبَه اسماً فوق كلِّ اسم، لكي تجثو باسم يسوع كلُّ ركبَة ممن في السماء وممن على الأرض. إذن بينما كان هو كواحد منا، أُعطِي أن يُسمىَ "الله" كمكافأة له على عظيم أعماله وطاعته. حتى صار يُسجَد له من الملائكة ومنّا نحن الذين نعيش على الأرض وحتى من الذين قد ماتوا؟". القديس كيرلس الكبير، حوار حول الثالوث، الجزء الرابع، الحوار الخامس، ترجمة د. جوزيف موريس فلتس، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية مايو ٢٠١٠، ص ٥٧.

١٨- ردّ آخر

يزعم محاربو المسيح أن الآب أسمى من الابن مجدِّفين بلا تردد، وغير فاهمين كما هو مكتوب، ولا يدرون ما يقولونه، وما هي الحقائق التي يؤكدون عليها (أنظر ١ تيمو ١: ٧). هؤلاء، سوف نسألهم سؤالاً منطقياً: أيها الأغبياء، أخبرونا هل كان الآب أسمى من الابن علي الدوام، أم أن هذا صار فيما بعد؟ فلو كان قد صار أسمى من الابن في لحظة زمنية ثانية، فقد أُضيف شيءٌ إلى الله الآب، وهذا الذي لم يكن له سبق وجود في الآب، ظهر أنه فيه. إذن كيف كان كاملاً هذا الذي كان من البداية ناقصاً؟

لكن، بما أنه كان كاملاً دائماً، لم يغِب عنه السمو وكان يوجد فيه دائماً، كما تقولون أنتم. لكنكم أيها النبهاء، بسبب الأدنى، تخاطرون بالأسمى، ولذلك فسوف نقبل اقتراحكم على أنه من نتاج السُّكرِ. لأن، هذا الذي يُقال عنه أسمى من آخر، لا يمكن أن يكون أسمى، دون أن يوجد هذا الآخر الأدنى بالقرب منه، الذي يُقارَن به ويظهر أنه أسمى بالنسبة له.

فلو كان الآب دائماً أسمى من الابن، لَكان من الحتمي وجود الابن مع الآب ، الابن الذي وفق رأيكم هو حقاً أدنى بالمقارنة مع الأسمى. فبما أن الآب - وفق رأيكم - أسمى من الابن؛ لأن الآب كان كائنًا منذ الأزل، بينما الابن ليس كذلك، وقد تبين أن الابن كان كائنًا دائماً مع الآب، إذن، فهو ليس أدنى، ولا يختلف جوهره عن جوهر الآب. لأنه لو لم يكن الابن كائنًا مع الآب، لَما كان مساوياً له. ولذلك، فالعكس صحيح، فلأنه كائن دائماً معه، فهو مساوٍ له. وعلى ذلك، فلا محل لتطبيق معيار الأسمى والأدنى فيما يخص الكائنات المتشابهة تماماً فيما بينهما بحسب الطبيعة، ولا يصح أيضاً قياسها بالحجم.

١٩- ردّ آخر

إذا كان الآب أعظم من الابن بحسب رأيكم، يا محاربي المسيح، فلماذا ينسب بولس إليه المساواة، قائلاً: "الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً للهِ. لكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذاً صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِراً فِي شِبْهِ النَّاسِ" (فيلبي ٢: ٦ - ٧)؟ فإذا كان التأنُّس يتطلب الاتضاع، وهو ما نسميه بـ"الأخلاء"، فالكمال في الابن يخص

مساواته بالله أبيه قبل التأنُّس، الذي به ظهر لنا التواضع[1]. لأنه لو كان أدنى في ذاته قبل التواضع، فأين إذن يظهر أنه نزل، وما هي طريقة تواضعه لأجلنا؟

٢٠- ردٌ آخر

إذا كنا قد رأينا يسوع متواضعاً، بسبب ألم الموت، وفق ما قاله بولس (أنظر عب ٢: ٧)، فهذا يعني أنه قَبْلَ الآلام لم يكن يوجد فيه أيُ شيءٍ "وضيع". وبذا تحتَّم علينا أن نقبل أنه كامل. وبما أن الابن كاملٌ حقاً ومعادلٌ للآب في كماله، فمن الواضح أنه لا يُوجد نقص في المساواة التامة بينة وبين الآب.

٢١- ردٌ آخر

عندما يؤكد الرسول بولس على معادلة الابن للآب، يقول بكل وضوح: "الّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً للهِ" (فيلبي ٢: ٦). كما يقول أيضاً إنه أتضع بسبب آلام الموت.

حسناً، إذا كان من غير الممكن أن يجتمع وصف الأعظم والأصغر معاً في كائنٍ واحدٍ بشكلٍ طبيعي، إلاَّ أنه في حالة **الكلمة** علينا أن نفحص كيف يمكن أن نحتفظ

---

(١) يُبرز القديس كيرلس تواضع الابن وإخلائه وفي نفس الوقت عظمته الفائقة بكونه الله، وذلك أثناء حديثة عن تابوت العهد، إذ يقول: "وكان الكاروبان مرسومين بطريقةٍ دائرية على الغطاء، حتى ما يُظهر خدمة القوات السماوية لله (لأن الكلمة هو الله)، وبذلك أعلنوا - بطريقةٍ حسنةٍ جداً - حضورهم القريب جداً، وأنهم موجودون بجواره لكي يخدموه. ثم قال الله لموسى: "وأنا اجتمع بك هناك وأتكلم معك من على الغطاء من بين الكروبين اللذين على تابوت الشهادة بكل ما أوصيك به إلى بني إسرائيل" (خر ٢٥: ٢٢). لكن - كما قُلت - كان التابوت هو المسيح، الله اللوغوس في جسد غير فاسد، وكان التابوت - بالتأكيد - فوق الأرض، لكن وحيد الجنس نزل إلى حقارتنا ووضاعتنا. لأنه أخذ الشكل الذي يليق بالعبد ووضع ذاته (في ٢: ٧). هذا أيضاً هو الغطاء الموضوع عالياً، والقوات السماوية عون له ولكن الابن لم يُعرف بالنسبة لنا من طريقة تواضعه فقط، لكن أيضاً من كونه إلهاً وسيداً للكل. لأنه بالرغم من أنه وضع ذاته بسبب شكله البشري الذي أخذه نازلا بحسب التدبير إلينا، لكن " رفَّعَهُ اللهُ وأعطاه اسماً فوق كل أسم" (في ٢: ٩). ولذلك فإن وضع الغطاء عالياً ومرسوماً عليه الكاروبيم يميناً ويساراً يمكن أن يكون مثالاً. لأنه حيث تُعلن الخدمة التي تليق بالله، فهناك - فقط بالتأكيد - يوجد على أية حال مجد الأُلوهية وعظمة المكانة التي تفوق الكلام ". القديس كيرلس السكندري، السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء الخامس، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية يناير٢٠٠٦، المقالة التاسعة، ص ٨٤ - ٨٥.

بالوصفين معاً، ونقبل أن يكون الوصفان متواجدين فيه. فبكونه إلهاً بحسب الطبيعة، يكون معادلاً لله الذي ولده، ولكن بسبب أنه صار إنساناً يقال إنه أُنقِصَ.

لكن إن نحّى أحدٌ جانباً معادلة الابن للآب، وأدعى أن مساواته بالآب (بسبب التجسد) لم تُحفظ فيه، فأين تظهر عظمة الابن، إذا كان التأنُّس لا يُظهر فقط إلاّ نقصه[1]؟

٢٢- الابن معادلٌ لله الآب في كل شيء. اعتراض من اعتراضات المعارضين

كيف يمكن للمسيح أن يكون معادلاً، أو للابن أن يكون متماثلاً مع الآب، في الوقت الذي قال فيه هو بوضوح: "بَيْنَ الْمَوْلُودِينَ مِنَ النِّسَاءِ لَيْسَ نَبِيٌّ أَعْظَمَ مِنْ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانِ، وَلكِنَّ الأَصْغَرَ فِي مَلَكُوتِ اللهِ أَعْظَمُ مِنْهُ" (لو ٧: ٢٨).

لأن الأصغر (المسيح) بحسب الزمن الذي وُلِدِ فيه من العذراء القديسة يعترف أن هذا سوف يعلو ويسمو على أولئك الذين وصلوا إلى المستوى الأكثر علواً في الفضيلة، عندما يأتي ملكوت السموات، قابلاً علوه هذا كنوعٍ من المكافأة لخدماته لنا. فهذا الذي له مثل هذه الطبيعة، كيف يمكن أن يكون متماثلاً أو معادلاً لله الآب؟

(١) يؤكد القديس كيرلس – في سياق تعليقه على إقامة العهد مع أبونا إبراهيم من خلال الذبيحة – على أن **الكلمة** ظَّل بعد تأنسة هو مساوٍ للآب في الجوهر أى ظَّل هو الآتى من السماء، إذ يقول " إن **كلمة** الله وحيد الجنس صار جسداً ورُمز إليه بالذبائح التي أوصى الله أن تُشق، وأيضاً بالطير الذي أن لا يُشق. والسبب في هذا الأمر يحمل مفهوماً مزدوجاً. فمن ناحية نتأمل ولادته الإلهية والسرية من الآب، ومن ناحية أخرى نكرز بسر تأنسه ونحن ننشر تدبيره العميق لكى يعرفه كل الذين لم يعرفوه. وبالرغم من أن السبب يحمل مفهوماً مزدوجاً، إلاّ أنه ظلَّ واحداً بدون انقسام إلى اثنين بعد اتحاده بالجسد، ولا قُطِعَ أو شُقَ إلى ابنين، لأن المسيح هو واحد وغير منقسم، وهذا ما يشير إليه النهى عن شق الطير لأنه يقول: "وَأَمَّا الطَّيْرُ فَلَمْ يَشُقُّهُ" (تك ١٥: ١٠). ويعلن من خلال الحيوانات مثل العجل والعنزة والكبش أنه أتى من الأرض كإنسان، لكن يُدرك أيضاً أنه هو نفسه الآتي من السماء، ومن فوق لأنه إله. وهذا ما أشارت إليه مسألة عدم شق الطير. وأنه بالرغم من أنه خضع للموت من أجلنا بإرادته إلاّ أن "جسده لم يرى فساداً" (مز ١٥: ١٠) كما هو مكتوب". جيلافيرا، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، الكتاب الشهري عدد مارس ٢٠٠٥.

٢٣- الإجابة

بغباء شديد، وبطريقةٍ جاهلة يدرك هؤلاء ما قاله مخلصنا المسيح. لأنه لم يقل هذه الأقوال لكي يُحِطَّ من قدر طبيعته، أو لكي ينسب لذاته - كمثل شيءٍ عظيم، وكفخرٍ جديرٍ بالإعجاب - تخطيه لفضائل يوحنا، هذا الذي يفتخر لأجل استحقاقات الله الآب، وله في ذاته بحسب الطبيعة كل ما لدى ذاك، وبسبب هذا كرز: "كُلُّ مَا لِلآبِ هُوَ لِي" (يو ١٦: ١٥). وبما أن الآب كُليُّ الكمال، فقد وُلِدَ الابن منه كاملاً، دون أي احتياج. وهذا الذي لديه مثل هذه الطبيعة وفق أقوال أولئك، كيف يمكن ألاَّ يكون متماثلاً ومعادلاً في كل شيء مع ذاك الذي ولده؟

٢٤- ردٌ آخر: العبث يقود إلى الاعتراف بأن هذه النظرية تنتمي إلى المعاندين، وأنهم بتفكيرهم هذا يُظهرون جهلهم

يقول المسيح: "من بين المولودين من النساء لا يوجد أعظم من يوحنا المعمدان، لكن "الأصغر في ملكوت السموات أعظم منه" (راجع لو ٧: ٢٨). قد يُفهم وصف "الأصغر" على أنه يشير إلى المسيح من جهة العمر الزمني مقارنةً بيوحنا القديس. وقد يُفهم أيضاً أنه من جهة العمر الزمني "لا يوجد أعظم". لكن هذا الأمر ليس صحيحاً بالنسبة لنا؛ لأنه يتناقض مع الكتاب المقدس الذي يخبرنا عن آدم رئيس جنسنا أنه عاش ٩٥٠ سنة (أنظر تك ٥: ٥)، وهناك آخرون أيضاً مولودون من النساء اقتربوا من هذا العمر، بينما المعمدان الذي كرز قبل ذاك (المسيح)، أنهى حياته وهو صغير جداً. بالتالي كلمة "الأعظم" لا تعني الأعظم من جهة عمره، لكن بالحري قمة الفضيلة التي توجد عند البشر. وقياساً على هذا، في حالة مخلصنا المسيح: كلمة "الأصغر" مقارنةً بـــ "الأعظم" لا تكتسب أية أهمية زمنية (عُمرية)؛ لأنه سيكون مضحكاً إن كان يعني أن عدد سنين العمر أعظم من قمة الفضيلة، فأية مقارنه يمكن أن تجري بين سنين العمر وقمة الفضيلة؟ إذن هل يعني وصف "الأصغر" بالضرورة، النقص من جهة القداسة، للدرجة التي يظهر فيها الابن أدنى من طريقة حياة يوحنا؟ لكن؛ لأن هذا التفسير يُعد بطبيعته تجديفاً، دعونا نتوقف عن التفكير هكذا.

٢٥- اعتراض من المعترضين

يقولون: سوف نعطي تفسيراً بسيطاً جداً لما قاله المخلّص. نحن نؤمن أن ذاك قال، إن الأصغر في العمر، من هذا الذي وُلدِ جسدياً، سيكون في ملكوت السموات أعظم من الكامل من جهة فضيلة البشر. وهو يعني بالأصغر هنا، شخص الرب، بينما، بقوله لا يوجد أعظم منه مِن بين أولئك الذين وُلدوا من نساء، يؤكد على أن المعمدان القديس كان قد وصل إلى كمال التقوى البشرية. غير أن المسيح يتفوق على هذا الذي وُصِف بهذه الدرجة من العظمة،. فما هو السخف الذي يُوجد في هذه الأقوال؟

٢٦- الرد

لا يكفي أن نقول إن هذه الأقوال لم تخلُ من شيءٍ سخيف، لكن يجب أيضاً أن نفسرها. لأنني أعتقد أنه يجب أن نفحص الأقوال الإلهية بحرص شديد، حتى لا ننتهي إلى نتيجة تسبب لنا ضرراً كبيراً، سابحين في أفكار ساذجة.

لو كان المقصود من هذا الشاهد ما تقولونه وتفكرون به من أنه بكلمة "الأصغر" يُشار إلى المخلّص، لَكان عليكم أن تتقبلوا تخطيه للمعمدان في ملكوت السموات، وإلاَّ كيف – بغير ذلك – يصير أعظم منه؟ لأنني لا أعتقد أن ذلك يمكن أن يُفهم منطقياً على أساس عدد سنين عمره. أي كيف يمكن للمرء أن يسبق ذاك الذي كان دائماً يسير قبله، ويسرع دائماً مع مرور الزمن؟ لأنه إذا كانت تلك الأشياء التي تدور دائرياً، تمضي دائماً تجاه الأمام تاركة مكاناً لذاك الذي يطاردها ويُوجد خلفها، هكذا أيضاً نحن الذين نسير في الزمن، نصير دائماً الأكبر من أولئك الذين يتبعوننا. بالتالي، لا يمكن للمسيح أن يتخطى المعمدان القديس من جهة هذا الأمر. وبالضرورة، يبقى لنا أن نقول إنه سوف يتخطاه من ناحية القداسة؛ لأنه لا يمكن لأحدٍ أن يفسر "الأعظم" بين مواليد النساء بغير ذلك.

لكن لو أُظهِر أنه أعظم أثناء وقت الملكوت، فهذا يعني أنه الآن هو معادل أو أقل. وأن يُحصى المسيح بين الناس الذين هم أقل من يوحنا، أمرٌ يفكر فيه الفجَّار فقط، لذا سوف يحسبونه معادلاً. لكن دعونا نحترص؛ لأن تفكيرهم هذا يعتريه الخطل، فأيُ تعادُلٍ يمكن أن يكون بينهما من جهة القداسة؟ كيف لا يتفوق المسيح بعظائمه التي لا تُقارن،

عندما يرى الطوباوي يوحنا يقول له: "أنا أحتاج أن أعتمد منك" (مت ٣: ١٤)؟ لا جدال في أن الأدنى يُبارَك ويُقدَّس من الأسمى.

٢٧- ردٌ آخر

قال المعمدان الطوباوي لليهود: "أَنَا أُعَمِّدُكُمْ بِمَاءٍ لِلتَّوْبَةِ، وَلكِنِ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي هُوَ أَقْوَى مِنِّي، الَّذِي لَسْتُ أَهْلاً أَنْ أَحْمِلَ حِذَاءَهُ. هُوَ سَيُعَمِّدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَنَارٍ. الَّذِي رَفْشُهُ فِي يَدِهِ، وَسَيُنَقِّي بَيْدَرَهُ، وَيَجْمَعُ قَمْحَهُ إِلَى الْمَخْزَنِ، وَأَمَّا التِّبْنُ فَيُحْرِقُهُ بِنَارٍ لاَ تُطْفَأُ" (مت ٣: ١١ – ١٢).

أيُ حديثٍ بعد هذا يمكن أن يقوله أولئك الذي يضعون الرب في وضعٍ معادل ليوحنا؟ فبالنسبة لحدث العماد، يوحنا ليس أسمى، وفق أفكار أولئك؛ لأن يوحنا يقرُّ بأنه يُعمِّد بالماء، بينما ذاك (المسيح) يمنح الروح. كما يؤكد على أنه مثل خادم لا يتجرَّأ أن يحل سيور حذاءه، بينما يقول عن ذاك إنه رب البيدر؛ لأن هذا ما تعنيه عبارة "وسينقي بيدره". ويقول عنه أيضاً إنه سوف يدين كل واحد، لدرجة أن البار والصالح، مثل قمحٍ، ينقله إلى الأفنية السماوية، بينما الظالم يلقيه – مثل التبن – غذاءً للنار.

فلو كان معادلاً لذاك الذي سوف يصير – بعد قليل – الأسمى، فلماذا لم يُعمِّد بالروح القدس، ولماذا لا ينقي بيدره حاملاً المكانة السيدية، ولا يدين المسكونة بالعدل؟ لكن لأنه ما من شيءٍ من هذه الأشياء يعملها يوحنا، في حين أن المسيح يفعلها بسيادة وسلطان يليق بالله؛ إذن يوحنا ليس معادلاً لذاك الذي يتفوق كثيراً جداً ويوجد في مكانةٍ أسمى.

٢٨- ردٌ آخر

إن **كلمة** الله وهو يعطينا – بواسطة النبي أشعياء – الوعد بغفران خطايانا بالإيمان، قال: "أَنَا أَنَا هُوَ الْمَاحِي ذُنُوبَكَ لأَجْلِ نَفْسِي، وَخَطَايَاكَ لاَ أَذْكُرُهَا" (أش ٤٣: ٢٥). لذا أظهره السابق والكارز لهؤلاء الذين يرونه قائلاً: "هُوَذَا حَمَلُ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ" (يو ١: ٢٩)؛ لأنه كان حاضراً بالفعل، وكان قد وُلدِ بواسطة العذراء القديسة، وقد ظهر على الأرض، كما هو مكتوب (أنظر باروخ ٣: ٣٨)، وعاشر البشر.

إذن، لو كان مآل المسيح أن يكون أعظم من يوحنا في ملكوت السموات – كما تقولون – وكان يأمل أن يأخذ المكافأة، فهو على أية حال لم يكن في مصير أدنى منه، بل يبدو - على الأقل - معادلاً له. فإذا كان هذان الاثنان المتعادلان يختلفان كثيراً فيما بينهما، حتى أن الواحد منهما يمكنه أن يغفر خطية العالم، ويفعل هذا بسلطان، بينما الآخر يصير أدنى من ذلك الذي يُطَهِّر ويُقَدِّس؛ لأنه يقول: "أَنَا مُحْتَاجٌ أَنْ أَعْتَمِدَ مِنْكَ" (مت ٣: ١٤)، وإذا كانت العظمة لا تظهر عند أولئك الذين يُظهِرون احتياجهم، بل تبدو ظاهرةً عند أولئك الذين يمنحونها، وكان أحدهما - كإلهٍ - يغفر الخطايا[1]، بينما الآخر لا يستطيع أن يفعل هذا، إذن فهو ليس معادلاً لذاك الذي يختلف عنه كثيراً جداً.

٢٩- ردٌ آخر بطريقة موجزة

لو كان مآل المخلص أن يكون أعظم من المعمدان القديس - كما يزعم البعض - في ملكوت السموات، لوجب أن يكون في فترة تأنُّسه معادلاً له أو أدنى منه. فأن يكون أدنى، فهذا غير متصوَّر بأية طريقة، لكن، على الأقل يكون معادلاً، لأن هذا هو الأمر اللائق به. فإن كانت هناك مساواةٌ حقاً بين الاثنين، عندئذٍ دع يوحنا يُدعى "قُوَّةِ اللهِ وَحِكْمَةِ اللهِ" (١ كو ١: ٢٤)، وليُدعى أيضاً: "صورة وختم وشعاع أقنوم ذاك، وَحَامِلٌ كُلَّ الأَشْيَاءِ بِكَلِمَةِ قُدْرَتِهِ" (عب ١: ٣). دعه أيضاً يسمع هذا من الآب: "أَنْتَ ابْنِي أَنَا

(١) أثناء الحديث عن غطاء تابوت العهد، يؤكد القديس كيرلس على أن المسيح هو الكفارة وغافر الخطايا، إذ يقول: [أمَّا غطاء التابوت – بالمعنى الروحي – فنقول عنه إنه يشير إلى ذاك الذي صار إنساناً لأجلنا "الذي قدَّمه الله كفَّارةً بالإيمان بدمه لإظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بإمهال الله" (رو ٣: ٢٥) كما يقول بولس. وأيضا يكتب لنا يوحنا التلميذ الحكيم في رسالته "يا أولادي أكتب إليكم هذا لكي لا تخطئوا. وإن أخطأ أحدٌ فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار. وهو كفارة لخطايانا. ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضاً" (١ يو ١: ١ – ٢). حقاً بواسطة المسيح تتحقق كفارتنا، في كل توسلٍ وطلبٍ للصلاح؛ لأنه يقول: "أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا لينظروا مجدي الذي أعطيتني لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم" (يو ١٧: ٢٤). بالتالي هذا هو الكفارة والغطاء بالنسبة لنا. لأن الآبَ صار لنا رحوماً بواسطته، فيه وجدنا غاية لتوسلاتنا، وبواسطته نستطيع أن تقترب إلى الله، وبخلاف ذلك لن نصير مقبولين. لذلك يقول: "أنا هو الطريق" (يو ١٤: ٦) و"أنا هو الباب" (يو ١٠: ٧)، و"ليس أحد يأتي إلى الآب إلاَّ بي" (يو ١٤: ٦)]. القديس كيرلس الأسكندري، السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء الخامس، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، يناير٢٠٠٦، المقالة التاسعة، ص ٦٧.

الْيَوْمَ وَلَدْتُكَ" (مز ٢: ٧)، وأيضاً: "اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئاً لِقَدَمَيْكَ" (مز ١١٠: ١)، و"وَأَيْضاً مَتَى أَدْخَلَ الْبِكْرَ إِلَى الْعَالَمِ يَقُولُ: وَلْتَسْجُدْ لَهُ كُلُّ مَلاَئِكَةِ اللهِ" (عب ١: ٦). وليقول عن ذاته: "أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ، اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ" (أنظر يو ١٠: ٣٠ - ١٤: ٩)، و"أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ" (يو ١١: ٢٥)، و"أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ، الْوَاهِبُ حَيَاةً لِلْعَالَمِ" (أنظر يو ٦: ٣٣ - ٣٥). إذن، فبما أن كل هذه الأقوال تخص المسيح، وليست لذاك الذي – بجهلٍ - يُدعى معادلاً له، فكيف لا يُحسب جهلاً مطبقاً على أية حال، ما يظنونه من أنه سوف يصير في وقتٍ ما أعظم من هذا (يوحنا)، ذاك الذي هو دائماً أعظم، بكونه إلهاً.

٣٠- ردٌ آخر

لو كان المسيح قد تخطَّى فضيلة يوحنا في وقتٍ ما، لَما كان فيه شيءٌ عظيمٌ. لأن الملائكة هي أيضاً أسمى منه قياساً بطبيعتهم من جهة، ومن جهة أخرى عظمة تقواهم تجاه الله. فإذا كان الأمر على هذا النحو، فأين يذهب بولس الأكثر حكمة فيما بيننا، الذي وضع المسيح عالياً جداً عن الملائكة بقدر تفوُّق الطبيعة الإلهية عن الطبيعة البشرية؟ لأنه يقول: "ثُمَّ لِمَنْ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ قَالَ قَطُّ: اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئاً لِقَدَمَيْكَ؟ أَلَيْسَ جَمِيعُهُمْ أَرْوَاحاً خَادِمَةً مُرْسَلَةً لِلْخِدْمَةِ؟" (عب ١: ١٣ - ١٤).

إذن كيف يمكن للابن الذي هو أعلى من الملائكة - الذين هم أعظم من يوحنا – إلى الدرجة التي فيها يجلس أيضاً على كرسي الآب، والذي يُشار إليه باعتباره أعظم وجديرٌ بذاته، أن يصير أعظم من يوحنا في ملكوت السموات، طالما أن عظمته كانت فيه دائماً؟ كيف لا يكون أعظم، هذا الذي هو معادلٌ لله الآب؟

٣١- ردٌ آخر

بما أن المعمدان الطوباوي كان مصباحاً، والمسيحُ نورٌ، فكيف يمكن أن يكون النور معادلاً للمصباح، وهذا الذي يتفوق كثيراً ودائماً، كيف يمكن أن يكون أدنى، و كيف يُرفع ويصير أعظم؟

٣٢- ردٌ آخر

بما أن هذا الذي له العروس يكون هو العريس، أقصد المسيح، بينما صديق العريس الذي يقف ويسمعه، هو المعمدان الطوباوي، إذن فهو مختلفٌ عنه، مختلفٌ ليس فقط من جهة الحجم، بل أيضاً لأنه ليس معادلاً له في المكانة والكرامة. لأن الواحد هو قائد الحفل الحقيقي، بينما الآخر مُشارِكٌ في احتفال الآخر، ولأجل هذا، الأول هو الأكثر مجداً.

٣٣- ردٌ آخر

يقول المعمدان الطوباوي بنفسه عن مخلصنا المسيح: "اَلَّذِي يَأْتِي مِنْ فَوْقُ هُوَ فَوْقَ الْجَمِيعِ" (يو ٣: ٣١)، ثم يكشف عن وضعه هو، فيقول: "وَالَّذِي مِنَ الأَرْضِ هُوَ أَرْضِيٌّ، وَمِنَ الأَرْضِ يَتَكَلَّمُ" (يو ٣: ٣١). إذن، لو كان المخلص معادلاً للمعمدان، إن لم يكن أعظم، فلا شيء يعيق انتقال ما يتميَّز به الواحد للآخر، فيُدرَك القديس على أنه يأتي من فوق، وأعظم من الجميع، وأن الرب من الأرض. لكن هذا هو السُخف بعينه؛ لأن الواحد - بحسب الطبيعة - هو إلهٌ كائن فوق الكل[1]، أمَّا الآخر الذي هو من أسفل، فيُعدُّ من الخليقة التي هي خاضعة لله، إنه من الأرض. وعلى ذلك لا يمكن ليوحنا المعمدان الذي هو من الأرض أن يكون معادلاً للمسيح، لكنه يتنازل عن النصرة للمسيح لأجل عظائمه التي لا تقارَن. فإذا كان الأمر على هذا النحو، فكيف يُنتظر أن يصير الابن في وقتٍ ما أعظم، هذا الذي هو الأعظم والأسمى على الدوام؟

٣٤- ردٌ آخر

المخلِّص بعد قيامته من الأموات جَدَّدَ لنا نعمة الروح القديمة حين نفخ في التلاميذ قائلاً: "اقْبَلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ" (يو ٢٠: ٢٢). وأيضاً هو ذاته يقول عن الروح: "لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ" (يو ١٦: ١٤). كذلك الروح القدس يُسمَّى في الكتب المقدسة أيضاً

---

(١) لقد شرح القديس كيرلس عبارة "فوق الجميع" مبرهناً على أن الابن ليس مختلفاً عن أبيه، إذ يقول: "أي أن ذاك الذي يُولد من الأصل الذي من فوق، إذ له في ذاته بالطبيعة صلاح الآب، يُعتَرف به أن له الكيان الذي "فوق الجميع". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الثالث، ص ٢٠٣.

"روح المسيح"، وفق نص سفر أعمال الرسل: "فَلَمَّا أَتَوْا إِلَى مِيسِيَّا حَاوَلُوا أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى بِثِينِيَّةَ، فَلَمْ يَدَعْهُمُ الرُّوحُ (روح المسيح)" (أع ١٦: ٧).

فإذا كان المسيح الذي مآله أن يصير مستقبلاً أعظم من يوحنا، يُعتبر الآن معادلاً لذاك، إذن، دع يوحنا يعلن لنا نعمة الروح، ودعه أيضاً يمنح الروح مثلما فعل المسيح، ودعه يُسمِّي روحه روح الله الآب، ودعه يقول عن الروح القدس: "لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي".

على أن مجرد التفكير في هذا الأمر يُعدُّ تجديفاً. بالتالي، فهو ليس معادلاً للمسيح، ولا حتى يمكنه أن يتنازل عن عظمته محولاً إياها للمسيح، طالما هو دائماً أقل ويجيء في مرتبة أدنى كثيراً عنه بقدر المسافة التي تفصل الإنسان عن الله.

٣٥- ردٌ آخر

وهو يُظهر الابن أنه إلهٌ بحسب الطبيعة ويقارنه بالخليقة فيقول: "أَنْتُمْ مِنْ أَسْفَلُ، أَمَّا أَنَا فَمِنْ فَوْقُ" (يو ٨: ٢٣). فإذا كان الأمر قد صار وقتاً ما وفق ما قال به هؤلاء؛ إذن دع المعمدان الطوباوي يقول أيضاً إنه لم يتوارَ ويتنازل للمسيح لكي يضعه في مصاف العظماء. إضافةً إلى ذلك، نجده يقول عن نفسه إنه من الأرض، وهو لا يجهل مكانته الخاصة. وعلى ذلك، فالمسيحُ أعظم، ليس لأنه سوف يحقق هذه العظمة في وقتٍ ما، بل لأن هذه العظمة هي له بالفعل بكونه إلهاً من إله. وهذا ما يعنيه بقوله: "أَمَّا أَنَا فَمِنْ فَوْقُ"[١].

٣٦- ردٌ آخر

يوحنا الإنجيلي وهو يفسر بدقة مكانة الابن بحسب الطبيعة، يقدِّم مكانة يوحنا (المعمدان) كخادم، فيقول: "كَانَ إِنْسَانٌ مُرْسَلٌ مِنَ اللهِ اسْمُهُ يُوحَنَّا. هذَا جَاءَ لِلشَّهَادَةِ

---

(١) يسرد القديس كيرلس نفس البرهان في تفسيره لنص يو ٢٣:٨، إذ يقول: "أنتم من هذا العالم" أي من أسفل و"أنا فلست من هذا العالم"، وهذا يعني أنه من فوق، لأن الله فائق على كل ما هو مخلوق، وسموه وتمجيده ليس من جهة المكان (لأن من الغباء والجهل التام أن يُفهم غير الجسدي كأنه مكاني)، ولكنه يفوق الأشياء الحادثة بسمو طبيعته التي لا يُعبّر عنها. والكلمة يقول إنه من هذا الجوهر وهو ليس خليقة (أي مصنوعاً)، بل هو الثمرة والوليد. فعليك أن تلاحظ كيف أنه لا يقول، إني قد صرت وخُلقت من فوق، بل بالحري "أنا من فوق"، لكي يُظهر من أين هو وأنه كان أزلياً مع الذي وَلَدَه فهو كائن كما أن الآب أيضاً كائن: ولكن ذلك الذي هو كائن وهو أزلي مع الكائن، كيف كان غير موجود؟". شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، الإصحاح الثامن، ص٥٦٥.

لِيَشْهَدَ لِلنُّورِ، لِكَيْ يُؤْمِنَ الْكُلُّ بوَاسِطَتِهِ. لَمْ يَكُنْ هُوَ النُّورَ، بَلْ لِيَشْهَدَ لِلنُّورِ. كَانَ النُّورُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي يُنِيرُ كُلَّ إِنْسَانٍ آتِياً إِلَى الْعَالَمِ. كَانَ فِي الْعَالَمِ، وَكُوِّنَ الْعَالَمُ بِهِ، وَلَمْ يَعْرِفْهُ الْعَالَمُ" (يو ١: ٦ – ١٠). إذن، أيُ وقتٍ هذا الذي يمكن أن يرتقي فيه المسيح مقارنةً بيوحنا؟ أليس مَنْ يعرف ويمكنه أن ينير[1] يكون أعظمَ مِن ذاك الذي يكون في حاجةٍ لأن يستنير ويقبل عطية ذاك التي تنير؟ وكيف يمكن على أية حال، لذاك الذي أُرسِل فقط لكي يكرز، وتنحصر مهمته فقط في هذه الإرسالية، أن يتخلى عن العظمة دائماً لللمسيح، لأجل أنه مختار؟

٣٧- ردٌ آخر

قال المسيح مرةً لليهود: "أَنْتُمْ أَرْسَلْتُمْ إِلَى يُوحَنَّا فَشَهِدَ لِلْحَقِّ. وَأَنَا لاَ أَقْبَلُ شَهَادَةً مِنْ إِنْسَانٍ، وَلكِنِّي أَقُولُ هذَا لِتَخْلُصُوا أَنْتُمْ" (يو ٥: ٣٣ – ٣٤). إذن لو لم يكن المخلص أعظم من شهادة يوحنا، لكان معادلاً، لكنه أعظم دائماً وأيضاً أكثر جدارة. وهذا الذي هو هكذا، ما هو الوقت الذي يتقدم فيه، وإلى أي عظمة يرتقي؟

٣٨- ردٌ آخر

زكريا الطوباوي الذي هو بحسب الجسد أب ليوحنا المعمدان، عندما قدَّم صلاة شكر عنه، تلك الصلاة التي كانت مختلطة بأقوال النبوة، قال: "وَأَنْتَ أَيُّهَا الصَّبِيُّ نَبِيَّ الْعَلِيِّ تُدْعَى، لأَنَّكَ تَتَقَدَّمُ أَمَامَ وَجْهِ الرَّبِّ لِتُعِدَّ طُرُقَهُ" (لو ١: ٧٦). أيضاً حين سُئل يوحنا نفسه عمَنْ يكون، قال: "صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: أَعِدُّوا طَرِيقَ الرَّبِّ، اصْنَعُوا سُبُلَهُ مُسْتَقِيمَةً" (لو ٣: ٤). إذن قولوا أنتم يا مَنْ تفرضون بطريقة جاهلة أن المسيح سوف يرتقي وقتاً ما تجاه الأمور السامية، وأنه سوف يصعد أعلى جداً من يوحنا بمجرد أن يدخل إلى ملكوت .

---

(1) شهادة الإنجيلي بأن المسيح هو النور تدل على أن المسيح هو الله، وهذا ما يؤكده القديس كيرلس في سياق شرحه لهذه الآية في إنجيل يوحنا، قائلاً: "هنا يدعو الله **الكلمة**، النور، ويبيّن أنه هو وحده النور الحقيقي بذاته والذي ليس هناك أحد آخر معه بالطبيعة له خاصية الإنارة، وإنه ليس محتاجاً للنور. **فالكلمة** ليس مخلوقاً، بل غريب تماماً عن طبيعة المخلوقات، فهو وحده النور الحقيقي، الذي تشترك فيه كل المخلوقات. وبذلك التعبير "هذا" يميّز الإنجيلي بين **النور** ومَنْ **يشهد للنور**، فالنور لا يمكن أن يحسب في عداد المخلوقات، بل هو في دائرة الإلوهية، ومملوء بالطبيعة الصالحة لذاك الذي وَلَدَه". شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٩٨.

السموات، متى لم يُعتَبر أي نبي - بحق - أدنى من العلي؟ ومتى كان للواعظ والمُعِد للطريق، الذي يتمم الخدمة كعبد، أن يصعد إلى العلو ذاته مع الرب بحسب الطبيعة؟ أعتقد أن الأمر سهل الفهم للكل. ولو كان المسيح يقصد أن مآله أن يصير أعظم من يوحنا بقوله عن نفسه: "وَلكِنَّ الأَصْغَرَ فِي مَلَكُوتِ اللهِ أَعْظَمُ مِنْهُ" (لو ٧: ٢٨)، لَكان لنا أن نتساءل: كيف يمكن لِمَن هو دائماً أسمى، أن يصير في المستقبل ما هو عليه؟

٣٩- شرحٌ تَقْويٌ لكل الفصل، يكشف بإيجاز عن هدف الموضوع

بما أننا قد فحصنا - بما يكفي، بحسب رأيي - كل ما قيل، وبحثنا كل نظرية بحرصٍ يليق بالموضوع، وأظهرنا أن هدف المعارضين لم يكن حسناً، فقد رأينا أن نتمسك بنظريات الحق ذاتها، ونُظهِر - بتوسعٍ - أهمية الكلام الذي أوردناه؛ لأنني لا أعتقد أنه يجب فقط أن ندين أولئك الذين قبلوا النظرية التي تقول بأن مآل المسيح أن يصير أعظم من يوحنا في وقت ما مستقبلاً؛ لأنهم لم يُدركوا معنى الأقوال إدراكاً حسناً، لكن ينبغي علينا أيضاً أن نعرض المفاهيم المستقيمة حتى نرد على أولئك الذين اتهمونا بأننا هاجمناهم بطريقة لا تليق. دعنا إذن نمضي لنفس القراءة ونعرض بإيجاز لأقوال مخلصنا يسوع المسيح، لكي نعلّم السامعين ما هو هدف هذه الأقوال.

حسناً، دعنا نبدأ من هناك[١]، حيث كان المعمدان سجيناً، وسَمِع عن الأعمال التي فعلها المسيح، فأرسل أثنين من تلاميذه ليسألوه: "أَنْتَ هُوَ الآتِي أَمْ نَنْتَظِرُ آخَرَ؟" (مت ١١: ٣). أجاب المسيح على هذا السؤال، قائلاً: "اذْهَبَا وَأَخْبِرَا يُوحَنَّا بِمَا تَسْمَعَانِ وَتَنْظُرَانِ" (مت ١١: ٤)، متضمناً في كلامه أيضاً المعجزات التي أتمّها.

وبينما رجع التلميذان إلى يوحنا، التفت يسوع إلى جمع اليهود الموجودين حوله، وقال: "مَاذَا خَرَجْتُمْ إِلَى الْبَرِّيَّةِ لِتَنْظُرُوا؟ أَقَصَبَةً تُحَرِّكُهَا الرِّيحُ؟ لكِنْ مَاذَا خَرَجْتُمْ لِتَنْظُرُوا؟ أَإِنْسَاناً لاَبساً ثِياباً نَاعِمَةً؟ هُوَذَا الّذِينَ يَلْبَسُونَ الثِّيَابَ النَّاعِمَةَ هُمْ فِي بُيُوتِ الْمُلُوكِ. لكِنْ مَاذَا خَرَجْتُمْ لِتَنْظُرُوا؟ أَنبياً؟ نَعَمْ، أَقُولُ لَكُمْ، وَأَفْضَلَ مِنْ نَبِيٍّ. فَإِنَّ هذا هُوَ الّذِي كُتِبَ عَنْهُ: هَا أَنَا أُرْسِلُ أَمَامَ وَجْهِكَ مَلاَكِي الّذِي يُهَيِّئُ طَرِيقَكَ قُدَّامَكَ" (مت ١١: ٧ - ١٠). وبعد

---

(١) يضع القديس كيرلس هذه الأقوال في سياقها الذي قيلت فيه لكي يكون التفسير تفسيراً صحيحاً.

ذلك أضاف أيضاً القول الذي نفحصه: "اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَمْ يَقُمْ بَيْنَ الْمَوْلُودِينَ مِنَ النِّسَاءِ أَعْظَمُ مِنْ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانِ، وَلكِنَّ الأَصْغَرَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ أَعْظَمُ مِنْهُ" (مت ١١: ١١). لكن حديثه لم يتوقف عند هذا الحد، بل أضاف قائلاً: "وَمِنْ أَيَّامِ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانِ إِلَى الآنَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ يُغْصَبُ، وَالْغَاصِبُونَ يَخْتَطِفُونَهُ" (مت ١١: ١٢).

تلخِّص لنا كل هذه الأقوال، الموضوع برمته، ولكني أعتقد أنه من الضروري أن نوضِّح السبب الذي لأجله سُجن المعمدان القديس، وما الذي دعاه أن يسأل المسيح بواسطة التلميذان عن إن كان هو المسيَّا الآتي، كذلك نفحص إجابة المسيح التي أثارت الجموع، وما الذي دفعه لأن يقول: "لَمْ يَقُمْ بَيْنَ الْمَوْلُودِينَ مِنَ النِّسَاءِ أَعْظَمُ مِنْ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانِ، وَلكِنَّ الأَصْغَرَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ أَعْظَمُ مِنْهُ".

دعونا إذن نمضي في شرح هذه الأقوال التي ذكرناها.

– لقد عاش يوحنا المعمدان الطوباوي حياةً عجيبةً وغريبةً، إذ اتبع طريقةَ عيشٍ لم تكن معتادةً عند اليهود؛ لأنهم لم يستطيعوا أن يسلكوا فيها، لذا فقد كان من الطبيعي أن يُعجب به اليهود إبَّان كرازته بالمسيح الذي لم يكن قد ظهر بعد، وإن كان حاضراً بالفعل. فقد أشار يوحنا بيده تجاهه قائلاً: "هُوَذَا حَمَلُ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ" (يو ١: ٢٩). ولأن الرب الذي كُرز به بواسطته قد ظهر أنه هجر عبادة الناموس الموسوي[1]، مُدخلاً بدلاً منها العبادة الإنجيلية، أو بالحري مُصلِحاً كل ما كان ظلالاً في العبادة الحقيقية، يوحنا

(١) لقد أبطل المسيح العبادة الناموسية، ويؤكد هذا الأمر القديس كيرلس أثناء حديثة عن عرض شقق المسكن للخيمة، قائلاً: "عرض الشُقة الواحدة هو أربعة أذرع، بينما طولها ثمان وعشرون ذراعاً. الرمزُ دقيقٌ وعجيب، لكني أعتقد أنه يُظهر أن العيش بالناموس بالنسبة للكنيسة، صعبٌ جداً لأن الحرفَ مظلمٌ. إذ أن تربية الناموس – بمرور الزمن – وصلت إلى نهايتها في سر المسيح، أي في اليوم الثامن الذي حدثت فيه قيامة المسيح. لأن غاية الناموس والأنبياء هو المسيح الذي إليه صرخ داود العظيم " أمَّا وصيتك فواسعة جداً" (مز ١١٩: ٩٦). وبولس العظيم يكتب لأولئك الذين فضَّلوا العبادة الناموسية عن الإيمان بالمسيح قائلاً: "فمنا مفتوح إليكم أيها الكورنثيون قلبنا متسع. لستم متضيقين فينا بل متضيقين في أحشائكم. فجزاء لذلك أقول كما لأولادي كونوا أنتم أيضا متسعين. لا تكونوا تحت نير مع غير المؤمنين لأنه أية خلطة للبر والإثم وأية شركة للنور مع الظلمة" (٢ كو ٦: ١١ – ١٤). هل أدركت أن المرء الذي يريد أن يرتبط باليهود الذين أظهروا عدم إيمان، ومازالوا يتحدثون عن ضرورة التزام حرف الناموس بعد الإيمان بالمسيح يجعل القلوب تتنافر؟". السجود والعبادة بالروح والحق، المرجع السابق، الجزء الخامس، المقالة التاسعة ص ٩٨.

المعمدان الذي دافع عن كل هذا مؤمناً بذاك الذي قَلَبَ التربية الناموسية - كما يقول الأغبياء؛ لأنهم قالوا: لو كان هذا الإنسان مرسلاً من الله، لَما كان قد أبطل راحة السبت (أنظر يو ٩: ١٦) - لم يضع نفسه خارجاً عن النظام الذي استُخدِمَ ضد المسيح، فما الذي ابتكره المعمدان حتى يحقق هذا الهدف؟

دون أن يقاوم أفكار اليهود - أستطيع أن أقول، ضاحكاً عليهم - تظاهر بأنه يترافع بالناموس ويدافع عن وصايا الناموس. لأنه، بينما كان هناك كثيرون قد خالفوا الناموس بطُرقٍ متنوعة، اكتفى هو فقط بأن أدان هيرودس وصرخ، معرِّضاً نفسه للخطر، قائلاً ضد هيرودس: "لاَ يَحِلُّ أَنْ تَكُونَ لَكَ امْرَأَةُ أَخِيكَ". فحتى هذا الوقت لم يحدث إطلاقاً أن عُوقب يوحنا حتى حدثت هذه الأمور، فتحقق هدفه الذي سبق أن ذُكِر.

إذن، سُجن البار بأمر من السلطة الطاغية، وقد جَعَلَت آلامه، الشعب اليهودي - محب الجريمة - يشفق عليه. أي لأنه تألم لأجل الناموس، فقد أُجبر هذا الشعب على أن يحبه، وكان الشعب مهيئاً جداً بالفعل للإيمان بما كرز به. إذن، فقد اشترى المعمدان بسجنه رضا اليهود وليَّن عصيان القساة.

- ولأنه كان مشاركاً للروح القدس بالفعل، وكان قد امتلأ حقاً من بطن أمه من الموهبة النبوية، فقد رأى بالفعل السيف الطاغي وقد خرج من غمده ليميته؛ لأجل هذا طلب أن يتيقن تلاميذه من إيمانهم بالمسيح المخلص. كما أراد أيضاً أن يعرفوا بوضوح تام، دون أي تردد أنه هو المسيَّا المنتظر أن يأتي ليخلص الكل.

إذن، فقد تظاهر - بحسب التدبير - بأنه يجهل، بهدف أن يسير رفقاء الطريق في إيمانهم مع (معلمهم) هذا الذي كان بالفعل قد آمن بالمسيح. لأنه كان على قناعةٍ - والتي بثَّت في داخله غيرةً كبيرةً - بأنهم لن يتعلموا تعاليمه التي علَّمهم إياها، بل التعاليم التي يفضلونها.

بالتالي، وبحسب التدبير، كأنه موجود على المسرح لابساً قناع هؤلاء الذين يجهلون، طلب من أكثر التلاميذ ارتباطاً به أن يسألوا يسوع، ومن صوت المخلص الحي يكتشفون إن كان هو المسيَّا المنتظر فعلاً. وحالما وصل هؤلاء المرسلون إلى المسيح، عَرِفَ المسيحُ الأمر؛ لأنه الإله الحقيقي، فأظهر إحسانه الكبير على أولئك الذين كانوا يتألمون،

وصنع معجزات كثيرة وقتذاك أكثر من ذي قبل، وصنع - بحسب التدبير، في ذاك الوقت - الأمور التي كرز بها الأنبياء حين أعلنوا عما سوف يصنعه عندما يأتي.

وعندما سألوه، لم يُجب مباشرةً قائلاً: "أنا هو"، بل عَرض عليهم المعجزات التي فعلها، والتي تتماثل مع تلك التي ذُكرت في الكرازات النبوية قائلاً: "أذهبوا وقولوا ليوحنا ما رأيتموه وسمعتموه"، لأن ما سُمِع بواسطة الأنبياء قد رأيتموه يُتمم بواسطتي. وللتو حين ذهب هؤلاء، كما يقول الإنجيلي، بدأ يسوع يتحدث إلى الجمع عن يوحنا: "ماذا خرجتم لتنظروا؟" إلى آخر الحديث بعد ذلك.

وحديث المسيح عن يوحنا، اعتبره المسيح حديثاً هاماً. لأن جمع المستمعين الذين كانوا حوله عَرِفَ أن هؤلاء الذين سألوا كانوا من تلاميذ يوحنا، وأتوا، ليس لأنهم أرادوا أن يتخلصوا من جهلهم، بل من جهل ذاك الذي أرسلهم وأقنعهم أيضاً أن يطرحوا هذا السؤال. فقد أدرك المسيح – باعتباره يعرف القلوب (أنظر مز ٩٤: ١١)، وكل ما هو موجود في الإنسان - أن البعض سوف يسألون ويفكّرون في داخلهم: لو كان يوحنا الطوباوي يجهل يسوع حتى اليوم، كيف أظهره لنا، قائلاً: "هُوَذَا حَمَلُ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ" (يو ١: ٢٩). ولم يكن من الصعب أن يُدرِك أن الضرر الذي سوف يحيق بالجمع جرَّاء ذلك لن يكون صغيراً. لأجل هذا، أراد أن يشفي هؤلاء مما حاق بهم من مرض، نازعاً عنهم الضرر الذي أنشأ عثرةً، إذ يقول لهم: "مَاذَا خَرَجْتُمْ إِلَى الْبَرِّيَّةِ لِتَنْظُرُوا؟ أَقَصَبَةً تُحَرِّكُهَا الرِّيحُ؟". فها هو يقول: أعجبوا بالمعمدان الطوباوي، وحسناً تتعبون مرات كثيرة وأنتم ذاهبون إليه، دافعاً إياهم لطريق الصحراء الطويل لكي يشتروا بمجهوداتٍ كثيرة الإفادة من هناك.

إذا كان الأمر كذلك، فعبثاً تُعجبون به لو ظننتم أنه ذو عقل متأرجح كما لو كان يشبه القصبة التي تحركها الريح كما تشاء. لكن كيف لا يُعتبر كذلك، وقد اعترف حقاً بأنه يجهل هذا الذي يعرفه بسبب عدم رجاحة العقل؟ لكنكم لم تخرجوا لكي تروا قصبةً "أَإِنْسَاناً لاَبِساً ثِيَاباً نَاعِمَةً؟ هُوَذَا الَّذِينَ يَلْبَسُونَ الثِّيَابَ النَّاعِمَةَ هُمْ فِي بُيُوتِ الْمُلُوكِ" (مت ١١: ٨). يجوز أن يكون هؤلاء على عقل غير متزن، أمَّا هذا الذي يمارس النسك

بشدة ويحارب - بثبات - الشهوات الجسدية، كيف يكون على هذا القدر الكبير من الجهل؟

فالعقل المتأرجح، صفةٌ تتصّف بها أصحاب النفوس الذين يستمتعون بالأمور العالمية، لا الذين يتهذبون بتربيةٍ صارمةٍ. فلو كنتم تُعجبون به لأنه لا يلبس ملابس ناعمة، إذن فعليكم أن تظهروا عملياً ما يليق بهذا النُسك من ثقة. فإذا كنتم تساوون — في المصير – بين هذا الذي يحيا حياةً متنعمةً، وليس لديه ما هو أكثر، وذاك الذي يتعب، فلماذا إذن تتجنبون تكريم أولئك الذين يلبسون ثياباً ناعمةً ويحيّون في قصور الملوك؟ أعجبوا بهؤلاء الذين يحيون في الصحراء، ويلبسون ملابس رثّةً، أو بالحري الملابس المصنوعة من شعر الجمال. أنا أعتقد أن عبث هؤلاء يجعلكم تخجلون، وسوف تعتبرون يوحنا المعمدان حقاً جديرٌ بالغيرة. بناء على ذلك: أأنتم تعتقدون أنه نبي؟ نعم هو نبيٌ أو بالحري أعظم من نبي. لأن أولئك تنبأوا بأنه (المسيا) سوف يأتي، دون أن يروه حاضراً بينهم، بينما هو تنبأ ورأى.

إذن من كل جهة أظهر المخلص أن السابق جدير بالتقدير،؛ لأن كل ما كرز به كان حقيقياً.

وهو بالتأكيد يشهد واضعاً إياه في مكانة سامية، ويؤكد على أن الرجل يتبوأ موضعاً نبوياً، لأنه يضيف مباشرةً أنه بأقواله أُحضِر بالقرب من الآب، حتى تُختم بطريقة ما أيضاً شهادةٌ عنه من جهة الناموس لأنه يقول: "هَا أَنَا مُرْسِلٌ مَلاَكاً أَمَامَ وَجْهِكَ لِيَحْفَظَكَ فِي الطَّرِيقِ، وَلِيَجِيءَ بِكَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي أَعْدَدْتُهُ" (خر ٢٣: ٢٠). وبعد ذلك ماذا يقول عنه: "اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَمْ يَقُمْ بَيْنَ الْمَوْلُودِينَ مِنَ النِّسَاءِ أَعْظَمُ مِنْ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانِ". لاحظ أيضاً الهدف الذي يُظهره المخلص بهذه الأقوال.

لقد تحدث حديثاً كبيراً ومطولاً عن المعمدان القديس. فهو من جهةٍ غيَّر الفكر الذي لم يكن منصفاً ليوحنا المعمدان، قائلاً إنه أعظم من نبي، وأظهر أنه جدير بالإعجاب والحُب بالنسبة لسامعيه. ثم بعد ذلك أضاف أنه لا يوجد أعظم منه من بين المولودين من النساء. لكنه قدّم الصورة التي تحتوي على الطرف النقيض، أي صورة الصلاح الأسمى، وهي صورة ذاك الذي للتو دخل الملكوت وبواسطة الروح وُلِد ثانيةً ليكون ابناً لله، للدرجة التي تستدعي إعجاب هذا الذي هو أدنى، وذلك حتى يبرهن على أن مشاركي الملكوت هم

أكثر جدارة منه، وأن على سامعيه أن يسرعوا بتأهُّبٍ لاختطاف الملكوت حاسبين كم يسمو جمال الملكوت بكثير عِن التقدير الذي كان يتمتع به يوحنا. لأنه ما من أحدٍ يحقق مجداً عظيماً إذا تنافس في شيءٍ قليل القيمة، بل عندما تكون المنافسة بشأن شيءٍ عظيم، عندئذٍ، يبذل جهداً أعظم ويحقق انتصاراً أعظم.

حين نقول: "ملكوت السموات"، نقصد عطية الروح القدس وفق ما قاله الرب: "هَا مَلَكُوتُ اللهِ دَاخِلَكُمْ" (لو ١٧: ٢١). بالتالي ذاك الذي كُرِّم بولادة الروح الثانية هو أعظم من أي إنسان وُلِدَ من امرأةٍ. لأن المولودين من النساء يدعون أولاداً جسدياً، بينما المولودين من الروح يدعون إله الكل آباً لهم ويصلُّون إليه، قائلين: "يَا أَبَا الآبُ" (رو ٨: ١٥). هكذا، بالرغم من أنه توجد للمولود من امرأة إمكانية أن يصير عظيماً بأعماله، إلاَّ أن الأعظم منه هو ذاك الذي دُعيَ لملكوت السموات؛ لأنه ليس بعد ابن امرأة، لكنه صار شريك الطبيعة الإلهية (أنظر ٢ بط ١: ٤)، ويُدعى بالفعل ابن الله (أنظر ١ يو ٣: ١)، حتى لو كان هو الأصغر ممن هم أكثر كمالاً، مُعتَبَراً صغيراً وطفلاً حديث الولادة.

- وكون أن ولادة الروح الثانية تختلف كثيراً عن فضيلة يوحنا، أو أي إنسان آخر، فهذا ما يؤكده لنا، ليس من الأمور الخارجية، بل بيوحنا نفسه الذي رفض أن يعمِّد المسيح، حيث يقول له: "أَنَا مُحْتَاجٌ أَنْ أَعْتَمِدَ مِنْكَ" (مت ٣: ١٤). فها هو إذن، بالرغم من أنه كان كاملاً في الفضيلة، يطلب النعمة التي تُعطى بولادة الروح؛ لأن بواسطتها، وليس وحده، يمكنه أن يرتفع لِما هو أسمى، عندئذٍ لن يكون مجرد مولودٍ من امرأةٍ، بل يتغير مُكتسباً أصلاً إلهياً. وهو يؤكد لنا إيماننا به، لأن المخلص لم يقل له: يا صاحب أنت لديك الكمال في الصالحات بدون قداسة المعمودية، بل وافقه على أنه في احتياج، بل وفي احتياج عظيم لأن يعتمد منه، لكن - بحسب التدبير - أجَلَّ النعمة لوقت آخر. لأن هذا ما يعنيه بقوله: "اسْمَحِ الآنَ" (مت ٣: ١٥).

أَمَا أنه بقوله: "ملكوت السموات"، كان يقصد عطية الروح القدس وبواسطتها الولادة الثانية للمؤمنين، فإننا لا نحتاج لجهد كبير لكي نُظهر هذا الأمر بوضوح، لكننا نتعلَّمه من أقوال المخلص ذاتها، إذ يقول: "مِنْ أَيَّامِ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانِ إِلَى الآنَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ يُغْصَبُ، وَالْغَاصِبُونَ يَخْتَطِفُونَهُ" (مت ١٢: ١١). أي، منذ أن نادى يوحنا:

"أَعِدُّوا طَرِيقَ الرَّبِّ. اصْنَعُوا سُبُلَهُ مُسْتَقِيمَةً" (مت ٣: ٣)، فقد ترك كثيرون من سامعيه حياتهم الخاطئة والسيئة، وبشوق للأفضل، غيَّروا حياتهم بالغصب وبجهد كبير تجاه الفضيلة، صائرين أبناء لله بواسطة الروح، مستنيرين بالذهن ومتطهرين بالمعمودية. أمَّا الذين يتبنون تعليماً آخر، يقولون: بما أن ملكوت السموات يُغصب من وقت يوحنا، إذن لم يغتصب أحد ملكوت السموات قبله. فإن كان ذلك صحيحاً، فعندئذٍ أين يذهب رجاء الأنبياء، إذا كان اغتصاب الملكوت قد بدأ فيما بعد سنين كثيرة، عندما ظهر المعمدان قائلاً: "تُوبُوا، لأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ" (مت ٣: ٢). لكن من الواضح، أن دخول القديسين للملكوت كان قد رُتِّب قديماً جداً، لأنهم كانوا مشابهين لصورة ابنه، لأجل هذا كانوا معروفين لدى الله الآب مِن قبل. أمَّا أثناء زمن يوحنا وبعد ذلك، فإن عطية الروح والولادة الثانية بواسطة المعمودية[1] فقد "اغتُصِبَت" بالإيمان.

إذن، وبما أننا أوضحنا الموضوع من كل جانب، فقد أصبح افتراض أن يوحنا كان وقتاً ما أعظم من المخلص، افتراضاً لا محل له. وبما أن هذا الأمر هو حقيقي، عندئذٍ ليت أصحاب الرأي المضاد يتوقفون عن طرح هذا الموضوع.

---

(١) المرحضة النحاسية كانت ترمز إلى المعمودية المقدسة، للذين تبرروا بالإيمان وهذا ما شرحه لنا القديس كيرلس، قائلا: [كانت المرحضة موجودة بشكل بارز في المسكن الأول من الخيمة، حيث يغتسل فيها بالماء أولئك الذين يأتون إلى قدس الأقداس. وكان هذا الاغتسال قد فُرض - كقانون - على الكهنة. وهو ما يُظهر نقص ما كان يبدو في الناموس من كمال، معلناً أنَّ التطهيرَ، إنما يكون بواسطة المعمودية التي تميِّز الجنس المقدس، أقصد هؤلاء الذين تبرروا بالإيمان، وهم الذين توجَّه إليهم التلميذ العظيم بقوله: "وَأَمَّا أَنْتُمْ فَجِنْسٌ مُخْتَارٌ، وَكَهَنُوتٌ مُلُوكِيٌّ، أُمَّةٌ مُقَدَّسَةٌ، شَعْبُ اقْتِنَاءٍ، لِكَيْ تُخْبِرُوا بِفَضَائِلِ الَّذِي دَعَاكُمْ مِنَ الظُّلْمَةِ إِلَى نُورِهِ الْعَجِيبِ" (١ بط٢: ٩)]. القديس كيرلس السكندري، العبادة بالروح والحق، الجزء السادس، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية يوليو٢٠٠٧، المقالة العاشرة، ص ٢٧.

المقالة الثانية عشر

علي الشواهد الآتية:

"أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ" (يو ١٤: ١١)،

"أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ" (يو ١٠: ٣٠).

١- اعتراضٌ من جانب الهراطقة

يقولون: ليس غريباً أن يكون الآب في الابن والابن في الآب، طالما أن الكتب المقدسة تقول بالنسبة لنا: "لأَنَّنَا بِهِ نَحْيَا وَنَتَحَرَّكُ وَنُوجَدُ" (أع ١٧: ٢٨).

إذن، فكما نحيا ونتحرك ونوجد فيه، كما قيل، هكذا أيضاً الابن يُوجد في الآب.

كيف يمكن أيضاً أن يُحتَوَى الآب في الابن، إذا كان الآب أعظم من الابن؟ وكيف للابن الذي هو أصغر جداً من الآب أن يُحتَوَى فيه، ويملأ هذا الذي هو أعظم منه؟

٢- الرد على هذا الاعتراض

لو ظننتم، أن الابن يُحتَوَى في الآب كأنه جسد[1]، فحسناً تبحثون كيف يدخل الواحد في الآخر، والعكس. لأنه بالنسبة لإناء مصنوع من الفخار أو أية مادة أخرى،

(١) يطبق الهراطقة المقاييس المادية على الآب والابن وهذه هي مشكلتهم، لذا يحثنا القديس أثناسيوس على أن نفند ضلالهم وأن نوضح المعنى الحقيقي للآيات وذلك للمحافظة على سلام المؤمنين، إذ يقول: "عندما يقول "أنا في الآب والآب فيّ" فهذا لا يعني كما يظن هؤلاء أن الواحد يفرّغ ذاته في الآخر ليملأ الواحد منهما الآخر، كما يحدث في الأواني الفارغة، حتى أن الابن يملأ فراغ الآب، والآب فراغ الابن، وكأن كلا منهما ليس تاماً ولا كاملاً في ذاته، فهذه هي خاصية الأجساد". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثالثة، الفصل الثالث والعشرون، فقرة ١ ص ١٢.

نستطيع أن نقول، إنه لا يمكن للأكبر أن يُحتَوى في الأصغر، ولا أيضاً الأصغر في الأكبر. لكن بالنسبة لغير الجسديات، والكائنات الغير المصنوعة من مادةٍ ما بحسب طبيعتها، أيُ مبررٍ يسند اقتراحكم؟ وما نقوله الآن متغاضين عن هذا الذي تدركونه عن جهل، إذ أنتم في ضلال، إذ آمنتم بأن الآب هو أكبر من الابن، بينما الحقيقة ليست هكذا، لأن الابنَ معادلٌ للآب في كل شيء.

وأنا أؤمن أنكم ما كنتم تستخدمون مثل هذه الأقوال لو عرفتم ماذا يكون الآب والابن في الحقيقة، وأيضاً ماذا يعني النور غير المنظور والأبدي وشعاعه، وكذلك ماذا يكون الأقنوم غير الجسدي والختم غير الجسدي(١). لأنه، لو كانت هذه المفاهيم قد رسخت في عقولكم وأدركتم أهميتها، لأدركتم طبيعة الله، وما كنتم تتخيلونها مثل الجسد، بل كنتم تطلبون أن تروا بالضبط، وفق ما قيل، كيف يوجد الابن في الآب والآب يوجد في الابن؛ لأنه إذ هو ختمٍ وصورةٍ وشعاعٍ ومثيلٍ، يوجد في الآب والآب فيه.

لكن لأنكم تزعمون، أنه ليس غريباً، أن يكون الابن في الآب؛ على أساس أننا نحن نتحرك ونحيا فيه، أجد من الأهمية أن أبرهن لكم عند هذا الحد أنكم على ضلالٍ كبير، وقد تخطيتم حد الحقيقة. لأن الله لا يوجد في المسيح، كما يقدِّس كل واحدٍ من القديسين داخلاً فيهم، لكن الابن ذاته هو قوة وحكمة الآب مقدِّساً كل الذين هم في شركة معه في الآب. إذن، فهو ليس قدوساً لأنه يوجد في شركة معه على غرارنا، ولا يُدعىَ الابن بحسب النعمة، بل هو الإبن لأنه مولودٌ من جوهر الآب الأزلي.

كذلك لا يُوجد الابن أيضاً في الآب مثلنا نحن، لأننا نحن بالتأكيد نحيا ونتحرك ونوجد في الله، لكن الابن فيه بحسب الطبيعة؛ لأنه أتى من جوهر الآب كما من مصدر دائم حيٍّ، هو الحياة بحسب الطبيعة ويُحيي الكل، دون أن يُحيا مشاركاً في الحياة كما نحن. أليس هو بحسب الطبيعة الحياة؟ لأن ما يضاف ويأتي من الخارج لا يمكن أن يُعتبر ميزةً

---

(١) نفس البرهان يورده القديس أثناسيوس في نفس سياق الرد على الهراطقة مؤكداً أن الهراطقة قد فسروا الأمور غير المادية بطريقة مادية، إذ يقول: [هذه الضلالة في التفكير ناتجة عن انحراف ذهنهم، فهم يظنون أن الله مادي، ولا يعرفون من هو "الآب الحقيقي" ولا من هو الابن الحقيقي "، ولا ما هو "النور غير المنظور والأزلي"، وشعاعه غير المنظور، ولا يفهمون ما هو الكيان غير المنظور و والرسم غير المادي، و الصورة غير المادية]. ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثالثة، الفصل الثالث والعشرون، فقرة ١ ص ١١.

طبيعيةً في هذا الذي لديه هذه الإضافة. لكن الابن يقول: "أَنَا هُوَ الْحَيَاةُ" (يو ١١: ٢٥، ١٤: ٦). بالتالي هو لا يحيا ويوجد بنفس الطريقة التي نحياها نحن بها في الله، لكن لأن هذا الذي له، هو له بحسب الطبيعة[1]، أقصد الحياة، وأنه يوجد في الآب بطريقة طبيعية، فحقاً هو واحدٌ معه، بسبب أنه من نفس جوهر الآب.

٣- اعتراضٌ آخر من اعتراضات الهراطقة

يقولون: هو يقول إنه هو ذاته يوجد في الآب والآب فيه، لأنه لا الأقوال التي يقولها للجميع، ولا الأعمال كذلك هي خاصة به، بل هي للآب الذي أعطاه وصية أن يقول هذه الأقوال، وأن يتمم هذه الأعمال.

٤- الرد

وعلى ذلك، وفق آرائكم أيها الهراطقة، يحق لكل واحد من القديسين أن يتحدث هكذا، لأنهم صاروا خُداماً للأقوال الإلهية أيضاً، وقد أخذوا من السماء قوةً وتمموا أعمالاً عجيبةً. فداود الطوباوي يقول: "إني أسمع ما يتكلم به الله الرب" (مز ٨:٨٥). وسليمان الحكيم: "لأَنَّ الرَّبَّ يُعْطِي حِكْمَةً. مِنْ فَمِهِ الْمَعْرِفَةُ وَالْفَهْمُ" (أمثال ٢: ٦). وموسي الطوباوي وُجدِ أميناً خادماً لأقوال الله، وعموماً كل واحد من الأنبياء لم يستخدم أقواله الخاصة، لكن دائماً على لسانه: "قال الرب لفلان". إذن، من هذا نستطيع أن نرى أنه يوجد آخرون كثيرون خدموا أقوال الله، وهم صنعوا معجزات آخذين من الله القوة، كما قلنا. وتلاميذ المخلص يقولون لأولئك الذين تعجَّبوا من الأعمال التي صنعوها: "أَيُّهَا الرِّجَالُ

[1] برهن القديس كيرلس على إلوهية الابن بنفس الطريقة وذلك بمواجهة الهراطقة بما لدى الابن بحسب الحقيقة كي يظهر الهوة الكبيرة بين الابن والمخلوقات في شرحه لإنجيل يوحنا، يقول: [تدعو الأسفار الإلهية الابن بأسماء كثيرة ومختلفة: فهو يُسمَّى أحياناً "حكمة وقوّة الآب" مثلما قال بولس "فَبِالْمَسِيحِ قُوَّةِ اللهِ وَحِكْمَةِ اللهِ" (١ كور ١: ٢٤)، ودُعيَّ أيضاً "النور والحق" مثلما رتّل أحد القديسين في المزامير " أَرْسِلْ نُورَكَ وَحَقَّكَ" (مز ٣:٤٣)، ويدعى أيضاً "البّر" " أحيني في برِّك" (مز ٤٠:١١٩). لأن الآب يُحيي في المسيح كل الذين يؤمنون به، ويُدعىَ أيضاً "مشورة الآب" كما قيل "بِرَأْيِكَ تَهْدِينِي وَبَعْدُ إِلَى مَجْدٍ تَأْخُذُنِي" وأيضاً "أَمَّا مُؤَامَرَةُ الرَّبِّ فَإِلَى الأَبَدِ تَثْبُتُ" (مز ٢٤:٧٣ – مز ١١:٣٣). فإذا كان الابن هو كل هذا بالنسبة لله الآب فكيف يمكن قبول انحراف أريوس وهو غباوة الإنسان الكاملة؟ ومَنْ يمكنه بعد أن يسمع كل هذه الأسماء أن يقول إن الابن أقلٌ من الآب]. شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٥٣.

الإِسْرَائِيلِيُّونَ، مَا بَالُكُمْ تَتَعَجَّبُونَ مِنْ هذَا؟ وَلِمَاذَا تَشْخَصُونَ إِلَيْنَا، كَأَنَّنَا بِقُوَّتِنَا أَوْ تَقْوَانَا قَدْ جَعَلْنَا هذَا يَمْشِي؟" (أع ٣: ١٢). فليُسمَح إذن لكل واحد من هؤلاء أن يستخدموا لغة الرب وليقولوا: "أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ"، لأنه كما قيل مسبقاً، كل واحد من هؤلاء استخدم سماتٍ إلهيةٍ، وصنع معجزات آخذاً قوةً من الله. وبالتالي لا يكون في الابن شيئاً مميزاً، بل يكون هو أيضاً واحداً من الكل، ويبدو أنه ليس ابناً، طالما لا يوجد شيءٌ زائدٌ فيه، لكن هذا الرأي غير مقبول، ويسري الرأي الآخر على أية حال، أي أنه الابن بحسب الطبيعة.

٥- ردٌ آخر

إذا افترضنا أن هناك إمكانية لجميع القديسين، أو لكل واحد ذي طبيعة مخلوقة، أن يقول "أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ" (يو ١٤: ١١)، عندئذٍ يكون على المخلص الذي يعرف هذا، أن يقول: إنه مثلما هو كائن في الآخرين، هكذا هو كائن أيضاً فيَّ، ومثلما يكون بعض الآخرين فيه، هكذا أنا أكون أيضاً. إلاَّ أنه الآن، ودون أن يذكر أي أحد من الآخرين عارفاً أن هذا الأمر حصرياً يعد ميزةً خاصةً به بسبب أنه يأتي من جوهر الآب، نجده بحرص شديد يقول: "أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ". إذن، نستنتج من ذلك أن مكانته لا تشترك مع الآخرين في شيءٍ، بل هذا الأمر يمثل ملمحاً خاصاً ومميزاً له؛ لأنه هو الابن والكلمة والله[1].

---

(1) سبق للقديس أثناسيوس توضيح ما يميز الابن عن المخلوقات من حيث إن الابن من جوهر الآب، إذ يقول: "لأن الابن هو في الآب - بحسب ما يُسمَح لنا أن نعرف - لأن كل كيان الابن هو من جوهر الآب ذاته. كمثل الشعاع من النور، والنهر من الينبوع. حتى أن مَن يرى الابن يرى ما هو خاص بالآب، ويعرف أنه بسبب كيان الابن هو من الآب لذلك فهو في الآب. لأن الآب هو في الابن حيث إن الابن هو من الآب وخاص به مثلما أن الشعاع هو من الشمس، والكلمة هي من العقل والنهر من الينبوع. ولذلك فإن مَن يرى الابن، ويرى ما هو خاص بجوهر الآب، يدرك أن الآب هو في الابن. وحيث إن ذات الآب وإلوهيته هي كيان الابن، لذلك فإن الابن هو في الآب والآب في الابن. لهذا السبب كان من الصواب أن يقول أولاً: "أنا والآب واحد" (يو ١٠:٣٠)، وبعد ذلك يضيف "أنا في الآب والآب فيّ" (يو ١٤:٣٠) لكي يوضّح وحدانية الإلوهية من ناحية ووحدة الجوهر من الناحية الأخرى". ضد الأريوسيين، المقالة الثالثة، الفصل الثالث والعشرون، فقرة ٣ ص ١٥.

٦- ردٌ آخر يعلّم كيف نفسِّر الشاهد الذي تحت الفحص

وجود الابن في الآب، والآب في الابن يجب أن يُدرَك كالآتي: الابن أتى من جوهر الآب دون أن يأتي مثل المخلوقات، من العدم، ووجوده ليس من الخارج، لكنه هو ذاته مولودٌ من جوهر الآب. مثلما يخرج الشعاع من النور أو النهر من نبعٍ ما، ولذلك يستطيع أولئك الذين يرون الابن أن يروا الآب أيضاً، ويدركوا منه الملمح الخاص لذاك الذي ولده، بمعنى أنه بسبب أن كيان الابن بالكامل يأتي من جوهر الآب، هكذا هو كائن في الآب، والعكس أيضاً الآب كائن في الابن؛ لأن الابن هو ابنٌ بحسب الطبيعة، وهو الله **الكلمة** الذي أتى من الآب. بمعنى أنه (الآب) يوجد في الابن مثل الشمس في الشعاع الآتي منها، والعقل في الكلمة، والنبع في النهر الذي يتدفق منه. فلأن الملمح الخاص لجوهر الآب وهيئة الإلوهية توجد في الابن؛ لذا يظهره للكل في ذاته. لكن يجب أن ننتبه حسناً ونعرف أن المخلص قال هذه الأقوال عن عمدٍ شديد لأنه قال: "أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ"، مريداً أن يُظهر تطابق طبيعة الآب وطبيعة ذاك الذي ولده، حتى لا يظن أحدٌ أن الآب والابن يتميزان فقط بالأسماء دون أن يكونا كيانين (أقنومين)، شارحاً بالضرورة هذا الذي قاله، جاعلاً إياه أكثر وضوحاً لسامعيه، فأضاف "أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ"، حتى يُظهِر أنه في الآب والآب فيه، ولكي يُظهِر تطابق الإلوهية ووحدة الجوهر، وبأن الواحد كائن في الآخر، ولا يعني أنه واحدٌ في العدد، يُدعى أحياناً آب، وأحياناً يُدعىَ ابن، بل أظهر بأكثر وضوحٍ أن الآب كائن حقاً، وكذلك الابن أيضاً[1].

---

[1] ما يريد أن يشدد علية القديس كيرلس هو الوحدة في الجوهر بين الآب والابن وكذلك التمايز أي هما أقنومان متمايزان، إذ يقول في نفس السياق: "أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ" (يو ١٠: ٣٠) هكذا قال المخلّص مؤكداً أن له كيان خاص متمايز عن كيان الآب. وإذا لم يكن هذا هو الحق الواضح فلماذا قال "أَنَا وَالآبُ" كان عليه الاكتفاء بكلمة "وَاحِدٌ". ولكن حيث إنه أعلن ماذا يقصد بالكلام عن اثنين فقد قضى تماماً على إدعاء المخالفين لأن "أَنَا وَالآبُ" لا يمكن أن تعني أنهما أقنوم واحد بل أنهما واحد في الجوهر". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٤٩.

٧- ردٌ آخر

الآب والابن هما واحدٌ من جهة الطبيعة، لكنهما اثنان من جهة العدد، ليس بمعنى أن شيئاً واحداً جُزِّء إلى جزئين، دون أن يكون بينهما شركةٌ وعلاقة، ولا أيضاً الواحد فيهما يُدعىَ بإسمين للدرجة التي تبدو فيها قوة الإثنين فقط في التسمية. وليس أيضاً بمعنى أنه هو ذاته أحياناً يدعىَ آب ومرة أخرى ابن؛ لأن هذا هو بمثابة تعليم سابليوس، لكنهما اثنان عددياً. لأن الآب هو دائماً آبٌ دون أن يتغير أبداً إلى ابنٍ، والابن لا يتغير إطلاقاً إلى آب.

ولأن هكذا يكون الأمر، وهما اثنان من جهة العدد، توجد طبيعة واحدة في الاثنين وإلوهية واحدة، والمولود دائماً واحدٌ في كل شيء بحسب الطبيعة مع هذا الذي ولده. لأن الابن هو صورة وشعاع وختم أقنوم جوهر الآب[1]. إذن هكذا نقول إن الواحد هو الله، لأن طبيعة الآب تُطابَق بالابن، وطبيعة الابن بالآب.

٨- ردٌ آخر

إذا كان أحدٌ لا يستطيع أن يقول إن الشعاع الذي ترسله الشمس هو نورٌ مختلفٌ من جهة الطبيعة عن الشمس، أو أنه يصير هكذا لأنه يشترك فيها، أو أنه على علاقة بها، لكنه حقاً نتاجٌ طبيعيٌ منها، ويظهران بالتأكيد في فكرنا على أنهما نوران، بينما هما نورٌ واحدٌ بحسب الطبيعة، هكذا لا يستطيع أحدٌ، حتى وإن كان الآب والابن اثنين عددياً، أن يقول - عن حق - إن الابن هو شيءٌ آخر بجوار الآب، من جهة الإلوهية وتطابق الجوهر. لكن مثلما توجد الشمس في الشعاع الذي أتى منها، ويوجد الشعاع في الشمس التي أتى منها، هكذا يوجد الآب في الابن والابن يوجد في الآب، اللذان من جهة العدد هما أثنين، وهما هكذا من جهة الأقنوم، لكنهما من جهة تطابق الطبيعة متَّحدان في إلوهية واحدة[2].

---

(١) يُرجع القديس أثناسيوس حقيقة أن الابن هو مثل الآب بسبب أن الابن مولود من جوهر الآب، إذ يقول: [ولأن الابن مولود من جوهر الآب، لهذا يحق له أن يقول إن خصائص الآب هي خصائصه أيضاً، لذلك فبطريقة مناسبة ومتوافقة مع قوله "أنا والآب واحد" (يو ١٠: ٣٥)، يضيف قائلاً: "لكي تعلموا أني أنا في الآب والآب فيّ" (يو ١٠: ٣٨)]. ضد الأريوسيين، المرجع السابق ، المقالة الثالثة، الفصل الثالث والعشرون، ص ١٧.

(٢) نفس الحجة نجدها عند القديس أثناسيوس، إذ يقول: "لأنه رغم أن الابن كمولود هو متمايز عن الآب إلاّ أنه بكونه إلهاً هو كالآب تماماً. فهو والآب كلاهما واحد من جهة الذات الواحدة والطبيعة الواحدة والإلوهية

٩- ردٌ آخر

إن فسَّر المرءُ الكتاب المقدس بحرصٍ، فلسوف يجد أن الابن يُدعىَ بأسماء كثيرة، بل وبكل ما دُعيَ به الآب فيما عدا أن يُدعىَ آبٌ. ونفس الأمر يسري على الآب الذي يُدعىَ بكل الألقاب التي دُعيَ بها الابن فيما عدا أن يُدعىَ ابنٌ، لكننا سوف نخصص حديثنا لإثبات براهين محددة: فإذا كان الآب يُدعىَ ضابط الكل[1] παντοκράτωρ فذات اللقب يُطلق على الابن أيضاً: "الرَّبُّ الإِلهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ (ضابط الكل)، الَّذِي كَانَ وَالْكَائِنُ وَالَّذِي يَأْتِي" (رؤ ٤: ٨). الابن يُدعىَ الرب أيضاً: "واحد هو الرب يسوع المسيح". الآب هو نورٌ، وأيضاً الابن يقول: "أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ" (يو ٨: ١٢). الآب يغفر الخطايا، وكذلك الابن أيضاً يفعل نفس الأمر؛ لأنه يقول: "وَلكِنْ لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ لابْنِ الإِنْسَانِ سُلْطَاناً عَلَى الأَرْضِ أَنْ يَغْفِرَ الْخَطَايَا" (لو ٥: ٢٤).

إذن، فلأن كل ما هو موجود في الابن، موجود أيضاً كله في الآب، نجده يؤكد على هذا الأمر حين يقول: "كُلُّ مَا لِلآبِ هُوَ لِي" (يو ١٦: ١٥). وأيضاً، موجهاً حديثة إلى الآب قائلاً: "وَكُلُّ مَا هُوَ لِي فَهُوَ لَكَ، وَمَا هُوَ لَكَ فَهُوَ لِي" (يو ١٧: ١٠).

الواحدة. وكما سبق أن قلنا حيث إن الشعاع هو النور وليس في المرتبة الثانية بعد الشمس، ولا هو نور آخر، ولا هو ناتج من المشاركة مع النور، بل هو مولود كلّي وذاتي من النور ومثل هذا المولود هو بالضرورة نور واحد ولا يستطيع أحد أن يقول إنه يوجد نوران، فرغم أن الشمس والشعاع هما اثنان إلاّ أن نور الشمس الذي ينير بشعاعه كل الأشياء، هو واحد". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثالثة، الفصل الثالث والعشرون، فقرة ٤ ص ١٦.

(١) يبرز القديس كيرلس هذه الحقيقة في موضع آخر، إذ يقول "إذا كان الآب ضابط الكلّ، والابن ضابط الكلّ، فكيف يكون أقلّ منه؟ لأن المنطق يحتّم علينا أن غير الكامل هو الذي يرتفع إلى الكامل. وإذ كان الآب هو الربُّ والابن هو الربُّ. فكيف يكون الابن أقلّ منه؟ وكيف يكون الابن حرّاً إذا كان أقلّ من الآب في الربوّبية وليس له الكرامة الإلهية في ذاته؟ وإذا كان الآب هو النور والابن هو النور، فكيف يكون الابن أقلّ منه؟ فالابن لا يكون النور الكامل إذا كان أقلّ من الآب، بل ستدركه الظلمة ويصبح الإنجيلي كاذباً بقوله "وَالظُّلْمَةُ لَمْ تُدْرِكْهُ" (يو ١:٥). وإذا كان الآب هو الحياة والابن هو الحياة؟ فكيف يكون الابن أقلّ منه؟! إن كان الابن أقلّ حياةً من الآب ستكون الحياة التي فينا ناقصة حتى إن كان المسيح حالاً في الإنسان الداخلي بالإيمان (أف ٣: ١٦ - ١٧). بل ويكون الذين يؤمنون إلى حد ما موتى طالما أن حياة الابن أقلّ كمالاً من الآب. ولكن علينا التخلّص من هذه الحماقة، وأن نعترف أن الابن كامل وهو مساوٍ للآب الكامل بسبب مماثلته له في الجوهر بكلّ دقّة". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٥٦.

إذن، فبما أن كل ما هو موجود في الآب، يوجد أيضاً في الابن، وكذلك كل ما هو موجود في الابن يوجد أيضاً في الآب، فهو لم يكذب حين قال: "أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ"، فطالما الاثنان يبدوان هكذا، فتطابُق الاثنين ليس له مثيل. ولأن الابن هو وليد الآب حقاً، لأنه لن يكون حاملاً - بحسب الطبيعة - كل ما لدى هذا الذي ولده إن لم يكن قد أتى منه، ولا مميزات الابن يمكن أن تكون في الآب لو لم يكن هذا الذي وُلِدَ هو وليد جوهره الخاص.

١٠- ردٌ آخر بمثال

كما في أيقونةٍ مرسومةٍ رسماً ممتازاً حتى ما أن يراها أحدٌ حتى يُعجب بهيئة الملك، وكل ما هو موجود فيه، فيريد أن يراها ويملكها، ولا يكتفي بذلك، بل يتمنى في نفسه أن يرى أيضاً الملك نفسه، كان يمكن للأيقونة أن تقول بفصاحةٍ له: مَنْ يراني يرى الملك، وأنا أيضاً والملك نكون واحداً، واحداً في كل ما يخص التماثل وبدقة كبيرة، كذلك أيضاً، أنا في الملك والملك فيَّ، من جهة شكل الهيئة (لأن الأيقونة تحمل هيئة ذاك وهيئة الأيقونة حُفظت في ذاك)، هكذا يقول الابن أيضاً: "اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ" (يو ١٤: ١٩)، و"أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ" (يو ١٠: ٣٠)، و"أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ" (يو١٤: ١١). أي أن الابن لديه جوهر الآب الخاص الذي ليس له مثيل، إنه أيقونة الآب الصادقة وشكل ذاك الذي وَلَدَهُ مُظهِراً الوالِد في ذاته [1].

هكذا، على الجانب الآخر تدرك أيضاً قول الرسول بولس: "اَلَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً للهِ" (فيلبي ٢: ٦). فهو معادلٌ لله حيث أنه إله كامل مثل الآب. فإذا كان الله في المسيح مصالحاً العالم لنفسه، هكذا هذه الأمور التي يفعلها الابن هي أعمال الآب. إذن طالما لا يوجد أي اختلاف عند هؤلاء فيما يخص الإلوهية والطبيعة، إذن لا يوجد شيءٌ يمنعنا من أن نقول إن أعمال الآب هي أعمال الابن، والعكس أيضاً صحيح.

---

(١) هذا المبرر نجده عند القديس أثناسيوس حيث يستخدم أيضاً صورة "الملك" المعتادة عند الوثنيين حيث كانوا يقدرونها ويسجدون لها دائماً. أنظر ضد الأريوسيين، المقالة الثالثة، المرجع السابق ، الفصل الثالث والعشرون، فقرة ٥ ص ١٨.

١١- ردٌ آخر

إذا كانت كل المميزات التي توجد في الآب توجد أيضاً في الابن، دون أن تكون قد أُضيفت بحسب النعمة فيما بعد، ولا بأي نوع من الشركة، لكن بحسب الطبيعة، مثله مثل هذا الذي ولده، ولم يكن هناك شيءٌ يتوسط فيما بينهما، أو يفصلهما للدرجة التي يكونان فيها غير متماثلين، يتضح إذن لكل واحد أن الابن لديه حقاً كل خصائص جوهر الآب، ويحمل داخله كل الآب، وهو ذاته يُوجد كله في الآب وفق تطابق الجوهر. لأجل هذا بالضبط، يكون حسناً وطبيعياً أن يقول: "أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ" (يو ١٤: ١١)، و"أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ" (يو ١٠: ٣٠). بمعنى، لأنه لا ينقص منه شيءٌ مِن كل ما لدى الآب، لأجل هذا هو مثل ذاك الذي ولده.

١٢- ردٌ آخر

يُدعى الله آبٌ؛ لأن وجود الابن يُدرَك بهذه التسمية. لأنه لن يكون آباً إن لم يكن لديه ابنٌ مولود منه. والعكس، تسمية الابن تشير إلى وجود الآب. لأن الواحد يُعلَن بعلاقة مع الآخر.

إذن، فبما أن كل واحدٍ من الإثنين يوجد حتماً في الآخر، ويُدعى آبٌ مع هذا الذي ولده، وأيضاً ابنٌ مع ذاك الذي ولده، عندئذٍ فهو يقول الحق حين قال: "أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ".

١٣- ردٌ آخر

بما أن كل مَنْ يؤمن بالابن، يؤمن بالآب، وذاك الذي يكرِّم الابن، يكرِّم الآب، وذاك الذي يسجد للآب، يسجد للابن، فكيف إذن لا يُوجد هذا داخل ذاك، وذاك داخل هذا، بحسب جوهرهما ذاته الذي ليس له مثيل؟ لأجل هذا، على الجانب الآخر يوجد سجودٌ واحدٌ، هذا السجود الذي يصير للابن وللآب مع الروح القدس، وإله واحد يُعترَفُ

به وهو كائن، لأنه لا يوجد أي اختلاف بين الآب والابن، بل لديهما تطابق في الجوهر، ولا يوجد شيءٌ يفصل الواحد عن الآخر من جهة نوعيتهما الطبيعية[1].

١٤- إعتراض آخر من جانب محاربي المسيح

يقولون: إن الآب يوجد في الابن والابن في الآب بالطريقة الآتية: هما لا يختلفان في القرارات أو الأفكار، ما يريده الآب، يريده أيضاً الابن، كذلك فكل ما يريده الابن يريده أيضاً الآب، ويوجد توافق وتطابق للإرادات والآراء فيما بينهما، وفق هذا، الآب هو في الابن والابن في الآب.

١٥- الرد

بالتالي - طبقاً لرأيكم - يُسمَح أيضاً للملائكة أو للقوات العاقلة الأخرى والتي يُقال عنها في المزامير "بَارِكوا الرَّبَّ يَا مَلاَئِكَتَهُ الْمقْتَدِرِينَ قوَّةً، الْفَاعِلِينَ أَمْرَهُ" (مز ١٠٣: ٢٠) أن تستخدم أقوال المخلص، وكل واحد يقول: "أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ"، و"اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ". بالرغم من أنه واضحٌ لكل واحد، أن كل ما يريده الله تريده أيضاً الملائكة، ورؤساء الملائكة والعروش والسيادات والسلاطين، وليس هناك واحدٌ منهم لا يوافق على إرادة الله؛ لأنه عندئذٍ لن يبقَ في مكانه أن لم يكن لديه ذات الهدف، طالما أن ذاك (الشيطان) الذي طلب شيئاً مختلفاً عن إرادة الله، سمع: "انحدرت إلى أسافل الجب" (إش ١٤:١٥). إذن، فبما أن كل واحد من هؤلاء الذين ذكرناهم يريد كل ما يريده الله، ويظل بالقرب منه، ويحفظ سيادته، ولا يبدو أبداً أنه يستخدم أقوال الابن، إذن، فلا موافقة الرأي، ولا إرادة نفس الأمور، يُظهِر أن الابن هو في الآب والآب في الابن، لكن المساواة التي لا مثيل لها في الجوهر، وتطابق هويتهما الطبيعية.

---

(١) أي من جهة خصائص طبيعة الله، فالابن له كل خصائص الآب، كما يؤكد بكل وضوح القديس كيرلس، قائلاً: "إذا كان كلّ ما للآب هو للابن، والآب له الكمال، فإن الابن يكون كاملاً هو أيضاً لأن له كلّ خصائص وأمجاد الآب. لذلك فهو ليس أقلّ من الآب حسب كفر الهراطقة". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٦١.

١٦- ردٌ آخر

الملائكة ورؤساء الملائكة والعظماء من هذه القوات العاقلة، يظلون بغير تزعزع في مكاهم ويحفظون سلطاهم بكل وضوح، من أهم لا يأخذون موقفاً ضد إرادات الله، لكنهم يخضعون لنواميس ذاك الذي صنعهم، ورأيهم متفق تجاه الله، لدرجة أهم يريدون أيضاً أن يصنعوا كل ما يقرره ذاك.

إذن، وبما أن الأمر على هذا النحو، ومُعتَرَفٌ به من الجميع، فما هو السبب الذي يجعل الابن وحده يكون وحيد الجنس، **والكلمة**، والحكمة؟ لأنه لو كان قد دُعيَ الابن الوحيد وحكمة **وكلمة** الآب بسبب أنه يريد ما يريده أيضاً الآب، لَكان يجب أن تطلق هذه الأسماء أيضاً على المخلوقات العاقلة، وأن تُدعى بكل ما دُعيَ به الابن من أسماء. وبما أن أياً من هذه المخلوقات العاقلة لم يكن الابن وحيد الجنس ولا **الكلمة** ولا الحكمة ولا النور ولا شعاع ولا هيئة ولا أيقونة الآب، إذن فمن الحتمي - وفق رأيكم - أن لا تكون هذه المخلوقات تريد ما يريده الآب، وليست على رأيٍ مشتركٍ معه.

إن ما جعل الابن يقول: "أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ" هو أنه نتاجٌ أصيلٌ لجوهر الآب، يحمل داخله الآب، ويوجد أيضاً في الآب. نفس السبب يسري أيضاً بالنسبة للبشر الذين هدفهم أن يتبعوا الإرادات الإلهية، لكنهم لا يستطيعون أن يقولوا: "أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ"[1].

---

(1) هذه العلاقة الفريدة بين الابن والآب تعتمد على وحدة الجوهر والآب في الابن مثل النار في الحرارة الصادرة منها، ويؤكد القديس كيرلس - في سياق شرحه لنص يو ١: ٣ "وبغيرة لم يكن شيء مما كان" - على هذا الأمر، قائلاً: "وحسناً يفعل كل مَنْ يدرك عمق هذه الكلمات "وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ" إذا تأمل جيداً ما قيل عن خلق الإنسان. لقد كُتِبَ "نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا" (تك ١:٢٦)، لأن هذه الكلمات بالذات لا تُعبّر عن الابن كأقل أو كخادم حسب تعبير الهراطقة. لأنه واضح أن الله لا يأمر الابن **الكلمة** "اخلق الإنسان" بل كواحد معه بالطبيعة وغير منفصل عنه لأن له ذات الطبيعة الإلهية وشريك له في العمل، وشريك له في المشورة الخاصة بالخلق، دون أن يعني هذا أن الآب كان يتوقع أن ينال معرفة من الابن، وإنما بسبب وحدة الجوهر، الابن يعمل مع الآب، مثل العقل غير المنفصل، والذي لا يخضع لفترات زمنية تفصل بين فكرة وأخرى، بل كما تقوم الكلمة في العقل دون انفصال عنه كذلك الابن **الكلمة** الكائن في الآب دائماً، والذي يعمل معه في الخلق". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٨١.

١٧- اعتراض آخر من اعتراضات الهراطقة

يقولون بما أن الابن يُدعى أيضاً صورة الآب، وهذا يجعله واحداً بحسب الطبيعة مع الآب. فما الذي يمنعنا أيضاً، بالرغم من أننا بشر، طالما دُعينا أيضاً أبناء (أنظر مز ٨٢: ٦) وخُلِقنا "بحسب صورة الله" أن نكون مثله من جهة الجوهر؟

١٨- الرد

بالنسبة لنا، يا أصدقائي، هذا يوجد بحسب النعمة، بينما يوجد بالنسبة **لكلمة** الله بحسب الطبيعة. ولذلك يُقال: "لاَ مِثْلَ لَكَ بَيْنَ الآلِهَةِ يَا رَبّ" (مز ٨٦: ٨). لأن مكانته طبيعية وليست مضافة فيما بعد، بينما بالنسبة لنا يُقال: "أَنَا قُلْت: إِنَّكُمْ آلِهَةٌ وَبَنو الْعَلِيِّ كلّكُمْ. لكِنْ مِثْلَ النّاسِ تَموتونَ وَكَأَحَدِ الرّؤَسَاءِ تَسْقُطونَ" (مز ٨٢: ٦)، لأننا إن لم نبذل كل جهدنا للانفصال عن الشر، يمكن بسهولة أن نسقط من هذه الأمور التي نلناها. وقد نلنا بحسب النعمة أن نُدعى أبناء وآلهة، وهي ألقاب بحسب الطبيعة تنتمي إلى الابن. أيضاً نحن نكون صورة الله، لأننا قبلنا الصورة الحقيقية، **كلمته**، وسكن بيننا[1]، أو لأنه في الأزمنة الأخيرة تأنّس لأجل خلاصنا. لكن الاختلاف كبير ولا يقاس بيننا، نحن الذين بحسب النعمة دُعينا أبناء، وذاك الذي هو الابن بحسب الطبيعة. هكذا يكون رأيكم في الحقيقة، بمثابة ثرثرة، ولا يحتوي مفهوماً مفيداً.

---

(1) يوضح القديس كيرلس بنوتنا للآب باستخدام الشاهد الوارد في غلا ٤: ٦ مؤكدا أننا نلنا البنوة بفضل سكنى الكلمة فينا بالروح القدس، إذ يقول: "غير أني أود أن أسألهم (الهراطقة) عن طريقة التبني هذه وكيف حدثت وأيضاً عن بنوّته هو وبنوّتنا نحن. لأننا ورثنا أن نكون أبناء، ولسنا نحن الذين نقول كيف صرنا أبناء لكن القديس بولس هو الذي علّمنا ذلك عندما كتب "ثم بما أنكم أبناء أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً يا أبا الآب". وهذا معناه: نحن نقول إننا دعينا إلى البنوة الروحية وذلك بسبب أن الابن يسكن في داخل قلوبنا بطريقة لا توصف بواسطة الروح القدس". القديس كيرلس عمود الدين، حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الثاني، الحوار الثالث ص ٦١.

والقديس أثناسيوس يؤكد أن هذا التبني يتم بسكنى المسيح بالروح فينا، إذ يقول: "كما أن المسيح ابن حقيقي، فإننا عندما نأخذ الروح "نصير أبناء" لأن الكتاب يقول "إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً لخوف بل أخذتم روح التبني" (رو ٨: ١٥). وإن كنا بالروح قد صرنا أبناء، فواضح أننا في المسيح ندعى أولاد الله لأن "كل الذين قبلوه أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله"]. القديس أثناسيوس الرسولي، الرسائل عن الروح القدس، المرجع السابق، الرسالة الأولى: ١٩.

١٩- ردٌّ آخر بطريقة وصفية

الآب والابن هما واحد، وهما متماثلان وفق الطريقة الآتية: بالنسبة لنا يمكن أن يُعتبر الابن مثل الآب ومن نفس جوهره، مثلما يمكن للمرء أن يرى الشعاع الآتي من الشمس شبيهاً بها. لأجل هذا، وبسبب أن هذه هي علاقة الابن تجاه أباه، عندما يعمل الابن، يعمل الآب، وأيضاً عندما يذهب إلى القديسين، يكون الآب هو ذاك الذي يذهب، مثلما قال نفسه: "إِنْ أَحَبَّنِي أَحَدٌ يَحْفَظْ كَلاَمِي، وَيُحِبُّهُ أَبِي، وَإِلَيْهِ نَأْتِي، وَعِنْدَهُ نَصْنَعُ مَنْزِلاً" (يو ١٤: ٢٣). لأنه، كما قيل بالفعل من قبل، الكل يصير من الآب بواسطة الابن. هكذا، لو أُعطيت النعمةُ مرةً لبعض القديسين، فهذه النعمة يكون قد منحها الآب بواسطة الابن. وبولس شاهد على هذا الأمر إذ كتب للبعض "نِعْمَةٌ لَكُمْ وَسَلاَمٌ مِنَ اللهِ أَبِينَا وَالرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ" (رو ١: ٧). وأيضاً هو نفسه كتب لآخرين: "وَاللهُ نَفْسُهُ أَبُونَا وَرَبُّنَا يَسُوعُ الْمَسِيحُ يَهْدِي طَرِيقَنَا إِلَيْكُمْ" (١ تس ٣: ١١). فلو لم تكن هناك أيةُ وحدةٍ بين الآب والابن، هل كان يمكن أن يقول "يهديان طريقنا إليكم" لكي يعلن الاثنين؟ لكنه لم يفعل ذلك، بل محافظاً بوضوح على وحدة الآب والابن، وضع "يهدي" في صيغة شخص مفرد، ليس كأن الآب يمنح بمفرده، والابن بمفرده، لكن بسبب أن المواهب تُرسل للقديسين من الآب بواسطة الابن بالروح القدس، أي من إلوهية واحدة.

٢٠- ردٌّ آخر

لو كان الابن منفصلاً بحسب الطبيعة عن جوهر الآب، ولو لم يكن هناك وحدة لا تنفصل فيما بينهما، مثل الوحدة التي توجد بين الشعاع والشمس، لَكان يمكن للآب أن يكتفي فقط بأن يعطي المواهب للقديسين، دون أن يكون الابن أيضاً معه لأجل هذا الهدف. لأنه، لو كان الابن مخلوقاً بحسب الجوهر، وكان مختلفاً عن الله، فما هو السبب الذي يجعله يشترك في منح المواهب، طالما أن أي أحد آخر من المخلوقات لا يشترك مع الله أثناء منح المواهب الإلهية، بل يأخذ معه الابن فقط؟ لأن أحداً لا يقبل أن يقول ليت الآب والملائكة يُرضيان مطلبك، لكنه لم يذكر شيئاً أعظم من الملائكة. لأن المنح يليق فقط بالله. لكن بما أنه يعطيها ليس مع أي واحد آخر من المخلوقات، لكن فقط مع الابن وبواسطة

الابن، بنعمة الروح القدس، يكون ظاهراً من هذا، ومعروفاً لأي أحدٍ، أنه يفعل هذا الأمر لأنه هو γέννημα وليدٌ[1] خاص لجوهر الآب، ولديه في داخله الآب، وحقاً هو ذاته في الآب، يعمل ويفعل ويمنح العطايا للقديسين. ويشهد على هذا الأمر بولس حين يقول: "أَشْكُرُ إِلهِي فِي كُلِّ حِينٍ مِنْ جِهَتِكُمْ عَلَى نِعْمَةِ اللهِ الْمُعْطَاةِ لَكُمْ فِي يَسُوعَ الْمَسِيحِ" (١كو ١ : ٤).

٢١- ردٌ من معارضات الهراطقة

لقد قُلتم أن أحداً من المخلوقات لم يُستخدم مع الله أثناء منح مواهبه. ماذا تفعلون إذن وأنتم تجدون يعقوب البطريرك في الكتاب المقدس يبارك أولاد يوسف، إفرايم ومنسي، قائلاً: "اللهُ الّذِي رَعَانِي مُنْذُ وُجُودِي إِلَى هذَا الْيَوْمِ، الْمَلاَكُ الّذِي خَلّصَنِي مِنْ كُلِّ شَرّ، يُبَارِكُ الْغُلاَمَيْنِ. وَلْيُدْعَ عَلَيْهِمَا اسْمِي وَاسْمُ أَبَوَيَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ، وَلْيَكْثُرَا كَثِيراً فِي الأَرْضِ" (تك ٤٨: ١٥ - ١٦). ها هو إذن حيث يذكر الله، يضيف الملاك، لأنه استطاع أن يبارك معه.

٢٢- الرد

إذا كان محاربو المسيح يعترفون بأن روح النبوة يوجد في هذا الذي يقول هذه الأقوال ويؤمنون حقاً بأن يعقوب كان رجلاً قديساً، فلأي سبب يحيطونه بضلال عظيم، ألا يخجلون من أنهم يربطون الملاك بإله الكل، ويؤمنون بأن الملاك يستطيع أن يبارك مع ذاك الذي خلقه، هذا الذي صار بواسطته؟

---

(١) استخدم القديس كيرلس هذا المصطلح حين تحدث عن يو ١: ٩ "كان النور الحقيقي" حيث قال: "**فكلمة الله** هو جوهرياً "**النور**"، وهو ليس كذلك بواسطة النعمة بالمشاركة، ولا نال هذه المكانة عَرَضِيًا، ولا وُهِبَت له كنعمة، وإنما النور هو الصلاح غير المتغيّر للطبيعة غير المخلوقة، وهو ينطلق من الآب إلى وليد جوهره. والمخلوق لا يستطيع أن يحتمل أن يصبح النور، وإنما يقبل النور مثلما تقبل الظلمة الأشعة، أو كما تُوهَب النعمة، وهذه هي المكانة التي أعطاها لنا الابن بسبب محبته للإنسان. وإذن فهو وحده النور الحقيقي، والباقون ليسوا كذلك. ولأن الفرق بين الابن والمخلوقات عظيم جداً، أُصبح اختلاف ابن الله عن الخليقة، عظيماً هو أيضاً، لأن الطبائع مختلفة". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ١٠٠.

وبما أن ذلك من غير المعقول، ليتهم يسمعون أيضاً منا: لو كنتم قد آمنتم بأن يعقوب صار حقاً قديساً، لكان عليكم أن تتوقفوا عن تجديفكم وابحثوا لتجدوا الأهمية الحقيقية لهذه الأقوال التي قالها، أمَّا لو كان غير قديس، وتجرَّأتم على القول بهذا، عندئذٍ لماذا تغيِّرون أموراً كثيرة وعظيمة، وتتبعون كلام إنسان ليس بقديس؟

حسناً، جهلكم واضح. سوف أشرح أقوال البطريرك بطريقة لائقة بإنسان قديس ومتعلِّم من الروح القدس معرفة حقائق التقوى، أولاً قال: "اللهُ الّذِي رَعَانِي مُنْذُ وُجُودِي"، ثم قال: "الْمَلاَكُ الّذِي خَلّصَنِي مِنْ كُلِّ شَرّ"، هكذا داعياً "الله" ويقصد به الآب، وقائلاً "الملاك" ويقصد به **الكلمة** الآتي منه. لأنه يعرف أنه يُدعىَ "ملاك المشورة العظمي" (أش ٩: ٦). أيضاً بكونه هنا يقصد الابن، وليس ملاكاً، الأمر الذي عادةً ما ندركه، يبدو بوضوح من الآتي، قائلاً: "الملاك" ولم يتوقف كلامه عند هذا الحد، بل أضاف "الّذِي خَلّصَنِي مِنْ كُلِّ شَرّ". دعنا نرى إذن من أقواله، إن لم يكن الله هو الذي خلّصه، لكان واحداً من الملائكة المخلوقة.

برهان على أن الله كان هو الذي خلّص يعقوب البطريرك من كل شروره

يُقال أن ملاكاً صارع يعقوب البطريرك، وهذا مكتوب في الكتاب المقدس. لكن فيما هو ممسكٌ به، قال له القديس: "لأَنّي نَظَرْتُ اللهَ وَجْهاً لِوَجْهٍ" (تك ٣٢: ٣٠). إذن هذا الذي ظهر كملاك، مازال يرسل البركة لأحفاده.

٢٣- ردّ آخر من نفس الردود

لقد ظهر الإله للبطريرك، كما هو مكتوب، حيث قال له: "وَهَا أَنَا مَعَكَ، وَأَحْفَظُكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ" (تك ٢٨: ١٥). بالتالي، ذاك الذي خلّصه كان الله، وليس ملاكاً. وأيضاً، عندما قبض لابان على يعقوب، أعاقه الله عن أن يُفعَل به شر ولم يسمح للابان أن يتفوه بكلام مهين على يعقوب. لكن كون أن الله كان هو الذي فعل هذا الأمر له، يشهد له هو ذاته، قائلاً لامرأتيه: "لكِنّ اللهَ لَمْ يَسْمَحْ لَهُ (لابان) أَنْ يَصْنَعَ بِي شَراً" (تك ٣١: ٧). ومرةً أخرى، عندما فكر أخوه عيسو أن يصنع شراً ضده، لم يتوسل لملاك، بل

لله، صارخاً: "يَا إِلهَ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَإِلهَ أَبِي إِسْحَاقَ،....نَجِّنِي مِنْ يَدِ أَخِي، مِنْ يَدِ عِيسُوَ، لأَنِّي خَائِفٌ مِنْهُ أَنْ يَأْتِيَ وَيَضْرِبَنِي الأُمَّ مَعَ الْبَنِينَ" (تك ٩: ١١ - ٣٢).

٢٤- ردٌ آخر يبرهن على أن كلمة الله هو هيئة الآب

قال المخلص لليهود الذين أظهروا عصياناً كبيراً: "وَالآبُ نَفْسُهُ الَّذِي أَرْسَلَنِي يَشْهَدُ لِي. لَمْ تَسْمَعُوا صَوْتَهُ قَطُّ، وَلاَ أَبْصَرْتُمْ هَيْئَتَهُ، وَلَيْسَتْ لَكُمْ كَلِمَتُهُ ثَابِتَةً فِيكُمْ، لأَنَّ الَّذِي أَرْسَلَهُ هُوَ لَسْتُمْ أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِهِ" (يو ٥: ٣٧ - ٣٨). حسناً، لأنكم لم تؤمنوا **بالكلمة** الذي أُرسل من الآب، قيل: ولا صوت الله سمعتموه، ولا رأيتم هيئته أبداً، لذلك لا تمكث **كلمته** فيكم أيضاً. إذن، فقد صار للكل واضحاً ورائعاً، لو قبلتم المرسَل لكنتم قد سمعتم صوت الله ورأيتم هيئته، ومكث **الكلمة** في داخلكم.

حسناً، كل هذا هو الابن، صوت وهيئة وكلمة الآب[1]. وبما أنه هو هيئة الآب، فمن الواضح أيضاً أنه صورة وختم الآب (أنظر عب ١: ٣). إذن وهو يملك ختم أصله بحسب الطبيعة، يتحدث بحق حين يقول: "أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ" (يو ١٤: ١١) و"أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ" (يو ١٠: ٣٠).

(١) الظهور الحقيقي للآب هو في المسيح، وهذا ما أكد علية القديس كيرلس أثناء حديثة عن قول الله لموسى بخصوص أنه سيسكن في وسطهم (خر ٢٥:١ - ٨) إذ يقول: [وعندما تؤخذ التقدمات، يقول: "فيصنعون لي مقدساً لأسكن في وسطهم". أي أن المسيح يظهر في الكنيسة ويتمجد في كل أعضائها كما تقول المزامير: " الرب هو الله وقد أنار لنا" (مز ١١٨: ٢٧). لاحظ هذا أيضا، أنه بالرغم من أنه نزل إلى الجبل على شكل نار ورآه كل الشعب، فقد كُتب هكذا مع أنه لم يظهر بعد؛ لأنه يقول: "فيصنعون لي مقدساً لأسكن في وسطهم". يمكننا إذن أن نرى بوضوح كيف أن تلك الرؤى إنما هي فقط ظلالٌ للرؤية الإلهية الحقيقية.إن الظهور الحقيقي لله هو المسيح الذي في شخصه رأينا الآب نفسه. لذلك وبخ الرب اليهود كأغبياء، قائلاً: "لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيئته. وليست لكم كلمته ثابتة فيكم لأن الذي أرسله هو لستم أنتم تؤمنون به" (يو ٥: ٣٧ - ٣٨)، بينما هم ظنوا أنهم رأوا إله الجميع حقاً على جبل سيناء]. السجود والعبادة بالروح والحق، المقالة التاسعة ص ٦٢ - ٦٣.

٢٥- ردٌ آخر يُظهر أن الكلمة يُدعى هيئة الله

بعدما سُمي يعقوب البطريرك مِن قِبَل الله بإسرائيل في وقتٍ ما، عندئذٍ، كما يقول الكتاب: "وأشرقت له الشمس حين عَبَرت هيئة الله" (تك ٣٢: ٣١س)[١]. وماذا يمكن أن تكون هيئة الله، إلاّ هذا الذي بجرأةٍ صرخ قائلاً: "اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ" و"أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ" و"أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ"؟

٢٦- معارضة من معارضات محاربي المسيح مملؤة تجديفاً

يزعمون أن المخلص ذاته يتوسل لأبيه لأجل تلاميذه، ولأجل كل الذين يؤمنون به، قائلاً الآتي: "أَيُّهَا الآبُ الْقُدُّوسُ، احْفَظْهُمْ فِي اسْمِكَ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي، لِيَكُونُوا وَاحِداً كَمَا نَحْنُ" (يو ١٧: ١١).

وبعد ذلك يقول: "وَلَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ هؤُلاَءِ فَقَطْ، بَلْ أَيْضاً مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِي بِكَلاَمِهِمْ، لِيَكُونَ الْجَمِيعُ وَاحِداً، كَمَا أَنَّكَ أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ فِيَّ وَأَنَا فِيكَ، لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضاً وَاحِداً فِينَا، لِيُؤْمِنَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي. وَأَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمُ الْمَجْدَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي، لِيَكُونُوا وَاحِداً كَمَا أَنَّنَا نَحْنُ وَاحِدٌ. أَنَا فِيهِمْ وَأَنْتَ فِيَّ لِيَكُونُوا مُكَمَّلِينَ إِلَى وَاحِدٍ، وَلِيَعْلَمَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي، وَأَحْبَبْتَهُمْ كَمَا أَحْبَبْتَنِي" (يو ١٧: ٢٠ -٢٣). بالتالي، كما نصير نحن - بالرغم من أننا بشرٌ بحسب الطبيعة - واحداً مع الآب، هكذا الابن ذاته هو واحدٌ مع الآب. أيضاً الآب ذاته هو واحدٌ مع الابن، كما نحن.

ولأنه لم يخبرنا عن سبب كوننا مشابهين للآب بحسب الطبيعة ، عندما نقول إننا صِرنا واحداً، هكذا ليس من الضروري أن نقول على أية حال إن الابن يأتي من جوهر الآب، بسبب أنه يقول: "أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ". لأنه - كما قلنا - متَّحد بالآب بنفس الطريقة التي نتحد بها نحن أيضاً. بالتالي، إمَّا أن نقّر بأننا نحن من جوهر الآب؛ لأننا أيضاً نصير واحداً مع الله، وإمَّا أن نظل بشراً، حتى لو صِرنا واحداً مع الآب. لأنه من الصواب

---

(١) النص في ترجمة بيروت كالآتي: "وَأَشْرَقَتْ لَهُ الشَّمْسُ إِذْ عَبَرَ فَنُوئِيلَ". وعن الابن نسبح في ثيؤطوكية الاثنين مرد كل ربع، قائلين: "أشرق جسدياً من العذراء بغير زرع بشر حتى خلصنا".

أن نؤمن بنفس الأمر بالنسبة للابن. لأنه يبقى في طبيعته، دون أن يُرفع إلى جوهر الآب، حتى لو قيل إنه واحدٌ معه.

٢٧- الرد

هذا الأقوال قالها الشيطان أبو محاربي المسيح ومانح ثرثرتهم، واسمع: "لكِنَّكِ انْحَدَرْتَ إِلَى الْهَاوِيَةِ، إِلَى أَسَافِلِ الْجُبِّ" (أش ١٤: ١٥). لأنه، كما تجرّأ ذاك وقال: "أَصْعَدُ إِلَى السَّمَاوَاتِ. أَرْفَعُ كُرْسِيِّي فَوْقَ كَوَاكِبِ اللهِ" (أش ١٤: ١٣)، هكذا هم أيضاً بنفس الطريقة، بينما يتجاوزون حدود الطبيعة البشرية، مرتفعين إلى قياس الجوهر، لا يخافون قائلين سنصير شبيهين بالعلي. فكما يقول كلمة الله الحق عندما صرخ "أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ"، بسبب الجوهر الذي لا نظير له، هكذا أيضاً محاربو المسيح يكون قولهم حتى إذا أقروا: "نحن وأبينا الشيطان واحد، لأن رأينا لا نظير له". ويَصِلون لمثل هذا الغباء حتى أنهم يظنون أن لديهم بحسب النعمة امتياز أن يُدعوا آلهة، وأنهم يستطيعون أن يكونوا مشابهين الآب بحسب الطبيعة، ويؤمنون بأنهم معادلون لذاك الذي رفعهم إلى البنوة، وأعطاهم بحسب النعمة مكانته الطبيعية بسبب محبته العظيمة للبشر.

٢٨- معارضة من الهراطقة

حتى وإن كان الابن يقول: "أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ"، فهذا لا يعني أنه واحدٌ مع الآب في الجوهر، لأننا أيضاً نحن البشر بحسب الطبيعة نصير واحداً مع الله، والشاهد لهذا الأمر هو الابن ذاته، الذي قال: "كَمَا أَنَّكَ أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ فِيَّ وَأَنَا فِيكَ، لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضاً وَاحِداً فِينَا" (يو ١٧: ٢١).

٢٩- الرد

لو كان الآب والابن واحداً، على غرار ما نكون نحن أيضاً مع الآب والآب معنا، لَما كان هناك اختلافٌ بين الله **الكلمة** وبيننا نحن، لأنه مثلنا بحسب الطبيعة، فيما عدا أنه يختلف فقط من جهة الزمن؛ لأنه يوجد قبل الكل. لكن، وبالرغم من أن لديه الأسبقية من جهة الزمن، فهو أيضاً له نفس جوهرنا. لأنه ما الذي يمنع آدم من أن يكون - على سبيل

المثال - مثل بولس بحسب الطبيعة، أو مثل أي أحدٍ آخر عاش بعده، بالرغم من أنه خُلق بواسطة الله قبل الجميع؟

فإذا كان الزمن لا يفيد شيئاً في هذا الأمر، فما الذي يمنع الابن، الذي وُجِدَ قبلنا، من أن يكون من نفس جوهرنا، إذ لا يوجد فيه أي اختلاف آخر عنا؟ ولو كان الأمر، وفق رأيكم، فلماذا يكون هو بمفرده خالقٌ، بينما لا يطلق علينا نحن هذا اللقب، ونحن بالطبع خُلِقنا بواسطته، بينما هو يحمل مجد الخالق؟

فلو كنّا نحن مثله بحسب الطبيعة، لكانت لدينا - نتيجةً لذلك - نفس مكانته بالقرب من الآب، ولَدُعِيَ كلُ واحدٍ منا أيضاً وحيد الجنس **وكلمة** وحكمة الآب؛ لأن خواص الطبيعة لا تنفك تكون واحدةً، وكل ما هو موجود بحسب الطبيعة في أي أحد، يوجد هكذا في الآخرين الذين لديهم نفس الجوهر.

لكن، لعدم معقولية هذا الأمر، لا يُدعىَ أحدٌ فينا حكمةً أو **كلمةً** أو شعاعاً، بل الابن فقط هو كل هذا، لأنه ليس مثلنا بحسب الطبيعة، بل لأنه وُلِدِ بالأخص من الآب، لذا فهو واحدٌ مع أبيه، وليس مثلنا نحن الذين بعلاقتنا به ربحنا الوحدة بالمشاركة والشركة(١)، مثلما يحدث مع الحديد الذي يكتسب السخونة حين يتصل بالنار.

---

(١) نفس هذا البرهان يشرحه بوضوح القديس كيرلس أثناء تفسيره لنص يو ١٧ :٢١ مؤكداً على الفرق الشاسع بين إتحادنا بالله وإتحاد الابن بالله - وبذلك "التأله" الذي ينادي به القديس كيرلس ومن قبلة القديس أثناسيوس لا يعنى أبداً تغير الطبيعة البشرية إلى طبيعة إلهية - حاشا، إذ يقول: "لكي يكونوا واحداً، كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا". إذاً، فهو يصلّي من أجل رباط المحبة والوفاق والسلام، لكي يجعل الذين يؤمنون في وحدة روحيَّة؛ حتى أن اتحادهم بواسطة التعاطف الكامل ووحدة النفس بدون انفصال، يمكن أن يشبه ملامح الوحدة الطبيعية الجوهرية الموجودة بين الآب والابن. ولكن رباط المحبة الذي فينا، وقوَّة الوفاق، لن تنفع في ذاتها بالمرَّة أن تحفظهم في نفس حالة الإتحاد غير المتغيَّرة كما هي كائنة بين الآب والابن، اللذان يحفظان وحدتهما بجوهرهما الواحد. فإن هذه الوحدة (التي بين الآب والابن)، هي بالحقيقة طبيعية وفعلّية، وتوجد في صميم تعريف وجود لله، بينما الوحدة الأخرى (التي بين المؤمنين). فهي فقط تتخذ شكل تلك الوحدة الحقيقية. لأنه كيف يكون الشبه تماماً مثل الحقيقة نفسها؟ لأن شبه الحق ليس كالحق نفسه، بل يأخذ مظهراً مشابهاً، ولا يختلف عنه ما لم تحدث مناسبة للتمييز بينهما". شرح إنجيل يوحنا، الجزء التاسع، الإصحاح السابع عشر ص ٢٢٠ - ٢٢١.

٣٠- ردٌّ ببرهان موجز يُعلِّم، أن الذين يتشابهون مع آخرين في بعض الصفات الطبيعية، لا يوجد فيهم بالضرورة تشابه بحسب الطبيعة

يقول الكتاب المقدس: "لاَ تَكونوا كَفَرَسٍ أَوْ بَغْل بِلاَ فَهْمٍ" (مز ٣٢: ٩) وأيضاً: "وَالإِنْسَان فِي كَرَامَةٍ لاَ يَبِيت. يشْبه الْبَهَائِمَ الَّتِي تبَاد" (مز ٤٩: ١٢). وفي موضع آخر: "صَهَلُوا كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى امْرَأَةِ صَاحِبِهِ" (أر ٥: ٨). والمخلِّص يتوجه إلى التلاميذ، بكل وضوح، قائلاً: "كُونُوا حُكَمَاءَ كَالْحَيَّاتِ وَبُسَطَاءَ كَالْحَمَامِ" (مت ١٠: ١٦)، وأيضاً "فَكُونُوا رُحَمَاءَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمْ أَيْضاً رَحِيمٌ" (لو ٦: ٣٦).

فإن كان البعض يتشابهون مع الحيوانات غير العاقلة؛ لأنه يظهر عليهم أعراض عدم الفهم الخاص بهم، فهل يجعلهم ذلك يصيرون أيضاً بحسب الطبيعة علي الحالة التي تكون عليها تلك الحيوانات؟ وهل تقليد التلاميذ لتصرف الحية وبساطة الحمامة، وهل منح رحمة آب السموات للجميع بدون كيلٍ، يجعلهم متماثلين بحسب الطبيعة مع الحيات والحمام والله؟ عندما نقول إننا نصير واحداً مع الرب، لا شيء يجبرنا على أن نقول إننا نصير واحداً مع الله من جهة الجوهر، مثلما يكون أيضاً الابن مع أبيه.

فإذا كان تشابهنا مع هذه الكائنات التي نقارَن بها ينحصر فقط في الرأي أو العمل، فلا يمكن أن نكون من جهة الجوهر مثل الله، عندما نقول إننا نصير واحداً مع الله. لكن مثلما يكون هذا واحداً بحسب الطبيعة مع **كلمته**، هكذا أيضاً نحن نصير واحداً فيما بيننا من جهة الرأي ومن جهة الوفاق، ومن جهة أننا لا نثور فيما بيننا بأية طريقة، لكن نكون مقيَّدين بقيود المحبة المقدسة كما في تطابق واحد.

٣١- ردٌّ آخر

اعتاد المسيح المخلص أن يقدم دائماً الصالحات التي لديه بحسب الطبيعة وينصحنا أن نتشبَّه بها، حتى يعيد خلقتنا بحسب صورة الله التي خُلِقنا عليها. إذن عندما يريد أن يعلِّمنا أن نكون ودعاء، يقول: "تَعَلَّمُوا مِنِّي، لأَنِّي وَدِيعٌ وَمُتَوَاضِعُ الْقَلْبِ" (مت ١١: ٢٩). لكن عندما نكون متعلمين منه نصير ودعاء، لا نصير مثله بحسب الطبيعة، إلاَّ فقط من جهة طريقة الوداعة. بالتالي، عندما يقول لأجلنا: "لِيَكُونُوا وَاحِداً كَمَا نَحْنُ" (يو ١٧:

١١)، آخذاً ذاته مثالاً، فهو لا يقوله على أية حال لكي نصير واحداً بحسب الطبيعة مع الله، لكن مثلما هو بحسب الطبيعة واحدٌ مع الآب، هكذا أيضاً نحن بنفسٍ واحدةٍ وبسلوكٍ واحدٍ فيما بيننا نصير واحداً، متمثلين بالتطابق الطبيعي للآب مع الابن[١]، كإيقونة النفس الواحدة التي يمكن أن تجعلنا جسداً واحداً ونفساً واحدةً. لأنه هكذا مكتوب أيضاً لأولئك الذين يؤمنون، "وَكَانَ لِجُمْهُورِ الَّذِينَ آمَنُوا قَلْبٌ وَاحِدٌ وَنَفْسٌ وَاحِدَةٌ" (أع ٤: ٣٢).

٣٢- ردٌ آخر

تصير بعض الامتيازات الطبيعة - بطريقةٍ ما - مثل صورٍ غير متغيرة في أولئك الذين يريدون أن يشكلوا وفق هذه الامتيازات (الخواص) استعدادهم الداخلي، مثل هذه الخواص هي: "كُونُوا حُكَمَاءَ كَالْحَيَّاتِ وَبُسَطَاءَ كَالْحَمَامِ" (مت ١٠: ١٦). إذن – كأيقونة – سوف تصير مثالاً للوحدة التي يجب أن تكون فيما بيننا داخلنا، يفضِّل لنا الابن تطابقه الطبيعي الذي له مع الآب. بمعنى أنه عندما يقول لأجلنا: "لِيَكُونُوا وَاحِداً كَمَا نَحْنُ"، فهو لا يقصد أن نترك طبيعتنا ونتغير إلى طبيعة الابن[٢] (لأن ذلك مستحيل)، لكن، مثلما قيل مسبقاً بالفعل، أن نصير فيما بيننا من جهة الرأي، ما يكونه الابن مع الآب بحسب الطبيعة، أي واحدٌ. لكن لو ظنَّ أحدٌ، أن هذا الذي يُقال ليس على سبيل الصورة والمثال، بل تغيُّر طبيعي ما، فإنه يخدع ذاته غير ناظرٍ للحق. لأنه، لو كان الابن يريد أن نصير بحسب الطبيعة هذا الذي يكونه مع الآب، لكان يجب أن يقول: لكي يصيروا أيضاً، أيها الآب، واحداً مثلما أكون أنا معك. بينما هنا، بدون أن نقول هذا، استخدم الجمع قائلاً: "كما أنا وأنت واحد، هكذا يصيروا واحداً معنا"، يعلِّم بوضوح، أنه لا يريد أن تتغير طبيعة هؤلاء الذين يؤمنون به إلى طبيعة إلهية (لأن هذا مستحيل)، لكن آخذين -

---

(١) هكذا لأننا خُلِقنا بحسب صورة الله فنحن مدعون لأن نتمتع - بواسطة الروح القدس وسكنى المسيح فينا - بخصائص الثالوث من الوحدة والتنوع والقداسة والحرية.......الخ ولكن بحسب النعمة.

(٢) إذن التأله المرفوض - كما أكدنا مراراً - هو الذي يتضمن تغير الطبيعة البشرية إلى طبيعة إلهية، رغم أن هذا من المستحيل عملاً كما قرر القديس كيرلس. وفي هذه الفقرة يوضح القديس كيرلس المعنى الحقيقي لاتحادنا بالله.

كأيقونةٍ - الوحدة الداخلية الموجودة في الابن بحسب الطبيعة، محاولين أن يصيروا من جهة الفكر والرأي، ما عليه ذاك بحسب الطبيعة مع الآب الذي ولده[١].

٣٣- ردٌ يبرهن على أن مسألة أن يوجد في الله لا يعني تغيُّراً للطبيعة، بل اتحاد بواسطته أو منه

يقول المرنم "بك ننطح مضايقينا" (مز ٤٤: ٥)، وأيضاً: "بإلهي تسوَّرت أسواراً" (مز ١٨: ٣٠). من الواضح أنه لن يتسوَّر الأسوار، ولن ينتصر لأنه صار واحداً مع الله، لكن باسم الله وبقوة ذاك سوف يفعل هذا. بالتالي، عندما يقول الابن: "لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضاً وَاحِداً فِينَا"، لا يقول لكي يصير هؤلاء الذين يؤمنون، واحداً بحسب الطبيعة مع الله، بل يقصد باسم الآب والابن يكون لديهم اتفاق في الفكر ومقيَّدين باتحاد المحبة. لكن بسبب أنه أضاف "كَمَا أَنَّنَا نَحْنُ وَاحِدٌ"، فمن الواضح أنه لن يمنح المؤمنين تغيُّراً طبيعياً، بل هذا الذي له بحسب طبيعته، يضعه كصورةٍ ومثالٍ لاتحادنا[٢]. لأن "كما" لا تعني نصير حقيقةً مثله، بل تعني مثله بالمشابهة.

---

(١) واضح جداً الفرق بين ما يخص الله في حد ذاته وما يخص البشر، فالمسافة بين الله وبيننا شاسعة، وهذا ما يؤكده القديس كيرلس، قائلاً: "الذي لا جسد له لا يمكن أن يخضع للقوانين التي تخضع لها الأجساد؛ والأمور الإلهية لا تشبه الأمور البشرَّية. فلو لم يكن هناك أي شيء بالمرَّة يفصل أو يميِّز بيننا وبين الله، لكان من الممكن أن نطبق وضعنا الخاص كبشر على الأمور التي تخص الله، ولكن إن كنا نجد أن المسافة التي تفصل بيننا وبينه لا يمكن سبر غورها، فلماذا نضع صفات طبيعتنا الخاصة كمقياس ننظر به إلى الله، فنفكر في تلك الطبيعة (الإلهية)، غير المقيَّدة بأي قانون، على ضوء ضعفاتنا، وهكذا نجعل أنفسنا مذنبين بعمل شيء غير منطقي ومنافٍ للعقل". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح السابع عشر ص ٢٢١.

(٢) المسيح حقاً هو مثال للشركة التي لا تنفصم والوفاق والوحدة، كما يؤكد القديس كيرلس، قائلاً: "أن المسيح حينما يبرز أمامنا وحدة الآب الجوهرية معه، ووحدته هو مع الآب، كصورة ومثال للشركة التي لا تنفصم والوفاق والوحدة التي توجد في النفوس القريبة لبعضها البعض، فهو يريدنا أن نندمج - بطريقة ما - بعضنا مع بعض بفعل القوَّة التي من الثالوث القدوس المساوي، حتى يصير جسم الكنيسة كله واحداً حقيقة، مرتفعين في المسيح بواسطة اندماج ووحدة شعبين ليصيرا واحداً كاملاً". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، الجزء التاسع، الإصحاح السابع عشر ص ٢٢٢.

٣٤- ردٌ آخر نتعلم منه كيف نفسر القول: "أَنَا فِيهِمْ وَأَنْتَ فِيَّ لِيَكُونُوا مُكَمَّلِينَ إِلَى وَاحِدٍ، وَلِيَعْلَمَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي" (يو ١٧: ٢٣).

أراد **كلمة** الله أن يقدم نعمةً عظيمةً وفاخرةً إلى الجنس البشري، فدعا الكل للاتحاد به[1]. لأنه، بالرغم من أنه أخذ الجسد البشري وأتى إلينا، كان أيضاً لديه الآب في داخله بكونه **كلمته** وشعاعه. إذن، مثلما يقول أنا أكون معهم، لأنني أخذت نفس جسد هؤلاء، وأنت أيها الآب فيَّ، لأنني ملمحُ جوهرك الخاص، هكذا أريد أيضاً هؤلاء، طالما هم مرتبطين معاً في وحدة، أن يختلطوا معاً، وطالما يصيرون مثل جسدٍ واحدٍ، يكونوا جميعاً فيَّ، طالما أنني أحمل الكل في هيكل واحد (الجسد) الذي أخذته، وهكذا يُبدون كاملين. لأنني أنا أيضاً كاملٌ، بالرغم من أنني صِرت إنساناً.

٣٥- ردٌ آخر يبرهن بدقة، كيف، عندما نقول إننا صِرنا واحداً مع الله، لم نترك طبيعتنا، وأخذنا الطبيعة الإلهية، لكن نسمَّى هكذا؛ لأننا صِرنا مشاركين له.

يوحنا الطوباوي يقول: "بِهذَا نَعْرِفُ أَنَّنَا نَثْبُتُ فِيهِ وَهُوَ فِينَا: أَنَّهُ قَدْ أَعْطَانَا مِنْ رُوحِهِ" (١ يو ٤: ١٣).

حسناً، فلأننا صِرنا مشاركين الروح، صِرنا واحداً مع الله. ويُقال أيضاً إننا نكون فيه وهو فينا. أمَّا **كلمة** الله، فهو ليس من ضمن هؤلاء المشاركين للروح، بل بالحري هو مانح الروح. ومن الواضح، أننا لا نكون في الله الآب مثلما يكون الابن؛ لأن الابن بالتأكيد

(١) تحدث القديس كيرلس عن وحدتنا في المسيح أثناء حديثة عن شقق مسكن خيمة الاجتماع، إذ يقول: "حسناً. يقول الكتاب: [وأما المسكن فتصنعه من عشر شقق بوص مبروم واسمانجوني وأرجوان وقرمز بكروبيم صنعة حائك حاذق تصنعها طول الشقة الواحدة ثمان وعشرون ذراعا وعرض الشقة الواحدة أربع.اذرع قياسا واحدا لجميع الشقق تكون خمس من الشقق بعضها موصول ببعض وخمس شقق بعضها موصول ببعض" (خر ٢٦: ١ - ٣).إذن، عشرةٌ هي الشقق ومتصلة بعضها ببعض بشدة. لأنه في بيت الآب توجد منازل كثيرة، وهدف كل الذين يسكنون فيها هو هدف واحدٌ مقدس، وواحدةٌ هي معرفة الله. لأنه وفق المكتوب " الله قد دعانا في السلام" (١ كو ١٥:٧).ويمكنك أن تقبل - إذا أردت - وتعتقد أن العشر شقق هي جميع الكنائس - المنتشرة في كل العالم – رُبطت معاً بشدة في واحد، وذلك من خلال وحدة الإيمان بالمسيح. لأنه يوجد للكل "رب واحد وإيمان واحد ومعمودية واحدة" (أف ٤ :٥)] القديس كيرلس السكندري، العبادة بالروح والحق، المرجع السابق، الجزء الخامس، المقالة التاسعة ص ٩٧.

يكون في ذاك الذي ولده بحسب الطبيعة، بكونه **كلمته** وشعاعه، بينما نحن، لأننا بواسطته صِرنا مستحقين أن نكون مشاركين للروح، قيل إننا واحدٌ مع الله[1].

٣٦- ردٌ آخر له نفس المفهوم

أيضاً يقول الطوباوي يوحنا: "مَنِ اعْتَرَفَ أَنَّ يَسُوعَ هُوَ ابْنُ اللهِ، فَاللهُ يَثْبُتُ فِيهِ وَهُوَ فِي اللهِ" (١ يو ٤: ١٥).

إذن، عندما نعترف بأن يسوع هو ابن الله، نسكن في الله، وهو أيضاً يكون فينا، لكن الابن ليس في الآب بنفس هذه الطريقة؛ لأن اعترافه بأنه يكون فيه، ليس له على سبيل العطية.

من الواضح والمفهوم أيضاً من الكل، أن البشر يُدعَون بحسب النعمة أنهم متحدون مع الله، وهذا الاتحاد هو بمثابة مكافأة لهم على اعترافهم وإيمانهم، بينما **كلمة** الله بدون أي أمر من هذه الأمور، يكون في الآب بحسب الطبيعة، والآب يكون فيه، وهو حقاً واحدٌ معه.

٣٧- ردٌ آخر

طبقاً لكلمات يوحنا، مَن يعترف بأن يسوع هو ابن الله، فإنه يقبل الله فيه ويسكن هو في الله. يقول: حين يعترف أحدٌ - لأن هذا هو الشرط الضروري - ويأخذ الروح كعطية اعترافه، للتو يقبل الله في داخله، وهو نفسه يسكن في الله.

لكن هذا الذي ينادي بالرأي الهرطوقي، تحت تأثير شيطاني، عليه أن يندم على كل ما قرره باستقامة. لأنه ابتعد عن الاعتراف، وبسبب هذا نُزِعَت عنه النعمة وتغرَّب عن الروح القدس؛ لأن هذا (أي الروح) لا يسكن في هؤلاء الذين يجدِّفون على الابن. بالتالي توقف هذا الإنسان الهرطوقي عن أن يكون في الله، وأن يملك الله في داخله. على أن

---

(1) الجدير بالملاحظة أن وسائل إتحادنا بالله ليست وسائل بشرية، بل إلهية، فالقديس كيرلس تكلم عن أن **الكلمة** المتجسد هو سر إتحادنا، وفي هذه الفقرة يتحدث عن الروح القدس، وكان قد سبق التحدث عن الكنيسة جسد المسيح، هكذا الرسالة المسيحية لا تبشر بوسائل بشرية بل إلهية.

الإنسان يظل إنساناً أيضاً سواء اعترف، أو أبتعد عن الاعتراف، بالتالي، لا تتغير طبيعتنا إلى الجوهر الإلهي عندما يُقال إننا صرنا واحداً مع الله، لكن النعمة تربطنا به، والشر أيضاً يبعدنا عنه.

إذن حين نعترف أن يسوع هو ابن الله، نسكن في الله، وعندما نرفضه نتغرَّب عنه، بينما الابن لا ينال هذا الأمر كعطية. بالتالي، فهو لا يوجد في الآب بالطريقة التي يوجد فينا بواسطتها، لكنه يوجد في الآب بالتأكيد؛ لأنه بطريقة طبيعية وغير متغيرة مولودٌ منه، بينما نحن مولودون منه بحسب النعمة والمشاركة. إذن مثلما هو ابن الله بحسب الطبيعة، هكذا أيضاً نحن بطريقة مشابهه به(1) نصير بحسب النعمة أبناءً وآلهةً.

(1) ينصحنا القديس كيرلس بأن نتخذ من الوحدة الطبيعية بين الآب والابن والروح القدس نموذجاً لوحدتنا بعضنا ببعض، إذ يقول: "فإذ نتخذ الوحدة الطبيعية الموجودة بين الآب والابن والروح القدس كحقيقة مُسلّم بها (لأننا نؤمن بلاهوت واحد للثالوث القدوس ونمجده)، فلنبحث بعد ذلك كيف نكون نحن واحداً بعضنا مع بعض ومع الله بمعنى روحي وبمعنى جسماني معاً. فالابن الوحيد المولود من ذات جوهر الله الآب، والذي له في طبيعته، ذاك الذي وَلَده، صار جسداً بحسب الكتاب (انظر يو ١٤:١)، إذ أدمج نفسه بطبيعتنا باتحاد لا يُنطق به مع هذا الجسد الترابي؛ وهكذا فذاك الذي هو الله بالطبيعة الذي في السماء صار إنساناً، وهو هكذا بالحقيقة. وهو ليس مجرَّد إنسان مُوحي إليه - كما يتخيّل بعض الناس الذين لا يفهمون عمق السر فهماً صحيحاً؛ بل إذ وهو في نفس الوقت إله وإنسان معاً، وإذ هو يوحِّد في نفسه الأشياء المتناقضة تماماً بطبيعتها، ولا تندمج مع بعضها، فإنه يمكِّن الإنسان أن يكون شريكاً لطبيعة الله". شرح إنجيل يوحنا، الجزء التاسع، الإصحاح السابع عشر ص ٢٢٣.

المقالة الثالثة عشر

عن تماثل الابن مع الآب، وأن الابن ليس مغايراً للآب في الطبيعة، وهو ليس من خارج الآب، بل من جوهره، بكونه ابناً ومولوداً منه.

١- معارضة محاربي الله

يقولون: بما أن الابن هو صورة الآب التي لا نظير لها، وهو مثل الذي ولده في كل شيء، عندئذٍ دع أيضاً الابن يلد، ويصير آباً لابن؛ لأنه - بهذه الطريقة - يكون فعلاً متشابهاً معه بالضبط. أمَّا إذا افتقد الابن القدرة على الولادة، عندئذٍ لا يكون شبيهاً - من جهة هذا الأمر - مع الآب، وبالتالي لا يمكن رؤية مَن يلد في مَن لا يلد؟[1]

٢- الرد

إن لم يكن الله مختلفاً عن البشر، لَكان يجب أن يلد مثل البشر. ولكن بما أن طبيعة الله فائقة عن الطبيعة البشرية، فهي عندئذٍ حُرة ولا تخضع لما تخضع له الطبيعة البشرية من حدود؛ لأن الله لم يلد مثل الإنسان، حتى نقول إن الذي وُلِدَ منه تسري عليه النتائج الطبيعية للولادة الجسدية، لكنه وُلِدَ بطريقةٍ إلهيةٍ لا تُوصف، من الآب. لكن بما أن الآب لم

---

(١) هنا يتبنى الهراطقة مبدأً خاطئاً ينادي بأن اختلاف الألقاب يؤدي إلى اختلاف الجوهر، وقد أورد القديس كيرلس هذا الرأي وردَّ عليه في كتابة: حوار حول الثالوث، الجزء الأول، ترجمة ومراجعة المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، مارس ٢٠٠٨، المقالة الثانية ص٩١ وما بعدها.

يأتِ من بدايةٍ ما، وبكونه إلهاً لا يخضع لما تخضع له طبيعتنا، فما الذي يجبر الابن على أن يلد. وبما أنه فوق أية حتمية، بكونه الله، لذا يصير تماماً مثل الآب بحسب الجوهر[1].

٣- ردٌ آخر

لا يمكن لأحد - لديه عقل - أن يقول إن الابن لا يبدو مثل الآب بحسب الجوهر لأن الابن لا يلد، و لم يصِر آباً لابن. بل على النقيض من ذلك، ولأجل هذا السبب تحديداً تبدو صورة الآب في الابن عجيبة جداً وصادقة بالأكثر. لأنه، مثل الآب، بينما هو غير متغيِّرٍ ولا متحوِّلٍ، يبقى دائماً آباً ولا يتغيَّر إلى ابن، هكذا أيضاً **الكلمة** الذي أتى منه، يبقى على ما هو عليه مُظهراً أيضاً في ذاته بهذا خاصية عدم التغيُّر التي لدى الآب. هكذا هو متماثل من جهة هذا الأمر مع الآب.

٤- سؤالٌ يبرهن به الأريوسيون - كما يظنون - على أن الابن غير متماثل مع الآب.

يقولون: إن الابن إمَّا أن يكون حراً، أو لا يكون. فإذا كان حُراً، عندئذٍ يمكن أن يكون صالحاً بإرادته، فإذا كان الأمر يتوقف على إرادته وليس طبيعته، إذن يمكنه أن يتغير إلى صورٍ أخري، وحسبما يوجِّه قصده، يتحقق له هذا الذي يقصده.

على أن الأمر لو كان هكذا، فإن ذلك يضع الابن تحت التغيُّر والمعاناة. وهذا الذي يخضع للتغيُّر والألم، كيف يمكنه أن يكون صورةً ونظيراً لذاك الذي هو غير متغيِّر وغير متألم؟

أمَّا إذا كان الابنُ غير متغيِّر ولا يمكن أن يتغيَّر إلى شيءٍ آخر، بل يظل هذا الذي يكونه دائماً، عندئذ يكون مثله مثل حجر أو شجرة (خشب) مقيَّدٍ في ذاته بقيد طبيعي وغير موصوف، في هذا الذي يُمسِك به دون أن يكون لديه حرية وسيادة.

---

(1) تعبير "الابن مثل الآب بحسب الجوهر" عند القديس كيرلس يعادل هنا تعبير قانون الإيمان: "واحد مع الآب في الجوهر" أو "مساوٍ للآب في الجوهر". فمماثلة الابن بالآب تعنى عند القديس كيرلس أن الابن إله من إله وليس مجرد شبيه بالآب كما كان يدَّعى الهراطقة.

٥- الرّد على هذا السؤال

كان ينبغي عليَّ ألاَّ أجيب إطلاقاً على مثل هذه الأسئلة المنطوية على الجهل. لأن الإجابة عليها لا بُد وأن تنطوي على تجديف. الصمتُ أفضل. لأنني، لو قُلت إن الابنَ حُرٌّ، لكان علينا أن نسلم بالتغيُّر المترتِّب على الحرية؛ لأن تبعة الحرية والسيادة هي قبول التغيُّر حتى لو لم يعاني الابن التغيُّر لأنه لا يريد أن يعانيه.

فإذا ما تركنا هذا الأمر، كان علينا إذا قُلنا إن الابن غير متغّير، أن نُسلِّم بأن يكون ساكناً سكون الشجرة وجمودها!. وهم لا يدركون أنهم يتطاولون حين يقولون هذه الأقوال التي لو تذكّرها المرء وتأمَّلها لوجدها مفعمة بالخطر. لأنه بماذا يرد هؤلاء المتطاولون لو سألهم أحد نفس السؤال عن الآب؟ هل يذوقون ما تذوقنا من خوف مفضِّلين الصمت تجاه هذه الأسئلة؟ أم ماذا يمكنهم أن يقولوا؟ أنا حيال هذه الأسئلة أفضِّل الصمت، وكم يكون سهلاً ومفيداً لهؤلاء لو يدركوا هذا الأمر.

لكن، كون أن **كلمة** الله - بالرغم من أنه غير متغّير مثل هذا الذي ولده - أي مثل الآب في كل شيء، يمكننا أن نوضحه كالآتي: بما أنه صورة الآب المتماثلة، فهو صادق حين يقول: "الذي رآني فقد رأي الآب" (يو ١٤: ٩) و"أنا والآب واحد" (يو ٣٠: ١٠)، إذن فهو على أية حال مثل الآب غير متغيِّر وغير متحوِّل. لأنه كيف يمكن أن يصير صورة ذاك الذي دائماً يظل غير متغيِّر، هذا الذي يقبل التغيُّر؟ إذ كيف يمكن أن يقول: "أنا والآب واحد" عن اثنين مختلفين اختلافاً كبيراً فيما بينهما، وغير متماثلين منذ الدهر؟

لكن لأن الابن من المستحيل أن يُزيِّف الحق، قال إنه مثل الآب بحسب الجوهر، وهو بحسب الطبيعة أيضاً الابن.

بالتالي فهو غير متغيِّر[1]، مثل ذاك (الآب)، ومتماثل معه في كل شيء.

---

(١) التأكيد على أن الابن غير متغير من الأمور الأساسية في تعليم القديس كيرلس، وهذا وضحه في رسائله ليوحنا الأنطاكي فيما بعد، إذ يقول: [لأن أولئك " الذين كانوا من البدء معاينين وخداماً للكلمة " (لو١:٢) لم يسلموا لنا (الإيمان) بابن وابن آخر كما قلت، بل هو واحد وهو هو نفسه الإله والإنسان معاً، الابن الوحيد " والبكر" لكي يكون له (اللقب) الأول كإله والثاني كإنسان، حينما "صار بكراً بين إخوة كثيرين" (رو ٨: ٢٩)، واتخذ مشابهة لنا و لم يضم إنساناً آخر إلى نفسه كما استحسن بعض الأشخاص أن يفكروا، بل بالحقيقة صار إنساناً و لم

٦- نفس الرد بطريقة أخرى

لو أن الابن بما لديه من طبيعة متغيِّرة، ورَغِبَ حقاً بملء حريته أن يكون صالحاً إلى الدرجة التي لا يكون معها أي اختلاف عن الآب، حتى أمكنه أن يقول: "مَنْ رآني فقد رأي الآب"، فإن ذلك يعني أن الله ليس فيه شيءٌ عظيم، إذا استطاع أصحاب الطبيعة المتغيِّرة - لو أرادوا - أن يصيروا - بحسب الطبيعة - هذا الذي عليه الآب.

لكن بما أن الخصائص الإلهية، بصفة عامة، ليست قريبة من أية طبيعة أخرى، في حين أنها موجودة كلها في الابن بحسب الطبيعة، عندئذٍ يكون الابن شبيهاً بالآب في كل شيء، ليس عن طريق الرقي أو التغيُّر تجاه الصلاح من حالة غير الصلاح، لكنه كاملٌ؛ لأنه أتى مِن الكامل، وغير متغيِّر لأنه من الآب غير المتغيِّر. وكيف لا يكون كاملاً، وهو الذي لم يحسب خلسةً أن يكون مساوياً للآب؟ (أنظر فيلبي ٢: ٦). وكيف لا يكون غير متغيِّر مَنْ هو واحدٌ مع الآب مثلما قال هو نفسه[1]؟

٧- ردٌ آخر

بما أن الشجرة تُعرَف من الثمرة[2] (أنظر لو١١: ٦)، وثمرة جوهر الآب هو **الكلمة** الذي أتى منه، أي الابن، عندئذٍ دعهم يجعلون أيضاً الشجرة فاسدة (لأنهم يريدون

يتخل عن أن يكون ما كان عليه. لأنه إذ هو الله بالطبيعة وغير متغير، لهذا السبب تألم باختياره في جسده الخاص. لأنه لم يُبذل جسد شخص آخر لأجلنا، بل كلمة الله الوحيد الجنس قدم نفسه بعدما صار إنساناً، كذبيحة بلا عيب لله الآب]. رسائل القديس كيرلس، الجزء الرابع، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد ود. موريس تاوضروس، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية يونيو١٩٩٧، رسالة ٦٧، فقرة ٤ ص ٦٩ - ٧٠.

(١) هذه التساؤلات كان قد طرحها من قبل القديس أثناسيوس، قائلاً: "لأنه كيف لا يكون كاملاً هذا الذي هو مساوٍ لله؟ أو كيف لا يكون غير متغيّر هذا الذي هو واحد مع الآب، وهو نفسه ابنه من ذات جوهره؟ ولأن جوهر الآب غير متغيّر، فبالضرورة يكون نتاجه الذاتي أيضاً غير متغيّر". القديس أثناسيوس الرسولي، ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الأولى، فقرة٣٥ ص ٩٧.

(٢) نفس التعبير استخدمه القديس أثناسيوس، في نفس السياق، قائلاً: "فإن كانوا يفترون هكذا بنسبتهم التغيّر للكلمة. فليتعلموا مدى الخطورة الكامنة في فكرهم، لأن "الشجرة تعرف من ثمرها" (مت ١٢:٣٣)، ولهذا أيضاً "فإن من رأى الابن فقد رأى الآب" (يو ١٤:٩)، ولهذا أيضاً فإن معرفة الابن هي أيضاً معرفة الآب" . القديس أثناسيوس الرسولي، ضد الأريوسيين، المرجع السابق ، المقالة الأولى، فقرة ٣٥ ص ٩٧.

أن تكون الثمرة هكذا)، وإلاَّ وَجَبَ عليهم اعتبار الشجرة صالحة، وبالتالي لا يكون الابن من طبيعة متغيِّرة، بل من طبيعة غير متغيِّرة، مثل الشجرة.

٨- ردٌّ آخر

عندما سأل فيلبس وقال: "أَرِنَا الآبَ"، أجاب المسيح: "أَنَا مَعَكُمْ زَمَاناً هذِهِ مُدَّتُهُ وَلَمْ تَعْرِفْنِي يَا فِيلُبُّسُ! اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ، فَكَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ: أَرِنَا الآبَ؟" (يو ١٤: ٨ - ٩). إذن، فطالما أن معرفة الابن هي ذاتها معرفة الآب، فمن الحتمي أن نؤمن أن الابن هو مثل ما يكون عليه الآب[١]. وطالما أن هذا هو الصواب، وأن الآب غير متغيِّر، عندئذٍ يكون الابن - على أية حال - أيضاً غير متغيِّر. لأنه، هكذا يمكن أن يُعرَف الآب ويَظهر في شخص الابن[٢].

---

(١) التركيز هنا على أن كل ما لدى الآب نراه في الابن، لذا يقول القديس كيرلس في نفس السياق الآتي: "لأننا سنرى أنه صورة لذاك الذي ولده، وذلك إذا تفرّسنا بثبات بواسطة عين ذهننا في القدرات غير العادية التي ظهرت فيه. فالصلاح يخص الله الآب طبيعياً، ونفس الصلاح تجده في الابن. فبالتأكيد، هو صالح، إذ قد احتمل إذلالاً عظيماً من أجلنا، إذ "جاء إلى العالم ليخلص الخطاة" (انظر ١تي ١:١٥)، ويبذل نفسه لأجلهم. والآب كلي القدرة، وهكذا الابن (١ تي ١:١٥)، ويبذل نفسه لأجلهم. والآب كلي القدرة، وهكذا الابن أيضاً. فأية قوة يمكن أن تكون أعظم من تلك القوة التي تأمر حتى عناصر الخليقة نفسها، إذ انتهر البحر والرياح، وحوّل طبيعة المواد بإرادته؛ وأمر الأبرص أن يطهر، وأعطى البصر للعميان: وكل هذا بسلطان إلهي؟والآب هو الحياة بطبيعته: والابن هو الحياة بالتساوي معه أيضاً، إذ أحيا الذين كانت قد اضمحلت أجسادهم، إذ أباد قوة الموت، وهكذا أقام الموتى وأعادهم إلى الحياة. إذاً بصواب وحق يقول لفيلبس: "من رآني فقد رأى الآب" وكأنه يقول له: "فما دمت فيّ ومن خلالي ترى أبي بوضوح، فأية طريقة للرؤية الإلهية تطلبها أنت وأنت قد حصلت على رؤية أفضل جداً جداً من تلك التي مُنحتْ للقدماء، وترى أمامك أصدق وأضبط صورة حقيقية للآب، التي هي أنا ذاتي؟". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، الجزء الثامن، الإصحاح الرابع عشر ص ٥١ - ٥٢.

(٢) تحتوى براهين الآباء على منطقية مقبولة، فبما أن الابن هو صورة الآب، إذن لابد أن يكون غير متغير لأن الآب غير متغير، هكذا يخاطب القديس كيرلس الهراطقة، ومن قبلة القديس أثناسيوس، إذ يقول: [ولذلك فإن صورة الله غير المتغيّرة ينبغي أن تكون ثابتة غير متغيّرة، لأن "يسوع المسيح هو هو أمس واليوم والى الأبد" (عب ١٣:٨) وداود يقول مترنماً به: "أنت يا رب منذ البدء أسست الأرض، والسموات هي عمل يديك. هي ستتلاشى وأنت ستبقى، وكلها كثوب ستبلى وكرداء تطويها فتتغيّر ولكن أنت أنت وسنوك لن تنتهي" (مز ١٠٢: ٢٦ - ٢٨، و عب ١: ١٠ - ١٢). والرب نفسه يقول عن نفسه بواسطة النبي "انظروا إلى فترون أني أنا هو" (تث ٣٢:٣٩) وأيضاً "لا أتغيّر" (ملاخى ٣:٦) وربما يقول أحد أن المقصود هنا هو الآب، ولكنه يناسب أن يُطلَق هذا على الابن أيضاً، وخاصة لأنه حينما يصير إنساناً، فإنه يظهر شخصيته كما هي ويُظهر عدم تغيّره، وذلك

٩- شواهد من الكتاب المقدس على أن الابن غير متغيِّر

يقول بولس الرسول: "يسوع المسيح هو الأمس واليوم وإلى الأبد" (عب ٨: ١٣). والمرنم يقول: "من قِدمٍ أسست الأرض والسموات هي عمل يديك. هي تبيد وأنت تبقى وكلها كثوبٍ تبلى. كرداء تغيرهن فتتغير وأنت هو وسنوك لن تنتهي" (مز ١٠٢: ٢٥ – ٢٨). وقال المخلصّ عن نفسه: "أنظروا يديَّ ورجليَّ. إني أنا هو" (لو ٢٤: ٣٩). والنبي أيضاً يقول: "فإنك أنت تدوم إلى الأبد، أمَّا نحن فنهلك إلى الأبد" (باروخ ٣: ٣). حسناً، يشير النبي هنا إلى ثبات وعدم تغيُّر الطبيعة الإلهية حين يقول: "فأنك أنت تدوم إلى الأبد"، ويشرح تغيُّر المخلوقات عبر الأزمنة حين يضيف قائلاً: "أمَّا نحن فنهلك إلى الأبد".

فبما أن الكتاب المقدس حين يتحدّث عن تحوُّل وتغيُّر وهلاك المخلوقات، يستثني الابن من علاقته بهذه الأمور، قائلاً: "وأنت تبقى"، إذن فطبيعته لا تكون متغيِّرة؛ لأنه لن يكون هو ذاته، إذا كان من الممكن أن يتغيَّر إلى شيء آخر فيما عدا هذا الذي هو عليه.

١٠- ردٌ آخر

لو لم يكن الابن غير متغيِّر بحسب الطبيعة، بل حدث له ما هو عليه، وكان قد اكتسب مماثلته مع الآب، إذن لَكان هناك زمنٌ كان فيه الابن غير متماثل مع الآب[١].

وكيف يُدرك أنه الابن، هذا الذي لم تتأكد بنوّته من المماثلة بحسب الطبيعة؟ أو كيف يمكن أن يكون على يقينٍ من جهة طوباويته، هذه التي اكتسبها في وقت لاحق؟ خصوصاً إذا كان هذا الذي أضيف إليه يُمكن أن يُترعَ منه في وقتٍ لاحق.

بالنسبة لأولئك الذين يتصوّرون أنه بما أنه أتخذ جسداً فإنه قد تغيّر وصار آخراً]. ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الأولى، فقرة ٣٦ ص ٩٨.

(١) يؤكد القديس كيرلس على ولادة الابن الأزلية في شرحه لقانون الإيمان، لذا يقول: [ولكن عندما تكلموا عن الابن، ولكي لا يظهر أنهم ينسبون إليه اسماً مشتركاً مثل الاسم الذي يمكن أن يُنسب إلينا نحن أنفسنا – لأننا نحن ندعى أيضاً أبناء (غلا ٤: ٦) – فبكل فطنة وصفوه بتلك الأسماء التي بواسطتها يمكن أن يُدرك لمعان المجد الطبيعي الذي فيه، والذي هو أعلا من الخليقة. لأنهم قالوا إنه " مولود غير مخلوق " مدركين أنه من جهة الجوهر لا يُصنَّف مع المخلوقات، بل بالحري أكدوا بيقين أنه مولود من جوهر الله الآب خلْواً من زمن وبطريقة تفوق الإدراك لأنه "في البدء كان الكلمة" (يو ١: ١)]. أنظر رسائل القديس كيرلس، الجزء الرابع، رسالة ٥٥، فقرة ١٤ ص٣٠.

لكن، طالما أن الكتاب المقدس يقول، إن الابن ما انفك مساوياً للآب، إذن فكل خصائص الإلوهية توجد فيه بحسب الطبيعة، ويكون غريباً عن هذا التغيير، وبالتالي هو غير متحوِّل وغير متغيِّر.

١١- ردٌ آخر

هذا الذي يتحوَّل ويمكن أن يتغيِّر لا يستطيع أن يقول عن ذاته: "أنا هو الحق" (يو ١٤: ٦). لأنه، لو كان هو الحق أحياناً، وأحياناً أخرى ليس هو، عندئذٍ يكذب في ذاته. لكن الابن يقول عن ذاته: "أنا هو الحق". بالتالي ليس هو من الكائنات التي تتغير أو تتحوّل، لكنه متماثل مع الآب، وغير متغيِّر وغير متحوِّل[١].

١٢- اعتراض آخر في صورة تساؤلات

وفيما هم يحاولون البرهنة على أن الابن واحدٌ من ضمن الكائنات التي تتغير حتى يصدُق أن الابن مخلوقٌ، استشهدوا ببعض الشواهد التي قيلت في الكتب المقدسة، إذ يقولون إن الرسول قال: "لذلك رفَّعَهُ الله أيضاً وأعطاه اسماً فوق كل اسم، لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومَنْ على الأرض ومن تحت الأرض" (فيلبي ٢: ٩). أيضاً من المزامير: "من أجل ذلك مسحك الله إلهك بدهن الابتهاج أكثر من رفقائك" (مز ٤٥: ٨). وبعد ذلك، وهم يفسرون بسفسطائية الكلمات، يقولون إن أدوات الربط «διά»: بمعنى "لذلك"، و «διά τοῦτο»: بمعنى "من أجل ذلك"، تعلن أن هناك سبباً ما، من أجله رُفِع ومُنِح اسماً أعظم من أي أسم آخر، ومُسِح بزيت البهجة. وبما أن سبباً ما جعله هكذا، فهذا يعني أنه تغيَّر وتحوَّل، وبهذا صار ما لم يكن عليه من قبل. وطالما أن مكانته هذه معطاةٌ

(١) نفس البرهان يسرده القديس أثناسيوس، قائلاً: "لأن ما يتحوّل ويتبدّل وليس ثابتاً على نفس الحال الواحد كيف يمكن أن يكون حقيقياً؟. بينما يقول الرب "أنا هو الحق" (يو ١٤:٦)، فإن كان الرب نفسه يقول هذا القول عن ذاته وهو يشير بهذا إلى وجوب عدم قابليته الذاتية للتغيّر. والقديسون تعلّموا نفس هذه الحقيقة وشهدوا بها. فان كانت الأفكار عن الله تعرف هذا الأمر بورع وتقوى فمن أين إذن ابتدع هؤلاء الناس عديمو التقوى، هذه الآراء؟ نعم. أنهم من قلوبهم، يتقيأون هذا الفساد". ضد الأريوسيين، المقالة الأولى، فقرة ٣٦ ص ٩٩.

له، إذن يمكن أن تُؤخذ منه. ومَنْ يُوجد في مثل هذه الحالة، كيف يمكن أن يكون شبيهاً بغير المتغيِّر بحسب الطبيعة، وصورة ذاك الذي هو دائماً كما هو؟

١٣- الإجابة على هذه التساؤلات

لو أن هناك سبباً لأجله رُفِّعَ - كما تقولون - وأخذ اسماً ومُسِحَ بزيت الابتهاج، لكان غير ما هو عليه الآن. ولا يكون الابن هو الله بالطبيعة، لو كان قد صار ابناً بالنعمة لأجل سببٍ ما أو علةٍ ما استوجبت ذلك، ولَصارت خاصية الابن واسم الإلوهة مكافأةً لفضيلة كما يحدث معنا. لأن هذه الأمور يمكن أن نحققها بحياتنا الفاضلة، طالما قد دُعينا أيضاً آلهة وأبناء، ومُسحِنا بزيت الابتهاج، وقدَّمنا ذواتنا جديرين لهذه الأمور. لكن، ولأن الابن هو أسمى منّا وليس مثلنا، فهذا الذي نفكر فيه ونقوله هو محض عبثٍ. لأن ذاك الذي أخذ وجوده من الآب بحسب الطبيعة هو الابن الحقيقي، مثل إنسان من إنسان، وإله هو الذي وُلدِ من إله، بينما نأخذ نحن هذه الأمور بحسب النعمة وليس بحسب الحق، فنحن أبناء وآلهة من محبة البشر لذاك الذي أعطاها لنا. لأن الحصول على كل الأمور التي هي أسمى منِا ينحصر فقط في الاسم، بينما بالنسبة للابن يكون بحسب الطبيعية والجوهر[1].

---

(١) واضح إن الهراطقة لديهم هنا مشكلتين، واحدة تتعلق باللغة، لذا نجدهم قد انطلقوا من التفسير اللغوي و لم ينطلقوا من الإيمان المسلم مّرة للقديسين بخصوص إلوهية الابن، والمشكلة الثانية هي ناتجة من الأولى، وهى الخلط بين بنوة الابن الطبيعية للآب وبين بنوتنا نحن للآب والتي اكتسبناها بالنعمة، وهذا ما شرحه القديس أثناسيوس في نفس السياق، قائلاً: "أما الذين يدعون (أبناء) بالنسبة للفضيلة والنعمة، فإنهم يحصلون على النعمة التي يكتسبونها بدلاً من الولادة الطبيعية، وهم شيء آخر غير ما أُعطى لهم. وذلك مثل الناس الذين نالوا الروح بحسب المشاركة والذين قال عنهم "ولدت بنين ونشأهم. أما هم فتمردوا عليّ" (إش ١:٢ س) ولكن بما أُنهم ليسوا أبناء بحسب الطبيعة، لذلك، فإنهم بمجرد أن يتغيروا ينزع منهم الروح، ويتبرأ منهم. ولكنهم مرة أخرى - عندما يتوبون فإنه الله الذي كان قد أعطاهم النعمة في الأول، فأنه بنفس الطريقة، يعطيهم النور مرة أخرى ويدعوهم أبناء ثانية. فإن كانوا يقولون هكذا أيضاً عن المخلّص، فيتبع هذا أنه لا يكون (مخلّصاً) حقيقياً، وأنه ليس إلهاً. وليس ابناً ولا هو مثل الأب، ولا يكون له علاقة على الإطلاق مع الله الآب بحسب الجوهر ....". أنظر ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الأولى، فقرة ٣٧ - ٣٨ ص ١٠٠ - ١٠١ وهكذا يواجه القديس أثناسيوس الهراطقة بسيل من النتائج العبثية والتي تضعهم في مواجهة أمام الكتاب المقدس كله.

١٤- ردٌ آخر

يقول بولس الرسول عن الابن: "الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله لكنه أخلي نفسه آخذاً صورة عبدٍ صائراً في شبه الناس" (فيلبي ٢: ٦ - ٧)، وأيضاً "لذلك رفعَّه الله وأعطاه اسماً فوق كل اسم" (فيلبي ٢: ٩).إذن، فحينما صار إنساناً آخذاً شكل العبد، أُعطيَ اسماً ورُفِّع، مما يعني أنه قبل تأنسه وأخذه شكل العبد، لم يكن لديه اسم ولا كان سامياً، كما يقول الأريوسيون؛ لأنه إن كانت هذه الأشياء له قبل أن يأتي إلى الأرض، فليس هناك من سبب حقيقي لأجله يأخذ مرةً أخرى هذه الأشياء. وأيضاً لو لم يكن لديه هذه الأشياء، إذن لَصار شيئاً لم يكن عليه سابقاً.

حسناً، ماذا كان قبل أن يتأنس، بحسب رأيكم؟ وحين أخلى ذاته، لو كان قد ظهر بأنه أخذ هذه الأشياء التي هو عليها الآن، فأصبح بذلك **الكلمة**، والحكمة، والقوة، والحق، والنور، والحياة، والقيامة، وصورة الآب، الأمر الذي يعني أنه قبل الإخلاء لم يكن شيئاً من هذه الأشياء. إذن ليتهم يدركون إلى أي تجديف شنيع يقودهم حديثهم عن أن هذه الأشياء أخذها من الآب كمكافأة له لإخلائه لذاته. وإذا ثبت أنه لم يُخلِ ذاته في زمن آخر، لكن فقط عندما صار إنسانا، ألا يعني هذا أن ترتيب الأمور قد انقلب؟ فالكتب المقدسة تقول إن تأنس الله **الكلمة** صار لإعادة الجسد وكل الطبيعة البشرية إلى حسنها، في حين أنه لو كان قد صار إلهاً وابناً وسامياً أثناء تجسده، لكان الحُسنُ قد لحق به هو لا بالطبيعة البشرية، وبالحري يكون قد استفاد أكثر من أنه أفاد[1]. الأمر الذي يعني أن **كلمة**

---

(١) وبحسب تعبير القديس أثناسيوس: "فماذا إذن كان قبل هذا (أي قبل أن يصير إنساناً)، إن كان الآن يرتفع، وقد بدأ الآن أن يُعبَد، والآن دعى ابناً عندما صار إنسانا؟ لأنه (هذا) يبدو أن الجسد لم يَترَقَ قط، بل بالأحرى أنه هو الذي ترقى بواسطة الجسد، فإن كان قد مُجّد مجداً عالياً وسمى ابناً عندما صار إنساناً - وذلك بحسب سوء نيتهم - فماذا كان إذن قبل هذا؟ - فهناك حاجة ملّحة أن نسألهم مرة أخرى - وذلك لكي تتضح النتيجة التي يصل إليها كفرهم، لأنه أن كان الرب هو الله وهو الابن وهو **الكلمة**، ولكنه لم يكن هكذا قبل أن يصير إنساناً، عندئذ كما قلنا - إما أنه كان شيئاً آخر غير هذه (الصفات). ثم اشترك فيها بعد ذلك بسبب فضيلته. وإلاّ فأنهم مضطرون أن يقولوا البديل - (الأمر الآخر) الذي سيرتد على رؤوسهم وهو أنه لم يكن موجوداً قبل هذا، ولكنه كان إنساناً بالتمام حسب الطبيعة وليس أكثر. ولكن هذا الفكر ليس من الكنيسة". أنظر ضد الأريوسيين، المقالة الأولى، فقرة ٣٨ ص ١٠٢ هكذا يقيِّم القديس أثناسيوس آراء الهراطقة بمعيار الإيمان الذي تسلمته الكنيسة.

الله لم يأتِ لأجلنا لكن لأجل ذاته. و لم يلبس الجسد لأجل خلاصنا، بل لكي يتحسن هو. فإذا كان الأمر هكذا، فلماذا إذن يدعوه الأنبياء والرُسل مخلّصاً؟

كان يجب بالحري أن يدعوه مُحَسِّن ذاته. وإذا كان قد صار إلهاً وابناً ودُعيَ هكذا كمكافأةٍ له لأجل هذا - أي لأجل أنه حَسَّنَ ذاته - فكيف إذن مات لأجلنا؟

لكن بما أننا لا نؤمن بأي شيء من هذا، وإلاّ عُدَّ ذلك من قبيل التجديف، فإنه يمكننا أن نقرر أن لا شيء أُضيف على الابن بسببٍ من تغيُّرٍ أو تحوُّلٍ، لكن بكونه ابناً لديه كل ما لدى الآب؛ لذلك هو مثله بحسب الجوهر.

١٥- ردٌ آخر

لو كان هناك وقتٌ لم يكن فيه الابن موجوداً - مثلما يقول هؤلاء - أو كان موجوداً ولكنه صار للأحسن فيما بعد، أي اعتراه تغييرٌ تجاه الأحسن، فمتى إذن أخذ شكل العبد؟ وإذا كان القول: "لذلك رفَّعه الله وأعطاه اسماً فوق كل اسم" قد صار عبر الأزمنة عند تأنُّسه، فكيف خُلِق الكل بواسطته، وكيف فرح الآب به، بينما لم يكن بعد كاملاً؟ لأن مَن كان في احتياجٍ لأن يُضاف عليه شيءٌ، ألا يكون بعدُ ناقصاً؟ وكيف نقول إنه نال في أزمنة متأخرة أن يُسجدَ له، بينما بدا أن لديه هذا الأمر منذ البدء؟ لأن إبراهيم سجد له عند بلوطات ممرا (أنظر تك ١٨: ٢)، وسجد له أيضاً موسي حين قال "أهية الذي أهية" (خر ٣: ١٤). وإذا كان الأمر هكذا، فكيف يقول دانيال: "ألوف ألوف تخدمه" (دا ٧: ١٠)، وأيضاً كيف ظهر جالساً على عرش العلي ومرفوعاً عالياً ومحاطًا بتمجيدات من قِبَل الساروفيم؟ (أنظر إش ٦: ١ - ٣)، وكيف سمعت القوات السماوية أيضاً بواسطة الروح: "اِرْفَعْنَ أَيَّتُهَا الأَرْتَاجُ رُؤُوسَكُنَّ، وَارْتَفِعْنَ أَيَّتُهَا الأَبْوَابُ الدَّهْرِيَّاتُ، فَيَدْخُلَ مَلِكُ الْمَجْدِ. مَنْ هُوَ هذَا مَلِكُ الْمَجْدِ؟ الرَّبُّ الْقَدِيرُ الْجَبَّارُ، الرَّبُّ الْجَبَّارُ فِي الْقِتَالِ. ارْفَعْنَ أَيَّتُهَا الأَرْتَاجُ رُؤُوسَكُنَّ، وَارْفَعْنَهَا أَيَّتُهَا الأَبْوَابُ الدَّهْرِيَّاتُ، فَيَدْخُلَ مَلِكُ الْمَجْدِ. مَنْ هُوَ هذَا مَلِكُ الْمَجْدِ؟ رَبُّ الْجُنُودِ هُوَ مَلِكُ الْمَجْدِ سِلاَهْ" (مز ٢٤: ٧ - ١٠).

إن ربَ القواتِ لم يَصِر، بل هو منذ قديم الزمان رب القوات. إذن فبما أنه يبدو أنه هو هكذا، يكون أيضاً الآن وقبل وقت تأنسه. فمن الهراء، أو بالحري مملوء خطراً أن

نقول إن الابنَ قابلٌ للتغيُّر، أو إنه بصلاحه نال - كمكافأةٍ - خاصية الابن، وأن يكون حكمة و**كلمة** الله. لأنه حقاً غير متحوّل وغير متغيِّر[1]، إنه مثل الذي ولده في كل شيء.

١٦- ردٌ آخر: ليس الابن شبيهاً بالآب لأنه تغيّر إلى الأفضل، بل هو مثله بحسب الطبيعة

بينما كان للابن الشكل الإلهي، وضع ذاته آخذاً شكل العبد. هنا يبدو الابن وقد أُنزِل كثيراً من مكانته بحسب الطبيعة، إلى الدرجة التي يتضح معها مدى اختلاف الله عن الإنسان. لأنه لم يكن من البداية إنساناً وصار بعد ذلك الله[2]، بل العكس، بينما كان الله، صار إنساناً، بمعني أن **كلمة** الله لم يجرِ عليه أي تحسُّن.

---

(١) الجدير بالذكر أن القديس كيرلس أكد على حقيقة عدم تغير الابن بعد التأنس في رسائله إلى نسطور ويوحنا الأنطاكي فيما بعد، مما يجعلنا نفند الرأي الشائع بأن إيمان القديس كيرلس قد شهد تغيراً بعد صراعه مع نسطور. إلا أننا نرى أساسيات تعليمه هي لم تتغير، فعلي سبيل المثال في رسالة٥٥، يقول: "يوجد رب واحد يسوع المسيح هو بذاته الكلمة الوحيد الجنس للآب، الذي صار إنساناً وهو لم يَتَخلَّ عن ما كان عليه لأنه بقى إلهاً في بشريته، والسيد في صورة عبد، محتفظاً بملء إلوهيته في إخلائه ليكون مثلنا. وهو رب القوة في ضعف الجسد، وفي قياس (قامة) بشريته كان يملك ما هو فوق كل الخليقة خاصاً به. لأن ما كان عليه قبل الجسد كان خاصاً به ولا يمكن أن يُفقد، لأنه كان إلهاً، وهو الابن الحقيقي، والوحيد الجنس، والنور، والحياة، والقوة. أما ما لم يكن عليه فإنه يُرى أنه كان قد أخذه مضافاً من أجل التدبير (التجسد)، لأنه جعل ما يخص الجسد خاصاً به، لأن الجسد لم يكن جسد شخص آخر غيره بل بالحري جسده متحداً به بطريقة تفوق الوصف والتعبير. ولذلك يقول يوحنا الحكيم: "الكلمة صار جسداً" (يو ١: ١٤). وهو صار جسداً لا لأنه تغير إلى طبيعة الجسد بانتقال أو تحول أو تغير، ولا لأنه تعرض لاختلاط أو امتزاج في الجواهر كما يثرثر بعض الناس، لأن هذا مستحيل، إذ هو بالطبيعة غير متغير ولا متحول كما قلت، بل بالحري أخذ جسداً تحييه نفسٌ عاقلةٌ من جسدٍ عذراوي غير دنس، وجعله جسده الخاص". رسائل القديس كيرلس، المرجع السابق، الجزء الرابع، فقرة٢٢ ص ٣٣.

(٢) يوضح هذه الحقيقة ويؤكدها القديس كيرلس فيما بعد في رسالته٥٥، إذ يقول: "فالمسيح لم يُعرف أنه إنسان أولاً وبعد ذلك تقدم ليصير إلهاً، بل إن الكلمة، إذ هو الله، صار إنساناً، لكي في نفس الكيان يُعرف هو نفسه الإله والإنسان معاً. إلاّ أن أولئك الذين يقسمونه إلى ابنين ويجسرون أن يقولوا إن الله الكلمة اتصل بالإنسان الذي من نسل داود وأعطاه نصيباً في استحقاق وفي كرامة وفي رتبة البنوة، وأعده ليحتمل الصليب، وليموت، ويقوم ثانية، ويصعد إلى السماء، ويجلس عن يمين الآب، لكي يُعبد من كل الخليقة، وينال الكرامات بواسطة ارتباطه بالله. هؤلاء أولاً يكرزون بابنين، وثانياً بجهل يقلبون معنى السر. لأنه، كما قلت، إن المسيح لم يصر إلهاً من إنسان بل إذ كان الكلمة هو الله فإنه صار جسداً أي إنساناً". رسائل القديس كيرلس، الجزء الرابع، فقرة ٢٤، ص ٣٤.

إذن، فعندما يُقال الآن إنه رُفِّعَ وقَبِلَ - على شكل موهبة - اللقب الأعظم من كل الأسماء الأخرى، فإننا ندرك أن ذلك قد أتى مع الجسد لمن لم يكن له من قبل جسدٌ.

علي الجانب الآخر أيضاً، هو ذاته يقول: "مجِّدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم" (يو ١٧: ٥). وهنا نتساءل: أيُ مجدٍ كان للابن قبل خَلق العالم؟ لقد كان في صورة الآب، وبالتالي لا يوجد شيءٌ أُضيف على الابن نتيجة تغيُّرٍ أو تحوّلٍ للأحسن، لكن المعُطى له على شكل موهبة مثل المجد والرفعة، فهما بمثابة إعلان تمجيد الجسد بالمجد الذي كان لديه، بعد أن تكون حقارة شكل العبد قد زالت.

أيضاً يُقال إن هذه الأمور أُعطيت له من الآب؛ لأنه يليق بالله أن يدبِّر كل الأمور التي تفوق كل ما هو بشري بطريقة أفضل دون أن يكون الابن خارج هذا التدبير، وذلك على أساس وحدة الإلوهية، مع أنه ابنٌ بالنسبة للآب وفق طريقة خاصة.

١٧- ردٌ آخر عن نفس الموضوع

لو كان الابن قد رُفِّعَ - بحسب رأيكم - عندما وضَعَ ذاته، وأيضاً مُنح له الأعظم من كل الأسماء، بمعني أنه سُمِّيَ الله، ولأجل هذا مُسح وسُمِّيَ ابناً، لوجب علينا أن نقول إنه قبل تواضعه لم يكن لدى **كلمة** الله كل هذا؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يقبل هذا الذي لديه دون أن يكون قد أخذه. وإذا كان الله - قبل زمن تواضعه - قال للبعض: "أنا قلت أنكم آلهة وبنو العلي" (مز ٨٢: ٦)، فإن هذا يعني أن كثيرين قبله صاروا أبناءً وآلهةً، إذن كيف يكون حقاً أن يصير الكل بواسطته؟ وكيف يوجد هذا قبل الكل، طالما وُجِدَ كثيرون قبله؟ وكيف يكون هو بكر كل خليقته؟ (أنظر كو ١: ١٥). وإذا كان هؤلاء قد صاروا آلهةً وأبناء بحسب النعمة تشبُّهاً بالابن الحقيقي، فكيف يُوجد هؤلاء قبل مَنْ هو ابنٌ حسب الطبيعة؟ وإذا كانوا قد نالوا البنوَّة نتيجة شركتهم مع الابن، فكيف يوجد مَنْ يشترك (الإنسان المخلوق) قبل ذاك الذي هو مُشارَكٌ فيه، الذي بواسطته خُلِق (الذي يُشارِك)؟ وكيف لا يكون ذاك الأول أعظم، إذ أنجز هذا الأمر قبل أولئك الذين أنجزوه بعد أزمنة

كثيرة؟ نستنتج من ذلك أن الابن هو غير متحوّلٍ وغير متغيِّر، ولم ينل المماثلة مع الآب بحسب النعمة، ولا عن طريق الإضافة، بل جوهرياً وطبيعياً"(١).

١٨- ردٌ آخر عن نفس الموضوع

لو أن **كلمة** الله نال - كمكافأة خاصة بسبب فضيلته أو تواضعه أو طاعته - أنْ يكون الابن، فبأي طريقةٍ - قبل أزمنة التواضع - عَرِفَ البعضُ الآبَ، طالما أن الابن يقول: "ولا أحد يعرف الآب إلاَّ الابن ومَنْ أراد الابن أن يعلن له" (مت ١١: ٢٧). لأنه إذا لم يكن الابن الذي يعلن الآب موجوداً كما يقول هؤلاء، فكيف يمكن أن يُعرف الآب من أحد؟ لكن إذا كان الآب دائماً موجوداً، فالابن الذي يعلنه يكون موجوداً أيضاً. بالتالي، ليس بتحوّلٍ ما، ولا إضافةٍ جزئيةٍ قد نالها، بل هو يملك هذا بحسب الطبيعة. فهو متماثلٌ حقاً مع الآبِ من جهة عدم خضوعه لأي شيء، وهو كامل وغير متحوّل.

١٩- ردٌ آخر

يُظهِر أن الابن يأتي من جوهر الآب، وليس من خارج، كما يقول محاربو المسيح. وطالما لم يأتِ من الخارج، إذن فهو مثل الآب.

---

(١) لقد حصر القديس أثناسيوس نتائج آراء الهراطقة الخاطئة على خلاصنا في أنه من المستحيل أن ننال نحن التبني بدون الابن الحقيقي، فيقول: "فهو لم يكن إنساناً ثم صار فيما بعد إلهاً، بل كان إلهاً وفيما بعد صار إنساناً بالأحرى كي يؤلهنا. لأنه إن كان عندما صار إنساناً قد سمي عندئذ ابناً وإلهاً، وإن كان الله قد دعا الشعوب قديماً، أبناء، وذلك قبل أن يصير هو إنساناً، وجعل الله موسى إلهاً لفرعون. والكتاب المقدس يقول في مواضع كثيرة "الله قائم في مجمع الآلهة" (مز ٨٢:١)، فمن الواضح أذن أنه قد دُعيّ ابناً وإلهاً بعدهم. فكيف إذن خُلِقَت كل الأشياء عن طريقه، وكيف أنه هو موجود قبل كل الأشياء؟ وهؤلاء المشاركون الأولون كيف لا يشاركون اللوغوس؟ وهذا التعليم ليس حقيقياً، بل هو بدعة المتهودين المعاصرين. فكيف إذن في هذه الحالة - يمكن لأي أحد على الإطلاق، أن يتعرف على الله كأب؟ لأن من غير المستطاع أن يحدث التبني بغير الابن الحقيقي، وهو نفسه القائل: "لا يعرف أحد الآب إلاّ الابن، ومن سيُعلن له الابن" (مت ٢٧:١١). وكيف يحدث التأليه بدون اللوغوس، وقبله؟ هذا بالرغم أنه هو نفسه القائل لليهود أخوة هؤلاء المبتدعين: "إن قال، آلهة، لأولئك الذين صارت إليهم كلمة الله". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الأولى، فقرة ٣٩ ص ١٠٣ - ١٠٤.

٢٠- رأي من آراء الهراطقة

يقولون: وماذا - علاوةً على ذلك - يوجد في الله؟ وكيف يكون مماثلاً لنا في أنه يلد الابن من جوهره مثلما نلد نحن؟ إن الله فوق الطبيعة البشرية بقدر ما هو أعظم جداً من أولئك الذين خلقهم، ولذلك فهو لا يتشابه معنا فيما يخصنا، فهو لا يُظهِر الابن من جوهره، كما لو كان واحداً منّا، لكنه يحضره إلى الوجود من الخارج (أي من خارجه هو)، وإذا كان الأمر على هذا النحو، فالابن عندئذٍ ليس هو مثل الآب.

٢١- الرّد

أود بحق أن أسأل محاربي المسيح: إذا كان الله يتجنب تماماً مماثلته بنا، ولا يتسربل بأية طريقة بأمر من الأمور التي تليق بالإنسان، ألا يُعد قولكم بأن الجوهر الإلهي لا يغيب تماماً عمَّا يخصنا قولاً منحرفاً يجب أن يُلغى من اعترافكم؟

فإذا أصروا – في جهلٍ – على هذه الآراء المتضادة التي يفضّلونها، فليتهم يقولون لنا: ألا يُعد الإنسانُ جوهراً؟ وهل لأن الإنسان عاقلٌ، لا يكون الله عاقلاً - وفقاً لأولئك – فقط؛ لأن هذه الخاصة من خواص البشر؟ وإذا كان الله يتشابه مع البشر في بعض الخصائص التي لنا[١]، فهل كان عليه أن يتجنب ولادة الابن من ذاته، لمجرد أننا نلد بنفس

(١) مشكلة الهراطقة – كما قلنا - أنهم يخضعون الله لنواميس الأجساد، لكن ولادة الابن من الآب هي ولادة تختلف جذرياً عن الولادة البشرية، وهذا ما أكده القديس كيرلس في رسالته٥٥، إذ يقول: "وإننا سنجد أن اسم الولادة يُطلق أيضاً على المخلوقات وأعنى ما قاله الله عن الذين من دم إسرائيل: "ولدتُ بنين ونشأهم .." (إش ١:٢س). إلاّ أن الخليقة تكتسب هذه الدعوة في نظام النعمة. أما في حالة الذي هو ابنه بالطبيعة فإن هذا الاسم (الولادة) لا يُستعمل على سبيل المجاز، بل هو حقيقي من كل جهة. وبسبب هذا فهو وحده بين الكل الذي قال "أنا هو الحق" (يو ١٤:٦). وهكذا فإن كل أحد يستعمل اسم الولادة والبنوة عنه فإنه لا يتكلم بالكذب مُطلقاً لأن هذا هو الحق. وتبعاً لذلك فكل معلمي أسرار الإيمان القديسين يحمون نفوسنا بكلامهم في كل مكان عن الآب والابن وعن الولادة، وبقولهم إله حق من إله حق، وإن النور ينبعث من النور حتى أن الولادة تكون غير جسمانية وبسيطة وتُفهم على أنها منه وفيه، وأن كلاً منهما موجود بشخصه الخاص. لأن الآب هو آب وليس ابناً والابن هو المولود وليس هو آباً. وكل منهما يكون ما كان عليه، ولهما في وحدهما نفس الطبيعة". أنظر رسائل القديس كيرلس، المرجع السابق، الجزء الرابع، فقرة ١٦ ص٣١.

الطريقة؟[1] كان ينبغي عليكم أن تفهموا أنه فيما يخص التشبُّه بالطبيعة الإلهية، لدينا نحن الذين خُلقنا "بحسب صورتها"، هذه الخاصية إلى جوار بعض الخواص الأخرى. لذا، ولأنه وَلَدَ الابن من ذاته، ولم يحضره إلى الوجود من الخارج، فقد أعطى له حتماً المماثلة التامة.

٢٢- معارضه أخرى من معارضات محاربي المسيح

يقولون نحن نستخدم معطيات طبيعتنا الجسدية المادية، بحيث نلد أولادنا من ذواتنا، ولو أردنا أن نصنع شيئاً خارج جوهرنا، نفعله مستخدمين المادة. لكن الله، لأنه غير جسدي على الإطلاق، لا يمنح مادةً من ذاته لكي يَلِد الابن، وها نحن نُخلق من العدم. هكذا هو مستقلٌ عن كل ما يخصنا، وهو لا يضع الابن من ذاته ولا من مادة موجودة مسبقة يصنع كائناً من الكائنات، بل على العكس يُحضر كل الأشياء إلى الوجود ومن ضمنها الابن من الخارج. وبما أن هذا الأمر يكون هكذا، بالتالي ليس الابن متماثلاً مع الآب.

٢٣- الرّد

وكيف، يا شديدي البأس، يكون الابن بالنسبة لنا الإبن الوحيد، إذا كان قد صار مثلنا جميعاً؟ وكيف - عموماً - يكون ابناً هذا الذي لم يأتِ مِن جوهر مَن ولَدَه؟ وإذا كان من الممكن للذين صاروا من العدم، أي خارجياً، أن يُدعوا أيضاً أبناء بحسب الطبيعة، عندئذٍ، كما يبدو، لا شيء يعيق كل المخلوقات أن تُدعى أبناء. لكنه عند ذاك لن يكون الابن الوحيد، طالما كان لديه إخوة كثيرين بحسب الطبيعة. أمَّا إذا كان هو فقط الابن الوحيد، إذن فوجوده وجودٌ مختلف تماماً، طالما لم يجئ إلى الوجود بذات الطريقة التي أتت بها المخلوقات، لكن أتى بطريقة طبيعية كابنٍ من الآب، ولهذا هو مثله تماماً.

(1) هنا يحيلنا القديس كيرلس إلى حقيقة لا ينكرها أحد وهى أننا خُلِقنا بحسب صورة الله وليس الله الذي خُلِق بحسب صورتنا، فهو آب وابن منذ الأزل، فالبنوة الحقيقية للابن هي التي نتشبه بها نحن وليس العكس أن يتشبه الله ببنوتنا، فنحن نستمد بنوتنا من الله عن طريق ابنه.

٢٤- ردٌ آخر

لو أن كل المخلوقات أتت من العدم وكذلك الابن، فلأي سبب يكون هو رباً بحسب الطبيعة، بينما تكون تلك المخلوقات بحسب الطبيعة عبيداً؟ فقد كان يجب أن يُكرَّم الكل - بحق - بالربوبية بحسب الطبيعة، طالما صاروا بنفس الطريقة مع الابن، أو أن يُدعى هو عبدٌ مع كل الآخرين. لكننا الآن لا نرى أن الكتاب المقدس يكرز بهذا الأمر. بل على النقيض، يقر بأن الابن هو ربٌ بحسب الطبيعة، والعبيد المخلوقين يُقال عنهم: "الكل هم عبيدك" (مز ١١٩: ٩١). أيضاً يقدم الكتابُ الابنَ على أنه يُسبَّح له ويُكرَّم مع الآب، بينما الخليقة تمجِّده. بالتالي، فهو ليس شبيهاً بالكل، ولا صار من الخارج مثل أولئك، لكنه بالتأكيد ابنٌ بحسب الطبيعة، بينما أولئك العبيد هم مخلوقات. وبما أن الابن هو هكذا، فما الذي يعيقه عن أن يكون مماثلاً للآب؟

٢٥- ردٌ آخر

كما يبدو، أن هؤلاء، الذين يستندون على أفكارٍ عمياء وعلى ثرثرة الكلمات الفارغة أو يسترسلون في تفاصيل النظريات، يجهلون أن مَنْ هو كائن حقاً هو الذي له القدرة على أن يلد وهو الله نفسه؛ لأنه يقول عن ذاته: "أنا هو الكائن". لأن كل المخلوقات الأخرى لم تكن كائنةً قبل أن تصير، بل أتت إلى الوجود بالإرادة الإلهية. بالتالي، الكائن حقاً، وهو الاسم الأكثر سيادة للذي هو كائنٌ، هو فقط الذي يلد من الجوهر. لأن المخلوقات الأخرى، مثل البشر، خُلِقَت بإرادة الله بإمكانية أن تلد، لا أن يفعلوا هذا من جوهرهم؛ لأن ناموسهم الطبيعي يجبرهم على الولادة، مثلهم في ذلك مثل ذاك الذي جُبِلتَ طبيعته على ألا يَلِد. لأن الله إذ أراد هكذا، هكذا أيضاً صار. أي أن المخلوقات لو كان لديها القدرة على أن تلد في جوهرها، وكملمحٍ خاص لها، عندئذٍ لماذا لا تقدر كلها أن تَلِد؟ ولأن مخلوقاتٍ معينةٍ هي التي يمكنها أن تلد، وهي تلك التي صارت هكذا، فمن الواضح على أية حال أن إمكانية أن تلد لا توجد فيها بحسب الطبيعة، بقدر إعتمادها على الناموس الذي أمرها وأجبرها على ذلك، وهو الناموس الذي وضعه الخالق في كل كائن من الكائنات.

هكذا إذن، فذاك الذي يلد من ذاته، يكون إلهياً، بينما نحن نلد مقلّدين ذاك. ثم كيف يصبح معقولاً أن يلد من ذاته ذلك الذي يلد مقلّداً، بينما الأصل الذي خُلِق وفق مثاله لا يلد من ذاته، بل خارجياً؟ إذن، فطالما صار الحق واضحاً، فلا شيء يعيق الآب عن أن يلد من ذاته، وبما أن هذا هكذا يكون، فالابن إذن لديه كل ما لدى الآب؛ لأن ما يخص الآب يمضي بحسب الطبيعة تجاه الابن.

ردٌ آخر على الذين يعترضون على أن الابن من نفس جوهر الآب

٢٦- رأي المعارضين

إذا كان المخلص ذاته قد قال ليس أحدٌ صالحاً إلاَّ الله، إذن فهو يضع نفسه خارج الصلاح بحسب الطبيعة إذ قال للناموسي: "لماذا تدعوني صالحاً؟" (لو ١٨: ١٩) فكيف يكون الابن بحسب الطبيعة مثل الآب الذي هو فقط الصالح؟

٢٧- الرّد

محاربو المسيح يقولون إن الابن ليس هو مثل الآب دون أن يفطنوا أبداً للخطر الكامن في قولهم هذا، أو أنهم يرون هذا الخطر، لكنهم ينشغلون باللعب بأشياء كبيرة، عن أن يكونوا مفسِّرين للحق. لأنه لو كان الابن ليس مثل الآب كما يزعمون، فليتهم يقولون لنا مَنْ هو الذي يقولون عنه إنه صالحٌ بحسب الطبيعة، الآب أم الابن؟ لو صوتوا لصالح الآب، لكان حتماً ليس صالحاً مَنْ لا يشبه الآب. أما لو تجنبوا هذا القول ونقلوا الصلاح بحسب الجوهر للابن، فسوف يصلون حتماً إلى القول بعدم صلاح الآب، طالما هو غير مشابه للابن. لكن لأنه من غير المعقول أن يُقال مثل هذا التجديف سواء ضد الآب أو ضد الابن (لأنه، طالما أن الآب صالح، فعلى أية حال يكون الابن الآتي من جوهره صالحاً أيضاً)، إذ لا يوجد فيه شيء مختلف عما لدى الآب، طالما كان الصالح بالتأكيد يشابه الصالح[1].

---

(1) هنا التركيز على منطقية تنطلق من أن الابن مولود من جوهر الآب الصالح، فهو صالح من صالح، فهو مثل أبيه. العنصر الآخر الهام هو أن الابن هو صورة الآب، إذن هو مثل الآب تماماً. ولكي يفسر أحد الكتاب المقدس

٢٨- سؤال يطرحه محاربو المسيح

يقولون إننا نعترف بأن الابن شبيهٌ بالآب، ولكنه ليس شبيهاً به بحسب الجوهر والطبيعة، لكن بسبب أن الآب أراد أن يجعل الابن مشابهاً لذاته، ولأجل هذا هو مثله. فكما يأخذ البيت شكلاً وهيئةً يفصحان عن عبقرية مَنْ أنشأه، إلاّ أنه يكون مختلفاً – من حيث مادة البناء – عمن بناه، وإن جاء معبِّراً عن فكره.

٢٩- الرد

هذا الحديث جديرٌ بالضحك، أو بالحري بالبكاء والحزن. لأنه مَنْ مِن العقلاء لا يتأسف حزناً على هؤلاء الذين سقطوا في مثل هذا الجهل؟ ومَنْ لا يبكي على هؤلاء الذين انزلقوا إلى مثل هذا النقص الكبير في الفهم؟ لأن الابن لو لم يكن مثل الآب من جهة الجوهر، بل كان شبيهاً به من جهة الشكل، لتحتم علينا أولاً أن نقول إن الابن يتكون من شيئين مختلفين، أي من شيء شبيه وشيء غير شبيه، يصارع أحدهما الآخر، وهما متضادان، الواحد منفصلٌ عن الآخر، دون أن يكون بينهما شركة أو توافق. أمَّا إذا اقتصر تشابه أحدهما مع الآخر على شيء، فهو لا يكون نوراً كاملاً ولا حقاً كاملاً ولا بحسب الطبيعة إلهاً. ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل ينتقل ثقل التجديف من الابن إلى الآب الذي ولده؛ لأن الآب ذاته يصير من أجلنا مركبٌ من جوهرٍ وفكرٍ، ولا يتشابه بحسب الطبيعة بالابن من جهة الجوهر، وإن كان شبيهاً به من جهة الفكر. إذن كيف يكون الآب هو بداية الكل، لو كان وفق آرائكم، مركَّباً وليس بسيطاً؟ بالرغم من أنه ما من شيء يمكن أن

تفسيراً صحيحاً لابد أولاً أن يؤمن بأن الابن من نفس جوهر الآب ثم أنه هو صورة الآب، فالإيمان هو الذي يضمن للمفسر أن لا ينحرف بالنص ليدعم أفكاراً خاطئة .هكذا كان موقف اليهود من المسيح فهم اقتربوا إليه على أنه مجرد إنسان أما المؤمنين فأنهم يقتربون إليه بكونه الإله المتأنس. وهذا ما يؤكده القديس كيرلس في نفس السياق وهو يفسر (لو ١٨:١٨-٢٧) إذ يقول: "الذين يؤمنون أن **الكلمة** الذي أشرق من جوهر الله الآب نفسه هو الله بالطبيعة وبالحق؛ فإنهم يقتربون إليه كما إلى إله كليّ المعرفة، وهو كما يقول المرنِّم: "فاحص القلوب والكلى" (مز ٩:٧) ويرى كل ما يجري في داخلنا لأن كل شيء عريان ومكشوف أمام عينيه (عب ١٣:٤) بحسب تعبير بولس الطوباوي. ولكننا لا نجد جموع اليهود يميّلون إلى هذا لأنهم مع رؤسائهم ومعلّميهم كانوا في ضلال، و لم يروا بعيون أذهانهم مجد المسيح بل نظروا إليه بالحري كواحد مثلنا أقصد كمجرد إنسان وليس بالحري الله الذي قد صار إنساناً، لذلك فإنهم تقدَّموا إليه ليجرّبوه وينصبوا له فخاخ مكرهم". أنظر تفسير إنجيل لوقا، المرجع السابق، الإصحاح الثامن عشر، ص ٥٨٥.

يُدرك قبل البداية، وبالتالي، لا يمكن أن يُضاف لهذه البداية شيءٌ مركبٌ. ولما كان السخف والهذيان ظاهران من كل جانب في هذا الكلام، إذن فاقتراح محاربي المسيح لا يستند على شيء. وطالما كان التجديف في هذه المواضيع ظاهراً، يكون الابن مثل الآب من جهة الجوهر، و لم يُفقد التماثل الطبيعي فيما بينهما على الإطلاق.

٣٠- ردٌ آخر

لو لم يكن الابن مثل الآب تماماً بحسب الجوهر، بل كان مجرد شيء مثل ختم وصورة لفكرة، لَمَا كان متماثلاً معه تماماً. وهذا ما يبدو واضحاً في حالتنا نحن. فنحن، لأننا خُلقنا "بحسب صورة" الخالق نحتفظ بهذا الأمر عندما نصير شركاء لإلوهيته بواسطة الروح القدس الذين يسكن داخلنا، ونأخذ شكل صورة الابن الإلهية. أمَّا أولئك الذين لم يصيروا بعد شركاء الطبيعة الإلهية (أنظر ٢ بط ١: ٤) فهم لم ينالوا بعد شكل صورة ابنه. إذن، فلو لم يكن هناك أية مماثلة بين الآب والابن، بل فقط توجد أختام لشكله، لَمَا كان هناك تماثل كامل بينهما، الأمر الذي لو اعتقد فيه أحد لَكان غير صادق، إذ كيف يكون عندئذٍ معادلاً لله؟ وبما أن هذا يعد من قبيل الأمور غير المعقولة، فإن ما يسري هو عكس ذلك، أي ما هو حقيقي تماماً، أي، طالما أن الابن هو من جوهر الآب، فهو بحسب الجوهر مثله تماماً.

٣١- برهان من الكتاب المقدس على أنه بواسطة شركتنا مع الله، ننال صورة شكله؛ لأن تأنُّسه ليس كافياً لنصير صورة الله، لو انحصر هذا القول فقط في الأفكار

يقول بولس الرسول: "إن كان أحد ليس لديه روح المسيح فهذا ليس لديه المسيح". لكن لو كان كافياً وبدون شركة الروح أن يظهر الإنسان صورة الله، سنكون كلنا للمسيح، حتى لو لم نكن مشاركين الروح. أيضاً يقول الطوباوي يوحنا: "ومن يحفظ وصاياه يثبت فيه وهو فيه. وبهذا نعرف أنه يثبت فينا من الروح الذي أعطانا" (١ يو ٣: ٢٤). بالتالي، طالما نحفظ الوصية التي أُعطيت لنا، فهذا هو الذي ينشئ فينا شركة الروح. وطالما صرنا مشاركين الروح (أنظر عب ٦: ١)، نأخذ صورة شكل الخالق. واضحٌ على أية حال أنه من غير الممكن أن يصير شبيهاً بالله ذاك الغير المحسوب ضمن شركاء طبيعته.

كذلك أعاد المخلص تجديد الإنسان إلى "حسب الصورة"، ولذلك نفخ في تلاميذه قائلاً: "خذوا الروح القدس" (يو ٢٠: ٢٢). إذن، فالذي يملك التجديد، لا بُد وأن يكون قديماً أيضاً. وبالتالي، اكتمال التشبُّه بجوهر الله يُمنح للإنسان بواسطة شركة الروح؛ لأنه ليس بمجرد أفكار، خَلَقَ اللهُ التشبُّهَ بذاك، لكن طالما أخذنا روح الابن، نحصل على شكل الله. إذن، كيف لا يكون الابن مثل الآب بحسب الجوهر، هذا الذي يمنح لنا أيضاً إمكانية أن نحصل على صورة الله؟[1]

٣٢- رأيٌ من جانب الخصوم

يزعمون أن الآب غير مشارك فينا وغير مُتَّحِدٍ بنا، بسبب عُلو إدراك الإلوهية وسموه على أية قدرة، كما أنه غير محوي في الطبيعة البشرية، لكنه يصير مُدرَكاً فينا ويأتي إلينا بواسطة الابن الذي هو الأدنى. إذن كيف يكون الابن مثل الآب طالما احتُوِيَ فينا نحن الذين لا نستطيع أن نحوي ذاك (الآب)؟

٣٣- الإجابة

ها هم محاربو الله أيضاً سكارى بغبائهم غير واعين - كما يبدو - لما يقولونه ولا لما يؤكدونه لنا. لأنه، لو كان - كما تزعمون - كل ما في الآب أعظم وفوق الطبيعة، إذن لَتحتم أن يكون الصلاح الذي فيه هو أيضاً كذلك. فكيف إذن لا يشترك من هو فائق الصلاح في أولئك الذين هم في احتياجٍ للصلاح؟ وعموماً كيف يكون صالحاً هذا الذي

---

(١) هذا البرهان يعتمد على أن الابن هو إله حق من إله حق، وواحد مع الآب في الجوهر، لأن هذه النعم التي يحصل عليها الإنسان مثل اكتساب الصورة الإلهية والتبني ما كانت تتم إلاّ بأن يكون الابن واحداً مع الآب في الجوهر، وهذا ما أكده القديس إيرينيؤس، قائلاً: "يوجد إله واحد هو الله الآب - كما بيَّنا - ومسيح واحد هو ربنا يسوع الذي جاء بحسب التدبير الشامل، لكي يجمع كل الأشياء في نفسه (أف ١: ١٠)، ومن ضمنها الإنسان الذي هو خليقة الله. فقد جمع الإنسان أيضاً إلى نفسه. إن غير المنظور صار منظوراً، وغير المُدرَك صار مُدرَكاً، وغير المتألِّم صار تحت الآلام، والكلمة صار إنساناً، جامعاً بذلك كل شيء في نفسه، حتى كما أن كلمة الله هو الأول بين السمائيين الروحيين غير المنظورين، هكذا يصير هو أيضاً الأول بين المنظورين والجسديين، وبأخذه هذه الأولوية يجعل نفسه رأساً للكنيسة (أف ١: ٢٢)، حتى يجتذب إلى نفسه كل شيء (يو ١٢: ٣٢)، في الوقت المعيَّن". ضد الهرطقات ٣: ١٦: ٦.

بسموِّه الفائق يمنع الكل عن أن يكونوا في شركةٍ معه؟ لأنه - وبحق - يجب على هذا الذي هو صالحٌ منذ القديم، أن يقدِّم الصلاح الذي يتناسب مع الجميع، ويكون على استعداد لأن يمنحه لكل مَنْ كان له احتياج. وهو الأمر الذي يفعله بالفعل، إذ سبق فوعد أنه سوف يسكن فينا ويكون معنا ويُظهرنا على أننا أبناءه، الأمر الذي يثبت انحراف رأي هؤلاء الجاحدين. لأن رأيهم هذا يُظهِر الله ميالاً إلى التوحُّش بسموه وعظمته، في حين أنه مُحِبٌ جداً بقدر عظمة كل ما يخصه. والصلاح هو أحد هذه الأمور العظيمة التي تصل بواسطة الابن - كما يقول هو نفسه - للأشرار والأخيار، ولا يمنع أحداً إطلاقاً من المشاركة في هذا الصلاح، حتى وإن كانت مشاركة الآب، تتم بطريقة أساسية ومناسبة، بواسطة الابن بالروح. وذلك تماماً مثلما نشترك فيما للشمس بواسطة النور الذي يُولَد منها بالحرارة التي تنبعث والتي تمثل صورةً لفعل الروح.

إذن، فإذا لم يكن هناك مَنْ ينكر أن النور الذي يُرسَل من الشمس ليس شبيهاً بها، ولا كذلك حرارتها، الأمر الذي يمكننا أن نشترك في الشمس بواسطتهما، هكذا أيضاً لا يوجد شيء يجبر الابن على أن يكون بحسب الجوهر غير مشابه للآب؛ لأن الآب يُشتَرَكُ فيه بواسطته. بل على العكس يبدو الابن شبيهاً به في كل شيء؛ لأنه إذا كُنّا بشركتنا مع الابن لا نُحرَم من الشركة مع الآب، فكيف يقولون إنه لا يوجد تطابق بين جوهر الآب والابن؟ أمَا وإن كان التطابق موجوداً فعلاً، فأي مكانةٍ تكون لعدم التشابه؟

ليت محاربي المسيح يجيبوننا على هذا.

٣٤- اعتراض من اعتراضات الهراطقة

يقولون كيف يمكن أن يكون الابن مماثلاً للآب في ما يخص الجوهر، طالما هو أدنى منه كثيراً، حتى أنه لا يراه؟ وهذا ما يؤكده هو ذاته قائلاً: "الله لم يره أحدٌ قط الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر" (يو ١: ١٨). إذن، فطالما أن الابن يدعو الآب بأنه غير المرئي للجميع، ومن ضمن الجميع هو ذاته أيضاً، فكيف يمكن أن يكون مماثلاً - من جهة الجوهر - هذا الذي هو أدنى منه كثيراً؟

٣٥- الإجابة

عندما تقولون إن أحداً لا يرى الآب ولا حتى الابن، وإن شخصه الإلهي محتجبٌ عن وحيد الجنس، بالرغم من أنه هو ذاته يصرِّح بوضوح إنه لا أحد يرى الآب إلاَّ فقط هذا الذي هو بالقرب من الله، هذا رأى الآب، عندما تقولون هذا، ألا تظهرون وكأنكم تحاربون الحق علناً وتكونون مضادين لكل ما ورد في الكتب المقدسة؟

وكيف للابن الذي لا يدرِك الآب أن يُظهره لنا قائلاً: "مَنْ رآني فقد رأي الآب"؟ (يو ١٤: ٩). بل وأيضاً كيف يعرف روحه كل شيء حتى أعماق الله، مثل روح الإنسان الذي يعرف ما بداخل الإنسان؟ (أنظر ١كور ٢: ١١)، وكيف أيضاً يُذكر أن ملائكة السماء ينظرون وجهه، في حين أن الابن لا يمتلك هذه الإمكانية، كما تقولون؟ أو كيف يكون صادقاً حين يقول: "كما أن الآب يعرفني وأنا أعرف الآب" (يو ١٠: ١٥)؟ وأيضاً: "ليس أحد يعرف الابن إلاَّ الآب. ولا أحد يعرف الآب إلاَّ الابن ومَن أراد الابن أن يُعلن له" (مت ١١: ٢٧)؟

إذن، فهذا الذي ليس فقط يعرف الآب، بل يعلنه أيضاً للآخرين، كيف لا يراه؟ وكيف لا يعرفه هذا الذي يعرف الآب من كل ما يخص الآب، وهو ما يخصه هو أيضاً، إذ يقول له: "كل ما هو لي فهو لك. وما هو لك فهو لي" (يو ١٧: ١٠)؟

بالتالي، فإن كان الآب - بحسب رأيكم - غير مرئي بالنسبة للابن، فالآب لا يكون مماثلاً له من جهة الجوهر. أمَا وإن كان يرى الآب ويعرفه، فهو في كل الأحوال مماثل له بحسب الجوهر في كل شيء، وحديثكم المشبوه هذا يكون كاذباً.

٣٦- تساؤل من جانب الهراطقة

يقولون: نقبل أن يكون الابن مماثلاً للآب، لأن لديه شركة غنية معه تحوِّله بطريقة ما إلى شكله، وذلك كما يحدث معنا نحن، فبقدر ما يمكننا، نصير شركاء للطبيعة الإلهية كما هو مكتوب (أنظر ٢ بط ١: ٤)، نائلين صورة السماوي (أنظر ١ كو ١٥: ٤٩)، ونحصل على شكلٍ مماثلٍ من جهة الملامح الإلهية.

٣٧- الرد

ومَنْ مِن الذين يقرأون الكتب المقدسة، يمكنه أن يطيق ثرثرتكم هذه؟ لأنه في الوقت الذي لا تكرز فيه الأقوال الإلهية بإلهٍ ظهر لنا حديثاً، تلقون أنفسكم في خطر، إذ تنتقدون ما يقوله الروح. ألا تخجلون من أنكم تُدخِلون علينا ظهورَ حديثٍ، وأقول هكذا، تدخلون علينا إلهاً حديث الولادة، الابن. لأن هذا الذي صار وشُكِّل فيه من شركته مع الله لا بُد وأن يكون مكتسَبَاً وجاء فيما بعد، أقصد هذا الذي يوجد فيه بواسطة المشاركة[1].

وكون أنه أخذ شيئاً، يستوجب الاعتراف بأن مَن لم يكن هكذا من البداية، يكون قد نُقِل إلى شيءٍ آخر. وأن ما أخذه مؤقتٌ. لأنه كيف لا يكون سهلاً أن يفقد المرء ذاك الذي سبق وأن أُخذه؟ لأن أي شيء يُعطى، إنما يحصل عليه المرء بالإضافة، وبالتالي يمكن أن يُفقد. بناءً على ذلك دعنا نقول إنه يمكن للابن أن يسقط من أن يكون إلهاً وربّاً وابناً. أمَّا إذا تجنَّبوا هذا القول وقَبِلوا أن جوهر الابن لا يطاله تغيُّر، فليتهم يتوقفون عن الاعتقاد بأن هذا أخذ شكل الآب بمشاركته، وليتهم يحفظون الإيمان بأن تماثل الابن **الكلمة** مع الآب، الذي وُلِدَ من جوهر الآب هو تماثل طبيعيٌ وجوهريٌ.

٣٨- ردٌ آخر

الذين لهم شركةً مع الله، هؤلاء دُعُوا للقداسة من قِبَل الله الذي من طبيعته أن يقدِّس، لذلك فهم يخلصون إذا كانوا واعين لهذا الذي أُعطي لهم في داخلهم. لأن أي إنسان يأخذ الروح عن طريق الشركة مع الله لا يمكن له على الإطلاق أن ينقله لآخر؛ لأنه قد أخذه من الله. والمختص الوحيد بأن يمنح القداسة من ذاته لمنْ يريد هو نبع القداسة ذاته. وإذا كان الملائكة الذين في السماء، هم بالطبع قديسون بسبب شركتهم مع الله القدوس، لكن لا يمكنهم أبداً أن يعطوا قداسةً للبشر.

نفس الأمر، موسى الطوباوي حين عَيَّن سبعين شيخاً لاحتياج المجمع الضروري، لم يعطِهم هو نفسه الروح، لكن - كما هو مكتوب - أخذ الله من الروح الذي كان

---

(1) غرض الهراطقة هو أن يصير الابن مثله مثل أي مخلوق ويُحسَب من ضمن المخلوقات. فأي امتياز لدى الابن يتطابق - في رأيهم - مع امتياز أي مؤمن.

موجودًا فيه وأعطى للمختارين (أنظر عدد ١١: ٢٤ - ٢٥). إذن، فقد سُمِحَ للذين صاروا قديسين بالمشاركة أن يحملوا فقط النعمة التي أُعطيت لهم من الله، لا أن ينقلوها لآخرين. أمَّا بالنسبة للابن، فالأمر ليس على هذا النحو؛ لأنه هو مصدر القداسة، هو الذي يقدِّس التلاميذ، قائلاً: "خذوا الروح القدس" (يو ٢٠: ٢٢). وهو ذات ما يفعله الآب أيضاً. فإذا كان لدى الابن سلطانًا وقوة مساوية للآب للتقديس، فكيف لا يكون متماثلاً معه تماثلا حقيقياً؟

المقالة الرابعة عشر

أيضاً عن أن الابن مثل الآب على أساس الآية: "لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الآبَ لَهُ حَيَاةٌ فِي ذَاتِهِ، كَذلِكَ أَعْطَى الابْنَ أَيْضاً أَنْ تَكُونَ لَهُ حَيَاةٌ فِي ذَاتِهِ". (يو ٥: ٢٦).

١- والمستنتج من الشواهد هو أن الابن هو الحياة

وهو بحسب الطبيعة مثل الآب أيضاً، لأجل هذا هو واحدٌ مع الآب في الجوهر

٢- رأيٌ من جانب الهراطقة

يقولون، وكيف يمكن، أن يكون الابنُ مثل الآب، وواحداً معه في الجوهر؟ أو كيف لا يكون الابنُ متأخراً زمنياً عن ذاك الذي قَبِل شيئاً منه، وفق ما قاله هو ذاته: "كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الابن أن تكون له حياة في ذاته" (يو ٥: ٢٦).

٣- الرّد

يا صديقي، لن يُضار جوهر **الكلمة** في شيء بكونه قَبِلَ شيئاً من الآب. لأن وجوده لم يبدأ من تلك اللحظة التي قَبِل فيها، لكن، بينما هو كائن أزلي[1] قَبْلَ أي شيء،

[1] الدفاع هنا ينصب على أزلية الابن لأن الهراطقة يريدون بكافة الطرق جعل الابن ضمن المخلوقات، لذا يؤكد القديس كيرلس على أزلية الابن في نفس السياق، حين يفسر(يو ١:٤): "فيه كانت الحياة" قائلاً: "لو كان الابن

وطالما هو مولودٌ من الآب بحسب الطبيعة، فهو يحمل كل خصائص الآب[1]. وذلك على مثال النور الذي يأتي من الشمس، فهذا النور يمكن أن يُقال عنه إنه قَبِل شيئاً من الشمس؛ لأنه يوجد على أية حال فيها، يبدو أنه نور الشمس التي ولدته دون أن يعني هذا حتماً أن الشمس وُجدت قبل الشعاع؛ لأن الشعاع الذي أتى منها دون أن ينفصل عنها يحمل نفس مميزاتها بحسب الطبيعة. بالتالي، كون أن الابن أخذ شيئاً من الآب، لا يُحتِّم أن يكون تالياً (في المرتبة الثانية) من جهة الزمن عن ذاك. لأن الآب يعطي لِمَنْ فيه كائنٌ ويكون، لا لذلك الذي لم يَصِر بعد، أو لم يكن موجوداً.

٤- ردٌ آخر

لو حددنا جوهر الكائنات في أنها هي تلك التي تتقبل شيئاً، وكان هذا الشيء الذي أُعطي لكائنٍ ما كافياً لأنْ يُظهر جوهره، لَمَا كان هناك ما يعيقنا عن أن نقول مجدِّفين إن وجود الآب نفسه مرتبطٌ بما يتقبَّله منا. لأننا نسمع المرنم حين يقول: "أعطوا مجداً لله" (مز ٦٨: ٣٥). ولمَّا لم يكن الله قد بدأ الوجود وقت أن قَبِلَ المجد منا؛ لأنه كان يقبل التمجيد من خدامه باعتباره الكائن والذي يكون، فوجود الابن – عندئذٍ – لم يكن بسبب أنه أخذ شيئاً من الآب؛ لأنه، بينما كان كائناً، آتياً منه بطريقة أزلية ولا بداية لها،

ليس من جوهر الآب بل هو من خارجه لصار خاضعاً للآب كالمخلوقات. فكيف إذن يُحيي كلَّ الأشياء، وهو من بين الأشياء المخلوقة؟ أو نفس السؤال بشكل آخر: ما هو الفرق بين الخالق والمخلوق؟ وكيف نفهم كلمات الرسول بولس الخاصة بطبيعة الله "الَّذِي يُحْيِي الْكُلَّ؟" (١ تيمو ٦:١٣). لو كان الابن مخلوقاً، وهو قادر على أن يحيي الكلّ، لأصبحت الخليقة قادرة على أن تحيي نفسها، وليست محتاجة بالمرّة إلى الله. ولم يعد في الطبيعة الإلهية ما يميزّها عن المخلوقات، ولأصبحت المخلوقات مثل الله قادرة على أن تفعل ما يفعله الله. وهذا مستحيل. إذن الابن ليس مخلوقاً، بل هو الله ولذلك فهو بالطبيعة الحياة أيضاً". أنظر شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، المرجع السابق، الإصحاح الأول ص ٨٥.

(١) يشرح القديس كيرلس في كتابة حوار حول الثالوث، هذه الحقيقة على أساس أن الابن يستمد الحياة من الآب بحسب الطبيعة، بالتالي فإن فعل الإحياء هو للآب وللابن، إذ يقول: "لأن الآب هو الحياة، فقد استمد الابن الحياة منه حسب الطبيعة، مُظهراً بذلك جوهر الذي وَلَده. ولأنه هو في الآب تماماً، والآب هو – بالكمال – فيه، لهذا نقول إن الفعل هو فعل الآب والابن، ولهذا أيضاً، فإن الابن وهو يشير إلى أن ما يفعله الآب يفعله هو أيضاً، يوضّح تماماً أن كل أفعاله أفعالاً مساوية لأفعال الآب وذلك بسبب أنه هو واحد مع الآب في الجوهر" أنظر حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الخامس، ص ٤٩.

قِيلَ عنه إنه أخذ هذه الأمور التي لديه بحسب الطبيعة. مثله في ذلك مثل الابن الذي يأتي للوجود بواسطة إنسان، فإنه يحمل كل خصائص ذاك الذي ولده، بالإضافة إلى كل ما هو خاصٌ به آخذاً منه الوجود أيضاً. إذن، فالولادة الإلهية وغير الموصوفة أسمى بكثير من ذلك المثال الهام الذي ذكرناه، وليته يُدرَك كيفما يليق بالله.

٥- اعتراضٌ من جانب محاربي المسيح

يقولون: كون أهم يقبلون شيئاً يتمشى بالأكثر مع الأشياء الكائنة والتي توجد بالفعل، لا مع الأشياء غير الموجودة، تتفق نحن أيضاً معهم. لكن من الضروري أن نقول من الآن وصاعداً، إن ذاك يأخذ شيئاً من آخر، وهو يأخذ لأن هذا الشيء ليس له. إذن، فبما أن الآب له الحياة في جوهره، ويعطيها للابن، فذلك لأن الابن ليس له، فكيف إذن يكون مماثلاً له من جهة الجوهر، طالما قَبِل منه ذاك الذي ليس له؟

٦- الرّد

ينبغي أن نفحص بدقة، أيها الأصدقاء، القول الذي ذكرتموه، عندئذٍ تتضح أهمية ما تقولونه. لأنكم سوف تسمعون مِنّا إنه بما أن الابن له الحياة مثلما هي للآب أيضاً، بمعنى أن فيه الحياة في ذاته، وكان هذا يعلن الجوهر، فما الذي يمنع هذه الخواص المشتركة عن أن تكون لهذا الجوهر؟ لأنه، بما أن الآب لديه الحياة في ذاته والابن أيضاً لديه هذه الحياة فيه، ليس كإضافة كما تزعمون ، عندئذٍ يكون معادلاً للآب من جهة الجوهر، هذا الذي لديه الحياة مثل ذاك (الآب)، وليس بطريقة أخرى.

٧- ردٌ آخر

لو لم يكن الابن هو الحياة بحسب الطبيعة، فكيف يكون ما يقوله حقيقياً عندما يذكر: "مَنْ يؤمن بي فله حياة أبدية" (يو ٦: ٤٧)، و"أنا أعطيهم حياة أبدية". لأنه كان ينبغي أن يقول، هذا الذي يؤمن بي سينال مني تلك الحياة التي أعطانيها الآب. أو أن الآب لن يسمح لذاك الذي يؤمن بي أن يذوق الموت. إذن، فبما أنه لا يقول مثل هذا، بل يَعِد

الذين يؤمنون به أن يعطيهم الحياة التي توجد فيه بحسب الطبيعة والجوهر، فكيف يمكننا أن نفكر بأن الابن لا يملك الحياة، بل أخذها من الآب؟ لأن هذا يكون أفظع من أي تجديف.

لكن - كما قيل سابقاً - طالما قد أتى من الآب، فهو يملك كل ما لدى ذاك بحسب الطبيعة، ولذلك يُدرَك على أنه يملك واحدةً من مميزات الآب، أعني هذه الحياة؛ لأنه شعاع وصورة ذاك[1].

٨- ردٌ آخر

لو لم يكن ابن الله هو الحياة بحسب الطبيعة، بل فقط كان مشاركاً للحياة μέτοχος، كما يقول محاربو المسيح، لَكان عندئذٍ مختلفاً من جهة الجوهر عن هذا الذي يُشاركه. فإذا كان الأمر على هذا النحو فكيف يستقيم أن يقول هو نفسه: "أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحدٌ من هذا الخبز يحيا إلى الأبد" (يو ٦: ٥١). لأنه لو لم يكن هو ذاته الحياة بحسب الطبيعة، لكان عليه أن يقول الآتي: الخبز الذي نزل من السماء يوجد داخلي، ولو أكل أحد من الخبز الذي يوجد فيَّ، سيحيا إلى الأبد. ولكن بما أنه قال: "أنا هو"، فهو إذن يشير إلى ذاته، وليس إلى واحدٍ من الأشياء التي أُضيفت له فيما بعد، أي أنه يتحدث عن واحدة من مميزاته الطبيعية[2].

---

(١) التأكيد هنا على أن الابن من جوهر الآب وله كل خصائص الآب، وهذا ما أكد عليه القديس كيرلس في شرحه لإنجيل يوحنا، إذ يقول: "لو كان الابن هو بالطبيعة الحياة، ومساوٍ للمخلوقات، بسبب عدم كونه من جوهر الله الآب، حسب إدعاء الهراطقة، فلماذا يقول المرّنم في المزمور أن "هِيَ تَبِيدُ وَأَنْتَ تَبْقَى وَكُلُّهَا كَثَوْبٍ تَبْلَى" (مز ١٠٢: ٢٦) أما للابن فهو ينسب الصفات الإلهية ويصرخ بصوت عال "وَأَنْتَ هُوَ وَسِنُوكَ لَنْ تَنْتَهِيَ" (مز ١٠٢: ٢٧). وإما أن يفنى الابن ويشيخ معنا كمساوي لنا في الطبيعة، وهذا يعني أنه ليس الحياة، أو أنه الحياة التي لا تفنى ولا تشيخ. وبذلك يكون الابن ليس مخلوقاً مثلنا، وحيث إنه الحياة بالطبيعة، فهو سَيَهبْ الحياة أيضاً لكلِّ الأشياء التي يريد أن يهبها الحياة". شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٨٧.

(٢) نفس النهج يستخدمه القديس كيرلس في نفس السياق أثناء شرح إنجيل يوحنا، إذ يقول: "إذا كان الابن هو بالطبيعة الحياة، فهو: إمّا غير الخليقة أو مثل الخليقة. فإذا كانت له طبيعة مساوية لطبيعة الخليقة، فكيف لا يكون كاذباً عندما يقول: "أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةَ، النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءَ، الْوَاهِبُ حَيَاةً لِلْعَالَمِ" (يو ٦: ٣٣، ٣٥). وحسب إدعاء الهراطقة تصبح الخليقة حيّة بذاتها. ولكن إن كان الابن غير مساوٍ لطبيعة الخليقة، فإنه يكون غير مخلوق، محتفظاً بصلاحه الخاص به. لأن الخليقة ليست هي بالطبيعة، الحياة بل بالحري تحتاج للحياة وتشترك في الحياة". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٨٦ - ٨٧.

وبما أنه هو الخبز(١) الذي يجعل الذين يشاركونه غير مائتين، إذن فهو لا يحيا خارجياً، ولا بالاكتساب، لكنه حقاً، هو ذاته - بحسب الطبيعة — الحياة، وهو يَعِد كل الذين يشاركونه بأنه سوف يحييهم حقاً(٢).

٩- ردّ آخر

لو أن **كلمة** الله - كما تقولون أنتم - لا يملك بحسب الطبيعة أن يكون هو الحياة، لكنه حصل على هذا الأمر خارجياً، وبالرغم من ذلك، يمكنه أن يُحيي، فما الذي يمنعكم من أن تقولوا إن الملائكة الذين صاروا حقاً مشاركين للحياة، يمكنهم أيضاً أن يعطوا حياةً؟ لكن هذا ليس ممكناً؛ لأن الابن فقط هو الذي يستطيع أن يعطي حياة، مثل

---

(١) حين تحدث القديس كيرلس عن قسط المن، أكد أن المسيح هو الخبز النازل من السماء، إذ يقول: "سوف أبدأ حديثي عن القسط. وحقيقة الأمر هي كالآتي: لقد أعطى الله المَنّ - مثل المطر - للإسرائيليين في الصحراء. لذا كان المَنُّ بالنسبة لهم طعاماً وخبزاً من فوق، أي من السماء. لكن هذا الأمر (نزول المَنْ) - الذي صار وقتذاك - لا يتوقف عند الرؤية المادية والمحسوسة، بل يقودنا - من خلال المثال والظل - إلى الإشارة "**للكلمة**" الآتي من فوق، من الآب أي الخبز الذي من السماء. وكانت هذه الرؤية هي التي قصدها داود العظيم قائلاً: "أَكَلَ الإِنْسَانُ خُبْزَ الْمَلاَئِكَةِ. أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ زَاداً لِلشِّبَعِ" (مز ٧٨: ٢٥).وطبعاً، نحن لا نقول إنَّ المَنْ المادي هو خبزٌ من السماء، أو هو خبز الملائكة؛ لأنَّ الروح تغتذي على طعامٍ روحي، كما يتغذى الجسد بطبيعته بالطعام المادي. لكن طعام الملائكة والخبز الذي يتناسب مع السموات والأرواح السماوية هو كلمة الله الآب. إذن، فالمَنْ يشير إلى المسيح". القديس كيرلس الأسكندري، العبادة بالروح والحق، الجزء السادس، ترجمة د. جورج عوض، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية يوليو٢٠٠٧، المقالة العاشرة ص ٣٠.

(٢) يؤكد القديس كيرلس على أن المسيح هو الخبز الحقيقي والحياة أثناء حديثة عن المنارة والمائدة للخيمة المقدسة، إذ يقول: "أمّا كونُ المسيحِ نوراً، فقد أعلنته المنارة، وكونه الحياةَ والخبز الذي يعطي حياةً، فقد أظهرته المائدة وكل ما وُضع فوقها.لكن عليك أنْ تتأمل أمراً آخراً، وتلاحظ ما ينطوي عليه من سرٍّ: يقع موطن اليهود في الجنوب، بينما موطن الأمم في الشمال. فإذا أخذنا في الاعتبار مكان كلٍ من المنارة والمائدة، فسوف يُدرك مَن يريد، أنَّ المسيحَ قد أشرق كنورٍ على اليهود وكرز لهم "أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ" (يو ٨: ١٢). لأنه قد أُرسل إلى خراف بيت إسرائيل الضالة (مت١٥: ٢٤)، وبحسب الكتب المقدسة " لأنَّ لهم المواعيد " (رو٩: ٤). لكن بما أنهم لم يقبلوا نور الحق، صار المسيحُ للأمم هو الحياةَ والخبزَ النازل من السماء، وهكذا لم يبقَ الأممُ بدون نور. وهذا ما تراه من جهة أنَّ النورَ يُشرق على شمال الخيمة؛ لأنَّ المنارةَ قد وُضعت فوق المائدة التي كانت جنوباً. وما ساعد على إظهار ذلك، أنَّ الخيمةَ كانت محدودة القياس". أنظر السجود والعبادة بالروح والحق، المرجع السابق، الجزء السادس، المقالة العاشرة ص ٢٣ - ٢٤.

الآب أيضاً. بالتالي، القوة المحيية ليست في الابن كشيء مضاف، لكنها توجد فيه بحسب الطبيعة[1] وفي جوهره مثلما أيضاً في الآب.

١٠- ردّ آخر

الابن بقوله: "كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الابن أن تكون له حياة في ذاته" (يو ٥: ٢٦)، يُظهر بوضوح التماثل المنقطع النظير مع ذاك الذي ولده. لأن لديه الحياة بنفس الطريقة التي لدى الآب أيضاً، أي بحسب الطبيعة، وفي جوهره. ولذلك فإن الفعل "أعطى" يُظهر كيفية مجيئه من جوهره وعطائه الطبيعي. لأن الآب لم يعطه، وكأنه نزع شيئاً من مميزاته الخاصة وأضافها على الابن الذي لم يكن لديه هذا الشيء، بقطعٍ جسدي، أو بكسر قطعةٍ لآخر، الأمر الذي يحدث مكانياً أو بالتجزئة. لكن مثل النبات، يعطي للثمرة التي تأتي منه أن تحمل ذات النوعية التي ينتمي إليها بحسب الطبيعة[2]، هكذا أيضاً نفهم الابن على أنه أخذ من الآب هذه الأشياء التي تنتمي إليه، لأن الابن لديه أيضاً كل ما للآب، فيما عدا فقط أن يكون آباً.

---

(١) لأن الابن هو الحياة، ويؤكد القديس كيرلس هذه الحقيقة في موضع آخر حين يتحدث عن موسى والمسيح، إذ يقول: "فالمَنْ يشير إلى المسيح. وإنْ لم تصر هذه الحقيقة مقبولة فالظل لا يعلن شيئاً مفيداً. إذ أن الظل لم يَصِر ظلاً لعِلةٍ في ذاته، بل لكي يرمز إلى أمرٍ من الأمور الحسنة. لذلك وبَّخ المسيحُ جمعَ اليهود توبيخاً واضحاً لأنهم لم يكرِّموه بالرغم من أنه كان هو الحق، بينما كان موسى خادماً للظلال. لذلك قال لهم المسيح: " الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَيْسَ مُوسَى أَعْطَاكُمُ الْخُبْزَ مِنَ السَّمَاءِ، بَلْ أَبِي يُعْطِيكُمُ الْخُبْزَ الْحَقِيقِيَّ مِنَ السَّمَاءِ، لأَنَّ خُبْزَ اللهِ هُوَ النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ الْوَاهِبُ حَيَاةً لِلْعَالَمِ. فَقَالُوا لَهُ: يَا سَيِّدُ، أَعْطِنَا فِي كُلِّ حِينٍ هذَا الْخُبْزَ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ. مَنْ يُقْبِلْ إلى فَلاَ يَجُوعُ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِي فَلاَ يَعْطَشُ أَبَداً" (يو٦: ٣٢ - ٣٥)].

(٢) يميل القديس كيرلس لتشبيه ولادة الابن من الآب بأنها مثل ثمرة النبات، لذلك نجده دائماً يفضل تسمية الابن: "ثمرة جوهر الآب" أو "نبت من جذر" هكذا يقول في شرحه لإنجيل يوحنا: "أما إذا رفضوا قبول حقيقة أن الابن هو من نفس جوهر الآب وتمسّكوا بأنه منه، فهذا يعني أنه غريب عن الآب. فكيف يكون له مجد الآب ذاته؟! وكيف يقول دانيال "فَأُعْطِيَ سُلْطَاناً وَمَجْداً وَمَلَكُوتاً لِتَتَعَبَّدَ لَهُ كُلُّ الشُّعُوبِ" (دانيال ٧:١٤). فإما أن الله الآب يكذب عندما يقول "وَكَرَامَتِي لاَ أُعْطِيهَا لآخَرَ" (إشعياء ٤٨:١١). أو إذا كان صادقاً، وقد أعطي مجده للابن، فحينئذ لا يكون الابن غريباً عن الآب، بل هو ثمرة جوهره ومولوده الحقيقي. والذي يكون له هذا الوضع بالنسبة إلى الآب فيما يخص الجوهر، لا يكون أقلّ من الآب". أنظر شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص٥٦، ص ٥٧.

١١- اعتراضٌ آخر من جانب محاربي المسيح

يعترضون علينا قائلين: إذا كان الابن هو الحياة بحسب الطبيعة، كما تقولون أنتم يا محبي النزاع، فكيف يتفق ذلك مع ما يقوله بولس - وبحق - عن الآب: "الذي له وحده عدم الموت"؟ (١ تيمو ٦: ١٦). فلو كان الابن أيضاً له عدم الموت، فلن يكون الآب هو وحده الذي له عدم الموت، أمّا وإن كان الآب له وحده عدم الموت، فمن الواضح أن الابن ليس له ما للآب.

١٢- الرّد

أمورٌ كثيرة قيل عنها أنها توجد فقط في الآب، بالرغم من أنها موجودة في الابن. لأنه مكتوب إن الآب هو الإله الحقيقي وحده، الأمر الذي يعني أن الابن ليس إلهاً حقيقياً، بل شخصاً مزيفاً وكاذباً حصل على الحق في أن يكون إلهاً. فإذا كان هكذا بحسب الطبيعة، فكيف نسجد له نحن والملائكة، في حين أن الناموس الإلهي يقول بكل وضوح: "للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد"؟ (مت٤: ١٠ – تث ١٥: ٦). وكيف يمكننا أن نحفظ هذا القول: "لا يكن فيك إله غريب (جديد) ولا تسجد لإله أجنبي" (مز ٨١: ٩)؟ لأنه لو كان الآب وحده هو الله بحسب الطبيعة دون الابن، لأصبح الابن إلهاً غريباً وجديداً أُدخِل بالقرب من الله الذي كان هكذا من البداية وبحسب الطبيعة. لكن هذا القول محضُ هذيان وغير معقول.

وعلى ذلك، فإن قيل إن الآب له وحده عدم الموت، فإن هذا لا يعني أن الابن على عكس ذلك، بل، لأن ما يخص الآب هو في الابن بحسب الطبيعة، نفهم أن الابن له أيضاً من جهة الجوهر ما لذاك الذي ولده، أي ما للآب.

١٣- ردّ آخر

هناك صفات كثيرة توجد في الآب، مثلما يقول بولس: "الذي لا يفني ولا يُري، الإله الحكيم وحده" (١ تيمو ١: ١٧)، فإذا كان الابن محروماً منها، فهو - وفقاً لرأيكم - ليس غيرَ فانٍ، ولا غير منظور، ولا هو كذلك، حكمةٌ. وإذا كنتم تفكرون بهذه الطريقة، فأنتم تجدفّون تجديفاً كبيراً. لأنه كيف يمكن لمانح عدم الموت أن يكون فانياً؟ أو كيف تُرى

فيه طبيعة الله؟ أو كيف نؤمن بأن الابن غير حكيم، وهو المكتوب عنه إنه: "قوة الله وحكمة الله"؟ (١ كو ١: ٢١)، وإلاَّ لَحَان الوقت لنقول إن حكمة الله غيرُ حكيمةٍ.

بناءً على ذلك، ليس هناك ما يمنع من أن يكون الابن كل هذا بحسب الطبيعة؛ لأن له كل ما للآب، حتى التي يُقال عنها إنها تخصه هو وحده فقط. إنَّ كل ما للآب بحسب الطبيعة، حتماً يكون هو أيضاً **للكلمة** الذي أتى منه.

١٤- ردٌ آخر

إذا كان الآب هو الحياة بحسب الطبيعة، فمثلما يكون، يكون الابن أيضاً. لأنه يقول الحق حين قال: "كل ما للآب هو لي"؟ فإذا كان من غير الممكن للحق أن يكذب، فالابن إذن هو الحياة بحسب الطبيعة مثل الآب أيضاً.

١٥- ردٌ بطريقة أخرى

إذا كان الآب هو الحياة بحسب الطبيعة، دون أن يكون الابن كذلك، بل كان قد اكتسب هذه الخاصية، فكيف كان يقول الحق عندما توجَّه للآب، قائلاً: "كل ما هو لي فهو لك. وما هو لك فهو لي" (يو ١٧: ١٠). لأنه إمَّا أن يكون هو أيضاً الحياة بحسب الطبيعة، التي هي خاصية الآب، أو لا يكون. فإذا كان كل ما له هو ما للآب، ولم يكن الابن - بحسب زعمكم - هو الحياة بحسب الطبيعة، فالآب أيضاً لا يكون هو الحياة بحسب الطبيعة. إذن الابن أيضاً هو الحياة بحسب الطبيعة، لكي لا يصير تماثل الابن بالآب كاذباً.

١٦- ردٌ آخر

بما أن الابن هو ختم[1] جوهر الآب الذي لا مثيل له، فهو إذن يحمل بحسب الطبيعة أيضاً خاصيته، أي أن يكون الحياة، وذلك حتى لا يكون ختم الآب مزيفاً.

---

(١) الحجة هنا تركز على أن الابن هو ختم الآب، وبناء على ذلك هو كامل مثل الآب تماماً، إذ يقول القديس كيرلس في نفس السياق: "وعلى الذين يقاوموننا أن يقولوا لنا: كيف أن الابن هو صورة الآب الكاملة ورسم

١٧- ردٌ آخر

يقول المسيح لتلاميذه: "مَنْ رآني فقد رأى الآب" (يو ١٤: ٩). فإذا كان الآب يظهر في الابن على أنه هو الحياة بحسب الطبيعة، فالابن إذن هو الحياة أيضاً، لكي لا يصير تماثله معه كاذباً.

١٨- ردٌ آخر

يقول المسيح: "مَنْ رآني فقد رأى الآب" (يو ١٤: ٩). فإذا كان قد اكتسب خاصية أن يكون الحياة بالمشاركة، وليس بحسب الجوهر، فالآب أيضاً سيكون على نفس الشاكلة. إذن، فلكي تهرب من هذا القول العبث، يتحتم عليك أن تعترف بأن الابن لم يكتسب الحياة بالمشاركة؛ لأن الابن هو الحياة بحسب الطبيعة.

١٩- ردٌ آخر

طالما يُقال إن الابن هو تماماً ختم جوهر الآب الذي لا مثيل له، وفي ذات الوقت - يقولون - ليس هو الحياة بحسب الطبيعة، لكن لديه هذه الخاصية بطريق الإضافة، عندئذٍ يجب أن نفهم الآب أيضاً بنفس الطريقة. لكن سخافاتهم تقود إلى عكس ما يقولونه طالما الابن هو تماماً ختم الآب.

٢٠- ردٌ آخر

لا يجوز لمن يتصف بالعقل أن ينسب ذات الفعل للأشياء التي تنتمي لطبيعة وجنس مختلف. لأنه لا يمكن للنار أن تعمل مع الماء عملاً واحداً، لكن مثلما ينفصلان من جهة الجوهر والنوعية، هكذا يكون الفعل الناتج عن أحدهما مختلفاً. فإذا كان الآب هو الحياة بحسب الطبيعة، دون أن يكون الابن كذلك بحسب الجوهر أيضاً - كما يعتقد محاربو المسيح - فكيف يكون للابن فعِل الآب نفسه؟ لأن المسيح قال: "كما أن الآب يقيم الأموات ويُحيي، كذلك الابن أيضاً يُحيي مَنْ يشاء" (يو ٢١: ٥). هنا نؤكد على أن

جوهره ومع ذلك ليس له الكمال في طبيعته الإلهية. فحيث إن الابن هو الختم والصورة فهو أيضاً كامل مثل الآب الذي هو صورته". راجع شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ١٥٧.

المعاندين لن يمكنهم أن يقولوا إن الذين يأخذون الحياة من الآب، يحيون بطريقة مختلفة عن أولئك الذين يقبلون الحياة من الابن؛ لأنه قال إن الآب يُحيي بنفس الطريقة التي يُحيي بها الابن أيضاً، موضحاً أنه يمكنه دائماً أن يفعل كما يفعل ذاك الذي ولده، فمثلما قيل عن الآب إنه هو الحياة بحسب الطبيعة، هكذا يكون الابن أيضاً[1].

٢١- ردٌ آخر

لو قبلنا - حقيقةً - الأقوال التي قالها يوحنا، لوجب علينا أن نقبل أن الآب يفعل كل شيء بواسطة الابن (أنظر يو ٣: ٣٥). فإذا كان الأمر على هذا النحو، وكان واحداً من أعمال الآب أن يُحيي البعض، فالابن أيضاً إذن هو الحياة بحسب الطبيعة الذي بواسطته يُحيي الكل.

٢٢- ردٌ آخر

بما أن الوسيط بين الله والبشر وحَّد الطرفين بطريقة طبيعية[2]، فمن الحتمي أن يقال، مثلما اتحد مع البشر بحسب الطبيعة بأن صار إنساناً، هكذا لديه نفس الطبيعة الإلهية، طالما هو الله بحسب الطبيعة. وإذا كان الأمر على هذا النحو، وكان الآب يمتلك خاصية أنه الحياة بحسب الجوهر وليس خارجياً، فهكذا أيضاً يكون الابن المولود منه بحسب الطبيعة.

---

(1) يؤكد القديس كيرلس هذه الحقيقة أثناء شرحه لنص يو٥:٢١، إذ يقول: "مَنْ يعمل بالمساواة من جهة إقامة الموتى، كيف يمكن أن يكون أقل؟ أو كيف يكون من طبيعة أخرى وغريباً عن الآب، وهو الذي يشّع بنفس الخصائص؟ لأن القدرة على الإحياء، التي في الآب كما هي في الابن، هي خاصية للجوهر الإلهي، لكن الآب أيضاً لا يُحيّي بعض الناس منفصلاً ومن ذاته، أو أن الابن يحيّي البعض الآخر منفصلاً ومنعزلاً عن الآب، إذ أن الابن له الآب في ذاته بالطبيعة، والآب يفعل كل شيء ويعمل كل شيء بالابن. لكن طالما أن الآب لديه قوّة الإحياء في طبيعته ذاتها، هكذا الابن نفسه أيضاً، ينسب قوّة إقامة الموتى، وكأنها تخص كلاً منهما على حدة". أنظر شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الخامس ص ٢٦٩.

(2) يبرز القديس كيرلس هذه الحقيقة في سياق مقارنة بين وساطة موسى ووساطة المسيح، إذ يقول: "وساطة موسى كانت وساطة خادم، أما وساطة المسيح فهي حرّة وأكثر سرّية، فهو يمسك بطبيعة الأشياء التي يتوسط بينها، ويجمع بين الاثنين، أعني البشريّة التي هو وسيط لها والله الآب. لأنه هو الله بالطبيعة، الابن الوحيد الجنس من الله، وهو لا ينفصل عن جوهر ذلك، الذي ولده، وهو كائن فيه، كما يُدرك أيضاً أنه من نفس الجوهر. لكنه كان إنساناً أيضاً، لأنه صار جسداً، جاعلاً نفسه مثلنا، حتى أن ما هو بالطبيعة منفصل تماماً عن الله، يمكن أن يرتبط بواسطته بالله". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الخامس ص ٣١٢.

٢٣- ردٌ آخر

تدعو الكتب المقدسة - دائماً - الابن بـــ "الحق"، وأيضاً هو نفسه يقول عن ذاته: "أنا هو الحق" (يو ١٤: ٦)، فإذا كانت خاصية الحياة فيه مكتسبة، ولم تكن جوهرية ولا حقيقية، فكيف لا يَكذِب عندما يقول إنه هو الحق؟ وبما أنه لا يَكذِب؛ لأن هذا هو التجديف بعينه أن يجرؤ أحد على التفكير هكذا؛ لأنه هو الحق بالفعل، بالتالي ليس كذباً أن يقال إنه الحياة.

٢٤- ردٌ آخر

إذا كانت معرفة الآب تُحيي أولئك الذين نالوا هذه المعرفة، وكانت معرفة الابن تُحيي أيضاً بنفس الطريقة، فكيف لا يكون بحسب الجوهر مثل الآب، هذا الذي يُميَّز بكل ما يخص الآب من خصائص، حتى أنه هو والآب واحد؟

٢٥- ردٌ آخر

يقول: "كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الابن أن تكون له حياة في ذاته" (يو ٥: ٢٦)، وقوله هذا يشكِّل - بالنسبة لأولئك الذين لا يريدون أن يفهموا الأمور على شكلها الصحيح - خطراً يقودهم إلى تجديف كبير. لأنه لو قِيل إن الآب له الحياة في ذاته، وكانت هذه الحياة تختلف عن تلك التي هي للابن، لكان معنى هذا أن حياة الابن مركّبة ومزدوجة، فكيف يمكن أن يكون جوهر الله ذاته بسيطاً ومركّباً في ذات الوقت. ولأن هذا غير معقول، إذن فالحياة التي عند الآب لا تختلف عن تلك التي للابن، والحياة التي في الابن[١] لا تختلف عن تلك التي للآب، والابن يقول الحق بقوله: "أنا في الآب والآب فيَّ" (يو ١٤: ١١).

---

(١) يشدد القديس كيرلس على أن الابن هو الحياة من حياة الله الآب، وسبب هزيمة الشيطان فوق الصليب هو أن الابن هو الحياة، إذ يقول: "وإذاً ماذا نقول ؟ "رب واحد بالحق، وإيمان واحد، ومعمودية واحدة" (أف ٤: ٥). لأنه ابن ورب واحد، وليس أن الكلمة اتخذ إنساناً بحسب الاتصال وأعلن انه شريك لكراماته الخاصة، ونقل إليه البنوة والربوبية، كما يقول ويكتب بعض الذين يهذون. ولكن هو الكلمة الذي من الله، النور الذي من النور، الذي تأنس وتجسد. ونحن نعتمد في موت ذاك الذي تألم إنسانياً في جسده الخاص، ولكنه ظل غير متألم إلهياً

٢٦- ردٌ آخر

إن بولس وهو يذكر الخواص الطبيعية والجوهرية التي توجد في الله الآب، يقول: "الذي له وحده عدم الموت" (١ تيمو ٦: ١٦). فلو حدَّد أحدهم عدم الموت على أنه ليس شيء آخر سوى الحياة، وكانت هذه الحياة هي الابن الذي يقول: "أنا هو الحياة" (يو ١٤: ٦)، إذن فالآب فيه الحياة، أي فيه الابن وليس شيئًا آخر.

بنفس الطريقة، الآب هو نفسه حقاً الحياة، وقد أعطى ذاته للابن، لكن دون أن يدخل مثل الجسد في الجسد، ولا كأنه ترك أقنومه للابن، فلا يوجد من الآن فصاعداً إلاَّ فيه. لكن، بينما هو لا يزال على ما هو عليه دائماً، (أي الآب)، يتحد بطريقة لا تُوصف **بالكلمة** الذي أتى منه، إذ هو من نفس جوهر وطبيعة الآب.

٢٧- ردٌ آخر

إن كل ما يوجد في الآب بطريقة طبيعية وجوهرية، إنما يُقصَد به الابن. فالآب يقال عنه إنه هو فقط الإله الحقيقي؛ ذلك لأن الابن يقول: "أنا هو الحق" (يو ١٤:٦).

هو أيضاً الحكمة والقوة؛ ذلك لأن "المسيح هو قوة الله وحكمة الله".

هو فقط الذي قيل عنه إنه "ساكن في نور لا يُدنى منه" (١ تيمو ٦: ١٦)، ذلك لأن لديه ذاك الذي يقول: "أنا هو النور".

هو فقط الذي يُقال عنه إنه "له وحده عدم الموت"؛ ذلك لأن الابن يقول: "أنا هو الحياة".

فبما أن كل خواص الآب، هي الابن، إذن عندما يقول إن الآب لديه الحياة في ذاته، فإنه يقصد الابن وليس أحداً آخر بالقرب منه. وبما أنه يوجد أيضاً في الابن، إذ هو من نفس جوهره، فهو الحياة بحسب الطبيعة.

وحياً على الدوام، لأنه هو الحياة من حياة الله الآب. لذلك، هُزِمَ الذي تجاسر أن يهاجم جسد الحياة، وهكذا أيضاً أُبيد الفساد الذي فينا وضعف سلطان الموت نفسه، ولذلك يقول المسيح: "الحق الحق أقول لكم، إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه، فليس لكم حياة فيكم". رسائل القديس كيرلس، الجزء الرابع، رسالة ٥٥ فقرة ٣٨ ص٤٠.

٢٨- ردٌ آخر

بينما الابن هو الحياة بحسب الطبيعة، يقول إنه أخذها من الآب، ليس بكونه **الكلمة** أو الشعاع[١]، أو لأن لديه بحسب الطبيعة خواص الآب، لكن بسبب أنه صار إنساناً وفيه الكل مُعطى من الله. وهو ذاته يوضح هذا بعد ذلك شارحاً سبب المنح؛ لأنه يقول: "أعطاه سلطاناً أن يدين، لأنه هو ابن الإنسان" (أنظر يو ٥: ٢٢). وطالما يُقال عنه إنه أخذ "سلطاناً أن يدين، لأنه هو ابن الإنسان"، فإن ذلك يعطينا الحق أن نتوسع في الحديث ونقول: لأنه صار ابن الإنسان، وبالتالي شبيهاً بأولئك الذين من طبيعتهم أن يأخذوا كل شيء من الله؛ لأجل هذا يُقال عنه إنه أخذ أيضاً الحياة تاركاً للطبيعة الإلهية البسيطة والواحدة، إمكانية أن تمنح كل شيء للجميع بالمشاركة[٢].

(١) أي قبل التأنس بكونه إلهاً.

(٢) سبق للقديس أثناسيوس الرسولي في شرحه للآيات – التي فيها الآب يعطي للابن السلطان والحياة وكل شيء – أن انطلق من المفهوم السوتيرولوجي، أي الخلاصي طبعاً في إطار التدبير الإلهي، فآدم حين أخذ، فَقَدَ ما أخذه، ولكي تثبت العطايا الإلهية المعطاة للطبيعة البشرية كان لابد أن يأخذها **الكلمة** بكونه إنساناً لكي تُعطى للبشرية بدون أن تُنزع منها، هكذا أكد القديس أثناسيوس على هذه الحقيقة، قائلاً :"لكي تبقى النعمة غير متغيرة وغير قابلة للضياع وتظل محفوظة للبشر بشكل أكيد، فهو يمتلك العطية لنفسه ولهذا يقول إنه أخذ سلطاناً كإنسان، وهو السلطان الذي كان له دائماً كإله". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثالثة، ص ٧٥.

المقالة الخامسة عشر

- في أن تعبير "قناني" أو "خلقني" «ἔκτισε»
لا يصف جوهر الله الكلمة.
- وفي أن الابن ليس مصنوعاً، ولا مخلوقاً شرحاً للآية:
"الرب قناني أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم".
(أمثال ٨: ٢٢).

١- تعليق على الآية

الذين يدعِّمون هرطقة أريوس يجمِّلون تعليمهم - كما يزعمون - بكلام مقنع قائلين إن الابن مخلوقٌ، لكن ليس كواحدٍ من المخلوقات الأخرى. إنه مصنوعٌ، لكن ليس كواحدٍ من المصنوعات. إنه صائرٌ γέννημα ولكن ليس مثل المخلوقات الأخرى .ἄλλα γεννήματα

٢- ردودٌ مختلفة

إن كان الابنُ مخلوقاً، فلماذا هو ليس واحداً من المخلوقات؟ وإن كان الابن مصنوعاً، فلماذا ليس هو واحداً من المصنوعات؟ إنه أمرٌ مضحكٌ كثيراً أن يؤمن أحدٌ بمثل هذا الكلام. حقاً، بما أن الابن لا يُحسب ضمن المصنوعات أو المخلوقات، فلا يمكن أن

يكون مخلوقاً ولا مصنوعاً. وإذا كان قد صُنِعَ أو خُلِقَ، كما تقولون، فلماذا لا يمكن اعتباره مثل واحدٍ من المصنوعات؟[1]

٣- ردٌ آخر

يقولون إن الابنَ مخلوقٌ، لكن ليس مثل واحدٍ من المخلوقات الأخرى. ويعتقدون بالطبع أنهم بهذا يعطون له كرامةً فائقةً؛ لأنهم يعترفون بأنه مخلوق، لكن ليس كواحد من المخلوقات. إلاّ أن قولهم هذا لا يُظهر تفوّق جوهره، بل يظهره كواحدٍ من المخلوقات الأخرى. لأن من يُنسب إليه أنه قد "خُلِقَ"، نؤمن أنه مخلوق، ولا يختلف جوهرياً عن المخلوقات الأخرى في شيء، حتى وإن اختلف عن غيره بحسب الطبيعة المخلوقة، أو بأية طريقة أخرى. لأنه هكذا يرى المرء كل مخلوقات الله مقارناً بعضها البعض. ويجد في مرات كثيرة أن بعضها يتفوّق على البعض الآخر، ويتباينون من جهة طبيعتهم، حتى أنه يمكن لأحد أن يقول عن كل واحدة من تلك أنها مخلوقة، لكن ليست كواحدة من المخلوقات. فالشمس على سبيل المثال هي بالطبع مخلوقة، لكن ليست مثل واحدة من المخلوقات؛ لأنه لا توجد شمسٌ أخرى. نفس الأمر بالنسبة للقمر، والسماء، والنجوم والأرض. كل هذه تعد ضمن المخلوقات، وكل واحدة منها ليست مثل واحدة من المخلوقات الأخرى. العامل المشترك الوحيد لدى هذه المخلوقات هو أنها خُلِقَت، بينما من جهة الشكل والطبيعة، تختلف كل واحدة منها عن الأخرى. بالتالي لا يوجد شيءٌ أكثر في الابن عندما يُقال عنه إنه خُلِقَ، حتى لو كان يوجد فيه شيء أكبر وفائق في مقارنته بالمخلوقات الأخرى؛ لأنه ماذا يعود على الشمس من فائدة إن قلنا إنها مخلوقة، لو كانت حقيقةً تفوق كثيراً النجوم؟ نفس الأمر يسري أيضاً بالنسبة للقوات العاقلة في السماء، إذ بينهم عامل مشترك، هو أنها خُلقِت. بينما من جهة ماذا تكون كل واحدة، فهي تختلف.

---

[1] انطلق - من قبل - القديس أثناسيوس من نفس المنطق حين شرح نفس آية سفر الأمثال في المقالة الثانية ضد الأريوسيين، المرجع السابق، فقرة ١٨ ص ٤٢.

٤- ردٌ آخر

إذا كان الابن - بحسب رأيكم - مخلوقاً، إلاّ أنه يمتلك المقدرة على الخلق؛ لأنه ليس مثل واحدٍ من المخلوقات الأخرى، حتى لو كانت هذه المخلوقات الأخرى خلاّقة هي أيضاً؛ لأن طبيعتها مختلفة، وإن كانت كل واحدة منها بالطبع مخلوقة، لكن ليست مثل أيٍ من المخلوقات الأخرى. لأن واحدة هي السماء، وواحدة هي الشمس، وواحد هو القمر، وواحدة هي طبيعة النجوم، وواحدة هي الأرض، وواحد هو الإنسان، فيما يخص الجوهر، ولكن واحداً منها لا يشترك مع الآخرين من جهة الطبيعة، بل بالرغم من أن عاملاً مشتركاً يجمع الكل، وهو أنها خُلِقَت، لكن ولا واحدة من بين المخلوقات يبدو أنها تخلق، بل بالحري تسجد **لكلمة** الله الخالق، وتكرز بمجد الخالق: "السموات تحدث بمجد الله. والفلك يخبر بعمل يديه" (مز ٩: ١). وكما يقول عزرا: "كل الأرض تدعو الحق، السماء تسجد له وكل الأعمال تضطرب وترتعب أمامه" (عزرا ٤: ٣٦). بينما الابن يقول عن ذاته: "أنا هو الحق" (يو ١٤: ٦). بالتالي ليس مخلوقاً ولا مصنوعاً هذا الذي يمكنه أن يخلق؛ لأنه ليس مثل واحد من المخلوقات، لكنه نتاجٌ خاصٌ لجوهر الآب، وهو يُظهره كأنه في ذاته[١]، لأجل هذا نجد عنده أيضاً المقدرة على الخلق مثل الآب.

٥- ردٌ آخر

إذا كان الابنُ مخلوقاً، ولكن يُسجَد له من كل المخلوقات الأخرى؛ لأنه مختلفٌ عنها، وليس مثل واحدٍ منها، لَكان يجب أن يُسجد أيضاً لتلك المخلوقات؛ لأن طبيعتها مختلفة فيما بينها، إذ يوجد اختلاف كبير بين المخلوقات وبعضها، بحيث يمكن للمرء أن يرى كل واحدة في طبيعة خاصة، وليست مثل الأخرى في النوعية. لكن ولا واحدة منها يُسجَد لها، ولكن الكل يَسجُد **لكلمة** الله الخالق[٢]. إذن الابن ليس واحداً من هذه المخلوقات، ولا هو مصنوع كما تقولون. بناءً على ذلك، هل يمكن أن يُحسب المسجود

---

(١) كما قال الرب يسوع المسيح "أنا في الآب والآب فيّ" (يو ١٤: ١١).

(٢) الكل يسجد للابن بكونه **الكلمة** المتجسد، وهذا يتطلب منا إدراك الاتحاد الذي تم بين اللاهوت والناسوت، الذي صار بغير اختلاط أو امتزاج أو تغيير، وهذا ما أكده القديس كيرلس في رسالته رقم ١٧ وهي الرسالة الثالثة لنسطور، فقرة ٨، ٩.

له، بين المخلوقات الساجدة، والممجَّد بين الذين يمجِّدونه؟ المسافة بينهما شاسعة، والاختلاف بين المخلوق والخالق يحدِّد بوضوح ما الذي يتناسب مع كل واحد.

٦- ردٌ آخر

إن كان الابن مخلوقاً، وكان الآب يفعل كل شيء بواسطته، إذن كان على الابن أن يخلق نفسه ويصنع ذاته[١]. لكن تفكيراً من هذا النوع، لهو من الأمور غير المعقولة. لأنه كيف يمكن لهذا الذي - وفق آرائكم – هو غير موجود، أن يخلق ذاته؟ بالتالي ليس هو مخلوق، ولا مصنوع، بل بالحري هو ثمرة جوهر الآب، وبكونه الله لديه إمكانية أن يصنع وأن يخلق.

٧- ردٌ آخر

إن كان الابن مخلوقاً، فكيف يمكن أن توجد فيه القدرة على الخلق، وأن يُحضِر المخلوقات إلى الوجود من العدم؟

فحتى لو افترضنا جدلاً أن هناك طبيعة مخلوقة يمكن أن تُحضِر إلى الوجود مخلوقات من العدم، عندئذٍ يمكن لمخلوقات أخرى أن تكون لديها إمكانية الخلق حتى لو بدا أنها لم تحقق هذا عملياً. فعلى سبيل المثال لو افترضنا أن الولد الذي ما يزال صغير السن، يمكنه أن يأتي بنسل في سن الرجولة، إلاَّ أنه الآن لا يحدث هذا الأمر لأنه مازال طفلاً بعد. فهذا الذي لديه بحسب طبيعته شيءٌ ما، لا يمكن أن يُقال إنه ليس لديه، حتى ولو لم يظهر بعد؛ لأن الفعل الطبيعي يختفي في الحاضر لسببٍ ما، أو بسبب الزمن. وبالتالي يمكننا القول إن المخلوقات الأخرى هي خلاقةٌ أيضاً وبالتالي لا يوجد في الله شيءٌ أكثر.

لكن هذا غير معقول؛ لأن أحداً من المخلوقات ليس لديه القدرة على الخلق. إذن، فالابنُ الذي الكل صار بواسطته، ليس مخلوقاً، حتى لا يبدو هو ذاته يَخلِق ويُخلَق، يصنع ويُصنع، لكنه بالحري هو الله الذي أتى من الله الآب.

---

(١) نفس الحجة نجدها عند القديس أثناسيوس، ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، المرجع السابق، فقرة٢١ ص ٤٦.

٨- ردٌ آخر، مرتبطٌ بفكرٍ آخر

إن كان الابنُ مخلوقاً، فلماذا هو فقط الذي يعلن الآب، بينما المخلوقات الأخرى لا يمكنها ذلك؟ ولماذا الابن فقط هو مَنْ يعرف الآب، بينما المخلوقات الأخرى لا تعرف مَنْ هو كائن؟ لأنه يقول: "وليس أحد يعرف الابن إلاَّ الآب. ولا أحد يعرف الآب إلاَّ الابن ومن أراد الابن أن يعلن له" (مت ١١: ٢٧).

وكيف يرى الابنُ فقط الله، بينما لا يراه على الإطلاق أحدٌ آخر، كما يقول الإنجيلي (أنظر يو ١: ١٨)؟ لأنه مكتوب إن أحداً لم يرَ الآب أبداً، إلاَّ فقط هذا الذي أتى من الآب (أنظر يو ٦: ٤٦).

إذن، فإذا كان الابن فقط هو الذي يرى ويعرف الآب ويعلنه، فهو ليس مخلوقاً، بل هو ذاته **كلمته** الذي يعرف ما يكونه الآب، إذ يُظهر في ذاته الآب الذي ولده، بينما المخلوقات الأخرى لا يمكنها ذلك. لأن التماثل (بحسب الجوهر) مع الخالق ليس موجودًا في المخلوقات، ولا غير المولود نجده في الموجودات التي قد صارت، ولا يظهر أيضاً غير المتغيِّر الأزلي في هذه الموجودات التي أتت إلى الوجود من العدم، لكن فقط يُعلَن في الابن؛ لأنه هو صورته التي لا نظير لها[1]. إذن، فهو واحدٌ مع الآب من جهة الجوهر، وليس مخلوقاً ولا مصنوعاً؛ لأن الآب ليس فيه هيئة أيٍ من هذه الموجودات المخلوقة.

---

(١) لقد برهن — من قبل - القديس أثناسيوس على أن الابن مختلف جوهرياً عن المخلوقات لأنه هو الوحيد الذي يعرف الآب ويراه، إذ يقول: "لأنه إن كان ممكناً له أن يعرف الآب بالرغم من كونه مخلوقاً، فإن جميع المخلوقات أيضاً إذن يمكنها أن تعرف الآب، بحسب قياس المخلوقات، لأن جميع المخلوقات أيضاً مصنوعة مثله. وإن كان من غير الممكن للمخلوقات أن ترى الآب وتعرفه لأن هذه الرؤية وهذه المعرفة تعلو على مستوى جميع المخلوقات، فالله نفسه قد قال: "لا أحد يرى وجهي ويعيش". أما الابن فقال: "ليس أحد يعرف الآب إلاّ الابن". إذن فإن الكلمة مختلف عن المخلوقات، وهو وحده الذي يعرف الآب ويراه كما قال: "ليس أحد قد رأى الآب إلاّ الذي هو من الآب"، وأيضاً "ليس أحد يعرف الآب إلاّ الابن". وإن كان هذا لا يروق لآريوس، فكيف إذن عرفه (أي عرف الآب) هو وحده إن لم يكن هو نفسه من ذات الآب؟ وكيف يمكن أن يكون من ذات الآب لو كان مخلوقاً ولم يكن ابناً حقيقياً منه؟ لأنه يجب ألاّ نَمل من تكرار نفس الأقوال المتعلقة بالتقوى مراراً. ولذلك فإنه يعدّ تجديفاً أن يعتقد أحد بأن الابن هو واحد من بين جميع المخلوقات". ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، المرجع السابق، فقرة ٢٢ ص ٤٩ - ٥٠.

٩- براهين من الكتاب المقدس، على أن أحداً من المخلوقات لا يُسجد له بكونه إلهاً، ولا يجوز أن يُسجد له أو يُمجّد[١]

لقد منع بطرس الطوباوي كرنيليوس الذي سجد له، قائلاً: "قُم أنا أيضاً إنسان" (أع ١: ٢٦). والملاك منع يوحنا من أن يسجد له في رؤياه، قائلاً: "أنظر لا تفعل. أنا عبد معك ومع أخوتك الذين عندهم شهادة يسوع. اسجد لله. فإن شهادة يسوع هي روح النبوة" (رؤ ١٩: ١٠). والملاك منع منوح أبي شمشون، قائلاً: "وإن عملت محرقة، فللرب اصعدها" (قضاه ٣: ١٦). أما عن الابن، مكتوب: "اسجدوا له يا جميع الآلهة" (مز ٩٧: ٧). وفي سفر أشعياء، مكتوب: "ولك يسجدون، إليك يتضرعون قائلين فيك وحدك الله وليس آخر. ليس إله" (أش ٤٥: ١٤). وبالتأكيد نفس الأقوال قيلت للأمم وعرفوا الله وسجدوا له كإله، إذن فهو ليس مخلوقاً، لكي لا يَعبُد الأمم أيضاً مخلوقاً، بل الخالق.

١٠- ردٌ آخر

يقول المسيح لتلاميذه: "أنتم تدعونني معلّماً وسيداً وحسناً تقولون لأني أنا كذلك" (يو ١٣: ١٣). ثم بعد ذلك يقول له توما: "ربي وإلهي" (يو ٢٠: ٢٨). ولم يمنع التلميذ الذي قال هذه الأقوال، وكذلك فعل الملائكة القديسين. والمرتل يقول: "كرسيُّك يا الله إلى دهر الدهور" (مز ٤٥: ٧). إذن، فإن كان الابن مخلوقاً، لَمَا سجدوا له، ولا دعُوهُ رباً، ولا كانوا يتحمّلون سماع أحد يقول: "أنت إلهي". لكن؛ لأن هذه (الأقوال) تعبِّر عن الخصائص الإلهية الطبيعية للابن إذ له كل ما للآب، كابنٍ ومولودٍ أصيلٍ له، لهذا فهو يقبل هؤلاء الذين يعترفون بهذه الحقيقة، لأنهم يعترفون بالحق.

١١- معارضة من تعاليم أريوس الذي يسوق مبرراً على أن الابن خُلق، والإجابة بأفكار مقنعة

يقولون إن إله الكل أراد أن يخلق المخلوقات، ولأن هذه لا يمكنها أن تحوي قوته الفائقة، خلق أولاً الابن الذي دعاه **الكلمة** بهدف أن تُخلق المخلوقات الأخرى بواسطته،

---

(١) نفس السياق نجده عند القديس أثناسيوس الرسولي، ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، فقرة٢٣، ص٥١.

أي تلك المخلوقات التي لم يكن في إمكانها أن تحوي قوته. على الجانب الآخر كان من غير المعقول أن تترل قوة الله غير الموصوفة إلى ما هو أدنى (يقصد خلق المخلوقات)، وأن تنشغل بأمور صغيرة جداً.

١٢- الرد

إذا كانت قوة الله الفائقة لا تحتملها طبيعة المخلوقات، فكيف تحمَّلها الابن، طالما كان هو أيضاً - بحسب رأيكم – مخلوقاً، أي مخلوق من العدم؟ وكيف تحمّل فعل الآب الفائق (حين خلقه)، إذا كان مخلوقاً، كما يقولون؟ لأنه إن كان الابن قد استطاع أن يتحمل هذا الأمر، فيمكن للخليقة أيضاً أن تتحمله، أمَّا إذا لم تقوَ الخليقة على ذلك، لَمَا كان ذلك في استطاعته هو أيضاً؛ لأنه مخلوق بحسب الطبيعة.

وإذا كان الابن يمكن أن يتحمّل قوة الله الآب للخلق، باعتباره مخلوقاً كما تقولون، فإن المخلوقات الأخرى تتحملها أيضاً، وبالتالي لا لزوم لأن يُخلق الابن لكي تُخلق مخلوقات أخرى، وبالتالي لا داعٍ لجدلٍ مهين، حتى وإن كان هذا الجدل يقدِّم الابن على أنه أعظم من المخلوقات الأخرى[1]؛ لأهم بمثل هذه الأقوال يهينون خالق الطبيعة المخلوقة - حتى ولو ظهر أعظم من الآخرين بمقاييس فائقة - لأهم يحسبونه من بين المخلوقات.

وإذا كان من غير المعقول - كما يقولون - أن تترل قوة الله غير الموصوفة إلى الأدنى (بخلق المخلوقات)، ليتهم يخجلون عندما يسمعون المسيح يقول: "أليس عصفوران يباعان بفلس وواحد منهما لا يسقط على الأرض بدون أبيكم. وأما أنتم فحتى شعور رؤوسكم جميعها محصاه" (مت ١٠: ٢٩ – ٣٠). وأيضاً: "انظروا إلى طيور السماء أنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن. وأبوكم السماوي يقوتها" (مت ٦: ٢٦). وكذلك: "فإن كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم ويُطرح غداً في التنور يلبسه الله هكذا أفليس بالحري جداً يلبسكم أنتم يا قليلي الإيمان" (مت٦: ٣٠).

---

(١) سبق أن رد القديس أثناسيوس على هذا الإدعاء مؤكداً على أن الكتب المقدسة لا تخبرنا أن الابن هو مجرد أعظم من المخلوقات، إذ يقول: "كان يجب أن يقال (في الكتب المقدسة) إنه أعظم من رؤساء الملائكة، إنه أكثر كرامة من العروش، أو أكثر بهاءً من الشمس والقمر، وأعظم أيضاً من السموات. ولكن الواقع أن الكتب المقدسة لا تذكرة هكذا، بل إن الآب يُظهره أنه ابنة الذاتي والوحيد". ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، فقرة ٢٣، ص ٥٠.

ما الذي يمكن أن يكون أرخص من العشب والعصافير، لكن الله - من صلاحه - يعتني بهم. ولكنهم لا يقبلون أن يصير خالقاً من لا يتوقف عن أن يعتني بهذه المخلوقات البسيطة؛ لأن هؤلاء - عن جهلٍ - ينسبون هكذا الأنانية لله، قائلين إنه لا يقبل أن يصير خالقاً للأشياء الزهيدة.

ولكن بما أنه هو خالق الكل، ويترل إلى الأشياء الدُنيا محتوياً الكل بسبب محبته للبشر، فلا يلزمنا رأي الهراطقة الذين يقولون إن ولادة الابن صارت لخلق المخلوقات التي هي في المرتبة الأدنى.

١٣- ردودٌ أخرى على التفسير الخاطئ لآية "الرب قناني" (أم ٨: ٢٢)، بأن الابن ليس مخلوقاً

بحسب رأيكم يا محاربي الله، لو أن طبيعة المخلوقات لم تستطِع أن تتحمل فعل الله الشخصي الفائق، ونشأ احتياج للوسيط، ولذلك خَلَقَ الآبُ الابنَ، فكيف يمكن للابن، وهو مخلوقٌ أن يتحمّل قوّة الآب؟ في هذه الحالة يتحتم أن يكون له وسيط. ولو كان هذا الوسيط مخلوقاً، ألم يكن يحتاج إلى وسيطٍ أيضاً؟ هكذا يمكن أن نصل إلى جمع لا يحصى من الوسطاء[1].

يتضح من ذلك أن الجدل في هذا الأمر بلا طائل، ويقلب كل نظام الخليقة. لأنه لو لم يُوجد، أو بالحري لو لم يطلبون وسيطاً، لَمَا كانت هناك مخلوقات.

١٤- ردٌ آخر

إن مستقيمي الرأي يقولون، إذا كان الابن مخلوقاً، فكيف له أن يكون خالقاً بالطبيعة؟ لأن هذا ليس من خاصية المخلوقات.

على أن الهراطقة يعترضون على هذا، ويجيبون كالآتي:

(١) سبق أن استخدم القديس أثناسيوس نفس الحجة، أنظر ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، المرجع السابق، ص٥٦.

١٥- رد الهراطقة

يقولون إن الابن مخلوقٌ، وهو واحدٌ من المخلوقات، أمَّا القدرة على الخلق، فقد تعلّمها كما من معلّم أو تقني، وقد خدم بها الله الذي علّمه، عند الحاجة لصنع أعماله[١].

١٦- الإجابة

إذا ظهرت خاصية مؤقتة في حياة شخصٍ ما لا تنتسب إلى طبيعته، وكان قد اكتسبها بطريقة ما، فهذه الخاصية يمكن أن تتلاشى، وذلك بحسب طبيعة الأشياء المؤقتة، وعلى ذلك لا بُد وأن يتوقف الابن - في وقت ما - عن أن يكون خالقاً، عندئذٍ يفقد الابن وضعه المكتَسَب كخالق. لأن الذي اكتسب المعرفة بعد حالة من الجهل التام، يمكن في وقتٍ ما أن ينسى تماماً كل ما تعلّمه.

١٧- ردٌ آخر

إن مسألة إحضار المخلوقات من العدم إلى الوجود، ليست عملاً فنياً تقنياً، بل هو عمل قوّة خلاّقة. لأن التقنية يمكنها أن تغيِّر الكائنات إلى شيء مختلف، بينما القوّة الخلاّقة هي التي يمكنها أن تُحضِر الكائنات من العدم إلى الوجود[٢]. وإذا كان الابن خالقاً بواسطة التقنية والتعلّم، فَليتَهُم ينتبهون إلى ما يتوجّب عليهم أن يقولوه عن الآب إن هو صَنَعَ تلك الأشياء التي ينسبها لذاته. لأنه إذا كان الآب لديه هذه الخاصية بحسب الطبيعة، بينما الابن

---

(١) لقد أخبرنا – من قبل – القديس أثناسيوس على أن أحد الهراطقة ويدعى أستريوس الكبادوكي (ق ٣ - ٤) كان ينادي بأن الابن مخلوق ومعدود بين المخلوقات، وقد تعلم فن الخلق كما من معلم وفني. وقد واجه القديس أثناسيوس هذا الإدعاء الكاذب قائلاً: "لأنه إن كان الخلق شيء يمكن أن يُكتسب بالتعليم، فليحذروا أيضاً لئلا يقولوا عن الله نفسه أنه ليس خالقاً بالطبيعة بل بالتعليم، فتكون النتيجة أنه يمكن أن يفقد خاصيته كخالق. وعلى ذلك فلو حصل حكمة الله على الخلق بالتعليم، فكيف يكون حكمة إن كان لا يزال في حاجة إلى دروس؟ وماذا كان حاله قبل التعلم؟ فإن كان ينقصه التعليم فإنه لا يكون حكمة ". أنظر ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، المرجع السابق، فقرة ٢٩ ص٦٠.

(٢) هنا نستطيع أن نرى الفرق بين فعل الخلق الخاص بالله وحده - الثالوث القدوس، وهو إحضار الكائنات إلى الوجود من العدم، وبين التقدم التكنولوجي والعلمي الذي يعكس إمكانيات الإنسان العظيمة. فالله بكونه خالق أوجد الكائنات من العدم، أما الإنسان فإنه يعمل شرط وجود مادة مسبقة. ففعل الإبداع عند الإنسان يتم على شيء بالفعل موجود.

يملكها بالتعلّم، إذن يمكن أن يصنع شخصٌ ما عن طريق التعلّم ما يفعله الله بالطبيعة، وطالما اكتسبه، عندئذٍ يمكنه أن يخلق، وتكون لهذه المخلوقات القدرة على الخلق مثلما هي عند الله بالطبيعة، وبالتالي لا يكون هناك أيُ اختلاف بين الله والمخلوقات، اللهم إلاَّ فقط المعرفة الزائدة، أمَّا بحسب الطبيعة فلا نختلف، بل نختلف عنه من جهة المعرفة فقط، والتي لو أُضيفت إلينا أيضاً لَصِرنا كلنا بحسب الطبيعة آلهة. فكيف يكون هناك إلهٌ واحدٌ، لو صرنا نحن أيضاً آلهة؟ هكذا طالما هناك هذيان كبير في أفكارهم، إذن فالابن خالق بالطبيعة وليس عن طريق التعلّم.

١٨- ردٌ آخر

الحكمةُ شيء، والحكيم شيء آخر. الحكمة هي الأمر الذي بمقتضاه يتصرّف الحكيم، بينما الحكيم هو ذاك الذي اقتبل مصدر الحكمة. فإذا كان الابن يقول عن ذاته إنه هو الحكمة، فكيف كان يتعلّم الحكمة. ولو كان الابن محتاجاً للتعلُّم لَدَلَّ ذلك على أنه لم يكن حكمةً. ولو كان قد دُعي - في وقت ما - بأنه حكيمٌ، لكان ذلك يعني أنه - في وقتٍ ما - لم يكن حكيماً، طالما يمكنه أن يفقد ما كان قد اكتسبه. وإذا انتفت الحكمة - في وقت ما - وغاب التعقّل، فماذا إذن كان الابن قبل هذا؟ غير أن الابن كان دائماً حكمة؛ لأن هذا هو ما كرزت به الكتب المقدسة، وهو ما يعني أنكم تكذبون، وتفصحون عن جهلكم حين تقولون إنه بالتعليم اكتسب شيئاً.

١٩- ردٌ آخر

لو أن القوّة الخلاَّقة يمكن أن تُكتسب بالتعليم، وقد صار الابن خالقاً بهذه الطريقة، لَكان معنى ذلك أنهم ينسبون مرض الغيرة والحسد إلى الآب[1]؛ لأنه بينما كان يمكن أن يتعلم كثيرون، علَّم واحداً فقط. لأنه ما الذي يضايق الآب إذا كان لديه كثيرٌ من الخالقين حوله، مثلما لديه كثير من رؤساء الملائكة والملائكة؟ أمَّا إذا لم يكن غير الابن فقط هو من

(١) نفس الحُجة نجدها عند القديس أثناسيوس، أنظر ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، فقرة ٢٩ ص٦٠.

يعمل أعمال الآب، فقوته الخلاّقة لا تكون مكتسبةً بالتعليم، بل طبيعية. وهذا يدل على أن الله أسمى من الحسد، بما أنه لم يعلّم أحداً، بل وَلَدَ من ذاته خالقاً، وبواسطته خَلِقَ الكل.

٢٠- ردّ آخر

لو كان الآب قد صنع الابن لكي يُصيّره خالقاً للطبيعة المخلوقة - وفقاً لرأيكم - لكان عليه أن يتوقف عن العمل من اللحظة التي أتم فيها الابنُ الخلقَ. وإذا كان الأمر على هذا النحو، فكيف يعمل أيضاً الابن؛ لأن المخلّص ذاته يقول: "أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل" (يو ٥: ١٧). وكيف يتفق أن يكون الابن لا لزوم له - وفقاً لرأيكم - إذا كان الآب ما زال يعمل؟ من غير المعقول أن تؤمنوا وتقولوا خلاف ما قاله المخلّص. وبالتالي يتضح لنا أن الابن لم يَصِر بهدف أن يكون مخلوقاً، بل لكي يصير خالق الكل، وبما أنه أتى من جوهر الآب غير الموصوف، بكونه ابناً، يصنع كل أعمال الآب، فتلك هي مكانته بحسب الطبيعة، أي كونه إلهاً، وبسبب هذا هو أيضاً خالق.

٢١- ردّ آخر

يقولون إن الكتاب المقدس لم يذكر أن أحداً قاوم الإرادة الإلهية، بل يكفي لهذه الإرادة أن تخلق الكُل؛ لأنها حين تريد شيئاً، يصير مباشرةً للتو، كما يقول المرنم: "كل ما أراده صنعه" (مز ١١٤: ٣٠). إذن ما حاجته لوسيط؟ إذن الابن كان لا لزوم له. من غير المعقول أن يقول أحدٌ هذا القول. بناء على ذلك فإن الابن هو إرادة الآب الجوهرية والحيَّة، والتي بواسطتها أحضر الكل إلى الوجود، فكيف يستقيم أن نتساءل عن كيف خُلقِت هذه الإرادة، في الوقت الذي فيه نؤكد على أنها لم تكن من تلك المخلوقات؟

٢٢- ردّ آخر

عندما يقولون إن الابن خُلِقَ لأجل أن يخلقنا الله بواسطته، لَيتَهُم يدركون مدى التجديف الذي ينطوي عليه قولوهم هذا: فهذا القول يعني أن الابن صار لأجلنا، وليس نحن الذين صرنا لأجله[1]. وإذا كنا نحن خليقته، وكان هو وسيط الخلق، لتوجَّب عليه أن

(1) نفس السياق نجده عند القديس أثناسيوس الرسولي، أنظر ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، فقرة ٣٠، ص ٦١.

يكون مديناً لنا بالفضل؛ لأنه أتى للوجود بسببنا، بل ويمكن أن نعتبره مجدٌ خاص بنا على غرار ما تكون المرأة لرجلها؛ لأنه يقول: "أما المرأة فهي مجد الرجل" (١ كو ١١: ٧). ويبرر هذا، قائلاً: "لأن الرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل. ولأن الرجل لم يُخلق من أجل المرأة بل المرأة من أجل الرجل" (١ كو٧:١١ - ٩). إذن، طالما أن الابن صار بسببنا، وليس نحن بسببه، فنحن على أية حال أكثر كمالاً منه، مثله في ذلك مثل آدم بالنسبة للمرأة التي صارت لأجله. لكن لا يخفى سُخف هذا الأمر وعدم معقوليته. إذن الابن ليس مخلوقاً، ولا صار بسببنا، لكن بينما كان الله، مثل الآب، بقوته أحضرنا أيضاً إلى الوجود.

٢٣- ردٌ آخر

لو أن الابن صار بسببنا، كما يقول أولئك، فهو إذن ليس الأول من جهة القُرب من الله. لأنه لم يكن **كلمة** الله الأزلي، ولكنه صنعه بسببنا، وهو ما يعني أنه فكَّر فيما يخصنا أولاً، ومن ثمَّ صنع ذاك بسببنا.

٢٤- ردٌ آخر

إذا كان الآب قد خلق الابن بسببنا، فهو إذن لم يخلقه بإرادته، ولكن عن احتياج بسببنا، وهو ما يعني أن الابن ما كان ليوجد لو لم يكن الآب يريد وجودنا، أو وجود الابن. لكن الآب - وفقاً لأولئك - صنع الابنَ مباشرةً عندما دعت الحاجة إليه. الأمر الذي يعني أن الله أوجده تحت ضغط الحاجة. وواضح أن هذا الرأي سخيف وغير معقول وبعيد تماماً عن الحق[١].

٢٥- ردٌ آخر

لو كان الآب قد خلق الابن بسببنا، لَمَا كان هناك ضرورة لوجوده، بالأخص، بعد أن أنجز الابن العمل الذي بسببه خُلِقَ، وهو ما يعني أن الابن لا لزوم له، طالما أن الضرورة هي التي حتَّمت استخدامه كأداة استوجبت وجوده.

---

(١) هذه هي النتائج العبثية التي هي، كما يقول القديس أثناسيوس: "إفرازات المراطقة وتقيؤاقم" ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، المرجع السابق، فقرة ٣٠ ص ٦٣.

٢٦- آراء أخرى

القول إن الآب خلق الابن لأجلنا، يعني أننا كُنّا في فكر الآب أولاً، فإذا كان الأمر على هذا النحو، فلماذا إذن خلق الآبُ قبلنا مَن احتل في فكره المركز الأخير؟ ولماذا لم يتخذ قراراً بخصوصه أولاً بما أنه خلقه أولاً؟ وإذا كُنّا نحن في فكر الآب أولاً، فلماذا دُعي ذاك ابناً ووارثاً، بينما نحن عبيد وورثة ذاك الذي صار لأجلنا؟ لأنه على نقيض ذلك، كان ينبغي أن نكون نحن أولاداً ووارثين، بينما أداة خلقِنا - الذي صار من أجلنا - يكون عبداً وخاضعاً لنا[١]. حاشا. ليتنا نفر هاربين بعيداً عن هذا الفكر غير المعقول.

٢٧- عرضٌ للإيمان المستقيم

لم يَصِرِ الابنُ لأجلنا، بل لم يَصِرِ الابنُ أصلاً[٢]؛ لأن خلق المخلوقات لم يكن بديلاً عن الابن في فكر الآب، بل كما هو مكتوب: "الكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله" (يو ١: ١). بمعني أن كل المخلوقات كان ينبغي أن تصير بواسطته. لأنه، إذا لم يكن للنور أن ينير بطريقةٍ أخرى، إلاَّ فقط بواسطة شعاعه الخاص، هكذا الأمر بالنسبة للآب أيضاً، فهو لا يخلق أيّاً من الكائنات، إلاَّ فقط بواسطة **كلمته**؛ لأنه يقول: "كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان" (يو ١: ١). لأجل هذا دُعي الابنُ أيضاً: "يمين وقبضة الله. لأن كل ما صنعه، صنعه بواسطته، كأنه يده[٣].

---

(١) لاحظ هنا الردود المنطقية التي استخدمها القديس كيرلس ومن قبلة القديس أثناسيوس للرد على الهراطقة، وسبب استخدامهم لهذه الردود المنطقية هو تقديرهم الشديد للمنطق الإنساني – وهو واضح في تعليم المسيح – وضعف إيمان محاوريهم، فالإيمان يسمو فوق المنطقية وليس ضداً لها، وطالما أن محاوريهم يفتقرون للإيمان فقد اضطروا لاستخدام المنطق الإنساني. أنظر "المسيح المعلم"، د. جورج عوض إبراهيم، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، مايو٢٠٠٧، ص ٣٤ – ٤٥.

(٢) لأن الابن "غير صائر"؛ لأنه "غير مخلوق"، إذ أنه هو الله الخالق.

(٣) بحسب صياغة القديس أثناسيوس: "لأنه مثلما ينير النور كل شيء بأشعته وبدون إشعاعه ما كان شيء قد أضاء، هكذا أيضاً فإن الله قد خلق كل شيء **بالكلمة** كما بواسطة يد، وبدونه لم يخلق شيئاً" ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، فقرة ٣١ ص٦٤. والجدير بالذكر أن أول من شبَّه الابن باليد هو القديس ايرينئوس، إذ قال: "أما الإنسان فقد خلقه بيديه". القديس إيرينئوس، الكرازة الرسولية، ترجمة ومقدمة وتعليقات د. نصحي عبد الشهيد، و د. جورج عوض إبراهيم، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، طبعة ثانية، فبراير ٢٠٠٩، ص ٧٦.

٢٨- تعليقٌ مفيد من الكتاب المقدس

قال الله ليكن نور. ليكن جلد. لتكن أنوار. وهكذا - بنفس الطريقة - صارت كل المخلوقات. قال الله لنعمل الإنسان، وصنع الله الإنسان (انظر تك ١، يو ١: ١ وما بعده). لكن في كل هذه لا يبدو أن الابن طرح سؤالاً ينم عن أنه يريد أن يعرف السبب الذي استوجب صيرورة الكائنات التي خُلِقَت. لكن قول الله تحقق مباشرةً، لأنه إذ قال فصار وفقاً لِما أراد، بالتالي **الكلمة** هو إرادة الآب، إرادة الآب الحيّة والجوهرية، والتي هي ذاتها في الآب وهو فيها.

٢٩- تعليق آخر نتعلم منه أن الملائكة والأنبياء القديسين اعتادوا أن يسألوا الله حين يجهلون ما أُمروا به، لكن كلمة الله لا يفعل هكذا.

حين وعد الله ابرآم بأنه سوف يمنح له ابناً، ذاك قال: "بماذا أعلم" (تك ١٥: ٨). وعندما أُرسِل موسى إلى بني إسرائيل سأل قائلاً: "فإذ قالوا لي ما أسمه فماذا أقول لهم" (خر ٣: ١٣). وأيضاً الملاك الذي ذُكِر في سفر زكريا سأل الله، قائلاً: "يا رب الجنود إلى متى أنت لا ترحم أورشليم" (زكر ١: ١٢). وأنتظر أيضاً حتى يسمع أقوالاً حسنةً وتعزيات. حبقوق يقول: "علي مرصدي أقف وعلي الحصن انتصب وأراقب ماذا يقول لي وماذا أجيب عن شكواي" (حبقوق ٢: ١).

هذه المخلوقات - كعبيد - في احتياج لتوسط **الكلمة** يسألون منه أن يعلموا إرادة الآب. لكن الابن لا يطلب أن يعلم؛ لأنه هو **كلمة** الآب، وإرادة جوهره[١]. بالتالي لم يكتسب بالتعلم خاصية الخلق، بل بحسب جوهره وطبيعته هو خالق.

٣٠- الفهم السلبي للآية

إن الابن ليس مخلوقاً، بل أزليٌ مع الآب: "الرب قناني (خلقني) أول طرقه من قبل أعماله منذ القِدم" (أم ٨: ٢٢).

---

(١) وبحسب تعبير القديس أثناسيوس: "لأن **كلمة** الله خالق وصانع وهو نفسه مشيئة الآب....ما رآه الله حسناً وأراده، فعله **الكلمة** في الحال". ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، المرجع السابق، فقرة ٣١ ص ٦٥.

أولاً، يجب أن نقول الآتي: يجب أن ندرك ذهنياً ما يعنيه كل ما قيل بأمثلةٍ؛ لأنها لا تُفسَّر حرفياً، ومن هنا أهميتها الخاصة. لقد قال المخلّص – على سبيل المثال – لتلاميذه: "قد كلمتكم بأمثال (ولكن) تأتي ساعة حين لا أكلمكم أيضاً بأمثال بل أخبركم عن الآب علانية" (يو ١٦: ٢٥)؛ لأن الكلام بالمثل لا يكون واضحاً[١].

حسناً. الحكمة وهي تقول: "الرب قناني (خلقني)" تستخدم أيضاً أقوالاً من الأمثال "الحكمة بنت بيتاً لذاتها" (أم ٤: ١). فإذا كانت الحكمة، وهي بالطبع كلمة الله، تبني بيتاً لذاتها[٢]، وكان ذلك مثلاً من الأمثال، فعلى ذات النحو، يجب أن نفسِّر ما هو المقصود بعبارة: "قناني".

حسناً. الذي يقول هذا هو المسيح الذي بالفعل وُلِدِ وصار إنساناً. إذن، فعبارة "قناني" تُستخدم دون أن يعني ذلك تحديفٌ ما، طالما بالفعل قد تجسد وصار إنساناً. وهو بيت الحكمة، الذي بُني بواسطتها، جسدها، الذي وُلِدِ من العذراء القديسة، والذي سكن فيه ملء اللاهوت جسدياً (أنظر كو ٢: ٩)، وفق أقوال بولس. وعلى ذلك، فلأن **الكلمة** صار جسداً، يقول الكتاب المقدس عنه: "قناني"؛ لأنه صار جسداً، وهكذا يجب أن نفهم هذا الذي قيل.

٣١- ردٌ آخر

إن مجرد عبارة "قناني" لا تعلن - بالتأكيد – عن الجوهر، لكنها فقط تدل على الانتقال من وضعٍ إلى آخر، ويمكن أن تُستخدم عبارة "قناني" - إذا أردت - على المسيح بغير تحديد.

---

(١) لقد سبق ونصحنا القديس أثناسيوس الرسولي أن نقرأ جيداً النص، وينبغي أن نتقصى أولاً عن الشخص الذي ننسب إلية المعنى بورعٍ وتقوى، إذ يقول: "فإن كان المكتوب يشير إلى ملاك أو أي كائن آخر من المخلوقات، كما لو قيل عن أي واحد منا نحن المصنوعون. فإنه يمكن أن يُقال "قناني" ولكن إن كان الكلام عن حكمة الله الذي به قد خُلقت جميع المخلوقات، فما الذي يجب أن يفهمه الواحد منا سوى أنه عندما يُقال "قناني"، فإنه لا يقصد شيء آخر مُضاد للفظ "وَلَدَ". ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، المرجع السابق، فقرة ٤٤ ص ٨٧ – ٨٨.

(٢) هنا الكلام إشارة إلى تجسد **الكلمة** كما سبق وأن شرح لنا القديس أثناسيوس أيضاً، ضد الأريوسين، المقالة الثانية، المرجع السابق، ص ٨٨.

"الرب قناني أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم" (أم ٨: ٢٢). لو أراد أحد أن يفهم المكتوب بدقة، فسوف يرى هنا أن تعبير "قناني" لا تعني خلق جوهر **الكلمة**، لكنها تعني مفهوماً مستقيماً آخراً، ليتنا نراه أثناء حديثنا. لأن كلمة "قناني" أو "خلقني" تقال أيضاً بخصوص الأشياء التي وُجدَت بالفعل، وتلك التي لم تَصِر بعد. لكن هذا الذي هو كائن بالفعل، كيف يمكن أن يُقال إنه خُلِق من العدم، وأنه يمكننا أن نراه يأخذ بدايةً أخرى؟ لأن الأشياء التي لم تُخلق بعد، يمكننا أن نستخدم بالنسبة لها - ونكون على صواب - كلمات مثل: (خلقني) بمفهوم الخلق من العدم؛ لأنها في هذه الحالة تعني مجيئهم إلى الوجود من العدم، لكن بالنسبة لتلك الأشياء الموجودة بالفعل ولا تحتاج لأنْ تُخلق كي توجد، فلا تدل هذه الكلمات: "خلقني – قناني" على الجوهر، لكن على الانتقال من شيءٍ إلى آخر.

وكمثال لذلك، يقول داود: "وشعبٌ سوف يُخلق يسبح الرب" (مز ١٠٢: ١٩). وأيضاً: "قلباً نقياً أخلق فيَّ يا الله" (مز ٥١: ١٢). وبولس يقول عن المسيح: "مبطلاً بجسده ناموس الوصايا في فرائض لكي يخلق الاثنين في نفسه إنسانا واحداً جديداً" (أفسس ٢: ١٥). وأيضاً: "وتلبسوا الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق" (أفسس ٤: ٢٣).

بالطبع لا يقصد داود هنا شعباً يُخلق من جهة جوهره، لكنه يشير إلى ذلك الشعب الذي تحوَّل من الضلال إلى معرفة الله. و لم يطلب أيضاً أن يخلق قلباً آخر غير الذي له، بل توسَّل أن ينال التطهير. وبولس الأكثر حكمة لا يقصد أن يتحد الاثنان باتحادٍ طبيعي بواسطة المسيح لتبدأ بداية جديدة لوجودهما، لكن يقصد أن بني إسرائيل والأمم يتحولون ويكتسبون معرفةً جديدةً، بني إسرائيل وفق ناموس العبادة، والأمم ينسون الضلال الذي كان يُصاحبهم. ولنا جميعاً يريد أن نلبس الإنسان الجديد، الذي خُلِق كما أراد الله. واضح أيضاً أنه لا يقصد أن نلبس إنساناً ما حقيقياً، لكن استعداداً داخلياً جديداً وحياةً فاضلةً.

بما أن فعل "أخلق" لا يعني على أية حال خلق الجوهر، فكيف لا يكون غباءً أن يُدرَك معنى (هذا الفعل) باستقامةٍ فيما يخص المخلوقات الموجودة بالفعل، بينما عن **كلمة** الله، الذي ينبغي أن يخصه هذا الأمر، نفسِّره بطريقة سقيمة؟

لأنه عندما يقول: "الرب قناني - خلقني"، لا يتوقف الحديث هنا، بل يضيف "أول طرقه من قبل أعماله" بمعني أنه خلقه لأجل أعماله، لا بمعنى أنه صار بلا سبب، بل خلقه بداية طرقه لأجل أعماله، والذي ينبغي أن ندركه هو الآتي: الحياة الفاضلة وفقاً للناموس تكون محل كرامةٍ من جانب اليهود، بعكس الأمم، فتلك الحياة لم تكن أبداً معروفةً بالنسبة لهم. إذن، فإذا قيل: صار، أي خُلِق، **كلمة** الله جسدياً، فإننا نعني أنه صار إنسانا لكي يكون بداية طرق الرب وأعماله (لحياة منظورة). لأن الحياة الإنجيلية وَجَدَت تطبيقها التام في المسيح أولاً.

أمَّا بأقوال: "طرق وأعمال" الرب، فلماذا تُفهَم على أنها لا تعني وصاياه التي امتدت وطُبِّقت ونحن نسير نحوه، بطرقٍ كثيرةٍ ومتنوعة؟ وكون أن كلمة "الأعمال" تُعبِّر عن الحياة الفاضلة ووصايا الله، اسمع ماذا يقول الكتاب المقدس بهذا الشأن: "ملعون من يعمل عمل الرب برخاوة" (أر ٤٨: ١٠). أيضاً داود الطوباوي يقول أيضاً إن الطرق هي الوصايا، إذ ينادي: "طرقك يا رب عرفني. سبلك (وصاياك) علِّمني" (مز ٢٥: ٤).

٣٢- نفس الرد بطريقة أخرى

"الرب قناني – بناني أو خلقني أول طريقه من قبل أعماله"

الكلمات "قناني - بناني، أو خلقني" لا يجب أن نستخدمها كأفعال تصف خلق جوهر **الكلمة**، لأنه من قبيل التجديف حقاً، والكفر أيضاً أن نقول إنه الآن قد خُلِق وهو الكائن دائماً مع الآب. أمَّا المعنى الصحيح لكلمات: "قناني أو خلقني" و "أول طريقه"، فهو كالآتي: المقصود بـــ "الطرق" هنا هم المشرع موسي والأنبياء الذين أسرع المسيح - باعتباره البدء والسيد - محوِّلاً - بسلطانٍ - كل ما قاله أولئك إلى روحٍ جديدةٍ في العظات الإنجيلية. لأن الناموس يقول: "لا تزن" (خر ٢٠: ١٤)، بينما المسيح يقول: "أمَّا أنا فأقول لكم، لا تشتهِ" (مت ٥: ٢٨).

كذلك، فقد سمَّى القديسين بأنهم "طُرقٌ" تقود إلى الله بالوصية. هذا ما ندركه من نص أرميا: "قفوا على الطرق وانظروا واسألوا عن السبل القديمة أين هو الطريق الصالح وسيروا فيه فتجدوا راحةً لنفوسكم" (أر ٦: ١٦). فمن الواضح هنا أنه لم يتحدث عن

الطرق المعتادة. لأن أحداً يمكنه أن يقول كيف أتعلّم من تلك الطرق المعتادة، لكن، لو أراد أحدٌ أن يدرك - ذهنياً - الأنبياء القديسين على أنهم طُرقٌ، غير متحدثٍ عن هذه الأقوال باستهانةٍ، بل سابراً عمق معنى ما كتبه هؤلاء القديسون، فإنه سوف يتعلّم الطريق الحسن، أقصد المسيح الذي قال: "أنا هو الطريق" (يو ١٦: ٦)، وبواسطة هذا الطريق سوف يتطهر نائلاً غفران خطاياه.

هكذا "الرب قناني - خلقني" تعني جعلني بدءاً وسيداً، ليس لكي أدعِّم أقوالهم، لكن لكي أُشرِّع فوق هذه الأعمال ما هو أحسن.

اعتقد أننا قد تحدثنا بما فيه الكفاية عن أن عبارة "قناني - خلقني" لا تعني خلق الجوهر.

٣٣- نفس الرد بطريقة أخرى

"الرب قناني - خلقني" كأنه يقول: الآب صنع لي جسداً، جعلني مثل إنسان لخلاص البشر. مثلما يقول يوحنا: "الكلمة صار جسداً" (يو ١: ١٤)، وبولس يكتب عن المسيح: "صار لعنةً لأجلنا" (غلا ٣: ١٥)، كذلك: "الذي لم يعرف خطية، صار خطية لأجلنا" (١كو ٥: ٢١). فنحن لا نصدق أن **الكلمة** تحوّل إلى جسد، ولا نقول عنه إنه صار حقاً لعنةً أو خطيةً، لكن بما أن الكتاب المقدس يقول عنه هذا، فيجب علينا أن ندركه بوقار وتقوى. هكذا، بنفس الطريقة، عندما يقول **كلمة** الله "الرب قناني - خلقني" يجب أن تُفهم على أنه يقول: جعلني إنساناً[١]، ولا نفهم أن هذه العبارة ضد جوهره.

٣٤- ردٌ آخر

إذا كان **كلمة** الله هو وليد الآب، وهكذا يُدعى في الكتاب المقدس، فكيف يمكن أن يكون مخلوقاً أيضاً؟ لأنه يجب أن يكون واحداً من اثنين، بمعنى أنه طالما هو وليد الآب، يستحيل أن يكون مخلوقاً، أو أن يكون مصنوعاً، بحسب رأيكم، أي لا يمكن أن يكون

(١) كما لو كان يقول "الآب هيَّأ لي جسداً" ثم يؤكد على البُعد الخلاصي بقولة: "وخلقني للبشر من أجل خلاص الناس". أنظر القديس أثناسيوس ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثانية، فقرة٤٧ ص ٩٢.

مولوداً. لأنه لا أحد أبداً يدعو المخلوق وليداً وابناً. إذن بما أنه وليدٌ، يجب أن يُدرَك على أنه ابنٌ وليس مخلوقاً.

٣٥- ردٌ آخر على نفس الموضوع

الكتب المقدسة تدعو **كلمة** الله: "المولود الوحيد". فإذا كان الابن هو المولود الوحيد، فكيف يمكن أن يُدرَك على أنه خُلِق بحسب الجوهر كبدايةٍ لآخرين، يُسميهم سفر الأمثال "طُرق"؟ لأنه، لو كان ضمن المخلوقات الأخرى، حتى وإن كان بدايةً للبعض منهم، عندئذٍ يكون واحداً من المخلوقات، وليس هو المولود الوحيد، هذا الذي لديه كثيرين وقيل إنه خُلِق كبدايةٍ لهم. لأنه، لو خُلِق الأول بالنسبة لآخرين، لَمَا صار وحيداً. لأنه لو سبق شيءٌ ما - زمنياً - الذين صاروا بعده، حُسب بالنسبة لهم قريباً. لقد صار - على سبيل المثال - رأوبين بدايةً لأولاد يعقوب، لكن على الرغم من ذلك لم يُدعَ المولود الوحيد، ولا غريباً من جهة الجوهر عند أولئك الذين وُلدوا بعده.

حسناً. إذن لو كان **الكلمة** قد خُلِقَ كبدايةٍ لآخرين، لَمَا كان المولود الوحيد، ولا كان من جهة الطبيعة غريباً عن أولئك بكونه بدايةً لهم، وعلي هذا الأساس يُحسب من ضمن المخلوقات. هكذا يُكّذب الآب حين يدعوه ابنه، ويكَذّب أيضاً يوحنا الطوباوي الذي يقول: "في البدء كان الكلمة" (يو ١: ١). أي كيف كان يوجد أزلياً طالما هو مخلوق بحسب رأيكم؟ وكيف نقول إن **الكلمة** كان الله، طالما كان قد خُلِق؟ وكيف يمكن أن يكون هو الرب، وهو الذي صار مع الآخرين مثل العبد، ويكون بمثابة جزء من الخليقة كما تدَّعون؟ بما أن هذا الكلام غير معقول[1]، إذن "قناني - خلقني" لا تعبر عن الجوهر.

٣٦- ردٌ آخر

لو كان الابن حسب الجوهر قد خُلِقَ - كما تقولون - وكان بداية أولئك الذين خُلِقوا بعد ذلك، فمن أين له القوة على الخلق، وكيف صار خالق الكّل؟ لأنه من

---

(١) يقصد النتائج العبثية الناتجة من اعتقادهم أن الابن مخلوق، وهذه الطريقة التي فيها يسرد للهراطقة هذه النتائج العبثية الناتجة من آرائهم قد سبق وأنتهجها القديس أثناسيوس. أنظر ردود القديس أثناسيوس على الهراطقة في نفس السياق، في كتابة ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، المرجع السابق، فقرة٤٩ ص ٩٥ - ٩٦.

الضروري أن يكون الأول من نفس جوهر السلسلة التي يحتل فيها مركز البداية. فلو أن الابن حقاً كان مخلوقاً، وله أيضاً قوّة خلاّقة، لصار لبقية المخلوقات مثل هذه القوّة الخلاقة، بالرغم من أنهم خُلِقوا بواسطة الابن، آخذين طبيعةً مخلوقة. الأمر الذي يعني عندئذٍ أنه لا يوجد في الله ما يميِّزه عن بقية المخلوقات. لكن بما أن الابن لم يكن بدايةً للمخلوقات الأخرى، كمخلوقٍ، عندئذٍ يكون هو الابن الوحيد لأبيه(1).

٣٧- ردٌ آخر

"الرب قناني - خلقني أول طرقه من قبل أعماله". لو أراد أحدٌ أن يفسِّر - بقصد مثير بالأكثر - هذا الذي قيل، لَكان سيقول: لو خُلِق الأول وصار بدايةً، بحسب رأيكم، فكيف خُلِق لأجل أعماله؟ لأنه لم يقل: الرب خلقني لكي أصنع أعماله، بل "لأجل أعماله". أي أنه خُلِق لأجل أعماله التي كانت موجودةً بالفعل. ولو كان الأمر هكذا، فكيف يكون أولاً هذا الذي خُلِق تالياً لتلك التي خُلقت من قبل؟ وكيف يمكن أن يكون بدايةً لآخرين، هذا الذي صار بعدهم؟ وكيف صار الكلّ "بواسطته" لو كان هذا قد وُجِدَ بعد تلك المخلوقات.

إذن بما أنه ليس صواباً أن نفكر هكذا، عندئذٍ "قناني - خلقني" لا يجب أن تحتسب ضد جوهر الله **الكلمة**، بل أن تُفسَّر من جانبنا بتقوى، لأن مفهوم هذا القول يخص حالة تأنُّسِهِ.

٣٨- اعتراضٌ آخر من الهراطقة

يقولون، بما أن الابن يدعو الآب رباً، إذن فهو هكذا يعترف بأن ذاته تنتسب للطبيعة المخلوقة؛ لأن كل المخلوقات هي عبيد لله الذي خلقها.

٣٩- الرد

(1) الخلاصة التي يريد القديس كيرلس إظهارها هي أن الابن من جوهر آخر غير جوهر المخلوقات حتى لو قال هو نفسه: "الرب قناني أو خلقني" وبالرغم من أن الخلفية الإيمانية المستقيمة هي التي تحدد التفسير المستقيم للنص الكتابي، إلاّ أن الآباء اضطروا لاستخدام الاستنتاجات المنطقية لإقناع الهراطقة.

مثلما دعاه الابن رباً، هكذا دعاه أيضاً آباً. ولو كان بسبب ذلك يعترف بذاته عبداً، فهو أيضاً لذات السبب يُعرَّف بأنه الابن. وبما أنه ابنٌ، لا يمكن أن يُقال عنه بالطبع إنه مخلوقٌ بواسطة الآب الذي ولده، لكن يُعتَرف به أنه قد أتى من جوهره.

إذن، فهو الابن بحسب الطبيعة.

وعندما، أخذ شكل العبد، وصار إنسانا (أنظر فيلبي ٢: ٧)، لأجلنا، دعى الآب رباً. لأنه، بينما هو الابن بحسب الطبيعة، فإنه يقول الحق معلناً الله الآب، هكذا أيضاً عندما لم يرفض أخذ شكل العبد، كان يجب عليه أن يدعو الآب أيضاً رباً. ولقد عبّر المسيح ذاته عن هذين الوضعين قائلاً: "أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض" (مت ٢٥: ١١). ها هو إذن يقول إن أبيه هو الله بحسب الطبيعة، وهو في نفس الوقت رب كل السماويات والأرضيات. ولو كان مخلوقاً، مثل أولئك، لَمَا احتفظ لذاته، حتى على سبيل الاستثناء، بمكانة الابن، واضعاً كل الكائنات الأخرى تحت نير العبودية. لأنه وهو يقول: "رب السماء والأرض" لم يترك شيئاً حُراً، إلاّ ذاته فقط، وذلك بأن دعى الله، بكونه ابناً، إنه أبيه[١].

٤٠ – اعتراض آخر من الهراطقة

يقولون إنه يدعو أبيه رباً. وهذا يعني أنه لو كان هو الابن بحسب الطبيعة، لَمَا قال عنه إنه ربٌ.

٤١ – الرد

إذا كان الأمر كما تقولون، فكيف لنا نحن العبيد – بحسب الطبيعة (كبشر) – أن ندعو الله آباً؟ لأنه لو لم يكن هو وليد الآب بسبب أنه يدعوه رباً – كما يقولون – لَما كُنَّا نحن أيضاً مخلوقات بحسب الطبيعة، إذ ندعو الخالق آباً. لكن طالما لم تُعفِنا النعمة من أن ندعوه آباً ورباً، رغماً عن كوننا مخلوقات، هكذا أيضاً لم يسقط الابن من أن يكون ابناً

(١) وبحسب تعبير القديس أثناسيوس: "لأنه بالرغم من كونه ابناً وله أب هو الله إذ أنه هو مولوده الذاتي، إلاّ أنه يدعو الآب رباً ليس لأنه كان عبداً، بل لأنه اتخذ شكل عبد. لأنه من ناحية كان يلزم – لكونه **الكلمة** من الآب – أن يدعو الله أباً. فهذه هي خاصية الابن تجاه الآب، ومن الناحية الأخرى عندما يأتي لينجز العمل آخذاً صورة عبد فإنه يدعو الآب رباً". ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، فقرة ٥٠ ص٩٧.

بحسب الطبيعة؛ لأنه - تدبيرياً ولأجلنا - يدعو هذا الذي ولده رباً. لأن **كلمة** الله أتى إلى العالم، آخذاً على عاتقه كل ما يخص البشرية؛ لكي يمنح ما يخصه إلى الطبيعة البشرية. وهو يُظهر هذا قائلاً: "أذهب إلى أبي وأبيكم، إلهي وإلهكم" (يو ٢٠: ١٧). بمعنى أنه أعطى الطبيعة البشرية امتيازه الخاص سامحاً لها أن تدعو الله آباً، عندما أخذ هو خواص الطبيعة البشرية داعياً الله أبيه. لكن لا نحن ننكر عبوديتنا بحسب الطبيعة داعين الله آباً، ولا بالطبع فَقَدَ الابن بحسب الطبيعة مكانته، عندما شابهنا في كل شيء، لأن هذا الأمر مفيدٌ لنا[1].

٤٢- ردٌ آخر

"الرب قناني أول طرقه من قبل أعماله".

لا يعني هذا أن طبيعة الابن مخلوقة، ولا يجب أن يُدرَك على أنه مخلوق من جهة الجوهر؛ لأنه لا يقول ببساطة إنه خُلِق، بل خُلِق لأجل أعمالٍ وكبداية طُرقه. أمَّا السبب الذي من أجله خُلِق، فواضحٌ أنه لا يعني حركته من العدم إلى الوجود، لكن انتقاله من وضعٍ إلى آخر. لأن **الكلمة** كان كائناً في بداية الخلق، وعندما صار إنساناً - وفق أقوال يوحنا - صار لأجلنا بدايةً لكل طريق للصلاح. إذن، بينما كان **الكلمة** كائناً منذ الأزل، عندما صار إنساناً، قال: الرب خلقني لأجل أعماله.

٤٣- ملاحظات من الكتاب المقدس

عندما يتحدث الكتاب المقدس أو الرسل القديسين عن ولادة الابن من الآب، لا يذكرون سبباً، أي لا يقولون لماذا هو الله، أو لماذا وُلِدِ من الآب، لكن عندما تذكر الكتب المقدسة تشبُّهه بنا وولادته من الروح القدس ومن العذراء، تُضيف مباشرةً السبب؛ لكي نتعلّم أن الذي هو دائماً كلمة الله، لضرورةٍ ما، صار إنساناً بدون أن تكون بدايته هي زمن ولادته، لكنه تغيَّر من جهة الشكل آخذاً صورة عبد، وبحسب هذا يُقال إنه خُلِق وصُنِع.

---

(١) يركز القديس كيرلس هنا على تبادل الخواص الذي تم بفضل الاتحاد الاقنومي بين اللاهوت والناسوت في شخص المسيح الواحد.

فعندما يقول القديس يوحنا: "في البدء كان الكلمة"، لا يذكر سبباً. وعندما يقول: "وكان الكلمة الله"، أيضاً لا يذكر السبب. كذلك الأمر عندما يقول: "والله كان الكلمة" (يو ١: ١)، و"أنا في الآب والآب فيَّ" (يو ١٤: ١١). و"أنا والآب واحد" (يو ١٠: ٣٠). و"مَنْ رآني فقد رأي الآب" (يو ١٤: ٩). و"أنا هو النور" (يو ٨: ١٢). و"أنا هو الحق" (يو ١٤: ٦). و"الذي وهو بهاء مجده ورسم جوهره" (عب ١: ٣). فكل هذه الشواهد التي تُظهر جوهر الابن، لا تذكر السبب الذي لأجله توجد هذه الحقائق.

بينما في الولادة بالجسد يذكر الكتاب الأسباب مصحوبة بالوقائع. يقول المخلّص ذاته، على سبيل المثال: "لأني قد نزلت من السماء ليس لأعمل مشيئتي بل مشيئته الذي أرسلني" (يو ٦: ٣٨). أيضاً: "أنا قد جئت نوراً إلى العالم حتى مَنْ يؤمن بي لا يمكث في الظلمة" (يو ١٢: ٤٦). وكذلك: "لهذا قد وُلدت أنا ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق" (يو ١٨: ٣٧). وبولس الطوباوي وهو يذكر بوضوح شديد سبب مجيئه لأجلنا، يكتب: "فَإِذْ قَدْ تَشَارَكَ الأَوْلاَدُ فِي اللَّحْمِ وَالدَّمِ اشْتَرَكَ هُوَ أيضاً كَذلِكَ فِيهِمَا، لِكَيْ يُبِيدَ بِالْمَوْتِ ذَاكَ الَّذِي لَهُ سُلْطَانُ الْمَوْتِ، أَيْ إِبْلِيسَ" (عب ٢: ١٤)، وأيضاً: "فَإِنَّهُ إِذِ الْمَوْتُ بإنسان، بإنسان أيضاً قِيَامَةُ الأَمْوَاتِ" (١ كو ١٥: ٢١). وكذلك: "لأَنَّهُ مَا كان النَّامُوسُ عَاجزاً عَنْهُ، فِي مَا كان ضَعِيفاً بِالْجَسَدِ، فَاللهُ إِذْ أَرْسَلَ ابْنَهُ فِي شِبْهِ جَسَدِ الْخَطِيَّةِ، وَلأَجْلِ الْخَطِيَّةِ، دَانَ الْخَطِيَّةَ فِي الْجَسَدِ، لِكَيْ يَتِمَّ حُكْمُ النَّامُوسِ فِينَا، نَحْنُ السَّالِكِينَ لَيْسَ حَسَبَ الْجَسَدِ بَلْ حَسَبَ الرُّوحِ" (رو ٣: ٤ – ٨). وأيضاً: "لأَنَّهُ لَمْ يُرْسِلِ اللهُ ابْنَهُ إِلَى الْعَالَمِ لِيَدِينَ الْعَالَمَ، بَلْ لِيَخْلُصَ بِهِ الْعَالَمُ" (يو ٣: ١٧) كما قال المخلّص عن ذاته: "لِدَيْنُونَةٍ أَتَيْتُ أَنَا إِلَى هذَا الْعَالَمِ، حَتَّى يُبْصِرَ الَّذِينَ لاَ يُبْصِرُونَ وَيَعْمَى الَّذِينَ يُبْصِرُونَ" (يو ٩: ٣٩).

إذن، عندما صار إنساناً؛ لكي يتمم هذه الأعمال ويصير بداية لمثل هذه الأنواع من الطرق، قال عن ذاته: "الرب قناني أول طرقه من قبل أعماله". بمعنى أنه لم يُخلق من العدم إلى الوجود، لكن، بينما هو كائن ويوجد على الدوام، صار جسداً لأجل هذه الأسباب[1].

---

(1) لقد سبق ولخص القديس أثناسيوس سبب تجسد الكلمة، قائلاً: "إذن فقد جاء المخلّص إلى العالم من أجل الشهادة، ولكي يقاسي الموت من أجلنا، ويقيم البشر، وينقض أعمال إبليس". ويستمر في الحديث

٤٤- ردودٌ أخرى على: أن "الرب قناني" لا تعني أن الابن مخلوق

يقول بولس الرسول عن مخلّصنا المسيح: "لأَنَّهُ هُوَ سَلاَمُنَا، الَّذِي جَعَلَ الاثْنَيْنِ وَاحِداً، وَنَقَضَ حَائِطَ السِّيَاجِ الْمُتَوَسِّطَ أَيِ الْعَدَاوَةَ. مُبْطِلاً بِجَسَدِهِ نَامُوسَ الْوَصَايَا فِي فَرَائِضَ، لِكَيْ يَخْلُقَ الاثْنَيْنِ فِي نَفْسِهِ إنسانا وَاحِداً جَدِيداً، صَانِعاً سَلاَماً" (أف٢: ١٤-١٥).

طالما أن المسيح خَلَقَ في ذاته اثنين من البشر[١] (يقصد اليهود والأمم) وغيَّرهما إلى إنسانٍ واحدٍ جديد، بمعني واحد في حياة الفضيلة، ونحن بالطبع خُلقنا فيه؛ لأنه أخذ شكلنا، وفيه أولاً نلنا مبادئ السلوك الذي يُسرُّ به الله، إذ تجددنا إلى طريقة حياة سامية، عندئذٍ حسناً يقول الآن، إذ خُلِق لأجلنا في إنسان واحد: "الرب قناني - خلقني"[٢].

٤٥- ردٌ آخر

مكتوب عن المسيح مخلّصنا "هو يحمل إثم جميعنا" (أش ٥٣: ٤)، و"إذ صار لعنةً لأجلنا" (غلا ٣: ١٣)، وأيضاً: "لأنه جعل الذي لم يعرف خطية خطيةً لأجلنا لنصير نحن بر الله فيه" (٢ كو ٥: ٢١)، وهو يقصد أن يقول: إنه ضَعُفَ - بطريقةٍ ما - بالرغم من أنه لم يضعف أبداً (لأنه هو قوة الله). ولأنه حمل خطايانا، صار هو ذاته لعنةً[٣]. يقول

مؤكداً على هذه الحقيقة، قائلاً: "فالمخلّص لم يأت لأجل ذاته بل لأجل خلاصنا ولكي يبطل الموت ولكي يدين الخطية، ولكي يعيد أبصار العميان، ولكي يقيم الجميع من بين الأموات. فإن كان قد أتى ليس لأجل لذاته بل لأجلنا فهو إذن لم " يُخلَق" لأجل نفسه بل لأجلنا. وإن كان لم يُخلق لأجل ذاته بل لأجلنا فلا يكون هو نفسه مخلوقاً بل هو يقول هذا حيث إنه ارتدى جسدنا". ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، المرجع السابق، فقرة ٥٥ ص ١٠٥ - ١٠٦.

(١) يقصد هنا اليهود والأمم وبحسب تعبير القديس أثناسيوس: "أما الأثنان المخلوقان في المسيح فيقصد بهما شعبين مُجدّدين به". راجع ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، المرجع السابق، فقرة ٤٦ ص ٩١.

(٢) بالرغم من أنه بكونه إلهاً أي "غير مخلوق" يقول: "الرب قناني – خلقني" كما يؤكد القديس أثناسيوس، أنظر ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، المرجع السابق، فقرة ٥٥ ص ١٠٦.

(٣) يشرح القديس كيرلس، في موضع آخر، كيف صار الابن لعنة لأجلنا وذلك أثناء شرح ما أمر به الله بخصوص المرأة التي فيها شبه زنى في سفر العدد ٥:٢٧-٢٨، إذ يقول: [بالماء الحي والنقي، سوف تدرك **كلمة** الله المحيي الطاهر بالحق، والذي هو بلا لوم تماماً من جهة الخطية، والذي أتى إلينا بجسدٍ كما في إناءٍ خزفي. وكيف نتأكد من أن الجسد – الذي أخذه – الذي ذاق الموت لأجلنا ينتمي إلى تراب الأرض؟ فقد قيل عن طبيعة الإنسان "لأَنَّكَ تُرَابٌ وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ" (تك ٣: ١٩). كذلك فإنه باللعنة التي سبق أن قيلت، يمكنك أن تدرك بسهولة

الكتاب هذا، دون أن يريد أن يقول بالضبط إنه تحوَّل إلى لعنةٍ، بل أنه حمل لعنتنا. وأيضاً يقال إنه صار خطية، ولكن دون أن تتغير طبيعته، ولا انتقل إلى خطيّة، إذ أنه هو الذي لم يعرف خطية، لكن بسبب أنه حمل خطايانا، كما هو مكتوب (أش ٥٣: ٥. ١ بط ٢: ٢١)، في جسده فوق الصليب.

هكذا عندما نُصنع نحن بواسطته لنكون إنساناً جديداً، يُقال عنه إنه صُنِعَ. لأجل هذا يقول: "الرب قناني – خلقني"، بينما هو ليس مصنوعاً أو مخلوقاً، بل هو وليد جوهر الآب.

٤٦- ردٌ آخر

لو كان **كلمة** الله بحد ذاته[١] – بحسب رأيكم – هو خالق الجوهر، والرب يقول عن ذاته: "الرب قناني – خلقني"، لَما كان قد صار إنساناً لأجلنا، هذا الذي يوجد قبلنا بكثير. ولو أن أحداً وافق على ذلك، لَمَا كُنا قد خُلقنا بواسطته، ولا هو كان قد أخذنا في داخله[٢]، وإذا كان الأمر على هذا النحو، فكيف صُنعنا لنصير إنسانا جديداً بالمسيح؟ لأن بولس سوف يخجلكم، حتى لو لم تريدوا، قائلاً: "لأننا نحن عمله مخلوقين في المسيح يسوع" (أف ٢: ١٠). لكن بما أننا خُلقنا في المسيح، فإن هذا يعني أن **كلمة** الله لم يخلق جوهره (مرةً أخرى)، وإنما يعني أنه منذ أن صار إنساناً، خُلقنا بواسطته، وهو ذاته – بطريقة ما – يقول من خلالنا: "الرب خلقني". لأنه إن كان – وبحق – لا يليق **بالكلمة** أن يقول هذا التعبير (تدبيرياً)، لكن لأجل خلاصنا، بالرغم من أنه الخالق، تجسَّد لدرجة أنه أخذنا في داخله؛ لكي يقول: "الرب قناني – خلقني". وشارحاً وجوده الأبدي في الآب، فيقول: "كنت عنده صانعاً، وكنت كل يومٍ لذَّتهُ فَرِحةْ دائماً قدامه، فَرِحةْ في مسكونة أرضه

ذاك الذي لأجلنا صار لعنةً؛ لأنه عُلِّقَ فوق خشبة الصليب طبقاً للمكتوب: "ملعون كلُ مَن عُلِّقَ على خشبةٍ" (تث ٢١: ٢٣، غلا ٣: ١٣)]. أنظر السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء السابع، المقالة الرابعة عشر، المرجع السابق، ص ١٣٠ – ١٣١.

(١) أي قبل التأنس والآية "الرب قناني – خلقني" هي تخصه بكونه **كلمة** الله الأقنوم الثاني – كما يدعي الهراطقة – والفرق بينه وبين المخلوقات أنه خُلق قبلهم بكثير.

(٢) أي كما يقول القديس أثناسيوس: "بل سيكون من خارجنا كما لو كنا نقبل منة التعليم مثلما نقبله من معلم ". أنظر ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثانية، فقرة٥٦ ص ١٠٧.

ولذاتي مع بني آدم" (أمثال ٨: ٣١ - ٣٢). وأيضاً "من قَبل أن تقررت الجبال قبل التلال أُبدئت (وُلدت)" (أم ٨: ٢٥). لذلك كان طبيعياً - عندما اتخذ شكلاً بشرّياً لخلاص الجميع - أن يقول كإنسان: "الرب قناني - خلقني".

٤٧- ردٌ آخر

بما أن المسيح صار حقاً إنساناً، فلماذا لا ينبغي أن يقول الأقوال التي تتناسب مع الإنسان؟ لأنه كان ينبغي أن يقول، لم أكن إنساناً في بداية الخليقة، الأمر الذي يتناسب فقط مع الطبيعة الإلهية، لكنه صار لكي يحفظ هذا الأمر الذي يتناسب مع جوهر المخلوقات. ولأن الإنسان مخلوقٌ، لهذا يقول: "الرب قناني - خلقني"، أي لأنه صار إنساناً، أمَّا الوجود الأزلي في الله فهو بلا بداية.

٤٨- ردٌ آخر

مكتوبٌ "الرب قناني أول طرقه من قبل أعماله". فإذا كنتم - بسبب هذا النص - تعتقدون أن جوهر الابن مخلوقٌ، لَوَجَبَ أن ينتفي عنه الوصف بأنه خُلِقَ عندما يظهر بعد ذلك ليقول: "من قبل أن تقررت الجبال قبل التلال أُبدئت (وُلدت)" (أم ٨: ٢٥)، طالما يقول إنه وُلِدَ؛ لأن الوليد مختلفٌ عن المخلوق، إذ أن الواحد يجئ بطريقة طبيعية من جوهر ذاك الذي وَلدَه، بينما الآخر يأتي من الخارج، كغريب.

إذن. بما أن **الكلمة**، حقاً هو الله، وصار إنساناً، فهو كإنسانٍ يقول: "الرب قناني - خلقني"، بينما حين أظهر وجوده الأزلي، قال: "من قبل أن تقررت الجبال قبل التلال أُبدئت (وُلدت)" (أم ٨: ٢٥).

٤٩- رأى المعارضين

يقولون إن تعبير "وُلِدَ" لا يُظهِر على أية حال أن الابن يأتي من جوهر الآب. لأن الكتاب المقدس لا يبالي بالكلمات، طالما أنه بالنسبة للمخلوقات الحقيقية، والتي لا مكان للمعارضة في طبيعتها، يستخدم نفس الفعل "وُلِدَ"، مثلما يقول "ربيت (وَلدت) بنين ونشأهم" (أش ١: ٢). وأيضاً: "تركت الله الذي وَلدك" (أش ١: ٤ س)، "ومَنْ يسكب

(يلد) زقاق السموات" (أيوب ٣٨: ٣٨)؛ لأنه بالطبع لن تقول إن الله صار بطريقة طبيعية آباً، وإن زقاق السموات تجئ بسبب هذا. بالتالي "خُلِقَ" و"وُلِدَ" يعنيان أمراً واحداً وهذا مستخدم أيضاً بالنسبة للابن.

٥٠- الرد

صحيح أننا نرى الكتاب المقدس في مراتٍ كثيرةٍ يستخدم بكل حرية الكلمات، لكنه لا يجهل أهمية كل كلمة، وبعض المرات يقبلها مجازياً (استعارياً). إذن بالنسبة للمخلوقات، عندما يريد أن يُظهر أنه خالق، يقول "في البدء خلق الله السماء والأرض" (تك ١: ١)، و"صنع الله الإنسان"، وليس "وَلَدَ εγέννησεν" بل "صَنَعَ أو خَلَقَ εποίησεν". ولولادة كلمته يقول: "وُلِدت النعمة على شفتيك" (مز ٤٥: ٢س).

وحين حدد الكتاب المقدس أن **الكلمة** هو بداية المخلوقات، يقول "في البدء خَلَق"، بينما عن **كلمة** الله "في البدء كان الكلمة". ويقول القديس كيرلس: "بالنسبة للمخلوقات، البداية هي الزمن، بينما بالنسبة لكلمة كلمة الله، الكائن منذ الأزل، فإن البداية ἀρχή هي فقط أباه الأزلي الذي ليس له بداية، طالما أنه كائن معه أزلياً"

إذن، عندما يستخدم فعل "وَلَدَ" بالنسبة للمخلوقات الحقيقية، فإنه يُفهم استعارياً وليس طبيعياً، هكذا بالمثل أيضاً عندما يستخدم للولادة الحقيقية فعل "صنع" أو "خلق"، يجب أن يُفهم استعارياً، إذ أننا نؤكد على الولادة الطبيعية. لأن فعل "وَلَدَ" يُستخدم بالنسبة للمخلوقات نتيجة النعمة، بينما بالنسبة لغير الصائر وغير المخلوق الذي هو **كلمة** الآب، فإن ضرورة الطبيعة البشرية فرضت عليه أن يقول "الرب قناني - خلقني".

والمخلوقات مدّعوة للتبني **بالكلمة** وإرادة الله؛ لأنه يقول: "أنا قلت" وليس "ولدت εγέννησα"، بينما الابن، وهو يعلن ولادته الطبيعية والتي لا تُوصف من الآب، قال: "خرجت من عند الآب وقد أتيت" (يو ١٦: ٢٨). وأيضاً حين أَظهر أنه مختلف عن المخلوقات في طبيعتها، قال: "أنتم من أسفل. أما أنا فمن فوق" (يو ٨: ٢٣). ولا نتخيل أن عاقلاً يمكنه أن يقول إن **كلمة** الله يفتخر بسبب تميزه المكاني والزمني العالي، لكن بتعبير "أسفل" يُظهر وضاعة الجوهر المخلوق، بينما تعبير "فوق" يعني سمو الطبيعة

الإلهية التي تفوق الكّل. إذن طالما أن الاختلاف كبير جداً بين المخلوق والمولود، دع الكلمات تُستخدم بدون تمييز، عندما لا يكون هناك ضرر على حساب المفاهيم[1].

٥١- ردٌ آخر

"الرب قناني أول طرقه"، وأيضاً "ومن قبل التلال أُبدئت (وُلدت)".

بما أنه يقول إنه وُلِدَ قبل الكل، فلا يمكن أن يكون واحداً من الكل، لكنه آخرٌ غير الكّل. لأن الكّل لديه بدايته الخاصة، ولأن الكل لن يكونوا كُلاًّ، لو أن فرداً منهم كان خارجاً عنهم. إذن فبما أن الابن وُلِدَ قبل الكل، بينما الكل له بداية محددة، فولادة الابن يجب أن تُدرَك خارجاً عن (الكل). وهذا الذي لا يندرج ضمن المخلوقات، هو ذو طبيعة أخرى مختلفة عن الكل.

إذن، فقد وُلِدَ الابن من الآب، إذ هو كلمة الآب أيضاً، لكنه خُلِق كإنسان وصار بداية طرقه. أمَّا نحن، فقد دُعينا أبناء الله؛ عندما قبلنا **كلمة** الله فينا، بالرغم من أننا بحسب الطبيعة مخلوقات. هكذا أيضاً **كلمة** الله، عندما أخذ جسدنا، دُعيَ مخلوقٌ ومصنوعٌ، بينما بحسب الطبيعة هو الله.

وإذا كان الله خالقنا، هو أيضاً آبٌ، هكذا أيضاً، بينما هو آبٌ **لكلمة** الله، هو أيضاً خالق. وإذا كان **الكلمة** قد تشبَّه بالمخلوقات من أجلنا، وكنا نحن بحسب الطبيعة أبناء، يكون هو أيضاً بحسب الطبيعة (البشرية) مخلوق ومصنوع. لكن بما أننا صِرنا أبناء حسب النعمة، صار هو لأجلنا، مخلوقاً بحسب المكانة، دون أن يفقد مكانته الطبيعية (الإلهية)[2].

---

(١) المبدأ الأساسي عند القديس كيرلس ومن قبلة القديس أثناسيوس - كما قلنا - أن الألفاظ في حد ذاتها لا تحدد المعنى أو المفهوم، فنحن لا ننطلق من التحليل اللغوي لكي نحدد المعنى اللاهوتي بل يحكمنا الإيمان المستقيم والسياق العام للنص ثم يأتي التحليل اللغوي كعامل مساعد.

(٢) أعلن القديس أثناسيوس هذا الأمر بكل وضوح، إذ قال: "إذن فإن "الآب" هو خاص "بالابن" وليس بالخليقة، كما أن "الابن" خاص بالآب. ويتضح من هذا أننا لسنا أبناء بالطبيعة. أما الذي جاء وسطنا فهو ابن بالطبيعة. وأيضاً فإن الله ليس أبانا بالطبيعة، بل هو **أب الكلمة** الموجود فينا والذي به نصرخ "أبانا أيها الآب". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثانية، فقرة ٥٩ ص ١١٣.

٥٢- ردٌ آخر

تعليم واضح عن كيف يجب أن ندرك بوقار معنى: "الرب قناني أول طرقه".

آدم صار أول إنسان وأعطاه الله طريقاً لخلاصه. لكنه فقد هذا الخلاص. وعندما عصي الوصية الإلهية، وقع في الفساد، وأُقتيد إلى الخطية وهبط إلى الموت. لذا كان ينبغي أن يُظهِر الله لنا طريقاً آخراً يمكننا به أن نعود مرة أخرى إلى تلك الحالة القديمة. ولأنه ما من إنسان كان قادراً على تحقيق هذا الهدف، فإن **كلمة** الله ذاته محب البشر - للضرورة، بينما كان غير مخلوق من جهة الطبيعة - صار إنساناً لأجلنا لابساً بإرادة الآب جسدنا، مثلما يقول بولس؛ لكي يفتح لنا طريقاً جديداً ودائماً، ويتمم أعمال الآب مجدِّداً الجسد في عدم فساد، مُبطلاً الموت الذي ساد بسبب الخطية، وأدان الخطية وصارت كل الأمور صالحة بواسطته.

إذن، فبما أنه صار إنساناً، لكي يصير هو أيضاً طريق الصالحات لأجلنا، ولكي يتمم الأعمال التي صارت من الآب، بالصواب يقول: "الرب قناني أول طريقه من قبل أعماله". كما يقول بعد ذلك أيضاً، مظهراً وجوده الأزلي: "أسَّسني قبل الدهور (منذ الأزل مُسحت)" (أم ٨: ٢٣). إذن، فبما أنه وُلِدَ وصُنع، فقد أعطى الكلمتين الأهمية التي تتناسب معهما؛ لأنه استخدم "وُلِدَ" عند الإشارة **لكلمة** الله الأزلي، و"خُلِقَ" عند الإشارة إليه كإنسان عندما صار جسداً لأجلنا، كما يقول يوحنا الإنجيلي.

٥٣- ردٌ آخر

يقول داود عن **كلمة** الله: "والله ملكي (كائن) منذ القِدم" (مز ٧٤: ١٢). إذن بما أن الابن كائن من الأزل، بينما يقول هو إنه خُلق لأجل أعمال الآب، فمن الضروري أن نفكر، بأنه خُلِق في الوقت الذي كانت فيه هذه الأعمال موجودة بالفعل. لأنه بعد مجيء المخلوقات إلى الوجود، في الأزمنة الأخيرة للدهر، صار إنساناً، أي عندما قال: "خلقني"، بطريقةٍ لائقةٍ ومناسبة. إذن كيف يكون خالقاً لهذه المخلوقات، لو كان قد خُلِق بعدها؟ أمَّا إذا كان خالق المخلوقات **كلمة** الله كائناً قبل الأعمال، وكان قد خُلِقَ لأجلها، فإن كلمة "خلقني" - عندئذٍ - لا يمكنها أن تشير إلى أن جوهره قد خلق، وبالتالي يكون منطقياً أنها

تشير إلى تأنُّسِهِ، عندما صار جسداً لكي يعيد تصحيح أعمال الآب (أي البشر). ولأجل هذا يقول: "الرب قناني أول طرقه من قبل أعماله".

٥٤- ردٌ آخر مختصر

يقول هو ذاته إنه خُلِق في أول الطرق. أيُ طريقٍ سوف تتعلّمه، إذن، من الآتي؟ أولاً إحصاء الفضائل التي طالما طبَّقها هو أولاً، وعلَّمها لنا أيضاً. لأنه يقول: "كونوا رُحماء" (لو ٦: ٣٦). و"مَنْ ضربك على خدك فاعرض له الآخر أيضاً. ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضاً. وكل من سألك فأعطه. ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه" (لو ٦: ٢٩ - ٣٠)، "قيل للقدماء لا تزن. وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه" (مت ٥: ٢٧ - ٢٨)، بالإضافة إلى تعاليم أخرى تُوجد في العظات الإنجيلية.

لأن هذه التعاليم بدأت أولاً مع المسيح، ثم استمرت أيضاً لكم. لأجل هذا يقول: "أنا هو الباب" (يو ١٠: ٩)، "أنا هو الطريق" (يو ١٤: ٥، ٦). إذن، فلأنه صار بدايةً للطرق بالنسبة لنا، عندما لَبس جسدنا؛ لأجل هذا السبب وصار إنسانا، فمن الطبيعي أن يقول: "الرب قناني - خلقني أول طرقه من قبل أعماله". نفس الشرح نطبِّقه أيضاً على قيامته من بين الأموات، في عدم فساد، وصعوده إلى السموات؛ لأنه صار بدايةً لكل هذا لأجلنا، ولأجل هذه الأعمال التي فعلها يقال إنه قد خُلِق لأجلنا.

٥٥- ردٌ آخر

المسيح مات بسببنا ولأجلنا. وكما أنه كان من جهة طبيعته الإلهية غير مائتٍ، هكذا أيضاً عندما خلَق الجسد، يقول إنه هو ذاته خَلَقَ جسده، بالرغم من أنه بحسب الجوهر غير مخلوق. لأنه، إذ كان الجسد خاصاً به وليس لشخص آخر، فقد صنع أيضاً الأمور الخاصة بجسده.

٥٦-ردٌ آخر

الإنسان هو أفضل أعمال الله على الأرض، الذي بالرغم من أنه خُلِق كاملاً، وُجدِ ناقصاً بسبب المخالفة، ساقطاً من عدم الموت إلى الموت، ومن عدم الفساد إلى الفساد.

وأمام هذه الحالة، ولما كان من غير اللائق حقاً أن يظل كل عمل الله ناقصاً، اقتضت الضرورة أن يلبس **كلمة** الله الكامل إنساناً، ولذلك فإن تعبير "خُلِق لأجل أعمال"، يعني: لكي يكمِّلها، ولكي يغلِّفها بالكمال، أي مكملاً ما غاب عن الإنسان من ذاته.

وحقاً يقول في الأناجيل لأبيه: "أنا مجَّدتك على الأرض. العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته" (يو ١٧: ٤). وأيضاً: "لأن الأعمال التي أعطاني الآب لأكملها" (يو٣٦:٥).

إذن، فعندما صار إنساناً، تَّمم الأعمال التي لأجلها خُلِق (تجسَّد). فمن الواضح إذن، أن كلمة "خلقني" لا يمكن أن تخص جوهر **الكلمة**، لكن تُعلِن بالحري عن زمن مجيئه؛ لأنه عندما صار جسداً، قَبل أن يكون مخلوقاً. لأنه عندئذٍ، أكمل أعمال الآب، وأعاد إصلاح طبيعة الإنسان وردها إلى حالتها الأولى، وأحضر الكنيسة لنفسه "كنيسةً مجيدةً لا دنس فيها ولا غضن أو شيء من مثل ذلك، بل تكون مقدسة وبلا عيب" (أف ٥: ٢٧)، وصرنا معه خليقةً جديدةً (أنظر ٢ كو ٥: ١٧)، تلك التي لا تلبس الضعف بسبب التعدِّي والموت من الخطية، بل تأخذ الكمال بسبب طاعة المسيح وقيامته من الأموات. هكذا، فبما أنه صار إنساناً لأجل هذه الأعمال، فمن الطبيعي أن يقول: "الرب خلقني أول طرقه لأجل أعماله".

٥٧- ردٌ آخر على:

"الرب خلقني"، وأن ابن الله ليس مصنوعاً ولا مخلوقاً. وعلى: "منذ الأزل مُسحت (أُسست)" (أم ٨: ٢٣).

لو كان **كلمة** الله مخلوقاً - كما تقولون في عدم تقوي - فكيف نتحد بالله، ونصير آلهةً[١] عندما تكون لنا شركة معه؟ وكيف يكون المسيح وسيطاً[٢] بين الله والبشر؟

---

(١) طبعاً - كما أكدنا - لا يقصد القديس كيرلس أن تتغير طبيعتنا وتتحول إلى طبيعة إلهية، لكن مثل كل الآباء الشرقيين، يعني هذا التعبير أن الإنسان الذي يتحد بالله ويصنع شركة معه يكتسب عطايا إلهية ومواهب تجعله مميزاً عن أي إنسان لم يؤمن بعد بالمسيح. وهذه الحالة التي يدعوها الآباء التأله، يكتسبها الإنسان المؤمن بحسب النعمة.

(٢) يؤكد القديس كيرلس وذلك أثناء حديثة عن المذبح الترابي (خر٢٤: ٢٠ - ٢٥) على أنه لا يستطيع أحد الاقتراب إلى الآب إلاّ بعمانوئيل إذ يقول: " فنحن لا نقترب إلى الآب إلاّ بواسطة الابن، حسب قوله: "ليس أحد

(أنظر ١ تي ٢: ٥)؛ لأنه اتحد بنا بسبب أنه صار إنساناً. لكن لو كان مخلوقاً لا إلهاً، فكيف يكون متَّحداً بالله بحسب الجوهر؟ بأيةِ طريقةٍ يكون واحداً مع ذاك؟ لأن المختلفان بحسب الجوهر[1]، لا يستطيعان أن يتَّحدا بطريقةٍ طبيعيةٍ أبداً فيما بينهما.

وكيف نخلص بواسطته إن كان مخلوقاً، وكان الكتاب المقدس يقول: "بمحبته ورأفته هو فكَّهم ورفعهم وحملهم كل الأيام القديمة" (أش ٦٣: ٩)؟ ولو كان مخلوقاً، فكيف نتبرر حين نؤمن به؟ بل كيف أُلغيت بواسطته عبارة: "لأنك تراب وإلى تراب تعود" (تك ٣: ١٩). لأنه لم يكن عملاً يتناسب مع المخلوق، أن يُغيِّر القرار الذي أُعطيَ من الله.

ولو كان مخلوقاً، فكيف يُبطل الخطية، لأن النبي يقول عنه: "مَنْ هو إلهٌ مثلك غافر الإثم وصافح عن الذنب كبقية ميراثه" (ميخا ٧: ١٨)؟ ولو كان مخلوقاً لَمَا استطاع أن يقول: "فإن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً" (يو ٨: ٣٦). لقد حرَّرنا إذن؛ لأنه وريث الآب، وليس مخلوقاً، وفق هوس محاربي الله.

٥٨- ردٌّ آخر

بما أننا دُعينا أبناء حسب النعمة؛ لأننا تشبهنا بالابن حسب الطبيعة، فقد تحتَّم أن يكون الابن بالطبيعة مختلفاً عن هؤلاء من جهة الجوهر. وبما أن الأبناء بحسب النعمة ينتمون إلى المخلوقات، فالابن بالطبيعة لا يكون مخلوقاً أو مصنوعاً، حتى لا يكون هو مثلهم مخلوق.

يأتي إلى الآب إلاَّ بي" (يو ١٤: ٦). وإذا كان الإتيان إلى الآب بواسطة الابن بمثابة قانون حتمي، فقد وضع لهم شريعة الأمثلة الحاملة للثمار بواسطته قائلاً: "مذبحاً من تراب تصنع لي وتذبح عليه محرقاتك وذبائح سلامتك غنمك وبقرك في كل الأماكن التي فيها اصنع لاسمي ذكراً آتي إليك وأباركك. وإن صنعت لي مذبحاً من حجارة فلا تبنه منها منحوتةً، إذا رفعت عليها أزميلك تدنسها" (خر ٢٠: ٢٤ - ٢٥).وتأكيداً لذلك، يُشير المذبح التُرابي إلى عمانوئيل؛ لأنه يقول: "الكلمةُ صار جسداً" (يو ١: ١٤). وإذا كانت طبيعة الجسد هي تراب من تراب، إذن فكلُ ثمرةٍ وكلُ اقتراب، يصير بالمسيح؛ لأنه هو نفسه الذي قال: "بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً" (يو ١٥: ٥). وكما أننا نحقق اقترابنا إلى الآب بواسطته، هكذا كل ذبيحة لأولئك الذين قبلوا الإيمان، تصير مقبولةً بواسطته؛ لأنه يَعد أولئك الذين أقاموا مذبحاً من تراب أنه سوف يأتي إليهم ويباركهم؛ لأنه يقول: "أتى إليكم وأبارككم". أنظر السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء الخامس، المرجع السابق، المقالة التاسعة ص ٦٠.

(١) الكلام هنا عن الوحدة في الثالوث بين الآب والابن وكذلك الروح القدس، فالمبدأ العام عند القديس كيرلس وكذلك من قبله القديس أثناسيوس الرسولي هو كيف للطبائع المختلفة أن تتحد بحسب الجوهر في وحدة واحدة. فسِر وحدة الثالوث هو الطبيعة الواحدة والجوهر الواحد.

٥٩- ردٌ آخر

فلو كان الابن مخلوقاً من الله - بحسب رأيكم أيها الأريوسيون - فبأي حكمةٍ صار إذن؟ وما هو المقصود باليد التي خلقته مع المخلوقات الأخرى؟ إنه مكتوب "كلها بحكمةٍ صُنعت" (مز ١٠٤: ٢٤). وأيضاً الله ذاته يقول: "وكل هذه صنعتها يديَّ" (أش ٦٦: ٢). وإذا كان الكل قد صار بالحكمة وبيد الله، وكانت الكتب المقدسة تقول عن **كلمة** الله: "كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيءٌ مما كان" (يو ١: ٣)، فالابن إذن لا يكون عمل حكمة الله، بل بالحري هو الحكمة واليد التي بها يعمل الله كل شيء. بالتالي، فهو ليس مصنوعاً ولا مخلوقاً.

٦٠- ملاحظات من الكتاب المقدس، تشير إلى أن الابن ليس واحداً من المخلوقات، بل بالحري يُدعى أيضاً خالقهم.

إن شباب بابل[١] اللذين أحصوا كل الخلائق بما فيها السماوية والأرضية، وقالوا إنه ينبغي أن يُسبَّح الله بواسطة كل المخلوقات، لم يصنفوا الابن أبداً ضمن هؤلاء الذين ينبغي عليهم أن يُسبِّحوه، ولا قالوا: ليت الكلمة أو حكمة الله يبارك الرب، بل اعترفوا بأن الكل يسجد له مع الآب. وبينما يذكرون كل المخلوقات معاً[٢]، يصمتون عن ذِكره؛ لأنه بكونه المُسبَّح، فهو السيد. أيضاً المرنم الطوباوي مؤكداً مرات كثيرة على ضرورة أن يُسبَّح الله، ذاكراً كل الخليقة والخُدَّام والملائكة والقوات السماوية، وسماوات السموات، والقمر والشمس قائلاً إنهم كعبيد يجب أن يَخضعوا ويسجدوا لله، لم يُصنِّف الابن أبداً بينهم، بل على النقيض أعلن أنه يُسجد له، صارخاً: "اسجدوا له يا جميع الآلهة (الملائكة)" (مز ٧: ٩٧). وإذا كانت كل الخليقة تسجد، بينما الابن يُسجد له، فهو بالتالي ليس مخلوقاً، بل هو الابن الحقيقي الذي يُسجد له مع الآب.

---

(١) يقصد الذين كانوا يسبحون الله وهم في أسر بابل بمزامير تحث الجميع على حمد الرب، على سبيل المثال مز ١٣٦، ١٣٧ كذلك مزمور ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ...الخ. راجع إبصالية واطس للثلاثة فتية القديسين.

(٢) أنظر مز ١٤٨.

٦١- ردٌّ آخر

إن الابن مختلفٌ عن المخلوقات، وهو ليس واحداً منها.

يعلن الكتاب المقدس أن الكل صار بواسطة **كلمة** الله، إذ يقول: "كل شيء به كان" (يو ١: ٣)، وأيضاً: "ورب واحد يسوع المسيح الذي به جميع الأشياء ونحن به" (كو ٦: ٨). والقديس بولس أيضاً، مميِّزاً إياه عن كل المخلوقات، يقول: "لأن كلمة الله حيَّة وفعَّالة وأمضى من كل سيف ذي حدين وخارقة إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ ومميزة أفكار القلب ونياته وليس خليقة غير ظاهرة قدامه بل كل شيء عريان ومكشوف لعيني ذاك الذي معه أمرنا" (عب ٤: ١٢ - ١٣). إذن، بما أنه هو خالق الكل، وكل شيء ظاهر أمامه، فلا يمكن أن نعتبره ينتمي إلى المخلوقات الظاهرة. لأنه حين قال "كل شيء"، لم يترك شيئاً أبداً خارجاً عن "كل شيء"، وبما أن "كل شيء" يشمل فقط المخلوقات، إذن، فما هو خارج عنها لا يُحسب ضمنها. هكذا أيضاً بولس الطوباوي يدرك أهمية الكلمات "كل شيء". لأنه يفسر: "أنه أخضع كل شيء تحت قدميه"، ثم يقول بوضوح: "ولكن حينما يقول أن كل شيء قد أُخضع فواضح إنه غير الذي أُخضِعَ له الكل" (١ كو ١٥: ٢٦ - ٢٧).

إذن، فبما أن كلمة "كل شيء" تشمل الكل، والابن هو الذي خَلَقَ الكل، والكل ظاهرٌ له، فلا يمكن أن يكون هو واحداً من الكل، بل هو آخرٌ غير الكل.

٦٢- ردٌّ آخر

مكتوب: "لكي تجثوا باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومَن على الأرض ومَن تحت الأرض" (فيلبي ٢: ١٠). إذن، بما أن كل ركبةٍ تجثو للابن، فلا يمكن أن يكون الابن واحداً من هؤلاء الذين يجثون، لكنه آخر.

بالإضافة إلى هذا، مكتوب: "كل الخليقة تئن وتتمخض معاً إلى الآن. وليس هكذا فقط بل نحن الذين لنا باكورة الروح نحن أنفسنا أيضاً نئن في أنفسنا متوقعين التبني فداء أجسادنا" (رو ٨: ٢٢ - ٢٣). فإذا كانت الخليقة تئن وتنتظر أيضاً فداء وحرية أولاد الله، بينما الابن لا يبدو كمَن يئن ولا ينتظر البنوة أو الحرية، بل على العكس، فهو الذي يحقق

رجاء الخليقة ويدعو للتبني هؤلاء الذين يئنون، وهو الذي يعطي الحرية، فهو بالتالي لا يُحسب ضمن كل المخلوقات، ولا يُحسب من الخليقة، لكنه آخرٌ خارجها، طالما أن المخلوقات تئن محتاجة لشخصٍ آخر يساعدها، بينما ذاك، كابنٍ، يحرر كل المقيَّدين بقيود العبودية.

٦٣- ردٌ آخر على: "منذ الأزل مُسِحت (أُسست) منذ أوائل الأرض" (أم ٨: ٢٣).

مكتوب أن "الله بحكمةٍ أسَّس الأرض" (أم ٣: ١٠). فإذا كانت الحكمة هي التي أسَّست الأرض، حتى أصبحت هذه الأرض عنصر أمان للكل (لأن الكل يظل آمِناً بسببها)، فبأي طريقةٍ نفهم كيف أُسِّست. لقد أُسِّست مِن الله. لقد سبق أن قلنا أنه ينبغي لنا أن نفهم هذا بالطريقة التي تُناسب الأمثال؛ لأن معاني الأمثال غير مباشرة، وفي داخلها تختبئ أهميتها الحقيقية، لأن هذا هو دائماً شكل المثل.

كذلك القول بأن الحكمةُ تُؤسَّس، أي ابن الله، دون أن يعني ذلك بداية وجوده، طالما هو **الكلمة**. لكن؛ لأنه صار إنساناً وشابهنا في كل شيء، صار بدايةً وأساساً لنا، نحن الذين نبني في التقوى إيماننا به، ونتغيَّر إلى خليقةٍ جديدةٍ، كما هو مكتوب (أنظر ٢ كو ٥: ١٧). فهو إذن يريد أن يقول إن الأمر لا يقتصر على مجرد، أن الله جعلني **كلمةً** أو ابناً، حتى لا تُدخِل أي تعليم هرطوقي، قائلاً كذباً، إن جوهره مخلوقٌ. لكنه بتشديد يقول: "أسَّسني - مسحني"، وهذا يعني ذات ما قاله من قبل: "الرب قناني - خلقني أول طرقه من قبل أعماله". هنا يتكلّم باعتباره الأساس الذي يحمل فوقه الذين بُنُوا عليه، وهذا هو ذات ما قاله قبلاً بطرق كثيرةٍ، محتوياً على نفس المفاهيم. لأنه يستوي أن يقول بداية أو أساس. فمثلما هو لأولئك بدايةٌ، هكذا أيضاً هنا يصير أساساً لأولئك الذين بُنُوا فوقه بواسطة الإيمان.

٦٤- ردٌ آخر

يقول بولس الحكيم: "لا يستطيع أحدٌ أن يضع أساساً آخر غير الذي وُضع الذي هو يسوع المسيح" (١ كو ٣: ١١). إذن فبما أن المسيح هو الأساس، ينبغي على المبنى

الذي بُني فوقه أن يكون مثل هذا الأساس؛ (لأن المبنى الذي بُنِيَ هكذا، هو فقط - كما هو مكتوب (أنظر ١ كو ٣: ١٢ - ١٦)، - الذي سوف يكمُل ويصير هيكلاً مقدساً).

من الواضح تماماً أنه لم يقُل إن ذاته تدخل كأساس؛ لأنه هو **الكلمة**، ولا شيء يشبه **الكلمة**، وليس من الممكن أن ينطبق واحدٌ من المخلوقات فوقه بطريقة طبيعية؛ لأنه هو الخالق، بينما هذه مخلوقات. لكن حين صار إنساناً، وشابهنا في كل شيء، فيما عدا الخطية، وضع ذاته أساساً لهؤلاء الذين بُنوا فوقه ويستطيعون أن ينسجموا معه. لأنه، إذ صار هو ذاته إنساناً، صارت لديه قرابةٌ شديدةٌ معنا بسبب طبيعة الجسد. وعلى ذلك فهذا التعبير (أساس) أيضاً يجب أن ننسبه لتأنس المخلّص، حتى لا نقع في التجديف، قائلين إنه خُلِق، وإن حكمة الله بدأت توجد في الزمن.

ما سبق يماثل أيضاً ما جاء في بعض النصوص الأخرى، حيث يقول عن نفسه إنه هو الكرمة ونحن الأغصان (يو ١٥: ٥)، دون أن يعني ذلك أو يقبل بهذا، أن تكون الأغصان غريبةً ومن جنسٍ آخر يختلف عن الكرمة، بل بأنه من ذات الجنس بحسب الطبيعة (بفضل تجسده). هكذا أيضاً هنا يقول إنه هو أساسُنا، لكي يُظهِر القرابة الطبيعية التي تربطه بأولئك الذين بُنُوا فوقه، عندما صار إنساناً. لأننا عندئذٍ نرتبط معه بحسب الطبيعة البشرية، معتمدين على القرابة معه، مثل الأغصان حين تعتمد على الكرمة، مثمرين تقوى لله. إذن فقد صار **كلمة** الله الذي تأنس أساساً لنا نحن الذين، كأحجارٍ مقدسةٍ، نُبنى فوقه لكي نصير هيكلاً للروح القدس الذي يسكن فينا.

٦٥- ردٌ آخر لإيضاح الآية:

"منذ الأزل مُسحت (أُسِّستُ)". أعتقد أنه من الضروري أن أقدِّم أمثلةً لكي أنزع غباء آراء الهراطقة الأشرار، ربما يخجلون من الحق ويهجرون التجاديف.

فهذا الذي أُسِّس لا يبدو على أية حال أنه بدأ حين أُرسِل لكي يصير أساساً. ليتنا نأخذ مثالاً. دعونا نفترض أن هذا الذي أُرسِل كان حجراً مخفيًّا في الأرض، لذا يجب أولاً أن يُقطع من صخرةٍ ما أو من الجبل، ثم بعد ذلك يُستخدم كأساس. والطبيعي أن يوجد هذا الحجر أولاً، ثم بعد ذلك يصير أساساً ويختفي في باطن الأرض. لكن لو أن شخصاً

أعطي صوتاً لحجر أساس، ومنح له عقلاً مناسباً مثل عقل إنسان، لكان يستطيع أن يقول مؤرِّخاً لما مر عليه من مراحل: كنت قطعةً صغيرةً من الحجر في الصخر أو في جبلٍ ما، لكني الآن صرت أساساً لابساً الأرض التي تُحيط بي.

هكذا يجب أن تفكر بتقوى أيضاً عن حكمة الله، أي الابن؛ لأنه في البداية كان عند الله، وكان الله، كما هو مكتوب (أنظر يو ١: ٢). لكن طالما قُطِع مثل حجر بدون يد من الجبل (أنظر دا ٢: ٣٤)، أي عندما أتى من جوهر الآب، ولَبِسَ، مثل أرضٍ، جسدنا، عندئذٍ يقول إنه هو نفسه صار أساساً، قائلاً بطريقة ما: أنا كنت **الكلمة** والابن الحقيقي، الآب ألبسني جسداً أرضيًّا لكي أصير أساساً وبدايةً لهؤلاء الذين خُلقوا فوقي بواسطة الإيمان، وصرتُ جسداً واحداً مع هؤلاء، لكي يقبلوا التكيُّف والانسجام الطبيعي معي والارتباط بي بسبب قرابتنا بحسب الجسد.

٦٦- اعتراضٌ آخر من الهراطقة

وكيف يمكن أن يقول: "أسَّسني - مسحني"، وأن تكون هذه العبارة تخص **الكلمة** عندما صار جسداً، في اللحظة التي هو ذاته يقول فيها إنه أُسِّس قبل الدهور، قبل أن يعمل الأرض وقبل أن تتثبت الجبال؟ لأنه من الواضح أن الحضور الجسدي **للكلمة** صار بعد مرور أزمنةٍ كثيرةٍ من خلق الكون، وهؤلاء الذين وجدوا فيه.

٦٧- الرد

ليس صعباً بالتأكيد أن نجيب على تلك الأسئلة التي يفرضها الهراطقة، لكن الحاجة هي إلى تقوى السامعين. لا أعتقد أن شخصاً ذو فهم يمكنه أن يعترض على أن ظهور الكلمة في الجسد قد صار في ملء الزمان؛ لأن كل ما تنادي به الكتب المقدسة معروف. لأن الله يعرف ما سوف يحدث من أمور، ليس فقط عندما تصير، بل هو يعرف - قبل خلق العالم - أن هذه الأمور سوف تحدث في الأزمنة الأخيرة.

حسناً. لأجل هذا، فإنه وهو مزمعٌ أن يصنع ما يليق به من أمور، لم يبدأ يفكر فينا فقط عندما خَلقنا، لكنه قبل أن تصير الأرض والدهور، كان على دراية بأمورنا الخاصة، فأسَّس من قبل، ابنَهُ[١] وفق معرفته السابقة.

هكذا نحن، فطالما تم بناءنا فوقه، نقوم أيضاً في عدم الفساد، نحن الذين سقطنا في الفساد بسبب المخالفة؛ لأنه كان يعرف أننا سوف نصير أمواتاً بسبب الخطية، مدفونين في تراب الأرض، كما هو مكتوب، بسبب المخالفة والعصيان، سامعين: "لأنك تراب وإلى تراب تعود" (تك ٣: ١٩). لكن لأن صانع الكل وخالقهم كان قد قرر خيراً لأجلنا منذ القديم، سبق ووضع وعيَّن الإنسان الذي سوف يُخلق بسببنا ولأجلنا أي **كلمته** لكي يصير أيضاً بدايةً لطرقه وأساساً لإعادة تجديد الطبيعة البشرية معه في عدم الفساد[٢]، ويكون بكراً لأخوة كثيرين (رو ٨: ٢٩). ويقوم[٣] هو أولاً من الأموات (١ كو ١٥: ٢٠). لأن هذا الذي يقوله سليمان الحكيم في الأمثال: "منذ الأزل مُسحت (أسَّسني)"، يوضحه أيضاً بولس كاتباً لتلميذه تيموثاوس الآتي: "فَلاَ تَخْجَلْ بِشَهَادَةِ رَبِّنَا، وَلاَ بِي أَنَا أَسِيرَهُ، بَلِ اشْتَرِكْ فِي احْتِمَالِ الْمَشَقَّاتِ لأَجْلِ الإِنْجِيلِ بِحَسَبِ قُوَّةِ اللهِ، الَّذِي خَلَّصَنَا وَدَعَانَا دَعْوَةً مُقَدَّسَةً،

---

(١) أي أعدَّ تدبير تجسد ابنه الوحيد الذي اتخذ له جسداً مخلوقاً من أجل خلاصنا.

(٢) سبق للقديس أثناسيوس أن شرح هذا الأمر بكل وضوح، إذ قال: "فإله الجميع إذن، عندما خلقنا **بكلمته** الذاتي ولأنه كان يعرف أمورنا أكثر منا ويعرف مقدماً أننا رغم أنه قد خلقنا صالحين إلا أننا سنكون فيما بعد مخالفين للوصية، وأننا سنُطرد من الجنة بسبب العصيان. ولأنه هو محب البشر وصالح فقد أعدَّ من قبل تدبير خلاصنا **بكلمته** الذاتي الذي به أيضاً خلقنا. لأننا حتى إن كنا قد خُدعنا بواسطة الحيّة وسقطنا فلا نبقى أمواتاً كليةً بل يصير لنا بالكلمة الفداء والخلاص لذي سبق إعداده لنا لكي نقوم من جديد ونظل غير مائتين، وذلك عندما "خُلِق" هو من أجلنا "بدء الطرق" وصار "بكر الخليقة" و "بكر إخوة" وقام "باكورة الأموات". ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، المرجع السابق، فقرة ٧٥، ص ١٣٩.

(٣) قيامة **الكلمة** المتأنس هي برهان على إلوهية الابن ويشبِّهها القديس كيرلس، في كتاب آخر، بعصا هرون التي أنبتت، إذ يقول: "لكن العصا التي خرجت من جذر يسى، نبتت مرةً أخرى، أي قام المسيحُ ودبَّتْ فيه الحياةُ مرةً ثانيةً "ناقضاً أوجاعَ الموت" - كما هو مكتوبٌ - (انظر أع ٢: ٢٤). لقد كان حقاً هو الحياةُ بطبيعته، أي بلاهوته، فكيف يمكنُ أنْ يُمسكَ من الموت ولا ينتصر على الفساد؟!ومثلما أُحييت العصا، ونَبَتَ مرةً أخرى - بالفعل - السِّبط الميِّت، وكان هذا الأمر بالنسبة للأقدمين علامةً على أنَّ هرون قد عُيِّن رئيسُ كهنةٍ بقرار السماء، هكذا نستند على إنَّ البرهان الساطع والحي والكافي على أنَّ عمانوئيل هو الإلهُ بطبيعته، هو أنه داس الموت، وأنه قام من الأموات كما يليق بإلهٍ". أنظر السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء السادس، المقالة العاشرة، ص ٣٥.

لاَ بِمُقْتَضَى أَعْمَالِنَا، بَلْ بِمُقْتَضَى الْقَصْدِ وَالنِّعْمَةِ الَّتِي أُعْطِيَتْ لَنَا فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ قَبْلَ الأَزْمِنَةِ الأَزَلِيَّةِ، وَإِنَّمَا أُظْهِرَتِ الأن بِظُهُورِ مُخَلِّصِنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي أَبْطَلَ الْمَوْتَ وَأَنَارَ الْحَيَاةَ وَالْخُلُودَ بِوَاسِطَةِ الإِنْجِيلِ" (٢ تيمو ١: ٨ - ١٠).

إذن، بما أننا قد دُعينا بواسطة يسوع المسيح - قبل الأزمنة، أي قبل أن نُخلق - بدعوةٍ مقدّسة وفق نعمة الله وقصد الذي عرف كل شيء قبلاً، يكون واضحاً لكل واحدٍ أن **كلمة** الله لم يأخذ بداية وجوده عندما أُسِّس (جسده)، لكنه - بهذه الأقوال - يقصد مجيئه بحسب الجسد، ويقول إنه أُسِّس قبل الدهور وقبل كل المخلوقات وفق معرفة الآب السابقة.

٦٨- ردٌ آخر لتوضيح: "الرب قناني - خلقني" و "منذ الأزل مُسحت (أُسِّست)".

يقول بولس الرسول لأهل أفسس: "مُبَارَكٌ اللهُ أَبُو رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي بَارَكَنَا بِكُلِّ بَرَكَةٍ رُوحِيَّةٍ فِي السَّمَاوِيَّاتِ فِي الْمَسِيحِ، كَمَا اخْتَارَنَا فِيهِ قَبْلَ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ، لِنَكُونَ قِدِّيسِينَ وَبِلاَ لَوْمٍ قُدَّامَهُ فِي الْمَحَبَّةِ، إِذْ سَبَقَ فَعَيَّنَنَا لِلتَّبَنِّي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ لِنَفْسِهِ، حَسَبَ مَسَرَّةِ مَشِيئَتِهِ" (أف ١: ٣ - ٥).

إذن، فإذا كُنَّا - قبل أن نُخلَق - قد عُيِّنا للتبني للآب بواسطة يسوع المسيح، وبُوركنا ببركات روحية في السماويات، كيف يمكن لأحدٍ وهو يسمع ابن الله يقول: "منذ الأزل مُسحت (أُسِّست)"، ألاَّ يدرك أنه يقول هذه الأقوال في إطار معرفة الآب السابقة، والتي وفقها، طالما سبق فعرفنا، سبق فدعانا لهذه المعرفة، وأخذنا كل بركة قبل أن نكون قد جئنا إلى الوجود، بل خُلِقنا بعد ذلك بسنين عديدة؟

على الجانب الآخر، هذا بالضبط ما يُعلمنا إياه بكل وضوح الرب نفسه، إذ يقول: "ثُمَّ يَقُولُ الْمَلِكُ لِلَّذِينَ عَنْ يَمِينِهِ: تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي، رِثُوا الْمَلَكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ" (مت ٢٥: ٣٤). وطالما أُعِدَّت مملكة الآب لهؤلاء الذين لم يُخلقوا بعد، وقبل خلق العالم، وكانت قد أُعِدَّت على أية حالٍ بالمسيح، فمن الصواب أن يقول لذاته: "منذ الأزل مُسحت منذ البدء منذ أوائل الأرض. إذ لم يكن غمر أُبدئت إذ لم تكن ينابيع

كثيرة المياه. من قبل أن تقررت الجبال قبل التلال أُبدئتُ" (أم ٨: ٢٣ - ٢٥)؛ لأن كل هذا يعني مجيء الخليقة من العدم إلى الوجود.

٦٩- ردٌ آخر

به نعلم السبب الذي من أجله قد سبق فعيننا للتبني بسبب محبة الله الآب.

الله الآب، وهو يحرص على مصلحة الطبيعة البشرية، ويعرف أنها سوف تسقط في الفساد، ويبحث عن وجود طريقة لتجديدها وإعادة صعودها إلى عدم الفساد، وضع بطريقةٍ ما في ابنه جذور هذا الأمل، فسبق وعيَّننا للتبني بواسطته[١]، وجعلنا جديرين بكل بركة روحية، حتى عندما تسقط الطبيعة البشرية في الموت بسبب المخالفة، تستطيع - بالرغم من أننا مخلوقات - أن تُنبت مرة أخرى للحياة، كأنها من جذورٍ قديمةٍ، لأنها بوركت بالفعل مقدَّماً، حتى إذا سمعت: "لأنك من تراب وإلى التراب تعود" (تك ٣: ١٩)، لا تقع بالكامل في اللعنة.

إذن فقد أُسِّس المسيحُ قبلنا، وكُلُنا نحن بُنينا فوقه، وقد صار هذا وفق معرفة الله السابقة، الذي يعرف الكل، قبل خلق العالم، للدرجة التي معها - كما قلنا سابقاً - يكون لنا بركةٌ أقدم من اللعنة، ويكون لنا وعدٌ بالحياة، أقدم من الإدانة بالموت، وحرية البنوة أيضاً تكون لنا أقدم من عبودية الشيطان. وتأتي طبيعتنا مرةً أخرى إلى الحالة القديمة الأولى[٢]، طالما انتصر (المسيح) على ما حدث في الفترة البينية (ما بين السقوط والفداء)، هكذا صارت الطبيعة البشرية بسبب نعمة ذاك الذي أسَّسها بالمسيح في الصالحات، مرةً

(١) قد طرح القديس أثناسيوس هذه الحقيقة، مُتسائلاً: "وكيف اختارنا قبل أن نُخلَق، إن لم نكن ممثلين فيه من قبل كما قال هو نفسه؟ وعموماً، كيف سبق فعيننا للتبني قبل أن يَخلق البشر إن لم يكن الابن نفسه قد "تأسس قبل الدهور" آخذاً على عاتقه تدبير خلاصنا؟". راجع ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثانية، فقرة ٧٦، ص ١٤٠.

(٢) يشدد القديس كيرلس على أن المسيح ردنا إلى حالتنا الأولى، إذ يقول في موضع آخر: "لقد صار الابن حقاً هو الخلاص والبر من الله الآب لأجلنا، إذ هو الحق، وهو الذي تبرّرنا به لأنه انتصر على الموت الذي كان متملكاً علينا منذ القديم، وأعادنا إلى عدم الموت، وأعاد تشكيلنا إلى الحالة التي كانت عليها طبيعتنا منذ البداية". جيلافيرا، الكتاب الشهري، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، عدد أبريل ٢٠٠٥.

ثانيةً إلى الحالة التي كانت وفق معرفة الله السابقة، الحالة التي كانت معينةً بواسطة محبة الابن مسبقاً لأجل كل الأمور الحسنه.

٧٠- ردٌّ آخر بمثال:

من الضروري أن نرى كيف أُسِّست قبلاً حكمة الله منذ الأزل لأجلنا. على سبيل المثال، عندما يبدأ مهندسٌ حكيم في تصنيع مسكن، فإنه لا بُد وأن يفكر فيما يمكن أن يعاني منه البناء مع مرور الزمن من الأمور المعتاد حدوثها في تصنيع المباني، فيضع أساساً متيناً، ويبدع شيئاً مثل جذر لا يتزعزع لأعماله، حتى إن عانت شيئاً، يكون لها من البداية أساسٌ؛ يمكّنها من البقاء مرةً ثانيةً فوق هذه البداية.

بنفس الطريقة أخذ خالق الكل، المسيح، كأساس خلاصنا، قبل صُنع العالم، حتى لو حدث أن سقطنا بسبب المخالفة، نُبنى مرةً ثانيةً فوقه.

حسناً، المسيحُ إذن أُسِّس، بقرار الآب وقصده منذ الأزل، لكن العمل صار في الوقت المناسب، بحسب ما دعت الحاجة؛ لأننا تجددنا بالمسيح في وقت مجيئه في الجسد نحن الذين منذ القديم أخذناه أساساً لخلاصنا[1].

---

(١) نفس هذه الحجة سبق وأن أكد عليها القديس أثناسيوس حيث قال إن "الإرادة والتخطيط قد أُعِدَ منذ الأزل، أما العمل فقد تحقق عندما استدعت الحاجة وجاء المخلص إلى العالم". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثانية، فقرة ٧٧، ص ١٤٢.

المقالة السادسة عشر

بخصوص أزلية الابن،
وأنه من جوهر الآب دون أن يتجزّأ

١- معارضة من معارضات الهراطقة، ثم الردود

يقولون كيف يمكن أن يكون الابنُ أزلياً؟ وإذا كان قد أتى من الآب، فكيف لم ينفصل عنه؟ لأن الذي أتى من شيء، يكون جزءاً من جوهر مَن أتى منه. وهذا الذي قُطِع منه جزءٌ، لا يمكن أن يُدرَك على أنه كامل.

٢- الرد بمثال

ماذا يقولون - بناء على ذلك - فيما يحدث مع الشمس حين تُرسل أشعتها؟ وماذا يعتقدون فيما يصير مع النار حين ترسل من ذاتها حرارتها؟ هل تعتبرون أن تجزئةً وقطعاً قد صارت لهذه الجواهر، وأن الشمس باتت لا تلمع، وهي التي لا يعتريها نقصٌ ما على الإطلاق؟ بالتأكيد لا يستطيع أحدٌ أن يقطع الشعاع مكانياً عنها.

كذلك، فنحن نرى النار ترسل حرارتها دون أن يعتريها أي انفصال، بل إن الحرارة هي ثمرة النار التي تأتي منها دون أن تنفصل عنها، تماماً مثل شعاع النور. ولا يمكن أن يكون هناك نورٌ أبداً بدون شعاع، ولا نارٍ بدون حرارة. لأنهما ينبعثان دائماً من جوهريهما، ويولدان منهما[1].

---

(١) وبحسب تعبير القديس أثناسيوس: "لأن الابن هو في الآب - بحسب ما يُسمَح لنا أن نعرف - لأن كل كيان الابن هو من جوهر الآب ذاته. كمثل الشعاع من النور، والنهر من الينبوع". ضد الأريوسيين، مرجع سابق، المقالة الثالثة، فقرة٣، ص ١٥.

هكذا يمكنك أن تدرك أن الابن أيضاً يأتي من جوهر الآب، وأنه كائن أبدياً فيه، ويُدرَك على أنه كائنٌ في أقنوم خاص، دون أن يُنقِص - بأية طريقة - من جوهر الآب، أو أن يُقطع هذا منه[١]. بل على النقيض من ذلك، فهو يوجد في الآب والآب فيه، لأنه كان يقول الحق، عندما قال: "أنا في الآب والآب فيَّ" (يو ١٤: ١١). ولأن جوهرهما الواحد لا نظير له، ولأن الابن يظهر في الآب، والآب فيه، لهذا يستطيع أن يقول: "أنا والآب واحد" (يو ١٠: ٣)، و "مَنْ رآني فقد رأى الآب" (يو ١٤: ٩).

٣- ردٌّ آخر

هؤلاء الذين يقولون إن الابن قُطِعَ من جوهر الآب، لأنه أتى منه، وبالتالي هو جزء وليس الكل، ليتهم يقولون أيضاً إن الشعاع[٢] قُطِعَ من النور، ومن النار قُطِعت الحرارة التي تأتي منها، والكلمة من العقل، وليتهم يبرهنون على أن كلاً من الشعاع والحرارة جزآن من الجوهرين اللذين أتيا منهما، أو أن النور كان في وقت ما بدون شعاع، أو أن النار كانت بدون حرارة، والعقل بدون كلمة، عندئذٍ دعهم يتخيلون شيئاً من مثل هذا أيضاً عن **كلمة** الله.

لكن بما أن الشعاع والنار موجودان دائماً في هذين الجوهرين اللذين يأتيان منهما، وذلك دون أن يتجزءا أو ينفصلا (لأنه لا يعتريهما أي تأثرٍ أو قطع)، عندئذٍ كيف لا يكون

(١) سبق أيضاً للقديس أثناسيوس في مقالته الأولي ضد الأريوسيين أن أكد على عدم وجود أي قطع أو تجزئه في ولادة الابن، إذ يقول: "لأن **كلمة** الله هو ابنه، والابن هو **كلمة** الآب وحكمته، فإن **الكلمة** والحكمة ليس مخلوقاً، وليس هو جزءاً من ذلك الذي له كلمته (أي الآب)، ولا هو مولود تقسيم أو انفصال. فكلا (اللقبين) وحّدهما الكتاب وأعطاهما لقب "ابن" بصورة مؤكدة، لكي يُبشّر به أنه المولود الطبيعي والحقيقي للجوهر، وذلك حتى لا يظن أحد أن المولود هو بشرى. بينما هو (الكتاب) يقصد جوهره، ولهذا يقول الكتاب أيضاً أنه **الكلمة** والحكمة والبهاء، وذلك لكي ندرك من هذا أن الولادة بلا تقسيم أو انفصال، وأنها أزلية ولائقة بالله". ضد الأريوسيين، المقالة الأولي، المرجع السابق ، فقرة ٢٧ ص٥٩.

(٢) يلجأ القديس كيرلس إلى شرح ولادة الابن بالأمثلة، وقد فعل من قبله القديس أثناسيوس هذا الأمر وبالنسبة لتشبيه الابن بالشعاع يقول: "إن الابن لم يصر من العدم، ولا يحسب في عداد المخلوقات إطلاقا، بل هو صورة الآب وهو **الكلمة**، و لم يكن قط غير موجود، بل هو موجود على الدوام، وهو الشعاع الأزلي لنور هو أزلي. لماذا إذن تتخيلون أن هناك أزمنة سابقة على الابن؟. أو لماذا تجدّفون على الكلمة بأنه لاحق وتالي للدهور وهو الذي به قد صارت الدهور؟". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الأولي، فقرة ١٣ ص ٢٧.

فجورهم بغير حد، عندما يلحِقون بالطبيعة الإلهية هذه الأمور التي لا يقبلها أحد - ذو عقل صائب التفكير - على طبيعة المخلوقات (مثل الشمس والنار).

٤- اعتراضٌ آخر من الهراطقة

يقولون كيف يكون الابن أزلياً مع الآب، ذلك أن أبناء البشر يولدون بعد الآباء، ويصيرون بعد أن تكون سنون كثيرة قد مرَت دون أن يكونوا موجودين قبل أن يُولدوا؟ وكيف يمكن للابن أيضاً أن يكون **كلمة** الله أو صورة الله، ذلك لأن كلمة البشر ليس لها كيان[١]، وبمجرد نطقها تكف عن الوجود، وبعد القول تنحل مباشرةً إلى العدم، طالما أفصحت عن مكنون فكر ذاك الذي تحدث، وكشفت عن الأفكار التي أسرَّها في عمق قلبه.

٥- الرد

لو كان الله مثل الإنسان، ولا يوجد فيه شيء أكثر مما لنا، لَكانت هذه الأمور البشرية تسري عليه، ولَوُجدَ الآبُ قبل ابنه مثلنا، وَلَذَهَبَ الذي يجئ منه إلى العدم. لكن الله كائنٌ أسمى وبعيدٌ جداً عما يخصنا[٢]، ولا يوجد فيه أي شيء مشترك معنا من جهة الجوهر،

(١) أي أن كلمة البشر ليس لها أقنوم. والجدير بالذكر أننا كثيراً ما نشبِّه ولادة **الكلمة** من الآب على أنها مثل ولادة الكلمة المنطوقة من العقل، إلاَّ أننا يجب أن نعلم أن الغرض من هذا التشبيه هو التأكيد على أن ولادة الابن من الآب ليست مثل الولادة الجسدية، لكن يظل هناك فرق بين الولادتين، فالابن له أقنومٌ وكيان، أما الكلمة المنطوقة فليس لها كيان، وهذا ما أراد القديس كيرلس أن يؤكد علية.

(٢) سبق للقديس أثناسيوس أن أكد على الاختلاف الشاسع بين ولادة الابن من الآب، وولادة المخلوقات العاقلة وغير العاقلة، إذ يقول: "فلو أن الله ليس مثل الإنسان (وهو في الحقيقة ليس مثله)، فإنه لا ينبغي أن تطبق الخصائص الإنسانية عليه (على الله). لأن الحيوانات غير الناطقة، وكذلك البشر، إنما يتوالدون على التوالي الواحد من الآخر، منذ بدء الخليقة، والمولود الذي وُلِدَ من أب، هذا الأب هو وُلِدَ (من أب) ومن الطبيعي أن يصير هذا المولود أيضاً والداً لغيره، متخذاً خاصية الولادة في داخله من أبيه، تلك الخاصية التي تكوَّن هو نفسه بها. ولهذا من الممكن أن يطلق على مثل هؤلاء الناس اسم أب أو اسم ابن بالصفة الخصوصية. إذ لا يكمن فيهم إطلاقا ما هو خاص "بالآب" (أي صفة الأبوة)، وما هو خاص "بالابن" (أي صفة البنوة). لأنه (أي الابن) هو نفسه ابن لوالده، وفي نفس الوقت هو أب للمولود منه. ولكن الأمر ليس كذلك فيما يخص الإلوهية؛ لأن الله ليس مثل الإنسان، لأن الآب هو ليس من أب، ولذلك فهو لا يلد آخراً يصير أباً فيما بعد، والابن أيضاً لا يخرج من الآب بالتوالد. وهو (أي الابن) ليس مولوداً من أب سبق له أن وُلِدَ، لذلك فهو (أي الابن) لم يُولَد لكي يلد. لذلك ففيما

فكيف عندئذٍ يقيِّدونه بشرورنا ولا يخجلون مخضعين إياه لضروراتنا؟ لأنه بقدر ما يختلف عن الطبيعة البشرية، بقدر ما يسمو تماماً عن ظروفنا والنواميس الطبيعة الخاصة بنا، فنحن من طبيعة قابلة للفساد، بينما الله من طبيعة إلهية غير فاسدة. نحن أتينا إلى الوجود من العدم، بينما الله كان كائناً ويكون وسيكون على الدوام. ومثلما يكون عليه الوالد، يكون عليه المولود منه. فإذا كان الله الآب أزلياً، فالنور الذي أتى منه، يكون أزلياً أيضاً. فالشعاع كان موجوداً مع النور.

والكلمة الناطقة التي تأتي من عقل الإنسان تنحل إلى العدم؛ لأنها ليست حية ولا هي فعالة، ولأن الإنسان الذي ولدها يأتي إلى العدم وهو خاضعٌ للفساد. أمَّا **كلمة** الله فهو حيٌّ، ولأنه يأتي من الحي، فهو كائنٌ ويكون على الدوام. لأن الله لم يكن ولن يكون بدون الكلمة. وبولس الرسول يقول عنه: "كلمة الله حيّة وفعالة" (عب ٤: ١٢). هو إذن خالق، والكل صار بواسطته، وبدونه لم يصِر شيءٌ (أنظر يو ١: ٣).

٦- اعتراضٌ آخر من إعتراضات الهراطقة

يقولون إن المسيح ليس هو القوة والحكمة الطبيعية التي توجد في الله، فهو مختلف عن تلك التي يقول عنها بولس: "قوته الأزلية ولاهوته"، والمسيح مختلف عن هذه القوة، وهناك قوات كثيرة أخرى معه يُدعون أيضاً قوات حكيمة. أمَّا قوة الله الحقيقة والطبيعية، فهي هذه التي خلقت الكل، بينما القوات الأخرى صارت بواسطتها، بالرغم من أن المسيح يمثل قوة الله الاستثنائية والمختلفة عنها، وهي القوة التي خُلقت لكي تُقوِّي تلك التي في احتياج للقوة، وتعطي حكمةً لكل مَن هو في احتياج للحكمة، وتبرر كل مَن لا برَّ له.

وقوة الله الطبيعية هذه، يقول عنها بولس، إنها بلا بداية وغير مخلوقة، وتوجد أزلياً مع الآب، بينما المسيح خُلِق لأهدافٍ قلناها تواً. فلو اعتقد البعض الآن أن هذا المسيح هو قوة الله الطبيعية استناداً إلى أن بولس يقول: "المسيح هو قوة وحكمة الله" (١ كو ١: ٢٤)، فماذا يقولون إذن حين يسمعون الله يقول: "جيشي (قوتي) العظيمة" (يوئيل ٢: ٢٥)،

يخص اللاهوت وحده، فإن الآب هو آب بصفة مطلقة، والابن هو ابن بصفة مطلقة، وفى هذين وحدهما، وحدهما فقط، يظل الآب أباً دائماً، والابن ابناً دائماً". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الأولي، فقرة ٢١ ص ٤٥ – ٤٦.

وماذا يفعلون بالمرنم الذي يذكر قوات الله الكثيرة، حين يقول: "سبحوه على قواته سبحوه حسب كثرة عظمته" (مز ١٥٠: ٢)؟

٧- الرد

لو كان المسيح قد خُلِقَ لكي يبرر تلك الكائنات التي هي في احتياج للبر، ولكي يجعل مَنْ هم في احتياج للحكمة حكماء، ولكي يقوِّي مَنْ هم في احتياج للقوة، لَصرنا نحن بمثابة أسباب له، ولَمَا كان المسيح قد صار - بحسب رأينا - لو لم يفكر الله في خلق المخلوقات. ولو كانت هذه (القوة والحكمة) موجودة تبعاً لاحتياجنا، لأَصبح هو أداةً لخلقنا، ولَمَا كان من ذاته قوةً وحكمةً، لكنه صار هكذا بسببنا.

إذن، فمثلما دُعيَ قوةً لهؤلاء الذين قوَّاهم، وحكمةً لهؤلاء الذين صاروا حكماء، هكذا أيضاً دُعيَ ابناً لهؤلاء الذين صاروا أبناء، وأخيراً ليس هو شيئاً لذاته، بل كل هذا هو لأجلنا. فإذا كان الأمر كذلك، وكُنَّا قد أعطيناه أسباباً لكي يوجد، فكيف يتحقق ما سبق أن قاله المرنم في المزامير: "أعلموا أن الرب هو صنعنا وله نحن شعبه وغنم مرعاه" (مز ١٠٠: ٣)؟ وعلى الرغم من أنه هو الذي صنعنا، بَدونا - وفق رأيكم - وكأننا صرنا بمثابة بذور بالنسبة له τά σπέρματα ولأجل احتياجنا خُلِق. مثله في ذلك مثل السماء التي صارت لكي تظلل على هؤلاء الذين هم على الأرض، والشمس لكي تضيء على مَنْ هم في احتياج. وبالتالي لا يوجد شيءٌ زائد على ذلك لا في الابن ولا في المخلوقات، طالما هو أيضاً، مثلها قد خُلِق لكي يؤدِّي خدمةً لباقي المخلوقات.

فليهرب حديثنا بعيداً عن هذا السُخف والهذيان.

٨- ردٌ آخر من نفس هذه الأقوال

أيها الهرطوقي، أنت تعترف وبغير إرادتك، أن حكمة الله وقوته الطبيعية كائن فيه دون أن يُخلق. فعندما تسمع أن الابن هو غير مخلوق، فلا تسمع أيضاً أن هناك اثنين غير مخلوقين. لكننا نؤمن بأن هذه الحكمة والقوة التي توجد في الله أزلياً دون أن يُخلَق، هي الابن، الذي خَلَقَ الكل، وصار أيضاً جسداً لأجلنا، وفق أقوال يوحنا (أنظر يو ١: ١٤).

٩- ردٌ آخر على شكل تساؤلات

لماذا يفعل الآب كل شيء بواسطة الابن؟ ولماذا أثناء المعمودية[1] المقدسة نستدعي الابن أيضاً مع الآب؟ ولماذا يحصى الابن - بينما هو طبيعة مخلوقة، بحسب رأيكم - مع الخالق؟ وفيما احتاج الآب لهذا الذي خُلِق ليكمل به قداسة الكل؟ ولماذا ندعوه معيناً لنا؟

وبالرغم من أن مخلوقاتٍ أخرى كانت قد وُجِدَت أيضاً، إلاّ أن واحداً منها لم يُستخدم للمهام التي ذكرناها، لأن الابن فقط هو مَن يوجد دائماً مع الآب. وإذا لم يكن الابن إلهاً، فأيُ سببٍ يدعو للكرازة بالإيمان بخالق ومخلوق؟ ولماذا دُعي خالقٌ، لو لم يكن بحسب الطبيعة له كلٌ ما للآب أيضاً؟ لأن الابن ذاته قال: "كل ما للآب هو لي" (يو ١٦: ١٥). وإذا كان الآب لديه القوة على أن يخلق، فهذه الخاصية توجد أيضاً في الابن. وللآب أيضاً القوة على أن يقدّس وأن يخلّص، وأن يفعل كل ما يليق بالله، والكل يصير بواسطة الابن؛ لأنه هو دائماً مع الآب، مثل الشعاع مع النور. إذن الابن هو الله، وليس مخلوقاً كما يقول أولئك الذين يكذبون، لكنه وليدٌ أصيلٌ يأتي من جوهر الآب.

---

(١) يربط القديس كيرلس فاعلية المعمودية بتجسد **كلمة** الله، وهذا يشرحه أثناء حديثة عن الذي يتدنس بلمسة أشياء دنسة طبقاً للناموس لاو ١١: ١٣ - ٢٤، إذ يقول: "كما يحكم الناموس على مَنْ يتدنس لأنه لمس أشياءً دنسة أن يغسل ملابسه، ويقول: نحو الغروب يكون طاهراً معلناً بذلك سر المسيح الذي به تطهرنا، مملوئين من غنى الغفران الذي تمنحه المعمودية المقدسة وقت مجيء الرب، الذي صار بطريقة ما نحو الغروب؛ لأنه بالفعل يسير تجاه نهاية هذا الدهر. ألا نقول إن **كلمة** الله تأنس في الأيام الأخيرة؟". السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء السابع، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية أكتوبر٢٠٠٨، المقالة الرابعة عشر ص ١٤٨.

المقالة السابعة عشر

لا توجد في الخليقة أيٌ من صفات الابن بحسب الطبيعة، لكن الكل لديه هذه الصفات، إمَّا بالمشاركة أو بالتشبُّه بذاك الذي يعطي هذه الصفات. لكن الابن ليس هكذا. ولذلك، فهو مختلفٌ عن الخليقة. وطالما هو هكذا، إذن فهو ليس مخلوقاً

١- دفاعٌ

بما أن كل الخليقة تجهل ماهية الآب؛ لأن أحداً منها لا يعرف ماذا يكون الآب، بل فقط الابن هو الذي يعرفه، إذن فالابن ليس مخلوقاً.

٢- ردٌ آخر

بما أن أحداً من الكائنات التي دُعيت للوجود ليس إلهاً بحسب الطبيعة، في حين أن الابن هو إله بحسب الطبيعة، إذن فهو ليس من المخلوقات. أمَّا إذا كنا عبيداً لهذا الذي ليس هو إلهٌ بحسب الطبيعة، فبقدر ما كانت حياتنا السابقة تبعث على الضحك، بقدر ما هي تبعث الآن على البؤس؛ لأننا نقدم العبادة[1] لهذا الذي ليس هو إلهٌ بحسب الطبيعة. ليتنا نهرب من هذا السُخف.

---

(1) عندما نقدم العبادة للابن فهذا يعنى اعترافاً منا بإلوهيته، هكذا يقول القديس كيرلس أثناء شرحه لإنجيل يوحنا: "لو كان الابن أقل من الآب وهو يُعبد منّا ومن الملائكة القديسين، فإن هذا يعتبر عبادة إلهين، لأن الذي

٣- ردٌ آخر

إن كل ما هو مخلوق يكون مختلفاً تماماً عن غير المخلوق بحسب الطبيعة، لذلك لا يمكن له أن يشاركه المجد على ذات القياس؛ لأن الله يقول: "مجدي لا أعطية لآخر" (أش ٤٢: ٨). لكن إذا كان الابن قد شارك الآب ذات مجده، إذن، فهو ليس مخلوقاً لأنه يحمل مجد مَنْ هو غير مخلوق[1].

٤- ردٌ آخر

الكتب المقدسة تدعو الابن إلهاً حقيقياً، وهكذا نؤمن. فإذا كان كلُ ما هو مخلوق جديداً في علاقته مع غير المخلوق، وكان وجودُ إلهٍ جديدٍ بيننا لا يتفق مع الناموس الإلهي، فالابن إذن ليس إلهاً جديداً، الأمر الذي يثبت أنه غير مخلوق.

ينقصه الكمال سيَظَلّ دائماً غير قادر على أن يصل إلى المساواة في الجوهر مع الكامل. وما أعظم الفرق بين أن يكون الابن من جوهر الآب، وأن يكون إضافةً غريبةً إلى اللاهوت. والإيمان ليس هو إيمان بعدّة آلهة، بل بإله واحد هو الله الآب مع الابن والروح القدس المتحدين معه. إذن، الاتهام الموجه للابن أنه أقلّ من الآب هو لا شيء بالمرة ولا يعتد به. لأنه كيف يمكن أن مَنْ هو أقلّ كمالاً يكون في وحدة مع الآب الكامل؟ بل كيف يكون متحداً بالطبيعة في وحدة الجوهر مع الآب؟". شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، الإصحاح الأول، ص ٥٣.

(١) التأكيد هنا على أن الابن بتجسده لم يفقد مجده الذي شهد به كل مَنْ رآه، وهذا ما أكده القديس كيرلس في شرحه لإنجيل يوحنا، إذ يقول: "بعد أن قال إن **الكلمة** صار جسداً، أي صار إنساناً، وبعد أن جعله معنا في الأخوّة الخاصة مع الخلائق والعبيد، يعود ويؤكد كرامته الإلهية التي لم تتغيّر، ويعلنه لنا إلهاً كاملاً، له كلّ صفات وطبيعة الآب. فالطبيعة الإلهية لها ثباتها الخاص بها، ولا تقبل التغيّر إلى ما ليس منها، بل تظلّ بلا تبديل محتفظة بما لها من صفات. ولأجل ذلك بعد أن قال الإنجيلي: "**ٱلْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً**" عاد وأكد أنه لم يخضع لضعفات الجسد، ولم يفقد قوّته ومجده الإلهي، عندما لبس جسد الضعف الذي بلا مجد. فقال: "**وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ**"، الذي يفوق كلّ مجد، والذي يجعل كل مَنْ يراه يعترف أنه **مجد الابن الوحيد، ابن الله الآب**، المملوء نعمة وحقاً. وإذا نظر إنسان إلى جماعات القديسين وقاس الأعاجيب التي فعلها كل واحد منهم، تملّكه العجب والمسرّة بما حققه كلّ واحد منهم، حتى أننا نقول، إنهم فعلاً امتلئوا بالمجد من الله. لكن الإنجيلي الإلهي والشاهد يقول إننا رأينا المجد ونعمة الابن الوحيد، التي لا تقاس بما لدى الآخرين، بل بما لا يقاس من مجد ورفعه، لأن النعمة التي فيه لا يمكن قياسها فهي لم تؤخذ من آخر بل هي كاملة وحقيقية لأنها في الكامل والحق، فالمجد والنعمة لم تعطَ له ولم توهب من خارجه كإضافة، بل هي خاصة به كصفات خاصة بالذي هو من جوهر الآب وبمن هو في الآب". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول، ص ١٣٤.

٥- ردٌّ آخر

إذا كان المخلوق يختلف عن غير المخلوق، ولا ينبغي أن نسجد له؛ لأن الوصية الإلهية تمنع هذا، وكُنّا قد أخذنا وصيةً أن نسجد للابن، لا لإلهٍ آخر يكون مماثلاً لأي كائن مخلوق، إذن فالابن ليس مخلوقاً[١].

٦- ردٌّ آخر

بما أن كل مخلوق يكون عبداً لذاك الذي خلقه، إذن يستحيل عليه أن يمنح الحرية لآخر؛ إذ أنه لا يملك تلك الحرية أصلاً. أَمَا وإن كان الابن قد منحها، فبالتأكيد ليس باعتباره عبداً، بل بالحري بكونه رباً وإلهاً.

٧- ردٌّ آخر

إذا كانت كل خليقة مستعبَدَةً لطبيعتها[٢] التي خُلِقت عليها، وكان الله حراً تماماً وأسمى من أي احتياجٍ طبيعي، إذن يكون واضحاً أنه ليس مستعبداً للطبيعة. ولأن الابن هو الله، فهو إذن ليس مستعبداً للطبيعة، الأمر الذي يتناسب مع المخلوقات. وعلى ذلك، فالذي – بحسب الطبيعة – لا يَمُتُّ بصلة قرابة للخليقة، فكيف لا يكون من طبيعة أخرى غير طبيعتها وغريبٌ عنها؟

---

(١) الفارق شاسع بين الابن غير المخلوق والإنسان المخلوق، وهذا ما يؤكده في موضع آخر القديس كيرلس، عندما يقول: "رغم أننا خُلقنا على صورته ومثاله إلاّ أن الفارق بين الله والإنسان فارق شاسع. فالله بسيط في طبيعته وغير مركّب بينما نحن نملك طبيعة مركبّة، إذ أن طبيعتنا البشرية مكونة من أجزاء متعددة. ونحن من التراب فيما يخص الجسد، وهذا يعنى أننا معرّضون للفساد والزوال مثل الأعشاب. بينما الله فوق كل ذلك، والنفس الإنسانية عرضة لتقلبات كثيرة من الصالح إلى الطالح ومن الطالح إلى الصالح، ولكن الله هو هو دائماً، صالحٌ إلى الأبد ولا يتّحول ولا يتغّير من حال إلى حال. وعدم تغيُّر الله ليس صفة عرضيّة بل يرجع إلى جوهره. وهكذا أصبح من الواضح أن البشر الذين أتوا إلى الوجود من العدم لا يتشابهون مع الله حسب الطبيعة، بل يمكن أن يتشابهوا معه في نوعية الحياة الجديدة والسلوك المستقيم". حوار حول الثالوث، جـ ١، الحوار الأول، ص ٣٥.

(٢) يستشهد القديس كيرلس بما ورد في المزمور: "لأن الكل عبيدك " مز ١١٩:١٩ لكي يبرهن على أن كل خليقة لها طبيعة مستعبَدة أي تعبد الله.

٨- ردٌ آخر

بما أن أحداً من المخلوقات ليس مثل الله الآب بحسب الطبيعة، بينما الابن هو مثل الآب بحسب الطبيعة، طالما أن مَنْ يراه يرى الآب (أنظر يو ١٤: ٩)، بالتالي، ليس مخلوقاً مَنْ هو مثل الآب بحسب الجوهر[١].

٩- ردٌ آخر

بما أن كل المخلوقات هي عبيد لله[٢]، وليست أرباب مجده، بينما الابن ليس مثل هذه المخلوقات؛ لأنه هو رب المجد، إذن فهو ليس مخلوقاً.

١٠- ردٌ آخر

بما أن كل شيء أتى إلى الوجود من العدم، وإلى العدم يعود ثانيةً، وإذا كان الابن على خلاف ذلك، بما أنه الإله حقاً، فالابن إذن لم يُخلق من العدم، بل وُلدِ حقاً من الآب.

١١- ردٌ آخر

بما أن إمكانية الخطأ هي إحدى صفات المخلوقات، دون أن تكون هذه الصفة واحدة من خواص الابن (أنظر ١ بط ٢: ٢٢)، إذن فالابن ليس بمخلوقٍ.

١٢- ردٌ آخر

بما أنه ما مِن مخلوقٍ ظهر – على الإطلاق - باعتباره خالقاً لكائنات من العدم، بينما الابن يخلق، فكيف إذن يمكن أن ينتمي إلى المخلوقات؟

---

(١) المبدأ هنا هو أن الأقل لا يعلن الأعظم، وبما أن الابن يعلن الآب إذ هو صورته، إذن فهو مساوٍ للآب، وهذا يؤكده في موضع آخر القديس كيرلس، قائلاً: "يقول المسيح لتلاميذه موضحاً أنه مساوٍ للآب: "اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ" (يو ١٤: ٩)، فكيف يُعلن الذي هو بطبيعته كائنٌ بذاته، ذلك، وهو أقل من الآب؟ فإذ كان أقل من الآب وهو يُعلِن الآب بدون وساطة أو تغيير، فإنه إذا استمر في إعلان الآب سوف يصبح مثل الآب، لأن الابن صورة الآب. ولكن هذا مستحيل. فالأقلّ لا يمكن أن يعلن الأعظم منه، إذن الذي فيه الآب والذي يعلن الآب لابد وأن يكون كاملاً لأنه صورة الكامل أي الآب ". شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٦٠.

(٢) أنظر مز ١١٩: ١٩.

١٣- ردٌ آخر

إذا كانت كل المخلوقات تتشابه فيما بينها باعتبارها مخلوقات، ولا يختلف أحدها عن الآخر من هذه الجهة، فإن كان الابن أيضاً - بحسب زعمكم - مخلوقاً، لَمَا اختلف عن أيٍ من المخلوقات لو كان قد خُلِقَ حقاً. لكن بما أنه يختلف عن كل المخلوقات في كل شيء، فمن الواضح أنه يختلف أيضاً من جهة الطريقة التي صار بها، أي من جهة أنه لم يُخلَق. لأنه هكذا يختلف عن هذه المخلوقات التي خُلقت. وإذا كان ذلك هو الحق، فكيف لا يكون هو الله؟

١٤- ردٌ آخر

بما أن كل الخليقة خُلِقَت في لحظة ما من الزمن، دون أن يسبق أحدٌ منها ولادة الابن، فهو إذن لم يُخلَق. لأن لحظةً زمنيةً لم تسبقه، وإلاّ فكيف يكون خالق الكل، إذا كانت فترةٌ زمنيةٌ ما قد سبقته[1]؟ ولو افترضنا أن هذه الفترة الزمنية كانت غير مخلوقة، لَكانت عندئذٍ معادلة، أو مساوية في طبيعتها لعدم صيرورة الله. فإن لم تكن هناك لحظةٌ ولا فترةٌ زمنيةٌ ولا شيءٌ آخر قبل الابن، فمن أين لنا أن نستنتج أن الآب كائن قبل الابن، طالما أنه لا يوجد شيءٌ يُظهِرُ أن الآب وُجِد مسبقاً؟

١٥- ردٌ آخر

بما أن أحداً من المخلوقات لم يُدعَ إلهًا في الكتاب المقدس ولم يكن إله الكل، وكان الابنُ هو إله الكل، إذن فهو ليس من المخلوقات. أمَّا إذا كان الابن هو إله الكل، وكان مخلوقاً أيضاً، عندئذٍ يكون الآبُ الذي هو أيضاً إله الكل - وفق هؤلاء - مخلوقاً أيضاً، الأمر الذي نعتقد أن التفكير فيه نوعٌ من التجديف.

---

(١) كان هذا بند من بنود قرارات مجمع نيقية (٣٢٥م): يُحَرم مَنْ ينادى بأنه كان هناك وقت لم يكن الابن موجوداً، وقد سجل القديس كيرلس هذا البند في حواره حول الثالوث بقوله: "والذين يقولون إنه كان هناك وقت، لم يكن فيه الابن موجوداً وأنه قَبْل ولادته لم يكن موجوداً أو أنه صار من العدم، أو أن الابن من جوهر أو أقنوم آخر، أو أنه مخلوق، أو أنه تعرّض للتغيّر والتحوّل، هؤلاء جميعاً تحرمهم الكنيسة الجامعة الرسولية". حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الأول، الحوار الأول ص ٢٨.

١٦- ردّ آخر

طالما أن أحداً من المخلوقات لا يمكنه أن يصنع ما يصنعه الله، وكان الابن يصنع كل ما يصنعه الآب، إذن فهو ليس من المخلوقات.

١٧- ردّ آخر

إذا كانت كل المخلوقات قد أخذت وجودها من آخر، فهي لذلك بالكاد تُدعى آلهة[١]؛ لأنها صارت آلهةً بالمشاركة. وإذا كان السجود ممنوعاً لأولئك الذين ليسوا آلهةً بالطبيعة، بعكس الابن، فذلك لأن الابن هو الله بحسب الطبيعة، الأمر الذي لا يجوز للمخلوقات.

١٨- ردّ آخر

لو كان ممكناً لمن يخلق كائنات من العدم، أن يصير من آخر، وأن يخلقه الآبُ أيضاً من العدم، لكان من الوارد - طبقاً لأولئك - أن يكون قد صار مثل المخلوقات من العدم. لكن إذا كان من غير الممكن، ومن غير اللائق أن نتخيل أن خالق الطبائع المختلفة، يكون قد خُلِقَ من طبيعةٍ أخرى، فإنه من غير المعقول أيضاً أن نعتقد أن خالق كل الطبيعة، قد خُلِقَ من طبيعة أخرى[٢]. لأنه لو كان الذي يخلق سبق له أن خُلِقَ، لأمكن للمخلوق أيضاً أن يخلق، هذا لو كان الابنُ فعلاً مخلوقاً، وقد خُلِقَ بواسطة أولئك، وهو محضُ عبثٍ؛ لأن الطبيعة الإلهية لها خواصها التي يليق أن تقتصر عليها فقط، وأحد هذه الخواص، بل أولها، هو إمكانية الخلق من العدم.

---

(١) "أنا قلت إنكم آلهة وبنو العلي كلكم" (مز ٨٢: ٦).

(٢) هنا يواجه القديس كيرلس الهراطقة بمعطيات لا يستطيع أي عاقل أن يختلف عليها، فهل من الممكن للابن خالق الجواهر من العدم أن يكون مخلوقاً من العدم؟ وهل من الممكن تخيل أن خالق الطبائع يكون قد خُلِق من طبيعة أخرى؟ وطالما أن هذه الافتراضات لا يقبلها أحد إذن فالابن ليس مخلوقاً من العدم ولا هو خُلِق من طبيعة أخرى، أي بواسطة آخر.

المقالة الثامنة عشر

المخلوق ليس هو المولود،
وبالنسبة لله لا يتساوى فعل الخلق مع الولادة.
كذلك نعرض للنتائج الخاطئة المترتبة على رأي الهراطقة القائل بأن المخلوق هو ذاته المولود

١- رد

لو كان المولود من الله هو ذاته المخلوق، لَمَا جاز أن يُقال للابن الوحيد: "هذا هو ابني الحبيب" (مت ٣: ١٧). لأن المخلوقات الجامدة، في هذه الحالة، بحسب الطبيعة تكون هي أيضاً أبناء الله، وفق افتراضكم العبثي بأن المخلوق هو نفسه المولود.

٢- ردّ آخر

لو تساوى استخدام وصف "المخلوق" مع وصف "المولود" كوصف أساسي بالنسبة لنا، وصار الأمر على ذات النحو بالنسبة للابن أيضاً، لَمَا تفوَّق الابن عنَّا في شيء، طالما كان في الأساس مخلوقاً ومولوداً.

٣- ردّ آخر

لو كان المولود هو ذاته المخلوق، وكان الروح القدس أيضاً مخلوقاً - طبقاً لهؤلاء - لكان مولوداً أيضاً. فإذا كان الروح مولوداً، والابن أيضاً كذلك، فكلاهما إذن مولود،

وبالتالي يكون الابن – على هذا النحو – واحداً من ضمن إخوة كثيرين، فكيف يكون هو الابن الوحيد[١]؟

٤- ردٌّ آخر

لو كان كل مخلوقٍ مولوداً أيضاً، لَمَا حُرِمَ أحدٌ من المخلوقات من البنوة. ولو كان الأمر على هذا النحو، أي إذا كانت المخلوقات الجامدة التي لا نفس لها، لديها هذه البنوة بحسب الطبيعة، لكان وعد الله لنا بالبنوة نوعاً من الظلم. هذا طبعاً لو كان كل مخلوق في الأساس مولوداً[٢].

---

(١) يرى القديس كيرلس أن مجرد دعوة **الكلمة** بأنه الابن الوحيد فهذا يعني أنه ليس مثل المخلوقات، وهذا ما أكده في شرحه لإنجيل يوحنا، حيث كتب قائلاً: "لأننا يجب أن نلاحظ إنه يدعوه "الابن" الإله الابن الوحيد ويقول إنه "في حضن الآب" لكي ندرك أنه لا يمكن أن يُحسب مثل المخلوقات أو أنه له طبيعة مخلوقه بل أن له كيانه الذاتي من الآب وفي الآب". انظر شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، الجزء الأول. ص ١٤٣. وأيضاً يشرح القديس كيرلس، في حواره حول الثالوث، للهراطقة النتائج العبثية الناتجة من اعتبارهم الابن مخلوق، إذ يقول: "التفكير بأن الخَلقْ والولادة في الله هما أمران لا تمايز بينهما بسبب بساطة الطبيعة، فهذا معناه أن نُظهِر الكتب المقدّسة أنها خرافات باطلة، لأنها تُسمِي الابن، بـ "الوحيد الجنس" (المونوجينيس). وإذا كان ما يقوله المضادون صحيحاً، فيجب أن يكون له أخوة كثيرون"، ثم يستمر شرحه، قائلاً: "ومن أين أتى التلاميذ، وهم الحكماء، بهذا الاعتقاد عنه أنه الابن الوحيد لله وليس مخلوقاً؟ فالمسيح غيّر طبيعة الماء، واستطاع أن يمشي على مياه البحر كأرض صلبة بدلاً من أن يغوص في أعماقها، مما أثار دهشة الرسل القديسين بقوة. وعندما دخل السفينة معهم، سجدوا له معترفين وقائلين "بِالْحَقِيقَةِ أَنْتَ ابْنُ اللّهِ". وما فعله المسيح (في هذه المعجزة) جعلهم يؤيدون اعترافهم به بصيغة توكيد بقولهم "بالحقيقة". هل بعد هذا نستطيع أن نتهمهم بالكذب؟ هل تختلط علينا الأمور ونتهمهم بأنهم حادوا عن الحق؟ وإذا كان (الرّب) ليس ابناً خارجاً من جوهر الذي وَلَده، أي الآب، بل هو مجرد مخلوق، وإن كان لقب ابن الله ليس إلاّ مظهراً فقط، فبماذا كان التلاميذ يفكرون حينما سجدوا له؟ لماذا دعوه "ابن الله" وهم معلّمو أسرار الإيمان وكارزوا الحق الإلهي؟". حوار حول الثالوث، الجزء الأول، الحوار الثاني، ص ١٠٣ – ١٠٤.

(٢) يحرص القديس كيرلس على توضيح الفرق بين حالتنا البشرية وحالة الابن بحسب الطبيعة المولود من جوهر الآب، لذلك في حواره الثاني حول الثالوث يؤكد على هذا الأمر، قائلاً: "الله لم يلدنا من طبيعته الذاتية، ولكن يجب ألاّ نخلط بين حالتنا البشرّية وحالة الذي هو الابن بالطبيعة، ولذلك لا ينبغي أن نستخدم نفس الكلام الخاص بحالتنا البشريّة لنتحدّث به عن الابن. نحن خُلقنا، وهذا كلام يوافق عليه الجميع، أما هو فقد وُلِدَ من جوهر الله الآب. أما نحن فقد نلنا نعمة أن نتشبّه بالابن في الولادة من الله. إذ نلنا من رحمته نعمة جعلتنا أبناء الله، إذ حصلنا على كرامة من خارج طبيعتنا أُضيفت إلينا، بها صرنا أبناء بالتبني مشابهين الابن الحقيقي ودُعينا لمجد ذلك الذي هو الابن بالطبيعة". حوار حول الثالوث، الجزء الأول، المرجع السابق، ص ٩٩.

٥- ردٌّ آخر

لو كان المولود هو ذاته المخلوق، وكان المخلوق من الله مخلوقاً بحسب الطبيعة، لَتساوى - عندئذٍ - المخلوق بواسطة الله والمولود منه بحسب الطبيعة. وإذا كان المولود بحسب الطبيعة لا بالبنوة، مساوياً لله في الجوهر، لأصبح كل ما خُلِقَ إلهاً بحسب الطبيعة، لا بالمشاركة، هذا طبعاً إذا كان المخلوق بالطبيعة هو ذاته المولود.

٦- ردٌّ آخر

لو كان المخلوق مولوداً بمعنى الكلمة، لكانت الملائكة - من باب أولى - أبناءً بمعنى الكلمة. لكن إذا كان مَنْ هم أسمى جداً - قياساً على المخلوقات - ليسوا أبناءً (لأنه لم يقل أبداً لأيٍ من الملائكة أنت ابني)[1]، إذن فالمخلوق ليس مولوداً أصلاً.

([1]) أنظر مز ٢: ٧ إذ يستشهد به القديس كيرلس لإثبات أن الابن مولود وأن الخلق ليس مساوياً للولادة. فالابن هو مولود من جوهر الآب وبالتالي هو غير مخلوق ولا يُحسَب من ضمن المخلوقات. ومن الجدير بالذكر أن ق. أثناسيوس سبق أن استخدم نفس هذا المزمور مع آية أخرى "هَذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ" مت ٣: ١٧ للبرهنة على أن الابن هو مولود من جوهر الآب وليس مخلوقاً. انظر ضد الأريوسيين: ٢ فقرة ٢٣ ص ٥٠.

هناك أيضاً البرهان الذي سجله القديس كيرلس قد سجله في حواره حول الثالوث بكل وضوح حين قال: "كيف يمكن إذن أن نعتقد نحن أو الملائكة القديسين - بشكل أكيد - أن الابن هو رسم المجد الذي لا يُعبّر عنه وبهاء جوهر الله الآب، لو لم يكن يمتلك امتياز كونه مولوداً ولكانت ولادته مجرّد كلمات جوفاء، ولكان مختلفاً في طبيعته (عن الآب)، وبذلك يُحسب ضمن المخلوقات؟ وفي هذه الحالة ما الذي يمنعنا من أن نحسب الآب أيضاً ضمن باقي المخلوقات، ونضطر نتيجة لذلك أن نعتبر الآب مثل باقي الكائنات التي تخضع للتغيير مادام مَنْ هو صورته ورسم جوهره (أي الابن) خاضعاً أيضاً للتغيير؟ كيف يمكن للابن في هذه الحالة أن يكون وارثاً لاسم أفضل من الملائكة؟ وإذا كان الخلق - عند الله - مساوياً للولادة، فإن ذلك الذي له هذه المكانة، أي الابن، سوف يكون من ضمن المخلوقات، وإن كان أي مخلوق سيصير مولوداً، فما الذي يمنع الله إذن أن يقول لكل واحد من الملائكة القديسين: "أَنْتَ ابْنِي، أَنَا الْيَوْمَ وَلَدْتُكَ"؟ فإذا كانت الملائكة تمتلك هذه المكانة، فلماذا يحرمها الله من هذا الحق؟ لماذا يحرمهم من مجد الولادة، ومن نوال لقب ابن؟ وحسب الآراء الغبية التي يتمسك بها هؤلاء الناس، لا يوجد فرق بين الولادة والخلق، على اعتبار أن الله بسيط. فهم يجعلون معنى الولادة والخلق متداخلين، ويخلطون بين هاتين الحقيقتين". حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الأول، الحوار الثاني، ص ١٠٥ - ١٠٦.

٧- ردٌ آخر

لو كان المولود هو ذاته المخلوق، لأصبح المخلوق آباً؛ لأنه إذا أمكن للابن أن يخلق، لأمكن له أيضاً أن يكون آباً. فإذا كان الأمر على هذا النحو، عندئذٍ يصبح غير الصائر آباً لآب، دون أن يكون له في معرفته الإلهية ما هو أكثر مما هو لطبيعتنا المخلوقة. هذا طبعاً لو كان - بحسب رأي الهراطقة - المولود هو ذاته مخلوقاً[1].

٨- ردٌ آخر

لو كان المخلوق مولوداً حقاً مثل الابن، لأضحى الابن أخاً للكل، لا الرب الإله. لكن بما أنه هو الرب والإله، فهو ليس أخاً.

وبما أن الابن هو الابن الوحيد، فلا أخ له من المخلوقات، ولا يمكن أن تكون المخلوقات مولودات من حيث الأصل، بل هي في الأساس مجرد مخلوقات؛ لأنه كيف يكون المخلوق هو ذاته المولود؟

٩- ردٌ آخر

لو كان المخلوق مولوداً، لأمكن لهذا المخلوق أن يصبح والداً. وكوالدٍ يلد - بالطبع - من ذاته الكل، بينما هو كخالق يفعل نفس الأمر، ولكن خارجياً. فكيف يمكن أن يوصف الفعل - أي فعل الولادة - بذات الاسم في الحالتين، إذا كان الذي يمكنه أن يلد خارجياً، يمكنه أيضاً أن يلد من ذاته، إلاَّ إذا كان أحد الإسمين مزيفاً؟

---

(١) الهراطقة يخلطون بين حالتنا البشرية وحالة الابن بالطبيعة ومشكلتهم - كما قلنا - هي اللغة البشرية، إذ يجعلونها تصف الولادة الإلهية بنفس المفاهيم البشرية، وهذا ما شرحه القديس كيرلس أيضاً في حواره حول الثالوث، قائلاً: "الله لم يلدنا من طبيعته الذاتية، ولكن يجب ألاّ نخلط بين حالتنا البشرّية وحالة الذي هو الابن بالطبيعة، ولذلك لا ينبغي أن نستخدم نفس الكلام الخاص بحالتنا البشريّة لنتحدّث به عن الابن. نحن خُلقنا، وهذا كلام يوافق عليه الجميع، أما هو فقد وُلِدَ من جوهر الله الآب. أما نحن فقد نلنا نعمة أن نتشبّه بالابن في الولادة من الله. إذ نلنا من رحمته نعمة جعلتنا أبناء الله، إذ حصلنا على كرامة من خارج طبيعتنا أُضيفت إلينا، بها صرنا أبناء بالتبني مشابهين الابن الحقيقي ودُعينا لمجد ذلك الذي هو الابن بالطبيعة". حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الأول، الحوار الثاني، ص ١٠٧ - ١٠٨.

١٠- ردٌ آخر

لو كان المخلوق هو ذاته المولود، وكان الروح مخلوقاً أيضاً كما يقولون، إذن فالروح هو أيضاً مولود. ولو كان الروح هو أيضاً وليد الآب، لَمَا كان الابن هو وحيد الجنس. ولو كان الروح وليد الابن، لَكان - عندئذٍ - ابنَ الابنِ. هذا طبعاً لو كان المخلوق هو ذاته المولود.

١١- عملية الخلق بالنسبة لله ليست هي ذاهّا عملية الولادة

لو كانت الولادة تتساوى مع الخلق عند الله، وكان الآبُ قد وَلَدَ الابنَ دون وسيطٍ، فالواضح أنه ليس في حاجةٍ لوسيط في خلقٍ أو ولادة. أَمَا وإن كان يلد دون وساطة من أحدٍ، إلاَّ أنه لا يخلق الكل من دون وسيط، فكيف إذن تكون عملية الولادة عند الله هي ذاهّا عملية الخلق؟ وإذا كان الله، بكونه الخالق، يُسبب زلازل وقحطاً وطوفان[1]، إذن فهو يلد ما يصنعه، إذا كانت الولادة عنده هي ذات الخلق؟!!

١٢- ردٌ آخر

لو كان الله يلد مثلما يخلق، لَمَا اختلف أبداً عن العنكبوت[2]، طالما أن الخلق لا يختلف أبداً عن الولادة وفقاً لهؤلاء، وإن كان العنكبوت - منقاداً من ناموس الطبيعة - يلد حيث يخلق، فلا شك أن الله الذي ليس هو تحت ناموس الطبيعة، تُنتهك كرامته من جانب هؤلاء، إذ يخضعونه للطبيعة.

١٣- ردٌ آخر

لو كان الخلق هو ذاته الولادة عند الله؛ بحجة أنه بسيطٌ، لانطبق ذلك أيضاً على المعرفة المسبَقَة عن الخليقة. وإذا كان الأمر على هذا النحو، لَكان الله – تبعاً لنفس الحجة،

---

(١) مسألة أن الله يسبب زلازل وطوفان وقحط يرجع إلى تعليم كتابي وارد في سفر أشعياء بأن الله لا يوجد معه إله آخر، بل هو ضابط الكل، وما من بلية إلاَّ وصانعها هو الله أي تحدث بسماح منه، ولا توجد آلهة أخرى سواه أنظر (أش ٤٥: ٧).

(٢) ربما الاعتقاد السائد في ذلك الوقت أن ولادة العنكبوت غامضة وتشبه عملية الخلق.

أي أنه بسيط – هو الخالق للشرور التي يعرفها مسبَقاً. هذا طبعاً إذا كان خلقه للشرور[1] مماثلاً للولادة.

١٤- ردٌ آخر

لو كان الخلق هو ذاته الولادة عند الله؛ بحجة أنه بسيطٌ، لتماثلت أيضاً عملية الرؤية مع عملية الولادة؛ وذلك حتى يستمر بسيطاً دائماً. أمَا وإن كانت هذه الأمور مختلفة وليست على هذا النحو؛ باعتبار أن ما يراه ليس هو ذاته ما يلده، فإن هذا لا يؤثر على بساطته، فكونه يلد بطريقة، ويخلق بأخرى، فإن ذلك لا يحرمه من بساطته[2].

١٥- ردٌ آخر

إذا كانت تلك المخلوقات التي تختلف فيها عملية الخلق عن عملية الولادة، تمتلك خاصية أن تلد من ذاتها، وتخلق خارجياً[3]، فإن تلك التي تكون فيها عملية الولادة هي ذاتها الخلق، لا تكون لها إمكانية على أن تخلق خارجياً بذات القدر الذي يمكنها فيه أن تلد من

---

(1) أنظر (أش ٤٥:٧) حيث يعلن الله أنه خالق للخير والشر وكذلك للنور والظلمة لكي يؤكد للشعب أن ليس إله غيره ضابط الكل.

(2) لقد شرح هذه الحقيقة القديس كيرلس باستخدام الأمثلة لكي يوضح للهراطقة أن اختلاف الولادة عن الخلق لا يؤثر على بساطة الطبيعة الإلهية، إذ يقول: "إن الله بقدرته وإبداعه قد خَلَق الملاك والإنسان، والسماء والأرض، البقرة والحصان، الخشب والصخر. وكل كائن من هذه الكائنات يتبع طبيعته الخاصة والتي لا تتشابه مع الطبائع الأخرى. ولكن هذا لا يعني أن هناك تناقضاً بين هذه الطبائع. فطبيعة الملاك ليست مناقضة لطبيعة الإنسان، ووجود السماء لا يتناقض مع وجود باقي الكائنات. فليس هناك عداوة بين السماء والأرض، أو بين الخشب والصخر، لأنها لا تأخذ وجودها من أصول متناقضة يفصل بينها تناقض الطبيعة. وبجانب هذه الكائنات، فإن الله بقوّته قد خَلَقَ النار التي تحرق والماء الذي يرطّب، ومع ذلك فالاثنان من صنع كائن واحد بسيط. ومادام هناك كائنات مختلفة من صنع قوّة بسيطة، فلماذا لا نقبل أفعالاً متعدّدة لجوهر بسيط. وإن لم يقبلوا هذا، فهم يقلبون الحقيقة ويهدمونها باسم التقوى. وهناك أمر آخر يجب ألاّ نهمله، فحسب رأيهم إن كان الله بسيطاً، فإن عمله لا يأخذ إلاّ شكلاً واحداً، وأن هذا هو المناسب لله. فإن كان الأمر كذلك، فلماذا لا نؤمن أيضاً أن هناك بساطة بهذا المعنى في ما يريده الله وما يفعله معنا؟". حوار حول الثالوث، الجزء الأول، المرجع السابق، الحوار الثاني، ص ١١٠ - ١١١.

(3) يقصد أن يصنع أحد شيئاً فهو يصنعه خارج ذاته من مادة موجودة مسبقاً، الأمر الذي يختلف عن عملية الولادة التي هي من ذات الشخص.

ذاتها. إذن لو أنهم قبلوا أن من يستطيع أن يخلق، يمكنه فقط أن يخلق خارجياً، لا أن يلد أيضاً، لكان الخالق بحسب الطبيعة - عندئذٍ - آباً متبنّى[1].

١٦- رد آخر

لو كانت عملية الخلق هي ذاتها عملية الولادة عند الله؛ بحجة أنه بسيط، فالأمر بالنسبة لنا ليس هكذا؛ لأن طبيعتنا ليست بسيطة مثل طبيعة الله. أمَّا إذا كان الأمر على هذا النحو بالنسبة لله، عندئذٍ لَتساوت عنده عملية الاعتناء بالخليقة مع عملية الولادة[2]. في حين أن الأمر بالنسبة لنا يكون مختلفاً[3]؛ لأن طبيعتنا ليست بسيطة مثل الله، بل مركَّبة.

إذن، فالبساطة وعدم التركيب لا تحتِّم أن نكون نحن مختلفين عنه[4]، فإذا كان الأمر على هذا النحو، عندئذٍ لا يُحرم من بساطته لأنه يخلق أو يلد بطريقة مختلفة.

١٧- ردٌ آخر

إن كان الخلق هو ذاته الولادة، لأمكن لمن يلد أن يخلق مَن يولد، ومَن يولد يلد مَن يُخلق. فإذا كان الخلق هو نتيجة فعل، بينما الولادة هي عمل الطبيعة، إذن فالطبيعة والفعل ليسا هما ذات الشيء، وعلى ذلك لا يكون الخلق هو ذاته الولادة.

---

(١) أي ليس آباً أصيلاً لأنه لا يَلِد بالفعل، إذ هو فقط خالق كل المخلوقات خارجياً والخلق بالنسبة له مثل الولادة بحسب رأي الهراطقة لأنه بسيط. إذن الولادة عندهم هي مجرد خلق، وبالتالي أبوته ليست أبوة حقيقية.

(٢) أي حين برهن القديس كيرلس على أن مسألة أن يخلق الله الزلازل أو الطوفان أو الاعتناء بالخليقة ليست مسألة مساوية لمسألة أنه يلد (أنظر الهامش (١)، ص٢٨٣).

(٣) لأن عملياً نحن نلد من داخلنا ونخلق أي نصنع شيئاً من مادة مخلوقة مسبقاً وتوجد خارج عنا.

(٤) طبعاً المقارنة في سياق أن عملية الولادة تختلف عن عملية الخلق أو الصُنع بالنسبة له، وأيضاً بالنسبة لنا هذا الاختلاف موجود، كل هذا بالرغم من أن طبيعته بسيطة وطبيعتنا مركبة. والقديس كيرلس يريد أن ينسف موضوع تذرع الهراطقة بمسألة طبيعة الله البسيطة، التي وفق رأيهم ،تحتم مسألة تطابق عملية الولادة بعملية الخلق بالنسبة له، فأثبت هنا أن عملية الولادة تختلف عن عملية الخلق في كلتا الحالتين أي بالنسبة لله وبالنسبة للإنسان الذي يملك طبيعة مركبة. ويستخلص من كل هذا أن الاختلاف بين الله والإنسان بسبب الاختلاف الجذري بين الطبيعتين ليس له أي دور، وأن مسألة أن يلد الله الآب بطريقة مختلفة عن عملية الخلق أو الصنع لا تحرمه من بساطته لأن الإنسان ذو الطبيعة المركبة لديه كذلك هذا الاختلاف بين عملية الولادة وعملية الخلق مع فارق القياس بين الله والإنسان.

١٨- ردٌ آخر

إذا كانت القدرة على الخلق هي التي تجعل كائناً ما خالقاً، وكانت الولادة هي التي تجعل كائناً ما آباً، لَمَا تساوى الخلق مع الولادة، طالما الآب يختلف عن الخالق.

وهذا بعكس ما إذا كان الخلق هو ذاته الولادة، لأن الخالق حينئذٍ يكون آباً، وبما أن الابن هو خالق مع الآب، وذاك الذي يخلق هو آبٌ أيضاً، فالابن عندئذٍ يكون هو نفسه الآب، وهو محض عبثٍ.

١٩- ردٌ آخر

إذا كان الخلق هو ذاته الولادة، لكان الآبُ هو ذاته الخالق، وإذا كان الخالق هو اسمٌ يدل على فعل، عندئذٍ يكون الآبُ هو اسم يدل على فعلٍ لا على علاقة[١].

أمَّا إذا كان الخلق والولادة - كلاهما - يدلان على فعل، لكان لله أن يلد ويخلق في ذات الوقت، طالما الخلق هو ذاته الولادة.

---

(١) والحقيقة أن القديس كيرلس ومن قبله القديس أثناسيوس وكذلك الآباء قد شرحوا أن اسم الآب هو اسم يدل على علاقة بينه وبين الابن، وأيضاً اسم الابن يدل على علاقة بينه وبين الآب، فيقول القديس غريغوريوس اللاهوتي: "لفظ الآب ليس اسم جوهر ولا اسم فعل، ....أنه اسم علاقة، اسم يدل على ما هو الآب بالنظر إلى الابن، أو ما هو الابن بالنظر إلى الآب" خطبة٢٩ فقرة ١٦ من خطب غريغوريوس التريترى اللاهوتية: عن كتابة الخطب اللاهوتية: ٢٧ - ٣١، سلسلة النصوص اللاهوتية، منشورات المكتبة البولسية ،بيروت١٩٩٣م، ص ٩٦. راجع أيضاً د.جوزيف موريس فلتس، العقيدة في النصوص الليتورجية، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، نوفمبر٢٠١٠، ص ٢١.

أما اسم "الخالق" لا يدل على علاقة بين أقانيم الثالوث بل يدل على أن الله هو الخالق والرب والسيد وأن المخلوقات هي من صُنعه وهذا ما يشرحه القديس يوحنا ذهبي الفم أيضاً أثناء حديثه عن (عب ١: ٤): "صائراً أعظم من الملائكة بمقدار ما ورث أسماً أفضل منهم"، إذ يقول: "أرأيت أنه يعرف إن اسم الابن يعلن عن الأصالة الحقيقية؟ لأنه بالطبع إن لم يكن ابناً حقيقياً، ما كان ليتكلّم عنه هكذا. كيف؟ إنه لا يكون ابناً حقيقياً، إلا إذا كان قد أتى من الآب، وليس لأي سبب آخر. إذاً فمن هنا يؤكد أنه أعظم من الملائكة. لكن إن كان هو ابناً بالنعمة، فلن يكون مختلفاً عن المخلوقات فحسب بل يعتبر أقل من الملائكة. كيف؟ لأن هناك أُناساً أبراراً دُعُوا "أبناء"، وإن لم يكن ابناً حقيقياً، لا يمكنه أن يثبت أنه يختلف عن جميع المخلوقات. ولكي يعلن أن هناك اختلاف بين المخلوقات، وبين الخالق" تفسير رسالة بولس الرسول إلى العبرانيين، ترجمة د. سعيد حكيم يعقوب، مراجعة د. جورج عوض إبراهيم، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠١٠، الإصحاح الأول، ص ٥٤.

المقالة التاسعة عشر

إلى أولئك الذين يقولون إن الابن ليس هو كلمة الآب الحقيقي، لكنه غريبٌ عن الآب ومختلفٌ عنه بحسب الطبيعة. نقول إن: الابن مساوٍ للآب في الجوهر، وليس آتٍ من الخارج، بل من جوهره.

١- معارضة من إفنوميوس

يقول: إذا كان الابن هو **الكلمة**، ومن نفس جوهر الآب، فلا ينبغي أن يختلف عنه في شيء؛ بل يكون فعلاً من نفس الجوهر. لكن هذا الكلام لا يتفق مع الكتاب المقدس وكرازة الرسل القديسين؛ لأن الكتاب يعرف الآب على أنه الآب وليس الابن، والابن أيضاً على أنه ابن وليس الآب. وهذا يعني أن الابنَ هو آخرٌ عن الآب، ويختلف عنه من جهة الجوهر، وبالتالي لا يكون **الكلمة** حقيقياً، ولا أتى من ذاك، الذي بطبيعته منفصلٌ بذاته.

٢- الرد

يا صاحب، أين تضع قول يوحنا الذي يُسمي **الكلمة** بـــ "الابن"، ويذكر هذه التسمية التي تُظهِرُ جوهره من جهة الربوبية؟ لأنه يقول: "في البدء كان الكلمة والكلمة كان مع الله وكان الكلمة الله" (يو ١: ١)[1]. هل رأيت - عندما يقول: إن "الكلمة كان

---

(1) حين يشرح القديس كيرلس نص (يو ١: ١) يؤكد على أزلية الابن وأنه من جوهر الآب، إذ يقول: "ليس فقط أن "**الكلمة عند الله**" بل "**وكان الكلمة الله**" لكي يعلن وجوده مع الله وتمايزه عن الآب وإنه أقنوم آخر

الله" - أن الاسم (**الكلمة**) يكشف عن جوهر "الابن"، وأن تسميته بـ "**الكلمة**"، إنما تعني هذا الذي هو بحسب الطبيعة؛ إذ يقول: إن **الكلمة** كان الله؟

أمَّا إذا كان اسم "الكلمة" بالنسبة للابن لا يُظهر طبيعته وجوهره، لكان عندئذٍ يعني شيئاً آخراً، وهو ما يجب الإفصاح عنه. فإذا كان هو الابن بحسب الطبيعة، ودُعي **الكلمة**، دون أن يعبِّر هذا الاسم عن جوهره، فكأنك تقول عن شخصٍ ما إنه نجار أو نحات أو خطاط، فإن ذلك وإن كان يعلن عن وظيفته فعلاً، إلاَّ أنه لا يحدد ماذا يكون بحسب الطبيعة.

وإذا كان الاسم لا يعني جوهر الابن، وكانت تسميته **بالكلمة** لا تُظهِر ماذا يكون بحسب الطبيعة، لكن فقط تكشف عن وظيفته، فلماذا نُعجب - دون مبرر - بالإنجيلي؟ لماذا دُعيَ الإنجيلي "ابن الرعد" (مر ٣: ١٧)؟ أليس لأنه كرز بشيءٍ عظيمٍ وفائقٍ؟ لأنه بالرغم من أن الكتاب المقدس يدعو الابن بأسماءٍ أخرى كثيرةٍ، إلاَّ أن يوحنا وهو يقول عنه إنه **الكلمة**، قال شيئاً غريباً وفائقاً للطبيعة، ولذلك لم يُضِف على هذا الاسم أي تعريف آخر، مثلما نرى عندما يُدعى بولس ببولس الرسول، لكنه اكتفى بأن يقول فقط: "**الكلمة**" مُفصحاً عن جوهر الابن؛ لأن هذا هو **كلمة** الآب الحقيقي، وليس أحداً آخراً.

٣- ردٌ آخر

لو كان هذا هو السبب الذي جعل محاربي المسيح يعتقدون أن **الكلمة** ليس من ذات جوهر الآب؛ لأن الآب ليس هو **الكلمة**، ولا **الكلمة** هو الآب، وآمنوا أنه - بسبب الاختلاف بين الاسمين - يمكنهم أن يفصلوا وحدة الطبيعة، فليتهم يقولون لنا كيف أن آدم الأب الأول، هو من ذات الجوهر البشري الذي وُلِدَ منه ابنه، وبالرغم من ذلك آدم لم يَصِر هابيل، ولا هابيل أمكنه أن يكون آدم؟ لكن اختلاف الاسمين لم يمنع تطابق جوهرهما

غير أقنوم الآب، ولكن في نفس الوقت هو الله، ومن الجوهر نفسه الذي للآب، وهو منه بالطبيعة لأنه إله من إله. لأنه من غير المعقول أن يكون اللاهوت واحداً ولا يكون هناك تماثل تام في الصفات الإلهية بين الأقانيم أو أن تكون الأقانيم متساوية، لذلك يقول عن الابن إنه "كان الله"، ولم يصبح كذلك في وقت معين، بل كان دائماً وأزليّاً الله، لأن ما يحدث في الزمان أو ما لا وجود أزليّاً له، ثم يوجد بعد ذلك، لا يكون إلهاً بالطبيعة". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٥٢.

البشري. وإذا كان هذا يحدث على مستوى الجوهر المخلوق والمصنوع[1]، فكيف لا يكون تجديفاً أن نؤمن بعكس ذلك فيما يخص الطبيعة غير المخلوقة والتي تفوق كل المخلوقات[2]؟

لو كان **الكلمة** من جوهرٍ آخر لَمَا كان هو **الكلمة** الحقيقي، أما وإنه من نفس الجوهر، فهو - لذلك - **الكلمة** الحقيقي.

٤- ردٌ آخر

لا شك أن الأسماء تعلن عن الجوهر، خصوصاً تلك الأسماء الأساسية والعامة. لكن هذا لا يمنع من أن يرى المرءُ اختلافاً كبيراً بين الأفراد الذين تنطبق عليهم هذه الأسماء؛ لأن هذه الأسماء تنطبق على الكائنات بشكل عام مهما كان عدد أفرادها، وبذلك فهي تعلن عنها بشكل عام أيضاً.

فعلى سبيل المثال الاسم "إنسان"، عندما يقال بشكلٍ مطلق، فهو يعني كل الجنس البشري، أو الجوهر ذاته. بينما بولس أو بطرس أو يعقوب، أو قيافا، فيشتركون جميعهم في تلك الأمور البشرية المشتركة بين البشر. هكذا، هناك أسماء كثيرة مختلفة تطلق على الأفراد ذوات الجوهر الواحد، لكن هذا الأسماء المختلفة لا تمنع التشابهات البشرية الطبيعية فيما بين هؤلاء الأفراد الذين ينتمون إلى ذات الجنس البشري الواحد. فعندما يُدعى الآب آباً،

---

(1) عن حقيقة مساواة الابن بالآب بحسب الطبيعة، يقول القديس كيرلس في شرحه لإنجيل يوحنا: "كيف يكون **الكلمة** الله وهو أقل من الآب؟ لأنه كيف يكون في جوهر اللاهوت أقلّ وأعظم بينما الإنسان نفسه الذي يُولَد من إنسان آخر ويدعى ابن إنسان لا يكون أقلّ من أبيه في انتسابه للإنسانية، ولا يكون ملاك أعظم من ملاك فيما يخص كونه ملاكاً؟ لذلك فالابن بالحقيقة هو الابن المولود من جوهر الآب وله في نفسه كل خصائص أبيه بالطبيعة. وإذا كان الآب هو الله بالطبيعة كذلك الابن **الكلمة** هو الله بالطبيعة لأنه مولود من تلك الطبيعة فكيف يكون الله إذن أقلّ من الله من جهة كونه الله؟" شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٥٨.

(2) يعلن الكتاب المقدس - كما يؤكد القديس أثناسيوس — الفرق بين الابن المولود والمخلوقات، إذ يقول: "إن المولود هو ابن ليس مبتدئاً من أية بداية، بل هو أزلي. أما الشيء المصنوع فلأنه من عمل الذي صنعه من الخارج، فلهذا يشير إلى أن له بدايةُ خَلْق. ويوحنا عندما كان يعلّم عن إلوهية الابن وهو يعرف الفرق بين اللفظين لم يقل "في البدء قد صار" أو "في البدء قد صُنِعَ" بل قال "في البدء كان **الكلمة**"، ولفظ "كان" يتضمن "المولود" لكي لا يظن أحد أن هناك فرقاً زمنياً، بل ليؤمنوا أن الابن أزلي وكائن دائماً". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثانية، فقرة ٥٨، ص ١١٠ - ١١١.

ويُدعى الابن بــ "**الكلمة**"، فهذا لا يعني أنهما غير متماثلان من جهة الجوهر كلاهما تجاه الآخر، متمايزان فقط من جهة الأسماء. لأننا برهنا على أن الاختلاف من جهة الأسماء لا ينفي ما بينهما من تشابهٍ طبيعي، فهما بحسب الطبيعة متماثلان. بالتالي ليس هناك ما يمنع الابن من أن يكون من ذات جوهر الآب، حتى ولو دُعيَ – **كلمته** الحقيقي - ابناً وليس الآب[1]. لأن جوهر الآب - بسبب أنه بسيطٌ - لا يقبل أية وساطة في ولادة **الكلمة** الذي يأتي منه بطريقةٍ طبيعيةٍ، ولأنه هو واحدٌ معه باعتباره الله الحي - بحسب الطبيعة - الذي أشرق من الآب الحي.

٥- معارضة من معارضات إفنوميوس

يقول: في الأناجيل نجد أن الابن يقول لأبيه: "أيها الآب، مجِّد اسمك"، ويسمع منه: "مجّدتُ وأُمجِّدُ أيضاً" (يو ١٢: ٢٨)، فكيف يمكن أن يكون الابن هو **كلمة** الآب الحقيقي في اللحظة التي يظهر فيها الآب متحدثاً معه؟ لأن حديثاً مشتركاً لا يمكن أبداً تصوُّره دون قول، إلاَّ إذا كان هو يتحدث إلى ذاته. أمَّا إذا كان الآبُ حقاً يقول له شيئاً، ففي هذه الحالة لا يكون هو **الكلمة** الذي يوجد بحسب الطبيعة في الله، بل آخراً يتحدث إليه الآب بالإرادة.

٦- الرد

ألا تتوقف عن الإساءة إلى الجوهر غير الجسدي، إذ تعتقد أن **الكلمة** التي تخرج من هذا الجوهر هي مثل الكلمة البشرية التي تصاغ بالشفاه واللسان وترتطم بأُذن القريب، فيدرك ما يريد المتكلم أن يقوله وبشكل واضح. لأنك لو أردت أن تحفظ للطبيعة غير

[1] تمايز الأسماء تعني تمايز الأقانيم ولكن الطبيعة الإلهية هي واحدة للأقنومين، هكذا يؤكد القديس كيرلس على هذه الحقيقة في شرحه لإنجيل يوحنا، قائلاً: "لو كان الابن أباً أيضاً فما هو معنى تمايز الأسماء؟ لو كان الآب لم يلد أحداً من ذاته فلماذا يُدعيَ الآب؟ ولماذا يُدعىَ بهذا الاسم لو كان غير مولود من الآب؟! إن تمايز الأسماء يعني تمايز الاقانيم وحيث إن الأسفار المقدسة تعلن أن الابن مولود من الآب - وهذا هو الحق - فإننا ندرك أن له أقنوم متميّز كما أن الآب له أُقنوم متميّز مثل تمايز الوالد عن المولود". شرح إنجيل يوحنا ، المجلد الأول، المرجع السابق، الإصحاح الأول ص ٤٨.

الجسدية الكلمة المناسبة لها، لَمَا اعتقدت أن صوت الآب هو مثل هذا الذي يوجَّه إلى السمع بطريقةٍ جسدية. لأنه لم يَسمع الابن بمفرده الآبَ يقول: "مجّدتك وأُمجّدُ أيضاً"، لكن أيضاً كل الذين كانوا معه. وكان المسيح يعلم بكل وضوح أن هذا الصوت لم يكن صوت الآب[1] الطبيعي والحقيقي، بل صدىً ما، أشبه بالصوت، أعلن به الآب إرادته بخصوص الابن. أمَّا الابن فكان صريحاً مع ذاته عندما قال لسامعيه: "ليس من أجلي صار هذا الصوت، بل من أجلكم" (يو ١٢: ٣٠).

إذن، لعلك تلاحظ جيداً أنه لم يقُل إن الآب لم يتحدث لي، أو نادى، أو شيءٌ من مثل هذا، بل "ليس من أجلي صار هذا الصوت، بل من أجلكم". إذن، فطالما صار هذا الصوت بفعلٍ إلهي، ولم يكن من أجل المسيح - كما يقول هو ذاته - بل لأولئك الذين كانوا معه، الذين كان من المستحيل عليهم - بما أنهم بشر - أن يتعلموا - بطريقة أخرى - إرادة الآب، لو لم يكن هذا الصوت مسموعاً لهم بطريقةٍ بشرية، فلماذا تنسب - ظلماً - للجوهر غير الجسدي حوادث تصير بحسب التدبير، وتُعلن بطريقة بشرية لأجلنا[2]، ناسباً - بطريقة خطرة - للطبيعة غير الصائرة (غير المخلوقة) ما يتناسب مع الطبيعة المخلوقة؟

---

(1) يؤكد القديس كيرلس - أثناء شرحه لهذا النص – أن الإنجيلي يوحنا لم يقل إن الآب هو الذي نطق بالصوت بل الصوت جاء من السماء، إذ يقول: "لم يقل الإنجيلي إن الآب هو الذي نطق بالصوت من فوق، بل إن الصوت جاء من السماء، حتى لا يحاول الهراطقة أن يقولوا - بسبب سماعهم أن الآب تكلم، إن الآب منحصر في جسد كثيف. وهنا هو يتحدث (يوحنا) في الواقع عن صوت منسجم. ولكن كيف حدث الصوت، فهذا ليس في استطاعتنا أن نتحدث عنه. ولكن تفسير الكلمات يعني هذا: الابن كان ظاهراً بواسطة آيات كثيرة، وكان الآب يعمل المعجزات معه؛ ولأن الآب شريك في العمل مع الابن في كل الأشياء التي عملها، لذلك يقول الآن إنه قد مجَّد (اسمه)، ويَعِدُ بوضوح إنه سوف يمجّده مرةً أخرى أيضاً، بواسطة العلامة عند موته لأنه من حيث إن الابن هو إله من إله، وهو الحياة المولود من ذاك الذي هو بالطبيعة الحياة، لذلك فقد أقام نفسه من الموت؛ ولكن من جهة النظر إليه كإنسان مثلنا - ولكن بدون خطية - فلا يُعتبر أنه قد أقام نفسه، بل إنه أُقيم بقوة الآب". شرح إنجيل يوحنا، الجزء السابع ، المرجع السابق، الإصحاح الثاني عشر ص ٣٨ - ٣٩.

(2) إن الإيمان المستقيم بالمسيح هو المعيار الصحيح لتفسير الكتاب تفسيراً مستقيماً. فحدث التجسد، والإيمان بمساواة الابن بالآب في الجوهر، نجدهما في كلمة الكتاب المقدس بطريقة خاصة. والمفسر لابد أن يميز بدقة مفهوم الكلمات ويتعرف على المسيح "الإله الإنسان". وهذا الأمر قد شرحه القديس أثناسيوس بوضوح في رسالته الثانية إلى سرابيون فقرة ٨ ص ١٠٥: "يجب إذن مَنْ يقرأ الكتاب، أن يفحص ويميِّز متى يتكلم (الكتاب) عن ألوهية **الكلمة**، ومتى يتكلم عن أموره الإنسانية، لئلا يُفهم أحدهما بدل الآخر، فنقع في نفس الخلط الذي سقط فيه

٧- اعتراض آخر من إفنوميوس

يقولون: إن الآب يقول للابن: "نعمل الإنسان" (تك ١: ٢٦). لكن المخلص ذاته يقول لليهود: "لأَنِّي لَمْ أَتَكَلَّمْ مِنْ نَفْسِي، لكِنَّ الآبَ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ أَعْطَانِي وَصِيَّةً: مَاذَا أَقُولُ وَبِمَاذَا أَتَكَلَّمُ" (يو ١٢: ٤٩). إذن، لو سألكم شخصٌ ما - أنتم الذين تفتخرون من أجل استقامة عقائدكم - إلى مَن ينصرف حديث الآب في هذه الأقوال، هل يتوجَّه للابن في حديثة، وهل كان الابن يعرف تلك الأمور التي يتكلم عنها الآب، أم لشخص آخر لا يعرف ماذا سيقول الآب؟ بماذا تجيبون؟ لأنه لو كان الابن لا يعرفها، بل تعلَّمها عندما حدَّثه الآب عنها، فهو إذن مختلفٌ عن ذلك الذي هو كائنٌ بحسب الطبيعة. أمَّا لو كان يعرفها، فكيف لا يكون جهلاً وغباءً أن يتحدث إليه عن أمورٍ يعرفها، كما لو كان لا يعرفها؟ وهو الأمر الذي نجده في حياة البشر أيضاً. فإذا كان القول بسقوط الله في مثل هذا نوعاً من العبث، إذن فهو يتحدث إلى شخصٍ لا يعرف شيئاً عما يريد أن يقوله له، وبالتالي فهو ليس **الكلمة** الطبيعي، ولا كان يعرف مضمون هذه الأقوال التي يريدها الآب، لو لم يوجِّه إليه القول.

٨- الرد

حسناً. إن حديث **كلمة** الله للأنبياء لم يختلف عن حديثه للملائكة عما سوف يحدث من أمور؛ لأنه لا قدرة لديهم على معرفتها بمفردهم؛ لأن معرفة ما سوف يحدث في المستقبل تليق فقط بالله. وإلاَّ فماذا تقول عندما ميَّز الرب ذاته عن أولئك، وأنه لا يقف معهم على قدم المساواة بما قاله: "أَجَابَهُ الْيَهُودُ قَائِلِينَ: «لَسْنَا نَرْجُمُكَ لأَجْلِ عَمَلٍ حَسَنٍ،

الأريوسيين". ومثلما أن طبيعة **الكلمة** بعد التجسد هي مزدوجة (لاهوت وناسوت) ولكن واحدٌ وفريدٌ شخصه، هكذا كلمة الكتاب تتجاوب بحسب الطبيعة ومفهومها الخاص مع طبيعة الله **الكلمة** المتأنس. لذلك يقول القديس أثناسيوس: "بالرغم من أن نفس التعبيرات تُستخدم في الحديث عن الله والإنسان في الأسفار الإلهية، إلا أن ذا البصيرة الجلية، مثلما يوحي بولس - سوف يفحصها ويدرسها، وبذلك يميز ويُضيف ما قد كُتب بحسب طبيعة كل موضوع ويتجنب أي اختلاط في المعنى حتى لا تفهم أمور الله بطريقة بشرية، ولا بالمثل ننسب أمور الإنسان إلى الله، لأن ذلك معناه أن نخلط الخمر بالماء (اش ١:٢٢) وأن نضع على المذبح ناراً غريبة مع النار الإلهية". دفاع عن قانون إيمان مجمع نقية، ص١٠٥.

بَلْ لأَجْلِ تَجْدِيفٍ، فَإِنَّكَ وَأَنْتَ إنسان تَجْعَلُ نَفْسَكَ إِلهاً» أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «أَلَيْسَ مَكْتُوباً فِي نَامُوسِكُمْ: أَنَا قُلْتُ إِنَّكُمْ آلِهَةٌ؟ إن قَالَ آلِهَةٌ لأُولئِكَ الَّذِينَ صَارَتْ إِلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللهِ، وَلاَ يُمْكِنُ أن يُنْقَضَ الْمَكْتُوبُ، فَالَّذِي قَدَّسَهُ الآب وَأَرْسَلَهُ إِلَى الْعَالَمِ، أَتَقُولُونَ لَهُ: إِنَّكَ تُجَدِّفُ، لأَنِّي قُلْتُ: إِنِّي ابْنُ اللهِ؟" (يو ١٠: ٣٣ – ٣٦). لأنه لو كان مساوياً للأنبياء بحسب الطبيعة، لَمَا أوضح أن الأمور التي تخصهم تجيء في مرتبة أدنى، وذلك بقوله: "إن قَالَ آلِهَةٌ لأُولئِكَ الَّذِينَ صَارَتْ إِلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللهِ" (يو ١٠: ٣٥)، أمَّا بالنسبة إليه، يُظهِرُ بوضوح أن **كلمة** الله لم توجَّه إليه مثل أولئك، لكنه هو **كلمة** الآب التي أُرسلت للأنبياء. وبالتالي، كيف – بحسب تجديفك أيها الوقح – يتساوى معهم مَنْ كان أسمى مِن الأنبياء، وأعلى منهم بما لا يقاس[1]؟

٩- ردٌ آخر

لو كان الابن لا يعرف إرادة الآب، بل ينتظر – مثلما يعتقد محاربو المسيح – إفصاح الآب عنها حتى يعرفها في وقتٍ ما، ولو كان الآب يتحدث إليه كما لواحدٍ من الأنبياء، لكان عندئذٍ مساوياً للأنبياء، وفي هذه الحالة، أين نضع قول المرنم القديس الذي يحدثنا مُلهَماً من الروح: "لأنه مَنْ في السماء (السُّحب) يعادل الرب. مَنْ يشبه الرب بين أبناء الله" (مز ٨٩: ٦)؟ فها هو هنا لا يتكلم عن أحدٍ ما، ولا يدعو الأنبياء – رمزياً – "بالسُّحب". وليس هناك أحدٌ من أولئك الذين – بحسب النعمة – حُسِبوا أبناء الله، مساوٍ

---

(١) التأكيد على حقيقة أن الابن أسمى بكثير من الأنبياء يشرحه القديس كيرلس حين يفسر يو ١٠:٣٤ إذ يقول: [وإذ يرى (المسيح) أن الفرق بين الذين دُعوا آلهة وبين الذي هو بطبيعته الله، هو فرق عظيم جداً، فهو يعلّمنا التمييز بين الاثنين بواسطة الكلمات التي يستخدمها؛ لأنه إن كان الناس الذين أُرسلت إليهم كلمة الله، دُعوا آلهة، وقد صاروا لامعين بكرامة الإلوهية، بنوالهم وإدخالهم كلمة الله إلى داخل نفسهم، فكيف لا يكون هو بالطبيعة إلهاً ذلك الذي بواسطته صار هؤلاء آلهة؟. لأن "**الكلمة** كان الله " بحسب قول يوحنا، **والكلمة** أيضاً هو الذي سكب هذا البهاء (بهاء المجد) على الآخرين. فإن كان **كلمة** الله يقود إلى نعمة فوق بشرية بالروح القدس، ويزين أولئك الذين يكون فيهم، بكرامة إلهية، ويقول لماذا تقولون إني أجدف حينما أدعو نفسي ابن الله والله؟ رغم أن الأعمال التي قد عملتها من الآب تشهد لي إني إله بالطبيعة. فإذ قدسني (الآب)، أرسلني إلى العالم لأكون مخلص العالم؛ وذلك الذي هو وحده إله بالطبيعة، هو الذي له الخاصية التي يستطيع بها أن يخلّص الناس من الشيطان ومن الخطية ومن الفساد]. شرح إنجيل يوحنا ، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح العاشر ص ٧٤٤.

للابن بحسب الطبيعة. فإذا كان الأمر على خلاف ذلك، فكيف نصدِّق داود الذي قال هذه الأقوال بإلهام الروح، والذي أُرسلت إليه **كلمة** الآب، والذي لم يكن يعرف إرادة الآب، مثله في ذلك مثل القديسين، بل كان ينتظر أن تُعلَن له بالسمع؟ وإذا كان القول الذي يُكذب ما كُتب بالروح هو نوعٌ من التجديف وليس شيئاً آخر غير ذلك، إذن فالرب هو أعظم بما لا يقاس من الأنبياء؛ لأنه هو حقاً **كلمة** الآب الحقيقي وإرادته وحكمته.

١٠- ردٌ آخر

إذا كان الابن الكائن في الآب بحسب الطبيعة هو غير ذاك الذي تذكره الكتب المقدسة، أو كان هناك ابناً مختفياً في الآب غير الذي يعلنه الآب، والذي يقول يوحنا عنه إنه هو **كلمة** الله، فكيف يمكن لله الآب أن يكون بسيطاً ومركباً في ذات الوقت؟ لأن مَنْ يتكون مِن شيءٍ مخفيً وشيءٍ آخر معلناً لا يمكنه - حتماً - أن يكون بسيطاً، بل مركبًّاً ومكوناً من اثنين. أمَّا الله فهو بسيط[1] بحسب الطبيعة، ولا يوجد فيه شيء مركب. ولذلك، واحدٌ هو **الكلمة** الكائن فيه، أي الابن بحسب الطبيعية.

١١- ردٌ آخر

وإذا كان **الكلمة** الذي كرزت به الأناجيل، آخراً غير **الكلمة** الكائن في الله بحسب الطبيعة - كما يتجرَّأ محاربو المسيح ويقولون - ولأجل ذلك فهو لا يعرف أسرار الآب، بل يتعلمها عندما يتحدث بها الآب إليه، لكان يتحوّل من الجهل وعدم الفهم إلى

---

(1) يؤكد القديس كيرلس على أنه لا يوجد وسيط بين كل أقنوم وآخر مشدداً على ضلال الهراطقة وأن الطبيعة البشرية بسيطة وليست مركبة، إذ يقول في موضع آخر: "نحن نؤمن بأن الثالوث القدوس المسجود له جوهر واحد رغم جنون الهراطقة الذي يمنعهم من الإيمان. ووحدة الجوهر تفترض وجود مساواة في الخصائص الطبيعية بين الأقانيم. فإذا عدنا إلى افتراض الهراطقة الذي يتوهم وجود كلمة في الآب غير الابن **الكلمة**، فإن المساواة تفترض أيضاً وجود كلمة ذاتي في الابن طالما أن الابن مثل الآب في كل شيء وهو صورة جوهره ورسم أقنومه (عب١:٣) وأيضاً الروح القدس فيه كلمة ذاتي طالما أن الروح القدس مساوٍ للآب والابن. وهذا يعنى أن الثالوث صار سداسياً. وأصبحت الطبيعة الإلهية مركبة. وهذا مستحيل فالجوهر بسيط غير مركب، لا يوجد فيه إلاّ ثلاثة أقانيم ولا يوجد وسيط بين كل أقنوم وآخر، بل هو جوهر واحد للثالوث القدوس لا اختلاط فيه بين الأقانيم". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٧٢.

المعرفة. وإذا كان الأمر على هذا النحو، فكيف يكون صادقاً عندما يقول: "أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ" (يو ١٠:٣٠). وكيف يكون صورة ذاك الذي ولده، لو كان مثل إنسان يستولي عليه الجهل؟ لأن هذا يقتضي على أية حال أن نقول إن الآب أيضاً يجهل بعضاً من الأمور العتيدة، لكن لو كان الابن يعرف كل الأمور، فمن المستحيل ألاَّ يكون لديه المعرفة التي لدى الآب، إذ هو ختمه وصورته التي ليس لها نظير.

١٢- معارضة من معارضات إفنوميوس

يقول: مَنْ هو الذي لفرط جهله، يتجرَّأ على القول بأن الأسماء التي تُلَقب بها المخلوقات ليست مختلفة عنها؟ فها هي السماء، عظيمةٌ جداً، وعملٌ ممتاز من أعمال الله، لكن الاسم الخاص بها مختلفٌ عنها، وهو ما يمكننا أن ندركه من الآتي: السماءُ شيءٌ منظور، بينما الاسم الذي أُعطي لها لا يُدرك بالعين، بل يجب أن يُسمع. كذلك الأمر بالنسبة للابن، فإنه يُدعى **كلمة**، لكنه ليس على أية حال هو ذاك الذي يدركه البعض على أنه هكذا، بل فقط يسمى **الكلمة**، فيما هو شيءٌ آخر بحسب الطبيعة.

١٣- الرد

كان يمكننا أن نصمت، ولا نقول شيئاً عن تلك الصياغة الغبية لهذا الاعتراض. لكن لا بُد لنا أن نسأل مَنْ يقولون هذه الأقوال، ما الذي يعيب الأسماء التي يعطونها للمخلوقات إذا كانت هذه أسمائها الأساسية، دون أن تُظهر جوهرها، حتى وإن كانت مختلفة عنها؟ فالاسم: "إنسان" - على سبيل المثال - يعلن بالطبع عن طبيعة الإنسان، وإن كان الإنسان مختلفاً عنه. فالإنسانُ شيءٌ منظور، بينما اسمه فقط مسموع. بالتالي، فعندما يذكر المرء لفظ "إنسان"، هل يجب - وفقاً لفكر أولئك - أن يقصد شيئاً آخر ليس هو الذي يعلن الاسم، طالما كان الاسم مختلفاً عما يعلنه؟ فإذا كان ذلك هو عين الجنون، فلا يجب علينا أن نلغي معاني الأسماء، أو أن نقصد شيئاً مختلفاً عما تعنيه؛ هكذا يُثبت جنون الهراطقة دوماً أنه غير مفيد.

لكن ليت الهرطوقي - المُشوَّش بأفكاره - يُظهِر لنا أن اسم **الكلمة** ليس اسماً أساسياً لابن الله، وليته يضع على رأس الكتب المقدسة، يوحنا الإنجيلي الطوباوي، الذي

يعرف تماماً التسمية المناسبة والأساسية: "الابن"، والتي بمقتضاها دعاه **الكلمة**؛ لأنه يقول: "فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ" (يو ١: ١).

١٤- معارضة من معارضات إفنوميوس

يقول: إذا كانت الحكمةُ عِلماً، وكان القول نطقاً غير جوهري، فكيف للابن أن يكون **الكلمة** وحكمة الله؟ فالعلم ليس شيئاً جوهرياً، وليس حياً، مَثَلُه في ذلك مثل النطق. فإذا كان الابنُ حياً، فهو عندئذٍ ليس عِلماً ولا حكمةً ولا نطقاً. وكيف يمكن أن يوجد كلمة في **الكلمة**، إذا كان من المستحيل تماماً أن يوجد الشبيه في الشبيه، مثلما لا يمكن أن يوجد لونٌ في لونٍ؟ وعلى ذلك، لو كان **الكلمة** بحسب الطبيعة هو حقاً ابن الآب، لَمَا لاق أن يصير مجرد كلمة تُنطق منسوبةً إليه، مثلما نقول: "نعمل الإنسان" (تك ١: ٢٦).

١٥- الرد

لقد تعثَّرت أيضاً، غير قادرٍ أن تتخطى الأمور البشرية، ناسياً أنك تتكلم عن الجوهر الإلهي، فتحدد خواصه قياساً على ما يخصنا. أم أنك ربما لا تعرف أنه بالرغم من أن الإلهي يُدعى بأسماءٍ تخصنا، إلاَّ أن الأمور الإلهية تختلف عن أمورنا؟ فإذا كانت كلمة الإنسان لا كيان لها، وتُرسَل عن طريق الصوت وحركة اللسان إلى الخارج، إلاَّ أن هذا لا يعني أن **كلمة** الله هو أيضاً كذلك؛ لأنه حيٌّ أتى من حيٍّ، وكائن أتى من الكائن. كما أن الحكمة في الله، لا يتوقف عن أن يكون لها - في حد ذاتها – كيانٌ[1]، على أن يكون للحكمة فينا أو للعلم أيضاً كيان. فإن كنت تعترف بأن الله ليس مثلنا، فأنت حتماً تعترف بأن كل ما يخصه يختلف عما يخصنا بقدر ما هو يختلف عنَّا أيضاً من جهة الجوهر.

---

(١) أي هو أقنوم قائم بذاته، وهذا ما أكده القديس كيرلس حين علّق على نص (تك ١: ٢٦)، قائلاً: "عن خلق الإنسان نسمع صوت الله يقول "نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا" (تك ١: ٢٦). فلو كان الله أقنوماً واحداً بلا تعدّد وليس ثلاثة أقانيم، فمَنْ الذي كان يتكّلم مع مَنْ؟ ويقول له: "نخلق الإنسان على صورتنا". ولو كان الله أقنوماً واحداً لقال: "أخلق الإنسان على صورتي"، لكن الكتاب لم يذكر ذلك، ولكن حيث إن صيغة الجمع استخدمت "صورتنا"، فإنها تُعلِن بصوت قوي أن أقانيم الثالوث هي أكثر من واحد". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٤٩.

١٦- ردٌّ آخر عن الموضوع ذاته

يجهل مَنْ يعتقد أنه حكيم، ولا يدرك أنه سقط في تجديف كبير جداً، لأنه يسمي الرب بـــ "الحي" دون أن يعرف أن الحي يختلفٌ عمن يكون هو الحياة، مثلما يختلف العِلم عن العالِم. لأن المرء عندما يذكر كلمة "حي" يدرك أنها صفة تصف بعض الكائنات بأنها حيَّة. لكن الرب لا يدعو ذاته هكذا بنفس المفهوم حين يصف هذه الذات بأنها حية. لكن، بسبب أنه هو الحياة، فهو أيضاً حي؛ لأنه يقول: "أنا حيٌّ يقول الرب" (حز ٣٣: ١١). إذن، أهلاً بثرثرات ذلك الهرطوقي، ونضيف أيضاً القول الرسولي: "لِتَكُنْ فِضَّتُكَ (أفكارك) مَعَكَ لِلْهَلاَكِ" (أع ٨: ٢٠).

فلنسرع إذن إلى التعليم المستقيم، ولا نقول إن الربَ حيٌّ وفق مفهوم أولئك الهراطقة، لكنه هو الحياة التي تُحيي كل الذين يوجَدون ويتحركون به، وفق ما قاله بولس (أنظر١ تيمو ٦: ١٣، أع ١٧: ٢٨)[1].

١٧- ردٌّ آخر عن نفس الموضوع

يُسمي الكتاب المقدس الابن **بالكلمة**. والهرطوقي المُسرع - في عدم تعقُّلٍ وتبصُّرٍ - لا يدرك الأسرار الإلهية إدراكاً صائباً كما يجب، ظاناً أنه يتحدث عن أنه مجرد نطق لفظي، وكأنه مجرد قول مثل أقوال الإنسان، ولا يعرف أن الكتب المقدسة، عندما تكرز به بهذه الطريقة، إنما هي تكرز به وفق ما تعودنا نحن البشر، لكن الآب يتحدث بطريقةٍ لا تُوصف للابن الذي - بحسب طبيعته - لديه خاصية أن يعرف إرادة الآب، ولا ينتظر أسراراً يُعبَّرُ عنها بالنطق، طالما أيضاً هو ذاته **الكلمة**.

إذن، فعندما يُنسب لله شيءٌ من هذه الأقوال التي تتناسب بالأكثر مع البشر، فعلى السامع أن يتخطى ما يخصنا ويسرع إلى الفهم الروحي كما يليق بالله.

(١) "أُوصِيكَ أَمَامَ اللهِ الَّذِي يُحْيِي الْكُلَّ، وَالْمَسِيحِ يَسُوعَ الَّذِي شَهِدَ لَدَى بِيلاَطُسَ الْبُنْطِيِّ بِالاعْتِرَافِ الْحَسَنِ" (١ تيمو ٦: ١٣). "لأَنَّنَا بِهِ نَحْيَا وَنَتَحَرَّكُ وَنُوجَدُ. كَمَا قَالَ بَعْضُ شُعَرَائِكُمْ أَيْضاً: لأَنَّنَا أَيْضاً ذُرِّيَّتُهُ" (أع ١٧: ٢٨).

١٨- معارضة من معارضات إفنوميوس

يقول: لكن اسم "**الكلمة**" ليس كافياً لإعلان الابن، حتى لو صار جوهره واضحاً بهذه التسمية. لأنها تُستخدم أيضاً في كلمات كثيرة أخرى فارغة ولا تدل على جواهر.

١٩- الرد

يمكننا أن نقول بناءً على ذلك، إن اسم "الله" أيضاً يستحيل أن يعلن عن جوهر الله؛ لأنه يُستخدم أيضاً لأولئك الذين هم ليسوا آلهةً بحسب الطبيعة، وفق: "أنا قلت أنكم آلهة" (مز ٨٢: ٦، يو ١٠: ٣٤). كذلك ليس هناك ما يمنع من أن نقول إنه لا يجب أن تُستخدم كلمات مثل بار وصالح وقدوس، عن الله، إذا كانت مثل هذه الكلمات تُستخدم أيضاً للبشر؛ لأن كثيرين هم هكذا بمشاركة الصلاح والبر الحقيقي. على أنه إذا كانت الأسماء مشتركة بالنسبة لنا وله، إلاَّ أن مدلول[1] هذه الأسماء لا يكون حقيقياً، إلاَّ فقط في الابن بحسب الطبيعة. ولذلك، لا شيء يعيق الابن عن أن يُدعَى على وجه الخصوص

(١) إن تأنس **الكلمة** - عند القديس أثناسيوس - هو بمثابة البداية والمركز والغاية للتفسير الكتابي، هذا الحدث هو "هدف" ومبدأ تفسيري للتدبير الإلهي. فالكلمة الكتابية هي بحد ذاتها - كما قلنا - يجب أن تُفهم في توافق مع تأنس **الكلمة**. بالتالي ينبغي أن تتكيف الكلمات الكتابية مع هذا الجوهر: "فليست الألفاظ هي التي تقلل من قدر طبيعة الأشياء، بل بالحري فإن طبيعة الأشياء هي التي تضفي المعنى على الألفاظ وغيرها. لأن الألفاظ تأتي تالية لها. ولذلك فعندما يكون الجوهر "مصنوعاً" أو "مخلوقاً" عندئذٍ فإن الألفاظ: "صنع"، و"صار" و"خلق" تُقال عنه بصفة خاصة ويقصد به أنه "مصنوع"، ولكن حينما يكون الجوهر مولوداً وابناً، عندئذٍ فإن ألفاظ "صنع" و"صار" و"خلق" لا تُستخدم بحسب مفهومها الحرفي، ولا تعني أنه "مصنوع" بل تكون كلمة "صنع" قد استخدمت بدلاً من "ولد" بدون تحديد". ويشرح القديس أثناسيوس بوضوح هذه الفكرة الأساسية معطياً أمثلة كتابية لكي يزيل الغموض العالق في ذهن القارئ، قائلاً: "وفي أحيان كثيرة يلقب الآباء أبناءهم الذين ينجبونهم عبيداً لهم، دون أن ينكروا أصالة طبيعتهم، وأحياناً يجاملون عبيدهم ويسمونهم أبناء دون أن يفقدوا حق امتلاكهم منذ البداية. إلا أنهم في الحالة الأولى يسمُّون أبناءهم عبيداً من خلال سلطانهم كآباء، وفي الحالة الثانية يسمون عبيدهم أبناء بدوافع إنسانية، فسارة كانت تدعو إبراهيم سيداً رغم إنها لم تكن عبدةً له، بل كانت زوجة. وكان الرسول يصف أنسيموس العبد كأخ لفليمون الذي كان سيداً". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثالثة فقرة ٤١ ص ٧٦ - ٧٧. هنا نرى القديس أثناسيوس في خط مضاد للتفسير الكتابي الأريوسي والمستمر إلى اليوم، الذي يقتطع الكلمات من جوهر وطبيعة الحدث ويفسِّره فقط حرفياً، لذا فإن الكلمات لا ينبغي أن نعتبرها مطلقة، وإنما لها دور ثانوي بالنسبة لطبيعة وجوهر حدث التدبير الإلهي.

بـ"**الكلمة**"، وأن يكون هذا الاسم بالنسبة له بمثابة إعلانٍ عن جوهره، حتى لو استخدمنا نحن البشر هذا الاسم وفق اعتيادنا البشري. وذلك مثلما يقول الابن عن ذاته، وبحق: "أنا هو الحق" (يو ١٤: ٦). هكذا أيضاً، كل ما يقوله المرء عنه يكون جديراً بابن الله بمعنى يتفق مع إلوهيته، ويقال عنه على وجه الخصوص، وليس عن آخرين، إلاَّ إذا كان فقط عن طريق استخدامنا نحن لهذا الاسم، في لغتنا البشرية، في الحديث عن آخرين من المخلوقات، كما قلنا.

٢٠- معارضة من معارضات إفنوميوس

يقول إن "الكلمة" دُعي هكذا في الكتب المقدسة، ليس بسبب أنه يأتي من الآب بحسب الطبيعة، أو بسبب أنه هو **كلمته** الطبيعي، لكن بسبب أنه سمع كلمة الله وأعلنها أيضاً لنا، وذلك مثلما نقول إنه قدوسٌ لأنه يقدِّس، وبارٌ لأنه يبرر.

٢١- الرد

لو كان **الكلمة** قد دُعيَ هكذا - وفق رأيك يا صاحب – أي ليس لأنه أتى بحسب الطبيعة من الآب، ولا لأنه يعلن جوهر ذاك الذي ولده، لكن بسبب أنه سمع من الآب الكلمة وبلَّغها لنا، لكان عليك أن تطبق نفس الفكرة على الأمور الأخرى لكي تشوِّهها بالأكثر. لأنه لو كان هو **الكلمة** بسبب أنه سمع الكلمة، لَتَحتَّم أن نقول إنه أيضاً البر والقداسة؛ لأنه صار مشاركاً للبر والقداسة، لا لأنه هو بارٌ وقدوسٌ بحسب الطبيعة[1].

(1) طبعاً الابن هو البر والقداسة بحسب الطبيعة، ويؤكد القديس كيرلس أن الآب أرسل البر أي المسيح لكي يحررنا ونصير أبراراً، فنوالنا للبر يرجع للمسيح الذي هو البر. والجدير بالملاحظة أن كل كلام عن الثالوث ينعكس علينا لأننا مخلوقين بحسب صورة الله، وهذا ما نراه بوضوح حين يقول القديس كيرلس في موضع آخر: "حقاً إن ذاك الذي خلق الأرض والإنسان عليها، ذاك الذي خلق السماء المزينة بالنجوم، أرسل لنا البر أي المسيح، لكي يحرِّرنا مجاناً. لأننا "تبررنا بالإيمان" (رو ٥: ١)، حرَّرنا من القيود والأسر مشيِّداً أورشليم العقلية بطريقة روحية ومؤسِّساً الكنيسة، حتى أنها أكثر شدة وأقوى من أبواب الجحيم وأكثر ثباتاً من الأعداء. إن أولئك الذين كانوا قديماً مضلين اعترفوا به كإله قائلين "وحدك الله وليس آخر ليس إله" (إش ٤٥: ١٤). له يسجدون وله سوف تجثو "كل ركبة ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب

لأن خصائص البعض التي ليست لهم بحسب الطبيعة، بل كانوا قد اكتسبوها بعد ذلك مِن الخارج، فهذه يمكن أن تفقد بسهولة. وهكذا - وفقاً لكم - يمكن أن يظهر **الكلمة** في وقتٍ ما دون البر والقداسة، **كلمة** الله الذي يقول: "اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ" (يو ١٤: ٩). أمَا وإن كان التجديف قد وصل هكذا إلى الآب ذاته، فقد وجب علينا أن نبتعد عن الفكر الشرير الذي لمحاربي المسيح.

٢٢- ردٌ آخر

يا محارب المسيح، إعلَم أنك لن تُدخِل نواميس جديدة في الكتب المقدسة، ولا يمكن أن يكون هناك هذيانٌ مثل هذا. لأنه بينما يقول الروح عن الابن أموراً تعتقد أنت - في حكمتك المزيَّفة - أموراً أخرى مختلفة عن تلك التي أعلنها الروح.

فبينما يسمي الروح القدس الابن **الكلمة**، تدَّعي أنت أنه مشاركُ **الكلمة**. لأنه إذا كنت تقول إنه بسبب أنه سَمِعَ الكلمة من الآب وأعلنها لنا، دُعيَ هو كلمة، فكيف لا تعتبر هذا جهلاً؟ لأن هذا ليس هو الكلمة بعد، بل مشارك الكلمة، ولا يمكن أن يكون أحدهما هو الآخر، أي مَن يُشارِك، ومَن يُشَارَك. وذلك مثلما يُشارِك الحكيم في الحكمة، فالحكيم هو آخر مختلف عن الحكمة. إذن يتحتم عليك أن تعترف بأن **الكلمة** ليس مشاركاً **للكلمة**؛ لأن هذا يلغي ذاك، والواحد منهم يتصادم مع الآخر، في حين أن **الكلمة** يجب أن يكون واحداً من الاثنين، لا الاثنان معاً. ولأن الكتاب المقدس يدعوه **الكلمة**، فمن الطبيعي أن نتعجب من هؤلاء الذين يقدِّمونه على أنه ليس **الكلمة** بل مشاركٌ **للكلمة**.

لمجد الله الآب" (في ٢: ١٠ - ١١)". جيلافيرا، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم ، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، الكتاب الشهري عدد نوفمبر ٢٠٠٤.

المقالة العشرون

عن

- "لِذلِكَ رَفّعَهُ اللهُ أَيْضاً، وَأَعْطَاهُ اسْماً فَوْقَ كُلِّ اسْمٍ"

(فيلبي ٢: ٩).

- "احْتَمَلَ الصَّلِيبَ مُسْتَهِيناً بِالْخِزْيِ، فَجَلَسَ فِي يَمِينِ عَرْشِ اللهِ"

(عب ٢: ١٢)

١- معارضة من جانب الهراطقة

يقولون مكتوب: "فَلْيَكُنْ فِيكُمْ هذَا الْفِكْرُ الّذِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ أَيْضاً: الّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً للهِ. لكِنّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذاً صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِراً فِي شِبْهِ النّاسِ. وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتّى الْمَوْتَ مَوْتَ الصّلِيبِ. لِذلِكَ رَفّعَهُ اللهُ أَيْضاً، وَأَعْطَاهُ اسْماً فَوْقَ كُلِّ اسْمٍ" (فيلبي ٢: ٥ - ٩).

إذاً، فبما أنه رُفّعَ من قِبَلِ الله ومُجِّدَ، وأخذ اسماً هو فوق كل اسمٍ كهبةٍ وعطيّة؛ لأنه وضع ذاته حتى الموت، وكذلك أخذ الكرامة والرفعة كمكافأة على تواضعه، فقد اكتسب هذا كله بالإضافة من الخارج، دون أن يكون بحسب الطبيعة إلهاً أو ابناً. ومَن كان في احتياج لما يضاف إليه، هو على أية حال ناقصٌ وغير كامل من جهة طبيعته. وهذا الذي رُفّعَ، لا بُد وأن يكون قد رُفّعَ من أسفل تجاه مَن رفّعه. وذاك الذي قَبِلَ نعمةً ما، كان في

احتياج لِهذا الذي قَبله. وذاك الذي يريد أن يُكرَّم ينبغي بالضرورة أن يقر بأنه ليس مثل ما هو عتيدٌ أن يكون عليه. وعلى ذلك، فإذا كان قد مُنِحَ اسماً فوق كل اسمٍ، فهذا يعني أن هذا الاسم لم يكن له بحسب الطبيعة، بل أخذه فيما بعد بحسب النعمة. إذن، فشخصٌ مثل هذا لا يمكن أن يكون الله؛ لأنه ليس أزلياً بل وُجِدَ في زمن معين.

٢- الإجابة على هذه التساؤلات باختصار:

- أيةُ كرامةٍ مضاعفةٍ صارت لذاك الذي لَبِسَ شكل العبد، بينما هو الإله الكائن من الإله[1]؟

- كيف نعتبر ناقصاً ذاك الذي ترك الأسمى وأخذ الأدنى؟
- أيةُ مكافأةٍ يأخذها ذاك الذي كان الله ثم صار إنساناً؟
- كيف مُجِّد ذاك الذي نزل من المجد إلى الهوان؟
- كيف صار في رِفعَةٍ ذاك الذي تنازل عن مجد الإلوهية وصار إنساناً؟
- كيف يُرفع الذي نزل؟
- أيُ وضعٍ حسنٍ اكتسبه هذا الذي أتى من الأعالي ونزل إلى الأدنى؟
- فإذا كان الذي هو الله العلي الساكن في الأعالي يُقال عنه إنه رُفِّعَ، فمَنْ هو ذا الذي يعلو أكثر من طبيعة الله واستطاع أن يُصعِده؟
- كيف يمكن أن يكون وضيعاً هذا الذي هو في أحضان الآب العلي؟
- أيةُ إضافةٍ يحتاجها الله؟
- فإذا كان قد نزل لكي يُرفَع، فأيُ احتياجٍ يدفعه للنـــزول؟

---

(1) حين يشرح القديس يوحنا ذهبي الفم آيات فيلبي ٢: ٥ - ١١ يؤكد على إلوهية الابن، قائلاً: "إن الابن الوحيد الجنس، الذي هو في صورة الله، ليس أقل من الآب في أي شيء بل مساوٍ له، ولم يحسب مساواته لله (الآب) أنها مُختلسة". تفسير رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبي، الجزء الأول (العظات من ١ - ٨)، ترجمه عن اليونانية الباحث جورج ميشيل أندراوس، مراجعة د. سعيد حكيم يعقوب، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠٠٧م ص ١٢٧.

- فإن كان لأجل أن يُمجَّد، وضع ذاته، فأيُ احتياجٍ يدفعه لأنْ يتضع؟

-كيف لا يكون غيرَ حكيمٍ ذاك الذي بجهدٍ طلب الشيء الذي يملكه دون أي مجهود؟

- كيف أخذ اسماً ذاك الذي هو أعظم وفوق كل اسمٍ آخر، وهو مَنْ يُسجد له دائماً؟

٣- آياتٌ تشهد بأن الابن هو الله

"يا إلهي، خلصني باسمك" (مز ٥٣: ٣ س) و"يا رب فليُسجد لاسمك العظيم" (مز ٧٣: ٢١ س). "يكون اسمه إلى الدهر. قدام الشمس يمتد اسمه" (مز ٧٢: ١٧). "هؤلاء بالمركبات وهؤلاء بالخيل، أمَّا نحن فاسم الرب وإلهنا نذكر. هم جثوا وسقطوا أما نحن فقمنا وانتصبنا" (مز ٢٠: ٧ – ٨).

إذن كيف أخذ هذا (الاسم) ذاك الذي يملك كل شيء[١]؟

٤- إجابة أخرى

بما أنه "فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ. هذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللهِ" (يو ١: ١ – ٢)، ثم لأجل خلاصنا وضَع ذاته، وبسبب هذا يُقال أنه رُفِع. فإذا كان قد وضع ذاته لأجل خلاصنا، وبسبب هذا يُقال إنه رُفِّع، فكيف إذن لا يتضح للكل أن هذا الأمر لا يُقال على طبيعة **الكلمة**، بل بسبب أنه صار إنساناً؟

---

(١) سبق وإن طرح ق. أثناسيوس مثل هذه التساؤلات في إطار رده على الآراء الخاطئة للهراطقة، بأن الابن أخذ الرفعة والمجد كمكافأة له، إذ يقول: "لأنه لو كان غير موجود، أو لو كان موجوداً ثم رقيٌّ فيما بعد، فكيف خُلِقَت كل الأشياء بواسطته، وكيف يفرح به الآب لو لم يكن كاملاً (أم ٩:٣٠)؟ ومن الناحية الأخرى، إن كان هو قد ترقى الآن، فكيف كان يبتهج أمام الآب قبل أن يترقى؟ وان كان قد حصل على العبادة بعد موته، فكيف يظهر أن إبراهيم يسجد له في الخيمة، وموسى يسجد له في العليقة وكما رأى دانيال "ربوات ربوات وألوف ألوف، يخدمونه" (دا ٧:١٠). وان كان – كما يقولون – قد حصل على الترقي الآن، فكيف يشير الابن نفسه إلى مجده الذاتي الذي يفوق الطبيعة والذي كان له قبل إنشاء العالم عندما قال "مجدني أنت أيها الآب بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم" (يو ١٧:٥)". ضد الأريوسيين، المقالة الأولى، فقرة ٣٨ ص ١٠٢ – ١٠٣.

فالطبيعة البشرية التي اتخذها **الكلمة** في تجسده كانت شيئاً متواضعاً، بالتالي الرفعة تخص هذه الطبيعة البشرية. والكتاب المقدس لا يشير إلى هذا الأمر، إلاّ فقط عندما "صار (الكلمة) جسداً وحلّ بيننا" (يو ١: ١٤).

إذن، طالما صار الإخلاء باتخاذه جسداً، فالرفعة صارت لأجل البشرية[١].

٥- ردٌ آخر عن نفس الموضوع

يقول القديس بولس في رسالته: "لأن الْمَسِيحَ لَمْ يَدْخُلْ إِلَى أَقْدَاسٍ مَصْنُوعَةٍ بِيَدٍ أَشْبَاهِ الْحَقِيقِيَّةِ، بَلْ إِلَى السَّمَاءِ عَيْنِهَا، لِيَظْهَرَ الآن أَمَامَ وَجْهِ اللهِ لأَجْلِنَا" (عب ٩: ٢٤).

إذن، فبالرغم من أنه كان دائماً في السموات وفي حضن أبيه، إلاّ أنه دخل الآن إلى السماء وظهر عند الآب.

ومثلما رُفِّع لأجلنا ومُجِّد وأخذ "اسماً فوق كل اسمٍ" (فيلبي ٢: ٩)، هكذا به ندخل إلى السماء ونُحضَر أمام الآب[٢]، وهكذا أيضاً نُمجَّد ونُرفَّع لنصير أبناء الله.

---

(١) هذه الرفعة هي نعمة التبني، إذ يؤكد القديس كيرلس - في نفس السياق - في حواره عن الثالوث، قائلاً: "أن الاسم الذي هو فوق كل اسم قد أُعطى للابن عندما اتخذ جسدنا كواحد منا، وتعيّن ابن الله وهو الابن الحقيقي، كابنٍ بالتبني مثلنا ومن أجلنا حتى أننا بواسطته نصير أبناءً لله بالتبني، وتكون لنا شركة الطبيعة الإلهية ". حوار حول الثالوث القدوس الجزء الثاني (الحوار الثالث)، المرجع السابق ص ٥٥. والإنسان كان في احتياج إلى هذا التمجيد وهذه الرفعة، كما سبق وأكد القديس أثناسيوس، قائلاً: "بسبب وضاعة الجسد، وبسبب الموت". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الأولى، فقرة٤١ ص ١٠٧.

(٢) بصعود الابن أعطانا أن نوجد نحن أمام الآب، وهذا ما يؤكد علية القديس كيرلس في موضع آخر، قائلاً: " إذن، كان القسطُ – المن - هناك لكي يُحفظ لأجيال بني إسرائيل؛ لأنَّ المسيحَ غيرُ فاسدٍ، بل هو باقٍ إلى الأبد، وهو حاضرٌ في كل وقت، وفي كل زمانٍ ماثلٌ أمام الرب، أي أمام أعين الآب. لأنَّ وحيدَ الجنسِ عندما صار إنساناً دخل بعد ذلك إلى قُدس الأقداس في الخيمة الأعظم والأكمل، أي في السماء لكي يظهر الآن أمام الله لأجلنا، كما هو مكتوب (انظر عب ٩: ٢٤). لأنه لا يقدِّم ذاته أمام الآب لأجل نفسه، بل يقدِّمنا في ذاته إلى الآب، بالرغم من أننا ضللنا من أمام وجه الآب بسبب مخالفة آدم، وبسبب الخطية التي مَلَكَت وسادت على الكل. إذن، فقد اقتادنا المسيحُ، وبواسطته تمكنّا من الحضور إلى مدخل الأقداس كما قال لنا بولس الرسول. لأنه مثلما قُمنا مع المسيح، وجلسنا معه في السماويات، هكذا أيضاً نُوجد معه أمام الآب". السجود والعبادة بالروح والحق، المرجع السابق، الجزء السادس، المقالة العاشرة ص ٣٢.

٦- ردٌ آخر

عندما يشير المرنم إلى صعود مخلّصنا إلى السموات، يقول بإلهام الروح: "اِرْفَعْنَ أَيَّتهَا الأَرْتَاج رؤوسَكنّ، وَارْتَفِعْنَ أَيَّتهَا الأَبْوَاب الدَّهْرِيَّات، فَيَدْخلَ مَلِكُ الْمَجْدِ" (مز ٧: ٢٤). إذن هنا الروح يأمر القوات السماوية المقدسة لكي تفتح الأبواب بينما يدخل المسيح. مع إنه هو داخل الأبواب، وفي السموات بكونه إلهاً حتى قبل صعوده. إذن لماذا تحتاج القوات السماوية لأوامر الروح؟ أو لماذا يُقال إن ذاك الذي هو في الداخل، بالفعل قد دخل؟ فهو قد جاء لأجلنا إلى الأبواب السماوية، ليس كإله بل كإنسان، وأدخلنا بواسطة ذاته، ولأجلنا دشَّن هذا الطريق. فبينما كان عالياً، رُفِّع لأجلنا[1] كإنسان لكي يرفعنا نحن بالذي هو شبيه بنا[2]، وهكذا يغيّرنا جاعلاً إيانا مماثلين لصورة الخالق، مجدداً الطبيعة البشرية لتكون مثلما كانت من البداية.

([1]) إن تعبير" لأجلنا نحن البشر" يمثل الأساس لفهم هذه الآيات التي أساء الهراطقة فهمها، والجدير بالذكر أن هذا التعبير قد ورد في قانون الإيمان، فتجسد **الكلمة** هو لأجلنا وموته وقيامته وصعوده وجلوسه عن يمين الآب هو لأجلنا. هكذا حين أخلى ذاته كان لأجلنا وكذلك حين قيل أنه أخذ، فهذا تم لأجلنا. وحين تقدس، فهذا أيضاً لأجلنا، كما سبق وأكد القديس أثناسيوس، قائلاً: "وكما أنه وهو الذي يقدّس الجميع، يقول أيضاً أنه يقدس نفسه للآب من أجلنا – ليس بالطبع لكي يكون اللوغوس مقدّساً – بل لكي بتقديس ذاته يقدسنا جميعاً في ذاته. وهكذا بنفس المعنى ينبغي أن نفهم ما يقال الآن أنه "تمجد". ليس لكي يمجّد هو (أي اللوغوس) نفسه – إذ أنه هو الأعلى – بل لكي هو ذاته "يصير براً" من أجلنا". ضد الأريوسيين، المقالة الأولى، فقرة٤١ ص ١٠٧.

([2]) كما قال القديس غريغوريوس اللاهوتي: "أجل هذا (**الكلمة**) يدخل في الصورة ذاتها ويلبس جسداً من أجل الجسد، ويأخذ نفساً روحية من أجل نفسي منقياً هكذا الشبه بالشبه، شبهي أنا بشبهه، ويصير في كل شيء إنساناً كاملاً ما عدا الخطيئة. يولد من العذراء التي كان قد قدس نفسها وجسدها قبلاً بالروح القدس (لأنه وجب أن تُكرّم الولادة ولكن أن تُكرّم قبلها بتوليتها)، ويبقى المسيح إلهاً بعدما أخذ الطبيعة الإنسانية، صائراً واحداً من العنصرين المتغايرين من الجسد والروح". عظة عن الفصح، والترجمة العربية للعظة تعريب الأسقف اسطفانوس حداد، مختارات من القديس غريغوريوس اللاهوتي التريتري، منشورات النور ١٩٩٤، ص ١٨١.

٧- تعليقات على التجسد لها نفس المفهوم عن "مَسَحَهُ" و "رَفَّعَهُ"، وغيرها من الأقوال التي قيلت عن المسيح

إن **كلمة** الله عالٍ بكونه إلهاً، ولكنه رُفِّع كإنسان. وبالرغم من كونه إلهاً ليس في احتياج لشيء، قيل عنه إنه كإنسانٍ أَخَذَ. وبينما يسجد له الجميع بكونه إلهاً، يُسجد له الآن كإنسان (حين تجسد). وبما أنه مات بكونه إنساناً، وهو أمرٌ لا يلحق بالله **الكلمة**، هكذا من الصواب أن يُقال أيضاً إنه أخَذَ؛ لأنه مثلما صار الموت للطبيعة البشرية، هكذا تسري عليها أيضاً كل هذه الأمور[1]. فبالرغم من أنه إلهٌ غير مائت، إلاّ أنه قيل إنه مات كإنسان، هكذا بالمثل قيل عن الله المتعالي (العلي) إنه رُفِّع كإنسان.

كيف أظهر يسوع المسيح مجد الآب؟

لأنه بتأنسه أنقذ الخروف الضال، ورتق الفتق[2]، وقهر الضلال، فانسحب إلى الخلف، كل هذا يعلن مجد الله الآب.

٨- ردٌ آخر

بالرغم من أنه هو الله، إلاّ أنه صار إنساناً، واحتمل ما يليق بالإنسان من نقص؛ حتى لا يعثر أحدٌ عندما تُنسب له تلك الأمور التي تتناسب مع الطبيعة البشرية وهيئة العبد، إذ أنه كإنسان يُقال عنه إنه أَخَذَ ورُفِع.

ولذلك، ليس من الصواب أن يُدان هذا الذي قَبِل الطبيعة البشرية ذاتها؛ لأنه لم يتجنب أن يأخذ خصائص الطبيعة البشرية. وخصائص الطبيعة البشرية هي الأخذ من الله وفق ما هو مكتوب: "وَأَيُّ شَيْءٍ لَكَ لَمْ تَأْخُذْهُ؟" (١ كو ٤: ٧).

إذن فقد أخذ - كإنسانٍ - ما يُؤخذ بحسب النعمة، وهو الكامل الذي كان لديه كل شيء بكونه إلهاً بحسب الطبيعة.

---

(١) أي الأمور التي تليق بالبشر.

(٢) يقصد التمزق الذي أصاب العلاقة بين الإنسان والله من جراء السقوط.

٩- ردٌ آخر

إذا كان الآب يعمل كل شيء بواسطة الابن، وبدونه لا يصير شيءٌ، فنحن في حاجة إلى القول بأنه هو نفسه مَنْ قد أعطى الرفعة إلى ذاته آخذاً النعمة من الآب. لأنه قَبل الجسد المؤلّه[1] الذي أخذه في حين أنه كان إلهاً بحسب الطبيعة، بما أنه هو **كلمة** الآب. فقد رُفِع بما أنه صار إنساناً. وسجدوا له بالرغم من أنه أتى في شكل العبد، آخذاً - منذ القدم - الحق بأن يسجدوا له مع الآب.

إذن، النعمة والرِّفعة تخصان الطبيعة البشرية؛ لأن **كلمة** الله تآلف مع كل ما كان يحدث لجسده الخاص؛ لأنه لم يكن جسدُ شخصٍ آخر، لكنه خاصٌ به، لذلك حُسب كإنسان. لأن المسيح واحدٌ هو، مكوَّنٌ من الطبيعة البشرية (الناسوت) **وكلمة** الله (اللاهوت) الذي لم يعتريه أي تغيير، إذ أخذ هيكلاً (جسداً) من العذراء.

١٠- ردٌ آخر

يُرنم داود قائلاً: "كرْسِيّكَ يَا اَللهُ إِلَى دَهْرِ الدّهورِ" (مز ٤٥: ٦). ثم يقول: "مِنْ أَجْلِ ذلِكَ مَسَحَكَ اللهُ إلهكَ بِدهْنِ الابْتِهَاجِ" (مز ٤٥: ٧). لكن **الكلمة** كان قد مَلَكَ أيضاً قبل أن يمسحه الآب. كيف إذن مُسِح ملكاً وقُدِّس هذا الذي مَلَكَ دائماً وهو القدوس؟ إذن، فمثلما كان ملكاً على الدوام، ويُقال إنه صار ملكاً في الأزمنة الأخيرة، هكذا يُقال أيضاً إنه رُفِع بينما هو العلي، بسبب تدبير تجسده.

إذن فقد رُفِع ومُسِح وقُدِّس لأجلنا، حتى بواسطته تُنقل النعمة إلى الجميع، بما أنه أعطى هذه النعمة (بعد التجسد) بالفعل للطبيعة البشرية، وحُفِظَت من الآن فصاعداً لكل الجنس البشري. لهذا قال المخلص في إنجيل يوحنا "وَلأَجْلِهِمْ أُقَدِّسُ أَنَا ذَاتِي، لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضاً مُقَدَّسِينَ فِي الْحَقِّ" (يو ١٧: ١٩). لأن كل ما أُعطيَ للمسيح، أُعطيَ لنا أيضاً. فهو لم يقبل التقديس لأجل ذاته (لأنه هو نفسه الذي يُقَدِّس)، لكن لكي تسري (القداسة) من خلال ذاته إلى الطبيعة البشرية صائراً بذلك طريقَ ورأسَ الخيرات التي تُمنح لنا. لذلك

---

[1] يقصد أن هذا قد تم بفضل تبادل الخواص، مثل اكتساب الحديد لقوة حرارة النار. (المترجم).

يقول: "أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ" (يو ١٤: ٦)، الذي بواسطته حلّت علينا النعمة الإلهية رافعةً ومقدِّسةً وممجِّدةً ومؤلِّهةً طبيعتنا[١] في المسيح أولاً.

١١- ردٌ آخر

بما أن الله هو الذي صار إنساناً حقاً، لا الإنسان هو الذي صار إلهاً[٢]، ومُسِح كإنسان كي يُمجَّد، فمن الواضح أن هذه النعمة أُعطيت إلى الطبيعة البشرية.

١٢- ردٌ آخر

بالرغم من أنه هو مانح الروح بحسب ما هو مكتوب "اقْبَلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ" (يو ٢٠: ٢٢). إلاَّ أنه يُقال عنه إنه أخذ الروح، إذن كلٌ من المنح، وكذلك الأخذ، إنما هو يخص الطبيعة البشرية.

١٣- ردٌ آخر

يقول المسيح متحدثاً إلى الآب: "لأَجْلِهِمْ أُقَدِّسُ أَنَا ذَاتِي" (يو ١٧: ١٩). إذن، فذاك الذي يستطيع أن يقدِّس ذاته، ولا يطلب تقديساً من آخر، هو رب القداسة، وبما أنه هو نفسه غير محتاج للقداسة، فقد تقدَّست الطبيعة البشرية؛ لأن القداسة تصير لذاك الذي يحتاج إليها. بناءً على ذلك، هذا التقديس صار لأجلنا بواسطة المسيح لكي نتقدَّس نحن بواسطته.

١٤- ردٌ من معارضات الهراطقة

يقولون مكتوب: "أَحْبَبْتَ الْبِرَّ وَأَبْغَضْتَ الإِثْمَ، مِنْ أَجْلِ ذلِكَ مَسَحَكَ اللهُ إِلهُكَ بِدهْنِ الابْتِهَاجِ" (مز ٤٥: ٨). بالتالي لا ينبغي أن نقبل أبداً أن يُمسح الرب إن لم يحب البر

---

(١) أي اكتسبنا نعمة أن نكون شركاء الطبيعة الإلهية كما قال القديس بطرس الرسول (٢ بط ١: ٤).

(٢) سبق للقديس أثناسيوس التأكيد على هذه الحقيقة في نفس هذا السياق، قائلاً: "فهو لم يكن إنساناً ثم صار فيما بعد إلهاً، بل كان إلهاً وفيما بعد صار إنساناً بالأحرى لكي يؤلّهنا" إي لكي يقدسّنا بالتمام ويعطينا نعمة أن نكون شركاء الطبيعة الإلهية، دون أن يقصد أن تتغير طبيعتنا ونصير آلهة بحسب الطبيعة، أنظر ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الأولى، فقرة ٣٩ ص ١٠٣.

ويبغض الإثم. لأن أداة الربط السببية "مِنْ أَجْلِ ذلِكَ" التي استُخدمت، تُظهِر أن هذه المسحة قد أخذها كمكافأة له على فضيلته. وحيث إنه مُسِحَ لأجل هذا، أي بسبب أنه أحب البر وأبغض الإثم، فقد نال القداسة كعطية. ومَنْ يكون في حاجةٍ لإضافةٍ ما، هو – على أية حال – ناقص وغير كامل، وليس مثل الآب الكامل.

١٥- الرد على هذا الاعتراض

أستيقظ أيها الهرطوقي، أيها النائم وقم من الأموات (انظر أفسس ٥: ١٤). لأنه عندما يقول: "أَحْبَبْتَ الْبِرَّ وَأَبْغَضْتَ الإِثْمَ، مِنْ أَجْلِ ذلِكَ مَسَحَكَ الله إلهك[1]"، لا لكي يعتقد المرء أن المسحة أُعطيت كمكافأة للفضيلة، لكن لكي نفهم الآتي: كان لدى آدم، الآب الأول طبيعة متغيِّرة، وكان متغيِّراً مثل طبيعته، فمرةً كان يحب البر ويبغض الإثم، ومرةً أخرى ينجرف إلى النقيض، يحب الإثم ويبغض البر ويضله الشيطان (فهذا هو ملمح أولئك الذين لهم طبيعة متغيِّرة). ولكي يُشفى هذا المرض، كان ينبغي على **كلمة** الله غير المتغيِّر أن يجعل ذاته تنافس الشرير لأجلنا، لأنه إذا كنَّا قد هُزِمنا بذاك المتغيِّر (آدم)، هكذا انتصرنا **بالكلمة** غير المتغيِّر، لذلك مُسِحَ؛ لأنه دائماً وبطريقة لا نظير لها، يحب البر ويبغض الإثم، ولا يمكن أن يعتريه أيُ تغيِّير.

بناءً على ذلك، عندما يقول: "أَحْبَبْتَ الْبِرَّ وَأَبْغَضْتَ الإِثْمَ، مِنْ أَجْلِ ذلِكَ مَسَحَكَ الله"، عليك أن تفهم هذا القول في إطار هذا السياق. لأنه لمَّا كانت كل المخلوقات لها

---

[1] يرى القديس يوحنا ذهبي الفم في عبارة "إلهك" (عب ١:٩) كأنه يرد على اليهود وفي قوله "وأما عن الابن كرسيك يا الله إلى دهر الدهور" (عب ١: ٨)، كأنه يرد فيما بعد على الهراطقة أتباع أريوس وسابيلوس وغيرهم، إذ يقول: "ماذا يعني بعبارة "إلهك؟" أي لأنه قال شيئاً عظيماً، فمرة أخرى يقدِّمه على نحو أبسط. هنا وقف ضد اليهود، وكذلك فيما بعد ضد أتباع بولس الساموساطي، وأتباع أريوس، وتصدى لماركلوس، وسابيليوس، وماركيون. كيف؟ بالنسبة لليهود، قد أظهر أنه هو نفسه إله وإنسان. وفي تصديه للآخرين، أي أتباع بولس الساموساطي: تحدث عن الوحيد والأزلي، وعن جوهره غير المخلوق، لأن قوله "كرسيك يا الله إلى دهر الدهور"، ذكره في تضاد مع كلمة "الصانع". وفيما يتعلق بأتباع أريوس فهو يكرر هذا التضاد ويذكر أنه ليس عبداً، لكن بما أنه صار إنساناً، فيكون عبداً إلاّ أنه غير مخلوق. ولماركلوس والآخرين، يقول إن هناك إله وإنسان في أقنوم واحد. ويقول لأتباع ماركيون، إن الطبيعة الإلهية لم تُمسح، بل الطبيعة الإنسانية". تفسير رسالة بولس الرسول إلى العبرانيين، المرجع السابق، ص ٦٠ – ٦١.

طبيعة متغيرة، وأيٌ من هذه المخلوقات لم يكن في استطاعتها أن تُنازِل الشيطان، فإنك أيها الله **الكلمة** الذي من الآب غير المتغيِّر وأنت غير المتغيِّر، قد أحببت دائماً البر وأبغضت الإثم، لذا مسحك الله لكي يرى فيك الطبيعة البشرية المخلوقة[1] التي تغلب الشيطان.

١٦- ردٌ آخر

توجد في الكتاب المقدس أقوال كثيرة عن الله الآب: "لأَنّ الرَّبّ عَادِلٌ وَيحِبّ الْعَدْلَ" (مز ١١: ٧)، و "الْغِشّ يَكْرَهه الرَّبّ" (مز ٥: ٦)، وأيضاً "أَنَا الرَّبٌ مُحبٌ الْعَدْل، مُبْغضُ الْمُخْتَلس بالظُّلْم" (أش ٦١: ٨) إذن هل يمكن لأحد - بسبب هذه الأقوال - أن يقول إن ربنا عظيم لأنه يحب البر ويبغض الإثم، ويُوصف بأنه "عظيم" كمكافأة له من أجل فضيلته؛ لأنه يحب هذه ويبغض تلك؟ إطلاقاً. لا يستطيع المرء أن يصل إلى مثل هذا الجنون العظيم[2]. فإذا كان كل ما قيل بهذه الطريقة - في حالة الآب - يُفسَّر بتقوى، هكذا يحسُن أن تؤخذ هذه الأقوال بالمثل للابن؛ لأن الصورة تُقارَن بالأصل، والأصل بالصورة.

---

(١) سبق للقديس أثناسيوس أن أكد على هذا الأمر بكل وضوح، قائلاً: "إذن فإن كان يقدّس ذاته من أجلنا. وهو يفعل هذا لأنه قد صار إنساناً، فمن الواضح جداً أن نزول الروح عليه في الأردن، إنما كان نزولاً علينا نحن، بسبب لبسه جسدنا. وهذا لم يَصر من أجل ترقية اللوغوس، بل من أجل تقديسنا من جديد، ولكي نشترك في مسحته، ولكي يقال عنا: "ألستم تعلمون أنكم هيكل الله، وروح الله يسكن فيكم" (١ كو ٣: ١٦) فحينما أغتسل الرب في الأردن كإنسان، كنا نحن الذين نغتسل فيه وبواسطته". ضد الأريوسيين، المقالة الأولى، المرجع السابق، فقرة٤٧ ص ١١٥.

(٢) هنا يريد القديس كيرلس أن يضع الهراطقة في مواجهة مع الله الآب (الأصل) ليبرهن على أن ما يقال على الأصل يسري أيضاً على الابن (صورة الآب)، وهذا الأسلوب سبق للقديس أثناسيوس أن استخدمه في نفس السياق حين قال: "فإننا نفكر بالصواب بقولنا إن "الله يحب العدل ويبغض الاختلاس والظلم". وهذا لا يعني أنه له ميل تجاه الواحد أو تجاه الآخر، ويقبل ما هو مضاد، لدرجة أنه يفضل هذا ولا يفضل ذاك، فهذه هي سمة المخلوقات، بل يعني أنه كقاض، يحب الأبرار ويعينهم ويعزف عن الأشرار. وتبعاً لهذا إذن، ينبغي أن نفكر بمثل هذه الأفكار عن "صورة الله" أيضاً بأنه هكذا يحب ويكره، لأن هذا ما يجب أن تكون عليه طبيعة "الصورة" مثل طبيعة الآب، حتى ولو كان الأريوسيون - لأنهم عميان - لا يرونها ولا يرون شيئاً آخر من الأقوال الإلهية". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الأولى، فقرة٥٢ ص ١٢٤ - ١٢٥.

١٧- في قول الرسول: "جلس في يمين العظمة في الأعالي. صائراً أعظم من الملائكة" (عب ١: ٣ - ٤).

إن هؤلاء الذين يتجرَّأون على التطاول على جوهر **كلمة** الله واضعين الابن من ضمن المخلوقات مخترعين مبررات سفسطائية، يقولون: بما أن الابن صار أعظم من الملائكة، فإن هذا يكشف عن أن تغيراً ما قد حدث؛ لأنه صار ما لم يكن عليه. لأن هذا الذي يمكنه - بشكل عام - أن يتحول وأن يتغيَّر مما هو عليه إلى شيء آخر، يكون له طبيعة متغيِّرة. وإن كانت طبيعته متغيِّرة، فمن الواضح أنه مخلوق؛ لأن التغيُّر هو أحد سمات المخلوقات.

١٨- ردٌ على هذا الاعتراض

أولاً يجب على هذا الذي شرَع بالبحث في الكتب المقدسة أن يفحص الزمن الذي قيلت فيه هذه الأقوال، والشخص الذي قيلت عنه، أو بواسطته قيلت، أو عمَنْ قيلت[١]. لأنه بهذه الطريقة يكتسب أولئك الذين يريدون أن يفهموا هذه الأقوال فهماً صحيحاً، ثبات الفكر. فمعرفة الوقت تُعد مطلباً هاماً؛ لهذا نجد أن الرسل قد قالوا للمسيح: "قُلْ لَنَا مَتَى يَكُونُ هذَا؟ وَمَا هِيَ عَلاَمَةُ مَجِيئِكَ وَانْقِضَاءِ الدَّهْرِ؟" (مت ٢٤: ٣). وعلى العكس فمِن ضمن أولئك الذين لم يعرفوا الوقت كانوا أتباع هيمينايُس وفيليتُس اللذين زاغا إذ اعتقدا أن القيامة بالفعل صارت وعلَّموا بهذا (انظر ١ تيمو ١: ٢٠، ٢ تيمو ٢: ١٧، ٤: ١٤)[٢]. أيضاً من الضروري والمفيد معرفة عن أية أشخاص[٣] يتحدث النص، وسوف

---

(١) هذه الطريقة هي التي انتهجها الآباء حين كانوا يفسرون الكتب المقدسة تفسيراً صحيحاً لكي يؤكدوا على الإيمان المستقيم بإلوهية الابن، إذ قال القديس أثناسيوس: "وسمة إيماننا هذه مأخوذة من الرسل بواسطة الآباء. فيجب إذن على مَنْ يقرأ الكتاب، أن يفحص ويميز متى يتكلّم (الكتاب) عن إلوهية الكلمة، ومتى يتكلّم عن أموره الإنسانية، لئلا يُفهم أحدهما بدل الآخر، فنقع في نفس الخطأ الذي سقط فيه الأريوسيين". رسائل القديس أثناسيوس إلى سيرابيون ٢: ٨ ص ١٠٥. وقد ذكر القديس أثناسيوس نفس هذا الكلام في شرحه لـ (عب ١: ٤) "صائراً أعظم من الملائكة". أنظر ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الأولى، فقرة ٥٤ ص ١٢٧.

(٢) "وَكَلِمَتُهُمْ تَرْعَى كَآكِلَةٍ. الَّذِينَ مِنْهُمْ هِيمِينَايُسُ وَفِيلِيتُسُ، اللَّذَانِ زَاغَا عَنِ الْحَقِّ، قَائِلَيْنِ: «إِنَّ الْقِيَامَةَ قَدْ صَارَتْ» فَيَقْلِبَانِ إِيمَانَ قَوْمٍ" (٢ تيمو ٢: ١٧).

(٣) يؤكد أيضاً القديس أثناسيوس على الطريقة الصحيحة لتفسير النصوص المقدسة في نفس سياق الرد على الأريوسيين، قائلاً: "فمن الواجب أن نفحص هذا أولاً. والآن من الملائم كما نعمل في كل الأسفار الإلهية،

نتحقق من هذا مما قاله الخصي لفيلبُس: "عَنْ مَنْ يَقُولُ النَّبِيُّ هذَا؟ عَنْ نَفْسِهِ أَمْ عَنْ وَاحِدٍ آخَرَ؟" (أع ٨: ٣٤)، وكذلك مما قاله بولس الطوباوي مريداً أن يشير إلى المخلص: "لأَنَّ الَّذِي يُقَالُ عَنْهُ هذَا كَانَ شَرِيكاً فِي سِبْطٍ آخَرَ لَمْ يُلاَزِمْ أَحَدٌ مِنْهُ الْمَذْبَحَ. فَإِنَّهُ وَاضِحٌ أَنَّ رَبَّنَا قَدْ طَلَعَ مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا" (عب ٧: ١٣ - ١٤). وضرورة ألاَّ نجهل هذا الموضوع، تتضح من الآتي: عندما تنبأ الأنبياء عن المخلص، وواحد يقول: "ها العذراء تحبل" (إش ٧: ١٤)، وأخر أيضاً: "كشاه تُساق إلى الذبح" (إش ٥٣: ٧)، فإن لم تُفهم هذه الأقوال على أنها تخص المسيح، فإن ذهننا سوف يذهب بعيداً عن الحق، وسوف يبعُد عن المفاهيم التقوية.

وعلى ذلك يكون فحص الأقوال أمراً هاماً جداً. فعندما نفتش بدقة عن الزمن والشخص والموضوع، عندئذٍ نرى أن ما قاله بولس هو إنه لأجلنا تأنس **كلمة** الله، وعندما طهَّرنا من خطايانا جلس في يمين الله ضابط الكل في السماء، وحينئذٍ صار أعظم من الملائكة دون أن تتغيّر طبيعته إلى شيء آخر. لأن قول بولس هنا لا ينصرف إلى طبيعة الابن الإلهية، لكنه يتكلّم عن أمرٍ صار في زمن التأنس. بالتالي، لا يقول إنه صار أعظم من الملائكة مريداً أن يقارن طبيعة الابن بطبيعة أولئك الملائكة، لكنه في هذا الإطار يقول إن الابن صار أعظم ليوضح اختلاف طبيعة الابن عن طبيعة المخلوقات[1]. لأن القديس بولس عندما كان يتحدث إلى العبرانيين كان يريد - بجرأة عظيمة — أن يبرهن على أن خدمة المسيح هي أعظم من رسالة الأنبياء، ومن الناموس الذي خدمته الملائكة، ولذلك يعقد مقارنة عن قيمة الأشخاص ويقول: "اَللهُ، بَعْدَ مَا كَلَّمَ الآبَاءَ بِالأَنْبِيَاءِ قَدِيماً، بِأَنْوَاعٍ وَطُرُقٍ كَثِيرَةٍ، كَلَّمَنَا فِي هذِهِ الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ فِي ابْنِهِ، الَّذِي جَعَلَهُ وَارِثاً لِكُلِّ شَيْءٍ، الَّذِي بِهِ أَيْضاً

هكذا من الضروري أن نعمل هنا أيضاً. فيجب أن نفهم بأمانة: الوقت الذي كتب عنه الرسول، والشخص والموضوع اللذين كتب عنهما، لكي لا يجد القارئ نفسه وهو يجهل هذه الأقوال أو غيرها، بعيداً عن المعنى الحقيقي". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الأولى، فقرة ٥٤ ص ١٢٧ - ١٢٨.

(1) وهذا ما أكده القديس أثناسيوس في نفس السياق، إذ يقول: " فإنه- الرسول - لم يعقد مقارنة بينه وبين الكل (أي المخلوقات)، بقوله إنه قد صار "أعظم"، أو "أكثر كرامة"، وذلك لكي لا يظن أحد بخصوصه وخصوصهم - أنهم أبناء جنس واحد. بل قد قال إنه "أفضل" وذلك لكي يكون معروفاً، اختلاف طبيعة الابن عن طبيعة المخلوقات". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الأولى، فقرة ٥٥ ص ١٣٠.

عَمِلَ الْعَالَمِينَ، الَّذِي، وَهُوَ بَهَاءُ مَجْدِهِ، وَرَسْمُ جَوْهَرِهِ، وَحَامِلٌ كُلَّ الأَشْيَاءِ بِكَلِمَةِ قُدْرَتِهِ، بَعْدَ مَا صَنَعَ بِنَفْسِهِ تَطْهِيراً لِخَطَايَانَا، جَلَسَ فِي يَمِينِ الْعَظَمَةِ فِي الأَعَالِي" (عب ١: ١ - ٣). إذن عندما أحاط ق. بولس، الابن بمجد عظيم جداً، وأعطاه كل خصائص طبيعة الآب، عندئذٍ يقول إنه صار أعظم من الملائكة بقدر عظمة الاسم الذي أخذه، كابنٍ ووارثٍ، وبهاءٍ وختم الآب وصورته، وخالقٍ وجليسٍ في عرش الآب. فإذا فهمنا أنه الأعظم والمختلف عن الملائكة بسبب كل هذا، نفهم أيضاً أن خدمته تكون أعظم من خدمة أولئك الملائكة.

وأيضاً قال: "صار"، وهي لا تعني أنه أتى إلى الوجود من العدم "(لأنه في البدء كان الكلمة" (يو ١: ١)، وهي لا تعني تغيُّره من الأدنى إلى شيء أعظم (لأن الابن هو الكامل الآتي من الآب الكامل)، لكنه أظهر عظمته قياساً على مجده ورتبته. على سبيل المثال عندما يُقارَن إنسانٌ مع الحصان يقول الذين قارنوه إنه أعظم منه لأنه يتميَّز بالعقل.

وكون أنَّ "صار" لا تعني تغييراً في طبيعته، يصير واضحاً من ذاك الذي يقول لله: "لأن صخرتي ومعقلي أنت" (مز ٣١: ٣)، "الرب لي صرحاً وإلهي صخرة ملجأي" (مز ٩٤: ٢٢)، "الرب صار خلاصي" (مز ١١٧: ٢٨ س). وعلى ذلك تكون مقارنة الابن بالنسبة للملائكة هي مقارنة خدمة ومجد، وليست مقارنة خاصة بالطبيعة.

١٩- عرض شواهد تُظهر معنى صفة "أعظم"، وهل الكتاب المقدس يستخدمها على أولئك الذين يختلفون تماماً فيما بينهم، أو من جهة طبيعتهم أو من جهة القيمة، أو من جهة قياس النعمة التي نالوها.

يشير الكتاب إلى عظمة النعمة عندما يقول: "لأن يوماً واحداً في ديارك خير من ألف" (مز ٨٤: ١٠). حقاً ما الذي يعادل الديار الموجودة في السموات؟ ومن جهة الأشياء التي لها طبيعة مختلفة يقول: "خذوا أولاداً وليس فضة، لأن الحكمة أعظم من اللآليء وكل الجواهر لا تُساويها" (أم ٨: ٩ - ١٠ س). وإشعياء يقول للخصيان: "إني أعطيهم في بيتي وفي أسواري نُصباً واسماً أفضل من البنين والبنات" (إش ٥٦: ٤ - ٥). هكذا يتضح لنا أن

كلمة "أعظم" أو "أفضل" لا تُستخدم لأي اختلاف عادي، بل عندما يكون الاختلاف عظيماً وفائقاً[1].

٢٠- حديثٌ آخر على نفس الموضوع

وبولس الرسول الطوباوي يشرح أقواله مبيِّناً بوضوح شديد ماذا يعني: "صَارَ أَعْظَمَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ" (عب ١: ٤) مضيفاً على ما قاله الآتي: "لأَنَّهُ لِمَنْ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ قَالَ قَطُّ:«أَنْتَ ابْنِي أَنَا الْيَوْمَ وَلَدْتُكَ»؟". وأيضاً عن الابن مكتوب: "لْتَسْجُدْ لَهُ كُلُّ مَلاَئِكَةِ اللهِ" (عب ١: ٦). وحيث إن المقارنة تنطوي على أن الواحد يجلس مع الآب ويُسجد له، وآخرون يقفون أمامه ويتلقَّون أوامر بالسجود له، إذن، كلمة "أعظم" لا تخص الجوهر، لكن المكانة المتعلقة بالجوهر وصفاته من الخارج. وعلى ذلك يتضح لنا أن الابن ليس واحداً من المخلوقات، لكنه مختلفٌ تماماً عنها، لأنه هو **الكلمة** المساوي للآب في الجوهر.

٢١- على نفس الموضوع

لكلمة "صار" معانٍ كثيرة، ولكنها على أية حال لا تنصرف إلى الأقنوم، لكن عندما ترد مضافةً إلى شيء، عندئذٍ تنصرف إلى المفهوم الذي استُخدمت من أجله هذه الكلمة. فإذا قلنا على سبيل المثال: إن شخصاً ما صار صانعَ أخشاب، أو رُخام، فهو على أية حال لم يصر إنساناً لكي يصير صانع أخشاب (نجاراً)، بل نعني أن إنساناً صار نجاراً لأنه

---

[1] نفس هذه الحجة ذكرها القديس أثناسيوس في نفس السياق، إذ يقول: "يترنم داود قائلاً "يوم واحد في ديارك خير من ألف" (مز ٨٤: ١٠). أما سليمان فيهتف قائلاً: "خذوا تأديبي لا الفضة. والمعرفة أكثر من الذهب المختار. لأن الحكمة خير من الأحجار الكريمة، وكل مادة ثمينة لا تساويها" (أم ٨: ١٠ - ١١). لأنه كيف لا تكون الحكمة والأحجار المستخرجة من الأرض، مختلفة في جوهرها، وهى بطبيعتها شيء آخر؟ وأية علاقة توجد بين الديار السماوية، وبين المساكن التي على الأرض؟ أم ما وجه التشابه بين الأبديات والروحيات، وبين الأمور الوقتية والفانية؟ لأن هذا هو المعنى الذي يقوله إشعياء "هكذا قال الرب للخصيان الذين يحفظون سبوتي ويختارون ما يسرني ويتمسكون بعهدي. أنى أعطيهم في بيتي وفى أسواري موضعاً ذائع الصيت، أفضل من البنين والبنات، وسأعطيهم اسماً أبدياً، ولن ينقطع" (إش ٥٦: ٤ - ٥). إذن، فلذلك ليست هناك علاقة قرابة بين الابن والملائكة وما دامت ليست هناك علاقة - فلهذا فإن كلمة "أفضل" لا تذكر للمقارنة، بل بحصافة وفطنة بسبب اختلاف طبيعة الابن عن طبيعة الملائكة". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الأولى، فقرة ٥٥ ص ١٣٠.

قَبل الحِرفة. إذن كلمة "صار" هنا تخص فقط العلم، ولا تدل بأية حال على الكيان (الأقنوم) أو على الخِلقة. بالتالي، عندما يُقال إن المسيحَ صار أعظم من الملائكة في مقارنة معهم، فالمقارنة لا تخص الطبيعة، بل تخص الكرامة والمكانة.

٢٢- على نفس الموضوع

"صَار أَعْظَمَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ". كلمة "صار"، وإن كانت تُستخدم أيضاً على جوهر الابن، إلاَّ أن هذا لا يلحِقُه ضررٌ أبداً؛ لأن كثيراً ما استُخدمت الكلمة على الأشخاص الذين يُولدون. فبالنسبة للأشخاص الذين يصيرون ويُخلقون، لا يمكن للمرء البرهنة على أن فعل "يُولدون" يُستخدم استخداماً لفظياً دقيقاً وبحسب الطبيعة، لأن الأشخاص الذين وُلدوا، سبق أن خُلقوا بواسطة الخالق. على سبيل المثال: بالرغم من أن الإنسان يُولد، لكن يمكن أن يقال عنه إنه صار، والملمح الأساسي لوجوده أنه يُولَد، وليس أن يصير (أي يُخلق). أمَّا إذا قيل إن أشخاصاً وُلِدوا بواسطة الروح، فهذا يُقال بالقياس على الله **الكلمة**، الذي وُلِد حقاً من الروح، ولذلك لا نستخدم كثيراً تعبير: أنهم خُلقوا.

هكذا إذن كلمة "مولود" في حالة المخلوقات، فهي لا تُستخدم استخداماً لفظياً دقيقاً وبحسب طبيعة **الكلمة**، وأيضاً بالنسبة للذي "وُلِد"، لو قيل عنه إنه"صار"، فإنه لا يعتريه أي ضرر لأن الألفاظ في الكتاب المقدس قد تُستخدم للحالتين. لأنه يقول: "صار لأيوب سبعة أبناء وثلاث بنات" (أيوب ١: ٢ س). وأيضاً "وكان إبراهيم ابن مئة سنة حين صار له إسحق ابنه" (تك ٢١: ٦ س). وإذا كنا في حالة البشر نقول عن الشخص الذي يُولد، إنه صار، فعلى المرء ألاَّ يبالي حين يسمع نفس الأمر عن الابن، وذلك بعكس المخلوقات، فيجب أن نبالي لأجل السبب الذي ذكرته سابقاً[1].

(1) نفس هذا البرهان كان قد ذكره القديس أثناسيوس، أنظر ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الأولى ص ١٣١ - ١٣٢.

٢٣- من معارضات الهراطقة عن نفس الموضوع

مكتوب عن الابن إنه "صَار أَعْظَمَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ" لأن المقارنات عادةً ما تصير بين الأنواع المتشابهة (لأنه ما من أحد يقارِن الإنسانَ بالحصان أو الخروف بالكلب، لكن الإنسان بالبشر، والخروف بالخروف). لذا فالضرورة المطلقة تحتم أن تعترفوا بأن الابن مخلوقٌ، طالما هو يُقارن بالملائكة الذين هم طبيعة مخلوقة.

٢٤- الرد على هذا الاعتراض

إن المقارنات التي تتم عادةً بين أشياء من نفس النوع، تكون صحيحةً، لكن عندما تُقارَن هذه الأشياء ببعضها البعض، فإننا نتجنب استخدام كلمة "أعظم". لأن هذه الأشياء يتمشى معها استخدام كلمة "أكثر" و"أقل" و"متميز"، وفي بعض المرات تُستخدم كلمة "أزيد"، فهذه الكلمات تفصح عن المقارنة بشكل أفضل. هكذا يوسف كان "أكثر" جمالاً من إخوته (أنظر تك ٣٩: ٦). ونجمٌ ليس أعظم من آخر، بل يتميز عنه من جهة اللمعان.

هكذا الأمر بالنسبة للمخلص، فعندما يُقارَن بالبشر من ناحية جماله كإنسانٍ، لا يُقال أعظم، بل أكثر جمالاً من بني البشر (مز ٤٥: ٣). لكن عندما تقارن الأشياء المختلفة في النوع فيما بينها، عندئذٍ حسناً تُستخدم كلمة أعظم. هكذا مكتوب: "الحكمة أعظم من اللآلئ" (أم ٨: ١٩ س)، إذ ما هي العلاقة التي توجد - من جهة الطبيعة - بين الحكمة واللآلئ؟ فإذا كانت المقارنة تتم بين أشياء من نفس النوع، عندئذٍ لا تُستخدم كلمة أعظم، أمّا إذا كانت المقارنة بين أشياء لا يوجد بينها تشابه من حيث الطبيعة، عندئذٍ يمكن استخدام كلمة أعظم. وإذا كان الابن ليس مشابهاً للملائكة، ولا مخلوقٍ مثلهم، بل يتفوق عن الكل بما يفوق الوصف، فبقول ق. بولس إنه أعظم يقصد أنه لا يتشابه معهم وليس شبيهاً بأحد.

٢٥- ردٌ على الموضوع نفسه

لو قالوا إن الابن يمكن أن يقارَن بالملائكة، وهو شبيهٌ بهم، مستندين في ذلك إلى أن الكتاب يقول: "صَار أَعْظَمَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ"، فليحذروا؛ لأن مبررهم فيما يقولون يتعرّض للخطر. فقد آن الأوان لكي يعترفوا بأن الملائكة يمكنهم أن يجلسوا مع الله، وأن يملكوا

معه، وأن الابن لا يملك شيئاً أكثر مما لديهم باعتبار أن الأشياء المتشابهة فيما بينها تنتسب لنفس الطبيعة، حتى لو كانت هناك اختلافات في بعض الصفات فيما بينها؛ لأن هذا هو معنى المشابهة.

وإذا قيل عن الملائكة: "الصَّانِعُ مَلاَئِكَتَهُ رِيَاحاً وَخُدَّامَهُ لَهِيبَ نَارٍ" (عب ١: ٧. أنظر أيضاً مز ١٠٤: ٤)، بينما عن الابن: "كُرْسِيُّكَ يَا أَللهُ إِلَى دَهْرِ الدُّهُورِ" (مز ٤٥: ٦)، وكان الملائكةُ - بحسب زعمهم - والابنُ متماثلين، استناداً إلى أنه قيل عنه إنه "أعظم" بالمقارنة بهؤلاء، إذن، فلا شيء يعيق الملائكة عن أن تجلس مع الله في عرشه، بالرغم من أن أحداً من هؤلاء لا يستحق هذه الكرامة. وبالتالي يصبح قول بولس: "لِمَنْ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ قَالَ قَطُّ:«اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي»؟" (عب١٣:١) عبثاً من العبث. كيف أُعطيَ هذا الامتياز الاستثنائي للابن إن كان هو نفسه من طبيعة الملائكة وهم متشابهون معه؟ لأن كل عناصر التشابه التي تُنسب لنفس الطبيعة تكون مشتركة، بينما الامتيازات الآتية إلى أشخاص ما مِن إضافةٍ لاحقة لا تخص الجوهر. فطبيعة البشر - على سبيل المثال - واحدة، لكن الجميع لا يغتنون، ولا كلهم يصيرون ملوكاً، لكن هذه الامتيازات المكتسبة تتم بالقبول. بالتالي، لا يسمح أحدٌ للملائكة أن تحمل مجد الابن؛ لأنه هو الرب، بينما هم عبيد. بالتالي هم ليسوا متشابهين مع ذاك الذي يملك مع الآب كل شيء.

٢٦- إن الابن ليس له طبيعة الملائكة

لا يمكن للمخلوق والخالق أن تكون لهما الطبيعة عينها[١]. طالما أن الواحد هو الذي يخلق والآخر هو الذي يُخلَق. لأنه، إن لم تكن الأمور هكذا، ففي أي شيء يختلف

---

[١] يؤكد القديس يوحنا ذهبي الفم على الاختلاف الكبير بين الابن والملائكة، إذ يقول أثناء شرحه لـ (عب ١: ٧ - ٨): "فيقول عن الملائكة "الصانع ملائكته رياحاً"، بينما عن الابن يقول: "الرب خلقني"، وأيضاً: "الله جعله رباً ومسيحاً". لكنه لم يقل هذا عن المسيح الرب الابن، ولا عن الله **الكلمة**، بل قاله عن التجسد. لأنه حيث أراد أن يظهر الفرق الحقيقي، لم يتضمن - في المقارنة - الملائكة فقط، بل كل القوات السمائية التي تخدمه. أرأيت بأي طريقة، وبأي قدر من الوضوح يفصل بين المخلوقات والخالق، بين الخدم والسيد، بين الوارث والابن الحقيقي وبين العبد؟ لكن عن الابن يقول "كرسيك يا الله إلى دهر الدهور". ها هو رمز الملك. "قضيب استقامة قضيب ملكك" ها هو رمز آخر للملك. ثم بعد ذلك أيضاً يتكلم عن الكلمة المتجسد". تفسير الرسالة إلى العبرانيين، المرجع السابق، ص ٦٠.

الله عن المخلوقات من جهة الطبيعة؟ فإذا كان الله الآب يعمل كل شيء بواسطة الابن، وكانت طبيعة الملائكة طبيعة مخلوقة مثل كل المخلوقات، إذن فقد خُلقِت وأتت إلى الوجود بواسطة الابن. ولذلك لا يكون الابن مشابهاً من جهة الطبيعة لأولئك الذين خُلقوا بواسطته، بل بالحري يكون هو الخالق، فيما تكون المخلوقات هي ضمن العبيد. لأن الكتاب المقدس يقول: "لأن الكل عبيدك" (مز ١١٩: ١٩).

٢٧- إن يقال عن الابن إنه صار أعظم مِن الملائكة لا يعني أن يكون الابن من طبيعة الملائكة نفسها

المخلوق، سوف ينتهي حتماً – من جهة جوهره - إلى العدم متى أراد الله ذلك. لأن الكائن الذي تقبل طبيعته أي شيء، يمكن أن يناله الألم، حتى لو لم يكن قد تألم بعد، أمَّا الكائن الذي لا تقبل طبيعته الألم، فلن يتألم أبداً. ومَن يكُن غير متغير، ولا بداية زمنية لوجوده، ولا يعرف الطريق الذي يؤدي للنهاية، لا يكون مثل أولئك الذين لهم بداية زمنية لوجودهم. هكذا لا يستطيع أي عاقل أن يقول إن الكائنات المختلفة تماماً فيما بينها من جهة الطبيعة، يكون لها نفس الطبيعة ونفس الجوهر.

فإذا كانت المخلوقات الخاضعة للفساد يُقال عنها، "إنها تفنى"، بينما عن الابن: يقال: "أنت هو"، فإذا كان القِدَمُ سوف يعتري تلك المخلوقات بالتأكيد؛ لأنها من طبيعة مخلوقة، بينما يقال للابن: "سنوك لن تنتهي" (مز ١٠٢: ٢٧ – ٢٨)، فكيف يكون الابن من نفس طبيعة الملائكة، الخالق مع المخلوقات، غير المخلوق مع المخلوق، الأبدي مع أولئك الذين يطويهم الفناء؟ لأنه حتى ولو كان الملاكُ مخلوقاً غير مائتٍ، إلاَّ أن بقائه هكذا هو بإرادة ونعمة الله الخالق. فالواقع أن الملاك له بداية وجود، ويمكن أن تكون له نهاية. وإنما ما تتمتع به طبيعة الملائكة من امتيازات، فهي تخصهم هم لا الله الذي خلقهم. فالنيران – على سبيل المثال – بالتأكيد حارقة، إلاَّ أنها ليست هكذا بالنسبة لله. هكذا، فالملاك هو بالتأكيد غير مائت، لكن ليس غير مائت بالنسبة لله. لأن الله فقط هو الغير المائت بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، فهو عديم الموت بحسب الطبيعة، وليس بحسب النعمة مثل المخلوقات.

٢٨ـ ردٌ ببرهان على أن الملائكة هم عبيد، بينما الابن هو الرب

إن لم يكن لأحدٍ أن يغفر الخطايا إلاّ الله فقط، وكان الابن يغفر الخطايا، إذن فهو الله، ولا يمكن أن يُحصى ضمن المخلوقات. لأن الملائكة يصلُّون قائلين: "يا رب الجنود إلى متى أنت لا ترحم أورشليم ومدن يهوذا التي غضبت عليها هذه السبعين سنة" (زك ١: ١٢)، بينما الابن يقول بطريقة تبرهن على سلطانه: "يا بني. مغفورة لك خطاياك" (مت ٩: ٢). بالتالي لا يمكن أن تكون طبيعة العبد من نفس طبيعة الرب، ولا هذا الذي يطلب أن يأخذ، له نفس طبيعة ذاك الذي يمنح.

٢٩- ردٌ مثل الرد السابق: أن الابن لا يُحصى من ضمن العبيد

أرسل الله الأنبياء لكي يطلبوا ثمار الكرمة، هؤلاء الأنبياء لم يتمكنوا من أخذ الثمار وبالفعل قُتلوا، لكن المخلّص كرب، يترك الديون وينقل ملكية الكرمة إلى كل المزارعين كسيدٍ وربٍ. وقد كانت الملائكة تخدمه كما كانت تخدم خدمة الناموس[1]، ولكنهم لم يتمكنوا من فعل شيء من تلك التي يفعلها الابن. إذن ليست للابن نفس طبيعة الملائكة، بل طبيعة السيد والرب.

٣٠- ردٌ: عبارة "صَار أَعْظَمَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ" لا تعني مقارنة للجواهر، بل بالحري مقارنة للخِدمات

عندما يقول بولس عن الابن: "صَار أَعْظَمَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ"، فهو لا يريد مقارنة طبيعة الله **الكلمة** بتلك التي للملائكة، (لأن الإلوهيةَ أمرٌ لا يُقارن، ويستحيل أن تُدرك بالمقارنة مع آخر بأية حال)، لكنه كان يريد أن يشير إلى اختلاف الخِدمات، حتى أن كل واحدٍ يصير معروفاً مِن تلك الخدمة التي اختصه الله بها.

وكون أن كلمة "أعظم" تُستخدم في المقارنة مع خِدمة الملائكة، فهذا ما يتضح من أن بولس كان يستهدف البرهنة على أن هذه الخِدمة التي كرز يسوع بها كانت أعظم من وصايا الناموس، فمن أين يأخذ البراهين؟ يلجأ إلى خدمة أولئك الملائكة، وبناءً على

---

(1) على أساس أن الناموس سُلِّم لموسى بواسطة ملائكة بحسب التقليد اليهودي.

المقارنة بين خدمتهم وخدمة الابن، يحدد مَنْ هو الأعظم. وقد وجد أن الملائكة يخدمون الناموس، وأن هذا الناموس كُرِز به بواسطة هؤلاء الملائكة، بينما الابن يكرز بالمعرفة بواسطة الأناجيل. وهكذا يكون الابن أعظم من الملائكة، طالما صار خادماً للأمور العظيمة. فمن جهة هذا هو أعظم؛ لأن العظائم تُخدَم بواسطة العظماء، والصغائر بواسطة الصغار. والابنُ هو عظيمٌ، طالما أنه هو البهاء والختم (أنظر عب ١: ٣)، وطالما أنه هو يسمع هذا القول: "اجلس عن يميني" (عب ١: ٤)، وطالما أنه هو البكر، وتسجد له الملائكة ذاتها. بينما الملائكة ليست لديها أي شيء من تلك التي للابن، بل هم طبيعة أخرى كخدام، والبعض منهم يسرع لخدمة أولئك البشر العتيدين أن يرثوا الخلاص (أنظر عب ٢: ١٢). يتضح من ذلك أن خِدمة المخلّص هي أعظم من تلك التي للملائكة بقدر عظمة المخلّص في عمله للعظائم، ومحدودية أولئك الملائكة في عمل الأمور المحدودة[1].

لأجل ذلك، حين يقارن بولس الخِدمات، يقول: "صَارَ أَعْظَمَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ". لكن عندما يُشير إلى مقارنة الجواهر يقول: "بمقدار ما ورث اسماً مختلفاً عنهم" (عب ١: ٤ بحسب الأصل اليوناني). لم يقل "أعظم" بل "مختلف"، الأمر الذي يُظهِر الاختلاف العظيم الذي بينه وبين الملائكة.

(1) يؤكد القديس يوحنا ذهبي على حقيقة أن الملائكة مخلوقات مرسلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص، إذ يقول: "ما هو العجيب في إن الملائكة يخدمون الابن، في اللحظة التي فيها يخدمون لأجل خلاصنا؟ لاحظ كيف يسمو بأفكارهم ويظهر الكرامة العظيمة التي يمنحها الله لنا، من حيث أنه قد عيّن الملائكة، الذين هم أعلى منا، ليخدموا من أجل منفعتنا. كما يمكن للمرء أن يقول إن الله يستخدمهم في هذا (أي في خدمة العتيدين أن يرثوا الخلاص)، هذه هي خدمة الملائكة، أن يخدموا الله، من أجل خلاصنا. إن عمل الملائكة، يقوم على فعل كل شيء من أجل خلاص الأخوة، أو من الأفضل القول، بأن هذا هو عمل المسيح. لأن المسيح كسيد يُخلّص، بينما هؤلاء (الملائكة)، عبيد. ونحن عبيد، وشركاء في العبودية مع الملائكة. وكما يقول، لماذا تنظرون بفم مفتوح (أي بدهشة) إلى الملائكة؟ فهم عبيد لابن الله، وهو كثيراً ما يرسلهم لأجلنا، ويخدمون من أجل خلاصنا. حتى أنهم يُعتبَرون بمثابة عبيد لنا. فكروا كيف أنه لا يقيم فروقاً كبيرة بين المخلوقات. فبرغم أن المسافة بين الملائكة والبشر كبيرة. إلاّ أنه يُنزلهم بالقرب منا، كما لو يقول أنهم يتعبون من أجلنا، ويسعوا لأجل فائدتنا، أنهم يخدموننا نحن، كما يمكن للمرء أن يقول. هذه هي خدمتهم، أن يُرسلوا في كل مكان لخدمتنا". تفسير الرسالة إلى العبرانيين، المرجع السابق، ص٦٣.

٣١- آياتٍ عن طبيعة المسيح البشرية، واستمرارية لتفسير: "صَار أَعْظَمَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ".

كون أن كلمة "أعظم" - التي تستخدم هنا - تعلن الخِدمات، نعرفه من بولس الذي يقول: "لأَنَّهُ إِنْ كَانَتِ الْكَلِمَةُ الَّتِي تَكَلَّمَ بهَا مَلاَئِكَةٌ قَدْ صَارَتْ ثَابِتَةً، وَكُلُّ تَعَدٍّ وَمَعْصِيَةٍ نَالَ مُجَازَاةً عَادِلَةً، فَكَيْفَ نَنْجُو نَحْنُ إِنْ أَهْمَلْنَا خَلاَصاً هذَا مِقْدَارُهُ؟ قَدِ ابْتَدَأَ الرَّبُّ بِالتَّكَلُّمِ بِهِ، ثُمَّ تَثَبَّتَ لَنَا مِنَ الَّذِينَ سَمِعُوا، شَاهِداً اللهُ مَعَهُمْ بِآيَاتٍ وَعَجَائِبَ وَقُوَّاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ وَمَوَاهِبِ الرُّوحِ الْقُدُسِ، حَسَبَ إِرَادَتِهِ" (عب ٢: ٢ - ٤). وأيضاً: "مَنْ خَالَفَ نَامُوسَ مُوسَى فَعَلَى شَاهِدَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةِ شُهُودٍ يَمُوتُ بِدُونِ رَأْفَةٍ. فَكَمْ عِقَاباً أَشَرَّ تَظُنُّونَ أَنَّهُ يُحْسَبُ مُسْتَحِقاً مَنْ دَاسَ ابْنَ اللهِ، وَحَسِبَ دَمَ الْعَهْدِ الَّذِي قُدِّسَ بِهِ دَنِساً، وَازْدَرَى بِرُوحِ النِّعْمَةِ؟" (عب ١٠: ٢٨ - ٢٩).

فلو كان لِمَنْ قيل عنه إنه "أعظم من الملائكة" نفس الطبيعة مع هؤلاء الملائكة (لأن المقارنات عادةً ما تصير بين المتماثلين)، ألا ينبغي لمن يتعدَّى على الابن، أن يكون جديراً بعقابٍ مساوٍ لذلك المفروض على مَنْ تعدَّى على الملائكة بمخالفة الناموس الذي كرزوا به؟ لأن الذي يهين المتساوين في النوع يُعاقب بذات العقاب، في حين أننا نرى أن الذي يخطئ للابن يكون له عقابٌ أشر، بينما الذي يخطئ للناموس الذي كُرز به بواسطة الملائكة يكون عقابه أقل. وعلى ذلك، لا يكون الابن من نفس طبيعة الملائكة، الأمر الذي يقتضي تناسب عِظَم الخطية وحجم العقاب المفروض مع طبيعة ذاك الذي وقع عليه التعدي[1].

٣٢- معارضة من معارضات الهراطقة على نفس الموضوع

يقول الكتاب إن الذي يخطئ في حق الابن يكون جديراً بعقاب أشد صرامةً؛ لأنه أخطأ إلى مَنْ هو أعظم من الملائكة. لكن هذا لا يخرج طبيعة الابن بأية حال من المشابهةِ مع جنس الملائكة. لأن التجديف عليه يُقاس بما له من كرامة، وإذ صار الابن[2] أعظم من الملائكة، فالذي يخطئ في حق الابن يكون عقابه أثقل.

---

(1) أنظر نفس البرهان الذي سبق أن قدمّه القديس أثناسيوس الرسولي، ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الأولى، فقرة ٥٩ ص ١٣٦.

(2) يؤكد القديس كيرلس في موضع آخر على أن الابن ليس أقل من إله، وذلك في أثناء حديثة عن موقف

٣٣- الرد على هذه الاعتراضات من الاعتراض نفسه

في إطار الرّد على هذا الاعتراض نقول: كان ينبغي ألاَّ تتحدد العقوبات الواردة في الناموس قياساً على مكانة الملاك الثمينة في الخدمة، لكن طالما أننا لا نرى هذا الأمر حادثاً، لأنه بالرغم من أن الناموس واحدٌ، والملائكة كثيرون، إلاَّ أننا نجد أن الخطايا يعاقب عليها بنفس نوعية الجزاءات. وإذا كان الأمر على هذا النحو، إذن لا يكون صحيحاً ما قيل عن أن مَنْ يخطئ للابن، فإنه يُعاقَب بعقاب أثقل (أنظر عب١٠:٢٨)؛ باعتبار أن خطيئته وقعت ضد الأعظم من الملائكة، ولكنه يعاقب بعقاب أثقل لأنه أخطأ ضد الابن الذي ينتمي إلى طبيعة أخرى مختلفة تماماً[1]. لأن الملائكة مجرد مخلوقات، والإله الحقيقي ليس واحداً منها، ولا يُقارن معها. لذا، فالذي يتعدَّى على وصاياه ينال عقاباً أعظم وأثقل بما لا يقارَن.

الساروفيم أمام عرش الله الوارد في (إش ٦:١ - ٢) إذ يقول: "كفارتنا هو المسيح الذي وهو في الجسد عندما ظهر لم يكن أبداً أقّل من إله ورب من جهة الطبيعة، وحقاً كانت له القوات الفائقة حوله تخدمه. فقد قالت لنا الكلمة المقدسة (مت ٤:١١)، إنه بعد أن ترك الشيطان المسيح بعد التجربة حين صام لأجلنا، ذهبت الملائكة لتخدمه. لأنه مكتوب "أليس جميعهم أروحاً خادمة مرسلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص" (عب ١٤:١)."وأنا أجتمع بك هناك وأتكلم معك من على الغطاء" (خر ٢٥:٢٢). وهذا القول - على ما أعتقد - يعلن أمرين. فبالرغم من أن المسيحَ أيضاً إنسانٌ، إلاَّ أنه سوف يعلن ما يفوق الطبيعة البشرية، ولن ينحصر فقط داخل مقاييس الإخلاء، وذلك بسبب أنه الله ومولود من الله بالطبيعة. لأنه يقول "أنا والآب واحد" (يو ١٠: ٣٠)، "ومَنْ رآني فقد رأى الآب" (يو ٩:١٥). وسوف يعلن ذلك بشكلٍ يفوق مجد الغطاء ويفوق مجد الكاروبين، أي بعظمةٍ ومجدٍ، بل وأسمى من الكائنات المخلوقة، حتى الساروفيم التي هي أكثر سمواً، وذلك بالرغم من أنه صار جسداً، وبرغم أن الغطاء والسيرافيم هما أيضاً من ذهب. أي أن الطبيعة الممجدة والفائقة الجمال هي الله، بينما هذه المخلوقات (السيرافيم) تتشبه به بالوجود بالقرب منه. هكذا يضفي شركة بمجده على هذه المخلوقات الموجودة بالقرب منه، والتي تعكس نوره إذ يشرق بهاؤه على كل ما يوجد أمامه". السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء الخامس، المرجع السابق، المقالة التاسعة، ص ٧٠.

[1] الابن ينتمي إلى طبيعة مختلفة تماماً؛ لأنها الطبيعة الإلهية، لذا يشبهها القديس كيرلس في موضعٍ آخر بالذهب في حديثة عن المنارة الذهبية للخيمة المقدسة، قائلاً: "إذن، المنارة هي من ذهب، وبذلك تعطي مثالاً للمسيح؛ لأنه إله حقيقي بطبيعته، ويجب أن نشبهه بالذهب مثلما أشرنا سابقاً إلى البهاء الإلهي وعظمته بالذهب" القديس كيرلس الأسكندري، السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء الخامس، المرجع السابق، المقالة التاسعة، ص ٧٣.

٣٤- ردٌ من نفس الاعتراضات: إن المقارنة بين الخدمات حسنة ومفيدة جداً؛ لأنها تشرح أهمية كلمة "أعظم" بالنسبة لكل من الملائكة والابن. لأنه كيف هو أعظم من الملائكة، وكم هو أعظم، سوف نعرفها من هذه الأقوال:

كرزت الملائكة بالناموس، لكن الناموس لم يتمم شيئاً، بينما الابن يتمم عمل الآب. لأن الذي انقاد بنواميسه صار كاملاً. لقد مَلَكَ الموت في فترة الناموس؛ لأنه يقول: "من آدم حتى موسى" (رو ٥: ١٤)، بينما بواسطة المسيح أُبطِل الموت[1]. لأننا لن نموت بعد بسبب آدم؛ لأن المسيح قد أحيانا (أنظر ١ كو ١٥: ٢٢). وإن كانت وصايا الناموس قد كُرز بها من بلاد دان حتى مدينة بئر سبع (أنظر قضاة ٢٠: ١)، والله كان معروفاً فقط في اليهودية (أنظر مز ٢٦: ٢)، إلاَّ أن كلمته قد انتشرت الآن في كل الأرض (أنظر مز ١٩:، رو ١٠: ١٨)، والجميع صاروا تلاميذاً لله، لا للملائكة (أنظر يو ٦: ٤٥).

وبالرغم من أن الناموس هو ناموس الله بالتأكيد، إلاَّ أنه أُعطي بواسطة الملائكة (أنظر غلا ٣: ١٩)، في حين أن الابن يقول: "أنا هو المتكلِّم" (إش ٥٢: ٦). إذن - بحسب أقوال بولس - فبقدر خدمته المختلفة، وبقدر ما صار ضامناً لعهدٍ أعظم (أنظر عب ٧: ٢٢)، بقدر ما يتفوَّق على الملائكة. وهو لا يقارَن بهؤلاء من جهة الطبيعة؛ لأنه أعلى جداً مِن هؤلاء، بقدر بُعد الله عن المخلوقات من حيث الجوهر. وبذلك يتضح لنا أن كلمة "أعظم" تشير إلى عظمة خدمة الابن بالنسبة لخدمة الملائكة، بقدر ما يعلو الابن عن طبيعة

---

(1) لقد أُبطل المسيح الموت والعداوة وصار لنا هو سلاماً وبراً لأنه هو وجه الله بحسب تعبير القديس كيرلس، إذ يقول: [هكذا رُحمنا كلنا بظهور المسيح. وبالتأكيد، ظهور وجه الله يحمل سلاماً، ذلك السلام الذي يمنحه ويعطيه المسيح لأولئك الذين يؤمنون به. لأنه يقول: "سَلاَماً أَتْرُكُ لَكُمْ. سَلاَمِي أُعْطِيكُمْ" (يو ١٤: ٢٧). وعندما رفَعَ الآبُ الابنَ وأعطاه اسماً فوق كل اسم" (انظر في ٢: ٩) قائلاً له: "اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي" (مز ١١٠: ١). عندئذٍ أبطل العداوة التي فصلتنا عنه، فاتحدنا فيما بيننا ووجدنا السلام باختيارنا مرة أخرى، إذ قبلنا وصاياه وسلكنا حسب الروح، وبواسطته وبه صرنا شركاء الطبيعة الإلهية (٢بط١: ٤)، وفي هذه الوحدة ربطنا المسيح. لأنه قال مرة للآب: "لِيَكُونَ الْجَمِيعُ وَاحِداً، كَمَا أَنَّكَ أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ فِيَّ وَأَنَا فِيكَ، لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضاً وَاحِداً فِينَا" (يو ١٧: ٢١). وبحسب الكتاب "فَإِنَّنَا نَحْنُ الْكَثِيرِينَ خُبْزٌ وَاحِدٌ، جَسَدٌ وَاحِدٌ، لأَنَّنَا جَمِيعَنَا نَشْتَرِكُ فِي الْخُبْزِ الْوَاحِدِ" (١ كو١٠: ١٧). وكون أنَّ الله الآب يرفع وجهه، أي يمجِّد الابن ونقبل نحن غنى السلام شاخصين نحوه، فهذا ما يوضحه المسيح، قائلاً: "وَأَنَا إِنِ ارْتَفَعْتُ عَنِ الأَرْضِ أَجْذِبُ إِلَيَّ الْجَمِيعَ " (يو ١٢: ٣٢)]. السجود والعبادة بالروح والحق، المرجع السابق، الجزء السادس، العظة الحادية عشر، ص ١٣٠ - ١٣١.

المخلوقات. وإذا كان قد خوَّل الملائكةَ الخدمة الأدنى كعبيد، فقد فوَّضَ الابن بخدمة تليق ببنوته وربوبيته. لأنه قد شُرِّعَ، كما يقول الكتاب، لمواعيد عُظمى (انظر عب ٨: ٦).

٣٥- ردٌ آخر

خدمة الله **الكلمة** كانت أعظم بطرق متنوعة، من تلك التي للملائكة، والخدمة تكون أعظم، بقدر عظمة ذاك الذي يخدمها.

يقول بولس: "لأَنَّهُ مَا كَانَ النَّامُوسُ عَاجزاً عَنْهُ، فِي مَا كَانَ ضَعِيفاً بِالْجَسَدِ، فَاللهُ إِذْ أَرْسَلَ ابْنَهُ فِي شِبْهِ جَسَدِ الْخَطِيَّةِ، وَلأَجْلِ الْخَطِيَّةِ، دَانَ الْخَطِيَّةَ فِي الْجَسَدِ" (رو ٨: ٣). إذن، فطالما صار الناموس ضعيفاً عن أن يدين الخطية بسبب ضعف الجسد، في الوقت الذي أداها فيه المسيح مُظهراً بذلك قابلية الطبيعة البشرية لنوال الروح القدس للدرجة التي يمكننا معها أن نقول: "وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلَسْتُمْ فِي الْجَسَدِ بَلْ فِي الرُّوحِ" (رو ٨: ٩)، فالمسيح إذن صار أعظم من الملائكة الذين بواسطتهم كُرِزَ الناموس.

وإذا كان العالم قد دِينَ من الناموس بسبب الخطية، نجد أن الابن قد جاء لا لكي يدين العالم، بل لكي يخلص العالم (انظر يو ٣: ١٧)، ولا لكي يفرض عقاباً، بل لكي يحرر الجميع من العقاب. ولأنه هو الذي يخلِّص ويحرر من الدينونة، فهو إذن أعظم من الذي يطلب الدينونة، وهو أعظم من الناموس الذي لم يستطع أن يدين الخطية بواسطة الجسد، الابن هو الذي فعل هذا. بناءً على ذلك، الابنُ أعظم من الملائكة الذين كرزوا بالناموس الذي كان ضعيفاً، وخدمته كانت خدمة الدينونة[1].

---

(١) يؤكد هنا القديس كيرلس على أن الابن ليس مثل الذين أتوا قبلة، وهذا الأمر سبق أن قاله القديس أثناسيوس في نفس السياق: "والرسول نفسه عندما قال "صائراً أفضل من الملائكة بمثل هذا المقدار"، لم يقل هذا ليس لأنه أراد أولاً أن يقارن جوهر اللوغوس بالمخلوقات - لأنه لا يوجد وجه للمقارنة، أو بالأحرى فإن الواحد منهما غير الآخر تماماً. ولأنه وهو يرى "حضور اللوغوس التجسدي" إلينا، والتدبير الصائر منه عندئذ، فإنه يوضح أن اللوغوس ليس مشابهاً للذين سبقوا أن جاءوا قبله. وهذا لكي يوضح أنه بقدر ما يختلف هو (اللوغوس) بحسب الطبيعة عن الذين أرسلهم قبله، بقدر ما كانت النعمة الصائرة منه وبه أُفضل من خدمة الملائكة. لأن العبيد كانوا مختصين فقط بالمطالبة بالثمار وليس أكثر (مت ٢١:٣٤). أما الابن والسيد فكان يحق له أن يصفح عن ديونهم وأن يسلّم الكرم إلى آخرين". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الأولى، فقرة ٥٩ ص ١٣٦.

٣٦- الابن ليس له ذات طبيعة المخلوقات والملائكة

لو كان الابنُ مخلوقاً، وله ذات طبيعة الملائكة، دعنا إذن نسمي هؤلاء الملائكة أبناء الآب. لكنه لم يقل أبداً لأي من الملائكة: "أنت ابني" (عب ١: ٥)، بحسب أقوال الرسول بولس، ولا دُعيَّ الابنُ أبداً ملاكاً. هل يجلسون في يمين الآب مثلما يجلس الابن؟ ما من ملاكٍ جلس مع الآب، بل بالحري يقف بالقرب منه خادماً إياه.

دع الملائكة تقول: "أمَّا أنا فأقول لكم" (راجع مت ٥: ٢٢ - ٤٤). لكن ما من أحدٍ من هؤلاء يقول هذا الأمر، بل بالحري يقولون: "وقفت انتصب لكي أقول لك". الملائكةُ بالطبع يخدمون، أمَّا الابن فهو يُخدَم؛ لأنه يقول: "وَإِذَا مَلاَئِكَةٌ قَدْ جَاءَتْ فَصَارَتْ تَخْدِمُهُ" (مت ٤: ١١). الابنُ خالقٌ بالتأكيد، أمَّا أولئك فقد صاروا بواسطته، وهؤلاء يسجدون له، أمَّا هو فيُسجَدُ له. الملائكة تصدُر لهم أوامر أن يفتحوا أبواب السموات، أمَّا الابن فيدخل كرب القوات وملك المجد (مز ٢٤: ٧ - ١٠). أولئك يشتركون في الحياة التي تُمنح من الله، أمَّا هذا فهو مانح الحياة حقاً، هو نفسه الحياة للجميع. وهو بالتأكيد يقول: "أنا والآب واحد" (يو ١٠: ٣٠)، و"من يراني فقد رأى الآب" (يو ١٤: ٩)، "كل ما للآب هو لي" (يو ١٦: ١٥). و"أنا نور العالم" (يو ٨: ١٢) و"أنا هو القيامة، والحياة" (يو ١١: ٢٥)، بينما الملائكة لم تتجرَّأ أن تقول مثل هذا الكلام. وإذا صلّينا في اسم المسيح، فمهما نطلبه سنأخذه، بينما في اسم الملائكة لن يصلي أحد. والابن يُمجَّد مع الآب، بينما الملائكة لا تُمجَّد، بل بالحري هم يمجِّدون الابن مع الآب. كيف للملائكة إذن أن يكون لديها ذات جوهر الابن، طالما يوجد هذا الاختلاف العظيم؟ لا شك أن اختلاف الطبيعة يدل على الاختلاف في الجوهر.

٣٧-الفعل "صار" يُستخدم أيضاً بالنسبة للآب

يقول المرنم: "صار لي الله حصناً" (مز ٨١: ٣ س) وأيضاً: "صار خلاصي" (مز ١١٨: ١٤). إذن لو قبلوا هذه الأقوال التي قيلت عن الابن، فإن هذه الأقوال تشهد أمام - وقاحتهم - أن الابن ليس له طبيعة المخلوقات نفسها، فالذي يخلّص القديسين، ويكون ملجأً ودرعاً لهم هو فقط الله.

٣٨- عن آية "صار أعظم من الملائكة" هنا كلمة "صار" لا يجب أن تُنسب إلى الجوهر.

إذا كانت كلمة "صار" تعني - على أية حال - الإتيان بشخص من العدم إلى الوجود، وكانت هذه الكلمة تشير إلى جوهر مَنْ قال لهم المخلص: "فَكُونُوا (صيروا) رُحَمَاءَ كَمَا أَنّ أَبَاكُمْ أَيْضاً رَحِيمٌ" (لو ٦: ٣٦). فكيف لكلمة "صيروا" أن تعني الإتيان من العدم إلى الوجود، إذا كان أولئك الذين يخاطبهم بهذا القول، بالفعل موجودين؟ لأن مَنْ كان موجوداً بالفعل، لا يمكن أن يأتي إلى الوجود، بل بالحري مَن هو غير موجود. فإذا كانت كلمة "كونوا" تُستخدم لكل الكائنات، دون أن تعني بدايةً ما لوجودهم، بل التحول من شيء إلى آخر، فأي سببٍ يجبر الفعل "صار" على أن يشير إلى بداية وجود الابن[1]؟

---

(١) سبق أن أكد القديس أثناسيوس في شرحه لعبارة "صار ضامناً لعهد أفضل" أن كلمة "صار" تخص الجسد، إذ يقول: "وأيضاً قوله "قد صار ضامناً"، أي الضمانة المعطاة منه لأجلنا. لأن اللوغوس قد "صار جسداً"، فإننا نعتبر "الصيرورة" أنها تشير إلى الجسد، لأن "الجسد مخلوق وهو مصنوع". وهكذا أيضاً كلمة "قد صار"، فإننا نفسرها بحسب مدلولها الثاني. وذلك بسبب صيرورته إنساناً. وعلى المعارضين أن يعرفوا أنهم ينـــزلقون بسبب سوء نيتهم هذه. وليعرفوا إذن أن بولس الذي عرفه "كابن" و"حكمة" و"بهاء" و"صورة" الآب، لم يقصد أن جوهر "اللوغوس" قد "صار" بل تعتبر "الصيرورة" هنا لخدمة ذلك العهد الذي كان فيه الموت سائداً يوماً، وهو قد أبطل هذا الموت". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الأولى، فقرة٦٠ ص ١٣٨.

المقالة الواحدة والعشرون

في قول الرسول:
"لاَحِظُوا رَسُولَ اعْتِرَافِنَا وَرَئِيسَ كَهَنَتِهِ الْمَسِيحَ يَسُوعَ، حَالَ كَوْنِهِ أَمِيناً لِلَّذِي أَقَامَهُ، كَمَا كَانَ مُوسَى أَيْضاً فِي كُلِّ بَيْتِهِ" (عب ٣: ١ - ٢).
والذي يُستنتج منه أن الابن ليس مخلوقاً ولا مصنوعاً.

١- إذا كان الابن مخلوقاً، لَتحَتَّمَ علينا أن نعترف أيضاً بأنه واحدٌ من هذه المخلوقات، وأنه يفتقر إلى خواص الألوهية، وأقصد - تحديداً - الوجود في كل مكان.

فإن كان هذا صحيحاً، وكان الكل قد صار بواسطة الابن باعتبار أن بدونه لم يَصِر شيءٌ (أنظر يو ١: ٣)، **فالكلمة** عندئذٍ يكون قد خلق ذاته.

وإذا كان الأمر على هذا النحو، فكيف له أن يعطي الوجود لذاته قبل أن يوجد؟ أمّا إن كان هذا غير ممكنٍ، فالابن عندئذٍ ليس واحداً من هذه المخلوقات، وبالتالي لا يمكن أن يظهر كخالقٍ لذاتِهِ، ومُحصىً بين المخلوقات في ذات الوقت[١].

(١) أنظر القديس أثناسيوس الرسولي، ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، المرجع السابق، فقرة٢ ص ١٢ - ١٤.

٢- ردٌ آخر

إذا كان الابن مخلوقاً، ويُدعى أيضاً حكمة الآب (أنظر ١ كور ١: ٢٤)، الذي خلق الكل بالحكمة (مز ١٠٤: ٢٤)، فالحكمة عندئذٍ تكون قد خَلَقَت ذاتها. وإن كان هذا محضُ عبثٍ، فالابن ليس مخلوقاً، لأنه هو حكمة الآب الخالق للكل.

٣- ردٌ آخر

إن كان الابن قد خُلق، ودُعيَ أيضاً في الكتاب المقدس قوة الله وحكمة الله (أنظر ١ كور ١: ٢٤)، لَكان هناك زمنٌ كان الله فيه بلا قوة أو حكمة، طالما أن الابن لم يكن موجوداً؛ لأن المخلوق يصير من العدم. لكن الآب كان دائماً وأبداً حكيماً وقوياً، لذلك فالابن كان أيضاً دائماً موجوداً؛ لأنه هو حكمة الله وقوته[١].

٤- ردٌ آخر

إن كان الابن مخلوقاً، وبالرغم من ذلك يقول، وبحق: "اَلّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ" (يو ١٤: ٩)، لَكانت صورة الآب تظهر في الخليقة متماثلة مع الأصل، وإن كان الأمر على هذا النحو، لَمَا كان هناك اختلافٌ بين الخليقة والله، ويكون الآب هو أيضاً مخلوقاً. لكن بما أنه ليس مخلوقاً، بل تظهر صورته كاملةً في الابن، فالابنُ إذن ليس مخلوقاً، إذ هو صورة الآب.

---

(١) يشرح القديس إمبروسيوس حقيقة أن الابن هو قوة وحكمة الآب مؤكداً على تمايز شخص الآب عن شخص الابن، إذ يقول: "ليت الإنسان يصغى لتلك العلامات التي أعطتها لنا الكتب المقدسة، والتي يمكننا بها أن نعرف الابن. إنه يُسّمى الكلمة والابن وقوة الله وحكمة الله. فهو الكلمة لأنه بلا لوم، وهو القوة لأنه كامل، وهو الابن لأنه مولود من الآب، وهو الحكمة لأنه واحد مع الآب، واحد في الأبدية، واحد في الإلوهية. ليس أن الآب شخص واحد مع الابن، فبين الآب والابن يوجد تمايز واضح، ناتج عن الولادة. هكذا المسيح هو إله من إله، أبدى دائم من أبدى دائم، الملء من الملء". القديس إمبروسيوس، شرح الإيمان المسيحي ج١، الكتاب الأول، الفصل الثاني، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية مارس ٢٠٠٥، فقرة ١٦، ص ٢٠ - ٢١.

٥- ردٌ آخر

إن كان الابن مخلوقاً، والآب غير مخلوق، ويقول الابن عن ذاته: "اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ"، فكيف يكون ممكناً أن يظهر الآبُ في هذا المخلوق الذي خُلِق؟ وإذا كان الابن مخلوقاً حقاً ويقول: "اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ"، فما الذي يمنعنا من أن نستخدم نفس الأقوال، إذا كان الابن لا يختلف في شيءٍ عنّا، طالما كان مخلوقاً مثلنا. غير أن مثل هذا القول هو محضُ عبثٍ وسخفٍ؛ لأن صورة غير المخلوق لا تظهر في المخلوق، ولذلك لا يكون الابن مخلوقاً؛ لأنه صورة الآب التي لا مثيل لها[1].

٦- ردٌ آخر

إن كان الابن مخلوقاً، وحقاً يقول: "كُلُّ مَا لِلآبِ هُوَ لِي" (يو ١٦: ١٥)، لَمَا كان لدى الله شيءٌ أكثر مما لدى المخلوقات، هذا إن كان ما هو موجود في هذه المخلوقات، موجودٌ أيضاً في الآب. لكن بما أن هذا الرأي في غير محله، ومحضُ عبثٍ؛ لأن الإلهي يبعد كثيراً عن المخلوقات، فالابن الذي توجد فيه بحسب الطبيعة كل خصائص الآب، لا يمكن أن يكون مخلوقاً.

(1) يؤكد القديس كيرلس على أن الرؤية الحقيقية للآب هي في الابن وذلك في شرحه لنص يو١٤: ٩ "الذي رآني فقد رأى الآب" إذ يقول: "دعنا ننتقل إلى هذه الرؤية الحقيقية والمضبوطة جداً وبكل دقة للآب والممنوحة لنا في الابن. لأننا سنرى أنه صورةً لذاك الذي ولده، وذلك إذا تفرّسنا بثبات بواسطة عين ذهننا في القدرات غير العادية التي ظهرت فيه. فالصلاح يخص الله الآب طبيعياً، ونفس الصلاح تجده في الابن. فبالتأكيد، هو صالح، إذ قد احتمل إذلالاً عظيماً من أجلنا، إذ "جاء إلى العالم ليخلص الخطاة" (انظر ١ تي ١: ١٥)، ويبذل نفسه لأجلهم. والآب كلي القدرة، وهكذا الابن أيضاً. فأية قوة يمكن أن تكون أعظم من تلك القوة التي تأمر حتى عناصر الخليقة نفسها، إذ انتهر البحر والرياح، وحوّل طبيعة المواد بإرادته؛ وأمر الأبرص أن يطهر، وأعطى البصر للعميان: وكل هذا بسلطان إلهي؟والآب هو الحياة بطبيعته: والابن هو الحياة بالتساوي معه أيضاً، إذ أحيا الذين كانت قد اضمحلت أجسادهم، إذ أباد قوة الموت، وهكذا أقام الموتى وأعادهم إلى الحياة. إذاً بصواب وحق يقول لفيلبس: "من رآني فقد رأى الآب". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، الجزء الثامن، ص ٥١.

٧- ردٌ آخر

إن كان الابن مخلوقاً، لَمَا دُعيَ الله آباً له، بل بالحري جابلٌ وخالقٌ؛ لأن الابن يُظهِر الآب، والمخلوق يُظهِر الخالق، لكن بما أنه يُدعى آبٌ وهو الله، فالابن ليس مخلوقاً، بل مولوداً، وبالتالي لا يظهر الله كخالقٍ، بل كآب.

٨- ردٌ آخر

إن كان **الكلمةُ** مخلوقاً، لَمَا كان يجب أن يدعى الكلمة، ولا الحكمة، ولا القوة (أنظر ١ كور ١: ٢٤)، ولا بهاء مجد الله (أنظر عب ١: ٣)؛ لأن القول بغير ذلك يعني أن تمتلك المخلوقات الأخرى تلك الامتيازات إذا امتلكها الابن المخلوق بحسب زعمكم. وحتى لو زعمتم أن الابن يمتلك ما هو أكثر من المخلوقات الأخرى، فإن هذا لن يُجدِ؛ لأنه — في هذه الحالة - لا يوجد مخلوق أقل منه (جوهرياً). لكن بما أن هذه الامتيازات وهذه الأقوال لا تنصرف إلى أي مخلوق آخر؛ لأنها تتناسب فقط مع الابن، فالابن إذن ليس مخلوقاً ضمن المخلوقات، بل هو ثمرة جوهر الآب.

٩- ردٌ آخر

الكتاب المقدس يقول إن الكل صار بواسطة الابن، فإذا كان هناك من يؤمن بأن الكلمة مخلوقٌ، وهو ليس الابن، لَمَا كان لله عندئذٍ ابنٌ. وإن كان هذا الرأي صحيح، فكيف يكون الله خالقاً إذا لم يكن لديه الابن الذي به يفعل كل شيء (أنظر يو ١:٣). أمّا وإن كان الله يعمل ويخلق كل الأشياء بواسطته، فهو ليس إذن بمخلوقٍ، بل هو مثل الله[1].

---

(١) الربوبية والإلوهية هي واحدة للآب والابن والروح القدس، وهذا ما يؤكده القديس إمبروسيوس، إذ يقول: "والرسول وهو يثبت بعناية أنه يوجد لاهوت واحد للآب والابن معاً، وربوبية واحدة - حتى لا نندفع نحو أي خطأ، سواء نحو الوثنيين أو عدم تقوى اليهود - فإنه يوضّح لنا القاعدة التي يجب علينا أن نتبعها، فيقول: "إله واحد الآب الذي منه جميع الأشياء ونحن له، ورب واحد يسوع المسيح الذي به جميع الأشياء ونحن به" (١ كو ٨:٦)، فكما أنه في تسميته يسوع المسيح أنه "رب" فإنه لم ينكر أن الآب أيضاً "رب"، هكذا أيضاً في قوله: "إله واحد الآب" فإنه لا ينكر إلوهية الابن الحقيقية، وهكذا فإنه يُعلّم ليس أنه يوجد أكثر من إله واحد، بل هو (يُعلّم أن) مصدر القوة هو واحد، نظراً لأن الإلوهة تتضمن الربوبية، والربوبية تتضمن الإلوهة، كما هو مكتوب:

١٠- اعتراضٌ آخر من الهراطقة

بما أن الآب قد أعطى بإرادته كياناً للابن، فبنفس الطريقة جعله خالقاً. ولا نقول إنه أتى من جوهر الآب لئلا يُدرَك على أنه جزءٌ مقطوعٌ منه، أو أنه تدفق من ذلك الجوهر غير الموصوف.

١١- الرد على هذا الاعتراض

هذه الأقوال هي أيضاً أقوالٌ غبية ولا تزيد عن كونها مجرّد ثرثرة؛ لأن التدفق والقطع وغيرها لا تدرك إلاَّ في الأجسام التي تقبل مثل هذه الأمور بحسب طبيعتها. أمَّا الذي ليس هو بجسد، فأهواء الأجساد ليست فيه. فغير الجسدي يلد دون أن يتجزَّأ أو يتألم. فأي ألم يلُم بالشمس عندما تلد النور؟ وأيُ قطعٍ أو تجزئةٍ تصيب النيران عندما تبعث النور من ذاتها؟ فإذا كانت النيران تلد دون تجزئة، وترسل ما في ذاتها دون ألم، أفلا يستطيع بالأكثر خالق تلك الأشياء أن يبعث بهاء طبيعته؟ متى انفصل الختم عن الصورة؟ فالختم يوجد دائماً في طبيعة الصورة، وداخلها أيضاً. لكن إذا كانت طبيعة الله - وفقاً لأولئك - جافة وعقيمة، فأي إرادةٍ فاعلةٍ - تلك التي وفقاً لأولئك أوجدت الإبن - تصدر عنه؟ لا شك أن الأشياء التي لم تكن موجودة، ووُجِدت فيما بعد، هي أشياء مخلوقة ومصنوعة، ولكنهم يتجنبون القول بأن **كلمة** الآب الخالق وُلِدَ من جوهره، وانحرفوا عن الحق؛ لأن الابن حيٌّ، وهو إرادة الآب الجوهرية، و**كلمته** الذي بواسطته يخلق الكل.

١٢- برهان من الكتاب المقدس على استخدام كلمات "خُلِقوا" و "صارت"، للأبناء الطبيعيين.

لا تتسبب الألفاظ في ضررٍ ما إذا استُخدمت للدلالة على أشياء مختلفة، كالأبناء الطبيعيين مثلاً. فاستخدام كلمة "عبيد" بالنسبة لهم لا تؤثر على أصلهم الطبيعي الشريف. فلا يترتب أيُ ضرر إذا ما قيل عمَن وُلِد أنه خُلق؛ لأن ما يقع تحت الفحص هو الطبيعة لا

"اعلموا (بتأكيد) أن الرب هو الله، هو صنعنا وليس نحن" (مز ٩٩:٣س)" القديس إمبروسيوس ج١، المرجع السابق، شرح الإيمان المسيحي، الكتاب الأول، الفصل الثالث ، فقرة ٢٦ ص ٢٦.

اللفظ[1]. فإذا أُشير إلى **كلمة** الله الذي وُلِدَ بالقول: "حَالَ كَوْنِهِ أَمِيناً لِلَّذِي أَقَامَهُ (خلقه)" (راجع عب ٣: ٢)؛ فإنه بكونه إلهاً لا يتغيَّر، بل يُفهم هذا القول على أنه يخص تأنسه. إذن، فاختلاف الكلمات لا يؤثر أبداً على الحقيقة. بَتْشَبَعُ تُدعى أمة داود، وسليمان يقول: "سُلَيْمَانَ عَبْدَكَ" (١ مل ١: ١٩). وكثيراً ما دعا الآباء الأبناء الذين ولدوهم عبيداً، فالكلمات لا تغيِّر الطبيعة، بل هي تُظهر ما للآباء من سلطة على أبنائهم.

كذلك تستخدم كلمة "خُلقوا" للذين وُلِدوا؛ لأن حزقيا يقول: "من اليوم سأخلق أولاداً" (أش ٣٨: ١٩ س). وعن أيوب مكتوب: "وصار له سبعة أبناء وثلاث بنات" (أيوب ١: ٢ س).

إذن، فإذا كُنا قد قبلنا ذلك بالنسبة للبشر، دون التركيز على دقة الألفاظ، بل على طبيعة الأشياء، فكيف لا نقبل بالضرورة أن نطبق ذات الطريقة فيما يخص الولادة الإلهية؟

---

[1] هذا المبدأ هام جداً – كما أكدنا من قبل - لأن الذين ينتقدون نصوص الكتاب دائماً ينطلقون من الألفاظ وكأنها هي التي تحدد المفاهيم والمحتوى وطبيعة الأمر المراد قوله، لكن الآباء لم ينطلقوا من الألفاظ، ويؤكد على هذه الحقيقة القديس أثناسيوس قائلاً في نفس السياق: "فليست الألفاظ هي التي تقلل من قدر طبيعة الأشياء، بل بالأحرى فإن طبيعة الأشياء هي التي تضفي المعنى على الألفاظ وغيرها. لأن الألفاظ ليست سابقة على جواهر الأشياء بل أن الجواهر هي الأولى والألفاظ تأتي تالية لها. ولذلك فعندما يكون الجوهر "مصنوعاً" أو "مخلوقاً" عندئذٍ فإن الألفاظ: "صنع" و"صار" و"خلق" تُقال عنه بصفة خاصة ويقصد به أنه "مصنوع". ولكن حينما يكون الجوهر مولوداً وابناً، عندئذٍ فإن ألفاظ "صنع" و"صار" و"خلق" لا تُستخدم بحسب مفهومها الحرفي، ولا تعني أنه "مصنوع"، بل تكون كلمة "صنع" قد استُخدمت بدلاً من "وُلِدَ" بدون تحديد. وفي أحيان كثيرة يلقب الآباء أبناءهم الذين ينجبونهم عبيداً لهم، دون أن ينكروا أصالة طبيعتهم. وأحياناً يجاملون عبيدهم ويسمونهم أبناء دون أن يفقدوا حق امتلاكهم منذ البداية. إلاّ أنهم في الحالة الأولى يسمّون أبناءهم عبيداً من خلال سلطانهم كآباء، وفي الحالة الثانية يسمّون عبيدهم أبناء بدوافع إنسانية، فسارة كانت تدعو إبراهيم سيداً رغم أنها لم تكن عبدة له، بل كانت زوجة. وكان الرسول يصف أونسيموس العبد كأخ لفليمون الذي كان "سيداً"، أما بتشبع فرغم كونها أماً دعت ابنها عبداً قائلة "عبدك سليمان". وكذلك ناثان النبي أيضاً بعد أن وصل قال لداود نفس كلامها بأن "سليمان عبدك". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثانية، فقرة ٣ ص ١٤ - ١٥.

١٣- ردٌ

اسم "الابن" يدل على أنه مولودٌ من الآب، بينما كلمة "مخلوق" تدل على هذا الذي صار خارجاً عن خالقه. فلو كان الابنُ يدعى مخلوقاً، لَمَا دُعيَ ابناً، بل يكون ابناً زائفاً، أمَا وإن كان في الحقيقة يدعى ابناً، فهو بالتالي ليس مخلوقاً.

١٤- ردٌ: حديث مقنع يدل على أن الابن ليس مخلوقاً

يقول سليمان الحكيم: "لأَنَّ اللهَ يُحْضِرُ كُلَّ عَمَلٍ إِلَى الدَّيْنُونَةِ" (جا ١٢: ١٤)، فإذا كان الابن واحداً من المخلوقات، لأُقتيد إلى الدينونة، عندئذٍ كيف يتفق ذلك مع ما قاله عن ذاته: "لأَنَّ الآبَ لاَ يَدِينُ أَحَداً، بَلْ قَدْ أَعْطَى كُلَّ الدَّيْنُونَةِ لِلابْنِ" (يو ٥: ٢٢). وهل كان دانيال يكذب عندما قال إن سلطاناً قد أُعطيَ له أن يدين؟[١]. أبداً، بل كان يقول الحقيقة؛ لأن هذا هو الذي أتى لكي يدين الأحياء والأموات، ولهذا، ليس الابن مخلوقاً، ولا يُعد ضمن المخلوقات، حتى أنه لن يقتاد إلى الدينونة.

١٥- ردٌ آخر على آية: "لاَحِظُوا رَسُولَ اعْتِرَافِنَا وَرَئِيسَ كَهَنَتِهِ الْمَسِيحَ يَسُوعَ، حَالَ كَوْنِهِ أَمِيناً لِلَّذِي أَقَامَهُ" (عب ٣: ١)، والمقصود بهذه الآية.

يقول الرسول هذه الأقوال ليس شارحاً طبيعة **الكلمة**، بل سر التأنُّس. لأنه متى صار هو رئيس كهنة إيماننا؟ متى صار رسولاً؟ ومتى ظلَّ أميناً لذاك الذي أقامه (جبله)؟ لقد صار إنساناً بسببنا ولأجلنا بالتأكيد، ووفق أقوال يوحنا: "الْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً (إنساناً)" (يو ١: ١٤). عندئذٍ، كإنسان، صار أميناً للذي أقامه، مكملاً عمله كما قال هو عن نفسه (أنظر يو ١٧: ٤)[٢]، حينذاك صار رسولاً، وقد أُرسل لأجلنا وبسببنا. وقتذاك، صار رئيس كهنةٍ، ناقلاً اعتراف إيماننا إلى الآب، مقدِّماً جسده الخاص، كذبيحةٍ بلا لوم؛ لكي يطهِّرنا كلنا بواسطته.

---

(١) "كُنْتُ أَرَى فِي رُؤَى اللَّيْلِ وَإِذَا مَعَ سُحُبِ السَّمَاءِ مِثْلُ ابْنِ إِنْسَانٍ أَتَى وَجَاءَ إِلَى الْقَدِيمِ الأَيَّامِ، فَقَرَّبُوهُ قُدَّامَهُ. فَأُعْطِيَ سُلْطَاناً وَمَجْداً وَمَلَكُوتاً لِتَتَعَبَّدَ لَهُ كُلُّ الشُّعُوبِ وَالأُمَمِ وَالأَلْسِنَةِ. سُلْطَانُهُ سُلْطَانٌ أَبَدِيٌّ مَا لَنْ يَزُولَ، وَمَلَكُوتُهُ مَا لاَ يَنْقَرِضُ".

(٢) "أَنَا مَجَّدْتُكَ عَلَى الأَرْضِ. الْعَمَلَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لأَعْمَلَ قَدْ أَكْمَلْتُهُ".

إذن، فعندما يقال عن الابن، إنه "صار" أميناً، صار رسولاً، صار رئيس كهنةٍ، فكلمة صار هنا لا تنصرف إلى جوهره، لكن إلى تنوُّع الأعمال.

فبولس، بالرغم من أنه كان إنساناً، إلاَّ أنه صار رسولاً. كذلك موسى أيضاً، صار أميناً على كل بيته (أنظر عد ١٢: ٧)[١]، وكذلك هارون أيضاً صار رئيس كهنةٍ رامزاً بذاته إلى المخلّص منذ القِدم. فكما أن هارون لم يولَد رئيسُ كهنةٍ، بل صار فيما بعد هكذا، بعد ولادته بسنين كثيرة، حاملاً رداءً حتى أخمص قدميه، وكذلك الصدرة، وكل الملابس الأخرى التي تشير إلى الكهنوت، التي كانت من صنع النساء، هكذا المسيح أيضاً.

فالكلمة كان منذ البدء، وبعد زمانٍ كثيرٍ، صار لأجلنا رئيس كهنةٍ لابساً رداءً حتى أخمص قدميه، أقصد الجسد الذي أخذه من العذراء، أي الهيكل؛ لكي يظهر للشعب بدمه، مقدِّماً ذاته كحملٍ طاهرٍ إلى الله؛ لأنه يقول: "لَمْ يَفْعَلْ خَطِيَّةً، وَلاَ وُجِدَ فِي فَمِهِ مَكْرٌ" (١ بط ٢: ٢٢).

١٦- كلمة "أميناً" لا تعلن أي شيء إلاّ أنه حقيقي وغير متغّير

لقد دُعيَ المخلص، وبحق، أميناً؛ لأنه قدَّم نفسه لأجل الجميع ذبيحةً دائمةً دون أن تتغيَّر "لأَنَّ الْمَوْتَ الَّذِي مَاتَهُ قَدْ مَاتَهُ لِلْخَطِيَّةِ مَرَّةً وَاحِدَةً" (رو ٦: ١٠). والرسول أيضاً، أرسل رسالةً لأُناسٍ وقال: "أَمِينٌ هُوَ اللهُ الَّذِي بِهِ دُعِيتُمْ إِلَى شَرِكَةِ ابْنِهِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ رَبِّنَا" (١ كور ١: ٩). والرسول بطرس قال أيضاً: "فَإِذاً، الَّذِينَ يَتَأَلَّمُونَ بِحَسَبِ مَشِيئَةِ اللهِ، فَلْيَسْتَوْدِعُوا أَنْفُسَهُمْ، كَمَا لِخَالِقٍ أَمِينٍ، فِي عَمَلِ الْخَيْرِ" (١بط ٤: ١٩). ويقول الرسول إلى أهل تسالونيكي: "أَمِينٌ هُوَ الَّذِي يَدْعُوكُمُ الَّذِي سَيَفْعَلُ أَيْضاً" (١ تسا ٥: ٢٤)، بينما قال لآخرين: "إِنْ كُنَّا غَيْرَ أُمَنَاءَ فَهُوَ يَبْقَى أَمِيناً، لَنْ يَقْدِرَ أَنْ يُنْكِرَ نَفْسَهُ" (٢ تيمو ٢: ١٣).

إذن، المسيحُ "أمينٌ"؛ لأنه عندما صار إنساناً، ظلَّ هو نفسه أمس واليوم وإلى الأبد (عب ١٣: ٨)، و"أمينٌ" هكذا كما قيل في الكتب المقدسة للآب أيضاً.

---

(١) "وَأَمَّا عَبْدِي مُوسَى فَلَيْسَ هكَذَا، بَلْ هُوَ أَمِينٌ فِي كُلِّ بَيْتِي".

١٧- على آية "فَلْيَعْلَمْ يَقِيناً جَمِيعُ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ أَنّ اللهَ جَعَلَ يَسُوعَ هذَا، الّذِي صَلَبْتُمُوهُ أَنْتُمْ، رَبّاً وَمَسِيحاً" (أع ٢: ٣٦).

ينبغي علينا أيضاً ألاّ ننسب – مجترئين – تعبير "جعل" إلى جوهر **الكلمة**، ولا إلى طريقة وجود الابن، بل ينصرف تعبير "جعل" بطريقة طبيعية، وفهمٍ جيد إلى الهيكل الذي صار من مريم[1].

فلو فهمنا هذا التعبير جيداً، لأدركنا أنه لا يؤثر على **الكلمة**، وذلك مثلما لو قلنا عن شخصٍ إنه كان فقيراً قبل ذلك، ثم صار مالكاً لأموالٍ، أو عن شخصٍ لم يكن من البدايةِ نبياً، ثم مُسِحَ ليكون نبياً، ففي هذه الأمثلة لا يعني تعبير "صار" بداية وجوده، لكنها تدل على الانتقال من حالة إلى أخرى.

١٨- في ضوء ما تقدم، علينا أن نسأل – في تقوى – كيف جعل اللهُ يسوعَ رباً ومسيحاً؟

بينما كان **الكلمةُ** إلهاً ورباً للكل، أخذ شكل العبد بتأنُّسهِ. ومُسِحَ؛ لأن هذا يتناسب – بالتأكيد – مع الإنسان. كذلك أيضاً صعد إلى سلطة الربوبية كإنسان، بالرغم من أنه كإلهٍ، هو الرب. لأن **كلمة** الله لم يأت ليطمس طبيعة الله الحرة تحت شكل العبد، ولا لكي يترك ما هو موجود ومحدد في خصائص الطبيعة البشرية، بل لكي يرفع هذا الذي

---

(1) يقصد الجسد الذي أخذه من العذراء، فكلمة "جعل" تخص الجسد، ولا يمل الآباء من شرح الطريقة الصحيحة لتفسير نصوص الكتاب المقدس فالقديس أثناسيوس وكذلك القديس كيرلس لخصا هذه الطريقة في أمرين هامين هما: ١- الإيمان المستقيم بإلوهية الابن. ٢- التفتيش على لماذا، وكيف، ومتى كُتبت النصوص.

والقديس أثناسيوس يؤكد على هذا الأمر، قائلاً: "وليتعلموا (الهراطقة) أولاً أن اللوغوس هو ابن الله، كما قيل أيضاً فيما سبق، وأنه غير مخلوق، ولا ينبغي أن ينسبوا مثل هذه الألفاظ إلى إلوهيته، بل عليهم أن يفتشوا لماذا، وكيف كُتبت هذه الأقوال؟ ومما لا شك فيه أن تدبير التجسد الذي صنعه لأجلنا سيجيب على الذين يتساءلون، لأن بطرس عندما قال "جعله رباً ومسيحاً" أضاف في الحال "الذي صلبتموه أنتم"، مما جعل الأمر واضحاً للجميع. ولعله يصير أيضاً واضحاً لهؤلاء، إن كانوا يتابعون معنى النص، إن كلمة "جَعَلَ" ليست عن جوهر **الكلمة**، بل عن ناسوته. لأن ما هو الذي صُلب سوى الجسد؟". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثانية، فقرة١٢ ص ٣٠.

كان مستعبداً إلى مكانة الرب الشرفية، ويُحضر ثانيةً هذا الذي كان مهاناً إلى كرامته. لأننا كيف نُدعى أخوة المسيح، وكيف صرتم أبناءً، لو لم يكن المسيح قد أفادنا بتأنُسهِ؟

إذن، فإذا سمعت الكتاب المقدس يقول: "إِنَّ اللهَ جَعَلَ المسيحَ رَبًّا"، وأدركت أن الله يعني الآب، فأنت - عندئذٍ - تتفق على أن الآب يوافق مشيئة الابن ويعترف به رباً حتى عندما أخذ شكل العبد، دون أن يوجد الابن خارج الإلوهة، ودون أن يكون مخلوقاً ضمن المخلوقات. لأن ما يفعله الآب هو عمل الابن، وما يفعله الابن يفعله الآب. لذلك يقول المخلص: "الْكَلاَمُ الَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ لَسْتُ أَتَكَلَّمُ بِهِ مِنْ نَفْسِي، لكِنَّ الآبَ الْحَالَّ فِيَّ هُوَ يَعْمَلُ الأَعْمَالَ" (يو ١٤: ١٠). إذن، فقد صار رباً ومسيحاً حتى بعدما صار إنساناً، ولأنه صار عبداً، دُعيَ يسوع؛ لأن التلميذ القديس لم يقل "إِنَّ اللهَ جَعَلَ المسيحَ رَبًّا" بلا هدف، بل أضاف: "يَسُوعَ هذَا، الَّذِي صَلَبْتُمُوهُ".

كذلك يجب أن نلاحظ دقة وأهمية تلك الأقوال؛ لأنه لم يقل جعله كلمةً وابناً له، بل جعله رباً ومسيحاً، الأمر الذي لا يخص بداية وجوده، لكن انتقاله من أمر إلى آخر. أمَّا كيف صار رباً ومسيحاً، فهذا ما قلناه سابقاً.

١٩- نفس الرد بطريقةٍ أخرى

لقد جعله الله رباً ومسيحاً، دون أن يُحضره من عدم الوجود إلى الوجود؛ لأن **كلمة** الله كائنٌ على الدوام. وأي عاقلٍ لا يمكنه أن يفهم كلمة "جَعَل" على أنها تخص الجوهر، حتى لا يضطر إلى التجديف، زاعماً أن **كلمة** الله أتى إلى الوجود للمرة الأولى حين صار إنساناً، لكن يجب أن نأخذ كلمة "جَعَلَ" بمعنى "أظهر"، أو "برهن"[1].

وهو ما فعله بطرس عندما تحدث لليهود وقال: " يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ رَجُلٌ قَدْ تَبَرْهَنَ لَكُمْ مِنْ قِبَلِ اللهِ بِقُوَّاتٍ وَعَجَائِبَ وَآيَاتٍ صَنَعَهَا اللهُ بِيَدِهِ فِي وَسْطِكُمْ، كَمَا أَنْتُمْ أَيْضاً

---

(1) وقد أكد القديس أثناسيوس هذا المفهوم، قائلاً: "فواضح أنه كان ملكاً ورباً سرمدياً قبل أن يصير إنساناً لكونه صورة الآب **وكلمته**. وحيث إن **الكلمة** هو رب وملك أزلي فيتضح أيضاً أن بطرس لم يقل إن جوهر الابن قد صُنع، بل أن ربوبيته علينا هي التي حدثت حينما صار إنساناً، وأنه بافتدائه الكل بالصليب، قد صار رب الجميع وملكاً عليهم، وإن كانوا يجادلون بسبب أنه مكتوب "جَعَل" ولا يريدون أن يقروا بأن "جَعَل" تعني "أَظهر". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثانية، فقرة ١٣ ص ٣٢.

تَعْلَمُونَ" (أع ٢: ٢٢). إذن، فقد برهن بأعماله على أن هذا هو المسيح، وأن له ذات مكانة الآب، وقد صار رباً ومسيحاً لأولئك الذين يؤمنون به.

لذلك قال لليهود الذين لم يؤمنوا به: "وَلَكِنْ إِنْ كُنْتُ أَعْمَلُ، فَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا بِي فَآمِنُوا بِالأَعْمَالِ، لِكَيْ تَعْرِفُوا وَتُؤْمِنُوا أَنَّ الآبَ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ" (يو ١٠: ٣٨). وأيضاً: "إِنْ كُنْتُ لَسْتُ أَعْمَلُ أَعْمَالَ أَبِي فَلاَ تُؤْمِنُوا بِي" (يو ١٠: ٣٧). فإذا كان يستطيع أن يعمل أعمال الآب، وأن يكون الآب فيه، وأن يكون هو في الآب، فقد برهن حقاً على أنه هو الله الحقيقي، وصار رباً لأولئك الذين يؤمنون به، فواضحٌ أنه هو المسيح.

كذلك إذا قيل إنه صار رباً من الله، وهو رأيٌ صحيح؛ لأنه يُعرف أنه مولودٌ أصيلٌ وحقيقيٌ لله، بواسطة أعماله، وقد صار رباً لأولئك الذين لم يؤمنوا قديماً بكونه إلهاً من نفس رتبته، ومن نسبه الشريف الذي له من الآب. فلأنه عُرِفَ أنه هو ابن الله، صار رباً، دون أن يعني ذلك أنه بدأ وقتذاك للمرة الأولى أن يكون رباً - لأنه هو دائماً الله والرب - لكن بالحري عندما عُرِفَ من أولئك الذين آمنوا به، حينذاك صار رباً لهم.

٢٠- برهانٌ من الكتاب المقدس على أن الكلمة كان دائماً ربّاً وملكاً

فقد سجد له إبراهيم داعياً إياه رباً (تك ١٧: ١ - ٣)[١]. أيضاً موسى يقول: "فَأَمْطَرَ الرَّبُّ عَلَى سَدُومَ وَعَمُورَةَ كِبْرِيتاً وَنَاراً مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ" (تك ١٩: ٢٤). المرنم أيضاً يقول: "قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي: «اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئاً لِقَدَمَيْكَ" (مز١١٠:١). وأيضاً: "كُرْسِيُّكَ يَا اَللهُ إِلَى دَهْرِ الدُّهُورِ. قَضِيبُ اسْتِقَامَةٍ قَضِيبُ مُلْكِكَ. أَحْبَبْتَ الْبِرَّ وَأَبْغَضْتَ الإِثْمَ، مِنْ أَجْلِ ذلِكَ مَسَحَكَ اللهُ إِلهُكَ بِدُهْنِ الابْتِهَاجِ أَكْثَرَ مِنْ رُفَقَائِكَ" (مز ٤٥: ٦ - ٧). وأيضاً: "مُلْكُكَ مُلْكُ كُلِّ الدُّهُورِ، وَسُلْطَانُكَ فِي كُلِّ دَوْرٍ فَدَوْرٍ" (مز ١٤٥: ١٣).

(١) "وَلَمَّا كَانَ أَبْرَامُ ابْنَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً ظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ لَهُ: «أَنَا اللهُ الْقَدِيرُ. سِرْ أَمَامِي وَكُنْ كَامِلاً، فَأَجْعَلَ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَأُكَثِّرَكَ كَثِيراً جِداً. فَسَقَطَ أَبْرَامُ عَلَى وَجْهِهِ".

إذن، فإذا كان **كلمة** الله قبل التأنس، مَلِكاً ورباً، فكيف لا يكون المرءُ مذنباً بجريمة التجديف إذا نَسَبَ كلمة "جعل" للجوهر؟ فقد صار رباً لأجلنا نحن الذين عرفنا سيدنا عندما اشترانا بدمه، وبرهن لنا أنه المسيح والرب.

٢١- نفس الرد بطريقة أخرى، آخذاً الأمور التي تحدث لنا مثالاً

إذا قيل على سبيل المثال إن فلاناً صار ربَّ فلانٍ، فمن هو ذا الذي على درجة من الغباء الشديد حتى يظن أن جوهر هذا الشخص قد خُلِق عندما صار ربًّا لشخصٍ آخر. لأن هذا الشخص (الذي صار رباً) لم يكن قد أتى إلى الوجود وقتذاك، بل فقط مارس سلطاناً أخذه.

هكذا ينبغي أن نفكر في المسيح: إذ كنا مستعبَدين قديماً لِمَن لم يكونوا آلهةً، كنا مستعبَدين للفساد (أنظر ٢ بط ٢: ١٩)[١]. لكن **كلمة** الآب صار إنساناً كي يحررنا من الضلال، وأن يصير رباً للكل. وقد مسحه الآب؛ لكي ننال بواسطته قوة ذاك الذي مَسَحَهُ. وهكذا صارت الخيرات لطبيعتنا في المسيح أولاً، وصار لنا فيه وبواسطته منبع المواهب الإلهية؛ لأنه كان هو الله الذي صار إنساناً.

٢٢- نفس الرد بطريقة أخرى

لقد رنَّم داود الطوباوي وقال: "كنْ لِي صَخْرَةَ حِصْنٍ" (مز ٣١: ٢)، وأيضاً: "الرَّبّ مَلْجَأً لِلْمنْسَحِقِ" (مز ٩: ٩)، وبالرغم من ذلك لا أحد يقول إن الله أخذ حينذاك جوهره، عندما صار ملجأً للمنسحق. لأنه، بينما كان الملجأ منيعاً وأنقذ أولئك الذين ظُلموا، صار الله بالنسبة لداود حصناً، وبالنسبة للمنسحق ملجأً.

إذن مثلما صار الله للذي يطلبه ويصلي له ملجأً وحصناً، هكذا المسيح، بينما كان دائماً رباً وملكاً كإله، صار لنا رباً عندما بغضنا طغيان الشيطان الذي قيَّدنا وصرخنا للآب: "أَرْسِلْ نورَكَ وَحقَّكَ، همَا يَهْدِيَانِني" (مز ٤٣: ٣). لقد نسب الكتاب المقدس أعمال المسيح إلى الله، لأن كل الأعمال التي تفوق الطبيعة البشرية تُدعى حقاً أعمال الله.

---

(١) "وَاعِدِينَ إِيَّاهُمْ بِالْحُرِّيَةِ، وَهُمْ أَنْفُسُهُمْ عَبِيدُ الْفَسَادِ. لأَنَّ مَا انْغَلَبَ مِنْهُ أَحَدٌ، فَهُوَ لَهُ مُسْتَعْبَدٌ أَيْضاً!".

المقالة الثانية والعشرون

عن الآية:
"وَأَمَّا ذلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلاَ يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ، وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الّذِينَ فِي السَّمَاءِ، وَلاَ الابْنُ، إِلاّ الآبُ"
(مر ١٣: ٣٢).

١- معارضة من جانب محاربي المسيح

يقولون: كيف يكون الابنُ متماثلاً[١] مع الآب من جهة الجوهر، إذا كان يقول إنه لا يعرف يوم نهاية الأزمنة، بالرغم من أن الآب يعرف هذا اليوم طبقاً لِما قاله الابن نفسه؟ هذا الموضوع لا يخلو من اختلاف كبير ومعارضة في الآراء.

٢- الرد

إذا كان الابن هو خالق الدهور والأزمنة والأوقات[٢]، فكيف يُتهم من جانبنا بأنه يجهل اليوم والساعة؟ كيف لا يمكن أن يعرف هذه الأعمال التي عملها هو بنفسه؟ إذن، ينبغي أن نفحص هذه الأقوال التي قالها المسيح للتلاميذ بعمق أكثر.

---

(١) هذا التعبير يكرره كثيراً القديس كيرلس ويقصد بالمماثلة، أن الابن مثل الآب بحسب الجوهر أي واحد مع الآب في الجوهر، له نفس جوهر الآب، بدليل أن الهراطقة هنا يرفضون هذا التعبير.

(٢) سبق وإن عبّر ق. أثناسيوس عن هذه الحقيقة بقوله: "لأنه **بالكلمة** قد خُلقت كل الأشياء والأزمنة، والأوقات والليل والنهار وكل الخليقة، فهل يقال بعد ذلك إن الخالق يجهل عمله؟". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثالثة، فقرة ٤٢، ص ٨٠.

يمكننا أن نرى بوضوح، أنه بكونه إلهاً، فهو يعرف اليوم والساعة، حتى لو قال إنه لا يعرف مُظهراً بذلك طبيعته الإنسانية، خصوصاً وإنه يعرف كل ما سوف يكون قبل هذا اليوم، سارداً بكل وضوح كل ما يمكن أن يحدث قبل هذا اليوم وتلك الساعة، عندما قال سيصير هذا الأمر، وسيحدث ذلك الأمر، ثم تأتي النهاية. فمن الواضح أنه يعرف أيضاً ذلك اليوم وتلك الساعة. لأنه بعدما ذكر ما سوف يحدث، أضاف قائلاً: "ثم يأتي المنتهى" (مت ٢٤: ١٤). فماذا يمكن أن تكون النهاية إلاَّ اليوم الأخير الذي - بحسب التدبير - قال إنه يجهله، ناسباً للطبيعة البشرية ما يناسبها من أقوال؟ لأن أحد خصائص الطبيعة البشرية هو عدم معرفتها لما سوف يحدث من أمور.

٣- ردٌ آخر

من المهم أن نفتش عن الزمن[1] الذي قال فيه المخلص هذه الأقوال؛ لأننا هكذا نتجنب الضلال. فلو أن **كلمة** الله قبل تأنُّسه قال أمراً متواضعاً عن ذاته، فهذا القول يكون على علاقةٍ بإلوهيته. لكن عندما يستخدم **الكلمة** كلمات بشرية بعدما صار إنساناً؛ لكي يُظهر ذاته إنساناً حقاً، فكيف لا ننسب هذه الأقوال إلى طبيعته البشرية، إذا كنا قد قبلنا سر التدبير الإلهي؟

لأنه إن لم يكن قد صار إنساناً، فليتحدث إذن بكون إلهاً، أمَا وقد صار إنساناً، عندئذٍ مِنْ اللائق - كإنسان - أن يتكلم كإنسان[2]، دون أن تقلل خطة تدبير الله من أجلنا من إلوهيته.

(١) يقصد القديس كيرلس ما قاله بوضوح القديس أثناسيوس في نفس السياق، مؤكداً على التمييز ما بين ما قاله الابن قبل التجسد وبعد التجسد، إذن علينا أن نعرف الآتي: "متى ولِمَنْ تكلم المخلص هكذا ؟ فهو لم يتكلّم هكذا حينما خُلقت السموات بواسطته، ولا حينما كان مع الآب نفسه، **الكلمة** الصانع كل الأشياء (انظر أم ٨: ٢٧ - ٣٠). وهو لم يَقُل هذا أيضاً قبل ولادته كإنسان، ولكن حينما صار **الكلمة** جسداً ". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثالثة، فقرة ٤٣ ص ٨٢.

(٢) كونه يتكلم إنسانياً، فهذا – كما يقول القديس أثناسيوس – لائق بمحبة المخلّص للبشر، كما يلاحظ أمراً هاماً في قول المسيح هذا، إذ يقول: " فالمسيح لم يقل "ولا ابن الله يعرف"، لئلا يبدو أن اللاهوت يجهل، بل قال ببساطة "ولا الابن" لكي تكون عدم المعرفة منسوبة لطبيعة الابن البشرية". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثالثة، فقرة ٤٣ ص ٨٣.

ومن ناحية أخرى، فإن هذا يعني ما قاله بولس: "مُسْتَأْسِرِينَ كُلَّ فِكْرٍ إِلَى طَاعَةِ الْمَسِيحِ" (٢ كور ١٠: ٥)؛ لأن أحد خواص **الكلمة** أن يعرف بداية ونهاية ما خلقه، فإذا كان الزمن هو أحد المخلوقات، فهو يعرف، حتى متى يَمنحَ للذي خلقه إمكانية أن يوجد.

٤- ردٌ آخر

قال وهو يتحدث إلى أبيه: "أَيُّهَا الآبُ، قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ. مَجِّدِ ابْنَكَ" (يو ١٧: ١). إذن، فبما أنه يعرف الساعة بالضبط التي يقول عنها إنها أتت، فما الذي يمنعه من أن يعرف تلك الساعة التي يقول عنها - كإنسان - إنه يجهلها مثلما يليق بالطبيعة البشرية، وإن كان يعرفها على أية حال بكونه إلهاً؟

إذن، ينبغي ألاّ نتطاول على **كلمة** الله بسبب هذه الأقوال، وننسب إليه - في تهورٍ - الجهل، لكن بالحري يجب أن تُعجب بمحبته للبشر، طالما هو بسبب حنوِّه لم يتردد في أن يضع ذاته في تواضعٍ كبير، لدرجة أنه أخذ على عاتقه كل ما يخصنا، وكان أحد ما يخصنا هو الجهل بالأمور المستقبلية.

٥- ردٌ آخر

يجب أن نسأل محاربي المسيح: ما هو السبب في أن المخلص لم يذكر الروح أبداً، بل اقتصر على الملائكة والابن؟ لماذا لم يقل: "ولا الروح يعرف"، بل: "لاَ يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ، وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ ... وَلاَ الابْنُ"؟ لماذا لم يُضِف "ولا الله (الروح)"؟

حسناً. من الواضح أن الملائكة يجهلون - كمخلوقات - معرفة اليوم والساعة، ولكن لأنه لم يُرد أن يقول للتلاميذ أمراً - بسبب التدبير - كان سرياً؛ لأن "مَنْ قَاسَ رُوحَ الرَّبِّ، وَمَنْ مُشِيرُهُ يُعَلِّمُهُ؟" (أش ٤٠: ١٣)، لكي لا يبدو كمن يخفي يوم المجيء الثاني عن التلاميذ، ويحزنهم بسبب هذا الأمر، قال: "وَلاَ الابْنُ أيضاً"، متحدثاً عن ذاته بطريقة إنسانية، بكونه إنساناً، محافظاً على معرفة كل شيء بكونه إلهاً. لذلك لم يقل إن الروح يجهل هذا اليوم؛ لأنه إذا كان الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله (١ كور ٢: ١٠)، كما هو مكتوب، فمن الواضح إذن أنه هو الله، وهو يعرف كل شيء، ويستطيع أن يفحص كل شيء، ويأخذ معرفته من الابن؛ لأنه يقول: "ذَاكَ يُمَجِّدُنِي، لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي

وَيُخْبِرُكُمْ" (يو ١٦: ١٤). إذن كيف يجهل **كلمةُ** الله تلك الساعةَ، **وهو** الذي يمنح المعرفة للروح الذي يعرف كل شيء[١]؟

٦- ردٌ آخر

إذا كان الآب يفعل كل شيء بواسطة الابن، كما يقول الكتاب: "كل شيء به كان"، وكان تحديد اليوم والساعة التي تكون فيها نهاية العالم هو أحد هذه الأشياء، فمن الواضح أن هذا الأمر قد حُدد بواسطة الابن، فكيف إذن، يمكن للابن أن يجهل الأمر الذي حُدِّد بواسطته؟ بالتالي، الابن يعرف اليوم والساعة بكونه إلهاً، حتى لو قال إنه يجهلها بناءً على أنه صار إنساناً وتصرَّف بكونه إنساناً[٢].

٧- ردُ آخر

بما أن كل ما للآب هو للابن[٣]، كما يقول هو نفسه، وبما أن الآب يعرف اليوم وتلك الساعة، فمن الواضح أن الابن يمتلك هذه المعرفة أيضاً؛ لأنه هكذا فقط يَصْدق قول الابن: "كُلُّ مَا لِلآبِ هُوَ لِي" (يو ١٦: ١٥).

---

(١) يلخص القديس أثناسيوس دفاعه في هذه الجزئية، مؤكداً على أن هناك سببين لصمت المسيح عن ذكر الروح، أي لم يقل "ولا الروح" لسببين، إذ يقول: "أولاً: لأنه إن كان الروح يعرف، فبالأولى فإن **الكلمة** لابد أن يعرف لأن **الكلمة** الذي يستمد منه الروح المعرفة هو بالأولى يعرف. ثانياً: وبصَمْته عن ذكر الروح أوضَحَ أن قوله "ولا الابن" هو عن خدمته البشرية". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثالثة، فقرة ٤٤ ص ٨٣.

(٢) لقد تكلم بشرياً لكي يُظهر الناحية الإنسانية – كما يقول القديس أثناسيوس: "إذ أن عدم المعرفة خاص بالبشر، وأنه قد اتّخذ الجسد الذي يجهل، والذي بوجوده فيه قال بحسب الجسد "لا أعرف". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثالثة، فقرة٤٥ ص ٨٥.

(٣) القصد من هذا القول كما يقول القديس كيرلس في شرحه لهذه الآية: "كل ما للآب هو لي" هو البرهنة على إتحاده الكامل مع أبيه، وتساويهما في الجوهر الكائن في خصائصهما التي لا تتغير" أنظر شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، الجزء التاسع، ص ١٢٣.

٨- ردٌ آخر

لو صدّقنا قوله: "أَنِّي فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ" (يو ١٤: ١١)، وأن الآب يعرف ذلك اليوم وتلك الساعة، فإن الابن عندئذٍ يعرفهما، طالما هو يوجد في الآب، ويعرف كل ما هو موجود فيه، وطالما كان الآب الذي يعرف اليوم والساعة في داخله.

٩- ردٌ آخر

يقال عن الابن إنه صورة الآب منقطعة النظير (كو ١: ١٥)[١] فإذا كان الآب يعرف اليوم والساعة، بينما الابن يجهلهما، فكيف لِمَن يجهل شيئاً أن يحمل صورة مَنْ يعرف هذا الشيء؟ لكن بما أنه صورة الآب رغماً عن محاربي المسيح؛ لأنه يتماثل مع الآب من جهة المعرفة، لذلك فمثلما يعرف ذاك، هكذا يعرف هو أيضاً.

١٠- ردٌ آخر

من قال إن الابن لا يعرف اليوم ولا تلك الساعة، لن يخرج عن نطاق التجديف؛ لأن الابن هو **الكلمة**. وبما أنه يعرف الآب - كما يقول هو نفسه، فما الذي يعيقه عن معرفة نهاية الخليقة؟ أمَّا إذا قالوا إن معرفة نهاية العالم أعظم من معرفة الآب، عندئذٍ يقعون تحت عقاب التجديف، لكن إذا كانت معرفة الآب أعظم من أية معرفةٍ أخرى، فإنني أتساءل: كيف لِمَنَ يعرف المعرفة الأعظم أن يجهل ما هو أدنى؟

١١- ردٌ آخر

قال **الكلمة** - دون أن يجهل؛ لأنه هو **كلمة** الآب وحكمته (أنظر ١كو١: ٢١)[٢] - إنه "لا يعرف"؛ لكي يُظهر طبيعته البشرية؛ لأن الجهل وعدم المعرفة يتناسب معها باعتباره خاصية من خصائصها. فلأنه لبس جسدنا، تظاهر بأنه يجهل. وأمَّا أن جهله هذا يخص طبيعته البشرية، وليس طبيعته الإلهية، فهو ما نستطيع معرفته حين ذكر ما صار للبشر في أزمنة نوح وقال: "لأَنَّهُ كَمَا كَانُوا فِي الأَيَّامِ الَّتِي قَبْلَ الطُّوفَانِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ

(١) "الَّذِي هُوَ صُورَةُ اللهِ غَيْرِ الْمَنْظُورِ".
(٢) "لأَنَّهُ إِذْ كَانَ الْعَالَمُ فِي حِكْمَةِ اللهِ لَمْ يَعْرِفِ اللهَ بِالْحِكْمَةِ".

وَيَتَزَوَّجُونَ وَيُزَوِّجُونَ، إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ نُوحٌ الْفُلْكَ، وَلَمْ يَعْلَمُوا حَتَّى جَاءَ الطُّوفَانُ وَأَخَذَ الْجَمِيعَ، كَذلِكَ يَكُونُ أَيْضاً مَجِيءُ ابْنِ الإِنْسَانِ"(مت ٢٤: ٣٨ - ٣٩)، أضاف مباشرةً: "اِسْهَرُوا إِذاً لأَنَّكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ فِي أَيَّةِ سَاعَةٍ يَأْتِي رَبُّكُمْ" (مت ٢٤: ٤٢). وأيضاً: "لأَنَّهُ فِي سَاعَةٍ لاَ تَظُنُّونَ يَأْتِي ابْنُ الإِنْسَانِ" (مت ٢٤: ٤٤). بينما لو كان يجهل معرفة اليوم والساعة، لَكان عليه أن يقول: لا أعرف أي يوم آتي فيه، وسوف آتي في ساعةٍ ما لا أتوقعها. إذن من الواضح أنه يعرف اليوم والساعة بكونه **الكلمة**، لكنه قال لمستمعيه إنه يجهل معرفة يوم وساعة مجيئه؛ لأنه لبس جسداً مماثلاً لأولئك الذين يجهلون بطبيعتهم، أي لبس طبيعة البشر[1].

١٢- ردٌ آخر

وإذا كان بواسطة ما حدث أيام نوح قد أراد أن يعلن وقت مجيئه، الذي بمقتضاه سوف يأتي ليدين المسكونة، وقد أظهر أنه لا يجهل يوم الطوفان، لذلك قال لنوح: "ادْخُلْ أَنْتَ وَجَمِيعُ بَيْتِكَ إِلَى الْفُلْكِ ... لأَنِّي بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ أَيْضاً أُمْطِرُ عَلَى الأَرْضِ أَرْبَعِينَ يَوْماً وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً. وَأَمْحُو عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ كُلَّ قَائِمٍ عَمِلْتُهُ" (تك ٧: ١، ٤). يتضح من ذلك أنه يعرف الساعة ويوم مجيئه؛ لدرجة أنه يحفظ تماثل الأحداث، وما حدث لأولئك يشير إلى مجيئه.

١٣- ردٌ آخر

عندما يقول الكتاب المقدس عن مخلصنا المسيح إنه جاع وعطش وتعب من المسير ونام في السفينة، ما الذي يمكن لمحاربي المسيح أن يفعلوه؟ هل يتجرَّأون - بناء على ذلك - ويقولوا إن هذه الأمور تحمَّلها **كلمة** الله، أم أن هذه الأمور من خصائص الطبيعة البشرية، وتُنسب للجسد، أم يعترفون أن **كلمة** الله هو فوق كل هذه الأمور طالما هو **الكلمة**؟

---

(١) أي كما يقول القديس أثناسيوس: "أوضح بذلك أن الجهل خاص بالبشر، الذين لأجلهم أخذ جسداً مشابهاً لأجسادهم، وصار إنساناً وقال: "ولا الابن يعرف" لأنه لا يعرف بالجسد رغم أنه يعرف بكونه هو الله **الكلمة**". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثالثة، فقرة ٤٥ ص ٨٥.

إذن، مثلما سمح لذاته كإنسان أن يجوع ويعطش ويحتمل كل الأمور الأخرى التي قيلت عنه، فبنفس الطريقة علينا أن لا نعثر عندما يقول مع البشر - كإنسان - إنه لا يعرف؛ لأنه لبس نفس الجسد الذي لنا. لكنه بكونه الحكمة **والكلمة** الذي يوجد في الآب، فهو يعرف، لكنه يقول إنه لا يعرف بسببنا ومعنا كإنسان.

١٤- ردٌ آخر يعلن بوضوح أن المخلص يعرف بالتأكيد أموراً، لكن بحسب التدبير تصرف وكأنه يجهلها.

قال المخلص لتلاميذه: "لِعَازَرُ حَبِيبُنَا قَدْ نَامَ" (يو ١١: ١١)، بالرغم من أن أحداً لم يخبره بهذا الأمر، لكنه عَرِف ذلك بكونه إلهاً يعرف كل شيء. ثم بعد ذلك، حيث سار طريقاً طويلاً مع تلاميذه، ذهب إلى أختي لعازر وسألهن: "أَيْنَ وَضَعْتُمُوهُ؟" (يو ١١: ٣٤). فكيف لا يعرف الموضع الذي كان مدفوناً فيه جسد لعازر[١]، هذا الذي عرف أنه قد نام (رقد)؟ من المستحيل لذاك الذي عَرِف أنه قد رقد أن يجهل هذا الموضع. إذن، مثلما قال إنه لا يعرف أين وُضع لعازر بسبب التدبير، هكذا أيضاً عن معرفة اليوم والساعة، لدرجة أنه قال لا أعرفهما، إلاّ أنه يفعل هذا الأمر طامحاً في شيء مفيد وصالح لسامعيه، لأنه بكونه إلهاً يعرف.

١٥- ردٌ آخر مِن واقعة أخرى

حين ذهب المخلص إلى نواحي قيصرية فيلبس سأل تلاميذه: "مَنْ يَقُولُ النَّاسُ إِنِّي أَنَا ابْنُ الإِنْسَانِ؟" (مت ١٦: ١٣)، وعندما أجاب بطرس قائلاً: "أَنْتَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ الْحَيِّ!». قال له يسوع: "طُوبَى لَكَ يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا، إِنّ لَحْماً وَدَماً لَمْ يُعْلِنْ لَكَ، لكِنَّ أَبِي الّذِي فِي السّمَاوَاتِ" (مت ١٦: ١٦ - ١٧). وفق كلام المخلص نفسه، لا أحد يعرف الابن إلاّ الآب، وطالما أن الآب يفعل كل شيء بواسطة الابن، وكان هذا الإعلان والكشف هو أحد أعماله، إذن **فالكلمة** نفسه هو الذي يعلن لبطرس هذا الذي أعلنه الآب. فكيف إذن، هذا الذي كَشَفَ وأعلَنَ، يسأل كأنه يجهل: "مَنْ يَقُولُ النَّاسُ إِنِّي

---

[١] يقول القديس أثناسيوس عبارة رائعة في نفس السياق: "لقد سأل إنسانياً لكي يقيمه إلهياً". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثالثة، فقرة٤٦ ص ٨٧.

أَنَا؟". نفهم من ذلك أن التظاهر بالجهل - مرات كثيرة - كان يهدف إلى شيءٍ أعمق. فبينما هو يعرف ما سوف يقوله التلاميذ، يطرح السؤال، هكذا ليأخذ إجابتهم لتؤكد على ذاك الذي يؤمنون به.

١٦- ردٌ آخر

لم يجهل الابن اليوم ولا ساعة مجيئه، طالما هو حقاً **الكلمة** والحكمة، لكن حتى لا يُسبب حزناً لتلاميذه، لأنه لم يرد أن يجيب على سؤالٍ كانوا قد ألقوه عليه، يقول كإنسان: "لا أعرف"، ومِن حقه أن يقول هذا؛ لأنه صار إنساناً، كما هو مكتوب، واكتسب ضعفات الجسد الذي لبسه. وكون أنه لأجل هذا السبب يقول إنه لا يعرف اليوم، سوف نعرفه من الآتي: عندما سأله تلاميذه بعد قيامته من الأموات، وقبل صعوده مباشرةً إلى السموات: متى ستجيء النهاية؟ ومتى سيأتي ثانيةً؟ أجاب بحسم قائلاً: "لَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَعْرِفُوا الأَزْمِنَةَ وَالأَوْقَاتَ الَّتِي جَعَلَهَا الآبُ فِي سُلْطَانِهِ" (أع ١: ٧). أمَّا إذا كان حقاً يجهل هذا الأمر، فكان ينبغي عليه أن يقول بوضوح: قُلت لكم: لا أعرف.

الآن، لأن سؤالهم هذا غير مبَرر، أنَّبهم. ولأنهم يسألون عن أمر أعظم مِن ذواتهم، أعاقهم عن معرفة هذا الأمر. إذن من الواضح أيضاً وقتذاك، بالرغم من أنه يعرف كل شيء بكونه إلهاً؛ لأن هذه المعرفة هي أعظم من معرفة التلاميذ، قال - متحدثاً بطريقة بشرية - إنه لا يعرف اليوم ولا تلك الساعة.

١٧- ردٌ آخر

عندما كان آدم في الفردوس قال له الله: "أين أنت" (تك ٣: ٩) ولقايين قال: "أين هابيل أخوك" (تك ٤: ٩). ماذا تقولون إذن عن هذا؟ لأنه لو قُلتم إنه سأل لأنه لم يعرف، فسوف تجدِّفون بوضوح، لكن لو أرجعتم ذلك إلى أن عدم معرفته هذا يخدم هدفاً ما، فلا تستغربوا عندما قال **كلمة** الله - الذي بواسطته وقتذاك سأل الله آدم وقايين وهو يهدف إلى شيء مفيد - إنه لم يعرف اليوم بكونه إنساناً، بالرغم من أنه بالتأكيد يعرف كل شيء كحكمة الآب.

١٨- ردٌ آخر، بمقتضاه نبرهن بوضوح أنه بحسب التدبير تعلّل المخلّص مرّات كثيرة بعدم المعرفة.

عندما كان المخلص في البرية وأراد أن يُطعِم أولئك الذين كانوا قد تبعوه، سأل فيلبس: "كم رغيفاً عندكم" (مر ٦: ٣٨). وقد ألقى هذا السؤال وكأنه يجهل هذا الأمر. وأيضاً الإنجيلي يؤكد مباشرة قائلاً: "وَإِنَّمَا قَالَ هذَا لِيَمْتَحِنَهُ، لأَنَّهُ هُوَ عَلِمَ مَا هُوَ مُزْمِعٌ أَنْ يَفْعَلَ" (يو٦:٦).

هكذا، فبينما يعرف ما سوف يفعله، يسأل كأنه يجهل هذا الأمر. إذن ما الذي يعيقه الآن، وهو يهدف إلى شيء مفيد، أن يسمح لذاته أن يقول إنه لا يعرف اليوم والساعة؟ وقد قال هذا دون أن يكذب؛ لأنه بينما يعرف الأمر بكونه الله **الكلمة**، إلاّ أنه كإنسانٍ يجهله؛ لكي يكون مشابهاً لنا - نحن أخوته - في كل شيء، كما يقول بولس الرسول (انظر عب ٢: ١٧)[١].

١٩- اعتراضٌ من جانب الهراطقة

يقولون إن الآب يعرف كل شيء، لكن الابن لا يعرف كل شيء بحسب كلامه هو شخصياً؛ لأنه حسنٌ أن نستخدم كلامه دائماً للبرهان. إذن، طالما أن الآب يعرف تلك الساعة، بينما يجهلها الابن، فكيف يمكن أن يكون لديه نفس طبيعة الآب ويعرف كل شيء، ذاك الذي لا يعرف كل شيء؟

٢٠- الإجابة على هذا الاعتراض

لو كان الابن لا يعرف كل شيء - كما تقولون - يا محاربي المسيح، لتحتم عليكم أن تقروا أن الكتب المقدسة تكذب، وأنكم تتطاولون ضد القديسين الذين يقولون عنه: "هذا الذي يعرف كل شيء قبل أن يصير" (دانيال - سوسنة ١٣: ٤٢). لأن عبارة "كل شيء" لا تسمح لأي شيء بأن يظل خارجاً عنها. إذن، فلو كان الابن يجهل هذا

(١) "مِنْ ثَمَّ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُشْبِهَ إِخْوَتَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، لِكَيْ يَكُونَ رَحِيماً، وَرَئِيسَ كَهَنَةٍ أَمِيناً فِي مَا للهِ حَتَّى يُكَفِّرَ خَطَايَا الشَّعْبِ".

اليوم، فكيف له أن يعرف كل شيء؟ لكن على أية حال، فإن أقوال القديسين حقيقية، والابن يعرف كل شيء. هكذا، وبما أن "كل شيء" تتضمن بالضرورة اليوم الذي تتم فيه نهاية العالم، إذن، فحكمتكم تبدو عبثاً وسُخفاً؛ لأن المسيح وهو يقول إنه لا يعرف تلك الساعة، يقول هذا بحسب التدبير، ولكنه لا يجهلها حقاً.

٢١- ردٌ آخر

فإذا كان بولس صادقاً في قوله إن كل شيء مكشوف وعريان أمامه (أنظر عب ٤: ١٣)، وهو هنا يتكلّم عن الابن، وكان أحد هذه الأمور المكشوفة هو معرفة تلك الساعة، فكيف يجهلها هذا الذي بالنسبة له الكل مكشوف أمام عينيه؟

٢٢- ردٌ آخر

إن كنتم تؤمنون بأنه لا يُعد تجديفاً أن تقولوا إن الابن يجهل أمراً ما من الأمور المخلوقة، فليكن وفق رأيكم هكذا، لكن دعونا نرى ما إذا كنتم مخطئون في إيمانكم بهذا الرأي. سوف نفحص الأمر، وكأنكم لا تستندون إلى مفاهيم فاسدة، ولا كأنكم ترتكزون على عكازٍ من ساق نبات القمح.

قال الابن إنه لا يعرف ذلك اليوم، فإن كان يجهل هذا اليوم فقط، فهو يعرف بقية الأيام الأخرى، ومن ضمنها اليوم السابق لمجيء الرب[1]. إذن، كيف لِمَنْ كان يعرف اليوم السابق، ألاّ يعرف - وفق أرائكم - اليوم التالي له؟ هذا يشبه مَنْ يقول إنه لا يعرف مثلاً موضع رقم عشرة، بينما يعرف رقم تسعة.

---

(١) وقد طرح القديس أثناسيوس الرسولي في هذا السياق مثالاً رائعاً، قائلاً: "ومثل إنسان يريد أن يدل أولئك الذين يجهلون مكان منزل ما أو مدينة، فهو يذكر لهم بالتفصيل الأشياء التي تقابلهم قبل المنزل أو المدينة وبعد أن يشرح لهم كل شيء يقول: "وبعد ذلك تجدون المدينة أو المنزل مباشرة فهذا المشير يعرف تماماً أين يوجد المنزل أو المدينة - لأنه لو لم يكن يعرف، لما استطاع أن يشرح لهم ما يجدونه قبلها. وحتى لا يتسبب دون قصد في أن سامعيه يضلّون الطريق، أو أنهم يذهبون بعيداً عن المكان بسبب وصفه الخاطئ. هكذا فإن الرب بحديثه عن ما يسبق ذلك اليوم وتلك الساعة فهو يعرف بالضبط، ولا يجهل متى تأتي الساعة ويكون اليوم". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثالثة، فقرة٤٢ ص ٨١.

فإذا كان يعرف اليوم السابق لذلك اليوم، فكيف لا يعرف ذلك اليوم ذاته؟ كيف لمن يقول إنه سوف تحدث أحداثٌ كثيرة قبل اليوم الأخير، ألاّ يعرف أن النهاية سوف تعقب هذه الأحداث؟

أنتم تُظهِرون - من كل الجوانب - أنكم أغبياء، وقد تجرَّأتم على أن تقدموا الحقيقة مزيَّفة[1]. لأن الابن يعرف كل شيء، حتى لو كان - بحسب التدبير - يقول إنه لا يعرف شيئاً.

[1] تقديم الحقيقة مزيفة يقصد بها تقديم كلمات الكتاب مع تفسير خاطئ لها، لكي يدعموا زيفهم، كما يقول القديس أثناسيوس: "ولكونهم في جهل عظيم من جهة هذه الكلمات فقد أصابهم الدوار بسببها ويظنون أنهم قد وجدوا فيها حجة هامة تسند هرطقتهم. فإن كان هؤلاء الهراطقة قد سبق فقرّروا هذا ويسلّحون أنفسهم به. فإني أراهم كالعمالقة الذين يحاربون الله. لأن رب السماء والأرض الذي به خُلقت كل الأشياء، يطالب بتقديم حساب أمامهم عن اليوم والساعة. والكلمة الذي يعرف كل الأشياء يتهمونه بأنه يجهل اليوم، والابن الذي يعرف الآب يقولون إنه يجهل ساعة من ساعات اليوم. والآن ماذا يمكن أن يكون أكثر حماقة من هذا، أو أي جنون يمكن أن يشابه هذا؟". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثالثة، فقرة٤٢، ص ٨٠.

المقالة الثالثة والعشرون

على الشواهد الآتية:
"اَلآبُ يُحِبُّ الابْنَ وَقَدْ دَفَعَ كُلّ شَيْءٍ فِي يَدِهِ" (يو ٣: ٣٥).
"كُلُّ شَيْءٍ قَدْ دُفِعَ إليَّ مِنْ أَبي" (لو ١٠: ٢٢).
"أَنَا لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَفْعَلَ مِنْ نَفْسِي شَيْئاً. كَمَا أَسْمَعُ أَدِينُ" (يو ٥: ٣٠)،
وشواهد أخرى

١- اعتراضٌ من الهراطقة

يقولون: كيف يمكن أن يكون الابنُ واحداً مع الآب في الجوهر، إذا كان يقول إن كل شيء قد أخذه من الآب؟ لأنه إن كان لديه كل شيء، فلماذا قال إنه أخذ. وطالما أنه أخذ، كما يقول هو نفسه، فمن الواضح أن ما يملكه لا يستمده من ذاته[1].

(1) إن مشكلة الهراطقة، كما يقول القديس كيرلس، أنهم لا يخضعون لتدبير التجسد، ويوضح هذا الأمر في سياق شرحه لنص لو ١٠: ٢٢، إذ يقول: "فإن الهرطوقي، لا يخضع لشروط التدبير، ولكنه يعمد إلى قِلّة حيائه المعتاد، ويجعل ما يُقال طعاماً لخبث عقله". تفسير إنجيل لوقا، المرجع السابق، عظة ٦٦ ص ٣١٨.

٢- الرد على هذا الاعتراض

ماذا يمكنك أيها الهرطوقي أن تفعل - عندما تسمع - أن الابن يقول: "كُلُّ مَا لِلآبِ هُوَ لِي" (يو ١٦: ١٥)، وأن "كُلُّ شَيْءٍ قَدْ دُفِعَ إِلَيَّ مِنْ أَبِي" (لو ١٠: ٢٢)؟ لأنه، إن صحَّ ألاَّ يكون لدى الابن شيء من ذاته - بحسب رأيكم - إلاَّ أن الآب لديه كل شيء. فإذا كان الآب لديه كل شيء بحسب الطبيعة، فالابن أيضاً لديه كل شيء[1]. فإن قلتم إن الابن ليس لديه شيء من ذاته، يتحتم عليكم أن تقولوا أيضاً إن الآب ليس لديه شيء من ذاته، حتى يكون للآب كل ما للابن .أمَا وإن كان يجب أن نتجنب هذا الأمر، فعليكم أن توافقوا على أن الابن له كل ما للآب. فإذا كان الكل ملكاً للآب، وهو ما صرَّح به الابن نفسه، فالابن إذن لديه كل ما لدى الآب.

٣- ردٌ آخر

لا يُقال إن الابن قد أخذ من الآب لأنه لم يكن لديه (لأنه لديه بحسب الطبيعة كل ما للآب فيما عدا الأبوة، طالما هو **كلمته** وشعاعه)[2]. وعندما يقول إنه أخذ من الآب، فإن هذا القول يلغي مسبقاً - بكونه إلهاً - ابتداعات الهراطقة. فقد قال إنه أخذ من الآب لكي لا يعتقد أحدٌ - حين يجد أن الابن لديه كل ما لدى الآب - أن الآب والابن (أقنوم) واحد، ويقع في ضلال سابليوس[3] من جراء تطابقهما المطلق. لكن ما أخذه من الآب كان لديه بحسب الطبيعة، لدرجة أن الحديث يعلن عن أن الواحد يعطي والثاني يأخذ، وذلك لكي يبرهن لهم أنه يوجد اثنان لا يتميزان فقط من جهة الاسم، بل وأيضاً من جهة الأقانيم الخاصة بكل واحدٍ على حدة. وهذا لا يمنع حقيقة أن **الكلمة** حقاً هو واحدٌ مع الآب، وأتى من نفس جوهره، وله أزلياً ما للآب، إلاَّ أنه يقول إنه أخذ كل شيء منه بسبب أنه أتى منه، في حين أن له بحسب الطبيعة كل ما للآب.

---

(١) لأن الابن له نفس طبيعة الآب ومن نفس جوهره.

(٢) ينصحنا القديس كيرلس في شرحه لهذا النص في إنجيل يوحنا، قائلاً: "حينما يبدو أن الابن ينال كإنسان ما هو له أصلاً كإله لا نتعثر، بل بالحري نفتكر في كيفيّة التدبير الإلهي لحسابنا ولأجلنا نحن البشر. لأننا بذلك سنحفظ ذهننا من أن ينجرح ويتأذى". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، ص ٢١٦.

(٣) كان سابليوس - كما قلنا - ينادي بأن لله أقنوم واحد.

٤- ردٌ آخر

وقول الابن في حديثه: "كُلُّ شَيْءٍ قَدْ دُفِعَ إِلَيَّ مِنْ أَبِي"، لا يُنقِص من إلوهيته، بل بالحري يبرهن بوضوح أنه هو الابن بحسب الطبيعة. لأنه، إن كان أُعطيَ له كل شيء، وبقوله: "كل"، يعني أنه لم يترك شيئاً لم يأخذه. بناء على ذلك، تُعدُّ الولادة الخاصة من الآب هي أحد الأشياء ضمن الـ"كل" التي أخذها. والابن بحسب الطبيعة لديه حقاً كل الصفات الخاصة لذاك الذي وَلَدَهُ. والصفة الخاصة لذاك الذي وَلَدَهُ هو أن له "كل شيء"، بناء على ذلك فإن كل ما لدى الآب، لا يغيب عن الابن.

٥- ردٌ آخر

وطالما أن الكل دُفع إليه، كما يقول هو نفسه، وأُعطي في يديه، فهو لا يكون واحداً من ضمن الكل، بل وارثٌ كابنٍ. لأنه لو كان واحداً من ضمن الكل، فلسوف ينتهي به الأمر إلى أن يُحصى مع الكل، ولن يكون وارثاً. لكن لأن كل شيء كان لديه بحسب الطبيعة والجوهر، وتتغلغل فيه رئاسة هذا الذي ولده وربوبيته، فهو إذن مختلف عن الكل، باعتباره الابن الخاص والوحيد للآب.

٦- ردٌ آخر

لقد قال المخلّص: "لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الآبَ لَهُ حَيَاةٌ فِي ذَاتِهِ، كَذلِكَ أَعْطَى الابْنَ أَيْضاً أَنْ تَكُونَ لَهُ حَيَاةٌ فِي ذَاتِهِ" (يو ٥: ٢٦). نحن نفهم هذا القول كالآتي: بقوله "أَعْطَى" يعلن أن لديه كل ما لدى الآب بحسب الطبيعة، بينما من جهة الأقنوم يعلن أن ذاته تتميز عن ذات ذاك الذي أعطاه، وإنه آخر، أقصد فقط من جهة العدد فهما اثنان.

أمَّا بقوله: "كما أن الآب له حياة في ذاته، هكذا الابن"، فهو يُعلن بكل وضوح أنه كما أن الآب له الحياة في داخله، هكذا الابن أيضاً له حياةٌ أبديةٌ في داخله. إذن، لو تجرَّأ أحد على القول بأنه في زمنٍ ما لم يكن للآب الحياةُ في داخله، لتحتم أن يُنسَب هذا الأمر للابن أيضاً. فإذا كان هذا نوعٌ من التجديف، وكنَّا قد قَبِلنْا أن الآب له دائماً الحياة في داخله، فهكذا يكون الابن أيضاً؛ وهذا يعني أن الابن له الحياة في داخله مثلما لدى الآب.

إذن، فبالرغم من أن الابن له الحياة دائماً، إلاَّ أنه يقول إنه أخذها، ولكنه يقول ذلك بحكمةٍ بحسب التدبير، دون أن يُقلل أبداً من أنه الابن بحسب الطبيعة.

٧- ردٌ آخر

لو أمكن للمرءِ أن يعطي لبهاء النور صوتاً، وتكلَّم البهاء عن نفسه قائلاً: "لقد أُعطي لي كل ما لدى النور؛ لأني أنير مثلما ينير ذاك"، فهل يمكن – عندئذٍ – للمرء أن يقول إن البهاء لا قدرةَ لديه على أن ينير؟ وكيف يُحسب هذا بهاءً؟ لكن بالرغم من أن البهاء لديه كل ما لدى النور إذ يُولد منه، إلاَّ أنه يقول إنه أخذ الكل منه. أليس منطقياً أن نطبق هذا المثل على الله **الكلمة**؟ إذ بينما لديه كل ما لدى الآب بحسب الطبيعة، إلاَّ أنه يقول إنه أخذ الكل منه، لأنه وُلِدَ منه، مع كل ما لديه.

٨- ردٌ آخر بخصوص: "دُفِع إليَّ كل سلطان" (مت ٢٨: ١٨)، "ومجِّد ابنك" (يو ١٧: ١)

الابن لا يطلب، ولا يُقال إنه يأخذ شيئاً من الآب طالما أنه هو **الكلمة**، لكنه يفعل هذا الأمر بحسب التدبير، وليس لأنه في احتياج إلى المجد أو لأي شيءٍ آخر. فهو يقبل أي شيء إنسانياً؛ لأنه يحمل شكلنا، لكنه كاملٌ بكونه إلهاً.

والإنسان بمفرده إذا أخذ شيئاً من الصالحات من الله، يفقده بسهولة (الأمر الذي عانى منه آدم فتعرَّى بعصيانه من المواهب التي عُيِّنت له). ولما كان من الضروري، أولاً ألاَّ نسقط ثانيةً في نفس هذه الأمور، لذا صار **كلمة** الله الغير المتغيِّر إنساناً، وطلب من الآب المواهب التي تأتي منه لكي تُحفظ بواسطته في أمان لأجل طبيعتنا؛ لأنه هو الغير المتغيِّر والغير المتحول. لأنه، طالما أُعطيت النعمة مرةً واحدةً، تظل آمنةً في داخل المسيح. وذاك بدوره منح لنا إمكانية أن نصير مثله؛ لأننا كلنَّا نحن متَّحدون به، إذ صار إنساناً ولَبِسَ جسداً مماثلاً لجسدنا. على الجانب الآخر، فقد دُعينا أخوةً أيضاً وصِرنا واحداً أمام الله.

إذن فقد قَبِل من الآب لأجلنا المجد الذي كان لديه بحسب الطبيعة بكونه إلهاً. ولأنه أخذ جسداً كان في احتياجٍ إلى أن يُمجَّد، ولكنه لم يأخذ جسد شخصٍ آخر، بل

هذا الجسد، صار جسده الخاص، ولأنه - كإنسان - لم يكن لديه تلك العطايا، فقد قَبِلَ من الآب تلك العطايا التي لديه بحسب الطبيعة كابنٍ وإلهٍ[1].

٩- ردٌ آخر

فإذا كان **الكلمة** قد صار إنساناً، ولا أعتقد أن أحداً يعترض على هذا، فمن ذا الذي يمنعه من استخدام كلمات بشرية؟ فهو لم يتجنَّب هذا الأمر، بل وضع نفسه في تواضع عظيم، و لم يتجنب التعبير عن إخلاء ذاته بمثل هذه الأقوال.

إذن، إن لم يكن قد صار إنساناً، فلننسب الأقوال المتواضعة **للكلمة** قبل تجسده، وعندئذٍ يكون لهم الحق في أن يقولوا إنه يجهل، وإنه في حاجةٍ إلى المجد، وإنه قَبِل شيئاً من الآب. أمّا وقد صار إنساناً، فلندع هذه الأقوال تُنسب لطبيعته الإنسانية، فلا يهينن أحدٌ مولود الله الأصيل، ولا يتقولن أحدٌ على **كلمة** الله قائلاً إنه ليس كاملاً مثل الآب[2].

---

(1) يشدد ق. كيرلس على هذه الحقيقة بكل وضوح في شرحه للنص الوارد في إنجيل يو ١٧:١، إذ يقول: "لذلك فالإنجيلي الحكيم الذي كتب هذا الكتاب، يقول في بدايته: "كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان" (يو ١: ٣). وحيث إن عقيدة مساواته للآب في الجوهر تُلزِمنا أن نفكر أن كلَّ الأشياء تصدر من الآب ولكن بالابن في الروح، وأنه إذ قد أباد الموت والفساد، وانتزع المملكة من الشيطان، وكان مزمعاً أن ينير العالم كله بنور الروح، وأن يُظهر نفسه بذلك أنه بالفعل هو الإله الحق بالطبيعة، لذلك يقول: "أيها الآب مجّد أبنك لكي يمجدك ابنك أيضاً". ولا يمكن لإنسان عاقل أن يقول إن الابن يطلب مجداً من الآب كإنسان يطلب من إنسان، بل بالحري هو يَعِدْ أيضاً أن يُعطِي مجداً للآب في المقابل". شرح إنجيل يوحنا، الجزء التاسع، ص ١٤٨.

(2) يؤكد القديس كيرلس بكافة الطرق – أثناء حديثة عن ألواح مسكن الخيمة - على حقيقة تجسد **الكلمة** وأنه أخلى ذاته و لم يتوقف عن أن يكون هو الله والإنسان في آن واحد، إذ يقول: "أمّا الألواح (الأعمدة) التي للمسكن فكان عرض الواحد منها ذراع ونصف بينما الطول عشرة أذرع مذهبة عند الرؤوس والجسم، وتستند على قواعد فضية مزدوجة. واللوح (العمود) يقصد به المسيح، معضِّد الكنيسة ومؤسِّس الحق وفقاً لقول بولس (انظر ١ تي ٣: ١٥). لأنه هو الذي يعضد ويحفظ كل شيء. وعرض اللوح (العمود) ذراعٌ ونصف، وهو يشير إلى أن (المسيح) كاملٌ بحسب طبيعته، وصغيرٌ بحسب المقاييس البشرية. وليس من السذاجة في شيء إذا قلنا إن المسيح هو كلي الكمال كمثل الذراع الواحد، لأنه هو الله بحسب الطبيعة، لكنه صغير مثل نصف الذراع بسبب طبيعته البشرية، ووحيد الجنس كان غنياً، لكنه صار فقيراً لأجلنا (٢ كو ٨: ٩)، ووضع ذاته بالإخلاء من عظمته الإلهية". السجود والعبادة بالروح والحق، المرجع السابق، الجزء الخامس، المقالة التاسعة ص ١٠٠.

١٠- ردٌ آخر

فكلمة الله (بحسب إلوهيته) لم يتمجَّد و لم يقبل شيئاً من الآب، و لم يتقدَّس، إذ أنه هو **كلمة** الله ذاته، لكنه قال هذه الأقوال لأجلنا، والكتاب المقدس يقول شيئاً مثل هذا عنه. لأنه لو كانت هذه الأقوال تخص **كلمة** الله - كما يعتقد أُناس معيَّنون - لجعلوا طريقة مجيئه غامضة، وأظهروا أن طبيعتنا حُرِمت من نعمة الله. لأنه إن كان **الكلمة** هو الذي مُجِّد وقُدِّس بحسب إلوهيته، فما الفائدة العائدة على البشر من تأنُّسه؟ لأنه في هذه الحالة سيبدو أنه هو الذي قام من الأموات، وليس نحن. وإن كان الأمر هكذا، فما الذي أقنعه أن يصير إنساناً؟

لقد تجسَّد لكي يُفيد الطبيعة البشرَّية. لكن وفقاً لأولئك الهراطقة، فإن جُرأته هذه (يقصد بتجسده) تكون قد افتقرت إلى الهدف، إذ لا يبدو — عندئذٍ - أن الجسد الذي اتخذه قد استفاد شيئاً، بل بالحري **الكلمة** نفسه. إذن - وفق أولئك - عندما صار إنساناً، فإنه أخذ مجداً وقداسةً وسلطاناً وعطايا أخرى، كان محروماً منها قبل مجيئه، إذ أخذ - وفق رأيهم - كل هذا أثناء مجيئه، بالتالي فهو مدينٌ للجسد بهذا المعروف؛ لأنه به أُظهِر وكأنه أعظم عندما أخذه، في حين أن الجسد نفسه لم يستفِد شيئاً.

لكن من الصعب عليهم أن يؤمنوا بهذا الرأي وأن ينادوا به. لأنه أتى لكي يُمجِّد ويُقدِّس الإنسان، بالتالي ليس **الكلمة** هو الذي يقبل شيئاً؛ لأنه كاملٌ مثل الذي ولده، ونحن أخذنا هذه العطايا بواسطته منذ أن تجسد. لأنه، مثلما بقيامته أقامنا نحن أيضاً، وعندما صَعِد إلى السماء، أُعلِن صعودنا نحن إلى السموات، هكذا أيضاً عندما قِيل إنه مُجِّد وقُدِّس، أخذنا نحن هذا المجد وهذا التقديس.

١١- ردٌ آخر يبرهن بوضوح على أنه يطلب كإنسان أن يأخذ تلك (العطايا) التي كانت له كإله.

قال المسيح: "أَيُّهَا الآبُ، ... مَجِّدِ ابْنَكَ" (يو ١٧: ١) وأيضاً: "كُلُّ شَيْءٍ قَدْ دُفِعَ إِلَيَّ مِنْ أَبِي" (مت ١١: ٢٧). وبعد القيامة: "دُفِعَ إِلَيَّ كُلُّ سُلْطَانٍ فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الأَرْضِ" (مت ٢٨: ١٨). لكن بما أنه هو الرب، إذن فهو له كل شيء قبل أن يُعطى إليه

كل شيء. لأن كل شيء صار بواسطته. والمرنم أيضاً يعترف بأن كل شيء هو "عبدٌ" للذي خلق كل شيء، فيقول: "لأَنَّ الْكلَّ عَبيدكَ" (مز ١١٩: ٩١).

فبالرغم من أنه هو رب المجد، إلاَّ أنه طلب مجداً. لذا قال بولس عن بعض الناس: "لأَنْ لَوْ عَرَفُوا لَمَا صَلَبُوا رَبَّ الْمَجْدِ" (١ كو ٢: ٨). وكون أنه قبل أن يطلب المجد من الآب، كان لديه المجد كابن، فهذا ما يتضح مما يُعلّمه هو نفسه بوضوح، قائلاً: "مَجِّدْنِي أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ بِالْمَجْدِ الّذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ الْعَالَمِ" (يو ١٧: ٥). إذن، فبالرغم من أنه يقرَّ بأن المجد كان لديه قبل خلق العالم، إلاَّ أنه يطلبه كأنه ليس له، بالتالي، فهو يفعل هذا لأجلنا، وبواسطته صار طلبنا نحن، إذ أن المجد هو لأجل الطبيعة البشرية.

وبالرغم من أنه قال بعد القيامة: "دُفِعَ إلى كُلُّ سُلْطَانٍ"، إلاَّ أن هذا السلطان كان لديه قبل القيامة. لأنه إن لم يكن لديه، فكيف وبخ الشيطان قائلاً: "اذْهَبْ عَنِّي يَا شَيْطَانُ" (مر ٨: ٣٣)؟، وكيف منح للتلاميذ سلطاناً على الشيطان (انظر مت ١٠: ٨)؟ بل كيف حلَّ هو نفسه ابنة إبراهيم كما هو مكتوب التي كانت مقيَّدة من الشيطان؟ (انظر لو ١٣: ١١ - ١٦)؟. أو كيف منح الشفاء للمُقعَد (انظر مت ٩: ٢)؟، وكيف أقام الأموات (انظر لو ٧: ١٧، ٨: ٤١ - ٥٦)؟، كيف منح البصر للأعمى (انظر مت ٢٠: ٣٠)؟

من الواضح إذن، أنه يستخدم هنا أقوالاً تتمشى مع كونه صار إنساناً، وليس عندما كان **الكلمة** بدون جسد قبل أن يأتي إلى الأرض، لكن عندما صار إنساناً طالباً من الآب العطايا لأجلنا. لأنه هكذا يُقال أيضاً إننا صرنا شركاء الطبيعة الإلهية (انظر ١ بط ١: ٤)، عندما لَبِسَ **الكلمةُ** وضاعتنا لكي يُصعِدُنا إلى علوِّه، لا لكي يظل هو أسفل مثلنا نحن. على الجانب الآخر، بينما نحن من جهة الطبيعة بشرٌ، صِرنا آلهةً[1] (انظر ١ يو ٣: ١)؛ لأننا باتحادنا بالمسيح نكون آلهةً؛ لأن المسيح هو الله.

---

(١) المقصود هنا نعمة التألُّه التي مُنحت لنا في المسيح بحسب النعمة، وهي لا تعني بأية حال كما شرح آباء كنيستنا أن يصير الإنسان مثل الله وتتغير طبيعته البشرية إلى طبيعة إلهية، بل تعني شركة الحياة الإلهية، أي الحياة الأبدية (أنظر ٢ بط ١: ٤).

١٢- ردٌ آخر

لو شرع البعض في إلحاق الألفاظ الوضيعة التي تليق بالجسد، بإلوهية **الكلمة**، فماذا يقولون عندما يرون المسيح يصنع عجائب بواسطة الجسد؟ لقد صنع هذه العجائب بواسطة الجسد حقاً، حين تفل وصنع طيناً وشفى الأعمى. وعندما أعاد اليد اليابسة صحيحةً وشفاها، وجعل الأصم يسمع، وأقام ابن الأرملة. كذلك نادى بفمه ودعا لعازر خارجاً من القبر. هذه العجائب صارت بواسطة الجسد بالتأكيد، لكن هذه الأعمال ليست هي أعمال الجسد، بل إذا نظرنا لطبيعة الأمور لرأينا أن هذه الأعمال صارت بقوة الإلوهية، حتى وإن كانت قد صارت بواسطة الجسد. هكذا أيضاً عندما يقول شيئاً إنسانياً بسبب الجسد الذي له، علينا ألاّ ننسب هذا القول إلى الله **الكلمة**، فإذا رأينا أنه غريبٌ عن الإلوهة، فعلينا أن ننسبه إلى الجسد. وهكذا نضع كل قول قاله المسيح في مكانه، فيكون لدينا معرفة غير مضلة عن مخلّصنا.

١٣- ردٌ آخر

تكرز الكتب المقدسة بمسيح واحد؛ لأنه يقول: "لَنَا إِلهٌ وَاحِدٌ: الآبُ الَّذِي مِنْهُ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ، وَنَحْنُ لَهُ. وَرَبٌّ وَاحِدٌ: يَسُوعُ الْمَسِيحُ، الَّذِي بِهِ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ، وَنَحْنُ بِهِ" (١ كو ٨: ٦). لا شك أن الله يُعرف من الأعمال التي تتناسب معه. لكن لأن **الكلمة** صار جسداً، كما هو مكتوب (انظر يو ١: ١٤)، يجب أن يظهر أيضاً على أنه إنسان، و لم يكن من الممكن أن يظهر كإنسان، إلاّ فقط بالخصائص البشرية والأقوال التي تتناسب مع الجسد، لذا كان من الحتمي أن يفعل ويقول أقوالاً تتناسب مع البشر، وبذلك نستطيع أن نرى الأقوال والأفعال معاً في آنٍ واحد. فقد سأل أين دُفِن لعازر بطريقة بشرية، لكنه أقامه بكونه إلهاً. وعندما قالت له أمه: "ليس لهم خمر" (يو ٢: ٣). ردَّ عليها كإنسان: "ما لي ولكِ يا امرأة"، لكن للتو حوَّل الماءَ إلى خمرٍ. لأنه كان إلهاً حقيقياً في الجسد، جسداً حقيقياً متحداً بالله.

إذن، فتلك الأفعال التي كان يجب أن تُعرفنا بأنه الله، قد فعلها بطريقة تتناسب مع الله، وتلك التي كان من الضروري أن تُظهِره إنساناً حقيقياً، هذه فعلها وقالها خادماً الحق

بسر التدبير. إذن دعونا ننسب لله تلك الأفعال التي تنتمي للطبيعة الإلهية، وهذه التي تتناسب مع الطبيعة البشرية ننسبها لها، وهكذا يكون كل مَنْ يؤمن بالمسيح بعيداً عن أي عثرة أو ضلال[1].

١٤- ردٌ من جانب الهراطقة

يقول: "كل شيء قد دُفِع إليَّ من أبي"، لكن مَنْ يأخذ من آخر، من الواضح أنه لا يأخذ شيئاً مِلكه، فكيف يكون من جهة الجوهر واحداً مع الله الآب مَنْ لا يملك كل شيء؟

١٥- ردٌ يُظهر أن هذا الرأي عبثٌ

لو كان الابن قد أخذ كل شيء، طالما أن الآب أعطاه كل شيء، ولم يكن الابن يملك شيئاً خاصاً به، فإن ذلك يعني أن الآب ليس له شيءٌ لأجل ذاته. عندئذٍ يكون هذا الكلام محضُ عبثٍ وسُخفٍ؛ لأنه كيف يمكن أن يتعرَّى الآب من هذه الأشياء التي يملكها بحسب الطبيعة، حتى لو كان قد أعطاها للابن؟

وعندما يقول الابن إنه أخذها، فهذا لا يعني أنه كانت توجد لحظة زمنية كان فيها الابن محروماً من هذه الأشياء؛ لأنه أخذها من جهة هيئته البشرية، لكنها كانت مِلكاً له بحسب الطبيعة مثل الآب تماماً.

---

(1) يشرح القديس كيرلس هذا الأمر في رسائله إلى نسطور، قائلاً: "نحن نعرف أن اللاهوتيين ينسبون بعض أقوال البشيرين والرسل عن الرب باعتبارهما تشير بصفة عامة إلى شخص واحد، ويقسمون أقوالاً أخرى بأنها تشير إلى طبيعتين (لاهوته وناسوته)، فتلك التي تليق بالله ينسبونها إلى لاهوت المسيح، أما تلك الأقوال المتواضعة فينسبونها إلى ناسوته". رسائل القديس كيرلس إلى نسطور ويوحنا الأنطاكي، ترجمة د. موريس تاوضروس ود. نصحي عبد الشهيد، إصدار مركز دراسات الآباء يوليو ١٩٨٨، ص ٤٣ - ٤٤.

١٦- ردٌّ آخر

يقول المسيح: "لأَنَّ الآبَ يُحِبُّ الابْنَ ... وَأَعْطَاهُ سُلْطَاناً أَنْ يَدِينَ أَيْضاً، لأَنَّهُ ابْنُ الإِنْسَانِ" (يو ٥: ٢٠ - ٢٧). إذن، فهو يأخذ سلطاناً أن يدين، ليس لأي سبب آخر، إلاَّ فقط؛ لأنه ابن الإنسان، فالسلطان لا يأخذه الابن، لأنه هو **كلمة** الله، بل لأنه صار إنساناً.

إذن، مسألة أخذ السلطان هذه، مسألة تخص الطبيعة البشرية. أمَّا كون أن الابن يمتلك كل شيء بحسب الطبيعة، فيرجع لذاك الذي ولده؛ لأنه بهذا فقط، يكون صورةً منقطة النظير للآب.

المقالة الرابعة والعشرون

ما ذكره الإنجيليون عن المخلّص (حسب طبيعته البشرية):

- "بَكَى يَسُوعُ" (يو ١١: ٣٥).

- "اَلآنَ نَفْسِي قَدِ اضْطَرَبَتْ" (يو ١٢: ٢٧).

- "نَفْسِي حَزِينَةٌ جداً حَتَّى الْمَوْتِ" (مت ٢٦: ٣٨).

- "إِنْ أَمْكَنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسُ" (مت ٢٦: ٣٩).

١- وكل الشواهد الشبيهة، مع عرض للشواهد التي تغيِّر المفهوم الخاطئ لمحاربي المسيح.

إن كُنا نؤمن أن إنساناً عادياً هو الذي قال مثل هذه الأقوال، فلندعه إذن يبكي ويخاف ويضطرب أمام الموت، ولندعه يحزن ويستولي عليه الاضطراب، فليتحمل هذا الإنسان كل ما تتحمله الطبيعة البشرية.

لكن إذا كان مَن قال هذا الكلام هو مَن كان الله الذي صار إنساناً وليس أحداً آخر، فمِن أي شيءٍ يخاف الله، إذا كان قد قال حقاً: "أنا هو الحياة" (يو ١٤: ٦)؟. ولأيُ سبب تخاف الحياةُ الموتَ؟ وإذا كان قد خَلَّصَ آخرين من الموت، فكيف يخاف هو نفسه من الموت؟ ومَنْ قال لتلاميذه: "لاَ تَخَافُوا مِنَ الّذِينَ يَقْتُلُونَ الْجَسَدَ وَلكِنِّ النَّفْسَ لاَ يَقْدِرُونَ أَنْ يَقْتُلُوهَا" (مت ١٠: ٢٨)، كيف يمكن أن يخاف اجتياز الموت في اللحظة التي يشجِّع فيها إبرآم قائلاً: "لا تخف يا إبرآم" (تك ١٥: ١). ومَنْ جعل موسى غير مرتعب أمام فرعون، وقال ليشوع بن نون: "تشدد وتشجع" (يشوع ١: ٦). كيف يكون جباناً ويخاف

من البشر وهو الذي نَصَحَ الآخرين بأن لا يخافوا، بل أقنعهم أن يصرخوا: "الرب لي فلا أخاف ماذا يصنع بي الإنسان" (مز ١١٨: ٦)؟. وكيف لِمَن أتى لكي يُميت الموت، أن يخاف هو نفسه؟ إن هذا ضد ما قد أتى لأجله. كيف لا يكون تجديفاً أن تقولوا إنه خاف من الهاوية، وهو الذي لمجرّد أن رأوه حُراس الأبواب، ارتعبوا من الخوف، وعندما فتحوا الأبواب التي لا أحد يستطيع أن يهرب منها، تركوا الأرواح حُرةً، تلك الأرواح التي كانت محبوسةً هناك في الداخل، والنتيجة أن كثيرين قاموا من القديسين ودخلوا المدينة، كما هو مكتوب، وظهروا لكثيرين (انظر مت ٢٧: ٥٢ - ٥٣)؟

كيف خاف الموت ذاك الذي قال لأولئك الذين فتشوا عنه وذهبوا ليقبضوا عليه: "أنا هو" (يو ١٨: ٦)؟ كيف خاف الموت ذاك الذي قال: "لي سلطانٌ أن أضعها ولي سلطان أن آخذها أيضاً" (يو ١٠: ١٨)، وأيضاً: "ليس أحد يأخذها مني بل أضعها أنا من ذاتي" (يو ١٠: ١٨)؟

بالتالي لم يكن **كلمة** الله هو مَنْ خاف من الموت، بل كان العنصر البشري (الجسد)[1] الذي اتخذه، والذي من طبيعته أن يعاني من هذا الخوف.

٢- ردٌ آخر

من الضروري لهؤلاء الذين يريدون أن يفهموا فهماً صحيحاً هذه الأقوال التي كُتبت في الكتب المقدسة عن مخلّصنا يسوع المسيح، أن يحددوا الوقت والأزمنة التي فيها قال هذه الأقوال عن ذاته، أو ذكرتها عنه الكتب المقدسة.

فإذا لم يكن قد ظهر أبداً أنه بكى أو خاف من الموت أو احتمل شيئاً من الأمور البشرية قبل أن يأخذ **كلمة** الله جسداً، وقيلت عليه هذه الأقوال قبل تجسده فلتسرِ إذن عليه. لكن إذا كانت الكتب المقدسة تتحدث عن هذه الأمور عندما صار إنسانا، فلماذا لا نقول إن هذه الأمور قيلت إنسانياً، حتى نهرب أيضاً من شر التجديف؟

---

(١) بحسب تعبير القديس أثناسيوس: "هذه الانفعالات لم تكن من خصائص طبيعة **الكلمة**؛ بكونه **الكلمة**، بل كانت من خصائص الجسد الذي اتخذه **الكلمة**". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثالثة، فقرة ٥٥، ص ١٠٠.

٣- اعتراضٌ من اعتراضات الهراطقة

هذا الذي بكى، وأيضاً خاف وصار حزيناً، كيف يمكن أن يكون هو الله بحسب الطبيعة؛ لأن كل هذه هي صفات بشرية؟

٤- ردٌ على هذا الاعتراض

هذا الذي أقام لعازر من الأموات (انظر يو ١١: ١ - ٤٤)، وحوَّل الماء خمراً (يو ٢: ١ - ١١)، ومنح البصر إلى الأعمى منذ ولادته (يو ٩: ١ - ٣٨)، وقال: "أنا والآب واحد" (يو ١٠: ٣٠)، كيف لا يكون هو الله بحسب الطبيعة؟ لأن هذه الأفعال التي فعلها هي من أعمال الإلوهية. إذن، فإن كانت هذه الأقوال التي قيلت، أو صارت بطريقة إنسانية قد أعثرتكم، فلأي سبب لم تستفيدوا من تلك التي صنعها وقالها بطريقة تتناسب مع الله[1]؟

لقد أوصَلَتكم الأقوال التي قيلت بطريقة إنسانية إلى التفكير في أشياء وضيعة عن ابن الله، فلماذا لم تقُدكم الأقوال والأفعال التي تليق به كإله إلى التفكير في الأمور العظيمة والسامية؟ فالذي عاني من تلك الأمور الوضيعة، هو ذاته مَنْ قال وصنع هذه الأمور العظيمة بطريقة سامية بكونه إلهاً[2]. من هذا يتضح أن التأنُّس وتدبير ظهوره الجسدي، كان هو المبرر الحتمي لكي تصير أيضاً الأمور البشرية.

---

(١) نفس الحُجة سبق أن أوردها القديس أثناسيوس، قائلاً: "لأنه لم يقل كل هذا قَبْل التجسّد، ولكن حينما "صار **الكلمة** جسداً" وصار إنساناً، حينئذٍ كُتب عنه أنه قال هذا، أي قاله إنسانياً. فالذي كُتِبَ عنه هذا، هو الذي أقام لعازر من الأموات، وحوّل الماء خمراً، ووهب النظر للمولود أعمى، والذي قال "أنا والآب واحد" (يو ١٠: ٣). إذاً فإن كانوا يجعلون صفاته الإنسانية سبباً ليفكّروا أفكاراً حقيرة عن ابن الله، ويعتبرونه بالكامل إنساناً من الأرض، وليس من السماء، فلماذا لا يعترفون بأنه هو الكلمة الكائن في الآب، من خلال أعماله. ومن ثم يتخلّون عن كفرهم؟". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثالثة، فقرة ٥٥، ص ١٠٠ - ١٠١.

(٢) التأكيد هنا على أن الابن بكونه إلهاً هو فوق الحزن والألم، فالطبيعة الإلهية تسمو فوق هذه الأمور البشرية، وهذا ما أكده القديس كيرلس حين تحدث عن يعقوب البطريرك الذي يشير إلى عمانوئيل، إذ يقول: "إن شخص يعقوب يشير روحياً أحياناً إلى الرسل القديسين، إذ صار بداية لأولئك الذين تقدَّسوا بالروح وتبرروا بالإيمان، وأحياناً يشير إلى المسيح كبداية للبشرية التي تجددت ونالت عدم الفساد، أي كبكر بين إخوة كثيرين (انظر رو ٨: ٢٨)، وكآدم ثانٍ وجذر ثانٍ للجنس البشري. إذاً رؤيتنا الروحية يجب أن تتجه إليه لأن الابتعاد عن هذا المسار يجعل تفسيراتنا الروحية عقيمة وبلا نعمة. إذاً فيعقوب يشير إلى عمانوئيل العريس السماوي الذي أخذ ابنتي لابان

٥- ردٌ آخر

فليفحصوا تدبير حضوره الجسدي، وطريقة تأنُّسه، عندئذٍ يتوقفون عن أن يُعثِروا بعض السامعين لهذه الأقوال التي تقولها الكتب المقدسة عن المخلّص بلغةٍ بشريةٍ.

فالكلمة الذي صار إنساناً كان يظهر بوضوح أنه لَبِس جسداً حقاً وصار إنساناً، دون أن يتوقف عن أن يكون **الكلمة** الله (لأنه لم يكن من الممكن أن يخلّص الجنس البشري بأية طريقة أخرى). لكن حتى لا يظن أحدٌ وهو يسمع بأنه صار إنساناً، وأن **كلمة** الله غير المتغير تحوَّل، وصار شيئاً آخراً عن الذي كان عليه من البداية، علينا أن نلاحظ أنه في بعض الأحيان يتحدث بطريقة تتناسب مع الإنسان، وأحياناً أخرى أيضاً يُظهِر أموراً ترجع فقط إلى الإلوهية، وذلك حتى تُفهم الحالتين.

إذن، فلأنه كان يجب أن يُظهِر بوضوح أنه إنسانٌ حقيقيٌ، وليس خيالاً، شرع في أن يُظهِر هذا الأمر بهذه الطريقة الإنسانية. هكذا، بالرغم من أنه بكونه الله هو غير متألم، إلاَّ أنه سَمَحَ لجسده وطبيعته البشرية أن تخضع لهذه الأوجاع البشرية التي هي إحدى خواص هذه الطبيعة؛ لكي يبرهن على أنه لَبِسَ جسداً وصار إنساناً بالحقيقة بحسب الكتب المقدسة (انظر يو ١: ١٤).

ولكن ليس بدون تعب. إن الصفة الخاصة (بالله) الذي هو أعظم من كل الطبائع هي أنه يستطيع أن ينجز ما يريده بدون تعب. وإشعياء الطوباوي قال "أما عرفت أم لم تسمع. إله الدهر الرب خالق أطراف الأرض لا يكل ولا يعيا. ليس عن فهمه فحص" (إش ٤٠:٢٨). الله ليس في احتياج لشيء بل هو كلّي الكمال وهو لا يحتاج لشيء من الخارج يعضده ويقويه، كما أنه لا يخضع لناموس الأجساد التي تتقوى بالأغذية والمشروبات بل أنه هو القوي بطبيعته. لذلك هو يثّبت السموات ويعطي القوة للذين يختارهم. وبالرغم من أنه لا يحزن بطبيعته، رغم أنه قيل عنه أنه حزن لأنه قال مرةً لأم اليهود أي المجمع "أحزنتني في كل هذا" (حز ١٦:٤٣س)، وقال بولس الرسول أيضاً "ولا تحزنوا روح الله القدوس الذي به ختمتم ليوم الفداء" (أف ٤:٣٠)، هكذا أيضاً عندما يُقال إنه تعب، فليس ذلك لأنه شعر بالألم والتعب. أما أي إنسان منا فإنه عندما ينجز أشياء عظيمة باجتهاد وتعب، فمن الطبيعي أن يعاني من آلام رهيبة وشديدة. أما الطبيعة الإلهية غير المعرضة للتألم فهي ليست مثل طبيعتنا، بل هي أسمى من كل الخليقة وهى مكتفية بذاتها وهى تستند على جلالها، لذلك ونحن نفسر هذه الأحداث وننتقل من الأمور البشرية إلى المفاهيم الروحية السامية، فلا ينبغي أن نظن أن الطبيعة الإلهية هي مثل الطبيعة البشرية تتعرض للتعب والمشقة مثل طبيعة يعقوب، بل هي متحررة من أي تعب". جيلافيرا، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، الكتاب الشهري، عدد مايو ٢٠٠٦.

لكن، كما رأينا بالفعل، كان عليه - عندما صار إنساناً - أن يُظهر أيضاً أنه إلهٌ، لذلك صنع أحياناً أفعالاً تليق به كإله، وقال لأولئك الذين يرونه: "أن لم تؤمنوا بي"؛ لأنهم رأوه كإنسان، عندئذٍ: "فآمنوا بالأعمال لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيَّ وأنا فيه" (يو ١٠: ٣٨). وعلى ذلك فتلك الأقوال التي قيلت وصارت بطريقة تتوافق معه بكونه إلهاً، فهذه تُظهِر المخلص على أنه الله، بينما تلك التي قيلت وصارت بطريقة إنسانية، فتُظهِره إنساناً بالحقيقة. لأن هذا هو المفهوم العميق للسر[1].

٦- ردٌ آخر

يُظهر أعداء المسيح من كل جهةٍ أنهم يتصرّفون بوقاحة، وأن هدفهم الوحيد هو أن يهينوا ابن الله دون سببٍ. لأنهم بينما يسمعونه يقول: "أنا والآب واحد" (يو ١٠: ٣٠)، فإنهم لا يؤمنون، ودون تبصّرٍ يشرعون في إعطاء ما قيل عنه كإنسان أهمية كبيرة، فلا يؤمنون بأن الابن هو واحد مع الآب، ولا يكتفون بذلك، بل تجدهم أيضاً يشرعون في نزع المفهوم الحقيقي عما قيل حسناً وباستقامة.

كذلك أيضاً، فهم لا ينسبون كل ما يوجد في الأناجيل مما يُظهر أنه عانى أو قاله كإنسان، مثل أنه بكى أو حزن وكل ما شابه هذه الأقوال، إلى طبيعته البشرية، بل ينسبونها مباشرةً **للكلمة** قبل تجسده، ويستخدمونها كبرهان على أنه ليس هو الله الذي احتمل كل هذا، ونتيجة ذلك حُسِب أنه من ضمن الخليقة، في حين أنه هو خالقها.

إذن. فإمَّا أن تنسب هذه الأقوال للابن باعتباره واحداً مع الآب، عندئذٍ لا تجد أن **الكلمة** ذاته المساوي للآب يبكي أو يحزن أو يستولي عليه الخوف[2]. أو عليك أن لا

---

(1) لكن أعداء المسيح لديهم وقاحة كبيرة وتجديف عظيم كما قال القديس أثناسيوس: "لأنه قد أُعطى لهم أن يروا كيف أن الذي يعمل هذه الأعمال هو نفسه الذي أظهر جسده متألماً بسماحه له بالبكاء والجوع، وأن يُظهر الخواص الأخرى للجسد. لأنه بينما بواسطة مثل هذه (الخواص) عُرِف أنه قد أخذ جسداً متألماً رغم أنه هو الله غير المتألّم، إلاّ أنه من هذه الأعمال أظهر نفسه أنه بالفعل هو **كلمة** الله الذي صار فيما بعد إنساناً وكأنه يقول "رغم أنكم لا تؤمنون بي حيث ترونني مرتدياً جسداً بشرياً، فآمنوا بالأعمال" لكي تعرفوا أني أنا في الآب، والآب فيَّ" (يو ١٠:٣٨) ". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثالثة، فقرة ٥٥، ص ١٠١.

(2) **الكلمة** بكونه هو الله – كما قلنا – غير قابل للألم والبكاء والحزن والخوف، لكن بكونه إنساناً اجتاز كل هذه الأوجاع.

تصدِّقه عندما يقول إنه واحد مع الآب، عندئذٍ لن تؤمن به أيضاً عندما يقول إنه حزن، وهكذا تضع نفسك مع اليهود غير المؤمنين[1]، طالما إنك لم تقبل شيئاً مما قاله المخلّص.

٧- ردٌ آخر

يقول بولس عن ابن الله "الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً للهِ. لكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذاً صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِراً فِي شِبْهِ النَّاسِ" (فيلبي ٢: ٦ – ٧). إذن صار **كلمة** الله إنساناً. لم يأتِ ويحل في إنسان، مثلما حدث مع الأنبياء، لكن صار حقاً إلي ما نحن عليه، فيما عدا فقط الخطية.

إذن فهو الله، طالما هو **كلمة** الآب ورسم جوهر الآب الخاص، لكنه أيضاً إنسان، طالما أخذ جسداً، كما هو مكتوب، ولَبِس جسدنا[2]. إذن ونحن آخذين في اعتبارنا قانون الإيمان بالمسيح مخلّصنا، ليتك تُميِّز الأقوال التي قيلت عنه، بالطريقة التي تليق به في كل حالة، وعندما تسمع: "أنا والآب واحد" (يو ١٠: ٣٠)، ليتك تري إلوهية الابن والآب الواحدة، وأن الابن هو الله الذي أتى من جوهر الآب. وإن سمعت أيضاً عنه أنه بكى

(1) سبق للقديس أثناسيوس أن وصف مَنْ ينكر إلوهية الابن بأنه هو مثل اليهود، ويعلل هذا الأمر، قائلاً: "لأنه كما أن اليهود جدّفوا ناسبين أعمال الله إلى بعلزبول، هكذا هؤلاء أيضاً، إذ يحصون الرب الذي صنع تلك الأعمال، مع الخلائق، سوف يقع عليهم مع أولئك (اليهود) نفس الحكم بلا رحمة". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثالثة، فقرة ٥٥ ص ١٠١.

(2) يؤكد القديس كيرلس – في سياق حديثة عن بركة يعقوب ليوسف (تك ٤٩ :٢٢) – عن كون الابن إلهاً ثم تنازل وأخلى ذاته ولَبِسَ جسداً و لم يأخذ من الله شيئاً لم يكن موجوداً فيه من قبل – إذ يقول: "تتحدث هذه النبوة عن عمانوئيل. وقد أشير إليه قبلاً بالقول "يُعطي أقوالاً حسنة" (تك ٤٩ :١). لقد قيل إن يوسف عظَّم عطاياه والمجد الذي له أتى إليه بطريقة طبيعية، وهذا يعني بوضوح الأمر الذي أدركناه جيداً. أقصد، **كلمة الله** وحيد الجنس الذي هو إله مولود من إله، وهو الذي وضع ذاته، حسب الكتب المقدسة (انظر فيلبي ٢: ٧)، متنازلاً بإرادته إلى المستوى الذي لم يكن عليه، ولبس هذا الجسد المحتقر وأخذ شكل العبد وصار مطيعاً لله أبيه حتى الموت (انظر فيلبي ٢: ٨)، لأجل هذا قيل إنه رُفِعَ – إذ أن تأنسه ليس لأجل ذاته – آخذاً "اسماً فوق كل اسم" كما قال بولس الطوباوي (انظر فيلبي ٢: ١٩). هنا، في الواقع، نتحدث ليس عن أنه مُنِحَ شيئاً لم يكن موجوداً فيه من قبل بحسب الطبيعة، بل بالحري فإن الكلام هنا هو عن رجوعه إلى حالته التي كان عليها منذ البداية و لم تكن أساساً قد نزعت منه". جيلافيرا، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، الكتاب الشهري، عدد مارس ٢٠٠٩.

وحزن وخاف وابتدأ يصارع، فعليك أن تفكر في أنه هو أيضاً إنسان بالإضافة إلى أنه الله، وتنسب إلى الطبيعة البشرّية كل ما يُذكر بخصوصها. لأنه، بما أنه أخذ جسداً قابلاً للموت، خاضعاً لهذه الأوجاع، فقد صار هذا الجسد بالضرورة خاصاً به وأيضاً ما يلازمه من أوجاع، وإذا كان الجسد قد احتمل كل هذا، يقال إنه هو نفسه قد احتملها. لذلك يقال أيضاً إنه صُلب ومات، وعانى هذه الأوجاع البشرية، لكن ليس **الكلمة** نفسه بكونه إلهاً هو من عانى هذه الأوجاع؛ لأنه هو غير متألم وغير مائت.

إذن، علينا أن ندرك باستقامةٍ كل ما قيل ناسبين للإلوهية كل ما يتناسب مع الله، وننسب إلى الجسد كل ما قيل عنه ومذكور عليه، مدركين هذا بالذهن الداخلي الذي يعبِّر عن ذلك بلغةٍ صامتةٍ في عمق النفس[1].

٨- ردٌ آخر

لقد صار **كلمة** الله إنساناً، ليس لأي سبب، لكن لكي يأخذ لنفسه كل ما لنا من ضعفاتنا حتى تتقوى الطبيعة البشرية ويُعطيها ثباتاً مثل طبيعته. إذن عندما يظهر أنه يخاف من الموت ويقول: "إن شئت أن تعبر عني هذا الكأس" (مت ٢٦: ٣٩)، عليك أن تفكر أيضاً بأن ذاك الذي خاف كان الجسد الذي اتخذه **الكلمة**، **الكلمة** الذي علّم بأنه لا يعاني هذا الأمر بكونه إلهاً. لأنه قال للآب: "لتكن لا مشيئتي بل مشيئتك" (مت ٢٦: ٣٩). لأنه لا يخَاف الموت لأنه هو **الكلمة** الله، بل استعجل أن يقدِّم الخطة الخلاصية إلى أبعد من رغبة الجسد. لأن هذه كانت مشيئة الآب. أيضاً أقواله تُظهِر أنه لم يأتِ لكي يموت، لأن الجسد - بطبيعته - يتجنَّب الموت. إذن هو يعلِّم البشرية أن لا ترتئي إلى ما هو أبعد من رغبة الجسد، وأن تطلب إرادة الله، لذا يقول كإنسان: "لتكن لا مشيئتي بل مشيئتك". لذلك، على الجانب الآخر ي أضاف: "أمَّا الروح فنشيط وأمَّا الجسد فضعيف" (مت ٢٦: ٤١).

([1]) يكرر القديس كيرلس هذا الشرح – فيما بعد- في رسائله إلى نسطور، قائلاً: "نقول أنه أيضاً تألم وقام، ليس أن **كلمة** الله تألم في طبيعته الخاصة أو ضُرِبَ أو طُعِنَ أو قَبِلَ الجروح الأخرى، لأن الإلهي غير قابل للتألم حيث أنه غير جسمي. لكن حيث أن جسده الخاص، الذي وُلِد عانى هذه الأمور، فإنه يقال أنه هو نفسه أيضاً قد عانى هذه الأمور لأجلنا" رسائل القديس كيرلس إلى نسطور ويوحنا الأنطاكي، المرجع السابق، رسالة ٢ فقرة ٥ ص ١٠.

٩- ردٌ آخر

فإذا كُنا نرى أن القديسين يحتقرون الموت حتى أنهم يؤمنون بأنهم ينتقلون بالحري إلى الحياة حين تدعوهم الظروف إلى اجتياز الآلام، وهم حقاً رجالٌ شجعان؛ لأن المسيح يسكن في إنسانهم الداخلي، كما هو مكتوب (انظر أفسس ٣: ١٦)، فكيف يعلّم الآخرين أن يحتقروا الموت وفي الوقت نفسه هو يخافه؟ وكيف نُعجب بشجاعة أولئك الذين جَعلوا من أنفسهم مسكناً **للكلمة**[1]، في حين نعتقد أن **الكلمة** نفسه ضعيف جداً وغير شجاع للدرجة التي يستولي فيها عليه الخوف والضعف؟

١٠- ردٌ آخر

لقد أبطل المخلّص الموتَ بموته (انظر ٢ تيمو ١: ١٠). وإذا كان الموت لا يبطُل إن لم يمت، هكذا أيضاً إن لم يخَف مع أي ألمٍ للجسد لَمَا تحرَّرت الطبيعة البشرية من الخوف، كذلك إن لم يحزن لَمَا تحرَّرت أبداً من الحزن، وأيضاً إن لم يضطرب لَمَا تخلّصت الطبيعة البشرية من مثل هذه الأمور[2]. ولكل أمر من هذه الأمور البشرَّية ينبغي أن نطبق نفس المنطق، ولهذا نجد أن كل أوجاع الجسد التي عاناها المسيح، لم تُعلَن لكي تصير

(1) الابن مع الآب والروح القدس يسكنون في المؤمنين الذين نالوا الختان الروحي، وهذا يشرحه القديس كيرلس في موضع آخر بكل وضوح، إذ يقول: [إن ختان الجسد هو مِثالٌ واضحٌ جداً للختان الذهني والروحي، الذي بمقتضاه ينزع المسيحُ كل دنسٍ من أذهاننا؛ فهذا يتفق مع ما قاله بولس الطوباوي (كو ٢: ١١). أننا طالما خلعنا الإنسان القديم الذي يفسد من شهوات الباطل، واللذات الجسدية، **فبسكنى الروح وفعله، نُظهر ذواتنا جديرة بأن ترى الله، ونصير مسكناً مقدساً للثالوث القدوس والمساوي**. كما قال المخلص أيضاً: "إِنْ أَحَبَّنِي أَحَدٌ يَحْفَظْ كلاَمِي وَيُحِبُّهُ أَبِي وَإِلَيْهِ نَأْتِي وَعِنْدَهُ نَصْنَعُ مَنْزِلاً" (يو ١٤: ٢٣)]. السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء السابع، المرجع السابق، المقالة الخامسة عشر ص ١٥٥.

(2) يشرح القديس أثناسيوس هذا الأمر بكل وضوح في موضع آخر، قائلاً: "لأن خصائص الجسد لا يمكن أن تصير لِمَن هو بلا جسد لو لم يكن قد أخذ جسداً قابلاً للفساد والموت. لأن مريم القديسة التي أخذ منها جسده كانت قابلة للموت، لذلك فمن الضروري حينما كان في الجسد أن يعاني، وأن يبكي، وأن يتعب، فهذه الأمور التي تخص الجسد، تُنسب إليه مع الجسد. ومن ثم فعندما يقال: بكى، واضطرب، لم يكن **الكلمة** باعتباره الكلمة هو الذي بكى واضطرب، لكن هذه كانت من خصائص الجسد. وأيضاً عندما طلب أن تعبر عنه الكأس، فلم يكن اللاهوت هو الذي ارتعد، بل إن هذا الانفعال أيضاً كان خاصاً بناسوته". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثالثة، فقرة ٥٦ ص ١٠٢.

مسيطرة عليه، مثلما يحدث معنا، بل تُعلَن لتُبطَل بقوة **الكلمة** الذي يسكن في هيكل جسده، وهكذا تتغيَّر الطبيعة البشرية نحو الأفضل.

١١- تفسير آية: "إلهي إلهي" (مت ٢٧: ٤٦)

نحن نفتخر بصليب مخلّصنا المسيح، ونؤمن أننا خَلُصنا؛ لأن **كلمة** الله صار إنساناً لأجلنا وصُلِب لأجلنا، لكي يُبطِل الموت الذي يسري علينا[١]، ولكي يُقيمنا أيضاً بذاته محوِّلاً إيانا من حالة الفساد إلى حالة عدم الفساد[٢].

---

(١) يؤكد دائماً القديس كيرلس – أثناء حديثة عن معجزة تحويل ماء النهر إلى دم بيد موسى - على ما سبق وأكده الرسول بولس بأن موت المسيح هو ربح، إذ يقول: "يقول: "وَيَكُونُ إِذَا لَمْ يُصَدِّقُوا هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ، وَلَمْ يَسْمَعُوا لِقَوْلِكَ، أَنَّكَ تَأْخُذُ مِنْ مَاءِ النَّهْرِ وَتَسْكُبُ عَلَى الْيَابِسَةِ، فَيَصِيرُ الْمَاءُ الَّذِي تَأْخُذُهُ مِنَ النَّهْرِ دَماً عَلَى الْيَابِسَةِ" (خر ٤:٩). الماء هو رمزٌ للحياة، لأنه هو عملياً ضروري ومفيد جداً للبشر. إذن، الابن حقاً هو ذاته الحياة، أتى عملياً كأنه مِن نهر، أي مِن الآب. لأنه كما هو نور أتى من نور ، هكذا هو أيضاً حياة من حياة. كون أنه لم يأخذ وجوده من الخارج، بل أتى بحسب الطبيعة من الله الآب، هذا تعلّمه موسى وليس أقل أبداً مما نعمله نحن. لأنه يقول: "إنك تأخذ من ماء النهر" ثم أمره أن يسكب على الأرض. هذا رمزياً يعني سر التأنس. أي حقاً وحيد الجنس هو الحياة، ومولود من الله الآب الذي هو الحياة اتحد بطريقة ما بالبشرية التي أتت من التراب بالضبط مثل إتحاد الماء بالتراب: "فإنه فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً" (كو ٢:٩)، وصار مثل الطبيعة البشرية، هكذا لا يستطيع أحد أن يدرك هذا الأمر بذهنه أو يعبر عنه. لكن الماء تحول إلى دم. بمعني أن الحياة بحسب الطبيعة، **كلمة** الله الآب بالإتحاد الذي تم بحسب التدبير، أقصد إتحاده بالجسد أي بكل البشرية وبكل طبيعتنا، تحمّل الموت بالجسد. بمعني أننا نقول إنه مات لأجلنا بدون أن تعاني طبيعته (الإلهية) لأنه لم يكن من الممكن أن يموت طالما أنه الحياة ذاتها بل مات بجسده". جيلافيرا، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، الكتاب الشهري، عدد أغسطس ٢٠١٠.

(٢) أثناء حديثة عن التابوت يؤكد القديس كيرلس على أن جسد المسيح بسكنى **الكلمة** فيه ارتفع فوق الفساد، إذ يقول: [التابوت، يا بلاديوس، يمكن أن يكون مثالاً وأيقونةً للمسيح. لأنه في تفسيرنا لطريقة تأنس الوحيد الجنس روحياً، سوف نرى أن اللوغوس ساكن في هيكل العذراء كما لو كان داخل التابوت. لأنه وفق الكتب المقدسة "فإنه يحل فيه كل ملء اللاهوت جسدياً" (كو ٢:٩). إذن، اللوغوس - بالتأكيد - هو ما يشير إليه لوحا الشهادة بالتابوت. والخشب أيضا كان من النوع الذي لا يصاب بالفساد، وكان مغطىً بذهب نقي وخالص من الداخل والخارج. لأن جسد المسيح غير فاسد محفوظٌ في عدم الفساد بقوة وبهاء اللوغوس الذي يسكن داخله بطبيعته والفعل المحيي للروح القدس. لأجل هذا بالتأكيد يُقال أن المسيح يُحيي. فلأن اللوغوس – باعتباره كلمة الله الآب – حي بحسب طبيعته، فإنه بقوة الروح يُعيد إحياء هيكله جاعلا إياه أسمى من الفساد. لأن "جسده لم يرَ فساداً" وفقاً لكلام بطرس القديس (أع ٢:٣١)]. السجود والعبادة بالروح والحق، ج: ٥، المقالة التاسعة ص ٦٥.

لذلك كان ينبغي عليه أيضاً أن يبرهن – وقت الألم – على أنه صار حقاً إنساناً، وليس بحسب الخيال، ولأجل هذا السبب بالضبط، صرخ وتحدث بما يتناسب مع إنسان، وقال: "إلهي إلهي لماذا تركتني" (مت ٢٧: ٤٦)، "فلتعبر عني هذا الكأس" (مت ٢٦: ٣٩). بينما بأعماله برهن على أنه هو الله، هذا الذي لأجلنا صار إنساناً، واحتمل هذه الأمور البشرية على الصليب لأجل خلاصنا جميعاً. لأن الشمس أخفت شعاعها ولفَّ الظلامُ السماءَ، وانشقت الصخور وحجاب الهيكل. وصنع أموراً أخرى عظيمة مثل هذه لكي يبرهن أنه هو الله الذي صار إنساناً. لذلك أيضاً، فإن صالبيه، الذين كانوا يستهزئون به من قبل، وهم يرون كل ما صار بطريقة إلهية، قالوا: "حقاً كان هذا هو ابن الله" (مت ٢٦: ٢٤).

١٢- ردٌ آخر

كلمة الله صار إنساناً، لا لكي يتصرَّف ويتحدَّث مثلما كان قبل تأنُّسه كإله، لكن لكي يقول ويتصرَّف كإنسان بالشكل الذي يتناسب مع احتياجات خطة التدبير الإلهي. فإذا كان هذا هو مفهوم سرَّ التأنُّس، فكيف يُعقل أن يَعثُر فيه كل الذين يسمعونه يتحدَّث بشرَّياً؟ لأنه يتحدَّث كإنسان، بل ويتحدَّث أيضاً كإله آخذاً سلطة الاثنين معاً. فكإنسان قال: "الآن نفسي قد اضطربت"، بينما كإله: "ليس أحد يأخذها مني، بل أضعها أنا من ذاتي. لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن أخذها أيضاً" (يو ١٠: ١٨).

الاضطراب إذن هو من ضمن أوجاع الجسد الخاصة، بينما السلطان الذي له ليقدِّم حياته ذبيحةً، وأيضاً ليأخذها، هو من عمل قوة **الكلمة**. فإذا كنا لا نعثر عندما يقول شيئاً بكونه إلهاً، بالرغم من أنه يبدو كإنسان، بل أيضاً نقصد **الكلمة** الذي اتخذ جسداً. هكذا الأمر عندما يقول شيئاً كإنسان، علينا أن لا نعثر متفكرين في أنه لأجلنا صار إنساناً، ولذلك يقول هذه الأقوال التي تتناسب مع الطبيعة البشرية[1].

---

(1) لقد أراد الابن أن يحرر الطبيعة البشرية من أوجاعها لذلك اجتاز – بكونه إنساناً – كل الآلام التي تجتازها هذه الطبيعة، وهذا ما سبق إن ذكره القديس كيرلس في نفس السياق، إذ يقول: "كما أن إبادة الموت لم تتم بطريقة أخرى غير موت المخلّص، هكذا أيضاً من جهة كل ألم من آلام الجسد: فلو لم يشعر بالخوف، لما أمكن للطبيعة البشرية أن تتحرر من الخوف، ولو لم يكن قد اختبر الحزن، لما كان هناك تحرر من الحزن على الإطلاق؛ ولو لم يكن قد اضطرب وانزعج، لما وُجِدَ أي مهرب من هذه المشاعر. ومن جهة كل انفعال من الانفعالات التي

١٣- ردٌ آخر

بسبب محبته العظيمة والفائقة أتَحَدَ **كلمة** الله ذاته بنا، لا لكي يصير مثلنا؛ لأنه هو غير المتحول ولا يعرف التغيير، لكنه اتَّحد بنا بذاته لكي يغيِّرنا نحن[1] إلى ما هو عليه. لأنه مثلما أصبح لدينا - نحن الذين قبلناه - كل ما يخصه؛ لأنه سكن في داخل الجسد (إذ قد دُعينا "أبناء" (١ يو ٣: ١)، و"آلهة" (مز ٨٢: ٦، يو ١٠: ٣٤)، ليس بحسب الطبيعة مثله، بل بحسب النعمة)، هكذا أيضاً عندما اتحد بنا وصار إنساناً، لَبِسَ ضعفاتنا. هكذا تألم لأنه جعل الجسد الذي أخذه واحداً معه، لكي تُمَات أوجاع الجسد بالنسبة لنا، نحن الذين نُسرع لكي نصير متشبِّهين بالمسيح الذي أخذ لأجلنا كل أوجاعنا في ذاته.

١٤- ردٌ آخر

يدين الله الإسرائيليين بسبب خطاياهم بواسطة الأنبياء، فيقول: "وَبَنَوْا مُرْتَفَعَاتٍ لِلْبَعْلِ لِيُحْرِقُوا أَوْلاَدَهُمْ بِالنَّارِ مُحْرَقَاتٍ لِلْبَعْلِ، الَّذِي لَمْ أُوْصِ وَلاَ تَكَلَّمْتُ بِهِ وَلاَ صَعِدَ عَلَى قَلْبِي" (أر ١٩: ٥). أيضاً يقول لأورشليم: "سببت لي حزناً بكل ما فعلتِ" (أر ١٦: ٤٣ س). وأيضاً لأجل شرور أخرى: "أَفَمَا أُعَاقِبُهُمْ عَلَى هذِهِ، يَقُولُ الرَّبُّ؟ أَمْ لاَ تَنْتَقِمُ نَفْسِي مِنْ أُمَّةٍ كَهذِهِ؟" (أر ٩: ٩). إذن، لأنه من الواضح للجميع، أن **كلمة** الله كان هو من قال هذه الأقوال للأنبياء، فما الذي يمكن أن يصنعه محاربو المسيح؟ هل يعتقدون أن **كلمة** الله - مثل البشر - له نفساً وقلباً، ويقولون إن أَلَمَ الحزن والغضب قد استحوذا عليه، فيظهر وكأن لا شيء لديه أكثر من أنه إنسان، في حين أنه هو مثل الآب فوق أي طبيعة مخلوقة؟

تتعرض لها الطبيعة البشرية، فإنك ستجد المقابل لها بالضبط في المسيح. فانفعالات الجسد كانت تتحرك، لا لكي تكون لها السيطرة كما يحدث في حالتنا نحن، بل لكي حينما تتحرك، فإنها يتم إخضاعها كلية بقوة الكلمة الساكن في الجسد، وهكذا فإن طبيعة الإنسان تجتاز تغيّراً نحو الأفضل". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، الجزء السابع، الإصحاح الثاني عشر ص ٣٨.

(١) أكد هذه الحقيقة القديس كيرلس في موضع آخر، قائلاً: "فإن **كلمة** الله وحَّد الطبيعة البشرية بكليتها مع نفسه، لكي، بذلك يخلِّص الإنسان بكليته. فما لم يتخذه للإتحاد بطبيعته (الإلهية)، لا يحصل له خلاص". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، الجزء السابع، الإصحاح الثاني عشر، ص ٣٥.

لكن ربما يتجنبون هذا ويقولون إن هذه الأقوال قيلت من **الكلمة** بطريقة رمزية وبشرية. وأنا أقول لكم إذا كنتم تحفظون لابن الله مكانته التي تليق به - عندما يقول هذه الأقوال - مؤكدين على أنه فوق الحزن والغضب والهوى، بالرغم من أنه ظهر محتملاً كل هذا لأجل شيء مفيد، فكيف يُعقل ألاَّ نسمح له - وقد صار إنساناً واتخذ جسداً - بأن يقول مثل هذه الأقوال لكي يظل غير متألم، بالرغم من أن هذه الأمور تُعد من خصائص الجسد بحسب طبيعته، أي ذلك الجسد الذي أخذه لأجلنا مع كل صفاته الطبيعية؟ أي أن يبكي، ويضطرب، ويصارع، ويتجنب الموت، ويتألم بكل ما هو شبيهٌ بتلك الأمور؛ لأن هذه الأمور كلها مِن صفات الطبيعة الإنسانية.

المقالة الخامسة والعشرون

شرح نص: "بِكْرُ كُلِّ خَلِيقَةٍ" (كو ١: ١٥).
واثبات أن الابنَ ليس مخلوقاً.

١- اعتراض من جانب محاربي المسيح

يقولون: إن لم يكن الابن مخلوقاً، لَمَا دُعيَ بكر كل خليقة؛ لأن ذلك يعني أنه على صلة قرابة شديدة تجاه هذه المخلوقات، وأنه الأول بالنسبة لهذه المخلوقات وقبلها كلها، لذلك سُمِّي بهذا اللقب.

٢- الرد على الاعتراض

ليس من الصعب أن نرد على المسائل التي يطرحها الهراطقة.

بدايةً يجب أن نقول الآتي: إذا كان اسم "بِكر" يضع الابن ضمن المخلوقات، فهذا يعني أن نستثنيه من تسميته بـ "وحيد الجنس"؛ لأنه إذا تعذّرت تسمية المرء "بِكراً" إن لم يكن له إخوةٌ كثيرون، هكذا أيضاً لا يمكن أن يكون هناك شخصٌ وحيد الجنس إن لم يكن وحيداً ولم يحسب مع آخرين. كيف إذن يكون بكراً، وفي نفس الوقت هو وحيد الجنس؟ لماذا يجب أن يسري عليه هذا أو ذاك؟ وإذا كان الكتاب المقدس يدعوه وحيد الجنس وبكراً، فمن الضروري على الذين يهينون الكتب المقدسة، أن يفسروا بدقةٍ كيف يكون بِكراً[1]، وبأي طريقة يكون وحيدَ الجنس.

([1]) يشرح القديس كيرلس كيف نفسر مصطلح "بِكر" تفسيراً صحيحاً في حواره حول الثالوث، قائلاً: "علينا أن نَعلَم متى دُعيّ **الكلمة** بكراً ومَنْ هم الذين أتى بينهم ودُعيّ وسطهم بكراً. لأننا هكذا سنُسرع في أن نرفع قلوبنا تجاه المعاني الصحيحة للكلمات التي تليق بالأسرار. لأن معرفة الأزمنة وتمييز الأشخاص هي أمور توضّح لنا

هو وحيد الجنس؛ لأنه هو **الكلمة** المولود من الآب قبل الدهور، وليس لديه أخوة بحسب الطبيعة، ولا يُحسبُ مع آخر. فابن الله واحدٌ هو وفريد. وهو أيضاً بكرٌ لإخوة كثيرين كما هو مكتوب (أنظر رو ٨: ٢٩). لكن متى صار أخاً لنا، إن لم يكن ذلك قد حدث حين لَبِسَ جسدنا؟. إذن، هكذا صار بكراً عندما أتى بأبناءٍ كثيرين لله بحسب النعمة.

٣- ردٌ آخر

لقد دُعيَّ بكر كل خليقة ليس لأنه الأول بالنسبة لها من جهة الزمن، ولا لأنه هو من نفس جوهر المخلوقات، لكن مثلما قلنا سابقاً، بسبب تنازُله نحو المخلوقات وتشبُّهِه بنا. لكن من الأفضل أن نلاحظ أيضاً أنه دُعيَ وحيد الجنس وبكراً بين أخوة كثيرين.

فعندما دُعيَ وحيد الجنس، دُعيَّ دون أن يكون هناك عِلةٌ بمقتضاها أصبح وحيد الجنس، بل لأنه حُرٌ من كل قيد، وهو الإله وحيدُ الجنس الكائن في حضن الآب. لكن عندما تدعوه الكتب المقدسة بكراً، فإنها للتو تضيف: مَنْ هو البكر، وكذلك السبب الذي لأجله دُعي بهذا الاسم. لأن الكتب تقول: "بِكْراً بَيْنَ إِخْوَةٍ كَثِيرِينَ" (رو ٨: ٢٩)، "بِكْرٌ مِنَ الأَمْوَاتِ" (كو ١: ١٨). لأنه كان ينبغي لابن الله، وهو الأول بحسب الطبيعة، عندما صار إنساناً، ألاَّ يفقد مكانته، فعندما صار شبيهاً بنا وُضِع أيضاً قبل كل الخليقة. فليس لأنه صار إنساناً، صار أدنى مِن كل ما يخص المكانة التي تتناسب مع الطبيعة الإلهية[1]، بل أيضاً كإنسان، هو الأول ويسبق كل الخليقة، طالما هو خالقها وهو الرب. هكذا الإنجيلي يقول: "ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب" (يو ١: ١٤).

بسهولة معنى الكلمات المُستَقيمة وغير المنحرفة التي تأتي إلينا مباشره من الكتب المقدسة". حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الحوار الرابع، ص ٢٧ - ٢٨، أيضاً أنظر المرجع السابق، الجزء الأول، الحوار الأول ص ٤١ وهامش٤٣.

(1) مشكلة الهراطقة ــ كما قلنا ــ هي أنهم يريدون إخضاع الطبيعة الإلهية للمقاييس البشرية، ويؤكد القديس كيرلس على سمو الطبيعة الإلهية، في حواره حول الثالوث، قائلاً: "فالابن لا يخضع لمقاييسنا نحن العبيد كما أنه لا يوجد تحت نير، لكن له الطبيعة الإلهية الفائقة العلو والتي تسمو على كل الخلائق". حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الثالث، الحوار الرابع ص ٢٩ - ٣٠.

٤- ردٌ آخر

إن كان - كما يقول بولس - به صار الكل (انظر كو ١: ١٦)، إلاَّ أنه هو آخرٌ بالنسبة للكل. لأن كلمة "الكل" لا تترك مخلوقاً خارجاً عنها لم يَصِر بواسطته. بالتالي، الابن ليس مخلوقاً، لكنه بالحري هو خالق الكل، كما هو مكتوب. لأن الكتاب المقدس لم يقل إنه بكر الخلائق الأخرى، حتى لا يُظن أنه حقاً واحدٌ من ضمن هذه المخلوقات، ولكن بقوله "كل الخليقة" يعني أنه آخرٌ مختلفٌ عن الخليقة. ومَن يوجد خارج كل الخليقة، لا يمكن أن يكون من جوهر مخلوق، بل هو آخر مختلف عنها. وحسناً فعل الكتاب المقدس؛ إذ أخذاً في الاعتبار لهذه الملاحظة، لم يدعُ رأوبين أنه بكر كل أولاد يعقوب حتى لا يُعتبر أنه آخر مختلف عنهم، بل بدقةٍ عظيمةٍ يقول إن هذا هو بكر يعقوب وأخوته.

٥- ردٌ آخر

إذا كان البعض قد شرع في وضع الابن ضمن الخليقة، بسبب أنه دُعيَ بكر كل خليقة، فإن ذلك يعني أن يكون الابن نفسه معدوداً ضمن الخليقة. ووفقاً لهذا الرأي يكون الابن أيضاً بكراً لذاته، فطالما هو حقاً بكر كل خليقة، يكون أيضاً في الكل (أنظر كو ٣: ١١)، وهو ما يعني أنه سيكون الأول والثاني لذاته، أمَّا لو اعتبرناه خارج الكل بسبب أنه بكر كل خليقة، عندئذٍ سيكون الأول بالنسبة للكل. لكن لو كان من ضمن الكل، لأصبح الثاني لذاته زمنياً، أي الأول بتلك الطريقة، والثاني بالنسبة لذاته بهذه الطريقة.

٦- ردٌ آخر

لو كان الابن واحداً من ضمن الخليقة، بسبب أنه دُعيَ بكر كل خليقة، وفي ذات الوقت كان الكل قد صار بواسطته (أنظر يو ١: ٢)، لكان عندئذٍ خالقاً لذاته وفق رأيكم، وهذا الذي يخلق صار مخلوقاً، وقد صار هكذا بواسطة ذاته. فإن كان ضمن الكل، وكان الكل قد صار بواسطته، لأضحى ما قلناه صحيحاً، لكن إذا كانت الخليقة قد خُلِقت بواسطته، فكيف يمكن أن يكون هو واحداً منها هذا الذي أعطى الوجود لكل الموجودات؟

٧- ردٌّ آخر، تفهم بمقتضاه كلمة "بكر" وفق التفسير المملوء بالتقوى

من الصواب تماماً أن يُدعى الابن بكراً لأخوة كثيرين، لأنه صار شبيهاً بنا في كل شيء ما عدا الخطية، ولأنه لَبسَ جسدنا وصار أخاً لنا. وهو أيضاً بكرٌ من الأموات؛ لأنه هو الأول الذي أقام جسده في عدم فساد، وهو الأول الذي أصعده إلى السموات، لذلك يقول: "أنا هو الطريق" (يو ١٦: ٦)، و"أنا هو الباب" (يو ١٠: ٩). وبواسطته تعلّمت الطبيعة البشرية أن تسلك في طريق القيامة الجديد، وبواسطته - كما مِن بابٍ - دخلت إلى السماء[١].

٨- ردٌّ آخر: كيف يمكن فهم عبارة: "بكر كل خليقة" بطريقة تقوية؟

بسبب محبة الآب لمخلوقاته دُعيَ الابن بِكرَ كل خليقة، والابن بمحبته تجاه المخلوقات لم يتردد في أن يجعل ذاته بين المخلوقات، حتى أن المخلوقات التي جاءت بعده تخلُص بسبب أنه دُعيَ بِكراً. هكذا ينبغي له أن يكون بكراً لكي تظل المخلوقات تدعوه بكراً. إذن هو المولود الوحيد من جهة الطبيعة؛ لأنه أتى من الآب، فهو إلهٌ من إله، ونورٌ من نور، لكن هو البكر لأجلنا، لدرجة أن كل الخليقة طُعِّمت فيه كأنها في جذرٍ[٢] عدم

---

(١) لقد أكد القديس كيرلس على هذا المعنى في حواره حول الثالوث، قائلاً: "إذن عندما نعتبره كواحد منّا حين ندعوه بكراً فنحن لا نجبره كيّ يكون فيما هو خارج طبيعته، وعلى الجانب الآخر عندما نقول إنه قد ارتقى بنا، فهذا لا يعني أنه قد تَخلّى عن طبيعته الفائقة وبالتالي تكون الطبيعة المخلوقة قد سادت عليه. فإن فكّرنا بهذه الطريقة ألاّ يكون هذا هذيان كامل؟ وبالتالي فعندما صار (الابن) مثلنا فهو لم يتخلّ عن ما هو له لكننا نحن الذين ارتقينا إليه، بسبب نعمته وأيضاً عَبّرنا مقياس طبيعتنا بسبب نعمته التي كرّمتنا، وارتقينا إلى ما هو أُرفع وأعلى". حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الثالث، الحوار الرابع ص ٣٢.

(٢) أثناء الحديث عن نبوة إسحق ليعقوب الواردة في تك ٢٧: ٢٧ - ٢٨ "رائحة ابني كرائحة حقل قد باركه الرب. فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض. وكثرة حنطة وخمر" يؤكد القديس كيرلس أن المسيح هو جذر ثان للبشرية، إذ يقول: [هكذا فإن مفهوم النبوة يتناسب مع الشعب الجديد ومع المسيح نفسه الذي هو البداية والأصل، فهو آدم الثاني حقاً وبمثابة جذر ثاني للبشرية لأن كل ما في المسيح هو خليقة جديدة. لقد تجددنا ثانية بالمسيح من جهة القداسة والحياة والخلود. أيضاً أعتقد أن حديث البركة يعني الرائحة الروحية الذكية التي في المسيح، كالرائحة الجميلة والمفرحة التي تأتي من ورود الربيع في الحقول اليانعة والمزهرة. هكذا قدم لنا المسيح ذاته في نشيد الإنشاد قائلاً: "أنا نرجس شارون سوسنة الأودية" (نش ٢:١). حقاً كان سوسنة ونرجس، هو الذي نبت من الأرض كإنسان، لكن بدون أن يعرف خطية، إذ تفوح منه عبق الرائحة الذكية على كل المسكونة. إذاً

الموت، لكي تنبت مرةً ثانيةً من هذا الذي هو موجودٌ دائماً. لأن الكل صار بواسطته والكُل يخلُص بفضله(١).

٩- ردٌ آخر

لو كنا نضع الابن ضمن الخليقة بسبب أنه دُعيَ بكر كل خليقة، لكان بحسب الطبيعة مخلوقاً، ولَكان الأول زمنياً بالنسبة لهذه الخليقة، ولَكان على صلة قرابة معها بحسب الطبيعة. ولَشابه كل المخلوقات الأخرى، وبالتالي يكون على صلة قرابة أيضاً بالحيوانات غير العاقلة، والطيور الجارحة وتلك التي تسبح في الماء؛ لأن هذه المخلوقات، وإن كانت قليلة الأهمية، إلاَّ أنها جزءٌ من كل الخليقة. لكن هذا الرأي غير معقول. إذن، بناءً على ذلك، فإن كلمة "بِكر" تعبِّر بكل تقوى عن أنه الأول بين أخوة كثيرين، هؤلاء الذين دُعُوا بحسب النعمة إلى التبني، لكنه هو فوق الخليقة؛ لأنه يوجد قبلها، وهو الذي أحضرها إلى الوجود قبل أن يكون له بالتجسد جوهر مخلوق (ناسوت).

١٠- ردٌ آخر

مثلما دُعيَ بكراً بين أخوة كثيرين؛ لأن هؤلاء الذين خلصوا بواسطته، دُعُوا إلى التبني من الله بحسب النعمة، هكذا أيضاً دُعيَ بكراً من الأموات؛ لأنه قام إلى عدم الفساد قبل الجميع. وهكذا يُقال إنه صار بداية الطرق (انظر أمثال ٨: ٢٢)؛ لأن الجميع

المسيح يشبه حقلاً مباركاً من الله حيث هو بالحق رائحة معرفة الله الآب الذكية لأن بولس الرسول قال: "شكراً لله الذي يقودنا في موكب نصرته في المسيح كل حين ويُظهر بنا رائحة معرفته في كل مكان" (٢ كو ٢:١٤)]. جيلافيرا، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، الكتاب الشهري، ديسمبر ٢٠٠٥.

(١) يؤكد القديس كيرلس هذا الشرح في حواره حول الثالوث، قائلاً: "إن بولس الرسول المملوء بالمسيح والروح القدس والمتميِّز بين الرسل يقول "وَأَيْضاً مَتَى أَدْخَلَ الْبِكْرَ إِلَى الْعَالَمِ يَقُولُ: «وَلْتَسْجُدْ لَهُ كُلُّ مَلاَئِكَةِ اللهِ»" وأعتقد أنه يستخدم تعبير "بكر" في الزمن المناسب الذي يشير إلى ظهوره في الجسد. لأنه قد جاء إلى العالم مع أنه منذ القِدم هو كائن فيه مع أن العالم لم يكن يعرفه وهكذا صار وسيطاً بين الله والناس وأصبح لقب "وحيد الجنس" امتيازاً خاصاً له. فهو إله من إله، واحد من واحد، ومولود بطريقة لا توصف، وعندما أتى إلينا فحينئذ فقط حُسبَ بيننا كأخوة له وذلك عندما دعي بكراً. وإلاّ فأين الأخلاء إن لم يكن مَنْ هو "وحيد الجنس" قد صار "بكراً"، وسكن بين البشر كإنسان وهو يعلو عن كل الخليقة؟". حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الثالث، الحوار الرابع ص ٣٧.

يستطيعون بواسطته أن يسرعوا إلى الخلاص. كما أنه لم يُدعَ وحيد الجنس لسبب آخر، إلاَّ لأنه هو فقط الوحيد الذي وُلِد بالحقيقة.

١١- دفاعٌ بطريقةٍ برهانية

إذا كان قد دُعيَ وحيد الجنس؛ لأنه كان هو فقط الذي وُلِدَ من الآب دون وساطةٍ من أحد، ودون أن تسبقه إرادة إلهية؛ لأنه لم يكن هناك واحدٌ من المخلوقات التي تتوسط لإرادة الله، فهو إذن ليس وحيد الجنس لأنه صار بدون وسيط، بل لأنه هو فقط ثمرة الآب[1].

١٢- ردٌ آخر

إن كان هو وحيد الجنس؛ لأنه هو فقط مَن صار مِن الآب – مثلما تقولون – لَمَا كان الآب خالق الجميع قد خلق الكل، بل خلق الابن فقط، لكن بما أن الآب هو خالق الكل "لأن الكل يأتي منه" (كو ١: ١٦)، فالابن إذن ليس وحيد الجنس بسبب أنه هو الوحيد الذي خلقه الآب، بل لأنه هو الوحيد الذي وُلِدَ بحسب الطبيعة مِن الآب.

١٣- ردٌ آخر

أمَّا إذا قالوا إنه هو وحيد الجنس؛ لأنه هو الوحيد الذي صار من الآب الوحيد، فإننا نقول لهم: هل يمكن أن يُدعى النهار وحيد الجنس؛ لأن الشمس التي ينتُج عنها هي وحيدةٌ أيضا؟ وبالمثل هل يمكن أن نصف أعمالاً بأنها وحيدة الجنس لمجرد أنها تنتمي لشخصٍ واحدٍ وحيدٍ صار مخترعاً لعلمٍ ما، أو صانعاً لأيقونةٍ ما؟ فإذا كان أحدٌ لا يدعو عمله الوحيد، بوحيد الجنس، فكيف يمكن أن يُعتبر الابن وحيد الجنس بسبب أنه صار بواسطة الآب، وليس لأنه وُلِدَ من الآب؟

---

(1) أي المولود من الآب قبل كل الدهور والجدير بالذكر أن القديس كيرلس كان يفضل تعبير "المولود الوحيد" لأن المعارضين كانوا يستخدمون تعبير "وحيد الجنس" على أنه هو الوحيد الذي صار أو خُلِق بواسطة الآب. إذن تأكيد القديس كيرلس هو على ولادة الابن من الآب وبالتالي هو غير مخلوق.

١٤- ردٌ آخر

لو أن الابن قد دُعيَ وحيد الجنس؛ لأن الآبَ خلقه هكذا وحيداً، فهناك أيضاً عملٌ مماثلٌ وحيدٌ، هو السماء، فهل يمكن أن تُدعى السماء وحيدة الجنس على هذا الأساس؟ فإذا كانت هناك مخلوقاتٌ كثيرةٌ صارت فريدةً، ولم تُدعَ وحيدة الجنس، هكذا لم يُدعَ الابنُ وحيد الجنس لأنه صار (خُلِقَ) وحيداً، بل لأنه هو الوحيد الذي وُلِدَ من الآب.

١٥- ردٌ آخر

إذا كان الابن قد دُعيَ وحيد الجنس لأنه كان هو الوحيد الذي تفوَّق على الخليقة، فكيف يكون الحال بالآب الذي يتفوَّق على الكل، هل يُدعى أيضاً وحيد الجنس على هذا الأساس؟ فإذا كان الآب لا يُدعى وحيد الجنس بالرغم من تفوُّقه على الكل، هكذا الابن أيضاً لا يُدعَ وحيد الجنس لتفوقه على المخلوقات، بل لأنه وُلِدَ من الآب.

١٦- ردٌ آخر

لو كان الابنُ قد دُعيَ وحيد الجنس باعتباره المعبِّر الوحيد عن مشيئة الآب، وقلنا إن القول المنطوق الخاص بنا هو أيضاً المُعَبِّر الوحيد عن القرارات التي نتخذها بعقولنا، فهل يمكن - بناءً على ذلك - أن يُدعى هذا القول وحيد الجنس ابناً للعقل؟ فإذا لم يكن قد حدث أن وصف أحدٌ النطق المعبِّر عن الأفكار المختفية بوحيد الجنس، فكيف يمكن أن يقال إن الابن هو وحيد الجنس؛ لأنه هو الذي يعلن مشيئة الآب، وليس لأنه وُلِدَ؟

١٧- ردٌ آخر

إن قيل إنه هو وحيد الجنس لأنه هو خالق الكل، أي خلق كل الكائنات التي صارت بعده، وإنه لا يوجد خالقٌ شريكٌ معه ولا أحد معه قد فعل شيئاً، فإننا نقول: بما أن الكل صار بحكمةٍ بواسطته، وثبَّت السموات، وكل قوته ترجع إلى روح الله، فما الفائدة من أن ندعوه وحيد الجنس على أساس أنه هو الخالق الوحيد لكل ما صار من بعده، إن لم نكن ندعوه هكذا ليس فقط لأنه هو الخالق الوحيد، بل لأنه هو الذي وُلِدَ بحسب الطبيعة من الآب؟

١٨- ردٌّ آخر

لو لم يكن مَن وُلِد هو وحيد الجنس، بل مَن صار كان هو في الحقيقة وحيد الجنس، لَمَا كان ابن سارة وحيد الجنس لأنه لم يَصِر منها، بل لأنه وُلِد.

١٩- ردٌّ آخر

وإذا قيل إنه وحيد الجنس لأن الآب أحضره فقط إلى الوجود، لَمَا أمكن حتى لمن وُلِد أن يصير بِكراً؛ لأن أخوته الآخرين لم يأتوا من الآب. لكن بما أنه هو بالحقيقة بكرٌ، فهو حقاً أول الكل. وبذلك يتضح لنا أنه ليس وحيد الجنس لأنه فقط أخذ كياناً، بل لأنه هو الثمرة الصالحة الوحيدة؛ لأنه وُلِدَ من الآب الصالح.

٢٠- ردٌّ آخر

إن كان بِكراً لله بسبب أنه وُلِدَ أولاً قبل كثيرين، وفي نفس الوقت أيضاً بكر من العذراء، لَكان عليه أنه يكون الأول منها قبل كثيرين آخرين، لكن بما أنه الوحيد الذي وُلِد من مريم، وليس قبل آخرين، لذا دُعيَ بِكراً لها. وعلى ذات القياس، هو بِكرٌ لله، ليس لأنه الأول قبل كثيرين وُلِدوا منه، بل لأنه هو الوحيد الذي وُلِدَ منه.

٢١- ردٌّ آخر

لو كان بِكراً على أساس أنه وُلِدَ أولاً قبل آخرين، ولم يكن هناك اختلاف جوهري بين من وُلِد أولاً، ومن تلاه ممن وُلدوا بعده[1]، لَما أمكن حتى للابن أن يكون أعظم ممن صاروا بعده. لكن إذا كان مَنْ يخلِق مختلفاً في كل شيء عن الكل، وكان الابن خالقاً، عندئذٍ يكون مختلفاً عن الكل. فكيف إذن يمكن للذي أخذ اسم الابن وعِلة هذه المخلوقات أن يكون بكراً لهم؟[2]

---

(1) يقصد من البشر (المخلوقات).

(2) يقصد مجرَّد أخ بكر للمخلوقات وليس الابن المولود من الآب قبل كل الدهور.

٢٢- ردٌ آخر

إذا كان الأولون يقرون بأهم علةٌ للتاليين، وكان الأول هو الله وابن الله، عندئذٍ يكون الابن هو علة أولئك الذين يقال عنهم إهم أبناء الله؛ لأنه أتى من ذاك (الله). وعلى ذلك لا يقال عن علة الأبناء التاليين إنه بكرٌ بسبب أنه خُلِق أولاً بالنسبة لأولئك، بل لأنه الأول الذي صار عِلةً لهم[1].

٢٣- ردٌ آخر

لو كان بكراً بسبب أنه صار أولاً، لا بسبب أنه هو الوحيد، لَمَا كان الابن قد خَلَق أحداً بالفعل؛ لأن مَن صاروا بعده جاءوا بالتتابع بعد مَن جاء أولاً. لكن، لأنه هو قد خلقهم، فهو لم يخلقهم كبِكرٍ كان قد خُلِقَ هو أولاً، لكن لأن كل ما في السماء وما على الأرض قد خُلِقَ بواسطته.

٢٤- ردٌ آخر

لو كان قد أخذ أقنوماً (كياناً) وصار بكراً لأجل خلق المخلوقات، لكان مديناً لهم لأهم صاروا سبباً لخلقه.

٢٥- ردٌ آخر

إذا كان وجود الخليقة يتوّقف على خلق غير المخلوق؛ باعتبار أن الخليقة لا تحتمل أن تتصل بغير المخلوق بحسب الطبيعة، ولأجل ذلك خُلِقَ الابن، لَكان معنى ذلك أن يكون هذا الابن مجرّد كائنٍ متوسطٍ، أو قوةٍ متوسطةٍ (بين الله الخالق والمخلوقات)، وهو ما يعني أيضاً أن هذا الابن لا يمكن أن يكون غير مخلوق؛ لأن الخليقة لا تحتمل أن تتصل بغير المخلوق كما قلنا. وبالرغم من ذلك، وباعتبار أن هذا الابن كائنٌ متوسطٌ، فهو لا ينتمي

(١) أي الابن الذي خلقهم لأن "كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان" (يو ١: ٢).

إلى عالم المخلوقات أيضاً، وبالتالي لا تحتمل الخليقة أن تتصل به. وطالما إنه ليس واحداً من كليهما[1]، بقي أن نعترف بأنه نتاج الطبيعة غير المولودة.

٢٦- اعتراض من اعتراضات إفنوميوس

إذا كان الابن إلهاً حقيقياً، فلماذا حُسب مع المخلوقات؛ لأن الكتاب المقدس يقول عنه إنه: "بكر كل خليقة" (كو ١: ١٥)؟ لأنه بالضرورة ينبغي أن يكون هذا - بحسب الطبيعة - مماثلاً للمخلوقات التي هو بالنسبة لها، الأول.

٢٧- الرد على هذا الاعتراض

هذا القول تجديفٌ واضحٌ، وهو ينطوي على غباءٍ شديد؛ لأنه لو كان قد دُعيَ بكراً[2]، لَكان بالضرورة قريباً تماماً لأولئك الذين صاروا بعده، فإن كان مَن صار بعده، ليس هو فقط الإنسان، بل كثير أيضاً من الحيوانات المختلفة، فإن تجديفكم - يا محاربي المسيح - يظهر بأجلي بيان؛ لأن كلامكم يعني أن يكون الابن شبيهاً بحسب الطبيعة بالحيوانات غير العاقلة، وليس قريباً فقط لهؤلاء الذين قيل إنه بكرٌ لهم. لكنه دُعيَ هكذا؛ لأن الكتاب المقدس يعلن لنا أننا دُعينا في الابن وبواسطة الابن لنفس المكانة معه، ظاهرين أننا - بحسب النعمة - أبناء الله[3] (أنظر غلا ٤: ٤ - ٦). وهذه هي بداية النعمة التي أُعطيت لنا متشبهين به بسبب محبته لأولئك الذين صاروا بواسطته.

---

(١) يقصد أن الابن ليس قوة مخلوقة ولا من ضمن المخلوقات.

(٢) أي بالمفهوم البشري، لأن القديس كيرلس يُعرِّف كلمة "بكر" بأنها تعني أن يتقدم أحد على إخوته ويكون قد وُلِدَ قبلهم". أنظر حوار حول الثالوث، الجزء الثالث، المرجع السابق، الحوار الرابع، ص ٢٦.

(٣) يشرح القديس كيرلس هذا الأمر بوضوح في حواره حول الثالوث، إذ يقول: "فنحن لدينا وصية ألا ندعو لنا أباً على الأرض (مت ٢٣: ٩)، بل أن نقدّم عبادتنا لله فقط بكونه أبانا، وذلك بسبب البكْر الذي قد جاء بيننا، ليس لسبب آخر، سوي أن يجعل منا نحن أيضاً أبناء؛ لأن هذا هو هدف تجسّده. وإلاّ فكيف كان من الممكن أن يكون سرّ المسيح مملوءً بالحكمة إن كان هو - قَبلْ أي أحد آخر - قد أساء إلى طبيعته (الإلهية) دون أن تعود الفائدة على حالتنا؟ لأنه قد نزل وصار بكراً كي يُصنَّف مع الكثيرين، مع أنه يختلف جوهرياً عنهم - حسب طبيعته - بل ويفوقهم، وليس فيه شيء - من أي جهة - مما يظن هؤلاء الذين يشترك معهم، أنه يتصّف به". حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الثالث، الحوار الرابع، ص ٣٣.

إذن هو الأول لأنه هو صورة الآب الحقيقية. وكما يقول الآب عنه إنه الأول، يقول هو أيضاً عن نفسه إنه الأول؛ لأن الآب الأول يوجد فيه، وهو أيضاً يوجد في الآب الأول[1]، والكل صار بواسطته، وبه تُدعى الكائنات العاقلة إلى التبني.

٢٨- ردٌ آخر

إذا كان القول بأن الابن هو أول الخليقة، فهذا يحتم عليه أن يكون على صِلة قرابة مع أولئك الذين صاروا بعده، وأن يكون مماثلاً - بحسب الطبيعة - للاحقين عليه زمنياً، فماذا تقولون عندما تسمعون الآب يقول عن ذاته: "أَنَا الأَوَّلُ وَأَنَا الآخرُ، وَلاَ إلهَ غَيْرِي" (أش ٤٤: ٦)؟

فإذا كنتم تعترفون بأنه يسبق المخلوقات من جهة الزمن، يتحتم عليكم أن تعترفوا بأن له جوهر مخلوق، وبذلك تحسبونه إذن ضمن المخلوقات.

لكني لا أعتقد أن المرء يمكنه أن يصل إلى حدٍ من الجنون، يتجرَّأ معه على أن يفهم الأمر على هذا النحو.

فإذا كان يقال عن الآب إنه الأول، دون أن يعني ذلك أن يكون ذي قربى مع كل الذين أتوا إلى الوجود بعده، هكذا الأمر أيضاً بالنسبة للابن، فإن قيل عنه إنه أول الخليقة، فإن ذلك لا يعني بأية حال أن يكون واحداً مع المخلوقات. لكن بما أن الآب هو بداية الكل حين قال: "أَنَا الأَوَّلُ"، هكذا قيل عن الابن إنه الأول لكل الخليقة؛ لأن الكل صار بواسطته، وهو بداية المخلوقات (أنظر يو ١: ٢)؛ لأنه هو الخالق والباني.

---

(١) "أنا في الآب والآب فيّ" وهو هنا يؤكد على وحدة جوهر الثالوث.

المقالة السادسة والعشرون

عن الذي قيل لإبني زبدي:
"وَأَمَّا الْجُلُوسُ عَنْ يَمِينِي وَعَنْ يَسَارِي فَلَيْسَ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ"
(مت ٢٠: ٢٣).

١- اعتراض من اعتراضات إفنوميوس

لو كان معادلاً للآب، فكيف يقول لإبني زبدي: "لَيْسَ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ"؟

إن هذا لَيدلُ بوضوح عن أنَّ لا سلطان له، وأنه لا يمكنه أن يعطي ابني زبدي ما طلباه منه. وعلى هذا الأساس، لا يكون مساوياً للآب الذي له السلطان على الجميع.

٢- الرد على هذا الاعتراض

يا محاربي الله أنتم أيضاً جهلاء في هذا الأمر. لأنه كان ينبغي عليكم أن تفحصوا بعنايةٍ أقوال المخلّص، ولا تحكموا عليها بحكمٍ مزيفٍ. لقد اقترب منه ابني زبدي طالبين كرامات سامية جداً، وكان لابد لهما أن ينتظرا جود وكرم المانح، إلاَّ أنهما أرادا أن يخطفا العطيّة بدون حقٍ مفضِّلين أنفسهم عن الآخرين. ولذلك حسناً أنْ أجابهما المخلّص على هذا الطلب غير المعقول، قائلاً: "لَيْسَ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ"، ليس لأنه لم يستطع أن يعطيهما هذه العطّية، بل لأن هذه العطيَّة تُعطى لأولئك الذين يجاهدون كمكافأة لهم على تعبهم. مثلما يُحضر أحد ميداليات الفوز للمدعوين إلى المنافسة ويقول لهم: يا أصدقائي لا أستطيع أن أخذ أكبر ميدالية وأعطيها - بحسب ما أريد - لأيٍ منكم؛ لأن قوانين اللعبة تُلزمني أن أعطي أفضل ميدالية للمنافس الذي يتفوَّق على الجميع، هذا المنافس يستحق تكريماً أكثر

وأفضل من الجميع. هكذا يقول المخلّص، ليس من الصواب أن أعطي هكذا عشوائياً المكافأة الأعظم لأولئك لمجرَّد أنهم يطلبونها، فهي تُمنح لذلك الذي عن حق يستحقها. إنها تتناسب بالأكثر مع أولئك الذين - بحسب معرفة الآب السابقة - أُعِدَت لهم هذه المكافأة بسبب تفوّقهم في الأعمال الباهرة. إذن أقوال الرب ليست برهاناً على ضعفه، بل الضعف الذي أظهره هو كان بحسب التدبير[1].

٣- ردٌ آخر

إن كان لم يستطِع أن يحقق طلب ابني زبدي - وفق آرائكم يا محاربي الله - وقال لهم: "لَيْسَ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ"، فكيف، في مواقفٍ أخرى نراه يمنح ذات الطلب لتلاميذه، عندما قال لهم: "الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الَّذِينَ تَبِعْتُمُونِي، فِي التَّجْدِيدِ، مَتَى جَلَسَ ابْنُ الإِنْسَانِ عَلَى كُرْسِيِّ مَجْدِهِ، تَجْلِسُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ كُرْسِياً تَدِينُونَ أَسْبَاطَ إِسْرَائِيلَ الاثْنَيْ عَشَرَ" (مت ١٩: ٢٨)؟ وهو لم يقل ذلك متنبئاً عمَّا سوف يحدث، لكن مانحاً نعمته لهؤلاء الذين تحمَّلوا الآلام معه.

وإذا كان ذلك حقٌ وصدق، فكيف لا يستطيع أن يعطي اثنين فقط، تلك العطية التي يعطيها للجميع؟ فإن قلتم إن وعده هذا ليس صادقاً، فيكفي هذا للتأكيد على ثقل شركم؛ لأنكم بذلك تقولون إن مَنْ هو الحق، يكذب، فهو لم يستطع أن يعطي ابني زبدي ما طلبوه، وبالتالي فهو غير معادلٍ للآب. أمَا وإنه يملك القدرة حقاً على أن يعطي هذه العطيّة للجميع، فهو إذن معادلٌ لذاك الذي ولده.

٤- ردٌ آخر

إذا كان المخلّصُ صادقاً حين قال: "كُلُّ شَيْءٍ قَدْ دُفِعَ إلى مِنْ أَبِي" (مت ٢٧: ١١)، وتحت هذا "الكل" ينطوي أن يُعطي أية نعمةٍ يريدها لأولئك، فهو - عندئذٍ - ليس عن ضعفٍ قال: "لَيْسَ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ"، بل كان يقصد شيئاً مفيداً بهذا الذي قاله.

---

(١) نلاحظ هنا أن القديس كيرلس يفسر النص في إطار السياق العام ويوضح التفسير بمثال من الواقع المعروف لدى قارئيه.

٥- ردٌّ آخر

يقول أشعياء النبي، وهو يتحدَّث عن المخلّص، بوضوح: "لذلكَ أَقْسِمُ لَهُ بَيْنَ الأَعِزَّاءِ وَمَعَ الْعُظَمَاءِ يَقْسِمُ غَنِيمَةً، مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ سَكَبَ لِلْمَوْتِ نَفْسَهُ" (أش ٥٣: ١٢). فإذا كان يوزِّع على القديسين الغنائم الثمينة، فكيف نقول إنه لا يقدر أن يعطي هذا الذي يريده لأشخاصٍ آخرين؟ وطالما أن الآب يصنع الكل بواسطة الابن، وواحدة من "الكل" هي أن يوزع للقديسين المكافآت، إذن فالابن أيضاً هو الذي يعطي الكل، الابن الذي في الآب والآب فيه.

٦- تفسير قول المخلص: "لَيْسَ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ"، والتعليم الواضح عن كيف ينبغي أن نفهم هذا القول.

فيما كان المخلّص ينصح تلاميذه بعدم السعي لاكتساب أي شيء من خيرات هذه الحياة، وألاّ يكونوا محبين للمال، بل يخدموا الله غير مهمومين، وأن يكون الكل أوفياء في عبادته، واعداً أولئك الذين يطبِّقون الوصية بكرامة ثمينة مجازاةً لهم، حدث أن اقترب البعض منه قائلين له: "هَا نَحْنُ قَدْ تَرَكْنَا كُلَّ شَيْءٍ وَتَبِعْنَاكَ. فَمَاذَا يَكُونُ لَنَا؟" (مت ١٩: ٢٧)، أجاب المسيح على سؤالهم قائلاً: "أَنْتُمُ الَّذِينَ تَبِعْتُمُونِي، فِي التَّجْدِيدِ، مَتَى جَلَسَ ابْنُ الإِنْسَانِ عَلَى كُرْسِيِّ مَجْدِهِ، تَجْلِسُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ كُرْسِياً تَدِينُونَ أَسْبَاطَ إِسْرَائِيلَ الاثْنَيْ عَشَرَ" (مت ١٩: ٢٨). فعندما سمع ابني زبدي هذا الوعد اشتهيا شيئاً لا يتناسب معهما؛ لأنهما أرادا أن يخطفا ما وعد المسيح أن يعطيه للتلاميذ مكافأةً لهم على وفائهم له. إلاّ أن التلميذين، وإن كانا قد خجلا حتى لا يظهران كمحبين للمجد الباطل، فصمتا واحتفظا بهذا الأمر في عقليهما، لكنهما دفعا أمهما لتتدخل لدى الرب كي يحصلا على هذه العطية منه. وهكذا اقتربت منه وقالت: "قُلْ أَنْ يَجْلِسَ ابْنَايَ هذَانِ وَاحِدٌ عَنْ يَمِينِكَ وَالآخَرُ عَنِ الْيَسَارِ فِي مَلَكُوتِكَ" (مت ٢٠: ٢١). وبذلك يبدو أنها أرادت أن تقتنص لابنيها العطيَّة التي للجميع، وإلاّ لَمَا اقتربت وطلبت بالفعل ما قد أُعطي، خصوصاً وإن ابنيها كانا ضمن من سمعوه يقول لهم: "أَنْتُمُ الَّذِينَ تَبِعْتُمُونِي، فِي التَّجْدِيدِ، ... تَجْلِسُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ كُرْسِياً".

إن المخلِّص إله الكل يعرف ما بداخل الإنسان، لذلك دعى ابني زبدي ولم يحكم عليهما بغتةً؛ لأنه مُحب الصلاح حتى لا يُعمِّق في نفوسهما الحزن الشديد، لكن بقولٍ مقنعٍ قال لهما: "لَيْسَ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ". بالطبع، فإن هذا الكلام لا يحكم على طبيعته بأنها تفتقر إلى القدرة على العطاء (لأنه من العبث حقاً أن يفكر أحدٌ هكذا، طالما أنه قد أظهر بالفعل أن هذه العطيَّة قد أعطاها ووعد بها)، كأنه يقول: لأنكما طلبتما أن تأخذا مطلباً لا يتناسب معي أن أعطيه، "لَيْسَ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ"؛ لأنني القاضي العادل وأكافئ كل واحد بحسب أتعابه، كأنه نوع من الواجب عليَّ. على الجانب الآخر لقد اعتقدتما أنه مجدٌ مشاعٌ أن تجلسا عن يميني ويساري، لكن هذا لا أستطيع أن أعطيكماه.

لأن هذا الذي علَّم وحذَّر أن لا تمرضوا، ألا يكون من المستحيل عليه أن يعطي هو نفسه المرض؟ مثل شخص أراد أن يصير رطباً، فيطلب مِن النار أن تجعله رطباً، فتقول له: لا أستطيع أن أعطيك هذا الذي تطلبه، لأنني من طبيعة أخرى.

إذن بما أنني الحاكم البار، عليَّ أن لا أعطي الكرامات لأولئك بمجرد أن يطلبوها، ولا أعطيها لاثنين فقط ظالماً بذلك جميع المتسابقين، لكن أعطيها لكل واحد على قدر إنجازاته. إذن أولئك يمكنهم أن ينالوها، ينالوا ما أُعِّد بواسطة الآب الذي من خلالي يفعل كل شيء. ولا يعتقدن أحدٌ أنه ذكر الآب، وأنه هو الذي أعد الكرامات للقديسين بسبب أنه هو نفسه لا يمكن أن يعطي، لكنه يقول هذا بحسب التدبير، لأنه اعتاد أن ينسب كل شيء يفوق ويتخطى طبيعة الإنسان للآب. لكن، لأنه هو الله بحسب الطبيعة، وواحد مع الآب، لم يتردد في أن ينسب هذا للطبيعة الإلهية، لأنه هو الذي يفعل كل شيء.

إذن ففيما هو يشاهد ابني زبدي يشتهيان مجداً باطلاً، يغيِّر بأسلوب مقنع اتجاههما ويبعدهما عن الشر، معلِّماً إياهما أن يكونا معتدلين. وهذا نتحقق منه من الكلام الآتي بعد ذلك. لأن تلاميذ آخرين غضبوا وهم يشاهدون هذه العطيَّة التي هي للجميع تُخطف فقط من اثنين منتقدين اقتراب المرأة من المسيح وجدارتها لتطرح هذا الطلب.

عندئذٍ دعى المخلِّص الجميع، لكي يخبر ابني زبدي من خلال كلامه للجميع حتى لا يبدو أنه يوجه كلامه لهما فقط، وقال: "أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنّ رُؤَسَاءَ الأُمَمِ يَسُودُونَهُمْ، وَالْعُظَمَاءَ يَتَسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ. فَلاَ يَكُونُ هكَذَا فِيكُمْ. بَلْ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ فِيكُمْ عَظِيماً

فَلْيَكُنْ لَكُمْ خَادِماً، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ فِيكُمْ أَوَّلاً فَلْيَكُنْ لَكُمْ عَبْداً" (مت ٢٠: ٢٥ - ٢٧)، ومن ثمَّ يضع ذاته مثالاً قائلاً: "كَمَا أَنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِمَ، وَلِيَبْذِلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ" (مت ٢٠: ٢٨). ويختم كل ما قيل عارضاً بأكثر وضوح، الهدف الذي يختفي داخل هذه الأقوال، وأوجز مثلاً بمقتضاه نصح أيضاً هؤلاء المدعوين إلى العشاء أن لا يذهبوا مباشرةً إلى الموضع الأول، بل ينتظروا ذاك الذي دعاهم للعشاء أن يكرِّمهم بنفسه. لأنه يقول إنه من الأفضل أن تكون في المتكأ الأخير ويدعوك رب البيت إلى المتكأ الأول، عن أن تجلس في المتكأ الأول وتخجل عندما تقف في المتكأ الأخير؛ لأن آخراً قد عيَّنه للمتكأ الأول ربُ العيد (انظر لو ١٤: ٨ - ١٠).

إذن، فقد برهنّا بعد فحص كل الإصحاح أن المخلِّص لم يقل: "لَيْسَ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ"، لا لأنه لم يستطع أن يعطي النعمة، لكن بسبب التدبير الذي عرضنا له من قبل، وبالتالي لا فائدة من هوَس هؤلاء الذين يثرثرون.

المقالة السابعة والعشرون

عن:
"أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ، وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ" (يو ١٧: ٣).

١- اعتراضٌ من جانب الهراطقة

ها هُم يقولون إن الابن هو نفسه يعترف بأن الآب هو الإله الحقيقي، والآب نفسه يقول: "أَنَا الأَوَّلُ وَأَنَا الآخِرُ، وَلاَ إِلهَ غَيْرِي" (أش ٤٤: ٦). كيف إذن تقدِّمون الابن مع الإله الحقيقي الأول والوحيد، وتقولون إنه إلهٌ بحسب الطبيعة؟

٢- الرد

يجب أولاً أن يعرفوا أن الآب لم يقل هذه الأقوال لكي يلغي الابن.

ثانياً يجب أن يعرفوا لماذا، أو ما الذي حدث، فدفع بالآب ليصل إلى مثل هذه الأقوال.

لو كان الابنُ - كإنسانٍ - تعارك مع ذاك الذي ولده - مثل داود عندما حاربه أولاده[1] - لكُنّا نقول ربما عندهم حق في قولهم لهذه الأسطورة[2]، لكن إن كانت الطبيعة

([1]) أنظر ٢ صم ١٥: ١ - ١٩، ١ مل ١: ٥ - .... الخ.

([2]) يقصد أن الخلفية الإيمانية هي التي تحكم عملية تفسير النص، فمتى كانت الخلفية سليمة وصحيحة يكون التفسير صحيحاً. لذلك كان على الهراطقة أن يؤمنوا أولاً بأن الآب ليس منافساً للابن ولا الابن منافساً للآب، وكذلك أن الآب في الابن والابن في الآب بسبب وحدة الجوهر. والأمر الثاني الهام هو معرفة ما سبب قول هذه

الإلهية لا تعرف أن تثور ضد نفسها، بل على النقيض، يظهر الابن دائماً ناسباً المجد للآب، فأي سببٍ يدفع الآب لمثل هذه الأقوال؟ هكذا يظهر إن هذه الأقوال، إنما قيلت بالحري لكي تعيِّروا بها الآلهة الكاذبة. لأن المخلص بعد أن قال: "أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ"، أضاف مباشرةً ذاته قائلاً: "وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ"؛ لأنه غير محتزأٍ عن جوهر الآب فيما يخص الإلوهية، بل يُدرَك على أية حال مع الآب[1].

٣- ردٌ آخر

بما أن الابن هو **كلمة** الآب بالفعل، يُعد مجافياً للمنطق والعقل كل مَن يعتقد أن الآب قال عن نفسه إنه الإله الحقيقي لكي يلغي الابن الذي بواسطته يفعل كل شيء. وفضلاً عما في هذه الآراء من سخفٍ وعدم معقولية، يتجلى معنى هذه الآية وأهميتها في أنها ضد الآلهة الكاذبة، حتى لو لم يُرِد ذلك محاربو المسيح.

٤- ردٌ بحسب الافتراض

إذا افترضنا أن أُناساً حُرموا من الحكمة الحقيقية، عائشين في ضلال، أقاموا تمثالاً على شكل إنسان أو حيوان، ودعوه نوراً معتقدين أنه حقاً يلد النور، ولكن الشمس تدخلت وتكلمت قائلةً أيها الناس لا تضلوا، أنا فقط النور، لا يوجد نورٌ آخر سواي، فهل يعني هذا الكلام أن الشمس تلغي شعاعها، أم أنها تلغي النور الكاذب[2]؟ علينا ألاَّ نفكر

الأقوال. ويقول القديس أثناسيوس في نفس السياق سبب قول الله "ليس إله معي" (تث٣٢:٣٩) الآتي: "إن كان الابن هو **كلمة** الآب فمَن يكون بهذه الدرجة من الحماقة - عدا أولئك الذين يحاربون المسيح - حتى يظن أن الله قد تكلّم هكذا لكي يطعن في **كلمته** وينكره؟ فحاشا أن يكون تفكير المسيحيين هكذا! لأن هذه الآيات لم تُكتب ضد الابن، بل لكي تستبعد الآلهة الكاذبة التي اخترعتها البشر. والدليل على ذلك يكمُن في معنى هذه الآيات". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثالثة ،، فقرة ٧ ص ٢٢.

(1) يعطي القديس كيرلس توضيحاً رائعاً بخصوص قوله: "ويسوع المسيح الذي أرسلته"، قائلاً: "فمن الصواب تماماً، أن يتحدَّث أولاً عن الله أنه واحد وواحد فقط، ثم يذكر بعد ذلك مجده الذاتي بقوله "ويسوع المسيح الذي أرسلته". لأنه لا يستطيع أحد، بأية حال، أن يبلغ إلى المعرفة الكاملة للآب إن لم يمسك - بالارتباط اللصيق - بمعرفة وليده أي الابن. لأنه مَنْ يعرف الآب، لأبد أن يعرف الابن أيضاً". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، الجزء التاسع، الفصل الخامس ص ١٥٥.

(2) نفس المثل أورده القديس أثناسيوس في المرجع السابق: ضد الأريوسيين، المقالة الثالثة، فقرة ٨ ص ٢٢ - ٢٣.

مثلما يفكر الهراطقة. فعندما يقول الآب: "أنا هو الإله الحقيقي ولا يوجد آخر سواي"، فهو لا يُخرج **الكلمة** الذي أتى منه خارج الإلوهية؛ لأنه يوجد معه ويُعترَفُ به ويمجَّد مع الآب في إلوهيته.

٥- ردٌ آخر يبرهن على أنه عندما يقال عن الآب إنه الإله الوحيد، فإن هذا القول يتضمن الابن على أية حال.

قال الله لأحد الأنبياء: "أَنَا الرَّبُّ صَانِعٌ كُلَّ شَيْءٍ، نَاشِرٌ السَّمَاوَاتِ وَحْدِي، بَاسِطٌ الأَرْضَ. مَنْ مَعِي؟" (إش ٤٤: ٢٤)، لكن الله نفسه يقول: "أنا الذي نشرت السموات وحدي" (أر ١٠: ١٢ س)، وفي موضع آخر يقول بوضوح عن الابن: "بِكَلِمَةِ الرَّبِّ صُنِعَتِ السَّمَاوَاتُ" (مز ٣٣: ٦). إذن، فبينما يقول الله الآب إنه خلق السماء وحده، نرى أن الابن قد خلق السماء، إذن من الواضح أنه عندما يُقال إن الآب هو الإله الحقيقي وحده، فإن ذلك - على أية حال - يعني أن الابن الذي بواسطته خلق الآب كل شيء، متضمنٌ معه؛ لأنه يوجد حقاً فيه بطريقة طبيعية مثلما يوجد الشعاع في النور[1].

([1]) نفس الشرح نجده عند القديس أثناسيوس، إذ يقول: "حينما يقول الله: "أنا وحدي باسط السماء" (إش ٤٤: ٢٤) يصير واضحاً للجميع أن لفظة (وحده) تشير أيضاً إلى **الكلمة** الخاص بالوحيد، الذي به خُلقت كل الأشياء وبغيره لم يُخلق شيءٌ. لذلك إن كانت كل الأشياء قد خُلقت **بالكلمة**، ومع ذلك يقول "أنا وحدي" فإنه يعني أن الابن الذي به خُلقت السموات، هو مع ذلك الوحيد. هكذا إن قيل "إله واحد"، "أنا وحدي"، "أنا الأول" فهذا يعني أن **الكلمة** كائن في نفس الوقت في ذلك الواحد والوحيد والأول مثل وجود الشعاع في النور. وهذا لا يمكن أن يُفهم عن أي كائن آخر سوى **الكلمة** وحده. لأن كل الأشياء الأخرى خُلِقت من العدم بواسطة الابن، وهى تختلف اختلافاً كبيراً جداً فيما بينها من جهة الطبيعة، أما الابن نفسه فهو مولود حقيقي وطبيعي من الآب". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثالثة، فقرة ٩ ص ٢٥.

المقالة الثامنة والعشرون

في التفسير الصحيح للنص الوارد في إنجيل لوقا: "وَأَمَّا يَسُوعُ فَكَانَ يَتَقَدَّمُ فِي الْحِكْمَةِ وَالْقَامَةِ وَالنِّعْمَةِ، عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ" (لو ٢: ٥٢).

١- اعتراض

كيف يمكن أن يكون معادلاً للآب من جهة الجوهر، مَنْ كان غير كامل؟ لأنه يبدو أنه يتقدم في الحكمة، بينما الآب كاملٌ في كل شيء، ولا يقبل رُقيّاً أو تقدُّماً.

٢- الرد على هذا الاعتراض

ينبغي علينا أن نسأل محاربي المسيح عمَنْ يتحدث الإنجيل، قائلاً: "كَانَ يَتَقَدَّمُ فِي الْحِكْمَةِ وَالْقَامَةِ وَالنِّعْمَةِ". سيقولون طبعاً عن يسوع المسيح. أيها الأغبياء، مَنْ الذي يتحدث عنه لوقا؟ فإن كنتم تؤمنون أنه إنسانٌ عادي وافترضتم أنه لم يكن مميَّزاً عن أي أُناس آخرين، فهنا يصح أن يقول أنه يتقدم في الحكمة، لكنه هو الله الذي صار إنساناً، كما هو مكتوب (انظر يو ١: ١٤)، **والكلمة** الذي صار جسداً، أيُ تقدُّمٍ يمكن أن يحدث له؟ كيف يمكن أن يكون غير كامل مَنْ كان معادلاً لله؟ لأن ذلك يعني بالضرورة – وفق آرائكم – أن يكون الآب الذي هو معادل له أيضاً غير كامل. فإن رأيتم أن هذا تجديف (أي إذا قبلتم هذا الأمر عن الآب)، عندئذٍ بالضرورة يجب أن تؤمنوا بأن الابن أيضاً هو

كاملٌ ومعادلٌ معه. بالتالي لا يُقال عنه إنه تقدَّم بكونه **الكلمة**، بل بكونه إنساناً صار ولَبِسَ طبيعةً تقبل التقدم والنمو[1].

٣- ردٌ آخر

قال بولس عن **كلمة** الله إنه كان في صورة الله ومعادلاً لله (انظر فيلبي ٢: ٦). إذن، فبينما هو مساوٍ للآب، قَبِلَ التقّدم والنمو. وبالتالي نسألكم إلى أي حدٍ أصبح **الكلمة** أعظم من الآب، وهل الذي تفوّق، تقدَّم على مَن ولده؟ بالحقيقة إن آرائكم غير معقولة، **فالكلمة** لم يتقّدم بكونه إلهاً؛ لأنه كاملٌ مثل الآب، لكن ما قيل عنه كان بحسب التدبير بسبب تأنُّسه.

٤- ردٌ آخر

إذا كان **الكلمة ذاته** قد تقدَّم عندما صار إنساناً وأخذ جسدنا، فهو إذن لم يُفدِنا بتأنسه، بل صار الجسد بالنسبة له سبباً لكماله. لأنه لو كان حقاً قد تقدَّم عندما أخذ جسداً، لَكان معنى ذلك – بحسب رأيكم – أنه كان ناقصاً، وكمُلَ الآن. فإذا كان الأمر على هذا النحو، فكيف نشكره على أنه وُلِدَ لأجلنا، في الوقت الذي كان عليه هو أن يشكرنا على كماله الذي ناله بالتجسد؟

لا شك أن هذا الكلام غير معقول، لأنه لم يتقدم بكونه **الكلمة**، لكن هذا الكلام قيل بحسب التدبير بسبب تجسده.

---

(1) يشرح القديس كيرلس بكل وضوح هذا الآمر في تفسير إنجيل لوقا وبالتحديد نفس النص لو ٢: ٥٢، إذ يقول: "أن يُقال إنّ "الطفل كان ينمو ويتقوى بالروح، ممتلئاً حكمة وكانت نعمة الله عليه"، هذا الكلام ينبغي أن يؤخذ على أنه يشير إلى طبيعته البشرية، وأرجو أن تفحصوا باهتمام في عمق التدبير: فالكلمة يحتمل ويقبل أن يولد في صورة بشرية، رغم أنه في طبيعته الإلهية ليس له بداية وليس خاضعاً للزمن. والذي هو إله كامل تماماً من كل ناحية، يخضع للنمو الجسدي. وغير الجسدي صارت له أطراف تنمو مع نمو بشريته. والذي هو نفسه الحكمة كلها يمتلئ بالحكمة. وماذا نقول عن هذا؟ – فإن الذي كان في صورة الآب – قد صار مثلنا، والغنى أخذ صورة الفقر، والعالي أخذ صورة الاتضاع، والذي له الملء يُقال عنه إنه ينال ويأخذ". تفسير إنجيل لوقا، المرجع السابق، عظة٥ ص ٥١.

٥- ردٌ آخر

كلمة الله دُعيَ بأسماء كثيرة في الكتاب المقدس. فيقال عنه إنه الابن، كما يقال أيضاً إنه الحكمة. هو يُدعى أيضاً قوّة الآب وصورته. فإذا افترضنا أنه تقدَّم، بالرغم مما دُعيَ به من ألقاب، فما هو هذا الأمر الأعظم الذي يمكن أن يقولوه عن الابن عدا أنه: الحكمة، القوة، الإله، وكل الألقاب الأخرى؟ ولذلك يُعَدُّ تجديفاً أن يؤمن أحدٌ بهذه الأفكار، لأنه لا يوجد شيءٌ أعظم من الله. بالتالي لا يُقال إن **الكلمة** تقدَّم[1].

٦- ردٌ آخر

الرئاسات والكراسي والربوبيات وأيضاً الملائكة ورؤساء الملائكة وكل القوات، وكذلك البشر أيضاً يصيرون كاملين من جهة التقوى باشتراكهم في **الكلمة**. إذن، كيف لَمن يعطي هؤلاء الكمال، أن يكون غير كاملٍ، حتى أنه يطلب أن يتقدم وينمو جسدياً؟ وبما أنه هو حقاً الحكمة، فكيف يمكن أن يتقدم في الحكمة؟ وكيف يتقدم في النعمة - كأنه لا يمتلكها - مَنْ يعطي الآخرين النعمة؟ هل يقولون إن بولس كان يكذب حين دَعى الابن حكمةً، ومانحاً للنعمة؟ لكن إذا كان خادم الحق لا يكذب، فالابن إذن، لم يتقدَّم بكونه **الكلمة** الإله، لكن هذا التقدم ينصرف إليه بعد تأنسه، إذ لأجلنا أخذ كل ما يخصنا[2].

---

(1) مشكلة الهراطقة كما رأينا من خلال شرح القديس أثناسيوس وكذلك القديس كيرلس أنهم ينسبون الأوصاف البشرية على الله **الكلمة** قبل تجسده، وبالتالي فهم لا يفحصون عن مَنْ قيلت الأقوال هل على **الكلمة** بكونه الله أم على الكلمة المتجسد بكونه إنساناً. والقديس كيرلس ينصحنا ،قائلاً: "لا تتعثروا في أنفسكم وتقولون كيف يُمكن أن الله ينمو؟ وكيف ينال حكمة جديدة ذلك الذي يعطي الحكمة للملائكة والبشر؟ فتأملوا السرَّ العظيم الذي يُعطَى لنا. لأن البشير الحكيم لم يُقدِّم لنا الكلمة في طبيعته المجرَّدة غير الجسدية ولم يقل عنه وهو في هذه الحالة إنه يزداد في القامة والحكمة والنعمة، ولكنه بعد أن أوضح أنه قد وُلِد في الجسد من امرأة وأخذ شكلنا، فحينئذ ينسب إليه هذه الخصائص البشرية، ويدعوه طفلاً ويقول إنه كان يتقدم في القامة، إذ أن جسده نما قليلاً قليلاً خاضعاً للقوانين الجسدية". تفسير إنجيل لوقا، عظة ٥ ص ٥٢.

(2) التأكيد هنا على أن **الكلمة** أراد أن يعيد الجنس البشرى الذي سقط إلى الحالة الأولى، فالتجسد – كما يقول القديس كيرلس – كان لخير البشرية وبالتالي حين يُقال أنه تقدّم فهو يشير للطبيعة البشرية، هكذا يقول القديس كيرلس أثناء شرحه لإنجيل يوحنا: "فإن الآب جعل الابن يترل بإرادته إلى جسد الخطية، لكي إذ يجعل الجسد نفسه خاصاً به، يمكن أن ينقله إلى خاصيته الطبيعية أي إلى عدم الخطية. لأنه يكون من عدم الصواب أن تعتقد

٧- ردٌّ آخر

غير الكامل يسعى دائماً نحو الكمال غير مكتفٍ بوضعه الأول الموجود فيه، يطلب دائماً الأعظم والأحسن. فمثلما يتقدّم الناس في الحكمة آخذين فضائل أخرى فيتحسنون تدريجياً، هكذا ننطلق إلى كمال الحياة. لكن **كلمة** الله الذي يوجد كاملاً في الآب أين يذهب؟ وأيُ نمو يمكن أن يقبله، طالما هو كامل حيث إن كل الآب فيه، وهو بالكامل في الآب؟ لأنه إذا كان هو ملء كل الآب (دعنا نقول هذا الأمر كمثال) وكان قد قَبِلَ تقدماً ما أو نمواً، عندئذٍ لَخرَجَ من الآب وصار أعظم من ذاك الذي كان موجوداً فيه، ولَمَا ظل كاملاً في كاملٍ ولديه الكمال فيه. بالتالي لم يتقدم بكونه **الكلمة**، بل هو كاملٌ، ويظل هو نفسه بدون أن يتغيَّر.

٨- ردٌّ آخر

قال بولس عن الابن إنه وضع ذاته آخذاً شكل العبد (انظر فيلبي ٢: ٧)، وإذا كان أحدٌ لا يعثر عندما يسمع بأنه وضَعَ ذاته، ويفكر بأن **كلمة** الله لحقه أمرٌ وضيعٌ، بل على النقيض يندهش من محبته للبشر، فكيف لا يكون من النافل والعبث أن يُقال إننا نعثر من سماع أنه تقدَّم؟ لأنه، إذا كان باتضاعه لم يعتريه شيءٌ من جهة إلوهيته، هكذا الأمر أيضاً عندما وضع ذاته، فقد قَبِل لأجلنا الرقي والتقدم؛ لكي نرتَقِ نحن متَّحدين معه في الحكمة، نحن الذين – قديماً – بسبب الخطية، صِرنا مثل الحيوانات في تصرفاتنا، ولنرتقِ أيضاً في النعمة نحن الذين – قديماً – كُنا مبغَضِين بسبب مخالفة آدم. لأن المسيح أخذ في

أن الابن الوحيد قد صار إنساناً ليحقق حالة عدم الخطية لهيكل جسده هو وحده، فأين يكون مجده وفائدة مجيئه بالنسبة لنا لو كان قد تمم خلاص جسده هو وحده؟ ولكننا بالحري نؤمن أن الابن الوحيد قد صار مثلنا لكي يضمن البركات لكل الطبيعة البشرية بواسطة نفسه وفي نفسه أولاً كباكورة للبشرية. لأنه كما أن تعدي الإنسان الأول واللعنة الإلهية المرتبطة به أعطانا ليس الموت فقط بل كل آلام الجسد التي بدأت في الإنسان الأول؛ هكذا بنفس الطريقة، كما أفهم، فإننا جميعاً سنتبع المسيح، وهو يخلّص ويقدّس في ذاته طبيعة الجسد بطرق متنوعة. لذلك يقول الرسول بولس أيضاً: "وكما لبسنا صورة الترابي، سنلبس أيضاً صورة السمائي" (١ كو ١٥: ٤٩). فإن "صورة الترابي" – أي صورة آدم – هي في الآلام والفساد؛ و"صورة السمائي" – أي صورة المسيح، هي في عدم التألم وعدم الفساد". شرح إنجيل يوحنا، الجزء الثامن، الإصحاح الرابع عشر ص ١٢١ – ١٢٢.

ذاته كل ما يخصنا؛ لكي يغيِّر الكل نحو الأفضل، وليَصِر بدايةً[1] وأصلاً في كل صلاح للبشرية.

٩- ردٌ آخر: شرحٌ مقنعٌ للآية نفسها

الناموس الطبيعي لا يسمح للإنسان أن يتصرف تصرفاً أعظم من قامته الجسدية، بل يتناسب فهمنا مع نمو جسدنا. ومع أن **الكلمة** كان كاملاً، بما أنه هو الحكمة وقوة الآب (انظر ١ كو ١: ٢٤)، إلاّ أنه عندما صار إنسانا في الجسد كما هو مكتوب (انظر يو ١: ١٤)، كان عليه أن يخضع لناموسنا الطبيعي[2] حتى لا يُظن من جانب هؤلاء الذين يرونه، كأنه مخلوق غريب، لذا مضى تدريجياً في نمو الجسد كإنسان. وأظهر من يومٍ إلى يومٍ ذاته، على أنه أحكم من أولئك الذين يرونه أو يسمعونه، بالرغم من أنه كامل في كل شيء، كما قلنا، تابعاً بذلك ناموس الطبيعة العام.

إذن، فعندما تسمع أنه تقدم في الحكمة والنعمة، لا تعتقد أن حكمةً إضافيةً قد صارت له؛ لأن **كلمة** الله ليس في احتياج لها، بل لأنه بدا للذين يرونه أكثر حكمة ونعمة، لذلك يُقال إنه تقدَّم، حتى بهذا التقدم ينجذب إليه أولئك الذين يعجبون به.

---

(١) المسيح صار لنا بدايةً وأصلاً، وهذا ما أكده أيضاً القديس كيرلس أثناء الحديث عن المذبح المصنوع من الخشب، إذ يقول: "لقد صار المذبح من الخشب الذي لا يعتريه الفساد وكان كله مُغَشىً بالذهب. لأن جسد المسيح هو غير فاسد ويحوي في داخله غنى الطبيعة الإلهية، "الكلمة صار جسداً وحل بيننا" (يو ١:١٤). إذن المسيح هو بدايتنا وأصل جنسنا، جنسنا هذا الذي أعيد خلقه لعدم الفساد وبالاتحاد بالله، وعدم الفساد يمكن أن يُفهم باعتباره استثناءً من جهة الله". السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء الخامس، المقالة التاسعة ص ٨٣.

(٢) يشرح القديس كيرلس هذا الأمر- في تفسيره لإنجيل لوقا - بكل وضوح، إذ يقول: "قيل عنه إنه كان يتقدم في الحكمة، لا كمن ينال مئونات جديدة من الحكمة - لأن الله معروف بأنه كامل تماماً في كل شيء ولا يمكن بالمرَّة أن يكون ناقصاً في أي صفة مناسبة للاهوت - بل ازدياده في الحكمة هو بسبب أن الله الكلمة أظهر حكمته بالتدريج بما يناسب مرحلة العمر الذي يبلغها الجسد.إذن فالجسد يتقدم في القامة والنفس تتقدم في الحكمة، لأن الطبيعة الإلهية غير قابلة للازدياد لا في القامة ولا في الحكمة إذ أن كلمة الله كامل تماماً. ولذلك فإنه لسبب مناسب ربط بين التقدُّم في الحكمة ونمو القامة الجسدية، بسبب أن الطبيعة الإلهية أعلنت حكمتها الخاصة بما يتناسب مع قامة النمو الجسدي". تفسير إنجيل لوقا، عظة ٥ ص ٥٢.

١٠- ردٌ آخر

إن مَن يرتقِ في شيءٍ معيَّنٍ، يكون هو الذي يترقى وليس الشيء. فإذا قيل عن الابن إنه ارتقى في الحكمة، فهذا يعني أن الحكمة ذاتها لم ترتقِ، بل الطبيعة البشرية التي اتخذها **الكلمة**. لأن إلوهيته أيضاً كانت تُعلَن وتُظهَر فيه يوماً فيوماً، وصارت محط إعجابٍ بالأكثر لمن كانوا يرونه. هذا هو ما تعنيه عبارة: "تقدَّم في الحكمة".

١١- ردٌ آخر

تتقدم الطبيعة البشرية في الحكمة وفقاً للطريقة الآتية: الحكمة الذي هو كلمة الله اتخذ الطبيعة البشرية فتألَّهت[١] وهذا بُرهِنَ من خلال أعمال الجسد، والنتائج العجيبة في أعين أولئك الذين يرون الهيكل (الجسد) الذي أخذه، جعلته يرتقي بالنسبة لهم. هكذا ارتقت الطبيعة البشرية في الحكمة متألِّهةً بواسطتها. لذلك أيضاً نحن بطريقة مماثلة **للكلمة**، الذي لأجلنا تأنَّس، نُدعى أبناء الله وآلهةً[٢]. لقد تقدَّمت طبيعتنا في الحكمة منتقلةً من الفساد إلى عدم الفساد[٣]، ومن الطبيعة البشرية إلى الإلوهية[١] بنعمة المسيح.

---

(١) يقصد مسألة تبادل الخواص بسبب إتحاد اللاهوت بالناسوت كاتحاد الحديد بالنار، ونحن نعترف بأن لاهوته لم يفارق ناسوته ولو للحظة أو طرفة عين، وهذا الاتحاد هو بلا امتزاج أو اختلاط أو تغيير. ومن هنا فإن الطبيعة البشرية قد نالت من إتحادها بالطبيعة الإلهية كل ما يخص **الكلمة** بكونه إلهاً فهو أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له.

(٢) كما أكدنا سابقاً، نحن نأخذ هذه العطية بحسب النعمة.

(٣) ما كان لنا أن نتخلص من الفساد لو كان الابن ليس مساوياً للآب في الجوهر وليس هو وجه الآب أو صورة الآب، وهذا ما أكده القديس كيرلس حين قال: "فالابنُ، وهو وجه الله الآب الذي ظهر لنا، ولا يمكن أنْ يكون لدينا أي تردد تجاه هذه الحقيقة؛ لأنه هو ختمه ورسم جوهره، وبواسطته وفيه نحصل على معرفة الآب. وبهذه المعرفة يأتي إلينا، لذا يجب أنْ نكون رُحماء؛ لأننا خلصنا بالإيمان وليس من أعمال البر التي نفعلها، لكن بسبب رحمته العظيمة (انظر تي ٣: ٥) ألقينا عن كاهلنا الفساد وأخذنا شكلاً جديداً مناسباً لحياة المسيح الجديدة، بسبب رحمة الله". السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء السادس، المقالة الحادية عشر ص ١٢٩ - ١٣٠. أيضاً القديس كيرلس يشرح حقيقة تجسد الابن لكي يخلص الإنسان في موضع آخر، قائلاً: "لم يشأ أن يرى هلاك خليقته على الأرض، أعني الإنسان، بل على العكس، فلأجل أنه رأى أن الطبيعة البشرية قد أُصيبت بمرض عُضال، فقد أرسل **كلمته** الذي يستطيع وحده أن يحطم مملكة الشيطان ويحررنا من الشرور التي أمسكتنا في قبضتها" الرسالة الفصحية الأولى، ترجمة د. ميشيل بديع عبد الملك مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية مايو ٢٠٠٤، فقرة ٦ ص ٢٨.

١٢- اعتراض من الهراطقة

سمعت الكتاب المقدس يقول إن **كلمة** الله عندما صار إنسانا دُعيَ يسوع (انظر يو ٢: ٢١). إذن، فيسوع هو الذي تقدَّم. فلماذا تتحدث عن الطبيعة البشرية طالما أن بولس يكرز بربٍ واحد (أف ٤: ٥). وإن كان الأمر هكذا، كيف يكون هو معادلاً للآب؟

١٣- الرد على هذا الاعتراض

لا يمكنك أن تقلل من إلوهية الابن، ولا يمكنك أن تنتزعه من مقامه الطبيعي، حتى لو ظلّلت تردد هذا الذي تقوله، بل بالحري سوف يهزمك ما قلته، ولا أعتقد أنك تغلب به. فإذا كنت تعرف أن **الكلمة** صار جسداً، ووُلِدَ كإنسانٍ، كما يقول الكتاب المقدس، فلماذا لا تقبل أن هذا اختبر كل ما يختص بالإنسان فيما عدا الخطية؟

(١) طبعاً، التأله – كما قلنا سابقاً – بالنسبة لنا نحن البشر لا يعني بأية حال تغير طبيعة الإنسان البشرية إلى الطبيعة الإلهية، بل اكتساب الطبيعة البشرية للنعم الإلهية إذ صرنا كما قال الرسول بطرس "شركاء الطبيعة الإلهية" (٢ بط ١: ٤) بفضل التجسد، وهذا واضح من سياق النص؛ لأن القديس كيرلس يؤكد أن ذلك تم بنعمة المسيح.

ولأن التقدم يخص الجسد، يقال عنه إنه تقدَّم؛ لأنه تجسد، وجعل أوجاع الجسد خاصةً به؛ لأن الجسد لم يكن لأحدٍ آخر، بل **للكلمة** ذاته. ومثلما نقول إن هذا تألم بحسب الجسد، بالرغم من أن الجسد فقط هو الذي تألم، لأنه حتى لو لم يكن قد تألم بكونه إلهاً، إلاَّ أن الجسد الذي تألم كان خاصاً به، هكذا الأمر أيضاً، عندما يقال إنه تقدَّم؛ لأنه كإله لا يقبل أي تَقَدُّم، لكن هذا صار؛ لأن جسده هو نفسه كان يتقدَّم في هذا النمو[1].

([1]) بفضل سُكنى **الكلمة في** الجسد جعله ينمو ويتقدم ويسمو على الفساد، وهذا ما يشرحه القديس كيرلس - أثناء حديثه عن العليقة المشتعلة التي رآها موسى في البرية ولم تمسسها النار بأذية على مثال التجسد وإتحاد اللاهوت بالناسوت – إذ يقول: [وكون أن هذا الذي من طبيعته قابل للفساد، أي الجسد جعله أسمى من الفساد، قد أظهرته لنا نار العليقة التي تركت الشجرة سليمة ولم تمسها بأذية. كيف يمكن لأحد أن يتردد في أن كلمة الله الذي هو الحياة بطبيعته أحيا هيكله وجعله غير فاسد وعديم الموت؟ حسناً لقد تركت النيران نبات العليق سليماً والنيران صارت محتملة في أصغر وأضعف نبات. هكذا، كما قلت، صارت الطبيعة الإلهية في الطبيعة البشرية. وهذا السر صار في المسيح. لأن **كلمة الله** سكن فينا بدون أن يطلب عقابنا ولا أن يديننا بل أنعم علينا بمعاملات صالحة ولطيفة كما قال هو نفسه "لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم" (يو ٣: ١٧). حسناً لم تحترق العليقة، بالرغم من أنها كانت محاطة بالنيران ومتقدة. هكذا لم نُعاقب بسبب خطايانا، كما قلنا سابقاً، لكن أحاطنا المسيح ببهاء الروح القدس وسكن فينا الروح الذي به نصرخ "يا أباً الآب" (رو ٨: ١٥). حين رأى موسي تلك الرؤية قال: "أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم. لماذا لا تحترق العليقة" (خر ٣: ٣). الملاك الطوباوي هو الذي أعاق النيران من أن تحرق العليقة، وقال نائباً عن الله لموسي: "لا تقترب إلى ههنا. اخلع حذائك من رجليك. لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة" (خر ٣: ٥). لقد دعا الصحراء الجرداء، التي تنبت شوكاً والتي فيها العليقة أرضاً مقدسةً، هذا يرمز إلى الكنيسة التي من الأمم والتي يقول لها الكتاب المقدس: "ترنمي أيتها العاقر التي لم تلد أشيدي بالترنم أيتها التي لم تتمخض لأن بني المستوحشة أكثر من بني ذات البعل قال الرب" (أش ٥٤:١). أيضاً وعد الله بأن يجعل القفر غدير ماء. لأنه أغدق علينا نحن الذين دُعينا من الأمم بنعمة المخلص وكنهر غمرنا بالمواهب السماوية وأسكرنا بغناه الوفير. هذا ما قاله داود العظيم: "يجعل القفر غدير مياه وأرضاً يبساً ينابيع مياه" (مز ١٠٧:٣٥)]. جيلافيرا، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، الكتاب الشهري عدد سبتمبر ٢٠٠٩.

المقالة التاسعة والعشرون

على:
"وَمَتَى أُخْضِعَ لَهُ الْكُلُّ، فَحِينَئِذٍ الابْنُ نَفْسُهُ أَيْضاً سَيَخْضَعُ لِلّذِي أَخْضَعَ لَهُ الْكُلّ، كَيْ يَكُونَ اللهُ الْكُلَّ فِي الْكُلِّ".
(١ كو ١٥: ٢٨).

١- معارضة من جانب الهراطقة

إذا كنا نصدق ما قاله بولس عن أن الابن سوف يخضع للآب، فكيف يكون الابن عندئذٍ مساوياً للآب بحسب الطبيعة؟ فالضرورة تحتم عليكم أن توافقوا على أن الذي يخضع هو أدنى ممن يُخضَع له، فالذي يفوز – مثلاً – هو أسمى من المهزوم.

٢- الرد

إن محاربي المسيح لا يدركون أنهم بهذه الأقوال يحاربون أيضاً تجديفهم. فلو قبلت أن يكون الابن أدنى من الآب، فلماذا تستعجل في تدعيم هذا الرأي قبل أن يخضع فعلاً؟ لأن بولس يقول: "حينئذٍ سيخضع"، فهو إذن يحدد الزمن الذي يحدث فيه هذا الأمر، أي في المستقبل، وبالتالي لا يُظهِر أنه خاضعٌ الآن بالفعل.

ثم كيف تظنونه ليس تجديفاً ما تقولونه من أن الابن لا يخضع الآن للآب، وإنه بطريقةٍ ما يقف ضد ذاك الذي ولده؟ لأن مَن لا يخضع، إنما يفعل مشيئته هو. فإذا كان الأمر على هذا النحو، فما رأيكم فيما قاله المسيح: "لأَنّي قَدْ نَزَلْتُ مِنَ السَّمَاءِ، لَيْسَ

لأَعْمَلَ مَشِيئَتِي، بَلْ مَشِيئَةَ الَّذِي أَرْسَلَنِي" (يو ٦: ٣٨)؟ ليتهم يقولون لنا - إذا كانوا قادرين على إدراك الكتب المقدسة - ما إذا كان تتميم مشيئة الآب لا يعني الخضوع؟ إذن. كيف يقال عمن يخضع الآن، إنه سوف يخضع حينذاك؟ ليتهم يسمعون إذن - عن حق - "تَضِلُّونَ إِذْ لاَ تَعْرِفُونَ الْكُتُبَ" (مت ٢٢: ٢٩).

٣- ردٌ آخر

إذا كنتم تقبلون أن يكون الابن مخلوقاً ومصنوعاً، وبالتالي يخضع لهذه الأمور التي صارت، اخبرني إذن يا صاحب - وفق عدم تبصُّرِكَ - إذا كان يمتلك جوهر العبد، فكيف لا يخضع الآن إلى آب الجميع، إذا كان المرنم يقول عن المخلوقات: "الكل عبيدك" (مز ١١٩: ١٩)؟

نحن أمام أحد خيارين: إمَّا أن نقول إن الآب لا يستطيع أن يُخضع الابن له، دون أن يريد الابن ذلك، الأمر الذي يعني أن يكون الابن أسمى من الآب في حين أنه وفقاً لرأيكم هو الأدنى. وإمَّا أن نقول إن الخضوع شيءٌ حسن، لكن الابن لا يخضع الآن، طالما يقال عنه إنه سوف يخضع في المستقبل، وهو ما يمكنكم معه أن تحسبوه عليه خطية. فإذا كان ما قيل عنه من أبيه حقيقياً بأنه هو: "الذي لم يفعل خطية" (راجع ١ بط ٢: ٢٢، أش ٥٣: ٩)، فليكن إذن هذا الحديث بعيداً عن أي سخفٍ وعبث.

٤- معارضة من جانب الهراطقة

كيف لا يتضح للجميع أن الابن أدنى من الآب، طالما أنه يخضع له؟

٥- الرد

وكيف لا يكون واضحاً للجميع (وأنا هنا استخدم نفس كلامكم) أن المساوي يخضع في مرات كثيرة - من أجل التدبير - للمساوي له؟ ألا تصدقون أن روح الأنبياء واحدة؟ فكيف يقول بولس إن: "أَرْوَاحُ الأَنْبِيَاءِ خَاضِعَةٌ لِلأَنْبِيَاءِ" (١ كو ١٤: ٣٢)، بالرغم من أن لديهم نفس الجوهر ويشتركون في نفس الطبيعة؟ فلا الذين يخضعون، هم

طبيعة أدنى، ولا أولئك الذين يُخضَع لهم لديهم طبيعة أسمى، أو أكبر[1]. لأنه بالرغم من وحدة الجوهر التي تجمع كل البشر، إلاّ أن خضوعهم لبعضهم البعض ينتج آلافاً من الأمور الحسنه. وطالما أن هذا الأمر الحسن قد عُيِّن أيضاً لنا، وبطريقة ما، لا يُخرجنا خارجاً عن حدود الطبيعة، فلماذا لا تتجنبوا هذا التجديف السخيف محافظين على مساواة **الكلمة** بالله (الآب)؟

٦- ردٌ آخر

أيها الأصدقاء، مِن أين لكم أن تقولوا إن مقولة الخضوع تعني أن الابن أدنى من الآب؟ إن جوهر الابن لا يتحدَّد بالخضوع، ولا يتوقف وجود الابن على الخضوع، لأنه، بينما هو يوجد بطريقة مميَّزة، يُقال عنه إنه يخضع. وحيث أن كلمة خضوع لا تصف جوهره، إذن فليس هو أدنى من الآب. لكن لو اعتقدتم أن الخضوع يمثل تحديداً لجوهر الابن، فعليكم أن تلاحظوا في أية هوة تجديف أنتم تسقطون[2]. لأنه إذا كان الأمر على

---

(1) نفس هذه الحُجة نجدها في: حوار حول الثالوث للقديس كيرلس، إذ يقول: "لأنه وفق ما هو مكتوب أن أرواح الأنبياء تخضع للأنبياء، وأولاد (فلان) مثلا يخضعون لأبيهم تماماً مثلما تستطيع أن تقول إن إسحق قد خضع لإبراهيم ومَنْ وَلَده اسحق كان خاضعاً لأبيه الذي وَلَده. لكن لا أرواح الأنبياء كانت لها طبائع مختلفة بسبب الخضوع، ولا الطوباوي اسحق كانت طبيعته مختلفة ومن جنس آخر لأنه كان خاضعاً لأبيه بسبب توقيره له، مُظهراً طاعة لَمنْ وَلَده وإكراماً لبنوَّته له. إذن كان سيكون الأمر صحيحاً لو أن عملية الخضوع كانت ستغيِّر من طبيعة مَنْ يخضعون وتظهرهم كأن لهم طبيعة مختلفة عن طبيعة مَنْ يخضعون له، وتجعلهم غرباء عن كلّ علاقة هي بحسب الطبيعة، وكان سيكون الأمر هكذا حتى بالنسبة للابن، إما إن كان الحديث عن أمر الخضوع لا يضيرهم على الإطلاق إذ هو كما أعتقد يمثل نوع من إكرام الابن للآب، وتصرّف يعكس تقدير واحترام لمن نكن لهم كلّ تقدير وتوقير، ولا يقلّل – بالنسبة لنا نحن الذين نفعل هذا الأمر – من طبيعتنا، عن طبيعة مَنْ نخضع لهم، أي إن كان الأمر هكذا فلماذا ينسب هؤلاء وبطريقة حمقاء، هذا الأمر للابن الذي هو الله بالطبيعة وقد أتى من الله؟". حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الرابع، الحوار الخامس ص ٨٧.

(2) سقوط الهراطقة يتمثل في أنهم يستخدمون الكتاب المقدس لخدمة آرائهم المنحرفة، وهذا يرجع – كما قلنا – إلى عدم اعتمادهم على الإيمان المستقيم في شرح النصوص الكتابية، الأمر الذي يؤكد علية مراراً القديس كيرلس، إذ يقول في حواره حول الثالوث: "لأنه في مرّات كثيرة يوجِّه المعاندون كلامهم ضد مجد الابن الوحيد وهم يستخدمون كلمات الكتاب المقدس في اتهاماتهم فعندما يقرأون ما قاله بولس الطوباوي "وَمَتَى أُخْضِعَ لَهُ الْكُلُّ فَحِينَئِذٍ الابْنُ نَفْسُهُ أَيْضاً سَيَخْضَعُ لِلَّذِي أَخْضَعَ لَهُ الْكُلَّ كَيْ يَكُونَ اللهُ الْكُلَّ فِي الْكُلِّ"(١ كو ١٥: ٢٨)، فإنهم – حسب ظنهم – يقولون إن هذه مشكلة عويصة تتطلّب مناقشات طويلة. غير أن الآخرين الذين يحبون الله من

هذا النحو، فمن الضروري أن تقولوا إن الابن يدعى حينذاك إلى الوجود، أي عندما يأتي وقت الخضوع؛ لأن بولس يذكر أنه سوف يخضع في المستقبل، إذ هو للآن لم يخضع بعد.

٧- ردٌ آخر يحتوي على شرحٍ مقنعٍ للنص

الآب يفعل كل شيء بواسطة الابن، وهذا شكلٌ من أشكال الخضوع، أي أنه يظهره على أنه يخضع لمشيئة الآب. فعندما قال الآب: "نعمل الإنسان" (تك ١: ٢٦)، أخذ **الكلمة** من الأرض طيناً وصنع هذا الذي تقرَّرَ. لأنه يقول: "كلُ شيءٍ به كان" (يو ١ :٣).

وحسناً يعلمنا بولس الرسول بأنه في الأزمنة الآتية سوف يصنع الله كل شيء أيضاً بواسطة الابن، إذ يقول بكل حكمة: "وَمَتَى أُخْضِعَ لَهُ الْكُلُّ، فَحِينَئِذٍ الابْنُ نَفْسُهُ أَيْضاً سَيَخْضَعُ لِلَّذِي أَخْضَعَ لَهُ الْكُلّ، كَيْ يَكُونَ اللهُ الْكُلّ فِي الْكُلِّ" (١كو ١٥: ٢٨). أي كأنه يقول: لا يظنَّنَ أحدٌ أننا سنكون نحن شركاء الآب في الحياة الآتية بطريقة مختلفة، لكن أيضاً بواسطة الابن. وتعبير "بواسطة الابن"، يعني الخضوع، دون أن يقلل ذلك أبداً مما يخص جوهر الابن، بل يعلن مقدَّماً بطريقة فائقة للعقل ولا نظير لها، وحدة الثالوث القدوس. لأنه لن يتمرد وقتذاك على ذاته، ولن يسبب - بتغييرات فوضوية - إزعاجاً لهذا الذي هو غير متغيِّر، بل في ذاك الوقت أيضاً، سيكون الآب بواسطة الابن الكل في الكل، حياةً وعدمَ موتٍ وفرحاً وقداسةً وقوةً، وكل ما أُعطي كوعدٍ للقديسين.

وعليك أن تلاحظ عمق التدبير الذي يحمله الشاهد الكتابي؛ لأنه قال: إن الكل سيخضع بواسطة الابن للآب، حتى لا تظن أن الآب سوف يُبعَد عن أن يكون ربَ الكلِ، لأن الابن سيكون سيداً على الكل. لأن الشاهد الكتابي ليس مضطراً لأنْ يقدِّم مَن سيصير سيداً على الكل، على أنه غير خاضع للآب بالضرورة. لأن الآب له قوة السيادة على الكل

قلوبهم ويسهرون من أجل محبتهم في التعلّم وفي التمسك بالإيمان القويم، فهؤلاء يجدون صعوبة في فهم الآية ليس بسبب أنها غير سليمة بل بسبب تحريف المعاندين لمعناها، الذين يرفضونها ظانين أنها غير سليمة. غير أن هؤلاء المؤمنين يتسلّحون سريعا بأسلحة الحق ويهدمون كلَّ المعوقات التي تسببها كلُّ الأفكار الخاطئة، وحينئذ يرون هذه الآية بمعناها الصحيح ويرجعونها إلى معناها المستقيم، أي إلى خضوع المسيح حسب الجسد من أجل التدبير".
حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الرابع، الحوار الخامس ص ٨٨ - ٨٩.

بمشاركة الابن بطريقة طبيعية في هذا الأمر؛ لأن إلوهية الثالوث الواحدة لها السيادة والملك، الآب بواسطة الابن مع الروح القدس.

٨- ردٌ آخر

والذي هو خاضعٌ الآن للآب، كيف يُقال عنه إنه سوف يخضع بعد أزمنةٍ، أو بالحري في الدهر الآتي؟ ألا يخضع الآن متمماً مشيئة الآب، مُخلياً ذاته[1] كما هو مكتوب (أنظر فيلبي ٢: ٧) آخذاً شكلَ وهيئةَ عبدٍ؛ لكي يتمم عمله[2]، كما يقول هو ذاته (أنظر يو ١٧: ٤)؟ أعتقد أن هذا واضحٌ وضوحاً كاملاً للجميع، ويظهر حقاً بفحص هذه الأمور. إذن كيف يقول لنا بولس العظيم إن الذي هو بالفعل خاضعٌ الآن، سوف يخضع في المستقبل؟ ليتنا نفحص الشاهد بدقة: "وَمَتَى أُخْضِعَ لَهُ الْكُلُّ، فَحِينَئِذٍ الابْنُ نَفْسُهُ أَيْضاً سَيَخْضَعُ لِلَّذِي أَخْضَعَ لَهُ الْكُلَّ، كَيْ يَكُونَ اللهُ الْكُلَّ فِي الْكُلِّ" (١ كو ١٥: ٢٨). فماذا يريد أن يقول؟ المسيح أيضاً الآن خاضعٌ للآب، لكن ليس في الكل، لكن فقط في هؤلاء الذين يؤمنون به (أنظر كو ١: ٢٢)، ولأجل هؤلاء قَدَمَ ذاته ذبيحةً للآب كحملٍ بلا عيب[3]، محتقراً الصليب والعار[1]. هكذا، ولأنه حررَّهم مِن كل خطية، قادهم أطهاراً وبلا

---

(1) يوضح القديس غريغوريوس النيصي هذه الحقيقة، قائلاً: "بعدما اتحدت طبيعتنا الإنسانية بالطبيعة الإلهية غير المائتة، في شخصه المبارك يتحقق فينا مقولة "خضوع الابن" طالما أن الخضوع الذي يتحقق بالجسد تم في الابن الذي وضع فينا نعمة الخضوع". القديس غريغوريوس النيصي، خضوع الابن للآب، ترجمة د. سعيد حكيم يعقوب، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية يونيو ٢٠٠٥، ص ١٩.

(2) من خلال شرح معنى أمر الرب - في العهد القديم - بأن لا يسكب دم أو تُذبح ذبيحة على مذبح الذهب، يؤكد القديس كيرلس على أن الابن تمم كل شيء وأبطل الذبائح الناموسية، إذ يقول: "ممنوعٌ تماماً أن يوجد فوقه، أي فوق مذبح المسيح (في العهد الجديد)، سكيبٌ أو تقدمة ذبيحة. لأنه بالمسيح أُبطلت فرائض الناموس، والظلال وصلت إلى نهايتها. هذا ما يشير إليه عدم إصعاد محرقة أو تقدمةً أو سكيباً فوق مذبح البخور". السجود والعبادة بالروح والحق، المرجع السابق، الجزء الخامس، المقالة التاسعة ص ٨٨.

(3) الابن هو الحمل الذي بلا عيب البار والقدوس، وهذا ما أكده القديس كيرلس أثناء حديثة عن التيس المرسل إلى البرية، قائلاً: "لهذا صار المسيح ذبيحة عن خطايانا حسب الكتب المقدسة (أنظر ١ كو ١٥: ٣)، ولهذا السبب نقول إنه دُعي خطية، وهكذا يكتب بولس الحكيم جداً: "لأنه جعل الذي لم يعرف خطية، خطيةً لأجلنا" (٢ كو ٥: ٢١). والمقصود هنا هو الآب (فهو الذي جعله خطية). لأننا لا نقول إن المسيح صار خاطئاً – حاشا – بل لكونه باراً، وبالحري هو البر نفسه، لأنه لم يعرف خطية، فالآب جعله ذبيحة عن خطايا العالم". راجع: رسائل القديس كيرلس، مركز دراسات الآباء، الجزء الثالث، نصوص الآباء: ٣٤، ديسمبر ١٩٩٥ ص ٦٥ وما بعدها.

دنس إلى الخالق. حسناً. عندما أبعد كل ضلال، وعرف ساكني المسكونة الإله الحقيقي، واعترفوا بالمسيح ملكاً ورباً، خاضعين لوصاياه المخلّصة، عندئذٍ، يكون الكل قد خضعوا، وسيخضع أيضاً هو لأجلنا، إلهاً ورباً ورئيسَ كهنةٍ للكل[٢]، ومعطياً بواسطة ذاته للكل إمكانية أن يصيروا شركاء الآب الذي هو فيه. لأنه هكذا يصير الله الكل في الكل، بأن يكون في الكل بواسطة الابن كوسيط، ساكناً في كل واحد من أولئك الذين قد دُعُوا لكي يخلّصهم.

٩- ردٌ آخر

ليت كل إنسانٍ تقي يلاحظ أهمية هذه الأقوال، وليته يفتش عن مفهوم النص بدقة ووضوح، حتى يمكنه أن يهرب من شر الجهل. حسناً. يقول بولس: "وَمَتَى أُخْضِعَ لَهُ الْكُلُّ، فَحِينَئِذٍ الابْنُ نَفْسُهُ أَيْضاً سَيَخْضَعُ لِلَّذِي أَخْضَعَ لَهُ الْكُلَّ، كَيْ يَكُونَ اللهُ الْكُلَّ فِي الْكُلِّ" (١كو ١٥: ٢٨). أولاً، يجب أن ندرك ما هي الفكرة التي ينتهي إليها حديث بولس. لأنه

---

(١) أكد القديس كيرلس أثناء حديثة عن تقدمة اسحق على تقديم الابن ذاته ذبيحة لأجل البشر، إذ يقول: "وكما أن الفتى الصغير إسحق حمل الحطب الذي أُعطى له من أبيه وذهب به إلى مكان تقديم الذبيحة، هكذا حمل المسيح الصليب على كتفه وتألم خارج المحلة، وكانت هذه هي إرادة الله الآب وليست إرادة بشرية. وهذا ما قاله المسيح نفسه لبيلاطس البنطى: "لَمْ يَكُنْ لَكَ عَلَيَّ سُلْطَانٌ الْبَتَّةَ لَوْ لَمْ تَكُنْ قَدْ أُعْطِيتَ مِنْ فَوْقُ" (يو ١٩: ١١). أي أن إسحق عندما حمل الحطب كان يشير إلى آلام المسيح وموته، أمَّا تقديم الكبش المُعطى من الله ذبيحة على المذبح فهذا يشير إلى حقيقة أن المسيح أصعد جسده ذبيحة ذكية إلى الآب، ذلك الجسد الذي قيل عنه إنه أخذه من الله الآب بحسب ما ورد في المزمور: "ذبيحة وقرباناً لم ترد ولكن هيأت لي جسد. بمحرقات وذبائح للخطية لم تُسرّ. ثم قُلتَ هاأنذا أجيءُ في درج (رأس) الكتاب مكتوب عنى لأفعل مشيئتك يا الله" (عب ١٠: ٥ - ٧، مز ٤٠: ٧). ولكنه هو نفسه الكلمة الذي وُلِد من جوهر الله الآب وتجسد من العذراء وسُمِرَ على الصليب، إلاّ انه إله غير متألم وغير مائت، وهو مُنزّهٌ عن أي ألم وأي موت". جيلافيرا، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، الكتاب الشهري، مايو ٢٠٠٥.

(٢) **الكلمة** تجسد وصار خادماً للأقداس الحقيقية، وهذا ما أكد علية القديس كيرلس في موضع آخر، قائلاً: "لقد عُيِّن عمانوئيل حقاً كمشرِّعٍ، ورئيسَ كهنةٍ لأجلنا بواسطة الله الآب مقدِّماً ذاته ذبيحةً لأجلنا (انظر عب ٩: ١٤)؛ لأنَّ الناموس، كما يقول بولس الطوباوى: "يُقِيمُ أُنَاساً بِهِمْ ضَعْفٌ رُؤَسَاءَ كَهَنَةٍ. وَأَمَّا كَلِمَةُ الْقَسَمِ الَّتِي بَعْدَ النَّامُوسِ فَتُقِيمُ ابْناً مُكَمَّلاً إِلَى الأَبَدِ" (عب ٧: ٢٨). إذن، فقد نزل **الكلمة** من السماء وصار مشابهاً لنا، خادماً للأقداس والخيمة الحقيقية التي أقامها الرب، وليس أيُ إنسان". السجود والعبادة بالروح والحق، المرجع السابق، الجزء السادس، المقالة العاشرة ص ٣٤.

لم يقل إن الابن سيخضع للآب، لكي يصير أدنى منه، بل لكي يصير الله الكل في الكل. هل رأيت أنه يقدِّم **الكلمة** كوسيط بين الآب وبيننا؟ لأنه حينئذٍ سوف يكون أيضاً مع القديسين مانحاً ذاته لكل واحد حسب قياس النعمة، لكي نصير بواسطته شركاء الآب. هذه هي طريقة الخضوع، بمعنى أنه يخدم البركة التي يعطيها الآب ناقلاً إياها بطريقة طبيعية بذاته لأولئك الذين قد دُعُوا للحياة الأبدية. هذا بالتأكيد لا يضع الابن خارج مكانته الطبيعة بتنازُله لنا، لكنه حقاً يكون موجوداً على ما هو عليه، وسوف يخدم أيضاً حينذاك الآب مانحاً إيانا معرفة الله، بقدر ما نستطيع أن نتعلّمه، ثم بعد ذلك يجب أن نفكر بكل هذا وبالآتي: عندما أخضَعَنَا الآبُ للابن، لم يجعلنا شيئاً آخر من جهة الجوهر، ولا صِرنا من جهة طبيعتنا مختلفين عن هذا الذي نحن عليه مِن البداية، بسبب الخضوع، لكنه جعل الخضوع يتم عن طريق تغيير الرأي وطرق المعرفة، هكذا الابن أيضاً، فبدون أن يخرج خارجاً عن حدود طبيعته (لأن الله لا يعرف التغيُّر)، خَضَعَ للآب، لكن وقتذاك سوف تكون هناك طريقةٌ ما تُظهِر الابن بشكل عملي خاضعاً فقط بإرادته. ولكن خضوعه - على أية حال - لن يصير بتغيير في جوهره.

١٠- ردٌ آخر

إن كان الابن قد صار أدنى من الآب، وأصبح مختلفاً عنه من جهة الطبيعة، وحدث أن خضع له في الوقت الذي حدده، طبقاً لما قاله بولس، دون أن يكون خاضعاً الآن، ألا يكون الابن مساوياً له الآن؟ وكيف لهذا الذي هو الآن مساو لذاك الذي ولده بحسب الطبيعة، يصير وقتذاك أدنى منه؟ لأنه إمَّا أن يحدث فيه تغيُّر ما ونقصان، عندئذٍ تسقط الإلوهية من الآن فصاعداً، ولأن هذا الكلام محضُ تجديف وهذيان، فإننا نقول: دعهم يشرحون لنا كيف يحدث هذا النقص. ولأن الابن لا يقل أبداً عن الآب من جهة الجوهر، فلا يمكن أن يقلل من ذلك خضوع الابن له.

المقالة الثلاثون

التفسير المستقيم لآية:
"مَجِّدْنِي أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ، بِالْمَجْدِ الَّذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ الْعَالَمِ"
(يو ١٧: ٥).

١- معارضة من جانب محاربي المسيح

يقولون كيف لا يكون عبثاً أن نقول إن الابن واحدٌ مع الآب في الجوهر، طالما أننا نرى أنه يطلب المجد منه بقوله: "مَجِّدْنِي أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ بِالْمَجْدِ الَّذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ الْعَالَمِ" (يو ١٧: ٥). لأنه إن كان يطلبه رغماً عن أنه يمتلكه، فإنه يظهر وكأنه يفعل شيئاً لا لزوم له، أَمَّا إن كان يطلبه لأنه لا يملكه، فهذا يعني أنه ليس مثل المانح الذي يطلب هو منه.

٢- الرد

كيف يمكن لرب المجد (أنظر ١ كو ٢: ٨) أن يكون في احتياجٍ للمجد؟ أخبرني: أيُ شيءٍ يمكن أن يكون غائباً فيمَنْ هو كامل؟ لماذا لا يطيق أحدٌ منَّا قولكم إن ابن الله ناقصٌ في شيء؟

من ناحية أخرى، كم هو عبثٌ أن تفكروا أنه مثلما يفرح الإنسان بالأمجاد ويسعى إليها بشوقٍ، هكذا أيضاً يكون الابن، طالباً مجداً من الآب.

لا، أنتم تخطئون، لأن هذا الأمر، أي طلبه للمجد ينطوي على معنىً عميق للتدبير[1].

٣- ردٌ آخر

سوف نتفق معكم - يا محاربي المسيح - بخصوص النص الذي ذكرتموه؛ لأننا نعترف بأن المخلص قال: "أَيُّهَا الآبُ مَجِّدِ اسْمَكَ! فَجَاءَ صَوْتٌ مِنَ السَّمَاءِ:«مَجَّدْتُ، وَأُمَجِّدُ أَيْضاً" (يو ١٢: ٢٨). لو كنتم تعتقدون أن الابن طلب مثل هذا المجد؛ لأنه كان في احتياج للمجد، وأن الآب قد وعده بأن يمجِّده، فكيف يتفق ذلك مع تتابع لطمات اليهود وإكليل الشوك والتفل عليه، بعد هذا الطلب؟ فالآب هنا لا يبدو أنه يمجِّده، بل على النقيض، بدا الابن لكم وكأنه لم ينل ما أراده، وفق أقوالكم. وعلى ذلك يتضح لنا أن الابن لم يطلب مجداً لذاته مِن الآب (لأنه لم يكن في احتياج للمجد، طالما هو بحسب الطبيعة

---

(١) في سياق شرحه لإنجيل يوحنا وتعليقه على هذه الآية يقول القديس كيرلس إن ما قاله المسيح يعلن: "إنه مجَّد الآب على الأرض، لأنه أكمَّل العمل الذي أعطاه له الآب ليعمله". شرح إنجيل يوحنا، الجزء التاسع، الإصحاح السابع عشر ص ١٥٩.

أيضاً يشرح القديس كيرلس بكل وضوح أن الابن أكمل عمل التدبير، وذلك أثناء حديثة عن معجزة موسى شفاء اليد البرصاء، كما يشرح ق كيرلس بكل وضوح أن الابن أكمل عمل التدبير قائلاً: "كون أن الابن، بحسب التدبير ولأجلنا، قَبِل الأمور البشرية ووُجِد تحت الناموس وأُحصِّي مع الآثمة (انظر إش ٥٣: ١٢) وعاد ثانيةً إلى المجد الذي كان له طبيعياً منذ البداية، فهذا يخبرنا به هو ذاته قائلاً لأبيه السماوي: "وَالآنَ مَجِّدْنِي أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ بِالْمَجْدِ الَّذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ الْعَالَمِ" (يو ١٧: ٥). أرأيت أنه يطلب أن يتحرر من هذه الأمور التي حدثت له في الفترة التي ما بين التجسد والصعود. وهو لم يصف بالتأكيد تجسده بحسب التدبير أنه كان على غير إرادته، بل أراد أن يرجع ثانيةً إلى رتبته الممجدة والأسمى من كل الرتب؟ لأجل هذا يقول بولس الطوباوي: " إِذاً نَحْنُ مِنَ الآنَ لاَ نَعْرِفُ أَحَداً حَسَبَ الْجَسَدِ. وَإِنْ كُنَّا قَدْ عَرَفْنَا الْمَسِيحَ حَسَبَ الْجَسَدِ، لكِنِ الآنَ لاَ نَعْرِفُهُ بَعْدُ" (٢ كو ٥: ١٦). لأنه قام من الأموات وصعد إلى الآب بالجسد، لكن نحن لم نعد نعرفه بعد بحسب الجسد لأنه لم يخضع للضعفات الجسدية، أقصد الأهواء الطبيعية وغير الشريرة. لأنه قبل صلبه الثمين ذُكِر أنه جاع وتعب من السير وحزن جداً واحتمل أيضاً الموت فوق الخشبة لأجلنا، لكن الآن لا نعرفه على أنه يخضع لكل هذه الأمور البشرية. لأنه يقول: "عَالِمِينَ أَنَّ الْمَسِيحَ بَعْدَمَا أُقِيمَ مِنَ الأَمْوَاتِ لاَ يَمُوتُ أَيْضاً. لاَ يَسُودُ عَلَيْهِ الْمَوْتُ بَعْدُ" (رو٦:٩). لأن المسيح هو غير مائت. إنه الحياة بطبيعته ومانح للحياة، لأنه أيضاً وُلِد من الحياة، أقصد من الآب". أنظر جيلافيرا، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، الكتاب الشهري عدد أغسطس ٢٠١٠.

الله)، لكنه جذب بواسطة ذاته مجد الآب للجنس البشري. لأننا حصلنا على كل الصالحات به وبواسطته[1].

٤- ردٌ آخر

هؤلاء الذين يفحصون الأسماء بدقة، ويبحثون عن أهمية كل اسمٍ، نجدهم يفهمون كلمة "المجد" بطريقتين: فَهُمْ أحياناً يعتبرون أنه يجب علينا أن نفهم هذه الكلمة على أنها تشير إلى الكرامة، وأحياناً أخرى تشير إلى المعرفة. والمثل الآتي يوضح ما أقول: فقد يسأل شخصٌ أحداً عن رأيه في الشمس، أو أي عنصرٍ آخر: هل هي مخلوقة أم غير مخلوقة؟ فصاحب الرأي الصحيح، سوف يجيب مؤكداً أنها مخلوقة. فإذا كانت معرفةُ أيٍ من هذه الكائنات من جانب الحكماء تسمى مجداً[2]، فعندما يقول الابن: "مَجِّدْنِي أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ بِالْمَجْدِ الَّذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ الْعَالَمِ" (يو ١٧: ٥)، لتحتم علينا أن نفهم هذا الذي قيل كالآتي: كأن الابن يقول: أيها الآب، بما أنني صرت بحسب التدبير إنساناً، وقد اعتُرِفَ بي تواً إنني الابن الأزلي، إذن، مجِّدني. ولكنه بدلاً من أن يقول: اظهر فيَّ، يقول: ضع في البشر هذه المعرفة التي بها يستطيعون أن يقبلوني بعد أن سمعوا أنني كائنٌ

---

(١) يشرح القديس كيرلس هذه الآية في تفسيره لإنجيل يوحنا موضحاً مفهوم تمجيد الابن للآب، إذ يقول: "إن حديث مخلِّصنا يضفر الآن العنصر البشري في شخصه مع العنصر الإلهي، وإذ هو من طبيعة مرّكبة، فإنه ينظر في كلا الاتجاهين فهو لا يدمج بإفراط شخص المتكِّلم داخل القوَّة الكاملة والمجد الذي لإلوهيته، كما أنه لا يدع شخص المتكِّلم أن يترل كلّية إلى المستوى المنخفض الخاص بإنسانيته، بل هو يوحّد الاثنين في واحد، الذي هو ليس غريباً عن أي منهما. لأن ربنا يسوع المسيح رأى أنه ينبغي أن يعلّم مؤمنيه، ليس فقط أنه الإله الوحيد الجنس، بل أنه أيضاً صار إنساناً لأجلنا، لكي يصالحنا جميعاً مع الله الآب، ويشكّلنا إلى جَدة الحياة، مفتدياً البشرية بدمه، ومضحيّاً بحياته لأجل العالم، ورغم أنه هو واحد، إلاّ أنه أثمن من كل جنس البشر. إذن، فهو يقول، إنه مجّد الآب على الأرض، لأنه أكمَّل العمل الذي أعطاه له الآب ليعمله ". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، الجزء التاسع، الفصل السادس، ص ١٥٩.

(٢) هنا المعرفة الصحيحة أو الرأي الصحيح يُدعى مجداً عند القديس كيرلس ربما لأن كلمة رأى أو اعتقاد في اليونانية تأتي من كلمة: ذوكسا أي "مجد δόξα" فهي باليونانية: "ذوكساسيا - δοξασία". ونلاحظ أن القديس كيرلس في براهينه لا يتوانى عن استغلال أي برهان سواء لغوي أو عقلي أو كتابي لكي يرد على الهراطقة. وفى هذا الإطار، قول الابن للآب: "مجدني" تعني: اجعل البشر يعتقدون فيَّ اعتقاداً صحيحاً بأني أنا ابنك الأزلي الواحد معك في الجوهر، وبذلك أتمجد.

أيضاً قبل أن يُخلق العالم، أنا الإله الحقيقي بحسب الطبيعة، النور الذي أتى مِن النور، الحق الذي أتى من الآب الحقيقي.

لكن المنهج التربوي الذي استخدمه المسيح يفصح لنا عن المعنى الصحيح المقصود من الكلام، فهو يقول: "مجِّدني"، بدلاً من أن يقول: "اِظهَر فيَّ" كما أظهرت أنا اسمك للناس؛ لأنه لو أراد أن يحدث معه ما فعله هو مع الآب (أي أن يظهر فيه الآب كما أظهره هو)، لكان معنى ذلك أنه كان يريد أن يتمجَّد بأن يظهر الآب للبشر بواسطة ظهور الآب فيه. وهكذا تبدو لنا أقوال أعداء المسيح الذين يقدِّمون الابن على أنه في احتياج للكرامة، أي للمجد، أقوالاً لا تفيد في شيء.

٥- ردٌّ آخر

إذا قلتم إن الابن كان في احتياج للمجد والكرامة، ولهذا يطلب من الآب أن يمجِّده، وظننتم بذلك أنه ليس واحداً مع الآب في الجوهر، لقلنا لكم: كيف إذن يُرى الآبُ في شخص الابن؟ لأنه إذا كان الابن في احتياج للمجد، بالرغم من أنه يوجد في الآب، فكيف يمكن أن يُرى مَن هو ليس في احتياج للمجد فيمن - وفقاً لرأيكم - له احتياج؟

٦- ردٌّ آخر

بما أن المخلص كان صادقاً حين قال: "مَنْ رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ" (يو ١٤: ٩)، إذن فمجده الذي يُعلَن فيه هو مجدٌ كاملٌ مثل مجد الآب أيضاً، وإلاَّ لَمَا أمكن للآب أن يظهر فيه بطريقة لا تُوصَف إذا لم يكن من جهة المجد مثلما يكون عليه ذاك[1].

---

(1) رؤية الآب في الابن تعنى عند القديس كيرلس أن الابن هو واحد معه في الجوهر وأنه مثل الآب وكذلك هو أزلي مع الآب، وهذا ما يؤكد علية القديس كيرلس في شرحه لإنجيل يوحنا، إذ يقول: "أننا نرى الابن مولوداً دائماً مشرقاً من جوهر الآب، وهو فيه، وبه، متميزاً عن الآب لأنه الله الكلمة. وأيضاً نرى الآب في الابن، كما هو مولود من الجوهر نفسه، وله الطبيعة الإلهية نفسها، متميّزاً عنه كأقنوم، لأن الآب يظلّ هو الآب، رغم أنه مثل الابن في الطبيعة، ويشترك معه في ذات الجوهر، وهو في الابن مثل الشمس والشعاع. والابن أيضاً يظلّ هو الابن، رغم أنه مثل الآب في الطبيعة ويشترك معه في ذات الجوهر، وهو في الآب مثل الشعاع في الشمس. وباعتقادنا أن الآب هو الآب بالحق، والابن هو الابن، والروح القدس الذي له مكانه الخاص به معهما كأقنوم يكون الثالوث القدوس هو اللاهوت الواحد نفسه". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٧٩.

٧- ردٌّ آخر

لو كان الابن في احتياجٍ للمجد، لَظَهَرَ وكأنه مختلفٌ عن الآب؛ لأن مَنْ يحتاج إلى شيء لا يمكن أن يكون كاملاً. وبما أن المخلص كان صادقاً عندما قال: "أنا والآب واحد" (يو ١٠: ٣٠)، فهو إذن كاملٌ مثل الآب لأنهما واحدٌ، وبما أن الآب كاملٌ في المجد، هكذا الابن أيضاً لديه مجدٌ كاملٌ مثل ذاك الذي ولده.

المقالة الواحدة والثلاثون

إلى أولئك الذين يقولون:
إن الله لا يعرف شيئاً أكثر مِنَّا عن جوهره، وإن الذي يعرفه هو عن ذاتِهِ، هو ذاتُه الذي نعرفه نحن أيضاً.

١ــ معارضة من جانب الهراطقة

يقولون: إن حكمة الله هي غير صائرة (أي غير مخلوقة)، وهذه هي طبيعة وجودها. وبالتالي فمَنْ يعرف أنه هو الله، سوف يعرف أيضاً حكمته. بالتأكيد الله يعرف هو ذاته أنه غير مخلوق، وبالتالي لا يوجد أي اختلاف بين ما يعرفه هو عن ذاته، وما نعرفه نحن عنه، ونؤمن به.

٢– الرد على هذا الرأي

حقاً، هذه الأقوال جديرةٌ بالضحك؛ لأنها فضلاً عن أنها تَنُم عن جهلٍ كبيرٍ، فإنها أيضاً تُظهر أن عقلهم، وهم يفكرون هكذا، فاق كل حدود الجنون. لأنه، بالرغم من أنهم بشرٌ، إلاَّ أنهم يتخيلون أن لديهم عقلاً مثل عقل الله، وبالتالي فقد تدنُّوا بجوهر الله كثيراً، بقدر ما يتفوق هو عليهم. ويبدو أنهم لم يسمعوا أشعياء يقول: "مَنْ كَالَ بكَفِّه الْمِيَاهَ، وَقَاسَ السَّمَاوَاتِ بالشِّبْرِ، وَكَالَ بالْكَيْلِ تُرَابَ الأَرْضِ، وَوَزَنَ الْجبَالَ بالْقَبَّان، وَالآكَامَ بالْميزَان؟ مَنْ قَاسَ رُوحَ الرَّبِّ، وَمَنْ مُشيرُهُ يُعَلِّمُهُ؟" (أش ٤٠: ١٢ – ١٣).

وبالتالي، فهو يقول هذه الأقوال لهؤلاء الذين يشرعون في قياس طبيعة الله التي لا تقاس والتي لا تُدرَك بالأفكار البشرية[١]، مثلهم في ذلك مثل أولئك الذين يريدون أن يقيسوا السماء بالشبر. وإذا سألنا هؤلاء عما إذا كان قولهم إن الله غير مخلوق، يفصح - من وجهة نظرهم - عن جوهر الله غير الموصوف، أم لا، فماذا يقولون؟ لأنهم إذا رفضوا الإجابة، فإن كل ما صنعوه يذهب أدراج الرياح، وينقلب اقتراحهم الذي يظنون أنه حكيم إلى غباءٍ طالما يرفضون الحديث عن الموضوع الذي عرضوه.

أمَّا إذا ظنوا أنه ينبغي عليهم أن يناضلوا مدافعين عما صنعوه، فسوف يُقبض عليهم متلبسين بالثرثرة؛ لأنهم عندما يقولون إن الله غير مخلوق، فإن هذا لا يعني على أية حال أن جوهر الله يتمثل في عدم مخلوقيته، وبذلك نكون قد عرفناه؛ لأن قولهم هذا شبيهٌ بما يمكن أن يقوله أحدٌ من أن جوهر الرقم يتحدد من كونه رقماً زوجياً أم فردياً، لأن أي عدد يتكون بالضرورة من وحدة رقمية، لذا فإن وجوده هو ذاته، إنما ينبع من هذه الوحدة العددية، فوجوده هو في وجود هذه الوحدة μονάδα[٢].

(١) يؤكد دائماً القديس كيرلس على طبيعة الله الفائقة أثناء الحديث عن ظهور الله فوق جبل سيناء، إذ يقول: "لا يستطيع أحد أن يعرف ما هي بالضبط طبيعة الله. لأنها غير منظورة، وبالطبع أسمى من أي عقل وتتخطى قوة المنطق، وفقط هي ذاتها تُعرَّف مِن ذاتها، وسوف يخبرنا عن هذا المسيح الذي نادى وقال: "كُلُّ شَيْءٍ قَدْ دُفِعَ إِلَيَّ مِنْ أَبِي، وَلَيْسَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الابْنَ إِلاَّ الآبُ، وَلاَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الآبَ إِلاَّ الابْنُ وَمَنْ أَرَادَ الابْنُ أَنْ يُعْلِنَ لَهُ" (مت ١١: ٢٧). إذن أظهر لنا وحيد الجنس جمال الله الآب الفائق مقدِّماً ذاته كصورة منيرة. لأجل هذا يقول "الذي رآني فقد رأى الآب" (يو ١٤: ٩). حسناً، لقد رأينا الابن وبعيون القلب والجسد، عندما، أخلى ذاته واتضع وأتى إلينا، بالرغم من أنه هو الله من جهة مساواته بالله الآب، وهو مولود منه بالطبيعة. وقال باروخ مظهراً بطريقة ما **الكلمة** ذاته: "هذا هو إلهنا الذي لا مثيل له" (باروخ ٣:٣٦)، وأيضاً داود العظيم قد كرز لنا من قبل بوضوح، قائلاً: "مِنْ صِهْيَوْنَ، كَمَالِ الْجَمَالِ، اللهُ أَشْرَقَ. يَأْتِي إِلهُنَا وَلاَ يَصْمُتُ. نَارٌ قُدَّامَهُ تَأْكُلُ، وَحَوْلَهُ عَاصِفٌ جِدًّا" (مز ٥٠: ٢ - ٣). وحقاً نزل على هيئة نار على جبل سيناء. لكن كون أن هذه الحوادث كانت صورة مسبقة وليس شيء آخر، يُعلِّمنا به المسيح. لأن الجموع ظنوا أنهم رأوا الطبيعة الفائقة الوصف، بوساطة موسى الذي أجلسهم حول جبل حوريب وجمّعهم في اجتماع أسفل جبل سيناء. ولأن صوت الأبواق أرعب هؤلاء الذين سمعوه، ظنوا أنهم سمعوا أيضاً الصوت الإلهي الذي أُرسِل إليهم". جيلافيرا، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، الكتاب الشهري عدد يونيو ٢٠١٠.

(٢) يقصد أن أي رقم سواء زوجياً كان أم فردياً فإنه ينتمي لوحدة عددية: آحاد، عشرات، مئات ،........الخ وبذلك وجوده ينبع من هذه الوحدة أما كونه زوجياً أو فردياً فإن هذا مجرد صفة له وليس جوهراً (المترجم).

هكذا الأمر أيضاً بالنسبة للإنسان؛ فلأن كل إنسان هو حيوان عاقل فانٍ، يكون العقل فيه قابلاً للبرهان والعلم، وبالتالي لا يمكن أن يكون هناك إنسان لا تتوافر فيه كل هذه العناصر. ولأن الإنسان خُلِقَ دون أجنحة، فطبيعة وجوده أن يكون بلا أجنحة.

طبعاً يبدو أمراً مضحكاً أن يسترسل المرء في التفكير بهذا الشكل: أي لأنه إنسان، فهو كائن حي عاقل فانٍ، ولأنه إنسان، فهو بلا أجنحة، ولأنه رقم ينتمي إلى وحدة رقمية، إذن يجب أن يكون إمَّا رقماً زوجياً وإمَّا رقماً فردياً.

إذن، يتضح لنا مما تقدم أن كل ما للجوهر من ملامح وخواص، إنما ترسم حدوداً له دون أن تلغي هذا الجوهر أو تحل محله.

وعلى هذا الأساس، إذا كانت كلمة "غير مخلوق" تقال عن جوهر الله، فهي إذن تعبِّر عن صفة من صفات الجوهر، لا عن جوهر الله في ذاته، أي أن كلمة "غير مخلوق" ليست هي ذات جوهر الله. لأن هذه الكلمة، إنما تعني فقط أن جوهر الله لم يَصِر، فجوهر الله ليس في أن يكون غير مخلوق، لكن فيما هو كائن على الدوام، هو أيضاً غير مخلوق.

٣- ردٌ آخر

إذا كانت كل صفة من صفات الله تعبِّر عن جوهره، لكان الله بالنسبة لنا مكوناً من جواهر كثيرة؛ لأن كثيرةٌ هي الصفات الموجودة فيه بحسب الطبيعة، ولا توجد في أي كائن آخر من الكائنات، ولذلك تقول الكتب المقدسة عن الله إنه ملكٌ، وربٌ، وغيرُ مائتٍ، وغير منظور، إلى غير ذلك من آلاف الصفات الأخرى. فإذا كانت كل صفة من هذه الصفات، تُدرَك كجوهر، فكيف لا يكون مركَّباً مَن هو في الأساس بسيط؟ الأمر الذي يُعَد التفكير فيه نوعُ من العبث. وبناءً على ذلك، إذا كانت كلمة "غير المخلوق" تعبِّر بالفعل عن خاصية من خواص الله، إلاَّ أنها ليست في ذاتها هي الجوهر، وبالتالي لا معنى للقول بأن قوام جوهر الله هو في عدم مخلوقيته.

٤- ردٌ آخر

الجوهر هو الذي يحدد ما يفصح عنه من خواص وما يميزه من صفات، لا ما لا يكونه هذا الجوهر (لأن مَنْ يريد أن يحدد ماهية الطبيعة البشرية بفهمٍ، لن يقول إنها بلا أجنحة، ليست بأربعة أرجل، لكنه سوف يشير إلى الأمر الأساسي الذي يعلن عنها، أي كونها حيواناً عاقلاً، فانياً). أمَّا كلمة "غير المخلوق"، فهي لا تُظهِر ما هو الله بحسب الطبيعة، بل ما لا يكون (لأنها لا تعني أكثر من أنه ليس مخلوقاً)، وبالتالي فهي لا تعني أن جوهر الله هو في عدم مخلوقيته، كما لا تعبِّر عن طبيعة وجوده.

٥- ردٌ آخر

إن أية صفة أساسية في شيءٍ ما، تفصح - على وجه العموم - عما يكون هذا الشيء في الأساس، وهي تعلن إمَّا جنسه، أو نوعه، أو ما يختلف فيه عن غيره، أو تعريفه. فإذا كان الأمر على هذا النحو، فكيف إذن تُظهر لنا كلمة "غير المخلوق" جوهر الله؟

ليت أولئك الذين وضعوا هذه الاقتراحات الجاهلة يقولون لنا كيف؛ لأن هذه الكلمة لا يمكن أن تُفصح لنا عن جنس أو نوع هذا الكائن طبقاً لفلسفة أرسطو. لأن الجنس والنوع يختصان بالأكثر بالأشياء التي تختلف من جهة النوع والعدد، بينما كلمة "غير المخلوق" لا تخص أحداً آخر غير الله، وتنصرف إليه وحده، ولهذا تقال له فقط؛ لأن مَنْ هو غير مخلوق إلاَّ الله؟ ومن ذلك يتضح لنا أنه لا يمكن أن يكون "جنساً" مَن لا يقبل التقسيم إلى أنواع، وعدد، واختلاف الصفات.

ولكن قد يقول البعض إن كلمة "غير المخلوق" تحدد[1] ماهية كائنٍ ما، هنا ينكشف ما ينطوي عليه هذا القول من كذب؛ لأن ما يحدد ماهية الكائن هو المبدأ (لوغس[2] λόγος)الذي يُحدد ماذا يكون كائنٌ ما من جهة الجوهر، بينما كلمة "غير

---

(١) باليونانية ὅρος بمعني "تحديد" أي خاصية أساسية تحدد ماهية الكائن.

(٢) الكلمة المستخدمة هنا هي كلمة (λόγος لوغس) ولكنها تبدأ بحرف "λ" صغير غير كلمة لوغوس التي تُكتب بحرف لهذا "Λ" الكابتل وتعني الكلمة، الأقنوم الثاني. وكلمة لوغس بحرف لهذا صغير تستخدم للمخلوقات وتحدد ماهية هذا المخلوق، فكل مخلوق له لوغوس أي تحديد ماهيته وهدفه المعين من الله. ويري الآباء أن هذا

المخلوق" لا تطلق لتحدد ماهية كائن ما، بل هي مجرد صفة، وبالتالي يتضح لنا أن كلمة "غير المخلوق" تختلف جوهرياً عن المصطلح المستخدم للتحديد. ودعنا نمعن النظر في هذا الأمر، بالنسبة إلى الله حتى لا نرتكب خطأً ما: إن كل ما يقبل الصفة وعكسها يكون مركباً وليس بسيطاً، لكن بما أن الله بسيطٌ، وهو الأمر الذي يعترف به كل إنسان، إذن فمصطلح "غير المخلوق" الذي يصف الله لا يقبل الإختلاف أو الصفة العكسية "مخلوق" لأن الله دائماً هو غير المخلوق(١). لا يمكن أن يكون الله "غير مخلوق" و"مخلوق"، إذن كينونة وجود الله ليست في عدم مخلوقيته؛ لأن "غير المخلوق" لا ينصرف معناها إلى الجوهر، حتى وإن كانت تبدو هكذا.

٦- ردٌ آخر

إن كان الاسم "غير المخلوق" يعني أنه لم يَصِر، وهو لذلك يعلن جوهر الله، فما الذي يمنع الضحك - الذي هو صفة للطبيعة البشرية - أن يكون جوهراً؟ وما الذي يمنعنا من أن نقول إن كل المميزات الخاصة بالكائنات على وجه العموم هي جواهر لهذه الكائنات؟

لكن إذا كان الملمح الخاص بكل واحد من هذه الكائنات ليس هو جوهره، بل صفة تحدد هذا الجوهر، مثل الضحك بالنسبة للإنسان، والصهيل بالنسبة للحصان، هكذا كلمة "غير المخلوق" لا يمكن أن تكون جوهراً، طالما هي فقط تقتصر على أن تُظهر ما ليس هو الله بحسب الطبيعة، وإنما فقط تعلن أنه غير مخلوق، إذن فمثلما توضح الصفات المختلفة ملامح الكائنات الأخرى، هكذا تمثل كلمة "غير المخلوق" ملمحاً خاصاً بالله.

اللوغوس له علاقة **بالكلمة** اللوغوس أي الأقنوم الثاني، الذي كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان. والقديس كيرلس يريد أن يقول أن مصطلح "غير المخلوق" ليس تحديداً لله؛ لأنه ليس لوغوس، بل مجرد إسم أو صفة عادية. لذلك لا يمكن أن يكون مصطلح "غير مخلوق" هو مصطلح يُحدد جوهرياً ماهية الله.

(١) يقصد أن الله لا يقبل الاثنين، أن يكون "غير مخلوق" وأن يكون عكس هذه الكلمة أيضاً أي "مخلوق"، فهو طبيعة إلهية بسيطة لا تقبل عملية الاختلاف الذي يسري على الإنسان الذي له طبيعة مركبة؛ فيمكن أن يكون"صالحاً" وأيضاً يمكن أن يكون "غير صالح".

٧- ردٌ آخر

كلمة "غير المخلوق" يمكن أن تُعتبر ملمحاً غير منفصلٍ عن جوهر الله، مثله في ذلك مثل اللون بالنسبة للجسد. لكن الجواهر لا تُدرَك أيضاً حتى من ملامحها غير المنفصلة عنها، لكن من الصفات التي تحدد الجواهر بحسب الطبيعة. فالمرء لا يمكنه أن يميِّز بين البجع والثلج من حيث طبيعة كلٍ منهما، إذا عَلِمَ فقط أن كلاهما لونه أبيض؛ لأن اللون الأبيض لا يُدرَكُ كجوهرٍ، لكن كملمحٍ يصف الجوهر. وعلى ذلك، فكلمة "غير المخلوق"، بالرغم من أنها تعبِّر عن إحدى الصفات غير المنفصلة عن الله، فإنها لا يمكن أن تكون هي ذاتها جوهر الله، وفقاً لرأيكم. ولأن هذا هو الصواب، فلا يمكن لمن يعرف أن الله هو "غير المخلوق"، أن يعرف ماذا يكون بحسب الجوهر، بالرغم من أن "غير المخلوق" هي صفة لجوهره.

٨- معارضة أولئك الذين يقولون إنهم يعرفون الله، مثلما يعرف هو ذاته

يقولون إن اسم "غير المخلوق" يمكن أن يُدرَكُ كشيءٍ عرضيٌ في جوهر الله، وإمَّا أن ينصرف إلى شيءٍ من تلك الأشياء التي تحدث فيه. فإذا كان جوهر الله لا يحدث فيه شيءٌ لاحق؛ باعتباره كاملٌ بمفردهِ، بالتالي فإن "غير المخلوق" يُظهِر جوهر الله، وإذا كان الأمر هو هكذا، فالله إذن يعرف أن ذاته غير مخلوق. يترتب على ذلك أن أي أحد آخر يعرف هذا الأمر، يمكنه أن يعرف الله مثلما يعرف الله ذاته.

٩- الرد

من الحكمة - فعلاً - أن تقولوا إن شيئاً لا يحدث في جوهر الله؛ لأن هذا الجوهر كاملٌ بذاته. لكننا نجد أموراً كثيرة تجعلنا نعتقد أن هناك أشياءً تحدث في الله، بالرغم من أنها لا تحدث فعلاً. وهذا يتضح مثلاً عندما نقول: إن الله - قبل خلق هذا الكون - كان بحسب الجوهر خالقاً، وإن لم يتحقق ذلك بشكل عملي، طالما لم يكن أحد من الكائنات قد خُلِق بعد. وعندما خلق كل شيء، صار - بطريقةٍ ما - خالقاً؛ لأنه حقق ذلك بالفعل. فلو اعتبرنا - بهذا المنطق - أن بعض الأشياء قد حدثت فيما بعد في الله، فلماذا تزعمون -

عن غير حق - أنه لا يجب أن نقول عن الله، إن وصف "غير المخلوق" ظهر متأخراً؛ إذا كانت بعض الملامح الخاصة بجوهره قد أظهرته بهذا الشكل؟

١٠- ردٌ آخر

ليت الذين شرعوا في قياس السماء بالشبر، ظانين أنهم يعرفون طبيعة جوهر الله، يجيبوننا عندما نسألهم: بماذا يردُّون حين يُستخدم اسم "الآب" لله، هل يعبِّر هذا الاسم عن جوهره، أم يكشف عن شيء حادث فيه؟ فإذا كانوا يؤكدون أن شيئاً لا يحدث لاحقاً في جوهر الله، فعليهم إذن ألاَّ يقبلوا أن تكون الأبوّةُ قد أُضيفت إليه لاحقاً. وعلى ذلك، فليس أمامهم إلاَّ أن يقولوا إن هذا الاسم، إنما يُظهِر جوهره، وبالتالي يتطابق اسم "الآب" مع مصطلح "غير المخلوق"، حتى لا يكون الله مركباً من جوهرين.

لكن، لو كان الأمر على هذا النحو، وكان اسم "الآب" – بحسب رأيكم - متطابقاً مع مصطلح "غير المخلوق"، لَكان معنى هذا أنه مثلما لا توجد بداية لوجوده؛ هكذا لا يوجد أيضاً كآب، في حين أنه كان دائماً آباً؛ لأن الابن كان يوجد معه أيضاً، وهذا فقط هو ما يجعله آباً على الدوام.

من ناحية أخرى، إن كان اسم "غير المخلوق"، و"الآب" يُظهِران جوهر الله، فما الذي يمنعنا من أن نستخدم هذين الاسمين بالتبادل فيما بينهما؟ فإذا وُصِفَ أحدٌ بأنه آبٌ، لَكان هو ذاته غير مخلوق، ولو أن كائناً وُصِفَ بأنه غير مخلوق، لَكان هو ذاته آباً. وبالتالي تنتقل صفة "غير المخلوق"، وهي الصفة الخاصة بالله والمميِّزة له إلى الجميع. هل رأيتم مدى العبث الذي تقودنا إليه أقوالكم؟

١١- ردٌ آخر

حسناً. بما أنكم لا تقبلون أن خاصيةً ما قد نشأت في وقت لاحق بالنسبة لله، بل ولا تسمحون لأحد أن يفكر هكذا، فقد وضعتم أنفسكم في موقف صعب، بالرغم مما تحيطوننا به من ثرثرةٍ، وأفكارٍ محظورةٍ تنطلق من آلاف الأفواه.

لو أن أحداً سألكم ما إذا كانت أسماء مثل: آب، وغير مخلوق، وغير فاسد، وغير مائت، وغير منظور، وكل الأسماء الشبيهة بتلك التي ذكرناها، توجد في الله بحسب الطبيعة، وتُذكَر كخواصٍ فقط لجوهره، أم أنها تعني جوهره فعلاً؟ بماذا تجيبون؟

لو أن أيّاً من هذه الأسماء قُصِدَ به الجوهر، لأصبح الله البسيطُ مركبًّا من جواهر كثيرةٍ، طالما أن كل صفة طبيعية – بالنسبة لكم – تكون جوهراً، ولا يقتصر الأمر على ذلك فقط، بل سوف يُعتبر أيضاً من قبيل الجوهر كل اسمٍ يتضاد مع الأسماء التي ذكرناها، أي المخلوق، والفاسد، والمنظور إلخ.

بناءً على ذلك، ليس هناك ما يمنع من أن نقول إن الخشب يتطابق مع الابن، أو يتطابق الحجر مع مَنْ لا يُولَد؛ لأن هذه الأشياء مخلوقة وفاسدة ومنظورة، الأمر الذي يشيع الفوضى في نظام الأشياء.

فإذا كان كل ما يقال، إنما يمثل خواصاً طبيعية لله، دون أن يعبِّر عن جوهره، فلا يبقَ أمامنا إلاَّ أن نقول إن هذه الأسماء هي بمثابة خواصٍ للجوهر، ولا تعدو أن تكون مجرد ابتكارات لغوية؛ لأن الطبيعة البشرية ليس لديها ما هو أسمى من ذلك يمكنها به أن تعبِّر به عن الله. ولذلك، فنحن نستخدم التعبيرات البشرية ذاتها في الحديث عن الله، وعن طريق الأمثلة، نوضِّح العظائم، مثل أولئك الذين - على لوحةٍ صغيرة - يرسمون السماء على شكل دائرة.

١٢- معارضة من الهراطقة تقود إلى مزيد من العبث

يقولون إن الله يعرف طبيعته بدقة ويعرف بوضوح ما هو جوهر، لكن طالما نحن لا نعرفه هكذا مثلما يعرف هو ذاته، إذن فنحن نكوِّن آراءً خاطئةً ومنحرفةً عن كل ما يحيط به. لأن مَن لا يعرف، لا يكون مثل ذاك الذي يعرف حقاً، فهو لا يعرف معرفةً حقيقيةً، بل يكون قد ضَّل.

١٣- الرد

لا يدرك المرعبون في تطاولهم مدى ما ينقادون إليه من تجديف عظيم. لأنهم - وهذا طبيعي - يخافون من أن يظهروا على درجة متدنية في فهم الله، ويرتعبون من عدم إعتبارهم غير حاذقين في المعرفة لدرجة أنه بحسب رأيهم يمكن للمرء أن يقبل الجوهر الإلهي، حيث أنهم لا يعرفون أن هذا الجوهر يتفوق كثيراً على المخلوقات بقدر ما يختلف عنها بحسب الطبيعة.

فيما عدا ذلك، كيف لا يكون محضُ عبثٍ أن نقول إنه ليس على معرفة حقيقية مَنْ لا يعرف شيئاً معيناً - بذات الدرجة - التي يعرفه بها غيره؟ لأن شخصاً قد يكون على معرفة محدودة بشيءٍ ما، بالمقارنة بشخصٍ آخر يملك معرفةً كاملةً عن الشيء نفسه، دون أن يعتبر منحرفاً. فقد يعرف أحدٌ أن اختفاءً يحدث للقمر، ولكنه يجهل كيفية حدوث هذا الاختفاء، في الوقت الذي يعرف فيه شخصٌ آخر هذه الكيفية. فالذي يعرف كل المعلومات، لا شك يكون أحكم من جهة الفهم ممن يعرف أمراً واحداً. فإذا كانت هناك معرفة كبيرة للبعض، وللآخرين معرفةً أدنى، وكلا الاثنين معاً يشكلان المعرفة الحقيقية، فما الذي يمنعنا نحن البشر من أن نعرف معرفةً أقل من تلك التي يعرفها الله عن ذاته من جهة الجوهر، دون أن تكون معرفتنا كاذبة أو محرَّفة.

١٤- ردٌ آخر

يمكننا أن ندرك الكائنات من خلال أفكار كثيرة ومتنوعة. وعلى أية حال، نحن لا نكذّب شخصاً لأنه لم يستخدم ذات الأفكار التي يستخدمها إنسانٌ آخر، بل استخدم أفكاراً أخرى. على سبيل المثال، دعنا نفترض أننا سألنا اثنين من البشر عما إذا كان الحصان هو ذاته الإنسان، فأجاب أحدهما بالنفي؛ لأن الإنسان هو كائنٌ ضاحك، والحصان ليس كذلك، بينما أجاب الآخر بقوله إن الإنسان ليس هو الحصان؛ لأن جوهره يفتقد إلى خاصية الصهيل. أليس الاثنان يقولان الحقيقة؟ هل لم يجيبا بالصواب لأنهما لم يستخدما الأفكار نفسها؟

إذن، طالما لا يُعد كذباً أو انحرافاً، أن يكون لدينا رأيٌ مختلف عن أي من الكائنات، فما الذي يعيق الله عن أن يعرف ذاته تماماً بحسب الجوهر، بينما ندركه نحن البشر بشكلٍ أقل، دون أن يعني ذلك أن أفكارنا عنه كاذبة؟

١٥- ردٌ آخر

يختلف كل كائن عاقل من ناحية امتلاكه للمعرفة التي فيه عن غيره من الكائنات بحسب الجنس، فالمعرفة التي يمتلكها رؤساء الملائكة تكون أعظم من تلك التي تكون لدى الملائكة، وأسمى منهما المعرفة التي للقوات العظمى. وعلى ذلك تُعد معرفة الإنسان – قياساً على ذلك – أدنى من معرفة أولئك. فإذا كان الأمر على هذا النحو، فكيف لِمَنْ لم يكن على درجة عظيمة من المعرفة أن يعرف الله، حتى لو افترضنا جدلاً أن هذا الإنسان كان ملاكاً، طالما نعترف دون شك أن معرفة الله تتخطى كل عقل وكل إدراكٍ؟

١٦- ردٌ آخر

وإذا كنَّا نستخدم كثيراً من الأسماء عن الله، إلاَّ أن كل اسمٍ من هذه الأسماء لا تُظهِر ماذا يكون الله في الجوهر، فهي تعلِن إمَّا ما لا يكون، أو تعلن عن علاقته بشيءٍ يميِّزه. فـ "عدم الفساد"، و"عدم الموت"، على سبيل المثال، يُظهران ما لا يكون، بينما "الآب"، أو "غير المخلوق" يكشفان عن أنه والدٌ، مميَّزاً بذلك عن الابن، وإنه غير صائرٍ. لكن اسماً من هذه الأسماء لا يعني الجوهر، كما قلنا سابقاً، بل يعبِّر عن صفة ما للجوهر.

فإذا كنَّا عن طريق هذه الأسماء وهذه المفاهيم ننقاد إلى معرفة الله، فكيف لنا أن نعرف جوهره في الوقت الذي تقتصر فيه معرفتنا على صفات الجوهر فقط، وليس مَن يكون الله بحسب الجوهر أو الطبيعة؟

لأن ذلك شبيهٌ بشخصٍ يقول إنه يعرف جيداً ماذا تكون نفس الإنسان من ناحية الجوهر لمجرَّد أنه يعرف أن لا شكل لها أو نوعية أو كم. أو كأنه يقول إنه يعرف الجسد البشري ماذا يكون بحسب الطبيعة لمجرَّد أنه يقول إنه أبيض أو أسود.

إن الجواهر لا تُعرف بواسطة ما يميِّزها، لكن بتلك العناصر التي تتكون منها الجواهر بحد ذاتها.

١٧- ردٌ آخر

القول بأن الله بسيطٌ وغير مركّب، هو قولٌ يُعتَرَفُ به من الكل. ولذلك يصبح من قبيل الهذيان أن نقول إن المعرفة التي يمتلكها هو عن ذاته هي مثل تلك التي نمتلكها نحن عنه؛ لأنه إن كان شيئاً آخر غير الذي نعرفه عنه، لأصبح مركّباً وليس بسيطاً. لكن، لأنه بسيطٌ، فمعرفته لذاته ليست شيئاً مختلفاً عن ذاته. وفي هذا نختلف نحن عنه؛ لأننا، وإن كنا نختلف عن الجوهر، إلاّ أنه لدينا معرفة عن جوهرنا مثل لون الجسد مثلاً. وبناءً على ذلك، فنحن لا نعرف شيئاً مماثلاً عن الله طالما نحن لسنا مثله[1]. لأنه هو العقل الأسمى من الكل الذي يرى الكائنات، ويرى ذاته بطريقةٍ تليق بالله، بينما نحن لا نقدر أن نتخطى الحدود التي أُعطيت لنا، بل بالكاد نرى الله غير المُدرَك كما في مرآة (أنظر ١ كو ١٣: ١٢).

(1) نحن لا نستطيع أن نعرف الله كما هو لأننا لا نستطيع أن نعرف أي شيء ما لم نطابقه بشيء مماثل نعرفه من قبل، أي من خلال خبرتنا الشخصية، وبما أن الله لا مثيل له، فإننا لا نستطيع أن نماثله بآخر نعرفه، لأجل هذا تجسد **الكلمة** الذي هو صورة الآب ليعلن لنا الآب: "الله لم يره احد قط. الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبر" (يو ١: ١٨). ويعلق القديس يوحنا ذهبي الفم على هذه الآية مؤكداً على قرب الابن للآب مما يجعله هو الوحيد الذي يعرف الله معرفة تامة، إذ يقول: "إذا سمعت كلمة "حضن" فلا ينبغي أن يأخذك الظن بأن المقصود حضن جسدي يوجد في مكان ما، بل أنها تعبر عن قرب الابن وثقته عند الذي وَلَدَه. ... لأن الآب ما كان ليرضى بقيام الابن في حضنه، لو لم يكن من الجوهر نفسه. كذلك الابن، لو كان ذا طبيعة أدنى لِما كان يستطيع أن يستقر في حضن الآب. لذلك حيث إنه ابن ووحيد وساكن في حضن الآب، فهو يعرف تماماً كل ما يعرفه الآب". القديس يوحنا ذهبي الفم، الله لا يمكن إدراكه، ضد الأنوميين، ترجمة وإعداد القمص مرقوريوس الأنبا بيشوي، مؤسسة القديس باسليوس، ٢٠٠٨، العظة الرابعة فقرة ٢٨ - ٢٩ ص ٧٠.

المقالة الثانية والثلاثون

شواهد مختارة من العهد الجديد تثبت أن الابن هو بحسب الطبيعة إلهٌ، وبناءً على ذلك، فهو ليس مخلوقاً

أولاً:

من الرسالة إلى رومية

١- قال بولس الرسول إلى أهل رومية: "بُولُسُ، عَبْدٌ لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، الْمَدْعُوُّ رَسُولاً، الْمُفْرَزُ لإِنْجِيلِ اللهِ" (رو ١: ١). وفى نفس الرسالة يقول عن المخلص "الَّذِي بِهِ، لأَجْلِ اسْمِهِ، قَبِلْنَا نِعْمَةً وَرِسَالَةً، لإِطَاعَةِ الإِيمَانِ فِي جَمِيعِ الأُمَمِ" (رو ١: ٤). هذا الذي يقول إنه أُفرز لكي يكرز بإنجيل الله، مباشرة يقول إنه أُقيم لكي يكرز لكل الأمم باسم ربنا يسوع المسيح، من الواضح أن الرسول يعترف هنا بأن المسيح هو الله[1]. فإذا كان من غير الممكن أن يكون مخلوقاً، فكيف يمكن لجوهر الابن أن يكون مخلوقاً، الابن الذي هو إلهٌ بحسب الطبيعة؟

(١) الإلوهة والربوبية هي واحدة للثالوث القدوس كما يؤكد على ذلك القديس كيرلس في حواره عن الثالوث: "لأن الآب فيه كل ملء الربوبية والمجد كإله، كما أن الابن هو أيضاً رب وإله. فبدون الربوبية لن يكون الآب إلهاً ولا يكون الابن رباً حقيقياً إن كان منفصلاً عن الإلوهة الحقيقية حسب الطبيعة. ولهذا فإن الطوباوي بولس يربط بين الاسمين في وحدة واحدة، وذلك عندما يقول في إحدى المرات: إن الإنجيل هو إنجيل الله الآب وفي مرة أخرى يقول إن الإنجيل هو إنجيل المسيح". حوار عن الثالوث القدوس، الجزء الثاني، الحوار الثالث، ص ٧٨.

٢- شاهدٌ آخر

يقول أيضاً: "نِعْمَةٌ لَكُمْ وَسَلاَمٌ مِنَ اللهِ أَبِينَا وَالرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ" (رو ١: ٧). فطالما شُمِلَ المسيح مع الله الآب كمانح للمواهب الإلهية[١]، ويمنح أيضاً مع الآب العطايا للقديسين، كيف لا يكون إلهاً ذاك الذي لديه كل ما لله، ويمكنه أن يفعل كل شيء بسهولة، أي كل ما يمكن أن يفعله الآب الذي ولده؟ نحن لا نقبل بالتأكيد أن يكون هناك تطابقٌ بين فعل الله الطبيعي وفعل المخلوق، فلا نرتفع بالمخلوق إلى الجوهر الإلهي، ولا نهبط بالطبيعة الإلهية السامية إلى مكانة المخلوقات[٢]. لأن الفعل بالنسبة للمخلوقات يتناسب مع قوهّا، أي من نفس نوعية طبيعة المخلوقات المحدودة. على الجانب الآخر عندما يقول أشعياء النبي: "يا رب تجعل لنا سلاما" (أش ٢٦: ١٢) يُظهِر أن الابن يمنح السلام مع الآب. إذن هو الله وإلهٌ حقيقي، هذا الذي يفعل كل شيء بالله الآب ومع الآب.

٣- ردٌ آخر على نفس الموضوع

المسيح وهو ينصح التلاميذ أثناء اقتراب آلامه يقول لهم: "سَلاَماً أَتْرُكُ لَكُمْ. سَلاَمِي أُعْطِيكُمْ" (يو ١٤: ٢٧). إذن بما أنه يقول إنه يمتلك السلام كصلاحٍ خاصٍ فيه بحسب الطبيعة، فكيف لا يصير واضحاً لكل واحد أن امتيازات الآب الخاصة لا تنتقل إلى

---

(١) سبق أن أكد القديس أثناسيوس على أن المواهب تُعطى من الآب والابن، إذ يقول: "النعمة المعطاة هي واحدة، وهى معطاة من الآب بالابن كما يكتب بولس في كل رسالة "نعمة لكم وسلام من الله أبينا والرب يسوع المسيح". لأنه يلزم أن يكون النور مع الفجر وأن يُشاهد الشعاع في نفس الوقت مع نوره الخاص به". ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، فقرة ٤٢ ص ٨٣. وهذه الحقيقة نراها في الليتورجيا، إذ في مقدمة القداس الغريغوري نصلي: "محبة الله الآب ونعمة الابن الوحيد ربنا وإلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح، وشركة وموهبة الروح القدس تكون مع جميعكم". انظر الخولاجى المقدس، طبعة دير البراموس ٢٠٠٢ ص ٣٢٣.

(٢) هذا يعني أن الآباء حين يتحدثون عن التأله فأهم لا يرفعون الطبيعة البشرية لكي تكون في مكانة الله ولا يُنزلون الطبيعة الإلهية لتكون في مكانة البشر. وهنا يؤكد القديس كيرلس على الفرق الشاسع بين الله غير المخلوق والإنسان المخلوق. أما عطية أن نكون شركاء الطبيعة الإلهية فهذا يتحقق بحسب النعمة، إلا أن الطبيعة البشرية تظل كما هي ولا تتغير إلى طبيعة إلهية، بل تكتسب نعمة الاتحاد بالله بواسطة الروح القدس. وبناء على ذلك فإن التأله المرفوض هو الذي ينادى بأن البشر يتحولون إلى آلهة بحسب الطبيعة متمتعين بقدرات إلهية مطلقه، الأمر الذي هو مستحيل ويُعَد تجديفاً عظيماً.

الابن بالمشاركة، مثلما يحدث في المخلوقات العاقلة، لكن تطابق الجوهر يجذب إلى هذا الذي وُلِد خصائص ذاك الذي ولَدَه؟ لذلك بالضبط هو العاطي والمانح بحسب الطبيعة وأيضاً هو غير منفصل عن الآب، بل هو يوزِّع مع الآب العطايا إلى القديسين[1]. ومَنْ له مثل هذا الجوهر، كيف لا يكون إلهاً بحسب الطبيعة؟ ولأنه إلهٌ بحسب الطبيعة، فهو ليس مخلوقاً.

٤- شاهِدٌ آخر

يقول أيضاً: "لأَنَّ غَضَبَ اللهِ مُعْلَنٌ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى جَمِيعِ فُجُورِ النَّاسِ وَإِثْمِهِمِ، الَّذِينَ يَحْجِزُونَ الْحَقَّ بِالإِثْمِ. إِذْ مَعْرِفَةُ اللهِ ظَاهِرَةٌ فِيهِمْ، لأَنَّ اللهَ أَظْهَرَهَا لَهُمْ" (رو ١: ١٨، ١٩). إذن، فبما أن إلوهية هذا الذي يعمل أعمالاً عظيمةً تُرى بالقياس على قدر أعماله العظيمة، وبما أن الابن - بالتأكيد - ليس من ضمن المخلوقات، وبسبب أن الابن هو خالق الكل، فمن الواضح أن إلوهيته تُرى بواسطة المخلوقات، عندئذ كيف يكون مخلوقاً مَنْ تُظهِره طبيعة المخلوقات أنه إلهٌ بحسب الطبيعة[2]؟

---

(1) إن أعظم العطايا – بحسب القديس كيرلس – هي أن نصير شركاء الروح القدس مؤكداً على أن الابن يشترك مع الآب في منح العطايا للقديسين، إذ يقول: "المسيح أعطى للرسل القديسين السلطان كي يخرجوا الشياطين ويشفوا الأمراض وكل ضعف بين الناس والأمر الأعظم من كل هذا أنه أعطاهم السلطان حتى يقدروا أن يهزموا حتى الموت نفسه عندما حدّثهم بكلام يليق به كإله "اشفوا مرضى، طهروا بُرصاً. أقيموا موتى، أخرجوا شياطين". كما أن يوحنا الناطق بالإلهيات يعترف بكل وضوح قائلاً "ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا". فهل تعتقد أنه توجد عطية صالحة وهبة كاملة غير أن نكون شركاء الروح القدس؟". حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الثاني، الحوار الثالث، ص ٧٢ - ٧٣.

(2) سبق أن أكد القديس أثناسيوس على أن مشكلة الهراطقة في عدم رؤية الله من خلال أعمالة هي أنهم يعتمدون على تخيلاتهم إذ يقول " لأنهم وإن كانوا يرون أعمال الله فإنهم ينكرون الإله الكائن الوحيد والحقيقى، ويصوّرون لأنفسهم إلهًا آخر لا يستطيعون إثباته بأى عمل ولا بأية شهادة من الأقوال الإلهية ". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثانية، فقرة٣٩ ص ٧٩. ومن محبة الله أن أعطى للإنسان أن يعرفه بأن تجسد حتى لا يعتمد البشر على الطريقة السابقة، أي معرفة الله عن طريق الإعلان الطبيعي أي عن طريق الطبيعة، وهذا أيضاً ما يؤكده القديس أثناسيوس، إذ يقول: "لأن الله لا يريد بعد - مثلما حدث في العصور السابقة - أن يُعرف عن طريق صورة وظل الحكمة الموجودة في المخلوقات بل جعل الحكمة

٥- شاهدٌ آخر

هؤلاء الذين يستطيعون رؤية إلوهية الخالق - من خلال أعماله – ليسوا محصَّنين؛ لأن بولس يقول: "لأَنَّهُمْ لَمَّا عَرَفُوا اللهَ لَمْ يُؤمِنُوا بهِ أَوْ يَشْكُرُوهُ كَإِلهٍ" (أنظر رو ١: ٢١)، فإذا كان هؤلاء عندما يرون خالق الخليقة، يعرفون الله، ويعرفون أن السماويين خُلِقوا بكلمة الرب (مز ٣٣: ٦)، إذن، فهو الله وليس بمخلوق ذلك الذي دعى كل شيءٍ إلى الوجود. ولكن الذين يتجنبون تمجيده يظلون إيمانياً غير محصَّنين[1]. لأن التمجيد هو لله وحده ويليق به، بينما يكون غريباً لو وُجِّه تجاه الطبيعة المخلوقة.

هذا بالضبط ما علَّمنا إياه المخلص حين قال لتلاميذه: "فَلْيُضِئْ نُورُكُم هكَذَا قُدَّامَ النَّاسِ، لِكَيْ يَرَوْا أَعْمَالَكُمُ الْحَسَنَةَ، وَيُمَجِّدُوا أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ" (مت ٥: ١٦)، فقد حكم أن المجد الذي يلحق التلاميذ ليس بسبب الأعمال التي يعملونها، بل بالحري يُنسَبُ إلى الله؛ لأن هذا المجد يرجع إليه. فإذا كان من الواجب أن يُمَجَّد المسيح مثلما برهنّا، وهو ما ذكره شاهد الحق، فكيف لا يكون إلهاً ذاك الذي يُحاط بالمجد الذي يليق بالله؟

٦- شاهدٌ آخر

"أَسْلَمَهُمُ اللهُ إلى أَهْوَاءِ الْهَوَانِ، الَّذِينَ اسْتَبْدَلُوا حَقَّ اللهِ بِالْكَذِبِ، وَاتَّقَوْا وَعَبَدُوا الْمَخْلُوقَ دُونَ الْخَالِقِ، الَّذِي هُوَ مُبَارَكٌ إلى الأَبَدِ آمِينَ" (رو ١: ٢٦، ٢٥)[2]. إذن، مَن

الحقيقية ذاتها تتخذ جسداً وتصير إنساناً وتعاني موت الصليب، لكي يتمكن جميع الذين يؤمنون أن يخلصوا بالإيمان به" ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثانية، فقرة ٨١ ص ١٤٩.

(١) يظَل الهراطقة غير محصنين من جهة إيمانهم وعقائدهم وتفسيراتهم لأنهم لا يؤمنون بالإيمان المستقيم بالثالوث القدوس.

(٢) ملاحظة لغوية: طبقاً لقواعد النحو العربي، تدخل الباء على المتروك، وبالتالي كان من المفروض أن تجيء عبارة "اسْتَبْدَلُوا حَقَّ اللهِ بِالْكَذِبِ" الواردة في الآية متسقةً مع المعنى المفهوم من النص، أي أنهم تركوا الخالق وعبدوا المخلوق، وبالتالي كان يجب أن تدخل الباء على "حق الله"، فهو المتروك هنا لا على "الكذب"، وبالتالي يجيء النص على النحو التالي: "اتخذوا الباطل بدلاً من الحق الإلهي" كما جاءت في الترجمة العربية الجديدة، أو كما جاءت في الترجمة الكاثوليكية التي أنجزتها الرهبنة اليسوعية، ونشرتها دار المشرق في بيروت ١٩٨٨: "قد استبدلوا الباطل بحقيقة الله". وقد وردت حتى في ترجمة كتاب الحياة: "إذ قد استبدلوا بحق الله ما هو باطل"، لذا لزم التنويه.

يعبد الخليقة دون الخالق يكون قد استبدل الكذب بالحق. أمَّا الذي لا يفعل هذا الأمر، فإنه يحفظ الحق، وهو على النقيض من المضلّين، يعبد الخالق والباني. وإذا كان الخالق والباني هو الابن، فهذا يعبده بكونه إله الجميع. ولذلك لا نُوجد بعد في ضلال، إذا كنّا لا نستبدل الضلال بالحقيقة. وبناءً على ذلك لا يكون الابن مخلوقاً، بل هو على نقيض المخلوقات يُؤمَن به كخالق مع الآب[1]، وهو مبارك إلى أبد الدهور آمين.

٧- ردٌّ آخر

لأن بولس يقول لأولئك الذين لا يندمون على خطاياهم، المقيَّدين بالدناءة بقيد لا ينفك: "وَلكِنَّكَ مِنْ أَجْلِ قَسَاوَتِكَ وَقَلْبِكَ غَيْرِ التَّائِبِ، تَذْخَرُ لِنَفْسِكَ غَضَباً فِي يَوْمِ الْغَضَبِ وَاسْتِعْلاَنِ دَيْنُونَةِ اللهِ الْعَادِلَةِ، الّذِي سَيُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ حَسَبَ أَعْمَالِهِ" (رو٢: ٥ ـــ٦)، ثم أيضاً للآخرين يقول: "لأَنَّهُ لاَبُدَّ أَنَّنَا جَمِيعاً نُظْهَرُ أَمَامَ كُرْسِيِّ الْمَسِيحِ، لِيَنَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مَا كَانَ بِالْجَسَدِ بِحَسَبِ مَا صَنَعَ، خَيْراً كَانَ أَمْ شَراً" (٢ كو ٥: ١٠). إذن، فإذا كنّا سوف نظهر جميعا أمام منبر المسيح؛ (لأنه يقول: "لأَنَّ الآبَ لاَ يَدِينُ أَحَداً، بَلْ قَدْ أَعْطَى كُلَّ الدَّيْنُونَةِ لِلابْنِ" (يو ٥: ٢٢))، وهذا سيجازى كل واحد بحسب أعماله، فكيف لا يكون هو الله بحسب الطبيعة[2]، طالما أن بولس يقول إن دينونة الله سوف تعلَن، أي أن

([1]) يحذرنا القديس أثناسيوس من السقوط في الحماقة الأريوسية بأن نعبد المخلوق من دون خالق كل الخليقة مؤكداً على أن الذي فدانا هو الله الابن، إذ يقول: "لأنه لا يجب أن يكون الفداء عن أي طريق آخر سوى عن طريق ذاك الذي هو رب بالطبيعة، لئلا بعد أن خلقنا الابن فإننا ندعو لنا رباً آخر، أو نسقط في الحماقة الأريوسية والوثنية بأن نعبد المخلوق من دون خالق جميع الأشياء". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثانية، فقرة ١٤ ص ٣٥.

([2]) أيضاً في شرحه لنص يو ٥:٢٢ يؤكد القديس كيرلس على هذه الحقيقة، قائلاً: "لأنه مَنْ من الناس يليق به أن يدين العالم سواه هو وحده ذاك الذي هو الله، الذي هو فوق الكّل، والذي تدعوه الأسفار الإلهية، في موضع ما قائلة، "قُمْ يَا اَللهُ. دِنِ الأَرْضَ" (مز ٨:٨٢)، ثم في موضع آخر "وَلكِنَّ اللهَ هُوَ الْقَاضِي. هذَا يَضَعُهُ وَهذَا يَرْفَعُهُ" (مز٧:٧٥). وها هو المسيح يقول إن " الآب قد أعطى كل الدينونة للابن"، ليس كأن الابن كان بلا سلطان حتى الآن، بل تدبيرياً كإنسان، معلّماً أنه من المناسب أكثر أن تنسب كل الأشياء إلى الطبيعة الإلهية، إذ هو أيضاً ليس خارجاً عن الآب، لأنه هو **الكلمة** وهو الله الذي له السلطان في ذاته على الكّل، لكن إذ جُعِلَ إنساناً، والإنسان قد قيل له "وَأَيُّ شَيْءٍ لَكَ لَمْ تَأْخُذْهُ؟" (١ كو ٤:٧)، فإنه وبشكل لائق يقر أنه يأخذ هذا السلطان وقد يقول أحد خصومنا أيضاً عن تلك الأشياء. "ها هوذا الابن يعلن صراحة أنه قد أخذ الدينونة من الآب"، فهو يأخذ

القرار الخاص بكل واحد من السابقين سوف يصدره هو، حتى أنه قال للأشرار: "اذْهَبُوا عَنِّي يَا مَلاَعِينُ إِلَى النَّارِ الأَبَدِيَّةِ" (مت ٢٥: ٤١)، وإلى صانعي التقوى قال: "ثُمَّ يَقُولُ الْمَلِكُ لِلَّذِينَ عَنْ يَمِينِهِ: تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي، رِثُوا الْمَلَكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ" (مت٢٥:٣٤).

٨- شاهِدٌ آخر

أيضاً كتب بولس قائلاً: "لأَنَّهُ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ كُلُّ ذِي جَسَدٍ لاَ يَتَبَرَّرُ أَمَامَهُ. لأَنَّ بِالنَّامُوسِ مَعْرِفَةَ الْخَطِيَّةِ. وَأَمَّا الآنَ فَقَدْ ظَهَرَ بِرُّ اللهِ بِدُونِ النَّامُوسِ، مَشْهُوداً لَهُ مِنَ النَّامُوسِ وَالأَنْبِيَاءِ، بِرُّ اللهِ بِالإِيمَانِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، إِلَى كُلِّ وَعَلَى كُلِّ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ" (رو ٣: ٢٠ - ٢٢). إذن فقد تبررنا حين آمنّا بالمسيح[1]؛ لأننا عرفنا هذا الذي هو إلهاً حقيقياً بحسب الطبيعة؛ لأن هذا هو ما أكّده بولس نفسه حين كتب للمسيحيين من الأمم: "وَأَمَّا الآنَ إِذْ عَرَفْتُمُ اللهَ، بَلْ بِالْحَرِيِّ عُرِفْتُمْ مِنَ اللهِ" (غلا ٤: ٩)[2]، فكيف يمكن أن يكون الابن مخلوقاً، وليس إلهاً وفق شهادات القديسين؟

وهذا واضح لكونه لا يملك، فكيف لا يكون ذلك الذي يعطي بسلطان، أعظم وذا طبيعة أسمى من ذاك الذي يحتاج أن يأخذ؟". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، ص ٢٦٧.

(1) يبرز القديس كيرلس التبرير بالمسيح مقارنةً بالناموس في شرحه لما جاء في يو ١٧:١ قائلاً: "كل مَنْ يريد أن يتعلّم أن يدرس النعمة الإنجيلّية التي وُهِبَتْ لنا بواسطة المخلّص ويقارنها بنعمة الناموس التي أعطيت بواسطة موسى، فسوف يرى أن الابن أسمى بكثير، لأنه هو واضع الناموس الذي يهب خيرات أفضل من الناموس الموسوي. ولذلك يقول الإنجيلي "النَّامُوسَ بِمُوسَى أُعْطِيَ أَمَّا النِّعْمَةُ وَالْحَقُّ فَبِيَسُوعَ الْمَسِيحِ صَارَا". وما هو الفرق بين الناموس والنعمة التي صارت بواسطة المخلّص؟.. لقد أدان الناموس الخليقة، لأنه بالناموس أغلق الله على الكلّ تحت الخطية (غلا ٢٢:٣) وأظهر أننا تحت العقاب، أما المخلّص فقد أعطى الحرِّية للإنسان "لأنه لَمْ آتِ لأَدِينَ الْعَالَمَ بَلْ لأُخَلِّصَ الْعَالَمَ" (انظر يو ٤٧:١٢). ومع أن الناموس أعطي نعمة معرفة الله للإنسان وجذبه من عبادة الأصنام التي أضلّت الإنسان، وبالإضافة إلى ذلك أشار إلى الشرِّ وعلّم الخير، وإن كان بطريقة غير كاملة، لكنه كان كمعلّم نافع، أما النعمة والحق اللذان بالابن الوحيد، الذي لم يقدّم لنا الخيرات في رموز، ولا رسم الأمور النافعة في ظلال، بل بوصايا مجيدة ونقيّة، يقودنا بيده، لكي ننال معرفة كاملة للإيمان" شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول ، ص ١١٨.

(2) يستعجب القديس كيرلس- في حواره حول الثالوث - من الذين يعتقدون أن الابن ليس إلهاً بالرغم من أنه هو الذي صالح البشرية بالله وصيَّرنا معروفين لدى الله، إذ يقول: " أننا نؤمن أن جوهره يعكس كينونته، بمعنى أنه

٩- شاهدٌ آخر

كذلك وافق بولس أولئك الذين تبرروا بواسطة الإيمان بالمسيح، حين قال: "إذاً نَحْسِبُ أَنّ الإنْسَانَ يَتَبَرّرُ بالإيمَانِ بدُونِ أَعْمَالِ النّامُوسِ. أَم اللهُ لِلْيَهُودِ فَقَطْ؟ أَلَيْسَ لِلأُمَمِ أَيْضاً؟ بَلَى، لِلأُمَمِ أَيْضاً؛ لأَنّ اللهَ وَاحِدٌ، هُوَ الّذِي سَيُبَرّرُ الْخِتَانَ بالإيمَانِ وَالْغُرْلَةَ بالإيمَانِ" (رو ٣: ٢٨ - ٣٠). ونحن نرى أن المسيح قد أنجز هذا العمل الذي وعد به، عندما قال إنه سوف يبرر أولئك الذين يؤمنون به، قائلاً: "الّذِي يُؤْمِنُ بِهِ لاَ يُدَانُ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيّةُ" (يو٣: ١٨، ١٦).

إذن، فطالما أن فعل التبرير يليق فقط بالله، وهذا الذي يبرر هو المسيح[١]، فكيف لا يكون هو الله بحسب الطبيعة؟ وبما أنه هو الله، فهو عندئذ لا يكون مخلوقاً.

إله حق من إله حق؟ وإلاّ فقل لي كيف تفهم ما قصده الرسول بولس عندما كتب عنه قائلاً "إن الله كان في المسيح مصالحاً العالم لنفسه غير حاسب لهم خطاياهم واضعاً فينا كلمة المصالحة إذ نسعى كسفراء عن المسيح كأن الله يعظ بنا نطلب عن المسيح تصالحوا مع الله " (٢ كو ٥: ١٩ - ٢٠). فعندما يأتي شخص ما للمسيح فإنه يتصالح مع الله ومن خلال المسيح يتصالح العالم كله مع الله، وبالتالي كيف لا يكون من المضحك أن يعتقد هؤلاء أن **الكلمة** الذي أتى من الآب وهو باقٍ فيه، هو بعيد عن جوهر الآب؟" القديس كيرلس السكندري، حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الثاني، الحوار الثالث ص ٧٦.

(١) إن الذي لا يؤمن بأن الابن هو الله لن يتبرر ويطعن في محبة الله للبشر، وهذا ما أكده القديس كيرلس في شرحه لنص يو ٣: ١٦، إذ يقول: "أعجوبة المحبة تُرى في بذله ابنه لأجلنا، وهذا الابن هو الابن الوحيد. ولكي يبقى إذاً حب الله الآب، هذا الحب العظيم، ويظلّ محفوظاً فلنؤمن أنه هو الابن وليس مخلوقاً، أعنى أنه الابن من جوهر الآب، أي واحد في الجوهر مع الذي وَلَدَه، وهو الله بالفعل وبالحق. لكن إن كان، بحسب زعمك، ليس من نفس جوهر الله الآب، فإنه عندئذٍ لن يكون بالطبيعة ابناً وإلهاً، وسوف تصبح أعجوبة محبة الله العظيمة في النهاية كأنها لم تكن: لأنه يكون قد بَذَلَ مخلوقاً لأجل مخلوقات، و لم يبذل ابنه الحقيقي" شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، المرجع السابق، ص ١٩٣.

أيضاً يدعو القديس كيرلس الأمم للفرح بخلاص الرب وهو يشرح نص لقاء المرأة الخاطئة بالمسيح الوارد في لو ٧: ٣٦ - ٥٠ موضحاً الفرق بين بر الناموس والبر بالمسيح، إذ يقول: "يا جميع الأمم صفقوا بأيديكم، اهتفوا لله بصوت الابتهاج والشكر" (مز ٤٧: ١س). وما هو سبب هذا الابتهاج؟ إنه بسبب أن المخلص هنا أنشأ لنا طريقاً للخلاص لم يَسِر فيه الذين في القديم. لأن الناموس الذي وضعه موسى الحكيم كان لتوبيخ الخطية لإدانة التعديات، ولكنه لم يبرر مطلقاً أي أحد. لأن بولس الحكيم يكتب ويقول " مَن خالف ناموس موسى فعلى فم شاهدين أو ثلاث شهود يموت بدون رأفة" (عب ١٠: ٢٨). أما ربنا يسوع المسيح فإذ قد أبطل لعنة الناموس وجعل الوصية التي تدين بلا قوة وغير فعَّالة، "صار رئيس كهنتنا الرحيم" بحسب كلمات

١٠- شاهدٌ آخر

يقول بولس أيضاً عن ابرآم أبو الآباء: "كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ:«إِنِّي قَدْ جَعَلْتُكَ أَباً لأُمَمٍ كَثِيرَةٍ». أَمَامَ اللهِ الَّذِي آمَنَ بِهِ، الَّذِي يُحْيِي الْمَوْتَى، وَيَدْعُو الأَشْيَاءَ غَيْرَ الْمَوْجُودَةِ كَأَنَّهَا مَوْجُودَةٌ" (رو ٤: ١٧). إذن طالما يقال عن الله إنه يقيم الأموات، وطالما أن الابن يقول: "أَنَا هُوَ الْحَيَاةُ" (يو ١٤: ٦)، وأيضاً: "لأَنَّ هذِهِ هِيَ مَشِيئَةُ الَّذِي أَرْسَلَنِي: أَنَّ كُلَّ مَنْ يَرَى الابْنَ وَيُؤْمِنُ بِهِ تَكُونُ لَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ" (يو ٦: ٤٠)، وكذلك: "أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ" (يو ١١: ٢٥)، فمن هو هذا الذي لا يعترف - إذا كان عاقلاً بالفعل - أن هذا الابن هو الثمرة الأصلية والحقيقية لجوهر الآب[1]، وفيه بحسب الطبيعة كل خواص الآب[2]؟ ولأنه هو هكذا بالفعل، فهو إذن الله الذي أتى من الله، وليس مخلوقاً أو مصنوعاً.

بولس المبارك (عب ٢: ١٧)، لأنه يبرِّر الخطاة بالإيمان، ويطلق المأسورين بالخطية أحراراً". تفسير إنجيل لوقا، المرجع السابق، عظة ٤٠، ص ١٨١.

(1) الابن هو ثمرة جوهر الآب أي المولود من الآب ويستخدم القديس كيرلس هذا التعبير ليؤكد أن الابن هو أزلي مع الآب وهذا التعبير هو من الآباء، إذ يقول: "لقد تَعلّم هؤلاء (الآباء) ألاّ يَسجدوا للابن الوحيد **كلمة الله** على أنه مخلوق- بمعنى أنه قد خُلِقَ- لكنهم يَشهدون أنه هو ثمرة جوهر الأب، وهو كائن معه أزلياً ويُسمّونه ابن الله الحقيقي وأيضاً الحياة الأبدية " حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الثالث، الحوار الرابع ص٢. أنظر أيضاً القديس أثناسيوس، المقالة الأولى ضد الأريوسيين، المرجع السابق، ف ٥٨ ص ١٣٥. وكذلك أنظر حوار حول الثالوث، القديس كيرلس عمود الدين، الجزء الثاني، الحوار الثالث، المرجع السابق، ص ٩،١٤،١٥،٤٨،٨٠.

(2) يؤكد الآباء أن الابن واحد مع الآب في الجوهر وهذه الحقيقة أكدمّا الكنيسة في مجمع نيقية لذا يملك الابن كل ما لدى الآب، إذ يقول القديس أثناسيوس في رسائله عن الروح القدس: " فمن هو الذي لا يعرف جيداً أن الابن ينبغي أن يكون واحداً في الجوهر مع الآب، حيث إن الابن ليس بينه وبين المخلوقات أية مشابهة، ولكن كل ما للآب هو للابن؟ وكان من الممكن أن يكون واحداً في الجوهر مع المخلوقات لو كان له معها أية مشابهة أو قرابة. وحيث إنه غريب عن المخلوقات حسب الجوهر، **ولكونه الكلمة الخاص بالآب**، وهو لا يختلف عنه، وحيث إن كل ما للآب هو له، فذلك يقتضي أنه من نفس جوهر الآب. وهذا ما أدركه الآباء حينما اعترفوا في مجمع نيقية أن الابن مساو للآب ومن نفس جوهره. لقد تحققوا جيداً أن الجوهر المخلوق لا يستطيع أبداً أن يقول " كل ما للآب هو لي" (يو ١٦: ١٥). وبسبب أن وجود الجوهر المخلوق له بداية، فهو ليس كائناً ولم يكن أزلياً، ولذلك فحيث إن الابن له هذه الخصائص، وحيث إن كل الأشياء السابق ذكرها، والتي للآب هي للابن فمن الضروري أن يكون جوهر الابن غير مخلوق بل هو من نفس جوهر الآب". الرسالة الثانية عن الروح القدس لسيرابيون، المرجع السابق، فقرة ٥ ص ١٠١.

١١- ردٌ آخر

حين كتب بولس إلى الأمم، قال: "لِذلِكَ اذْكُرُوا أَنَّكُمْ أَنْتُمُ الأُمَمُ قَبْلاً فِي الْجَسَدِ، الْمَدْعُوِّينَ غُرْلَةً مِنَ الْمَدْعُوِّ خِتَانًا مَصْنُوعاً بِالْيَدِ فِي الْجَسَدِ، لأَنَّكُمْ كُنْتُمْ فِي ذلِكَ الْوَقْتِ بِدُونِ مَسِيحٍ، أَجْنَبِيِّينَ عَنْ رَعَوِيَّةِ إِسْرَائِيلَ، وَغُرَبَاءَ عَنْ عُهُودِ الْمَوْعِدِ" (أفسس ٢: ١١ - ١٢)، يؤكد لهم الرسول أنهم الآن عرفوا الله، ويشرح لهم بعد ذلك طريقة المعرفة، قائلا: "لكِنْ مَاذَا يَقُولُ؟ «اَلْكَلِمَةُ قَرِيبَةٌ مِنْكَ، فِي فَمِكَ وَفِي قَلْبِكَ» أَيْ كَلِمَةُ الإِيمَانِ الَّتِي نَكْرِزُ بِهَا: لأَنَّكَ إِنِ اعْتَرَفْتَ بِفَمِكَ بِالرَّبِّ يَسُوعَ، وَآمَنْتَ بِقَلْبِكَ أَنَّ اللهَ أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ، خَلَصْتَ" (رو ١٠: ٨ - ٩). في اللحظة التي فيها يتبرر مَنْ يؤمن بيسوع المسيح، ويعترف أنه هو الرب عارفاً إياه بكونه هو الله بالحقيقة، كيف لا يكون الابن إلهاً بحسب الطبيعة؟ وهذا الذي هو الله، كيف يمكن أن يكون مخلوقاً؟

١٢- شاهدٌ آخر

بولس وهو يُظهر أنه مدبرٌ وقائمٌ بخدمة الأسرار الإلهية، يقول: "وَلكِنْ بِأَكْثَرِ جَسَارَةٍ كَتَبْتُ إِلَيْكُمْ جُزْئِيًّا أَيُّهَا الإِخْوَةُ، كَمُذَكِّرٍ لَكُمْ، بِسَبَبِ النِّعْمَةِ الَّتِي وُهِبَتْ لِي مِنَ اللهِ، حَتَّى أَكُونَ خَادِماً لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ لأَجْلِ الأُمَمِ، مُبَاشِراً لإِنْجِيلِ اللهِ كَكَاهِنٍ، لِيَكُونَ قُرْبَانُ الأُمَمِ[1] مَقْبُولاً مُقَدَّساً بِالرُّوحِ الْقُدُسِ" (رو ١٥: ١٥ - ١٦)، هنا أيضاً يعلن بكل

---

(1) كون أن قربان الأمم صار مقبولاً بفضل المسيح – عند القديس كيرلس – فهذا يعني أن المسيح هو الله، وهذا يؤكده القديس كيرلس في شرحه للوقا ١٤:٤ - ١٥، إذ يقول: "وأولئك الذين أعتمت قلوبهم منذ القديم بظلمة إبليس، قد أنار لهم بإشراقه كشمس للبر، وجعلهم أبناء لا لليل والظلمة فيما بعد، بل أبناء للنور والنهار كقول بولس الرسول (١ تس ٥:٥). وأولئك الذين كانوا عمياناً "لأن المُضِل أعمى قلوبهم" قد استعادوا بصرهم وعرفوا الحق، وكما يقول إشعياء "صارت ظلمتهم نوراً" (إش ٤٢: ١٦)، أي صار الجُهال حكماء، وأولئك الذين كانوا في الخطية عرفوا مسالك البر، والآب أيضاً يقول للابن في موضع ما " أجعلك عهداً للشعب، لتفتح عيون العمي، لتُخرج من الحبس المأسورين، من بيت السجن الجالسين في الظلمة" (إش ٤٢: ٦، ٧)، لأن الابن الوحيد جاء إلى هذا العالم وأعطى عهداً جديداً لشعبه، الإسرائيليين، الذين منهم وُلد حسب الجسد، وهو العهد الذي أُعلن عنه سابقاً جدّاً بصوت الأنبياء. ولكن النور الإلهي السماوي أضاء أيضاً على الأمم، وذهب وبشّر الأرواح في الجحيم، وأظهر نفسه لأولئك الذين كان مغلقاً عليهم في بيت السجن، وفك قيود الجميع وحررهم من العنف، فكيف لا تبرهن كل الأشياء أن المسيح هو إله وابن الإله بالطبيعة؟". تفسير إنجيل لوقا، المرجع السابق، ص ٨٤.

وضوح، أنه نال مِن الله، بالنعمة أن يكون خادماً ليسوع المسيح. ثم يشرح طريقة خدمته، ويقول: "الْمُفْرَزُ لإِنْجِيلِ اللهِ" (رو ١: ١). ولأنه كرز وبشَّر بيسوع المسيح، فقد عَرِف أن الابن كان هو الله بحسب الطبيعة؛ لأنه إن لم يكن هو الله بحسب الطبيعة، ما كان قد دعاه الله، ولا افتخر بذاته إن كان الابن مصنوعاً ومخلوقاً، قائلا: "وَلكِنْ لَمَّا سَرَّ اللهُ الَّذِي أَفْرَزَنِي مِنْ بَطْنِ أُمِّي، وَدَعَانِي بِنِعْمَتِهِ أَنْ يُعْلِنَ ابْنَهُ فِيَّ لأُبَشِّرَ بِهِ بَيْنَ الأُمَمِ، لِلْوَقْتِ لَمْ أَسْتَشِرْ لَحْماً وَدَماً" (غلا ١: ١٥ - ١٦).

ثانياً:

من الرسالة الأولى لأهل كورنثوس

١٣- حين تحدث بولس عن رؤساء هذا العالم وعدم المعرفة الذي يميِّزهم، قال: "لأَنْ لَوْ عَرَفُوا لَمَا صَلَبُوا رَبَّ الْمَجْدِ" (١ كو ٢: ٨)، فإذا كان الابن الذي تحمَّل الصليب (عب ١٠: ٢) هو رب المجد، فكيف لا يكون هو الله بحسب الطبيعة؟ كيف يكون مصنوعاً أو مخلوقاً هذا الذي يُسبِّح له الساروفيم؟ لأنهم يقولون إن السماء والأرض هما مملوءتان من مجده، ويدعونه إله القوات (انظر رو ٩: ٢٩). من الواضح أنهم يقولون عنه هذه التسابيح، بكونه هو - وفق أقوال بولس - رب المجد.

١٤- شاهِدٌ آخر

"هكذا"، يقول بولس الرسول: "فَلْيَحْسِبْنَا الإِنْسَانُ كَخُدَّامِ الْمَسِيحِ، وَوُكَلاَءِ سَرَائِرِ اللهِ" (١ كو ٤: ١)، فإن كان بولس يدعو سر الابن، بأنه سر الله، فكيف لا يكون إلهاً بحسب الطبيعة، أو كيف يُصنَّفُ ضمن المخلوقات هذا الذي يُخدَم من الرسل؟ وكيف لا يقول الحق، عندما يدعو سر الله، بأنه إنجيل المسيح، هذا الذي بجرأةٍ شديدةٍ، قال: "لأَنِّي لَمْ أَقْبَلْهُ مِنْ عِنْدِ إِنْسَانٍ وَلاَ عُلِّمْتُهُ. بَلْ بِإِعْلاَنِ الله (يَسُوعَ الْمَسِيحِ)" (غلا ١: ١٢). إذن، فعندما يقر حقا المعلم الإلهي بأن الابن هو الله، مَنْ هو هذا الذي يمكنه أن يتحمل هؤلاء الذين يعلّمون تعليما آخراً؟

١٥- شاهِدٌ آخر

"إذن"، يقول: "لاَ تَحْكُمُوا فِي شَيْءٍ قَبْلَ الْوَقْتِ، حَتَّى يَأْتِيَ الرَّبُّ الَّذِي سَيُنِيرُ خَفَايَا الظَّلاَمِ وَيُظْهِرُ آرَاءَ الْقُلُوبِ. وَحِينَئِذٍ يَكُونُ الْمَدْحُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ اللهِ" (١ كو ٤: ٥). يعد المسيح أيضاً في الأناجيل بأنه سوف يضع في وقت المجيء الثاني على يمينه الخراف، والجِداء على يساره، وأولئك الذين فعلوا المعاصي سوف يرسلهم إلى النار الأبدية، أمَّا أولئك الذين سوف يحتلون الموضع الأيمن، فسوف ينالون ثناءً ومديحاً وأجراً، قائلا لهم: "ثُمَّ يَقُولُ الْمَلِكُ لِلَّذِينَ عَنْ يَمِينِهِ: تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي، رِثُوا الْمَلَكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ" (مت ٢٥: ٣٤). إذن، فإذا كان الله سوف يمدح عامل وعالم الفضيلة، وإذا كان مَن سيعطى الثناء هو المسيح، فكيف يكون مخلوقاً، وليس إلهاً من إلهٍ[1]، ولديه كل خواص جوهر الآب، ولهذا هو الله بحسب الطبيعة، مثل الآب الذي ولَدَهُ؟

١٦- شاهِدٌ آخر

"فَإِنِّي أَرَى أَنَّ اللهَ أَبْرَزَنَا نَحْنُ الرُّسُلَ آخِرِينَ، كَأَنَّنَا مَحْكُومٌ عَلَيْنَا بِالْمَوْتِ" (١ كو ٤: ٩). هنا أيضاً يقول إن الله أبرز الرسل. المسيح هو ذاك الذي أبرزهم. إذن كيف لا يكون هو الله بحسب الطبيعة، مَن دعاه الرسل أنه هو الله؟ والذي هو بالفعل هكذا، كيف يكون مخلوقاً؟

١٧- شاهِدٌ آخر

"وَلِلَّذِينَ بِلاَ نَامُوسٍ كَأَنِّي بِلاَ نَامُوسٍ - مَعَ أَنِّي لَسْتُ بِلاَ نَامُوسٍ لِلهِ، بَلْ تَحْتَ نَامُوسٍ لِلْمَسِيحِ . لأَرْبَحَ الَّذِينَ بِلاَ نَامُوسٍ" (١ كو ٩: ٢١). إذن، نحن لسنا بلا ناموس لله لأن لدينا ناموس المسيح. بالتالي فإن المسيح هو الله لأن الله هو فقط الذي يمكنه أن يشرِّع، ولا يوجد أدنى شك في ذلك.

(١) مثل تعبير الآباء في مجمع نيقية "نورٌ من نور".

ثالثاً:

من الرسالة الثانية لأهل كورنثوس

١٨- "فَإِنَّنَا لاَ نُرِيدُ أَنْ تَجْهَلُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ مِنْ جِهَةِ ضِيقَتِنَا الَّتِي أَصَابَتْنَا فِي أَسِيَّا، أَنَّنَا تَثَقَّلْنَا جداً فَوْقَ الطَّاقَةِ، حَتَّى أَيِسْنَا مِنَ الْحَيَاةِ أَيْضاً. لكِنْ كَانَ لَنَا فِي أَنْفُسِنَا حُكْمُ الْمَوْتِ، لِكَيْ لاَ نَكُونَ مُتَّكِلِينَ عَلَى أَنْفُسِنَا بَلْ عَلَى اللهِ الَّذِي يُقِيمُ الأَمْوَاتَ" (٢ كو ١: ٨ - ٩). هنا أيضاً يقول بكل وضوح، إن الله هو الذي يقيم الأموات. والمسيح فعل هذا عندما قال: "أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ" (يو ١١: ٢٥)[1]، وكذلك: "كُلَّ مَنْ يَرَى الابْنَ وَيُؤْمِنُ بِهِ تَكُونُ لَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ" (يو ٦: ٤)، إذن الابن هو الله بحسب الطبيعة، طالما أن لديه القوة لأنْ يفعل الأفعال التي تليق بالله فقط. بالتالي، فهو ليس مخلوقاً، ولا صائراً.

١٩- شاهِدٌ آخر

"لكِنْ أَمِينٌ هُوَ اللهُ إِنَّ كَلاَمَنَا لَكُمْ لَمْ يَكُنْ نَعَمْ وَلاَ؛ لأَنَّ ابْنَ اللهِ يَسُوعَ الْمَسِيحَ، الَّذِي كُرِزَ بِهِ بَيْنَكُمْ بِوَاسِطَتِنَا، أَنَا وَسِلْوَانُسَ وَتِيمُوثَاوُسَ، لَمْ يَكُنْ نَعَمْ وَلاَ، بَلْ قَدْ كَانَ فِيهِ نَعَمْ" (٢ كو١: ١٨ - ١٩). إذن فقد كُرِز به كابنٍ، طالما أن الآب يقول عنه: "هذَا هُوَ ابْنِي" (مت ٣: ١٧) وأيضاً: "ولدتك قبل يوسفورس" (مز ١٠٩: ٣س).

([1]) قول المسيح هذا يدل على أنه هو الله، وهذا يؤكده القديس كيرلس في شرحه لنص يو١١:٢٥، إذ يقول: "فإن كان الابن مخلوقاً أو مصنوعاً، مع أنه هو "القيامة والحياة" فإن الآب هو أيضاً لن يكرّم، إذ هو أيضاً بالحقيقة "القيامة والحياة"، أو ما هو الذي كان سيميّز الابن عن بقية المخلوقات؟ ومادامت المخلوقات لا تملك الحياة حسب طبيعتها، فكيف يكون الابن – وأنتم تحسبونه من ضمن المخلوقات – له الحياة في ذاته مثله مثل الذي وَلَدَه؟ لأن كل ما هو مخلوق ليس فيه حياة من ذاته بل يستمدها من الله الحيّ كما قال القديس بولس عن الله" لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد " (أع ١٧:٢٨)". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، الجزء السادس، ص ٢٣.

لكن لأن البعض قد دعوه مخلوقاً ومصنوعاً، فكيف - بحسب هؤلاء – لا يكون فيه نعم ولا[1]؟ لأنه لا يمكن أن يكون مخلوقاً هذا الذي وُلِد من الله بحسب الطبيعة، ولا يمكن أن يصير بحسب الطبيعة ابن الله هذا الذي خُلِق. إذن بسبب أن المسيح هو الحق، وتحقق فيه النَعَم، مثلما قال بولس، طالما هو الابن وهكذا كُرز به، لا يمكن أن يكون مخلوقاً أو مصنوعاً.

٢٠- شاهِدٌ آخر

"وَلكِنْ شُكْرًا للهِ الَّذِي يَقُودُنَا فِي مَوْكِبِ نُصْرَتِهِ فِي الْمَسِيحِ كُلَّ حِينٍ، وَيُظْهِرُ بِنَا رَائِحَةَ مَعْرِفَتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ. لأَنَّنَا رَائِحَةُ الْمَسِيحِ الذَّكِيَّةِ للهِ، فِي الَّذِينَ يَخْلُصُونَ وَفِي الَّذِينَ يَهْلِكُونَ" (٢ كو ٢: ١٤ – ١٥). بالتالي، فإذا كان الله الآب من خلال الرسل القديسين يجعل رائحة معرفة المسيح[2] ظاهرةً في العالم، أي الحديث عن معرفته، وأن أولئك الذين قبلوه لن يضلوا بعد، غير منضمين إلى صفوف غير المؤمنين الذين ليس لهم رجاء، بل عرفوا الله، بل كما يقول بولس: بالحري عُرفوا من الله، بالتالي، المسيح هو الإله الحقيقي، هذا

---

(1) أي كيف يكون في الابن "نعم ولا" مثل المخلوقات التي لا يمكن أن يكون فيها النعم فقط من حيث أنها تستطيع أن تفعل كل شيء، أما الابن فهو القادر على كل شيء لذا فيه الـ "نعم" فقط.

(2) أثناء حديثة عن تقدمة البخور يشرح لنا القديس كيرلس بوضوح غنى رائحة المسيح الذكية، قائلاً: [أما وقد قدم المسيح ذاته لأجلنا تقدمةً ذكيةً حقاً، لذلك كان هو رئيسُ الكهنة. وهكذا فإن، هذا هو رئيس الكهنة، هذا هو البخور العَطِرُ والرفيع. وسوف يؤكد ذلك بولس قائلاً:" ولكن شكرا لله الذي يقودنا في موكب نصرته في المسيح كل حين ويُظهر بنا رائحة معرفته في كل مكان. لأننا رائحة المسيح الذكية لله في الذين يخلصون وفي الذين يهلكون. لهؤلاء رائحة موت لموت ولأولئك رائحة حياة لحياة" (٢ كو ٢: ١٤ – ١٦)، ولذلك قال أيضاً: "فكونوا متمثلين بالله كأولاد أحباء. واسلكوا في المحبة كما أحبنا المسيح أيضاً وأسلم نفسه لأجلنا قربانا وذبيحة لله رائحة طيبة" (أف ٥: ١ – ٢).والناموس يحدد أيضاً بوضوح وقت رفع البخور، مشرِّعاً أن يصير كل شيء بنظام ولياقة. لأنه يقول: "كل صباح ومساء حين يصلح السُرُج يوقده" (خر ٣٠ :٧س). "المساء والصباح"، أي الاستمرارية بدون انقطاع، بينما "حين يصلح السُرُج" يقدمون بخوراً يشير بوضوح أنه عندما ينير لنا النور الإلهي عندئذ بالضبط نفيض بالغنى من رائحة المسيح الذكية، عندئذ نشعر بأن الخيرات الموجودة في داخل الخيمة، تشير إلى خيرات نوال المواهب الإلهية التي يمنحها المسيح للمستحقين]. السجود والعبادة بالروح والحق، المرجع السابق، الجزء الخامس، المقالة التاسعة ص ٨٧ – ٨٨.

الذي أبعد الأمم عن الآلهة الكاذبة، وعُرِف هو بالنسبة لهم، وعرفهم هو جيداً بواسطة إيمانهم به. إذن هذا هو الإله الحقيقي، فكيف يمكن أن يكون مصنوعاً أو مخلوقاً؟

٢١- شاهِدٌ آخر

"لأَنَّنَا لَسْنَا كَالْكَثِيرِينَ غَاشِّينَ كَلِمَةَ اللهِ، لكِنْ كَمَا مِنْ إِخْلاَصٍ، بَلْ كَمَا مِنَ اللهِ نَتَكَلَّمُ أَمَامَ اللهِ فِي الْمَسِيحِ" (٢ كو ٢: ١٧)، فإن كان حديث الرسل القديسين هو الكرازة بالمخلِّص، فهم إذن، لا يزيِّفون الحديث عن الابن الإله، هذا الذي يكرزون به على أنه هكذا، بل يرفضون أن يقولوا عنه إنه مخلوقٌ أو مصنوعٌ. بالتالي، يكون قول الحق، على أية حال، غير مزيَّفٍ، غير آخذين آراء الهراطقة المغشوشة[1].

٢٢- شاهِدٌ آخر

"وَلكِنْ شُكْراً للهِ الَّذِي يَقُودُنَا فِي مَوْكِبِ نُصْرَتِهِ فِي الْمَسِيحِ كُلَّ حِينٍ، وَيُظْهِرُ بِنَا رَائِحَةَ مَعْرِفَتِهِ". هذا الذي يُظهِر رائحة معرفته بالكرازة الرسولية والإنجيلية، مَنْ يكون إلاَّ المسيح؟ هذا هو إذن رائحة معرفة الله الآب، وفق هذا الذي قاله هو نفسه: "لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي" (يو ١٤: ٦). وأيضاً: "اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ" (يو ١٤: ٩)[2]. إذن،

---

(1) يشبِّه القديس كيرلس أقوال الهراطقة عن **الكلمة** بأنه زيت مغشوش ومرفوض في الكنائس، أما زيت الزيتون الحقيقي فهو يشير إلى **كلمة الله** وذلك في سياق الحديث عن مسح وتقديس أواني الخيمة المقدسة، إذ يقول: [لا يتم تجهيز أو إعداد الزيت من أشجار الزيتون فقط، لكن من بذور أخرى قد تكون مغشوشة أو بذور أخرى. أما زيت الزيتون النقي فهو المستخرج من الزيتون الأكثر جودة، وهو يحتاج إلى طرق فنية وجهد مضنٍ لتنقيته. بعكس الزيتون الذي من الدرجة الثانية، فهو ليس حقيقياً، أقصد الزيتون الذي يخرج من بذور مغشوشة. بالتالي يجب أن يتشابه زيت الزيتون الحقيقي بالكلمة الحقيقية والأصيلة، بينما ذاك الذي ابتُدع من الفكر البشري والإلهام الشيطاني، إنما يشبه الخمر المغشوشة المصنعة والموجودة بكثرة في الحانة. فالكلام المغشوش غير مفيد، بل ومرفوض؛ لأنه لا يسهم في إنارتنا لمعرفة المسيح. لذلك فهو مرفوض في الكنائس لأن رائحة الروح القدس الذكية ليست فيه؛ لأنه يقول: " وليس أحد يقدر أن يقول يسوع رب إلا بالروح القدس" (١ كو ١٢: ٣)]. السجود والعبادة بالروح والحق، المرجع السابق، الجزء الخامس، المقالة التاسعة ص ١٠٦.

(2) يحذرنا القديس كيرلس من أنه لا يوجد أي اختلاط في الأقانيم فالابن هو صورة الآب ومَنْ يراه يرى الآب، لكن لا يعني هذا أن الابن هو الآب إذ يقول: "ومع أن الابن في الآب والآب في الابن وهو مثل الآب الذي وَلَدَه تماماً في كل شيء، ويعلن الآب في ذاته بلا نقص، إلاّ أن هذا لا يعني أن الابن فَقَدَ أقنومه المتميِّز، ولا أن الآب

فطالما هو رائحة الله الآب، لا يمكن أن يكون له جوهر مختلف عنه، لكن، مثلما تخرج الرائحة من الورود بطريقة طبيعية، وتكشف عن النوع الذي ولدها، هكذا أيضاً الابن، فهو حقا - بطريقة ما - رائحة جوهر الآب[1]، الذي منه أتى، ولذلك يُظهر ذاك الذي ولَدَه. بالتالي فهو ليس مخلوقاً، طالما أن الآب ليس مخلوقاً أيضاً.

٢٣- شاهِدٌ آخر

"فَإِنَّنَا لَسْنَا نَكْرِزُ بِأَنْفُسِنَا، بَلْ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبّاً، وَلكِنْ بِأَنْفُسِنَا عَبِيداً لَكُمْ مِنْ أَجْلِ يَسُوعَ. لأَنَّ اللهَ الَّذِي قَالَ:«أَنْ يُشْرِقَ نُورٌ مِنْ ظُلْمَةٍ»، هُوَ الَّذِي أَشْرَقَ فِي قُلُوبِنَا، لإِنَارَةِ مَعْرِفَةِ مَجْدِ اللهِ فِي وَجْهِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ" (٢ كو ٤: ٥ - ٦). هنا يدعو بولس الابنَ بأنه مجد الآب. فطالما أشرق الله الآب في قلوبنا[2]، فقد استنرنا لكي نعرف المسيح،

فَقَدَ أقنومه الخاص به، فالتماثل التام بين الأقانيم لا يعني اختلاط الأقانيم حتى أن الآب الذي منه يولد الابن يصبح بعد ذلك ابناً، ولكن الطبيعة الإلهية الواحدة نفسها هي للاقنومين مع تمايز كل منهما حتى أن الآب هو الآب والابن هو الابن وأيضاً الروح القدس يحسب معهما إلهاً مثل الآب والابن. وهذا هو كمال الثالوث المعبود". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، ص ٤٨.

([1]) يصف القديس كيرلس رائحة الابن بأنها رائحة فائقة لأنها رائحة جوهر الآب وذلك أثناء حديثة عن مذبح البخور، إذ يقول: [إنّ مذبح البخور الذهبي هو المسيح، وقد سبق أن قُلت هذا مراراً. وقد وُضع هذا المذبح أمام التابوت خلف الحجاب. وكان السيرافيم على شكل دائري، ومن أعلا كان الله (يتحدَّث) مُظهراً رائحة عمانوئيل الفائقة؛ لأنه لم يفعل خطية ولا وُجد في فمه غشٌ كما هو مكتوب (انظر إش ٥٣:٩، ١ بط ٢:٢٢)، لذلك قال هو نفسه: "اَلآبُ يُحِبُّ الابْنَ " (يو ٣: ٣٥). كذلك نحن، فقد صرنا مقبولين من الله إذ تفوح مِنّا مسحة المسيح. وهذا ما يؤكده بولس الرسول قائلاً: "شُكْراً للهِ الَّذِي يَقُودُنَا فِي مَوْكِبِ نُصْرَتِهِ فِي الْمَسِيحِ كُلَّ حِينٍ، وَيُظْهِرُ بِنَا رَائِحَةَ مَعْرِفَتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ. لأَنَّنَا رَائِحَةُ الْمَسِيحِ الذَّكِيَّةِ للهِ، فِي الَّذِينَ يَخْلُصُونَ وَفِي الَّذِينَ يَهْلِكُونَ" (٢ كو ٢: ١٤ - ١٥)]. السجود والعبادة بالروح والحق، المرجع السابق، الجزء السادس، المقالة العاشرة ص ٢٢.

([2]) "أشرق الله الآب في قلوبنا " يعني عند القديس كيرلس بأنه أرسل نوره الذي هو المسيح، وهذا يوضحه، قائلاً: "عندما تَحرَّك المرنّم بروح النبّوة وعلم ما سيأتي قال في المزامير وهو يعلم أن الجنس البشري لا يمكن أن يخلص إلاّ بظهور ابن الله الذي يُحوّل كل شيء حسب إرادته. لذلك تنبأ عن مجيء الابن إلينا لكي ينقذ الذين هم تحت الفساد والموت وسلطان الشيطان فقال لله الآب " أَرْسِلْ نُورَكَ وَحَقَّكَ " (مز ٤٣:٣). فما هو النور؟ وما هو الحق؟ لنسمع الابن نفسه يقول " أنا هو النور" وأيضاً " أنا هو الحق" (يوحنا ٨:١٢، ١٤:٦) فإذا كان نور الآب وحقه هو الابن الذي سيأتي إلينا، فكيف لا يكون الابن أقنوماً متميّزاً عن أقنوم الآب رغم أنه واحد معه في الجوهر ومماثل له تماماً؟". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، ص ٥٠ - ٥١.

وفق ما قاله هو نفسه: "لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُقْبِلَ إلى إنْ لَمْ يَجْتَذِبْهُ الآبُ" (يو ٦: ٤٤)، فقد جذب كل واحد منيراً قلبه، لكي يعرف الابن. فإذا كان هو مجد الآب[1]، فكيف يمكن أن يكون مخلوقاً وليس الابن، وإلهاً من إلهٍ، الذي بعظمته الطبيعية جعل ذاك الذي ولدَه ظاهراً فيه إذ هو صورته، كما قال هو نفسه: "اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ" (يو ١٤: ٩).

٢٤- شاهِدٌ آخر

إذا كان الابن - بالرغم من أنه مجد الآب - مخلوقاً ومصنوعاً ،كما تقولون، لَكان يمكن أن يدعى كل واحد من المخلوقات بأنه مجد الله الآب. لأنه لو كان يمكن للجوهر المخلوق أن يصل لهذا المستوى، لَمَا كان هناك مانعٌ يحول دون أن تمتد هذه الكرامة إلى كل الخليقة؛ لأن الذي لديه إمكانية - بحسب طبيعته - أن يصير شيئاً، يمكنه أن يصير حتى لو لم يكن قد صار بعد. لكن بما أن شيئاً من مثل هذا لا نجده في الكتاب المقدس، بل نجد فيه أن الابن فقط هو مجد الآب، فالابن عندئذٍ لا يكون مخلوقاً؛ لأن الذي هو أسمى من الكل، لا يُحسب ضمن الكل، بل هو آخرٌ تماماً بالنسبة لهم، وهذا هو الله بالتأكيد.

٢٥- شاهِدٌ آخر

"لأَنَّهُ لاَبُدَّ أَنَّنَا جَمِيعاً نُظْهَرُ أَمَامَ كُرْسِيِّ الْمَسِيحِ، لِيَنَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مَا كَانَ بِالْجَسَدِ بِحَسَبِ مَا صَنَعَ، خَيْراً كَانَ أَمْ شَرّاً" (٢ كو ٥: ١٠). فإذا كنّا سوف نظهر أمام المسيح، والمسيح هو مَنْ سيدين المسكونة، وسيجازي كل واحدٍ بحسب أعماله، مثلما يقول المرنم (أنظر مز ٦٢: ١٣)، فهو إذن ابن الله المولود من الآب وإلهٌ من إله وليس مخلوقاً. لأن سليمان الحكيم يقول شيئاً مثل هذا في سفر الجامعة: "لأَنَّ اللهَ يُحْضِرُ كُلَّ عَمَلٍ إلى الدَّيْنُونَةِ، عَلَى كُلِّ خَفِيٍّ، إِنْ كَانَ خَيْراً أَوْ شَرّاً" (جامعة١٢: ١٤).

---

[1] كون أن الابن هو شعاع أو بهاء أو مجد الآب، فهذا يعني أنه له أقنوم متمايز عن أقنوم الآب، كما يقول القديس كيرلس: [لو كان الابن هو إشعاع (بهاء) الآب، كنور من نور (عب ١:٣) فكيف لا يكون متمايزاً عنه وله أقنومه الخاص لأن البهاء غير البهي - (الإشعاع غير المُشع)]. شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، ص ٤٩.

٢٦- شاهِدٌ آخر

"لأَنَّنَا لَسْنَا نَمْدَحُ أَنْفُسَنَا أَيْضاً لَدَيْكُمْ، بَلْ نُعْطِيكُمْ فُرْصَةً لِلافْتِخَارِ مِنْ جِهَتِنَا، لِيَكُونَ لَكُمْ جَوَابٌ عَلَى الَّذِينَ يَفْتَخِرُونَ بِالْوَجْهِ لاَ بِالْقَلْبِ. لأَنَّنَا إِنْ صِرْنَا مُخْتَلِّينَ فَلِلَّهِ، أَوْ كُنَّا عَاقِلِينَ فَلَكُمْ" (٢ كو٥: ١٢ - ١٣).

ها هو بولس أيضاً يدعو المسيح: الله. وعنه قال: "إِنْ صِرْنَا مُخْتَلِّينَ فَلِلَّهِ"، وبأي طريقة حدث هذا، هو نفسه يقول: "وَأَمَّا مِنْ جِهَتِي، فَحَاشَا لِي أَنْ أَفْتَخِرَ إِلاَّ بِصَلِيبِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي بِهِ قَدْ صُلِبَ الْعَالَمُ لِي وَأَنَا لِلْعَالَمِ" (غلا ٦: ١٤).

وأيضاً للآخرين: "أَهُمْ عِبْرَانِيُّونَ؟ فَأَنَا أَيْضاً. أَهُمْ إِسْرَائِيلِيُّونَ؟ فَأَنَا أَيْضاً. أَهُمْ نَسْلُ إِبْرَاهِيمَ؟ فَأَنَا أَيْضاً" (٢ كو ١١: ٢٢)، "عِبْرَانِيٌّ مِنَ الْعِبْرَانِيِّينَ. مِنْ جِهَةِ النَّامُوسِ فَرِّيسِيٌّ. مِنْ جِهَةِ الْغَيْرَةِ مُضْطَهِدُ الْكَنِيسَةِ. مِنْ جِهَةِ الْبِرِّ الَّذِي فِي النَّامُوسِ بِلاَ لَوْم. لكِنْ مَا كَانَ لِي رِبْحاً، فَهذَا قَدْ حَسِبْتُهُ مِنْ أَجْلِ الْمَسِيحِ خَسَارَةً. بَلْ إِنِّي أَحْسِبُ كُلَّ شَيْءٍ أَيْضاً خَسَارَةً مِنْ أَجْلِ فَضْلِ مَعْرِفَةِ الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّي، الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ خَسِرْتُ كُلَّ الأَشْيَاءِ، وَأَنَا أَحْسِبُهَا نُفَايَةً لِكَيْ أَرْبَحَ الْمَسِيحَ، وَأُوجَدَ فِيهِ، وَلَيْسَ لِي بِرِّي الَّذِي مِنَ النَّامُوسِ، بَلِ الَّذِي بِإِيمَانِ الْمَسِيحِ، الْبِرُّ الَّذِي مِنَ اللهِ بِالإِيمَانِ" (فيلبي ٣: ٥ - ٩). أرأيت أنه رفض تلك الأشياء التي كانت - وفقاً للناموس - سبباً للافتخار، لكي يربح المسيح؟ هذا بالضبط يقوله لنا أيضاً المخلّص نفسه في شكل مَثَل: "يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ إِنْسَاناً تَاجِراً يَطْلُبُ لآلِئَ حَسَنَةً، فَلَمَّا وَجَدَ لُؤْلُؤَةً وَاحِدَةً كَثِيرَةَ الثَّمَنِ، مَضَى وَبَاعَ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ وَاشْتَرَاهَا" (مت ١٣: ٤٥ - ٤٦).

فإن كان قد رفَضَ كل شيءٍ لأجل المسيح[1]، وقال أيضاً إنه فعل هذا لأجل الله، عندئذ كيف لا يكون الابن بحسب الطبيعة إلهاً؟ وإذا كان هذا هو الصواب، فالابن، إذن ليس مخلوقاً.

---

(1) كون أن الرسول بولس ومعه بقية التلاميذ والرسل تركوا كل شيء، فهذا يعني – عند القديس كيرلس – أن المسيح لم يكن إنساناً عادياً، بل هو الله، وهذا ما أكده في شرحه لإنجيل لو ٦: ١٧ - ١٩، إذ يقول: "وحينما قام الرب بتعيين وإقامة الرسل القديسين، صنع آيات كثيرة وعجيبة، فطرد الشياطين، وخلص الذين اقتربوا منه من الأمراض غير القابلة للشفاء، وأظهر قوته الخاصة الإلهية، حتى يعرف كلاً من اليهود الذين أسرعوا إليه معاً

٢٧- شاهدٌ آخر

"إذاً إنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ: الأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ، هُوَذَا الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيداً. وَلكِنَّ الْكُلَّ مِنَ اللهِ، الَّذِي صَالَحَنَا لِنَفْسِهِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، وَأَعْطَانَا خِدْمَةَ الْمُصَالَحَةِ، أَيْ إِنَّ اللهَ كَانَ فِي الْمَسِيحِ مُصَالِحاً الْعَالَمَ لِنَفْسِهِ، غَيْرَ حَاسِبٍ لَهُمْ خَطَايَاهُمْ، وَوَاضِعاً فِينَا كَلِمَةَ الْمُصَالَحَةِ" (٢ كو ٥: ١٧ - ١٩).

يجب أن نبحث في هذه الأقوال عن مصالحتنا مع الله، وإن كان واضحاً أنه طالما آمنّا بالمسيح أنه ابن الله، وطالما قبلناه كإلهٍ حقيقيٍ، اقتربنا بواسطته إلى الآب، كما قال هو نفسه: "لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي" (يو ١٤: ٦). على الجانب الآخر أيضاً يدعو المخلص نفسه أولئك الذين ابتعدوا بسبب الخطية، إلى القرب منه مصالحاً إياهم مع ذاته قائلاً: "تَعَالَوْا إِلَيَ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ" (مت ١١: ٢٨). إذن، فإذا كنّا - عندما أتينا وتصالحنا مع المسيح - قد تصالحنا مع الله[1]، ونلنا غفران خطايانا، فكيف لا يكون المسيح إلهاً من إلهٍ، إذ هو مع الآب وبالآب يُبرر كل مَنْ يأتي إليه، ويُصالح العالم مع نفسه؟ وحيث إن ما نقوله حقيقيٌ، فهو ليس مخلوقاً.

وأولئك الذين من بلاد الوثنيين أن المسيح الذي نال التلاميذ منه كرامة الرسولية، لم يكن إنساناً عاديّاً من الذين في مستوانا، بل بالعكس هو الله، لكونه **الكلمة** الذي صار جسداً، ومع ذلك فقد احتفظ بمجده الخاص". شرح إنجيل لوقا، المرجع السابق، عظة ٢٥ ص ١٢٥.

(١) هذه المصالحة ما كان لها أن تتم ما لم يكن المسيح هوا لله، وهنا القديس كيرلس يواجه الهراطقة عملياً مُنطلقاً من قضية الخلاص والمصالحة فهو لا يدافع عن الابن من منطلق التنظير الجدلي بل يضع الهراطقة في مواجهة عملية من خلال استعراض النتائج التي هي من نتاج آرائهم الخاطئة. ويؤكد على هذا الأمر في شرحه لنص يو ١٤:٦ مؤكداً على أنه لا يستطيع أي أحد أن يقترب من الآب إلا بالابن، إذ يقول: [فعبارة "ليس أحد يأتي إلى الآب" تعني أنه ليس أحد يمكن أن يكون شريكاً للطبيعة الإلهية إلاّ بواسطة المسيح وحده. فلو لم يكن المسيح قد صار وسيطاً باتخاذه هيئة إنسان، لما أمكن لحالتنا إطلاقاً أن تتقدم وتنمو إلى هذه الغبطة العالية جداً؛ أما الآن، فإن اقترب أي إنسان من الآب بروح الإيمان والمعرفة الخاشعة، فإنه سيفعل ذلك بمعونة مخلصنا المسيح نفسه. وأنا أعيد نفس الكلام الذي سبق أن قلته: بقبول الابن حقاً كابن، يمكن الإنسان أن يصل أيضاً إلى معرفة الله الآب: فلا يمكن أن يُعترف بالمسيح كابن، بدون أن يعترف بالآب الذي ولده في نفس الوقت. لذلك فإن معرفة الآب متزامنة بالضرورة ومرتبطة بالإيمان بالابن، وكذلك معرفة الابن مرتبطة بالإيمان بالآب. وهكذا بصواب تام يقول الرب: "ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي"]. شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، الجزء الثامن، ص ٣٠ - ٣١.

٢٨- شاهِدٌ آخر

"إذاً نَسْعَى كَسُفَرَاءَ عَنِ الْمَسِيحِ، كَأَنَّ اللهَ يَعِظُ بِنَا. نَطْلُبُ عَنِ الْمَسِيحِ: تَصَالَحُوا مَعَ اللهِ. لأَنَّهُ جَعَلَ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ خَطِيَّةً، خَطِيَّةً لأَجْلِنَا، لِنَصِيرَ نَحْنُ بِرَّ اللهِ فِيهِ"(٢ كو ٥: ٢٠ - ٢١). حسناً. إذن كما أن ابن الله وحيد الجنس - عندما أخذ شبه جسد الخطية - صار هو نفسه خطيةً، هكذا نحن أيضاً، فإذ شُكِّلنا متّحدين معه بواسطة الإيمان، دُعينا بأننا صِرنا برَّ الله[1]، هذا الذي بالحري هو الابن. لأننا صرنا جديرين بالخيرات التي تنتمي إليه بحسب الطبيعة، وقد صرنا مشاركين هذا بواسطة الروح، بينما أخذ هذه الأمور البشرية لنفسه، مُشَكِّلاً بواسطة ذاته طبيعتَنا على مِثال الجمال الإلهي[2]. إذن، المسيح هو بِر الآب (انظر ١كو ١: ٣٠)، فكيف يمكن أن يكون مخلوقاً، وليس بالحري مثل الآب الذي ولَدَه، طالما أن الله الآب هو البار دائماً؛ لأن بره، أي الابن هو دائماً معه؟

---

(١) بفضل الاتحاد الذي تم بين الابن وطبيعتنا البشرية صِرنا نحن بر الله مثل الابن ولكن بحسب النعمة، وكل هذا ما كان سيحدث لو كان الابن مجرد إنسان عادي وليس الله، وهذا ما يؤكده القديس كيرلس في حواره حول الثالوث القدوس، إذ يقول: "ورغم أنه الإله والرَّب فلكي يُرجعنا بواسطة نفسه لله الآب، ولكي يصالح الكّل حسب المكتوب "وَأَنْ يُصَالِحَ بِهِ الْكُلَّ لِنَفْسِهِ، عَامِلاً الصُّلْحَ بِدَمِ صَلِيبِهِ، بِوَاسِطَتِهِ، سَوَاءٌ كَانَ مَا عَلَى الأَرْضِ أَمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ" لكي يصنع ذلك كله، توّسط كإنسان. ولهذا يقول بولس "نَطْلُبُ عَنِ الْمَسِيحِ: تَصَالَحُوا مَعَ اللهِ" وذلك بالاتحاد بشخص المسيح. ولأن طبيعة الإنسان لا تحتمل أن تستوعب مجد الله بحسب ما كان قَبل التجسّد، لذلك فقد لبس الابن الوحيد لأجلنا ولأجل خلاصنا، جَسَدنَا وتشبّه بنا". حوار حول الثالوث القدوس، المرجع السابق، الجزء الأول، الحوار الأول ص ٤٤.

(٢) المسيح هو أبرع جمالاً من بني البشر، ويؤكد هذه الحقيقة القديس كيرلس أثناء حديثة عن منارة خيمة الاجتماع، إذ يقول: "أيضاً تكون المنارة مخروطة لأن عمانوئيل هو فائق الجمال - بطريقة أبلغ من أي تعبير - من جهة الجمال الذهني بالتأكيد. لأنه مكتوب عنه "أنت أبرع جمالاً من بني البشر" (مز ٤٥: ٢). إذن هذه الخراطة الواحدة للمنارة، بالمنظر المدهش، أي الذي يليق بالله، أظهرت لنا عمانوئيل بشكل ممتاز". السجود والعبادة بالروح والحق، المرجع السابق، الجزء الخامس، المقالة التاسعة ص ٧٣.

رابعاً:

من الرسالة إلى غلاطية

٢٩- "إِنْ كَانَ أَحَدٌ يُبَشِّرُكُمْ بِغَيْرِ مَا قَبِلْتُمْ، فَلْيَكُنْ "أَنَاثِيمَا"! أَفَأَسْتَعْطِفُ الآنَ النَّاسَ أَمِ اللهَ؟ أَمْ أَطْلُبُ أَنْ أُرْضِيَ النَّاسَ؟ فَلَوْ كُنْتُ بَعْدُ أُرْضِي النَّاسَ، لَمْ أَكُنْ عَبْداً لِلْمَسِيحِ" (غلا ١: ٩ - ١٠).

هذا الذي يطلب استحسان الله، أي المدعو لأجل طرقه؛ الذي كرز بالصلاح، لم يطلب أن يُرضي البشر، لكن بالحري أن يخدم المسيح[1]. بالتالي، الابن هو الله بحسب الطبيعة، وإليه نعترف بأننا نقدم أعمالنا الصالحة كعبادة إلى الله والسيد. لأن هذا يعنى أننا نُرضيه. والإله بحسب الطبيعة لا يمكن أن يكون مخلوقاً.

٣٠- شاهدٌ آخر

"وَلكِنْ قَبْلَمَا جَاءَ الإِيمَانُ كُنَّا مَحْرُوسِينَ تَحْتَ النَّامُوسِ، مُغْلَقاً عَلَيْنَا إِلى الإِيمَانِ الْعَتِيدِ أَنْ يُعْلَنَ. إِذاً قَدْ كَانَ النَّامُوسُ مُؤَدِّبَنَا[2] إِلى الْمَسِيحِ، لِكَيْ نَتَبَرَّرَ بِالإِيمَانِ. وَلكِنْ بَعْدَ

([1]) مسألة أن يرضي الرسول بولس الله لا الناس ويخدم المسيح بل ويفتخر بأنه عبد للمسيح يعني – عند القديس كيرلس – أن المسيح هو الله الذي يستحق السجود وينبغي أرضائه، وهذا ما يؤكد علية القديس كيرلس في تعليقه على سجود المولود أعمى للمسيح، إذ يقول: "وحينما عرف أن ذلك الشخص الحاضر معه والذي يراه بعينيه أنه هو بالحقيقة الابن الوحيد الجنس، فإنه سجد له كإله، رغم أنه كان يراه بالجسد بدون المجد اللائق بالله حقاً. ولكن لأن قلبه قد استنار بحلول قوة المسيح وسلطانه فيه، فإنه يتقدم نحو الأفكار الحكيمة والصالحة بتفكير حسن، وينظر جمال طبيعته الإلهية التي لا يُعبّر عنها؛ لأنه لو لم يكن قد آمن أنه الله لما كان قد سجد له". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح التاسع، ص ٧٠٢ - ٧٠٣.

([2]) دور الناموس كان مثل دور المربى، وهذا ما أكده القديس كيرلس، في موضع آخر، حين قال: " يتميز الكتاب المقدس بالدقة، ولا يوجد فيه شيءٌ بلا فائدة. بل لعلك تلاحظ كيف أنَّ الرمزَ يُظهر لنا أنَّ الناموسَ إنما يعمل كمربي يقودنا إلى المسيح. ويتضح لنا هذا من أنَّ مذبحَ العبادة الناموسية قد وُضع بالقرب من المداخل التي تؤدى

مَا جَاءَ الإِيمَانُ، لَسْنَا بَعْدُ تَحْتَ مُؤَدِّبٍ؛ لأَنَّكُمْ جَمِيعاً أَبْنَاءُ اللهِ بِالإِيمَانِ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ. لأَنَّ كُلَّكُمُ الَّذِينَ اعْتَمَدْتُمْ بِالْمَسِيحِ قَدْ لَبِسْتُمُ الْمَسِيحَ" (غلا ٣: ٢٣ - ٢٧).

إذن، فإذا كنا بإيماننا قد لبسنا المسيح، وتشكّلنا فيه، فقد أصبحنا أبناء الله - بالتأكيد - ولكن، بحسب النعمة. وكل ما هو بحسب النعمة يصير شبيهاً بكل ما هو بحسب الطبيعة. وعلى ذلك فالمسيح هو الابن بحسب الطبيعة(1) وليس بحسب النعمة. لأن ذاك الذي وُلِدِ من الله بحسب الطبيعة، كيف يمكن أن يكون مخلوقاً أو مصنوعاً، طالما أنه بدون أدنى شك نعترف بأن المولود له نفس جوهر الذي وَلَدَه؟

٣١- شاهِدٌ آخر

"وَإِنَّمَا أَقُولُ: مَا دَامَ الْوَارِثُ قَاصِراً لاَ يَفْرِقُ شَيْئاً عَنِ الْعَبْدِ، مَعَ كَوْنِهِ صَاحِبَ الْجَمِيعِ. بَلْ هُوَ تَحْتَ أَوْصِيَاءَ وَوُكَلاَءَ إِلَى الْوَقْتِ الْمُؤَجَّلِ مِنْ أَبِيهِ. هكَذَا نَحْنُ أَيْضاً: لَمَّا كُنَّا قَاصِرِينَ، كُنَّا مُسْتَعْبَدِينَ تَحْتَ أَرْكَانِ الْعَالَمِ، وَلكِنْ لَمَّا جَاءَ مِلْءُ الزَّمَانِ، أَرْسَلَ اللهُ ابْنَهُ مَوْلُوداً مِنِ امْرَأَةٍ، مَوْلُوداً تَحْتَ النَّامُوسِ، لِيَفْتَدِيَ الَّذِينَ تَحْتَ النَّامُوسِ، لِنَنَالَ التَّبَنِّيَ" (غلا

إلى قدس الأقداس. أي أنَّ الناموس يقودنا إلى بداية أسرار المسيح، وإلى مبادئ الدخول لمعرفته الدقيقة. لكن لا يقودنا أبداً إلى قدس الأقداس، أي إلى الخيمة الداخلية حيث يوجد المسيحُ الفائق الجمال، كلمة الله، والنور، والخبز الحي، والرائحة الذكية لله الآب". السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء السادس، المقالة العاشرة ص ٢٥ - ٢٦.

(1) ما كان لنا أن نصبح أولاداً لله، إن لم يكن الابن هو الله، وهذا قد أكده القديس كيرلس حين شرح يو١:١٢، إذ يقول: "وليس هناك وسيلة أخرى غير هذه تجعلنا نحن الذين لبسنا "صورة الترابي" نهرب من الفساد، إلاّ إذا خُتِمنا بجمال الصورة السمائي" (١ كور ١٥: ٤٩) بدعوتنا إلى البنوّة لأننا عندما نشترك فيه بالروح القدس، نُختم لنكون مثله ونرتفع إلى الصورة الأولى التي أخبرتنا الكتب المقدّسة أننا خُلِقنا عليها (تك ١:٢٧). وبذلك نكون قد استعدنا جمال طبيعتنا الأولى وخُلِقنا من جديد لنكون على مثال الطبيعة الإلهية، ونصير مرتفعين فوق الأمراض التي أصابتنا بسبب السقوط. إذن نحن نرتفع إلى كرامة أسمى من طبيعتنا بسبب المسيح لأننا سنكون أيضاً "أبناء الله" ليس مثله تماماً، بل بالنعمة وبالتشبّه به. فهو الابن الحقيقي، الكائن مع الآب منذ الأزل أما نحن فبالتبنّي بسبب تعطفه، ومن خلال النعمة التي أخذناها بقوله: "أنا قلت إنكم آلهة، وكلكم أبناء العلي" (مز ٨٢:٦) فالطبيعة المخلوقة الخاضعة للخالق، دُعيت إلى ما هو فوق الطبيعة بإرادة الآب فقط، أما الابن، والإله والرّب، فهو ليس الابن والإله بإرادة الآب واختياره، وإنما بالولادة من جوهر الآب ذاته يكون له بالطبيعة كل صفات الله وصلاحه". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول، ص ١٢٨.

٤: ١ - ٥). فعندما كنا نعمل عند أركان العالم كمخلوقات، كنّا قاصرين ومعتوهين، ولذلك، فإن ابن الله - وفق أولئك - هو مخلوقٌ ومصنوعٌ.

وقد كنا مذنبين لأجل خطايانا القديمة، وأطفالاً قاصرين روحياً، ولكن حين عرفناه الآن كإلهٍ حقيقيٍ وسيدٍ، ولأجلنا وُلد من امرأة وخضع للناموس، توقفنا عن أن نعبد الخليقة والمخلوق. بالتالي، المسيح الابن هو الإله الحقيقي، الذي به صِرنا شركاء معه[1]، ونلنا التبني وأصبحنا أحراراً؛ لأننا لبسنا الابن الحر ذاته[2]؛ وبذلك أُزيلت عبوديتنا.

٣٢- شاهِدٌ آخر

"وَأُعَرِّفُكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ الإِنْجِيلَ الَّذِي بَشَّرْتُ بِهِ، أَنَّهُ لَيْسَ بِحَسَبِ إِنْسَانٍ. لأَنِّي لَمْ أَقْبَلْهُ مِنْ عِنْدِ إِنْسَانٍ وَلاَ عُلِّمْتُهُ. بَلْ بِإِعْلاَنِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ" (غلا ١: ١١ - ١٢).

---

(١) أيضاً يدعونا القديس كيرلس شركاء المسيح الخبز الحي وذلك في سياق حديثة عن المنارة ومائدة خبز الوجوه في الخيمة المقدسة، حيث يتم إتحادنا به بواسطة جسده ودمه في الإفخارستيا ويتم هذا في الخيمة الحقيقية أي في الكنيسة، إذ يقول: [النورَ يُشرق على شمال الخيمة؛ لأنَّ المنارةَ قد وُضعت فوق المائدة التي كانت جنوباً. وما ساعد على إظهار ذلك، أنَّ الخيمةَ كانت محدودة القياس.هذا المثال يُظهر لنا أنه حيث يُشرق النور الإلهي، فهناك إمكانية للمستحقين، أن يصيروا شركاء المسيح الخبز الحيّ الحقيقي. هكذا انضم الأمم لجسد المسيح، وصاروا شركاء في المسيح. لذا يقول بولس الرسول: " أَنَّ الأُمَمَ شُرَكَاءُ فِي الْمِيرَاثِ وَالْجَسَدِ وَنَوَالِ مَوْعِدِهِ فِي الْمَسِيحِ بالإنْجِيلِ" (أف ٣: ٦). وأيضاً قال تلميذٌ آخرٌ للمسيح: "إِلَى أَنْ يَنْفَجِرَ النَّهَارُ، وَيَطْلَعَ كَوْكَبُ الصُّبْحِ فِي قُلُوبِكُمْ" (٢ بط ١: ١٩)]. السجود والعبادة بالروح والحق، المرجع السابق، الجزء السادس، المقالة العاشرة ص ٢٣ - ٢٤.

(٢) المسيح هو الوحيد الذي أعطانا نعمة الحرية لأنه بحسب قول القديس كيرلس هو الابن الحر بطبيعته، وهو يؤكد على ذلك في شرحه لنص يو ٨:٣٦، إذ يقول: "إن القدرة على التحرير تختص فقط بذاك الذي هو وحده بالطبيعة ابن حر بالحقيقة، ومنفصل عن كل عبودية، ولا تختص بأي أحد آخر سواه. فكما انه بسبب كونه بالطبيعة الحكمة والنور والقوة، فهو يجعل الذين يتقبلون الحكمة حكماء، وينير أولئك الذين ينقصهم النور، ويقوى أولئك الذين تعوزهم القوة. وهكذا بسبب أنه إله من إله، وهو الثمرة الأصيلة والحرة للجوهر الذي يهيمن على الكل، فإنه يمنح الحرية لمن يشاء. لا يستطيع أحد أن يصير حراً بالحقيقة إلا عن طريق من يملك الحرية بالطبيعة. ولكن حينما يريد الابن نفسه أن يحرر أي أحد جاعلاً صلاحه الخاص فيه، فإنه يدعى بالحقيقة حراً بنواله الجدارة من ذاك الذي له السلطان وليس من أي أحد من أولئك الذين قد استعاروها من آخر". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول ، ص ٦٠٦ - ٦٠٧.

دعنا نرى إذن ماذا يقول بولس عن الابن،بولس هذا الذي تعلَّم منه هذا السر وقال عنه: "يَسُوعُ الْمَسِيحُ هُوَ هُوَ أَمْساً وَالْيَوْمَ وَإِلَى الأَبَدِ" (عب ١٣: ٨).

ها هو بوضوح يعترف أن الابن يمتلك طبيعةً غير متغيِّرة وغير متحولة، الأمر الذي يمثل أمراً خاصاً فقط بالله الآب، ولا يوجد في أي أحد آخر من المخلوقات. فإذا كان الله الآب غير متغيِّر، وطبيعة الابن تتطابق هي ذاتها مع طبيعة الآب، إذ هو مولود أزلياً من الآب، فكيف يمكن أن يُعد واحداً من المخلوقات[1]، الابن الوحيد المساوي - من جهة الجوهر غير الموصوف - للآب الذي وَلَدَه، والذي هو بحسب الطبيعة له كل ما لدى الآب، فيما عدا أن يكون آباً؟

٣٣- شاهِدٌ آخر

"لأَنِّي مُتُّ بِالنَّامُوسِ لِلنَّامُوسِ لأَحْيَا للهِ. مَعَ الْمَسِيحِ صُلِبْتُ، فَأَحْيَا لاَ أَنَا، بَلِ الْمَسِيحُ يَحْيَا فِيَّ" (غلا ٢: ١٩ - ٢٠).

إذن، فبما أننا نعيش بالتأكيد بالله؛ لأننا قبلنا ناموس المخلِّص، الناموس الجديد، فقد متنا أيضاً تجاه ناموس موسى؛ (لأننا لا نحيا بعد، ولا نتصرف وفق ذاك الناموس)، وبالتالي، المسيح هو الله والإله الحقيقي. فإذا كان الأمر على هذا النحو، فهو عندئذٍ ليس مخلوقاً. أمَّا كون أننا نحيا بالمسيح ذاته، فهو ما يؤكده كارز الحق بنفسه؛ لأنه يقول: "إِنْ كَانَ وَاحِدٌ قَدْ مَاتَ لأَجْلِ الْجَمِيعِ، فَالْجَمِيعُ إِذاً مَاتُوا. وَهُوَ مَاتَ لأَجْلِ الْجَمِيعِ كَيْ يَعِيشَ

---

(1) مشكلة الهراطقة هي أنهم حين يقرأون في رسالة العبرانيين على سبيل المثال: عب ٥:٧ - ٨ "الَّذِي، فِي أَيَّامِ جَسَدِهِ، إِذْ قَدَّمَ بِصُرَاخٍ شَدِيدٍ وَدُمُوعٍ طِلْبَاتٍ وَتَضَرُّعَاتٍ لِلْقَادِرِ أَنْ يُخَلِّصَهُ مِنَ الْمَوْتِ، وَسُمِعَ لَهُ مِنْ أَجْلِ تَقْوَاهُ،مَعَ كَوْنِهِ ابْناً تَعَلَّمَ الطَّاعَةَ مِمَّا تَأَلَّمَ بِهِ". يعثرون من ذاك الذي هو الأمس واليوم وإلى الأبد لأنه يقدم صراخ ودموع، فإنهم يخلطون الأمور ويتحيرون: هل الابن هو الله أم لا ؟! مع أن الأمر يتعلق بمبدأين سبق أن شرحهما مراراً كل من القديس أثناسيوس وكذلك القديس كيرلس، وهما: ١- الإيمان المستقيم بإلوهية الابن. ٢- التمييز بين الأقوال التي تقال بكونه إلهاً عن تلك التي تقال عنه بكونه إنساناً، وهذا ما أكده القديس كيرلس في حواره حول الثالوث: "هناك طريقتان للكلام عن الابن: فمن جهة يجب أن ننسب له كل ما لله بكونه هو الله، ومن جهة أخرى ننسب له كل ما يخصّنا لأنه صار مثلنا. ويجب أن نرفض كل خلط وعدم تمييز بين هذه الأمور لأن هذا ينفي الفهم الحقيقي للمعاني ويحجب عن عيوننا نصف حقيقة الجمال الإلهي". حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الأول، الحوار الأول، ص ٤٣.

الأَحْيَاء فِيمَا بَعْدُ لاَ لأَنْفُسِهِمْ، بَلْ لِلَّذِي مَاتَ لأَجْلِهِمْ وَقَامَ" (٢ كو ٥: ١٤ - ١٥)، فإن كنا نحيا لأجل المسيح قائلين إننا نحيا لأجل الله، فكيف لا يكون المسيح هو الله؟ وكيف يكون مخلوقاً أو مصنوعاً؟

٣٤- شاهِدٌ آخر

"وَالْكِتَابُ إِذْ سَبَقَ فَرَأَى أَنَّ اللهَ بِالإِيمَانِ يُبَرِّرُ الأُمَمَ، سَبَقَ فَبَشَّرَ إِبْرَاهِيمَ أَنْ "فِيكَ تَتَبَارَكُ جَمِيعُ الأُمَمِ" (غلا ٣: ٨).

فإذا كان يقال إن الله يبرر الأمم، وكان المسيح هو ذاك الذي فعل هذا الأمر، ورفع خطايا العالم، وفق أقوال يوحنا (أنظر يو ١: ٣٦)، فالابن بالتالي هو الإله الحقيقي[1]، وأيضا اليهود الخبثاء حقاً، يقولون فقط هذا الأمر الحقيقي بأن أحداً لا يمكنه أن يغفر الخطايا إلاَّ الله فقط باعتباره رب الناموس.

٣٥- شاهِدٌ آخر

"لكِنْ حِينَئِذٍ إِذْ كُنْتُمْ لاَ تَعْرِفُونَ اللهَ، اسْتُعْبِدْتُمْ لِلَّذِينَ لَيْسُوا بِالطَّبِيعَةِ آلِهَةً. وَأَمَّا الآنَ إِذْ عَرَفْتُمُ اللهَ، بَلْ بِالْحَرِيِّ عُرِفْتُمْ مِنَ اللهِ، فَكَيْفَ تَرْجِعُونَ أَيْضاً إِلَى الأَرْكَانِ الضَّعِيفَةِ الْفَقِيرَةِ الَّتِي تُرِيدُونَ أَنْ تُسْتَعْبَدُوا لَهَا مِنْ جَدِيدٍ؟" (غلا ٤: ٨ - ٩). إذا كان المسيح لا يُقارَن بأركان العالم التي لها طبيعة مخلوقة؛ لأنه ليس مثل هذه العناصر، إذن، فالمسيح لا يكون واحداً من المخلوقات، بل هو يختلف كثيراً عنها، حتى أنها لا تكون آلهةً بحسب الطبيعة، بينما هو يكون الإله الحقيقي. هذا الاختلاف يقدِّمه بولس في الشاهد الذي ذكرناه. وأعتقد أنه واضحٌ للجميع أن الأمم قد عرفوا المسيح كإله؛ لأننا آمنّا به وتحررنا من

---

(١) هو الإله الحقيقي لأن يوحنا المعمدان قال عنه إنه "حمل الله" الذي يرفع خطايا العالم، وبما أن الله وحدة الغافر للخطايا إذن فالمسيح هو الله، وهذا ما أكد علية القديس كيرلس في شرحه لنص يو ١: ٣٥ - ٣٦، قائلاً :[لقد أشار إليه المعمدان من قَبلْ، ولكن ها هو يعيد نفس الكلمات، ويشير لتلاميذه أن يسوع هو حمل الله الذي يسير أمامه وأنه هو الذي يرفع خطيّة العالم. هذه الشهادة تهدف إلى أن تُذّكر السامعين بالذي قال في الأنبياء " أَنَا أَنَا هُوَ الْمَاحِي ذُنُوبَكَ لأَجْلِ نَفْسِي وَخَطَايَاكَ لاَ أَذْكُرُهَا" (إشعياء ٤٣:٢٥)]. شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، ص ١٦٧.

ضلال تعدد الآلهة. وعليك أن تسمعه هو نفسه يقول: "وَأَعْرِفُ خَاصَّتِي وَخَاصَّتِي تَعْرِفُنِي" (يو ١٠: ١٤)؛ كي تدرك أن الأمم قد عرفوا الله وعُرِفوا منه[1].

٣٦- شاهِدٌ آخر

"أَتضَرَّعُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ، كُونُوا كَمَا أَنَا لأَنِّي أَنَا أَيْضاً كَمَا أَنْتُمْ. لَمْ تَظْلِمُونِي شَيْئاً. وَلكِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي بِضَعْفِ الْجَسَدِ بَشَّرْتُكُمْ فِي الأَوَّلِ. وَتَجْرِبَتِي الَّتِي فِي جَسَدِي لَمْ تَزْدَرُوا بِهَا وَلاَ كَرِهْتُمُوهَا، كَمَلاَكٍ مِنَ اللهِ قَبِلْتُمُونِي، (بل)كَالْمَسِيحِ يَسُوعَ" (غلا ٤: ١٣ - ١٤).

فإذا كان قد صار مقبولاً، وأُعجب كثيراً بتقوى الغلاطيين لله ومحبتهم له، وطالما قال: "كَمَلاَكٍ مِنَ اللهِ قَبِلْتُمُونِي"، يمضى مضيفاً: "بل كَالْمَسِيحِ يَسُوعَ". ما هو تفوق المسيح عن الملائكة؟ يعلّمه هو نفسه قائلا: "وَأَيْضاً مَتَى أَدْخَلَ الْبِكْرَ إِلَى الْعَالَمِ يَقُولُ: "وَلْتَسْجُدْ لَهُ كُلُّ مَلاَئِكَةِ اللهِ" (عب ١: ٦)، وأيضاً: "لأَنَّهُ لِمَنْ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ قَالَ قَطُّ: «أَنْتَ ابْنِي أَنَا الْيَوْمَ وَلَدْتُكَ»؟ وَأَيْضاً: «أَنَا أَكُونُ لَهُ أَباً وَهُوَ يَكُونُ لِيَ ابْناً»؟ ثُمَّ لِمَنْ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ قَالَ قَطُّ: «اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئاً لِقَدَمَيْكَ»؟" (عب ١: ٥، ١٣).

---

[1] هذا ما شرحه القديس كيرلس – في سياق حديثة عن يعقوب حين قرَّب إلية ابنيّ يوسف واحتضنهما وقبلهما – بأننا صِرنا معروفين لله بفضل المسيح، إذ يقول: [إذاً عليك أن تدرك بأننا حقاً كُنا أناس مجهولين عند الله الآب وصِرنا معروفين واقتربنا منه بالمسيح. لقد قبلنا الآب بفرح عظيم وأظهر لنا محبته لابنه، وبسبب هذه المحبة جعلنا مستحقين لمحبته ودعانا للإتحاد به ذهنياً وبالطبع روحياً. وتُعتبر قُبلة المحبة والأحضان هي مثال لإتحادنا به. لأجل هذا كتب بولس الحكيم لهؤلاء الذين آمنوا بالمسيح، قائلاً: "ولكن الآن في المسيح يسوع أنتم الذين كنتم قبلاً بعيدين صرتم قريبين بدم المسيح " (أف ٢:١٣)، بمعنى أن المسيح قد جعلنا قريبين من الآب، ولقد قال أيضاً بولس الرسول: "أما الآن إذ عَرفتم الله بل بالحري عُرفتم من الله" (غلا ٤:٩). أي أن الله الآب جعلهم مستحقين أن يروه ويعرف فقط هؤلاء الذين لديهم شركة روحية مع الابن وحصلوا - بغنى حقيقي - على الولادة الثانية في اسمه وبواسطته. هكذا مثل أولئك الذين مُسحوا بدم الحمل جعلهم معروفين له، قائلاً: "ويكون لكم الدم علامة على البيوت التي أنتم فيها. فأرى الدم وأعبر عنكم. فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر" (خر ١٢:١٣). حسناً لقد امتلأ يعقوب بالفرح حين قال لابنه يوسف: "لم أكن أظن أني أرى وجهك وهوذا الله قد أراني نسلك أيضاً" (تك ٤٨:١٢)]. جيلافيرا، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، الكتاب الشهري عدد يونيه ٢٠٠٨.

لأنه مكتوب أيضاً عن هؤلاء: "الصَّانع مَلاَئكَتَه رِيَاحاً، وَخدَّامَه نَاراً ملْتَهبَةً" (مز ١٠٤: ٤). إذن لأنه يوجد اختلافٌ عظيم، حتى أن الابن يُسجد له[١]، والملائكة يخدمونه، وقد جلس هذا بالتأكيد في مكان الملك والابن والسيد، بينما أولئك أُرسلوا للخدمة، فكيف لا يكون هذا هو الله الذي اعترفت به الملائكة أنه الإله بحسب الطبيعة؟ لأنه لو كان مخلوقاً وفق حماقة أصحاب الآراء الأخرى المنحرفة، فقد حان الوقت ليقولوا: ليس فقط نحن، بل أيضاً القوات السماوية ذاتها قد ضلَّت، حتى أنهم عبدوا المخلوق وليس الخالق (انظر رو ١: ٢٥)، مع أن ذلك محض سُخفٍ؛ (لأنه لا يمكن للمرء أن يقول إن الملائكة قد ضلَّت، لكن معرفتهم عن الله معرفة حقيقية، وهم يعبدون الابن كإله بحسب الطبيعة)، بالتالي فهو ليس مخلوقاً؛ لأن المخلوق - بشكل عام - لا يمكن أن يكون إلهاً بحسب الطبيعة.

٣٧- شاهدٌ آخر

"إِذاً أَيُّهَا الإِخْوَةُ لَسْنَا أَوْلاَدَ جَارِيَةٍ بَلْ أَوْلاَدُ الْحُرَّةِ" (غلا ٤: ٣١). بما أن سلطان العِتق هو بيد الرب، وقد حرَّرنا المسيح الذي نزع ثقل العبودية داعياً إيانا إلى التبني، بالتالي فهو ليس عبداً، لكنه الابن والسيد، والذي هو الرب بحسب الطبيعة، هو الذي يعطي نعمة التبني للذين يستحقون.

(١) التأكيد هنا على أن الابن يُسجد له بعد التجسد أي بعدما صار بكراً بين أخوة كثيرين، إذ يقول القديس كيرلس في موضع آخر: [أن عمانوئيل وُصِفَ بالبكر عندما صار إنساناً مثلنا وبكراً بين إخوة كثيرين (انظر رو ٨: ٢٩)، و لم يكن ممكناً أن يتوقف عن أن يكون إلهاً ورباً للكل، إذ أننا نسجد له كرب وإله، ورب الكل لنا نحن الذين دُعينا بالنعمة وصرنا إخوة، كما هو مكتوب: "لأنه مَنْ في السماء يعادل الرب" (مز ٨٩: ٦). هكذا صار عمانوئيل الذي هو إله ورب الجميع للذين دُعوا ليصيروا إخوته "لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض" (في ٢: ١٠)]. جيلافيرا، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، الكتاب الشهري، عدد ديسمبر ٢٠٠٥.

خامساً:

من الرسالة إلى أفسس

٣٨- "بُولُسُ، رَسُولُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ بِمَشِيئَةِ اللهِ، إلى الْقِدِّيسِينَ الّذِينَ فِي أَفَسُسَ، وَالْمُؤْمِنِينَ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ" (أف ١: ١).

إن بولس الذي أُختِير بإرادة الله الآب لكي يكون رسولاً، دعى مَنْ صار له رسولاً أنه: "بَهَاءُ مَجْدِهِ، وَرَسْمُ جَوْهَرِهِ" (عب ١: ٣). كيف إذن يكون الابن هو أيقونة جوهر الآب غير المخلوق وغير المصنوع وأُقنومه، إذا كان قد خُلِقَ من العدم وفق آراء البعض؟ لأنه من الحتمي أن تكون الأيقونة مثل صاحب الأيقونة. وبما أن الابن هو أيقونة الآب غير الصائر، إذن فهو غير صائرٍ مثل الآب، وغير مخلوق، بل والإله الحقيقي الأزلي، وبالتالي فهو ليس مخلوقاً.

٣٩- شاهِدٌ آخر

"لِذلِكَ اذْكُرُوا أَنَّكُمْ أَنْتُمُ الأُمَمُ قَبْلاً فِي الْجَسَدِ، الْمَدْعُوِّينَ غُرْلَةً مِنَ الْمَدْعُوِّ خِتَاناً مَصْنُوعاً بِالْيَدِ فِي الْجَسَدِ، أَنَّكُمْ كُنْتُمْ فِي ذلِكَ الْوَقْتِ بِدُونِ مَسِيحٍ، أَجْنَبِيِّينَ عَنْ رَعَوِيَّةِ إِسْرَائِيلَ، وَغُرَبَاءَ عَنْ عُهُودِ الْمَوْعِدِ، لاَ رَجَاءَ لَكُمْ، وَبِلاَ إِلهٍ فِي الْعَالَمِ. وَلكِنِ الآنَ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ، أَنْتُمُ الّذِينَ كُنْتُمْ قَبْلاً بَعِيدِينَ، صِرْتُمْ قَرِيبِينَ بِدَمِ الْمَسِيحِ" (أف ٢: ١١ - ١٣).

بما أن الأمم عاشوا في ضلال في الوقت الذي كانوا منفصلين فيه عن المسيح، وبسبب هذا كانوا محرومين من الرجاء الحسن، وبلا إله في العالم، فالمسيح إذن هو رجاء الجميع وهو أيضاً الله، الذي لو كان الأمم قد عرفوه، لتوقفوا عن عدم الإيمان به؛ لأنهم عندئذٍ يكونون قد عرفوا الرب الحقيقي. فكيف إذن يكون مخلوقاً أو مصنوعاً، هذا الذي

اعتُرِفَ به كإله من الأمم، وأيضاً من الذين كانوا في ضلال، إذ قد خلَّص أولئك الذين وجدوه، وقاد الجميع إلى كل رجاء حسن، وفق ما قاله: "نِعِمَّا أَيُّهَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ الأَمِينُ! كُنْتَ أَمِيناً فِي الْقَلِيلِ فَأُقِيمُكَ عَلَى الْكَثِيرِ. اُدْخُلْ إلى فَرَحِ سَيِّدِكَ" (مت ٢٥: ٢٣).

٤٠- شاهِدٌ آخر

"لأَنَّهُ هُوَ سَلاَمُنَا، الَّذِي جَعَلَ الاثْنَيْنِ وَاحِداً، وَنَقَضَ حَائِطَ السِّيَاجِ الْمُتَوَسِّطَ أَيِ الْعَدَاوَةَ. مُبْطِلاً بِجَسَدِهِ نَامُوسَ الْوَصَايَا" (أف ٢: ١٤ - ١٥).

فقد سبق أن كُتب في موضعٍ ما عن نواميس الله، أنه لا يُسمح أن يضاف عليها أو يحذف منها شيء. وفي الوقت الذي قرر الله فيه هذا، وقال إنه لا يسمح لأحد أن يضيف على هذه الأقوال التي أمر بها أو يحذف منها، نجد أن المسيح قد فعل هذا؛ لأنه نزع وأبطل ناموس الوصايا، وأضاف عقائد الإيمان به والتقوى. فكيف إذن يُحسب من المخلوقات مثلنا، هذا الذي لديه السلطان اللائق بالله، وهو الوحيد الذي فعل كل هذه الأمور التي تليق بالله؟

٤١- شاهِدٌ آخر

"فَلَسْتُمْ إذاً بَعْدُ غُرَبَاءَ وَنُزُلاً، بَلْ رَعِيَّةٌ مَعَ الْقِدِّيسِينَ وَأَهْلِ بَيْتِ اللهِ" (أف٢: ١٩).

فكيف لا يكون الابن هو الله، إذا كان المرتبطون به قد صاروا - بواسطة الإيمان - من أهل بيت الله؟

وقد أظهر وسيلة تلك القرابة الروحية[1]، حين قال لتلاميذه: "لأَنَّ مَنْ يَصْنَعُ مَشِيئَةَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ أَخِي وَأُخْتِي وَأُمِّي" (مت ١٢: ٥٠).

(١) لقد شرح القديس كيرلس اقترابنا من الله بواسطة المسيح أثناء حديثه عن صعود موسى وهارون للحديث مع الله، إذ يقول: " عندما يصعد موسى العظيم إلى الجبل يصعد معه يشوع أيضاً. وهذا يرمز إلى أنَّ الآب لا يمكن أنْ يُقترب منه إلاَّ بهذه الطريقة، أقصد أنه لا يمكن الاقتراب منه إلاّ بواسطة الابن. لأنه حقاً صادقةٌ هي الكلمة " لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي " (يو ١٤: ٦). ويمكننا أنْ نؤكِّد أنه حتى القديسون، إنما يقتربون إليه بواسطة المسيح. لأنه لا يمكن لأحدٍ أنْ يرتقي إلى معاينة سامية وفائقةٍ للطبيعة، وكأنه يصعد إلى جبلٍ، وبالأحرى لا يمكنه أن

٤٢- شاهِدٌ آخر

"بِسَبَبِ هذَا أَحْنِي رُكْبَتَيَّ لَدَى أَبِي رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي مِنْهُ تُسَمَّى كُلُّ عَشِيرَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَعَلَى الأَرْضِ" (أف ٣: ١٤).

دائماً ما تُشبَّه الأشياء المتبناة، بالأشياء التي هي بحسب الطبيعة. هكذا أيضاً تصير الأشياء التي بحسب النعمة، مثل الأصول، دون أن تكون حقاً هي الأصول. فإذا كان اسم الأبوة الذي لجنسنا قد انتقل إلينا من أبوة الآب، فكيف لا يجدِّف مَنْ يقولون إننا بالطبيعة آباءٌ لهؤلاء المولودين منّا، في الوقت ذاته الذي فيه صرنا ودُعينا آباءً بحسب مثال الآب الحقيقي، بينما – بحسب رأيكم – يُحرم الأصل والإله الآب الأصل من حقيقة الولادة، فلا نعترف أن الابن مولودٌ من جوهره، بل نظنه شخصاً غريباً عن جوهر الآب، وقد أتى من الخارج؟

وبشكلٍ عام، كيف يمكن أن يكون آباً هذا الذي لم يَلِد، خصوصاً وأن اسم الآب يعني أن كائناً ما لديه خاصية أن يَلِد، وبالولادة يرتبط مَنْ ولَدَ بذاك الذي وُلِدَ، إذ لهما نفس الجوهر الواحد؟ إذن، فلأن ما قاله الآب لابنه كان حقيقياً عندما قال له: "ولدتك من أحضاني من قبل أن يصير يوسفوروس" (مز ١٠٩: ٣س)، وكان قد ولَدَه حقا من ذاته؛ (لأن هذا هو معنى "من أحضاني")، فلا يمكن أن يكون مخلوقاً، لكن بالحري هو الله؛ لأنه إلهٌ من إله، وهو الابن لأنه من الله الآب بحسب الطبيعة.

٤٣- شاهِدٌ آخر

"رَبٌّ وَاحِدٌ، إِيمَانٌ وَاحِدٌ، مَعْمُودِيَّةٌ وَاحِدَةٌ، إِلهٌ وَآبٌ وَاحِدٌ لِلْكُلِّ، الَّذِي عَلَى الْكُلِّ وَبِالْكُلِّ وَفِي كُلِّكُمْ" (أف ٤: ٥ – ٦)، فإذا كان الربُ والإله الآب واحداً، فكيف يكون الابن رباً، إن كان مخلوقاً أو مصنوعاً، خصوصاً إن كان من الواضح أن طبيعة المخلوقات هي طبيعة مستعبَدة؟ وكيف يكون الإيمان واحداً، وأن كل مَن يؤمن بالابن، يؤمن بالآب، لو لم تكن هناك – وفق طياشة البعض – شركة للابن مع الآب؟

يوجد بالقرب من الله إنْ لم يكن متحداً مع عمانوئيل، وهكذا لا يكون هناك ما يعوق مسيرة البشر للاقتراب إلى الآب". السجود والعبادة بالروح والحق، المرجع السابق، الجزء السادس، المقالة العاشرة ص ١١.

كذلك أيضاً، إذا كان الله الآب هو الرب، والابن أيضاً هو الرب، وكل مَنْ يؤمن به، يؤمن أيضاً بالآب. وبما أن الابن يأتي من الآب، ويوجد في الآب بحسب الطبيعية، وله أيضاً الآب في داخله، فالله، إذن يُؤمَن به ويُمجَّد مع الابن. وبهذه الطريقة يكون الإيمان بإلوهةٍ واحدة.

كيف إذن يُحسب ضمن المخلوقات هذا الذي له كل ما للآب، كثمرة حقيقية للجوهر الواحد، وليس هو مثلنا نحن الذين صِرنا أبناءً بالتبني، وطُعِّمنا فيه مثل النباتات[1]؟

٤٤- شاهِدٌ آخر

"فَكُونُوا مُتَمَثِّلِينَ بالله كَأَوْلاَدٍ أَحِبَّاءَ، وَاسْلُكُوا فِي الْمَحَبَّةِ كَمَا أَحَبَّنَا الْمَسِيحُ أَيْضاً وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِنَا، قُرْبَاناً وَذَبِيحَةً لله رَائِحَةً طَيِّبَةً" (أف ٥: ١ - ٢).

لاحظ أيضاً، أن القديس بولس يُقِر ويسمي المسيح بالله؛ لأنه قال إنه يجب علينا أن نصير متمثلين بالله، وأضاف مباشرةً، معلّماً إيانا كيف يجب أن نتمثل به، قائلاً: "كَمَا أَحَبَّنَا الْمَسِيحُ أَيْضاً وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِنَا". إذن طالما أن المسيح هو الإله بحسب الطبيعة، وهكذا دعاه بولس الذي آمن بكرازة الإنجيل، فكيف يمكن أن يكون مخلوقاً أو مصنوعاً؟

٤٥- شاهِدٌ آخر

"فَإِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ هذَا أَنَّ كُلَّ زَانٍ أَوْ نَجِسٍ أَوْ طَمَّاعٍ - الَّذِي هُوَ عَابِدٌ لِلأَوْثَانِ - لَيْسَ لَهُ مِيرَاثٌ فِي مَلَكُوتِ الْمَسِيحِ وَاللهِ" (أف ٥: ٥). ها هو أيضاً وهو يذكر المسيح يقدمه أيضاً على أنه الله؛ لأن الله الآب فيه، وهو أيضاً في الآب، وكل ما لدى الآب هو لدى الابن، وذلك طبقاً لِمَا قاله هو نفسه عن علاقته بالآب: "وَكُلُّ مَا هُوَ لِي فَهُوَ لَكَ، وَمَا هُوَ لَكَ فَهُوَ لِي، وَأَنَا مُمَجَّدٌ فِيهِمْ" (يو ١٧: ١٠).

---

(١) يشبِّه القديس كيرلس عملية تجديدنا بواسطة **الكلمة** المتأنس بالطبيعة التي تزدهر في الربيع، فالطبيعة البشرية مثل نبات يزدهر بالمسيح، إذ يقول: "هكذا ازدهرت طبيعة الإنسان مرةً أخرى مثل النبات، بعدما أصابها الذبول من جرَّاء الموت بسبب مخالفة آدم والخطية التي تملَّكت علينا. اسمع ما يقوله المسيح بفم واحد من الأنبياء القديسين: "أنا هو الذي أتحدث إليك مثل الربيع على الجبال" (إش ٥٢: ٦س). فكما أنَّ الربيع يتوِّجُ الجبال والغابات بنباتات وزروع جديدة، هكذا فإن حضور المسيح يحقق لنا نفس الأمر". السجود والعبادة بالروح والحق، المرجع السابق، الجزء السادس، المقالة العاشرة ص ١٦.

فالملكوت هو واحدٌ من ضمن ما لدى الآب، وهو لدى الابن أيضاً وكذلك الروح القدس. هكذا الثالوث هو قدوس ويُسجَدُ له، لأن له طبيعة إلهية واحدة[1]. فكيف إذن يكون الله **الكلمة** مخلوقاً، هذا الذي له كل ما للآب وهو في الآب ومع الآب؟

٤٦- شاهِدٌ آخر

"لاَ يَغُرَّكُمْ أَحَدٌ بِكَلاَمٍ بَاطِلٍ، لأَنَّهُ بِسَبَبِ هذِهِ الأُمُورِ يَأْتِي غَضَبُ اللهِ عَلَى أَبْنَاءِ الْمَعْصِيَةِ" (أف ٦: ٥). ومَنْ هم أبناء المعصية إلاَّ أولئك الذين ضلوا وابتعدوا عن نواميس المخلِّص؟ فإذا كان المخلِّصُ هو مَن يُنزل الغضب، وفق ما قاله: "ثُمَّ يَقُولُ أَيْضاً لِلَّذِينَ عَنِ الْيَسَارِ: اذْهَبُوا عَنِّي يَا مَلاَعِينُ إِلى النَّارِ الأَبَدِيَّةِ" (مت ٢٥: ٤١)، والطوباوي بولس يقر بأن هذا هو الإله ويقدِّمه هكذا، فمَنْ يستطيع أن يحتمل هؤلاء الذين يقولون إنه مخلوقٌ؟

٤٧- شاهِدٌ آخر

"لِذلِكَ يَقُولُ: اسْتَيْقِظْ أَيُّهَا النَّائِمُ وَقُمْ مِنَ الأَمْوَاتِ فَيُضِيءَ لَكَ الْمَسِيحُ" (أف ٥: ١٤).

إن كان عمل النور هو قدرة الرب على أن ينير، "وَالظُّلْمَةُ لَمْ تُدْرِكْهُ" (يو ١: ٥). وبما أن الآب أيضاً هو النور الحقيقي، إذن الابن هو النور الذي يأتي من النور[1]، والإله الآتي من الإله. فإن كان الأمر هكذا، فهو ليس مخلوقاً.

---

(١) يؤكد القديس كيرلس في كلامه عن الثالوث على الوحدة وتمايز الأقانيم وسر الوحدة هي الطبيعة الإلهية الواحدة، إذ يقول: "وباعتقادنا أن الآب هو الآب بالحق، والابن هو الابن، والروح القدس الذي له مكانه الخاص به معهما كأقنوم يكون الثالوث القدوس هو اللاهوت الواحد نفسه. وكيف يكون الله واحداً، لو أنفصل كل أقنوم وأنفرد تماماً عن الأقنومين الآخرين، أو كيف يمكن أن يُقال لكل أقنوم، الله، إذا انفصل تماماً عن وحدة الطبيعة والمساواة الجوهرية، مع الآخر؟ لذلك يجب علينا أن نؤمن بالآب والابن والروح القدس كل أقنوم متميز، بدون أن نخلط الأقانيم، أو الأسماء، بل يظلّ كل أقنوم كما هو، وفي نفس الوقت الذي تتميّز فيه الأقانيم، تظلّ الطبيعة الإلهية الواحدة بدون انفصال، لأن الابن دُعِيَ الكلمة والحكمة والبهاء، ورسم صورة الآب وقوّته، فلا يعني هذا، أن الابن منفصل". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٧٩ – ٨٠.

٤٨- شاهدٌ آخر على نفس الموضوع

مَنْ لديه القدرة على أن ينير نتيجة مشاركته لآخر، يكون لديه موهبةٌ مكتسبةٌ، وبالتالي لا يمكن أن يُدعَى في الأصل نوراً. ولكن الابن ليس هكذا؛ لأنه يقول: "أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ" (يو ٨: ١٢). فهو أيضاً النور الحقيقي مثله مثل الآب، ومَن يكون لديه طبيعة الآب ذاتها، كيف يكون مخلوقاً أو مصنوعاً؟

لقد حان وقتهم ليقولوا عن الآب ما قالوه عن الابن، الأمر الذي إن حدث سيكون تجاوزاً لكل حدود المعقول.

٤٩- شاهدٌ آخر

"أَيُّهَا الرِّجَالُ، أَحِبُّوا نِسَاءَكُمْ كَمَا أَحَبَّ الْمَسِيحُ أَيْضاً الْكَنِيسَةَ وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِهَا، لِكَيْ يُقَدِّسَهَا، مُطَهِّراً إِيَّاهَا بِغَسْلِ الْمَاءِ بِالْكَلِمَةِ" (أف ٥: ٢٥ - ٢٦).

إذا كانت بعض الملامح التي تميِّز الطبيعة الإلهية لا توجد بطريقة طبيعية وأساسية في أي كائنٍ من المخلوقات، بل تكون موضوعةً فيهم من خالقهم، بالتحديد الأمر الذي كشف عنه بولس عندما قال: "وَأَيُّ شَيْءٍ لَكَ لَمْ تَأْخُذْهُ؟" (١ كور ٤: ٧)، لأَصبح من الواضح أن القداسة، إنما توجد فقط في الله، بينما تخلو منها الكائنات الأخرى؛ فهذه الكائنات لا تستطيع أن تُقَدِّس، بل تتقدَّس هذه الكائنات من الله القدوس، وتقبل منه التقديس بكونه مصدر الصالحات. فإذا لم يكن لأي من المخلوقات أن يُقَدِّس، في حين أن المسيح يظهر وهو يفعل هذا الأمر، فهو إذن مختلفٌ بحسب الطبيعة من جهة هذه الأمور. ولذلك، فغير المخلوق، والذي يمتلك خصائص الطبيعة الإلهية، كيف لا يكون إلهاً بالطبيعة؟

---

(١) هذه التعبيرات وضعها الآباء المجتمعين في مجمع نيقية كما تسلموها من الآباء السابقين، وكان القديس أثناسيوس له عبارة يرددها في المجمع: نحن نتبع الآباء، هكذا فإن قانون الإيمان يشدد على أننا نؤمن أن الابن هو: "نور من نور، إله حق من إله حق".

سادساً:

من الرسالة إلى أهل فيلبي

٥٠- "اِفْعَلُوا كُلَّ شَيْءٍ بِلاَ دَمْدَمَةٍ وَلاَ مُجَادَلَةٍ، لِكَيْ تَكُونُوا بِلاَ لَوْمٍ، وَبُسَطَاءَ، أَوْلاَداً لله" (فيلبى ٢: ١٤ - ١٥). إذا كان بولس الطوباوي نفسه يقول إن المسيح هو ذاك الذي يقول لأجلنا: "هَا أَنَا وَالأَوْلاَدُ الَّذِينَ أَعْطَانِيهِمِ اللهُ" (عب ٢: ١٣)، فمن الواضح أننا نحن أولاده الذين بلا لوم باهتدائنا إليه. المسيح إذن هو الله. وبما أنه هو الله، فكيف يمكن أن يكون مخلوقاً؟

٥١- شاهدٌ آخر

"فَإِنَّ سِيرَتَنَا نَحْنُ هِيَ فِي السَّمَاوَاتِ، الَّتِي مِنْهَا أَيْضاً نَنْتَظِرُ مُخَلِّصاً هُوَ الرَّبُّ يَسُوعُ الْمَسِيحُ، الَّذِي سَيُغَيِّرُ شَكْلَ جَسَدِ تَوَاضُعِنَا لِيَكُونَ عَلَى صُورَةِ جَسَدِ مَجْدِهِ، بِحَسَبِ عَمَلِ اسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يُخْضِعَ لِنَفْسِهِ كُلَّ شَيْءٍ" (فيلبى ٣: ٢٠ - ٢١). و"اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئاً لِقَدَمَيْكَ" (مز ١١٠: ١).

يؤكد بولس أن الابن يمكنه أن يُخضِع الكل لذاته، وهذا ما فعله بسهولة، وهو الأمر الذي يُوجد فقط في سلطان الآب، كما يشير المزمور. ولأن الله بسيطٌ، فالقوة التي في داخله ليست شيئاً بجواره مضافاً إليه، بل هو الابن ذاته، الذي له نفس الجوهر معه. ولأن الطبيعة هي واحدة للأثنين، بالتالي فهو يوجد في الذي ولَدَه، بالرغم من أنه إلهٌ من إله، نورٌ صادرٌ من نور، مُدرَكٌ كابنٍ متمايز[1] عن الآب. إذن طالما أن الابن هو قوة الآب (أنظر ١ كو ١: ٢٤)، وبه يفعل كل شيء، فكيف يمكن أن يكون مخلوقاً؟

---

(1) إن وحدة الجوهر والطبيعة الواحدة في الثالوث لا تلغي التمايز بين الأقانيم، وهذا ما أكد عليه القديس كيرلس عندما قال: "لا يمكن أن يصبح الآب هو **الكلمة**، بسبب وحدة الجوهر مع **الكلمة**، بل يظلّ كما هو متمايزاً

بناء على ذلك فالابن ليس مخلوقاً، كما يزعم أصحاب الآراء الطائشة.

٥٢- قول آخر على نفس الموضوع

إذا كان كل كيان مخلوق قد أتى إلى الوجود من العدم، وكان المسيحُ الذي هو حكمة وقوة الله الآب (أنظر ١ كو ١: ٢٤)، ينتمي - وفق البعض - إلى طبيعة المخلوقات، فمن الحتمي أن نتفق على أن الله كان في وقتٍ ما بلا حكمة وبلا قوة، وفى وقت لاحق صار حكمةً وقوةً، أي عندما أحضر الابن الذي هو الحكمة والقوة إلى الوجود؛ وهذا بالطبع يتفق وطبيعة المخلوقات. لكن أن يكون لدى أحدٌ مثل هذا الرأي عن الله، فهذا تجديفٌ وجهل. أمَّا أنه تجديفٌ؛ فلأن الآب لم يكن أبداً بلا حكمة أو عارياً من القوة. وأمَّا أنه جهلٌ؛ فللأسباب الآتية:

- لأنه إذا كان الابن قد خُلِق، وفق أولئك، لَكان قد خُلِق طبعاً من الآب. لكن الآب لم يكن أبداً عارياً من القوة والحكمة معاً، وفي هذه الحالة لا يستطيع أن يُحضِر الابن إلى الوجود، ثم بعد ذلك يُدعى الابن بأنه أيقونة وختم جوهره (أنظر عب ١: ٣).

- لأنه كيف يمكن للابن الذي هو أسمى من كل الخليقة، أن يُخلَق بدون قوة وحكمة، في اللحظة التي فيها صنع الأدنى منه، أي الخليقة بالحكمة، كما يقول الكتاب وبقوة الله؟ فإن كانت هناك حاجة لحكمة الله لكي يصير الأصغر حسناً، فكيف لم تكن هناك بالأكثر حاجة إلى الحكمة لأجل خلق الأعظم[1]؟

كأقنوم رغم وحدته في الجوهر مع **الكلمة**". شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٦٩. وكذلك أيضاً يؤكد على أنه لا يمكن أن يتحول أقنوم في الطبيعة الإلهية إلى عدم الوجود، إذ يقول: "الطبيعة الإلهية لا يمكن أن يتحوّل أقنوم فيها إلى عدم الوجود، أو إلى أقنوم آخر. ولذلك لا يمكن أن يتحوّل الآب إلى الكلمة رغم أنه واحد في الجوهر مع **الكلمة**، بل يظلّ الآب كما هو آب، كما يظلّ الابن الوحيد هو **الكلمة**". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٧٠.

(١) هذه الحُجة هي نتيجة الرأي الخاطئ للهراطقة، لو كان الله بلا قوة وحكمة خَلَقَ الابن الذي هو أسمى من المخلوقات بحسب رأيهم ثم بعد ذلك خَلَقَ المخلوقات التي هي أدنى من الابن بالحكمة والقوة، أي منطق يصدق هذا الأمر، لذلك يقول القديس كيرلس في شرحه لإنجيل يوحنا: "الأدنى يُخلق بالحكمة والقوة بينما الأعظم يُخلق بدون قوته وحكمته. هكذا يواجه القديس كيرلس الهراطقة بنتائج آرائهم غير المعقولة. لذلك يؤكد القديس كيرلس على أنه حين يعمل الآب يعمل الابن، إذ يقول: "فعندما يعمل الآب، يعمل الابن، لأن الابن هو قوّة

ما أسخف تلك الأفكار حقاً. إذن الآب كان دائماً حكيماً وقوياً، والابن ليس من المخلوقات، الابن الأزلي مع الآب بكونه قوته وحكمته.

٥٣- شاهدٌ آخر

"اَلرَّبُّ قَرِيبٌ. لاَ تَهْتَمُّوا بِشَيْءٍ" (فيلبي ٤: ٥ - ٦).

لاحظ إذن أيضاً كيف يُبرهن بهذا القول لنا على أن الابن هو الإله الحقيقي. لأن هذا الذي يقوله لنا بولس، إن المسيح بكونه الرب يكون قريباً، يقوله هو ذاته من خلال نبي من الأنبياء: " أَلَعَلِّي إِلهٌ مِنْ قَرِيبٍ، يَقُولُ الرَّبُّ، وَلَسْتُ إِلهاً مِنْ بَعِيدٍ" (أر ٢٣: ٢٣).

فبما أن ابن الله يعلن ذاته، ويدعوها كما سمعنا، فكيف يمكن لشخص أن يقول إنه مخلوق، ولا يرتكب خطية التجديف؟

٥٤- شاهدٌ آخر

"لاَ تَهْتَمُّوا بِشَيْءٍ، بَلْ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِالصَّلاَةِ وَالدُّعَاءِ مَعَ الشُّكْرِ، لِتُعْلَمْ طِلْبَاتُكُمْ لَدَى اللهِ. وَسَلاَمُ اللهِ الَّذِي يَفُوقُ كُلَّ عَقْلٍ، يَحْفَظُ قُلُوبَكُمْ وَأَفْكَارَكُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ" (فيلبى ٤: ٦ - ٧). كما أن المخلِّص، وهو يتحدث إلى تلاميذه قال: "سَلاَماً أَتْرُكُ لَكُمْ. سَلاَمِي أُعْطِيكُمْ. لَيْسَ كَمَا يُعْطِي الْعَالَمُ أُعْطِيكُمْ أَنَا. لاَ تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ وَلاَ تَرْهَبْ" (يو ١٤: ٢٧).

إذا كان المخلِّص يقول إنه يمنح السلام، ويدعو بولس هذا السلام بأنه سلام الله، أي أن بولس يعترف بأن الابن هو الله الذي يمنح السلام للقديسين، وإليه يصلي أشعياء الطوباوي بالإعلان النبوي، نائباً عن الذين يؤمنون به، قائلاً: "يَا رَبُّ، تَجْعَلُ لَنَا سَلاَماً لأَنَّكَ كُلَّ أَعْمَالِنَا صَنَعْتَهَا لَنَا" (أش ٢٦: ١٢)، فإذا كان بولس يقر ويعترف بأن الابن إلهٌ، فلتختفِ إذن ثرثرة أولئك الذين يؤمنون بأمورٍ مغايرة.

أقنوم الآب، الخاصة به وبجوهره. وأيضاً عندما يعمل الابن، يعمل الآب أيضاً، فالآب أصل **الكلمة**، الخالق، وطبيعياً هو كائن في الابن مثل النار في الحرارة الصادرة منها". شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، المرجع السابق، الإصحاح الأول ص ٨٠.

٥٥- شاهدٌ آخر

"أَخِيراً أَيُّهَا الإِخْوَةُ كُلُّ مَا هُوَ حَق، كُلُّ مَا هُوَ جَلِيلٌ، كُلُّ مَا هُوَ عَادِلٌ، كُلُّ مَا هُوَ طَاهِرٌ، كُلُّ مَا هُوَ مُسِرٌّ، كُلُّ مَا صِيتُهُ حَسَنٌ، إِنْ كَانَتْ فَضِيلَةٌ وَإِنْ كَانَ مَدْحٌ، فَفِي هذِهِ افْتَكِرُوا. وَمَا تَعَلَّمْتُمُوهُ، وَتَسَلَّمْتُمُوهُ، وَسَمِعْتُمُوهُ، وَرَأَيْتُمُوهُ فِيَّ، فَهذَا افْعَلُوا، وَإِلهُ السَّلاَمِ يَكُونُ مَعَكُمْ" (فيلبى ٤: ٨ - ٩).

يقول بولس إن المسيح هو إله السلام وهو يفعل هذا معتمداً ومؤمناً بما سبق أن قاله المسيح الإله لتلاميذه: "سَلاَمِي أُعْطِيكُمْ" (يو ١٤: ٢٧).

سابعاً:

من الرسالة إلى أهل كولوسي

٥٦- "لِتَسْلُكُوا كَمَا يَحِقُّ لِلرَّبِّ، فِي كُلِّ رِضىً، مُثْمِرِينَ فِي كُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ، وَنَامِينَ فِي مَعْرِفَةِ اللهِ" (كو ١: ١٠).

إن كنا نعرف ربنا يسوع المسيح من خلال التعاليم الرسولية والإنجيلية، فإننا نعرفه ليس كأنه واحدٌ من المخلوقات، بل كإله الجميع، فكيف إذن لا يكون الابن هو الإله الحقيقي الذي يُقَدِّم بذاته المعرفة عن الآب، ويقدِّم المعرفةَ عن ذاته أيضاً كابنٍ بتسمية الله بالآب؟ لأنه يتحتم أن يوجد الواحد في الآخر، طالما كان هذا مثالاً للأسماء التي ترتبط بعلاقة فيما بينها. إضافةً إلى ذلك، فالمخلص نفسه يقول وهو يشير إلى أبيه: "أَنَا أَظْهَرْتُ اسْمَكَ لِلنَّاسِ" (يو ١٧: ٦) جاعلاً ذاتي معروفةً فيهم. لأنه بمجرد أن يعرف شخصٌ ما ماذا يكون الابن، يمكنه أيضاً تحديد ذاك الذي ولَدَهَ، أي مَنْ يكون الآب؟ إذن، فبما أنه ابنٌ وإلهٌ، فكيف يمكن أن يكون مخلوقاً بواسطته، وليس بالحري مولوداً، إذ هو يأتي من الآب؟ وهذا هو الحق.

٥٧- شاهدٌ آخر

"شَاكِرِينَ الآبَ الَّذِي أَهَّلَنَا لِشَرِكَةِ مِيرَاثِ الْقِدِّيسِينَ فِي النُّورِ، الَّذِي أَنْقَذَنَا مِنْ سُلْطَانِ الظُّلْمَةِ، وَنَقَلَنَا إِلَى مَلَكُوتِ ابْنِ مَحَبَّتِهِ، الَّذِي لَنَا فِيهِ الْفِدَاءُ، بِدَمِهِ غُفْرَانُ الْخَطَايَا" (كو ١: ١٢ - ١٤).

يُخضِع الكتاب المقدس كل طبيعة المخلوقات لقانون العبودية لله، قائلاً: "لأَنَّ الْكلّ عَبيدكَ" (مز ١١٩: ٩١)، ولكنه يعلن أن الرتبة الملوكية هي فقط لله كخاصية فريدة له، صارخاً: "يا رب الجنود ملكي وإلهي" (مز ٣: ٨٤)، باعتبار أن من يكون له الملك

بحسب الطبيعة يكون هو الله. إذن، فبما أن الرتبة الملوكية ليست لأيٍ من المخلوقات، إلاَّ الابن فقط، الذي يملك مع الآب بحسب الطبيعة، فكيف يمكن أن ينتمي الابن للمخلوقات، الابن الذي لديه كل خواص جوهر أبيه بحسب الطبيعة[1]؟

٥٨- شاهدٌ آخر

"فَإِنَّهُ فِيهِ خُلِقَ الْكُلُّ: مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ، مَا يُرَى وَمَا لاَ يُرَى" (كو ١: ١٦).

فبما أن الكل قد صار بواسطته، لا يمكن أن يُحسَب حقا مع "الكل"، بل بالحري هو يُوجد خارج الكل. لأنه يقول: "الْكُلُّ"، أي أنه لم يترك أيّاً مما ظهر دون أن يكون قد صار من العدم. وطالما أن "الكل" صار بواسطته، فهو آخرٌ غير "الكل"، فكيف يمكن أن يكون مخلوقاً، هذا الذي من المستحيل أن ينتمي إلى "الكل" بسبب اختلاف طبيعته عن طبيعة المخلوقات؟

٥٩- شاهدٌ آخر

"فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَعْلَمُوا أَيَّ جِهَادٍ لِي لأَجْلِكُمْ، وَلأَجْلِ الّذِينَ فِي لاَوُدِكِيَّةَ، وَجَمِيعِ الّذِينَ لَمْ يَرَوْا وَجْهِي فِي الْجَسَدِ، لِكَيْ تَتَعَزَّى قُلُوبُهُمْ مُقْتَرِنَةً فِي الْمَحَبَّةِ لِكُلِّ غِنَى يَقِينِ الْفَهْمِ، لِمَعْرِفَةِ سِرِّ اللهِ الآبِ وَالْمَسِيحِ، الْمُذّخَرِ فِيهِ جَمِيعُ كُنُوزِ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ" (كو ٢: ١ - ٣).

بما أن سر الله يفوق كل حدود المعرفة، وقد تضمنت هذه الأقوال قمة كل الحكمة والفهم عنه، وإذا كانت كل كنوز الحكمة والمعرفة مخفاة في سر المسيح[2]، فكيف لا يكون

---

(1) الابن له كل خصائص الآب، وهذا ما يؤكد عليه القديس كيرلس في موضع آخر، إذ يقول: "فالابن بالحقيقة هو الابن المولود من جوهر الآب وله في نفسه كل خصائص أبيه بالطبيعة. وإذا كان الآب هو الله بالطبيعة كذلك الابن **الكلمة** هو الله بالطبيعة لأنه مولود من تلك الطبيعة". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٥٨.

(2) يتحدث القديس كيرلس، في سياق الكلام عن ملكي صادق، عن سر المسيح وتدبير تأنسة وسر الطبيعة الإلهية، إذ يقول: "إننا نرى الأسرار الإلهية الآن رؤية غير واضحة أي كما في مرآة وفى لغز (انظر ١كو

هو الله، ذلك الذي يفوق قياس أي لغة بشرية، وأسمى من كل عقل وحكمة، وفهم وقدرة أي من المخلوقات؟ لأنه، كما يقول النبي: "وَفِي جيله مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ قُطِعَ مِنْ أَرْضِ الأَحْيَاءِ؟" (أش ٥٣: ٨).

٦٠- شاهدٌ آخر

"فَإِنْ كُنْتُمْ قَدْ قُمْتُمْ مَعَ الْمَسِيحِ فَاطْلُبُوا مَا فَوْقُ، حَيْثُ الْمَسِيحُ جَالِسٌ عَنْ يَمِينِ اللهِ" (كو ٣: ١).

إذا لم يكن بين المخلوقات مَنْ هو جليسٌ، ومجتمعٌ مع ملك الكل؛ لأنه يقول: "لمن من الملائكة قال أجلس عن يميني" (عب ١: ١٣)، لأن الجميع هم أرواحٌ خادمة (أنظر عب ١: ١٤)، لكن هو فقط الابن، ويحق له أن يجلس ويملك مع الآب، فكيف يمكن أن يكون واحداً من المخلوقات، مَنْ هو أسمى من كل الخليقة، بكونه إلهاً، وجليساً على العرش الملوكي مع الله الآب الذي ولَدَهَ؟

٦١- شاهدٌ آخر

"اهْتَمُّوا بِمَا فَوْقُ لاَ بِمَا عَلَى الأَرْضِ، لأَنَّكُمْ قَدْ مُتُّمْ وَحَيَاتُكُمْ مُسْتَتِرَةٌ مَعَ الْمَسِيحِ فِي اللهِ. مَتَى أُظْهِرَ الْمَسِيحُ حَيَاتُنَا، فَحِينَئِذٍ تُظْهَرُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً مَعَهُ فِي الْمَجْدِ" (كو ٢: ٣ - ٤).

١٢:١٣). أي بسبب أننا لا نستطيع أن نجعل هذه الأحداث تعبِّر تعبيراً كاملاً عن الطبيعة الإلهية غير الموصوفة. فإننا نجمع آلاف الأمثلة حتى يمكننا باعتدال أن نقول شيئاً عن الطبيعة الإلهية. وسر المسيح جدير بأن نتحدث عنه باستفاضة، إذ أن سبب تأنسه يفوق فهم أي شخص. بمعنى أن سبب التدبير هو عميق جداً، إذ أن الوحيد الجنس هو الله ومولود من الله بحسب الطبيعة وصار إنسانا وحل بيننا (يو ١٤:١) وصار رسولنا ورئيس كهنتنا وحررنا من ثقل لسان الناموس، ونقلنا إلى صوت التعاليم الإنجيلية الحلو، وليس هذا فقط ولكن بينما كنا مأسورين حررنا منتصراً على رئيس هذا العالم وأنقذ الأموات من أحضان الهاوية. وبما إنه أسس الكنيسة وعين رئيساً لنا فقد عبر بنا، بالإيمان به، من الأرض، وإذ أعطانا الختان الروحي فقد أدخلنا إلى ملكوت السموات". جيلافيرا، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد ، الكتاب الشهري، عدد سبتمبر ٢٠٠٤.

بما أننا كلنا نحيا ونتحرك ونوجد في الله، فكيف لا يكون الابن الذي هو حياة الكل، إلهاً؟ لأنه، إذا كانت القوة التي تعطي الحياة لا توجد إلاَّ فقط في الله بحسب الطبيعة، بينما لم يُسمَّ أيُ أحدٍ من المخلوقات بأنه هو الحياة الحقيقية بحسب الجوهر، بل بالحري، كلٌ منها مشاركٌ لحياة ذاك الذي يمنحها الحياة، وبما أن المسيح لا يوجد فيه شيءٌ من الكذب؛ "لأنه هو الحق" (يو ١٤: ٦)، إذن، فهو الحياة بحسب الطبيعة، وبالتالي هو أيضاً الله.

٦٢- شاهدٌ آخر

"لاَ تَكْذِبُوا بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، إِذْ خَلَعْتُمُ الإِنْسَانَ الْعَتِيقَ مَعَ أَعْمَالِهِ، وَلَبِسْتُمُ الْجَدِيدَ الَّذِي يَتَجَدَّدُ لِلْمَعْرِفَةِ حَسَبَ صُورَةِ خَالِقِهِ" (كو ٣: ٩ - ١٠).

بإيماننا بالمسيح نأخذ شكله. هذا بالتأكيد ما يُعلمنا به بولس، قائلا: "يَا أَوْلاَدِي الَّذِينَ أَتَمَخَّضُ بِكُمْ أَيْضاً إلى أَنْ يَتَصَوَّرَ الْمَسِيحُ فِيكُمْ" (غلا ٤: ١٩)، وأيضاً: "وَكَمَا لَبِسْنَا صُورَةَ التُّرَابِيِّ، سَنَلْبَسُ أَيْضاً صُورَةَ السَّمَاوِيِّ" (١كو ١٥: ٤٩).

إذن طالما، ونحن آخذين - بالإيمان بالمسيح - صورته، نعكس صورة الخالق في داخلنا، أي الإنسان الذي خلقه الله وفق صورته، كما هو مكتوب "فخلق الله الإنسان على صورته" (تك ١: ٢٧)، بالتالي المسيح هو الله، وبالحري هو صانعٌ وليس مصنوعاً، خالقٌ وليس مخلوقاً.

ثامناً:

من الرسالة الأولى إلى أهل تسالونيكي

٦٣- "لأَنَّهُ مِنْ قِبَلِكُمْ قَدْ أُذِيعَتْ كَلِمَةُ الرَّبِّ، لَيْسَ فِي مَكِدُونِيَّةَ وَأَخَائِيَةَ فَقَطْ، بَلْ فِي كُلِّ مَكَانٍ أَيْضاً قَدْ ذَاعَ إِيمَانُكُمْ بِاللهِ" (١ تس ١: ٨).

بما أن هؤلاء الذين آمنوا بالمسيح، لم يؤمنوا بأي أحد آخر من الكائنات، لكن بالله ذاته، كيف لا يكون المسيح هو الله؟ ولأن هذا حقيقي، فهو ليس مخلوقاً.

٦٤- شاهدٌ آخر

كأنه يتحدث لأشخاص، يقول: "لأَنَّهُمْ هُمْ يُخْبِرُونَ عَنَّا، أَيُّ دُخُول كَانَ لَنَا إِلَيْكُمْ، وَكَيْفَ رَجَعْتُمْ إلى اللهِ مِنَ الأَوْثَانِ، لِتَعْبُدُوا اللهَ الْحَيَّ الْحَقِيقِيَّ" (١ تس ٩:١).

إذا كان الأمم وهم يؤمنون بالمسيح، قد تجنبوا الضلال القديم ورجعوا إلى الله، وبخضوعهم للمسيح بحفظ التعاليم الإنجيلية، يكونون قد خضعوا لله الحقيقي، فكيف لا يكون الابن إلهاً بحسب الطبيعة؟ ولأن ذلك صحيحٌ وحقيقي، وهو الإله بحسب الطبيعة، فكيف يكون مخلوقاً؟

٦٥- شاهدٌ آخر

"لأَنَّكُمْ أَنْتُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ تَعْلَمُونَ دُخُولَنَا إِلَيْكُمْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَاطِلاً، بَلْ بَعْدَ مَا تَأَلَّمْنَا قَبْلاً وَبُغِيَ عَلَيْنَا كَمَا تَعْلَمُونَ، فِي فِيلِبِّي، جَاهَرْنَا فِي إِلهِنَا أَنْ نُكَلِّمَكُمْ بِإِنْجِيلِ اللهِ، فِي جِهَادٍ كَثِيرٍ" (١ تس ٢: ١ - ٢).

ها هو أيضاً يدعو المسيح، بكل وضوح، الله؛ لأن الإنجيل هو بشارة المسيح المفرحة.

٦٦- شاهدٌ آخر شبيه بالسابق

"هكَذَا إذْ كُنَّا حَانِينَ إلَيْكُمْ، كُنَّا نَرْضَى أَنْ نُعْطِيَكُمْ، لاَ إنْجيلَ اللهِ فَقَطْ، بَلْ أَنْفُسَنَا أَيْضاً، لأَنَّكُمْ صِرْتُمْ مَحْبُوبِينَ إلَيْنَا" (١ تس ٢: ٨)، ويضيف مباشرة بعد ذلك: "فَإنَّكُمْ تَذْكُرُونَ أَيُّهَا الإخْوَةُ تَعَبَنَا وَكَدَّنَا، إذْ كُنَّا نَكْرِزُ لَكُمْ بِإنْجِيلِ اللهِ، وَنَحْنُ عَامِلُونَ لَيْلاً وَنَهَاراً كَيْ لاَ نُثَقِّلَ عَلَى أَحَدٍ مِنْكُمْ" (١ تس ٢: ٩).

٦٧- شاهدٌ آخر

"مِنْ أَجْلِ ذلِكَ نَحْنُ أَيْضاً نَشْكُرُ اللهَ بِلاَ انْقِطَاعٍ، لأَنَّكُمْ إذْ تَسَلَّمْتُمْ مِنَّا كَلِمَةَ خَبَرٍ مِنَ اللهِ، قَبِلْتُمُوهَا لاَ كَكَلِمَةِ أُنَاسٍ، بَلْ كَمَا هِيَ بِالْحَقِيقَةِ كَكَلِمَةِ اللهِ، الَّتِي تَعْمَلُ أَيْضاً فِيكُمْ أَنْتُمُ الْمُؤْمِنِينَ" (١ تس ٢: ١٣).

فإذا كان موضوع حديث الرسل الطوباويين هو الإيمان بالمسيح، وفق هذا الذي يقوله بولس: "لأَنِّي لَمْ أَعْزِمْ أَنْ أَعْرِفَ شَيْئاً بَيْنَكُمْ إلاَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ وَإيَّاهُ مَصْلُوباً" (١ كو ٢: ٢)، ويسمون كلام الله بأنه الكرازة بالمسيح، فمَنْ هو إذن الوقح الذي يتطاول ويقول عن الابن، الذي باللسان الرسولي دُعيَ إلهاً، إنه مخلوق ويجدِّف معترضاً على أقوال أولئك القديسين الذين يتحدثون بإلهام الروح.

تاسعاً:

من الرسالة الثانية إلى أهل تسالونيكي

٦٨- "أمِينٌ هُوَ الرَّبُّ الَّذِي سَيُثَبِّتُكُمْ وَيَحْفَظُكُمْ مِنَ الشِّرِّيرِ" (٢ تس ٣: ٣).

والمخلِّصُ أمينٌ؛ لأنه يجعل الذين يأتون إليه مؤمنين، مثبِّتاً إياهم بالإيمان. إذن، فهو بحسب الطبيعة إلهٌ؛ لأنه يجعل أولئك الذين يؤمنون به ويضعون رجاءهم فيه آلهةً. فما يميِّز الأمين، هو أن يكون أميناً في الذي يعمله، وما يميِّز الله أنه يؤلِّه[١]، مثلما بالتأكيد عمل النور هو أن ينير.

(١) باليونانية τό θεοποιεῖν وجاءت في صيغة المصدر بمعنى أن يؤلِّه. وهذا لا يمكن أن يعني – كما قلنا – تحويل الإنسان إلى إله، حاشا، بل يعني نوال نعمة أن يصير الإنسان من ضمن الذين قال عنهم القديس بطرس شركاء الطبيعة الإلهية (٢ بط ١: ٤).

عاشراً:

من الرسالة إلى العبرانيين

٦٩– "اَللهُ، بَعْدَ مَا كَلَّمَ الآبَاءَ بالأَنْبيَاءِ قَدِيماً، بِأَنْوَاعٍ وَطُرُق كَثِيرَةٍ، كَلَّمَنَا فِي هذِهِ الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ فِي ابْنِهِ، الَّذِي جَعَلَهُ وَارِثاً لِكُلِّ شَيْءٍ، الَّذِي بِهِ أَيْضاً عَمِلَ الْعَالَمِينَ" (عب ١: ١ – ٢).

يُظهر الرسول بولس أن التعليم الإنجيلي هو أعظم، وأن العظمة تنشأ من اختلاف الأشخاص. هكذا بحسب الأزمنة القديمة، كُرز بالكلمة إلى الآباء بواسطة الأنبياء، بينما بحسب الأزمنة الأخيرة، بواسطة الابن تمت الكرازة بالكلمة. الابنُ أعظم من أولئك، لأن أولئك لم يتخطوا قياس قامة العبيد، إذ كانوا ينادون قائلين: "هذا ما يقوله الرب"، بينما الابن، إذ هو الرب، فإنه يقول: "قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لاَ تَزْنِ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ.... " (مت ٥: ٢٧).

كيف إذن يُحسب مَنْ هو الإله بحسب الطبيعة ضمن المخلوقات؟ أو كيف يُصنَّفُ مَنْ هو سيد الكل ضمن العبيد؟ ولكن بما أنه وارثٌ للجميع، فهو مختلف عن الكل، ووارثٌ لكل شيء. ولأن العالم صُنِعَ بواسطته؛ لأن أياً من المخلوقات لم يَصِر قبل الدهور، بل صار في الزمن، لذلك، فالابن فقط هو الكائن أزلياً مع الآب.

٧٠– شاهدٌ آخر

"لأَنَّهُ إِنْ كَانَتِ الْكَلِمَةُ الَّتِي تَكَلَّمَ بِهَا مَلاَئِكَةٌ قَدْ صَارَتْ ثَابِتَةً، وَكُلُّ تَعَدٍّ وَمَعْصِيَةٍ نَالَ مُجَازَاةً عَادِلَةً، فَكَيْفَ نَنْجُو نَحْنُ إِنْ أَهْمَلْنَا خَلاَصاً هذَا مِقْدَارُهُ؟ قَدِ ابْتَدَأَ الرَّبُّ بِالتَّكَلُّمِ بِهِ، ثُمَّ تَثَبَّتَ لَنَا مِنَ الَّذِينَ سَمِعُوا" (عب ٢: ٢ – ٣).

هنا، وانطلاقاً من اختلاف الأشخاص[1]، نجد أنه يبرهن بوضوح كيف تتفوق كثيراً التعاليم الإنجيلية على ظلال الناموس؛ لأنه إذا كانت الأقوال التي كُرِز بها بواسطة ملائكة توجد فيها مصداقية وثبات، حتى أن أولئك الذين يخالفون هذه الأقوال يُلقَوا في الجحيم المخيف، أفلا يستحق عقاباً أكثر، ذاك الذي يخالف التعاليم التي كرز بها الابن، وذلك على قدر تفوُّق مكانة الابن عن مكانة الملائكة؟

فإذا وضعنا في اعتبارنا مدى اختلاف الواحد عن الآخر، نجد أن الملائكة وهى أرواح خادمة مرسلة للخدمة، يسبِّحونه وهم واقفون أمامه، أما هو فيُسبَّح له مع الآب، لأنه الجليس معه، يملك معه، ويُخدَمُ من الملائكة وفق القول الإنجيلي: "وَإِذَا مَلاَئِكَةٌ قَدْ جَاءَتْ فَصَارَتْ تَخْدِمُهُ" (مت ٤: ١١). فكيف إذن لهذا الذي يتفوق كثيراً، كوحيد الجنس، أن يوجد مع هؤلاء ذوي المستوى الأدنى؟ وكيف لمن يجلس مع الآب، أن يُحسب

---

(1) يقصد أن هناك فرقاً شاسعاً بين موسى الخادم، الذي تسلم الوصايا من الله بواسطة الملائكة، وبين المسيح الرب والمشرع والفادي والمحرر، وهذا ما يؤكده القديس كيرلس في شرحه لنص يو ١:١٧ قائلاً: "رئيس الأنبياء موسى نفسه يَقِلّ عن الربِّ في المجد. وعلى كل مَنْ يريد أن يتعلّم أن يدرس النعمة الإنجيلّية التي وُهِبَتْ لنا بواسطة المخلّص ويقارنها بنعمة الناموس التي أعطيت بواسطة موسى، فسوف يرى أن الابن أسمى بكثير، لأنه هو واضع الناموس الذي يهب خيرات أفضل من الناموس الموسوي. ولذلك يقول الإنجيلي "النَّامُوسَ بِمُوسَى أُعْطِيَ أَمَّا النِّعْمَةُ وَالْحَقُّ فَبِيَسُوعَ الْمَسِيحِ صَارَا". وما هو الفرق بين الناموس والنعمة التي صارت بواسطة المخلّص؟... لقد أدان الناموس الخليقة، لأنه بالناموس أغلق الله على الكلّ تحت الخطية (غلا ٣:٢٢) وأظهر أننا تحت العقاب، أما المخلّص فقد أعطى الحرِّية للإنسان "لأنه لَمْ آتِ لأَدِينَ الْعَالَمَ بَلْ لأُخَلِّصَ الْعَالَمَ" (انظر يو ١٢:٤٧). ومع أن الناموس أعطي نعمة معرفة الله للإنسان وجذبه من عبادة الأصنام التي أضلّت الإنسان، وبالإضافة إلى ذلك أشار إلى الشرِّ وعلّم الخير، وإن كان بطريقة غير كاملة، لكنه كان كمعلّم نافع، أما النعمة والحق اللذان بالابن الوحيد، الذي لم يقدّم لنا الخيرات في رموز، ولا رسم الأمور النافعة في ظلال، بل بوصايا مجيدة ونقيّة، يقودنا بيده، لكي ننال معرفة كاملة للإيمان. كان الناموس يعطي "رُوحَ الْعُبُودِيَّةِ أَيْضاً لِلْخَوْفِ" أما المسيح فقد أعطي "رُوحَ التَّبَنِّي" للحرية (رو ٨:١٥). كان الناموس يختن اللحم وهو لا شيء (لان ختان اللحم ليس شيئاً) كما يقول بولس (١ كور ٧:١٩)، أما ربنا يسوع المسيح فهو مانح "خِتَانُ الْقَلْبِ بِالرُّوحِ" (رو ٢:٢٩). الناموس يغسل الذي تدنّس بمياه، أما المخلّص فهو يعمّد بالروح القدس ونار (مت ٢:١١)، الناموس يأتي بخيمة كرمز للأشياء الحقيقية، أما المخلّص فيدخل إلى السماء نفسها (عب ٩:٢٤)، ويقدّمنا إلى المسكن الحقيقي الذي نصبه الربُّ لا إنسان (عب ٨:٢).وليس صعباً أن نضع فروقاً أخرى أكثر مما ذكرناه، ولكن علينا أن نقبل الحدود التي نتحرّك فيها". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ١٤٠ - ١٤١.

مع أولئك الذين يقفون أمامه، ومَنْ يُخدَم يُحسب مع الخدام، ومَنْ له المُلك كيف يُحسب مع أولئك العبيد؟

٧١- شاهدٌ آخر

ينسب بولس الطوباوي للمسيح ما قيل في المزمور التاسع: "لكِنْ شَهِدَ وَاحِدٌ فِي مَوْضِعٍ قَائِلاً: «مَا هُوَ الإِنْسَانُ حَتَّى تَذْكُرَهُ؟ أَوِ ابْنُ الإِنْسَانِ حَتَّى تَفْتَقِدَهُ؟ وَضَعْتَهُ قَلِيلاً عَنِ الْمَلاَئِكَةِ. بِمَجْدٍ وَكَرَامَةٍ كَلَّلْتَهُ، وَأَقَمْتَهُ عَلَى أَعْمَالِ يَدَيْكَ. أَخْضَعْتَ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ». لأَنَّهُ إِذْ أَخْضَعَ الْكُلَّ لَهُ لَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً غَيْرَ خَاضِعٍ لَهُ. عَلَى أَنَّنَا الآنَ لَسْنَا نَرَى الْكُلَّ بَعْدُ مُخْضَعاً لَهُ" (عب ٢: ٦ – ٨).

ألسنا بذلك نعترف - إذن – بأن مَن يخضع له الكل هو ملكٌ وربٌ، وأنه مُحاطٌ بمجدٍ لائق بالله، هذا الذي يخضع له الكل؟ كيف إذن ليس هو الله؟ وكيف يُحسب ضمن المخلوقات، هذا الذي هو فوق الكل؟ لأنه أعظم بحسب الطبيعة من المخلوقات، إذ أنها خاضعة ومستعبدة تحت نير العبودية، بينما هو له كل الملك والمجد، وكل شيء تحت قدميه، كما قال هو نفسه بواسطة أحد الأنبياء: "السَّمَاوَاتُ كُرْسِيِّي، وَالأَرْضُ مَوْطِئُ قَدَمَيَّ" (أش ٦٦: ١).

٧٢- شاهدٌ آخر

"مِنْ ثَمَّ أَيُّهَا الإِخْوَةُ الْقِدِّيسُونَ، شُرَكَاءُ الدَّعْوَةِ السَّمَاوِيَّةِ، لاَحِظُوا رَسُولَ اعْتِرَافِنَا وَرَئِيسَ كَهَنَتِهِ الْمَسِيحَ يَسُوعَ، حَالَ كَوْنِهِ أَمِيناً لِلَّذِي أَقَامَهُ، كَمَا كَانَ مُوسَى أَيْضاً فِي كُلِّ بَيْتِهِ. فَإِنَّ هذَا قَدْ حُسِبَ أَهْلاً لِمَجْدٍ أَكْثَرَ مِنْ مُوسَى، بِمِقْدَارِ مَا لِبَانِي الْبَيْتِ مِنْ كَرَامَةٍ أَكْثَرَ مِنَ الْبَيْتِ. لأَنَّ كُلَّ بَيْتٍ يَبْنِيهِ إِنْسَانٌ مَا، وَلكِنَّ بَانِيَ الْكُلِّ هُوَ اللهُ. وَمُوسَى كَانَ أَمِيناً فِي كُلِّ بَيْتِهِ كَخَادِمٍ، شَهَادَةً لِلْعَتِيدِ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِهِ" (عب ٣: ١ – ٥).

الرسول يعلّمنا أنه لا يجب أن يُكرَّم مَن خُلِقَ بذات الطريقة، مع ذاك الذي خلقه، وعلى ذلك يكون واضحاً من كل وجه، أنه لا يُسمح أن يُحسب الابن ضمن المخلوقات؛ لأنه يقول: "بِمِقْدَارِ مَا لِبَانِي الْبَيْتِ مِنْ كَرَامَةٍ أَكْثَرَ مِنَ الْبَيْتِ". ومَنْ هو ذاك الذي بنى الكون، هذا يقوله الرسول هو نفسه عن الابن: "فَإِنَّهُ فِيهِ خُلِقَ الْكُلُّ: مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا

عَلَى الأَرْضِ، مَا يُرَى وَمَا لاَ يُرَى، سَوَاءٌ كَانَ عُرُوشاً أَمْ سِيَادَاتٍ أَمْ رِيَاسَاتٍ أَمْ سَلاَطِينَ. الْكُلُّ بِهِ وَلَهُ قَدْ خُلِقَ" (كو ١: ١٦). فكيف إذن يُحسب الخالق مع المخلوقات؟ وبما أن الزمن نفسه يُعد واحداً من "الكل"، بينما الابن هو قبل "الكل"، فمن الواضح أن الابنَ أعظمُ من الزمن. لأنه يقول: "الَّذِي بِهِ أَيْضاً عَمِلَ الْعَالَمِينَ" (عب ١: ٢)، فكيف يُحسب مع المخلوقات التي صارت في الزمن، هذا الذي هو كائنٌ قبل الدهور؟ لأن كل ما خُلق - بحسب سفر التكوين - كانت بداية وجوده في الزمن، أمّا الطبيعة الإلهية غير الدنسة، فهي كائنة خارج حدود الزمن، وهذا أحد خصائصها.

٧٣- شاهدٌ آخر

"وَمُوسَى كَانَ أَمِيناً فِي كُلِّ بَيْتِهِ كَخَادِمٍ، شَهَادَةً لِلْعَتِيدِ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِهِ. وَأَمَّا الْمَسِيحُ فَكَابْنٍ عَلَى بَيْتِهِ. وَبَيْتُهُ نَحْنُ إِنْ تَمَسَّكْنَا بِثِقَةِ الرَّجَاءِ وَافْتِخَارِهِ ثَابِتَةً إِلى النِّهَايَةِ" (عب ٣: ٥ - ٦).

إن بولس الرسول يستخدم الأسماء ويعقد مقارنة كالتالي: فهو يُظهر الاختلاف الجوهري بين كل من المسيح وموسى، بل والاختلاف بين المسيح وكل المخلوقات الأخرى. فإذا كان أحدهما خادماً، والآخر ابناً، وإذا كان أحدهما أميناً كخادم في بيت الله، والآخر وارثاً، ليس لبيت يملكه غيره، بل لبيته هو ذاته، فكيف إذن ينتمي المسيح لجنسٍ معيَّنٍ في الوقت الذي يختلف فيه عن هذا الجنس؟ ومن لا يتشابه مع موسى في جنسه، باعتباره خالق الطبيعة، ولا يتماثل معه في العبودية، لا يمكن أن يصنَّف مع آخر من جهة الطبيعة. لأن المقارنة التي يعقدها هنا تجري - على وجه العموم - مع المخلوقات كافة، وليس مع موسى، حتى وإن كان يستخدم شخص موسى كواحدٍ منها.

٧٤- شاهد آخر يشرح نفس المعنى

إذا كان كل شيء يأتي للوجود يكون عبداً لله الذي خلقه، وفق هذا الذي رُنّم في المزامير: "لأَنّ الْكلّ عَبِيدكَ" (مز ١١٩: ٩١)، بينما الأبناء يكونون أحراراً، وفق أقوال المخلص الصادقة، فكيف يمكن أن ينتمي الابن الحر بسبب ولادته غير الموصوفة من الآب، لنفس طبيعة تلك المخلوقات التي تخدم كعبيد؛ لأنها مخلوقة؟

ويذكر القديس بولس إننا: "وَبَيْتُهُ نَحْنُ":

إذا لم يكن الله هو ذاك الذي قال من خلال الأنبياء: "وَأَسِيرُ بَيْنَكُمْ وَأَكُونُ لَكُمْ إِلهاً وَأَنْتُمْ تَكُونُونَ لِي شَعْباً" (لاو ٢٦: ١٢)، (٢ كو ٦: ١٦): "فَإِنَّكُمْ أَنْتُمْ هَيْكَلُ اللهِ الْحَيِّ، كَمَا قَالَ اللهُ:«إِنِّي سَأَسْكُنُ فِيهِمْ وَأَسِيرُ بَيْنَهُمْ، وَأَكُونُ لَهُمْ إِلهاً، وَهُمْ يَكُونُونَ لِي شَعْباً". فكيف نكون نحن الآن بيت الابن، إذا لم يكن هو الله بحسب الطبيعة؟

يقول بولس أيضاً: "لذلك أطلب..... أَنْ تَتَأَيَّدُوا بِالْقُوَّةِ بِرُوحِهِ فِي الإِنْسَانِ الْبَاطِنِ، لِيَحِلَّ الْمَسِيحُ بِالإِيمَانِ فِي قُلُوبِكُمْ" (أفسس ٣: ١٦ - ١٧). بالتالي المسيح هو الله، وبما أنه هكذا، إذن فهو ليس مخلوقاً.

٧٥- شاهدٌ آخر

"أُنْظُرُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنْ لاَ يَكُونَ فِي أَحَدِكُمْ قَلْبٌ شِرِّيرٌ بِعَدَمِ إِيمَانٍ فِي الارْتِدَادِ عَنِ اللهِ الْحَيِّ" (عب ٣: ١٢).

إذن، فالإيمان هو بالمسيح، وبفضلة تُوزَّع المكافآت على القديسين، وفيه تُمنح الحياة الأبدية. هذا يُعلمنا إياه هو نفسه، إذ يقول: "اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مَنْ يُؤْمِنُ بِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ" (يو ٦: ٤٧).

فإذا كان مَن يرفض الإيمان به، يكتسب لنفسه قلباً شريراً مبتعداً، عن الله الحي، فكيف لا يكون الابن إلهاً بحسب الطبيعة؟ وكيف يكون مخلوقاً أو مصنوعاً حقا هذا الابن الذي يمتلك كل خواص مَن ولَدَه؟ لأن الآب هو الإله الحي، والابن أيضاً هو الإله الحي.

٧٦- شاهدٌ آخر

"لأَنَّ كَلِمَةَ اللهِ حَيَّةٌ وَفَعَّالَةٌ وَأَمْضَى مِنْ كُلِّ سَيْفٍ ذِي حَدَّيْنِ، وَخَارِقَةٌ إِلَى مَفْرَقِ النَّفْسِ وَالرُّوحِ وَالْمَفَاصِلِ وَالْمِخَاخِ، وَمُمَيِّزَةٌ أَفْكَارَ الْقَلْبِ وَنِيَّاتِهِ. وَلَيْسَتْ خَلِيقَةٌ غَيْرَ ظَاهِرَةٍ قُدَّامَهُ، بَلْ كُلُّ شَيْءٍ عُرْيَانٌ وَمَكْشُوفٌ لِعَيْنَيْ ذلِكَ الَّذِي مَعَهُ أَمْرُنَا" (عب ٤: ١٢ - ١٣).

نستطيع هنا أيضاً أن نرى كيف أن الابن له كل خواص الآب، وأنه مُزيَّنٌ بمثل هذا الصلاح. وذلك مثل تلك الخواص التي ظهرت، ويملكها ذاك الذي ولَدَه. أي مثلما

يرى الله الآب الكل بلا أي عائق، والكل ظاهر أمامه[1]، وأيضاً يعرف القلوب والكُلى (مز ٧: ١٠)، ولهذا يقول: "فَمَنْ ذَا الَّذِي يُخْفِي الْقَضَاءَ بِلاَ مَعْرِفَةٍ؟" (أيوب ٤٢: ٣)، وأيضاً يقول: "أَلَعَلِّي إِلهٌ مِنْ قَرِيب، يَقُولُ الرَّبُّ، وَلَسْتُ إِلهاً مِنْ بَعِيدٍ، إِذَا اخْتَبَأَ إِنْسَانٌ فِي أَمَاكِنَ مُسْتَتِرَةٍ أَفَمَا أَرَاهُ أَنَا، يَقُولُ الرَّبُّ؟" (أرميا ٢٣: ٢٣ - ٢٤).

هنا بولس يؤكد بكل ما يقوله أن كل تلك الخواص توجد أيضاً في الابن. فمثلما يحيي الآب؛ لأنه هو الحياة، هكذا يدعو **الكلمة**: المحيي؛ لأن هذا أيضاً هو الحياة بحسب الطبيعة. فإذا كان كل ما يوجد - بحق - في الآب بحسب الطبيعة، يوجد أيضاً في الابن بحسب الطبيعة والجوهر، فمَنْ يدعوه مخلوقاً، ألا يُعد مذنباً بجرائم التجديف التي لا تطاق؟ وكيف لا تكون للابن نفس الخواص الطبيعية التي للآب بحسب الطبيعة، إذ له نفس طبيعة الآب وجوهره؟

([1]) نفس البرهان يؤكده القديس كيرلس وهو يشرح معنى المنارة الذهبية، فيؤكد أن الابن يرى كل شيء وبالتالي هو الله ويستخدم الآية الواردة في (عب ٤: ١٢- ١٣) إذ يقول في كتابه العبادة بالروح والحق: [ويشير زكريا النبي إلى هذه المنارة المقدسة أيضاً؛ لأنه يقول: "قد نظرت وإذا بمنارة كلها ذهب وكوزها على رأسها وسبعة سُرج عليها وسبع أنابيب للسرج التي على رأسها. وعندها زيتونتان أحداهما عن يمين الكوز والأخرى عن يساره. فأجبت وقلت للملاك الذي كلمني قائلا ما هذه يا سيدي؟ فأجاب الملاك الذي كلمني وقال لي أما تعلم ما هذه فقلت لا يا سيدي" (زك ٤: ١ - ٥). حسنا يتساءل النبي الطوباوي: "ما هذه يا سيدي؟" والملاك يشرح الرؤية ويشير - بصناعة المنارة - إلى المسيح قائلاً عن السبع منارات: "إنما هي أعين الرب الجائلة في الأرض كلها" (زك ٤: ١١).وإن كان يجب أن أقول - بشكلٍ مادي - ما هو أكثر: فإن الإلوهية ترانا بآلاف الأعين، وتُشرف على الأمور البشرية مميزةً كل ما هو موجود في الظلام وفق ذاك الذي كُتب عنه "وعنده يسكن النور" (دا ٢: ٢٢). لأنه إذ أرسل الله لنا نوره نحن البشر، فإن هذا كائن في طبيعته قبل أن يعطيه الآخرين. فإذا كان البعض يرون أن الأمر ليس هكذا، فقد حان الوقت أن نصرخ نحوهم قائلين: "افهموا أيها البلداء في الشعب، ويا جهلاء متى تعقلون؟ الغارس الأذن ألا يسمع؟ الصانع العين ألا يبصر؟" (مز ٩٤: ٨ - ٩). "لأن كلمة الله حية وفعالة وأمضى من كل سيف ذي حدين ومميز أفكار القلب ونياته. وليس خليقة غير ظاهرة قدامه، بل كل شيء عريان ومكشوف لعيني ذلك الذي معه أمرنا" (عب ٤: ١٢ - ١٣).إذن فالمسيح ينير كل شيء، ويرى كل شيء. لذلك قال بفم النبي: "ألعلي إله من قريب يقول الرب ولست إلهاً من بعيد. إذا اختبأ إنسان في أماكن مستترة أفما أراه أنا يقول الرب" (إر ٢٣: ٢٣ - ٢٤)]. السجود والعبادة بالروح والحق، المرجع السابق، الجزء الخامس، المقالة التاسعة ص ٧٥ - ٧٦.

٧٧- شاهدٌ آخر

"وَلكِنْ لاَ تَنْسَوْا فِعْلَ الْخَيْرِ وَالتَّوْزِيعَ، لأَنَّهُ بِذَبَائِحَ مِثْلِ هذِهِ يُسَرُّ اللهُ" (عب ١٣: ١٦).

لاحظ أن بولس يدعو هنا أيضاً الابن إلهاً. لأنه إذا كان هو مَن سيقود كل الخليقة إلى الدينونة، وسيجازي كل واحد بحسب أعماله (رو ٢: ٦)، فهو - لذلك بالضبط - يقرِّب منه تماماً أولئك الذين يعملون الأعمال الحسنة ويقول لهم: "تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي، رِثُوا الْمَلَكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ؛ لأَنِّي جُعْتُ فَأَطْعَمْتُمُونِي. عَطِشْتُ فَسَقَيْتُمُونِي. كُنْتُ غَرِيباً فَآوَيْتُمُونِي" (مت ٢٥: ٣٤ - ٣٥)، فكيف لا يكون هو الله، ذلك الذي يُدعى هكذا بلسان القديسين الصادق، ويقبل ذبائح هؤلاء الذين يصنعون إحسانات، ويجازي كل واحد المجازاة اللائقة به، ويُدخِل طغمة القديسين إلى ملكوت السموات؟

حادي عشر:

من الرسالة الأولى إلى تيموثاؤس

٧٨- "بُولُسُ، رَسُولُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ، بِحَسَبِ أَمْرِ اللهِ مُخَلِّصِنَا، وَرَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، رَجَائِنَا. إِلَى تِيمُوثَاوُسَ، الابْنِ الصَّرِيحِ فِي الإِيمَانِ: نِعْمَةٌ وَرَحْمَةٌ وَسَلاَمٌ مِنَ اللهِ أَبِينَا وَالْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا" (١تيمو ١: ١ - ٢).

ها هو بولس يقول إنه قد قَبِلَ الخدمة الرسولية بوصية مخلصنا الله. لكن دعنا نرى ونحن نفحص الموضوع من أقوال الكتاب المقدس، هل المسيح هو الذي أعطاه هذه الوصية؟ حسناً. عندما ذهب بولس - كما هو مكتوب - مسرعاً من أورشليم إلى دمشق لكي يقبض على التلاميذ، وبينما كان في وسط الطريق ظهر له المسيح قائلاً: "شَاوُلُ، شَاوُلُ! لِمَاذَا تَضْطَهِدُنِي؟"، وبولس سأله وقال: "مَنْ أَنْتَ يَا سَيِّدُ؟» فَقَالَ الرَّبُّ:«أَنَا يَسُوعُ الَّذِي أَنْتَ تَضْطَهِدُهُ.... قُمْ وَادْخُلِ الْمَدِينَةَ فَيُقَالَ لَكَ مَاذَا يَنْبَغِي أَنْ تَفْعَلَ" (أع ٩: ١ - ٧). كذلك أيضاً ما قاله الروح ونجده في أعمال الرسل: "وَبَيْنَمَا هُمْ يَخْدِمُونَ الرَّبَّ وَيَصُومُونَ، قَالَ الرُّوحُ الْقُدُسُ: «أَفْرِزُوا لِي بَرْنَابَا وَشَاوُلَ لِلْعَمَلِ الَّذِي دَعَوْتُهُمَا إِلَيْهِ" (أع ١٣: ٢). ثم أيضاً مكتوب عنهما: "فَهذَانِ إِذْ أُرْسِلاَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ انْحَدَرَا إِلَى سَلُوكِيَةَ، وَمِنْ هُنَاكَ سَافَرَا فِي الْبَحْرِ إِلَى قُبْرُسَ. وَلَمَّا صَارَا فِي سَلاَمِيسَ نَادَيَا بِكَلِمَةِ اللهِ فِي مَجَامِعِ الْيَهُودِ. وَكَانَ مَعَهُمَا يُوحَنَّا خَادِماً" (أع ١٣: ٤ - ٥).

أرأيت أنه بوصية مخلِّصنا، بواسطة الروح القدس، أُرسل ليكرز؟ ولهذا فهو يدعوه أيضاً إلهنا ومخلِّصنا ورجاؤنا، إذن كيف لا يكون تجديفاً عظيماً أن نقول إن الابن مخلوقٌ؟ لأنه، إن كان الابن هكذا، فسوف نجد أنفسنا نعبد المخلوق، ونخلص بواسطة مخلوق، ونسند رجاؤنا على المخلوق، عندئذٍ لن يكون لدينا شيءٌ يميِّزُنا عن أولئك الذين يعبدون الخليقة.

٧٩- شاهدٌ آخر

"عَالِماً هذَا: أَنّ النَّامُوسَ لَمْ يُوضَعْ لِلْبَارِّ، بَلْ لِلأَثَمَةِ وَالْمُتَمَرِّدِينَ" (١تيمو ١: ٩). وإذ يضيف أيضاً على هؤلاء أناساً أشراراً آخرين، يختم قائلا: "وَإِنْ كَانَ شَيْءٌ آخَرُ يُقَاوِمُ التَّعْلِيمَ الصَّحِيحَ، حَسَبَ إِنْجِيلِ مَجْدِ اللهِ الْمُبَارَكِ الَّذِي اؤْتُمِنْتُ أَنَا عَلَيْهِ" (١ تيمو ١: ٩ - ١٠)، فإنه يريد أن يحذر من أولئك الذين ينكرون الابن.

لَمنْ الإنجيل الذي اؤتُمن عليه بولس؟ ولِمَنْ ينتمي الواعظ والرسول إلاَّ لمخلصنا يسوع المسيح الذي يدعوه الله، ولهذا لم يسمح للبعض أن يقولوا عنه إنه مخلوقٌ.

كيف يمكن أن يكون الله هو هذا الذي خُلق ووُجدَ في زمنٍ لاحقٍ؟ لأنه إذا كان كل مؤمن ذا جوهرٍ مخلوق، دُعيَ إلى الوجود من العدم، فكيف لا يكون قد خُلِقَ في زمنٍ معين؟ ومثل هذا لا يكون أبداً إلهاً. لأن الكتاب يقول: "لاَ يَكنْ فِيكَ إِلهٌ غَرِيبٌ" (مز ٨١: ٩). وبما أن الابنَ إلهٌ، إذن فهو لم يأتِ في زمنٍ لاحقٍ للآب وهو ليس غريباً عن الآب. وإذا كان الأمر على هذا النحو، فهو عندئذ ليس مخلوقاً. وهذا هو إيمان بولس الذي اؤتُمن على إنجيل مخلصنا، وهذا هو ما أعلنه هو نفسه قائلا: "وَأَنَا أَشْكُرُ الْمَسِيحَ يَسُوعَ رَبَّنَا الَّذِي قَوَّانِي، أَنَّهُ حَسِبَنِي أَمِيناً، إِذْ جَعَلَنِي لِلْخِدْمَةِ، أَنَا الَّذِي كُنْتُ قَبْلاً مُجَدِّفاً وَمُضْطَهِداً وَمُفْتَرِياً. وَلكِنَّنِي رُحِمْتُ، لأَنِّي فَعَلْتُ بِجَهْلٍ فِي عَدَمِ إِيمَانٍ" (١تيمو ١: ١٢ - ١٣).

٨٠- شاهدٌ آخر

"صَادِقَةٌ هِيَ الْكَلِمَةُ وَمُسْتَحِقَّةٌ كُلَّ قُبُول: أَنَّ الْمَسِيحَ يَسُوعَ جَاءَ إِلَى الْعَالَمِ لِيُخَلِّصَ الْخُطَاةَ الَّذِينَ أَوَّلُهُمْ أَنَا. لكِنَّنِي لِهذَا رُحِمْتُ: لِيُظْهِرَ يَسُوعُ الْمَسِيحُ فِيَّ أَنَا أَوَّلاً كُلَّ أَنَاةٍ، مِثَالاً لِلْعَتِيدِينَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ" (١تيمو ١: ١٥ - ١٦).

فإن كنا بالإيمان بالمسيح قد خَلصْنا وأخذنا مكاناً في الحياة الأبدية، ملقين عن كاهلنا نير الموت، عندئذ كيف لا يكون الابنُ إلهاً بحسب الطبيعة، هذا الذي يمنح الحياة، بكونه هو نفسه الحياةَ بحسب الطبيعة، ويخلّص بكونه إلهاً، وهو الوحيد الذي يمكن أن يفعل هذا، إذ قال: "أَنَا أَنَا الرَّبُّ، وَلَيْسَ غَيْرِي مُخَلِّصٌ....أَنَا صَنَعْتُ الأَرْضَ وَخَلَقْتُ الإِنْسَانَ عَلَيْهَا. يَدَايَ أَنَا نَشَرَتَا السَّمَاوَاتِ، وَكُلَّ جُنْدِهَا أَنَا أَمَرْتُ" (أش ٤٣: ١١، ٤٥: ١٢).

لأنه حقا "لا وسيط ولا ملاك، بل ربنا نفسه خلصنا" (أش ٦٣: ٩ س)، وهو الذي وعد قديماً بواسطة الأنبياء أن يخلّصنا: "أَنَا هُوَ الْمُتَكَلِّمُ. هأَنَذَا مَا أَجْمَلَ عَلَى الْجِبَالِ قَدَمَي الْمُبَشِّرِ، الْمُخْبِرِ بِالسَّلاَمِ، الْمُبَشِّرِ بِالْخَيْرِ، الْمُخْبِرِ بِالْخَلاَصِ، الْقَائِلِ لِصِهْيَوْنَ: قَدْ مَلَكَ إِلهُكِ" (أش ٥٢: ٦ - ٧)، وأثناء حضوره أظهر ذاته، وللتو أتى حقا، وكرز بالسلام لنا نحن الذين كُنا بعيدين، وأيضاً بالسلام لأولئك الذين كانوا قريبين، وفق أقوال بولس: "فجاء وبشركم أنتم البعيدين والقريبين" (أنظر أف ٢: ١٦).

٨١- شاهدٌ آخر

"وَمَلِكُ الدُّهُورِ الَّذِي لاَ يَفْنَى وَلاَ يُرَى، الإِلهُ الْحَكِيمُ وَحْدَهُ، لَهُ الْكَرَامَةُ وَالْمَجْدُ إِلَى دَهْرِ الدُّهُورِ. آمِينَ" (١ تيمو ١: ١٧).

بما أن الابن هو ملك الدهور، لأنه هو الذي يسود دائماً وبدون نهاية، وهو الذي يخلق الدهور، إذن فهو يُدعى إله لا يَفْنَى ولا يُرَى. وعليه، فهذا الذي لديه خواص الآب ذاتها بحسب الطبيعة، كيف يمكن أن يكون مختلفاً عنه في الجوهر، وليس مساوياً له في الجوهر ومولوداً منه، طالما لا يسمح أي منطق بأن توجد خصائص الإلوهية في المخلوقات بحسب الطبيعة؟

والابن هو ملك الدهور، وهذا ما يؤكده لنا رئيس الملائكة غبريال قائلا للعذراء القديسة: "هذَا يَكُونُ عَظِيماً، وَابْنَ الْعَلِيِّ يُدْعَى، وَيُعْطِيهِ الرَّبُّ الإِلهُ كُرْسِيَّ دَاوُدَ أَبِيهِ، وَيَمْلِكُ عَلَى بَيْتِ يَعْقُوبَ إِلَى الأَبَدِ، وَلاَ يَكُونُ لِمُلْكِهِ نِهَايَةٌ" (لو١: ٣٢ - ٣٣).

٨٢- شاهدٌ آخر

يوصي بولس تلميذه بأن يصلى صلوات لأجل الجميع، وللملوك، ويضيف بيقين: "لأَنَّ هذَا حَسَنٌ وَمَقْبُولٌ لَدَى مُخَلِّصِنَا اللهِ، الَّذِي يُرِيدُ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ يَخْلُصُونَ، وَإِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ يُقْبِلُونَ" (١ تيمو ٢: ٣ - ٤).

إذن، فبما أن مخلّص الجميع هو الله، وقد خَلُصنا عندما عرفنا الحق، والحق هو المسيح (أنظر يو ١٤: ٦)، بالتالي هو الإله وهو المخلص. وبما أن الأمر على هذا النحو،

فكيف لا يكون الابن هو الله بحسب الطبيعة؟ وكيف يمكن أن يُحسب الابن بالطبيعة ضمن المخلوقات؟ إن ذلك يُعد تجديفاً، ومن غير المعقول أيضاً. بالتالي الابن ليس مخلوقاً، بل بالحري هو الإله والمخلّص، الآتي من الله الآب.

٨٣- شاهدٌ آخر

"لأَنَّهُ يُوجَدُ إِلهٌ وَاحِدٌ وَوَسِيطٌ وَاحِدٌ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ: الإِنْسَانُ يَسُوعُ الْمَسِيحُ" (١تيمو٥:٢).

إن كان يسوع المسيح هو مجرد وسيط بين الله والناس، دون أن يتلاقى فيه الله والبشر بحسب الطبيعة جوهرياً[١]، واقتصر عمله على مجرد تقويم البشر الذين ابتعدوا عن شركة الله وإصلاحهم، فكيف يقول عنه بولس إنه الوسيط الوحيد؟ لأن هناك كثيرين أيضاً من القديسين استحقوا أن يقدِّموا هذه الخدمة، وحسناً بولس صرخ: "نَطْلُبُ عَنِ الْمَسِيحِ: تَصَالَحُوا مَعَ اللهِ" (٢ كو ٥: ٢٠). كذلك صار موسى الطوباوي وسيطاً خادماً للناموس الذي أُعطي من الله لبني إسرائيل. إرميا الحكيم أيضاً كان وسيطاً قائلا لله نائباً عن بني إسرائيل: "اذْكُرْ وُقُوفِي أَمَامَكَ لأَتَكَلَّمَ عَنْهُمْ بِالْخَيْرِ لأَرُدَّ غَضَبَكَ عَنْهُمْ" (أر ١٨: ٢٠). وبشكل عام، نجد أن كل واحد من الأنبياء القديسين، قد وُجد ليصنع هذا الأمر. إذن كيف يكون المسيح هو الوسيط الوحيد، إن لم يكن مختلفاً عن هؤلاء الآخرين؟

هو واحدٌ حقاً كما قال بولس، لذلك فهو مختلفٌ، وليس شبيهاً بالآخرين أو متماثلاً معهم. لأن هذا الذي هو حقاً بين الاثنين (الله والبشر)، قرَّب أيضاً الاثنين بطرفيه[٢] موحِّداً المتباعدين، ولأن المسيح هو وسيط بين الله والبشر بكونه إنساناً إذ هو واحد مع البشر بحسب طبيعته البشرية؛ فهذا هو سلامنا[٣] الذي بتشبُّهه بنا، أعاد كلاً من الطبيعة

---

(١) يقصد هنا دون أن يكون واحداً مع الآب في الجوهر بحسب إلوهيته، وواحداً في الجوهر مع البشر ببشريته.

(٢) أي بكونه إنساناً وإلهاً في آنٍ واحدٍ.

(٣) يعلن لنا القديس كيرلس بكل وضوح أن المسيح سلامنا من خلال الحديث عن تابوت العهد ومكانة أمام مذبح الذهب، إذ يقول: [وهكذا، أمر أن يُوضع أمام مذبح الذهب، الذي صار نموذجاً للمسيح، وهو الذي يتحدث من فوق الكاروبيم، الأمر الذي يشير إلى أن المسيح سوف يقودنا أمام أعين الله الآب. ولأن الإنسان قد ابتعد واصطدم بالله بسبب المخالفة والخطية الكثيرة، أحضره المسيحُ مرةً أخرى أمام الله كما فعل هو نفسه أولا

الإلهية (اللاهوت) والطبيعة البشرية (الناسوت) إلى الوحدة والشركة؛ لأنه بغير ذلك، كيف كان يمكننا أن نصير مشاركين للطبيعة الإلهية؟

إذن، فبما أنه هو الله بحسب الطبيعة، ومساوياً للآب في الجوهر بحسب طبيعته الإلهية، فكيف يمكن أن يكون مخلوقاً أو مصنوعاً، لأن هذا أمراً غير معقول تماماً من كل الوجوه؟

٨٤- شاهدٌ آخر

"صَادِقَةٌ هِيَ الْكَلِمَةُ وَمُسْتَحِقَّةٌ كُلَّ قُبُول. لأَنَّنَا لِهذَا نَتْعَبُ وَنُعَيَّرُ، لأَنَّنَا قَدْ أَلْقَيْنَا رَجَاءَنَا عَلَى اللهِ الْحَيِّ، الَّذِي هُوَ مُخَلِّصُ جَمِيعِ النَّاسِ، وَلاَ سِيَّمَا الْمُؤْمِنِينَ" (١ تيمو ٤: ٩ - ١٠).

بينما كان المرنم الطوباوي - ملهماً من الروح القدس - يرى تلك الأحداث التي سوف تحدث، ومعلِّماً إيانا نعمة مجيء المخلِّص، نجده قد صرخ بقوة نحوه: "يَا إِلهَ خَلاَصِنَا، يَا متَّكَلَ جَمِيعِ أَقَاصِي الأَرْضِ وَالْبَحْرِ الْبَعِيدَةِ" (مز ٦٥: ٥). إذن، فبما أن المسيح هو رجاؤنا، وهو الذي يعضِّد رجائنا فيه نحن الذين آمنّا، وبولس يدعوه إلهاً حيًّا، عالماً أنه هو الله بحسب الطبيعة، فكيف يمكن أن يكون واحداً من المخلوقات، وليس الابن الحي من الآب الحي، والذي لديه كل خصائص الآب الذي وَلَدَه بحسب الطبيعة؟

٨٥- شاهدٌ آخر

"أُوصِيكَ أَمَامَ اللهِ الَّذِي يُحْيِي الْكُلَّ، وَالْمَسِيحِ يَسُوعَ الَّذِي شَهِدَ لَدَى بِيلاَطُسَ الْبُنْطِيِّ بالاعْتِرَافِ الْحَسَنِ: أَنْ تَحْفَظَ الْوَصِيَّةَ بلاَ دَنَسٍ وَلاَ لَوْمٍ إلى ظُهُورِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي سَيُبَيِّنُهُ فِي أَوْقَاتِهِ الْمُبَارَكُ الْعَزِيزُ الْوَحِيدُ: مَلِكُ الْمُلُوكِ وَرَبُّ الأَرْبَابِ، الَّذِي

بذاته. لأنه كما قال بولس الرسول: " لأن المسيح لم يدخل إلى أقداس مصنوعة بيد أشباه الحقيقية، بل إلى السماء عينها ليظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا" (عب ٩: ٢٤). فالذي هو دائماً مع أبيه، قيل عنه أنه سوف يظهر أمام أبيه مقدماً أمامه ما حصل للطبيعة البشرية من تغيير بحسب ما فعل هو لذاته أولاً، مبطلاً ذلك الابتعاد القديم، "لأنه هو سلامنا" وفقاً الكتب المقدسة (عب ٢: ١٤)]. السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء الخامس، المرجع السابق، المقالة التاسعة ص ٨٦.

وَحْدَهُ لَهُ عَدَمُ الْمَوْتِ، سَاكِناً فِي نُورٍ لاَ يُدْنَى مِنْهُ، الَّذِي لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَاهُ، الَّذِي لَهُ الْكَرَامَةُ وَالْقُدْرَةُ الأَبَدِيَّةُ. آمِينَ" (١ تيمو ٦: ١٣ - ١٦).

إذن، المسيح ذاته سوف يُظهِرُ مجيئه في الوقت المناسب، والآب ذاته سوف يُظهِر هذا المجد. فإذا كنا نقول إن المسيح ذاته هو ذاك الذي سوف يُظهِر مجيئه، فلا يظنن أحدٌ أن مَن سوف يأتي ممجَّداً من رُتبٍ كثيرةٍ، يمكن أن يكون مخلوقاً، وإلاَّ فليس هناك ما يمنع من أن تُنسب إمكانية ذلك لكل واحد من المخلوقات، في حين أن تلك الأمجاد تناسب فقط الطبيعة الإلهية، أمَّا إذا كانت تلك الأمجاد توجد بحسب الطبيعة في المخلوقات، لَكان ذلك يعني أن تلك الأمجاد ليست غريبة عنها. لكن إذا كانت تلك الأمجاد التي هي من خصائص الآب، توجد في المسيح، وله طبيعة الآب ذاتها، فهو بالتالي ليس واحداً من المخلوقات.

وبما أن الآب سوف يُظهِر مجيئه، ينسب بولس الرسول كارز الحق للمسيح كل الخصائص التي تناسب الله. وحيث إن الآب هو فقط غير المائت، إلاَّ أننا نجد أيضاً الابن لديه هذه الخاصية؛ لأنه يقول: "أنا هو الحياة" (يو ١٤: ٦). من الواضح، إذن، أنه ليس غريباً عن جوهر الآب، ولا هو من جوهر غريب عن الله مثل المخلوقات، لكنه هو صورة الآب ومثل الآب الذي ولَدَه بحسب الجوهر، ولأجل هذا فهو ليس مخلوقاً، بل هو الله؛ لأنه أتى من الله، وهو نورٌ من نور[1]، وحياة أيضاً من حياة. بالتالي فهو ليس مخلوقاً أو مصنوعاً وفق ثرثرة البعض.

(1) الله ساكن في نور لا يُدنى منه، يؤكد على هذا القديس كيرلس مع التشديد على أن الابن أيضاً هو نور من نور، وأن الطبيعة الإلهية سامية - كما ورد في قانون الإيمان - إذ يقول في كتابه السجود والعبادة بالروح والحق: "إذا نقلنا إلى اللغة اليونانية مفهوم كلمة "السيرافيم"، فسنجد أنها تعني كلمة "المعرفة" في صيغة الجمع، أي تدفق الحكمة. وبالتالي، فإن القوات السامية وكلية الحكمة تعلن أنه غير مسموح أن يرى أحد وجه الله؛ لأن الطبيعة التي تفوق العقل غير منظورة تماماً، فهو بحسب كلام بولس "يسكن في نور لا يدنى منه" (١ تي ٦:١٦)]. السجود والعبادة بالروح والحق، المرجع السابق، الجزء الخامس، المقالة التاسعة ص ٦٧.

ثاني عشر:

من الرسالة الثانية لتيموثاؤس

٨٦- "فَلاَ تَخْجَلْ بِشَهَادَةِ رَبِّنَا، وَلاَ بِي أَنَا أَسِيرَهُ، بَلِ اشْتَرِكْ فِي احْتِمَالِ الْمَشَقَّاتِ لأَجْلِ الإِنْجِيلِ بِحَسَبِ قُوَّةِ اللهِ، الَّذِي خَلَّصَنَا وَدَعَانَا دَعْوَةً مُقَدَّسَةً" (٢ تيمو ١: ٨ - ٩).

ها هو بكل وضوح يدعو الابن أنه الله والمخلص. لأنه هو الذي دعانا، قائلاً: "تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ" (مت ١١: ٢٨). كيف يكون إذن مخلوق، طالما هو حقا الله والمخلّص؟ لأننا لا نستطيع أن نَخلُص بواسطة مخلوق، لكن فقط بواسطة الله نفسه.

ثالث عشر:

من الرسالة إلى تيطس

٨٧- "لأَنَّهُ قَدْ ظَهَرَتْ نِعْمَةُ اللهِ الْمُخَلِّصَةُ، لِجَمِيعِ النَّاسِ، مُعَلِّمَةً إِيَّانَا أَنْ نُنْكِرَ الْفُجُورَ وَالشَّهَوَاتِ الْعَالَمِيَّةَ، وَنَعِيشَ بِالتَّعَقُّلِ وَالْبِرِّ وَالتَّقْوَى فِي الْعَالَمِ الْحَاضِرِ، مُنْتَظِرِينَ الرَّجَاءَ الْمُبَارَكَ وَظُهُورَ مَجْدِ اللهِ الْعَظِيمِ وَمُخَلِّصِنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ" (تيطس ٢: ١١ - ١٣).

بما أن المسيح هو رجاؤنا، وهو أيضاً الله والمخلص، فكيف لا يكونوا مجدفين ومهوسين هؤلاء الذين يدَّعون إن الابن مخلوقٌ، ويتطاولون ويحسبونه ضمن العبيد، وهو الذي له كل خصائص الطبيعة الإلهية، ولأجل هذا، الكل يعترف حقا بأنه إلهٌ؟

٨٨- شاهدٌ آخر

إذا كان الإنسان الذي يؤمن بالرب - وفق أقوال النبي - هو مبارك، والرب هو رجاؤه (أنظر مز ٤٠: ٥)، فالعكس أيضاً يسري، فالمرء الذي لا رجاء له غير مستند على الله، يوجد خارج أية بركة (مز ٧٨: ٢٢). فإذا كان الابن مصنوعاً ومخلوقاً، فهو عندئذ عبداً وليس رباً بحسب الطبيعة. كيف إذن تكونوا، وفق المرنم: "أَنْتمْ مبَارَكونَ للرَّبّ الصَّانع السَّمَاوَات وَالأَرْض" (مز ١١٥: ١٥)، وكيف يكون بولس صادقاً حين يقول: "مُبَارَكٌ اللهُ أَبُو رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي بَارَكَنَا بِكُلِّ بَرَكَةٍ رُوحِيَّةٍ فِي السَّمَاوِيَّاتِ فِي الْمَسِيحِ"

(أفسس ١: ٣)؟ إذن الابن هو الرب بحسب الطبيعة[1]. وبما أنه هو هكذا، إذن فهو ليس بمخلوق، لأن المخلوقات قيل عنها: "لأَنَّ الْكلّ عَبيدكَ" (مز ١١٩: ٩١).

[1] الابن بكونه إلهاً باركنا بكل بركة روحية، وهذا ما أكد علية القديس كيرلس في كتابه العبادة بالروح والحق، إذ يقول: "إذن، فنحن نتبارك في اسم الله، لكن كيف يمكن لطريقة إعطاء البركة هذه أنْ تكون مناسبة؟ سنتحقق من ذلك بطريقة جميلة، إذ مكتوب أنّ الكاهن الذي يصلي يجب أنْ يضيف قائلاً: "يُبَارِكُكَ الرَّبُّ وَيَحْرُسُكَ. يُضِيءُ الرَّبُّ بِوَجْهِهِ عَلَيْكَ وَيَرْحَمُكَ. يَرْفَعُ الرَّبُّ وَجْهَهُ عَلَيْكَ وَيَمْنَحُكَ سَلاَماً " (عد ٦: ٢٤ - ٢٦). حسناً، البركة تصون، وتُبطل اللعنة، وتُعيد تشكيل المخطئ حتى يستطيع أنْ يكون محل ثناء ومدح من المسيح. وبولس الرسول يشهد بذلك عندما كتب: " مُبَارَكٌ اللهُ أَبُو رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي بَارَكَنَا بِكُلِّ بَرَكَةٍ رُوحِيَّةٍ فِي السَّمَاوِيَّاتِ فِي الْمَسِيحِ، كَمَا اخْتَارَنَا فِيهِ قَبْلَ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ، لِنَكُونَ قِدِّيسِينَ وَبِلاَ لَوْمٍ قُدَّامَهُ فِي الْمَحَبَّةِ، إِذْ سَبَقَ فَعَيَّنَنَا لِلتَّبَنِّي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ لِنَفْسِهِ، حَسَبَ مَسَرَّةِ مَشِيئَتِهِ " (أف١: ٣ - ٥).أرأيت كيف أنّ الإنسان الذي طُرد بسبب عصيانه، صار مقبولاً بالتبني عندما نال البركة من خلال المسيح بشركة الروح القدس الذي سمح أنْ ينسكب بغنىً علينا، والذي لم يمنحه للقديسين جزئياً، بل وضعه داخلنا بكل كماله ". السجود والعبادة بالروح والحق، المرجع السابق، الجزء السادس، المقالة الحادية عشر ص ١٢٨ - ١٢٩.

رابع عشر:

من سفر أعمال الرسل

٨٩- "وَبعدَمَا اجْتَازُوا فِي فِرِيجِيَّةَ وَكُورَةِ غَلاَطِيَّةَ، مَنَعَهُمُ الرُّوحُ الْقُدُسُ أَنْ يَتَكَلَّمُوا بِالْكَلِمَةِ فِي أَسِيَّا. فَلَمَّا أَتَوْا إلى مِيسِيَّا حَاوَلُوا أَنْ يَذْهَبُوا إلى بِثِينِيَّةَ، فَلَمْ يَدَعْهُمُ الرُّوحُ (روح يسوع)" (أع ١٦: ٦ - ٧).

ها هو هنا الروح القدس يُسمَّى بوضوحٍ، روح يسوع. إذن عندما يكون روح الآب هو روح الابن، كيف لا يكون هو الله بحسب الطبيعة، هذا الذي له بحسب الجوهر خواص ذاك الذي هو الإله الآب بحسب الطبيعة؟

على الجانب الآخر، يجب أن نرى الروح في علاقته مع الابن. فإن كان الروح القدس الذي يوجد بحسب الطبيعة في الله، قد دُعيَ أحيانا روح ملاك ما، أو قوة عاقلة أخرى، دع إذن الابن أيضاً يُحسب ضمن المخلوقات، لكن بما أنه ليس على علاقة بحسب الطبيعة مع أيٍ من المخلوقات؛ إذن فهو الله مثل الابن ويُدعى روح يسوع.

لكن، بما أن ملمحاً من ملامح هذا الروح أن يشير إليه هو فقط باعتباره الابن بحسب الطبيعة، فكيف يمكن أن يكون شبيهاً بالمخلوقات الأخرى، هذا الذي يكون أسمى منها بكثير، لدرجة أن لديه كل ما للآب، وواحدٌ في الجوهر مع الآب الذي ولَدَه؟

٩٠- شاهدٌ آخر

"وَنَحْوَ نصْفِ اللَّيْلِ كَانَ بُولُسُ وَسِيلاَ يُصَلِّيَانِ وَيُسَبِّحَانِ اللهَ، وَالْمَسْجُونُونَ يَسْمَعُونَهُمَا. فَحَدَثَ بَغْتَةً زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ حَتَّى تَزعْزَعَتْ أَسَاسَاتُ السِّجْنِ، فَانْفَتَحَتْ فِي الْحَالِ الأَبْوَابُ كُلُّهَا، وَانْفكّتْ قُيُودُ الْجَمِيعِ" (أع ١٦: ٢٥ - ٢٦).

بعد أن يذكر القديس لوقا اضطراب حارس السجن بسبب الزلزال وأصوات بولس، أضاف: "وَلَمَّا اسْتَيْقَظَ حَافِظُ السِّجْنِ، وَرَأَى أَبْوَابَ السِّجْنِ مَفْتُوحَةً، اسْتَلَّ سَيْفَهُ وَكَانَ مُزْمِعاً أَنْ يَقْتُلَ نَفْسَهُ، ظَاناً أَنَّ الْمَسْجُونِينَ قَدْ هَرَبُوا. فَنَادَى بُولُسُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلاً:«لاَ تَفْعَلْ بِنَفْسِكَ شَيْئاً رَدِياً! لأَنَّ جَمِيعَنَا ههُنَا. فَطَلَبَ ضَوْءاً وَانْدَفَعَ إِلَى دَاخِلٍ، وَخَرَّ لِبُولُسَ وَسِيلاَ وَهُوَ مُرْتَعِدٌ، ثُمَّ أَخْرَجَهُمَا وَقَالَ:«يَا سَيِّدَيَّ، مَاذَا يَنْبَغِي أَنْ أَفْعَلَ لِكَيْ أَخْلُصَ؟» فَقَالاَ:«آمِنْ بِالرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ فَتَخْلُصَ أَنْتَ وَأَهْلُ بَيْتِكَ». وَكَلَّمَاهُ وَجَمِيعَ مَنْ فِي بَيْتِهِ بِكَلِمَةِ الرَّبِّ. فَأَخَذَهُمَا فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مِنَ اللَّيْلِ وَغَسَّلَهُمَا مِنَ الْجِرَاحَاتِ، وَاعْتَمَدَ فِي الْحَالِ هُوَ وَالَّذِينَ لَهُ أَجْمَعُونَ. وَلَمَّا أَصْعَدَهُمَا إِلَى بَيْتِهِ قَدَّمَ لَهُمَا مَائِدَةً، وَتَهَلَّلَ مَعَ جَمِيعِ بَيْتِهِ إِذْ كَانَ قَدْ آمَنَ بِاللهِ" (أع ١٦: ٢٧ - ٣٤).

هذا الذي آمن بالرب يسوع، وفق نصيحة الرسل، فَرِحَ هو وعائلته لأنه آمن بالله. لكن لو كان الابن مخلوقاً أو مصنوعاً - كما يقول الهراطقة بكُفرٍ - فلماذا لم يقُد الرُسل حارس السجن إلى المعرفة الحقيقية قائلين له، أنت لا تؤمن بالله، يا صاحبي، لكن بواحد من المخلوقات أو المصنوعات؟ لكن الآن، لا يظهر أُنهم قالوا له شيئاً مثل هذا، بل على النقيض كان مقبولاً لهم، لأنه تصرف حسناً وكوَّن فكراً حقيقياً عن الإيمان. وكيف لا يكون واضحاً لكل واحدٍ، أن الابن هو الله بحسب الطبيعة؟ وبالتالي فكيف يمكن لِمَن هو الله، أن يكون مخلوقاً أو مصنوعاً؟

خامس عشر:

من رسالة يعقوب

٩١- "يَعْقُوبُ، عَبْدُ اللهِ وَالرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ، يُهْدِي السَّلاَمَ إلى الاثْنَيْ عَشَرَ سِبْطاً الّذِينَ فِي الشَّتَاتِ" (يع ١: ١).

يدعو هنا كارز الحق (يعقوب) يسوع المسيح أنه الله والرب، معترفاً بأنه إلهاً ورباً بحسب الطبيعة. لأنه كيف يصل عقل أصحاب الآراء المخالفة إلى مثل هذه الوقاحة الشديدة حتى أهم يعتبرون الابن بحسب الطبيعة مخلوقاً أو مصنوعاً؟ لأن معنى ذلك أن ذات الاهام يلحقهم على أساس أهم يعتبرون أن الآب هو الله بحسب الطبيعة والرب، مثل الابن أيضاً، وبالتالي يكون الإله الحقيقي – بحسب رأيهم - ذا طبيعة مخلوقة. على أن كلامهم هذا هو محضُ عبثٍ، وعارٍ من التقوى. بالتالي الابن ليس مخلوقاً، بل بالحري هو الإله بحسب الجوهر، والرب مثلما أيضاً الآب الذي ولَدَه.

٩٢- شاهدٌ آخر

"يَا إِخْوَتِي، لاَ يَكُنْ لَكُمْ إِيمَانُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، رَبِّ الْمَجْدِ، فِي الْمُحَابَاةِ" (يع١: ٢).

يقول الله للأنبياء القديسين: "وَمَجْدي لاَ أُعْطيه لآخَرَ" (أش ٤٢: ٨). إذن كيف يكون الابن هو رب المجد، لو كان حقاً غريباً وأجنبياً عن جوهر الآب؟ لأن أيًّا من الكائنات المخلوقة – بشكلٍ عام - ليس لديه المجد الذي يتناسب فقط مع الله. لكن الابن هو رب المجد؛ لأن روح الحق الذي يُلهِم القديسين بهذه الأمور لا يقول أكاذيب. إذن، الابن ليس مخلوقاً، بل هو صورة وختم الآب (أنظر عب ١: ٣)، وهو رب المجد. وبما أن الابن لديه كل خواص الله بحسب الطبيعة، بالتالي هو رب المجد.

سادس عشر:

من رسالة بطرس

٩٣- "أَطْلُبُ إِلى الشُّيُوخِ الَّذِينَ بَيْنَكُمْ، أَنَا الشَّيْخَ رَفِيقَهُمْ، وَالشَّاهِدَ لآلاَمِ الْمَسِيحِ، وَشَرِيكَ الْمَجْدِ الْعَتِيدِ أَنْ يُعْلَنَ، ارْعَوْا رَعِيَّةَ اللهِ الَّتِي بَيْنَكُمْ" (١ بط ٥: ١ - ٢).

بطريقة حكيمة أيضاً هنا يسمي بطرس الابنَ، الله، عارفاً أنه هو الله بحسب الطبيعة، وهو بالطبع لا يكذب. لأنه قد سمع مخلصنا المسيح وهو يدعوه قائلاً: "يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا، أَتُحِبُّنِي أَكْثَرَ مِنْ هؤُلاَءِ؟» قَالَ لَهُ: «نَعَمْ يَا رَبُّ أَنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّكَ». قَالَ لَهُ: «ارْعَ خِرَافِي». قَالَ لَهُ أَيْضاً ثَانِيَةً: «يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا، أَتُحِبُّنِي؟» قَالَ لَهُ: «نَعَمْ يَا رَبُّ، أَنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّكَ». قَالَ لَهُ: «ارْعَ غَنَمِي». قَالَ لَهُ ثَالِثَةً: «يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا، أَتُحِبُّنِي؟» فَحَزِنَ بُطْرُسُ لأَنَّهُ قَالَ لَهُ ثَالِثَةً: أَتُحِبُّنِي؟ فَقَالَ لَهُ: «يَا رَبُّ، أَنْتَ تَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ. أَنْتَ تَعْرِفُ أَنِّي أُحِبُّكَ». قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «ارْعَ غَنَمِي" (يو ١٥: ٢١ - ١٧).

هنا يعطي الرسول بطرس نفس الوصية داعياً رعية الله حملان المخلص: "ارْعَوْا رَعِيَّةَ اللهِ الَّتِي بَيْنَكُمْ" (١ بط ٥: ٢)، لأنه قد أخذ معرفة السر من فوق، من الآب وليس من إنسان. إذن بما أن الابن هو الله بحسب الطبيعة، كيف يمكن أن يكون مصنوعاً أو مخلوقاً.

٩٤- شاهدٌ آخر

المرنم وهو يُظهر الاختلاف الفائق الذي يوجد بين الخالق والمخلوق، يصرخ: "اعْلَمُوا أَنَّ الرَّبَّ هُوَ اللهُ. هُوَ صَنَعَنَا، وَلَهُ نَحْنُ شَعْبُهُ وَغَنَمُ مَرْعَاهُ. ادْخُلُوا أَبْوَابَهُ بِحَمْدٍ، دِيَارَهُ بِالتَّسْبِيحِ. احْمَدُوهُ، بَارِكُوا اسْمَهُ" (مز ١٠٠: ٣ - ٤).

إذن، فقد اعترف بقدرة الطبيعة الربانية والإلهية على أن تخلق وأن تبنى، بينما اعترف بأن الطبيعة المخلوقة والمستعبدة قد خُلِقت وأتت إلى الوجود. وأن الابن هو خالق الكل، وليس واحداً من ضمن "الكل"، ولا ينحدر من المخلوقات، لأن مَنْ له القدرة على البناء لديه طبيعة تختلف عن طبيعة الخليقة[1]، وأسمى من قياس العبودية.

(1) الاختلاف شاسع - كما قلنا- بين الابن والمخلوقات، وهذا ما يؤكد عليه القديس كيرلس – في حديثه عن ولادة موسى - حين يقول: "لقد ظهر الابن بجمال البشر الوضيع. لأنه، بينما هو الله بحسب الطبيعة، إلاّ أنه صار مثلنا. والمسافة التي تفصلنا عنه هي لا تُقاس، شاسعة، وكذلك الطبيعة البشرية تقل جداً عن الطبيعة الإلهية الفائقة، فالاختلافات بينهما اختلافات شاسعة جداً". جلافيرا، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، الكتاب الشهري عدد مايو ٢٠٠٩.

سابع عشر:

من رسالة يوحنا

٩٥- "أَكْتُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الآبَاءُ، لأَنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمُ الَّذِي مِنَ الْبَدْءِ" (١ يو ٢: ١٣).

بما أن أيّاً من المخلوقات لم يكن موجوداً منذ البدء؛ لأن الكل أتى إلى الوجود في الزمن، بينما الابن هو كائنٌ من البدء، الأمر الذي يعرفه هؤلاء الذين وجَّه إليهم يوحنا الحديث، فكيف يمكن أن ينتمي الابن إلى المخلوقات، هذا الذي هو ليس مثل تلك المخلوقات؟

٩٦- شاهدٌ آخر

"كُلُّ مَنْ يُنْكِرُ الابْنَ لَيْسَ لَهُ الآبُ أَيْضاً، وَمَنْ يَعْتَرِفُ بِالابْنِ فَلَهُ الآبُ أَيْضاً" (١يو ٢: ٢٣).

لا ينكر أحدٌ الابن بطريقة أخرى، إلاَّ بأن يقول إنه مخلوق، وألاَّ يحسِب أنه مساوٍ للآب في الجوهر. على النقيض من ذلك، فإنَّ مَنْ يعترف به، إنما يعترف بأصالة وحقيقة بنوَّته للآب، وأنه مثل الآب بحسب الطبيعة. وعلى ذلك، فكل ما قيل عن الآب يُقال أيضاً عن الابن فيما عدا فقط أنه آبٌ. وكل ما يُنسب إلى الابن، يسرى أيضاً على الآب، فيما عدا أنه الابن. فعلى سبيل المثال، إذا كان الله الآب بحسب الطبيعة هو ضابط الكل، خالق، رب، ملك، غير الفاسد، غير المائت، الحياة، بلا بداية، وكل ما لم يأتِ إلى الوجود من العدم، فالابن له كل هذا بطريقةٍ لا نظير لها.

فإذا قبلت أن توجد كل هذه الخواص في الآب، واعترفت بذلك، لكن استثنيت الابن منها، قائلاً إنه مخلوقٌ مُنــزِلاً الخالق إلى مرتبة المخلوقات، فسوف تجعل أيضاً الآب

غريباً عن المكانة التي تليق به بكونه إلهاً؛ لأن الابن هو ختم وصورة الآب الذي ولَدَه، الذي إليه نحدِّق ناظرين الآب بوضوحٍ، وفق ما قاله للتلاميذ: "مَنْ رآني فقد رأى الآب" (يو ١٤: ٩). بالتالي، إذا كان الآب غير مخلوق، فالابن أيضاً يكون غير مخلوق.

٩٧- شاهدٌ آخر

"فَإِنَّ الْحَيَاةَ أُظْهِرَتْ، وَقَدْ رَأَيْنَا وَنَشْهَدُ وَنُخْبِرُكُمْ بِالْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَ الآبِ وَأُظْهِرَتْ لَنَا" (١ يو ١: ٢).

يستخدم الكتاب المقدس كلمة "الأبدي" مرات كثيرة عن الله، لكي ينفي عن الطبيعة الإلهية وغير المائتة أنها خُلِقت في الزمن، تلك الطبيعة التي خاصيتها الجوهرية أنها غير مخلوقة. إذن، فبما أن الحياة عند الله الآب أبدية، والابن هو الحياة، فكيف يمكن أن يكون مخلوقاً، وفق طياشة وعدم تبصُّر البعض؟ لأن المخلوق لا يكون أبدياً.

٩٨- شاهدٌ آخر

"وَنَعْلَمُ أَنَّ ابْنَ اللهِ قَدْ جَاءَ وَأَعْطَانَا بَصِيرَةً لِنَعْرِفَ الْحَقَّ. وَنَحْنُ فِي الْحَقِّ فِي ابْنِهِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ. هذَا هُوَ الإِلهُ الْحَقُّ وَالْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ" (١ يو ٥: ٢٠).

ما الذي يمكن أن يقوله الهراطقة الذين يميلون إلى صب الإدانات على أقوال القدوس الصادقة والدقيقة؟ إذا كان الابن هو الإله الحقيقي، فهذا يعنى أنه هكذا بحسب الطبيعة وليس بحسب النعمة مثل المخلوقات. بينما الله بحسب الطبيعة، لو كان قد خُلِق بحسب ما يقوله الهراطقة، فحتى الآب نفسه لن يكون لديه شيءٌ خاصٌ به، حتى لو قيل عنه إنه هو الله بحسب الطبيعة. لأن هذا الذي خُلِق أو صُنِع مرةً واحدةً، حتى وإن لم يكن قد ظهر بعد، لا يتحرر من عِلة الخلق؛ لأنه يكون مخلوقاً بحسب طبيعته. إذن، فقد حانت ساعتهم ليكفروا بالآب ذاته. لكن بما أن الطبيعة الإلهية وغير المائتة هي طبيعة غير مخلوقة، بالتالي الابن ليس مخلوقاً، بل غير مخلوق؛ لأنه بحسب الطبيعة هو الإله الحقيقي والحياة الأبدية.

ثامن عشر:

من رسالة يهوذا

٩٩- "فَأُرِيدُ أَنْ أُذَكِّرَكُمْ، وَلَوْ عَلِمْتُمْ هذَا مَرَّةً، أَنَّ الرَّبَّ بَعْدَمَا خَلَّصَ الشَّعْبَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، أَهْلَكَ أَيْضاً الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا" (يهوذا ١: ٥).

بما إن يسوع - وفق أقوال هذا القديس - قد خلَّص الشعب من مصر، إذن فهو ذاك الذي قال لموسى: "هكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَهْيَهْ (الكائنُ) أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ" (خر ١٤: ٣). وطالما كان حقا هو أهيه (الكائن)، فكيف يمكن أن يكون أيضاً مخلوقاً؟ أي لم يكن كائناً، بل مخلوقاً. لكن المسيح لا يكذب؛ لأنه هو الكائن والكائن دائماً. إذن، فهو ليس مخلوقاً، و لم تكن بداية وجوده في الزمن مثل المخلوقات.

تاسع عشر:

من الإنجيل بحسب متى

١٠٠- "يَا يُوسُفُ ابْنَ دَاوُدَ، لاَ تَخَفْ أَنْ تَأْخُذَ مَرْيَمَ امْرَأَتَكَ. لأَنَّ الَّذِي حُبِلَ بِهِ فِيهَا هُوَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ. فَسَتَلِدُ ابْناً وَتَدْعُو اسْمَهُ يَسُوعَ. لأَنَّهُ يُخَلِّصُ شَعْبَهُ مِنْ خَطَايَاهُمْ" (مت ١: ٢٠ - ٢١).

طالما أن الابن يخلِّص شعبه، ويغفر الخطايا كربِّ الناموس، والله، فمَنْ هو ذا الذي يمكن أن يصنِّف - ضمن المخلوقات - مَن هو الإله بحسب الطبيعة؟ على العكس، أعتقد أن كل واحدٍ سيقول: حقاً للابن شعبٌ، بكونه رباً وملكاً.

١٠١- شاهدٌ آخر

"وَهذَا كُلُّهُ كَانَ لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ مِنَ الرَّبِّ بِالنَّبِيِّ الْقَائِلِ: «هُوَذَا الْعَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ابْناً، وَيَدْعُونَ اسْمَهُ عِمَّانُوئِيلَ» الَّذِي تَفْسِيرُهُ: اَللهُ مَعَنَا" (مت ١: ٢٢ - ٢٣. أش ٧: ١٤).

إذا لم يكن الابن هو الله بحسب الطبيعة، لَمَا سُمِّيَ: الله معنا، وهو الأمر الذي صار بالطبع عندما وُلِدَ من امرأةٍ آخذاً شكلنا.

إن اسم عمانوئيل ليس لقباً أُسبِغَ عليه من قِبَلِ ملاكٍ أو أي أحدٍ آخر من المخلوقات، بل الآب نفسه هو مَن سمَّى الابن هكذا، وهو ما سوف يؤكِّده النبي الذي يقول عن الطفل الإلهي: " وَتُسَمَّيْنَ باسْمٍ جَديدٍ يُعَيِّنُهُ فَمُ الرَّبّ" (أش ٦٢: ٢). فعمانوئيل هو اسمٌ جديدٌ حقا للابن، أي الله معنا. لأنه قبل المجيء إلى العالم بالجسد كان يُدعى الله، لكن بعد ولادته من العذراء لم يكن يدع الله فقط، بل الله معنا، أي الله الذي صار إنساناً.

إذن، فبما أن الآب يُسمِّي ابنه الله، فليت وجوه الهراطقة تحمَّر خجلاً، هؤلاء الذين عن جهلٍ وكفرٍ، يقولون إنه قد خُلِق. لأن الله بحسب الطبيعة ليس مخلوقاً.

١٠٢- شاهدٌ آخر

"قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لاَ تَقْتُلْ، وَمَنْ قَتَلَ يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَغْضَبُ عَلَى أَخِيهِ بَاطِلاً يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ" (مت ٥: ٢١ - ٢٢).

رَكِّز من فضلك هنا وتأمَّل، ولاحظ جيداً ما إذا كنت قد أعطيتك انطباعاً بأنني لا أتحدث باستقامة. لأن الحق في التشريع يتناسب فقط مع الله؛ لذلك لم يسمح الله لأيٍ من الكائنات أن يضيف شيئاً على ما قاله بواسطة موسى. لأنه يقول غير مسموح أن تضيف أو تحذف من الأقوال التي أوصيتك بها (أنظر تث ١٣: ١). لكن طالما أن المخلص قد حذف الأدنى وأضاف الأسمى والأكمل، فقد فعل هذا بكونه الله ورب الناموس؛ لأنه إن لم يكن الأمر هكذا، فإنه يكون قد خالف وأبطل الوصية. لكن، صادقٌ هو المكتوب: "لَمْ يَفْعَلْ خَطِيَّةً" (١ بط ٢: ٢٢). إذن، فبكونه الله، حدَّد الوصية الأولى، وأعطى الثانية إذ له السلطان أن يصنع هذا الأمر. لأن هذا هو معنى قوله: "أَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ" على ما يبدو. فإذا كان الأمر على هذا النحو، فكيف إذن يكون مخلوقاً أو مجبولاً هذا الذي يُشرِّع بكونه إلهاً، وبسبب هذا لا يمكن أن يكون قد صار في وقت لاحق؟

١٠٣- شاهدٌ آخر

"فَإِنَّهُ إِنْ غَفَرْتُمْ لِلنَّاسِ زَلاَتِهِمْ، يَغْفِرْ لَكُمْ أَيْضاً أَبُوكُمُ السَّمَاوِيُّ. وَإِنْ لَمْ تَغْفِرُوا لِلنَّاسِ زَلاَتِهِمْ، لاَ يَغْفِرْ لَكُمْ أَبُوكُمْ أَيْضاً زَلاَتِكُمْ" (مت ٦: ١٤ - ١٥).

بما أن الله الآب يغفر الخطايا ويترك المذنبَ بارتكابه أخطاءً، حُراً، يحق للابن أيضاً أن يمنح هذا الأمر وأن يصنعه. لأن المخلِّص أيضاً يقول لأحد الأشخاص: "ثِقْ يَا بُنَيَّ. مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ" (مت ٩: ٢). حسناً، عندما نرى أن للابن سلطاناً عظيماً مثل ما للآب، كيف نطيق الهراطقة الأغبياء وهم يعتبرونه من جنس آخر وغريب، بالرغم من أنهم

لا يستطيعون أن يبرهنوا على أن مثل هذا السلطان الذي يليق فقط بالله، يوجد عند أي مخلوق؟

١٠٤- شاهدٌ آخر

"لاَ تَقْدِرُ شَجَرَةٌ جَيِّدَةٌ أَنْ تَصْنَعَ أَثْمَاراً رَدِيَّةً، وَلاَ شَجَرَةٌ رَدِيَّةٌ أَنْ تَصْنَعَ أَثْمَاراً جَيِّدَةً" (مت ٧:١٨). هذا المبدأ هو من المبادئ الأساسية عند مخلصنا.

تعالوا بنا نفتش عن المعنى الدقيق لهذه الأقوال، علّنا ندرك أهميتها، ومدى انطباق معناها على الجوهر الإلهي. إذا كان غير المخلوق يوصف بأنه حسنٌ جداً، وكان المخلوق يحتل مرتبةً أدنى، لذا لا يوصف بالحُسن. وإذا كان الآب غير مخلوق، فكيف إذن يمكن أن تكون هناك ثمرةٌ مخلوقةٌ من نباتٍ غير مخلوق؟ وإذا لم يكن ممكناً لشجرة جيدة أن تصنع ثماراً غير جيدةٍ، وكان الله الآب شجرةً جيدةً، ولذلك، فهو غير مخلوق، فكيف إذن تكون الثمرة[1] التي تجيء منه مخلوقةً؟

لكن إذا كانت الثمرةُ حسنةً، مثلها في ذلك مثل النبات تماماً، إذن لا يمكن للابن أن يُكذّب أصالة الآب مُظهراً أنه مخلوقٌ من الآب غير المخلوق. وعلى ذلك، فهو أيضاً غير مخلوق، مثل الآب. وإذا كان هو هكذا، فكيف يكون مخلوقاً أو مجبولاً وفق طياشة الهراطقة؟

١٠٥- شاهدٌ آخر

"وَإِذَا أَبْرَصُ قَدْ جَاءَ وَسَجَدَ لَهُ قَائِلاً:«يَا سَيِّدُ، إِنْ أَرَدْتَ تَقْدِرْ أَنْ تُطَهِّرَنِي». فَمَدَّ يَسُوعُ يَدَهُ وَلَمَسَهُ قَائِلاً:«أُرِيدُ، فَاطْهُرْ!». وَلِلْوَقْتِ طَهُرَ بَرَصُهُ. فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ:«انْظُرْ أَنْ لاَ

(١) مثال الشجرة وثمارها استخدمه القديس أثناسيوس أيضاً في نفس السياق، إذ قال: "لأنه كيف لا يكون كاملاً هذا الذي هو مساوٍ لله؟ أو كيف لا يكون غير متغيّر هذا الذي هو واحد مع الآب، وهو نفسه ابنه من ذات جوهره؟ ولأن جوهر الآب غير متغير، فبالضرورة يكون نتاجه الذاتي أيضاً غير متغيّر. فإن كانوا يفترون هكذا بنسبتهم التغيّر **للكلمة**. فليتعلموا مدى الخطورة الكامنة في فكرهم، لأن "الشجرة تعرف من ثمرها" (مت ١٢:٣٣)، ولهذا أيضاً "فإن من رأى الابن فقد رأى الآب" (يو ١٤:٩)، ولهذا أيضاً فإن معرفة الابن هي أيضاً معرفة الآب". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الأولى، فقرة ٣٥ ص ٩٧.

تَقُولَ لأَحَدٍ. بَلِ اذْهَبْ أَرِ نَفْسَكَ لِلْكَاهِنِ، وَقَدِّمِ الْقُرْبَانَ الَّذِي أَمَرَ بِهِ مُوسَى شَهَادَةً لَهُمْ" (مت ٨: ٢ - ٤).

إذا كانت النعمةُ تأتي من الحق، وكانت الوصيةُ سيِّديةٌ، فكيف إذن يُصنَّفُ الابنَ ضمن العبيد كمخلوق، وهو الذي يستطيع أن يفعل كل شيء يريده، بما له من مكانةٍ إلهيةٍ، هي ذاتها مكانة ذاك الذي ولَدَه؟ لأنه مكتوب عن الله الآب: "كلَّمَا شَاءَ صَنَعَ" (مز ١١٥: ٣)؛ لأنه بإعلان الإرادة الإلهية تصير الأشياء، وبإشارةٍ منه تُوجَد. إذن، فهذا الذي يمتلك قوة وسلطان الآب، كيف يمكن أن يكون من طبيعة أخرى، بأن يكون مخلوقاً، ولا يكون من طبيعة ذاك (الآب)؛ خصوصاً إذا كان من المعتاد أن تنتمي الأفعال لذات جوهر الطبيعة الذي تأتي منه، ومن المستحيل أن تنتمي إلى طبيعة أخرى؟

ولأن الأمر هو على هذا النحو، فالابن إذن لديه طبيعة الآب نفسه، وهو غير مخلوق من غير مخلوق؛ لأنه يمتلك ذات السلطان والقوة، أو بالحري هو نفسه الفعل المحيي والجوهري وقوة وحكمة الآب.

١٠٦- شاهدٌ آخر

"فَقَالَ لَهُمْ:«مَا بَالُكُمْ خَائِفِينَ يَا قَلِيلِي الإِيمَانِ؟» ثُمَّ قَامَ وَانْتَهَرَ الرِّيَاحَ وَالْبَحْرَ، فَصَارَ هُدُوٌّ عَظِيمٌ. فَتَعَجَّبَ النَّاسُ قَائِلِينَ:«أَيُّ إِنْسَانٍ هذَا؟ فَإِنَّ الرِّيَاحَ وَالْبَحْرَ جَمِيعاً تُطِيعُهُ" (مت ٨: ٢٦ - ٢٧).

لكي يُظهر عظمته يقول الله بواسطة الأنبياء متوجِّهاً لأولئك الذين أخطأوا بسفاهة: "أَإِيَّايَ لاَ تَخْشَوْنَ، يَقُولُ الرَّبُّ؟ أَوَلاَ تَرْتَعِدُونَ مِنْ وَجْهِي؟ أَنَا الَّذِي وَضَعْتُ الرَّمْلَ تُخُوماً لِلْبَحْرِ فَرِيضَةً أَبَدِيَّةً لاَ يَتَعَدَّاهَا، فَتَتَلاَطَمُ وَلاَ تَسْتَطِيعُ، وَتَعِجُّ أَمْوَاجُهُ وَلاَ تَتَجَاوَزُهَا" (إر ٥: ٢٢). أيضاً يعلن نفس الأمر لأيوب، فيقول عن البحر: "وَمَنْ حَجَزَ الْبَحْرَ بِمَصَارِيعَ حِينَ انْدَفَقَ فَخَرَجَ مِنَ الرَّحِمِ. إِذْ جَعَلْتُ السَّحَابَ لِبَاسَهُ، وَالضَّبَابَ قِمَاطَهُ، وَجَزَمْتُ عَلَيْهِ حَدِّي، وَأَقَمْتُ لَهُ مَغَالِيقَ وَمَصَارِيعَ، وَقُلْتُ: إِلَى هُنَا تَأْتِي وَلاَ تَتَعَدَّى، وَهُنَا تُتْخَمُ كِبْرِيَاءُ لُجَجِكَ؟" (أيوب ٣٨: ٨ - ١١).

والمرنم الطوباوي أيضاً محولاً قيثارته الروحية إلى تمجيد، قائلاً لله: "أَنْتَ مُتَسَلِّطٌ عَلَى كِبْرِيَاءِ الْبَحْرِ. عِنْدَ ارْتِفَاعِ لُجَجِهِ أَنْتَ تُسَكِّنُهَا" (مز ٨٩: ٩).

إذن عندما يصف الطبيعة الإلهية، وقدرتها على أن تسود البحر، ووضعها نواميس للمياه، وإخضاعها عناصر العالم الأدنى تحت سيادتها، فإنه يُظهِر أنها تفعل هذا الأمر بالابن بسلطانٍ عظيم، فكيف لا يكون هو الله بحسب الطبيعة؟ وكيف يمكن أن يكون مخلوقاً هذا الذي في سهولةٍ تامة يمكنه أن يحقق كل ما يليق فقط بالله الآب؟ لأنه، لو قلنا إنه ليس من الأهمية بمكان أن يُجمِّع أحدٌ البحرَ ويضع له مفاتيح وأبواب، فلماذا يفتخر الله الآب بغير حق لأجل هذه الأمور، ويكون على هذه الثقة العظيمة؟ لكن إذا كان يمكنه أن يفعل هذه الأمور بالقوة الإلهية والمجد، فبأي منطق يُوصف جوهر المخلوقات، بهذه الأفعال التي فقط تنتمي إلى الطبيعة الإلهية؟ بالتالي لا يمكن أن يكون الابن مخلوقاً، ذلك الذي برهن على ألوهيته، إذ استطاع أن يفعل بطريقة طبيعية، هذه الأمور التي هي من خصائص الطبيعة الإلهية الفريدة؟

١٠٧- شاهدٌ آخر

"فَالشَّيَاطِينُ طَلَبُوا إِلَيْهِ قَائِلِينَ:«إِنْ كُنْتَ تُخْرِجُنَا، فَأْذَنْ لَنَا أَنْ نَذْهَبَ إِلى قَطِيعِ الْخَنَازِيرِ». فَقَالَ لَهُمُ:«امْضُوا». فَخَرَجُوا وَمَضَوْا إِلى قَطِيعِ الْخَنَازِيرِ، وَإِذَا قَطِيعُ الْخَنَازِيرِ كُلُّهُ قَدِ انْدَفَعَ مِنْ عَلَى الْجُرُفِ إِلى الْبَحْرِ، وَمَاتَ فِي الْمِيَاهِ" (مت ٨: ٣١ - ٣٢).

من خصائص الجوهر الإلهي الفائقة أنه يستطيع أن يجمع كل شيء وأن يبسط عنايته على كل واحد، أو حتى على الشيء الزهيد. ويؤكد هذا الأمر المخلِّص نفسه، قائلا: "أَلَيْسَ عُصْفُورَانِ يُبَاعَانِ بِفَلْسٍ؟ وَوَاحِدٌ مِنْهُمَا لاَ يَسْقُطُ عَلَى الأَرْضِ بِدُونِ أَبِيكُمْ" (مت ١٠: ٢٩). إذن، فإذا كان هذا الأمر عظيم ومكانته تتناسب مع الله الآب، لكن أيضاً الابن لديه هذا السلطان سامحاً للشياطين ألاَّ يكون لهم سلطانٌ حتى على الخنازير؛ (لأنهم طلبوا السماح، لأن ليست لديهم القدرة)، فأيُ عذرٍ أو مبررٍ يمكننا معه أن نعتبر أن الله **الكلمة** الذي أتى من الله له طبيعة أخرى ومخلوق، في حين أن لديه كل خصائص ذاك الذي ولَدَه؟

١٠٨- شاهدٌ آخر

"ثُمَّ دَعَا تَلاَمِيذَهُ الاثْنَيْ عَشَرَ وَأَعْطَاهُمْ سُلْطَاناً عَلَى أَرْوَاحٍ نَجِسَةٍ حَتَّى يُخرِجُوهَا، وَيَشْفُوا كُلَّ مَرَضٍ وَكُلَّ ضُعْفٍ" (مت ١٠: ١).

لاحظ أيضاً هنا سلطة الابن الإلهية التي لا تتناسب مع الطبيعة المخلوقة. لأنه إذا كان يمكنه أن يفعل شيئاً من الأعمال المدهشة، فذلك أيضاً يمكن أن يفعله القديسون، لكن ليس بحسب الطبيعة، بل بحسب المشاركة في الروح القدس وبسماحٍ من الله. لكن أن يُعطْوا الآخرين نعمةً تفوق هذه العجائب، فهو غريب تماماً عن قدرة وسلطان أولئك. فكيف يمكن للطبيعة المخلوقة أن تسود على مواهب الروح؟ أمَّا ربنا يسوع المسيح، فلأنه الله الابن بحسب الطبيعة، فإنه يشفي بسلطان، دون أن يكون عمله نتيجة الصلاة مثل أولئك، بل هو بمثابة نتائج لفعله الجوهري الخاص به. وهو يمنح لمن يريد، النعمة لأجل هذا الهدف، دون أن يستدعي قوةً غريبةً عليهم، بل واضعاً في داخلهم قوته بنفسه. وذلك مثلما تفعل النار بالضبط، عندما تنقل فعل طبيعتها إلى أولئك الذين يقتربون منها. كيف إذن يمكن لمن يجعل الذين يأتون إليه شركاء الطبيعة الإلهية بقوة الروح القدس، أن يكون مخلوقاً ومجبولاً، وليس الإله بحسب الطبيعة؟

١٠٩- شاهد آخر

"كُلُّ شَيْءٍ قَدْ دُفِعَ إِلَيَّ مِنْ أَبِي. وَلَيْسَ أَحَدٌ يَعْرِفُ مَنْ هُوَ الابْنُ إِلاَّ الآبُ، وَلاَ مَنْ هُوَ الآبُ إِلاَّ الابْنُ، وَمَنْ أَرَادَ الابْنُ أَنْ يُعْلِنَ لَهُ" (لو ١٠: ٢٢).

لا يستطيع ذهن المخلوقات أن يدرك الجوهر الإلهي؛ لأنه يفوق العقول، وجماله الفائق للطبيعة يسمو فوق كل إدراك، هذا الذي هو بحسب الطبيعة يُعرَف فقط من الله ذاته. وعلى ذلك، فالآب يعرف ابنه، وكذلك الابن يعرف أبيه. لذلك صادقةٌ هي الكلمة حين يقول: "أَنِّي فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ" (يو ١٤: ١١) و "اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ" (يو ١٤: ٩). إذن طالما لا يوجد أي اختلاف فيما بينهما، في كل ما يخص طبيعة الإلوهية، فكيف يمكن أن يكون الابن مخلوقاً، طالما أن الآب ليس بمخلوقٍ، والابن هو أيقونته وختمه؟ (أنظر عب ٣:١).

١١٠- شاهِدٌ آخر

"تَعَالَوْا إلى يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ. اِحْمِلُوا نِيرِي عَلَيْكُمْ" (مت ١١: ٢٨ - ٢٩).

إذا كانت كل طبيعة المخلوقات تقع تحت النير الإلهي، وتخدم فقط الخالق منحنيةً بعنق العبودية، وفق ذاك الذي يقوله لله: "لأَنَّ الْكلَّ عَبيدكَ" (مز ١١٩: ٩١)، وإذا كان مخلصنا قد قادنا ووضعنا تحت نيره، إذن، فهو السيد والرب والخالق بكونه الله. فكيف يمكن أن يكون إذن من المخلوقات؟ وكيف يمكن أن يكون تحت نير العبودية هذا الذي يقود ويُدبِّر كل شيء كرب؟ لأنه لو لم يكن هو هكذا، لَكُنا عندئذٍ نوجد ساجدين لمخلوق، ونخدم مخلوقاً وليس خالقاً، لكننا لسنا في هذا الوضع؛ لأن الابن هو الإله الحقيقي. إذن لا يمكن أن يكون مخلوقاً أو مجبولاً.

١١١- شاهِدٌ آخر

"أَوَ مَا قَرَأْتُمْ فِي التَّوْرَاةِ أَنَّ الْكَهَنَةَ فِي السَّبْتِ فِي الْهَيْكَلِ يُدَنِّسُونَ السَّبْتَ وَهُمْ أَبْرِيَاءُ؟ وَلكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ ههُنَا أَعْظَمَ مِنَ الْهَيْكَلِ!" (مت ١٢: ٥ ــ٦).

الله يسكن في الهيكل ويقدِّسه[١]، ويقدَّم له احترامٌ عظيم في الهيكل المصنوع من حجارة، ولأجل مجده أُعيد بناء الهيكل. فكيف يكون للمسيح كرامةً أعظم من الهيكل، إن لم يكن هو الله، الذي يُسجد له في الهيكل؟ المسيح بالفعل له كرامة أكثر، وهذا هو الحق.

---

(١) الله قدوس يقدس الهيكل وكذلك يؤكد القديس كيرلس – أثناء حديثه عن دخول هارون لقدس الأقداس في يوم الكفارة العظيم – أن الابن يقدس أيضاً بصفته قدوس لأنه واحد مع الآب في الجوهر بكونه إلهاً، إذ يقول: "كان هارون يدخل مرة واحدة في السنة إلى قدس الأقداس بدم الكفارة. ويجب أن نلاحظ أيضا أن المسيح رش دم صليبه الذي هو صليب الخلاص والحياة للجميع. لأن القرون هي مثال الصليب والتي كانت تمتد هنا وهناك مثل الأيدي، ودخول هارون مرة واحدة في السنة يشير إلى موت المسيح مرة واحدة، الذي هو قدوس القديسين كإله بطبيعته. لأن يوحنا كان صادقاً بالتأكيد حين قال: "ومن مِلئه نحن جميعاً أخذنا" (يو ١:١٦). حيث إن كل الخليقة غير المنظورة والمنظورة تشترك في المسيح. لأن الملائكة أيضاً ورؤساء الملائكة وكل المخلوقات الروحية التي هي فائقة عن الملائكة - مثل الساروفيم أنفسهم - ليس لها قداسةٌ من آخر، سوى المسيح فقط بنعمة الروح القدس". السجود والعبادة بالروح والحق، المرجع السابق، الجزء الخامس، المقالة التاسعة ص ٩٠.

وكيف لا؟ وعلى ذلك، فهو كابنٍ مولودٍ من الله الآب هو إله حق من إله حق. وبما أن هذا حقيقيٌ، إذن فهو ليس مخلوقاً، ولا مجبولاً. لأن الشعب الإسرائيلي لم يُوجد في ضلال عندما كان يعبده في الهيكل ويسجد له، والذي عنه قيل: "الرَّبَّ إِلهَكَ تَتَّقِي، وَإِيَّاهُ تَعْبُدُ" (تث ٦: ١٣).

١١٢- شاهِدٌ آخر

"اِجْعَلُوا الشَّجَرَةَ جَيِّدَةً وَثَمَرَهَا جَيِّداً، أَوِ اجْعَلُوا الشَّجَرَةَ رَدِيَّةً وَثَمَرَهَا رَدِياً، لأَنْ مِنَ الثَّمَرِ تُعْرَفُ الشَّجَرَةُ" (مت ١٢: ٣٣).

ثمرة الآب هو الابن، وهو دائماً ما يكون آباً، وذاك (أي الابن) قد وُلِد منه. بالتالي، لو كان الابن مخلوقاً ومجبولاً، فسيكون كذلك أيضاً الآب. لكن بما أن الآب هو غير مخلوق، فالابن أيضاً هو غير مخلوق، لأن الشجرة تُعرَف من ثمارها.

١١٣- شاهِدٌ آخر

حدث مرةً أن سفينة الرُّسل صارت في وسط البحر مُعذبةً من الأمواج حيث كانت توجد ريح شديدة، والأمواج كانت ترتفع وترتطم بالسفينة، وفى الهزيع الرابع من الليل ظهر المخلص لتلاميذه ماشياً على الموج كأنه يابسة. وأولئك ظنوه خيالاً ومن خوفهم بدأوا يصرخون. وعندها شجَّعهم المخلِّص قائلاً: "أَنَا هُوَ. لاَ تَخَافُوا"، وعندما نزعوا الخوف من داخلهم قبلوه للتو في السفينة، ويقول الكتاب: "سَكَنَتِ الرِّيحُ. وَالَّذِينَ فِي السَّفِينَةِ جَاءُوا وَسَجَدُوا لَهُ قَائِلِينَ: بِالْحَقِيقَةِ أَنْتَ ابْنُ اللهِ" (مت ١٤: ٢٤ - ٢٦).

إذن، فما الذي يمكن أن يقوله هؤلاء الذين يحاربون الحق، ويتبعون فقط مشيئاهم، عندما يرون كل صف الرُّسل معاً يسجد للابن بكونه إلهاً[1]، وبقسمٍ يقولون إنه حقاً هو

([1]) التأكيد هنا على أن **الكلمة** بعد تأنسه ظل هو إله وإنسان في آن واحد بدون انفصال أو انقسام، وهذا ما أكد علية القديس كيرلس أثناء حديثة عن المذبح المصنوع من الحجارة (خر ٢٠: ٢٤ - ٢٥) حيث يقول: [وعندما يقول: "وإن صنعت لي مذبحاً من حجارة فلا تبنه منها منحوتةً"، فهو يعني أنه من غير المسموح أن يضرب الحديدُ الحجارةَ المخصصة لله. لأن الحجر المختار وحجر الزاوية والحجر الكريم – بالتأكيد - هو المسيح، الطاهر من الخطايا، والذي لا تجد جروح الشيطان أي طريق فيه، ولا هو منقسم بين الله والعالم، فبالرغم من أنه صار

ابن الله؟ لأن هذا الذي لم يأتِ من آخر بحسب الطبيعة، ولا يحمل خاصية جوهر ذاك الذي ولَدَه، يستحيل أن يكون حقاً ابنه. وما الحال لو كان التلاميذ قد أخطأوا قائلين هذا الأمر، أيصمت المخلّص، ولا يوبخهم بالرغم من أنهم أخطأوا؟ لأنه قال لبطرس، عندما لم يُجب بالصواب: "اذْهَبْ عَنِّي يَا شَيْطَانُ! أَنْتَ مَعْثَرَةٌ لِي، لأَنَّكَ لاَ تَهْتَمُّ بِمَا للهِ لكِنْ بِمَا لِلنَّاسِ" (مت ١٦: ٢٣)، لكنه صَمَتَ عندما دعوه ابن الله الحقيقي، ولأنه لم يُراجع تلاميذه، أو نسب إليهم خطأً، إذن فقد دعاه الرسل القديسين حقاً بالابن، والمسيح نفسه ارتضى هذا الأمر، فمَنْ إذن يمكنه أن يحتمل أولئك الذين يُذيعون أموراً أخرى؟

١١٤- نفس الشاهد

وكيف لا يُعد أولئك الذين يتطاولون على تسمية ابن الله بأنه مخلوق، خارجين عن أي تفكير صالح؟ لأنه، بما أنه ابنٌ حقاً، فكيف يمكن أن يكون مخلوقاً هذا الذي يأتي من جوهر الآب؟ لأن هذا هو ما يعنيه اسم الابن، عندما يُستخدم لشخص من جهة الطبيعة. أمّا فضيلة الأبناء بحسب التبني، فهي شيءٌ أخر، وعلى ذلك، فهو حقاً الابن، وبسبب هذا يُميَّز هو عنّا نحن الذين نلنا التبني. لأنه لا يوجد تبنٍّ أو مماثلةً بيننا وبين الابن بحسب النعمة، إن لم يكن الابن الحقيقي كائناً قبلاً، وهذا ما يسمح لنا أن نصير مثله بحسب النعمة.

١١٥- شاهِدٌ آخر

"وَلَمَّا جَاءَ يَسُوعُ إِلَى نَوَاحِي قَيْصَرِيَّةِ فِيلُبُّسَ سَأَلَ تَلاَمِيذَهُ قِائِلاً:«مَنْ يَقُولُ النَّاسُ إِنِّي أَنَا ابْنُ الإِنْسَانِ؟ فَقَالُوا:«قَوْمٌ: يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانُ، وَآخَرُونَ: إِيلِيَّا، وَآخَرُونَ: إِرْمِيَا أَوْ وَاحِدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ». قَالَ لَهُمْ:«وَأَنْتُمْ، مَنْ تَقُولُونَ إِنِّي أَنَا؟» فَأَجَابَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ وَقَالَ: «أَنْتَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ الْحَيِّ!». فَأجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ:«طُوبَى لَكَ يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا، إِنَّ لَحْماً وَدَماً لَمْ يُعْلِنْ لَكَ، لكِنَّ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ" (مت ١٦: ١٣ - ١٧).

جسداً إلا أنه كله قدوس، بدون أن يُقسّم إلى إله وإنسان من بعد الاتحاد الذي لا يُوصف، أي بعد اتحاده بالجسد، لكن هو إلهٌ واحد وفي الوقت نفسه هو إنسان، أي غير منفصل بأي طريقة كما كتب بولس الحكيم (راجع ١ كو ١١: ٤)]. السجود والعبادة بالروح والحق، المرجع السابق، الجزء الخامس، المقالة التاسعة ص ٦١.

يمكننا أن نرى في هذه الأقوال التي قالها الرب نفسه، أن الآب أعلن لبطرس، وأن بطرس لم يقبل إعلاناً من إنسان في اعترافه بأن الابن هو **كلمة** الله. فبالرغم من أنه رآه متجسداً على الأرض، ويلتقي بالبشر ويعاشرهم، إلاَّ أن العجيب في الأمر، أن يعترف بالابن دون أن يُصنِّفه ضمن أولئك الذين هم أبناء بحسب النعمة. فهو لم يقل إنه واحدٌ من أبناء الله، بل إن المسيح هو واحدٌ ووحيدٌ، وهو أيضاً الابن بحسب الطبيعة الذي أتى من جوهر الآب. لذلك طُوِّبَ لأنه قال الحق، وتعلَّم من الله الآب الأمور التي تفوق عقل الإنسان.

كيف إذن يتجرَّأون ويقولون عنه إنه مخلوقٌ أو مجبولٌ، هذا الذي يعترف به الآب أنه الابن، وبالتالي يُعلنه الآب لأولئك المستحقين لذلك؟

١١٦- شاهِدٌ آخر

"فَإِنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ سَوْفَ يَأْتِي فِي مَجْدِ أَبِيهِ مَعَ مَلاَئِكَتِهِ، وَحِينَئِذٍ يُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ حَسَبَ عَمَلِهِ" (مت ١٦: ٢٧).

فإذا كان الله الآب يقول الحق حين قال: "مجدي لا أعطيه لآخر" (أش ٤٢: ٢٨)، فكيف يعطيه للابن إن كان حقاً - كما يزعمون - مخلوقاً، ومختلفاً عنه من جهة طبيعته، ومنفصلاً عنه من جهة الوحدة معه في الجوهر؟ لكن يتحتم علينا أن نعترف بأن الآب يقول الحق. وأنه قد أعطى مجده للابن، ليس كهبةٍ أُعطيت له من الخارج بل بكونه إلهاً. لأنه إذا كان الكون يرى - في الثالوث القدوس والمساوي - إلوهيةً واحدةً مكتملةً، فكيف يكون الابن مخلوقاً، في حين أنه واحدٌ مع الآب في الجوهر، كونه ابناً حقيقياً مولوداً من الآب؟

١١٧- شاهِدٌ آخر

"وَفِيمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ إِذَا سَحَابَةٌ نَيِّرَةٌ ظَلَّلَتْهُمْ، وَصَوْتٌ مِنَ السَّحَابَةِ قَائِلاً: هذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ" (مت ١٧: ٥).

إذا لم تكن المسافة بين المخلوق والابن شاسعة، لأمكن لكلِ مخلوق أن يكون ابناً، وإن كان كائنٌ ما ابناً، فهو يكون مخلوقاً أيضاً. وبما أننا نلد من ذواتنا، لكن حين نصنع

(نخلق) شيئا نصنعه مستخدمين مادة مختلفة عن طبيعتنا[١]، فكيف لا يكون الاختلاف عظيماً بين الابن والمخلوق؟ إذن، فالاختلاف بين الولادة والصُنع هو اختلافٌ قائمٌ بالنسبة لنا، وليتنا نطبِّقه أيضاً فيما يخص الله[٢].

ثم كيف يمكن أن نعتبر الابن الحقيقي مخلوقٌ أو مجبولٌ، في اللحظة التي فيها يصرخ الله الآب من فوق قائلا: "هذَا هُوَ ابْنِي"؟ وليس واحداً من أبنائي، لكنه الابن الوحيد بحسب الطبيعة، وإن كان بحسب التشبُّه به، يوجد أبناء بالتبني، يمكنهم أن يصرخوا بروح الابن: "يا أبَّا الآب" (رو ٨: ١٥).

١١٨- شاهِدٌ آخر

"وَإِذَا وَاحِدٌ تَقَدَّمَ وَقَالَ لَهُ: «أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ، أَيَّ صَلاَحٍ أَعْمَلُ لِتَكُونَ لِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ؟» فَقَالَ لَهُ:«لِمَاذَا تَدْعُونِي صَالِحاً؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحاً إِلاَّ وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ" (مت ١٩: ١٦ - ١٧).

الصلاح في حد ذاته بالنسبة لله ليس صلاحا عن طريق مشاركة آخر، بل الصلاح لديه في طبيعته، التي تنبع من ذاته. أو بالحري هو نفسه يكون بحسب الطبيعة ما نقول عنه إنه صلاحٌ. فإذا كان الصلاح خاص بالآب ذاته، وخاص أيضاً بالابن في ذاته، فإلى أيٍّ منهما ننسب الصلاح؟ أو ماذا يكون الصلاح حقاً؟ ربما يمكن لشخصٍ أن يقول إن هذا يتناسب مع الآب. حسناً، سوف نوافق، طالما مازلنا نبحث الموضوع. فإذا كان الأمر على هذا النحو، فمَنْ إذن يمكنه أن يتجرَّأ على القول بأن الابن ليس صالحاً بحسب الطبيعة، عندما يسمعه يقول: "أنا والآب واحد"؟ (يو ١٠: ٣٠)، "ومن رآني فقد رأى الآب" (يو ١٤: ٩). لأنه إن لم يكن الابن صالحاً بحسب الطبيعة، فكيف يُظهر لنا في ذاته الآب الذي هو صالحٌ بحسب الطبيعة؟ وإذا كان هو صورة الآب، فهو إذن صالحٌ أيضاً، مثل الآب تماماً.

لكن كيف يكون الصالح واحداً، وفق أقواله هو؟ من الواضح أنه، إذا كان الثالوث القدوس، بسبب وحدة الجوهر، له إلوهية واحدة، وأنه صالحٌ بسبب الجوهر الإلهي

---

(١) أي مثلما يصنع النجار الأثاث من مادة الخشب، فهو لا يصنعه من طبيعته مثل عملية الولادة.

(٢) أي أن ولادة الآب للابن تختلف جذرياً عن عملية الخلق والصنع.

الواحد، وبما أن الله **الكلمة** واحدٌ مع الآب في الجوهر الواحد والطبيعة الواحدة، فكيف يمكن أن يكون **الكلمة** مخلوقاً أو مجبولاً؟

١١٩- شاهدٌ آخر

"وَأَمَّا يَسُوعُ فَكَانَ سَاكِتاً. فَأَجَابَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ وَقَالَ لَهُ: أَسْتَحْلِفُكَ بِاللهِ الْحَيِّ أَنْ تَقُولَ لَنَا: هَلْ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ؟ قَالَ لَهُ يَسُوعُ: أَنْتَ قُلْتَ! وَأَيْضاً أَقُولُ لَكُمْ: مِنَ الآنَ تُبْصِرُونَ ابْنَ الإِنْسَانِ جَالِساً عَنْ يَمِينِ الْقُوَّةِ، وَآتِياً عَلَى سَحَابِ السَّمَاءِ" (مت ٢٦: ٦٣ - ٦٤). ما هي النتيجة التي نخرج بها من هذه النصوص؟

عندما تُستخدم كلمات مثل: "جلس" و"عرش" عن الله، فهي تُستخدم لكي تُظهِر مكانته الربوبية والملوكية وسلطانه وقوته كضابطٍ للكل. لأنه لا يستطيع أحدٌ من الحكماء أن يزعم أننا يجب أن نتخيل الله، مثل ما نراه في معارض الصور، فلا يجب علينا أن نفكر بأنه يوجد عرشٌ ما، ونؤمن أن رب الكل جالسٌ فوقه، بل ولا يوجد يمين ويسار في الطبيعة الإلهية غير المدرَكة. لأن الشكل والمكان، ومسألة أن يجلس ويقوم، إنما هي أمورٌ تتناسب مع الأجسام. لكن إذا كانت تلك الأسماء والكلمات لها هذه الأهمية عند الله، فماذا تعني، وماذا يقصد الابن بقوله إنه سوف يظهر جالساً على يمين القوة، كجليسٍ مع الآب على نفس العرش، وليس في المرتبة الثانية في الكرامة - مثلما يمكن لأحدٍ أن يظن - بالنسبة للآب؟ يبدو أن ما يعنيه باليمين، هو ما درجنا على الإشارة به إلى ما هو أسمى مِنا.

إذن كيف يظهر الابن مساوياً وجليساً على العروش مع الآب، إن لم يكن هو الابن بحسب الطبيعة وله كل خواص الآب بحسب الطبيعة، بل مخلوقاً، مثلما يقول أولئك مثرثرين؟ لأنه يتحتم علينا أن نعترف: إمَّا بأن الخليقة لم يَسُدها الإله الحقيقي ويملك عليها، أو أن إلهاً آخر مخلوقٌ وغريبٌ هو الذي يدبِّرها، وحينذاك لا يكون الله واحداً بالنسبة لنا، وفق الكتاب (أنظر تث ٦: ٤)، أو أن يكون الله واحدًا، ويملك معه الابن الذي هو الله، عندئذ بسهولة يكون له الطبيعة ذاتها التي للآب.

هكذا إذن يكون الله واحداً؛ لأن الثالوث القدوس له طبيعة واحدةٍ وإلوهة واحدة، لأنه بالرغم من أن كلَ واحدٍ من أسماء الثالوث يُدرَك على أنه فريدٌ وذو وجودٍ مميَّز، إلاَّ أنه

يقبل بطريقة متآلفة رقم ثلاثة[1]. إذن، فعندما يكون الابن له جوهر الآب غير المخلوق، كيف يمكن أن يُدرَك كمخلوق، وفق عدم تبصر الهراطقة، وليس كثمرة أصيلة مثلما هو كائنٌ حقاً؟

(1) يقصد هنا أن الثالوث حقيقي أي ثلاثة أقانيم آب وابن وروح قدس، ثلاثة من حيث العدد، وهنا نجد الوحدة والتنوع أي واحد في ثالوث وثالوث في واحد.

عشرون:

من الإنجيل بحسب يوحنا

١٢٠- "فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ" (يو ١: ١).

إذا كان الكلمة يوجد في بدء الزمن مثلما نتخيَّل هذا البدء (ليت حديثنا يُصاغ هكذا بحسب التدبير)، فكيف يمكن **للكلمة** أن يصير بعد البدء؟ لأن هذا الذي يأتي إلى الوجود - بشكل عام - عن طريق الخلق، لا يمكن إطلاقا أن يُدرَك في البدء[1]، ولا يمكن أن يُدعى البدءُ بدءً، طالما سبقه زمنٌ، وإنَّ شيئاً ما قد وُجِد قبله.

وعلى الأفضل، ليتهم يقولون إن شيئاً لم يوجد مطلقاً قبل البدء، وهكذا يقدمون حلاً لهذا الموضوع، أو ليقولوا إنه يوجد بدءٌ آخر للبدء، ودعهم يقولون هذا الأمر عن جهل. لكن ليتهم يسمعون أيضاً مِنّا: إن هذا البدء الأعظم الذي يقبلونه، هو هذا الذي نقول نحن بمقتضاه في البدء كان **الكلمة**. إذن كيف لا تكون كلمة "كان" كافيةً لنا، لكي

---

(١) تعبير "في البدء" الوارد في يو ١:١ هنا ليس خاصاً بالزمن، لأن الابن الوحيد هو قبل كل الأزمنة والدهور. وكما يؤكد القديس كيرلس في شرحه لإنجيل يوحنا، البدء الذي يمكن قياسه بالزمان والمكان يتخطاه الابن، هكذا البدء في إنجيل يوحنا هو بدء أزلي، إذ يقول: " ومع أن كل بداية لا يمكن أن تكون بلا نهاية لأن البداية تُسمىّ بداءة من زاوية خاصة وهي وجود نهاية لها، وكذلك النهاية تُسمىّ نهاية بسبب وجود بداية لها. هذه البداية خاصة بالزمان والمسافة، ففي الزمان والمسافة البداءة تعني نهاية والعكس. أما بالنسبة للابن فالبدء ليس بدءاً زمنياً ولا جغرافياً، فهو أزليّ وأقدم من كل الدهور، ولم يُولَد من الآب في الزمان لأنه "كان" مع الآب، مثل الماء في الينبوع، أو كما قال هو "خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِ الآبِ وَقَدْ أَتَيْتُ إِلَى الْعَالَمِ " (يوحنا١٦:٢٨). فإذا اعتبرنا الآب المصدر أو الينبوع، فإن **الكلمة** كان فيه لأنه حكمته وقوّته وصورة جوهره وشعاع مجده. وإذا لم يكن وقت كان الآب فيه بلا حكمة و**كلمة** وصورة وشعاع، فإنه من الواضح أن وجود الابن الذي هو حكمة و**كلمة** وصورة الآب وشعاع مجده أمر لا يحتاج إلى إقرار منا، فهو أزليّ مثل الآب الأزلي، وإلاّ كيف يوصف أنه صورته الكاملة ومثاله التام، إلاّ إذا كان له بوضوح ذات الجمال الذي هو على صورته". شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، ص ٤٣.

نقلب رأى هؤلاء الذين يقولون إنه خُلِق؟ لأنه إذا كان كائناً وموجوداً في الأزل، فإنه لم يُخلَق، وإلاَّ لَمَا كان موجوداً. لكن، ولأنه كان موجوداً، فإنه لم يوجد، ولم يُخلق؛ لأنه كان موجوداً بالفعل، و لم يُخلَق، ولا يمكن إطلاقاً أن يقال إنه خُلِق في البدء.

١٢١- شاهِدٌ آخر

"وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ" (يو ١: ١).

يبدو الإنجيلي الطوباوي، وكأنه يفسر لنا بوضوح تام مفهوم البدء، فيقول ليس البدء شيئاً آخر إلاَّ الآب ذاته، الذي منه أشرق **الكلمة** المحيي، مثل النور من الشمس، والذي يُدرَكُ على أنه شيءٌ آخر غير الشمس، لكنه ليس خارجاً عن جوهر ذاك الذي بَعَثَهُ. فبدءُ الابن إذن هو الآب[١].

لكننا عندما نقول البدء، فنحن لا نعني به ما يُقاس بالفترات الزمنية، لكن ذاك الذي يُدرَك في نفس الوقت أيضاً من البدء. فحرارة النيران مثلاً لها بداية، هي النار، لكنها تُدرَك في نفس الوقت على أنها تأتي منها وتنتمي إليها، وهى غير منفصلة عنها. كذلك أيضاً، البرودة التي تأتى من الماء، لها بداية هي الماء، لكنها تتولد في نفس الوقت منه، وتوجد فيه وهى لا تنفصل عنه. لأنه من المستحيل أن يوجد أو يظهر أي شيء مما ذكرنا (الحرارة، البرودة) دون خصائص طبيعية، إلاَّ لو كان قد انتُزِعَ من قوة أخرى واختل الفعل المعتاد فيه، مثلما يخضع الماء لعملية التسخين بواسطة النار[٢].

---

(١) هذه الحقيقة يوضحها القديس كيرلس بالتفصيل في شرحه لإنجيل يوحنا وبالتحديد في يو١:١ مؤكداً أن البدء هو الآب، إذ يقول: "والإنجيلي المبارك - على ما يبدو لي - يسمى الآب "البدء ἀρχή" أي القوّة والسيادة التي على الكّل أي الطبيعة الإلهية التي فوق الكّل والتي تحت أقدامها تستقر الطبائع المخلوقة التي هي كائنة ومدعوة للوجود بسبب إرادة اللاهوت. في هذا "البدء ἀρχή " الذي هو فوق الكّل وعلى الكّل "كان الكلمة"، ليس مع الطبائع المخلوقة التي تحت قدميّ البدء وإنما عالياً عنها جميعاً لأنه "في البدء" أي من ذات الطبيعة والكائن دائماً مع الآب، وله طبيعة الذي ولده كمكان أزليّ قبل الكّل". شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، ص ٤٥.

(٢) يستخدم القديس كيرلس أمثلة لكي يوضح المفاهيم الإلهية لكن كما يؤكد هو نفسه أن الابن هو فوق وأسمى من هذه الأمثلة، وفي شرحه لإنجيل يوحنا يسترسل في طرحه للأمثلة في نفس سياق آية يو ١:١، إذ يقول: "هل من اعتراض على أن الابن في الآب مثل الماء في الينبوع، أو أن الآب هو الينبوع؟ إن كلمة ينبوع تعني هنا المعيّة. لأن الابن في الآب وهو من الآب، ليس كَمَنْ يأتي من الخارج في الزمان، بل هو من ذات جوهر الآب، يشع

أمَّا الطبيعة الإلهية وغير المتغيِّرة، التي هي أسمى من الأمثلة التي ذكرناها، فتظل دائماً في ذاتها، وتظل دائماً غير متغيِّرة؛ لأنها لا تخضع لأي تغيير. إذن يُقال إن **الكلمة** كان يوجد في البدء عند الآب؛ لكي تفهم، أن الآب في نفس الوقت كان يوجد، **والكلمة** الذي يأتي منه أيضاً كان يوجد فيه، بدون أن يتوسط أيُ زمنٍ في وجوده؛ لأن تعبير "كان يوجد" يجبرنا على أن نُدركه هكذا.

١٢٢- شاهِدٌ آخر

"وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ" (يو ١: ١).

هنا ينفي بوضوح الرأي القائل بأن الابن هو إلهٌ قد صار في زمن لاحق؛ لأن الإنجيلي القديس يقول: "كَانَ اللهَ"[١]. وهذا الذي هو الله في البدء، كيف يمكن أن يكون مخلوقاً؟

على الجانب الآخر، جيدٌ أن نعرف أيضاً أن ذاك الذي يكون إلهاً بحسب النعمة، وليس إلهاً بحسب الطبيعة، لا بُد له من أن يوجد أولاً، وأن يتقبل إضافةً ما، أو يكتسب

مثل الشعاع من الشمس أو صدور الحرارة من النار. هذه الأمثلة تعني أن نرى كيف يُولَد أو يصدر شيء من شيء، وفي نفس الوقت لا يصدر متأخراً أو بعد زمن، أو أن تكون له طبيعة مختلفة بل يصدر الشيء من الشيء ويظّل كائناً معه لا ينفصل عنه، بل لا يمكن لأي منهما أن يوجد بدون الآخر، فلا شمس بلا شعاع ولا شعاع بدون شمس تشعه من داخلها. ولا نار بلا حرارة ولا حرارة إلاّ من نار. فالانفصال يعني أن يفقد الشيئان معاً الطبيعة التي تميزّهما. فكيف تصبح الشمس شمساً بلا أشعة، وكيف تصبح النار ناراً بلا حرارة". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، ص ٤٢.

(١) إن فعل "كان" عند القديس كيرلس له أهمية لاهوتية عظيمة فهو يدل على الميلاد الأزلي غير المدرك، إذ يقول في شرحه لإنجيل يوحنا: " يضيف (الإنجيلي) إلى كلمة "البدء" فعل "كان" لكي ندرك أن **الكلمة** ليس حديثاً "بل أزليّاً" وقبل كل الدهور. والفعل "كان" وُضِعَ هنا لكي يحمل كل مفكّر إلى أعماق سحيقة وهي الميلاد الأزليّ غير المُدرَك الذي هو فوق الزمان. وفعل "كان" هو فعل مطلق لا يمكن أن يتوقف لا سيما إذا أقترن "بالبدء" و "كان" يعلو على الزمان ولا يمكن قياسه. فهو دائماً يسبق الفكر، ومهما حاول العقل أن يتصور أنه وقف عند "كان" يجد بعد ذلك أن النقطة التي توقف عندها هي أقل بكثير من فعل "كان". إذن "فالكلمة كان في البدء"، أي كان في السيادة على الكّل، وله صفات الربوبية لأنه من الله وما دام هذا هو الصحيح فكيف يمكن أن يُقال أنه خُلِقَ!؟ وكيف ينطبق هذا الإدعاء على معنى فعل "كان"؟ وكيف يمكن مصالحة الذي "لم يكن" مع الذي "كان"؟ وأي مكان هناك بالمرّة لعبارة "لم يكن" فيما يخص الابن؟". شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، ص ٤٦.

مكانةً ليست له بالطبيعة، وذلك مثلنا نحن البشر، فبينما نحن بشرٌ بحسب الطبيعة، ندعى آلهةً بحسب النعمة (أنظر ١ يو ٣:١)[١].

وحسنا، ليتهم يقولون لنا ماذا كان بالضبط - من قبل - الله **الكلمة** المولود من الآب، وكيف دُعيَ إلهاً بعد ذلك؟ لأنهم لو أدركوا أنهم يجدِّفون مجرِّدين الابنَ من الإلوهية بحسب الطبيعة، لتوقفوا عن أن يقولوا - بطريقة جاهلة – إنه قد خُلِق، مع أنه إلهٌ بحسب الطبيعة، خصوصاً وإنه لا يوجد قولٌ كتابيٌ واحدٌ يسمح لهم أن يؤمنوا بذلك.

١٢٣- شاهِدٌ آخر

"هذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللهِ" (يو ١: ٢).

يُظهِر الإنجيلي أن الابن لم يكن خارج جوهر الآب، لكنه كان يوجد فيه ويأتي منه بحسب الطبيعة[٢]. وهذه المكانة، يقول عنها إنه لم يأخذها في الزمن، لكن كان هكذا من البدء. إذن، فثمرة جوهر الآب الحقيقية التي ولدها، كيف يمكن أن يكون لها طبيعةٌ أخرى؟ لأنه إذا كان من المستحيل أن يتحول الشوك عنباً، هكذا أيضاً من المستحيل أن يولَد الشوك من الكرمة. الآبُ إذن هو الله بحسب الطبيعة، وهكذا يكون الابن أيضاً بالنسبة لنا، حتى لا يظهر الله الآب وكأنه أدنى من مخلوقاته؛ لأنه في الوقت الذي لا تلد فيه تلك المخلوقات ثمرةً فاسدةً، يبدو الآب الذي هو الله – للهراطقة - وكأنه يعاني ولادة هذا الذي ليس إلهاً بالطبيعة.

١٢٤- شاهِدٌ آخر

"كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ، وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ" (يو ١: ٣).

---

(١) "أُنْظُرُوا أَيَّةَ مَحَبَّةٍ أَعْطَانَا الآبُ حَتَّى نُدْعَى أَوْلاَدَ اللهِ" وق كيرلس يقصد أننا صرنا بحسب النعمة أبناء لله.

(٢) يقول القديس كيرلس هذه الحقيقة بكل وضوح في نفس السياق أثناء شرحه للإصحاح الأول من إنجيل يوحنا، قائلاً: "الابن هو من الجوهر نفسه مع الآب، والآب هو من الجوهر نفسه مع الابن، وكلاهما مساوي ومثل الآخر تماماً بلا تغيير حتى أننا نرى الآب في الابن والابن في الآب، وكلاهما يُشرِق من خلال الآخر مثلما قال المخلّص نفسه " اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ" و"أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ" (يو ١٤:٩، ١٠)". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، ص ٤٨.

"كُل"، أي كل أولئك الذين خُلقوا بواسطة **الكلمة** . أمَّا إن كان **الكلمة** شبيهاً مع هذه المخلوقات، وكان قد خُلِقَ مثلهم، عندئذٍ لن يكون مختلفاً عن "الكل".

لكن لأنه مختلفٌ عنهم(١)، فهو إذن ليس شبيهاً بجنس المخلوقات. وبالتالي فهو غير مخلوق، لكنه بالحري خالقٌ وجابلٌ بكونه إلهاً.

١٢٥- شاهِدٌ آخر

"لِلرَّبِّ إِلهِكَ تَسْجُدُ وَإِيَّاهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ" (مت ٤: ١٠ - تث ٦: ١٣).

كيف إذن يكون الابنُ - وفق أولئك - مخلوقاً، يُسجد له منا ومن الملائكة القديسين؟ وبولس يشهد، قائلاً: "وَأَيْضاً مَتَى أَدْخَلَ الْبِكْرَ إِلَى الْعَالَمِ يَقُولُ: «وَلْتَسْجُدْ لَهُ كُلُّ مَلاَئِكَةِ اللهِ" (عب ١: ٦). فإن كان الأمر كما يقولون، فكيف تُحسب جريمة ثقيلة على أولئك الذين قد عبدوا الخليقة وليس الخالق، إن كانوا يعبدون الابن الذي له طبيعة مخلوقة، وكان مخلوقاً بحسب آرائهم، على أنه إلهٌ، بينما تعبده القوات السماوية الطاهرة التي هي أكثر إدراكاً منا وبدون شك لا يصيبهم أي ضلال؟

لكن هؤلاء الذين يعبدون المسيح، لن يوجَّه لهم أيَ لومٍ، بل على العكس، سيكون أجرهم عظيماً. بالتالي فهو ليس مخلوقاً، لكنه هو الله الذي يُسجد له بدون إدانةٍ وشبهةٍ من كل الخليقة معاً.

١٢٦- ذات الشاهد السابق

إذا كان الابن - وفق أولئك - مخلوقاً ومجبولاً، وبالرغم من ذلك فقد صار الكل بواسطته، لكانت الخليقة عندئذ تخلق ذاها، وزوراً (ليس عن حق) يتباهى الابنُ كمخلوق،

---

(١) بحسب القديس كيرلس، الإنجيلي يوحنا يفند فكرة تعدد الآلهة في هذه الآية يو١:١، إذ يقول: "الإنجيلي يقدّم لنا الابن الوحيد كخالق وصانع: "**كل شيء به كان**" وأيضاً "**وبغيره لم يخلق شيء**"، وبذلك أغلق إلى الأبد المدخل المؤدي إلى ضلال تعدد الآلهة. وأعلن الابن الوحيد، للذين لم يعرفوه (الوثنيين) كخالق الكلّ. وبهذه الكلمات يقول إن الخليقة قد خلقها الابن الوحيد، لكي يَظهر أنه لم يأت أحد إلى الوجود إلاّ بقوّة الابن الوحيد، فهو القوّة التي أتت بكلّ الكائنات من العدم إلى الوجود". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٧٧.

قائلاً: "أَنَّ يَدَ الرَّبِّ صَنَعَتْ هذَا" (أيوب ١٢: ٩)[١]. لكن أيّاً من المخلوقات لا يبدو أنه يخلق، بل على النقيض، تكرز الخليقة بالله الخالق. بالتالي ليس الابن مخلوقاً، ولا واحداً من المخلوقات وفق طيش وعدم تقوى هؤلاء الذين قد ضلّوا.

١٢٧- شاهدٌ آخر

"كَانَ النُّورُ الْحَقِيقِيُّ" (يو ١: ٩).

إذا كان الآب هو النور الحقيقي، وكذلك الابن أيضاً هو النور الحقيقي، فأي اختلاف يمكن أن يكون لدى الابن بحسب الطبيعة في علاقته مع الآب، الابن الذي هو مساوٍ للآب.

وإذا كان الابن يمكن أن يُدعى نوراً حقيقياً بالرغم من أن طبيعته تختلف عن طبيعة الآب - وفق عدم تبصر الهراطقة المرضى - فماذا تعني تلك الملحوظة التي أوردها القديسون الإنجيليون، ولماذا يذكرون - كشيءٍ عظيم ورائعٍ عن الله الآب - أنه النور الحقيقي، إذا أمكن للابن أيضاً أن يظهر كنورٍ حقيقيٍ كما هو وارد في (يو ١:٩)، على الرغم من أنه - وفق أولئك - مخلوقٌ[٢]؟

من الواضح إذن، أن المخلوقات لا يمكنها أن تمتلك خواص الطبيعة الإلهية، ولا يمكن لأيٍ من المخلوقات أن يكون لديه بحسب الجوهر، مثل ما لدى إله الكل بحسب الطبيعة[٣]؛ لأنه يُقال للخليقة: "وأيُ شيءٍ لك لم تأخذه" (١ كو ٤: ٧).

---

(١) هنا المقصود باليد هو الابن، وقد استخدم القديس إيرينيوس – كما قلنا- هذا التعبير لأول مرة في كتابة: "الكرازة الرسولية" ترجمة ومقدمة وتعليقات وفهارس د. نصحي عبد الشهيد و د.جورج عوض إبراهيم، طبعة ثانية- فبراير ٢٠٠٩، ص ٧٦. ونسبح في لبش أدام على ثيؤطوكية الاثنين، قائلين: "لأن أدم أبانا المخلوق الأول بيدي الله الخالق...." والمقصود بتعبير"بيدي الله" هو الابن والروح القدس كما يقول القديس إيرينيوس في المرجع السابق.

(٢) أي هل يعقل أن التلاميذ القديسين يقولون عن الآب أنه النور الحقيقي وكذلك عن الابن بأنه النور الحقيقي وهو له طبيعة مختلفة عن طبيعة الآب، طبعاً الإجابة لا، هم يدركون أن الابن له طبيعة الآب ذاتها بكونه واحداً مع الآب في الجوهر، إذن الابن غير مخلوق.

(٣) يؤكد القديس كيرلس بهذه الأقوال على أننا ليس لدينا الخواص الإلهية بحسب الطبيعة بل تظل طبيعتنا بشرية، وكذلك ما لدينا من مواهب ونِعَم إلهية قد اكتسبناها بحسب النعمة.

أمَّا الابن، فإن له كل خواص الآب بحسب الطبيعة، وبالتالي فهو واحدٌ مع الآب في الجوهر، وهو يختلف كثيراً جداً عن طبيعة المخلوقات، بقدر ما يختلف عنها أيضاً الآب الذي وَلَدَه. ومن أجل ذلك أيضاً، فإن مكانته التي تليق بالله هي مكانةٌ كاملةٌ وليست جزئية، ولا يُقترب منها.

١٢٨- شاهِدٌ آخر

"وَأَمَّا كُلُّ الّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَاناً أَنْ يَصِيرُوا أَوْلاَدَ اللهِ، أَيِ الْمُؤْمِنُونَ باسْمِهِ" (يو ١: ١٢).

أمَّا الهرطوقي الذي يحب العصيان، فليته يُسدِ لي خدمةً وينتبه جيداً، ليته يسمع أيضاً الآن: يرجع أصل كل واحدٍ من الكائنات إلى طبيعته، أو بحسب قياس مكانته. فعلى سبيل المثال، من جهة الطبيعة، أنا إنسان، بينما الملاك هو آخر؛ لأن له طبيعة أخرى. لكن من جهة المكانة، فقد يكون الواحد عبداً، بينما الآخر يمكن أن لا يكون مثله، لكن حُراً.

فإذا ارتبط شخصٌ بآخر، ونتج عن ذلك أنْ تحسَّن وصار مختلفاً عما كان عليه منذ البداية، فإنه يكون قد انتقل إلى حالٍ حسنةٍ هي حالُ ذاك الذي حسَّنه. هذا ما حدث معنا نحن عندما انتقلنا من العبودية إلى بنوة الله الآب، وخرجنا من مكانتنا وقفزنا إلى قياس ذاك الذي منحنا هذا، بالرغم من أننا دُعينا أولاد الله ليس بحسب الطبيعة[1].

إذن هل يمكن أن نقول إن الطبيعة البشرية لم تستفِد من جهة هذا الأمر؟ لكن إن كنا نعترف بهذه الاستفادة، فكيف حدثت إن لم يكن هناك شيءٌ يميِّز الابن عن المخلوق، وما هو الأفضل الذي انتقلنا إليه، إن لم يكن في البنوة ما هو أكثر من أننا فقط قد خُلقنا؟ أو كيف صرنا أبناءً بقبولنا **كلمة** الله داخلنا، لو لم يكن هو ابن الآب بحسب الطبيعة؟ وإذا كان هو الابن بحسب الطبيعة، فكيف يمكن أن يكون مخلوقاً، إذا كان من غير الممكن ألاَّ يكون مَن وُلِدَ مِن طبيعة ذاك الذي ولده؟

---

(1) أي أن طبيعتنا وأصلنا البشري لم يتغير، وهذا يدل على أنه حين يستخدم الآباء مصطلح "التأله" لا يقصدون – كما قلنا – تغير طبيعة وأصل البشر إلى طبيعة وأصل إلهي بل اكتساب مواهب ونِعَم إلهية بحسب النعمة وليس بحسب الطبيعة، بفضل شركة الروح القدس.

١٢٩- شاهِدٌ آخر

"لأَنَّ النَّامُوسَ بِمُوسَى أُعْطِيَ، أَمَّا النِّعْمَةُ وَالْحَقُّ فَبِيَسُوعَ الْمَسِيحِ صَارَا" (يو ١:١٧).

إن كان الابن ليس هو الله بحسب الطبيعة - كما يقولون - لَكان ابناً بالتبني ومزيَّفاً. لكن بما أنه حقٌ ويعمل الحق، فكيف يمكن أن يكون مزيَّفاً وكاذباً؟ بالتالي هو الله بحسب الطبيعة، وهذا الذي هو الله، كيف يمكن أن يكون مخلوقاً؟

١٣٠- شاهِدٌ آخر

"هُوَذَا حَمَلُ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ" (يو ١: ٢٩).

يقول الله في موضع آخر على لسان أشعياء النبي الطوباوي: "أَنَا أَنَا هُوَ الْمَاحِي ذُنُوبَكَ لأَجْلِ نَفْسِي، وَخَطَايَاكَ لاَ أَذْكُرُهَا" (أش ٤٣: ٢٥). إذن عندما يُقال إن الله هو الذي يفعل هذه الأمور، وإنَّ المسيح هو ذاك الذي يرفع خطية العالم، فكيف لا يكون هو الله؟ فبما أنه هو الله[1]، إذن فهو ليس مخلوقاً.

١٣١- شاهِدٌ آخر

"فِي الْغَدِ أَرَادَ يَسُوعُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْجَلِيلِ، فَوَجَدَ فِيلُبُّسَ فَقَالَ لَهُ: اتْبَعْنِي" (يو ١:٤٣).

بهذه الأقوال جعل المخلّص فيلبس تلميذاً له.

---

(١) يؤكد القديس كيرلس على أن المسيح هو الله من منطلق التدبير الخلاصي الذي أتمه الابن لأجل خلاص العالم، فما كان لنا أن ننعم بغفران الخطايا إن لم يكن المسيح هو الله، وينطبق هذا على بقية النِعَم الإلهية التي حصلنا عليها، وهذا ما يؤكده أثناء شرحه لإنجيل يوحنا: "فالذي صوّرته هذه الرموز بشكل غامض أي الحمل نفسه، والذبيحة التي بلا عيب، قد جاء لكي يقاد إلى الذبح لأجل الكلّ، لكي يرفع خطيّة العالم، لكي ما يبيد المُهلك من الأرض. وعندما يموت عن الكلّ، يبيد الموت، ويُبطل اللعنة التي لحقت بنا، ويضع حداً لما قيل " لأَنَّكَ تُرَابٌ وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ" (تك ٣:١٩). وبذلك يصبح آدم الثاني، ليس "من التراب" وإنما من السماء، ويصبح بداية كلّ الصالحات للطبيعة الإنسانية، ومحرّر الإنسان من الفساد الدخيل، ومانح الحياة الأبدية، وأساس المصالحة مع الله، وبداية التقوى والبِّر، والطريق لملكوت السموات". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص١٥٢ - ١٥٣.

وعليك في هذه الحالة أن تلاحظ حكمته التي تبرهن على أنه الابن بحسب الطبيعة. وكثيرون هم الذين خدموا الرب، والجمع الذي تبع تلاميذه كانوا آلافاً، وقد رفع الرب عينيه وقال: "إِنَّ الْحَصَادَ كَثِيرٌ، وَلكِنَّ الْفَعَلَةَ قَلِيلُونَ. فَاطْلُبُوا مِنْ رَبِّ الْحَصَادِ أَنْ يُرْسِلَ فَعَلَةً إِلَى حَصَادِهِ" (لو ١٠: ٢). فـ "الحصاد" لا يعني شيئاً آخراً إلاَّ أولئك الذين بإيمانهم به زرعوا - كسنابل - التقوى في ذواتهم. ومَنْ يكون الرب بالنسبة لهؤلاء، إذا لم يكن هو إله الجميع، الذي به يترجى بولس الورثة أن يخدموا خدمة المصالحة بواسطة التوبة، قائلا: "نَطْلُبُ عَنِ الْمَسِيحِ: تَصَالَحُوا مَعَ اللهِ" (٢كو٥:٢٠)؟

إذن، ولأن رب الحصاد، هو فقط الله، طالما أنه هو رب وخالق الجميع، فقد قال المخلص أيضاً إنه هو فقط المختص باختيار الفعلة[1]. وبما أنه كان هو الذي فعل هذا، وأظهر ذاته هكذا بأصالته؛ لأنه أمر فيلبس أن يتبعه، إذن فهو الإله الحقيقي؛ لأنه بواسطة هذه الأمور، ظَهَرَ أيضاً أنه رب الحصاد.

١٣٢- شاهِدٌ آخر

"وَقَالَ لِبَاعَةِ الْحَمَامِ: ارْفَعُوا هذِهِ مِنْ ههُنَا! لاَ تَجْعَلُوا بَيْتَ أَبِي بَيْتَ تِجَارَةٍ" (يو ٢: ١٦).

إذا كان الابن مخلوقاً، لَكان له الحق - بحسب النعمة - أن يُدعى إلهاً، وأن يسمى ابناً بالتبني، وذلك على غرار المخلوقات العاقلة الأخرى التي لها رتبة البنوة، ليس بسبب

(1) هو إذن رب الحصاد لأنه اختار بنفسه التلاميذ والرسل السبعين، وهذا ما يؤكده القديس كيرلس في شرحه لإنجيل لوقا وبالتحديد لو ١٠:١ - ٣، إذ يقول: "ولاحظوا أنه بينما يقول المسيح "اطلبوا من رب الحصاد أن يُرسِل فعلة إلى حصاده"، فهو يفعل هذا بنفسه، ورغم أنَّ الذي مَعَنا الآن هو رب الحصاد، أي رب سكان الأرض، إلا أنه هو نفسه بالطبيعة وبالحق، "الله"، لأنه كما يقول الكتاب "له الأرض وملؤها" (مز ٢٤: ١)، وهو خالق الكل ومصوِّرهم، ولكن إن كان من اختصاص الله العلي وحده أن يُرسِل فعلة " فكيف حدث أنَّ المسيح هو الذي عيَّنهم ؟ أفليس هو إذن رب الحصاد، والله الآب، معه، هو رب كل شيء. كل شيء إذن له، ولا يوجد شيء مِمَّا يُسمَّى، يخص الآب إلاَّ ويخص الابن أيضاً. فهو نفسه قال للآب: "أولئك الذين أعطيتني من العالم، كانوا لك وأعطيتهم لي" (يو ١٧: ٦) فكما قلت، إن كل ما يخص الآب واضح أنه يخص الابن، وهو يشع بأمجاد أبيه، فمجد الإلوهية يخصه، لا كشيء موهوب له من آخر، ولكن قائم في كرامة تخصه بالطبيعة ". تفسير إنجيل لوقا، الإصحاح العاشر، ص ٢٩٥.

طبيعتها، وإنما بسبب نعمة ذاك الذي قال: "أَنَا قُلْت: إِنَّكُمْ آلِهَةٌ وَبَنو الْعَلِيِّ تُدعَون" (مز ٨٢: ٦). إذن، إذا لم يكن ابناً من جهة الجوهر، لَكان أخاً لأولئك الذين دُعُوا من الله إلى البنوة. وعلى ذلك يمكن لأي أحدٍ أن يقول - عن حق - إذا لم يكن للابن شيءٌ أكثر منا من جهة رتبة البنوة، فكيف يجعل الآب أبيه هو فقط قائلاً: "لاَ تَجْعَلُوا بَيْتَ أَبِي بَيْتَ تِجَارَةٍ"؟ لأنه كان يجب عليه في هذه الحالة باعتباره باراً وصالحاً أن يقول للتجار: لا تجعلوا بيت أبيكم بيت تجارة. أمَا وإنه لم يقل هذا بالتأكيد، ولكنه يستخدم اسم "أبي" عندما يتحدث فقط عن ذاته بسلطان عظيم، فهو بالتالي الابن بحسب الطبيعة[1]، وأمَّا نحن فقد دُعينا من الله للبنوة بحسب النعمة. وبما أنه ابنٌ بحسب الطبيعة، فكيف يمكن أن يكون مخلوقاً؟

١٣٣- شاهِدٌ آخر

"فَأَجَابَ الْيَهُودُ وَقَالُوا لَهُ: أَيَّةَ آيَةٍ تُرِينَا حَتَّى تَفْعَلَ هذَا؟ أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: انْقُضُوا هذَا الْهَيْكَلَ، وَفِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ أُقِيمُهُ" (يو ٢: ١٩).

هنا يسمى المسيح جسده بالهيكل، ويُظهر لنا الإنجيلي هذا الأمر بوضوح حين أضاف مباشرة: "وَأَمَّا هُوَ فَكَانَ يَقُولُ عَنْ هَيْكَلِ جَسَدِهِ" (يو ٢: ٢١). إذن عندما قام من الأموات، تذكَّر التلاميذ أن هذا ما قاله لهم.

حسناً، لا يمكن أن نسمي مكاناً ما هيكلاً حقاً إن لم يسكن الله في داخله. هكذا الأمر أيضاً بالنسبة لنا، فلا يمكن لأحدٍ أن يُسمي الجسد الذي يسكن فيه هيكل النفس. لكننا نصير هياكل عندما يسكن داخلنا الروح القدس بإيماننا بالمسيح. لكن جسد المسيح

---

[1] أيضاً يؤكد القديس كيرلس هذه الحقيقة أثناء شرحه لإنجيل يوحنا للآية ذاتها، قائلاً: "ينبغي أن نلاحظ أنه أيضاً يدعو الله أباه بصفة خاصة لكونه هو وحده منه بالطبيعة، إذ هو المولود منه حقاً، لأنه إن لم يكن هو كذلك، أي لو كان **الكلمة** هو ابن معنا - كواحد منا - أي بالتبني وبمشيئة الآب فقط، فلماذا يأخذ هو وحده لنفسه الفخر العام الذي يخص الكلّ وأمام الكلّ أيضاً، قائلاً، " لا تجعلوا بيت أبي" و لم يقل "بيت أبينا". لأني أفترض أن هذا القول سيكون أكثر مناسبة أن يقوله، لو أنه كان هو أيضاً واحد من أولئك الذين ليسوا أبناء بالطبيعة. ولكن حيث إن **الكلمة** يعرف أنه ليس في عداد أولئك الذين هم أبناء بالنعمة، بل هو من جوهر الله الآب، لذلك فهو يَفْصِل نفسه عن الباقين ويدعو الله أباه ". شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، الإصحاح الثاني ص ١٨٠.

هو حقاً هيكلٌ[1]؛ لأن فيه سرَّ أن يحل كل ملء اللاهوت جسدياً، كما يقول بولس (أنظر كو ٢: ٩). ومن الواضح أن الله **الكلمة** هو ذاك الذي يسكن هيكل جسده. فكيف إذن يمكن أن يكون مخلوقاً، هذا الذي برهن على أن جسده المقدس هو هيكلٌ، والساكن فيه بحسب الطبيعة، إلهٌ؟

١٣٤- شاهِدٌ آخر

"وَلَمَّا كَانَ فِي أُورُشَلِيمَ فِي عِيدِ الْفِصْحِ، آمَنَ كَثِيرُونَ بِاسْمِهِ، إِذْ رَأَوْا الآيَاتِ الَّتِي صَنَعَ. لكِنَّ يَسُوعَ لَمْ يَأْتَمِنْهُمْ عَلَى نَفْسِهِ، لأَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ الْجَمِيعَ. وَلأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُحْتَاجاً أَنْ يَشْهَدَ أَحَدٌ عَنِ الإِنْسَانِ، لأَنَّهُ عَلِمَ مَا كَانَ فِي الإِنْسَانِ" (يو ٢: ٢٣ - ٢٥).

المرنم، يعلن إعجابه الشديد بالطبيعة الإلهية، لذا يحيطها بشيءٍ عظيم وامتيازٍ قيِّم جداً يوجد فيها، قائلاً لرب الكل: "الْمصوِّر قلوبَهمْ جَمِيعاً، الْمنتَبه إلى كلِّ أَعْمَالِهِمْ" (مز ٣٣: ١٥). ومن الواضح أنه يتكلم عن قلوب البشر. إذن عندما تكون إحدى ملامح وخواص الله الحقيقي هي فقط أن يعرف القلب، وأن يدرك كل خفايا الإنسان، فإذا كان الابن أيضاً يعرف كل الخفايا[2]، فكيف لا يكون هو الإله الحقيقي بحسب الطبيعة؟ وبما أنه هكذا يكون، إذن كيف يكون مخلوقاً؟

---

(1) المبدأ الذي انتهجه القديس كيرلس هو أن الهيكل هو مسكن الله وبما أن المسيح قال عن جسده أنه هيكل بالتالي فهو الله. أما كون الكتاب يدعو المؤمنين هيكل لله فهذا بسبب سكنى الروح القدس فيهم، هذا ما أكده في شرحه لإنجيل يوحنا في نفس السياق: "وحيث إن جسد المسيح يسمى هيكلاً أيضاً، فكيف لا يكون **الكلمة** الوحيد الجنس الذي يسكن فيه هو الله بالطبيعة، لأن الذي ليس هو إلهاً لا يمكن أن يقال أنه يسكن في هيكل! دعوا أحداً يتقدّم ويقول: أي جسد قديس سُمي هيكلاً على الإطلاق". شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، المرجع السابق، ص ١٨٢.

(2) معرفة الخفايا هي صفة إلهية مثل بقية الصفات الأخرى التي في المسيح، وبالتالي أورد الإنجيلي هذه الآية لكي يثبت إلوهية الابن، ويؤكد على هذا الأمر القديس كيرلس في شرحه لإنجيل يوحنا، قائلاً: [هذه الصفة السامية هي صفة إلهية، وهي مثل الصفات الباقية الأخرى التي في المسيح، وهي غير موجودة في أي مخلوق من المخلوقات. لأن المرنّم ينسبها لمن هو وحده الله بالحقيقة قائلاً: " الْمُصَوِّرُ قُلُوبَهُمْ جَمِيعاً الْمُنْتَبِهُ إِلَى كُلِّ أَعْمَالِهِمْ" (مز ٣٣:١٥) ولكن أن كان الله وحده يعرف ما فينا، والمسيح يعرفها أيضاً، فكيف لا يكون هو الله بالطبيعة، الذي يعرف الأسرار، ويعرف "العمائق والأسرار" كما هو مكتوب (دانيال٢:٢٢)]. شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الثاني ص ١٨٤.

١٣٥- شاهِدٌ آخر

"وَرَأَى يَسُوعُ نَثَنَائِيلَ مُقْبِلاً إِلَيْهِ، فَقَالَ عَنْهُ: هُوَذَا إِسْرَائِيلِيٌّ حَقّاً لاَ غِشَّ فِيهِ. قَالَ لَهُ نَثَنَائِيلُ: مِنْ أَيْنَ تَعْرِفُنِي؟ أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: قَبْلَ أَنْ دَعَاكَ فِيلُبُّسُ وَأَنْتَ تَحْتَ التِّينَةِ، رَأَيْتُكَ" (يو ١: ٤٧ - ٤٨).

نثنائيل أيضاً اندهش من معجزةٍ واحدةٍ، وتعجَّب قائلا: "يَا مُعَلِّمُ، أَنْتَ ابْنُ اللهِ! أَنْتَ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ" (يو ١: ٤٩).

إذن فطالما أن نثنائيل - وفق شهادة مخلّصنا عنه - كان حقاً إسرائيلياً، ولا غش فيه، فكيف يمكن أن يكذب قائلاً للمسيح: "أَنْتَ ابْنُ اللهِ! أَنْتَ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ"؟ لأنه، لو كان يقول الكذب، لوُجدَ لسانه غاشاً، ولكنه كان متحرراً من الكذب والضلال، فقد قال الحق[1] داعياً الابن أنه **كلمة** الله وهو بالجسد، وناعتاً إياه بالرتبة التي تليق بالابن بحسب الطبيعة؛ لأنه يُسميه ملك إسرائيل. إذن لأجل هذا تماماً هو الابن والملك، فكيف يمكن أن يكون أيضاً عبداً ومخلوقاً؟

١٣٦- شاهِدٌ آخر

عندما شرع الفريسيون يسألونه عن شيءٍ بطريقة جاهلة، قال المسيح: "تَضِلُّونَ إِذْ لاَ تَعْرِفُونَ الْكُتُبَ" (مت ٢٢: ٢٩).

كان حقا درساً يتناسب جداً مع المعلّم الحكيم، الذي قوّم أولئك الذين يسألونه، وجعل أولئك الذين لا يعرفون الكتب ينقادون إلى الأفضل. إذن، لو كان نثنائيل قد أخطأ حقاً عندما دعا المسيحُ ابن الله وملك إسرائيل، فلماذا لم يقُده مباشرةً للمعرفة الحقيقية، مسمعاً إياه: أنت ضلّلت يا صديقي؟

---

(١) شهادة نثنائيل هي برهان على إلوهية الابن، أما بخصوص ما هو الدافع الذي جعل نثنائيل يشهد هذه الشهادة، فإنه يشرحها بكل وضوح القديس كيرلس في شرحه لإنجيل يوحنا، قائلاً: " وعندما عرف نثنائيل أن الربَّ رأى أفكاره وهي تدور في عقله، دون أن تتحوّل إلى صوت مسموع أو حتى همسات، على الفور قال له "يا معلّم"، وأعلن بذلك استعداده لأن يدخل في التلمذة له، واعترافه أنه "ابن الله وملك إسرائيل"، لأن هذه هي صفات اللاهوت، ونثنائيل كشخص متعلّم جيداً يؤكد أن يسوع هو تماماً وبالطبيعة الله". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ١٧٣.

ولأن الأمر ليس هو هكذا كما تعتقد. بل لأنه إذا لم يكن هو ابن الله، لَكان بالحري مخلوقاً، وليس ملكاً، بل عبداً، ومخلوقاً. وهكذا كان يمكن لنثنائيل الذي كان للتو قد دُعيَ ليتتلمذ، أن يستفيد تماماً من هذا فيما دُعيَ إليه. من جهة أخرى، كان على المعلم أن ينفذ التعليم الذي يتناسب معه بكياسة، مقدِّما لنثنائيل الدرس الأول والخلاصي، أي تحريره من الأفكار الكاذبة.

لكن، ولأنه كان معتادا أن يفعل ذلك بالنسبة للآخرين، ظهر على أية حال وكأنه يكرِّمه؛ لأنه تحدَّث بطريقة حكيمة وتربوية[1]. وإذا كان قد قَبِل أنه ابن الله وملك إسرائيل، فكيف يمكن أن يكون مخلوقاً أو مجبولاً، طالما هو **الكلمة** الحقيقي؟ لأن المخلوق لا يُدعى ابناً، ولا ملكاً بحسب الطبيعة. كذلك، فإن كل الذين في الكون هم عبيدٌ للخالق ومَنْ هو مخلوقٌ لا يمكن أن يكون مولوداً[2].

١٣٧- شاهِدٌ آخر

"لأَنَّهُ هكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ" (يو ٣: ١٦).

إذا كان الابن الذي بذله الآب لأجل العالم لم يكن هو الابن الأزلي، بل مخلوقاً، لَبدت محبة الله الآب العظيمة والفائقة للرب تجاه العالم، والتي تحققت بتجسد الابن لأجل العالم، أمراً صغيراً ولا يستحق القول. ومن ناحية أخرى إن كان "الابن الوحيد" واحداً من المخلوقات، لَصار هذا الاسم اسماً مزيفاً، ولَما أمكن أن يُدرَك على أنه الابن الوحيد. لكن؛

---

(١) استخدم المسيح مع نثنائيل أسلوباً له علاقة بشخصه إذ أخبره عن أمر شخصي، وعن هذا الأسلوب يقول القديس كيرلس في شرحه لإنجيل يوحنا: "لم يكن المسيح قد أجرى آيات بعد، ولذلك لجأ إلى أسلوب آخر لكي يقنع تلاميذه والحكماء من بين الذين أتوا إليه، أنه بالطبيعة ابن الله، وأنه لأجل خلاص الكلّ جاء في شكل بشرّي. وما هو الأسلوب الآخر الذي يقود إلى الإيمان، أنه المعرفة الكاملة لكل الأشياء، التي هي خاصة بالله. لذلك فهو هنا يقبل نثنائيل ليس بكلمات الإطراء، بل بتلك الأمور التي يشعر بها نثنائيل في داخله، مقدّماً له عربوناً، أنه يعرف القلوب كإله". شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ١٧٢.

(٢) يقصد مولوداً أزلياً من الله الآب.

لأن محبة الله عظيمة ومميَّزة تماماً، فلا يمكن أن يكون مَنْ أُعطيَ لأجل خلاص[1] العالم إلاَّ الابن، وحيد الجنس[2]. إذن، فهو ليس واحداً من المخلوقات، بل هو وحيد الجنس؛ لأنه هو الوحيد الذي وُلِدَ من الآب، وهذا هو ما يعنيه على أية حال اسم "وحيد الجنس"، والمفهوم الحقيقي له.

١٣٨- شاهِدٌ آخر

"لأَنَّهُ لَمْ يُرْسِلِ اللهُ ابْنَهُ إلى الْعَالَمِ لِيَدِينَ الْعَالَمَ، بَلْ لِيَخْلُصَ بِهِ الْعَالَمُ" (يو ٣: ١٧).

النبي أشعياء يُقدِّم لنا رب الكل العظيم، ويقول: "أَلَيْسَ أَنَا الرَّبُّ وَلاَ إِلَهَ آخَرَ غَيْرِي؟ إِلَهٌ بَارٌّ وَمُخَلِّصٌ. لَيْسَ سِوَايَ" (أش ٤٥: ٢١). فإذا كان هذا كله ما يكونه الابن، وهو يخلِّص العالم أيضاً، ولهذا قيل إنه أُرسِلَ من الله الآب، إذن فمَنْ يقول بواسطة النبي:

([1]) يُعرِّف القديس كيرلس الابن بأنه خلاص الله، إذ يقول: "ما هو - إذن - "خلاص الله الآب"؟ إنه **كلمة الله** الذي وُلِد منه، والذي لأجلنا صار مثلنا آخذاً شكل العبد بحسب التدبير. هكذا قال الله الآب بواسطة أشعياء: "من أجل صهيون لا أسكت ومن أجل أورشليم لا أهدأ حتى يخرج برها كضياء وخلاصها كمصباح يتقد" (إش ٦٢:١). وحقاً فإن الابن صار من أجلنا براً ومجداً من الله الآب، وأيضاً صار لنا طريق خلاص. لأننا تبررنا بواسطته ورُفعنا إلى مجد البنوة". جيلافيرا، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، الكتاب الشهري، عدد يناير ٢٠٠٦.

([2]) يركز القديس كيرلس هنا على مصطلح "الابن الوحيد" أو "وحيد الجنس" للدلالة على أن الابن ليس له مثيل وبالتالي هو ابن الله الوحيد، إذن تقاس عظمة محبة الله على أنه بذل ابنة الوحيد. وعلى ذلك فهو ابن الله الواحد مع الآب في الجوهر وليس مجرد مخلوق. بالإضافة إلى هذا يقارن في شرحه ليوحنا في نفس السياق مَنْ يخالف الناموس بالذي داس ابن الله مستشهداً بما ورد في (عب ١٠: ٢٨ - ٢٩): "مَنْ خَالَفَ نَامُوسَ مُوسَى فَعَلَى شَاهِدَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةِ شُهُودٍ يَمُوتُ بِدُونِ رَأْفَةٍ. فَكَمْ عِقَاباً أَشَرَّ تَظُنُّونَ أَنَّهُ يُحْسَبُ مُسْتَحِقّاً مَنْ دَاسَ ابْنَ اللهِ" إذ يقول: "لأن مَنْ يحتقر الحقيقة يُعتبَر كأنه قد داس تحت الأقدام، لا الابن الحقيقي، بل خادماً زميلاً لموسى، إذ المخلوق من جنس المخلوق، على الأقل بسبب أن كليهما قد خُلق، حتى أن فاق أحدهما الآخر في المجد، فيما يخص امتيازات كونه أكبر أو أفضل. لكن كلمة بولس صادقة. لأنه لابد أن يحل عقاب شديد بمن داس الابن، إذاً عظيم وفائق للطبيعة هو حب الآب، الذي بذل ابنه الذاتي والذي هو من ذاته لأجل حياة العالم". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الثالث ص ١٩٤ - ١٩٥.

"أَلَيْسَ أَنَا الرَّبُّ وَلاَ إِلهَ آخَرَ غَيْرِي؟". كيف إذن يمكن أن يُدرَك على أنه مخلوق[1] في حين أنه ابن الله الآب؟

١٣٩- شاهِدٌ آخر

يوحنا المعمدان الطوباوي يقول عن مخلصنا يسوع إنه: "يَنْبَغِي أَنَّ ذلِكَ يَزِيدُ وَأَنِّي أَنَا أَنْقُصُ" (يو ٣: ٣٠). هل يمكن لأحد أن يفهم أن الحديث هنا ينصرف إلى زيادة قامة الأجساد ونقصها؟ وكيف لا يبدو مثرثراً مَن يضع شيئاً من مثل هذا في عقله؟ لأن طبيعة الأجساد تقبل الزيادة، لكن أن تقصر قامة الإنسان ويتقزَّم بعد أن كان مديد القامة، فهو شيءٌ مستحيل. صحيح أن آلاماً يمكن أن تصيب أجسادنا، لكنها لا تقبل أن يقال عنها: "أنّها تزِيدُ أَو تنْقُصُ"، بل على النقيض من ذلك، فالفهم الأكثر احتمالاً وفقاً ليوحنا: أن يزداد المسيح، مُظهِراً أن يوحنا هو الأدنى، ليس كإنسان تجاه إنسان، أو كمخلوق تجاه مخلوق (لأن الاختلاف من هذه الناحية غير ذي قيمة)، لكن بأن يُظهِر أن هذا بأعماله هو الله، وبالتالي فهو دائماً إلى الارتفاع الذي يليق بالله، بينما ذاك، كإنسان ينقص بقدر ما للجنس البشرى من مكانة أدنى بالنسبة للجوهر الإلهي[2]. كيف إذن يتطاول أحدٌ فيُسرع بمقارنة رتبة الابن غير المخلوق برتبة المخلوقات؟

([1]) هنا يدعو الرب نفسه أنه ابن لله ولكي يبرهن على ذلك قال – كما يشرح القديس كيرلس- أنه جاء لكي يخلص العالم، وهذه الحقيقة يقولها بكل وضوح في شرحه لأيه يو ١٧:٣: "وإذ دعا الربُّ نفسه - وفي صراحة - أنه ابن الله الآب، لم ير أنه من الصالح أن يجعل تعليمه بدون شهادة، بل ها هو يأتي بالبرهان من خلال التوعيّة، أعني من خلال أمور تجعل السامعين أكثر رسوخاً في الإيمان. إذ يقول إني لم أُرسَل كما (أُرسِل) موسى مقدّم الشريعة، ليدين العالم بالناموس ولا أدَخلتُ الوصية لأدين الخطيّة ولا أتيت بخدمة العبيد، بل قَدّمت شفقة مملوءة حباً تليق بالسيِّد. حرّرت المأسورين كابن وارث للآب، حولّت الناموس الذي يدين إلى النعمة التي تبرّر، أعتقَتُ من الخطيّة مَنْ " وَبِحِبَالِ خَطِيَّتِهِ يُمْسَكُ" (أم ٥:٢٢)، جئت لأخلّصه لا لأدينه، لأن الابن يقول كان صواباً أن موسى كخادم يجب أن يكون خادم الناموس، الذي يدين، لكني أنا لكوني ابن الله أحُرِر العالم كلّه من لعنة الناموس وبفرط رأفات محبتي، أشفي ضعفات العالم. فإن كانت النعمة إذاً التي تبرّر هي أفضل من الوصيّة التي تدين فكيف لا ندرك أن ذاك الذي يملك السلطان الإلهي ويحرّر الإنسان من قيود الخطيّة، يفوق مستوى العبد؟". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الثالث ص ١٩٥.

([2]) هنا يريد يوحنا المعمدان أن يبرهن لتلاميذه مَنْ هو المسيح، وبقوله هذا يبرز الفرق الشاسع بين مَنْ هو إنسان ومَنْ هو الله، ويؤكد القديس كيرلس هذا المعنى في سياق شرحه لإنجيل يوحنا، فيقول: "يُبكّت المعمدان تلاميذه

١٤٠- شاهِدٌ آخر

"اَلَّذِي يَأْتِي مِنْ فَوْقُ هُوَ فَوْقَ الْجَمِيعِ" (يو ٣: ٣١).

"مِنْ فَوْقُ" هنا لا تعني شيئاً آخراً إلاَّ الجوهر الذي هو فوق الجميع. لأننا لا نستطيع أن نقول، إن الابن يفتخر لأجل الأمور الجسدية، أو يفتخر بالأماكن المرتفعة، أو أن نقبل أن يكون المعمدان القديس قد زعم شيئاً مثل هذا. إذن، فتعبير "من فوق" لا يعني مكاناً جسدياً، ولا أيضاً الانتقال من وضع إلى وضع آخر. وإلاَّ فما الذي يمكن أيضاً أن يعنيه إلاَّ ما قلناه بالفعل، أي الجوهر الأسمى، الذي يليق بمكانته؟ إذن كيف يكذب الله **الكلمة**، الذي أتى من طبيعة مَنْ ولده، فيُشرق علينا جنسٌ آخر وعشيرةٌ أخرى، مخلوقٌ وليس ابناً، عبدٌ وليس سيداً؟ وكيف يُدرَك مَنْ ينتمي إلى جنس المخلوقات على أنه فوق الكل ؟ ألا يكون مُجبراً أن يخضع مع الكل، لو كان حقا مخلوقاً، لأن المرنم يقول الحق، عندما يقول لله الآب: "لأَنَّ الْكلَّ عَبيدكَ" (مز ١١٩: ٩١)؟ فهذا هو الوضع الذي يتناسب مع الخليقة. لكن بما أن الابن هو فوق الكل(١)، إذن فهو ليس واحداً من أولئك الذين يخضعون كعبيد، بل بالحري يحتل مكانةً أسمى من المخلوقات.

أنهم مترعجون بسبب تفاهات لا ينبغي أن يعثروا فيها في غير أوانها، وأنهم لا يعرفون بعد بدقة مَنْ هو عمانوئيل ومِن أين هو. فهو يقول إنه ليس ببعيد أن تثير أعماله الدهشة، لا بسبب أن كثيرين يعتمدون منه، يصير هو لأجل هذا السبب وحده أعلى مني في الكرامة، ويبلغ مستوى من الكرامة عظيماً جداً، كما يليق بالله. لأنه يلزم حتماً أن يبلغ إلى ازدياد المجد ومن خلال تزايد المعجزات اليومية، يعلو إلى ما هو أسمى ويسطع ببهاء أعظم على العالم: وينبغي "أني أنا أنقص" وأظلّ في تلك القامة التي أنا فيها، فلا أهرب مما أُعطى ليّ مرّة، ولكنني أبقى في مثل هذه الدرجة الأدنى من ذلك الذي يتقدّم أبداً إلى مجدٍ متزايد". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الثالث ص ٢٠١.

(١) هذا البرهان الساطع على أن المسيح هو ابن الله يراه القديس كيرلس واضحاً، فتعبير يوحنا المعمدان: "الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع"، فكلمة "فوق" هي مفتاح هذا البرهان، إذ يقول بكل وضوح في شرحه لإنجيل يوحنا: [ذاك الذي يُولَد من الأصل الذي من فوق، إذ له في ذاته بالطبيعة صلاح الآب، يُعتَرف به أن له الكيان الذي "فوق الجميع" لأنه من المستحيل أن يظهر الابن مختلفاً عن الذي وَلَدَه، وخلاف ما ندركه نحن عنه وبصواب، لأن الابن الذي هو من ذات الطبيعة، وهو بهاء ورسم صورة الآب، كيف يكون أقلّ من الآب في المجد؟ ألن تُهَان طبيعة الآب الذاتية في الابن، وتُهين صورة المولود، إن حسبناه أقلّ؟ لكنني أظن أن هذا الأمر سيصير ظاهراً للكلّ، أليس مكتوباً أيضاً "لِكَيْ يُكْرِمَ الْجَمِيعُ الاِبْنَ كَمَا يُكْرِمُونَ الآبَ. مَنْ لاَ يُكْرِمُ الاِبْنَ لاَ يُكْرِمُ

١٤١- ردٌ آخر من نفس الشاهد السابق

إذا كان الابن يوجد فوق "الكل"، فهو لا يُحسب من ضمن "الكل"، بل يكون مختلفاً وفوق "الكل"، أي ينتمي إلى الطبيعة الأكثر علواً والتي لا توصف، التي تتخطى كل تشابهٍ مع المخلوقات. لأن كلمة "فوق" تعني أيضاً بالنسبة لنا أنه كان موجوداً في مكانٍ سامٍ يليق بالله ثم أخلى ذاته من علوّه. فإذا كان الابن يمتلك هذا السمو من جهة طبيعته، ومن جهة أقواله الخاصة أيضاً، فكيف يمكن أن يكون مخلوقاً؟

١٤٢- شاهِدٌ آخر

المعمدان الطوباوي يقول عن المخلّص: إن "مَنْ قَبِلَ شَهَادَتَهُ فَقَدْ خَتَمَ أَنَّ اللهَ صَادِقٌ" (يو ٣: ٣٣). فإذا كان كل مَنْ يؤمن بكل ما يقوله المسيح ويؤكده، يؤكد أن الله صادقٌ[1]، فالمسيح إذن هو الله، الذي هو صادقٌ، ويؤمن به أولئك الذين يسمعونه.

وبما أننا لا نؤمن بإلهٍ صار في وقت لاحق، فكيف يمكن أن يكون مخلوقاً؟

١٤٣- شاهِدٌ آخر

يقول المخلّص: "أنا هو الحياة" (يو ١٤: ٦). وبما أن الله لا يكذب، فهكذا يجب أن نؤمن أنه هو الحياة. وبالتأكيد هو لا يكذب؛ لأنه صادقٌ. وبما أن الابن أيضاً هو الحياة

الآبَ" (يو ٥:٢٣)، وذاك الذي يُمَجدُ بكرامة مساوية مع الله الآب، بسبب كونه بالطبيعة منه، كيف لا يُعتَبر فائقاً على جوهر المخلوقات؟ لأن هذا ما يعنيه القول "فوق الجميع"]. شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، ص ٢٠٣.

(١) أن كل أحد يوافق على كلمات المسيح، يؤكد على أن الحق ملازم للطبيعة الإلهية، كما يقول القديس كيرلس في موضع آخر: "إن المعمدان ينأي بالابن عن مساواة جوهره بالخليقة، ويوضّح بما قِيل قبلاً إنه هو الله بالطبيعة. لأنه إن كان مَنْ يؤمن بالأمور التي تكلّم بها، ويقبل "الشهادة" التي يعيها هو عن نفسه، فقد "خَتَمَ" وأكدّ جيداً أن الله صادق، فكيف لا يَفهَم أن المسيح هو الله بالطبيعة؟ وهو الذي شهد عنه أنه "صادق" بموجب الأشياء التي قيلت تواً؟ وإلاّ فليخبرنا معارضنا مرّة أخرى، كيف نُكَرِم الطبيعة الإلهية باعتبارها صادقة، بقبول شهادة مخلّصنا، لأنه إن لم يكن هو الله بالطبيعة تماماً، فإن مَنْ يؤمن به لن يوقرِّ الطبيعة الإلهية (حسب زعمهم)، على أنها صادقة، بل بالحري يوقرِّ واحداً من أحسن المخلوقات! حيث إنه حينما يتّم الإيمان بالمسيح، فإن إعلان كونه صادقاً يمتد إلى الله، وأنه أمر واضح وجلّي، أنه إذ هو الله بالحق وليس زوراً فإنه ينال إكراماً لنفسه من الذين يؤمنون". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الثالث، ص ٢٠٩.

بحسب الطبيعة، إذن فهو ليس مخلوقاً، ولا مجبولاً، بل بالحري هو حياةٌ من حياةٍ[1]، وكخاصية لجوهره، فهو أبديٌّ، الأمر الذي يتناقض تماماً مع القول بأنه خُلِق؛ لأن الضرورة تحتم علينا ألاَّ نصِف مَن خُلِقَ بأنه أبديٌّ، بل بالحري نقول إنه أتى إلى الوجود في الزمن.

١٤٤- شاهِدٌ آخر

"أَبِي يَعْمَلُ حَتَّى الآنَ وَأَنَا أَعْمَلُ" (يو ٥: ١٧).

لأجل هذا بالضبط، طلب اليهود أن يقتلوا يسوع؛ ليس فقط لأنه أبطل راحة السبت، بل لأنه أيضاً يدعو الله أبيه، جاعلاً ذاته مساوياً لله. لقد غضب اليهود من مخلصنا يسوع؛ لأنه بينما ظهر كإنسان، لم يدعُ الله أباً عاماً للجميع، بل دعاه أبيه هو، قائلا: "أَبِي يَعْمَلُ حَتَّى الآنَ"[2]. إذن، أن يسمي المسيحُ اللهَ أبيه، تلك مسألةٌ جعلت اليهود يقولون إنه

(1) الذي يؤمن بالابن إيماناً مستقيماً يؤمن بالآب، هكذا مَنْ يؤمن بالابن أنه الحياة يؤمن في نفس الوقت بأن الآب هو الحياة أيضاً لأنه هو الحياة من الحياة، وهذا ما يقوله القديس كيرلس- من منطلق التدبير الخلاصي- في شرحه لإنجيل يوحنا: "لأنه بالإيمان الصحيح بالابن، أي كمولود من جوهر الله الآب ذاته، وكحامل لقب ابن بملء معناه وبأصدق معنى له، وليس بمعنى أنه كائن مصنوع أو مخلوق على الإطلاق، بهذا سوف نوشح أنفسنا بالثقة بإيمان حقيقي. لأن من قد قبل الابن كابن، فقد اعترف أيضاً اعترافاً كاملاً بالإيمان بذاك الذي وَلَدَ الابن من جوهره، ويعرف الله ويقبله على أنه الآب. لذلك فالمسيح هو الحق، وهو الحياة؛ فليس هناك غيرة يعطينا الحياة التي نرجوها، أي الحياة في عدم الفساد، والغبطة؛ والتقديس: لأنه هو الذي يرفعنا وسيقيمنا ثانية من الموت الذي خضعنا له تحت اللعنة القديمة، وينقلنا إلى الحالة التي كنا عليها في البداية ". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، الجزء الثامن، الإصحاح الرابع عشر، ص ٢٩.

(2) هنا يدعوه أبيه مميزاً نفسه عن بقية المخلوقات، لأنه هو المولود الوحيد من الآب قبل كل الدهور، وبالإضافة إلى هذا طالما هو قوة وحكمة الآب بالتالي بقولة :أبي يعمل، يعني أنه أيضاً يعمل على أساس الآب يفعل كل شيء بالابن، أما عن ماذا يعمل الآب، فهذا يشرحه القديس كيرلس بالتفصيل في شرحه لإنجيل يوحنا: "يقول لهم:"أَبِي يَعْمَلُ حَتَّى الآنَ وَأَنَا أَعْمَلُ". لأنه أراد تماماً أن يشير إلى هذا الأمر، إن كنت تعتقد أيها الإنسان أن الله قد خلق كل الأشياء وضبطها بأمره ومشيئته ويأمر الخليقة يوم السبت أيضاً، إذ تشرق الشمس، وتتفجر الينابيع فتمطر السماء، وتعطي الأرض ثمرها، فلا تأبى الإثمار بسبب السبت وتؤدي النيران دورها، وتخدم احتياجات الإنسان بلا مانع، معترفة ومقدرّة أن الآب يعمل أعماله الإلهية في يوم السبت أيضاً. لهذا يقول لهم لماذا إذاً ودونما تأدُب تتهمون الذي لا يزال الله الآب يعمل به كل الأشياء؟ لأن الله الآب لا يعمل بطريق آخر سوى بواسطة قوته وحكمته أي الابن. لهذا يقول "وأنا أعمل" فهو إذاً يخزي مجادلاتهم السخيفة الصادرة عن عقل مضطهديه الطائش، موضحاً أنهم لا يعارضونه هو نفسه هكذا بشدة، بل بالأحرى يتكلمون ضد الآب، الذي كانوا يغارون له

يُشبِّهُ نفسه بالله، وإنه معادلٌ له؛ لأن المولود بحسب الطبيعة من كائنٍ، يكون معادلاً لذاك الذي وَلَدَه.

وبالرغم من أن تلك كانت هي أفكار اليهود عن المسيح، إلاّ أن أحداً لم يقل لهم إن ما يفكرون به خطأٌ من جهة الاستقامة والحق، أو من جهة ما فعله الله أبيه، ولا من جهة مساواة ذاته بذاك الذي ولده. بل ولا حتى المخلّص نفسه، بالرغم من أنه كان دائماً ما يحامي عن الحق، وهو الذي قاد الذين أتوا إليه إلى الفكر الصحيح والنقي، خطّأ ما كان يفكر فيه اليهود من جنسه، بل على النقيض من ذلك، أكّد لهم هذا الذي جعلهم يتشككون قائلاً لهم: "لأَنْ مَهْمَا عَمِلَ ذَاكَ فَهذَا يَعْمَلُهُ الابْنُ كَذلِكَ" (يو ٥: ١٩). إذن، فهو يعرف جيداً إن الله أبيه، وإنه معادلٌ له بحسب الطبيعة في كل شيءٍ. فكيف يمكن أن يكون هذا الابن مخلوقاً؟

١٤٥- شاهِدٌ آخر

"لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الآبَ يُقِيمُ الأَمْوَاتَ وَيُحْيِي، كَذلِكَ الابْنُ أَيْضاً يُحْيِي مَنْ يَشَاءُ. لأنه كما أن الآب يُقيم الأموات ويُحيى كذلك الابن أيضاً يُحيى من يشاء" (يو٥:٢١).

إلى أي مدى يمكن أن يصل حديث محاربي المسيح؟ وما الذي يمكنهم أن يقولوه تعليقاً على أقوال الابن هذه؟ هل يمكن أن يصل الأمر بهم إلى التساؤل عن كيف يقيم الآب الأموات، هل وهو يشترك في الحياة مع شخصٍ آخر، أم لأنه هو نفسه هو الحياة بحسب الطبيعة؟

لكنهم على أية حال، سيقبلون أنه هو الحياة، وهكذا يمكن أن يُحيي الأموات. إذن، فبنفس الطريقة أيضاً يحيي الابن الأموات، فهو - على أية حال - حياةٌ من حياة[1]

وحده. بأن ينسبوا له كرامة الناموس، إذ لم يكونوا بعد يعرفون الابن الذي منه وبه بالطبيعة. لهذا السبب هو يدعو الله بشكل خاص أباه الذاتي، ليقودهم إلى هذا الدرس السامي والعظيم جداً بمهارة فائقة ". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الخامس ص ٢٥٨ - ٢٥٩.

(1) معادلة الابن للآب هي واضحة وساطعة، إذ له كل خصائص الآب، كما يقول القديس كيرلس في شرحه لإنجيل يوحنا: "أترون أيضاً في تلك الكلمات برهاناً ساطعاً على معادلته للآب. لأن من يعمل بالمساواة من جهة إقامة الموتى، كيف يمكن أن يكون أقل؟ أو كيف يكون من طبيعة أخرى وغريباً عن الآب، وهو الذي يشّع

بحسب الطبيعة. وهذا الذي هو نظير الآب، كيف يمكن أن يكون مخلوقاً، طالما أن الآب ليس بمخلوق؟ فالابن كائنٌ منذ البدء، وهو الحياة. إذن لا يكون الابن مخلوقاً، طالما هو يُحيي دائماً، وكائنٌ مثله مثل الآب تماماً.

١٤٦- شاهِدٌ آخر

"لأَنَّ الآبَ لاَ يَدِينُ أَحَداً، بَلْ قَدْ أَعْطَى كُلَّ الدَّيْنُونَةِ لِلابْنِ، لِكَيْ يُكْرِمَ الْجَمِيعُ الابْنَ كَمَا يُكْرِمُونَ الآبَ" (يو ٥: ٢٢ - ٢٣).

الآب هو الله بحسب الطبيعة. بينما الابن، لأنه مخلوقٌ ومجبولٌ، وفق هوس الغير المستقيمي الرأي، لا يمكن أن يكون الله بحسب الطبيعة. فإن كان الأمر على هذا النحو، فكيف إذن يمكن للمرء أن يقول إننا سوف نعبد كلاً من الله والمخلوق، بكرامة معادلة ومتوازنة، دون أن نكون قد أخطأنا؟ أم تظنون أن الآب ذاته يأمرنا أن نصنع هذا، ويأمرنا أن نعبد الخليقة وليس الخالق، بالرغم من أنه بواسطة موسى قال: "الرَّبَّ إلهَكَ تَتَّقِي، وَإِيَّاهُ تَعْبُدُ" (تث ٦: ١٣)؟ من السُخف إذن، أن نعتقد أن الله الآب يريد أن نعبد الخليقة، بل أَمَرَ أن يُكرَّم الابن هكذا، مثل ذاك. إذن، فالابن يعرف أنه هو الله بحسب الطبيعة، وأنه ثمرةٌ أصليةٌ وحقيقيةٌ لجوهره. بالتالي كيف يمكن أن يقال إن الابن - الذي له مثل هذه الطبيعة - مخلوقٌ، إذا كنّا نعترف أن الآب الذي أتى منه الابن هو غير مخلوق؟

١٤٧- شاهِدٌ آخر

"لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الآبَ لَهُ حَيَاةٌ فِي ذَاتِهِ، كَذلِكَ أَعْطَى الابْنَ أَيْضاً أَنْ تَكُونَ لَهُ حَيَاةٌ فِي ذَاتِهِ" (يو ٥: ٢٦).

بنفس الخصائص؟ لأن القدرة على الإحياء، التي في الآب كما هي في الابن، هي خاصية للجوهر الإلهي، لكن الآب أيضاً لا يُحيِّي بعض الناس منفصلاً ومن ذاته، أو أن الابن يحيِّي البعض الآخر منفصلاً ومنعزلاً عن الآب، إذ أن الابن له الآب في ذاته بالطبيعة، والآب يفعل كل شيء ويعمل كل شيء بالابن. لكن طالما أن الآب لديه قوّة الإحياء في طبيعته ذاتها، هكذا الابن نفسه أيضاً، ينسب قوّة إقامة الموتى، وكأنها تخص كلاً منهما على حدة". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الخامس ص ٢٦٩.

بما أن الابن له الحياة مثلما الآب أيضاً له الحياة، إذن فالابن يمتلك الحياة بحسب الجوهر، وليس بالمشاركة. لأن الحياة في الآب توجد في جوهره، أو بالحري الآب هو الحياة بذاتها بحسب الطبيعة. و لم يكن الابن يبتغي تشويش السامعين عندما قال: إن حياته أُعطيت له من الآب؛ لأن هذا يشبه ما يُقال عن الحرارة التي تأتي من النار. فمثلما توجد الحرارة داخل النار، هكذا أعطي لي أن تكون في داخلي.

ومعنى أنه قد أُعطى له لا يعني أنه قد أخذه بالمشاركة، كما لا يعني الانفصال والانقطاع عن ذاك الذي أعطاه، لكنه يعني أن الأخذ والعطاء يُعبِّر عن وحدةٍ جوهريةٍ. فإذا كان الابن له الحياة في داخله[1] مثلما الآب له الحياة، فكيف يمكن أن يكون مخلوقاً، طالما الآب الذي وَلَدَه ليس مخلوقاً؟

١٤٨- شاهِدٌ آخر

"إنْ كُنْتُ أَشْهَدُ لِنَفْسِي فَشَهَادَتِي لَيْسَتْ حَقاً. الَّذِي يَشْهَدُ لِي هُوَ آخَرُ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ شَهَادَتَهُ الَّتِي يَشْهَدُهَا لِي هِيَ حَق. أَنْتُمْ أَرْسَلْتُمْ إلى يُوحَنَّا فَشَهِدَ لِلْحَقّ. وَأَنَا لاَ أَقْبَلُ شَهَادَةً مِنْ إِنْسَانٍ، وَلكِنِّي أَقُولُ هذَا لِتَخْلُصُوا أَنْتُمْ. كَانَ هُوَ السِّرَاجَ الْمُوقَدَ الْمُنِيرَ، وَأَنْتُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَبْتَهِجُوا بِنُورِهِ سَاعَةً" (يو ٥: ٣١ - ٣٥).

لقد أعطى الطوباوي يوحنا المعمدان شهادةً عن المخلّص، قائلا: "هُوَذَا حَمَلُ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ" (يو١: ٢٩). فإذا كان المخلّص قد صرَّح مراراً أنه لا يريد شهادةً

---

(1) يؤكد القديس كيرلس — في سياق حديثة عن بركة يعقوب لدان (تك ٤٩:١٦) - على أن المسيح قام من الموت لأنه هو الحياة، إذ يقول: [إن الكتبة والفريسيين كان لهم سلطان أن يحكموا وأن يكونوا رؤساء للشعب، وهم قد انقضّوا كمثل الحيات على المسيح، وقبضوا عليه وطعنوه بطعنات غادرة. لكن، بالرغم من أن الفارس وقع خاضعاً بإرادته للموت الجسدي، إلا أنه سوف يقوم مرة ثانية بقوته وقوة أبيه معه. لأنه، بما أن الابن هو قوة الله الآب، لذلك أعطى حياة لهيكله (أي لجسده). لأجل هذا يُقال إنه أُنقِذَ بواسطة الآب حين تعرض للخطر كإنسان، بالرغم من أنه هو الله من جهة طبيعته ضابطاً كل الخليقة المنظورة وغير المنظورة لتوجد في حالة حسنة. وهذا ما قصد أن يقوله بولس حين تحدث عنه، قائلاً: "وإن كان قد صُلِب من ضعف لكنه حي بقوة الله" (٢ كو ٤:١٣)]. جيلافيرا، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، الكتاب الشهري يناير ٢٠٠٩.

من إنسان، بل آخرٌ هو الذي يجب أن يعطي شهادةً عنه، فمن هو هذا الأكثر جدارةً من صوت يوحنا المعمدان؟

هو بالطبع يقصد الآب، الذي قال ليوحنا: "الّذِي تَرَى الرُّوحَ نَازِلاً وَمُسْتَقِراً عَلَيْهِ، فَهذَا هُوَ الّذِي يُعَمِّدُ بالرُّوحِ الْقُدُسِ" (يو ١: ٣٣)، حينذاك سُمِع أيضاً من السماء صوت الآب يقول: "هذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الّذِي بِهِ سُرِرْتُ" (مت ٣: ١٧).

إذن، فإذا كان الله الآب يدعوه ابنه، ويعطي شهادةً حقيقيةً عنه[١]، فمَنْ هو هذا الذي يقول عنه إنه مخلوق، ولا يأتي إلى أمر يناقض المعرفة التي لدى ضابط الكل عن ابنه ذاته؟ وكيف يكون ذلك في صالح مَنْ يفعل هذا؟!

١٤٩- شاهِدٌ آخر

"وَأَمّا أَنَا فَلِي شَهَادَةٌ أَعْظَمُ مِنْ يُوحَنّا، لأَنّ الأَعْمَالَ الّتِي أَعْطَانِي الآبُ لأُكَمِّلَهَا، هذِهِ الأَعْمَالُ بِعَيْنِهَا الّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا هِيَ تَشْهَدُ لِي أَنّ الآبَ قَدْ أَرْسَلَنِي" (يو ٥: ٣٦).

إذا كان المسيح يؤكد أن صوت يوحنا أضعف من أن يشهد عنه، فهو لا يقول هذا لأن يوحنا ليس جديراً بالتصديق عندما يعطي شهادةً حقيقيةً عنه، وإلاَّ فكيف جاء ليشهد للنور، أو كيف كان مرسلاً من الله؟ بل لأن اليهود الأغبياء لم يعيروه اهتماماً، بالرغم من عِظَم شأنه في حياة الفضيلة. وهذا ما جعل المسيح يقول إن أعماله هي البرهان

---

(١) يعرض القديس كيرلس هذه الحقيقة بأكثر وضوحٍ في شرحه لإنجيل يوحنا موضحاً افتخار المسيح بشهادة الآب، إذ يقول: "هنا يشير إلى الله الآب الذي في السماء والذي بطرق متنوعة، قد صدَّق على حقيقة جوهر ابنه الذاتي، وهو يقول إنه يعرف أن شهادته حق، مظهراً أن حُكْمُه أيضاً هو في الحقيقة جدير بالتصديق وهو حُكْمٌ حق، فلئلا يزعمون (الفريسيون) أنه قال شيئاً غير حقيقي عن نفسه، يفسح مجالاً لمكرهم. ويفتح ثغرة منها ينفذون للهجوم عليه، وَهُمْ مَنْ اعتادوا على مخالفته الرأي. وإذ تحلّى بالضرورة عن المألوف والمعتاد، أي أنه لا يجب على المرء أن يعتبر مَنْ يمتدح ويُطرِى نفسه صادقا. فإنه يعود مرَّة أخرى كإله إلى وضعه الطبيعي اللائق، ويقول أنه يعرف أن شهادة الآب هي حق لكي يعلّم ما يلي: إذ أني أنا الله الحقيقي أعرف نفسي وليقول الآب عني شيئاً على سبيل الفضل. لأنني أنا هكذا بالطبيعة، مثله هو إذ هو حق سوف يشهد لي. وفي الجزء السابق، هو يتكلم من جهة تنازله وتجسده، وعندما يقول: "إن كُنْتُ أَشْهَدُ لِنَفْسِي.." فهو يقول هذا كافتراض لم يحدث في الواقع، وبقوله إنه يعلم أن شهادة الآب له هي حق، يؤكد بوضوح، المصداقية الإلهية". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الخامس ص ٢٨٩.

الأكثر قيمة ومصداقية على أنه هو الله[1] الذي أتى من الله الآب؛ لأنه لا يمكن له أن يفعل شيئاً من الأشياء التي تليق فقط بالله، إن كانت طبيعته تختلف عن طبيعة ذاك الذي ولَدَه. إذن، فعندما برهن على أنه يفعل أعمالاً كثيرة وعظيمة، مثلما يفعل الآب، كيف لا يتحتم علينا أن نؤمن به إلهاً آتياً من إلهٍ بحسب الطبيعة، وألاّ نقول إنه مخلوق مجدِّفين بجهلٍ وعدم تقوى؟

١٥٠- شاهِدٌ آخر

"أَنَا قَدْ أَتَيْتُ بِاسْمِ أَبِي وَلَسْتُمْ تَقْبَلُونَنِي. إِنْ أَتَى آخَرُ بِاسْمِ نَفْسِهِ فَذلِكَ تَقْبَلُونَهُ" (يو٥:٤٣).

كيف أتى الابن باسم الآب؟ بالتأكيد كإله، كرب، كحياة، كضابط الكل، كنور، كشخصٍ لديه القدرة على أن يقيم الأموات. لأن الآب هكذا يكون. فبما أنه هو حقا الابن بحسب الطبيعة، وهو هكذا بالفعل، إذن، لا يغيب عنه شيءٌ من تلك الأشياء التي للآب[2]. وبالتالي فهو يكون بحسب الطبيعة، مثل الآب، فيما عدا أن يكون آباً، عندئذٍ كيف يكون مخلوقاً، إذا كان ذاك الذي ولَدَه ليس بمخلوقٍ؟

١٥١- شاهِدٌ آخر

"كَمَا أَرْسَلَنِي الآبُ الْحَيُّ، وَأَنَا حَيٌّ بِالآبِ، فَمَنْ يَأْكُلْنِي فَهُوَ يَحْيَا بِي" (يو ٦: ٥٧).

(١) يؤكد القديس كيرلس على إلوهة الابن في نفس هذا السياق، قائلاً: "ليهتّم محب التعلّم مرّة أخرى ويعتبر أن المخلّص بقوله إنه بأعماله أنما يشهد شهادة حسنة عن ذاته أنه الله بالطبيعة، إنما يعلّمنا بجلاء أنه من المستحيل أن يكون فعل وقدرة الله الخاصة في أي أحد بنفس تلك الدرجة والدقة، إن لم يكن هو أيضاً الله بالطبيعة لأن "أعماله تشهد له" ليس من أي طريق آخر سوى ذلك الطريق بحسب اعتقادي. لأنه إذ هو يُرى متمماً "لأعمال" أبيه، وكل ما يليق به ويناسبه هو وحده، وهذه أيضاً ينجزها بقدرته الذاتية، فكيف لا يتضح جلياً لكل أحد، أن له طبيعة الآب نفسها، وأنه يشع بنفس خصائص الآب، إذ هو منه، وأن له ذات القدرة والفعل معه؟". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الخامس ص ٢٩٨.

(٢) لأن الابن لديه كل خصائص الآب بسبب وحدة الجوهر والطبيعة.

يقول إن الابن أُرسِل من الآب متأنساً في طاعةٍ كاملةٍ. لأنه وضع ذاته آخذاً شكل العبد وأطاع حتى الموت[1] (أنظر فيلبى ٢: ٧ – ٨)، وذلك على غرار النور الذي يُولد ويُرسَلُ من الشمس، أو الحرارة التي تُنقل من النار إلى ما هو قريبٌ منها، دون أن تتجزأ أو يُقتَطع منها[2]. كما يقول أيضاً إنه يُحيي بسبب الآب، ليس لأنه صار مشاركاً للحياة مثلنا، لكن لأن خواص الآب نُقلت إليه بحسب الطبيعة، باعتباره الابن، وقد أتى من جوهر الآب. ولأن الحياة هي خاصية من خواص الآب، لذلك فهو الحياة بسبب أبيه. لأنه من غير الممكن لَمَنْ وُلِدَ من الآب الحي ألاَّ يُحيي، طالما أن الابن هو صورة الآب الذي ولَدَه. إذن، فإذا كان قد أتى من الآب الحي، ويمكنه أن يحيي أيضاً هكذا، حافظاً في كل شيء ختم التماثل الطبيعي، فطالما يأتي من الآب غير المخلوق، يكون هو أيضاً غير مخلوق. ولأنه مولود من الإله الحقيقي، بالتالي فهو ليس مخلوقاً أو مجبولاً أو قد صار في وقت لاحق.

---

(١) يؤكد القديس كيرلس في كتابه"السجود والعبادة بالروح والحق" على تدبير الخلاص الذي أتمه الابن، إذ يقول: [صرنا شركاء مخالفة آدم ومن جراء أخطائه عُوقبنا، إذ طالت اللعنةُ الجميعَ والغضبُ امتد على نسله. لذلك تنازل وحيد الجنس وأخضع ذاته لله الآب وصار إنساناً وسكن بيننا. لأنه يقول " وأطاع حتى الموت" (في ٢: ٨)، ماحياً نتائج عصيان الكل، وعصيان كل واحدٍ على حدة، وبهذا قد خلَّصنا. ويشهد على ذلك بولس الذي قال: "فَإِذاً كَمَا بِخَطِيَّةٍ وَاحِدَةٍ صَارَ الْحُكْمُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ لِلدَّيْنُونَةِ، هكَذَا بِبِرّ وَاحِدٍ صَارَتِ الْهِبَةُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، لِتَبْرِيرِ الْحَيَاةِ. لأَنَّهُ كَمَا بِمَعْصِيَةِ الإِنْسَانِ الْوَاحِدِ جُعِلَ الْكَثِيرُونَ خُطَاةً، هكَذَا أَيْضاً بِإِطَاعَةِ الْوَاحِدِ سَيُجْعَلُ الْكَثِيرُونَ أَبْرَاراً" (رو ٥: ١٨ – ١٩)]. راجع الجزء السادس، المقالة الحادية عشر ص ١١٥ – ١١٦.

(٢) يلجأ القديس كيرلس – كما قلنا – إلى الأمثال في شرحه للعلاقة بين الآب والابن، ويرى أن لها أهمية في فهمنا نحن البشر لهذه العلاقة إذ يقول في سياق شرحه لكيفية أن الابن في الآب والآب في الابن: "لقد قال المخلّص إنه في الآب، والآب فيه. وواضح لكلّ واحد، أن هذا لا يعني وجود جسد في جسد آخر، أو وعاء في وعاء، وإنما الصواب أن الواحد يُعلن الآخر. لأن كل منهما في الآخر في الجوهر نفسه غير المتغّير وله ذات الطبيعة الإلهية الواحدة غير المتغّيرة، ولعل أقرب تشبيه هو أن يشاهد إنسان وجهه في مرآة ويندهش من التطابق التام لدرجة أنه يقول. "أنا في هذه الصورة وهذه الصورة فيّ" أو مثلما تقول حلاوة العسل حينما توضع على اللسان "الحلاوة في العسل والعسل فيّ" أو مثل الحرارة الصادرة من النار كما لو كانت تقول "أنا في النار والنار فيّ". وكل هذه الأمثلة توضّح لنا التمايز العقلي بين اثنين، ولكن في الوقت نفسه فإن هذه الأمثلة توضّح وحدة الطبيعة، حتى أن في الأمثلة التي ذكرناها يكون كل واحد في الآخر دون انقطاع، ودون انفصال. وقيمة هذه الأمثلة أنها هي تبيّن كيف أن الواحد يعلن الآخر، وكيف أن الجوهر واحد "الإنسان والصورة، الحلاوة والعسل، الحرارة والنار" وعلى نفس القياس فبسبب عدم تغيّر الجوهر، والدقة في تعبير الصورة عن الأصل فإننا نفهم أن الآب في الابن". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص٦٢.

١٥٢- شاهِدٌ آخر

"أَجَابَ يَسُوعُ: لَسْتُمْ تَعْرِفُونَنِي أَنَا وَلاَ أَبِي. لَوْ عَرَفْتُمُونِي لَعَرَفْتُمْ أَبِي أَيْضاً" (يو ٨: ١٩).

لاحظ هنا أيضاً، أن الابن هو صورة الآب الصادقة. لأنه إذا كان مَنْ يعرفه، يعرف الآب أيضاً[١]، فكيف لا يكون واضحاً أنه ينبغي أن نؤمن بأن الابن هو الله؟ وكيف لا يكون الابن مثل الآب بحسب الطبيعة؟ فإذا لم يكن هناك اختلاف يفصل بينهما، بل لهما نفس الجوهر، كيف يمكن أن يكون الابن مخلوقاً، طالما أن الآب غير مخلوق؟

١٥٣- شاهِدٌ آخر

الأسماء ذات العلاقة ببعضها البعض لا تُدرك بمفردها وبمعزل عن الأسماء المرتبطة بها؛ لأنها تُعلن على أية حال عن أهمية الاسم الآخر، وتجعل له مفهوماً خاصاً. فعلى سبيل المثال، عندما يقول شخصٌ ما كلمة نهار، فهو لا ينسى أيضاً كلمة ليل. وهو ذات ما يحدث مع كلمة يمين بالنسبة لكلمة يسار. وكذلك الابن في علاقته مع الآب. بالتالي، يُقال إن الابن ليس مخلوقاً، ولا يختلف عن الآب. وهذا الذي يعترف بالابن[٢]، يعرف أن له أباً.

---

(١) الابن هو الباب والطريق المؤدي إلى معرفة الآب، وهذا ما يؤكده القديس كيرلس في شرحه لنص يو ١٩:٨، فيقول: "لأنه حيث إننا نعرف الابن، فإننا بواسطته نعرف ذاك الذي ولده، لأنه من خلال كل واحد منهما نصل إلى إدراك الآخر: فحينما يُذكر الآب يأتي ذكر وليده بالتأكيد معه، وأيضاً مع معنى لفظ الابن يأتي اسم ذاك الذي ولده. ولذلك فالابن هو باب وطريق يقود إلى معرفة الآب. وهكذا يقول هو: "لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي" (يو ٦:١٤). لأننا نحتاج أولاً أن نتعلم بقدر الإمكان ماذا يكون الابن بالطبيعة، وهكذا فمن الصورة والرسم الدقيق جداً ندرك الأصل جيداً. لأن الآب يُرى في الابن، وهو يظهر بصورة كاملة في طبيعة وَلِيده الذاتي، كما في مرآة". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح الثامن ص ٥٥٥.

(٢) حين يعلق القديس كيرلس على اعتراف بطرس في قيصرية فيلبس: "أنت المسيح ابن الله الحي" يوضح لنا أن اسم "المسيح" له علاقة بمشابهته بنا، أما اسم "ابن الله"، فهو الاسم الحقيقي والمميز الذي له علاقة أزلية مع الآب، هكذا يقول: "لاحظوا كيف أنهم يقولون بلغة المفرد وباستخدام أداة التعريف المحدّدة "أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ الْحَيِّ"، فاصلين بينه وبين الكثيرين الذين دعوا بالنعمة إلى البنوّة، باعتباره أنه هو الواحد وحده الابن بالحق، ونحن على شبهه أبناء أيضاً. وهم يدعونه المسيح أيضاً باعتباره هو الواحد. ولكن علينا أن نعرف أنه لم يُدع المسيح بحسب ما هو عليه بالطبيعة أو حال كونه هكذا جوهرياً، مثلما هو الابن بالجوهر. ومع ذلك فهو المسيح وحده بالحق وبوجهٍ خاص (لأنه ليس أحد من بين المسحاء مثله).ومع هذا ومن جهة مشابهته بنا فهو يدعى المسيح. فإن اسمه

إذن، فإذا كنا نريد أن نعرف الله الذي هو آب، ليتنا نعترف أن له ابناً بحسب الطبيعة، هذا الذي هو مولود من الله الآب، حتى لا نسمع مع اليهود الجُهلاء: "لَوْ عَرَفْتُمُونِي لَعَرَفْتُمْ أَبِي أَيْضاً" (يو ٨: ١٩).

١٥٤- شاهِدٌ آخر

"أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالَ أَبِيكُمْ. فَقَالُوا لَهُ: إِنَّنَا لَمْ نُولَدْ مِنْ زِناً. لَنَا أَبٌ وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: لَوْ كَانَ اللهُ أَبَاكُمْ لَكُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي، لأَنِّي خَرَجْتُ مِنْ قِبَلِ اللهِ وَأَتَيْتُ. لأَنِّي لَمْ آتِ مِنْ نَفْسِي، بَلْ ذَاكَ أَرْسَلَنِي" (يو ٨: ٤١ - ٤٢).

أولئك الذين لم يحبّوا الابن الذي أتى بحسب الطبيعة من الله الآب، كيف يمكنهم أن يكونوا صُرحاء عندما يقولون إنهم يحبّون هذا الذي منه أتى؟ وهؤلاء الذين احتقروا الثمرة، أيةُ كرامةٍ يمكنهم أن يقدموها للشجرة؟

فإذا كان الابن هو ثمرة الآب؛ لأن هذا ما يعنيه بقوله: "لأني خرجت من قِبل الله وأتيت"، فكيف يمكن أن يكون مخلوقاً؟ وكيف تلد طبيعة الإلوهية غير الموصوفة - بشكل عام - شيئاً غريباً عن طبيعتها وجوهرها، الأمر الذي لا يمكن تقبُّله لا بالنسبة للجوهر غير المخلوق، ولا حتى للجوهر المخلوق؟ لأن الإنسان يُولد من إنسان، والبقرةُ من بقرة.

لذا من الضروري أن نعترف أن الابن بحسب الطبيعة هو إلهٌ وُلِد من إلهٍ، حتى لا يظهر الله أدنى من المخلوقات. وقد أُرسِل الابن من الآب دون أن يغيِّر الواحد مكانه

الخاص والطبيعي والمميّز والحقيقي وبالحق هو اسم الابن، أما الاسم المشترك معنا فهو المسيح. لأنه لما كان ممسوحاً، إذ قد صار إنساناً، لذلك فهو المسيح، فإن كنا نُعزى حال كونه ممسوحاً إلى حاجة الطبيعة البشرّية، فإنه سيُدرك كالمسيح فيما يخص مشابهته لنا، وليس بنفس الطريقة التي يكون فيها الابن، ومع ذلك فهو واحد فقط بالطبيعة وبالخصوصية، قبل الجسد، وبالجسد، وليس أثنين، كما يزعم البعض، الذين لم يفهموا عمق السرّ، لأن كلمة الله الآب لم يترل إلى إنسان، كما تفعل نعمة الروح حينما تحلّ على واحد مثلاً من الأنبياء القديسين، بل هو نفسه "صَارَ جَسَداً" كما هو مكتوب (يو ١٤:١)، أي صار إنساناً، فهو لذلك غير قابل للانقسام من بعد الاتحاد، وهو لا ينفصل إلى شخصين، حتى رغم أننا ندرك أن **كلمة** الله مختلف عن الجسد الذي سكن فيه". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح السادس ص ٤٤٥ - ٤٤٦.

بالآخر؛ (لأن تلك هي خاصية الأجسام)، لكن مثل الحرارة التي تنبعث من النار، أو شعاع النور الذي يأتي من النور[١].

١٥٥- شاهِدٌ آخر

"أَبِي الّذِي أَعْطَانِي إِيَّاهَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْكُلِّ، وَلاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْطَفَ مِنْ يَدِ أَبِي. أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ" (يو ١٠: ٢٩ - ٣٠).

بما أن الآب هو أعظم من "الكل"، لأنه يمتلك مثل هذا التفوُّق (العظمة) الذي يليق بالله في علاقته بالمخلوقات، فهو يوجد خارج "الكل "وفوق "الكل". والذي له هذه الطبيعة وتلك المكانة هو الابن الواحد معه في الجوهر[٢]، فكيف إذن يكون مخلوقاً هذا الذي

---

(١) وباستخدام الأمثلة يُظهِر القديس كيرلس طول أناته في الشرح والتوضيح خصوصاً عندما يتناول علاقة الآب بالابن إذ يقول: " أننا نرى الابن مولوداً دائماً مشرقاً من جوهر الآب، وهو فيه، وبه، متميزاً عن الآب لأنه الله الكلمة. وأيضاً نرى الآب في الابن، كما هو مولود من الجوهر نفسه، وله الطبيعة الإلهية نفسها، متميّزاً عنه كأقنوم، لأن الآب يظلّ هو الآب، رغم أنه مثل الابن في الطبيعة، ويشترك معه في ذات الجوهر، وهو في الابن مثل الشمس والشعاع. والابن أيضاً يظلّ هو الابن، رغم أنه مثل الآب في الطبيعة ويشترك معه في ذات الجوهر، وهو في الآب مثل الشعاع في الشمس. وباعتقادنا أن الآب هو الآب بالحق، والابن هو الابن، والروح القدس الذي له مكانه الخاص به معهما كأقنوم يكون الثالوث القدوس هو اللاهوت الواحد نفسه". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الأصحاح الأول ص ٧٩.

(٢) حين يُقال إن الآب يعطي الابن، فهذا - كما يقول القديس كيرلس- ليس كما يعطي لِمَنْ هو غير مالك للخليقة تحت يده، والسبب أن التعبير اللغوي بخصوص الله هو أعلى من أن تحويه الأمثلة الجسدية، هذا ما أكده القديس كيرلس في شرحه لنص يو ٢٩:١٠ حين يقول: "وبالطبع فإن التعبير اللغوي المُستعمل عن الله هو أعلى من أن تحويه الأمثلة الجسدية، وأيضاً يُقال إن الآب يعطى للابن، ليس كما يعطى لمن هو غير مالك للخليقة تحت يده، بل كما يعطى لذاك الذي هو الحياة بطبيعته، إذ يأتي بنا نحن المحتاجين للحياة إلى الابن لكي نصير أحياء بواسطة ذلك الذي هو بطبيعته الحياة، وله الحياة من ذاته. وأيضاً لأنه صار إنساناً، فمن المناسب أن يطلب وأن يأخذ من الآب الأمور التي هي له بسبب كونه الله بطبيعته. لأن المسيح بعد أن ذكر ما يختص بناسوته، يعود إلى (الحديث عن) ما يليق بكرامته الإلهية، موضحاً مزايا طبيعته لأجل فائدة المؤمنين، ولأجل الإيمان الصحيح، فلا ينبغي أن يشك أحد بالمرة ويظن أن الابن أقل من الآب، لأنه هكذا يتبين أنه هو صورة الآب غير المشوهة حافظاً في ذاته رسم الآب كاملاً وصحيحاً. ونحن نقول إن الآب والابن هما واحد غير مازجين فرديتهما باستعمال العدد واحد، كما يفعل بعض الذين يقولون إن الآب والابن هما نفس الشخص، بل نؤمن أن الآب هو قائم بذاته والابن قائم بذاته موحدين الاثنين في نفس الجوهر، وعارفين أيضاً أن لهما قدرة واحدة، حتى أن هذه القدرة ترى بدون

من جهة الجوهر، هو من نفس جوهر الآب غير المخلوق؟ أو كيف يمكن أن يُحسب من ضمن "الكل" - كمخلوق - هذا الذي هو واحدٌ مع الآب وأسمى من "الكل"، وهو أسمى من المخلوقات بكونه الله؟

١٥٦- شاهِدٌ آخر

"أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: أَعْمَالاً كَثِيرَةً حَسَنَةً أَرَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَبِي. بِسَبَبِ أَيِّ عَمَل مِنْهَا تَرْجُمُونَنِي؟ أَجَابَهُ الْيَهُودُ قَائِلِينَ: لَسْنَا نَرْجُمُكَ لأَجْلِ عَمَل حَسَنٍ، بَلْ لأَجْلِ تَجْدِيفٍ، فَإِنَّكَ وَأَنْتَ إِنْسَانٌ تَجْعَلُ نَفْسَكَ إِلهاً" (يو ١٠: ٣٢ - ٣٣).

عندما تحدث مخلصنا وقال أيضاً: "أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ"، غَضِبَ اليهود غير مدركين مَنْ يكون هذا الذي قال هذه الأقوال ناظرين إليه فقط كإنسان، وأرادوا أن يقتلوه رجماً بالحجارة وقد أدانوه بجريمة التجديف. لأنهم بقولهم له، عندما تقول: "أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ"، فقد جعلت ذاتك بحسب الطبيعة إلهاً، مدركين أن هذا عين الصواب. وبذلك أظهر اليهود أنهم تفوقوا على الأريوسيين في تفكيرهم الأحمق، مؤكدين أن هذا الذي تجرَّأ على القول: "أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ"، يرفع ذاته حتماً إلى مرتبة الإلوهية. لكن بالنسبة لهم كيف يمكن أن يكون هو واحداً مع الآب في الجوهر؟

نقول؛ لأنه لا يكذب[1]، إذن فهو حقا إلهٌ بحسب الطبيعة، وهو واحدٌ مع الآب. وهذا الذي هو واحدٌ مع الآب، كيف يمكن أن يكون مخلوقاً أو مجبولاً؟

اختلاف في الواحد كما في الآخر. وبكلمة "واحد" يشير إلى وحدة الجوهر، وبكلمة "نحن" يشير إلى اثنين، ثم بعد ذلك يوحدهما معاً في لاهوت واحد". شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، الإصحاح العاشر ص ٧٤١-٧٤٢.

(١) والبرهان الذي قدمه المسيح لليهود لم يكن برهان نظري بل عملي، وهذا ما يقوله القديس كيرلس في شرحه لإنجيل يوحنا: "واليهود إذ لم يمسكوا أنفسهم عنه حينما قال: "إنه واحد مع الآب"، فإنهم اندفعوا لكي يقتلوه رغم أن كل عمل من أعماله التي أجراها تعلن أنه هو بالطبيعة إله. وهذا لم يحدث الآن فقط بل في مناسبات أخرى حينما أخذوا حجارة لكي يقتلوه، فإنهم وقفوا بلا حراك بقوة المسيح: حتى أنه صار ظاهراً من هذا أيضاً أنه لن يعاني أي ألم إلاّ بإرادته. وأيضاً فالمسيح في لطفه كبح اندفاعهم غير المعقول ليس بأن قال لهم: "بسبب أي كلمة قلتها أنتم غاضبون"؟، بل بقوله: "بسبب أي عمل عملته"؟. ويقول، لو لم أكن عملت أعمالاً إلهية كثيرة تبين إني بطبيعتي إله، فربما كان من المعقول أن تغضبوا مني الآن عند سماعكم إياي وأنا أقول: "أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ". ولكني ما كنت لأقول هذا لو لم أكن قد أظهرته بواسطة كل الأعمال التي صنعتها. وهو يتحدث عن الأعمال

١٥٧- شاهِدٌ آخر

"أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: أَلَيْسَ مَكْتُوباً فِي نَامُوسِكُمْ: أَنَا قُلْتُ إِنَّكُمْ آلِهَةٌ؟ إِنْ قَالَ آلِهَةٌ لأُولئِكَ الَّذِينَ صَارَتْ إِلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللهِ، وَلاَ يُمْكِنُ أَنْ يُنْقَضَ الْمَكْتُوبُ، فَالَّذِي قَدَّسَهُ الآبُ وَأَرْسَلَهُ إِلَى الْعَالَمِ، أَتَقُولُونَ لَهُ: إِنَّكَ تُجَدِّفُ، لأَنِّي قُلْتُ: إِنِّي ابْنُ اللهِ؟" (يو ١٠: ٣٤ - ٣٦).

أرأيت أنه يميِّز بوضوحٍ، ذاته عمَن قد صاروا آلهةً بالتبني؛ لأنه هو إلهٌ بحسب الطبيعة، أمَّا هم فقد نالوا التبني كموهبةٍ؟ إذن كيف لا نرفض تجديفهم على مَن كان هو الله من جهة الجوهر، بقولهم إنه مخلوق، طالما أننا نؤمن أن الطبيعة الإلهية[1] وغير المدركة أسمى وأعلى من الخليقة؟

١٥٨- شاهِدٌ آخر

"وَلكِنْ إِنْ كُنْتُ أَعْمَلُ، فَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا بِي فَآمِنُوا بِالأَعْمَالِ، لِكَيْ تَعْرِفُوا وَتُؤْمِنُوا أَنَّ الآبَ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ" (يو ١٠: ٣٨).

إن الأعمال تدل على ماهية الطبيعة التي تنتمي إليها، وهذا ما يوضحه المخلص بالأقوال التي قالها، وكأنه يقول: لو نظرتم إليَّ على أنني إنسانٌ عاديٌّ له هيئة جسدية[2] فلن

على أنها من الآب وليست من عنده مُظهراً هذا التواضع لأجل منفعتنا لكي لا نتباهى حينما ننال أي شيء من الله. وهو يقول إن الأعمال التي أراها لهم هي من الآب، لا ليشير بأن القوة التي ظهرت في هذه الأعمال هي قوة أخرى غير قوته بل لكي يظهر أنها كانت أعمال الإلوهية التي ندركها على أنها واحدة في الآب والابن والروح القدس". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح العاشر ص ٧٢٤-٧٤٣.

(١) يشبِّه القديس كيرلس الطبيعة الإلهية بالذهب الذي كان يغطى التابوت لكي يؤكد على سمو الطبيعة الإلهية، إذ يقول: [الذهبُ هو رمزٌ للإلوهية فائقة البهاء التي اتحدت بالجسد المقدس، وانسكبت داخله بالمجد وعدم الفساد بطريقة فائقة بقدر ما تعتبر معرفة الطبيعة الإلهية في حد ذاتها، أعلى من العقل. لأنه إذا كان الأبرار يضيئون كالشمس في ملكوت أبيهم (راجع مت ١٣: ٤٣)، فماذا يكون عندئذ مجد المسيح نفسه؟ وإشعاعاته أيضاً كيف لا تكون أعلى من أي عقل أو منطق؟]. السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء الخامس، المقالة التاسعة ص ٦٦.

(٢) مشكلة اليهود أنهم لم يدركوا أن الابن جاء متجسداً، وهذا ما قاله القديس كيرلس في نفس السياق أثناء شرحه لإنجيل يوحنا: "وإذ كان لهم غيرة لله ولكن ليس حسب المعرفة فقد صاروا غاضبين حينما سمعوا المسيح يقول: "أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ". فما الذي كان يمنع أن يكون واحداً مع الآب، لو أنهم آمنوا إنه إله بالطبيعة؟ لذلك

تؤمنوا بي، لكن حجم أعمالي قادرٌ أيضاً أن يقنعكم أنني إلهٌ حق من إلهٍ حق. بالتالي هذا الذي من جهة الأعمال مساوٍ للآب، كيف يمكن أن يكون أدنى منه من جهة الطبيعة؟

وهذا الذي لديه نفس فعل وقدرة ذاك، كيف يمكن أن يكون له طبيعة مختلفة عنه؟ أو بالحري، كيف لا يكون الابن في كل شيءٍ مثل أبيه في الجوهر، وله كل خصائص الآب الذي ولَدَه بحسب الطبيعة، وهكذا هو في الآب، ولديه كل ما لدى الآب؟

إذن، فمن هو ذا الذي - بعد كل ذلك - يتطاول ويقول إن الابن الذي هو صورة الآب هو مخلوق، دون أن يكون قد جَدَّفَ على الآب ذاته[1]؟

١٥٩- شاهِدٌ آخر

"قَالَ لَهَا يَسُوعُ: أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ" (يو ١١: ٢٥).

إن كان الابن حقاً هو القيامة والحياة، بالرغم من أنه مخلوقٌ ومجبول وفقاً للبعض، لَمَا وجب أن نشيد بالآب باعتباره القيامة والحياة؛ لأن ما هو الذي لديه أكثر مما لدى المخلوقات؟ لكن، بما أنه يختلف تماماً عن المخلوقات - بقدر ما نعرف - من جهة الطبيعة، وبسبب أنه هو الحياة، فكيف يمكن أن يكون الابن مخلوقاً، إذا كان هو الحياة أيضاً بحسب الطبيعة، مثل ذاك الذي ولده تماماً؟

عموماً لا يمكن وصف أي مخلوق من المخلوقات بأنه الحياة، لأن حياة المخلوقات تجيء من مشاركتها في حياة الله. لأنه، مثلما يقول بولس، إننا نتحرك ونوجد[2] طالما أننا في شركة مع الله (أنظر أع ١٧: ٢٨).

أيضاً فهم يحاولون أن يرجموه ويدافعون عن أنفسهم مقدمين السبب الذي به يبررون فعلهم هذا، فيقولون: نحن نرجمك ليس لأجل أعمال حسنة فعلتها بل بسبب أنك تجدف. وبالعكس فهم الذين كانوا يجدفون لأنهم أرادوا أن يرجموا من هو بالحقيقة الله، غير مدركين أن يسوع جاء ليس في صورة الإلوهة غير المحتجبة بل جاء متجسداً من نسل داود ولذلك يصفون اعترافه الحقيقي بأنه تجديف؛ جاهلين من هو الذي يقول هذا بسبب أنهم ينظرون إلى الجسد فقط". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، المجلد الأول، الإصحاح العاشر ص٧٤٣.

(1) هنا نجد الربط بين الآب والابن فمَنْ يجدف على الابن يجدف أيضاً على الآب لأن الابن هو صورة الآب.

(2) نفس الرد نجده عند القديس كيرلس في شرحه ليو ١١:٢٥:[فإن كان الابن مخلوقاً أو مصنوعاً، مع أنه هو "القيامة والحياة" فإن الآب هو أيضاً لن يكرّم، إذ هو أيضاً بالحقيقة "القيامة والحياة"، أو ما هو الذي كان سيميّز

١٦٠- شاهِدٌ آخر

"الّذِي يُؤْمِنُ بِي، لَيْسَ يُؤْمِنُ بِي بَلْ بِالّذِي أَرْسَلَنِي" (يو ١٢: ٤٤).

بما أن الابن مثل أبيه، إذ أنه واحدٌ معه في الجوهر، مُظهراً طبيعة ذاك كما في صورةٍ، كيف لا يكون تجديفاً فظيعاً لمن يتطاول ويدعو الابن مخلوقاً، إذ أنه يسبغ على الآب ذاته صفة المخلوق؟ لأنه ينبغي أن يكون الابن بحسب الطبيعة ما يكونه أيضاً الآب[1]. وبما أن الآب ليس بمخلوق، إذن لا يكون الابن أيضاً مخلوقاً، لكنه هو غير مخلوق مثل الآب الذي ولَدَه. لأنه هكذا يكون الابن بالحقيقة، وفي شخصه نرى الآب.

١٦١- شاهِدٌ آخر

"كُلُّ مَا لِلآبِ هُوَ لِي" (يو ١٦: ١٥).

بما أن كل ما للآب، هو للابن[2] (وهذا واضح من أنه يفتخر بالخصائص الطبيعية للآب الذي ولَدَه)، وكان من ضمن الخصائص الأخرى التي تليق بالله، إنه غير مخلوق،

الابن عن بقية المخلوقات؟ ومادامت المخلوقات لا تملك الحياة حسب طبيعتها، فكيف يكون الابن - وأنتم تحسبونه من ضمن المخلوقات - له الحياة في ذاته مثله مثل الذي وَلَدَه؟ لأن كل ما هو مخلوق ليس فيه حياة من ذاته بل يستمدها من الله الحيّ كما قال القديس بولس عن الله "لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد" (أع١٧: ٢٨)]. شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، الجزء السادس، الإصحاح الحادي عشر ص ٢٣.

(1) يشرح القديس كيرلس ما قاله المسيح بأقوال كما لو كان قد قالها المسيح لليهود توضح أنه إله، إذ يقول لهم: " حينما تؤمنون بي، أنا الذي من أجلكم صرت إنساناً مثلكم - هذا من ناحية - ولكن من الناحية الأخرى أنا إله بسبب طبيعتي التي هي طبيعة الآب الذي أنا منه، فلا تظنوا عندئذ أنكم تضعون إيمانكم في إنسان. لأني أنا بالطبيعة إله رغم أني أظهر مثل واحد منكم - وأنا أملك في نفسي ذاك الذي ولدني. لأني ما دمت من نفس الجوهر مع ذاك الذي ولدني، فإن إيمانكم بالتأكيد سيكون بالآب ذاته أيضاً " شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، الجزء السابع، الإصحاح الثاني عشر ص ٤٨.

(2) يشرح القديس كيرلس بكل وضوح ما قاله المسيح على أساس خصائص الطبيعة الواحدة للآب والابن، قائلاً: "يبيِّن لنا الابن مرَّة أخرى هنا كمال وسمو شخص الآب نفسه، ويسمح لنا أن نرى لماذا قال إنه (أي الابن) إذ هو ثمرة جوهر الآب يوضح في ذاته كُلّ ما يخص الجوهر، ويقول إنه كله (الجوهر) له. فلأنه لا يوجد ما يفصل الابن أو يبعده عن الآب من جهة المماثلة الكاملة والمساواة الكاملة سوى أنه ليس هو نفسه الآب، وبما أن الجوهر الإلهي لا يظهر نفسه بطريقة مختلفة في الأقنومين (الآب والابن)، فبالتأكيد إن خصائصهما تكون مشتركة بل بالحري متطابقة". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، الجزء التاسع، الإصحاح السادس عشر ص ١٢٣.

فهذه الخاصية تكون للابن أيضاً. لأنه ليس بمخلوق، لكنه كائن منذ البداية مع الآب وفى الآب، لذا فهو حقاً الله **الكلمة** المولود من الآب بطريقة غير موصوفة ولا يمكن التعبير عنها.

١٦٢- شاهدٌ آخر

"خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِ الآب، وَقَدْ أَتَيْت إلى الْعَالَم، وَأَيْضاً أَتْرُكُ الْعَالَمَ وَأَذْهَبُ إلى الآب. قَالَ لَهُ تَلاَمِيذُهُ: هُوَذَا الآنَ تَتَكَلَّمُ عَلاَنِيَةً وَلَسْتَ تَقُولُ مَثَلاً وَاحِداً. اَلآنَ نَعْلَمُ أَنَّكَ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَلَسْتَ تَحْتَاجُ أَنْ يَسْأَلَكَ أَحَدٌ. لِهذَا نُؤْمِنُ أَنَّكَ مِنَ اللهِ خَرَجْتَ" (يو ١٦: ٢٨ - ٣٠).

إن تأكيدات وشهادة الرُسل القديسين[١] الذين يقولون إنهم يوافقون ويؤمنون بالفعل بأن الابن أتى من جوهر الآب، لهي ذات قيمة كبيرة. لأن هذا يعني أنه "خرج من الآب"، وليس شيءٌ آخر. لكن يجب أن نعرف من أين نشأ إيمان هؤلاء، وكيف عبَّروا عن معرفتهم هذه؟

"الآن" يقولون: "نَعْلَمُ أَنَّكَ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَلَسْتَ تَحْتَاجُ أَنْ يَسْأَلَكَ أَحَدٌ". مِن حقيقة أن الابن يعرف كل شيء، آمن التلاميذ أنه حقا يأتي من الله الآب. لأن عدم الجهل هو حقاً أمرٌ يليق بالإلوهة، وقد اتضح للتلاميذ أن الابن يعلم كل شيء. إذن لأجل هذا يؤمنون أنه إلهٌ، وأنه مولودٌ من الآب، ولديه في ذاته بحسب الطبيعة كل ما هو للآب. إذن بناء على ذلك كيف يمكن أن يكون مخلوقاً مَنْ يُميَّزُ بسبب خواصه الإلهية؟ وخاصية معرفة كل شيء ليست فقط هي كل ما لديه، لكنه يقول بصوت قوى: "كُلُّ مَا لِلآبِ هُوَ لِي".

---

(١) يتحدث القديس كيرلس عن شهادة الرسل في شرحه لنص يو ١٦:٢٨ - ٣٠، قائلاً: "يتعَّجب التلاميذ من قوَّة إقناع البرهان الذي يعطيه لهم، ويندهشون من وضوح لغته، لأنه يتحدَّث بدون إخفاء أي شيء ويكلِّمهم بكل صراحة. لذلك فهم يفرحون بنوالهم برهاناً خالياً من أي صعوبة، ويعلّقون أن لغته هنا تُفهم بكل سهولة حتى أنها لا يبدو فيها أقل شيء من طبيعة الكلام بالأمثال. وهم أيضاً حصلوا على هذه الفائدة الإضافية، وكأنهم يقولون: حيث إنك تعرف ما يُهمَسُ به في الخفاء، والآن قد أعطيتنا هذه المعرفة بالكلمات التي قلتها لنا الآن، عارفاً مقدَّماً بالأسئلة التي كنا نريد أن نسألها فإننا مقتنعون أنك بالحقيقة قد أتيت من الله. وكأنهم يقولون إن معرفة ما هو خفيٌّ وسرِّي هو أمر خاص بإله الكلِّ وليس سواه. وحيث إنك تعرف كلَّ الأشياء من ذاتك، فلا يكون هناك أدنى شك أنك قد خرجت من الله الذي يعرف كلَّ الأشياء". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، الجزء التاسع، الإصحاح السادس عشر ص ١٣٩.

١٦٣- شاهِدٌ آخر

"وَهذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ" (يو ١٧: ٣).

فإذا كان الإله الحقيقي وحده، المميَّز عن آلهة الأمم الكاذبة هو الآب، وإذا كان الابن[١] هو واحداً معه في الجوهر، فَلَيتهُم يتوقفون عن التجديف قائلين عن مَنْ هو الإله الحق - مع ذاك الذي وَلَده - إنه مخلوقٌ.

١٦٤- شاهِدٌ آخر

"أَنَا أَظْهَرْتُ اسْمَكَ لِلنَّاسِ" (يو ١٧: ٦).

أيُ اسمٍ، يقصد المخلص أنه أظهره للناس؟ ربما كان من الممكن أن يقول إنني كرزت بك كإلهٍ للناس؟ أليس هذا ما كانت تحويه أقوال الأنبياء؟ ألم يدعوا الإله رب الكل قبل التأنس بسنين عديدة؟ إذن ما الذي فعله المسيح أكثر من هذا؟ ربما قال كرزت بك خالقاً وجابلاً وصانعاً لكل العالم، رغم أن موسى الطوباوي كاتب سفر تكوين العالم قدَّم الله كخالقٍ قائلاً: "فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ" (تك١: ١). إذن، أيُ اسمٍ يقول إنه أظهره؟ أليس من الواضح أنه أظهر اسم أبيه؟ أي لأنهم آمنوا به كابنٍ، اعترفوا في نفس الوقت بالآب، وعَرِفوا مَنْ وما هي خاصية الآب، منتقلين من عظمة الابن الحقيقية، إلى عظمة الذي ولَدَه، ومن الإيمان بالصورة ناظرين الأصل[٢] (أنظر عب ١: ٣). إذن ما هي

(١) شهادة المسيح هذه تبرز حقيقة أن الله الحقيقي هو واحد مع ابنه في الجوهر، وهذا ما وضحه أيضاً ق كيرلس أثناء شرحه لإنجيل يوحنا، إذ يقول: "إذن فحينما قال إن الآب هو الإله الحقيقي، فهو لم يستبعد نفسه. فلكونه في الآب ومن الآب بالطبيعة، يكون هو نفسه أيضاً الإله الحقيقي والإله الوحيد مثلما أن الآب هو الإله الوحيد، لأنه لا يوجد سواه مَنْ هو الإله الحقيقي وحده. " لأن آلهة الأمم شياطين" (انظر مز ٩٦:٥س). لأن الخليقة مستعبدة، ولا أعرف كيف يعبدون هذه الآلهة، ويغرقون في مثل هذه الحمأة من عدم التفكير والحماقة الشهوانية. إذن ففي وسط الآلهة الكثيرة في هذا العالم، التي دُعيت آلهة كذباً وزيفاً يبرز الإله الحقيقي الوحيد مختلفاً تماماً عنها، والابن أيضاً الذي هو بالطبيعة في الآب ومن الآب، وهو متميَّز عن الآب وفي نفس الوقت له نفس طبيعته بحسب الوحدة الطبيعية بينهما". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، الجزء التاسع، الإصحاح السابع عشر ص١٥٦.

(٢) نفس هذا البرهان يشرحه القديس كيرلس مؤكداً على أن الابن أظهر اسم الله الذي هو الآب، لذلك في شرحه لنص يو ١٧:٦ يقول: "فالمخلّص يعلن بوضوح أنه قد أظهر اسم الله الآب، أي أنه أعلن مجده في العالم

النتيجة التي نخرج بها من هذه الأقوال؟ إن كان الابن مخلوقاً، لَكان من غير الممكن أن يُفهم منه أن الله هو الآب؛ لأن المخلوق يُدرَكُ في علاقةٍ تجاه الخالق، والابن في علاقةٍ مع الآب؛ لأن هذه هي دائماً مكانة أولئك الذين لهم علاقة مع آخر. فإذا تحتم أن يُدرَك الله الآب، عندئذ يجب أن يُعترف بالابن أنه مولود منه. نفس الأمر يسرى قياساً أيضاً على الابن. إذن، فعندما يؤمَنُ به على أنه ثمرةُ جوهر الآب وليس مخلوقاً، عندئذ يحمل داخله أيضاً معرفة ذاك الذي ولَدَه، وهكذا يمكن أن نصدق ما قاله: "أَنَا أَظْهَرْتُ اسْمَكَ لِلنَّاسِ".

١٦٥- شاهِدٌ آخر

قال المخلص، بعد قيامته من الأموات، لمريم: "لاَ تَلْمِسِينِي لأَنِّي لَمْ أَصْعَدْ بَعْدُ إِلَى أَبِي. وَلكِنِ اذْهَبِي إِلَى إِخْوَتِي وَقُولِي لَهُمْ: إِنِّي أَصْعَدُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ وَإِلهِي وَإِلهِكُمْ" (يو ٢٠: ١٧).

لاحظ إذن – مُمعناً التفكير قليلاً في هذه الأقوال - إن الابن حقاً هو كائنٌ، وهو **الكلمة** المولود من الله الآب، وليس مخلوقاً وفق غباء وجهل الهراطقة. لذلك ليتنا نعيد صياغة أسلوب شرحنا بهذه الطريقة[1]، مُنــزِلين الله **الكلمة** إلى الشكل البشرى لكي

كله. وكيف فعل ذلك؟ فعل ذلك بإظهار نفسه بواسطة أعماله العظيمة جداً. لأن الآب يتمَّجد في الابن كما في صورة ومثال لهيئته الذاتية، لأن جمال النموذج الأصلي يُرى في ملامح الرسم المرسوم على مثاله. إذن، فالابن الوحيد لكونه في جوهره، هو الحكمة والقوَّة، وخالق الكون، قد أظهر نفسه أقوى من الموت والفساد، وقدوس وبلا لوم، وشفوق، وكلي النقاوة. وبهذا يَعرفُ كلُّ البشر أن ذاك الذي ولده هو مثل الابن، لأن الوالد لا يمكن أن يكون مختلفاً في الطبيعة عن وليده "شرح إنجيل يوحنا، الجزء التاسع، الإصحاح السابع عشر ص ١٦٨.

أيضاً وهبنا نحن أن ندرك أن الله هو آب بالنسبة لنا، وهذا ما أكده القديس كيرلس حين قال: "فالابن أظهر اسم الآب بوضوح، بأن وهبنا أن نعرف وندرك تماماً ليس كونه هو الإله الوحيد، (لأن هذه الرسالة - رسالة وحدانية الله - قد وصلتنا قبل مجيئه، بواسطة الكتب الموحى بها) بل أن نعرف - إلى جانب أنه الله بالحق - انه هو أيضاً أب بالمعنى الحقيقي، إذ له في ذاته، مولوده الصادر منه، والمساوي له والأزلي معه في طبيعته الإلهية. لأن الآب لم يلد خالق الدهور، بعد خلق الزمن بل قبل الزمن". شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، الجزء التاسع، الإصحاح السابع عشر ص ١٦٩.

([1]) هنا لا يركز القديس كيرلس على تعبير "لا تلمسيني"، بل حُجته تنصب على فعلي "النزول" أي التجسد وعلى "الصعود" أي مكانة الطبيعة البشرية السامية بواسطة صعودها في المسيح، فالذي أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له لابد أن يكون هو إله. والقديس كيرلس يشرح هذه الحقيقة من خلال حديثة عن الخدمة المقدسة في الخيمة

يخلِّص الإنسان، فبما أنه صار مثلنا، أي ما نحن عليه بحسب الطبيعة، أخذ الذي لنا، أي خصائص الطبيعة البشرية وأعطانا الذي له، أي ما يخصه، وهكذا أعاد إحضار الإنسان إلى المكانة المكرَّمة التي تتناسب مع طبيعته المخلوقة على صورة الله، إلى المجد الأول، الذي سقط منه جرَّاء مخالفة آدم. فبما أنه مزجنا وصنعنا مزيجاً واحداً مع ذاته، وذاته معنا (يقصد الاتحاد) نزل إلى ما يخصنا واختطفنا وأصعدنا إلى ما يخصه. بمعنى، أنه بينما نحن بشرٌ بحسب الطبيعة، نزل بسبب محبته للبشر إلى ما على خلاف طبيعته، صار إنساناً. ومثلما نحن عبيد الله بحسب الطبيعة، كمخلوقات، صار عبداً أيضاً ونزل إلى ما على خلاف طبيعته، عندما صار إنساناً. لكن بينما هو الابن بحسب الطبيعة، صرنا نحن أبناءً بحسب التبني؛ لأننا دُعينا لنصير إخوته (انظر مز ٨١: ٦ - يو ١٠: ٣٤). إذن، فبما أننا أبناءٌ وآلهةٌ[١] بحسب التبني، فعلى نفس القياس يُدرَك الابن بكونه إلهاً بحسب الطبيعة[٢]. لذلك، كيف يمكن للابن الإله الحقيقي أن يكون مخلوقاً، طالما أن الطبيعة الإلهية ليست مخلوقة بأية طريقة كانت؟

وتغطية التابوت والمذبح الذهبي وكذلك المنارة والأواني، إذ يقول: "وقد انضم سبط لاوي إلى الخدمة، فقد حمل على كاهله الواجبات المقدسة للكهنة الأكثر علواً في الرتب، فكان عليهم أن يغطوا كلاً من تابوت العهد والمذبح الذهبي، وكذلك المنارة والأواني الليتورجية بالجلود وبثوب أسمانجوني؛ لأن اللون الأسمانجوني يعني كل ما هو سمائي، وما هو فوق. لأن هذا اللون هو لون الأثير الذي فوقنا بعمقه غير المتناهي. أمَّا كون أن الأواني المقدسة هي مثالٌ للمسيح الذي أتى من العلو ومن السماء، فهذا ما برهنَّا عليه بالفعل بحديث مُطوَّل. وعلى المائدة - إضافة إلى الأسمانجوني المبسوط عليها - يوجد أيضاً ثوبُ قرمزي مثل الفادي الذي ارتدى ثوباً من بورفير فوق الأغطية الأسمانجونية. كما تشير المائدة حيث يُوضع الخبز إلى الذبيحة غير الدموية، التي بها نأخذ البركة، متناولين الخبز السماوي، أي المسيح الذي أخذ شكلنا، بالرغم من أنه كان ويكون وسيظل هكذا، الله الذي أتى من العلاء ومن الآب وهو فوق الكل كملك ورب الكل. ويشير الثوب المبسوط على المائدة، أي ثوب القرمزي الذي غُطي به المائدة، إلى مملكة المسيح. فقد غطوا مذبح المحرقات بثوب قرمزي، والثوب المصبوغ بالأحمر نقبله على أنه مِثالٌ للدم؛ لأن المسيح ذُبح بسببنا ولأجلنا، وصعد إلى المذبح الإلهي مثل حملٍ كرائحة زكية لله. الآب (انظر أف ٥: ٢). ومع الثوب الأسمانجوني يكون غطاء المرحضة كله بورفير أحمر. فالمرحضة تصوِّر المعمودية المقدسة التي تغسلنا بالماء المقدس لغفران الخطايا، وتنقلنا إلى ملكوت السموات". السجود والعبادة بالروح والحق، المرجع السابق، الجزء السابع، المقالة الثالثة عشر ص ٧٥ - ٧٦.

(١) طبعاً كما أكدنا ليس المقصود أبداً بهذا التعبير أن تتحول طبيعتنا إلى طبيعة إلهية، حاشا بل هو تعبير يدل على نعمة التبني والاتحاد بالله بفضل عمل الروح القدس الذي أرسله الابن للبشرية.

(٢) الابن هو الله الذي أخلى نفسه ونزل من السماء ليتمم خلاص البشرية، وهذا ما شرحه القديس كيرلس أثناء شرحه لملابس الكهنوت في العهد القديم، إذ يقول: "حسناً، لاحظ أنَّ ثياب الكهنوت صُنعت بنفس المواد لكي

١٦٦- شاهِدٌ آخر

يقول المخلص أيضاً لتلاميذه: "سَلاَمٌ لَكُمْ! كَمَا أَرْسَلَنِي الآبُ أُرْسِلُكُمْ أَنَا. وَلَمَّا قَالَ هذَا نَفَخَ وَقَالَ لَهُمُ: اقْبَلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ" (يو ٢٠: ٢١ - ٢٢).

المرنم، وهو يعرف أن الروح خالقٌ بحسب الطبيعة، يقول لله الآب سيد الكل: "ترْسل روحَكَ فَتخْلَق، وَتجَدّد وَجْهَ الأَرْضِ" (مز ١٠٤: ٣٠). إذن، فإذا كان الروح القدس له مثل هذه الطبيعة، أي أنه يخلق ويجدد كل شيء، فكيف يمكن أن يكون مخلوقاً، أو كيف يمكن أن يُدرَك الابن على أنه مخلوقٌ بحسب الطبيعة، وهو الذي يمنح الروح الذي له قوة على أن يخلق؟

١٦٧- شاهِدٌ آخر

عندما قال الرُسل لتوما التلميذ الطوباوي إننا رأينا الرب قائم من الأموات، قال: "إِنْ لَمْ أُبْصِرْ فِي يَدَيْهِ أَثَرَ الْمَسَامِيرِ، وَأَضَعْ إِصْبِعِي فِي أَثَرِ الْمَسَامِيرِ، وَأَضَعْ يَدِي فِي جَنْبِهِ، لاَ أُومِنْ" (يو ٢٠: ٢٥).

لكن عندما حضر المخلّص لكي يقنعه وأمره بأن يضع يديه على العلامات الناتجة من المسامير، قال التلميذ بعدما وَجَدَ الإيمان مرةً أخرى: "رَبِّي وَإِلهِي" (يو٢٨:٢٠). ولأنه قال هذا، ألا يطوَّب أيضاً من جانبنا، فضلاً عن أولئك الذين عاشوا حينذاك معه، لأنه تحدث بالصواب والحق عن المخلّص؟ إذن بما أنه هو الرب الإله، كيف يمكن أن يكون واحداً من المخلوقات؟ لأن كل ما هو مخلوق هو عبدٌ بحسب الطبيعة وليس إلهاً بحسب الطبيعة، بينما المخلص هو الرب والإله بحسب الطبيعة، وبناءً على ذلك، ليس بمخلوقٍ ذاك الذي يمتلك كل الصالحات التي للجوهر الإلهي.

تشير - كما في صورةٍ ومثال - إلى مجد المسيح. لأنَّ الأقوال نفسها، تُظهر جمال المسيح. فالذهب يشير إلى إلوهيته، والأرجوان يشير إلى رتبة المسيح الملوكية، والبوص (قماش أبيض شفاف من اللينوه الرقيق) يشير إلى الكلمة قبل تجسده، والقرمز (الأحمر) يشير إلى الجسد الذي اتخذه، والأسمانجوني (الأزرق السماوي) الذي هو لون الياقوت يشير إلى أنه أتى من فوق، أي من السماء. أليس كلمة الله الآب هو إلهٌ وملكٌ معاً؟". السجود والعبادة بالروح والحق، المرجع السابق، الجزء السادس، المقالة الحادية عشر ص ٩٢.

١٦٨- ردٌ آخر على نفس الشاهد السابق

إن كان الابنُ بحسب الطبيعة مخلوقاً، وفق أولئك، فهل يجوز لتوما أن يقول: "رَبِّي وَإِلهِي"، دون أن يقع في تهمة التجديف، إذا كان من المسموح أن يقال للمخلوق وللملائكة ولكل واحد من القديسين نفس الأقوال، عندما نُعجب بهم لأجل ما صنعوه من معجزات؟!

لكن، لا يمكن لعاقلٍ أن يقول لأيٍ من هؤلاء الذين ذكرناهم هذه الأقوال؛ لأنها فقط تتناسب مع الله، وهكذا لم يقل التلميذ (توما) هذه الأقوال على سبيل الخطأ. ولذلك فهو يقول الحق حين دعاه إلهاً ورباً، وهذا الذي هو إله ورب بحسب الطبيعة ويُدعى هكذا، كيف يمكن أن يكون مخلوقاً؟

١٦٩- شاهدٌ آخر

"وَآيَاتٍ أُخَرَ كَثِيرَةً صَنَعَ يَسُوعُ قُدَّامَ تَلاَمِيذِهِ لَمْ تُكْتَبْ فِي هذَا الْكِتَابِ. وَأَمَّا هذِهِ فَقَدْ كُتِبَتْ لِتُؤْمِنُوا أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ، وَلِكَيْ تَكُونَ لَكُمْ إِذَا آمَنْتُمْ حَيَاةٌ بِاسْمِهِ" (يو ٢٠: ٣٠ - ٣١). ليت الأريوسيين الذين يتطاولون بغباء على الله ويحاربونه قائلين إن المسيح مخلوقٌ، بينما هو **الكلمة**، أن يعترفوا به ابناً وإلهاً ورباً. لكن أعتقد أننا ندينهم كثيراً بسبب طياشتهم وعدم تبصُّرهم أمام الشواهد التي ذُكرت فاحصين الفرق بين المخلوق والمولود ؟ لأن ذاك الذي خُلق، لا يأتي من جوهر الخالق، بينما مَنْ يُولَد يأخذ طبيعة ذاك الذي يَلِده، لكننا نقول هذا عن الأجساد؛ لأن الأمر له شكل مختلف بالنسبة لله، وإن كان يقدم صورةً صادقةً لموضوعنا عندما يتعلق بما يخصنا.

فإذا كان هناك اختلاف عظيم جداً، وحديث طويل يحصر مفهوم الكلمات: "مخلوقٌ، وابن"، لذلك، فالإنجيلي الطوباوي خادم حقائق الروح، يقول لنا لقد حدثت معجزات كثيرة وجديرة بالإعجاب لكي نؤمن أن يسوع المسيح هو ابن الله، وليس واحداً من مخلوقات الله، كما يقول أولئك مثرثرين إنه مخلوق بحسب الطبيعة. لكن هذه المعجزات بالتأكيد لا يذكرها الإنجيلي، لكنه يوجِّه فكر السامعين إلى مفهوم البنوة بحسب النعمة. بالتالي هو لا يريد أن يُدرَك الابن على أنه مخلوقٌ وابنٌ بحسب النعمة، لأنه هو **الكلمة، ابن الله.**

المقالة الثالثة والثلاثون

الروحُ هو بحسب الطبيعة إلهٌ، وهو من جوهر الآب، وهو يُمنَحُ للخليقة بواسطة الابن

١- اعتراض من جانب الهراطقة

لو قالوا: بما أنَّ الكُتب المقدسة تذكر أن الروح ينبثق من الله، فإننا نقبل أنه ينبثق من جوهر الآب، ونعترف أنه من ذات الطبيعة التي هي أسمى من الكل، عندئذٍ، فكل الآخرين يكونون بنفس الطريقة، طالما كارز الحق يعترف أن الكل خُلِق من الله[1]. إذن ما هي النتيجة؟ يكون هناك حشدٌ من الآلهة، لأن كلمة "مِنه ἐξοῦ" تُظهِر أن "الكلَ" هو من نفس جوهر الآب.

٢- الرد على هذا الاعتراض

الذين يرغبون في فهم الكتب المقدسة، عليهم أن يوطِّدوا أنفسهم للإيمان؛ لأن الكتاب يقول: "إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا فَلاَ تَأْمَنُوا" (أش ٧: ٩)[2]. ولأن هؤلاء المعارضين يضعون

---

(١) "ولكن الكل من الله" ٢ كو ٥:١٨.

(٢) هنا الحديث عن الخلفية الإيمانية التي تسبق التفسير، فالإيمان الصحيح، كما يؤكد القديس أثناسيوس وكذلك القديس كيرلس، يسبق التفسير الصحيح فهو أساس هذا التفسير المستقيم، وبما أن الهراطقة ليس لديهم الإيمان المستقيم، إذن النتيجة الطبيعية هي تفسير النصوص بطريقة خاطئة تضاد الإيمان المستقيم. والقديس كيرلس ومن قبله القديس أثناسيوس يربط إلوهية الابن بإلوهية الروح القدس ومَنْ ينكر الروح ينكر الابن والعكس صحيح، لذا يقول القديس أثناسيوس: " إن هذا التفكير ليس غريباً على الأريوسيين، لأنهم – إذ أنكروا **كلمة الله** – فإنه من الطبيعي أن ينطقوا بنفس التجديف ضد روحه". رسائل إلى الأسقف سيرابيون عن الروح القدس، ترجمة د. موريس تاوضروس ود. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية سنة ٢٠٠٥، طبعة

الأقوال بطريقة جاهلة، فمن الضروري أن نتصدى لما يحرفونه من أقوال، وما يجدِّفون به عن جهلٍ.

نحن لا نقول – أيها الأحباء – إن "الكل" يأتي من الله مثلما يأتي الروح القدس، لأن الروح القدس كائنٌ فيه حسب الطبيعة، فهو مغروزٌ كالنبت[1] في جوهره، ويأتي منه دون أن ينقسم. أمَّا الأعمال والمخلوقات، فلأنها صارت بواسطة الابن بمؤازرة الروح القدس، فيُقال عنها إنها تأتي من الله.

فإن لم تقتنعوا بأقوالنا هذه ووضعتم الروح في ذات مستوى المخلوقات بحجة أنه يأتي من الله، كما تزعمون، فما الذي يعيقنا نحن عن أن نقول، إن كان "الكل" من الله، مثل الروح، ولا يوجد شيءٌ مستثنى فيه لا تملكه المخلوقات، فلماذا لا يعرف كل واحد من المخلوقات كل ما يخص الله، ولماذا لا تفحص المخلوقات أعماقه، طالما هي من الله؟

لماذا لا يصنع الله إعلاناتٍ بواسطة "الكل"، بل فقط بواسطة الروح؟ إذن، عندما يكون لدى المخلوقات إعلانات بواسطة الروح، بينما الروح ذاته يفحص أعماق الله (أنظر ٢ كو ٢: ١٠)، لأنه كائن فيه ومنه وبواسطته حسب الطبيعة، مثله في ذلك مثل الروح الإنساني داخل الإنسان، يكون من الواضح أن الروح إلهٌ[2]، وهو كائنٌ في الله حسب الطبيعة، بينما المخلوقات الأخرى يُقَال عنها مجازاً أنها تأتي منه، لأنه هو مُنشئها وخالقها.

ثانية، رسالة ١ فقرة٢ ص ٢٨ – ٢٩. الإيمان المستقيم يتطلب الإيمان بالثالوث القدوس المساوي في الجوهر وبتدبير الخلاص.

(1) أي مثل الثمرة، وهذا تعبير معروف عن الابن في كتابات القديس أثناسيوس وكذلك القديس كيرلس، فالابن هو ثمرة الآب للدلالة على أنه مولود من جوهر الله الآب.

(2) تصدى آباء الكنيسة، مثل القديس أثناسيوس والقديس باسليوس الكبير والعلامة ديديموس الضرير، للهجوم الذي شنه الهراطقة ضد إلوهية الروح القدس والكنيسة عبَّرت عن إيمانها بإلوهية الروح القدس في المجمع المسكوني الثاني ٣٨١م. والتعبير العملي الذي تمارسه الكنيسة يظهر في ممارسات الكنيسة الليتورجية مثل ممارسة المعمودية باسم الآب والابن والروح القدس، أي باسم الثالوث القدوس والمساوي وكذلك كل صلوات الكنيسة التي تحتوي على الاعتراف بالثالوث القدوس. راجع د. جوزيف موريس فلتس، تعاليم عقيدية في النصوص الليتورجية، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، الفصل الثالث: إلوهية الروح القدس، أكتوبر ٢٠٠٤ ص ٣٦ – ٤٨.

٣- شواهد

يقول بولس "وَنَحْنُ لَمْ نَأْخُذْ رُوحَ الْعَالَمِ، بَلِ الرُّوحَ الَّذِي مِنَ اللهِ، لِنَعْرِفَ الأَشْيَاءَ الْمَوْهُوبَةَ لَنَا مِنَ اللهِ" (١ كو٢: ١٢). وأيضاً: "لأَنْ مَنْ مِنَ النَّاسِ يَعْرِفُ أُمُورَ الإِنْسَانِ إِلاَّ رُوحُ الإِنْسَانِ الَّذِي فِيهِ؟ هكَذَا أَيْضاً أُمُورُ اللهِ لاَ يَعْرِفُهَا أَحَدٌ إِلاَّ رُوحُ اللهِ" (١ كو ٢: ١١).

٤- شاهدٌ آخر

"فَأَعْلَنَهُ اللهُ لَنَا نَحْنُ بِرُوحِهِ. لأَنَّ الرُّوحَ يَفْحَصُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَعْمَاقَ اللهِ" (١ كو ٢: ١٠).

٥- ردٌ آخر

إذا كانت روح الإنسان لا تعرف كل ما هو موجود في أعماق شخصٍ آخر، لأن هذه الروح هي خاصة بإنسان بحسب الطبيعة والسيادة، فإنها تعرف وتفحص أعماق قلبه هو، هكذا أيضاً الروح القدس في الله الآب. إذن، الروح ينتمي إلى الطبيعة الإلهية، مثلما تنتمي روح الإنسان إلى الطبيعة الإنسانية.

٦- شاهدٌ آخر

كتب بولس للبعض، قائلاً: "وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلَسْتُمْ فِي الْجَسَدِ بَلْ فِي الرُّوحِ، إِنْ كَانَ رُوحُ اللهِ سَاكِناً فِيكُمْ. وَلكِنْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَيْسَ لَهُ رُوحُ الْمَسِيحِ، فَذلِكَ لَيْسَ لَهُ. وَإِنْ كَانَ الْمَسِيحُ فِيكُمْ، فَالْجَسَدُ مَيِّتٌ بِسَبَبِ الْخَطِيَّةِ، وَأَمَّا الرُّوحُ فَحَيَاةٌ بِسَبَبِ الْبِرِّ" (رو ٨: ٩ - ١٠).

انتبه من فضلك لما يقوله الرسول من مفاهيم مستقيمة عن الروح القدس، لكي تعلم إنه يأتي من جوهر الآب وليس غريباً عن الإلوهة الواحدة[1]. لماذا يَدعوه روح الله،

[1] الجدير بالذكر أن إقرار الإيمان يتطلب من المقبل على العماد أن يعترف بإلوهةٍ واحدة للثالوث القدوس، وهذا ما يؤكده بوضوح القديس أمبروسيوس قائلاً: "لقد غطستم إذاً (في الماء) فتذكروا ما أجبتم به على الأسئلة، (إذ اعترفتم) أنكم تؤمنون بالآب، وأنكم تؤمنون بالابن، وأنكم تؤمنون بالروح القدس. لم يكن الإقرار أنكم

وروح المسيح؟ لأنه هكذا يُظهر أن كل خواص الآب نُقلت إلى الابن الذي وُلد منه بحسب الطبيعة. كذلك يدعوه مباشرةً روح المسيح، قائلاً: "إِنْ كَانَ الْمَسِيحُ فِيكُمْ"، مبيّناً أن الروح ليس غريباً عن طبيعة **الكلمة**، لكنه في وحدةٍ معه، بالرغم من أنه كائنٌ بذاته، حتى أنه أيضاً كائنٌ في الابن والابن فيه بسبب وحدة الجوهر[1].

٧- ردٌ آخر

هكذا نقول إن الروح القدس يأتي من الله، وهكذا نؤمن. لكن أولئك المستعدين للتجديف بالأكثر، يقولون إن كل المخلوقات الأخرى أيضاً تأتي من الله. بما أن بولس يقول "لكِنْ لَنَا إِلهٌ وَاحِدٌ: الآبُ الَّذِي مِنْهُ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ" (١ كور ٨: ٦).

هكذا يعتقدون أنهم يستطيعوا أن يُغيِّروا الإيمان بأن الروح يأتي من جوهر الآب، وذلك لأنه يذكر أيضاً - بخصوص المخلوقات - أنها "مِنه"، وهي ذات الكلمة التي تُستخدم للروح مُظهرين أن هذه المخلوقات تأتي أيضاً من جوهر الآب بطريقة طبيعية.

نقول رداً على ذلك: بخصوص الابن، يمكننا أن نستخدم اسم الابن كصفة جوهرية له، بالرغم من أن ذات الاسم يُستخدم مجازاً للبشر. لكن يستحيل على ذاك الذي يوجد بحسب التبني والنعمة أن يُغيِّر ما يكونه بحسب الطبيعة. هكذا أيضاً تعبير "مِنه" الذي يُقال على المخلوقات، لا يترتب عليه أن نُنـــزل سمو وإلوهية الروح إلى وضاعة المخلوقات، لكن يظل تعبير "منه" رغماً عن ذلك، ملمحاً أساسياً بالنسبة للروح؛ لأنه يأتي من جوهر

تؤمنون بأقنوم أعظم وأقنوم عظيم وأقنوم أقل عظمة، ولكنكم ارتبطتم بنفس التأكيد، بإعلان صوتكم أنكم تؤمنون بالابن بنفس إيمانكم بالآب، وأنكم تؤمنون بالروح القدس بنفس إيمانكم بالابن باستثناء واحد، هو أنكم تعترفون أنكم ينبغي أن تؤمنوا بصليب الرب يسوع وحده". الأسرار للقديس أمبروسيوس مع سيرة حياته، مؤسسة القديس أنطونيوس، طبعة ثانية ١٩٩٦م، الفصل الخامس، ص ٢٣.

[1] لأنه كما أن الابن مولود من جوهر الآب هكذا أيضاً الروح القدس منبثق من الجوهر نفسه، وبالتالي فإن الآب والابن والروح القدس لهم الجوهر الواحد نفسه. والانبثاق باليونانية: ἐκ-πορεύω والأداة εκ تعني "من الداخل" وهذا الفعل اليوناني وارد في الإنجيل حسب (يوحنا ١٥: ٢٦) "روح الحق الذي من عند الآب"ينبثق". ونفس الفعل استعمله قانون الإيمان النيقاوي القسطنطيني عن الروح القدس "الرب المحي المنبثق من الآب".

الآب[1]. وإن كنا نستخدم ذات التعبير للمخلوقات؛ لأن الموجودات التي لم تكن موجودة، أتت إلى الوجود مِن الله، بالطبع بواسطة الابن.

فإذا لم يكن هناك شيءٌ زائدٌ في الروح عن المخلوقات بسبب أننا نستخدم تعبير "منه" لكليهما، فليتهم يقولون لنا ما هو السبب الذي لأجله نقول إن المسيح أيضاً داخلنا، عندما نقول إن الآب يسكن فينا، بينما لا نقول إن المسيح والله يسكنان داخلنا، إذا تحدَّث إلينا أو فعل داخلنا ملاكٌ أو رئيس ملائكة، أو أياً من المخلوقات أيَ فعلٍ؟

إذن، عندما يكون هناك اختلافٌ هكذا، كيف لا ينبغي أن نعترف بأن "الكل" له طبيعة مختلفة، وإن المخلوقات هي هكذا، بينما الروح يخلِق، وهو بحسب الطبيعة كائنٌ في الله، والله الخالق أيضاً فيه؛ لأن طبيعتهما واحدة وجوهرهما واحد؟

٨- شاهدٌ آخر

يكتب بولس لآخرين بالصدق ومتحدِّثاً باستقامةٍ، ويقول: "لأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَنْقَادُونَ بِرُوحِ اللهِ، فَأُولئِكَ هُمْ أَبْنَاءُ اللهِ. إِذْ لَمْ تَأْخُذُوا رُوحَ الْعُبُودِيَّةِ أَيْضاً لِلْخَوْفِ، بَلْ أَخَذْتُمْ رُوحَ التَّبَنِّي الَّذِي بِهِ نَصْرُخُ: يَا أَبَّا الآبُ" (رو ٨: ١٤ - ١٥). بالتالي، إذا كان الروح القدس الذي هو فوق كل شيء، يجعل أولئك أبناء الله، إذن فلنصرخ بدالة: "يَا أَبَّا الآبُ"، وبالتالي فهو لا يُحسب ضمن العبيد[2]، ولا المخلوقات، بل بحسب الطبيعة له ذات

---

(1) الدليل على إلوهة الروح هو عمله فينا، فإذ كُنا - كما يقول القديس إيرينيوس، قد أخذنا عربون الروح وبه استطعنا أن نصرخ "يا أبا الآب" فماذا ستفعل نعمة الروح الكاملة؟ إذن الروح هو من جوهر الآب [«ختمتم بروح الموعد القدوس الذي هو عربون ميراثنا» (أف ١: ١٤) إن كان هذا العربون حينما يسكن فينا، يجعلنا منذ الآن روحانيين ... وإن كنَّا الآن بسبب اقتنائنا العربون نصرخ «يا أبا الآب» (غل ٤: ٦)، فماذا سيكون عند القيامة حينما نعاينه وجهاً لوجه؟ حينما يُصعِد جميع الأعضاء نشيد التهليل بلا انقطاع، ويمجدون الذي أقامهم من الأموات وأنعم لهم بالحياة الأبدية؟ لأنه إذا كان مجرَّد عربون (الروح) حينما يغمر الإنسان من كل جهة يجعله يصرخ «يا أبا الآب» فماذا ستفعل نعمة الروح الكاملة حينما تُعطَى للبشر من قِبَلِ الله؟ إنها ستجعلنا مشابهين له، وبذلك تُتمَّم مشيئة الآب!". ضد الهرطقات (٥:٨: ١).

(2) يؤكد القديس كيرلس على أن الروح القدس حين يعمل فهو يعمل بسلطان وليس كخادم، ففي شرحه لنص يو ١٤:٢٥، يقول: "إلاَّ روح الله" (١ كو ٢:١١) ولذلك، فلأن الروح يعرف ما هي مشورة الابن الوحيد، فهو يخبرنا بكل شيء، وهو لا يملك هذه المعرفة عن طريق التعلّم، لكي لا يبدو أنه يقوم بعمل خادم وينقل كلمات

جوهر الله، ويأتي منه، وهو يُمنَح للقديسين بواسطة الابن، ولأجل هذا يؤلّه[1] ويدعو إلى البنوة أولئك الذين يحل فيهم.

٩- شاهدٌ آخر

مكتوب أيضاً: "اَلرُّوحُ نَفْسُهُ أَيْضاً يَشْهَدُ لأَرْوَاحِنَا أَنَّنَا أَوْلاَدُ اللهِ" (رو ٨: ١٦). فلأنه يأتي من جوهر ذاك الذي يمنحه للقديسين، أي من نفس جوهر المسيح، ولأنه، عندما يأتي الله **الكلمة** ويسكن في داخلنا بواسطة الروح، نصعد إلى رتبة البنوة[2] الإلهية آخذين في داخلنا الابن، إذ نتغير على شكله في الروح، آتين في جرأة قائلين: "يَا أَبَّا الآبُ". إذن، فالروح هو الله، طالما يجعل أولئك الذين يقبلونه آلهةً.

شخص آخر، بل هو يملك هذه المعرفة لأنه روحه، كما قلنا الآن حالاً. فهو يعرف دون أن يتعلم، كل ما يخص ذاك الذي هو كائن فيه والذي يرسله، وهكذا يعلن الأسرار الإلهية للقديسين". شرح إنجيل يوحنا، جـ ٨، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، أغسطس ٢٠٠٨، الاصحاح١٤ ص ١٤٦.

(1) أي يجعلنا شركاء الطبيعة الإلهية كما قال الرسول بطرس (٢ بط ١:٤)، وهنا يبرهن القديس كيرلس على إلوهة الروح القدس من خلال عمل الروح فينا. والجدير بالذكر أن القديس أثناسيوس سبق أن استخدم نفس البرهان، قائلاً: "فلو كان الروح القدس مخلوقاً، لما كان لنا اشتراك في الله بواسطته. فإن كنا قد اتحدنا بمخلوق فإننا نكون غرباء عن الطبيعة الإلهية حيث إننا لم نشترك فيها. أمّا الآن فلكوننا نُدعى شركاء المسيح وشركاء الله، فهذا يوضّح أن المسحة والختم الذي فينا، ليس من طبيعة المخلوقات بل من طبيعة الابن، الذي يوحّدنا بالآب بواسطة الروح الذي فيه. هذا ما علّمنا إياه يوحنا - كما قيل سابقاً - عندما كتب: " بهذا نعرف أننا نثبت في الله وهو فينا أنه قد أعطانا من روحه" (١ يو ١٣:٤). ولكن إن كنا بالاشتراك في الروح نصير "شركاء الطبيعة الإلهية" (٢ بط ١: ٤)، فإنه يكون من الجنون أن نقول إن الروح من طبيعة المخلوقات وليس من طبيعة الله، القديس أثناسيوس الرسول، رسائل إلى الاسقف سيرابيون عن الروح القدس، المرجع السابق، الرسالة ٢٤:١.

(2) يؤكد القديس كيرلس على أن عطية الروح قد مُنحت لنا بالمسيح بعد قيامته ويدعوه روح التبني، إذ يقول: [انتبه إذن، إن مذبح العبادة الناموسية لم يصنع من الذهب، وهذا رمزٌ وضعه لنا الله، وهو رمزٌ واضحٌ جداً، بمعنى أن الناموس لا يعطي الروح القدس، وإن قوة العبادة الرمزية لم تُكرَّم بهذه النعمة. لأن روح العبودية سادت على الإسرائيليين، بينما العطية (عطية الروح) مُنحت لنا بالمسيح بعد قيامته من بين الأموات. لأنه مكتوبٌ: " نفخ وقال أقبلوا الروح القدس" (يو ٢٠: ٢٢). لذلك، فإن بولس يتوجه إلى الذين آمنوا قائلاً: "لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف بل أخذتم روح التبني الذي به نصرخ يا أبّا الآب" (رو٨:١٥)] للقديس كيرلس الكبير، السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء الخامس، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم مراجعة د. نصحي عبد الشهيد يناير ٢٠٠٦، المقالة التاسعة ص ٧٩ - ٨٠.

١٠- شاهدٌ آخر

"وَكَمَا لَبِسْنَا صُورَةَ التُّرَابِيِّ، سَنَلْبَسُ أَيْضاً صُورَةَ السَّمَاوِيِّ" (١ كو ١٥: ٤٩). بقوله "التُّرَابِيِّ"، يقصد آدم رئيس الجنس البشرى، والذي نحمل صورته؛ لأننا بمثيل مخالفة آدم سقطنا في الموت والفساد. وبقوله "السَّمَاوِيِّ"، يقصد الرب يسوع المسيح الذي أخذنا صورته، أي الروح المُحيي والقدوس الذي سكن داخلنا، ونقلنا إلى **كلمة** الله المحيي، وأصعدنا ثانيةً إلى عدم الفساد وجدَّدنا بمشاركة الحياة الأبدية؛ "لأن الروح يحيي"، وفق أقوال المخلص.

إذن، فمثلما ذلك الذي قَبِلَ في داخله الآب[١]، طالما أن الابن هو أيقونة الآب، هكذا يسرى القياس ذاته، فالذي قَبِلَ أيقونة الابن، أي الروح، فإنه يقبل داخله الابن والآب[٢]. إذن كيف يُحسب الروح القدس من ضمن المخلوقات، طالما هو صورة ابن الله؟ لأن البعض لن يصلوا إلى هذا المستوى من الجنون حتى يتطاولوا ويقولوا إن الروح الذي هو صورة ابن الله الخالق يمكن أن يكون من ضمن المخلوقات، في الوقت الذي يحمل في داخله - بحسب الطبيعة - كل ما للابن. وطالما أن الروح يُدعى صورة الابن، فهو الله وليس شيئاً آخراً.

١١- شاهدٌ آخر

مكتوب أيضاً: "أَمَّا الأَنْبِيَاءُ فَلْيَتَكَلَّمِ اثْنَانِ أَوْ ثَلاَثَةٌ" (١ كو ١٤: ٢٩). ثم يقول: "وَلكِنْ إِنْ كَانَ الْجَمِيعُ يَتَنَبَّأُونَ، فَدَخَلَ أَحَدٌ غَيْرُ مُؤْمِنٍ أَوْ عَامِيٌّ، فَإِنَّهُ يُوَبَّخُ مِنَ الْجَمِيعِ.

---

(١) لأن مَنْ يقبل الابن الذي هو صورة الآب يقبل الآب داخله (المترجم).

(٢) يشرح القديس كيرلس حقيقة سُكنى الآب والابن فينا بالروح القدس في شرحه لنص يو ١٤: ٢٠ إذ يقول: "وهو يلبس طبيعتنا ويعيد تشكيلها بإدماجها في حياته الخاصة. كما أنه هو نفسه أيضاً فينا، لأننا جميعاً قد صرنا شركاءه، بسبب وجوده فينا بالروح القدس. ولهذا السبب، إذ قد " صرنا شركاء الطبيعة الإلهية" (انظر ٢ بط ١: ٤)، ودعينا أبناء. وبهذه الطريقة يكون الآب نفسه فينا بالابن. ويشهد الرسول بولس بذلك عندما يقول: "وبما أنكم أبناء أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً يا أبّا الآب" (غلا ٤: ٦). لأن هذا الروح لا يختلف عن الابن في شيء، وأنا أعني أنه لا يختلف عنه من جهة الطبيعة، إذ أن لهما طبيعة واحدة" شرح إنجيل يوحنا، الجزء الثامن، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، أغسطس ٢٠٠٨، ص ١٢٦.

يُحْكَمُ عَلَيْهِ مِنَ الْجَمِيعِ. وَهكَذَا تَصِيرُ خَفَايَا قَلْبِهِ ظَاهِرَةً. وَهكَذَا يَخِرُّ عَلَى وَجْهِهِ وَيَسْجُدُ للهِ، مُنَادِياً: أَنَّ اللهَ بِالْحَقِيقَةِ فِيكُمْ" (١كو ١٤: ٢٤ - ٢٥).

إذن، عندما يقبل أولئك الروح القدس، يسكن الله داخلهم[1]، حينئذٍ يتنبئون، فينالون الإعجاب بسبب هذا، فكيف يكون مخلوقاً، وليس من الجوهر الأسمى من الكل، هذا الذي يُرسَل بطريقة طبيعية من الآب بواسطة الابن إلى أولئك الذين يقبلونه، مثل الحرارة عندما تُنقل من النار إلى الجسد؟

١٢- شاهدٌ آخر

مكتوب أيضاً: "لأَنَّ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانٍ لاَ يُكَلِّمُ النَّاسَ بَلِ اللهَ، لأَنْ لَيْسَ أَحَدٌ يَسْمَعُ، وَلكِنَّهُ بِالرُّوحِ يَتَكَلَّمُ بِأَسْرَارٍ" (١ كو ١٤: ٢). ها هو ذاك الذي يتكلم بألسنة، يقول بولس عنه بوضوح، إنه يتحدث إلى الله. ثم يُظهِر أن الروح هو الله، مضيفاً "بِالرُّوحِ

(١) إن سُكنى الله فينا يتم بالروح القدس بواسطة طقس المعمودية، إذ يقول القديس أثناسيوس: "إن التكميل (المعمودية) الذي تحسبون أنكم تمارسونه ليس انضماماً تاماً إلى اللاهوت لأنكم تمزجون المخلوق باللاهوت وتضعون الخليقة مع الله الذي خلقها بكلمته الذاتي .. فمن هو الذي يوحّدكم بالله إن لم يكن لكم روح الله بل الروح الذي من الخليقة؟ ... لأنه إن كان الروح - كما تقولون - هو ملاك ومخلوق وفي نفس الوقت يحسب مع الثالوث، إذاً يكون ضرورياً، ليس لواحد فقط من الملائكة الذين خلقوا، أن يحسبوا مع اللاهوت، وبذلك لا يعود هناك فيما بعد ثالوث بل عدد لا يحصى في اللاهوت. وهكذا فإن طقس الانضمام (المعمودية) الذي نكرر أنه يظهر أن طقسكم، هو منقسم بين هنا وهناك وصار غير أكيد بسبب تقلبه". الرسالة الأولى إلى سرابيون عن الروح القدس، المرجع السابق: ٢٩.

ويستمر القديس أثناسيوس في تعليمه عن الإيمان بالثالوث الواحد وعلاقته بالمعمودية على اسم الثالوث فيقول: "لأنه كما أن الإيمان بالثالوث - المسلّم إلينا - يجعلنا متحدين بالله، وكما أن ذلك الذي يستبعد أحد أقانيم الثالوث ويعتمد باسم الآب وحده، أو باسم الابن وحده أو باسم الآب والابن بدون الروح القدس، لا ينال شيئاً بل يظل غير فعّال وغير مكتمل، هو نفسه وذلك الذي يفترض أنه ضمه (بالمعمودية)، هكذا ذلك الذي يفصل الابن عن الآب، أو مَن ينزل الروح إلى مستوى المخلوقات، فليس له الآب ولا الابن بل هو بدون إله، وهو أشر من غير المؤمن، ويمكن أن يكون أي شيء إلاّ أن يكون مسيحياً لأن كما أن المعمودية التي تعطى الآب والابن والروح هي واحدة فإن الإيمان بالثالوث هو واحد". رسائل إلى الأسقف سيرابيون عن الروح القدس، المرجع السابق. الرسالة الأولى: ٣٠.

يَتَكَلَّمُ بِأَسْرَارٍ". إذن كيف لا يكونوا مذنبين بجريمة التجديف هؤلاء الذين يتطاولون ويحسبون الروح ضمن المخلوقات؟

١٣- شاهدٌ آخر

أيضاً يكتب بولس في رسالته إلى أهل كورنثوس: "وَأَيَّةُ مُوَافَقَةٍ لِهَيْكَلِ اللهِ مَعَ الأَوْثَانِ؟ فَإِنَّكُمْ أَنْتُمْ هَيْكَلُ اللهِ الْحَيِّ، كَمَا قَالَ اللهُ: إِنِّي سَأَسْكُنُ فِيهِمْ وَأَسِيرُ بَيْنَهُمْ، وَأَكُونُ لَهُمْ إِلهاً، وَهُمْ يَكُونُونَ لِي شَعْباً" (٢ كو ٦: ١٦).

وأيضاً بالإضافة إلى هذا، يقول: "وَلاَ تُحْزِنُوا رُوحَ اللهِ الْقُدُّوسَ الَّذِي بِهِ خُتِمْتُمْ لِيَوْمِ الْفِدَاءِ" (أف ٤: ٣٠). وأيضاً: "إِنْ كَانَ أَحَدٌ يُفْسِدُ هَيْكَلَ اللهِ فَسَيُفْسِدُهُ اللهُ، لأَنَّ هَيْكَلَ اللهِ مُقَدَّسٌ الَّذِي أَنْتُمْ هُوَ" (١ كو ٣: ١٧).

إذن، إذا أخذنا الروح، نصير هيكلاً وبيت[١] الله، لأن الله يسكن فينا ويتمشى أيضاً داخلنا، كما هو مكتوب، فكيف إذن لا يكون الروح القدس إلهاً، حتى ولو لم يُرِد البعض من المعارضين الذين اعتادوا وأحبوا أن لا يخضعوا للكتاب المقدس؟

١٤- شاهدٌ آخر

يدعو بولس الطوباوي ذاته عبداً ليسوع المسيح ومدعواً رسولاً، ويقول: "بُولُسُ، عَبْدٌ لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، الْمَدْعُوُّ رَسُولاً، الْمُفْرَزُ لإِنْجِيلِ اللهِ" (رو ١: ١). ثم بعد ذلك يقول هو نفسه بطريقة أخرى لآخرين عن الله: "الَّذِي جَعَلَنَا كُفَاةً لأَنْ نَكُونَ خُدَّامَ عَهْدٍ جَدِيدٍ. لاَ الْحَرْفِ بَلِ الرُّوحِ. لأَنَّ الْحَرْفَ يَقْتُلُ وَلكِنَّ الرُّوحَ يُحْيِي" (٢ كو ٣: ٦).

---

(١) أنظر (يو ١٠: ٩) سُكنى الله في الهيكل، أي الكنيسة التي استؤمنت على عطية الروح القدس، كما يقول القديس إيرينيؤس: "كما أن نفخة الله قد حلَّت في الجبلة الأولى، هكذا استؤمنت الكنيسة على عطية الله (أي الروح القدس)، حتى باشتراك جميع الأعضاء فيه، ينالون منه الحياة. وفي الكنيسة أذخرت الشركة مع المسيح، التي هي الروح القدس عينه، عربون عدم الفساد وثبات إيماننا، والسلَّم الصاعد إلى الله... لأنه حيث تكون الكنيسة، يكون روح الله؛ وحيث يكون روح الله، تكون الكنيسة وكل موهبة. والروح هو حق، ولذلك فالذين لا يشتركون فيه لا يرضعون ثدي أمهم (الكنيسة) لينالوا الحياة، ولا يرتشفون من الينبوع الصافي الذي ينبع من جسد المسيح". ضد الهرطقات ٣: ٢٤: ١.

إذن، فبما أنه يعرف أن إنجيل الله هو عهد الروح، وقد عُيِّن لانتشار الإنجيل، كما يقول، فكيف لا يكون الروح القدس إلهاً؟

١٥- شاهدٌ آخر

"وَإِنْ كَانَ رُوحُ الَّذِي أَقَامَ يَسُوعَ مِنَ الأَمْوَاتِ سَاكِناً فِيكُمْ، فَالَّذِي أَقَامَ الْمَسِيحَ مِنَ الأَمْوَاتِ سَيُحْيِي أَجْسَادَكُمُ الْمَائِتَةَ أَيْضاً بِرُوحِهِ السَّاكِنِ فِيكُمْ" (رو ٨: ١١).

إذا كان الروح القدس - وفق هوس غير المستقيمين[١] - حقاً مخلوقاً ومجبولاً، فكيف يفعل ما يفعله الله؟ لأني لا أظن أن شخصاً ما يمكنه أن يتحصن تحصناً شديداً بالإيمان المستقيم[٢]، وفي نفس الوقت يتجرَّأ ويقول إن الروح هو مخلوق وغريب عن الجوهر

---

(١) يصف القديس كيرلس الهراطقة بأنهم غير مستقيمين من جهة إيمانهم وهم محرومون من الخدمة المقدسة، وهذا ما أكده حين تحدث عن الأجرب المصاب ببقع حول عينية وعلى حاجبيه، إذ يقول: "هذا هو حكم الجرب، فبسبب أنه لا يعرف، ولا يريد أن يستر مرضه والشهوة التي تنتابه، فإننا نسمي ذاك الذي لا يمكنه أن يرى بطريقة مستقيمة، ومَن لا قوةَ له على الرؤية باستقامةٍ، بصاحب العينين المتروعة الشعر. أمثال هؤلاء هم بعض الذين يعقلون، لكنهم لا يختارون الطريقة المستقيمة لتدبير أمورهم. بمعنى أن البعض، بالرغم من أنهم يعرفون الصلاح إلاَّ أنهم ينحرفون بإراداتهم تجاه الأمور التي لا تليق. آخرون أيضاً، بينما هم لم يُحرموا من الإيمان المستقيم، إلاَّ أنهم يدمِّرون عقولهم بأنفسهم بوقوعهم في مصيدة المعاني والمفاهيم السيئة، إذ يرفضوا قبول أي تعليم مستقيم عن الله. هؤلاء هم الذين يتبعون الهراطقة، أو يتبعون أولئك اليهود الذين إذ يؤمنون بالتأكيد بأن الآب هو الله، يرفضون - بطريقة غبية - أن يكون الابن قد آتى منه بحسب الطبيعة. لذلك تصدق عليهم كلمة النبي إذ قال: " لَهُمْ أَعْيُنٌ وَلاَ يُبْصِرُونَ" (إر ٥: ٢١). وكون أنهم يبصرون جسدياً، إلاَّ أن ذلك لا يفيدهم إطلاقاً، إنْ لم يروا باستقامةٍ، مثلما نقول - عن حق - إنهم ابتُلوا بالعرج وكسر الرجل. لا يوجد اختلافٌ بين ما إذا كان أحدٌ لا يستطيع السير على الإطلاق، أو كان سيره بغير استقامة في طريق الأعمال" السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء السادس، المقالة الحادية عشر، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، يوليو،٢٠٠٧ ص ١٦ - ١٧.

(٢) أهم شيء كما قلنا عند القديس كيرلس أن يتحصن الإنسان بالإيمان المستقيم الذي يعطيه الأمان حين يفسر النصوص المقدسة، الأمر الذي لم يفعله الهراطقة إذ ابتدئوا بالنص بمعزل عن الإيمان المستقيم. والجدير بالذكر أن القديس غريغوريوس اللاهوتي يندهش من الهراطقة الذين يهاجمون الروح القدس، إذ يقول: "إنني أرتجف عندما أفكر في غنى الألفاظ وفى جميع الأسماء التي تُهان عندما يُهاجم الروح ! لقد قيل له: روح الله (١ كو ٢:١١)، روح المسيح (رو ٩:٨)، فكر المسيح (١ كو ١٦:٢)، روح الرب (حك ٧:١)، الرب نفسه (٢ كو ١٧:٣)، روح التبني (رو ٨: ١٥)، والحق (يو ١٧:١٤)، والحرية (٢ كو ١٧:٣)، روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح العلم والتقوى وخشية الرب (أش ٢:١١)، فهو الذي صنع كل ذلك. إنه يملأ المسكونة (حك

الإلهي، إلاَّ أنه يأتي منه بطريقة طبيعية ويُرسَل إلى أُناسٍ معينين قادرين على نواله. إذن لأن الابن هو الحياة بحسب الطبيعة، كما أنه يُحيي، فمن الضروري أن نعترف بأن الروح الذي يُمنح منه، إنما يأتي من جوهر الله الذي هو جوهر الابن نفسه، وله كل قوته وفعله، مثلما يرطب رذاذ الماء أولئك الذين يتلقونه، هكذا يُظهِرُ طبيعة ذاك الذي ينثقه.

٧:١) بالنظر إلى جوهره، ولا تحده المسكونة بالنظر إلى قدرته. إنه صالح (مز ١٤٢: ١٠)، ومستقيم (مز ١٢:٥٠)، يعضد (مز ١٤:٥٠)، إنه يُقَدِّس (١ كو ١١:٦) بطبيعته لا بموهبةٍ عارضة، غير موهوب القداسة، يقيس ولا يُقاس (يو ٣٤:٣)، يُشترَك فيه (رو ١٥:٨) ولا يَشترِك، يملأ (حك ٧:١) ولا يُملأ، يَحتوي (حك ٧:١) ولا يُحتوى، يُؤخَذ ميراثاً (أف ١٣:١ - ١٤)، يُمجَّد (١ كو ١٩:٦ - ٢٠)، هو معدود مع الآب والابن (مت ١٩:٢٨)، موضوع تهديد (مر ٢٩:٣)، إنه إصبع الله (لو ٢٠:١١)، إنه نار (أع ٣:٢) مثل الله (تث ٢٤:٤)، ليظهر، على ما أظن، أنه واحد معه في الجوهر، ..." الخطب اللاهوتية ٢٧ – ٣١، خطاب ٣٠ ص ١٦٥ – ١٦٦.

المقالة الرابعة والثلاثون

عرض الشواهد التي يمكن للباحث المدقق أن يرى فيها أن الروح هو الله، وله فعله دائماً في الابن، وأنه ليس غريباً عن جوهره. وأن هذه الشواهد - في نفس الوقت - تُعلِّم أنه عندما يُقال إن الله يسكن فينا، فإن الروح هو ذاك الذي يسكن.

١- يكتب بولس لتيموثاوس: "اِحْفَظِ الْوَدِيعَةَ الصَّالِحَةَ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ السَّاكِنِ فِينَا" (٢ تيمو ١: ١٤)، ولأهل رومية: "لأَنِّي لاَ أَجْسُرُ أَنْ أَتَكَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ مِمَّا لَمْ يَفْعَلْهُ الْمَسِيحُ بِوَاسِطَتِي لأَجْلِ إِطَاعَةِ الأُمَمِ، بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، بِقُوَّةِ آيَاتٍ وَعَجَائِبَ، بِقُوَّةِ رُوحِ اللهِ" (رو١٥: ١٨ - ١٩). وأيضاً: "فَأَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ، بِرَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، وَبِمَحَبَّةِ الرُّوحِ، أَنْ تُجَاهِدُوا مَعِي فِي الصَّلَوَاتِ مِنْ أَجْلِي إِلَى اللهِ" (رو ١٥: ٣٠). ولأهل كورنثوس: "أَمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ جَسَدَكُمْ هُوَ هَيْكَلٌ لِلرُّوحِ الْقُدُسِ الَّذِي فِيكُمُ، الَّذِي لَكُمْ مِنَ اللهِ، وَأَنَّكُمْ لَسْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ؟" (١كو ٦: ١٩). وأيضاً: "وَأَمَّا مَنِ الْتَصَقَ بِالرَّبِّ فَهُوَ رُوحٌ وَاحِدٌ" (١ كو ٦: ١٧).

ها هو يُسمي الروح ربَّاً. جاعلاً هذا الأمر أكثر وضوحاً حين كتب أيضاً لليهود: "بَلْ أُغْلِظَتْ أَذْهَانُهُمْ، لأَنَّهُ حَتَّى الْيَوْمِ ذلِكَ الْبُرْقُعُ نَفْسُهُ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْعَهْدِ الْعَتِيقِ بَاقٍ غَيْرُ مُنْكَشِفٍ، الَّذِي يُبْطَلُ فِي الْمَسِيحِ. لكِنْ حَتَّى الْيَوْمِ، حِينَ يُقْرَأُ مُوسَى، الْبُرْقُعُ مَوْضُوعٌ عَلَى

قَلْبِهِمْ. وَلكِنْ عِنْدَمَا يَرْجعُ إِلَى الرَّبِّ يُرْفَعُ الْبُرْقُعُ. وَأَمَّا الرَّبُّ فَهُوَ الرُّوحُ، وَحَيْثُ رُوحُ الرَّبِّ هُنَاكَ حُرِّيَّةٌ" (٢ كو ٣: ١٤ - ١٧).

وأيضاً: "وَنَحْنُ جَمِيعاً نَاظِرِينَ مَجْدَ الرَّبِّ بِوَجْهٍ مَكْشُوفٍ، كَمَا فِي مِرْآةٍ، نَتَغَيَّرُ إِلَى تِلْكَ الصُّورَةِ عَيْنِهَا، مِنْ مَجْدٍ إِلَى مَجْدٍ، كَمَا مِنَ الرَّبِّ الرُّوحِ" (٢ كو ٣: ١٨). إذن عندما يكون الرب يسوع المسيح واحداً، وفق أقوال بولس، والروح يُسمي ربٌ، إذن فهو لا يعرف اختلافاً بين الابن والروح، لكن يُسميه باسم الربوبية؛ لأنه من الجوهر الواحد نفسه، ويُوجد فيه بحسب الطبيعة.

٢- شاهدٌ آخر

أيضاً يكتب: "لأَنَّهُ مَنْ عَرَفَ فِكْرَ الرَّبِّ فَيُعَلِّمَهُ؟ وَأَمَّا نَحْنُ فَلَنَا فِكْرُ الْمَسِيحِ" (١ كو ٢: ١٦)، قاصداً أن الروح يسكن فينا. إذن عندما يدعوه الرسول بولس فكر المسيح، كيف يمكن أن يكون من ضمن المخلوقات، ذاك الذي له طبيعة الابن الإلهية وغير الفاسدة؟

٣- شاهدٌ آخر

مكتوبٌ، أو بالحري يقول يوحنا الإنجيلي الطوباوي: "بِهذَا نَعْرِفُ أَنَّنَا نَثْبُتُ فِيهِ وَهُوَ فِينَا: أَنَّهُ قَدْ أَعْطَانَا مِنْ رُوحِهِ" (١يو ٤: ١٣).

إذن، فإذا كان الله هو الذي سكن فينا بشركة الروح، ونحن موجودون فيه، وهو فينا؛ لأننا نحمل الروح، فكيف لا يكون الروح هو الله، إذا كان لديه في داخله كل خصائص الله الآب، الذي هو روح، ويُمنح[١] إلى الخليقة بواسطة الابن؟

٤- شاهدٌ آخر

يقول المسيح وهو يتحدث إلى اليهود: "وَلكِنْ إِنْ كُنْتُ بِأَصْبعِ اللهِ أُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ، فَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيْكُمْ مَلَكُوتُ اللهِ" (لو ١١: ٢٠).

---

(١) أي يُرسل أو يُعطى ونلاحظ هنا أن فعل "ينبثق" تعبر عن العلاقة الأزلية بين الروح القدس والآب، أما الإرسالية أو المنح والعطاء يتم بالابن في الزمن فالآب يمنح الروح بواسطة الابن.

الأصبع هنا يُدعى الروح القدس الذي قد نبُتَ من الجوهر الإلهي[١]، وتدلّى منه بحسب الطبيعة، مثلما يتدلّى أيضاً الأصبع من يد الإنسان. لأن الكتُب المقدسة تدعو الابن ذراع ويد الله اليمنى[٢]، وفق: (مز ٩٨: ١)، أيضاً: "إنْ سَلَكْتُ فِي وَسَطِ الضِّيْقِ تُحْيِنِي. عَلَى

([١]) تعبير معادل لتعبير القديس كيرلس وكذلك القديس أثناسيوس عن الابن بأنه "ثمرة جوهر الآب". والقديس كيرلس في حديثة عن المعجزات التي أيّد بها الله موسى أمام الشعب، يشرح بوضوح أن الابن هو نبت من الآب، إذ يقول: "لقد خاف موسى من أن يُعطي انطباعاً للإسرائيليين بأنه كاذب وساحر حين يقول إن إله الكل قد ظهر لي وأمرني أن أقول أنه يجب أن ترحلوا بسبب اضطهاد المصريين. لأجل هذا أمره أن يصنع معجزات وأن يفعل أموراً هي مستحيلة أن تصنعها الطبيعة البشرية، محولاً الله العصا إلى حيَّة، لكي يفهم أنه ناقل للوصايا السماوية مِن الله. لأن المعجزة الحقيقية والتي آمنا بها كلنا هي مجيء **الكلمة** إلينا والذي أُعلِن بالعصا التي سقطت على الأرض. لكن كيف وبأي طريقة، سأحاول أيضاً أن أشرح هذا الأمر على قدر المستطاع. بالعصا يقدم الكتاب المقدس **الكلمة** الذي نبت من الله، فالكل يعتمد عليه (على الكلمة). لأنه يقول: "بِكَلِمَةِ الرَّبِّ صُنِعَتِ السَّمَاوَاتُ، وَبِنَسَمَةِ فِيهِ كُلُّ جُنُودِهَا" (مز ٣٣:٦)، "لأَنَّ سَوَاعِدَ الأَشْرَارِ تَنْكَسِرُ، وَعَاضِدُ الصِّدِّيقِينَ الرَّبُّ" (مز ٣٧:١٧). لقد أتينا إلى الآب بواسطة الابن وهذا هو حقيقي وأعلنه هو ذاته، قائلاً:"وَلكِنْ هكَذَا يَقُولُ السَّيِّدُ رَبُّ الْجُنُودِ: «لاَ تَخَفْ مِنْ أَشُّورَ يَا شَعْبِي السَّاكِنُ فِي صِهْيَوْنَ. يَضْرِبُكَ بِالْقَضِيبِ، وَيَرْفَعُ عَصَاهُ عَلَيْكَ عَلَى أُسْلُوبِ مِصْرَ" (إش ١٠:٢٤). العصا بمفهوم آخر هي رمز للسلطة الملوكية، وأيضاً إله الكل الآب يملك بواسطة الابن. هذا يعني بوضوح أن عصا هارون التي نبتت في قدس الأقداس تشير إليه. أيضاً هذا يعني أنه العصا التي من جذر يسى التي تسندنا جميعنا روحياً، والتي تسند جيداً هؤلاء الذين قد آمنوا، وفق بما يسبح في المزامير تجاه الآب إله الكل: "أيضاً إِذَا سِرْتُ فِي وَادِي ظِلِّ الْمَوْتِ لاَ أَخَافُ شَرًّا، لأَنَّكَ أَنْتَ مَعِي. عَصَاكَ وَعُكَّازُكَ هُمَا يُعَزِّيَانِنِي" (مز ٢٣:٤). إذن العصا هي الابن". جيلافيرا، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، الكتاب الشهري عدد يونية ٢٠١٠.

([٢]) نفس التعبير نجده عند القديس إيرينيوس – كما قلنا – حيث يصف الابن والروح القدس بأنهما يدي الآب: "أما الإنسان، فقد خلقة بيديه" القديس ايرينيوس، كتاب الكرازة الرسولية، مرجع سابق، ص٧٦ وهامش٢. أيضاً القديس كيرلس أثناء حديثة عن معجزة موسى الخاصة باليد التي تصير برصاء وتشفى حين يضعها في عبه يعتبر الابن هو يد الآب، إذ يقول: "اعتاد – إذن – الكتاب المقدس أن يسمي الابن "يد". إذن، لاحظ يد موسى التي اختبئت في عِبه، ثم عندما خرجت كانت برصاء، وأيضاً عندما دخلت مرة ثانية في عبه صارت مباشرةً سليمة من البرص. حين نفكر في سر التأنس وبأي طريقة صار ونفحص أين وكيف حدث هذا الأمر سوف نجد مثل هذا الحدث المعجزي (شفاء اليد البرصاء). بمعنى، لقد كان الابن موجوداً في حضن الله الآب وبواسطته خلق الآب كل شيء. لأنه هو القبضة العُليا واليد التي تستطيع أن تصنع كل شيء، إنه اليد العُظمى الجديرة بالإعجاب. لكن بسبب أنه خرج من مكانه، بأن صار إنساناً وأخذ ضعفاتنا، وفقاً لأقوال النبي، وُجِد مرذولاً ومحتقراً. لأن الطبيعة البشرية هي دنسة أمام الله، طبقاً لقول أشعياء النبي: "وقد صرنا كلنا كنجس وكثوب عِدة كل أعمال برنا وقد ذبلنا كورقة وآثامنا كريح تحملنا" (إش ٦٤:٦). بالتالي كل ما يخص الطبيعة البشرية وُجِد ظاهرياً في دنس، أما

غَضَب أَعْدَائي تَمدّ يَدكَ، وَتخلّصني يَمينكَ. الرّبّ يحامي عَنّي. يَا رَبّ، رَحْمَتكَ إلَى الأبَد. عَنْ أَعْمَال يَدَيْكَ لاَ تَتخَلّ" (مز ١٣٨: ٧ – ٨).

إذن، فإذا كان الذراع متجانساً مع كل الجسد، يتمم كل ما يقرره العقل، ويعمل المسحة مستخدماً الأصبع عادةً، هكذا نعتبر أن **كلمة** الله قد خرج منه بحسب الطبيعة منسجماً ومزروعاً فيه، بينما الروح منبثقٌ بحسب الطبيعة من الآب في الابن، يقدّس ماسحاً الكل. بالتالي، لا يبدو الروح القدس من طبيعة غريبة عن طبيعة الله، بل يأتي منها ويوجد فيها بحسب الطبيعة. ومثلما ينتمي أصبع اليد لنفس جنس الجسد، لا يكون لليد جوهراً آخر غير هذا الجسد، فإذا كان الأمر على هذا النحو، فالروح بالتالي هو الله وليس شيئاً مختلفاً.

٥- شاهدٌ آخر

قال أيضاً مرنماً داود الطوباوي متوجهاً بأقواله إلى الله: "أَيْنَ أَذْهَب منْ روحكَ؟ وَمنْ وَجْهكَ أَيْنَ أَهْرب؟ إنْ صَعدْت إلَى السّمَاوَات فَأَنْتَ هنَاكَ، وَإنْ فَرَشْت في الْهَاويَة فَهَا أَنْتَ. إنْ أَخَذْت جَنَاحَي الصّبْح، وَسَكَنْت في أَقَاصي الْبَحْر، فَهنَاكَ أَيْضاً تَهْديني يَدكَ وَتمْسكني يَمينكَ" (مز ١٣٩: ٧ – ١٠).

إذن عندما يدعو الروح وجه الآب؛ لأنه يمثّلُ – بفعلٍ لائقٍ بالإله – الجوهر الذي أتى منه، يدعوه أيضاً يداً؛ لأن له في داخله قوةً لأنْ يصنع كل شيءٍ، فكيف لا يكون الروح واحداً في الجوهر مع الآب، الذي هو منه ومعه كائنٌ وموجود، مثل اليد التي لا

كلّي الطُهر فهو يسكن في نور لا يُدنى منه. بسبب هذا ضل اليهود التُعساء ولأجل هذا سموه سامرياً ومولوداً من زانية، وأيضاً خاطئاً. لأهم قالوا للذي كان مولوداً أعمى وشُفيَّ: (يو ٩:٤٢) "أعط مجداً لله. نحن نعلم أن هذا الإنسان خاطئ". لكن أعتقد كيف أهم لن يصلوا أبداً إلى هذه الدرجة من الجهل حتى يقولوا عليه هذا ويفتحون أفواههم الثرثارة ضده، لو كانوا يعرفون أنه هو الله بحسب الطبيعة. لكن هذا الذي بكونه إنساناً وُجد في دنس ظاهري، طالما أنه تمم بحكمة خطة التدبير الإلهي بهيئة مثل هيئتنا. في النهاية عندما صعد إلى الآب وجلس في حضنه، عندئذٍ أعطى انطباعاً أنه قد وُجد معنا في حالة الكمال والطهارة. وهكذا يُمجَّد بكونه إله، يُمجَّد من الكل بكونه رب، وقدوس القديسين وبكونه ذاك الذي يعطي النور للخليقة والحياة للبشر، ويعطي القوة لكل الكائنات لكي ينتصروا على أي شيء يمكن أن يهينهم". جيلافيرا، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، الكتاب الشهري عدد أغسطس ٢٠١٠.

تنفصل أبداً عن الجسد الإنساني، لكنها بالحري مرتبطة به ومزروعة ومثبَّتة فيه بحسب الطبيعة؟

٦- شاهدٌ آخر

ونحن نعرف أن الروح هو الله من الآتي: قِمة الرسل - كما يقول المخلص، لم يعلن له إنسانٌ السر الإلهي، بل الآب السماوي (أنظر مت ١٠: ١٧)، يقول لحنانيا، الذي قدَّم ثمن ما يملكه، بالرغم من أنه احتفظ قبلاً بجزء من الثمن: "يَاحَنَانِيَّا، لِمَاذَا مَلأَ الشَّيْطَانُ قَلْبَكَ لِتَكْذِبَ عَلَى الرُّوحِ الْقُدُسِ وَتَخْتَلِسَ مِنْ ثَمَنِ الْحَقْلِ؟ أَلَيْسَ وَهُوَ بَاق كَانَ يَبْقَى لَكَ؟ وَلَمَّا بِيعَ، أَلَمْ يَكُنْ فِي سُلْطَانِكَ؟ فَمَا بَالُكَ وَضَعْتَ فِي قَلْبِكَ هذَا الأَمْرَ؟ أَنْتَ لَمْ تَكْذِبْ عَلَى النَّاسِ بَلْ عَلَى اللهِ" (أع ٥: ٣ - ٤).

إذن، بما أن ذاك الذي يكذب على الروح القدس، يكذب إلى الله، بالتالي الروح هو الله بحسب الطبيعة.

٧- شاهدٌ آخر

كتب بولس الرسول إلى أهل غلاطية، قائلاً: "يَا أَوْلاَدِي الَّذِينَ أَتَمَخَّضُ بِكُمْ أَيْضاً إِلَى أَنْ يَتَصَوَّرَ الْمَسِيحُ فِيكُمْ" (غلا ٤: ١٩).

إذا كان المسيح يتصوَّر داخلنا بفعل الروح القدس، الذي يُعيد خلقتنا وتكويننا بكل فضيلة، لدرجة أننا نُشبههُ ويجعلنا روحانيون، إذن، فروح المسيح هو الله، الذي يتشكل داخلنا بكونه الله ذاته[1].

---

(١) التركيز هنا على عمل الروح القدس بكونه الله، فالروح يوَّحدنا، إذ يقول القديس إيرينيؤس: "[هذا هو الروح الذي قال لوقا عنه: إنه بعد صعود الرب، نزل على التلاميذ في يوم الخمسين، وله سلطان على جميع الأمم ليُدخلهم الحياة ويفتح لهم العهد الجديد. ولذلك صاروا يسبِّحون الله بتوافق في جميع اللغات، وكان الروح يجمع في الوحدة القبائل المتخالفة، ويقدِّم للآب باكورة من جميع الأمم، وهذا هو ما وعد به الرب أن يُرسل الباراقليط الذي يؤلِّفنا مع الله. فكما أنه يستحيل أن يصير الدقيق الجاف عجيناً واحداً ولا خبزاً واحداً بدون ماء، هكذا نحن الكثيرين لا يمكن أن نصير واحداً في المسيح يسوع بدون ذلك الماء (الروح) السمائي!] (ضد الهرطقات ٣:١٧:٢).

٨- شاهدٌ آخر

الله يعلن الصالحات التي نشأت من مجيء مخلصنا، ويقول عن رعيته: "وَأُعْطِيكُمْ رُعَاةً حَسَبَ قَلْبِي، فَيَرْعُونَكُمْ بِالْمَعْرِفَةِ وَالْفَهْمِ" (أر ٣: ١٥). أيضاً بولس، كارز الحق، يتحدث إلى شيوخ أفسس، قائلاً: "اِحْتَرِزُوا إِذاً لأَنْفُسِكُمْ وَلِجَمِيعِ الرَّعِيَّةِ الَّتِي أَقَامَكُمُ الرُّوحُ الْقُدُسُ فِيهَا أَسَاقِفَةً، لِتَرْعَوْا كَنِيسَةَ اللهِ الَّتِي اقْتَنَاهَا بِدَمِهِ" (أع ٢٠: ٢٨).

إذن، عندما يَعِد الله أن يفعل كل هذا، يتممه الروح بطريقة جوهرية، ويُقيم أساقفة وفق الوعد الذي أعطاه للأنبياء، بالتالي فهو ليس غريباً عن الجوهر الإلهي، لكنه يفعل كل أعمال الله كفعل طبيعي وجوهري وأقنومي (شخصي)، لأنه يأتي من الجوهر الإلهي ويبقى فيه.

٩- شاهدٌ آخر

يقول المسيح عنّا لأبيه: "قَدِّسْهُمْ فِي حَقِّكَ. كَلاَمُكَ هُوَ حَق" (يو ١٧: ١٧)، ويقول الله أيضاً نفسه بواسطة حزقيال النبي: "وَيَكُونُ مَسْكَنِي فَوْقَهُمْ، وَأَكُونُ لَهُمْ إِلهاً وَيَكُونُونَ لِي شَعْباً. فَتَعْلَمُ الأُمَمُ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ مُقَدِّسُ إِسْرَائِيلَ، إِذْ يَكُونُ مَقْدِسِي فِي وَسْطِهِمْ إِلَى الأَبَدِ" (حزقيال ٣٧: ٢٧ - ٢٨).

إذن، بالرغم من أن الله يقول إنه يقدِّس هؤلاء الذين يُوجدون بالقرب منه، إلاّ أن الروح هو ذاك الذي يتمم وعدَه ويقدِّسهم، إذن، فالروح هو الله، وليس غريباً عن الجوهر الأسمى من الكل.

١٠- شاهدٌ آخر

يؤكد الكتاب المقدس كله أن **كلمة** الله تأنَّس. والمعارضون أنفسهم يعترفون به. لكن بما أنه مكتوب عنه أنه سار منقاداً بالروح إلى البرية، وأحياناً أخرى أيضاً أنه بقوة الروح سار إلى الجليل، ليت هؤلاء الذين يَفصِلون الروح عن الجوهر الإلهي ويتطاولون فيضعونه مع المخلوقات، يقولون لنا بأية طريقة ذهب الابن أو حكمة وقوة الآب بقوة الروح إلى الجليل، وكيف انتصر بواسطة الروح وواجه أيضاً الشيطان في البرية؟

هل يتطاولون فيقولون إنه كان محروماً من القوة، أو هل من الأفضل لهم أن يقولوا إنه أتى في ضعفٍ شديدٍ، لدرجة أنه وُجِد في احتياجٍ للمساعدة من الروح، الذي هو مخلوقٌ ومجبولٌ، وفق كلمات غير المؤمنين إيماناً مستقيماً؟

وكيف لِمَنْ لم يزل رب القوات، أن يقبل مساعدة مخلوق؟ إن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً، إلاّ إذا فَكَّرَ أحدٌ عبثاً. إذن، الروح هو الله، الروح الذي يوجد بطريقة طبيعية في الابن من الآب، وله كل القدرة. وقد انتصر **الكلمة** على الشيطان بواسطة الروح؛ لأنه استخدم هذه القوة، مالكاً في داخله إياه بحسب الجوهر، حيث تعارك في البرية مع الشيطان، بينما في الجليل صنع أفعالاً معجزيةً. لأن "الكل" يصير من الآب بواسطة الابن في الروح القُدس.

١١- شاهدٌ آخر

مكتوب: "أَمَا أَمْلأُ أَنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، يَقُولُ الرَّبُّ؟" (إر ٢٣: ٢٤). ومن الواضح أن الرب يملأ كلَّ مكانٍ حقاً بواسطة الروح. والمرنم كان يعرف هذا الأمر جيداً حين قال "أَيْنَ أَذْهَب منْ روحكَ؟ وَمنْ وَجْهكَ أَيْنَ أَهْرب؟ إنْ صَعدْت إلَى السَّمَاوَات فَأَنْتَ هنَاكَ، وَإنْ فَرَشْت في الْهَاويَة فَهَا أَنْتَ" (مز ١٣٩: ٧ - ٨).

فبما أن الله يملأ كلَّ شيءٍ بواسطة الروح، وهو موجود في كل مكان، إذن فالروح هو الذي يملأ الكُلَ بكونه إلهاً.

١٢- شاهدٌ آخر

عندما كان بولس يكرز لأهل أثينا عن الإيمان بالإله الحقيقي، قال لهم: "لأَنَّنَا بِهِ نَحْيَا وَنَتَحَرَّكُ وَنُوجَدُ" (أع ١٧: ٢٨). وربنا يسوع المسيح ينسب القوة التي تصير فينا من الله للروح القدس، قائلاً: "اَلرُّوحُ هُوَ الَّذِي يُحْيِي" (يو ٦: ٦٣). إذن، فالروح هو الله الذي نحيا فيه ونتحرك ونُوجد، وفق أقوال بولس وشهادة مخلصنا[1].

---

(1) الروح القدس هو الذي يجدِّدنا ويقدِّسنا، كما يؤكد القديس غريغوريوس اللاهوتي، قائلاً: "[«تُرسل روحك فتُخلَق، وتجدِّد وجه الأرض» (مز ١٠٤: ٣٠) فالروح هو الذي يخلقنا في الميلاد الجديد الروحي (يو ٣: ٥). هذا

١٣- شاهدٌ آخر

يقول المسيح لأولئك الجديرين بأن يصيروا مشاركين أيضاً للإلوهية: "إِنْ أَحَبَّنِي أَحَدٌ يَحْفَظْ كَلاَمِي، وَيُحِبُّهُ أَبِي، وَإِلَيْهِ نَأْتِي، وَعِنْدَهُ نَصْنَعُ مَنْزِلاً" (يو ١٤: ٢٣).

واضحٌ إذن أنه يسكن في القديسين بواسطة الروح. فعندما يُكمِّل الروح القدس حضور الآب والابن، كيف لا يكون واضحاً، أن الروح لا ينفصل عن جوهر الله، بل هو مُرسلٌ منه بحسب الطبيعة، وله كل فعل الابن، وأن الروح هو ذاك الذي أُرسل من الآب بواسطة الابن؟ ويؤكد المخلص نفسه هذا الأمر، قائلاً: "وَمَتَى جَاءَ الْمُعَزِّي الَّذِي سَأُرْسِلُهُ أَنَا إِلَيْكُمْ مِنَ الآبِ، رُوحُ الْحَقِّ، الَّذِي مِنْ عِنْدِ الآبِ يَنْبَثِقُ، فَهُوَ يَشْهَدُ لِي" (يو ١٥: ٢٦). وأيضاً: "وَأَمَّا الْمُعَزِّي، الرُّوحُ الْقُدُسُ، الَّذِي سَيُرْسِلُهُ الآبُ بِاسْمِي، فَهُوَ يُعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ، وَيُذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ" (يو ١٤: ٢٦).

١٤- شاهدٌ آخر

حين كتب الرسول لأهل كورنثوس، قال في بداية الرسالة عن ذاته: "بُولُسُ، الْمَدْعُوُّ رَسُولاً لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ" (١كو ١: ١).

ها هو هنا يقول بوضوح إنه قد أخذ هذا اللقب وتلك الرسالة من يسوع المسيح. وفي أعمال الرسل نجد شيئاً مماثلاً لهذا: "وَبَيْنَمَا هُمْ يَخْدِمُونَ الرَّبَّ وَيَصُومُونَ، قَالَ الرُّوحُ الْقُدُسُ: أَفْرِزُوا لِي بَرْنَابَا وَشَاوُلَ لِلْعَمَلِ الَّذِي دَعَوْتُهُمَا إِلَيْهِ" (أع ١٣: ٢). فإذا كان الروح هو الذي دعاه للرسالة، ومع ذلك يقول أنه دُعي من يسوع المسيح، عندئذٍ يبدو واضحاً أن

الروح... إن وجد صيادين، يصطادهم للمسيح، ويجعلهم يصطادون العالم كله في شِباك الكلمة: اذكر بطرس وأندرياس وابنَي الرعد الذين صاروا يُجاهرون بالروحيات مثل الرعد. وإن وجد عشارين يربحهم ليصيروا تلاميذ، بل ويجعلهم يتاجرون في ربح نفوس الناس، فهوذا متّى الذي كان بالأمس عشّاراً يصير اليوم إنجيلياً! وإن وجد أُناساً يضطهدون الآخرين بغيرة شديدة، فإنه يُحوِّل غيرتهم ويجعلهم مثل بولس بدل شاول، ويعطيهم غيرة على التقوى بقدر ما كانت لهم غيرة في الشر... هذا الروح بعينه هو الذي دفعني اليوم أن أُكلِّمكم بمجاهرة، وإن كان ذلك لا يعود بالخطر علي فشكراً لله، وإن عاد عليَّ بالخطر فله الشكر أيضاً؛ في الحالة الأولى لأنه جنَّب مبغضينا من الوقوع في الخطية، وفي الحالة الثانية لأنه قدَّسنا بنوال مكافأة خدمتنا للإنجيل، بأن نصير مُكمَّلين بالدم]. عظة عن يوم الخمسين ٤١: ١٤.

الروح القدس ليس غريباً عن جوهر الابن، لكن يوجد فيه ويأتي منه، ويصنع به كل ما يريد، وكأنه فعل طبيعي.

١٥- ردٌ آخر

إن الروح القدس كاملٌ، ولا ينقصه شيء، لكن إن كانت هناك أحاديث عنه في الكتب المقدس، تحمل المعنى البشري، فإننا نقبل أنها قيلت تدبيرياً لأجلنا.

١٦- اعتراضٌ من جانب الهراطقة

كيف يكون معقولاً، أو كيف يمكننا أن نفهم دون صعوبةٍ شديدةٍ، ما يقولونه من أن الروح القدس يأتي من جوهر الآب، بالرغم من أنه ناقصٌ كثيراً ولا يملك شيئاً من ذاته، إلاَّ ما يكون بسبب مشاركته في ذاك؟

لأن المخلص يقول بوضوحٍ شديدٍ يقول في الأناجيل عن الروح: "لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ" (يو ١٦: ١٣). فلو كانت له المقدرة في ذاته أن يكون كاملاً، لَكان قد تحدث من ذاته، دون أن يحتاج أن يذكِّره آخر بالأقوال.

١٧- الرد على هذا الاعتراض

تعتري الدهشةُ المرءَ بسهولةٍ عندما يرى طياشة وغباء المعارضين. لأن ما ينبغي عليهم أن يتعلموه هو السر الخاص بالروح القدس، وعليهم أن يدركوا أنه هو ثمرة جوهر الله[١]، وأنه يوجد فيه ويأتي منه، دون أن يتجزَّأ وينفصل، وله الطبيعة الإلهية عينها، ولكنكم بهذه الأمور نفسها تتعثرون؛ لأن "الشِّرِّيرُ تَأْخُذُهُ آثَامُهُ وَبِحِبَالِ خَطِيَّتِهِ يُمْسَكُ" (أمثال ٥: ٢٢)، كما هو مكتوب، لأنهم لا يستطيعون السير في الطريق المستقيم للتعليم.

فالمخلِّص لم يقل عن الروح: "لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ"؛ لكي يُظهِر أنه ناقصٌ، بل لكي يُعلِّم سامعيه حسناً أن الروح طالما يأتي من الجوهر الواحد، فلن يقول شيئاً آخراً مختلفاً

---

(١) الروح القدس هو ثمرة جوهر الآب مثل الابن تماماً، إلا أن الابن يُولَد مِن الآب والروح القدس ينبثق مِنه.

عن ذاك الذي يريده هو. أي طالما أنه هو فكر المسيح - وفق بولس الطوباوي - الذي يقول عن الروح "وَأَمَّا نَحْنُ فَلَنَا فِكْرُ الْمَسِيحِ" (١ كو ٢: ١٦)، فإنما يفكر ويتحدث بهذه الأقوال التي قالها هو، إذ أنه أيضاً فكر المسيح. لأجل هذا قال إنه لن يقول شيئاً من ذاته، كأنه يقول: أنا أيضاً هو ذاك الذي يتحدث، مثلما يمكن لعقل الإنسان أن يقول ذلك عن القول الذي يأتي منه. فبما أنه لا يقول شيئاً من ذاته، ولكنه يقول كل ما يسمعه، فمن الطبيعي ألاّ يقول أحدٌ إن قول الإنسان الشفاهي ناقصٌ لأنه يتشكل أولاً في عقلة. لأن الوحدة الطبيعية بين العقل والقول، تنقل مباشرةً ما للعقل إلى القول.

نفس الوضع يجب أن نعلمه أيضاً بالنسبة للروح القدس. فكل ما يوجد حقاً في فكر المسيح، يقوله للتلاميذ، دون أن يتحدث بإرادةٍ خاصةٍ، ولا بمشورةٍ غريبةٍ عن تلك التي للعقل الذي فيه ومنه يأتي، لكنه يأتي بطريقة طبيعية منه، وله كل الإرادة، مثلما له فعله أيضاً.

١٨- الروح القدس هو من جوهر الله الآب والابن

حين سرد لنا موسي الطوباوي قصة خلق الإنسان ومجيئه إلى الوجود، يقول إن الله أخذ من الأرض طيناً وصنع بقوته شكل الجسد الذي يظهر، ونفخ في وجهه نسمة حياة، هكذا صار الإنسان نفساً حيةً (أنظر تك ٢: ٧). إذن، فالنفخة الإلهية التي صارت للإنسان، لا يمكننا أن نقول عنها إنها هي النفسُ ذاتها (لأنها عندئذ تكون غير متغيرة، طالما أتت من طبيعة غير متغيرة)، بل هي الاتحاد بالروح القدس، الذي مُنِحَ من البداية لنفس الإنسان. لأن أيَ كمالٍ أُعطي للمخلوقات، قد أُعطي بالروح. ولذلك، هذا الوجود الحي الذي تم صنعه، صار بحسب "صورة الله"؛ لأنه خُلِقَ على قياس ذاك بالاتحاد بالروح القدس.

وهذه النفخة التي يقول عنها موسي الطوباوي إنها صارت من الله إلى الإنسان، هي ذاتها التي جدَّدها المسيح لنا بعد قيامته من الأموات، عندما نفخ في تلاميذه، قائلاً: "خُذُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ" (يو ٢٠: ٢٢)، وهكذا أخذنا ثانيةً الصورةَ الأولي، لنتشبَّه بذاك الجَمَال الذي خُلِقنا عليه، بمشاركة الروح.

فطالما أن الروح القدس يأتي داخلنا ويجعلنا شبيهين بالله[1]، ويأتي من الآب بالابن، يكون من الواضح أنه من الجوهر الإلهي، طالما هو من جهة الجوهر كائنٌ فيه ويأتي منه. وذلك مثل النفخة التي تخرج من فم البشر بالضبط، بالرغم من أن المِثال صغيرٌ، ولا يستحق الحديث؛ لأن الله يتفوق على كل شيءٍ.

١٩- ردّ آخر

عندما وضع بولس القوانين المفيدة للكنائس، أعطانا وصيةً مؤداها كيف ينبغي أن نحيا في الكنائس، وكيف ينبغي أن نظهر أمام إله الكل، إذ يقول: "فَإِنَّ الرَّجُلَ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُغَطِّيَ رَأْسَهُ لِكَوْنِهِ صُورَةَ اللهِ وَمَجْدَهُ. وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَهِيَ (صورة) مَجْدُ الرَّجُلِ" (١ كو ١١: ٧)، ثم أكّد بعد ذلك على أن المرأة هي مجد الرجل. لذا كان من الضروري أن نفحص بأية طريقة يكون الاثنان هكذا. وليتنا نأخذ أولاً هذا الذي قيل عن الرجل، وليتنا نفحص كيف يكون أيضاً مجد الله. أعتقد أنه من الواضح للكل، أن الرجل سُمِّي هكذا؛ لأنه يشارك روح الله، وبواسطته صار شريكاً للطبيعة الإلهية (أنظر عب ٦: ٤)، وبسبب هذا يمتلئ أيضاً من مجد الله.

إذن، فبسبب أن لديه الروح الذي يأتي من جوهر الله، ولأنه بشركته معه أصبح مخلوقاً مشابهاً لذاك الذي خلقه، دُعي هكذا صورة ومجد الله[2].

---

(1) هنا الحديث عن عمل الروح ذاته فينا، العمل الذي يشهد على إلوهيته، إذ يقول القديس باسيليوس الكبير: "[من الروح القدس قد نلنا الميلاد الجديد (يو ٣:٥)، وبالميلاد الجديد نلنا الخليقة الجديدة، وبالخليقة الجديدة نلنا معرفة فائقة لسمو الذي خلقنا من جديد ... الروح القدس هو الروح الخالق (مز ١٠٤:٣٠)، بل هو الذي يجدِّد الخلقة بالمعمودية وبالقيامة. هو الروح الذي يعرف كل شيء، (١كو ٢:١٠)، وهو الذي يعلّمنا كل شيء (يو ١٤:٢٦). هو الذي يهبُّ حيث يشاء (يو ٣:٨)، وهو الذي يُرشدنا (إلى جميع الحق) (يو ١٦:١٣). هو «روح الإعلان» (أف ١:١٧)، وهو الذي ينير (أف ١:١٨)، ويُحيي (يو ٦:٦٣)، بل وهو بذاته النور والحياة. هو الذي يجعلنا هياكل لله (١كو ٣:١٦)، بل ويؤلّهنا أيضاً. هو الذي يسبق ويؤهّل للمعمودية (أع١١: ١٧)، وهو الذي من بعد المعمودية نطلبه بإلحاح (لو ١١:١٣). هو الذي يصنع كل هذه بكونه هو الله، والذي ينقسم كألسنة من نار (أع ٢:٣)، ويوزِّع المواهب (١كو ١٢:١١)]. عظة عن الروح القدس ٣١:٢٨و٢٩.

(2) الجدير بالذكر أن القديس غريغوريوس النيصي يعتبر أن الروح القدس هو المجد الذي أعطاه الرب للتلاميذ، إذ يقول: [يقول الرب في الإنجيل موجِّهاً الكلام للآب: «ليكون الجميع واحداً، كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا

ولأن المرأة أيضاً دُعيت هكذا، دعنا نرى أهمية هذا الوصف. بولس يقول إنها هي مجد الرجل؛ لأنها صارت من جوهر ذاك. لأنه يقول: "فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلهُ سُبَاتاً عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْماً. وَبَنَى الرَّبُّ الإِلهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ" (تك ٢: ٢١ - ٢٢).

إذن، فمثلما دُعيت المرأة مجد الرجل؛ لأن الله أخذ جزءً من أعضائه لكي يخلقها، هكذا أيضاً دُعي الرجل مجد الله؛ لأنه صار مشاركاً لجوهره بواسطة الروح القدس الذي يسكن داخله (٢ بط ١: ٤). فإذا كانت الأمور على هذا النحو، من الضروري أن نقول إن الروح ليس مخلوقاً أو مجبولاً، لكنه يأتي من جوهر الله، وهو الله الذي يُكرَّم مع الآب والابن، في الطبيعة الإلهية الواحدة.

٢٠- ردٌ آخر

دنا شخصٌ - كما قيل في الأناجيل - وقال لربنا يسوع المسيح: "أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ"، والمسيح أجابه: "لِمَاذَا تَدْعُونِي صَالِحاً؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحاً إِلاَّ وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ" (متى ١٩: ١٦ - ١٧).

وبينما المسيح يقول إن واحداً هو الصالح الحقيقي بحسب الجوهر، يقول المرنم: "روحكَ الصَّالِح يَهْدِيني في أَرْضٍ مسْتَوِيَةٍ" (مز ١٤٣: ١٠). فإذا كان الصالح واحداً، وكان الروحُ صالحاً، فمن الواضح أنه يأتي من الطبيعة الإلهية، التي يوجد فيها الصلاح بطريقة فريدة وسيادية ومؤكدة.

فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا» ... «وأنا قد أعطيتُهم المجد الذي أعطيتني» (يو ١٧: ٢١و٢٢) وأعتقد أن ما يقصده بهذا المجد هو الروح القدس الذي أعطاه لتلاميذه بالنفخ في وجوههم، لأنه لم يكن ممكناً لهؤلاء المتفرقين بعضهم عن بعض أن يصيروا واحداً، إلاّ بتوافقهم بوحدانية الروح القدس ... فالروح هو المجد، كما يقول أيضاً للآب: «مجّدني بالمجد الذي كان لي منذ البدء عندك قبل كون العالم» ... هذا المجد هو الروح القدس، لأنه لم يكن شيء منذ الأزل سوى الآب والابن والروح القدس. ولذلك يقول بنفس المعنى: «المجد الذي أعطيتني قد أعطيتُهم» لكي بواسطته يصيروا واحداً معي، وبواسطتي يصيروا واحداً معك]. في شرح: «حينئذ الابن نفسه سيخضع...» (١ كو ١٥: ٢٨).

٢١- ردٌّ آخر

يكتب بولس للبعض قائلاً: "لِذلِكَ أُعَرِّفُكُمْ أَنْ لَيسَ أَحَدٌ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِرُوحِ اللهِ يَقُولُ: «يَسُوعُ أَنَاثِيمَا». وَلَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَسُوعُ رَبٌّ» إِلاّ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ" (١كو ١٢: ٣). من الواضح إذاً أن المشارك للروح القدس، يعرف أن يسوع هو الرب، وذاك الذي لم يشارك لا يعرف، لكن كيف يعرف هذا الذي أخذ الروح أن يسوعَ ربٌّ؟ كما يدرك الذين يأكلون عسلاً، إن العسل حلوٌ بحسب طبيعته، هكذا أيضاً مَن صار مشاركاً للروح. وبما أن الروح له نفس جوهر الابن، بالتالي له ذات طبيعة لله الذي هو رب الكل. فإذا كان الأمر على هذا النحو، عندئذٍ يكون هو الله وليس مخلوقاً أو مصنوعاً، مثلما يعتقد الهراطقة.

٢٢- شاهدٌ آخر

ينسب بولس الطوباوي لفعل الروح القدس المواهب الإلهية المتمايزة[1]، وأيضاً يكتب: "فَإِنَّهُ لِوَاحِدٍ يُعْطَى بِالرُّوحِ كَلاَمُ حِكْمَةٍ، وَلآخَرَ كَلاَمُ عِلْمٍ بِحَسَبِ الرُّوحِ الْوَاحِدِ، وَلآخَرَ إِيمَانٌ بِالرُّوحِ الْوَاحِدِ، وَلآخَرَ مَوَاهِبُ شِفَاءٍ بِالرُّوحِ الْوَاحِدِ. وَلآخَرَ عَمَلُ قُوَّاتٍ، وَلآخَرَ نُبُوَّةٌ، وَلآخَرَ تَمْيِيزُ الأَرْوَاحِ، وَلآخَرَ أَنْوَاعُ أَلْسِنَةٍ، وَلآخَرَ تَرْجَمَةُ أَلْسِنَةٍ. وَلكِنَّ هذِهِ كُلَّهَا يَعْمَلُهَا الرُّوحُ الْوَاحِدُ بِعَيْنِهِ، قَاسِماً لِكُلِّ وَاحِدٍ بِمُفْرَدِهِ، كَمَا يَشَاءُ" (١ كو ١٢: ٨ - ١١).

---

(١) الحديث هنا عن تنوع مواهب الروح القدس وبالرغم من أن الروح هو واحد بطبعة وغير منقسم، إلا أنه يقسم النعمة على كل واحد كما يشاء، وهذا ما أكده القديس كيرلس الأورشليمي، قائلاً: "[لماذا يدعو الرب نعمة الروح القدس ماءً؟ (يو ٤: ١٤، ٧: ٣٨ و٣٩) ذلك لأن قوام كل شيء يكون بالماء، ولأن الماء ينشئ الخضرة ويُحيي الكائنات الحية، ولأن ماء المطر ينــزل من السماء، ولأن الماء ينــزل واحداً في شكله ولكنه يتنوَّع في مفعوله، فإن ينبوعاً واحداً يسقي الفردوس كله (تك ٢: ١٠)، والمطر الواحد بعينه ينــزل على العالم كله، فيصير أبيضَ في السوسنة وأحمرَ في الوردة، وأرجوانياً في الزنبقة والبنفسج، ويتنوَّع ويتشكَّل بصور متعدِّدة، فهو في النخلة غير ما يكون في الكرمة، وهو يصير في الكل كل شيء، مع بقائه واحداً في طبعه، دون أن يختلف بعضه عن بعضه. فإن المطر لا يغيِّر ذاته وينــزل بصورٍ مختلفةٍ عن بعضها، ولكنه يتكيَّف مع طبيعة الكائنات التي تقبله، فيصير لكل واحدة منها بما يناسب تكوينها. وهكذا الروح القدس أيضاً وهو واحد بطبعه وغير منقسم، لكنه يقسِّم النعمة على كل واحد كما يشاء (١كو ١٢: ١١)]. عظة للمعمدين الجدد ١٦: ١٢.

أيضاً وهو يعرف أن الروح هو الله، يقول بولس في نفس الرسالة: "فَوَضَعَ اللهُ أُنَاساً فِي الْكَنِيسَةِ: أَوَّلاً رُسُلاً، ثَانياً أَنْبِيَاءَ، ثَالِثاً مُعَلِّمِينَ، ثُمَّ قُوَّاتٍ، وَبَعْدَ ذلِكَ مَوَاهِبَ شِفَاءٍ، أَعْوَاناً، تَدَابِيرَ، وَأَنْوَاعَ أَلْسِنَةٍ" (١ كو ١٢: ٢٨). لماذا إذن يشُكُّ أولئك المتأهبون فقط للتجديف في أن الروحَ له ذات جوهر الله، طالما أن بولس قال - بوضوح شديد - إن الروحَ هو ذاك الذي يقسِّم أنواع المواهب الإلهية كما يشاء، كما قال أيضاً إن الله هو الذي يمنح[1] تلك المواهب لمن يستحقوها في الكنائس؟ وكيف لا يكون سخفاً وأمراً غير معقول، أن يعطي أولئك الذين يريدون أن يؤمنوا إيماناً صحيحاً اهتماماً للأفكار غير المتبصرة للآخرين، ولا يعطون هذا الاهتمام لأقوال بولس؟ الروح إذن هو الله، حتى لو لم يُرِد الجهلاء.

٢٣- شاهدٌ آخر

عندما كان بولس يشرِّع للنساء، قال: "الْمَرْأَةُ مُرْتَبِطَةٌ بِالنَّامُوسِ مَا دَامَ رَجُلُهَا حَياً. وَلكِنْ إِنْ مَاتَ رَجُلُهَا، فَهِيَ حُرَّةٌ لِكَيْ تَتَزَوَّجَ بِمَنْ تُرِيدُ، فِي الرَّبِّ فَقَطْ. وَلكِنَّهَا أَكْثَرُ غِبْطَةً إِنْ لَبِثَتْ هكَذَا، بِحَسَبِ رَأْيِي. وَأَظُنُّ أَنِّي أَنَا أَيْضاً عِنْدِي رُوحُ اللهِ" (١ كو ٧: ٣٩ - ٤٠).

([1]) يشرح القديس كيرلس الكبير، في سياق الحديث عن بلبلة الألسن ،عمل الروح القدس فينا بكونه إلهاً، قائلاً: "لكن في المسيح كان تعدد الألسنة هو علامة جيدة. لأن التلاميذ عندما كانوا مجتمعين في يوم الخمسين "صار بغتة من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة وملأ كل البيت حيث كانوا جالسين. وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم. وامتلأ الجميع من الروح القدس وابتدأو يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا" (أع ٢:٢ - ٤). إذاً ما الذي تقوله هذه الكلمات؟ إن الروح القدس منح لنا المسيرة نحو العلو وتحقق الصعود إلى السموات بالإيمان بالمسيح، ويجب أن تتحد كل لغات المسكونة أي الشعوب أو الأمم بمعونة الروح. لأن كل لسان للبشر قَبلَ المسيح أصبح يكرز بأسراره. إذاً في حالة تعطيل بناء البرج وتشتت الناس في كل الأمم كان تعدد الألسنة رسالة مسبقة تقول بأنه عند مجيء المسيح كانت هذه أداة للوحدة بمعونة الروح القدس وللصعود إلى فوق. لأن المسيح صار لنا "برج قوة" حسب كلمات المزمور (انظر مز٦١:٣) الذي يحملنا إلى المدينة السمائية ويوِّحد البشر بطغمات الملائكة". جيلافيرا، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، ومراجعة د. نصحي عبد الشهيد، الكتاب الشهري عدد أغسطس ٢٠٠٤.

إذاً ما هي النتيجة التي نخرج بها من هذه الأقوال؟ إذا كان التشريع عملاً يتناسب مع الله، وكان بولس قد قام به؛ لأن فيه روح الله، بالتالي الروح الذي هو فيه الذي جعله يُشَرِّع هو الله.

٢٤- شاهدٌ آخر

يكتب أيضاً بولس للبعض: "إِنْ كُنَّا نَحْنُ قَدْ زَرَعْنَا لَكُمُ الرُّوحِيَّاتِ، أَفَعَظِيمٌ إِنْ حَصَدْنَا مِنْكُمُ الْجَسَدِيَّاتِ؟" (١ كو ٩: ١١). من الواضح أنه يقول إن الروحيات إلهية، كما أن الجسديات هي جسدية. إذن، فبما أن كلامه يختص بالإلهيات، أي أسرار الله، فحسناً أن دعاها روحيات.

٢٥- شاهدٌ آخر

يقول المخلص عن ذاته في الأناجيل: "أَنَا هُوَ الْحَقُّ" (يو ١٤: ٦). أيضاً يوحنا الطوباوي يُظهِر في إنجيله أن الروح يأتي من جوهر الآب، إذ يقول: "رُوحُ الْحَقِّ، الَّذِي مِنْ عِنْدِ الآبِ يَنْبَثِقُ" (يو ١٥: ٢٦)، بينما في واحدة من رسائله، يقول: "الرُّوحَ هُوَ الْحَقُّ" (١ يو ٥: ٦). إذن كيف يمكن للروح الذي ينبثق من الآب، والذي هو روح الحق، ومثل الابن تماماً بسبب تطابق جوهرهما، حتى أنه يُدعي أيضاً الحق، أن يكون مخلوقاً ومجبولاً؟ لا شك أن هذا محضُ عبثٍ. وعلى ذلك، الروح هو الله، طالما أنه بالفعل هو الحق، وينبثق من الآب.

٢٦- شاهدٌ آخر

يقول يوحنا الطوباوي متحدثاً عن **كلمة** الله، إنه النور الحقيقي الذي يُنير لكل إنسان يأتي إلى العالم (أنظر يو ١: ٩). كما أن بولس الحكيم قال إن الروح القدس يُشرِق في قلوبنا ويُنيرنا لكي نعرف مجد الله في وجه المسيح (أنظر ٢ كو ٤: ٦). فبما أن **الكلمةَ** هو نورٌ حقيقي، والروح القدس أيضاً يُشرِق، إذن يتحتم علينا أن نوافق على أن الروح له ذات جوهر الكلمة، وهو يُشرق مع **الكلمة** الذي بواسطته يُنير كل إنسان بنور الروح كأنه شعاعُ طبيعته.

٢٧- اعتراض من جانب الهراطقة

يقولون لو زَعمتم أن نفوس القديسين تُمسح من الله بواسطة الروح القدس، عندئذٍ يكون الروح قد تماهى مع الميرون، فكيف يمكن أن يكون (زيت) الميرون من جوهر ذاك الذي يَمَسح، الأمر الذي لا يُقبل ولا حتى تقبله عاداتنا؟

٢٨- الإجابة على هذا الاعتراض

أيها السكارى بكل جهلٍ، ويا أيها المملوئين من عدم التبصر الذي هو أسوأ من كل السيئات؛ ألا تتيقظون قليلاً، فتتركون المفاهيم الجسدية وترتفعون إلى أعالي اللاهوت، فتدركون - بطريقة تتناسب مع الله - كل ما قيل عن الطبيعة الإلهية حتى لو قُدِّم بأقوال بشرية؟ ولِمَ لا تتجاوزون الشكل الذي عادةً ما تمارسون به الميرون، فيتمكن السامعون من إدراك معناها؟

لكن لكي نوضح لكم جهلكم، نقول شيئاً قريباً منه: لو أن الروح، وفق آرائكم، تماهى مع الميرون، لَوَجَبَ بالتالي – باعتباره مسحةً - أن يكون من جوهر آخر يختلف عن ذاك الذي يُمسَح، وبالتالي من الضروري أن نقول أيضاً إن الروح له جوهر آخر غير جوهر الآب. ولأن زيت الميرون يُصنع من جواهر كثيرة بواسطة المختصين في هذا الأمر، يتحتم أيضاً أن يتكون الروح القدس من أجزاءٍ كثيرةٍ ومتنوعةٍ بالنسبة لنا. ولأن الميرون أيضاً هو مادة غير عاقلة، يجب أن يكون الروح القدس أيضاً غير عاقل. عندئذٍ يقع التجديف على رؤوس أولئك.

لكن على النقيض، نحن نقول الآتي: إن كان الروح القدس من جوهر آخر يختلف عن ذاك الذي بواسطته يُمسَح قديسي الله، فكيف، عندما يسكن فينا الروح، يظهر أن المسيح - الذي لا يختلف من جهة الجوهر عن الآب - ساكناً فينا؟ هذا بالضبط هو ما كان يعرفه بولس حين كتب: "لِكَيْ يُعْطِيَكُمْ بِحَسَبِ غِنَى مَجْدِهِ، أَنْ تَتَأَيَّدُوا بِالْقُوَّةِ بِرُوحِهِ فِي الإِنْسَانِ الْبَاطِنِ، لِيَحِلَّ الْمَسِيحُ بِالإِيمَانِ فِي قُلُوبِكُمْ" (أف ٣: ١٦ - ١٧).

إذن، طالما يسكن المسيح بالروح في الإنسان الداخلي[1]، فمن الواضح من كل جانب، أنه ليس غريباً عن جوهر ذاك، هذا بواسطته يظهر أنه يسكن في القديسين.

٢٩- ردٌ آخر

إذا كان الناموس الذي أُعطي بواسطة موسي قد فَرَضَ عقاباً على مَن يجدِّفون على إله الكل، وهكذا أمر الله أن يُرجم ابن المصري في البرية بواسطة الكل؛ لأنه سبَّ اسمه، كما هو مكتوب، وتطاول وقال شيئاً محرَّماً (أنظر لاو ٢٤: ١٠ - ٢٣)، فلم يكن ربنا يسوع المسيح أقل حفظاً لكرامة الطبيعة الإلهية من هذا، إذ قال إنه يغفر لذاك الذي يقول شيئاً ضد ابن الإنسان، لكن ذاك الذي يجدِّف على الروح القدس لن يُغفر له، لا في هذا العالم ولا في الدهر الآتي (أنظر مت ١٢: ٣١).

فلو كان الروح مخلوقاً، و لم يكن من الجوهر الإلهي، كإلهٍ مع الآب والابن، فلماذا يُعاقَب على التجديف عليه بهذا العقاب الشديد الذي حُدِّدَ ضد أولئك الذين يجدِّفون على الله؟ إنما من الواضح، أن الروح هو إلهٌ من إله وفي الله، الروح الذي يكرَّم من الكتب المقدسة بكونه إلهاً، وهو الله بحسب الطبيعة.

٣٠- ردٌ آخر

بما أن الذي يُولد من الروح، و لم يُولد من دم ولا من مشيئة رجل أو امرأة، لكن من الله - وفق ما يقوله المخلص - هو روح (أنظر يو ٣: ٦، يو ١: ١٣)، إذن، فالروح

---

(١) المسيح يسكن بالروح القدس فينا، ويشكِّلنا الروح على صورة الابن، لأن الروح القدس هو روح المسيح مخلصنا أي بمثابة صورته الخاصة، وهذا ما يؤكده القديس كيرلس، قائلاً: "[لقد دِينت الخطية إذ قد صارت مائتة في المسيح ذاته أولاً، وستصير مائتة فينا نحن أيضاً، متى قبلنا حلول المسيح داخل نفوسنا بالإيمان وبشركة الروح القدس، الذي يجعلنا مشابهين للمسيح (رو ٨: ٢٩)، بتقديسنا بواسطة الفضيلة، لأن روح المسيح مخلِّصنا هو بمثابة صورته الخاصة، وهو يطبع فينا الصورة الإلهية بطريقة ما بواسطة نفسه ... غير أن الروح القدس يجب أن يُعتبر بحق هو الروح، وليس هو الابن، بل بالحري هو روح الابن، إذ هو يعجن ويعيد تشكيل على صورة الابن أولئك الذين يحل فيهم بالمشاركة، حتى إذا ما رأى الله الآب فينا ملامح ابنه الخاص اللائقة به، يحبنا نحن أيضاً كأولاد له، ويُشرق علينا بالكرامات الفائقة لهذا العالم!] العظة الفصحية ١٠: ٢.

هو الله بحسب الطبيعة، الروح الذي يلد القديسين ثانيةً، ويوحِّدهم بالله بواسطة سكناه فيهم، وجعلهم شركاء طبيعته[1].

٣١- ردٌ آخر

بما أن الروح يؤلّه[2] هؤلاء، بأن يذهب إليهم ويسكن فيهم، ويجعلهم شركاء الطبيعة الإلهية، إذن فهو الله، وهو يُمنح من الطبيعة الإلهية بطريقة طبيعية بواسطة الابن إلى الخليقة، ويشكّلها قياساً على ذاته. لأنه إذا كان عمل النور هو أن ينير، وأنه إذا انعدم النور، فلا يمكن أن يكون هناك شيءٌ منيرٌ، هكذا أيضاً عمل الروح القدس، أن يجعل أولئك الذين يقبلونه آلهةً[3]. ولا يمكن أن يكون أولئك الذين يقبلونه شركاء الطبيعة الإلهية، لو لم يكن هو نفسه له الجوهر الإلهي الواحد.

إن الروح ليس قدوساً جرَّاء شركته مع الله الآب، لكن لأنه ينبثق من طبيعته وجوهره.

٣٢- اعتراض من الهراطقة

يقولون نحن نوافقكم على أن الروحَ مقدِّسٌ، ليس لأنه هو في حد ذاته هكذا بحسب الطبيعة، لكن مثله مثل إناء من حديد أو من أي مادة معرَّضٌ لحرارة النار، يفعل ما تفعله أيضاً النار، هكذا هو مملوءٌ من قداسة الله، ينقل القداسة إلى الخليقة. والشاهد غير

---

(1) لقد صرنا شركاء الطبيعة الإلهية بواسطة الروح القدس، فالمسيح يتصور فينا بالروح القدس، كما يؤكد القديس كيرلس، قائلا: "[إن الكلمة الذي من الله الآب يُرقّينا إلى حد أن يجعلنا شركاء طبيعته الإلهية بواسطة الروح (القدس). وبذلك صار له الآن إخوةٌ مشابهون له وحاملون صورة طبيعته الإلهية من جهة التقديس. لأن المسيح يتصوَّر فينا هكذا: بأن يغيِّرنا الروح القدس تغييراً جذريّاً من صفاتنا البشرية إلى صفاته هو. وفي ذلك يقول لنا بولس الطوباوي: «وأما أنتم فلستم في الجسد بل في الروح» (رو ٨: ٩)، فمع أن الابن لا يحوِّل أحداً قط من المخلوقين إلى طبيعة لاهوته الخاص - لأن هذا مستحيل - إلا أن سماته الروحية ترتسم بنوعٍ ما في الذين صاروا شركاء طبيعته الإلهية بقبول الروح القدس، وبهاء لاهوته غير المفحوص يضيء مثل البرق في نفوس القديسين]. ضد نسطور ٣: ٢.

(2) أي يقدسهم ويجعلهم شركاء الطبيعة الإلهية بحسب النعمة.

(3) كما ذكرنا من قبل: المقصود هو أنه يجعلهم مقدسون وشركاء الطبيعة الإلهية بحسب النعمة.

الكاذب بالنسبة لنا عن هذا الأمر هو المخلّص نفسه الذي قال عن الروح " لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي يأخذ مما لي" (يو ١٦: ١٤).

٣٣- الرد على هذا الاعتراض

يُعد اقتراحهم هذا - من كل الوجوه - عبثٌ وتجديفٌ، أكثر منه محاولة مبذولة من جانبهم للعثور على الحق؛ لأنهم - كما يبدو - لا يحاولون فِهم الكتب المقدسة، لكن بالحري يكيِّفونها على هواهم، ولأنهم يستخدمون أقوال المخلص لكي يؤكدوا أكاذيبهم، لا أن يكشفوا بوضوح مفهوم الحديث الموجَّه للسامعين، ولا يربطوا تلك الأقوال بما يأتي بعدها من أقوال أخرى، بل على النقيض، يجعلوا هذه الأقوال - بقصدٍ شرير - تخدم طريقتهم الغريبة وهدفهم الذي وضعوه مسبقاً في أذهانهم، فهم من ثمَّ يستنتجون النتيجة التي يريدونها فقط.

فالمخلص لم يقل عن الروح إنه سوف يأخذ مني ويقدِّسُكم، وحتى لو كان قد قال هذا، لَمَا حدث أي ضرر لأولئك الذي يسمعون هذا القول ويفهمونه بطريقة صحيحة، لكنه يقول: "لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ. لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ" (يو١٦: ١٥، ١٤). فالمخلص كان قد وعد تلاميذه أنه بعد تحقيق الهدف من تأنُّسِهِ، وصعوده إلى الآب، سوف يرسل لهم المعزِّي، وذلك حتى لا يعتقدن أحدٌ أن الروح القدس سوف يعلِّم تعاليم لا تتفق ورأيه، ولكي يُظهر بوضوح أنه - لأنه هو روحه - سوف يخدم أيضاً نفس الأقوال، إذ يقول: "لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ،.. لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ".

فعلى سبيل المثال، إذا أفصح العسل عن حلاوة طبيعته التي يكون عليها، فما يكون قد أضاف شيئاً من ذاته للذين يتذوقونه؛ لأنهم يأخذون منه ما هو له؛ لأن المذاق الذي يأتي بطريقة طبيعية من الجواهر ينتقل دون تجزئة، ومثلما تنتقل الحلاوة من العسل، هكذا أيضاً الحرارة من النار، والبرودة من الماء. إذن، الروح ليس قدوسًا بسبب شركته في الجوهر الإلهي، كما يقول أولئك، بل هو قدوسًا من ذات طبيعته وجوهره.

٣٤- ردٌ آخر

أمَّا الذي نال قداسته بالمشاركة، فهو كمثل إناءٍ للقداسة، أُضيفت القداسة إليه فيما بعد، وهو مثل أي طبيعة عاقلة، كالإنسان أو الملاك، له طبيعته الخاصة السابقة على عملية التقديس.

إذن، ليت الذين يتطاولون، ويقولون إن الروحَ قدوسٌ بسبب مشاركته لله الآب، وليس بحسب طبيعته، ليتهم يقولون لنا ماذا يكون الروح في حد ذاته؟ نحن لم نسمع شيئاً آخر من الكتب المقدسة، سوى أنه قدوسٌ، بالتالي فهو ليس قدوساً بسبب المشاركة ولا بسبب قداسة مركَّبة، لكنه له ذات جوهر وطبيعة إلوهية الله الآب المقدسة، مثله في ذلك مثل حلاوة العسل، أو رائحة الزهرة.

٣٥- ردٌ آخر

وإذا كان الشيءُ المضاف فيما بعد بسبب من المشاركة، يمكن أن يُنزَع؛ لأنه مُعطىً، فالمميزات الجوهرية فقط هي التي تبقى مع الذين يملكوها دون انفصال. فإذا قالوا إن القداسة توجد في الروح بسبب الإضافة التي صارت فيما بعد، فعليهم أن يقرّوا بأنها يمكن أن تذهب أيضاً. إذن، فقد أتت ساعتهم ليقولوا إن الروح يمكن أن يوجد دون قداسةٍ وفق مبرراتهم، لكن ذلك تجديفٌ محض، وعلى ذلك، فالروح ليس قدوساً بسبب المشاركة، بل بحسب الطبيعة؛ لأنه ينبثق من الله.

٣٦- ردٌ آخر

يدعو الكتاب المقدس دائماً روح الله، روحاً قدوساً، دون أن يُظهر أن واحدةً من خواصه مضافةٌ، وفق عدم تبصُّر أولئك، لكن معلناً هذا الذي هو بحسب الطبيعة، مثلما يحدد شخصٌ كينونة الإنسان تحديداً دقيقاً بحسب الجوهر، فيقول إنه حيٌ وعاقلٌ وفانٍ. كيف إذن لا يكون سخفاً شديداً أن نحدد ماذا يكون الإنسان بحسب طبيعته، بينما نتخيل أن الروح القدس مختلف عما هو عليه، في الوقت الذي يفصح اسمه عما يكون بحسب الجوهر؟ فهو يدعى قدوسٌ، وبما أنه قدوسٌ، فهو لا يكون قدوساً من الخارج، لأن القداسة

فيه فعلٌ طبيعيٌ وحيٌ وأساسيٌ للجوهر الإلهي، وبالتالي يضيف دائماً إلى الخليقة الكمال، بواسطة القداسة والمشاركة في ذاته.

٣٧- ردٌ آخر

الأسماء التي تميِّز كل واحد من الكائنات، تعبِّر عن جوهر هذه الكائنات، وتحتوي على تحديدٍ كاملٍ للذات، كما تعلن أيضاً عن العمل المنوط بكلٍ منها، وذلك مثل أسماء: "الإنسان"، و"النبي". فعندما أذكر كلمة "إنسان"، فإنني أعبِّر عن جوهر صنفه، والوظيفة التي أعطيت للإنسان. بناءً على ذلك، إن كان الروح القدس، قدوساً بحسب المشاركة، عندئذٍ يمكنك أن تقول إن اسمه يعني عمله لا جوهره. وبهذا الاسم لا نعلم ماذا يكون بحسب الطبيعة، لكن نعرف فقط ما العمل المنوط به. وعلى ذلك يكون من جهة جوهره شيئاً آخر، له فعلٌ خاص آخر غير التقديس المعطى له فيما بعد، والذي اكتسبه بالإضافة كما يقول المجدِّفون. بالتالي، يكون الروح القدس ناقصاً يحتاج إلى التكميل بالقداسة. فإن كان الأمر على هذا النحو، فكيف لمن كان في هذا الاحتياج - كما يقول أولئك — أن يمنح الذين يشاركونه القدرة على أن يكونوا كاملين؟ كيف يقدِّس - مَن كان ناقصاً مِن جهة طبيعته - الرئاسات والكراسي والربوبيات والقوات والسلاطين والملائكة والبشر؟ وما هي الكيفية التي بها يقولون إن الروح يمتلئ مثل إناء بالقداسة من الآب، أي كيف تأتي قوة القداسة وفعلها إليه؟ لأنه على أية حال يجدِّفون ويقولون لنا متحدثين عن مفاهيم مشوشةٌ تماماً: لماذا الحاجة إلى فترة طويلة للامتلاء؟ لأننا نحن نقول إن الروح القدس هو بالضبط القوة المقدِّسة التي تأتي بطريقة طبيعية من الآب، وهو الذي يمنح الكمال للمخلوقات الناقصة. ومن غير المتصور، كما يبدو، أن تتقدس الخليقة بواسطة آخر؛ لأن محبة الله للبشر لن تُضار مكانتها حين تصل للمخلوقات ذات الطبيعة الأدنى، وتقدِّسها بواسطة الروح القدس، طالما أن كل المخلوقات هي ملك لله.

٣٨- ردٌ آخر

"النَّامُوسَ بِمُوسَى أُعْطِيَ" يقول الكتاب المقدس، "أَمَّا النِّعْمَةُ وَالْحَقُّ فَبِيَسُوعَ الْمَسِيحِ صَارَا" (يو ١: ١٧).

فإذا كان الاختلاف بين خدمة موسي ووساطة[1] يسوع المسيح بين الله والبشر عظيماً، عندئذ يتحتم علينا أن نوافق على أن ناموس موسي كان ناقصاً؛ لأنه لم يكمِّل شيئاً، كما قال بولس (أنظر عب ٧: ١٩)[2].

على النقيض من ذلك نعمة مخلصنا التي نؤمن أنها حقيقية وكاملة، فماذا تكون إذن هذه النعمة، إن لم تكن هي انسكاب الروح القدس في قلوبنا (أنظر ٢ كو ١: ٢٢)، وفق أقوال بولس؟

وكيف تكون هذه النعمة حقيقية، إذا كانت هذه القداسة قد مُنِحَت لنا بواسطة مخلوق، مثلما أُعطي الناموس بواسطة ملائكة (أنظر عب ٢: ٢)؟

لأنه إن لم يكن الروح القدس بحسب الطبيعة على خلاف ما نسمعه، وإن لم يعمل الروح القدس فينا شخصياً، بل – كما يدَّعي الهراطقة – باعتباره مقدَّسٌ – بسبب مشاركته لجوهر إلهي واتحاده به – أرسل لنا النعمة التي أُعطيت له، يكون من الواضح إذن – كما تزعمون – أن نعمة الروح القدس قد أُعطيت لنا بواسطة مخلوق، لكن هذا ليس حقيقياً. لكن، لأن الناموس أُعطي بواسطة موسي، أي بواسطة الملائكة (أنظر غلا ٣: ١٩)، بينما النعمة والحق بواسطة مخلصنا (أنظر رو ٧: ٢٥)، بالتالي الروح يعمل شخصياً فينا، مقدِّساً إيانا ومتَّحداً بنا بذاته بواسطة الشركة معه، جاعلاً إيانا أيضاً شركاء الطبيعة الإلهية[3].

---

(1) الوساطة الحقيقية بين الله والبشر تمت في المسيح يسوع، وهذا ما يؤكده القديس كيرلس في موضع آخر، قائلاً: " الاقتراب من الآب لا يكون إلاَّ بواسطة الابن، فهو الوسيط الذي يربطنا بالآب بواسطة ذاته، ويُصعِدُنا إلى المرتفعات التي تفوق الطبيعة ". السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء السادس، المقالة العاشرة ص ١١ – ١٢.

(2) "إِذِ النَّامُوسُ لَمْ يُكَمِّلْ شَيْئاً. وَلَكِنْ يَصِيرُ إِدْخَالُ رَجَاءٍ أَفْضَلَ بِهِ نَقْتَرِبُ إِلَى اللهِ".

(3) أثناء شرح القديس كيرلس لنص بركة إسحق ليعقوب "فليعطك الله من ندى السماء. ومن دسم الأرض. وكثرة حنطة وخمر" (تك ٢٧: ٨)، يؤكد أننا صرنا شركاء الطبيعة الإلهية، قائلاً: "لأن الندى من السماء ومن دسم الأرض والخمر يشير إلى أن **كلمة** الله الآب قد أعطانا نعمة اشتراكنا معه بواسطة الروح القدس. وهكذا صرنا شركاء الطبيعة الإلهية" جيلافيرا، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، ومراجعة د. نصحي عبد الشهيد، الكتاب الشهري، عدد ديسمبر ٢٠٠٥.

٣٩- الروح القدس هو بحسب الطبيعة الله، وليس مخلوقاً ولا مجبولاً.

يكتب الرسول بولس في الرسالة إلى أهل رومية عن مخلصنا يسوع المسيح: "وَتَعَيَّنَ ابْنَ اللهِ بِقُوَّةٍ مِنْ جِهَةِ رُوحِ الْقَدَاسَةِ، بِالْقِيَامَةِ مِنَ الأَمْوَاتِ: يَسُوعَ الْمَسِيحِ رَبِّنَا"(رو ١: ٤). إذن، فبما أن المسيحَ قد عُيِّن ابن الله الحقيقي بقيامته من الأموات وبفك قيود الموت، ويُدرَك على أنه هكذا يكون بقوة الروح القدس الحية، إذن فالروح القدس لا يمكن أن يكون مخلوقاً أو مجبولاً، وإلاَّ بدا المسيحُ وكأنه - بطريقةٍ ما - قد قُدِّمت له المساعدة من مخلوق، في حين أنه استخدم قوته، أي تلك التي للروح.

٤٠- شاهدٌ آخر

يقول أيضاً بولس: "لأَنِّي مُشْتَاقٌ أَنْ أَرَاكُمْ، لِكَيْ أَمْنَحَكُمْ هِبَةً رُوحِيَّةً لِثَبَاتِكُمْ" (رو ١: ١١). بما أن الروح يعضد بمواهبه أولئك الذين يأتي إليهم، فمن الواضح لأولئك الذين يريدون أن يفهموا فهماً صحيحاً، أنه لا يُحسب ضمن المخلوقات، ولا من بين العبيد؛ لأنه مكتوب: "وَعَاضِد الصِّدِّيقِينَ هوَ الرَّبّ" (مز ٣٧: ١٧). فبما أنه قد وُضِعَ في موضع الربوبية الطبيعي، ويستطيع أن يعضد، إذن فهو يحمل على أية حال الرتبة التي تتناسب مع الرب، بعكس المخلوق الذي تعكس طريقة خلقته طبيعته كعبد. بناء على ذلك الروح ليس مخلوقاً؛ لأنه أظهر أنه ربٌ وليس عبداً.

٤١- شاهدٌ آخر

بولس وهو يعلم كم هي عظيمة محبة الله للبشر، أظهر لنا رب الكل، حين قال: "وَالرَّجَاءُ لاَ يُخْزِي، لأَنَّ مَحَبَّةَ اللهِ قَدِ انْسَكَبَتْ فِي قُلُوبِنَا بِالرُّوحِ الْقُدُسِ الْمُعْطَى لَنَا" (رو ٥: ٥).

إذن، فبما أن الله محبة، وفق أقوال يوحنا الإنجيلي، وليس آخر، وليس فيه شيءٌ آخر غيره، طالما هو بسيط وغير مركّبٍ، وسُكب في قلوبنا بواسطة الروح القدس الذي يسكن فينا، إذن فالروح هو إله، هذا الذي يسكن فينا بكونه الله، ويُدرَك على أنه الأقنوم الكامل بذاته، آتياً من الجوهر الإلهي ومنبثقاً من الآب، وممنوحاً للخليقة بواسطة الابن.

٤٢- شاهدٌ آخر

أين يظهر أن الناموس أُعطي من الروح بكونه من عند الله؟

"فَإِنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ النَّامُوسَ رُوحِيٌّ" (رو ٧: ١٤)، ثم بعد ذلك يمضي قليلاً في حديثه ثم يقول: "فَإِنِّي أُسَرُّ بِنَامُوسِ اللهِ بِحَسَبِ الإِنْسَانِ الْبَاطِنِ" (رو ٧: ٢٢). وأيضاً: "لأَنَّ نَامُوسَ رُوحِ الْحَيَاةِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ قَدْ أَعْتَقَنِي مِنْ نَامُوسِ الْخَطِيَّةِ وَالْمَوْتِ" (رو ٨:٢). ها هو يسمي الناموسَ روحياً، وهذا الذي أُعطي بواسطة الروح، مباشرةً يسميه أيضاً ناموس الله. وأمَّا كون الروحُ إلهاً، فهذا ما يُظهره بوضوح تام بما صرح به قائلاً: "نَامُوسَ رُوحِ الْحَيَاةِ"، فلا يبدو الروح القدس فقط مشرِّعاً، لكنه أيضاً روح الحياة. وما هي الحياة إلاَّ المسيح الذي يقول: "أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ" (يو ١٤: ٦)، إذن فعندما يشرِّع المسيح، يشرِّع الروح أيضاً؛ لأنه يوجد فيه ويأتي بحسب الطبيعة منه.

٤٣- شاهدٌ آخر

عندما أدان بولس تصرفات الجسد، وأظهر مدى مقاومته لإرادة الروح، كتب: "لأَنَّ الْجَسَدَ يَشْتَهِي ضِدَّ الرُّوحِ وَالرُّوحُ ضِدَّ الْجَسَدِ، وَهذَانِ يُقَاوِمُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ" (غلا ٥: ١٧)، ثم يقول بأكثر وضوحٍ في موضع آخر: "إِذاً أَنَا نَفْسِي بِذِهْنِي أَخْدِمُ نَامُوسَ اللهِ، وَلكِنْ بِالْجَسَدِ نَامُوسَ الْخَطِيَّةِ" (رو ٧: ٢٥)، قاصداً بناموس الخطية، الميول تجاه اللذات الجسدية الغريبة، وبناموس الله، يعلن إرادة الروح. إذن من الواضح أن الروح القدس هو إلهٌ، هذا الذي يضع فينا إرادته كنواميس. ولا يتناسب مع آخر أن يشرِّع، لكن فقط الله.

٤٤- شاهدٌ آخر

"إِذْ أُخْضِعَتِ الْخَلِيقَةُ لِلْبُطْلِ لَيْسَ طَوْعاً، بَلْ مِنْ أَجْلِ الَّذِي أَخْضَعَهَا عَلَى الرَّجَاءِ" (رو ٨: ٢٠).

لو كان الروح مخلوقاً ومجبولاً، كما يقولون، لَتحتم علينا أن نوافق على أنه أُخضِعَ أيضاً للعبث، وأنه يئن ويتمخض كأنه في حالة عبودية، حتى وإن كان سوف يتحرر مباشرةً بفداء مجد أولاد الله. فإن كان الأمر على هذا النحو، فما معنى هذا الذي قاله بولس لنا: "إِذْ

لَمْ تَأْخُذُوا رُوحَ الْعُبُودِيَّةِ أَيْضاً لِلْخَوْفِ، بَلْ أَخَذْتُمْ رُوحَ التَّبَنِّي الَّذِي بِهِ نَصْرُخُ: يَا أَبَا الآبُ" (رو ٨: ١٥). إذن، فهو يحرر من العبودية هؤلاء الذين يسكن فيهم، ويغيِّرهم إلى أبرار وأبناء جاعلاً إياهم شركاء طبيعته[1]. فهو إذن ليس عبداً، وبما أن هذا هو الصحيح، فهو إذن ليس مخلوقاً. وبما أنه ليس مخلوقاً، ولا يحسب ضمن العبيد، فهو عندئذ ينتمي إلى الجوهر الإلهي.

٤٥- شاهدٌ آخر

حين قال بولس إن الخليقة تئن، أضاف: "وَلَيْسَ هكَذَا فَقَطْ، بَلْ نَحْنُ الَّذِينَ لَنَا بَاكُورَةُ الرُّوحِ"، فما هو الهدف من هذه الأقوال؟ الباكورةُ من شيءٍ، لا بُد وأن تكون من نفس نوعية هذا الشيء، فباكورة الخمر، هي خمرٌ، وباكورة القمح هي قمحٌ. إذن، فإذا كان من أجل الحياة الآتية، يأتي لكي تكون لنا شركة كاملة مع الطبيعة الإلهية، ولأجل هذا منح لنا الروح القدس على شكل باكورة، فإنه من الحتمي أن نقول إن هذه الباكورة من نفس الطبيعة الإلهية. وإذا كان الأمر هكذا، عندئذ فهو ليس مخلوقاً، ولا مجبولاً، بل بالحري هو الله، كآتٍ من الله وحقاً في الله بحسب الطبيعة.

---

(١) بحسب القديس كيرلس وكذلك من قبله القديس أثناسيوس، البرهان على أن الروح له طبيعة إلهية وليس طبيعة مخلوقة هو أننا نصير بواسطة الروح القدس شركاء الطبيعة الإلهية: "فلو كان الروح القدس مخلوقاً، لما كان لنا اشتراك في الله بواسطته. فإن كنا قد اتحدنا بمخلوق فإننا نكون غرباء عن الطبيعة الإلهية حيث إننا لم نشترك فيها. أمّا الآن فلكوننا نُدعى شركاء المسيح وشركاء الله، فهذا يوضّح أن المسحة والختم الذي فينا، ليس من طبيعة المخلوقات بل من طبيعة الابن، الذي يوحّدنا بالآب بواسطة الروح الذي فيه. هذا ما علّمنا إياه يوحنا – كما قيل سابقاً – عندما كتب: "بهذا نعرف أننا نثبت في الله وهو فينا أنه قد أعطانا من روحه" (١ يو ٤:١٣). ولكن إن كنا بالاشتراك في الروح نصير "شركاء الطبيعة الإلهية" (٢ بط ١: ٤)، فإنه يكون من الجنون أن نقول إن الروح من طبيعة المخلوقات وليس من طبيعة الله. وعلى هذا الأساس فإن الذين هم فيه، يتألهون. وإن كان هو يؤله البشر، فلا ينبغي أن يُشَك في أن طبيعته هي طبيعة إلهية". الرسائل عن الروح القدس إلى الأسقف سرابيون، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد ود. موريس تاوضروس، نوفمبر ٢٠٠٥، طبعة ثانية، الرسالة الأولى ص ٧٣ – ٧٤.

٤٦- شاهدٌ آخر

يكتب أيضاً بولس إلى أهل رومية: "فَإِنِّي أَقُولُ بِالنِّعْمَةِ الْمُعْطَاةِ لِي، لِكُلِّ مَنْ هُوَ بَيْنَكُمْ: أَنْ لاَ يَرْتَئِيَ فَوْقَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَرْتَئِيَ، بَلْ يَرْتَئِي إِلَى التَّعَقُّلِ، كَمَا قَسَمَ اللهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِقْدَاراً مِنَ الإِيمَانِ" (رو ١٢: ٣). ثم يُرجع إعطاء المواهب إلى سلطة الله، ويقول: "فَإِنَّهُ لِوَاحِدٍ يُعْطَى بِالرُّوحِ كَلاَمُ حِكْمَةٍ" (١ كو ١٢: ٨)، ويضيف لهذا كل أنواع المواهب، قائلاً: "وَلكِنَّ هذِهِ كُلَّهَا يَعْمَلُهَا الرُّوحُ الْوَاحِدُ بِعَيْنِهِ، قَاسِماً لِكُلِّ وَاحِدٍ بِمُفْرَدِهِ، كَمَا يَشَاءُ" (١ كو ١٢: ١١). بالتالي، فبما أن الروح يمنح الإيمان بالإضافة إلى كل ما هو صالح، ويحدد المقدار الذي يكفي لكل واحد، كإله، فكيف لا يكون تجديفاً عظيماً أن تنتهي به بوضعه ضمن المخلوقات، ولا نقول إنه يأتي من الله؟

٤٧- شاهدٌ آخر

بولس وهو يفتخر من أجل المعجزات التي فعلها المخلص بواسطته لفائدة الأمم، يقول: "فَلِي افْتِخَارٌ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ مِنْ جِهَةِ مَا للهِ. لأَنِّي لاَ أَجْسُرُ أَنْ أَتَكَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ مِمَّا لَمْ يَفْعَلْهُ الْمَسِيحُ بِوَاسِطَتِي لأَجْلِ إِطَاعَةِ الأُمَمِ، بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، بِقُوَّةِ آيَاتٍ وَعَجَائِبَ، بِقُوَّةِ رُوحِ اللهِ" (رو ١٥: ١٧). إذن، فبما أن المسيح يفعل المعجزات والآيات بواسطة بولس بقوة الروح القدس، فالروح القدس عندئذٍ هو الفعل الطبيعي والحي، وبقولٍ آخر أقول: إنه ذات نوعية إلوهية الابن. فإذا كان الأمر على هذا النحو، فكيف يكون مخلوقاً هذا الذي يوجد في الله ومن الله بحسب الطبيعة؟ وكيف يمكن أن توجد كل قوة الابن في المخلوق، الأمر الذي بمجرد أن يقوله المرء فقط، يكون مجدِّفاً؟

٤٨- من الرسالة الأولي بولس إلى أهل كورنثوس

بولس وهو يعلم أن كرازة الخلاص ليست في حاجة لأقوال سفسطائية، يكتب إلى أهل كورنثوس. "لأَنِّي لَمْ أَعْزِمْ أَنْ أَعْرِفَ شَيْئاً بَيْنَكُمْ إِلاَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ وَإِيَّاهُ مَصْلُوباً. وَأَنَا كُنْتُ عِنْدَكُمْ فِي ضَعْفٍ، وَخَوْفٍ، وَرِعْدَةٍ كَثِيرَةٍ. وَكَلاَمِي وَكِرَازَتِي لَمْ يَكُونَا بِكَلاَمِ الْحِكْمَةِ الإِنْسَانِيَّةِ الْمُقْنِعِ، بَلْ بِبُرْهَانِ الرُّوحِ وَالْقُوَّةِ، لِكَيْ لاَ يَكُونَ إِيمَانُكُمْ بِحِكْمَةِ النَّاسِ بَلْ بِقُوَّةِ اللهِ" (١ كو ٢: ٣ – ٥). ها هو يدعو برهان الروح، أي أفعال الروح، قوة الله.

لأن روحه هو الذي يفعل كل شيء منه وبه بطريقة طبيعية. إذن، كيف يكون مخلوقاً أو مجبولاً هذا الذي بواسطته نعرف الله، في الوقت الذي لا تزيد معرفتنا عنه – بحسب الطبيعة – كوننا ننظر في مرآةٍ ولغزٍ؟ (راجع ١ كو ١٣: ١٢).

٤٩- شاهدٌ آخر

بما أنه قال إن كل واحد من أولئك الذين ما زالوا في حياة الخطية لن يصير وارثاً لملكوت السموات، ويذكر الزناة والطماعين والسارقين، مباشرةً يضيف: "وَهكَذَا كَانَ أُنَاسٌ مِنْكُمْ. لكِنِ اغْتَسَلْتُمْ، بَلْ تَقَدَّسْتُمْ، بَلْ تَبَرَّرْتُمْ بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ وَبِرُوحِ إِلهِنَا" (١ كو ٦: ١١). إذن، فإذا كنا نؤمن أن الله فقط هو الذي يغفر الخطايا، وكان الروح أيضاً يغفر مبرراً ومقدِّساً أولئك الذين يسكن فيهم، إذن هو الله، هذا الذي له الفعل الإلهي في ذاته بحسب الطبيعة[١].

---

(١) الروح القدس هو الذي يغفر ويطهر ويبرر، فقوة الروح القدس مثل نار تحرق أشواك الخطية التي في داخلنا، ويؤكد على هذه الحقيقة القديس أثناسيوس، إذ يقول: "فإن نور معرفة المسيح بالإيمان يُعتبر نوراً روحيّاً وقد كان مثاله عمود النار الذي كان يرشد إسرائيل ليلاً. وبمعنى آخر فنحن الذين صرنا باردين (بانغماسنا) في كل خطية قد أضرمنا المخلِّص للسعي بغيرة في كل عمل صالح: إذ قد ألقى فينا شركة الروح القدس كمثل نار روحية، ولذلك قال: «جئت لألقي ناراً على الأرض» (لو ١٢: ٤٩). فنحن جميعاً الذين تأهّلنا لمثل هذه النعمة قد صرنا أحياء بالروح. إذاً، فظهور النار يشير إلى نعمة الروح القدس لأننا اعتمدنا في المسيح في الروح القدس والنار بحسب قول يوحنا المعمدان (مت ٣: ١١). وقد قال أحد الأنبياء: «هو يخرج مثل نار الممحص ومثل أشنان القصَّار، فيجلس ممحصاً ومنقيّاً للفضة والذهب» (مل ٣: ٢ و٣)، لأن قوة الروح القدس تحرق كل زغل فينا]. تفسير مزمور ٥٠: ٣.

نفس الأمر، يؤكده القديس يوحنا ذهبي الفم، قائلاً: "[لأن الشيطان قد زرع في قلوب الناس شوك وحسك الخطايا، لذلك جئتُ لأُلقي ناراً على الأرض لأحرق تلك الأشواك. لذلك جئتُ لأُلقي ناراً على الأرض، وأريدها أن تضطرم منذ الآن حتى تطهِّر أرضي، لأنه ينبغي لي أن أُبيد بالنار الأصول المُرَّة والمضرَّة التي زرعها الشيطان، حتى أبذر الزرع السماوي في نفوس نقية. من أجل ذلك جئتُ لأُلقي ناراً على الأرض. لقد جبلتُ الإنسان منذ البدء من تراب الأرض، وأسكنتُ في وسط قلبه شرارة النار الإلهية، حتى أنه بهذه النار يتمسَّك بمحبة الله. ومع أنه من المستحيل أن تُستأصل تماماً هذه الشرارة الإلهية النارية وهذا الدفء الإلهي، إلاّ أن الشيطان قد قتل نفوس الناس بصقيع الفجور. فلكي يحصلوا بثبات على اشتعال الروح القدس فيهم، ينبغي لي أن أُلقي ناراً على الأرض حتى أُبطل وأُلاشي جليد الفجور الذي غطَّى به الشيطان نفوس الناس، فأجعل هذه النفوس تنبت من جديد وتزهر في سكينة ونقاوة.] عظة على لو ١٢:٤٩.

٥٠- شاهدٌ آخر

"أَمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنّ مَنِ الْتَصقَ بزَانِيَةٍ هُوَ جَسَدٌ وَاحِدٌ؟ لأَنَّهُ يَقُولُ: يَكُونُ الاثْنَانِ جَسَداً وَاحِداً. وَأَمّا مَنِ الْتَصَقَ بالرَّبِّ فَهُوَ رُوحٌ وَاحِدٌ" (١ كو ٦: ١٦ - ١٧).

فإذا كان ذاك الذي يلتصق بزانية يصير واحداً معها، هكذا أيضاً ذاك الذي صار شريكاً للروح القدس يصير واحداً مع الرب. بالتالي الروح القدس هو الله، الذي بواسطته نلتصق بالله ونصير واحداً معه، وشركاء الطبيعة الإلهية (أنظر ٢ بط ١: ٤)، بشركتنا ووحدتنا مع الروح. فإذا كان الروح هو الله، فكيف يكون مخلوقاً.

٥١- شاهدٌ آخر

"أَمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنّ جَسَدَكُمْ هُوَ هَيْكَلٌ لِلرُّوحِ الْقُدُسِ الّذِي فِيكُمْ، الّذِي لَكُمْ مِنَ اللهِ، وَأَنّكُمْ لَسْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ؟" (١ كو ٦: ١٩).

فإذا كان الروح القدس يسكن فينا، فنصير بيتاً وهيكلاً لله[1]، كيف لا يكون ذا طبيعة إلهية، بل يُحسَب من بين المخلوقات، إذا كان من الواضح أن أياً من المخلوقات أو المصنوعات لا يقال عنه أنه يسكن في هيكل كإله؟ لأن هذا أيضاً بمثابة امتياز مع الامتيازات الأخرى التي للطبيعة الإلهية.

---

(١) يؤكد القديس يوحنا ذهبي الفم على أن الروح القدس هو الذي جعلنا جسداً واحداً وهو الذي ولدنا من جديد، وذلك أثناء شرحه لـ (١ كو ١٢:١٣)، إذ يقول: " [«لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسدٍ واحدٍ، ... وجميعنا سُقينا روحاً واحداً» (١ كو ١٢: ١٣). إن المعنى الذي يقصده هو هذا: إن الذي جعلنا جسداً واحداً وولدنا من جديد هو روحٌ واحدٌ. لأنه لم يعتمد الواحد بهذا الروح، والآخر بروحٍ آخر. وليس فقط (الروح) الذي عمَّدنا هو واحد، بل وأيضاً ما عمَّدَنا إليه (أي الجسد) هو واحد، لأننا لم نعتمد لنكوِّن أجساداً مختلفة، بل لنحفظ بحرص بعضنا مع بعض سلامة الجسد الواحد، أي أننا اعتمدنا بهذا الروح الواحد لنصير جميعاً جسداً واحداً، فالذي كوَّننا هو واحد، وما كوَّننا إليه هو أيضاً واحد... فإن كان الروح الذي كوَّننا واحداً، وقد جمعنا كلنا إلى جسد واحد، (لأن هذا هو معنى قوله «اعتمدنا إلى جسد واحد»)، وقد أنعم علينا بمائدة واحدة وأعطانا جميعاً شراباً واحداً، (لأن هذا هو معنى قوله «وسُقينا روحاً واحداً»)، وقد وحّد أفراداً مختلفين بمثل هذا المقدار، وصيَّر الكثيرين جسداً واحداً، فما بالك تبحث في كل صغيرة وكبيرة عن الفرق بينهم؟!] العظة ٣٠ في تفسير ١ كو ١٢: ١٣.

٥٢- شاهدٌ آخر

بولس عندما يتحدث عن قيامة الأموات، يقول: "فَإِنَّنَا نَحْنُ الَّذِينَ فِي الْخَيْمَةِ نَئِنُّ مُثْقَلِينَ، إِذْ لَسْنَا نُرِيدُ أَنْ نَخْلَعَهَا بَلْ أَنْ نَلْبَسَ فَوْقَهَا، لِكَيْ يُبْتَلَعَ الْمَائِتُ مِنَ الْحَيَاةِ. وَلكِنَّ الَّذِي صَنَعَنَا لِهذَا عَيْنِهِ هُوَ اللهُ، الَّذِي أَعْطَانَا أَيْضاً عَرْبُونَ الرُّوحِ" (٢ كو ٥: ٤ - ٥). كعربون الحياة، يقول، يعطي الروح، الذي من طبيعته أن يحيي (أنظر ٢ كو ٣: ٦). لكننا نرى أنه يوجد بحسب الطبيعة فقط في الله الآب وفي الابن الذي يأتي منه، وهو الحياة. ولأنه يقول: "لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويحيي كذلك الابن أيضاً يحيي من يشاء" (يو ٥: ٢١). بالتالي، فبما أن الآب يحيي، والابن أيضاً يحيي، وكذلك أيضاً الروح يحيي، فكيف يمكن أن يكون مخلوقاً أو مصنوعاً، هذا الذي يماثل الآب والابن، وله نفس الجوهر؟

٥٣- شاهدٌ آخر، في نفس الموضوع بطريقة تأملية

إن كان الروح، وهو مخلوق - بحسب الهراطقة الأغبياء - ومجبول، يستطيع أن يحيي أولئك الساكن فيهم، عندئذ لا يوجد شيءٌ خاصٌ ومُميَّزٌ في الله، طالما أن هذا يمكنه أن يحيي، وليس ذلك فقط، بل يجب أن نقبل أيضاً أن يكون للخالق والمخلوق نفس الفعل، عندئذ كيف يمكن أن توجد قوة متعادلة ومتماثلة في أثنين من جوهر مختلف؟ لأن الذين لهم نفس الفعل لهم نفس الجوهر. إذن فقد جاء الوقت الذي فيه إمَّا أن نُنزل الله إلى رتبة المخلوقات، أو أن نعطي للمخلوقات الخاصية التي تتناسب مع الإلوهية، طالما أن الروح وفق أولئك، مخلوقٌ ومجبول، له فعل معادل ومساو لله. لكننا بذلك نخلط هذه التي - بحسب الطبيعة - لا تختلط. هذا محضُ عبث؛ لأن أيّاً من خواص جوهر الله لا توجد في المخلوق، كما توجد فيه. لكن إذا كان الروح يحيي مثلما يحيي الله الآب، فكيف إذن يكون مخلوقاً هذا الذي لديه بحسب الطبيعة الامتياز الخاص بالجوهر الإلهي؟ إذن الروح هو الله آتياً من الله، وليس مخلوقاً وفق آراء الأغبياء الذين دائماً يفرحون بمحاربة الحق.

٥٤- شاهدٌ آخر

"إِذاً إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ: الأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ، هُوَذَا الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيداً" (٢ كو ٥: ١٧). إذن لأنه، بينما المسيح يجدِّدنا وينقلنا إلى حياة

جديدة[1]، يقال هكذا إن الروح هو هذا الذي يجدِّدنا، وفق ما يُرنَّم في المزامير: "ترْسل روحَكَ فَتخْلَق، وَتجَدّد وَجْهَ الأَرْض" (مز ١٠٤: ٣٠)، فمن الضروري أن نعترف أن الروح له نفس الجوهر الذي للابن. لأنه، بسبب أنه يوجد بحسب الطبيعة فيه ويرسل إلى الخليقة منه، يجعل تجديدها حقاً ملء الثالوث القدوس. فإذا كان الأمر هكذا، فالروح عندئذ هو الله، ويأتي من الله، ولا يكون مخلوقاً.

٥٥- شاهدٌ آخر

"فَقَالَ لِي: تَكْفِيكَ نِعْمَتِي، لأَنَّ قُوَّتِي فِي الضَّعْفِ تُكْمَلُ. فَبِكُلِّ سُرُورٍ أَفْتَخِرُ بِالْحَرِيِّ فِي ضَعَفَاتِي، لِكَيْ تَحِلَّ عَلَيَّ قُوَّةُ الْمَسِيحِ" (٢ كو ١٢: ٩). فإذا كان الروح يحل ويسكن فينا، وبواسطته يسكن المسيح أيضاً فينا، إذن الروح القدس هو قوة المسيح. فإذا كان الأمر هكذا، فكيف يكون مخلوقاً هذا الذي من طبيعته أن يوجد في الابن؟ إنها ساعةٌ إذن ليقولوا: إن **كلمة** الله - الذي لا تركيب فيه ولا ازدواج - مركبٌ، وذلك بسبب هذا الشيء الذي يأتي من الخليقة مضافاً إلى طبيعته. لكن هذا محضُ عبثٍ، فالروح ليس مخلوقاً ولا مجبولاً، إنما هو يأتي من أعلى، من الجوهر الإلهي، كقوةٍ وفعلٍ طبيعيٍ له[2].

---

(١) عن الخليقة الجديدة في المسيح، أثناء حديثة عن مذبح البخور يقول القديس كيرلس: [لأنه بالمسيح أُبطلت فرائض الناموس، والظلال وصلت إلى نهايتها. هذا ما يشير إليه عدم إصعاد محرقة أو تقدمةً أو سكيباً فوق مذبح البخور. وهو ما يؤكده النبي قائلاً: " انقطعت التقدمة والسكيب عن بيت الرب. ناحت الكهنة خدام الرب" (يؤ ١: ٩). أي أنه طالما ظهر السجود والعبادة بالروح والحق، صارت الظلال نافلة، وعبادة النماذج صارت بلا فائدة تماماً. لأنه بالمسيح صارت هناك خليقة جديدة.بعد مجيء الحق، كل الذين يطلبون برّهم في الناموس يفقدون النعمة. لأنه يقول: " لا تصعدوا عليه بخوراً غريباً" (خر ٣٠: ٩)]. السجود والعبادة بالروح والحق، المرجع السابق، الجزء الخامس، المقالة التاسعة ص ٨٨.

(٢) يشرح القديس كيرلس علاقة الروح القدس بالابن أثناء حديثة عن منارة الخيمة، قائلاً: "الفن المرسوم على المنارة والذي به فرعا الزيتون يميناً ويساراً، هو مثالٌ للمسيح. وإنه بوضعهما الدائري هذا ينسكب الزيت فيهما، وهذا الزيت يشير إلى الروح القدس، وهو الذي يروي عقول المؤمنين وفق المكتوب " مسحت بالدهن رأسي" (مز ٢٣: ٥). لقد تذكَّر هذه الفروع - مرةً - المُرنم الطوباوي تجاه مخلص الجميع المسيح، قائلاً عن العروس التي أتحد بها، أي الكنيسة وأبنائها اللذين هم ثمار الإيمان " امرأتك مثل كرمة مثمرة في جوانب بيتك. بنوك مثل غروس الزيتون حول مائدتك" (مز١٢٨: ٣). ونحن نحيا مشتركين في الروح، آخذين الحياة من مائدة المسيح المقدسة، معلنين إيماننا بالمسيح". القديس كيرلس الكبير، السجود والعبادة بالروح والحق، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم،

٥٦- شاهدٌ آخر

"جَرِّبُوا أَنْفُسَكُمْ، هَلْ أَنْتُمْ فِي الإِيمَانِ؟ امْتَحِنُوا أَنْفُسَكُمْ. أَمْ لَسْتُمْ تَعْرِفُونَ أَنْفُسَكُمْ، أَنَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ هُوَ فِيكُمْ، إِنْ لَمْ تَكُونُوا مَرْفُوضِينَ؟ لكِنَّنِي أَرْجُو أَنَّكُمْ سَتَعْرِفُونَ أَنَّنَا نَحْنُ لَسْنَا مَرْفُوضِينَ" (٢ كو ١٣: ٥ - ٦).

إذن، عندما يسكن الروح في غير المرفوضين، يكون المسيح هو ذاك الذي يسكن فيهم، وبالتالي يكون من الضروري أن نقول إن هذا هو الجوهر الإلهي الذي يجعل كل الذين يشاركونه شركاء. لأنه ما من أحدٍ يملك عقلاً يمكنه أن يقول إن شركتنا مع الله يمكن أن تصير بواسطة مخلوق، طالما كان هذا المخلوق - بحسب رأي الهراطقة - لديه طبيعةٌ مختلفةٌ، وهو مختلف تماماً عن الآب والابن، وأن هناك فرقاً شاسعاً بين الجوهر المخلوق والجوهر غير المخلوق.

٥٧- شاهدٌ آخر

"نِعْمَةُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، وَمَحَبَّةُ اللهِ، وَشَرِكَةُ الرُّوحِ الْقُدُسِ مَعَ جَمِيعِكُمْ. آمِينَ" (٢ كو ١٣: ١٤).

ها هو الروح هنا أيضاً يُقدَّم على أنه أحد أقانيم الثالوث، أي مكمِّلاً للثالوث. إذن كيف يكون الله واحداً، كيف يكون بسيطاً إن كان الروح الذي يوجد فيه مخلوقاً أو مجبولاً، أو كان مختلفاً عنه؟ لكن الله واحدٌ حقاً، بسيطٌ وغير مركّب، ونقيٌ من أي طبيعة مختلفة والروح يأتي منه ويوجد فيه كثمرته الطبيعية، ولم يأتِ من الخارج، وما هو عليه ليس مُكتَسَباً، وفق طياشة الهراطقة.

٥٨- من الرسالة إلى غلاطية

"يَا أَوْلاَدِي الَّذِينَ أَتَمَخَّضُ بِكُمْ أَيْضاً إِلَى أَنْ يَتَصَوَّرَ الْمَسِيحُ فِيكُمْ" (غلا ٤: ١٩). فإذا كان بواسطة الروح القدس فقط، يتصوَّر المسيحُ فينا ويترك ختمه مجدِّداً طبيعة الإنسان

مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، يناير ٢٠٠٦، الجزء الخامس، المقالة التاسعة ص ٧٧ - ٧٨.

آتياً بها إلى جمال الإلوهة، إذن، فروح المسيح هو الله الذي يصوِّر فينا صورة ذاك؛ لأن له ذات الجوهر الإلهي، ولم يأتِ إلى الوجود من الخارج.

٥٩- شاهدٌ آخر

"وَإِنَّمَا أَقُولُ: اسْلُكُوا بِالرُّوحِ فَلاَ تُكَمِّلُوا شَهْوَةَ الْجَسَدِ. لأَنَّ الْجَسَدَ يَشْتَهِي ضِدَّ الرُّوحِ وَالرُّوحُ ضِدَّ الْجَسَدِ، وَهذَانِ يُقَاوِمُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ، حَتَّى تَفْعَلُونَ مَا لاَ تُرِيدُونَ. وَلكِنْ إِذَا انْقَدْتُمْ بِالرُّوحِ فَلَسْتُمْ تَحْتَ النَّامُوسِ" (غلا ٥: ١٦ - ١٨).

فإذا كنَّا بمشيئات الروح ننقاد إلى التقوى والحياة بطريقة صحيحة، فقد دُعينا إلى الحرية متخلصين من عبودية الناموس. إذن، الروح هو ذاك الذي يمكنه أن يحررنا بما له من رتبة سيادية. لأننا في الله فقط، يمكننا أن نتحرر. وهذا واضحٌ من حقيقة أن ما مِن أحدٍ غيره يمكنه أن يغفر الخطايا. وهو ما يؤكده لنا المخلص نفسه، قائلاً: "فَإِنْ حَرَّرَكُمْ الابْنُ فَبِالْحَقِيقَةِ تَكُونُونَ أَحْرَاراً" (يو ٨: ٣٦)؛ ذلك لأن المخلوق لا قدرة له على أن يفعل هذا، لكن فقط **الكلمة** الذي يأتي من الله الآب، كابنٍ ووارثٍ له.

إذن، فإذا كان الابن وحده هو مَن يدعونا إلى الحرية، وفي ذات الوقت يبدو الروح أيضاً أنه يفعل هذا الأمر، فكيف لا يكون هو من جوهر ذاك، وهو الذي يفعل كل شيء مثل ذاك أيضاً بسيادةٍ وقوةٍ تليق بالله؟ فإذا كان الأمر على هذا النحو، فروح المسيح إذن ليس مخلوقاً، ولا مجبولاً؛ لأن مثل هذه الأفكار تنطوي على تجديف وكفر.

٦٠- من الرسالة إلى أهل أفسس

عندما يتحدث الرسول بولس عن مخلصنا يسوع المسيح، يقول: "الَّذِي فِيهِ أَيْضاً أَنْتُمْ، إِذْ سَمِعْتُمْ كَلِمَةَ الْحَقِّ، إِنْجِيلَ خَلاَصِكُمُ، الَّذِي فِيهِ أَيْضاً إِذْ آمَنْتُمْ خُتِمْتُمْ بِرُوحِ الْمَوْعِدِ الْقُدُّوسِ، الَّذِي هُوَ عُرْبُونُ مِيرَاثِنَا" (أف ١: ١٣ - ١٤).

فإذا كنَّا قد أخذنا شكل الله عندما خُتمنا بالروح القدس، فكيف يمكن أن يكون مخلوقاً هذا الذي بواسطته تتشكل فينا صورة الله، وبواسطته أيضاً طُبعَت فينا علامات الطبيعة غير المخلوقة؟ لأن الروح بالتأكيد لا يرسم فينا الصورة الإلهية كأنه رسَّام، بل حقاً

بطريقةٍ مختلفةٍ عن ذلك، ولا هو يقودنا إلى التشبُّه بالله بهذه الطريقة أيضاً، لكن، بما أنه حقاً إلهٌ من إلهٍ، فهو ينطبع مثل الشمع - بطريقة غير منظورة - كأنه ختم على قلوب أولئك الذين يقبلونه، من خلال الشركة والتشبُّه به، معطياً لطبيعتنا الجمال الأول الأصلي، ومجدِّداً الإنسان أيضاً وفق صورة الله. كيف إذن يكون مخلوقاً، ذاك الذي بواسطته تأخذ طبيعتنا شكل صورة الله، لأنها تصير مشاركة لطبيعة الله؟

٦١- شاهدٌ آخر

وعندما يتحدث أيضاً عن مجيء مخلصنا، يقول: "فَجَاءَ وَبَشَّرَكُمْ بِسَلاَمٍ، أَنْتُمُ الْبَعِيدِينَ وَالْقَرِيبِينَ. لأَنَّ بِهِ لَنَا كِلَيْنَا قُدُوماً فِي رُوحٍ وَاحِدٍ إِلَى الآبِ" (أف ٢: ١٧ - ١٨).

فبما أننا أخذنا الروح وانقدنا بواسطته إلى الله الآب، وأظهرنا مشاركين لطبيعته الإلهية، كيف يمكن أن يكون مخلوقاً، هذا الذي بواسطته نتحد بالله كأننا من جنسه[1]؟

٦٢- شاهدٌ آخر

"فَلَسْتُمْ إِذاً بَعْدُ غُرَبَاءَ وَنُزُلاً، بَلْ رَعِيَّةٌ مَعَ الْقِدِّيسِينَ وَأَهْلِ بَيْتِ اللهِ، مَبْنِيِّينَ عَلَى أَسَاسِ الرُّسُلِ وَالأَنْبِيَاءِ، وَيَسُوعُ الْمَسِيحُ نَفْسُهُ حَجَرُ الزَّاوِيَةِ، الَّذِي فِيهِ كُلُّ الْبِنَاءِ مُرَكَّباً مَعاً، يَنْمُو هَيْكَلاً مُقَدَّساً فِي الرَّبِّ. الَّذِي فِيهِ أَنْتُمْ أَيْضاً مَبْنِيُّونَ مَعاً، مَسْكَناً للهِ فِي الرُّوحِ" (أف ٢: ١٩ - ٢٢).

---

(١) بواسطة المسيح صرنا جنساً مقدَّساً، وهذا ما شرحه بوضوح القديس كيرلس، في سياق الحديث عن بركة يعقوب لابني يوسف، قائلاً: [بإيماننا صرنا نحن الأخيرين أولون، ومجد البكر كان من نصيب الشعب الآتي من الأمم، وقد كُرِّم هذا الشعب بسبب طاعته وخضوعه. لأن الرب ذاته أكد قائلاً: "شَعْبٌ لَمْ أَعْرِفْهُ يَتَعَبَّدُ لِي. مِنْ سَمَاعِ الأُذُنِ يَسْمَعُونَ لِي. بَنُو الْغُرَبَاءِ يَتَذَلَّلُونَ لِي" (مز ١٨: ٤٣ - ٤٤). لأنه بالرغم من أننا وُلدنا من أم من جنس آخر، فالكنيسة دُعيت من الأمم، لكن سرّ عمانوئيل أن يربطنا من خلال ذاته بالله الآب ويسجلنا في مصاف القديسين، ويرفعنا إلى المجد اللائق بأولئك ويجعلنا جنساً مقدساً (انظر ١ بط ٢:٩)]. جيلافيرا، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، ومراجعة د. نصحي عبد الشهيد، الكتاب الشهري عدد مايو ٢٠٠٨.

إذن، فبما أننا صِرنا هيكلاً مقدَّساً بواسطة الروح القدس، عندما سكن الله فينا[1]، فكيف لا يُعَدُّون مجدِّفين بغير قياسٍ، أولئك الذين يحسبون الروح ضمن المخلوقات، ولا يعترفون بأن له الطبيعة الإلهية ذاتها، والجوهر الإلهي ذاته، ويسكن فينا بكونه الله؟

٦٣- شاهدٌ آخر

"لِي أَنَا أَصْغَرَ جَمِيعِ الْقِدِّيسِينَ، أُعْطِيَتْ هذِهِ النِّعْمَةُ، أَنْ أُبَشِّرَ بَيْنَ الأُمَمِ بِغِنَى الْمَسِيحِ الَّذِي لاَ يُسْتَقْصَى، وَأُنِيرَ الْجَمِيعَ فِي مَا هُوَ شَرِكَةُ السِّرِّ الْمَكْتُومِ مُنْذُ الدُّهُورِ فِي اللهِ خَالِقِ الْجَمِيعِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ" (أف ٣: ٨ - ٩). ثم بعد ذلك بقليل يقول: "أَنَّهُ بِإِعْلاَنٍ عَرَّفَنِي بِالسِّرِّ. كَمَا سَبَقْتُ فَكَتَبْتُ بِالإِيجَازِ. الَّذِي بِحَسَبِهِ حِينَمَا تَقْرَأُونَهُ، تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْهَمُوا دِرَايَتِي بِسِرِّ الْمَسِيحِ. الَّذِي فِي أَجْيَالٍ أُخَرَ لَمْ يُعَرَّفْ بِهِ بَنُو الْبَشَرِ، كَمَا قَدْ أُعْلِنَ الآنَ لِرُسُلِهِ الْقِدِّيسِينَ وَأَنْبِيَائِهِ بِالرُّوحِ" (أف ٣: ٣ - ٥).

فإذا كان هذا الذي قاله النبي حق، حين صرخ: "مَنْ قَاسَ رُوحَ الرَّبِّ، وَمَنْ مُشِيرُهُ يُعَلِّمُهُ؟" (أش ٤٠: ١٣)، فإنه مِن الواضح أن أيّاً من المخلوقات لا يعرف فكر الله. وعندما يقال هذا الأمر على البشر، فالكل يوافق على هذا.

لكن دعنا نرى ما إذا كان هناك شخصٌ ما يعتقد أن قوات السموات المقدسة أيضاً غير محرومين من هذه الكرامة. خذ على سبيل المثال الملاك الذي صلَّى وفق سفر زكريا حين قال: "يَا رَبَّ الْجُنُودِ، إِلَى مَتَى أَنْتَ لاَ تَرْحَمُ أُورُشَلِيمَ وَمُدُنَ يَهُوذَا الَّتِي غَضِبْتَ عَلَيْهَا هذِهِ السَّبْعِينَ سَنَةً؟" (زكريا ١: ١٢). فلو كان هذا الملاك يعرف، فلماذا

([1]) سُكنى الله في داخلنا في الروح له بُعد خريستولوجي يشرحه القديس كيرلس بكل وضوح أثناء حديثة عن خيمة الاجتماع وما بها من تابوت العهد ومذبح البخور وأشياء أخرى مقدسة، إذ يقول: "إنَّ كل واحدٍ من الذين آمنوا في الوقت الحاضر يعتبر مسكناً وهيكلاً لله، وهؤلاء يُقيم فيهم المسيح؛ لأنه يسكن داخل قلوبنا بالإيمان كما هو مكتوب (انظر أف ٣: ١٧). وبالرغم من أنه واحدٌ بطبيعته، لأنه يقول "لكِنْ لَنَا إِلهٌ وَاحِدٌ: الآبُ الَّذِي مِنْهُ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ، وَنَحْنُ لَهُ. وَرَبٌّ وَاحِدٌ: يَسُوعُ الْمَسِيحُ، الَّذِي بِهِ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ، وَنَحْنُ بِهِ " (١ كو ٨: ٦) إلاَّ أننا نحن الذين في الجسد نُدركُ وجوده؛ فنحن نُدرك - بطرق مختلفة - جمال إلوهيته ذات الخصائص المتنوعة، حيث ندرك داخلياً أنه **كلمة** الله، وكذلك هو الحكمة والنور والحياة، والخبز الحيّ الذي نزل من السماء". القديس كيرلس الكبير، السجود والعبادة بالروح والحق، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، يوليو٢٠٠٧، الجزء السادس، المقالة العاشرة ص ١٤ - ١٥.

طلب أن يعلم؟ من الواضح إذن أنه لا يعرف. بالتالي، وبما أن أحداً آخراً لا يعرف فكر الله، في حين أن الروح يفحصها ويعرف أعماق الله، ويعلن كل ما هو مخفي فيه ويظهره للقديسين، كيف يمكن - منطقياً – ألاَّ يكون الروح مساوياً للآب؟ وكيف يمكن ألاَّ يأتي منه، وهو الذي يوجد فيه كروحٍ خاصٍ به، ويعرف كل ما يوجد فيه؟ وبما أن الأمر هكذا، عندئذ فهو ليس مخلوقاً ولا مجبولاً.

٦٤- من رسالة يعقوب

"لاَ تَضِلُّوا يَا إِخْوَتِي الأَحِبَّاءَ. كُلُّ عَطِيَّةٍ صَالِحَةٍ وَكُلُّ مَوْهِبَةٍ تَامَّةٍ هِيَ مِنْ فَوْقُ، نَازِلَةٌ مِنْ عِنْدِ أَبِي الأَنْوَارِ، الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ تَغْيِيرٌ وَلاَ ظِلُّ دَوَرَانٍ" (يع ١: ١٦ – ١٧). بما أن المواهب الإلهية المتنوعة تُرسّل من أبي الأنوار، وبولس يقول إن الروح يفعل كل شيء، فهو يوزِّعها لكل واحد على حدة كما يشاء هو، فكيف لا يكون الروح إلهاً من إله ويوجد في الله، ويفعل كل ما يتناسب مع الله، كمن له سلطان؟ بالتالي فهو ليس مخلوقاً، مثلما يقول أولئك مثرثرين.

٦٥- من رسالة بطرس

"وَإِنَّمَا نِهَايَةُ كُلِّ شَيْءٍ قَدِ اقْتَرَبَتْ، فَتَعَقَّلُوا وَاصْحُوا لِلصَّلَوَاتِ. وَلكِنْ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، لِتَكُنْ مَحَبَّتُكُمْ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ شَدِيدَةً، لأَنَّ الْمَحَبَّةَ تَسْتُرُ كَثْرَةً مِنَ الْخَطَايَا. كُونُوا مُضِيفِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً بِلاَ دَمْدَمَةٍ. لِيَكُنْ كُلُّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ مَا أَخَذَ مَوْهِبَةً، يَخْدِمُ بِهَا بَعْضُكُمْ بَعْضاً، كَوُكَلاَءَ صَالِحِينَ عَلَى نِعْمَةِ اللهِ الْمُتَنَوِّعَةِ" (١ بط ٤: ٧ – ١٠).

لاحظ أيضاً من فضلك، أنه بينما الروح القدس - بسلطان وكيفما يشاء - يوزِّع المواهب الإلهية ويعطي كلَ واحدٍ من القديسين، ينادي بطرس العجيب بأن هذا التنوع ومنح هذه النعمة، إنما يأتي من الله عارفاً أن الروح ليس غريباً عن طبيعة الله. إذن، فبما أن بطرس يسمي الروح، الله، كيف لا يكون تجديفاً، وفي نفس الوقت بلا عقل هذا الذي يحسب الروح ضمن المخلوقات، ويتطاول معارضاً كرازة الرسل القديسين؟

٦٦- من رسالة يوحنا

"كَتَبْتُ إِلَيْكُمْ هذَا عَنِ الَّذِينَ يُضِلُّونَكُمْ. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَالْمَسْحَةُ الَّتِي أَخَذْتُمُوهَا مِنْهُ ثَابِتَةٌ فِيكُمْ، وَلاَ حَاجَةَ بِكُمْ إِلَى أَنْ يُعَلِّمَكُمْ أَحَدٌ، بَلْ كَمَا تُعَلِّمُكُمْ هذِهِ الْمَسْحَةُ عَيْنُهَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَهِيَ حَق وَلَيْسَتْ كَذِباً. كَمَا عَلَّمَتْكُمْ تَثْبُتُونَ فِيهِ" (١ يو ٢: ٢٦ - ٢٧).

يوجد في كتب الأنبياء (على سبيل المثال سفر يوئيل الإصحاح الثاني) مثل هذا القول: "وَيَكُونُ الْجَمِيعُ مُتَعَلِّمِينَ مِنَ اللهِ" (يو ٦: ٤٥). إذن، فعندما يؤمن هؤلاء بالمسيح، ممسوحين من الروح القدس، فإنهم يتعلمون كل شيءٍ منه، ولن يكونوا في احتياج لتعليم البشر، لكنهم سوف يتعلمون مباشرة من الله[1]، وفق أقوال النبي، إذن الروح - بوضوح - هو الله. وهذا هو الله بحسب الطبيعة، فكيف إذن يمكن أن يكون مخلوقاً؟

٦٧- شاهدٌ آخر

"وَمَنْ يَحْفَظْ وَصَايَاهُ يَثْبُتْ فِيهِ وَهُوَ فِيهِ. وَبِهذَا نَعْرِفُ أَنَّهُ يَثْبُتُ فِينَا: مِنَ الرُّوحِ الَّذِي أَعْطَانَا" (١ يو ٣: ٢٤). فبما أنه عندما يكون الروح القدس فينا، يكون الله هو ذاك الذي يسكن، فكيف لا يكون الروح الآتي من الله إلهاً، الذي عندما يناله أحد يحمل الله في داخله، والذي بواسطته يقول النبي: "وَأَسِيرُ بَيْنَكُمْ وَأَكُونُ لَكُمْ إِلهاً وَأَنْتُمْ تَكُونُونَ لِي شَعْباً" (لاو ٢٦: ١٢). وإذا كان الروح هو الله ويأتي من الله، فَمَنْ ذا الذي يخاطر ويقول إنه مخلوقٌ، ويخلص من الجحيم الأبدي؟

---

(١) الله يسدد كل احتياج البشر؛ لأن محبة الله تنسكب في قلوبنا بواسطة الروح القدس وقد نلنا عطية أن نكون أبناء لله، كما يؤكد على هذه الحقيقة، القديس يوحنا ذهبي الفم، إذ يقول: " لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعطي لنا". ولم يقل أُعطيت، لكن "انسكبت في قلوبنا"، لكي يظهر فيض هذه المحبة. لأن تلك العطية العظمي التي وهبها ليست هي السماء والأرض والبحر، بل هي أكثر غني من كل هذه الأمور، إذ جعل من البشر ملائكة وأولاداً لله وإخوة للمسيح. وما هي هذه العطية؟ هي عطية الروح القدس. لأنه إن كان لا يشاء أن يهبنا تيجاناً مُنيرة بعد كل الأتعاب، لما كان قد أعطانا خيرات وفيرة قبل هذه الأتعاب. والآن هو يظهر دفء محبته في الحياة الحاضرة لأنه لم يكرمنا رويداً رويداً وقليلاً قليلاً، لكنه سكب كل مصدر الخيرات التي صارت لنا قبل أن نجتاز في الجهادات". تفسير رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ج ٢، ترجمة د. سعيد حكيم يعقوب، مراجعة د. جوزيف موريس فلتس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية يوليو٢٠٠٥، ص٩٠.

٦٨- شاهدٌ آخر

"مَنْ هُوَ الّذِي يَغْلِبُ الْعَالَمَ، إلاّ الّذِي يُؤْمِنُ أَنّ يَسُوعَ هُوَ ابْنُ اللهِ؟ هذَا هُوَ الّذِي أَتَى بِمَاءٍ وَدَمٍ، يَسُوعُ الْمَسِيحُ. لاَ بِالْمَاءِ فَقَطْ، بَلْ بِالْمَاءِ وَالدّمِ. وَالرّوحُ هُوَ الّذِي يَشْهَدُ، لأَنّ الرّوحَ هُوَ الْحَقّ. فَإِنّ الّذِينَ يَشْهَدُونَ فِي السّمَاءِ هُمْ ثَلاَثَةٌ: الآبُ، وَالْكَلِمَةُ، وَالرّوحُ الْقُدُسُ. وَهؤُلاَءِ الثّلاَثَةُ هُمْ وَاحِدٌ. وَالّذِينَ يَشْهَدُونَ فِي الأَرْضِ هُمْ ثَلاَثَةٌ: الرّوحُ، وَالْمَاءُ، وَالدّمُ. وَالثّلاَثَةُ هُمْ فِي الْوَاحِدِ. إِنْ كُنّا نَقْبَلُ شَهَادَةَ النّاسِ، فَشَهَادَةُ اللهِ أَعْظَمُ" (١ يو ٥: ٥ - ٩). إذن لاحظ أيضاً، أن كارز الحق يسمي الروح إلهاً وآتٍ من الله بحسب الطبيعة. لأنه قال إن الروح هو ذاك الذي يشهد، ثم يقول: "فَشَهَادَةُ اللهِ أَعْظَمُ" فكيف إذن يكون مخلوقاً هذا الذي يدعى الله مع آب الكل، ويكمِّل الثالوث القدوس؟

٦٩- من الإنجيل بحسب متى

"أَمّا وِلاَدَةُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ فَكَانَتْ هكَذَا: لَمّا كَانَتْ مَرْيَمُ أُمّهُ مَخْطُوبَةً لِيُوسُفَ، قَبْلَ أَنْ يَجْتَمِعَا، وُجِدَتْ حُبْلَى مِنَ الرّوحِ الْقُدُسِ" (مت ١: ١٨).

بما أن الطبيعة الإلهية تمتاز بأن لها القدرة على الخلق، وهذه الميزة، بالإضافة إلى الخواص الإلهية الأخرى، تعد خاصيةً مميِّزةً لها، وكان الروح القدس هو الذي خلق الهيكل في العذراء، فمَنْ هو هذا الذي يقول إن الروح قد خُلِقَ؟ ألا يكون مجدِّفاً وغير عاقل؟ لأنه يدين الجوهر الفائق على الكل مُنزلاً إياه عنوةً إلى مستوى المخلوقات، ليكون حديثاً في الزمن وليس إلهاً أبدياً. لكن بالنسبة لنا لا يوجد إلهٌ مخلوقٌ وفق المكتوب في المزامير. إذن الطبيعة الإلهية غير المتغيِّرة لم تَصِر ولا خُلِقَت، لكنها كانت كائنة منذ البدء. وطالما أن الأمر على هذا النحو، فكيف يمكن أن يقال عن الروح القدس الذي هو أزليٌ مع الله إنه قد خُلِق؟

٧٠- شاهدٌ آخر

"وَإِنْ كُنْتُ أَنَا بِبَعْلَزَبُولَ أُخرِجُ الشّيَاطِينَ، فَأَبْنَاؤُكُمْ بِمَنْ يُخرِجُونَ؟ لِذلِكَ هُمْ يَكُونُونَ قُضَاتَكُمْ! وَلكِنْ إِنْ كُنْتُ أَنَا بِرُوحِ اللهِ أُخْرِجُ الشّيَاطِينَ، فَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيْكُمْ مَلَكُوتُ اللهِ" (مت ١٢: ٢٧ - ٢٨).

إذا كانت الشياطين تخرج بفعل الروح بواسطة الله ويتمجَّد الله، فإن كان الروح القدس، وفق بعض الأميين، مخلوقاً ومصنوعاً، إذن هل يمكن أن تكون قوة الله مخلوقة أو مجبولة؟ وكيف يعقل - عندئذٍ - أن يكون أعظم من هذا الذي بواسطته يُمجَّد؟ لكن أن يفكر أحدٌ ويقول مثل هذا الأمر، لهو تجديفٌ صريح. وبناءً على ذلك ليس الروح مخلوقاً، هذا الذي به وبالابن يصنع الله كل شيء، وبسبب هذا يُمجَّد.

٧١- من الإنجيل بحسب يوحنا

"وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَاناً أَنْ يَصِيرُوا أَوْلاَدَ اللهِ، أَي الْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ. اَلَّذِينَ وُلِدُوا لَيْسَ مِنْ دَمٍ، وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ جَسَدٍ، وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ رَجُلٍ، بَلْ مِنَ اللهِ" (يو ١: ١٢ - ١٣).

بما أن الروح هو ذاك الذي بواسطة الإيمان بالمسيح يلدنا[1] إلى الخلاص، هكذا بسببه نصير نحن أبناء الله، عندئذ كيف لا يكون الروح إلهاً؟ أمَّا أن نكون نحن الذين نؤمن

(١) هذه هي أحد الأدلة الهامة على أن الروح القدس هو الله، وقد أكد على ذلك القديس كيرلس في شرحه لنص يو ١: ١٢ - ١٣، إذ يقول: "أما الذين بالإيمان بالمسيح يَصلون إلى البنوة التي من الله، فإنهم يعتمدون ليس لِمَنْ هو مخلوق، وإنما يعتمدون للثالوث القدوس نفسه، وبواسطة الكلمة كوسيط، الذي اتحد بما هو إنساني أي بالجسد، وفي نفس الوقت واحد مع الآب بلاهوته، وهذا يجعلنا نرتفع من رتبة العبودية إلى النبوّة، وبالاشتراك الحقيقي في الابن، دُعينا إلى أن نرتفع إلى كرامة الابن، لذلك فنحن الذين أخذنا الولادة الجديدة بالروح القدس بالإيمان قد دُعينا أبناء لأننا وُلدِنا من الله". شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص١٣٠.

وقد سبق للقديس أثناسيوس أن أثبت للذين ينكرون إلوهية الروح القدس أن إيمانهم ناقص ومعموديتهم أيضاً ناقصة، إذ يقول لهم: " إن الكنيسة لها أساس الإيمان هذا، فليقل لنا أولئك الناس مرة أخرى وليعطوا جواباً: هل الله ثالوث أم اثنان؟ فإذا كان اثنين فعليكم أن تحسبوا الروح بين المخلوقات، وبهذا يكون إيمانكم ليس إيماناً بإله واحد، " الذي على الكل، وبالكل، وفي الكل" (أف ٤: ٦). فإن فصلتم وأبعدتم الروح القدس عن الإلوهة، فلا يكون لكم ذلك الذي هو "في الكل"؛ وإذا كنتم تفكرون هكذا فإن التكميل، الذي تمارسونه ليس انضماماً إلى الإلوهية بالمرة". الرسائل عن الروح القدس إلى الأسقف سيرابيون، الرسالة الأولى، فقرة ٢٩ ص ٨٢.

كما سبق أيضاً للقديس أثناسيوس أن حذر الأريوسيين بعدم فاعلية المعمودية عندهم بسبب عدم إيمانهم بإلوهية الابن إذ يقول في المقالة الثانية ضد الأريوسيين: "أما هؤلاء الأريوسيون فإنهم يخاطرون بفقدان إتمام السر وأعني به المعمودية لأنه أن كان إتمام السر يعطي باسم الآب والابن وهم لا يقرون بأب حقيقي بسبب إنكارهم للذي هو منه الذي هو مثله في الجوهر منكرين الابن الحقيقي ويسمون لأنفسهم ابناً آخر... إلا يكون طقس المعمودية الذي يتمونه فارغاً تماماً وعديم الجدوى إذ أن له مظهر خارجي، أما في الحقيقة فإنه ليس له شيء يعين

مولودين من الروح، فهو ما يؤكده المخلص قائلاً لينقوديموس: "اَلرِّيحُ تَهُبُّ حَيْثُ تَشَاءُ، وَتَسْمَعُ صَوْتَهَا، لكِنَّكَ لاَ تَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ تَأْتِي وَلاَ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ. هكَذَا كُلُّ مَنْ وُلِدَ مِنَ الرُّوحِ" (يو ٣: ٨).

٧٢- شاهدٌ آخر

"وَمَتَى جَاءَ الْمُعَزِّي الَّذِي سَأُرْسِلُهُ أَنَا إِلَيْكُمْ مِنَ الآبِ، رُوحُ الْحَقِّ، الَّذِي مِنْ عِنْدِ الآبِ يَنْبَثِقُ، فَهُوَ يَشْهَدُ لِي" (يو ١٥: ٢٦).

إذا كان الروح القدس ينبثق من الله الآب، وهو مثل الثمرة لجوهره، وكان الآب غير مخلوق وغير مجبول، فكيف يمكن أن يكون الروح الذي ينبثق منه مخلوقاً؟

وكيف نصير نحن هياكل الله حين نقبل الروح، لو لم يكن الروحُ إلهاً، وفق طيش البعض؟!

على التقوى.. لأن الأريوسيين لا يعمِّدون باسم الآب والابن، بل باسم خالق ومخلوق... فليس من يقول ببساطة "يا رب" هو الذي يعطي المعمودية، بل هو ذلك الذي مع الاسم الذي يدعوه، عنده أيضاً إيمان مستقيم.. ومع الإيمان يأتي إتمام المعمودية". ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثانية، فصل ٤٢ ص ٨٣ - ٨٤.

المقالة الخامسة والثلاثون

شواهد من الكتاب المقدس نستطيع بها أن نرى أن الابن مولودٌ من الآب، وليس مخلوقاً

١- الحكمة تقول: "مُنْذُ الأَزَلِ مُسِحْتُ، مُنْذُ الْبَدْءِ، مُنْذُ أَوَائِلِ الأَرْضِ. إِذْ لَمْ يَكُنْ غَمْرٌ أُبْدِئْتُ. إِذْ لَمْ تَكُنْ يَنَابِيعُ كَثِيرَةُ الْمِيَاهِ". (أمثال ٨: ٢٣ – ٢٤).

٢- "إِنِّي أُخْبِرُ مِنْ جِهَةِ قَضَاءِ الرَّبِّ: قَالَ لِي: «أَنْتَ ابْنِي، أَنَا الْيَوْمَ وَلَدْتُكَ". (مز ٢: ٧).

٣- "شَعْبُكَ مُنْتَدَبٌ فِي يَوْمِ قُوَّتِكَ، فِي زِينَةٍ مُقَدَّسَةٍ مِنْ رَحِمِ الْفَجْرِ، لَكَ طَلُّ حَدَاثَتِكَ". (مز ١١٠: ٣).

الابن هو الإله الأزلي قبل خلق العالم وقد وُلِدِ بطريقة غير موصوفة

٤- "فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ. هذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللهِ. كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ، وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ". (يو ١: ١ – ٣).

٥- "اَلشَّيْخُ، إِلَى غَايُسَ الْحَبِيبِ الَّذِي أَنَا أُحِبُّهُ بِالْحَقِّ. أَيُّهَا الْحَبِيبُ، فِي كُلِّ شَيْءٍ أَرُومُ أَنْ تَكُونَ نَاجِحاً وَصَحِيحاً، كَمَا أَنَّ نَفْسَكَ نَاجِحَةٌ. لأَنِّي فَرِحْتُ جِدّاً إِذْ حَضَرَ إِخْوَةٌ وَشَهِدُوا بِالْحَقِّ الَّذِي فِيكَ، كَمَا أَنَّكَ تَسْلُكُ بِالْحَقِّ". (١ يو ١: ١ – ٣).

المخلص في الإنجيل:

٦- "كُلُّ شَيْءٍ قَدْ دُفِعَ إِلَيَّ مِنْ أَبِي، وَلَيْسَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الابْنَ إِلاَّ الآبُ، وَلاَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الآبَ إِلاَّ الابْنُ وَمَنْ أَرَادَ الابْنُ أَنْ يُعْلِنَ لَهُ" (مت ١١: ٢٧).

٧- "وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً وَحَلَّ بَيْنَنَا، وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ، مَجْداً كَمَا لِوَحِيدٍ مِنَ الآبِ، مَمْلُوءاً نِعْمَةً وَحَقّاً" (يو ١: ١٤).

٨- "ظُلِمَ أَمَّا هُوَ فَتَذَلَّلَ وَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ. كَشَاةٍ تُسَاقُ إِلَى الذَّبْحِ، وَكَنَعْجَةٍ صَامِتَةٍ أَمَامَ جَازِّيهَا فَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ. مِنَ الضُّغْطَةِ وَمِنَ الدَّيْنُونَةِ أُخِذَ. وَفِي جِيلِهِ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ قُطِعَ مِنْ أَرْضِ الأَحْيَاءِ، أَنَّهُ ضُرِبَ مِنْ أَجْلِ ذَنْبِ شَعْبِي؟" (أش ٥٣: ٧ - ٨).

٩- " أَمَّا أَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْمِ أَفْرَاتَةَ، وَأَنْتِ صَغِيرَةٌ أَنْ تَكُونِي بَيْنَ أُلُوفِ يَهُوذَا، فَمِنْكِ يَخْرُجُ لِي الَّذِي يَكُونُ مُتَسَلِّطاً عَلَى إِسْرَائِيلَ، وَمَخَارِجُهُ مُنْذُ الْقَدِيمِ، مُنْذُ أَيَّامِ الأَزَلِ». لِذلِكَ يُسَلِّمُهُمْ إِلَى حِينَمَا تَكُونُ قَدْ وَلَدَتْ وَالِدَةٌ، ثُمَّ تَرْجعُ بَقِيَّةُ إِخْوَتِهِ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَيَقِفُ وَيَرْعَى بِقُدْرَةِ الرَّبِّ، بِعَظَمَةِ اسْمِ الرَّبِّ إِلهِهِ، وَيَثْبُتُونَ. لأَنَّهُ الآنَ يَتَعَظَّمُ إِلَى أَقَاصِي الأَرْضِ".(ميخا ٥: ٢ - ٤).

لقد وُلِدِ من جوهر الآب بدون أن يحدث أي انفصال أو قطع، بل مثل الشعاع من النور.

١٠- "الَّذِي هُوَ صُورَةُ اللهِ غَيْرِ الْمَنْظُورِ، بِكْرُ كُلِّ خَلِيقَةٍ. فَإِنَّهُ فِيهِ خُلِقَ الْكُلُّ: مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ، مَا يُرَى وَمَا لاَ يُرَى، سَوَاءٌ كَانَ عُرُوشاً أَمْ سِيَادَاتٍ أَمْ رِيَاسَاتٍ أَمْ سَلاَطِينَ. الْكُلُّ بِهِ وَلَهُ قَدْ خُلِقَ. الَّذِي هُوَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَفِيهِ يَقُومُ الْكُلُّ" (كو ١: ١٥ - ١٧).

١١- "اَللهُ، بَعْدَ مَا كَلَّمَ الآبَاءَ بِالأَنْبِيَاءِ قَدِيماً، بِأَنْوَاعٍ وَطُرُقٍ كَثِيرَةٍ، كَلَّمَنَا فِي هذِهِ الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ فِي ابْنِهِ، الَّذِي جَعَلَهُ وَارِثاً لِكُلِّ شَيْءٍ، الَّذِي بِهِ أَيْضاً عَمِلَ الْعَالَمِينَ". (عب ١: ١ - ٢).

١٢- "يَا رَبُّ، مَلْجَأً كُنْتَ لَنَا فِي دَوْرٍ فَدَوْرٍ" (مز ٩٠: ١). هنا يقول عن الابن أنه كائن قبل الخليقة، فكيف يكون الابن الذي هو كائن قبل الكل غير أزلي؟

١٣- "وَهذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ. أَنَا مَجَّدْتُكَ عَلَى الأَرْضِ. الْعَمَلَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لأَعْمَلَ قَدْ أَكْمَلْتُهُ. وَالآنَ

مَجِّدْنِي أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ بِالْمَجْدِ الَّذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ الْعَالَمِ". (يو ١٧: ٣ - ٥).

ابن الله هو الكلمة:

١٤- "فَإِنْ كَانُوا أَنْبِيَاءَ، وَإِنْ كَانَتْ كَلِمَةُ الرَّبِّ مَعَهُمْ، فَلْيَتَوَسَّلُوا إِلَى رَبِّ الْجُنُودِ لِكَيْ لاَ تَذْهَبَ إِلَى بَابِلَ الآنِيَةُ الْبَاقِيَةُ فِي بَيْتِ الرَّبِّ وَبَيْتِ مَلِكِ يَهُوذَا وَفِي أُورُشَلِيمَ" (أر ٢٧: ١٨). لأن كلمة الله، الابن لا يوجد في الأنبياء الكذبة.

١٥- "خَزِيَ الْحُكَمَاءُ. ارْتَاعُوا وَأُخِذُوا. هَا قَدْ رَفَضُوا كَلِمَةَ الرَّبِّ، فَأَيَّةُ حِكْمَةٍ لَهُمْ؟" (أر ٨: ٩). والكتبة والفريسيين أنكروا ابن الله قائلين: "إن كان هو إنسان مرسل من الله سوف لا يُبطل السبت"

١٦- "وَهُوَ أَيْضاً حَكِيمٌ وَيَأْتِي بِالشَّرِّ وَلاَ يَرْجِعُ بِكَلاَمِهِ، وَيَقُومُ عَلَى بَيْتِ فَاعِلِي الشَّرِّ وَعَلَى مَعُونَةِ فَاعِلِي الإِثْمِ". (أش ٣١:٢)؛ لأن أبو كلمة الله هو حكيم وينقلب ضد أولئك الذين ينكرون ابنه.

١٧- "فَاضَ قَلْبِي بِكَلاَمٍ صَالِحٍ. مُتَكَلِّمٌ أَنَا بِإِنْشَائِي لِلْمَلِكِ. لِسَانِي قَلَمُ كَاتِبٍ مَاهِرٍ" (مز ٤٥: ١).

١٨- "غَنُّوا لَهُ أُغْنِيَةً جَدِيدَةً. أَحْسِنُوا الْعَزْفَ بِهُتَافٍ. ٤لأَنَّ كَلِمَةَ الرَّبِّ مُسْتَقِيمَةٌ، وَكُلُّ صُنْعِهِ بِالأَمَانَةِ ". (مز ٣٣: ٣ - ٤).

١٩- "أَرْسَلَ كَلِمَتَهُ فَشَفَاهُمْ، وَنَجَّاهُمْ مِنْ تَهْلُكَاتِهِمْ " (مز ١٠٧: ٢٠).

٢٠- "يُحِبُّ الْبِرَّ وَالْعَدْلَ. امْتَلأَتِ الأَرْضُ مِنْ رَحْمَةِ الرَّبِّ. بِكَلِمَةِ الرَّبِّ صُنِعَتِ السَّمَاوَاتُ، وَبِنَسَمَةِ فِيهِ كُلُّ جُنُودِهَا" (مز ٣٣: ٥ - ٦).

٢١- "سِتْرِي وَمِجَنِّي أَنْتَ. كَلاَمَكَ انْتَظَرْتُ" (مز ١١٩: ١١٤).

٢٢- " تَاقَتْ نَفْسِي إِلَى خَلاَصِكَ. كَلاَمَكَ انْتَظَرْتُ " (مز ١١٩: ٨١).

٢٢- "عَدْلُكَ عَدْلٌ إِلَى الدَّهْرِ، وَشَرِيعَتُكَ حَقٌّ" (مز ١١٩: ١٤٢).

٢٣- "لأَنَّ كَلِمَةَ اللهِ حَيَّةٌ وَفَعَّالَةٌ وَأَمْضَى مِنْ كُلِّ سَيْفٍ ذِي حَدَّيْنِ، وَخَارِقَةٌ إِلَى مَفْرَقِ النَّفْسِ وَالرُّوحِ وَالْمَفَاصِلِ وَالْمِخَاخِ، وَمُمَيِّزَةٌ أَفْكَارَ الْقَلْبِ وَنِيَّاتِهِ " (عب ٤: ١٢).

٢٤- "لأَنَّ كُلَّ خَلِيقَةِ اللهِ جَيِّدَةٌ، وَلاَ يُرْفَضُ شَيْءٌ إِذَا أُخِذَ مَعَ الشُّكْرِ، لأَنَّهُ يُقَدَّسُ بِكَلِمَةِ اللهِ وَالصَّلاَةِ " (١ تيمو ٤: ٤ - ٥).

٢٥- "فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ. هذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللهِ. وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً وَحَلَّ بَيْنَنَا، وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ، مَجْداً كَمَا لِوَحِيدٍ مِنَ الآبِ، مَمْلُوءاً نِعْمَةً وَحَقّاً " (يو ١: ١ - ٢، ١٤).

٢٦- "قَدِّسْهُمْ فِي حَقِّكَ. كَلاَمُكَ هُوَ حَق" (يو ١٧: ١٧).

٢٧- "وَالآنَ أَسْتَوْدِعُكُمْ يَا إِخْوَتِي للهِ وَلِكَلِمَةِ نِعْمَتِهِ، الْقَادِرَةِ أَنْ تَبْنِيَكُمْ وَتُعْطِيَكُمْ مِيرَاثاً مَعَ جَمِيعِ الْمُقَدَّسِينَ". (أع ٢٠: ٣٢).

٢٨- " شَاءَ فَوَلَدَنَا بِكَلِمَةِ الْحَقِّ لِكَيْ نَكُونَ بَاكُورَةً مِنْ خَلاَئِقِهِ" (يع ١: ١٨).

٢٩- "طَهِّرُوا نُفُوسَكُمْ فِي طَاعَةِ الْحَقِّ بِالرُّوحِ لِلْمَحَبَّةِ الأَخَوِيَّةِ الْعَدِيمَةِ الرِّيَاءِ، فَأَحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضاً مِنْ قَلْبٍ طَاهِرٍ بِشِدَّةٍ ".(١ بط ١: ٢٢).

٣٠- "اَلَّذِي كَانَ مِنَ الْبَدْءِ، الَّذِي سَمِعْنَاهُ، الَّذِي رَأَيْنَاهُ بِعُيُونِنَا، الَّذِي شَاهَدْنَاهُ، وَلَمَسَتْهُ أَيْدِينَا، مِنْ جِهَةِ كَلِمَةِ الْحَيَاةِ " (١ يو ١: ١).

٣١- "إِنْ قُلْنَا: إِنَّنَا لَمْ نُخْطِئْ نَجْعَلْهُ كَاذِباً، وَكَلِمَتُهُ لَيْسَتْ فِينَا".(١ يو ١: ١٠).

٣٢- "كَتَبْتُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الآبَاءُ، لأَنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمُ الَّذِي مِنَ الْبَدْءِ. كَتَبْتُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الأَحْدَاثُ، لأَنَّكُمْ أَقْوِيَاءُ، وَكَلِمَةُ اللهِ ثَابِتَةٌ فِيكُمْ، وَقَدْ غَلَبْتُمُ الشِّرِّيرَ ".(١ يو ٢: ١٤).

إبن الله هو نور:

٣٣- " قُومِي اسْتَنِيرِي لأَنَّهُ قَدْ جَاءَ نُورُكِ، وَمَجْدُ الرَّبِّ أَشْرَقَ عَلَيْكِ" (أش ٦٠: ١).

٣٤- "وَلكِنْ لاَ يَكُونُ ظَلاَمٌ لِلَّتِي عَلَيْهَا ضِيقٌ. كَمَا أَهَانَ الزَّمَانُ الأَوَّلُ أَرْضَ زَبُولُونَ وَأَرْضَ نَفْتَالِي، يُكْرِمُ الأَخِيرُ طَرِيقَ الْبَحْرِ، عَبْرَ الأُرْدُنِّ، جَلِيلَ الأُمَمِ. اَلشَّعْبُ السَّالِكُ فِي

الظُّلْمَةِ أَبْصَرَ نُوراً عَظِيماً. الْجَالِسُونَ فِي أَرْضِ ظِلاَلِ الْمَوْتِ أَشْرَقَ عَلَيْهِمْ نُورٌ" (أش ٩: ١ - ٢).

٣٤- "يَا بَيْتَ يَعْقُوبَ، هَلُمَّ فَنَسْلُكُ فِي نُورِ الرَّبِّ. فَإِنَّكَ رَفَضْتَ شَعْبَكَ بَيْتَ يَعْقُوبَ لأَنَّهُمُ امْتَلأُوا مِنَ الْمَشْرِقِ، وَهُمْ عَائِفُونَ كَالْفِلِسْطِينِيِّينَ، وَيُصَافِحُونَ أَوْلاَدَ الأَجَانِبِ" (أش ٢: ٥ - ٦).

٣٥- "فَقَالَ: «قَلِيلٌ أَنْ تَكُونَ لِي عَبْداً لإِقَامَةِ أَسْبَاطِ يَعْقُوبَ، وَرَدِّ مَحْفُوظِي إِسْرَائِيلَ. فَقَدْ جَعَلْتُكَ نُوراً لِلأُمَمِ لِتَكُونَ خَلاَصِي إِلَى أَقْصَى الأَرْضِ» (أش ٤٩: ٦).

٣٦- " نُورٌ أَشْرَقَ فِي الظُّلْمَةِ لِلْمُسْتَقِيمِينَ. هُوَ حَنَّانٌ وَرَحِيمٌ وَصِدِّيقٌ " (مز ١١٢: ٤).

٣٧- " أَرْسِلْ نُورَكَ وَحَقَّكَ، هُمَا يَهْدِيَانِنِي وَيَأْتِيَانِ بِي إِلَى جَبَلِ قُدْسِكَ وَإِلَى مَسَاكِنِكَ" (مز ٤٣: ٣).

٣٨- " أَنْتَ سَحَقْتَ رَهَبَ مِثْلَ الْقَتِيلِ. بِذِرَاعِ قُوَّتِكَ بَدَّدْتَ أَعْدَاءَكَ " (مز ٨٩: ١٠).

٣٩- " أَجَابَ دَانِيآلُ وَقَالَ: «لِيَكُنِ اسْمُ اللهِ مُبَارَكاً مِنَ الأَزَلِ وَإِلَى الأَبَدِ، لأَنَّ لَهُ الْحِكْمَةَ وَالْجَبَرُوتَ. وَهُوَ يُغَيِّرُ الأَوْقَاتَ وَالأَزْمِنَةَ. يَعْزِلُ مُلُوكاً وَيُنَصِّبُ مُلُوكاً. يُعْطِي الْحُكَمَاءَ حِكْمَةً، وَيُعَلِّمُ الْعَارِفِينَ فَهْماً. هُوَ يَكْشِفُ الْعَمَائِقَ وَالأَسْرَارَ. يَعْلَمُ مَا هُوَ فِي الظُّلْمَةِ، وَعِنْدَهُ يَسْكُنُ النُّورُ. إِيَّاكَ يَا إِلهَ آبَائِي أَحْمَدُ، وَأُسَبِّحُ الَّذِي أَعْطَانِي الْحِكْمَةَ وَالْقُوَّةَ وَأَعْلَمَنِي الآنَ مَا طَلَبْنَاهُ مِنْكَ، لأَنَّكَ أَعْلَمْتَنَا أَمْرَ الْمَلِكِ» " (دا ٢: ٢٠ - ٢٣).

٤٠- " الَّذِي وَحْدَهُ لَهُ عَدَمُ الْمَوْتِ، سَاكِناً فِي نُورٍ لاَ يُدْنَى مِنْهُ، الَّذِي لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَاهُ، الَّذِي لَهُ الْكَرَامَةُ وَالْقُدْرَةُ الأَبَدِيَّةُ. آمِينَ" (١ تيمو ٦: ١٦).

٤١- "لأَنَّكُمْ كُنْتُمْ قَبْلاً ظُلْمَةً، وَأَمَّا الآنَ فَنُورٌ فِي الرَّبِّ. اسْلُكُوا كَأَوْلاَدِ نُورٍ" (أف ٥: ٨).

٤٢- "شَاكِرِينَ الآبَ الَّذِي أَهَّلَنَا لِشَرِكَةِ مِيرَاثِ الْقِدِّيسِينَ فِي النُّورِ"(كو ١: ١٢).

٤٣- " وَأَمَّا أَنْتُمْ فَجِنْسٌ مُخْتَارٌ، وَكَهَنُوتٌ مُلُوكِيٌّ، أُمَّةٌ مُقَدَّسَةٌ، شَعْبُ اقْتِنَاءٍ، لِكَيْ تُخْبِرُوا بِفَضَائِلِ الَّذِي دَعَاكُمْ مِنَ الظُّلْمَةِ إِلَى نُورِهِ الْعَجِيبِ" (١ بط ٢: ٩).

٤٤- " وَعِنْدَنَا الْكَلِمَةُ النَّبَوِيَّةُ، وَهِيَ أَثْبَتُ، الَّتِي تَفعَلُونَ حَسَناً إِنِ انْتَبَهْتُمْ إِلَيْهَا، كَمَا إِلَى سِرَاجٍ مُنِيرٍ فِي مَوْضِعٍ مُظْلِمٍ، إِلَى أَنْ يَنْفَجِرَ النَّهَارُ، وَيَطْلَعَ كَوْكَبُ الصُّبْحِ فِي قُلُوبِكُمْ" (٢ بط ١: ١٩).

٤٥- "وَلكِنْ إِنْ سَلَكْنَا فِي النُّورِ كَمَا هُوَ فِي النُّورِ، فَلَنَا شَرِكَةٌ بَعْضِنَا مَعَ بَعْضٍ، وَدَمُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ ابْنِهِ يُطَهِّرُنَا مِنْ كُلِّ خَطِيَّةٍ " (١ يو ١: ٧).

٤٦- "أَيْضاً وَصِيَّةً جَدِيدَةً أَكْتُبُ إِلَيْكُمْ، مَا هُوَ حَق÷ فِيهِ وَفِيكُمْ: أَنَّ الظُّلْمَةَ قَدْ مَضَتْ، وَالنُّورَ الْحَقِيقِيَّ الآنَ يُضِيءُ" (١ يو ٢: ٨).

٤٧- "مَنْ يُحِبُّ أَخَاهُ يَثْبُتُ فِي النُّورِ وَلَيْسَ فِيهِ عَثْرَةٌ"(١ يو ٢: ١٠). أي لن يجد مَنْ لديه محبة أن ذاته خارج الحياة في المسيح.

٤٨- "أَنَا قَدْ جِئْتُ نُوراً إِلَى الْعَالَمِ، حَتَّى كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِي لاَ يَمْكُثُ فِي الظُّلْمَةِ" (يو ١٢: ٤٦).

٤٩- "ثُمَّ كَلَّمَهُمْ يَسُوعُ أَيْضاً قَائِلاً:«أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ. مَنْ يَتْبَعْنِي فَلاَ يَمْشِي فِي الظُّلْمَةِ بَلْ يَكُونُ لَهُ نُورُ الْحَيَاةِ»" (يو ٨: ١٢).

٥٠- "وَهذِهِ هِيَ الدَّيْنُونَةُ: إِنَّ النُّورَ قَدْ جَاءَ إِلَى الْعَالَمِ، وَأَحَبَّ النَّاسُ الظُّلْمَةَ أَكْثَرَ مِنَ النُّورِ، لأَنَّ أَعْمَالَهُمْ كَانَتْ شِرِّيرَةً" (يو ٣: ١٩).

٥١- "لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ السَّيِّآتِ يُبْغِضُ النُّورَ، وَلاَ يَأْتِي إِلَى النُّورِ لِئَلاَّ تُوَبَّخَ أَعْمَالُهُ " (يو ٣: ٢٠).

٥٢- "كَانَ إِنْسَانٌ مُرْسَلٌ مِنَ اللهِ اسْمُهُ يُوحَنَّا. كَانَ النُّورُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي يُنِيرُ كُلَّ إِنْسَانٍ آتِياً إِلَى الْعَالَمِ" (يو ١: ٦،٩).

٥٣- " فِيهِ كَانَتِ الْحَيَاةُ، وَالْحَيَاةُ كَانَتْ نُورَ النَّاسِ، وَالنُّورُ يُضِيءُ فِي الظُّلْمَةِ، وَالظُّلْمَةُ لَمْ تُدْرِكْهُ " (يو ١: ٤ - ٥).

٥٤- " مَا دَامَ لَكُمُ النُّورُ آمِنُوا بِالنُّورِ لِتَصِيرُوا أَبْنَاءَ النُّورِ». تَكَلَّمَ يَسُوعُ بِهذَا ثُمَّ مَضَى وَاخْتَفَى عَنْهُمْ" (يو ١٢: ٣٦).

٥٥- " النُّورُ مَعَكُمْ زَمَاناً قَلِيلاً بَعْدُ، فَسِيرُوا مَا دَامَ لَكُمُ النُّورُ لِئَلاَّ يُدْرِكَكُمُ الظَّلاَمُ. وَالَّذِي يَسِيرُ فِي الظَّلاَمِ لاَ يَعْلَمُ إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ " (يو ١٢: ٣٥).

ابن الله هو الحق:

٥٦- "بَلْ قَدْ رَفَضْنَا خَفَايَا الْخِزْيِ، غَيْرَ سَالِكِينَ فِي مَكْرٍ، وَلاَ غَاشِّينَ كَلِمَةَ اللهِ، بَلْ بِإِظْهَارِ الْحَقِّ، مَادِحِينَ أَنْفُسَنَا لَدَى ضَمِيرِ كُلِّ إِنْسَانٍ قُدَّامَ اللهِ " (٢ كو ٤: ٢).

٥٧- "كُنْتُمْ تَسْعَوْنَ حَسَناً. فَمَنْ صَدَّكُمْ حَتَّى لاَ تُطَاوِعُوا لِلْحَقِّ؟" (غلا ٥: ٧).

٥٨- " طَهِّرُوا نُفُوسَكُمْ فِي طَاعَةِ الْحَقِّ بِالرُّوحِ لِلْمَحَبَّةِ الأَخَوِيَّةِ الْعَدِيمَةِ الرِّيَاءِ، فَأَحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضاً مِنْ قَلْبٍ طَاهِرٍ بِشِدَّةٍ " (١ بط ١: ٢٢).

٥٩- " الَّذِي فِيهِ أَيْضاً أَنْتُمْ، إِذْ سَمِعْتُمْ كَلِمَةَ الْحَقِّ، إِنْجِيلَ خَلاَصِكُمْ، الَّذِي فِيهِ أَيْضاً إِذْ آمَنْتُمْ خُتِمْتُمْ بِرُوحِ الْمَوْعِدِ الْقُدُّوسِ" (أف ١: ١٣).

٦٠- " الَّذِي يُرِيدُ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ يَخْلُصُونَ، وَإِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ يُقْبِلُونَ" (١ تيمو ٢: ٤).

٦١- "وَأَمَّا نَحْنُ فَيَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَشْكُرَ اللهَ كُلَّ حِينٍ لأَجْلِكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ الْمَحْبُوبُونَ مِنَ الرَّبِّ، أَنَّ اللهَ اخْتَارَكُمْ مِنَ الْبَدْءِ لِلْخَلاَصِ، بِتَقْدِيسِ الرُّوحِ وَتَصْدِيقِ الْحَقِّ" (٢ تس ٢: ١٣).

٦٢- " فَإِنَّهُ إِنْ أَخْطَأْنَا بِاخْتِيَارِنَا بَعْدَمَا أَخَذْنَا مَعْرِفَةَ الْحَقِّ، لاَ تَبْقَى بَعْدُ ذَبِيحَةٌ عَنِ الْخَطَايَا" (عب ١٠: ٢٦).

٦٣- "فَقَالَ لَهُ بِيلاَطُسُ: «أَفَأَنْتَ إِذاً مَلِكٌ؟» أَجَابَ يَسُوعُ:«أَنْتَ تَقُولُ: إِنِّي مَلِكٌ. لِهَذَا قَدْ وُلِدْتُ أَنَا، وَلِهَذَا قَدْ أَتَيْتُ إِلَى الْعَالَمِ لأَشْهَدَ لِلْحَقِّ. كُلُّ مَنْ هُوَ مِنَ الْحَقِّ يَسْمَعُ صَوْتِي» (يو ١٨: ٣٧).

٦٤- "وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآبِ فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّياً آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إِلَى الأَبَدِ، رُوحُ الْحَقِّ الَّذِي لاَ يَسْتَطِيعُ الْعَالَمُ أَنْ يَقْبَلَهُ، لأَنَّهُ لاَ يَرَاهُ وَلاَ يَعْرِفُهُ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَعْرِفُونَهُ لأَنَّهُ مَاكِثٌ مَعَكُمْ وَيَكُونُ فِيكُمْ" (يو ١٤: ١٦ - ١٧).

٦٥- " وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ، رُوحُ الْحَقِّ، فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ، لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ " (يو ١٦: ١٣).

٦٦- " وَلأَجْلِهِمْ أُقَدِّسُ أَنَا ذَاتِي، لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضاً مُقَدَّسِينَ فِي الْحَقِّ" (يو ١٧: ١٩).

٦٧- "قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي" (يو ١٤: ٦).

٦٨- " وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ، رُوحُ الْحَقِّ، فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ، لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ" (يو ١٦: ١٣).

٦٩- "وَلأَجْلِهِمْ أُقَدِّسُ أَنَا ذَاتِي، لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضاً مُقَدَّسِينَ فِي الْحَقِّ" (يو ١٧: ١٩).

٧٠- "أَنْتُمْ مِنْ أَبٍ هُوَ إِبْلِيسُ، وَشَهَوَاتِ أَبِيكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَعْمَلُوا. ذَاكَ كَانَ قَتَّالاً لِلنَّاسِ مِنَ الْبَدْءِ، وَلَمْ يَثْبُتْ فِي الْحَقِّ لأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ حَق. مَتَى تَكَلَّمَ بِالْكَذِبِ فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ مِمَّا لَهُ، لأَنَّهُ كَذَّابٌ وَأَبُو الْكَذَّابِ" (يو ٨: ٤٤).

٧١- "قال زربابل: "الحق عظيم جداً وأقوي من الكل. كل الأرض تدعو الحق. السماء تدعوه وتسجد له، وكل المخلوقات تخافه وترتعب منه" (١ عزر ٤: ٣٥ - ٣٦).

٧٢- "رَأْسُ كَلاَمِكَ حَقٌّ، وَإِلَى الدَّهْرِ كُلُّ أَحْكَامِ عَدْلِكَ" (مز ١١٩: ١٦٠).

٧٣- "يَا رَبُّ إِلهَ الْجُنُودِ، مَنْ مِثْلُكَ ؟ قَوِيٌّ، رَبٌّ، وَحَقُّكَ مِنْ حَوْلِكَ" (مز ٨٩: ٨).

٧٤- "اخْتَرْتُ طَرِيقَ الْحَقِّ. جَعَلْتُ أَحْكَامَكَ قُدَّامِي" (مز ١١٩: ٣٠).

٧٥- "عَدْلُكَ عَدْلٌ إِلَى الدَّهْرِ، وَشَرِيعَتُكَ حَقٌّ" (مز ١١٩: ١٤٢).

٧٦- "قَدِّسْهُمْ فِي حَقِّكَ. كَلاَمُكَ هُوَ حَق" (يو ١٧: ١٧).

٧٧- "مَنْ قَالَ: «قَدْ عَرَفْتُهُ» وَهُوَ لاَ يَحْفَظُ وَصَايَاهُ، فَهُوَ كَاذِبٌ وَلَيْسَ الْحَقُّ فِيهِ" (١ يو ٢: ٤).

٧٨- " لَمْ أَكْتُبْ إِلَيْكُمْ لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ الْحَقَّ، بَلْ لأَنَّكُمْ تَعْلَمُونَهُ، وَأَنَّ كُلَّ كَذِبٍ لَيْسَ مِنَ الْحَقِّ" (١ يو ٢: ٢١).

٧٩- "إِنْ قُلْنَا: إِنَّهُ لَيْسَ لَنَا خَطِيَّةٌ نُضِلُّ أَنْفُسَنَا وَلَيْسَ الْحَقُّ فِينَا" (١ يو ١: ٨).

٨٠- يقول بولس الرسول لأولئك الذين لم يؤمنوا بالمسيح: "وَبِكُلِّ خَدِيعَةِ الإِثْـمِ، فِـي الْهَالِكِينَ، لأَنَّهُمْ لَمْ يَقْبَلُوا مَحَبَّةَ الْحَقِّ حَتَّى يَخْلُصُوا" (٢ تس ٢: ١٠).

٨١- "أَنَا قَدْ أَتَيْتُ بِاسْمِ أَبِي وَلَسْتُمْ تَقْبَلُونَنِي. إِنْ أَتَى آخَرُ بِاسْمِ نَفْسِهِ فَذلِكَ تَقْبَلُونَهُ" (يو ٥: ٤٣).

الابن هو صورة الله الآب

٨٢- "طُوبَى لِلشَّعْبِ الْعَارِفِينَ الْهُتَافَ. يَا رَبُّ، بِنُورِ وَجْهِكَ يَسْلُكُونَ بِاسْمِكَ يَبْتَهِجُونَ الْيَوْمَ كُلَّهُ، وَبِعَدْلِكَ يَرْتَفِعُونَ. لأَنَّكَ أَنْتَ فَخْرُ قُوَّتِهِمْ، وَبِرِضَاكَ يَنْتَصِبُ قَرْنُنَا" (مـز ٨٩: ١٥ - ١٧).

٨٣- " لأَنَّهُ لَيْسَ بِسَيْفِهِمِ امْتَلَكُوا الأَرْضَ، وَلاَ ذِرَاعُهُمْ خَلَّصَتْهُمْ، لكِنْ يَمِينُكَ وَذِرَاعُـكَ وَنُورُ وَجْهِكَ، لأَنَّكَ رَضِيتَ عَنْهُمْ" (مز ٤٤: ٣).

٨٤- "كَثِيرُونَ يَقُولُونَ: «مَنْ يُرِينَا خَيْراً؟ ». ارْفَعْ عَلَيْنَا نُورَ وَجْهِكَ يَـا رَبُّ. جَعَلْـتَ سُرُوراً فِي قَلْبِي أَعْظَمَ مِنْ سُرُورِهِمْ إِذْ كَثُرَتْ حِنْطَتُهُمْ وَخَمْرُهُمْ" (مز ٤: ٦ - ٧).

٨٥- "اَللهُ، بَعْدَ مَا كَلَّمَ الآبَاءَ بِالأَنْبِيَاءِ قَدِيماً، بِأَنْوَاعٍ وَطُرُقٍ كَثِيرَةٍ، كَلَّمَنَا فِي هذِهِ الأَيَّـامِ الأَخِيرَةِ فِي ابْنِهِ، الَّذِي جَعَلَهُ وَارِثاً لِكُلِّ شَيْءٍ، الَّذِي بِهِ أَيْضاً عَمِلَ الْعَالَمِينَ، الَّذِي، وَهُـوَ بَهَاءُ مَجْدِهِ، وَرَسْمُ جَوْهَرِهِ، وَحَامِلٌ كُلَّ الأَشْيَاءِ بِكَلِمَةِ قُدْرَتِهِ، بَعْدَ مَا صَنَعَ بِنَفْسِهِ تَطْهِيراً لِخَطَايَانَا، جَلَسَ فِي يَمِينِ الْعَظَمَةِ فِي الأَعَالِي" (عب ١: ١ - ٣).

٨٦- "شَاكِرِينَ الآبَ الَّذِي أَهَّلَنَا لِشَرِكَةِ مِيرَاثِ الْقِدِّيسِينَ فِي النُّورِ، الَّذِي أَنْقَـذَنَا مِـنْ سُلْطَانِ الظُّلْمَةِ، وَنَقَلَنَا إِلَى مَلَكُوتِ ابْنِ مَحَبَّتِهِ، الَّذِي لَنَا فِيهِ الْفِدَاءُ، بِدَمِهِ غُفْرَانُ الْخَطَايَـا. الَّذِي هُوَ صُورَةُ اللهِ غَيْرِ الْمَنْظُورِ، بِكْرُ كُلِّ خَلِيقَةٍ" (كو ١: ١٢ - ١٥).

٨٧- "فَلْيَكُنْ فِيكُمْ هذَا الْفِكْرُ الَّذِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ أَيْضاً: الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُـورَةِ اللهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً للهِ" (فيلبي ٢: ٥ - ٦).

٨٨- "قَالَ لَهُ فِيلُبُّسُ:«يَا سَيِّدُ، أَرِنَا الآبَ وَكَفَانَا». قَالَ لَهُ يَسُوعُ:«أَنَا مَعَكُمْ زَمَاناً هــذِهِ مُدَّتُهُ وَلَمْ تَعْرِفْنِي يَا فِيلُبُّسُ! اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ، فَكَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ: أَرِنَــا الآبَ؟" (يو ١٤: ٨ - ٩).

٨٩- "لأنها ضياء النور الأزلي ومرآة عمل الله النقية وصورة جودته" (حك ٧: ٢٦).

٩٠- "فَقَالَ: «لاَ يُدْعَى اسْمُكَ فِي مَا بَعْدُ يَعْقُوبَ بَلْ إِسْرَائِيلَ، لأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَــعَ اللهِ وَالنَّاسِ وَقَدَرْتَ». وَسَأَلَ يَعْقُوبُ وَقَالَ: «أَخْبِرْنِي بِاسْمِكَ». فَقَالَ: «لِمَاذَا تَسْــأَلُ عَــنِ اسْمِي؟» وَبَارَكَهُ هُنَاكَ. فَدَعَا يَعْقُوبُ اسْمَ الْمَكَانِ «فَنِيئِيلَ» قَائِلاً: «لأَنِّي نَظَرْتُ اللهَ وَجْهاً لِوَجْهٍ، وَنُجِّيَتْ نَفْسِي». وَأَشْرَقَتْ لَهُ الشَّمْسُ إِذْ عَبَرَ فَنُوئِيلَ وَهُوَ يَخْمَعُ عَلَى فَخْذِهِ" (تك ٣٢: ٢٨ - ٣١).

ابن الله هو البر (العدل)

٩١- "وَقَالَ اللهُ: «نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَــمَكِ الْبَحْــرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ، وَعَلَى كُلِّ الأَرْضِ، وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ»" (تك ١: ٢٦).

٩٢- "وَلاَ عَجَبَ. لأَنَّ الشَّيْطَانَ نَفْسَهُ يُغَيِّرُ شَكْلَهُ إِلَى شِبْهِ مَلاَكِ نُورٍ! فَلَيْسَ عَظِيمــاً إِنْ كَانَ خُدَّامُهُ أَيْضاً يُغَيِّرُونَ شَكْلَهُمْ كَخُدَّامٍ لِلْبِرِّ. الَّذِينَ نِهَايَتُهُمْ تَكُونُ حَسَبَ أَعْمَالِهِمْ" (٢ كو ١١: ١٤ - ١٥).

٩٣- "وَمِنْهُ أَنْتُمْ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ، الَّذِي صَارَ لَنَا حِكْمَةً مِنَ اللهِ وَبِرّاً وَقَدَاسَةً وَفِــدَاءً" (١ كو ١: ٣٠).

٩٣أ - "لأَنِّي أَشْهَدُ لَهُمْ أَنَّ لَهُمْ غَيْرَةً للهِ، وَلكِنْ لَيْسَ حَسَبَ الْمَعْرِفَةِ. لأَنَّهُــمْ إِذْ كَــانُوا يَجْهَلُونَ بِرَّ اللهِ، وَيَطْلُبُونَ أَنْ يُثْبِتُوا بِرَّ أَنْفُسِهِمْ لَمْ يُخْضَعُوا لِبِرِّ اللهِ" (رو ١٠: ٢ - ٣).

٩٤- "وَإِذْ أُعْتِقْتُمْ مِنَ الْخَطِيَّةِ صِرْتُمْ عَبِيداً لِلْبِرِّ" (رو ٦: ١٨).

٩٥- "وَأَمَّا الآنَ فَقَدْ ظَهَرَ بِرُّ اللهِ بِدُونِ النَّامُوسِ، مَشْهُوداً لَهُ مِنَ النَّامُوسِ وَالأَنْبِيَاءِ، بِرُّ اللهِ بِالإِيمَانِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، إِلَى كُلِّ وَعَلَى كُلِّ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ. لأَنَّهُ لاَ فَرْقَ" (رو ٣: ٢١ - ٢٢).

٩٦- "لأَنَّهُ أَقَامَ يَوْماً هُوَ فِيهِ مُزْمِعٌ أَنْ يَدِينَ الْمَسْكُونَةَ بِالْعَدْلِ، بِرَجُلٍ قَدْ عَيَّنَهُ، مُقَدِّماً لِلْجَمِيعِ إِيمَاناً إِذْ أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ» (أع ١٧: ٣١).

٩٧- "لأَنَّ يُوحَنَّا جَاءَكُمْ فِي طَرِيقِ الْحَقِّ (البر) فَلَمْ تُؤْمِنُوا بِهِ، وَأَمَّا الْعَشَّارُونَ وَالزَّوَانِي فَآمَنُوا بِهِ. وَأَنْتُمْ إِذْ رَأَيْتُمْ لَمْ تَنْدَمُوا أَخِيراً لِتُؤْمِنُوا بِهِ" (مت ٢١:٣٢).

٩٨- "لكِنِ اطْلُبُوا أَوَّلاً مَلَكُوتَ اللهِ وَبِرَّهُ، وَهذِهِ كُلُّهَا تُزَادُ لَكُمْ" (مت ٦:٣٣).

٩٩- "طُوبَى لِلْمَطْرُودِينَ مِنْ أَجْلِ الْبِرِّ، لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ" (مت ٥:١٠).

١٠٠- "طُوبَى لِلْجِيَاعِ وَالْعِطَاشِ إِلَى الْبِرِّ، لأَنَّهُمْ يُشْبَعُونَ" (مت ٥:٦).

١٠١- "«وَلَكُمْ أَيُّهَا الْمُتَّقُونَ اسْمِي تُشْرِقُ شَمْسُ الْبِرِّ وَالشِّفَاءُ فِي أَجْنِحَتِهَا، فَتَخْرُجُونَ وَتَنْشَأُونَ كَعُجُولِ الصِّيرَةِ" (ملا ٤:٢).

١٠٢- "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ يُحَوِّلُونَ الْحَقَّ أَفْسَنْتِيناً، وَيُلْقُونَ الْبِرَّ إِلَى الأَرْضِ" (عا ٥:٧).

١٠٣- "سَبْعُونَ أُسْبُوعاً قُضِيَتْ عَلَى شَعْبِكَ وَعَلَى مَدِينَتِكَ الْمُقَدَّسَةِ لِتَكْمِيلِ الْمَعْصِيَةِ وَتَتْمِيمِ الْخَطَايَا، وَلِكَفَّارَةِ الإِثْمِ، وَلِيُؤْتَى بِالْبِرِّ الأَبَدِيِّ، وَلِخَتْمِ الرُّؤْيَا وَالنُّبُوَّةِ، وَلِمَسْحِ قُدُّوسِ الْقُدُّوسِينَ. فَاعْلَمْ وَافْهَمْ أَنَّهُ مِنْ خُرُوجِ الأَمْرِ لِتَجْدِيدِ أُورُشَلِيمَ وَبِنَائِهَا إِلَى الْمَسِيحِ الرَّئِيسِ سَبْعَةُ أَسَابِيعَ وَاثْنَانِ وَسِتُّونَ أُسْبُوعاً، يَعُودُ وَيُبْنَى سُوقٌ وَخَلِيجٌ فِي ضِيقِ الأَزْمِنَةِ" (دا ٩:٢٤ - ٢٥).

١٠٤- "لأَجْعَلَ لِنَائِحِي صِهْيَوْنَ، لأُعْطِيَهُمْ جَمَالاً عِوَضاً عَنِ الرَّمَادِ، وَدُهْنَ فَرَحٍ عِوَضاً عَنِ النَّوْحِ، وَرِدَاءَ تَسْبِيحٍ عِوَضاً عَنِ الرُّوحِ الْيَائِسَةِ، فَيُدْعَوْنَ أَشْجَارَ الْبِرِّ، غَرْسَ الرَّبِّ لِلتَّمْجِيدِ" (أش ٦١:٣).

١٠٥- "قَرِيبٌ بِرِّي. قَدْ بَرَزَ خَلاَصِي، وَذِرَاعَايَ يَقْضِيَانِ لِلشُّعُوبِ. إِيَّايَ تَرْجُو الْجَزَائِرُ وَتَنْتَظِرُ ذِرَاعِي" (أش ٥١:٥).

١٠٦- " رَأْسُ كَلاَمِكَ حَقٌّ، وَإِلَى الدَّهْرِ كُلُّ أَحْكَامِ عَدْلِكَ" (مز ١١٩:١٦٠).

١٠٧- " عَدْلُكَ عَدْلٌ إِلَى الدَّهْرِ، وَشَرِيعَتُكَ حَقٌّ " (مز ١١٩:١٤٢).

١٠٨- "أَحْمَدُكَ بِاسْتِقَامَةِ قَلْبٍ عِنْدَ تَعَلُّمِي أَحْكَامَ عَدْلِكَ. وَصَايَاكَ أَحْفَظُ. لاَ تَتْرُكْنِي إِلَى الْغَايَةِ" (مز ١١٩:٧ - ٨).

١٠٩- "أَعْلَنَ الرَّبُّ خَلاَصَهُ. لِعُيُونِ الأُمَمِ كَشَفَ بِرَّهُ" (مز ٩٨:٢).

١١٠- "لأَنَّ الرَّبَّ لاَ يَرْفُضُ شَعْبَهُ، وَلاَ يَتْرُكُ مِيرَاثَهُ. لأَنَّهُ إِلَى الْعَدْلِ يَرْجعُ الْقَضَاءُ، وَعَلَى أَثَرِهِ كُلُّ مُسْتَقِيمِي الْقُلُوبِ" (مز ٩٤:١٤ - ١٥).

١١١- "الْحَقُّ مِنَ الأَرْضِ يَنْبُتُ، وَالْبِرُّ مِنَ السَّمَاءِ يَطَّلِعُ. أَيْضاً الرَّبُّ يُعْطِي الْخَيْرَ، وَأَرْضُنَا تُعْطِي غَلَّتَهَا" (مز ٨٥:١١ - ١٢).

١١٢- "الْحَقُّ مِنَ الأَرْضِ يَنْبُتُ، وَالْبِرُّ مِنَ السَّمَاءِ يَطَّلِعُ. أَيْضاً الرَّبُّ يُعْطِي الْخَيْرَ، وَأَرْضُنَا تُعْطِي غَلَّتَهَا" (مز ٧١:١).

١١٣- "يَأْتُونَ وَيُخْبِرُونَ بِبِرهِ شَعْباً سَيُولَدُ بِأَنَّهُ قَدْ فَعَلَ" (مز ٢٢:٣١).

١١٤- "لَمْ أَكْتُمْ عَدْلَكَ فِي وَسَطِ قَلْبِي. تَكَلَّمْتُ بِأَمَانَتِكَ وَخَلاَصِكَ. لَمْ أُخْفِ رَحْمَتَكَ وَحَقَّكَ عَنِ الْجَمَاعَةِ الْعَظِيمَةِ. أَمَّا أَنْتَ يَا رَبُّ فَلاَ تَمْنَعْ رَأْفَتَكَ عَنِّي. تَنْصُرُنِي رَحْمَتُكَ وَحَقُّكَ دَائِماً. لأَنَّ شُرُوراً لاَ تُحْصَى قَدِ اكْتَنَفَتْنِي. حَاقَتْ بِي آثَامِي، وَلاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أُبْصِرَ. كَثُرَتْ أَكْثَرَ مِنْ شَعْرِ رَأْسِي، وَقَلْبِي قَدْ تَرَكَنِي" (مز ٤٠:١٠ - ١٢).

١١٥- "وَلِسَانِي يَلْهَجُ بِعَدْلِكَ. الْيَوْمَ كُلَّهُ بِحَمْدِكَ" (مز ٣٥:٢٨).

١١٦- "يَأْتُونَ وَيُخْبِرُونَ بِبِرهِ شَعْباً سَيُولَدُ بِأَنَّهُ قَدْ فَعَلَ" (مز ٢٢:٣١).

١١٧- "أَمَّا الرَّبُّ فَإِلَى الدَّهْرِ يَجْلِسُ. ثَبَّتَ لِلْقَضَاءِ كُرْسِيَّهُ، وَهُوَ يَقْضِي لِلْمَسْكُونَةِ بِالْعَدْلِ. يَدِينُ الشُّعُوبَ بِالاسْتِقَامَةِ" (مز ٩:٧ - ٨).

الابن هو مجد الآب

١١٨- "أَمَّا أَنَا فَبِالْبِرِّ أَنْظُرُ وَجْهَكَ. أَشْبَعُ إِذَا اسْتَيْقَظْتُ بِشَبَهِكَ" (مز ١٧:١٥).

١١٩- "أَخْبَرَتِ السَّمَاوَاتُ بِعَدْلِهِ، وَرَأَى جَمِيعُ الشُّعُوبِ مَجْدَهُ" (مز ٩٧: ٦).

١٢٠- "لِكَيْ أُبْصِرَ قُوَّتَكَ وَمَجْدَكَ. كَمَا قَدْ رَأَيْتُكَ فِي قُدْسِكَ. لأَنَّ رَحْمَتَكَ أَفْضَلُ مِنَ الْحَيَاةِ. شَفَتَايَ تُسَبِّحَانِكَ" (مز ٦٣: ٢ - ٣).

١٢١- "حَدِّثُوا بَيْنَ الأُمَمِ بِمَجْدِهِ، بَيْنَ جَمِيعِ الشُّعُوبِ بِعَجَائِبِهِ" (مز ٩٦: ٣).

١٢٢- "اَلْبَاقِي فِي الْمَدِينَةِ خَرَابٌ، وَضُرِبَ الْبَابُ رَدْماً. إِنَّهُ هكَذَا يَكُونُ فِي وَسَطِ الأَرْضِ بَيْنَ الشُّعُوبِ كَنُفَاضَةِ زَيْتُونَةٍ، كَالْخُصَاصَةِ إِذِ انْتَهَى الْقِطَافُ. هُمْ يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ وَيَتَرَنَّمُونَ. لأَجْلِ عَظَمَةِ الرَّبِّ يُصَوِّتُونَ مِنَ الْبَحْرِ لِذلِكَ فِي الْمَشَارِقِ مَجِّدُوا الرَّبَّ. فِي جَزَائِرِ الْبَحْرِ مَجِّدُوا اسْمَ الرَّبِّ إِلهِ إِسْرَائِيلَ" (أش ٢٤: ١٢ - ١٥).

١٢٣- "إِذَا بَنَى الرَّبُّ صِهْيَوْنَ يُرَى بِمَجْدِهِ" (مز ١٠٢: ١٦).

١٢٤- "ثُمَّ حَمَلَنِي رُوحٌ، فَسَمِعْتُ خَلْفِي صَوْتَ رَعْدٍ عَظِيمٍ: «مُبَارَكٌ مَجْدُ الرَّبِّ مِنْ مَكَانِهِ» (حز ٣: ١٢).

١٢٥- "بِنَفْسِي اشْتَهَيْتُكَ فِي اللَّيْلِ. أَيْضاً بِرُوحِي فِي دَاخِلِي إِلَيْكَ أَبْتَكِرُ. لأَنَّهُ حِينَمَا تَكُونُ أَحْكَامُكَ فِي الأَرْضِ يَتَعَلَّمُ سُكَّانُ الْمَسْكُونَةِ الْعَدْلَ يُرْحَمُ الْمُنَافِقُ وَلاَ يَتَعَلَّمُ الْعَدْلَ. فِي أَرْضِ الاسْتِقَامَةِ يَصْنَعُ شَرّاً وَلاَ يَرَى جَلاَلَ (مجد) الرَّبِّ " (أش ٢٦: ٩ - ١٠).

١٢٦- " فِي سَنَةِ وَفَاةِ عُزِّيَّا الْمَلِكِ، رَأَيْتُ السَّيِّدَ جَالِساً عَلَى كُرْسِيٍّ عَالٍ وَمُرْتَفِعٍ، وَأَذْيَالُهُ تَمْلأُ الْهَيْكَلَ. السَّرَافِيمُ وَاقِفُونَ فَوْقَهُ، لِكُلِّ وَاحِدٍ سِتَّةُ أَجْنِحَةٍ، بِاثْنَيْنِ يُغَطِّي وَجْهَهُ، وَبِاثْنَيْنِ يُغَطِّي رِجْلَيْهِ، وَبَاثْنَيْنِ يَطِيرُ. وَهذَا نَادَى ذَاكَ وَقَالَ: «قُدُّوسٌ، قُدُّوسٌ، قُدُّوسٌ رَبُّ الْجُنُودِ. مَجْدُهُ مِلْءُ كُلِّ الأَرْضِ» (أش ٦: ١ - ٣).

١٢٧- "تَفْرَحُ الْبَرِّيَّةُ وَالأَرْضُ الْيَابِسَةُ، وَيَبْتَهِجُ الْقَفْرُ وَيُزْهِرُ كَالنَّرْجِسِ. يُزْهِرُ إِزْهَاراً وَيَبْتَهِجُ ابْتِهَاجاً وَيُرَنِّمُ. يُدْفَعُ إِلَيْهِ مَجْدُ لُبْنَانَ. بَهَاءُ كَرْمَلَ وَشَارُونَ. هُمْ يَرَوْنَ مَجْدَ الرَّبِّ، بَهَاءَ إِلهِنَا" (أش ٣٥: ١ - ٢).

١٢٨- "وَالْكَرُوبِيمُ وَاقِفُونَ عَنْ يَمِينِ الْبَيْتِ حِينَ دَخَلَ الرَّجُلُ، وَالسَّحَابَةُ مَلأَتِ الدَّارَ الدَّاخِلِيَّةَ. فَارْتَفَعَ مَجْدُ الرَّبِّ عَنِ الْكَرُوبِ إِلَى عَتَبَةِ الْبَيْتِ. فَامْتَلأَ الْبَيْتُ مِنَ السَّحَابَةِ، وَامْتَلأَتِ الدَّارُ مِنْ لَمَعَانِ مَجْدِ الرَّبِّ" (حز ١٠:٣ - ٤).

١٢٩- " كَيْفَ تَقْدِرُونَ أَنْ تُؤْمِنُوا وَأَنْتُمْ تَقْبَلُونَ مَجْداً بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَالْمَجْدُ الَّذِي مِنَ الإِلهِ الْوَاحِدِ لَسْتُمْ تَطْلُبُونَهُ؟" (يو ٥:٤٤).

١٣٠- "أَطْلُبُ إِلَى الشُّيُوخِ الَّذِينَ بَيْنَكُمْ، أَنَا الشَّيْخَ رَفِيقَهُمْ، وَالشَّاهِدَ لآلاَمِ الْمَسِيحِ، وَشَرِيكَ الْمَجْدِ الْعَتِيدِ أَنْ يُعْلَنَ" (١ بط ٥:١).

١٣١- " يَا إِخْوَتِي، لاَ يَكُنْ لَكُمْ إِيمَانُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، رَبِّ الْمَجْدِ، فِي الْمُحَابَاةِ" (يع ٢:١).

١٣٢- "إِنْ عُيِّرْتُمْ بِاسْمِ الْمَسِيحِ، فَطُوبَى لَكُمْ، لأَنَّ رُوحَ الْمَجْدِ وَاللهِ يَحِلُّ عَلَيْكُمْ. أَمَّا مِنْ جِهَتِهِمْ فَيُجَدَّفُ عَلَيْهِ، وَأَمَّا مِنْ جِهَتِكُمْ فَيُمَجَّدُ" (١ بط ٤:١٤).

١٣٣- "كَمَا أَنَّ قُدْرَتَهُ الإِلهِيَّةَ قَدْ وَهَبَتْ لَنَا كُلَّ مَا هُوَ لِلْحَيَاةِ وَالتَّقْوَى، بِمَعْرِفَةِ الَّذِي دَعَانَا بِالْمَجْدِ وَالْفَضِيلَةِ" (٢ بط ١:٣).

١٣٤- "فَيَمْلأُ إِلهِي كُلَّ احْتِيَاجِكُمْ بِحَسَبِ غِنَاهُ فِي الْمَجْدِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ" (فيلبي ٤:١٩).

١٣٥- "كَيْ يُعْطِيَكُمْ إِلهُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، أَبُو الْمَجْدِ، رُوحَ الْحِكْمَةِ وَالإِعْلاَنِ فِي مَعْرِفَتِهِ" (أفسس ١:١٧).

١٣٦- "مُتَقَوِّينَ بِكُلِّ قُوَّةٍ بِحَسَبِ قُدْرَةِ مَجْدِهِ، لِكُلِّ صَبْرٍ وَطُولِ أَنَاةٍ بِفَرَحٍ" (كو ١:١١).

١٣٧- "حَسَبَ إِنْجِيلِ مَجْدِ اللهِ الْمُبَارَكِ الَّذِي اؤْتُمِنْتُ أَنَا عَلَيْهِ" (١ تيمو ١:١١).

الابن هو اليد اليمنى وقبضة الآب

١٣٨- "فَنظَرْتُ وَلَمْ يَكُنْ مُعِينٌ، وَتَحَيَّرْتُ إِذْ لَمْ يَكُنْ عَاضِدٌ، فَخَلَّصَتْ لِي ذِرَاعِي، وَغَيْظِي عَضَدَنِي. فَدُسْتُ شُعُوباً بِغَضَبِي وَأَسْكَرْتُهُمْ بِغَيْظِي، وَأَجْرَيْتُ عَلَى الأَرْضِ عَصِيرَهُمْ» (أش ٦٣:٥ - ٦).

١٣٩- "مَنْ صَدَّقَ خَبَرَنَا، وَلِمَنِ اسْتُعْلِنَتْ ذِرَاعُ الرَّبِّ؟" (أش ٥٣:١).

١٤٠- " أُنْصُتُوا إِلَيَّ يَا شَعْبِي، وَيَا أُمَّتِي اصْغِي إِلَيَّ: لأَنَّ شَرِيعَةً مِنْ عِنْدِي تَخْرُجُ، وَحَقِّي أُثَبِّتُهُ نُوراً لِلشُّعُوبِ. قَرِيبٌ بِرِّي. قَدْ بَرَزَ خَلاَصِي، وَذِرَاعَايَ يَقْضِيَانِ لِلشُّعُوبِ. إِيَّايَ تَرْجُو الْجَزَائِرُ وَتَنْتَظِرُ ذِرَاعِي" (أش ٥١:٤ - ٥).

١٤١- "حِينَئِذٍ يَنْدَهِشُ أُمَرَاءُ أَدُومَ. أَقْوِيَاءُ مُوآبَ تَأْخُذُهُمُ الرَّجْفَةُ. يَذُوبُ جَمِيعُ سُكَّانِ كَنْعَانَ. تَقَعُ عَلَيْهِمِ الْهَيْبَةُ وَالرُّعْبُ. بِعَظَمَةِ ذِرَاعِكَ يَصْمُتُونَ كَالْحَجَرِ حَتَّى يَعْبُرَ شَعْبُكَ يَا رَبُّ. حَتَّى يَعْبُرَ الشَّعْبُ الَّذِي اقْتَنَيْتَهُ" (خر ١٥:١٥ - ١٦).

١٤٢- "لِكَيْ يَنْظُرُوا وَيَعْرِفُوا وَيَتَنَبَّهُوا وَيَتَأَمَّلُوا مَعاً أَنَّ يَدَ الرَّبِّ فَعَلَتْ هذَا وَقُدُّوسَ إِسْرَائِيلَ أَبْدَعَهُ" (أش ٤١:٢٠).

١٤٣- " كَانَتْ عَلَيَّ يَدُ الرَّبِّ، فَأَخْرَجَنِي بِرُوحِ الرَّبِّ وَأَنْزَلَنِي فِي وَسْطِ الْبُقْعَةِ وَهِيَ مَلآنَةٌ عِظَاماً" (حز ٣٧:١).

١٤٤- "فَخَلَّصَ الرَّبُّ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ إِسْرَائِيلَ مِنْ يَدِ الْمِصْرِيِّينَ. وَنَظَرَ إِسْرَائِيلُ الْمِصْرِيِّينَ أَمْوَاتاً عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ. وَرَأَى إِسْرَائِيلُ الْفِعْلَ الْعَظِيمَ الَّذِي صَنَعَهُ الرَّبُّ بِالْمِصْرِيِّينَ، فَخَافَ الشَّعْبُ الرَّبَّ وَآمَنُوا بِالرَّبِّ وَبِعَبْدِهِ مُوسَى" (خر ١٤:٣٠ - ٣١).

١٤٥- "وَتَجْعَلُ لِي تُرْسَ خَلاَصِكَ وَيَمِينُكَ تَعْضُدُنِي، وَلُطْفُكَ يُعَظِّمُنِي. تُوَسِّعُ خُطُوَاتِي تَحْتِي، فَلَمْ تَتَقَلْقَلْ عَقِبَايَ" (مز ١٨:٣٥ - ٣٦).

١٤٦- " يَمِينُكَ يَا رَبُّ مُعْتَزَّةٌ بِالْقُدْرَةِ. يَمِينُكَ يَا رَبُّ تُحَطِّمُ الْعَدُوَّ" (خر ١٥:٦).

١٤٧- "تُصِيبُ يَدُكَ جَمِيعَ أَعْدَائِكَ. يَمِينُكَ تُصِيبُ كُلَّ مُبْغِضِيكَ" (مز ٢١:٨).

١٤٨- "فَقُلْتُ: «هذَا مَا يُعِلُّنِي: تَغَيُّرُ يَمِينِ الْعَلِيِّ»" (مز ٧٧:١٠).

١٤٩- "لأَنَّهُ لَيْسَ بِسَيْفِهِمْ امْتَلَكُوا الأَرْضَ، وَلاَ ذِرَاعُهُمْ خَلَّصَتْهُمْ، لكِنْ يَمِينُكَ وَذِرَاعُكَ وَنُورُ وَجْهِكَ، لأَنَّكَ رَضِيتَ عَنْهُمْ" (مز ٤٤:٣).

١٥٠- "وَالْغَرْسَ الَّذِي غَرَسَتْهُ يَمِينُكَ، وَالابْنَ الَّذِي اخْتَرْتَهُ لِنَفْسِكَ. هِيَ مَحْرُوقَةٌ بِنَارٍ، مَقْطُوعَةٌ. مِنِ انْتِهَارِ وَجْهِكَ يَبِيدُونَ" (مز ٨٠:١٥ - ١٦).

١٥١- "ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «ادْخُلْ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقُلْ لَهُ: هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ إِلهُ الْعِبْرَانِيِّينَ: أَطْلِقْ شَعْبِي لِيَعْبُدُونِي. فَإِنَّهُ إِنْ كُنْتَ تَأْبَى أَنْ تُطْلِقَهُمْ وَكُنْتَ تُمْسِكُهُمْ بَعْدُ، فَهَا يَدُ الرَّبِّ تَكُونُ عَلَى مَوَاشِيكَ الَّتِي فِي الْحَقْلِ، عَلَى الْخَيْلِ وَالْحَمِيرِ وَالْجِمَالِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ، وَبَأً ثَقِيلاً جِدًّا" (خر ٩:١ - ٣).

١٥٢- "رَنِّمُوا لِلرَّبِّ تَرْنِيمَةً جَدِيدَةً، لأَنَّهُ صَنَعَ عَجَائِبَ. خَلَّصَتْهُ يَمِينُهُ وَذِرَاعُ قُدْسِهِ" (مز ٩٨:١).

١٥٣- "يَمِينُ الرَّبِّ مُرْتَفِعَةٌ. يَمِينُ الرَّبِّ صَانِعَةٌ بِبَأْسٍ» (مز ١١٨:١٦).

١٥٤- "هَلُمَّ نَسْجُدُ وَنَرْكَعُ وَنَجْثُو أَمَامَ الرَّبِّ خَالِقِنَا، لأَنَّهُ هُوَ إِلهُنَا، وَنَحْنُ شَعْبُ مَرْعَاهُ وَغَنَمُ يَدِهِ. الْيَوْمَ إِنْ سَمِعْتُمْ صَوْتَهُ" (مز ٩٥:٦ - ٧).

١٥٥- "فَقَالَ مُوسَى: «سِتُّ مِئَةِ أَلْفِ مَاشٍ هُوَ الشَّعْبُ الَّذِي أَنَا فِي وَسَطِهِ، وَأَنْتَ قَدْ قُلْتَ: أُعْطِيهِمْ لَحْماً لِيَأْكُلُوا شَهْراً مِنَ الزَّمَانِ. أَيُذْبَحُ لَهُمْ غَنَمٌ وَبَقَرٌ لِيَكْفِيَهُمْ؟ أَمْ يُجْمَعُ لَهُمْ كُلُّ سَمَكِ الْبَحْرِ لِيَكْفِيَهُمْ؟» فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «هَلْ تَقْصُرُ يَدُ الرَّبِّ؟ الآنَ تَرَى أَيُوافِيكَ كَلاَمِي أَمْ لاَ» (عدد ١١:٢١ - ٢٣).

الابن هو قوة الله الآب

١٥٦- "وَمَا هِيَ عَظَمَةُ قُدْرَتِهِ الْفَائِقَةُ نَحْوَنَا نَحْنُ الْمُؤْمِنِينَ، حَسَبَ عَمَلِ شِدَّةِ قُوَّتِهِ" (أفسس ١:١٩).

١٥٧- "وَكَلاَمِي وَكِرَازَتِي لَمْ يَكُونَا بِكَلاَمِ الْحِكْمَةِ الإِنْسَانِيَّةِ الْمُقْنِعِ، بَلْ بِبُرْهَانِ الرُّوحِ وَالْقُوَّةِ" (١ كو ٢:٤).

١٥٨- "وَأَمَّا لِلْمَدْعُوِّينَ: يَهُوداً وَيُونَانِيِّينَ، فَبِالْمَسِيحِ قُوَّةِ اللهِ وَحِكْمَةِ اللهِ" (١كو ١:٢٤).

١٥٩- "وَفِي أَحَدِ الأَيَّامِ كَانَ يُعَلِّمُ، وَكَانَ فَرِّيسِيُّونَ وَمُعَلِّمُونَ لِلنَّامُوسِ جَالِسِينَ وَهُمْ قَدْ أَتَوْا مِنْ كُلِّ قَرْيَةٍ مِنَ الْجَلِيلِ وَالْيَهُودِيَّةِ وَأُورُشَلِيمَ. وَكَانَتْ قُوَّةُ الرَّبِّ لِشِفَائِهِمْ" (لو ١٧:٥).

١٦٠- "يَذْهَبُونَ مِنْ قُوَّةٍ إِلَى قُوَّةٍ. يُرَوْنَ قُدَّامَ اللهِ فِي صِهْيَوْنَ. يَا رَبُّ إِلهَ الْجُنُودِ، اسْمَعْ صَلاَتِي، وَاصْغَ يَا إِلهَ يَعْقُوبَ. سِلاَهْ " (مز ٧:٨٤ - ٨).

١٦١- "وَهَا أَنَا أُرْسِلُ إِلَيْكُمْ مَوْعِدَ أَبِي. فَأَقِيمُوا فِي مَدِينَةِ أُورُشَلِيمَ إِلَى أَنْ تُلْبَسُوا قُوَّةً مِنَ الأَعَالِي» (لو ٤٩:٢٤).

١٦٢- " فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ:«تَضِلُّونَ إِذْ لاَ تَعْرِفُونَ الْكُتُبَ وَلاَ قُوَّةَ اللهِ" (مت ٢٩:٢٢).

١٦٣- "أَعْطُوا عِزّاً للهِ. عَلَى إِسْرَائِيلَ جَلاَلُهُ، وَقُوَّتُهُ فِي الْغَمَامِ" (مز ٣٤:٦٨).

١٦٤- "اَللّهُمَّ، بِاسْمِكَ خَلِّصْنِي، وَبِقُوَّتِكَ احْكُمْ لِي" (مز ١:٥٤).

١٦٥- "اَللّهُمَّ، فِي الْقُدْسِ طَرِيقُكَ. أَيُّ إِلهٍ عَظِيمٌ مِثْلُ اللهِ؟ أَنْتَ الإِلهُ الصَّانِعُ الْعَجَائِبَ. عَرَّفْتَ بَيْنَ الشُّعُوبِ قُوَّتَكَ" (مز ١٣:٧٧ - ١٤).

١٦٦- "لِكَيْ أُبْصِرَ قُوَّتَكَ وَمَجْدَكَ. كَمَا قَدْ رَأَيْتُكَ فِي قُدْسِكَ. لأَنَّ رَحْمَتَكَ أَفْضَلُ مِنَ الْحَيَاةِ. شَفَتَايَ تُسَبِّحَانِكَ" (مز ٢:٦٣ - ٣).

١٦٧- "يَا رَبُّ، بِقُوَّتِكَ يَفْرَحُ الْمَلِكُ، وَبِخَلاَصِكَ كَيْفَ لاَ يَبْتَهِجُ جِدًّا!" (مز ١:٢١).

١٦٨- "ارْتَفِعْ يَا رَبُّ بِقُوَّتِكَ. نُرَنِّمْ وَنُنَغِّمْ بِجَبَرُوتِكَ" (مز ١٣:٢١).

١٦٩- "صَانِعُ الأَرْضِ بِقُوَّتِهِ، مُؤَسِّسُ الْمَسْكُونَةِ بِحِكْمَتِهِ، وَبِفَهْمِهِ بَسَطَ السَّمَاوَاتِ" (أر ١٢:١٠).

١٧٠- "لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي. لاَ تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالاً مَنْحُوتاً صُورَةً مَّا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ أَسْفَلُ وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ. لاَ تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ، لأَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلهُكَ إِلهٌ غَيُورٌ، أَفْتَقِدُ ذُنُوبَ الآبَاءِ فِي الأَبْنَاءِ وَفِي الْجِيلِ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ مِنَ الَّذِينَ يُبْغِضُونَنِي، وَأَصْنَعُ إِحْسَاناً إِلَى أُلُوفٍ مِنْ مُحِبِّيَّ وَحَافِظِي وَصَايَايَ. لاَ

تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلهِكَ بَاطِلاً، لأَنَّ الرَّبَّ لاَ يُبْرِئُ مَنْ نَطَقَ بِاسْمِهِ بَاطِلاً. اِحْفَظْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ كَمَا أَوْصَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ. سِتَّةَ أَيَّامٍ تَشْتَغِلُ وَتَعْمَلُ جَمِيعَ أَعْمَالِكَ، وَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابعُ فَسَبْتٌ لِلرَّبِّ إِلهِكَ، لاَ تَعْمَلْ فِيهِ عَمَلاً مَّا أَنْتَ وَابْنُكَ وَابْنَتُكَ وَعَبْدُكَ وَأَمَتُكَ وَثَوْرُكَ وَحِمَارُكَ وَكُلُّ بَهَائِمِكَ، وَنَزِيلُكَ الَّذِي فِي أَبْوَابِكَ لِكَيْ يَسْتَرِيحَ، عَبْدُكَ وَأَمَتُكَ مِثْلَكَ. وَاذْكُرْ أَنَّكَ كُنْتَ عَبْداً فِي أَرْضِ مِصْرَ، فَأَخْرَجَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ مِنْ هُنَاكَ بِيَدٍ شَدِيدَةٍ وَذِرَاعٍ مَمْدُودَةٍ. لأَجْلِ ذلِكَ أَوْصَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ أَنْ تَحْفَظَ يَوْمَ السَّبْتِ" (تث ٥:٧ - ١٥).

الابن يُدعى الله وهو الله

١٧١- "فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ. ذَكَراً وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ" (تك ١:٢٧).

١٧٢- "لأَنَّ هذَا حَسَنٌ وَمَقْبُولٌ لَدَى مُخَلِّصِنَا اللهِ، الَّذِي يُرِيدُ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ يَخْلُصُونَ، وَإِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ يُقْبِلُونَ" (١ تيمو ٢:٣ - ٤).

١٧٣- "وَأَمَّا عَنْ الابْنِ:«كُرْسِيُّكَ يَا أَللهُ إِلَى دَهْرِ الدُّهُورِ. قَضِيبُ اسْتِقَامَةٍ قَضِيبُ مُلْكِكَ. أَحْبَبْتَ الْبِرَّ وَأَبْغَضْتَ الإِثْمَ. مِنْ أَجْلِ ذلِكَ مَسَحَكَ اللهُ إِلهُكَ بِزَيْتِ الابْتِهَاجِ أَكْثَرَ مِنْ شُرَكَائِكَ» (عب ١:٨ - ٩).

١٧٤- "وَأَيْضاً مَتَى أَدْخَلَ الْبِكْرَ إِلَى الْعَالَمِ يَقُولُ: «وَلْتَسْجُدْ لَهُ كُلُّ مَلاَئِكَةِ اللهِ" (عب ١:٦).

١٧٥- "ثُمَّ قَالَ لِتُومَا:«هَاتِ إِصْبِعَكَ إِلَى هُنَا وَأَبْصِرْ يَدَيَّ، وَهَاتِ يَدَكَ وَضَعْهَا فِي جَنْبِي، وَلاَ تَكُنْ غَيْرَ مُؤْمِنٍ بَلْ مُؤْمِناً». أَجَابَ تُومَا وَقَالَ لَهُ: «رَبِّي وَإِلهِي!» (يو ٢٠:٢٧ - ٢٨).

١٧٦- "فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ. هذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللهِ" (يو ١:١ - ٢).

١٧٧- "هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: «تَعَبُ مِصْرَ وَتِجَارَةُ كُوشٍ وَالسَّبَئِيُّونَ ذَوُو الْقَامَةِ إِلَيْكِ يَعْبُرُونَ وَلَكِ يَكُونُونَ. خَلْفَكِ يَمْشُونَ. بِالْقُيُودِ يَمُرُّونَ وَلَكِ يَسْجُدُونَ. إِلَيْكِ يَتَضَرَّعُونَ قَائِلِينَ:

فِيكِ وَحْدَكِ اللهُ وَلَيْسَ آخرُ. لَيْسَ إِلهٌ». حَقّاً أَنْتَ إِلهٌ مُحْتَجِبٌ يَا إِلهَ إِسْرَائِيلَ الْمُخَلِّصَ" (أش ٤٥ : ١٤ - ١٥).

١٧٨- "عَلَى جَبَلٍ عَالٍ اصْعَدِي، يَا مُبَشِّرَةَ صِهْيَوْنَ. ارْفَعِي صَوْتَكِ بِقُوَّةٍ، يَا مُبَشِّرَةَ أُورُشَلِيمَ. ارْفَعِي لاَ تَخَافِي. قُولِي لِمُدُنِ يَهُوذَا: «هُوَذَا إِلهُكِ. هُوَذَا السَّيِّدُ الرَّبُّ بِقُوَّةٍ يَأْتِي وَذِرَاعُهُ تَحْكُمُ لَهُ. هُوَذَا أُجْرَتُهُ مَعَهُ وَعُمْلَتُهُ قُدَّامَهُ. كَرَاعٍ يَرْعَى قَطِيعَهُ. بِذِرَاعِهِ يَجْمَعُ الْحُمْلاَنَ، وَفِي حِضْنِهِ يَحْمِلُهَا، وَيَقُودُ الْمُرْضِعَاتِ» (أش ٤٠ : ٩ - ١١).

١٧٩- "شَدِّدُوا الأَيَادِيَ الْمُسْتَرْخِيَةَ، وَالرُّكَبَ الْمُرْتَعِشَةَ ثَبِّتُوهَا. قُولُوا لِخَائِفِي الْقُلُوبِ: «تَشَدَّدُوا لاَ تَخَافُوا. هُوَذَا إِلهُكُمْ. الانْتِقَامُ يَأْتِي. جِزَاءُ اللهِ. هُوَ يَأْتِي وَيُخَلِّصُكُمْ» (أش ٣٥ : ٣ - ٤).

١٨٠- "وَيُقَالُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ: «هُوَذَا هذَا إِلهُنَا. انْتَظَرْنَاهُ فَخَلَّصَنَا. هذَا هُوَ الرَّبُّ انْتَظَرْنَاهُ. نَبْتَهِجُ وَنَفْرَحُ بِخَلاَصِهِ». لأَنَّ يَدَ الرَّبِّ تَسْتَقِرُّ عَلَى هذَا الْجَبَلِ، وَيُدَاسُ مُوآبُ فِي مَكَانِهِ كَمَا يُدَاسُ التِّبْنُ فِي مَاءِ الْمَزْبَلَةِ" (أش ٢٥ : ٩ - ١٠).

١٨١- "وَلكِنْ يُعْطِيكُمُ السَّيِّدُ نَفْسُهُ آيَةً: هَا الْعَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ابْناً وَتَدْعُو اسْمَهُ «عِمَّانُوئِيلَ». زُبْداً وَعَسَلاً يَأْكُلُ مَتَى عَرَفَ أَنْ يَرْفُضَ الشَّرَّ وَيَخْتَارَ الْخَيْرَ" (أش ٧ : ١٤ - ١٥).

١٨٢- " يَا إِلهَ النَّقَمَاتِ يَا رَبُّ، يَا إِلهَ النَّقَمَاتِ، أَشْرِقِ. ارْتَفِعْ يَا دَيَّانَ الأَرْضِ. جَازِ صَنِيعَ الْمُسْتَكْبِرِينَ" (مز ٩٤ : ١ - ٢).

١٨٣- "يَا رَبُّ إِلهَ الْجُنُودِ، اسْمَعْ صَلاَتِي، وَاصْغَ يَا إِلهَ يَعْقُوبَ. سِلاَهْ. يَا مِجَنَّنَا انْظُرْ يَا اَللهُ، وَالْتَفِتْ إِلَى وَجْهِ مَسِيحِكَ" (مز ٨٤ : ٨ - ٩).

١٨٤- "رَنِّمُوا للهِ، رَنِّمُوا. رَنِّمُوا لِمَلِكِنَا، رَنِّمُوا" (مز ٤٧ : ٦).

١٨٥- "أَحْبَبْتَ الْبِرَّ وَأَبْغَضْتَ الإِثْمَ، مِنْ أَجْلِ ذلِكَ مَسَحَكَ اللهُ إِلهُكَ بِدُهْنِ الابْتِهَاجِ أَكْثَرَ مِنْ رُفَقَائِكَ" (مز ٤٥ : ٧).

١٨٦- "وَسَأَلَ يَعْقُوبُ وَقَالَ: «أَخْبِرْنِي بِاسْمِكَ». فَقَالَ: «لِمَاذَا تَسْأَلُ عَنِ اسْمِي؟» وَبَارَكَهُ هُنَاكَ. فَدَعَا يَعْقُوبُ اسْمَ الْمَكَانِ «فَنِيئِيلَ» قَائِلاً: «لأَنِّي نَظَرْتُ اللهَ وَجْهاً لِوَجْهٍ، وَنُجِّيَتْ نَفْسِي». وَأَشْرَقَتْ لَهُ الشَّمْسُ إِذْ عَبَرَ فَنُوئِيلَ وَهُوَ يَخْمَعُ عَلَى فَخْذِهِ" (تك ٣٢:٢٩ - ٣١).

١٨٧- "سَافِكُ دَمِ الإِنْسَانِ بِالإِنْسَانِ يُسْفَكُ دَمُهُ. لأَنَّ اللهَ عَلَى صُورَتِهِ عَمِلَ الإِنْسَانَ" (تك ٩:٦).

الابن هو الرب

١٨٨- "وَتَدُوسُونَ الأَشْرَارَ لأَنَّهُمْ يَكُونُونَ رَمَاداً تَحْتَ بُطُونِ أَقْدَامِكُمْ يَوْمَ أَفْعَلُ هذَا، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ. «اُذْكُرُوا شَرِيعَةَ مُوسَى عَبْدِي الَّتِي أَمَرْتُهُ بِهَا فِي حُورِيبَ عَلَى كُلِّ إِسْرَائِيلَ. الْفَرَائِضَ وَالأَحْكَامَ. «هأَنَذَا أُرْسِلُ إِلَيْكُمْ إِيلِيَّا النَّبِيَّ قَبْلَ مَجِيءِ يَوْمِ الرَّبِّ، الْيَوْمِ الْعَظِيمِ وَالْمَخُوفِ، فَيَرُدُّ قَلْبَ الآبَاءِ عَلَى الأَبْنَاءِ، وَقَلْبَ الأَبْنَاءِ عَلَى آبَائِهِمْ. لِئَلاَّ آتِيَ وَأَضْرِبَ الأَرْضَ بِلَعْنٍ» (ملا ٤:٣ - ٦).

١٨٩- "«تَرَنَّمِي وَافْرَحِي يَا بِنْتَ صِهْيَوْنَ، لأَنِّي هأَنَذَا آتِي وَأَسْكُنُ فِي وَسَطِكِ، يَقُولُ الرَّبُّ. فَيَتَّصِلُ أُمَمٌ كَثِيرَةٌ بِالرَّبِّ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ، وَيَكُونُونَ لِي شَعْباً فَأَسْكُنُ فِي وَسَطِكِ، فَتَعْلَمِينَ أَنَّ رَبَّ الْجُنُودِ قَدْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكِ" (زكر ٢:١٠ - ١١).

١٩٠- "إِسْمَعُوا أَيُّهَا الشُّعُوبُ جَمِيعُكُمْ. أَصْغِي أَيَّتُهَا الأَرْضُ وَمِلْؤُهَا. وَلْيَكُنِ السَّيِّدُ الرَّبُّ شَاهِداً عَلَيْكُمُ، السَّيِّدُ مِنْ هَيْكَلِ قُدْسِهِ. فَإِنَّهُ هُوَذَا الرَّبُّ يَخْرُجُ مِنْ مَكَانِهِ وَيَنْزِلُ وَيَمْشِي عَلَى شَوَامِخِ الأَرْضِ" (ميخا ١:٢ - ٣).

١٩١- "اَلصَّغِيرُ يَصِيرُ أَلْفاً وَالْحَقِيرُ أُمَّةً قَوِيَّةً. أَنَا الرَّبُّ فِي وَقْتِهِ أُسْرِعُ بِهِ» (أش ٦٠:٢٢).

١٩٢- "رُوحُ السَّيِّدِ الرَّبِّ عَلَيَّ، لأَنَّ الرَّبَّ مَسَحَنِي لأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ، أَرْسَلَنِي لأَعْصِبَ مُنْكَسِرِي الْقَلْبِ، لأُنَادِيَ لِلْمَسْبِيِّينَ بِالْعِتْقِ، وَلِلْمَأْسُورِينَ بِالإِطْلاَقِ. لأُنَادِيَ بِسَنَةٍ مَقْبُولَةٍ لِلرَّبِّ، وَبِيَوْمِ انْتِقَامٍ لإِلهِنَا. لأُعَزِّيَ كُلَّ النَّائِحِينَ" (أش ٦١:١ – ٢).

١٩٣- "قُومِي اسْتَنِيرِي لأَنَّهُ قَدْ جَاءَ نُورُكِ، وَمَجْدُ الرَّبِّ أَشْرَقَ عَلَيْكِ. لأَنَّهُ هَا هِيَ الظُّلْمَةُ تُغَطِّي الأَرْضَ وَالظَّلاَمُ الدَّامِسُ الأُمَمَ. أَمَّا عَلَيْكِ فَيُشْرِقُ الرَّبُّ، وَمَجْدُهُ عَلَيْكِ يُــرَى" (أش ١:٦٠ - ٢).

١٩٤- "صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: «أَعِدُّوا طَرِيقَ الرَّبِّ. قَوِّمُوا فِي الْقَفْرِ سَبِيلاً لإِلَهِنَا. كُلُّ وَطَاءٍ يَرْتَفِعُ، وَكُلُّ جَبَلٍ وَأَكَمَةٍ يَنْخَفِضُ، وَيَصِيرُ الْمُعْوَجُّ مُسْتَقِيماً، وَالْعَرَاقِيبُ سَهْلاً. فَيُعْلَنُ مَجْدُ الرَّبِّ وَيَرَاهُ كُلُّ بَشَرٍ جَمِيعاً، لأَنَّ فَمَ الرَّبِّ تَكَلَّمَ" (أش ٣:٤٠ - ٥).

١٩٥- "تَفْرَحُ الْبَرِّيَّةُ وَالأَرْضُ الْيَابِسَةُ، وَيَبْتَهِجُ الْقَفْرُ وَيُزْهِرُ كَالنَّرْجِسِ. يُزْهِــرُ إِزْهَــاراً وَيَبْتَهِجُ ابْتِهَاجاً وَيُرَنِّمُ. يُدْفَعُ إِلَيْهِ مَجْدُ لُبْنَانَ. بَهَاءُ كَرْمَلَ وَشَارُونَ. هُمْ يَرَوْنَ مَجْدَ الرَّبِّ، بَهَاءَ إِلَهِنَا" (أش ١:٣٥ - ٢).

١٩٦- "آهِ يَا رَبُّ خَلِّصْ! آهِ يَا رَبُّ أَنْقِذْ! مُبَارَكٌ الآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ. بَارَكْنَاكُمْ مِنْ بَيْتِ الرَّبِّ" (مز ٢٥:١١٨ - ٢٦).

١٩٧- "لأَنَّ الرَّبَّ عَظِيمٌ وَحَمِيدٌ جِدّاً، مَهُوبٌ هُوَ عَلَى كُلِّ الآلِهَةِ" (مز ٤:٩٦).

١٩٨- "قُولُوا بَيْنَ الأُمَمِ: «الرَّبُّ قَدْ مَلَكَ. أَيْضاً تَثَبَّتَتِ الْمَسْكُونَةُ فَلاَ تَتَزَعْــزَعُ. يَــدِينُ الشُّعُوبَ بِالاسْتِقَامَةِ» (مز ١٠:٩٦).

١٩٩- "أَبُو الْيَتَامَى وَقَاضِي الأَرَامِلِ، اَللهُ فِي مَسْكِنِ قُدْسِهِ" (مز ٥:٦٨).

٢٠٠- "أَذْبَحُ لَكَ مُنْتَدِباً. أَحْمَدُ اسْمَكَ يَا رَبُّ لأَنَّهُ صَالِحٌ " (مز ٦:٥٤).

٢٠١- "مَنْ هُوَ هذَا مَلِكُ الْمَجْدِ؟ الرَّبُّ الْقَدِيرُ الْجَبَّارُ، الرَّبُّ الْجَبَّارُ فِي الْقِتَــالِ" (مــز ٨:٢٤).

٢٠٢- "يَحْمِلُ بَرَكَةً مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ، وَبِرّاً مِنْ إِلهِ خَلاَصِهِ" (مز ٥:٢٤).

٢٠٣- "وَإِذْ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ عَلَى الأَرْضِ دَخَلَ لُوطٌ إِلَى صُوغَرَ، فَأَمْطَرَ الرَّبُّ عَلَى سَدُومَ وَعَمُورَةَ كِبْرِيتاً وَنَاراً مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ. وَقَلَبَ تِلْكَ الْمُدُنَ، وَكُلَّ الدَّائِرَةِ، وَجَمِيعَ سُكَّانِ الْمُدُنِ، وَنَبَاتَ الأَرْضِ" (تك ٢٣:١٩ - ٢٥).

ابن الله هو ملك

٢٠٤- "أَنَا أُنَاشِدُكَ إِذاً أَمَامَ اللهِ وَالرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الْعَتِيدِ أَنْ يَدِينَ الأَحْيَاءَ وَالأَمْوَاتَ، عِنْدَ ظُهُورِهِ وَمَلَكُوتِهِ" (٢ تيمو ٤:١).

٢٠٥- "صَادِقَةٌ هِيَ الْكَلِمَةُ: أَنَّهُ إِنْ كُنَّا قَدْ مُتْنَا مَعَهُ فَسَنَحْيَا أَيْضاً مَعَهُ. إِنْ كُنَّا نَصْبِرُ فَسَنَمْلِكُ أَيْضاً مَعَهُ. إِنْ كُنَّا نُنْكِرُهُ فَهُوَ أَيْضاً سَيُنْكِرُنَا" (٢ تيمو ٢:١١ - ١٢).

٢٠٦- "وَأَمَّا عَنْ الابْنِ:«كُرْسِيُّكَ يَا أَللهُ إِلَى دَهْرِ الدُّهُورِ. قَضِيبُ اسْتِقَامَةٍ قَضِيبُ مُلْكِكَ" (عب ١:٨).

٢٠٧- "الَّذِي أَنْقَذَنَا مِنْ سُلْطَانِ الظُّلْمَةِ، وَنَقَلَنَا إِلَى مَلَكُوتِ ابْنِ مَحَبَّتِهِ، الَّذِي لَنَا فِيهِ الْفِدَاءُ، بِدَمِهِ غُفْرَانُ الْخَطَايَا. الَّذِي هُوَ صُورَةُ اللهِ غَيْرِ الْمَنْظُورِ، بِكْرُ كُلِّ خَلِيقَةٍ" (كو ١:١٣ - ١٥).

٢٠٨- "فَإِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ هذَا أَنَّ كُلَّ زَانٍ أَوْ نَجِسٍ أَوْ طَمَّاعٍ– الَّذِي هُوَ عَابِدٌ لِلأَوْثَانِ– لَيْسَ لَهُ مِيرَاثٌ فِي مَلَكُوتِ الْمَسِيحِ وَاللهِ" (أفسس ٥:٥).

٢٠٩- "أَجَابَ يَسُوعُ: «مَمْلَكَتِي لَيْسَتْ مِنْ هذَا الْعَالَمِ. لَوْ كَانَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هذَا الْعَالَمِ، لَكَانَ خُدَّامِي يُجَاهِدُونَ لِكَيْ لاَ أُسَلَّمَ إِلَى الْيَهُودِ. وَلكِنِ الآنَ لَيْسَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هُنَا» (يو ١٨:٣٦).

٢١٠- "وَوَجَدَ يَسُوعُ جَحْشاً فَجَلَسَ عَلَيْهِ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «لاَ تَخَافِي يَا ابْنَةَ صِهْيَوْنَ. هُوَذَا مَلِكُكِ يَأْتِي جَالِساً عَلَى جَحْشِ أَتَانٍ» (يو ١٢:١٤ - ١٥).

٢١١- "أَجَابَ نَثَنَائِيلُ وَقَالَ لَهُ:«يَا مُعَلِّمُ، أَنْتَ ابْنُ اللهِ! أَنْتَ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ!» (يو ١:٤٩).

٢١٢- "ثُمَّ قَالَ لِيَسُوعَ:«اذْكُرْنِي يَا رَبُّ مَتَى جِئْتَ فِي مَلَكُوتِكَ» (لو ٢٣:٤٢).

٢١٣- "فَقَالَ لَهَا الْمَلاَكُ:«لاَ تَخَافِي يَا مَرْيَمُ، لأَنَّكِ قَدْ وَجَدْتِ نِعْمَةً عِنْدَ اللهِ. وَهَا أَنْتِ سَتَحْبَلِينَ وَتَلِدِينَ ابْناً وَتُسَمِّينَهُ يَسُوعَ. هذَا يَكُونُ عَظِيماً، وَابْنَ الْعَلِيِّ يُدْعَى، وَيُعْطِيهِ الرَّبُّ

الإلهُ كُرْسِيَّ دَاوُدَ أَبِيهِ، وَيَمْلِكُ عَلَى بَيْتِ يَعْقُوبَ إِلَى الأَبَدِ، وَلاَ يَكُونُ لِمُلْكِهِ نِهَايَةٌ» (لـو ١: ٣٠ - ٣٣).

٢١٤- "«وَمَتَى جَاءَ ابْنُ الإِنْسَانِ فِي مَجْدِهِ وَجَمِيعُ الْمَلاَئِكَةِ الْقِدِّيسِينَ مَعَــهُ، فَحِينَئِـذٍ يَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيِّ مَجْدِهِ. وَيَجْتَمِعُ أَمَامَهُ جَمِيعُ الشُّعُوبِ، فَيُمَيِّزُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ كَمَـا يُمَيِّزُ الرَّاعِي الْخِرَافَ مِنَ الْجِدَاءِ، فَيُقِيمُ الْخِرَافَ عَنْ يَمِينِهِ وَالْجِدَاءَ عَنِ الْيَسَارِ. ثُمَّ يَقُـولُ الْمَلِكُ لِلَّذِينَ عَنْ يَمِينِهِ: تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي، رِثُوا الْمَلَكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مُنْـذُ تَأْسِـيسِ الْعَالَمِ" (مت ٢٥: ٣١ - ٣٤).

٢١٥- "حِينَئِذٍ تَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ أُمُّ ابْنَيْ زَبْدِي مَعَ ابْنَيْهَا، وَسَجَدَتْ وَطَلَبَتْ مِنْهُ شَيْئاً. فَقَـالَ لَهَا:«مَاذَا تُرِيدِينَ؟» قَالَتْ لَهُ:«قُلْ أَنْ يَجْلِسَ ابْنَايَ هذَانِ وَاحِدٌ عَنْ يَمِينِكَ وَالآخَـرُ عَـنِ الْيَسَارِ فِي مَلَكُوتِكَ» (مت ٢٠: ٢٠ - ٢١).

٢١٦- "الحق شديد القوة وأُعطي له الْمُلك والسلطان والعظمة إلى أبد الآبدين. وإله الحق مبارك" (عزر ٤: ٤٠).

٢١٧- "«كُنْتُ أَرَى فِي رُؤَى اللَّيْلِ وَإِذَا مَعَ سُحُبِ السَّمَاءِ مِثْلُ ابْنِ إِنْسَانٍ أَتَى وَجَاءَ إِلَى الْقَدِيمِ الأَيَّامِ، فَقَرَّبُوهُ قُدَّامَهُ. فَأُعْطِيَ سُلْطَاناً وَمَجْداً وَمَلَكُوتاً لِتَتَعَبَّدَ لَهُ كُلُّ الشُّعُوبِ وَالأُمَمِ وَالأَلْسِنَةِ. سُلْطَانُهُ سُلْطَانٌ أَبَدِيٌّ مَا لَنْ يَزُولَ، وَمَلَكُوتُهُ مَا لاَ يَنْقَرِضُ" (دا ٧: ١٣ - ١٤).

٢١٨- "«هَا أَيَّامٌ تَأْتِي، يَقُولُ الرَّبُّ، وَأُقِيمُ لِدَاوُدَ غُصْنَ بِرّ، فَيَمْلِكُ مَلِكٌ وَيَنْجَحُ، وَيُجْرِي حَقّاً وَعَدْلاً فِي الأَرْضِ" (أر ٢٣: ٥).

٢١٩- "فَإِنَّ الرَّبَّ قَاضِينَا. الرَّبُّ شَارِعُنَا. الرَّبُّ مَلِكُنَا هُوَ يُخَلِّصُنَا" (أش ٣٣: ٢٢).

٢٢٠- "اَلْمَلِكَ بِبَهَائِهِ تَنْظُرُ عَيْنَاكَ. تَرَيَانِ أَرْضاً بَعِيدَةً. قَلْبُكَ يَتَـذَكَّرُ الرُّعْـبَ: « أَيْـنَ الْكَاتِبُ؟ أَيْنَ الْجَابِي؟ أَيْنَ الَّذِي عَدَّ الأَبْرَاجَ؟» (أش ٣٣: ١٧ - ١٨).

٢٢١- "وَصَخْرُهُ مِنَ الْخَوْفِ يَزُولُ، وَمِنَ الرَّايَةِ يَرْتَعِبُ رُؤَسَاؤُهُ، يَقُولُ الرَّبُّ الَّذِي لَهُ نَارٌ فِي صِهْيَوْنَ، وَلَهُ تَنُّورٌ فِي أُورُشَلِيمَ. هُوَذَا بِالْعَدْلِ يَمْلِكُ مَلِكٌ، وَرُؤَسَاءُ بِالْحَقِّ يَتَرَأَّسُـونَ" (أش ٣١: ٩ - ٣٢: ١).

٢٢٢- "وَيَخْجَلُ الْقَمَرُ وَتُخْزَى الشَّمْسُ، لأَنَّ رَبَّ الْجُنُودِ قَدْ مَلَكَ فِي جَبَلِ صِهْيَوْنَ وَفِي أُورُشَلِيمَ، وَقُدَّامَ شُيُوخِهِ مَجْدٌ" (أش ٢٤:٢٣).

٢٢٣- " فهم في وقت إفتقادهم يتلألأون ويسحون سعي الشرار بين القصب ويـــدينون الأمم ويتسلطون على الشعوب ويملك ربهم إلى الأبد" (حك ٣:٧ - ٨).

٢٢٤- "اِبْتَهِجِي جِدّاً يَا ابْنَةَ صِهْيَوْنَ، اهْتِفِي يَا بِنْتَ أُورُشَلِيمَ. هُوَذَا مَلِكُكِ يَأْتِي إِلَيْـــكِ. هُوَ عَادِلٌ وَمَنْصُورٌ وَدِيعٌ، وَرَاكِبٌ عَلَى حِمَارٍ وَعَلَى جَحْشٍ ابْنِ أَتَانٍ" (زكر ٩:٩).

٢٢٥- "لأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَيَقْعُدُونَ أَيَّاماً كَثِيرَةً بِلاَ مَلِكٍ، وَبِلاَ رَئِيسٍ، وَبِلاَ ذَبِيحَةٍ، وَبِلاَ تِمْثَالٍ، وَبِلاَ أَفُودٍ وَتَرَافِيمَ. بَعْدَ ذلِكَ يَعُودُ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَيَطْلُبُونَ الرَّبَّ إِلهَهُمْ وَدَاوُدَ مَلِكَهُمْ، وَيَفْزَعُونَ إِلَى الرَّبِّ وَإِلَى جُودِهِ فِي آخِرِ الأَيَّامِ" (هوشع ٣:٤ - ٥).

٢٢٦- "اَلرَّبُّ قَدْ مَلَكَ. تَرْتَعِدُ الشُّعُوبُ. هُوَ جَالِسٌ عَلَى الْكَرُوبِيمِ. تَتَزَلْزَلُ الأَرْضُ" (مز ٩٩:١).

٢٢٧- "لأَنَّكَ أَنْتَ فَخْرُ قُوَّتِهِمْ، وَبِرِضَاكَ يَنْتَصِبُ قَرْنُنَا. لأَنَّ الـــرَّبَّ مِجَنُّنَـــا، وَقُـــدُّوسَ إِسْرَائِيلَ مَلِكُنَا. حِينَئِذٍ كَلَّمْتَ بِرُؤْيَا تَقِيَّكَ وَقُلْتَ: «جَعَلْتُ عَوْناً عَلَى قَوِيٍّ. رَفَعْتُ مُخْتَاراً مِنْ بَيْنِ الشَّعْبِ. وَجَدْتُ دَاوُدَ عَبْدِي. بِدُهْنِ قُدْسِي مَسَحْتُهُ" (مز ٨٩:١٧ - ١٩).

٢٢٨- "اَللَّهُمَّ، أَعْطِ أَحْكَامَكَ لِلْمَلِكِ، وَبِرَّكَ لابْنِ الْمَلِكِ" (مز ٧٢:١).

٢٢٩- "عَجَّتِ الأُمَمُ. تَزَعْزَعَتِ الْمَمَالِكُ. أَعْطَى صَوْتَهُ، ذَابَتِ الأَرْضُ. رَبُّ الْجُنُودِ مَعَنَا. مَلْجَأُنَا إِلهُ يَعْقُوبَ. سِلاَهْ. هَلُمُّوا انْظُرُوا أَعْمَالَ اللهِ، كَيْفَ جَعَلَ خِرَباً فِي الأَرْضِ. مُسَكِّنُ الْحُرُوبِ إِلَى أَقْصَى الأَرْضِ. يَكْسِرُ الْقَوْسَ وَيَقْطَعُ الرُّمْحَ. الْمَرْكَبَاتُ يُحْرِقُهَا بِالنَّارِ" (مـــز ٤٦:٦ - ٩).

٢٣٠- "اِسْمَعِي يَا بِنْتُ وَانْظُرِي، وَأَمِيلِي أُذُنَكِ، وَانْسَيْ شَعْبَكِ وَبَيْتَ أَبِيـــكِ، فَيَشْـــتَهِيَ الْمَلِكُ حُسْنَكِ، لأَنَّهُ هُوَ سَيِّدُكِ فَاسْجُدِي لَهُ. وَبِنْتُ صُورٍ أَغْنَى الشُّعُوبِ تَتَرَضَّى وَجْهَـــكِ بِهَدِيَّةٍ" (مز ٤٥:١٠ - ١٢).

٢٣١- "أَحْبَبْتَ الْبِرَّ وَأَبْغَضْتَ الإِثْمَ، مِنْ أَجْلِ ذلِكَ مَسَحَكَ اللهُ إِلهُكَ بِدُهْنِ الابْتِهَاجِ أَكْثَرَ مِنْ رُفَقَائِكَ" (مز ٤٥:٧).

٢٣٢- "اِرْفَعْنَ أَيَّتُهَا الأَرْتَاجُ رُؤُوسَكُنَّ، وَارْتَفِعْنَ أَيَّتُهَا الأَبْوَابُ الدَّهْرِيَّاتُ، فَيَدْخُلَ مَلِكُ الْمَجْدِ. مَنْ هُوَ هذَا مَلِكُ الْمَجْدِ؟ الرَّبُّ الْقَدِيرُ الْجَبَّارُ، الرَّبُّ الْجَبَّارُ فِي الْقِتَالِ. ارْفَعْنَ أَيَّتُهَا الأَرْتَاجُ رُؤُوسَكُنَّ، وَارْفَعْنَهَا أَيَّتُهَا الأَبْوَابُ الدَّهْرِيَّاتُ، فَيَدْخُلَ مَلِكُ الْمَجْدِ" (مز ٢٤:٧ - ٩).

٢٣٣- "بُرْجُ خَلاَصٍ لِمَلِكِهِ، وَالصَّانِعُ رَحْمَةً لِمَسِيحِهِ، لِدَاوُدَ وَنَسْلِهِ إِلَى الأَبَدِ" (مز ١٨:٥٠ - ٥١).

ابن الله هو الحياة بحسب الطبيعة

٢٣٤- "قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي" (يو ١٤:٦).

٢٣٥- "ثُمَّ كَلَّمَهُمْ يَسُوعُ أَيْضاً قَائِلاً:«أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ. مَنْ يَتْبَعْنِي فَلاَ يَمْشِي فِي الظُّلْمَةِ بَلْ يَكُونُ لَهُ نُورُ الْحَيَاةِ» (يو ٨:١٢).

٢٣٦- "اَلرُّوحُ هُوَ الَّذِي يُحْيِي. أَمَّا الْجَسَدُ فَلاَ يُفِيدُ شَيْئاً. اَلْكَلاَمُ الَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ هُوَ رُوحٌ وَحَيَاةٌ" (يو ٦:٦٣).

٢٣٧- "قَالَ لَهَا يَسُوعُ:«أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ. مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا، وَكُلُّ مَنْ كَانَ حَيّاً وَآمَنَ بِي فَلَنْ يَمُوتَ إِلَى الأَبَدِ. أَتُؤْمِنِينَ بِهذَا؟» (يو ١١:٢٥ - ٢٦).

٢٣٨- "لأَنَّ خُبْزَ اللهِ هُوَ النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ الْوَاهِبُ حَيَاةً لِلْعَالَمِ» (يو ٦:٣٣).

٢٣٩- "أَنَا هُوَ الْخُبْزُ الْحَيُّ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ. إِنْ أَكَلَ أَحَدٌ مِنْ هذَا الْخُبْزِ يَحْيَا إِلَى الأَبَدِ. وَالْخُبْزُ الَّذِي أَنَا أُعْطِي هُوَ جَسَدِي الَّذِي أَبْذِلُهُ مِنْ أَجْلِ حَيَاةِ الْعَالَمِ». فَخَاصَمَ الْيَهُودُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً قَائِلِينَ:«كَيْفَ يَقْدِرُ هذَا أَنْ يُعْطِيَنَا جَسَدَهُ لِنَأْكُلَ؟» (يو ٦:٥١ - ٥٢).

٢٤٠- "أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ" (يو ٦:٤٨).

٢٤١- "لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الآبَ يُقِيمُ الأَمْوَاتَ وَيُحْيِي، كَذلِكَ الابْنُ أَيْضاً يُحْيِي مَنْ يَشَاءُ" (يو ٥:٢١).

٢٤٢- "فِيهِ كَانَتِ الْحَيَاةُ، وَالْحَيَاةُ كَانَتْ نُورَ النَّاسِ" (يو ١:٤).

٢٤٣- "هكَذَا مَكْتُوبٌ أَيْضاً:«صَارَ آدَمُ، الإِنْسَانُ الأَوَّلُ، نَفْساً حَيَّةً، وَآدَمُ الأَخِيرُ رُوحاً مُحْيِياً» (١ كو ١٥:٤٥).

٢٤٤- "لأَنَّ نَامُوسَ رُوحِ الْحَيَاةِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ قَدْ أَعْتَقَنِي مِنْ نَامُوسِ الْخَطِيَّةِ وَالْمَوْتِ" (رو ٨:٢).

٢٤٥- "فَإِذاً كَمَا بِخَطِيَّةٍ وَاحِدَةٍ صَارَ الْحُكْمُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ لِلدَّيْنُونَةِ، هكَذَا بِبِرّ وَاحِدٍ صَارَتِ الْهِبَةُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، لِتَبْرِيرِ الْحَيَاةِ" (رو ٥:١٨).

٢٤٦- "اَلَّذِي كَانَ مِنَ الْبَدْءِ، الَّذِي سَمِعْنَاهُ، الَّذِي رَأَيْنَاهُ بِعُيُونِنَا، الَّذِي شَاهَدْنَاهُ، وَلَمَسَتْهُ أَيْدِينَا، مِنْ جِهَةِ كَلِمَةِ الْحَيَاةِ. فَإِنَّ الْحَيَاةَ أُظْهِرَتْ، وَقَدْ رَأَيْنَا وَنَشْهَدُ وَنُخْبِرُكُمْ بِالْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَ الآبِ وَأُظْهِرَتْ لَنَا" (١ يو ١:١ - ٢).

٢٤٧- "وَنَعْلَمُ أَنَّ ابْنَ اللهِ قَدْ جَاءَ وَأَعْطَانَا بَصِيرَةً لِنَعْرِفَ الْحَقَّ. وَنَحْنُ فِي الْحَقِّ فِي ابْنِهِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ. هذَا هُوَ الإِلهُ الْحَقُّ وَالْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ" (١ يو ٥:٢٠).

٢٤٨- "مَنْ لَهُ الابْنُ فَلَهُ الْحَيَاةُ، وَمَنْ لَيْسَ لَهُ ابْنُ اللهِ فَلَيْسَتْ لَهُ الْحَيَاةُ" (١ يو ٥:١٢).

٢٤٩- "وَلكِنَّ مَلاَكَ الرَّبِّ فِي اللَّيْلِ فَتَحَ أَبْوَابَ السِّجْنِ وَأَخْرَجَهُمْ وَقَالَ: «اذْهَبُوا قِفُوا وَكَلِّمُوا الشَّعْبَ فِي الْهَيْكَلِ بِجَمِيعِ كَلاَمِ هذِهِ الْحَيَاةِ»" (أع ٥:١٩ - ٢٠).

٢٥٠- "هِيَ شَجَرَةُ حَيَاةٍ لِمُمْسِكِيهَا، وَالْمُتَمَسِّكُ بِهَا مَغْبُوطٌ" (أمثال ٣:١٨).

٢٥١- "أَدِمْ رَحْمَتَكَ لِلَّذِينَ يَعْرِفُونَكَ، وَعَدْلَكَ لِلْمُسْتَقِيمِي الْقَلْبِ" (مز ٣٦:١٠).

٢٥٢- " اسمع يا اسرائيل وصايا الحياة اصغوا وتعلموا الفطنة" (باروخ ٣:٩).

الابن هو إرادة (مشورة) الله الآب

٢٥٣- "وَيَحُلُّ عَلَيْهِ رُوحُ الرَّبِّ، رُوحُ الْحِكْمَةِ وَالْفَهْمِ، رُوحُ الْمَشُورَةِ وَالْقُوَّةِ، رُوحُ الْمَعْرِفَةِ وَمَخَافَةِ الرَّبِّ" (أش ١١: ٢).

٢٥٤- "بَدْءُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ الرَّبِّ، وَمَعْرِفَةُ الْقُدُّوسِ فَهْمٌ" (أمثال ٩: ١٠).

٢٥٥- "يَا رَبُّ إِلهَ الْجُنُودِ، مَنْ مِثْلُكَ ؟ قَوِيٌّ، رَبٌّ، وَحَقُّكَ مِنْ حَوْلِكَ ". لأن الرب يُمجَّد بواسطة المسيح"، وفق كلامه "أنا مجدتك على الأرض" (يو ١٧: ٤). (مز ٨٩: ٨).

الروح القدس يأتي بحسب الطبيعة من الله

٢٥٦- "اَللهُ رُوحٌ. وَالَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهُ فَبِالرُّوحِ وَالْحَقِّ يَنْبَغِي أَنْ يَسْجُدُوا» (يو ٤: ٢٤).

٢٥٧- "فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآب وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ" (مت ٢٨: ١٩).

٢٥٨- "فَقَالَ بُطْرُسُ: «يَاحَنَانِيَّا، لِمَاذَا مَلأَ الشَّيْطَانُ قَلْبَكَ لِتَكْذِبَ عَلَى الرُّوحِ الْقُدُسِ وَتَخْتَلِسَ مِنْ ثَمَنِ الْحَقْلِ؟ أَلَيْسَ وَهُوَ بَاق كَانَ يَبْقَى لَكَ؟ وَلَمَّا بِيعَ، أَلَمْ يَكُنْ فِي سُلْطَانِكَ؟ فَمَا بَالُكَ وَضَعْتَ فِي قَلْبِكَ هذَا الأَمْرَ؟ أَنْتَ لَمْ تَكْذِبْ عَلَى النَّاسِ بَلْ عَلَى اللهِ» (أع ٥: ٣ - ٤).

٢٥٩- "فَأَنْوَاعُ مَوَاهِبَ مَوْجُودَةٌ، وَلكِنَّ الرُّوحَ وَاحِدٌ. وَأَنْوَاعُ خِدَمٍ مَوْجُودَةٌ، وَلكِنَّ الرَّبَّ وَاحِدٌ. وَأَنْوَاعُ أَعْمَال مَوْجُودَةٌ، وَلكِنَّ اللهَ وَاحِدٌ، الَّذِي يَعْمَلُ الْكُلَّ فِي الْكُلِّ. وَلكِنَّهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ يُعْطَى إِظْهَارُ الرُّوحِ لِلْمَنْفَعَةِ. فَإِنَّهُ لِوَاحِدٍ يُعْطَى بِالرُّوحِ كَلاَمُ حِكْمَةٍ، وَلآخَرَ كَلاَمُ عِلْمٍ بِحَسَبِ الرُّوحِ الْوَاحِدِ، وَلآخَرَ إِيمَانٌ بِالرُّوحِ الْوَاحِدِ، وَلآخَرَ مَوَاهِبُ شِفَاءٍ بِالرُّوحِ الْوَاحِدِ. وَلآخَرَ عَمَلُ قُوَّاتٍ، وَلآخَرَ نُبُوَّةٌ، وَلآخَرَ تَمْيِيزُ الأَرْوَاحِ، وَلآخَرَ أَنْوَاعُ أَلْسِنَةٍ، وَلآخَرَ تَرْجَمَةُ أَلْسِنَةٍ. وَلكِنَّ هذِهِ كُلَّهَا يَعْمَلُهَا الرُّوحُ الْوَاحِدُ بِعَيْنِهِ، قَاسِماً لِكُلِّ وَاحِدٍ بِمُفْرَدِهِ، كَمَا يَشَاءُ" (١ كو ١٢: ٤ - ١١).

٢٦٠- "فَأَعْلَنَهُ اللهُ لَنَا نَحْنُ بِرُوحِهِ. لأَنَّ الرُّوحَ يَفْحَصُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَعْمَاقَ اللهِ. لأَنْ مَنْ مِنَ النَّاسِ يَعْرِفُ أُمُورَ الإِنْسَانِ إِلاَّ رُوحُ الإِنْسَانِ الَّذِي فِيهِ؟ هكَذَا أَيْضاً أُمُورُ اللهِ لاَ يَعْرِفُهَا أَحَدٌ إِلاَّ رُوحُ اللهِ" (١ كو ٢: ١٠ - ١١).

٢٦١- "لِذلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ خَطِيَّةٍ وَتَجْدِيفٍ يُغْفَرُ لِلنَّاسِ، وَأَمَّا التَّجْدِيفُ عَلَى الرُّوحِ فَلَنْ يُغْفَرَ لِلنَّاسِ" (مت ١٢: ٣١).

٢٦٢- "رُوحُ اللهِ صَنَعَنِي وَنَسَمَةُ الْقَدِيرِ أَحْيَتْنِي" (أيوب ٣٣: ٤).

٢٦٣- "تُرْسِلُ رُوحَكَ فَتُخْلَقُ، وَتُجَدِّدُ وَجْهَ الأَرْضِ" (مز ١٠٤: ٣٠).

٢٦٤- الروح القدس يقول الآتي: "بِكَلِمَةِ الرَّبِّ صُنِعَتِ السَّمَاوَاتُ، وَبِنَسَمَةِ فِيهِ كُلُّ جُنُودِهَا" (مز ٣٣: ٦).

٢٦٥- "وَلَيْسَ كَمَا كَانَ مُوسَى يَضَعُ بُرْقُعاً عَلَى وَجْهِهِ لِكَيْ لاَ يَنْظُرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى نِهَايَةِ الزَّائِلِ. بَلْ أُغْلِظَتْ أَذْهَانُهُمْ، لأَنَّهُ حَتَّى الْيَوْمِ ذلِكَ الْبُرْقُعُ نَفْسُهُ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْعَهْدِ الْعَتِيقِ بَاقٍ غَيْرُ مُنْكَشِفٍ، الَّذِي يُبْطَلُ فِي الْمَسِيحِ. لكِنْ حَتَّى الْيَوْمِ، حِينَ يُقْرَأُ مُوسَى، الْبُرْقُعُ مَوْضُوعٌ عَلَى قَلْبِهِمْ. وَلكِنْ عِنْدَمَا يَرْجعُ إِلَى الرَّبِّ يُرْفَعُ الْبُرْقُعُ. وَأَمَّا الرَّبُّ فَهُوَ الرُّوحُ، وَحَيْثُ رُوحُ الرَّبِّ هُنَاكَ حُرِّيَّةٌ" (٢ كو ٣: ١٣ - ١٧).

٢٦٦- "أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ هَيْكَلُ اللهِ، وَرُوحُ اللهِ يَسْكُنُ فِيكُمْ؟" (١ كو ٣: ١٦).

٢٦٧- "رُوحُ الْحَقِّ الَّذِي لاَ يَسْتَطِيعُ الْعَالَمُ أَنْ يَقْبَلَهُ، لأَنَّهُ لاَ يَرَاهُ وَلاَ يَعْرِفُهُ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَعْرِفُونَهُ لأَنَّهُ مَاكِثٌ مَعَكُمْ وَيَكُونُ فِيكُمْ" (يو ١٤: ١٧).

٢٦٨- "بِهذَا نَعْرِفُ أَنَّنَا نَثْبُتُ فِيهِ وَهُوَ فِينَا: أَنَّهُ قَدْ أَعْطَانَا مِنْ رُوحِهِ" (١ يو ٤: ١٣).

٢٦٩- "لأَنْ لَسْتُمْ أَنْتُمُ الْمُتَكَلِّمِينَ بَلْ رُوحُ أَبِيكُمُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيكُمْ" (مت ١٠: ٢٠).

٢٧٠- "وَنَحْنُ لَمْ نَأْخُذْ رُوحَ الْعَالَمِ، بَلِ الرُّوحَ الَّذِي مِنَ اللهِ، لِنَعْرِفَ الأَشْيَاءَ الْمَوْهُوبَةَ لَنَا مِنَ اللهِ" (١ كو ٢: ١٢).

٢٧١- "وَيَكُونُ بَعْدَ ذلِكَ أَنِّي أَسْكُبُ رُوحِي عَلَى كُلِّ بَشَرٍ، فَيَتَنَبَّأُ بَنُوكُمْ وَبَنَاتُكُمْ، وَيَحْلَمُ شُيُوخُكُمْ أَحْلاَماً، وَيَرَى شَبَابُكُمْ رُؤًى" (يؤ ٢: ٢٨).

٢٧٢- "الَّتِي نَتَكَلَّمُ بِهَا أَيْضاً، لاَ بِأَقْوَال تُعَلِّمُهَا حِكْمَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ، بَلْ بِمَا يُعَلِّمُهُ الرُّوحُ الْقُدُسُ، قَارِنِينَ الرُّوحِيَّاتِ بِالرُّوحِيَّاتِ. وَلكِنَّ الإِنْسَانَ الطَّبِيعِيَّ لاَ يَقْبَلُ مَا لِرُوحِ اللهِ لأَنَّهُ عِنْدَهُ جَهَالَةٌ، وَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَعْرِفَهُ لأَنَّهُ إِنَّمَا يُحْكَمُ فِيهِ رُوحِيّاً. وَأَمَّا الرُّوحِيُّ فَيَحْكُمُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ لاَ يُحْكَمُ فِيهِ مِنْ أَحَدٍ" (١ كو ١٣:٢ - ١٥).

٢٧٣- "وَهكَذَا كَانَ أُنَاسٌ مِنْكُمْ. لكِنِ اغْتَسَلْتُمْ، بَلْ تَقَدَّسْتُمْ، بَلْ تَبَرَّرْتُمْ بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ وَبِرُوحِ إِلهِنَا" (١ كو ١١:٦).

٢٧٤- "وَبَعْدَ مَا اجْتَازُوا فِي فِرِيجِيَّةَ وَكُورَةِ غَلاَطِيَّةَ، مَنَعَهُمُ الرُّوحُ الْقُدُسُ أَنْ يَتَكَلَّمُوا بِالْكَلِمَةِ فِي أَسِيَّا. فَلَمَّا أَتَوْا إِلَى مِيسِيَّا حَاوَلُوا أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى بِثِينِيَّةَ، فَلَمْ يَدَعْهُمُ الرُّوحُ" (أع ٦:١٦ - ٧).

٢٧٥- "وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلَسْتُمْ فِي الْجَسَدِ بَلْ فِي الرُّوحِ، إِنْ كَانَ رُوحُ اللهِ سَاكِناً فِيكُمْ. وَلكِنْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَيْسَ لَهُ رُوحُ الْمَسِيحِ، فَذلِكَ لَيْسَ لَهُ. وَإِنْ كَانَ الْمَسِيحُ فِيكُمْ، فَالْجَسَدُ مَيِّتٌ بِسَبَبِ الْخَطِيَّةِ، وَأَمَّا الرُّوحُ فَحَيَاةٌ بِسَبَبِ الْبِرِّ. وَإِنْ كَانَ رُوحُ الَّذِي أَقَامَ يَسُوعَ مِنَ الأَمْوَاتِ سَاكِناً فِيكُمْ، فَالَّذِي أَقَامَ الْمَسِيحَ مِنَ الأَمْوَاتِ سَيُحْيِي أَجْسَادَكُمُ الْمَائِتَةَ أَيْضاً بِرُوحِهِ السَّاكِنِ فِيكُمْ" (رو ٩:٨ - ١١).

٢٧٦- "أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ هَيْكَلُ اللهِ، وَرُوحُ اللهِ يَسْكُنُ فِيكُمْ؟" (١ كو ١٦:٣).

٢٧٧- "أَمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ جَسَدَكُمْ هُوَ هَيْكَلٌ لِلرُّوحِ الْقُدُسِ الَّذِي فِيكُمْ، الَّذِي لَكُمْ مِنَ اللهِ، وَأَنَّكُمْ لَسْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ؟ لأَنَّكُمْ قَدِ اشْتُرِيتُمْ بِثَمَنٍ. فَمَجِّدُوا اللهَ فِي أَجْسَادِكُمْ وَفِي أَرْوَاحِكُمُ الَّتِي هِيَ للهِ" (١ كو ١٩:٦ - ٢٠).

٢٧٨- "فَقَالَ بُطْرُسُ: «يَا حَنَانِيَّا، لِمَاذَا مَلأَ الشَّيْطَانُ قَلْبَكَ لِتَكْذِبَ عَلَى الرُّوحِ الْقُدُسِ وَتَخْتَلِسَ مِنْ ثَمَنِ الْحَقْلِ؟ أَلَيْسَ وَهُوَ بَاق كَانَ يَبْقَى لَكَ؟ وَلَمَّا بِيعَ، أَلَمْ يَكُنْ فِي سُلْطَانِكَ؟ فَمَا بَالُكَ وَضَعْتَ فِي قَلْبِكَ هذَا الأَمْرَ؟ أَنْتَ لَمْ تَكْذِبْ عَلَى النَّاسِ بَلْ عَلَى اللهِ» (أع ٣:٥ - ٤).

٢٧٩- "وَلكِنْ إِنْ كُنْتُ أَنَا بِرُوحِ اللهِ أُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ، فَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيْكُمْ مَلَكُوتُ اللهِ!" (مت ١٢:٢٨).

٢٨٠- "فَقَالَ الرَّبُّ: «لاَ يَدِينُ رُوحِي فِي الإِنْسَانِ إِلَى الأَبَدِ، لِزَيَغَانِهِ، هُوَ بَشَرٌ. وَتَكُونُ أَيَّامُهُ مِئَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً» (تك ٦:٣).

٢٨١- "وَالرَّجَاءُ لاَ يُخْزِي، لأَنَّ مَحَبَّةَ اللهِ قَدِ انْسَكَبَتْ فِي قُلُوبِنَا بِالرُّوحِ الْقُدُسِ الْمُعْطَى لَنَا" (رو ٥:٥).

٢٨٢- "وَيْلٌ لِلْبَنِينَ الْمُتَمَرِّدِينَ، يَقُولُ الرَّبُّ، حَتَّى أَنَّهُمْ يُجْرُونَ رَأْياً وَلَيْسَ مِنِّي، وَيَسْكُبُونَ سَكِيباً وَلَيْسَ بِرُوحِي، لِيَزِيدُوا خَطِيئَةً عَلَى خَطِيئَةٍ" (أش ٣٠:١).

٢٨٣- "فَالآنَ تَشَدَّدْ يَا زَرُبَّابِلُ، يَقُولُ الرَّبُّ. وَتَشَدَّدْ يَا يَهُوشَعُ بْنُ يَهُوصَادِقَ الْكَاهِنُ الْعَظِيمُ، وَتَشَدَّدُوا يَا جَمِيعَ شَعْبِ الأَرْضِ، يَقُولُ الرَّبُّ. وَاعْمَلُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ، يَقُولُ رَبُّ الْجُنُودِ. حَسَبَ الْكَلاَمِ الَّذِي عَاهَدْتُكُمْ بِهِ عِنْدَ خُرُوجِكُمْ مِنْ مِصْرَ، وَرُوحِي قَائِمٌ فِي وَسَطِكُمْ. لاَ تَخَافُوا" (حجي ٢:٤ - ٥).

٢٨٤- "اَلَّذِينَ وُلِدُوا لَيْسَ مِنْ دَمٍ، وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ جَسَدٍ، وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ رَجُلٍ، بَلْ مِنَ اللهِ" (يو ١:١٣).

فهرس لأهم الكلمات والأفعال

(أ)

(ب)

(ت)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

فهرس لشواهد الآيات الكتابية

فضلنا عمل الفهرس برقم المقالة أولاً ثم رقم الفقرة

أولاً، العهد القديم

سفر التكوين:

سفر الخروج:

سفر أمثال:

سفر الجامعة:

سفر إشعياء:

سفر أعمال الرسل:

الرسالة إلي أهل رومية:

رسالة كورنثوس الأولي:

رسالة كورنثوس الثانية:

الرسالة إلي أهل غلاطية:

الرسالة إلي أهل أفسس:

الرسالة إلي أهل فيلبي:

الرسالة إلي أهل كولوسي:

رسالة تسالونيكي الأولي:

رسالة تسالونيكي الثانية:

رسالة تيموثاوس الأولي:

رسالة تيموثاوس الثانية:

الرسالة إلى تيطس:

الرسالة إلي أهل عبرانين:

رسالة يعقوب:

رسالة بطرس الأولي:

رسالة بطرس الثانية:

رسالة يوحنا الأولي:

رسالة يهوذا:

رؤيا يوحنا:

«Ἐν τοὺτῳ γινὼσχομεν ὂτι ἐν ἡμῖν ἐστιν ὁ Θεός, ἐκ τοῦ Πνεὺματος οὗ ἔδωκεν ἡμῖν» (ΑΙω 4,131). Εἰ τοίνυν ἐνοικισθὲντος ἡμῖν διὰ μετοχῆς τοῦ Πνεὺματος Θεός ἐστιν ὁ ἐνοικῶν, καί ἡμεῖς μὲν ἐν αὐτῷ γινόμεθα, αὐτός δὲ πὰλιν ἐν ἡμῖν, διὰ τό Πνεῦμα φορεῖν, πῶς οὐκ ἔσται τό Πνεῦμα Θεός, ὂλην ἔχων οὐσιωδῶς ἐν ἑαυτῷ τὴν ἰδιότητα τοῦ Πατρός καί Θεοῦ ......? θησαυρῶν,ΕΠΕ7,400.

"بِهذَا نَعْرِفُ أَنَّنَا نَثْبُتُ فِيهِ وَهُوَ فِينَا: أَنَّهُ قَدْ أَعْطَانَا مِنْ رُوحِهِ" (١يو١٣:٤). إذن، فإذا كان الله هو الذي سكن فينا بشركة الروح، ونحن صرنا فيه، وهو فينا؛ لأننا نحمل الروح، فكيف لا يكون الروح هو الله، إذا كان لديه جوهريًا في ذاته كل خصائص الله الآب...؟

ΚΥΡΙΛΛΟΥ ΑΛΕΞΑΝΔΡΕΙΑΣ

ΒΙΒΛΟΣ ΤΩΝ ΘΗΣΑΥΡΩΝ ΠΕΡΙ ΤΗΣ ΑΓΙΣ ΚΑΙ ΟΜΟΟΥΣΙΟΥ ΤΡΙΑΑΟΣ

Κείμενο - Μετὰφραση – Σχόλια Απο Τον
George Awad Ibrahim

Επιμελητής:
Joseph Mores Faltas

يُطلب هذا الكتاب من :
• المركز الأرثوذكسى للدراسات الآبائية ت : ٢٢٤١٤٠٢٣.
• بيت التكريس ت : ٢٦٧٤٥٢١٩، ٢٤٨٣٦٣٨٩.
• ومن المكتبات والكنائس بالقاهرة والأقاليم .

سعر النسخة : ٥٠ جنيه

